موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة النمل
حتى
سورة العنكبوت

info@nabulsi.com www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-12-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النمل.

بيْنَ يدي سورة النمل:

هذه السورة فيها تِبْيَانٌ لأمر التوحيد ولأمر الآخرة، وفيها مجموعة من القِصَص ؛ قصّة سيدنا موسى، وسيدنا داود، وسيدنا سُليمان، وسيدنا لوط، وسيدنا صالح، في هذه السورة خاصّة خصوصيّة هي: أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن لنا أن عَلِيّة القوم، وأولي الأمر معنيون بالهدى، وأنه يمكن أن تُتَخَذَ قوتهم في سبيل هداية الخلق، هذا في الحديث عن سيدنا سليمان.
على كلٍ فيها توحيدٌ، وفيها بشارةٌ، وفيها إنذارٌ، وفيها حديثٌ عن يوم القيامة، وفيها ذكرٌ لقصّة مجموعة من الأنبياء سبق ذكرهم في بدء هذا الحديث، وفي مطلع هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

(سورة النمل)

معاني الحروف المقطعة: طس:

هذه الحروف التي تُفتَتَحُ بها السوَرُ عادةً..

(الم(1))

(سورة البقرة)

(المر)

(سورة الرعد: من الآية 1)

(كهيعص(1))

(سورة مريم)

(طسم(1))

(سورة الشعراء)

(حم(1))

(سورة الأحقاف)

هذه الحروف سبق الحديث عنها في دروسٍ سابقة.

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" الله أعلم بمراده "**، لقول الله عزّ وجل:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" إنّ هذا القرآن المُعْجِز من هذه الحروف "**، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

المادّة الأوليّة لهذا القرآن هذه الحروف، حروف الهجاء نعرفها جميعاً، وهي بين أيدينا جميعاً، وبإمكان كلٍ منّا أن يصوغ منها الكلمات، َفِلأنّ هذا القرآن كلام الله عزّ وجل فهو معجز، ومن تعاريف القرآن الموجزة أنه الكلام المعجز، أي يَعجز البشر عن صياغة مثله، ولو سورة منه، لأن فيه إعجازاً بلاغيّاً، وفيه إعجازٌ لغوي، وإعجازٌ تشريعي، وإعجازٌ علمي، وإعجازٌ تاريخي، وإعجازٌ غَيْبي، فالحديث عن إعجاز القرآن لا ينتهي، لكنّه يُجْمَع بقولنا: **" إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله "**.

إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يبيّنُ لنا أنّ هذا القرآن المعجز الذي هو كلام الله عزّ وجل مؤلف من هذه الحروف، فإن كان بالإمكان أن تأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله فافعلوا، هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

المعنى الثالث لهذه الحروف: أنها أوائل أسماء الله عزّ وجل.

المعنى الرابع:

أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، ويُرَجّحُ هذا التوجُه الأخير أن السُور التي تبدأ بهذه الحروف تأتي في أغلب الأحيان بعدها حروف الخطاب..

(طس تِلْكَ (1))

فكأنّ الله سبحانه وتعالى يُخاطب النبي عليه الصلاة والسلام بأسمائه التي تميّز بها، فمن أسمائه أنه طاهر، طاهر القلب، من أسمائه أنه سليم من كل عيب، فإذا شئنا أن نوجّه هذه الحروف على أنها أوائل

أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، يؤكِّد ذلك أنه قد جاء حرف الخطاب بعدها، هذا وجه، ودائماً وأبداً إنّ القرآن الكريم حمّال أوجه، ودائماً وأبداً القرآن الكريم ليس مِلْكَ أحدٍ، ودائماً وأبداً كما قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **" في القرآن آياتٌ لمّا تُفسّر بَعْدُ "**.

إذاً: إمّا أن نقول: **" الله أعلم بمراده "**، وإما أن نقول: **" إن القرآن الكريم من جنس هذه الحروف "**، فيا معشر الإنس والجن إن استطعتم أن تأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، فها هي الحروف بين أيديكم فافعلوا، إنّ هذا شيءٌ فوق إمكاناتكم، أو أن نفسّر هذه الحروف بأنها **" أوائل أسماء الله الحسنى "**، أو أنها **" أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام والذي يدعِّم ذلك مجيء حرف الخطاب عقب هذه الحروف في أغلب الأحيان "**..

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ

1 – دلالة اسم الإشارة:

كلّكم يعلم أن هذه التاء اسم إشارة، وأن هذه الكاف كاف الخطاب، لكنّ اللام تسمى لام البعد، تقول: ذا، أي تشير إلى شيء، وتقول: ذاك، تشير إلى الشيء وتخاطبه، وتقول: ذلك، تشير إلى الشيء وتخاطبه، وتبيّن أنه بعيد، فلماذا جاءت هذه اللام في اسم الإشارة تلك ؟ لأن هذا القرآن الكريم عالي الشأن، بعيد المَرْمَى، هذا الذي تعنيه هذه الآية في قوله تعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1))

2 – معنى الآية:

آيات القرآن، الآية تعني العلامة، وأيّةُ آيةٍ في القرآن الكريم تدلُّ على عظمة الله عزّ وجل، وهناك فرقٌ كبير بين كلام البشر وكلام خالق البشر، في كلام البشر حشوٌ لا طائل منه، وفي كلام البشر اضطراب، في كلام البشر خَلَل، في كلام البشر خَطَل، في كلام البشر عدم تنسيق، ولكن كلام الله سبحانه وتعالى مُبَرَّأٌ عن كل هذه العيوب..

(لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة السجدة)

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصِّلت: من الآية 42)

فإذاً: أشار الله عزّ وجل إلى عُلوّ شأن القرآن، وإلى بعد مراميه عن طريق اللام، تلك، وأشار ثانيةً إلى أن هذه المقاطع التي تنتهي عندها الكلمات هي آيات، هي علامات، هي دلائل، هي إشارات إلى عظمة الله عزّ وجل في كل سورةٍ، في كل آيةٍ، في كل كلمةٍ، في كل حرفٍ، في كل حركةٍ، ولو أن الإنسان أمضى حياته كلّها في البحث في عظمة هذا القرآن وما تعنيه آياته، وما تَنِمُّ عنه دلالاتُه لأمضى عمره كله، ولم يُحِط به علماً، لأن القرآن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((القرآن غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه))

[ورد في الأثر]

وبعض الآيات الكريمة تؤكِّد هذا..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

3 – تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ

أمّا أن يُذْكَر في هذه الآية القرآن والكتاب في ذلك إشارة هامة لابدّ من شرحها.

تعريف القرآن:

القرآن كما قلت قبل قليل: هو الكلام المعجز، فلا يمكن لبشرٍ أن يأتي بمثله، ولا بسورةٍ منه، هناك تعريفٌ أكثر شمولاً وأكثر دقة، القرآن الكريم كلام الله المنزّل على النبي محمّدٍ صلى الله عليه وسلّم، المَكتوب في المصاحف، فأي شيءٍ آخر ليس في هذه المصاحف فليس قُرآناً، المنقولُ بالتواتر، والتواتر كما تعلمون معناه: إذا نقل كلاماً جمعٌ غفيرٌ ثقاة عدول عن جمع غفيرٍ ثقاة عدول من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا، نقول: هذا كلام متواتر، إذاً: القرآن فيه صفة النقل الشَفَهي، وفيه صفة النقل الكتابي.

معنى قرآن وكتاب:

هو قرآن من فعل قرأ يقرأ قرآناً وقراءةً، وهو كتاب من كَتَبَ بمعنى جَمَعَ يَكْتُبُ كتابة وكتاباً، فالكتاب هو الجَمْع، كيف أن الكتابة تجمع الحروف في كلمات، وتجمع الكلمات في جُمَلْ، والجُمَلْ في عبارات، والعبارات في موضوعات، إذاً القرآن ثابتٌ شفهيّاً وكتابياً، ففي قوله تعالى:

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ (1))

إشارةٌ إلى أنه منقولٌ بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا، نقله جمعٌ غفيرٌ عن جمعٍ غفيرٍ عن جمعٍ غفيرٍ لا يمكن أن يتواطئوا على الكذب، أو يستحيل تواطؤهم على الكذب، أيضاً هو مكتوبٌ في كتابٍ اعتنى به النبي عليه الصلاة والسلام قبل وفاته، وجاء من بعده سيدنا عثمان جامعُ القرآن، فوحّد اللَهَجَات، وبعث به إلى الأمصار، وإلى يومنا هذا القرآن الكريم في حرزٍ مكين تولّى الله سبحانه وتعالى حفظه، إذاً:

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصّلت: من الآية 42)

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ (1))

قرآن يُقْرَأ، وكتابٍ يُكْتَب، تجده في المصاحف، وتسمعه من الحفظة، والله سبحانه وتعالى هو الذي سخّر هؤلاء العلماء الحُفّاظ، سخّرهم لحفظ هذا الكتاب، حفظوه في صدورهم، وحفظوه في السطور، فالقرآن الكريم محفوظٌ في السطور، ومحفوظٌ في الصدور، متواترٌ من جيلٍ إلى جيلٍ، ومنقولٌ من كتابٍ إلى كتاب، هذا يُدْخِلُ في قلب الإنسان الطمأنينة إلى أن هذا القرآن هو نفسه الذي أُنْزِلَ على النبي عليه الصلاة والسلام من دون زيادةٍ ولا نقصان.

4 – وَكِتَابٍ مُبِينٍ

أما كلمة مُبين تعني أنه واضح، هذا القرآن لبني البشر، فمن يدّعي أن القرآن بحرٌ إذا غُصْتَ فيه غرقت، ويقول: وما لنا وما للقرآن دعونا من تفسيره، هذا شيء فوق طاقتنا، فوق مستوانا، هذا كلام إلى حدٍ ما مقبول، أما أن يحملك هذا الكلام على ترك القرآن، وإلى جعله في مَنْأى عن فهمه، فهذا لم يُرِدْهُ القرآن الكريم لقول الله عزّ وجل:

(أفلا يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى تدبُّره، يدعونا إلى فهمه، يدعونا إلى التأمُّل فيه.

(قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمّ تَتَفَكّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنّةٍ)

(سورة سبأ: من الآية 46)

ما الذي يعرّفنا قدر النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هو هذا الكتاب الذي جاء به، فأن نجلس في مجلسٍ عام، ونقرأ هذا القرآن، ونفهم مراميه وأبعاده، ونفهم دقائقه ومبهمه، وتفسير آياته وأحكامه الشرعيّة، وآيات العقائد، وآيات اليوم الآخر، فهذا من صلب مهمّة الإنسان في الحياة.

لذلك القرآن هو نفسهُ الكتاب، الكتاب لأنه مكتوب، والقرآن لأنه متلوّ، والقرآن كما قلت قبل قليل: مصدر قرأ يقرأ قراءةً وقرآناً.

شيءٌ آخر، القرآن مبين، هناك آياتٌ متشابهات، لكن الله سبحانه وتعالى جعل معظم آياته محكمات، ففي القرآن الكريم..

(آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أمّ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران: من الآية 7)

هذه آيةٌ محكمة واضحة..

(وَأَقِمْ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية 45)

لو أنك قرأت القرآن تجد معظم آياته محكمة واضحة، وبعضها يحتاج إلى مُفَسِّر، بعضها يحتاج إلى أن تسأل عنها، وربنا سبحانه وتعالى أمرك بهذا، قال:

(فاسْألُوا أهْلَ الذِكْرِ إنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

فمعظم الآيات محكمة، والمحكم واضح لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تفسير، فهذا الذي يُعْرِضُ عن فهم القرآن بحجّة أنه كلام الخالق، ومن غاص فيه فقد غرق، هذا الكلام إلى حدٍ ما مقبول ؛ أمّا أن يحملك هذا الكلام على هجر القرآن وعلى ترك فهمه فهذا كلامٌ باطل، لأنه كتابٌ مبين، ومعنى مبين أي واضح.

(أفَلا يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإلَى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكّرْ إنّمَا أنْتَ مُذَكّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إلا مَنْ تَوَلّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذّبُهُ اللّهُ الْعَذَابَ الأكْبَرَ (24) إنّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ (25) ثُمّ إنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

هذا الكلام واضح.

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(2))

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِين

1 – لابد للإنسان من نورٍ يمشي به، وهو الهدى:

الإنسان مخلوق يفني عمره وحياته في الدنيا، لكنّ الإنسان رُكِّبَت فيه الشهوات، مُنِحَ نعمة العقل، فيه نوازع، فيه حاجات جسديّة، فيه حاجات نفسيّة، فيه حاجات اجتماعيّة، فيه صراعات، فيه مبادئ، فيه حاجات، فيه مُثُل، فيه شهوات، فيه قِوى ضاغطة، فيه قِوى جاذبة، فيه أشياء كثيرة، فإذا عاش الإنسان من دون نورٍ يَهتدي به، من دون منهج يسيرُ عليه، من دون كتابٍ يهتدي بهديه فقد ضلّ سواء السبيل، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوّره بالقرآن، ومن أسماء القرآن أنه نور تستنير به، من أسماء القرآن أنه فرقان يفرّق بين الحقّ والباطل، من أسماء القرآن أنه الكتاب الذي فيه المنهج، من أسماء القرآن أنه قرآن، وهذا الذي يُتلى،هو قرآن وهو كتابٌ، وهو فرقانٌ، وهو نورٌ، إذاً:

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

الهُدى نهتدي به..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

2 – ما هي البشرى ؟

أما البُشْرَى فإنه يبدو من هذه الآية أن هذه الدنيا دار عمل، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، دار مَشَقّة..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

ولكنّ الآخرة هي دار الجزاء، دار النعيم المُقيم، دار السعادة، دار العطاء، دار الإكرام، دار التشريف، فالقرآن الكريم يهديك في الدنيا إلى سواء السبيل، ويُبَشِّرُكَ بأن بعد هذه الدنيا حياةً أبديّة لا نغص فيها ولا نَصَب..

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

تهتدي به من جهة، وتستبشر من جهةٍ ثانية، يضئ لك الطريق، ويكشف لك عن المستقبل البعيد.

(هُدًى وَبُشْرَى (2))

إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بزوجتك، إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بمن حولك، في البيع والشراء، إنّك تهتدي بأحكامه في علاقتك بربّك، إنك تهتدي بأحكامه في علاقتك بجسدك..

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

3 – هدى وبشرى للمؤمنين خاصةً:

لكن هذه اللام تحملُ إشارةً دقيقة، ليس هذا القرآن هدىً وبشرى لعامّة الناس، لأن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ أخرى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصّلت: من الآية 44)

(وَلا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

إنه:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

فهذا كلام من ؟ كلام الله، فإذا لم يكن الإنسان مؤمناً بالله عزّ وجل فهذا الكلام لا معنى له عنده، وإذا آمنت بالله، وعرفت الله عزّ وجل عندئذٍ تشعر بحاجةٍ ماسّةٍ إلى معرفة كلامه، إلى معرفة مَنْهَجِهِ، إلى معرفة أمره ونهيه، إلى معرفة نظامه، إلى معرفة سُنَنِه، هكذا، لذلك الصحابة الكرام قالوا: **" أوتينا الإيمانَ قبل القرآن "..**

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

حصراً، أما بقية الناس فإنهم يقرؤون القرآن، ولا يفهمون منه شيئاً، يقرؤون القرآن، ويخرجون منه كما يخرج السهم من الرميّة، لا يَعي شيئاً، يقولون:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا)

(سورة محمد: من الآية 16)

فلذلك الإيمان قبل القرآن، لأنّ هذا الكون كلّه دالٌ على الله عزّ وجل، فإذا عرفت أن هذا الإنسان عظيم فعندئذٍ تهتم برسالته، تهتم بأمره، تهتم بنهيه، تهتم ببرنامجه، تهتم بنظامه، تهتم بوعده، تهتم بوعيده، إذاً يجب أن نتعرّف إلى الله عزّ وجل، فإذا عرفناه حرصنا على فهم هذا الكتاب حِرْصاً لا حدود له، إذا عرفنا الله عزّ وجل حرصنا على فهم كلامه حرصاً لا حدود له، إذا عرفنا الله عزّ وجل حرصنا على تنفيذ أمره تنفيذاً دقيقاً، لذلك:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

الإيمان يحتاج إلى جهدٍ:

والإيمان يحتاج إلى جُهد، ألا إنّ سلعة الله غالية، تريد جنّةً عرضها السماوات والأرض، تريد أن تسعد إلى الأبد، تريد أن تكون من عَلِيّة خلق الله عزّ وجل، من الذين اصطفاهم لدخول الجنّة، ولا تريد أن تبذل وقتاً أو جهداً في الدنيا لمعرفة الله عزّ وجل ؟ هذا شيءُ عُجاب، هذا الذي يخوض ويلعب ولا يدري لِمَ يخوض ويلعب هذا إنسانٌ تائهٌ ضال، إذاً من قوله تعالى:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2))

يتّضح أن الإيمان قبل القرآن، لو أن القرآن قبل الإيمان لقال الله عزّ وجل: **" هدىً وبشرى للناس "**، بينما هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وابتعدوا عن ربّهم، وصف الله القرآن بحقِهم بأنه عمى عليهم، بأنه لا يزيدهم إلا ضلالاً، إلا بُعداً، إلا خسارا.

من هم المؤمنون ؟ هؤلاء الذين يُعَدُّ القُرآن لهم هدىً وبُشرى، فأحياناً الإنسان لا يهتم بالطُرُق إلا إذا كان مسافراً، إذا كان مسافراً يقصد بلدةً معيّنة، وفي هذه البلدة يُعَلِّق آمالاً عريضة على بلوغها، عندئذٍ يُصْغِي إلى النشرة الجويّة، يصغي إلى حالة الطُرُق، يقرأ بعنايةٍ بالغة اللافتات من هنا البلد الفلاني، من هنا الفلاني، يديم الإصغاء إلى حالة الطُرُق، والنظر إلى اللافتات، والأسهم والإشارات، وهذا سببه الحرص على بلوغ هذه البلدة، فأنت إذا أردت الله عزّ وجل، أردت أن تصل إليه، من هذه الإرادة الجازمة يأتي اهتمامك لمعرفة كتابه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ماذا يُحِب وماذا يكره، ماذا يأمر وماذا ينهى، ماذا يَعِدُ المؤمنين وماذا يَعِدُ الكافرين، فلا يمكن أن نهتمّ بالقرآن إلا إذا عرفنا الواحد الديّان.

أعيد وأكرّر: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن "**، فلابدّ من وقفةٍ طويلة لمعرفة الله، لابدّ من وقفةٍ طويلة في هذا الكون لمعرفة الخالق، لمعرفة المُربي، لمعرفة المسيّر، عندئذٍ ترى أن قرآنه، وكلامه، وكتابه في أعلى درجة من اهتمامك، وعنايتك، وبحثك عن الحقيقة.

مَا صفاتُ هؤلاء المؤمنين ؟

من هم هؤلاء المؤمنون ؟ الله سبحانه وتعالى وصفهم بأنهم:

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

1 – الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ

قد يسأل سائل: لماذا اختار الله من بين أركان الإسلام الصلاة والزكاة ؟

الحكمةُ مِن الربط بين الصلاة والزكاة:

بالمناسبة لابدّ من التنويه أن الصلاة عبادةٌ بدنيّة، بينما الزكاة عبادةٌ ماليّة، الصلاة عبادةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بالخالق، بينما الزكاة عبادةٌ متعلِّقةٌ بالمَخلوق، فإذا أردت أن تلخِّص الدين كلّه في كلمتين أقول لك: إن الدين اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، وهكذا قال سيدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام:

(وَأَوْصَانِي بِالصّلَاةِ وَالزّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(31))

(سورة مريم)

كأن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الصلاة ركناً في بابها، وجعل الزكاة ركناً في بابها، فالصلاة أساس العبادات، أنت تصوم من أجل أن تُصلي، وتحجُّ بيت الله الحرام من أجل أن تتصل بالله عزّ وجل، وأنت تدفع زكاة مالك من أجل أن تُصَلِّي، إنها الفرضُ الوحيد الذي يتكرّر، والذي لا يسقط بحال، الصيام يَسْقُطُ عن المريض وعن المسافر، والحج يسقط عن الفقير وعن غير المستطيع، والزكاة تسقط عن الفقير، أما الفرض الوحيد المتكرّر الذي لا يسقط بحال فهو الصلاة، إنها عماد الدين، مَن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، إنها سيّدة القُرُبات، وغُرّة الطاعات، إنها معراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسماوات، إنها مناجاةُ الحق، إنها اتصالٌ بالله عزّ وجل، إنها ذكرٌ لله..

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

لذلك اختار ربنا عزّ وجل من بين أركان الإسلام كُلِّها الصلاة، هي في بابها ركن، فالصيام للصلاة، والحج للصلاة، والصلاة للصلاة، العبادات التي في جوهرها اتصالٌ بالله في رأسها الصلاة، ربنا عزّ وجل اختارها واكتفى بها، قال:

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ (3))

كل الأعمالِ التي في جوهرها إحسانٌ إلى المخلوق هي زكاة، إعطاء مالك للناس من أجل أن ترحمهم، ومن أجل أن تخفّف من مآسيهم، ومن أجل أن يرضى عنك ربُّهم، هذه الزكاة، فربنا عزّ وجل وصف المؤمنين وصفاً بليغاً موجزاً، جامعاً مانعاً قال:

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ (3))

وما بال بَعْض الناس لا يزكي ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

2 – وَهُم بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

لأنه حينما يجعل الإنسان اهتمامه كله في الدنيا، ويُسقِط الآخرة من حسابه، فأغلب الظن إنه لن يصلي، ولن يزكي، لأن الدنيا مبلغ علمه وغاية قصده، أما حينما تنتقل اهتماماته إلى الدار الآخرة، حينما يدخل الآخرة في حسابه اليَومي، فهؤلاء الذين يُدْخِلون اليوم الآخر، والوقوف بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة في حسابهم اليومي ؛ في بيعهم، في شرائهم، في نظراتهم، في غضّ بصرهم، في عطائهم، في منعهم، في غضبهم، في رضاهم، في صلتهم، في بعدهم فهؤلاء يبادرون بالصلاة والزكاة، والإنسان له حركات وسكنات كثيرة جداً، له نشاط كبير، وإذا أدخلت اليوم الآخر في حسابك اليومي تُبادر إلى الصلاة وإلى الزكاة.

فلذلك الإيمان باليوم الآخر يأتي في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله، فمن كان إيمانه بالله ضعيفاً فبالتالي يمكن أن يكون إيمانه باليوم الآخر أضعف، ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، لأن اليوم الآخر هو الذي يعطي الدنيا فلسفة خاصّة، الدنيا فيها قويٌ وفيها ضعيف، فيها غنيٌ وفيها فقير، فيها ذو حَظٍ عظيم وفيها ذو حظٍ ضَئيل، فيها إنسان يملك وإنسان لا يملك، إنسان صحيح وإنسان مريض، هذه الحظوظ موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء، أما إذا اكتفيت بالدُنيا تحسُ أن في هذا العطاء إجحافاً، لِمَ أعطى فلاناً ولِمْ يعط فلاناً ؟ أما إذا آمنت باليوم الآخر تشعر أن فهمك للدنيا يصبح فهماً صحيحاً.

فلذلك من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر يصبح إيمانك هذا رادعاً لك عن أي عمل لا يرضي الله عزّ وجل، ما الذي يمنع القوي من أن يستخدم قوّته لأخذ مال الناس ؟ إيمانه باليوم الآخر، ما الذي يمنعك أن تنظر إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك نظرة شهوةٍ ؟ إيمانك باليوم الآخر، فلهذا وصف ربنا عزّ وجل المؤمنين بأنهم:

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

وخصهم وحدهم بأنهم الذين يوقنون باليوم الآخر، وإليك الإيضاح، قال:

(وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

الفائدة من تكرار لفظ (هُمْ): وَهُم بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

لماذا جاءت هم مكرّرة ؟..

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

بعضهم قال: هذه للقصْر.. أي أن..

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (3))

وحدهم يؤمنون بالآخرة، الآن في معنى دقيق جداً: أن إيمانك باليوم الآخر لا عبرة به، ولا قيمة له إن لم يكن هناك في عملك اليومي ما يؤكِّده، فإيمانك عندئذٍ كلامٌ بكلام، ما من مسلمٍ على وجه الأرض يُنْكِرُ بلسانه اليوم الآخر، ولكنّ الذي لا يعمل لهذا اليوم، ولا يتقي الله، ولا يخشى الوقوف بين يديه هو بشكل عملي، وبشكلٍ واقعي ليس مؤمناً بهذا اليوم، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

أي هم وحدهم يؤمنون باليوم الآخر، لأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ومن دلائل إيمانك باليوم الآخر إقامتُكَ للصلاة وإيتاؤك للزكاة، إذا آمنت بالله واليوم الآخر فلابدّ مِن أن تصلي، ولابدّ مِن أن تزكي، إذا ادّعيت أنك مؤمنٌ بالله واليوم الآخر، ولم تصلِّ، ولم تزكِّ فإيمانك باطل، هذا كلّه من كلمة (هم) الثانية..

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ (3))

شيءٌ آخر، (هم) الثانية قال عنها بعض العلماء: هي لوصفِ شأنهم، فأحياناً الإنسان يفعل شيئاً لا يُعَبِّر عن شأنه، وأحياناً يفعل شيئاً يعبّر عن شأنه، فلو أن إنساناً أخذ شيئاً، ليس له، خطأً، هل نقول عنه: إنه سارق ؟ لا، ليس من شأنه أنه يسرق، أما إذا كان الإنسان له سوابق، وأخذ هذه الحاجة التي ليست له فهذا من شأنه، فربنا عزّ وجل بتكراره كلمة (هم) أشار إلى أن هؤلاء من شأنهم أنهم يوقنون باليوم الآخر.

فلذلك أيها الإخوة، دعونا من بعض التفصيلات، ولكن أقول: إنك في عملك اليومي إذا لم تدخل هذه الوقفة التي ستقفها بين يدي الله عزّ وجل، إن لم تُدْخِلْهَا في حسابك فلست مؤمناً، وانظر إلى هذا الذي يأخذ ما ليس له، يعطي أقلّ مما يجب أن يُعطي، هذا الذي يسهو، ينسى، يغفل، هذا الذي يتجاوز، يطغى، يبغي، يأخذ، يعتدي، فهذا ليس مؤمناً باليوم الآخر بشكلٍ قطعي، لأنه لو آمن بهذا اليوم العصيب، وبهذا الحساب العسير فلا يمكن أن يفعل هذا الذي يفعله، فلذلك سيدنا عليٌّ رضي الله عنه قال في بعض الحديث عن هؤلاء: **<< لا تجد في أعمالهم ما يُنْبِئُ أنهم مؤمنون باليوم الآخر >>.**

إذاً:

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3))

سؤالٌ مصيريٌ خطير: هل أنا مؤمنٌ باليوم الآخر ؟

شيءٌ مَصيري، شيءٌ خطير وضروري أن تسأل نفسك هذا السؤال: هل أنا مؤمنٌ باليوم الآخر ؟ لنضرب مثلاً التساهل في طاعة الله ؛ فإذا كان في بيت أحدنا معاصٍ، أو مخالفات، أو تقصيرات، إذا كان في تعامله اليومي تجاوزات، وكذلك لديه شيء من الحرام في دخله، وشيء من الحرام في إنفاقه، وشيء من الحرام في علاقاته مع الناس، في سهراته، في مجالسه، في نزواته، في نشاطه، في كلامه، كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان مؤمناً باليوم الآخر ؟ لا يُبالي، لو أنه كان يبالي بهذا اليوم لسارع إلى الطاعة، إلى طاعة الله عزّ وجل، فهذا الذي يوهمك أنك لمجرّد أن تقول: أنا آمنت باليوم الآخر فتظن أنك مؤمن ؛ هذا يوقعك في الوهم، لن تكون مؤمناً باليوم الآخر إلا إذا كنت مستقيماً، لن تُفْرَزَ في صفِّ المؤمنين باليوم الآخر إلا إذا كان الإيمان باليوم الآخر واضحاً في عملك..

((الإِيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكَ، لا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

فهذا الذي يأخذ ما ليس له، هذا الذي يعتدي على حقوق الورثة، ويأخذ النصيب الأكبر، احتيالاً أو اغتصاباً، ويصلي ! كيف يكون هذا الإنسان مؤمناً باليوم الآخر ؟ هذا الذي يقع في المعاصي، ويعلم أنها معاصٍ، كيف يكون مؤمناً باليوم الآخر ؟ مستحيل، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا جاءه أعرابي قال: **هل عرفت الرب ؟**، قال: **"نعم"**، قال: **" فماذا صنعت في حقِّه ؟ "** ثم قال له: "هل عرفت الموت ؟ " قال: **"نعم "** قال: **" فماذا أعددت له ؟ ".**

لابدّ أن يكون الإنسان واضحاً مع نفسه، لا أن يعيش بالوهم، ولا أن يعيش في أحلام ممتعة، لكنّها موهومة.

بين الحقيقة المرة والوهم المريح:

عندنا شيئان، عندنا وهم مريح، وعندنا حقيقة مُرّة، أنا أنصح كل أخ كريم أن يبحث عن الحقيقة المُرّة لا عن الوهم المريح، الوهم المريح يبعثه على أن يقول: نحن إسلام الحمد لله، نحن لنا الجنّة، نبينا سيشفع لنا، هذا وهم مريح، يريحك من التعب، والنَصَب، والانضباط، والبذل، والعطاء، والخوف، أما أن تقف عند حدود كتاب الله، أن تعرف ماذا يعني الإيمان باليوم الآخر ؟ إنه يعني الطاعة لله عزّ وجل، فإذا كان في الطاعة خللٌ، وكان في الطاعة تقصيرٌ، فهذا يدلُ على ضعف إيمانك باليوم الآخر.

إذاً:

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ(4))

إنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

أي أنهم أسقطوا الآخرة من حسابهم، أغفلوا أن تكون أحدَ أهدافهم، يريدون الدنيا فقط، وهذا حال معظم الناس ؛ يريد بيتاً، وزوجةً، ودخلاً، ومركبةً، ومكانةً، ورفْعَةً، يريد أن يفعل كذا وكذا، وأن ينتقل من مكان إلى مكان، وأن يأكل ما لذّ وطاب، الرغبات الدنيوية كلُ همِّه، زخارف الدنيا تُصبْح كل علمه، لذلك:

(إنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيّنّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ (4))

زَيّنّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ

همُّه التزيينات، همُّه أن يَغْرَقَ في النعيم، أن يغرق في المباهج، في المسرّات، همُّه أن يكون في أعلى درجة من المظهر الفخم، في بيته وفي حياته اليوميّة، وفي أثاث بيته، وفي مركبته، همُّه هذا المظهر..

(إنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيّنّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ (4))

التزيين بين كسب الإنسان وتقدير الله:

الحقيقة أنك إذا عزوت الشيء إلى الله عزّ وجل فهذا من باب أن الفاعل هو الله، وإذا عزوته للإنسان، أو إلى الشيطان فهذا يعني أن الإنسان مخيّر، وأنّ هذا من كَسْبِهِ.

مثلاً: لا تقع في حيرة إذا قال الله عزّ وجل:

(وَزَيّنَ لَهُمُ الشّيْطَانُ أعْمَالَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من الآية 38)

وإذا قال الله عزّ وجل:

(زَيّنّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ (4))

إذا عُزيَ التزيين إلى الله عزّ وجل فهو من باب أن الله هو الفاعل، وإذا عزي التزيين إلى الشيطان فمن باب أن هذا العمل هو كَسْبٌ للشيطان، فإذا قال مدير المدرسة للطالب: لقد رسبت، معنى ذلك أن هذا من تقصيره، إن تقصيره وعدم اهتمامه وتهاونه أدى به إلى الرسوب، وإذا قال المدير لهذا الطالب: لقد رسّبْتُك، بمعنى أن الذي اتخذ القرار هو المدير، فإذا عَزَوْتَ قرار الرسوب إلى المدير فمن باب التنفيذ، وإذا عزوته إلى الطالب فمن باب المسؤوليّة، فالإنسان لمجرّد أن يسقط الآخرة من حسابه اليومي، لمجرّد أن يجعلها خارج اهتمامه، وراء ظهره، لمجرّد أن تتربّع الدنيا على عرش قلبه، لمجرّد أن تصبح الدنيا أكبر همّ الإنسان ومبلغ علمه، لمجرّد أن تكون كل خواطره دنيويّة، عندئذٍ..

(زَيّنّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

يظنُّ أن هذا العمل الذي يبتغي به الدنيا عظيم والحقيقة هو عند الموت لا قيمة له أبداً، وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا، فدائماً ليكن عندك مقياس دقيق: ما قيمة هذا العمل بعد الموت ؟ لو أنك فعلت كذا وكذا، زرت كذا وكذا، التقيت مع زيداً وعمرو، هذا العمل ضَعْهُ على مِحَكِّ القبر، فماذا ينفعك بعد الموت ؟ لا شيء، إذاً: لا قيمة له عند الله..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

(إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ زَيّنّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4))

فَهُمْ يَعْمَهُونَ

معنى العمه:

معنى يَعْمَه: أي هو في حيرة، يحتار، المنافق كالشاة الحائرة بين الغنمين، مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذا المنافق لا هو مؤمن فيقطف ثمار الإيمان ؛ ولا هو كافر فيُقْصَى من دائرة الإيمان، هو مذبذب..

((مثل المنافق كالناقة ربطها أهلها، لا تدري لا لمَ عُقِلت ؟ ولا لمَ أُطْلِقت؟))

[ورد في الأثر]

هذه الحيرة، هذا التيه، يقول لك: نحن في ضياع، نحن تائهون، لا نعرف ما المصير، لا نعرف إلى أين نحن سائرون، هذا كله كلام أهل النِفاق، لأنه حينما ترك الآخرة، وأعرض عنها، وأخرجها من حسابه، وجعل الدنيا مبلغ علمه ومنتهى أمله، الله عزّ وجل جعل عمله في نظره هو العمل الصحيح. أحياناً تجد إنساناً يتلف كسوة بيت بمئات الألوف لكي يغيّر لون الرخام، أو لون البلاط، يقول لك: لم يعجبني، فهل أنت مخلِّد في الدنيا ؟ ما إن ينتهي من كسوة هذا البيت حتى يأتيه مَلَك الموت، إلى أين هو يمشي ؟ لسان حاله ومقاله:

(يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرّطتُ فِي جَنبِ اللّهِ)

(سورة الزخرف: من الآية 56)

(زَيّنّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ (4))

طبعاً الشيء المباح مباح، لكن حينما يَدَعُ الإنسان طريق الإيمان، حينما يَدَعُ الواحد الديّان، حينما يطلق لشهوته العِنان، حينما يجعل الدنيا كُلّ شيء، حينما يجعل المال كل شيء، يجعله دينه ومعبوده عندئذٍ يضلُ سواء السبيل..

(فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5))

أوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُون

أي أنه خسر الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم سوء العذاب، وفي الآخرة ليسوا خاسرين، بل هم الأخسرون، أي أنهم أشد الناس خُسْراناً، هذا الذي خسر نفسه يوم القيامة، خسر الجنّة، خسر كل شيء، من هنا يقول الله عزّ وجل:

" ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُ إليكَ من كل شيء ".

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

في مطلع هذه السورة حديثٌ عن يوم القيامة، حديثٌ عن الإيمان باليوم الآخر..

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6))

هل عرفت خالق الكون ؟ هل عرفت ربّ العالمين ؟ هل عرفت الإله العظيم ؟ هل عرفت صاحب الأسماء الحسنى ؟ وأنّ هذا القرآن من عنده..

(مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6))

1 – مَن هو الحكيمُ ؟

مَن هو الحكيم ؟ قال بعض العلماء: الذي يُحْكِمُ خَلْقَ الأشياء، أي أن خلق الله عزّ وجل مُحْكَم..

(ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(4))

(سورة الملك)

الله عزّ وجل لم يجعل في هذا الكون خللاً ولا خطأً، ولا شيئاً غير مُحْكَم، فالحكيم هو الذي إذا صنع شيئاً أحكمه، والحكيم هو الذي يتقن التدبير، إذا رسم خطّةً تأتي هذه الخطّة مُحْكَمَةً، والحكيم هو الذي أحسن التقدير، إذا قدّر الأشياء جاءت تقديراته صائبةً مئة بالمئة، إحكامٌ في الخلق، وإتقانٌ في التدبير، وحُسْنٌ في التقدير، هذا من معاني الحكيم، هذا القرآن إذاً من لدن حكيمٍ عليم.

1 – مَن هو العليمُ ؟

شيءٌ آخر، عليمٌ بالبواطن، عليمٌ بالأسرار، عليمٌ بكل شيء، أنزلَ هذا القرآن بالحجم، والطريقة، والأسلوب، والنَظْمِ الحكيم، من معاني الحكيم المُقَدّس عن فعل ما لا ينبغي، إذا قلت: الله حكيم أي تقدّست ذاته عن فعل ما لا ينبغي، فكلّما عرفت الله عرفت حكمته، نزّهته عن كل شيءٍ لا يليق بذاته، حكيم، هل يليق بالله عزّ وجل أن يتخذ ولداً ؟ هل يليق بالله عزّ وجل أن يجعل الملائكة إناثاً، ويجعلهم بناته كما يزعمون ؟ هذا لا يليق بذاته التي أخص خصائصها الوحدانيّة، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من الآية 269)

إذاً: أراد الله عزّ وجل أن يُعَرّفنا أن هذا القرآن الكريم من عند خالق الكون، من عند الحكيم العليم، فالحكيم الذي أحْكَمَ خلق الأشياء، وأتقن التدبير، وأحسن التقدير، والحكيم المُقَدّس عن فعل ما لا ينبغي، والحكيم من كان مُصيباً في التقدير مُحسناً في التدبير، والحكيم من ليست له أغراض، وليس على عمله اعتراض، على كلٍ، كلُّ ما في الكون، وكلُّ شيء يعبّر عن حكمته جلّ وعلا، فإذا أردت أن تعرف الحكيم فدونك الكون ففيه تجسيدٌ لهذا الاسم العظيم، بل إن الحكمة من الأدلّة القطعيّة على وجود الله عزّ وجل، لولا الخالق لما كان في الكون حكمة، الحكمة: أيُّ شيءٌ يَرْجح بدليل، فالمرجّح هو الله سبحانه وتعالى، لا رجحان بلا مرجّح، فالحكمة أحد الأدلّة على وجود الله عزّ وجل.

3 – استنباط من اسم الحكيم: من عرف الله فهو حكيم:

قال بعضهم: من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف الله عزّ وجل لا يسمّى حكيماً، لا يسمّى حكيماً إلا من عرف الله لأنه أصل الوجود، أصل الخير، أصل كل نعمة، فإذا عرفت النعمة، ولم تعرف المُنعم فلست حكيماً، إذا عرفت الخَلْق ولم تعرف الخالِق فلست حكيماً، إذا عرفت النظام، ولم تعرف المنظِّم فلست حكيماً، إذا عرفت الكون ولم تعرف المكوّن فلست حكيماً، لذلك من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف الله عزّ وجل لا يسمّى حكيماً، ومن عرف الله سُمّي حكيماً ولو كان ضعيف الفطنة، ولو كان مستوى ذكائه أقل مما يجب، إذا عرف الله وعرف الطريق إليه فقد عرف كل شيء، واهتدى إلى كل شيء، هذا الذي يقول: يا رب ؛ ماذا فقد مَن وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ هذا الذي عرفك ما فاته شيء، وهذا الذي لم يعرفك ما أخذ شيئاً.

مِن دلائل معرفة الله:

الآن من دلائل معرفة الله عزّ وجل:

أن تخافه.. " **رأس الحكمة مخافة الله** ".. من دلائل معرفة الله عزّ وجل:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

مِن دلائل معرفة الله عزّ وجل إيمانُك أنّ ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تكون ورعاً، إذا كنت ورعاً فأنت أعبد الناس، وإذا كنت قَنِعَاً فأنت أغنى الناس.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل ترك ما لا يعنيك..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

ِ من دلائل معرفة الله عزّ وجل أنك تتعظ بغيرك ولا تتعظ بنفسك، وهذا أيضاً من دلائل معرفة الله عزّ وجل.

من دلائل معرفة الله أن تكون أكثر صمتاً، لأن الصمت دليل العقل ودليل التَبَصُّر والتأني.

ومن دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تكون قانعاً بما أعطاك لأنك عرفته واستغنيت به عمن سواه.

من دلائل معرفة الله عزّ وجل أن تصبر لأن الصبر نصف الإيمان، واليقين هو الإيمان كلّه.

لذلك موضوع الحكمة ؛ إحكامٌ في الخلق، حسنٌ في التقدير، إتقانٌ في التدبير، تنزيهٌ عن فِعل ما لا ينبغي، هذا بعض ما يعنيه اسم الحكيم.

كلُّ شيءٍ في الكون بحكمةٍ ولحكمةٍ:

أما الكون كله فكل شيء فيه بحكمة ولحكمة ؛ بُعد الشمس عن الأرض بحكمة، شدّة الحرارة بحكمة، حجم الكرة الأرضيّة بحكمة، دورتها حول نفسها بحكمة، محورها المائل بحكمة، علاقتها بالشمس بحكمة، علاقة القمر معها بحكمة، أي شيءٍ خلقه الله عزّ وجل متعلّقٌ بالحكمة المطلقة، فتكاد الحكمة تكون دليلاً أولياً أوله الأولوية على الله عزّ وجل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نبدأ بقصّة سيدنا موسى..

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (02-18): تفسير الآيات 6 - 14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-12-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى عليه السلام:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة النَمل، قلت لكم في الدرس الماضي: إن في هذه السورة تبشيراً وإنذاراً، ووعداً ووعيداً، وحديثاً عن توحيد الألوهية، وحديثاً عن اليوم الآخر، وفي هذه السورة أيضاً خمس قصص، قصة لسيدنا موسى، وأخرى لسيدنا داود، ولِسَيدنا سليمان، ولسيدنا لوط، ولسيدنا صالح، وها نحن أولاءِ نبدأ القصة الأولى، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

(سورة النمل)

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ

1 – أدبُ القرآن في الكناية عن النساء:

لأهل في القرآن الكريم تَعْنى الزوجة، وهذا من أدب القرآن الكريم، فالمؤمن إذا أراد أن يتحدث عن زوجته، الأوْلى أن يتأدب بأدب القرآن الكريم فيقول: أهله.

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

وبالمناسبة ليس في القرآن الكريم كلِّه اسم امرأةٍ إلا امرأةً واحدة، إنها السيدة مريم بنت عمران، وقد ذُكر اسمها لأن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ادّعت النصارى أنه ابن الله، فقال الله عزّ وجل في الحديث عنه:

((المسيح بن مريم))

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ (7))

2 – قصة خروج موسى إلى مدين:

كلكم يعلم أن هذا النبي الكريم ـ سيدنا موسى ـ خرج من مصر بعد قصته مع القبطي، وتوجَّهَ إلى مدين بلد سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكيف تَمَّ التعارف بين سيدنا موسى وسيدنا شُعيب، وكيف أن سيدنا شعيبًا زوّجَ سيدنا موسى من ابنته، وكيف أقام معه سنوات عديدة، قالوا: ثماني سنوات، وقالوا: عَشْرًا، وكيف عاد سيدنا موسى بأهله إلى مصر.

3 – رجوعُ موسى إلى مصر وضلاله الطريق:

وبينما هو في طريق العودة، فإنّ سياقَ الآيات يؤكِّدُ أنه ضَلّ الطريق، وسياق الآيات يؤكدُ أنه أصابه وأهله بردٌ شديد، إذاً هناك شيئان في هذه القصة، سيدنا موسى مع أهله، أي مع زوجته، في الطريق من بلاد مدين إلى مصر، وقد ضَلا الطريق وأصابهما بردٌ شديد، فالله سبحانه وتعالى يحدِّثنا ماذا جرى في رحلة العودة:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا (7))

رحمةُ الله بموسى: إِنِّي آَنَسْتُ نَاراً

1 – النكتة من تنكير كلمة (نارًا):

يبدو أن تنكير كلمة (ناراً) وراءَه نكتة بلاغية أو نحوها، لماذا جاءت كلمةُ (النار) نَكِرَةً ؟ يبدو أنه رأى وحده هذه الرؤية، وهذه ليست ناراً، لو أنها نارٌ حقيقية لأشار إليها بيده، هذه النار، أو هذه نار، لو أن الذي رأى النار هو وزوجته لأشار إليها، ولكن هذه رؤيةٌ خاصة.

2 – معنى: آَنَسْتُ

ومعنى آنست: أي أحسست، ولا يقال: آنست إلا للشيء الذي تَميلُ النفس إليه، تقول: أنا آنست منه رُشداً، آنست منه عفةً، آنست منه أمانةً، أي شعرت بأمانته، شعرت بعفته، شعرت برشده.

فهذا النبي الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم وهو مع أهله، وقد استنبط بعض الفقهاء أنه لا يحقُّ للرجل أن يسافر بأهله إلا إذا أدى المهر بالكمال والتمام، فمتى استطاع موسى أن يغادر بلاد مدين إلى بلاد مصر ؟ بعد أن رعى لسيدنا شعيب غنمه السنوات المحددة، أو المدة المُتَّفَق عليها، والتي

عُدّت مهراً، وقد يسأل سائل: كيف أخذ سيدنا شعيب مهر ابنته ؟ أجاب النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال فقال لأحد أصحابه:

((أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ))

[عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

على كلٍ ؛ رحل سيدنا موسى مع زوجته بنت سيدنا شعيب، وعبّر عنها في هذه القصة بأهله، وهذا تعليمٌ لنا، هناك رجال طيبون، ولكن لم ينتبهوا لهذه الناحية، في أحاديثهم الطويلة عن زوجاتهم، ففي الجلسة الواحدة عشرات بل مئات المرات تجده يقول: قلت لفلانة، وقالت لي فلانة، يعني زوجته، فلانة قالت لي، وفلانة قلت لها، فهذا التصريح باسم الزوجة ليس من أدب المؤمن، لأن الاسم أحياناً يوحي بشيء، قد تكون هذه المرأة ليست فاتنة، لكن اسمها دلالته فاتنة، فالاسم أحياناً يعطي ظلالاً قد تثير خيال السامع، الأكمل أن تُعْرِضَ عن ذكر النساء بأسمائهن، هذا من قبيل تأدُّب الإنسان بأدب القرآن الكريم، الأوْلى أن تقول: بنتي أو زوجتي، أو أهلي، أو أهل بيتي، هذا كله من قبيل التأدُّب.

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ (7))

3 – سَآَتِيكُمْ مِنْهَا

لِمَ لم يقل: سآتيكِ ؟ هذه وقفة، لِمَ قال: سآتيكم بضمير الجمع مع أن امرأته واحدة ؟ استنبط بعض علماء التفسير من عدول القرآن عن مخاطبة أهله بالمفرد، وإلى مخاطبة سيدنا موسى أهلهُ بضمير الجمع، إلى أن الإنسان يأنسُ بأهله كما لو كانوا جماعة، فالله عزّ وجل قال:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من الآية 21)

فالسُكنى إلى الزوجة أُنسٌ بها، فإنك تستأنس بزوجتك كما لو جلست في جماعةٍ تستأنس بهم، هذا ما يشير إليه قوله تعالى:

(سَآَتِيكُمْ (7))

ليس من باب التعظيم، ولكن من باب الإشارة إلى أن الإنسان من جبلّته أنه يأنس بأهله كما لو كانت جماعة تؤنسه.

(سَآَتِيكُمْ مِنْهَا (7))

منها من النار التي رأيتها..

(بِخَبَرٍ أَوْ آَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7))

سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

وهو في الطريق ومعه أهله رأى ناراً، رأى وحده النار، ولم يقل: رأيت، بل قال: آنست ناراً، وفي التعبير بـ (آنست) شعور، يعني أنا أشعر أن هناك ناراً، وهو شعور ترتاح إليه النفس، لابدّ من أن يكون حول النار أناساً يخبرونه عن الطريق، فهو قد ضَلّ الطريق، أو أن يأتي من هذه النار بشعلة تصطلي بها زوجته أي تستدفئ بها..

(سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7))

1 – معنى: تصطلُونَ

اصطلى بالنار أي تَدَفّأ بها، وأحد الحكماء قال: الناس كالنار، تَدَفّأ بهم، ولا تقترب منهم، إنك إن اقتربت منهم أحرقوك، وإن تدفأت بهم نفعوك، أي اقترب منهم اقتراباً معتدلاً.

(بِشِهَابٍ (7))

2 – معنى: شِهَابٍ

الشهاب، النور الممتد يسمى شهاب في اللغة..

(فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(18))

(سورة الحجر)

النور الذي يمتد كالخيط يسمّى في اللغة شهاباً، لكن الشهاب من معانيها الأخرى الشُعْلَة، والقبس أن تأخذ من هذه النار المضطرمة جزءاً توقد بها نارك، لذلك: الشعلة هي الشهاب، والقَبَس ما تأخذه من النار، أي جذوة مشتعلة، هذه اسمها قبس، ولذلك نقول: قَبَسٌ من نور الله، كأن القرآن الكريم نور، وأنت قرأت سورةً أي قرأت قَبَساً من نور الله.

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(8))

قصة المناجاة:

1 – فَلَمَّا جَاءهَا

أي جاء النار التي رآها، والقصة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى كَلّمَ سيدنا موسى تكليماً، والآية التي تقول:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى: من الآية 51)

2 – نُودِيَ

فأنْ يكلم الله موسى فهو من الوحي، أو أن يرسل له ملكاً فهو من الوحي، والتكليمٌ المباشر من الوحي، والوحي كذلك تكليمٌ من وراء حجاب، فطرق الوحي متعددة، وفي أدق تعاريف الوحي إلقاء علمٍ بطريقةٍ خَفِيَّة.

الوحيُ إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

الحقيقة أنّ النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي وهو في غار حراء، وموضوع الوحي كما قلت قبل يومين، أو البارحة خطيرٌ جداً، لأن الدين كله، والقرآن كله، والأحكام الشرعية كلّها، وهذا النظام الأمثل كله أساسه الوحي، فمن استطاع أن يلقي في نفسك شُبُهَةً في موضوع الوحي فقد هدم الدين من أساسه، لذلك فالنبي عليه لصلاة والسلام حينما روى كيف جاءه الوحي:

((فَأَخَذَنِي، فغطّنِي الثّانِيَة، حَتّى بَلَغَ مِنّي الْجَهْدَ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فقالَ: اقرَأ، فقُلْتُ: مَا أنَا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فغطّنِي الثالِثَة، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فقالَ: (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقرَأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3))))

[البخاري عن عائشة]

قد يسأل الإنسان: لماذا كان هذا ؟ لماذا ضَمّه سيدنا جبريل مراتٍ عديدة ؟ قال العلماء: لأن هناك في المستقبل أن يأتي مدعٍ، ويدّعي أنه كان نائماً فرأى هذا في منامه، وأنّ هذا ليس وحياً، إنما هي رؤيا، ولكن جاء سيدنا جبريل، وفعل بالنبي ما فعل ليكون هذا شيئاً واضحاً مؤكداً أن هذا الوحي جاءه، وهو في أتَمّ حالات اليقظة والوعي والعلم.

شيءٌ آخر، لماذا أصابه الخوف ؟ النبي عليه الصلاة والسلام بَلَغَ الدرجة المُثلى في الكمالات البشرية، والله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يلقى على قلبه السكينة، ولكن أصابه الخوف ليكون الوحي شيئاً منفصلاً عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، منفصلاً عن كيانه وعن إرادته، ليس بإمكانه جذبه ولا بإمكانه ردّه، هذه النقطة الثانية، والثالثة ليس بإمكانه رده فأصابه الخوف، وليس بإمكانه جَذْبُهُ، هذا يعبّر عنه انقطاع الوحي، فيجب أن تعلم أن الوحي شيءٌ منفصلٌ تمام الانفصال عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، أي إن إعلام السماء إلى الأرض كان وصياً، إلقاء المنهج من عند الله إلى سيد الخلق كذلك كان وصياً.

وقصة سيدنا موسى وردت في القرآن كما كنت قد قلت لكم من قبل سبعَ عشرة مرة، بل هذه القصة وردت أكثر من ثلاثٍ وعشرين مرة، وهي قصة طويلة، وفي كل مرة تسلّط الأضواء على بعض فقراتها، أو على مرحلةٍ أساسيةٍ من مراحلها، نحن الآن في وصفٍ دقيقٍ لتكليم الله لسيدنا موسى:

(وَكَلّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا(164))

(سورة النساء)

في سورةٍ أخرى يبدو أن التكليم كان من عند الشجرة المباركة، وقيل: إن حول هذه الشجرة بدا من بعيد نورٌ ساطع، ظنه سيدنا موسى ناراً، إنه نور، ووسط نور هذه الشجرة التي كان التكليم من ورائها، طبعاً في سورة أخرى قال تعالى:

(فَلَمّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنّي أَنَا رَبّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنّنِي أَنَا اللّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي (14) إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلا يَصُدّنّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16))

(سورة طه)

وهنا في سورة النمل:

(فَلَمّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (8))

تفسير العلماء للآية:

والعلماء في تفسير هذه الآية ذهبوا مذاهب شَتّى، ما الذي في النار ؟ أهو نور الله عزّ وجل، أو تلك الشجرة المُقدّسة، أو هذا التكليمُ المقدس، والله سبحانه وتعالى أشار إلى أن سيدنا موسى حول الشجرة، أو حول هذه النار، إذاً لماذا اصطفاه ؟ قدسه واختاره واصطفاه، الله سبحانه وتعالى، ما كان لله أن يتخذ نبياً إلا من صفوة خلقه..

(إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء مُصْطَفَون، أيّ أن الله سبحانه وتعالى اصطفاهم من بين سائر البشر، وخصّهم بالنبوة، ومقام النبوة مقامٌ عظيم، إن النبي لا يَغْفَلُ لحظةً عن الله عزّ وجل، المؤمن ساعة وساعة، والقصة الشهيرة التي تعرفونها حينما كان سيدنا الصديق يمشي في طريق من طرق المدينة، فرأى سيدنا حنظلة يبكي، فعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأسيدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً، وَسَاعَةً، ثَلاثَ مَرَّاتٍ))

(صحيح مسلم)

من هذا الحديث يفهم مقام النبوة، وأن الإنسان الذي لا يغفل عن الله عزّ وجل ولا لحظة، ولا ثانية هو النبي، طبعاً الله سبحانه وتعالى يصطفيه من بين خلقه، ويخصُّه بميزاتٍ يتميز بها عمن سواه، فهذا النبي الكريم في هذه البقعة المباركة عند هذه الشجرة التي حولها النور الساطع..

(نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ (8))

أن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

ألا نقول نحن: تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، تبارك الله رب العالمين ؟ ومعنى تبارك: أي كثر خيرك يا رب، البركة: الخير الكثير، تباركت يا رب أي: كثر خيرك..

(نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (8))

1 – استئناس موسى بالمناجاة:

سيدنا موسى حول النار، وقيل الملائكة حول النار، فهناك أقوال عديدة، ولكن المقصود أن هذا المكان مكان المُناجاة، ومكان التّكْليم، ومكان النور الساطع، ومكان مقدّس، وأن هذا النبي الكريم في هذا الوقت عَلِمَ أنه نبيٌّ مرسل، وقد اصطفاه الله عزّ وجل، وفي قصةٍ أخرى تعلمون حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

إنها فرصة لا تقدّر بثمن ؛ أن يخاطب الإنسان رب العالمين، فقال:

(هِيَ عَصَايَ)

(سورة طه: من الآية 18)

وأراد أن يطيل الحديث، إذْ يبدو أنه انغمس في سعادةٍ لا توصف فأجاب وأسهب.

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه: من الآية 18)

الله عزّ وجل هو السائل هو عليم، يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه)

هنا خجل، لعله استطردَ، ولعله أطال، ولعله أطنب، يا ترى أيليق به أن يطيل الحديث مع الله عزّ وجل، قال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

وهذا يعني أنه اختصر الحديث، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يُتابع الحديث، يقول له يا موسى وما هذه المآرب ؟ قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

2 – من لم يق طعم القرب لم يذق شيئا:

فالذي أريد أن أقوله: الإنسان إذا ذاق الطيّبات كلها، إذا ذاق كل شيء، ولم يذق طعم القرب ما ذاق شيئاً، إذا مَلَكَ كل شيء، ولم تملكه المحبة لله عزّ وجل ما ملك شيئاً، إذا عرف كل شيء، ولم يعرف الله عزّ وجل ما عرف شيئاً، إذا وجد كل شيء ولم يجد ربه لم يجد شيئاً، إذا كان معه كل شيء ولم يكن الله معه لم يكن معه شيء، **" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ".**

طبعاً هذا النبي الكريم ـ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ـ اختصه الله بالتكليم، ليس معنى هذا أن المؤمن مَحْروم من هذه النعمة، فالله سبحانه وتعالى قد يتجلّى على قلبك، قد تشعر بالسعادة، قد تشعر بالأمن، قد تشعر بالسرور، قد تشعر بالطمأنينة، قد تشعر بأن الله يحبك، وهذا الشعور لا يقدّر بثمن، لو ذُقْتَ الطيبات كلها وشعرت أن الله يحبك وأنك بعينه..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

لو شعرت أنك محبوبٌ عنده، وأن الله ألقى عليك محبةً منه، نسيت كل شيء، لذلك أكبر عقابٍ يعاقب به الكُفّارُ يوم القيامة أن يحجبوا عن رؤية الله عزّ وجل..

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

وأطيب سعادةٍ يذوقها المؤمن يوم القيامة أن يرى وجه ربه..

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

وقد ورد في الأثر: " أن الإنسان إذا رأى ربه غاب خمسين ألف سنةٍ من نشوة النظرة "، أتضيِّع هذه السعادة الكبرى من أجل لُعاعةٍ من الدنيا نختلف عليها، أيصح أن يعصي الإنسان ربه ؟

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(8))

وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الحكمة من ذكر التسبيح في هذا الموضع:

لماذا جاء التسبيح هنا ؟ التسبيح في اللغة هو التنزيه، وبعضهم يقول: **" هو التنزيه والتمجيد "**، فإذا قلت: سبحان الله ! أي يا رب، تعاليت عن أن تكون كذا وكذا، تعاليت عن أن تشبه خلقك، تعاليت عن أن تكون مُجَسَّدَاً، تعاليت عن أن تكون كأحدٍ من خلقك، تعاليت، فالله سبحانه وتعالى كَلَّمَ سيدنا موسى، ولكن ليس ككلام البشر، ليس كلام الله عزّ وجل مقاطع وحروف واهتزازت صوتية.

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

أي سبحان الله عن أن يكون كلامه من نوع كلام البشر..

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

أي سبحان الله عن أن يكون وجوده في هذا المكان من نوع وجود البشر، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

ليس كمثله شيء، فوق كل شيء، وليس فوقه شيء، في كل شيء لا كشيءٍ في شيء، فالحديث عن ذاته العَلِيّة، وعن أسمائه الحسنى، وعن فاته الفُضلى، وعن أفعاله حديثٌ يُغَذِّي النفس، لذلك إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، فإذا وقفت عند أسمائه اسْماً اسماً، وعرفت هذه الأسماء فربما كان هذا الطريق إلى الجنة، إذاً..

(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8))

قصص إسرائيليات في مناجاة موسى عليه السلام:

وهناك قصص كثيرة تُروى عن هذه المناجاة، فالله سبحانه وتعالى كما قلنا في القرآن الكريم: كَلَّمَ موسى تكليماً، مرةً انقطعت المطر وقحطت الأرض وأجدبت السماء، فناجى موسى ربه، قال: **" يا رب أمطرنا أغثنا "**، فقال الله عزّ وجل " إن فيكم عاصياً "، فبعد حين نزل المطر، والسماء فتحت أبوابها، وكان المطر كأفواه القِرَب، فقال موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: **" يا رب من هو هذا العاصي ؟ "**، قال: **" يا موسى سترته عاصياً أفأفضحه تائباً "**، لقد تاب إلى الله، وكثيرةٌ هي الأخبار التي تتحدّث عن مناجاة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لله عزّ وجل، قال: **" يا رب لا تبق لي عدواً"**، قال: **" يا موسى هذه ليست لي"** أليس هناك أعداءٌ لله عزّ وجل، قال له: هذه ليست لي.

على كلٍ نتابع القصة..

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

أحياناً ربنا سبحانه وتعالى يتحَدّث عن ذاته بضمير المُفْرَد، وأحياناً يتحدث عن ذاته بضمير الجَمْع، قال بعض العلماء: **" إذا كان الحديث عن الله عزّ وجل بضمير الجَمْع فهذا إشارةٌ إلى أسمائه الحسنى كلها، لأن كل فعلٍ من أفعال الله عزّ وجل أسماؤه الحسنى كلها داخلة فيه "**، فأي حدثٍ يقع فيه رحمة، وفيه لطفٌ، وفيه عدلٌ، وفيه رأفة، وفيه علمٌ، وفيه خبرةٌ، وفيه قوةٌ، وفيه قدرةٌ، وفيه غنى، ولذ فإذا كان الحديث عن أفعاله فالحديث بضمير الجمع..

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلا(23)فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24))

(سورة الإنسان)

إذا كان الحديث عن ذات الله يأتي ضمير المفرد.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14)إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

(سورة طه)

هنا الحديث عن ذات الله:

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 – معنى: العزيز:

تحدثنا عن هذا الاسم بشكلٍ تفصيلي في درسٍ سابق، وكيف أن العزيز هو الذي ينذُر وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، وكمال هذه الصفات الثلاث، أي: يندر وجوده حتى لا يبقى غيره، وتشتد الحاجة إليه حتى تصبح المنافع كلها بيده، ويصعب الوصول إليه لا يستطيع أحدٌ أن ينال منه، ذلكم الله رب العالمين، ليس إلا الله، وكل الخير بيد الله، وليس لمخلوقٍ كائناً من كان أن ينال من جناب الله، هذا هو العزيز، هذا بعض ما في هذا الاسم من معانٍ.

2 – معنى: الحكيم:

أما الحكيم فيعد هذا الاسم دليلاً كبيراً جداً على قدرته، فالحكيم هو الذي إذا صنع شيئاً أحكمه، والحكيم هو الذي يتقن التدبير، والحكيم هو حُسن التقدير، فإذا دخلت إلى بيت، ورأيت مفتاح الكهرباء على ارتفاع متر وعشرين سنتيمترًا، ومن الممكن أن يكون هذا المفتاح على ارتفاع ثلاثة أمتار، قُبَيْل السقف، ويمكن أن يكون على ارتفاع عشرة سنتيمترات، أو على ارتفاع مترين، أو مترين ونصف، كله ممكن، هذا الذي يعمل في الكهرباء، يفتح الحُفرة في هذا المكان، أو في ذاك المكان، أو في ذاك المكان، ما دامت جاءت في المكان المناسب لسُكّان هذا البيت إذاً هذا ترجيح، شيءٌ راجح، وشيءٌ مرجوح، هذا المكان راجح، وذاك المكان قُبَيْل السقف مرجوح، لم يكن مقبولاً، لا ترجيح بلا مرجح، هذا هو اسم الحكيم..

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5))

(سورة الرحمن)

حجم الشمس بحكمةٍ بالغة، بُعد الشمس عن الأرض بحكمةٍ بالغة، حجم الأرض بحكمةٍ بالغة، لو أن الأرض أصغر من حجمها الحالي لتطاير الإنسان من على سطحها، كما هو الأمر في القمر، فالإنسان الذي وزنه ستون كيلوًا على سطح الأرض يكون وزنه على سطح القمر عشرة كيلوات، لا يثبت إذا وقف، أو قعد، أو مشى، إذاً: حجم الأرض حجمٌ مدروس فيه حكمةٌ بالغة، وكذلك دورة الأرض حول نفسها فيها حكمةٌ بالغة، دورتها حول الشمس فيها حكمةٌ بالغة.

أن يكون النهار من ثماني ساعاتٍ إلى اثنتي عشرة ساعة حكمةٌ بالغة، أن يكون الليل مع النهار متناوبين حكمةٌ بالغة، الحكمة أحد الأدلة القطعية على وجود الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى حكيم، أي أنه يضع كل شيءٍ في مكانه الصحيح، وفي القدر المناسب، وفي الوقت المناسب، وفي الحجم المناسب، وفي الشكل المناسب، وفي الطريق المناسبة، وفي الهيئة المناسبة.

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

لابدّ لكلٍ منا من أن يُمضي وقتاً في معرفة الله من خلال التأمُّل في أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى. سؤال: لو أن أحدكم سُئل ماذا تعرف عن اسم العزيز ؟ ينبغي أن تحدثنا حديثاً طويلاً طويلاً، هذا معنى أنك تعرف الله عزّ وجل، ماذا تعرف عن اسم الغَنْيّ ؟ ماذا تعرف عن اسم القدير ؟ ماذا تعرف عن اسم العليم ؟ ماذا تعرف عن اسم الكبير المُتعال، لذلك هذه الأسماء الحسنى ينبغي أن قف عندها، ويجب أن نتأمّل فيها، ويجب أن نتعرف إلى الله من خلالها.

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ(10))

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ

معنى: وَلَمْ يُعَقِّبْ

التعقيب يعني الكرّ بعد الفرّ، فلان فَرّ ثم عاد إلى المكان الذي فر منه، نقول: عَقّبَ، فر وعقب، أو فر وكَرّ، والحرب كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كرٌ وفر))

[ورد في الأثر]

حينما حرص سيدنا خالد رضي الله عنه في مؤتة على سلامة الجيش، وعلى حفظ أرواح أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وناور مع الروم حتى أنقذ هذا الجيش من براثن الهلاك، وبلغ النبي ذلك،

سمى هذا العمل نصراً، وسمى خالداً كراراً فرّاراً، فبحكمة بالغة استطاع إنقاذ حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ (10))

يَا مُوسَى لَا تَخَفْ

1 – الخوف جبلّة في الإنسان:

الحقيقة أن الخوف مركوزٌ في بُنْيَةِ الإنسان النفسيّة، لقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19))

(سورة المعارج)

هذا ضعفٌ خَلْقيّ، الخوف مركوزٌ في بنية كل إنسان كائناً من كان:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

2 – المستثنَوْن من الضعف الخَلقي الجِبلّيّ:

إلا المصلين، أي أن المصلين مستثنون من هذا الضعف الخَلْقِيّ، لماذا ؟ لماذا خلق الله الإنسان هلوعا ؟ من أجل أن يلجأ الإنسان إليه، من أجل أن يقف على بابه، من أجل أن يلوذ به، من أجل أن يستعيذ به، خلقه هلوعاً، لو أن الله عزّ وجل خلق الإنسان قوياً لا يخاف لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه هلوعاً ليلتجئ إليه، فيستغني باللجوء إليه، فيسعد بهذا اللجوء، فلذلك كل المصائب ـ إن صَحّ التعبير ـ هدفها الكبير أن تدفعكَ إلى باب الله، وكل المُضايقات، وكل الشدائد هدفها أن تزداد قرباً، أن تزداد طاعة، أن تزداد إقبالاً، أن تزداد علماً، أن تزداد معرفةً، إنها دوافع، هكذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

ولكن قد يقول قائل: كلنا نُصلي، مع ذلك نخاف، الله عزّ وجل قال:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)

إنّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(34))

(سورة المعارج)

قل: إنسان، فهذه الكلمة تنطبق على ستة آلاف مليون، قل: إنسان مسلم، أضف كلمة **" مسلم "**، فإن الدائرة تضيق حتى تصل إلى ألف مليون أو يزيد، قل: إنسان مسلم عربي، تضيقْ الدائرة حتى تصل إلى مئتي مليون، قل: إنسان مسلم عربي مثقّف، كلما أضفت صفةً ضاقت الدائرة، وربنا عزّ وجل وصف المصلين بثماني عشرة صِفَة، فإذا كنت من هؤلاء، وانطبقت عليك هذه الصفات كلُّها فأنت قطعاً مستثنى من الخوف، ومن الهَلَع، ومن الجَزَع، ومن الحِرْص.

(فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (10))

فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً

طبعاً هي ليست جنّاً، إنها عصا، وقد أصبحت حية أو ثعباناً، بمعنى واحد، ثعبان مبين، أو حية كبيرة جداً، كأنها ثعبان، والمقصود من ذلك أن سرعة حركة هذه الأفعى جعلتها كأنها من الجن.

(فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا (10))

السر أن الله عزّ وجل لمّا قال له:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17))

ليس القَصْدُ أن يعرف الله عزّ وجل ماهية ما بيده ؟ لا فإنه الله رب العالمين، ويعلم السر وأخفى، بل أراد أن يُلْفِتُ نظره أن هذه التي بيدك عصا، انتبه إليها، وبعد قليل سوف تكون حية..

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10))

العناية الإلهية: يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ

أجمل ما في هذه الآية كلمة لديّ، أي أنّك إذا كنت معي لا تخف، وإذا كنت مع الله عزّ وجل فهو معك، كن مع الله تَرَ الله معك..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا ولُذ بحمانا واحْتَم بجنابنا

لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

إذا كنت مع الله كل الخلق بيده، كل المخلوقات قيامها بالله، حركتها بالله، روحها بالله، قوّتها بالله، لذلك:

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيّ)

إذا كنت لديّ فلا ينبغي أن تخاف..

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلّا)

إِلّا مَن ظَلَمَ

هنا نقطةٌ دقيقةٌ جداً في اللغة أتمنى أن تكون واضحة عندكم..

(إِلّا مَنْ ظَلَمَ)

الاستثناء المنقطع

هؤلاء الذين ظلموا ليسوا مرسلين، هذا اسمه استثناء مُنقطع، ما معنى الاستثناء المنقطع و المتصل ؟ تقول: حضر الطلاب إلا خالداً، خالد طالب، هذا استثناءٌ متصل، فإذا كان المستثنى منه من جنس المستثنى فهو استثناء متصل، أما الاستثناء المُنقطع كأنْ تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، المدرس ليس طالباً، من نوع آخر، لكن اشترك معه في الحضور، وتخلف المدرس، فإذا كان المستثنى منه من غير جنس المستثنى يقال له: استثناء منقطع. قد يفهم إنسان:

(إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلّا مَنْ ظَلَمَ)

منهم.. لا، أعوذ بالله، الأنبياء معصومون عن أن يظلموا، العصمة صفةٌ ثابتة للأنبياء، معاذ الله أن يقع نبيٌ في ظلم أحد، وكل قصةٍ ترويها الكُتب الإسرائيلية، أو ما يسمى في التفاسير الإسرائيليات، عن أن هذا النبي فعل كذا وكذا، وهذا النبي فعل كذا وكذا كل ذلك من قبيل الإساءات أو التجاوزات أو الافتراءات، هذه القصص لا أصل لها، ولا صِحّة لها لأن العصمة صفة أساسية لجميع الأنبياء والمرسلين، إذاً:

(إِلّا مَن ظَلَمَ ثُمّ بَدّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رّحِيمٌ(11))

إِلّا مَن ظَلَمَ ثُمّ بَدّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رّحِيمٌ

وأيضاً هذا الإنسان الذي وقع في الظلم، ثم تاب منه، وعمل صالحاً أيضاً هذا لا ينبغي أن يخاف، لا النبي يخاف في حضرة الله عزّ وجل، ولا المؤمن المستقيم على أمر الله يخاف إذا طمأنه الله عزّ وجل، لذلك الحديث الشريف الجامع المانع، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[مسند الفردوس]

الأمر كله بيد الإنسان، بمعنى: أنك إذا فعلت السيئة ؛ كأن تكون أكلت مالاً حراماً، أو روّعت إنساناً، أو اعتديت على إنسان طبعاً يجب أن تخاف، لأن الله بالمرصاد ولا بدّ من أن ينتقم منك، لكن إذا كنت خائفاً من الله خوفاً حملك على طاعته، وعلى أن تكون ورعاً، فالله سبحانه وتعالى يطمئنك لقول الله عزّ وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

أيْ مِن غير أن تصاب بالبرص، وهناك آيتان ؛ الآية الأولى أن هذه العصا أصبحت أفعى حينما ألقاها، والآية الثانية أنه أدخل يده في جيبه.

(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)

الجيب فتحة الثوب، أدخلها ضمن ثوبه.

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ)

متألقة، منيرة، كأنها كوكب، كأنها مِشْعَل، كأنها مصباح..

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

من دون أن تؤذيك، من دون أن تحرقك، من دون أن تصاب ببَهقٍ ولا بَرَص.

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ)

فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ

الآيات مذكورة في مكان آخر من كتاب الله.

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12))

خرجوا عن الطريق الصحيح، خرجوا عن منهج الله عزّ وجل، خرجوا عن الصراط المستقيم، اعتدوا، بغوا، طغَوا، استكبروا، استعلوا..

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً)

1 – ما هي الآية ؟

الآية العلامة، الدليل، فالله عزّ وجل ما كان له أن يدعونا إليه من دون دليل..

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنـه واحد

***

كل شيء ينطق بحمد الله، ينطق بعظمة الله، ينطق بقدرة الله، ينطق بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً)

2 – معنى: مُبْصِرَةً

فهذه الآية لشدة وضوحها، ولشدة تألّقها، ولشدة بيانها، كأنها تُبْصِر هي، هي ترى، إنها تُرى، ولكن هذا من باب القلب، تقول أنت مثلاً: كأن هذا الوجه شمسٌ، إذا أردت أن تشبهه بالجمال والإشراق والوضاءة، إذا قلت: كأن هذا الوجه شمسٌ، هذا تشبيه، وهدف هذا التشبيه أن تُعلي من قدر الوجه ووضاءَته، ورونقه وجماله، هناك تشبيهٌ معكوس، تقول: إن الشمس تشبه هذا الوجه، إنك الآن تبالغ مبالغةٍ كبيرة حينما عكست المُشبَّه إلى مشبه به، والمشبه به إلى مشبه، فهناك مِن الشعراءِ مَن يقول:

وبدا الصباحُ كأنّ غُرّتَه وجهُ الخليفةِ حينَ يُمتَدَحُ

***

البدر يشبه وجه الخليفة، وليس وجه الخليفة يشبه البدر، هذا من باب التشبيه المعكوس.

أيْ أن هذه الآيات لشدة وضوحها، ولشدة تألقها ليست مُبْصَرَةً، بل هي مُبْصِرةً، كأنها ترى.. يقول بعضهم: لم أر أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع، كما أنه ليس من الناس من هو أشدُّ عمىً من الذي لا يريد أن يرى، فهذا الذي لا يحب أن يرى، ولا أن يسمع، هذا أعمى أصم، لذلك الآيات مبصرة واضحة كالشمس، ما في الكون عصا تصبح أفعى إلا من عند الخالق، والذي يفعل هذا رسوله، ومع ذلك..

(فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ

المشكلة أن الإنسان يوم القيامة يجحد وينكر ما كان منه، فربنا عزّ وجل يقول على لسان الكفار:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

قال:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

أنا متأكد أن أبعد الناس عن ربه في أعماق نفسه، في قرارة نفسه موقنٌ بأن الدين حق، وأن الموت حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الاستقامة هي الطريق الصحيح، وأن طريق الشهوة طريقٌ مدمِّر، ولكن الله عزّ وجل كشف حقيقتهم، وقال على ألسنتهم:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108))

(سورة المؤمنون)

إذاً:

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آَيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)

ظُلْماً وَعُلُوّاً

الإنسان من أجل أن يبقى عالياً في الأرض ربما يكفر، من أجل أن تبقى بحوزته هذه الأموال ربما يكفر، ولكن ضعوا في أذهانكم الحديث النبوي الشريف:

((من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

هذا قانون في أي حقل، في التجارة، في الصناعة، في الوظائف، في العلم، في كل شيء، إذا تركت شيئاً لله عوّضك الله خيراً منه، مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فهؤلاء الذين جحدوا بآيات سيدنا موسى، واستيقنتها أنفسهم، لماذا جحدوا بها ؟

(ظُلْماً وَعُلُوّاً)

لأن بحوزتهم أموالاً طائلة لن يتخلوا عنها، وهم في مراكز رفيعة يتبوؤونها، هم في قمة المجتمع، ولهم ميزاتٌ كبيرة، لذلك من أجل أن تكون بحوزتهم هذه الأموال الطائلة، ومن أجل أن يكونوا في هذا الموقع العالي، كفروا وجحدوا مع أن أنفسهم استيقنتها.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14))

قانون ثابت: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

لو لم يكن في كتاب الله ما يطمئن المؤمن على مصيره إلا قوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

لكفى، الأيام تدور، وتدور، وفي النهاية لا يحق إلا الحق، المؤمن ينجو، ويرفع الله من شأنه وقدره، والكافر يسقط، ويصيبه الخزي والعار، هذا قانونٌ لا يتبدّل ولا يتغير، إذا أردت أن تكون النهاية لك، إذا أردت أن يكون المستقبل لك، إذا أردت أن تكون في الدنيا والآخرة من السعداء، فالزم منهج الله عزّ وجل.

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14))

السعيد من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نأتي إلى قصةٍ من أجمل قصص القرآن الكريم، إنها قصة سيدنا سليمان مع السيدة بلقيس، وهذه القصة ربما أخذت منا درسين أو أكثر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 15 - 19

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

(سورة النمل)

بين قصة سليمان عليه السلام:

هذه القصّة قصّة سيدنا سليمان، وقد جاءت في مواضع أخرى من القرآن الكريم، ولكنها في هذا الموضع قد قُصّت علينا بتفصيلٍ وإسهاب، ومع أنها قُصّت علينا بتفصيلٍ وإسهاب إلا أن هذا التفصيل تناول حَلْقَتَين من حلقاتها، الحلقة الأولى قصّته مع الهُدْهُد، والثانية قصّته مع ملكة اليمن سبأ، ومن خلال هاتين الحلقتين في هذه القصّة هناك استنباطاتٌ كثيرة.

1 – تحريفات وتبديلات اليهود:

أولاً: الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(76))

(سورة النمل)

ما من واحدٍ منكم إلا وهو يعلم أن اليهود قد حوّروا، وبدّلوا، وغيّروا، وأضافوا على التوراة ما ليس منها، حتّى غدت قصص الأنبياء عندهم قصصاً بعيدةً عن الواقع، الأنبياء في التوراة التي أضاف عليها من أضاف ؛ أشخاصٌ عاديّون يشربون الخمر، ويقعون في الزنا، ويحقدون، إلى ما هنالك من تفصيلاتٍ يَنْدَى لها الجبين، ويترفّع عنها الإنسان العادي، لذلك جاء القرآن الكريم ليقصَّ عليهم أكثر الذي كانوا فيه يختلفون.

2 – قصصُ القرآن دليلٌ على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

الشيء الثاني: إن تلاوة هذه القصص على سيدنا محمّد دليل نبوّته، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(44))

(سورة آل عمران)

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران)

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (44))

(سورة آل عمران)

فأولاً: ربنا سبحانه وتعالى يصحّح لبني إسرائيل ما زوّروه في التوراة، والشيءٌ الآخرُ أن هذه القصّة أحد الأدلّة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

استنباطات من قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً

1 – فضلُ العلم وأهلِه:

قصّة هذا النبي الكريم وُصِفَت في هذه الصفحات بتوسُّع وتفصيل، ولكن التركيز جاء على شيءٍ واحد وهو العلم، والدليل قول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

" وما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه "..

والعلم هو القيمة الوحيدة المرجّحة التي اعتمدها القرآن الكريم، فالشيء الذي يرفعك هو العلم، والشيء الذي يخفِضُك هو الجهل، وأي شيءٍ آخر عَرَضٌ زائل يأتي ويذهب، ولا قيمة له، لا يرفع صاحبه ولا يخفضه، قد يكون الإنسان عند الله في أعلى عليين وهو فقير، وقد يكون في أعلى عليين وهو مريض، وقد يكون في أعلى عليين ونسبه غير معروف، وقد يكون في أعلى عليين وليس جميل الصورة.

بعض التابعين كان قصير القامة، أسمر اللون، أحنف الرجل، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ضيّق المنكبين، ليس شيءٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومه، إذا غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيفٍ ؛ لا يسألونه فيمَ غضب ؟ وكان إذا علم أن شُرْبَ الماء يفسد مروءته ما شربه، فلا شكلُك، ولا مالك، ولا نسبك، ولا صحّتك، ولا قوّتك تغني عنك من الله شيئاً، ولكن العلم وحده هو الذي يرفعك عند الله، والدليل هذه الآية:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

2 – العلم يؤتيه الله مَن يشاء:

أيها الإخوة أن العلم يُؤتى من الله عزّ وجل، فإذا علمت أن علمك من الله، وأن الله سمح لك أن تتعلّم.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

إذا أيقنت أن علمك من الله عزّ وجل لابدّ من أن تبادر إلى شكره.

الصفة الوحيدة الفارقة بين الإنسان والحيوان هي العلمُ:

يقول الإمام الغزالي: **" الإنسان شريفٌ لما خُلِقَ له، فلو افتخر بحجمه فالجمل أكبر منه، ولو افتخر بعِظَمه فالفيل أعظم منه.. أي أكثر عظماً منه.. ولو افتخر بشجاعته فبعض السِباع أشجع منه، ولو افتخر بسفاده بعض الطيور الوضيعة أكثر سفاداً منه.. أي جِماعاً.. ولو افتخر بشكله الجميل فبعض الحيوانات أجمل منه ".**

ما من صفةٍ يمكن أن تفتخر بها إلا وفي الحيوان ما هو أشد اتصافاً بهذه الصفة من الإنسان.

إذا افتخر بحدّة بصره، فأيُّ طائرٍ يرى ثمانية أمثال ما تراه أنت، إذا افتخر برهافة سمعه فهناك حيواناتٌ حقيرةٌ جداً في نظر الناس أشد سمعاً من الإنسان، إذا افتخر مثلاً بقوّة شَمِّهِ، فبعض أنواع الكلاب قوة شمِّه مليون ضعف عن قوة شم الإنسان، ما من صفةٍ، ولا حاسّةٍ، ولا شيءٍ يمكن أن يفتخر به الإنسان إلا وفي الحيوان ما تَفَوّق عليه، إلا أن الإنسان خُلِقَ ليعرف الله عزّ وجل، وأعطي العلم، أنت يمكن أن تفتخر، أو يمكن أن تقول: أنا، إذا كنت عالماً، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

فالعلم علّة خلق السماوات والأرض..

" خلقت السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟! خلقت السماوات والأرض من أجلكَ فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ".

كل الكون مسخّرٌ من أجل الإنسان، والإنسان خُلِقَ من أجل أن يعرف الله عزّ وجل، لذلك كما قال الإمام الغزالي: **" الإنسان شريفٌ لما خُلِقَ له "**، لماذا خُلِقتَ أنت ؟ خُلِقتَ في هذه الدنيا كي تعرف الله عزّ وجل، فإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

آيةٌ صريحة واضحةٌ محكمةٌ بيّنة كالشمس الساطعة..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

3 ـ طلبُ العلم فريضة على كمل مسلم:

لذلك العِلم ليس شيئاً نأخذه أو لا نأخذه، ليس شيئاً نتزيّنُ به أو نستغني عنه، ليس حرفة اخترناها أو اخترنا غيرها، لا، العلم كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح المتواتر:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

ما معنى فرض ؟ أبيّن لك معنى فرض من خلال هذه الأمثلة:

إنّ استنشاق الهواء فرض، أي ضرورة، وأيُّ شيءٌ يتوقّف عليه بقاؤك، وتتوقّف عليه حياتك، وتتوقّف عليه سلامتك فهو فرض، فاستنشاق الهواء مثلاً فرض، وتناول الطعام فرض، وطلب العلم فرض، لأنك إن لم تطلب العلم فلابدّ من أن تقع، لكن لماذا تقع ؟ لأن الله أودع فيكَ الشهوات، والشهوات قِوى مندفعة، لابدّ لهذه القوى المندفعة من توجيه، الموجّه هو العلم، قوّةٌ مندفعة، مركبةٌ مندفعة بأقصى سرعتها من دون مِقْوَد لابدّ من أن تتدهور، شيءٌ قطعي أودع الله فيك حبّ الطعام والشراب لبقاء الفَرد، وأودع فيك حبّ النساء لبقاء النَوع، وأودع فيك حبّ العلو في الأرض لبقاء الذِكْر، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان هي حياديّة، يمكن أن ترقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن يهوي بها الإنسان إلى أسفل سافلين، إذا تزوّج، وسلك في زواجه الطريق الشرعي يسعد بزوجته، ويرقى بها، وترقى به إلى أعلى عليين، فإذا حاد عن الزواج إلى الزنا هلك وأهلك، إذا كسب المال الحلال بارك الله له فيه، وأنفقه على عياله، وتَنَعّم به، وسعد به، وإذا كسب المال الحرام أتلف الله ماله، وأتلفهُ معه.

إذاً: موضوع العلم قضيّة خطيرة جداً، فمثلاً: هل من الممكن لإنسان تأتي به من الطريق، ونقول له: اجلس على هذا المقعد، وهو مقعدٌ لربّان طائرة، ومعك خمسمئة راكب، وتحلّق بهم ؟ في أول غلطةٍ أنه يودي بالركّاب جميعاً، هذا كرسي ربّان الطائرة، كرسي العلم، كم دورة مر بها لكي يعرف التحليق، وتجد الربّان وإلى جانبه مساعد، هل من الممكن لإنسان من قارعة الطريق أن يقود طائرة ؟ والله قيادة النفس أصعب من أن تقود الطائرة، يمكن أن تقود نفسك إلى دار السلام من دون علم ؟ مستحيل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

والله عزّ وجل قال:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

مجالات علم داود عليه السلام:

1 – تلاوة الزبور بصوت حسن:

ماذا آتى الله سيدنا داود ؟ قالوا: سيدنا داود في مواطن أخرى من كتاب الله آتاه ترتيل الزّبُور، هذا الذي يؤتيه الله، ترتيل القرآن، أو ترتيل كتاب الله، وهذا شيءٌ عظيم، وشيءٌ نفيس، فكلام الله سمح الله لك بتعلّمه، سمح الله لك بتلاوته حقّ تلاوةٍ، سمح الله لك بتفهُّمه، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

خَيْرُكُمْ.. اسم تفضيل، هناك أغنياء، وأقوياء، وأشخاص أصحاب صور جميلة جداً، وأناس يتمتّعون بصحّة جيّدة جداً.. قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فسيدنا داود قال الله فيه: آتيناه علماً، من هذا العلم أنه علّمه ترتيل الزّبُور، فكانت الجبال والطير تؤوّبُ معه إذا تلا الزّبُور، حتى إن العلماء إذا سمعوا صوتاً عذباً شجيّاً من قارئ قرآن كريم، يُقال له: أُوتيت مزماراً من مزامير داود، فأحياناً إذا قرئ كلام الله بأداءٍ جيّد، وصوتٍ جميل فإنه يفعل في النفس فعل السحر، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يستمع إلى كتاب الله من عبد الله بن مسعود، وكانت عيناه تذرفان بالدمع، فالإنسان المؤمن إذا استمع إلى كتاب الله يتلى بأداءٍ حسن، ومن صوتٍ شَجِيّ فربّما طرب بسماع القرآن أكثر مما لو جمعت ذوّاقي الطَرَب في العالم، فإنه لا يرقى طربهم جميعاً إلى مستوى طرب المؤمن بكتاب الله..

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

2 – صناعة الدروع:

من عِلْم سيدنا داود أنه علّمه صناعة الدروع..

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

(سورة الأنبياء: من آية " 80 ")

3 – تليين الحديد:

من علم الله لسيدنا داود أنه علّمه تطويع الحديد، وعلّمه القضاء بين الناس، ولكن هذا النبي العظيم أهم شيءٍ تعلّمه أنه عرف الله عزّ وجل.

أصول مهمة:

مرّة ثانية: أصل الدين معرفة الله.

وأصل العبادة معرفة الشرع.

وأصل صلاح الدنيا معرفة طبائع الأشياء.

فهذه العلوم الماديّة التي إذا ذُكِرَت ظنّها الناس هي العلم ولا علم سواها ؛ الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والفَلَك، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، يظنُّ الناس أن هذه العلوم وحدها هي العلم، هذه بعض أنواع العِلم، هذا علمٌ بالخليقة، وهناك علمٌ بالشريعة، هناك علمٌ بالحقيقة، هناك علمٌ بالله، هناك علمٌ بأمره، هناك علمٌ بخلقه، هذه العلوم الماديّة المحسوسة التجريبيّة يمكن أن ترفع مستوى معيشتنا، يمكن أن تطوّع لنا الحديد، يمكن أن تختصر لنا الزمن، يمكن أن تقرّب المكان، ولكنّها لا تسعدنا، لا يمكن أن تسعدنا لأنها حرفةٌ من الحِرَف، أما العلم الذي يسعدك فهو العلم بالله عزّ وجل، ولا يسعدنا، ولا تَضْبِطُ سلوكنا، ولا تمنعنا من الزيغ، ولا تستأصل ما في النفوس من الحقد غير العلم بالله، فترى بعض العلماء الكبار من علماء المادّة غارقين في شهواتهم إلى قمّة رؤوسهم، أقول: بعضهم طبعاً.

إذاً هذه العلوم لا تكفي، لكنّ العلم الذي لابدّ من تعلّمه أن تعرف الله عزّ وجل.

" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء".

ماذا أوتي سليمانُ عليه السلام ؟

أما سيدنا سليمان فقد عرف الله عزّ وجل، آتاه الله المُلك، علّمه منطق الطير، سخّر له الرياح، علّمه القضاء بين الناس..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

(سورة الأنبياء: من الآية 79)

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ(78))

(سورة الأنبياء)

إذاً: في سوَرٍ أخرى، وفي قصصٍ أُخرى جاء تفصيل ماذا علّم الله نبيَّه داود، وماذا علّم الله نبيَّه سليمان، أما هنا جاء الكلام مختصراً:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

وقفة مع (آتَيْنَا):

أنا أريد أن أقف عند كلمة.. آتينا.. إنّ نقطةً من الدم لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس، إذا تجمّدت في بعض شرايين المخ يفقد الإنسان ذاكرته كلها، كل معلوماته، ثمانية وعشرين عاماً قضاها في التَعَلّم حتَّى نال أعلى درجة جامعيّة، يفقدها كلها إذا تجمّدت نقطة دمٍ في دماغه، يقول لك: فقد ذاكرته، والعلم كله ذاكرة، لو أن هذه النقطة من الدم تجمّدت في مكانٍ آخر لأخذه أهله إلى المستشفى، مستشفى المجانين، بوساطة، وبترجٍّ، وبمسعى حثيث، إذاً: إذا سمح الله لك أن تتعلّم فهذا العلم من الله عزّ وجل، هو الذي علّمك، الله عزّ وجل قال:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

إذاً: يجب أن نقف عند هذه الكلمة:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

العلم ما علّمك الله إيّاه، أمَا الإنسان إذا أُوكِلَ إلى نفسِهِ بأي لحظة يفقد علمه أو يُحال بينه وبين أن يَتَعَلّم.

الفائدةُ مِن تنكير كلمة (علمًا):

الشيء الآخر: كلمة **" علماً "**، هذه جاءت نكرة، لم يقل: ولقد آتينا داود وسليمان العِلْمَ، العلم (معرّفة)، وكأنه علمٌ معيّن، أما (علمًا) فنكرة، فهذا التنكير عند علماء البلاغة تنكير التعظيم.

شيءٌ آخر، هناك شيء قبل أن أنتقل إلى الفقرة الثانية.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

كلمة علماً هذه جاءت مُطْلَقَة، ومعنى ذلك أن العلم على إطلاقه ثمين، لقول الله عزّ وجل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من الآية 9)

العلم ثمين، أيُّ علمٍ، لكنّ هناك علماً ممتعاً، أيُّ علمٍ ممتع، وهناك علمٌ ممتعٌ نافع، ينفعك في الدنيا، كشهادة اختصاصيّة نادرة، والناس على بابك يقفون، وكل واحد لابدّ من أن يدفع مبلغاً كبيراً، إذاً هناك

علمٌ ممتعٌ، وهناك علمٌ ممتعٌ نافعٌ، لكنْ هناك علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد وهو العلم بالله عزّ وجل، أخطر ما في الموضوع أن كل علمٍ تنتهي قيمته، وينتهي أثره، وينتهي نفعه، وتنتهي متعته عند الموت هذا العلم لا قيمة له في الدار الآخرة، لو كنت من أعظم المؤرّخين وكتبت كتباً عدّة، وابتغيت بها الدنيا، وجمعت من ورائها مالاً طائلاً، وجاء ملك الموت وما عرفت الله عزّ وجل، هذا العلم لم ينفعك شيئاً.

وهذا تشبيه بسيط: لو أن إنساناً عنده مكتبة ضخمة، أربعة جدران ممتلئة بالكتب، من أدنى طبقةٍ إلى السقف، وعنده بعد أيّام، أو بعد شهر أو شهرين فحصٌ مصيري، يتوقّف على نجاحه في هذا الفحص مستقبله ومصيره، هذا الإنسان العاقل يجب أن يختار من كل هذه المكتبة الكتاب المُقَرّر، فما يُطْبَع في اليوم الواحد لا يستطيع الإنسان أن يقرأه إذا ترك كل أعماله في مائة عام، فتحصيل العلم بشكل شمولي مستحيل، لابدّ من أن تختار، يجب أن تختار الكتاب المُقَرّر، والكتاب المقرّر الذي يتعلّق به مصيرك في الدنيا والآخرة هو القرآن الكريم، هو الغنى الذي لا غنىً بعده ولا فقر دونه، ومن تعلّم القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حَقّرَ ما عَظّمَهُ الله..

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15))

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

دقِقوا في هذه الآية، لو أخذنا ألف مؤمن، مائة ألف مؤمن، مليون مؤمن، وأردنا أن نرتِّبهم وفق سُلّمٍ، فليس هناك إلا قيمةٍ واحدة وهي العلم، الله عزّ وجل قال:

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا (15))

بماذا فضّلنا ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ(15))

إذاً: بماذا فُضِّلا ؛ سيدنا داود وسليمان ؟ بالعلم، إذاً: فما هي القيمة المرجّحة في التمييز بين المؤمنين، في الترجيح بينهم، في التفاضل بينهم ؟ إنه العلم، ولا شيء غير العلم، لذلك: " إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم "، العلم نور يكشف لك الطريق، يكشف لك الحلال من الحرام، يكشف لك الحقّ من الباطل، يكشف لك الخير من الشر، يكشف لك النافع من الضار، يكشف لك الثمين من البخيس، النفيس من الخسيس، بالعلم..

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ (16))

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ

ميراثُ العلم أفضل ميراثٍ:

هذه الوراثة ليست وراثة مالٍ أو نبوّة ؛ ولكنّها وراثة العلم، لأن النبوّة كما تعلمون في علم العقيدة لا تُوَرّث، ولكن الله عزّ وجل أشار بهذه الوراثة إلى وراثة العلم، أي كما كان داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام أوتي العلم كذلك أوتي ابنه سليمان العلم، فكأنّما سليمان ورث العلم من الله عزّ وجل، وجاء بعد أبيه داود، فكأنّما ورث هذه المكانة، وورث هذه المنزلة، وهذا المقام..

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ (16))

وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ

من معجزات سليمان عليه السلام: فَهْمُ لغة الطيور:

الآن هنا نقطة مهمّة جداً أتمنّى عليكم أن تقفوا عليها، هذه معجزة، أن يستطيع الإنسان أن يفهم على الطيور، وأن يَتَعَلّمَ لغتها، وان تُسخّر له الطيور، وأن تُسخّر له الريح، فإذا أردنا أن نفهم هذه الآية فهماً بعيداً عن الصواب قلنا: إن سليمان من خلال التجربة عرف أصوات الطيور، وماذا تعني، هذا شيءٌ يعرفه العلماء.. علماء الأحياء..

افتح الآن كتاباً عن الطيور تجد أن هناك دراساتٍ وتجاربَ، وتسجيلاً لأصوات الطيور، هذا الصوت ماذا يعني ؟ بهذا الصوت يجتمعون، بهذا الصوت يتفرّقون، بهذا الصوت يحذرون، بهذا الصوت يدعو الذَكَرَ أنثاه، فالعلماء العاديون من خلال تجارب طويلة جداً، وبحوث، وإجراءات، وتسجيلات ربّما اكتشفوا ماذا تعني هذه الأصوات ؛ بينما علم سيدنا سليمان ليس من هذا القبيل، ذاك علمٌ تجريبي، ولكن علم سيدنا سليمان علمٌ لَدُني، هناك وفرقٌ بين العلم التجريبي والعلمٌ اللدني، لو أخذت آلةً من هذه الآلات، وأنت لا تفقه في تصميمها شيئاً، فنزعت هذا الشريط فتوقّف الصوت، إذاً هذا الشريط للصوت، نزعت هذا المفتاح فارتفع الصوت كثيراً تقول: هذا المفتاح لضبط الصوت، مثل هذا العلم ـ العلم التجريبي ـ هو الذي يتعلّمه الإنسان من خلال الواقع، ولكنّ العلم الذي يُعَلِّمه الله لأنبيائه نوعٌ آخر، إما أن تكتشف حقائق العلم بالتجربة فعلمك تجريبي، وإما أن تأخذه من الله مباشرةً فعلمك لَدُنِّي، لذلك قالوا:

" الحقائق يكتشفها العلماء بالتجربة، وتنحدر إلى الأنبياء عن طريق الوحي " فهذا النبي العظيم تعلّم لغة الطير لا عن طريق التجريب ؛ بل عن طريق الإعجاز، فالله سبحانه وتعالى علّمه منطق الطير..

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(16))

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

1 – يجب أن تنسب الفضلَ لله وحدَه:

إذ تحدّث الإنسان عما أعطاه الله عزّ وجل قد تزلُ قدمه إلى الفخر، وقد تزلُ قدمه إلى العُجب، وقد تزل قدمه إلى أن يحقِق بين الناس سمعة مُتَأَلِقة، ليس هذا هو المطلوب، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الله وحده يعلم إذا قلت عن نفسك ما قلت، وهو يعلم ما إذا كنت تبتغي الفخر أو تبتغي التبيان والتوضيح، أنت أحياناً تسلك سلوكاً معيّناً، فتقطف ثمار هذا السلوك، هذا درسٌ من الله عزّ وجل، فإذا وضّحت هذا الدرس للناس ليس هذا من قبيل الفخر ولا من قبيل العجب ؛ بل من قبيل إيضاح الحقائق، تبيين الحق، وتبيين الحق، عهدٌ أخذه الله على العلماء الذين يحتلون مكانة المعلمين، فسيدنا سليمان قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (16))

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من الآية 35)

لكن الله يعلم أن هذا النبي العظيم حينما طلب الملك ما طلبه ليستمتع به، وما طلبه ليعلو به على الناس، ولا طلبه ليُسَخِّرَ هذا الملك لمصالحه الشخصيّة، إنما طلبه ليكون عوناً له على هداية الخلق، فالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[من سنن البخاري عن عمر بن الخطاب]

إذا تحدّثت عن هذا الشيء فلا مانع، أما إذا آتاك الله شيئاً خاصّاً بك، ومتعلّقاً بالدنيا فليس من الحكمة، ولا من الرحمة، ولا من التواضع أن تحدّث الناس به، فإذا أكرمك الله بالمعرفة، أو أكرمك الله بحالٍ طيّب، وذكرته للناس فمن أجل أن تشجّعهم على ذلك، أما إذا ابتغيت به أن ترتفع على الناس فهذا فخرٌ نعوذ بالله منه، أما سيدنا سليمان قال:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

ولمجرّد أن تعزو الفضل إلى الله عزّ وجل فهذا أحد أنواع الشكر، لذلك المؤمن كيفما تكلّم يقول: هذا من فضل الله علي، لقد أكرمني الله بكذا، لقد أعانني على فعل هذا العمل الطيّب، لقد سمح لي أن أدعو له، كل عملٍ طيّبٍ تعمله يجب أن تعزوَهُ إلى الله لا أدباً ولا تواضعاً بل حقيقة، هذا الذي حصل، لو لا أن الله سبحانه وتعالى سمح لك لما أنطقك، لو لا أنه أعانك لما مكّنك، لو لا أنه ألهمك لما يَسّرَ لك..

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا باللّهِ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(88))

(سورة هود)

تكفينا هذه الآية، ما من عملٍ طيّبٍ في الأرض يحقِق نتائجه إلا بتوفيق الله تعالى، هكذا..

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا باللّهِ)

(سورة هود)

(وَقَالَ يَا أَيّهَا النّاسُ عُلّمْنَا مَنْطِقَ الطّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلّ شَيْءٍ (16))

2 – شمولية المُلكِ في قوله: وَأُوتِينَا مِن كُلّ شَيْءٍ

إنه يقصد بما آتاه الله من تسخير الرياح، ومن تعليم الناس، ومن معرفة الله عزّ وجل، ومن الحكم بين الناس والقضاء بينهم، هذا كلّه مشمولٌ بقوله تعالى:

(وَأُوتِينَا مِنْ كُلّ شَيْءٍ إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

لا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعانيها..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي)

(سورة هود: من الآية 28)

الأمور واضحة جداً.

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود: من الآية 28)

يمكن أن يكون المؤمن بنظر من حوله من أقربائه، من جيرانه، من أصحابه أن تكون بائساً، فهو مسكين، وما حَصّل شيئاً من الدنيا بنظرهم، وهمه الله، ما له إلا هذا الهم ؛ الصلاة والعبادة فقط، هذا المؤمن الذي يظنُّه بعض الناس ما حصّل شيئاً قد يكون من ملوك الدار الآخرة، قد يكون هذا المؤمن من أسعد الناس الذين حوله، قد يكون من أرفعهم عند الله مكانة، فإذا جاءهُ ملك الموت انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار العمل إلى دار الإكرام، من دار التكليف إلى دار التشريف، من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، وإلى الأبد في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، فهذا واللهِ هو الطُموح، هذا والله النشيط، هذا والله الذي عرف كيف ينال الحظّ الأوفر..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

(سورة هود)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمْ الْمَفْتُونُ (6))

(سورة القلم)

البطولة لا لمَن يضحك أولاً ؛ بل لمن يضحك آخراً، هذه البطولة، الغنى والفقر ليس في الدنيا، الغنى والفقر بعد العرض على الله، الفوز ليس أن تشتري أرضاً ثم يرتفع ثمنها إلى مائة ضعف، ليس أن تمتلك بناءً ضخماً يغنيك ويغني أولادك من بعدك، لا، البطولة والغنى أن تُزَحْزَحَ عن النار وتدخل الجنّة..

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

البطولة لا أن تُرضي الناس، بل أن ترضي ربَّ الناس، البطولة لا أن تكون عند الناس ذا شأنٍ عظيم ؛ بل أن تكون في عين الله كبيراً، أن تكون بأعين الله كما قال الله عزّ وجل، البطولة أن تكون العاقبة لك، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور)

وقال أيضاً:

(وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(16))

3 – فائدةٌ مستنبطةٌ من قوله: ِإنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

لو قال: إن هذا فضلٌ مبين فما الفرق بين الجملتين ؟، نجد الفرق تحدده كلمة **" هو "**. فماذا تعني كلمة **" هو "** ؟..

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

أيْ كلُّ ما سواه ليس فضلاً، الفضل الوحيد هو أن تعرف الله عزّ وجل، وأن تستقيم على أمره..

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

لو قال: إنّ هذا فضلٌ مبين، فإنها لا تعطي هذا المعنى..

(إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ (16))

هذا هو الفضل، وما سواه ليس فضلاً، وما سواه سراب، ما سواه وَهْم، ما سواه ظن..

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ وَالطّيْرِ (17))

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ وَالطّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

1 – تسخير الجن والإنس والطير لخدمة لسليمان:

الله سبحانه وتعالى سَخّرَ لهذا النبي عدداً كبيراً من الإنس يعملون بأمره، وعدداً من الجن، وعدداً من الطّيْر، سُخّر لهذا النبي العظيم الجن ليس مجموعهم بل بعضهم..

(مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ وَالطّيْرِ (17))

يفيد هذا المعنى كلمة (من)، لأن من للتبعيض، أيْ سُخّر لهذا النبي من الجن عدد، ومن الإنس عدد، ومن الطير عدد..

(فَهُمْ يُوزَعُونَ (17))

2 – فَهُمْ يُوزَعُونَ

أي يُجْمَعون، أيْ جمع الله له هؤلاء جميعاً، أولهم على آخرهم، أي جُمِعوا في موكبٍ واحد، أما الطير فيبدو مما سنصل إليه أنه ليس مطلق الطير ؛ بل نوعٌ خاصٌ من الطير يتفوّق على أمثاله، فليس من شأن الطير إذا حَلّقَ فوق مدينة أن يتعرّف إلى ملِك هذه المدينة، وإلى طاعته لله عزّ وجل، وإلى معرفته بالله، وإلى انحرافه أو استقامته، هذا ليس من شأن الطير، لكن هذا النبي الكريم سُخّر له طيرٌ من نوع خاص، عنده قوة إدراكٍ لا يملكها أمثاله من الطيور، والجن كما تعلمون..

(يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنسِ)

(سورة الرحمن: من الآية 33)

من صفات الجن:

1 – الجنّ يرون الإنس ولا عكس:

المخلوقات بعضُها مكلّف، وهو الإنس والجن، مكلّفٌ بالأمانة، مكلّفٌ بتزكية نفسه، مكلّفٌ بطاعة الله عزّ وجل، فالجن مخلوقات خُلِقَت من مارجٍ من نار، سريعة الحركة كما ورد في القرآن الكريم، بعض الجن آمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، الجن لهم صفاتٌ، منها أنهم يرون الإنس، أما الإنس فلا يرونهم..

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

الجن مخلوقات نحن لا نراهم، لا نستطيع أن نقول عنهم إلا ما قاله الله عزّ وجل من دون زيادة، لأن سبيل الإيمان بهم هو الخبرُ اليقيني، الخبر الصادق، اليقين الإخباري، لذلك نكتفي بما ورد في القرآن الكريم في سورة الجن وفي مواطن أخرى، ليس للجن سلطانٌ على الإنس، والدليل:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

2 – الجنّ يوسوسون:

الجن يملكون الوسوسة..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4)الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(5)مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6))

(سورة الناس)

هذا كلّه نعرفه من كتاب الله عزّ وجل، ولا نستطيع أن نضيف عليه شيئاً آخر، لا نستطيع أن نراهم، أما هم فإنهم يروننا، ويوسوسون، ولكن لا يملكون علينا سُلطاناً إطلاقاً..

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17))

جُمِعوا في موكبٍ واحد..

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ (18))

حَتّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ

هذا الموكب الذي فيه النبي الكريم سليمان، وفيه عددٌ كبيرٌ من الإنس ومن الجن ومن الطير، هذا الموكب الذي جُمِعَ له، وسُخِّر له، في أثناء تحركُه أتى على وادي النمل، هذه القصّة فيها عدد كبير من خَرْق العادات.

قصة سليمان:

1 – بين المستحيل عقلا والمستحيل عادةً:

الآن أريد أن أقف معكم قليلاً، نحن أحياناً نقول: هذا الشيء مستحيل عادةً، وهذا الشيء مستحيل عقلاً، فما الفرق بين المستحيل عادةً والمستحيل عقلاً ؟

هناك فرقٌ كبير، الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، والكون جائز الوجود، ممكن الوجود، أي أن الكون خُلِقَ هكذا، وكان من الممكن أن يكون على خلاف ما خلق عليه، الإنسان يتكلّم، وكان يمكن ألا يتكلّم، الإنسان يأكل وكان من الممكن أن يُخْلَق بلا طعام ولا شراب، الإنسان له حركة معيّنة، له بصر معيّن، فالذي خُلِقَ الإنسان به على هذا الوضع، هذا ممكن، ومعنى ممكن أي ممكن أن يكون في شيء آخر، ممكنٌ أن يكون الإنسان من غاز، أو من نور، أو من المعدن، ممكن، فكل شيء خلقه الله عزّ وجل نقول عنه: هذا ممكن، الكون كلّه ممكن، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود، في علم العقيدة هناك شيءٌ واجب الوجود، وهناك شيءٌ ممكن الوجود، وهناك شيءٌ مستحيل الوجود، وهو الله وحده.

عندنا الآن خرق للعادات، بحكم العادة مستحيل أن يمشي إنسان في الطريق فيستمع إلى نملة، ما تقوله لمثيلاتها، إذاً هذا خرقٌ للعادات، وأن تعرف النملة أن هذا نبيٌّ عظيم، وهؤلاء من حوله جنٌ وإنسٌ وطير، أيضاً هذا خرق للعادات.

مجتمع النمل نظام مذهل:

بالمناسبة: لو أن هناك وقتاً، واطلعنا فيه على حقيقة مجتمع النمل لأخذنا العجبُ العُجاب، شيءٌ لا يصدّق، مجتمع النمل ومجتمع النحل من حيث النواحي الاجتماعيّة والنظام أرقى من بني البشر، هناك مستعمرات للنمل، هناك مزارع للنمل، النمل يربي بعض الماشية، فهناك حشرات خاصّة يقتات النمل على رحيقها، يربيها في مزارع، النمل له قيادة، النمل له نظام في الانضباط عجيب جداً، النمل يُرْسِل

استطلاعاً إذا تنقّل، النمل يخزّن موادّه الغذائيّة بعد أن ينزع الرشيم من القمحة، وفي بعض أنواع الحبوب لها رشيمان فينزعهما لئلا تنمو.

في النمل شيءٌ لا يصدّق، سواء في حركاته، انضباطه، وعدوانه، وحروبه، سِلمه، ونظامه، وزواجه، إنّ مجتمع النمل مجتمعٌ أرقى من مجتمع البشر من حيث التنظيم والانضباط، وكذلك مجتمع النحل.

كما قلت في أول الدرس: إذا افتخر الإنسان بنظامه ففي الحيوان من هو أشد منه انتظاماً، إذا افتخر بحجمه، إذا افتخر بعظمه، إذا افتخر بقوّته، إذا افتخر بجماله، إذا افتخر بسفاده، فأيُّ حيوانٍ، أيٌّ صفةٍ يفتخر بها الإنسان ففي الحيوان ما يتفوّق بها عليه، إلا أن الإنسان خُلِقَ لمعرفة الله، فشرفُه من شرف مهمّته، فما دام في مهمّته فإنه يكتسب هذا الشرف العظيم، فإذا تخلّى عن مهمّته عاد إلى أسفل سافلين..

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(6))

(سورة التين)

إذاً:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ (18))

يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

بينما كان سيدنا سليمان مع الجن والإنس والطير إذْ سمع سيدنا سليمان نملة تقول:

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(18))

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ: لا يجوز قتلُ النمل:

استنبط العلماء أنه لا يجوز للإنسان أن يدوس نملة ويقتلها، لأن سيدنا سليمان لو حطم هذا النمل لكان ذلك من غير شعور منه ومن جنوده:

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أما أن تُداس النملة بقدمٍ شاعرةٍ، تشعر أن هذه نملة، وأنت سوف تدوسها، هذا ليس من أخلاق المؤمن استنباطاً من هذه الآية، إذاً: أن تعرف النملة أن هذا نبيٌّ كريم، وأن هذا الحشر الذين معه سُخِّروا له..

(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

وأنهم من الورع ومن اللطف بحيث أنهم لو قتلوا نملة لا يشعرون، هذا خرقٌ للعادات، وأن يستمع هذا النبي العظيم لهذه النملة تخاطب مثيلاتها، وتحذّرهم من هذا الموكب الذي قد لا يشعر فيدوسها جميعها بأقدامه، هذا أيضاً خرقٌ للعادات..

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا (19))

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَ

1 – التبسُّمُ من أخلاق الأنبياء والصالحين:

القهقهة ليست من أخلاق المؤمنين، النبي عليه الصلاة والسلام كان جُلُّ ضحكه التبسُّم.

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19))

الشكر نعمة يثاب عليها الإنسان، فالله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

2 – الكونُ مسخّر تعريفا وتكريما:

فهذا الكون الذي سخّره الله لنا سخّره مرّتين، سخّره تسخير تعريف، وسخّره تسخير تكريم، فيجب أن يكون موقفنا من التعريف الإيمان، ومن التكريم الشكر والعِرْفان، إذا آمنا وشكرنا حققنا المهمّة في الأرض، فإذا آمنا ولم نشكر، أو شكرنا ولم نؤمن فقد اختلّت مهمّتنا، إذاً لابدّ من التضييق والعلاج، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

إذاً:

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (19))

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ

حدودُ الشكر:

الحدُّ الأول: الحدُّ الأدنى:

الشكر له حدّان، حدُّه الأول: أن تعزو هذه النعمة إلى الله، ما دمت تقول: أنا، ولي، وعندي، فأنت لا تعرف الله عزّ وجل، قال الشيطان: أنا فأهلكه الله، قال:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: من الآية 12)

وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأهلكه الله عزّ وجل.

وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

أنا، ولي، وعندي، هذه الكلمات فيها شرك.

أما الشكر فأن تعزو النعمة إلى الله عزّ وجل.

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى (19))

هذا الحدُّ الأدنى.

الحدُّ الثاني: الحدُّ الأعلى:

والحدُّ الأعلى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

أن تقابل النعمة بعملٍ طيّب، **" يا رب كيف أشكرك ؟** قال **" إنّك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

فأن تعزو النعمة إلى الله شكر، وأن تشكر الله عزّ وجل كثيراً شكر، وأن تعمل صالحاً شكر، وأن تفعلها معاً هذا نوعٌ طيبٌ من الشكر..

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلَى وَالِدَيّ (19))

يا رب كيف أشكرك، وشكرك لا يتمّ إلا بنعمةٍ أخرى مِن نعمك ؟ نعمة الشكر..

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (19))

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ

أي أن تعمل صالحاً فهذه ترضي الله عنك، فقمّة السعادة أن تعمل صالحاً فيرضى الله عنك، أن يكون عملك في مرضاة الله عزّ وجل، المؤمنون ابتغوا رضوانه، والمنافقون كرهوا رضوانه..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)

(سورة محمد: من الآية 28)

أما المؤمن فيبتغي رضوان الله عزّ وجل، لذلك: **" إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي "..**

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ (19))

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّالِحِينَ

في هذا الحال الطيّب، في هذا التجلي، في هذه السعادة الدائمة، في هذه الجنّة التي وعدت بها عبادك المؤمنين..

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّالِحِينَ (19))

بقي شيءٌ في هذه القصّة، هو أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطّيْرِ (16))

أو:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

فائدة جليلة: لماذا ذكر الله نعمة العلم على سليمان ولم يذكر نعمة الملك عليه ؟

الله عزّ وجل آتاه الملك أيضاً، فلِمَ لم يذكر الله الملك وذكر العلم ؟ قال بعض المفسّرين: لأنك إذا وضعت الملك إلى جنب العلم فليس بشيء، إذا وضعت الملك، وما أدراك ما الملك، إذا وضعته إلى جنب العلم فليس الملك شيئاً أمام العلم، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الملك لمن يحبُّه ولمن لا يحبُّه،

ويعطي المال لمن يحبُّه ولمن لا يحبُّه، لكن العلم اللدُنِّي، لكن العلم بالله لا يعطيه إلا لمن يحبُّه، فإذا أعطاك الله شيئاً يمتدُّ، تسعد به إلى الأبد، هذا الشيء المسعد إلى الأبد لا يمكن أن يُذْكَر معه شيءٌ يفنى مع الموت، من هنا كانت حكمة الله عزّ وجل أنه حينما ذكر أنه أعطى سليمان العلم لم يذكر معه الملك، لأن الملك لا يُقاس بالعلم، هل تقول: أعطيت فلان بيتاً وصحناً ؟ الصحن لا يُوازَن مع البيت، لذلك هذه بعض الحكمة من إغفال المُلك وإظهار العِلم.

يجب أن يعرف ذو العلم قيمة العلم:

شيءٌ آخر: اللائق بكل ذي علمٍ أن يَعْلَمَ قيمته، إذا شخص أتاه الله عزّ وجل العلم فلا يحسُن به أن يهين نفسه لأن الله كرّمه..

((ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

لا يستخف بعلمه، لا يضع علمه في مكان غير لائق به، لا يكون مع عامّة الناس، كيف ؟ هناك أماكن لا تليق بمن آتاه الله العلم أن يكون بها، كأن يُقحِم نفسه في مناقشاتٍ ما، في أعمال، في تصرُّفات، فالذي آتاه الله العلم ينبغي أن يُكَرِّمه بالتعفُّف، أن يكرّمه بالعزّة..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون: من الآية 8)

فلا يليق بكل ذي علمٍ إلا أن يعلم قيمة علمه، وأن يعلم مصدر علمه، وهو الله عزّ جل، وأن يتوجّه إلى الله بالحمد.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16))

(وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا (15))

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ (19))

في سطرين أو ثلاثة جاء ذكر الشكر والحمد، وبيان الفضل ثلاث مرات، فمن آتاه الله العلم يجب ألا يضيّعه، يقول سيدنا علي: **<< قِوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم >>.**

ما الذي يدعو الناسَ إلى التعلُّم ؟

ما الذي يدعو الناس إلى التعلّم ؟ أن يكون العالِم في مستوى علمه، وأن تكون أخلاقه في مستوى أقواله، وأن يكون عمله مطابقاً لقوله، أن يكون متخلِّقاً بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، حتى يرغبَ الناس في علمه، فإذا ضيّع العالِم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره.

في هذا الدرس أنهينا قصّة سيدنا سليمان مع النمل، وبعدها ننتقل إلى هذا النبي الكريم مع الهدهد، وبعدها مع الملكة بلقيس.

سؤالٌ وفائدةٌ:

وبعد، فهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا قدّم الله تعالى في هذه الآية الجن على الإنس ؟ قال تعالى:

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(17))

القاعدة: أن تقديمَ الجن على الإنس أو الإنس على الجن بحسب أهمية الموضوع، فإذا كان الحديث عن إعجاز القرآن، يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

وإذا كان الحديث عن خرق السماوات والأرض:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

فالإنس أرسخ قدماً من الجن في مجال اللغة والبيان، فقُدِّم على الجن.

هنا لما حشر ربنا عزّ وجل لهذا النبي العظيم الجن والإنس والطير فقط حشرهم ليُعينوه، ويبدو أن الجن أقدر على أن يتنَقّلوا بسرعة من مكان إلى آخر من الإنس، وأقدر على عون سليمان من الإنس كذلك، فقُدِّموا على الإنس تقديماً يتناسب مع موضوع الآية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 20 - 31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-29

بسم الله الرحمن الرحيم

مغزى القصة القرآنية:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النمل، دائماً وأبداً نكرر هذه الحقيقة، وهي أن القصة في القرآن الكريم ليس المقصود منها حوادثها، ولا شخصيّاتها، ولا حوارها، ولا بدايتها، ولا نهايتها، ولا عقدتها، ولا خِتامها، ولكنّ شيئاً واحداً هو المقصود من القصة في القرآن الكريم إنه مغزاها، أحداثٌ وقعت وانتهت، ومضى عليها آلاف السنين، وأصبحت قرآناً يُتلى إلى نهاية الدوران، هذا كلام الله، كلام الله القديم، فماذا نستفيد نحن من هذه القصة ؟ لا تعنينا هذه المواقف، ولا تلك الحوادث، ولا هذه الحركات، ولا تلك السَكَنات، ولا تصوير الأحداث، يعنينا شيءٌ واحد، هو المغزى الذي أراده الله سبحانه وتعالى حين قصّ علينا هذه القصة، تعنينا العبرة التي ذكرها الله عزّ وجل فقال:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: من الآية 111)

أين هي العبرة ؟ أين هو الدرس ؟ أين هو الاستنباط ؟ أين هو المغزى ؟ هذا الذي يعنينا في قصة سيدنا سليمان مع النمل تارةً، ومع الهُدْهُدِ تارةً، ومع الملكة بلقيس تارة ثالثة.

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذا النبي العظيم التي أوتي المُلك، وفي درسٍ سابق بيّنت لكم أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا (15))

(سورة النمل)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

1 – فضلُ العلم على المُلك:

لم يقل الله عزّ وجل: إنه آتاه مع العلم المُلك لماذا ؟ لأنك إذا وازنت بين العلم وبين الملك لا يعدُّ الملك شيئاً ذا قيمةٍ أمام العلم، الملك شيءٌ زائل، والإنسان أحياناً في غضون أيامٍ يفقد ملكه، فالملك شيءٌ زائل؛ ولكن العلم شيءٌ باقٍ، من هنا لم يشأ الله عزّ وجل أن يضيف إلى العلم شيئاً إلا أن يكون في

مستواه، فالملك مع أن الله سبحانه وتعالى آتاه لسيدنا سليمان، ولكنه لم يُذْكَر حينما تكلم الله عن العلم الذي آتاه سيدنا سليمان، هذه واحدة.

2 – الأصلُ في القوة والملك أنهما في خدمة الحق:

الشيء الثاني، هو أن هذا الملك العظيم نستفيد من قصّته بشكلٍ مجمل، كيف أن القوة والمُلك يمكن أن توظّفَ في سبيل الحق، من قال لك: إن القوة طائشة ؟ أحياناً تكون هادفة، أحياناً توظّف القوة في سبيل نشر الحق، في سبيل إذاعة الهدى، في سبيل أن يحل الفضل والكرم والخُلُقُ في العالم، إذاً فالله سبحانه وتعالى جعل هذه القصة بين أيدينا لتكون الحقيقة الأولى فيها أن المُلك، وأن القوة، وأن السلطان يمكن أن يكون صاحبها في أعلى درجات الإيمان، يمكن أن يكون نبياً وهو في أعلى درجة من درجات الملك والقوة والسلطان، وكيف يمكن للملك والقوة والسلطان أن توظّف كلها في خدمة الحق، وفي نشر الحق، وفي نُصْرَةِ الحق، هذا هو محور القصة.

إذاً: محور القصة أن الملك ليس بشيءٍ إذا قيس مع العلم، لأن العلم يمتد أثره إلى الأبد ؛ بينما الملك ينتهي أثره عند الموت، يكفي أن يقف القلب ينتهي الملك، لمجرد أن يتوقف القلب يُسْلَب الملك، لكن العلم يستمر مع الإنسان إلى أبد الآبدين، مِن هنا فقد أراد الله سبحانه وتعالى من هذه القصة أن إنساناً ما، إذا آتاه الله قوةً، إذا آتاه الله جاهاً، أو إذا آتاه الله شأناً، أو آتاه الله منصباً، أن يجعل قوّته في سبيل الحق، وفي خدمة الحق، وفي نُصْرَةِ الحق، كما أن المال وهو قوة في الأرض يوظّف في سبيل الله، وكما أن العلم وهو قوةٌ أخرى يوظّف في سبيل الله، كذلك القوة والسلطان يمكن أن توظفا في سبيل الحق.

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ (20))

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ

1 – من لوازم الراعي تفقُّدُ رعيّتِه:

سيدنا سليمان كان حازماً إلى جانب اليقظة فقام يتفقّد جنده، وتَفَقُّدَ الشيء من لوازم الحزم في الملك، يقابل التفقدَ التسيُّبُ، إما أن تتفقد، وإما أن تُسيب، والتسيب ليس من صفات الأمير الناجح، ولا الملك الحازم، ولا القائد الكفء..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ (20))

باديءَ ذي بَدء حينما قال الله عزّ وجل:

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ وَالطّيْرِ (17))

ليس الجن والإنس والطير كلها مسخرة لسليمان عليه السلام:

ليس معنى هذه الآية أن كل الإنس الذين عاصروا هذا النبي الكريم سخروا له، وليس معنى الآية أن كل الجن سُخِّروا له، وليس معنى الآية أن كل الطير سُخر له، سَخَّر له بعض الإنس وبعض الجن وبعض الطير، شيءٌ ثالث: ليس معنى ذلك أن الطير التي سخرها الله له هي كغيرها من الطيور، طيورٌ خاصة عندها قوة إدراكٍ خاصة، عندها تميُّز، عندها حالاتٌ استثنائية لا توجد عند بقيَّةِ الطيور، وسوف ترون معي بعد قليل معنى هذا الكلام..

(وَتَفَقّدَ الطّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ (20))

فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ

لو أن الهداهِد كُلّها سُخِّرَت له لما أمكنه أن يعرف واحداً من واحد، ولكن هدهداً بعينه، وذاته، وهدهداً خاصاً سُخِّرَ له، وهو ذو إمكاناتٍ رفيعة، تفقّدَهُ فلم يجده، وهذا من شأن القادة أن يتفقّدوا من معهم..

(وَتَفَقّدَ الطّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20))

دروس في القيادة:

1 – سؤالُ سليمان عن سبب غياب الهدهد:

كلمة الهُدْهُد، هذه الألف واللام، أي الهدهد المعروف، المعهود، الذي أعرفه، الهدهد الخاص، المُعَيَّن، فحينما سأل عن الهدهد.. هنا نقطة مهمة جداً، أنت في مستوى القيادة إذا تساهلت مع أحدِ المرؤوسين، تساهلت معه، ولم تأخذه بالحزم، إذا شاع عنك أنّك لست حازماً، ولست محاسباً، ولست ضابطاً لأمورك، إذا شاع عنك ذلك هذا التسيُّب عند هذا الهُدهد ينتقل بالعدوى سريعاً، خلال أيام، خلال أسابيع، خلال أشهر، وعندئذٍ جميع الهداهد لا تحضر، ولا تقوم بالأعمال الموكلة إليها.. لذلك حينما تفقد الهدهد ولم يجده، عرف كلّ من حول هذا النبي العظيم أن الهدهد غائب، وغائب بلا إذن، ولو أنه غائب بإذنٍ شرعي لما سأل عنه هذا النبي الكريم، إذا أرسلت أنت إنساناً بمهمةٍ وغاب عنك أياماً لن تسأل عنه لأنك

أنت الذي أرسلته، إذاً: استنبط من هنا أن غياب هذا الهدهد، كان غياباً من دون إذنٍ، كان غياباً غير مشروع، وعرف.. حينما تفقّد سيدنا سليمان الهُدهد.. منْ حولَه من الجن والإنس والطير أنه غائب بلا إذن، هم يرقبون موقفه، ماذا سيفعل ؟ سيسكت ؟ لا يحاسبه، لا يأخذ على يده، لا يضبط أموره، عندئذٍ هذا التسيب وهذا الخلل، وهذا التقصير يمتد إلى بقية الهداهد، وإلى بقية أنواع الطيور، وإلى الإنس، وإلى الجن، هذا درسٌ في القيادة.

2 – تعلّموا تسييرَ المسؤولية من سليمان عليه السلام:

إذا كنت أنت معلم مدرسة، وكلفت الطلاب بوظيفة، وطالب لم يكتب الوظيفة، جميع الطّلاّب قد كتبوا هذه الوظيفة باستثناء واحد منهم، فالطلاب عندها ينظرون إليك ماذا ستفعل ؟ لكنك لم تفعل شيئاً، وقلت له: أنت لمْ تكتب وظيفتك، فأنت حر، من جراء هذه الكلمة فسيأتيك في اليوم التالي نصف الطلاب من دون وظيفة، بالضبط، وبعد يومين لن تجد من الطلاب كلهم إلا واحداً أو اثنين كتبا الوظيفة، الطلاب راقبوك، ورأوا أنك لم تفعل شيئاً، لم تأخذ موقفاً حازماً، لم تضرب على يد أحدٍ، لم تتوعده، لم تهدده، لم تفعل شيئاً، قصّرَ وترك واجبه وأهمل وأنت ساكت.

وكذلك على مستوى الأب، إذا كنت أباً وعندك أولادٌ عِدّة، وتجاوز أحد أولادك الحدود ولم تفعل شيئاً لا سلباً ولا إيجاباً، هذا التجاوز يسري بالعدوى بعد أيامٍ إلى الآخرين، إذا كنت مدير معمل، إذا كنت مدير مستشفى، إذا كنت مدير مدرسة، إذا كنت في منصبٍ قيادي، ووقع أحدٌ ممّن حولك بخللٍ، بتقصيرٍ، بذنبٍ، بمخالفةٍ، بتجاوزٍ، ولم تفعل شيئاً، فهذا التقصير فأسرى إلى بقية المرؤوسين.

فهذا الموقف إذاً موقف يعلِّمُنا كيف نكون آباء ناجحين، وكيف نكون معلِّمين ناجحين، وكيف نتصرف بشكلٍ صحيح مما يوصل إلى النتيجة المرجوّة، بعض أصحاب سيدنا عمر رضي الله عنه، قال له: **<< إن الناس خافوا شدتك، فبكى هذا الخليفة الرحيم، وقال: والله يا أبا ذر، لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى >>.**

كان يمشي هذا الخليفة العظيم يوماً ما في طرقات المدينة، رأى رجلاً قاعداً لم يأبه له، ولم يَقُم له، ولم يُبَجِّل سلطان الله فعلاه بالدرة، وقال: **<< ألا تهاب سلطان الله ؟ فإن سلطان الله لا يهابك >>**، لو تركه وشأنه لتفاقم الأمر ولتجاوز الناس، هذا درسٌ في القيادة..

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20))

غاب من دون إذن..

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا (21))

النبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض الأحاديث الشريفة:

((ضع السوط حيث يراه أهل البيت))

[ورد في الأثر]

يجب أن يعلم مَن حولك أنك في الوقت المناسب قد توقِعُ فيهم العقاب الأليم، والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ)

(سورة الأنفال: من الآية 60)

أي أن هذه القوة ليست للاستهلاك ولا للاستخدام، ولكن أحياناً لكي ترهب عدوك، لذلك الدول الكبرى التي تملك أسلحة فتّاكة تكون مرهوبة الجانب، قد لا تستخدم هذا السلاح، ولكنها تبقى مرهوبة الجانب، وكذلك الله سبحانه وتعالى أمرنا كمسلمين أن نُعِدّ لأعدائنا القوة التي توقفهم عند حدهم، وتحجزهم عن أن يعتدوا علينـا، وعلى أراضينا.

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ (21))

لكن العدالة التي ينطق بها هذا النبيُ الكريم، والحقَ الذي رفع لواءَه هذا النبيُ الكريم، يجعله يُذعن للسلطان المبين إذا جاء به الهدهد، قال:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21))

وْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ

طلب العذر قبل اللوم والعتاب:

إمّا أن يقدِّم الدليل المُقْنِع الواضح البيّن على سبب غيابه، عندئذٍ يكون غيابه مشروعاً وبإذنٍ شرعي، أو..

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ (21))

من هنا قال بعضهم: **" وكان لا يلوم أحداً فيما لا يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره "**، فقبْلَ أن تَصُبّ جام غضبك على أخيك، قبل أن تقول: سأفعل كذا وكذا، انتظر وقل: إما أن يأتيني بعذرٍ مقنع

بينٍ ظاهر، وإما لأفعلنّ كذا وكذا، أمّا أن تحكم عليه غيابياً، وهذا ليس من شأن المؤمن الذي ينضبط بالحق، ويذعن له، مع أنه نبيٌّ عظيم، ومع أنه غضب غضباً شديداً، ومع أن غياب الهدهد كان غير مشروع، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا كيف تكون الأمور، إذ لابدّ من أن يأتي بالسلطان المبين، أي بالعذر الشرعي، بالحجة المقنعة، بالدليل الواضح..

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ (22))

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ

لم يطل انتظاره، فما هو إلا وقتٍ قصير حتى جاء الهدهد.

تعلّمْ حُسنَ الاعتذار من الهدهد:

الآن الهدهد يقف موقفاً في منتهى الذكاء، ألم أقل لكم قبل قليل: ليس هذا هدهداً عادياً، لا يمكن لهدهدٍ من عامّة الهداهد أن يكون بهذا الذكاء، وهذه الحكمة، وذاك الإدراك، وهذا العمق، فحينما تكون مُخالفاً وتواجه الذي خالفته وتراه في أشد حالات الغضب لابدّ من أن تسكب على غضبه الماء البارد حتى يَسْكُنَ غضبه، ما الذي يجعل هذا الملك العظيم المَرهوب الجانب يسكت، ويحجم عن إيقاع العذاب، ويحجم عن صب غضبه على الهدهد، وما الذي يجعله يتصرف بحكمة ؟ أن تأتيه بشيءٍ غريب، بنبأٍ خطير، بحادثةٍ فريدة، لابدّ من أن تنجو منه وذلك بأن تصرفه عنك إلى شيءٍ آخر، لا بدّ من أن تصرفه عنك إلى شيءٍ آخر، ماذا قال:

(فقالَ أحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

فقالَ أحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

أحياناً يكون الابن متأخراً تأخراً شديداً، يدخل فيجد نفسه في جوٍ من الغضب سينصبُّ عليه، يأتيهم بخبر غريب: رأيت حادثاً مروعاً، فالأب والأم بدل أن يصبّا غضبهما عليه ينتقلان إلى موضوعٍ غريب، ما الحادث ؟ ماذا وقع ؟ تبدّد الغضب وهدأت العاصفة، والهدهد هكذا فعل، قال:

(فقالَ أحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

أنت سليمان أيها الملك العظيم، يا من سُخّرَت لك الطير، سُخر لك الجن والإنس، يا من سخرت لك الرياح، لكني

(أحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)

(وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22))

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ

كان الهدهد في سبأ، وسيدنا سليمان كان في القدس، ذهب إلى سبأ، وعاد من سبأ بنبأٍ يقين، يبدو أن سيدنا سليمان أراد أن يسمع ما النبأ ؟ ما هذا النبأ اليقين ؟ ما هذا الخبر الصادق ؟ ما هذه المشكلة الخطيرة ؟

استنباطات من قوله: إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

قال:

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ (23))

1 – الرجل والمرأة سواء في التكليف والتشريف:

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً))

[البخاري عن أبي بكرة]

دائماً وأبداً أقول لكم: المرأة كالرجل في شيئين ؛ في التكليف وفي التشريف، إنها مكلَّفة كالرجل تماماً بأركان الإيمان، وأركان الإسلام، عليها أن تعرف ما يجب أن يعلم بالضرورة، عليها أن تصلي، وأن تصوم، وأن تحج، وأن تفعل كذا وكذا، وأن تلزم الشرع، مكلفة بالإسلام والإيمان، إذاً هي مساوية للرجل في التكليف، ومساوية له في التشريف، مكلفة مثله، ومُشَرَّفة مثله، والدليل:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(35))

(سورة الأحزاب)

2 – ليس الذكر كالأنثى:

إذاً: المرأة كالرجل تماماً في التكليف وفي التشريف، لكن المرأة امرأة، والرجل رجل، والله سبحانه وتعالى أودع فيها من الصفات النفسية، ومن الصفات العقلية، ومن البُنْيَة الجسدية، ومن العواطف الاجتماعية ما يليق بأنوثتها، فالمرأة امرأة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، إن كل شيءٍ فيها في خدمة وظيفتها الخطيرة، إن تفكيرها، إن بُنيتها، إن نفسيتها، إن عقليتها، إن أي شيءٍ فيها موظفٌ لخدمة هذا الدور الخطير الذي تقوم به في الأسرة.

والرجل عقله، وبنيته، وعضلاته، وتفكيره، وغَلَبَةُ عقله على عاطفته هذه كلها بعض مقومات الرجولة، وإن الرجل قد رُكِّبَ هذا التركيب لينجح في دوره خارج البيت.

إذاً: فمِنْ أين تأتي المشكلة ؟ من تبديل الأدوار، فهذا الجهاز كل شيٍ فيه من أجل أن يعطيك البردَ في الصيف الحار.. مكيّف.. وهذا الجهاز كل شيءٍ فيه مُسَخَرٌ من أجل أن يشع لك بالدفْء في الشتاء، فإذا وضعت المكيّف في الشتاء والمدفأة في الصيف، تكون قد فعلت شيئاً غير مقبول، فمن أين يأتي الفساد ؟ من تبديل الأدوار، المرأة أكرمها الله بالجمال لتكون مُسْعِدَةً لزوجها، فإذا عَرَضَتْ هذا الجمال لكل إنسان، ولكل من يطلبه، عَمَّ الفساد في الأرض، الرجل آتاه الله العقل، والحكمة، والعضلات المفتولة، ليكون دوره خارج البيت دوراً قيادياً فعّالاً، فإذا تخلّى عن دوره وصار مقوداً فقد بدّلنا المواقع، وبدلنا المواقف، من هنا قال عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة من درجات تكريم المرأة:

((ما أكرمهن إلا كريم، ما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، يغلبهن لئيم))

[ورد في الأثر]

((لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

((أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))

[الترمذي عن عمرو بن الأحوص]

فأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام التي تتعَلّق بإكرام المرأة لا تعدُّ ولا تُحصى، ولكن أن تسلِمها وظيفةً لا تتناسب مع فطرتها فلا بدّ من أن يرجح عندئذٍ عقلها على عاطفتها، ولن يكون ذلك.

مثلاً يصعب على امرأةٍ أن تحكم بالقتل على إنسانٍ مجرم، فطبيعة بنيتها، عاطفتها، أمومتها، حبُّها لأولادها لا تمكنها من أن تنهي حياة مجرم، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من الآية 179)

القتل أنفى للقتل، حياة المجتمع بقتل المجرم، لهذا فالمرأة قد لا تستطيع أن تفعل ما يوكل للرجل، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً))

[البخاري عن أبي بكرة]

لكن هذا الهدهد جاء بخبرٍ غريب..

(فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (23))

إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ

هذه الكلمة تُذَكِّرُني بآية..

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

كل شيء، أنواع الأموال، أنواع البيوت، أنواع المركبات، أوتيت كل شيء،

(وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ)

يبدو أن الهدهد نظر إلى أمرها، وإلى عرشها، وإلى قصرها، وإلى جنودها، وإلى خدمها، وإلى حشمها، وإلى جيشها، وإلى إمكاناتها، وإلى طاقاتها..

(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

إلى الآن الموقف معقول، امرأةٌ تملك أمة، لها عرشٌ عظيمٌ، أوتيت من كل شيء، أيّ شيءٍ يخطر في بالك، ففيه أنواعٌ منوّعة، أي شيءٍ يراود خاطرك فمِن مثلِه أعدادُ لا تحصى..

(وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

لكن المشكلة الخطيرة، لكنّ مصيبة المصائب، لكن الطّامة الكبرى..

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (24))

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ

أين عقلهم ؟ أين تفكيرهم ؟ كيف حكموا على الشمس أنها ربُّهم ؟ أيعبدونها من دون الله ؟! ألا تغيب الشمس ؟

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78))

(سورة الأنعام)

مَن يدير الكون في غياب الشمس ؟

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (24))

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

وأنكى من ذلك أن الشيطان زَيَّنَ لهم أعمالهم، فالمشكلة الخطيرة أن الضال حينما يظن أنه على حق فأنت تحارُ كيف تهديه ؟ من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالمٌ فاتبعوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهلٌ فعلِّموه، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فمن البليَّة أن يعصي الإنسان ربه، ومن البلية الأشد والأنكى أن يعصي ربه، ويظن أنه بهذا مُفلِح ومحقٌّ، هذا هو الخطر، هذا أخطر ما في الانحراف، إذا كنت منحرفاً.. ولا سمح الله.. وتعلم أنك منحرف فالقضية سهلة جداً، فسرعان ما تعود إلى الصواب، ولكن أخطر ما في الانحراف أن تظن أنك على صواب، وأن الناس كلهم على ضلال، وأنت بهذه الطريقة قطعت عليك طريق الهدى، قطعت عليك طريق الرجوع.

(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(24))

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ

السبيل إلى الله مسدودة، فالطريق إلى الله غير سالكة، شهواتهم كانت حجاباً بينهم وبين ربِّهم، شِرْكهم كان عقبةً كؤوداً بينهم وبين التوحيد، معاصيهم أخجلتهم، الشرك أقعدهم، عمى بصيرتهم أربكهم، أيُّ هدهدٍ هذا ؟! ما هذا الهدهد الذي استطاع أن يصرف النبي العظيم عن أن يَصُبَّ عليه غضبه وحوّله إلى خبرٍ مثير، وكيف أن هذا الهدهد تَلَمَّسَ أن هذه المرأة التي..

(تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

وهي تسجد وقومها للشمس من دون الله، وأن الشيطان زين لهم الأعمال، فصدهم عن سبيل الله فهم لا يهتدون ؟

أَلّا يَسْجُدُوا لِلّهِ

والهدهد الآن يتساءل:

(أَلّا يَسْجُدُوا (25))

ما الذي يمنعهم أن يكون سجودهم لله عزّ وجل، خالق الشمس والقمر، خالق الأرض والجبال، خالق الهواء والماء، خالق الطعام والشراب، خالق الإنسان، خالق كل شيء ؟ ما الذي يحول بينهم وبين السجود لله عزّ وجل ؟

(أَلّا يَسْجُدُوا (25))

الّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

مَن هو الله ؟ الذي.

(الّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (25))

1 – مخبوءُ السماوات:

أيْ أن هذه السماء ما مخبوءٌ فيها ؟ المطر، بينما هي صافية، وبينما هي زرقاء صافية، وبينما اليأس قد انعقد على النفوس، بينما الناس يبتهلون إلى الله عزّ وجل بالغيث، ما هي إلا ساعاتٌ قصيرة حتى تتلبّد السماء بالغيوم وينهمر المطر انهماراً كأنها أفواه القِرَب، فإذا هذا المطر يُحْيي الأرض بعد موتها، فإذا الأرض تهتزُّ بهذه السقيا، فإذا بها تصبح ذات لونٍ بهيج..

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ)

(سورة فصلت: من الآية 39)

إذاً:

(أَلّا يَسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (25))

2 – مخبوءُ الأرض:

الأرض ماذا تُخْبئ ؟ النبات، تزرع بذرةً صغيرةً جداً قد لا ترى بالعين، فإذا هي نبتةٌ شامخة، تحمل لك الفواكه الطيّبة والخضراوات التي أنت بحاجة إليها، هذا الغذاء الأساسي الذي نقتات به، كيف أكلته؟ كيف جنيته ؟ كيف نبت ؟ فهذا شيء عجيب جداً، ابذر بذوراً معينة، البذور كلها في نصف دنم تقريباً لا

يزيد حجمها على خمسة غرامات، بعد تسعين يوما تقريباً ترى أن نصف الدنم هذا مليٌء بالنبات إلى ارتفاع مترين ونصف تقريباً، أو متر ونصف، وهو يحمل أنواع الخضراوات، أين كان هذا الحجم ؟ هذه النباتات كيف نَمَت وفق برنامج خاص ؟ كيف أعطت ثمارها ؟ هذا هو الله عزّ وجل، اسجد لله شكراً وعرفاناً.

ولدينا أسئلة بسيطة جداً، فأنت ترى بأم عينك هذه البقرة التي تأكل الحشيش، ثم تُعطي الحليب، يا رب ما هذا المعمل الصامت ؟ يعمل بلا ضجيج، بلا وقود، أربعمائة حجم من الدم يحتاجها حجمٌ من الحليب، فالغدة الثديية للبقرة على شكل نصف كرة كأنها قربة، حول هذه القبة من الأعلى مجموعةٌ كبيرةٌ جداً من الأوعية الدموية، يجول في هذه الأوعية الدموية أربعمئة لتر من الدم، إلى أن يُستنبط من هذه الأربعمئة لتر لترٌ من الحليب في أسفل القُبّة، هذه البقرة تعطي في اليوم أربعين كيلواً، وهناك بقر هجين يعطي في اليوم ستين كيلواً حليباً، والحشيش نراه جميعاً بأم أعيننا، هل في الأرض كلها جهةٌ صناعية متفوقة تستطيع تحويل هذا الحشيش الأخضر إلى حليبٍ، تصنع منه الجبن واللبن والسمن وما شاكل ذلك ؟ هذا من آيات الله، هذه الدجاجة تعطيك البيضة، هذا الخروف يعطيك الصوف، يعطيك الجلد، يعطيك اللحم، يعطيك الدهن..

(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ (25))

3 – مخبوءُ الأرحام:

هذا الابن الذي أمامك كان نقطةً من ماءٍ مهين، في اللقاء الزوجي ثلاثمائة مليون حوين منوي، يتخلّق هذا الجنين من حوينٍ واحد لقّحَ بويضة، وهذه البويضة تنقسم، وتنقسم، وتنقسم إلى أن تصبح علقةً فمضغةً، إلى أن تصبح جنيناً، بعد تسعة أشهر إذا هي طفلٌ صغير له عين، وله أذن، وله أنف، وله فم، وله لسان، وله لسان مزمار، وله مري، وله معدة، وأمعاء، وبنكرياس، وصفراء، وكبد، وأمعاء دقيقة وغليظة، وله أوردة وشرايين وقلب، ورئتان، وله عضلات وعظام، وله أظافر، وله شعر، وله كظر، وله بنكرياس، وله دماغ، وفص جبهي، وفص قفوي، وفص جانبي، وبصلة سيسيائية، ومخيخ، وأعصاب حس وأعصاب حركة، ولكل شعرةٍ وريد وشريان وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، كل هذا مِن حوين واحد، يد من ؟ اسجد لله عزّ وجل، للذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، للذي خلق الأنعام من أجلك..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل: من الآية 5)

الآية الواضحة الصريحة، للطير:

(أولَمْ يرَوْا إلَى الطّيْر فوْقهُمْ صَاقاتٍ ويَقبْضْنَ)

(سورة الملك: من الآية 19)

4 – الطيرُ:

قوام الطيران الريشة، الريشة في الوقت نفسه عديمة الوزن متينة القوة، وذا أراد الإنسان أن يمتّن شيئاً زاد وزنه، على الريشة الواحدة ما يزيد على مئة ألف شارب، ولكل شاربٍ شويربات، الشويربات يزيد عددها على بضعة ملايين، ولكل شويربٍ كلاليب تجعل هذه الشويربات والشوراب سطحاً أملس يقاوم الهواء، وفي جسم الطائر ما يزيد على خمسةٍ وعشرين ألف ريشة.

(أولَمْ يرَوْا إلَى الطّيْر فوْقهُمْ صَاقاتٍ ويَقبْضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَانُ)

(سورة الملك: من الآية 19)

اسجد لهذا الإله العظيم الذي خلق الطائر، والله قرأت كلمة منذ أيام: عن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان.. اركب طائرة مثلاً، فالطائرة ملخص علم البشرية، وهي تَقِلّ اليوم أربعمئة راكب ؛ يركبون، ويأكلون، ويشربون، وينامون، ويستريحون وهم في الجو، على أي شيءٍ محمولون ؟ ما هذا النظام البديع ؟ هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

إن أعظم طائرةٍ صنعها الإنسان لا تقترب من مستوى الطائر، وهناك كتبٌ بآلاف الصفحات عن الطائر تقرؤها، لا تملك إلا أن تسجد لله عزّ وجل، يا رب، ما هذا الخلق العظيم ؟ هكذا الطائر، وهكذا الأنعام، وهكذا الأسماك، مليون نوع من السمك في البحار، كلها طعامٌ للإنسان..

(لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طريًّا)

(سورة النحل: من الآية 14)

لتأكلوا أنتم أيها البشر منه..

(لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طريًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ(14))

(سورة النحل)

5 – من أجهزة الإنسان:

الكبد:

لهذا الإله العظيم اسجد، للذي خلق الكبد، خمسة آلاف وظيفة.

المعدة:

للذي خلق المعدة، وفيها خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة، للذي خلق الأمعاء الدقيقة، تتجدد تجدداً كاملاً كلّ ثمانٍ وأربعين ساعة، وأنت لا تدري.

الدماغ:

اسجد لمن خلق هذا الدماغ، لمن خلق مئة وأربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد حتى الآن.

العينً:

من العصب البصري يخرج عصبٌ فيه تسعمائة ألف عصب، من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة، ادرس عن العين، وابحث عن العين، واقرأ عن الأنف.

الأذن:

واقرأ عن الأذن، وابحث ثم ابحث.

ما هذه الأذن ؟ الأذن الوسطى جهازٌ لتكبير الصوت إذا كان الصوت ضعيفاً، وجهازٌ لتخميده إذا كان قوياً، هل عندك جهاز كهربائي يكبّر، ويخَفّض في آن واحد وأنت لا تدري ؟ ما قيمة هذا الصيوان، هذه القناة، غشاء الطبل، العظيمات الأربع، الأذن الداخلية، كيف تميّز الأذن نغماً تطربُ له ؟ كيف تعرف أن هذا الصوت على الهاتف صوت فلان ؟ اسجد لهذا الإله العظيم، الذي شَقّ لك هذا السمع، الذي شق لك هذا البصر، الذي علّمَكَ البيان، جعلك تنطق، إن كل حرفٍ من الحرف التي تلفظها يحتاج إلى سبع عشرة عضلة، فإذا ألقيت محاضرة في ساعة، كم من كلمة، وحرف، وكم عضلة اشتركت في الإخراج، وأنت لا تدري ؟

(الرّحْمَانُ(1)عَلّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(30))

(سورة الملك)

6 – الماء:

ما هذا الخَزّان الذي يعطينا لهذه المدينة كل ثانية ستة عشر متراً مكعباً ؟ حينما تقل المياه يذعر الناس، يجأر الناس بالدعاء إلى الله عزّ وجل، ماذا نفعل إذا امتنعت السماء عن أن تمطر ؟

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ إِنّهُ كَانَ غَفّارًا(10)يُرْسِلْ السّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12)مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا(13))

(سورة نوح)

لماذا لا تخشونه ؟

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(14))

(سورة نوح)

من طور إلى طور إلى طور.

والله إن الآيات التي بثّها الله في الكون، التي بثها الله في جسم الإنسان، التي بثها الله في النبات، التي بثها الله في الحيوان، في الطيور، في الأسماك، في الجبال، في البحار، في الأنهار، شيءٌ لا يصدق، ولا تعدُّ ولا تُحصى، ولكن كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **<< ما أكثر العِبَر وما أقل المُعْتَبرين>>.**

فهذا الهدهد، أيكون الهدهد أعلم منك، وأنت إنسان تملك كل القدرات والطاقات التي تعين على المعرفة؟ أيكون هذا الهدهد وهو الطائر أعلم من كثيرٍ ممن خلق الله عزّ وجل ؟

(أَلّا يَسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25))

يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

يعلم، يعلم خائنة الأعين، إذا امتد بصرك إلى نظرةٍ لا ترضي الله يعلمها، قد تنظر إلى امرأةٍ ولا يستطيع أحدٌ في الأرض أن يكشف هذه النظرة، وقد تكون طبيباً، وقد تعالج امرأةً، وقد تلقي نظرةً لا تباحُ لك إلى جهةٍ لا تشكو منها، من يعلم هذا إلا الله عزّ وجل ؟

(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25))

تكلّم ما شئت، لكنه يعلم ماذا تُخفي، يعلم خواطرك الداخلية، يعلم نياتك، يعلم صراعاتك، يعلم طموحاتك، يعلم ماذا ترسم للمستقبل..

(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

مِن ذكاء الهدهد:

الهدهد خاف أن ينتقم منه، فقال: أيها الملك العظيم:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ:

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

ومرة أحد المذنبين وقف أمام الحجّاج، وقال له: **" أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ".**

قال بعض المفسرين: إن استخدام الهدهد لكلمة..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

أي وفوق الملك العظيم ملك الملوك، لذلك جاء في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإنِ العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخْط والنِقْمَة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26))

درسان بليغان من قصة سليمان مع الهدهد:

الدرس الأول: التروّي:

نحن عندنا في هذه القصة درسان بليغان، من دروس الذين يتولّون أمر بعض الناس ؛ معلم مدرسة، مدير مستشفى، مدير معمل، مهندس عندك في الورشة عشرة عمال، أول موقف لك من هؤلاء الذين ذكرتهم ألا تتعجّل، بل عليك أن تتروّى وتتبصّر، ثم تُصدر حكمك أو أمرك أو رأيك..

(مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(21))

الموقف الثاني:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

الدرس الثاني: عدمُ التسرُّع في الأحكام:

أيها الأخ الكريم... إذا كنت أباً، أو معلماً، أو مديراً، أو في موقع قيادي، لا تصدر أحكامك بسرعة، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

قال تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

قل: نحن سوف نحقق الآن.. لا تحكم قبل أن تحقق، لا تصدر حكماً قبل أن تستقصي المعلومات، لأن المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب، **"اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب "** تحقق، لا تعجل، لا تتخذ موقفاً ارتجالياً، لا تحكم حكماً سطحياً، لا تقل: فلان كاذب، قبل أن تتحقق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6))

(سورة الحجرات)

لا تصدر أحكاماً، لا تأخذ موقفاً، لا تباشر إجراءً ما، لا تقل: كذا وكذا، قبل أن تجمع المعلومات الصحيحة، قبل أن تستقصي الحقائق، الأناس الموفّقون في حياتهم هم الذين لا يصدرون أحكاماً إلا بعد بحثٍ ودرسٍ طويلين، قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

امتحان سليمان للهدهد: اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

الآن.. بَدَأَ الامتحان، كيف سيمتحنه هذا النبي العظيم ؟ قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

أعطاه كتاباً، نحن حتى الآن لا نعلم مضمون الكتاب، أعطاه رسالة، حمّلَهُ رسالة إلى ملكة سبأ، وقال: أيها الهدهد من أجل امتحان صدقك من كذبك ألق إليهم هذا الكتاب..

ثُمَّ تَوَلّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ

(ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

بحسب جوابهم أعرف صدقك من كذبك، الآن أصبح عندنا في القصة ما يسمّى قفزة فنية، يبدو أن هذا الهدهد ذهب إلى ملكة سبأ، وألقى إليها الكتاب من دون أن تعلم مَن ألقاه، أُلقِيَ إليَّ، ألقاه عليها وعاد، الآن المنظر ينتقل إلى سبأ، ننتقل معكم إلى سبأ، إلى اليمن، الملكة تقول لمن حولها:

تسلُّم ملكة سبأ كتاب سليمان: قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيّ كِتَابٌ كَرِيمٌ

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ)

يا أيها القوم، عِلية القوم، المستشارون، الوزراء، كبار أركان الدولة جمعتهم و..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ)

لم تعرف من هو الذي ألقى ؟ هذا الفعل مبني للمجهول، فاعله مجهول.

(إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

يبدو أنها قرأت الكتاب، وعرفت أنه كريم، قالت:

(إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

لماذا هو كريم ؟ قال:

إنّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ:

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ)

ومَن سليمان ؟.

(وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30))

أيْ أن سليمان لا يتكلم عن شخصه، لا يتكلم باسمه، ولا باسم شعبه، ولا باسم دولته، يتكلم باسم الله الرحمن الرحيم، لماذا هو كريم ؟ لأنه من إنسانٍ يتحدّثُ عن الله عزّ وجل.

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30))

خير الكلام ما قلّ ودلَ.

(أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

مضمون الكتاب: أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

1 – خيرُ الكلام ما قلّ ودلّ:

انتهى الكتاب، في الأدب العربي إجاباتٌ تسمّى توقيعات، جواب مختصر، أناسٌ شكَوْا إلى أحد الخلفاء واليهم، فأرسل له كتاباً على شكل توقيع، **" أما بعد، فقد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإما عدلت وإما اعتزلت "**، انتهى الكتاب.

أحد الولاة وكان والياً للبصرة، طلب من الخليفة عشرة آلاف جذع لبناء دار له، فقال: أنبئني أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ انتهى الجواب، فهذا جواب بليغ، قال:

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30) أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(31))

يجب أن تأتيني أنت أيتها الملكة معَ قومك خاضعة مذعنة إلي.

(أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

ورد حديثٌ قدسي عن الله عزّ وجل فيما يرويه النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيّته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا وجعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيّته إلا جعلت الأرض هَوْيّاً تحت قدميه وقطّعْتُ أسباب السماء بين يديه))

فاعتصم بمن شئت، لن يجديك نفعاً إلا أن تعتصم بالله، اعتصم بنصف أهل الأرض بل بأهل الأرض كلهم، فلن يجديك نفعاً إلا إذا اعتصمت بالله، فسيدنا سليمان اعتصم بالله عزّ وجل، فحينما أرسل هذا الكتاب إلى ملكة اليمن، ملكة سبأ: بلقيس أذعنت، وسارعت إليه، وسوف نرى في الدرس القادم كيف أنها أذعنت، وكيف أنها خضعت، وكيف أنها سارت إليه، وكيف أنها أسلمت معه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 27 - 40

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة النمل، وصلنا في قصّة سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى قوله تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

مقصَد القصة مغزاها:

وقد أخبرتكم في الدرس الماضي أن هذه القصّة ليست مقصودةً لذاتها، القصّة في القرآن الكريم مقصودةٌ لمغزاها، مقصودةٌ للعبرة منها، مقصودةٌ للدروس الثمينة التي تسْتَخْلَصُ منها، وقد بيَّنت أيضاً أن هذه القصّة كأن الله سبحانه وتعالى ذكرها لمن آتاه الله القوّة، كيف أن القوّة في أعلى مستوياتها، وهو المُلك يمكن أن يوظّف في سبيل الحق، وفي سبيل الخير، لذلك قارون حينما قيل له:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

1 – استعمال العلم ابتغاء الآخرة: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

آتاك الله علماً، ابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله مالاً ابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله مُلْكًا فابتغ به الدار الآخرة، آتاك الله ذكاءً فابتغ به الدار الآخرة، فأي شيءٍ آتاك الله إيَّاه، كالحظوظ مثلاً التي وزّعها الله بين الخلق وزّعها بينهم لتكون مِعْوَاناً لهم إلى إحقاق الحق، فحينما تستخدم القوّة، أو الذكاء، أو المال، أو الجمال، أو الصحّة، أو العلم من أجل دُنيا، من أجل شيءٍ من الدنيا زائل فهذه هي الخسارة بعينها، أعطوك درهماً لتأخذ بدله مائة ألف أو مليوناً فأنفقته في شيءٍ تافه، استهلكته استهلاكاً رخيصاً..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

2 – الأصل التحقّق في الأمور لإقامة العدل:

فحتّى هؤلاء الذين آتاهم الله المُلك يمكن أن يرقى بهم الملك إلى أعلى درجات الجنّة، وقد يهوي بهم إلى أسفل سافلين، سيدنا سليمان آتاه الله الملك، وها هو ذا يوظِّف هذه القوّة التي أنعم الله بها عليه في سبيل خدمة الحق، فمن صفات القادة التحقيق..

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

لأن العدل أساس المُلك، على مستوى مُعَلِّم ابتدائي، إذا اشتكى لك طالب فحقِق في الأمر، فإذا سحقت طفلاً صغيراً ظلماً فكأن عرش الله سبحانه وتعالى يهتز، وكذلك إذا قتلت حيواناً ظلماً، هذا الصياد الذي يقتل عصفوراً لغير مأكلة، يأتي هذا العصفور يوم القيامة وله دويٌّ تحت العرش كدوي النحل، يقول هذا العصفور: **" يا رب سَلْهُ لِمَ قتلني ؟ "** إذاً:

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

أنت بصفتك أباً، أنتِ أيتها الأم، أنتَ أيها المعلِّم، أنتَ أيها الموظّف، يا من وكّلك الله على عشرة لابدّ مِن التحقّق، لابدّ من أن تبني موقفك على معلومات صحيحة، لابدّ من تقصّي الحقائق، لابدّ من أن تقف الموقف العلمي، لابدّ من أن تكون مع الحق ولست مع نزواتك ولا شهواتك.

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلّ عَنْهُمْ فانظرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ

كيف الدليل لمعرفة صدقه مِن كذبه ؟ قال:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمّ تَوَلّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28))

كيف يكون ردُّهم ؟ كيف يكون الردُّ على هذا الكتاب ؟ كيف يتّخذون الموقف المُناسب ؟ يبدو أن الهدهد ألقى في قصر الملكة بلقيس هذا الكتاب من دون أن يشعرَ به أحد، فلمّا وجدوا كتاباً أعطوه للملكة، فقالت:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (29))

موقفُ بلقيس من مضمون كتاب سليمان:

1 – مبدأ الاستشارة:

الآن هي تستشير عَلِيّةَ القوم، بالمناسبة من استشار الرجال فقد استعار عقولهم، أنت يمكن أن تأخذ كُلّ هذا العلم، وكل هذه الخبرة، وكل هذا الإحكام بسؤالٍ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما خاب مَن استشار ولا ندمَ مَن استخار))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

الاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، والاستخارة لله عزّ وجل، فمن استشار الرجال فقد استعار عقولهم، كيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام وهو النبي، وهو الرسول، وهو الذي يُوحَى إليه، وهو المعصوم أمره الله سبحانه وتعالى أن يشاور أصحابه فقال:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 9 15)

وكيف لا، والله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين الصادقين فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى: من الآية 38)

وما اعتدّ أحدٌ برأيه إلا هَلَك،

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

2 – ذكاء الملكة بلقيس:

يبدو أن هذه الملكة كانت على مستوى كبير من الذكاء، ماذا يمنع أن تسأل عَلِيّةَ القوم، أن تسأل الملأ من حولها، أن تسأل كبراء قومها، أن تسأل أولي الخبرة، أولي العلم، أولي الحكمة..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ (29))

قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيّ

من كلمة أُلْقِيَ، هذا الفعل المبني للمجهول يتضحّ أنها لم تعرف من ألقاه، لأن سيدنا سليمان هكذا أمر الهدهد، قال:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ(29))

يا أيها القوم، يبدو أن حولها أناساً تثق بعلمهم، وبخبرتهم، وبقيادتهم، وبمشورتهم فشاورتهم، وما استبدّ أحدٌ برأيه إلا هلك، والنبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، نبيٌّ، رسولٌ، يُوحى إليه، معصوم ومع ذلك قال له الله سبحانه وتعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

كِتَابٌ كَرِيمٌ

كيف عَرَفَتْ أنه كريم، ونحن حتى الآن ما عرفنا الكتاب ؟ قال بعضهم: عرفت أنه كريم لأنه من سليمان العظيم، ويبدو أن هذا الملك العظيم كانت له سمعة طارت في الآفاق، فالمِلك يعرف مَنْ حوله من الملوك، وإذا كان من حوله ملكاً عظيماً فيبدو أن سمعة هذا الملك قد وصلت إليه، هذا أول احتمال، إما لأنه من سليمان، قالت إنه:

(كِتَابٌ كَرِيمٌ (29))

كتابٌ عالي الهدف، مضموناً وأسلوباً وهدفاً، في مضمونه كريم، وفي أسلوبه كريم، وفي هدفه كريم، عرفت أنه كريم لأنه من عند الكريم..

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ (30))

إِنّهُ مِن سُلَيْمَانَ

وعرفت أنه كريم على رأيٍ آخر لأنه.

(بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30))

وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

من عند خالق الكون الرحمن الرحيم، إذاً: هو كريم..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنّي أُلْقِيَ إِلَيّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيم(30))

فكأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية فسّر هو ماذا تعني البسملة، فسليمان لا يتكلّم بسمه، بل باسم الله، يتكلّم نيابةً عن الله عزّ وجل، إنه رسوله، لكن يقولون: إذا أردت أن تشرب فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم.

1 – معنى: بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

ما معنى باسم الله الرحمن الرحيم ؟ أن هذه النعمة التي بين يديك هي من عند الله الرحمن الرحيم، وأن هذا العمل الذي سوف تقوم به يجب أن يكون وَفْقَ كلام الله الرحمن الرحيم، البسملة قبل فعل الأشياء تعني شيئين، تعني أن تذكر نعمة المُنْعِمِ وأمر المُنعم، نعمته وأمره في الوقت نفسه..

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30))

2 – معنى: الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

واسم الله الرحمن من أسماء الله الجامعة، والدليل:

(قُلْ ادْعُوا اللّهَ أَوْ ادْعُوا الرّحْمَانَ)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

لطيفٌ لأنه رحمن، لطيفٌ، وقديرٌ، وغنيٌ، وواسعٌ، يعطي ويمنع، يُعلي ويخفض، يعزُ ويذل لأنه رحمن..

(قُلْ ادْعُوا اللّهَ أَوْ ادْعُوا الرّحْمَانَ)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

بعضهم قال: **" الله "**: اسم الله الأعظم، أو **" الرحمن "**: اسم الله الأعظم، على كلٍ بسم الله، كلمة بسم الله، الله تعني اسم العَلَم على الذات الواجبة الوجود، اسم العلم علمٌ على واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى، الأسماء الحسنى كلها مجتمعة بكلمة الله، الله رحمنٌ رحيم، رحمنٌ في ذاته رحيمٌ في أفعاله، وهذا الكتاب من عند رسوله، إذاً إنه كتابٌ كريم..

(أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

أَلّا تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

البلاغة في الإيجاز، أي يا أيتها المَلَكة لا تستعلي عليّ، فأنتِ ومن معكِ، وأنتِ وجيشك وشعبكِ بادروا إليّ مسرعين مسلمين..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

كلامٌ مختصرٌ مفيد، لأنني أتكلّم باسم الله الرحمن الرحيم..

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

الكلام الموجز كلامٌ موحٍ، يوحي بأشياء كثيرة..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي (32))

قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي

هي امرأة، ولأنها امرأة لها طبيعة خاصّة، هي أميلُ إلى المُلاينة منها إلى المُخاشنة، أميل إلى الصلح منها إلى الحرب، أميلُ إلى المهادنة منها إلى المخاصمة، طبيعتها الأنثويّة تقتضي ذلك..

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي (32))

ماذا أفعل ؟ أأستجيب لهذا الكتاب ؟ أتخلى عن مُلكي من أجله ؟ أخضع له ؟ أحاربه ؟ ماذا أفعل ؟.

(أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32))

مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرَاً حَتَّى تَشْهَدُونِ

فهي لا تقود أمّتها إلا من خلال خبرةِ مَن حولها، طبعاً هؤلاء الملأ الذين من حولها لهم موقفٌ ثابت معروف، يطمئنونها بأنهم أولو قوّةٍ وأولو بأسٍ شديد، لا تجزعي، لا تخافي، نحن معكِ، عندنا قوة عاتية نقاوم بها أي تهديد، بإمكاننا أن نقاوم سليمان، أن نخذله، أن نحاربه، هذا كلامُ مَنْ حولَ الملكة دائماً..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ

يَرْوون أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان جاءه كتابٌ من إنسان، قال فيه: **" أما بعدُ ؛ فيا معاوية إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانْههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، من هذا الإنسان الذي يخاطب أمير المؤمنين ؟ يخاطب الخليفة ؟ إنسان في الدرجة الدنيا من المجتمع يخاطب أعلى مستوى فيقول: **" فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، هذا تهديد، من هذا الذي يهدِّد ؟ قيل: إن سيدنا معاوية، وكان ابنه يزيد إلى جانبه فقال: **" ما رأيكَ يا يزيد ؟ "**. فأجاب، كما قال هؤلاء:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

قال: **" أرى أن تُرْسِلَ له جيشاً أوله عنده في المدينة وآخره عندك ليأتوك برأسه "**، لكن معاوية تبسَّم، وقال: **" غير ذلك أفضل "**، ثم كتب كتاباً قال فيه: **" أما بعد ؛ فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله "**، هذا الذي أرسل الكتاب هو عبد الله بن الزبير، وأبوه الزبير شهد له النبي عليه الصلاة والسلام أنه من حواريي هذه الأمّة، قال: **" أما بعد ؛ فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله أطال الله بقاءه، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلُّها هيِّنةٌ جَنْبَ رضاه، لقد نزلت له عن الأرض وما فيها "**، فجاء الجواب: من عبد الله بن الزبير.

أذكركم بكتابه الأول قبل نقل نص الكتاب الجديد: **" أما بعدُ ؛ فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ والسلام "**، هذا كتابه الأول، بعد أن أجابه بهذه الحكمة والذكاء، وهذه المُلاينة والمُلاطفة، وهذه السياسة الحكيمة، أجابه عبد الله بن الزبير فقال: **" أما بعدُ فيا أمير المؤمنين.. كان معاوية في الكتاب الأول.. أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحلّه من قومه هذا المحل"**، كان ابنه إلى جانبه فقال: **" انظر يا يزيد، يا بني من عفا ساد، ومن حَلُمَ عَظُم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب "..**

(قالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32))

كتاب تهديد..

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيِّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31))

كتاب تهديد ووعيد، خضوع، ماذا أفعل ؟..

(قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

أربع كلماتٍ مُهلكات: أنا ونحن ولي وعندي:

بالمناسبة: أربع كلماتٍ مُهْلِكات: أنا ونحن ولي وعندي، (أنا) قالها إبليس فأهلكه الله عزّ وجل..

(قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(12))

(سورة الأعراف)

و (نحن)..

(قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ (33))

وانتهى أمرهم.

وأما (عندي) فقد قالها قارون:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: من الآية 81)

وأما (لي) فقالها فرعون:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأغرقه الله عزّ وجل، لذلك أربع كلماتٍ مُهْلِكات، أنا ولي ونحن وعندي، لا تقل: أنا ؛ بل قل: الله تفضّل علي، قل: الله أسبغ عليّ هذه النعمة، أكرمني بها، خصّني بها، هذا من فضل الله علي، لو تتبعتم أقوال الأنبياء العِظام ما رأيتم واحداً منهم يعزو نعمةً إلى ذاته..

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)

(سورة النمل)

لا تقل: أنا، ولا تقولوا: نحن، قالها أصحاب النبي في حنين رضي الله عنهم، قالوا: **" لن نُغْلَبَ اليوم من قلّة "**، كنّا في بدر ثلاثمائة فغلبنا قريشاً، الآن نحن عشرة آلاف مقاتل أحطْنا بمكّة وفتحناها، وانضمّ إلينا آلاف مؤلّفة، من يغلبنا ؟..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

لا تقل: أنا، ولا تقولوا: نحن، ولا تقل: أنا لي ولا عندي..

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ (33))

وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ

نحن تابعون إليكِ، الأمر أمركِ، والرأي رأيكِ، والقرار قراركِ..

(وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ (34))

إن الملكة يقول لسان حالها للملأ من قومها: عندنا قضيّة، هذا الكتاب فيه تأكيد على أن مُرسله نبي ورسول، لكن بلقيس تردد وتساؤل، فإذا كان سليمان نبياً ورسولاً فلها موقف، وإن كان ملكاً فلها موقفٌ آخر، لأن..

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (34))

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

القرية هنا المدينة الكبيرة..

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (34))

عَطّلوا مرافقها، دمّروا بيوتها، انتهكوا حرماتها..

(وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (34))

وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً

هكذا العادة، فبلقيس في حيرة من أمرها، يا ترى هذا الكتاب من نبي أم من مَلِك ؟ إذا كان نبياً فلها موقف، وإن كان ملكاً فلها موقف..

(إِنَّ الْمُلُوكَ (34))

من عادة الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، عطّلوا ما فيها، نهبوا ما فيها..

(وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (34))

الكُبَرَاء، النبي الكريم علّمنا، فقال:

((أكرموا عزيز قومٍ ذل.. أكرموه.. وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين الجُهّال))

[ورد في الأثر]

هؤلاء الثلاثة من حقِهم عليكَ أن تكرمهم..

((أكرموا عزيز قومٍ ذل.. أكرموه.. وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين الجُهّال))

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34))

وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ

يفعلون بنا، فإذا سلّمنا لهم بلادنا يأتون إليها، ويجعلون أعزّة أهلها أذلّة، ويفسدون هذه البلاد، هكذا العادة، يبدو أنها ذكيّةٌ جداً، الآن هي أمام مشكلة يجب أن تعرف ما إذا كان هذا الكتاب من عند نبيٍّ أم من عند مَلِك، فالنبي له علامة والمَلك له علامة.

يُروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام، دخل على النبي عليه الصلاة والسلام، وكان النبي مضطّجعاً على حصير وقد أثّر الحصر في خدِّهِ الشريف، فبكى عمر، قال:

((يا عمر، لمَ تبكي ؟))

قال عمر: **" رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس.. هذا الذي يعبد النار.. ينام على الحرير ؟! "**، الأمر لم يتوازن عنده، ما درى له جواباً، هذا النبي العظيم سيّد الخلق وحبيب الحق، سيّد ولدِ آدم الذي يوحى إليه، مبعوث العناية الإلهيّة ينام على حصير ؟!

كان إذا صلّى قيام الليل نقلت السيدة عائشة رجليها من مكانها، لأن غرفته الصغيرة لا تتسع لصلاته ونومها، وهو نبيٌ هذه الأمّة، فكيف يستقيم عند عمر أن ينام هذا النبي على حصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام إجابة تأخذ بالألباب، قال:

((يا عمر، إنما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

أنا لست بملك

((إنما هي نبوّةٌ، وليست مُلكاً))

جاءه جبريل وقال: **" يا محمّد، أتحبُ أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ "** قال:

((بل نبيّاً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

سيدنا علي يقول: **<< فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه، فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

يقول سيدنا علي أيضاً: **<< يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية >>.**

كل ما تملك من الدنيا لك بشرط أن يدقّ هذا القلب، فإذا توقف القلب انتهى كل شيء، وصار لغيرك، أين البناية ؟ أين الشأن ؟ أين المكانة ؟ أين ما يتمتّع به هذا الميّت ؟ أين شأنه العظيم ؟ أين بيته الواسع ؟ أين زوجته ؟ أين أولاده ؟ أين مركبته ؟ أين محلّه التجاري ؟.. ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.. لذلك الإمام الغزالي في الإحياء يقول: " إنّ أدنى درجات الفقه أن تعلم أن الآخرة خيرٌ من الأولى "، والدليل أن تسعى لها..

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 19)

أن تعلم أن الآخرة خيرٌ من الأولى فتسعى لها..

(قَالَتْ إِنّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزّةَ أَهْلِهَا أَذِلّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34))

والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخط والنِقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

(إِنّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزّةَ أَهْلِهَا أَذِلّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34))

بنا، لذلك يبدو أنها ذكيّة كما قلت قبل قليل، أرادت أن تكتشف هل سليمان نبيٌّ حقّاً أم ملك ؟ قال بعضهم: **" إذا أردت أن تعرف نفسك من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، فإنْ دخل عليكَ رجلان واحدٌ منها طلب منك والآخر أعطاك، فإذا كنت قد فرحت بالذي أخذته فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان فرحك بالذي أعطيته فأنت من أهل الآخرة "**، هذا مقياس دقيق جداً، رجلان دخلا إلى محلّك، واحد منهما قال لك: ادفع لي، والآخر قال لك: خُذ مني، فأنت بمن فرحت ؟ وبماذا فرحت ؟ فرحت بالذي أخذ منك فأنت من أهل الآخرة، فرحت بالذي أعطاك فأنت من أهل الدنيا، قالت:

(وَإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35))

وَإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ

1 – أصحابُ المبادئ لا يُشتَرَون بالأموال:

لأن المال ثمين عند أهل الدنيا، فإذا كانت هذه الهديّة ثمينة جداً وأرضتهم، أُعجِبوا بها، انتهى الأمر، فهم أُناس طلاب دنيا، ليس نبياً عندئذٍ، أما أصحاب الرسالات.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هكذا أصحاب المبادئ، عرضوا عليه بأن يزوّجوه بأجمل فتاةٍ في مكّة، عرضوا عليه أن يجعلوه أغنى فتيان مكّة، عرضوا عليه أن يكون أمير مكّة على أن يدع هذه الدعوة فقال: **" والله لا أفعل "**، المساومة على المبادئ لا تكون، المؤمن لو أعطيته ملء الغرفة ذهباً على أن يفعل شيئاً نهي الله عنه، يقول: لا أفعل، افعل ما تشاء، يقولها بملء فيه لمن أراد أن ينال من دينه..

جاء النبيَّ خُبيبٌ رضي الله عنه، وكانوا يعذّبونه في مكّة، بعد تعذيبه تعذيباً شديداً، قال له أبو سفيان: **" يا خبيب، أتحبُّ أن يكون محمّدٌ مكانك وأنت في أهلك ؟ "**، قال خُبيب: **" والله ما أحبّ أن أكون في أهلي وولدي.. في أهلي، في بيتي مع أولادي، مع زوجتي.. وعندي عافية الدنيا ونعيمُها.. كل حاجاتي مؤمّنة مع الكماليّات.. ويصاب رسول الله بشوكة "**.

لا مساومات في الإيمان، عند أهل الإيمان المليون مثل الليرة، تحت قدمك، أي مبلغ إذا كان الثمن معصية الله عزّ وجل، تحت قدمك، أي شيءٍ في الدنيا إذا كان الثمن أن تقول كلمة الباطل، أن تقول ما

لم يأمرك الله به، لذلك قاضيان إلى النار وقاضٍ إلى الجنّة، هذا الذي عرف الحق فحكم به إلى الجنّة، الذي لم يعرف وحكم بالجهل فهو إلى النار، الذي عرف الحقّ، وحاد عنه، وحكم بالباطل، يدخل النار أيضاً، القضيّة قضيّة خطيرة، قضيّة سعادة أبديّة أو شقاء أبدي.

2 – اختبار بلقيس لحقيقة سليمان:

هي بهذه الهدية تكشف ما إذا كان هذا الكتاب الذي ألقاه الهدد من عند نبيّ أم من عند ملك، إذا كان نبي فالقضية سهلة، فيه رحمة، بسم الله الرحمن الرحيم، ليس معها مشكلة، ولا خوف فيما إذا دخلوا قرية، فإنهم لن يفسدوها، ولن يجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، ما من شيء من هذا أبداً.

(وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

بالعدل والإنصاف، **" ما عرف التاريخ فاتحاً أرحمَ من العرب "**.. هذه الكلمة قالها غوستاف لوبون، مؤرّخ وفيلسوف فرنسي.. ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم، ولا أعدل من العرب، أحد الصحابة الكرام في بعض المعارك وضع سيفه ليجهزَ على كافر، أصحابه رأوه قد ابتعد عنه فجأةً، لماذا ؟ بصق هذا الكافر في وجهه، فقال هذا الصحابي: **" الآن إذا قتلته قتلتُه ثأراً لنفسي، والله لا أقتله في هذه الساعة "**، ما هذه الأخلاق ؟ هذه الأخلاق أين نجدُها ؟ يجب أن يكون العمل خالصاً لوجه الله عزّ وجل.

فإذا كان نبياً فهذه الهديّة لا تغريه، بل يردُّها، أما إذا كان ملكاً انتهى الأمر، ساومته، وانتهى الأمر.

لو فرضنا أنّ طبيباً قيل له: قل إن هذه الوفاة طبيعيّة، وهي في الواقع وفاة جرميّة، قل: طبيعيّة وهذا بيت، وهذه سيّارة، قد يكون هذا الطبيب ناشئاً لا يملك شيئاً من حُطام الدنيا، أما إذا كان مؤمناً والله لو عرضوا عليه أموال الأرض لا يكتب إلا الحق، هذا المؤمن، أما غير المؤمن فيبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل..

(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ (36))

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ

هذا استفهام توبيخي..

(أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ (36))

آتاه الله العِلْمَ والحكمة، ما هذا المال ؟ ما قيمة المال ؟ ما قيمة الملك ؟

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ ... وكـل نـعيمٍ لا مـحالة زائـلُ

***

(أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمّا آتَاكُمْ (36))

فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمّا آتَاكُم

آتاه الله العلم والحكمة، إن الله يعطي الملك لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطاه لسليمان، وأعطاه لفرعون، ويعطي المال لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، وكان من أغنى الصحابة، وأعطاه لقارون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما الله إلا لمن يحب، فإذا كان عطاء أحدنا من نوع العِلم والحكمة فهذا عطاءٌ عظيم جداً..

(قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ (37))

بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ

1 – بماذا تفرحُ أيها المؤمن ؟!

الآن سؤال دقيق: ما الذي يفرحك ؟ أنا أقول لكم: قل لي ماذا يفرحك أقل لك من أنت، هل تفرح برضوان الله عزّ وجل ؟ فأنت مؤمنٌ وربِّ الكعبة، هل تفرح إذا صليت صلاةً خاشعة ؟ هل تفرح إذا قدّر الله على يديك عملاً صالحاً ؟ هل تفرح إذا تمّت هداية إنسان على يديك ؟ هل تفرح بهذا ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

فهنا مكان الفرح، أم نفرح بالدنيا ؟..

(بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36))

2 – بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ

هو يفرح بنشر الحق، سيدنا سليمان يفرح بأن يظهر الحق على الباطل، بأن يهتدي الناس إلى ربّهم، بأن يسعد الناس بمعرفة ربّهم وطاعتهم له، هذا الذي يفرحه..

(ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا (37))

تهديدٌ ووعيد..

(فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37))

ردُّ سليمان عليه السلام: فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ

كان الرد حاسماً وقاسياً وسريعاً، يبدو أنها عرفت لمجرّد أنه ردّ الهديّة، وأنه لم يعبأ بها، وما اكترث لها إذاً هو نبي، أصحاب الدعوات، أصحاب الرسالات لا تثنيهم الدُنيا عن أداء رسالاتهم، اتضح لها أنه نبي، طبعاً القرآن فيه فجوات، هذه يسمونها فجوة فنيّة، فالذي لم يذكره الله عزّ وجل عُرِفَ بالسياق..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38))

قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

سيدنا سليمان عَلِمَ أنها في طريقها إليه، جاءته مذعنةً لدعوته، لذلك أراد أن يريها من عظمة المُلك ما يجعل إذعانها قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38))

1 – سليمان يطلب إحضارَ عرش بلقيس:

طبعاً عرشها في صنعاء، أو في اليمن، وهو في بيت المقدس، وبين اليمن والقُدس مسافاتٌ شاسعة تحتاج الطائرة الآن إلى قطعها لأربع ساعاتٍ أو أكثر، أمّا أن يأتي العرش بأكمله فهذه معجزة ؟ ماذا قال الهدهد ؟

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23))

عرش وهو عظيم، فالمَلِكُ بعرشه، طبعاً لا أدري ما تفصيلاته ولكن عرشٌ عظيم، فأذكر أنه حينما أنشئوا سد أسوان على نهر النيل فالبحيرة التي ستنشأ عن هذا السد ستغمر بعض آثار الفراعنة، والذي أذكره أن مئة دولةٍ تعاونت على نقل تمثالٍ ضخم من مكان البحيرة التي نشأت عن سدِّ النيل إلى مكانٍ آخر، نقل تمثال ضخم شيء يحتاج إلى خبرات، وإلى مُعِدّات، وإلى تكنولوجيا، وإلى رافعات، وإلى خبرات هندسيّة، وقد قرأت عن هذا الموضوع الشيء الكثير، أما أن يأتي عرش الملكة بلقيس من صنعاء إلى القُدس بلمح البصر !! فالله على كل شيءٍ قدير، قد يكون هذا ممتنعاً عادةً، ولكنّه ليس ممتنعاً عقلاً، لأن الله يقول: كن فيكون، زل فيزول..

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ (39))

الاقتراحُ الأول من الجن:

1 – قالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

الآن أنت جالس، الإنسان يجلس ساعة أو نصف ساعة ثمّ يقوم من مقامه لقضاء حاجة، لتناول طعام، قال عفريت لسليمان: ما دمت جالساً إلى فأن تقوم يكون العرشُ عندك، يبدو أن سيدنا سليمان ما أعجبه ذلك، رآه وقتاً طويلاً ومديداً، وتابع العفريت كلامه فقال:

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39))

2 – القوة والأمانة من صفات الملوك والحكام: وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ:

وكلمة قوي أمين فيها إشارة دقيقة إلى ما ينبغي أن يتمتَّع به من توكِلُ إليه أمر، إذا أوكلت إلى إنسانٍ أمراً يجب أن يكون قوياً أميناً، القوة تشير إلى القُدْرَة، والأمانة تشير إلى الإخلاص، بالتعبير الحديث الكفاءة والإخلاص.

سيدنا عمر أرسل كتاباً عيَّن بموجبه والياً فقال: **<< أما بعدُ ؛ فخذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك.. سنة واحدة تجريبية.. وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك ؛ إن وجدناك أميناً ضعيفاً.. أمين ولكنك ضعيف، لست حازماً، طبعاً الأمين الضعيف لا يصلح، أنت أمين لكنّك ضعيف فنعزلك فقط.. إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلّمتك من معرّتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً، استهنا بقوّتك، وأوجعنا ظهرك وأحسنا أدبك.. وإن جمعت الجرمين.. الضعف والخيانة.. جمعنا عليك المضرّتين.. العزل والتأديب.. وإن وجدناك أميناً قوياً.. هنا الشاهد.. زدناك في قوّتك ورفعنا لك ذِكْرَك، وأوطأنا لك عقبك >>**، وكل هذا أخذاً من قوله تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

أنت بحاجة إلى إنسان عنده كفاءةٌ عالية، وعنده إخلاصٌ شديد، إخلاصٌ للمبدأ وكفاءةٌ فنيّةٌ عالية في كل الأعمال، حتى الزوج يجب أن يكون قوياً أميناً..

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (40))

الاقتراح الثاني للجن: قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

أي آتيك به بأقل من لمح البصر..

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ (40))

لا نعلم نحن من هو ؟ قال بعضهم: سيدنا جبريل، قال بعضهم: سليمان نفسه، وهذا مستبعد، قال بعضهم: رجل آتاه الله اسمه الأعظم، قال بعضهم: مؤمن خصّه الله بشيءٍ يفوق به أقرانه، نحن يعنينا أن هذا العرش جاء بلمح البصر..

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (40))

انتهت برمش بعينه، قال:

(فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

1 – يجب أن تنسب الفضل إلى الله وحده:

عندما رآه ماذا قال ؟ هل قال: أنا ؟ لا. بل قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

إذا كان إنسان معه اختصاص نادر يدرٌ عليه أموالاً طائلة يجب أن يقول دائماً: هذا من فضل ربي، إذا إنسان آتاه الله منزلاً فأوى إليه، هذا من فضل ربي، قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40))

لابدّ من وقفةٍ سريعة عند قوله تعالى:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

وقفة مع قوله تعالى: هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

أي شيءٍ تتمتّع به إنْ في قوّتك الجسميّة، وإنْ في سلامة حواسّك، وإنْ في إدراكك السليم، وإنْ في هذه الحِرْفة التي أنعم الله بها عليك، وإن في بيتك وزوجتك وأولادك، وأيّ شيءٍ تتمتّع به هو في الحقيقة مَحْضُ فضلٍ من الله عزّ وجل، لمجرّد أن تعزو هذا الفضل إلى الله فأنت أحد الشاكرين، فإذا عزوته

لغير الله فهذا أحد أنواع الكفر، الشكر في حدِّهِ الأدنى أن تعزو النعمة إلى الله، وفي حدِّهِ الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

قال: **يا رب، كيف أشكرك ؟ فقال الله عزّ وجل: إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 153)

أي اذكروني لعبادي أذكركم برحمتي، فلذلك الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن شاكر؛ والكافر جاحد، بمعنى أن هذه النعم التي أنعم الله بها علينا إنما أنعم الله بها علينا ليبتلينا هل نشكر أم نكفر، هل نعتدّ بجاهنا، هل نعتزُ بقوّتنا، هل نتيه بعلمنا، هل نتيه بشكلنا، هل نتيه بمالنا ؟ أم نقول هذا من فضل الله علينا ونرجو الله أن يكون موظّفاً للحق ؟ لذلك:

(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

مِن تعني هذا بعض فضل ربي..

(لِيَبْلُوَنِي (40))

لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

ليمتحنني..

(أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

لذلك قالوا: المال ليس نعمة، إنما هو ابتلاء، فإذا أنفقته في طاعة الله انقلب إلى نعمة، الصحّة ليست نعمة، هناك كفّار أصحّاء لكن هذه الصحّة والقوة إذا وظّفتها في طاعة الله انقلبت إلى نعمة، المنصب ليس نعمة، أما إذا سخّرت قوّتك في هذا المنصب لخدمة الحق انقلب هذا المنصب إلى نعمة، وأي شيءٍ في الدنيا لا يسمّى نِعْمَة، بل هو نَعْمَة ـ بفتح النون ـ لا يسمى نِعْمة إلا إذا استخدمته في طاعة الله عزّ وجل، فإذا استخدمته لحظوظ الدنيا انقلب إلى نِقمة أو إلى نَعْمَة..

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27))

(سورة الدخلان)

(لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ (40))

وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

الله عزّ وجل غني عن العالمين، فكل شيءٍ تفعله لك..

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(44))

(سورة الروم)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

(سورة فصلت)

يقول الله عزّ وجل للميّت حينما يوضع في قبره:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ معك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

فإذا فعلت صالحاً فلهذه اللحظة العصيبة، لهذه الحفرة الموحشة، لهذا اللقاء المُخيف، أما إن كنت مؤمناً:

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(89))

(سورة الواقعة)

غداً نلقى الأحبّة محمّداً وصحبه

***

إذاً: قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40))

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ

غنيٌّ ولكنّه كريم، لو استغنيت عنه..

" لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، وكنت عندي مذموماً ".

إذاً: نضرع إلى أن الله يجعلنا من الشاكرين المؤمنين.

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى نتابع القصّة من عند قوله تعالى:

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 40 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-01-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، لازلنا في قصة سيدنا سليمان والملكة بلقيس، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(40))

(سورة النمل)

فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

الشكر من لوازم الإيمان:

يبدو من هذه الآية أن هذا النبي الكريم سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم حينما رأى هذا العرش الذي كان في صنعاء قد جاءه في أقلّ من لمح البصر، رأى أن هذه نِعمة كبرى فشكر الله عليها، ومن صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه كانت تعظُم عنده النعمة مهما دَقّت، والشكر من لوازم الإيمان، فالإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان نصفان ؛ فنصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكر))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

و " **يا رب كيف أشكرك ؟** "، قال: إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني "، فأن تعرف أن هذه النعمة من الله عزّ وجل نوعٌ من أنواع الشكر، وأن تَرُدّ على هذه النعمة بعملٍ صالحٍ تنفع به المؤمنين نوعٌ آخر من أنواع الشكر، وأن تذكر الله عزّ وجل عند كل حَجَرٍ ومَدَر، في الرخاء وفي الشدة، أن تذكر الله عزّ وجل عند الحاجة وأنت في غنى فهذا كله شكر لله تعالى، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أمرني ربي بتسع، خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

فهذا النبي الكريم.

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

هل المالُ نعمةٌ أم نقمةٌ أم ابتلاء ؟

الآن ندخل في موضوعٍ دقيق دقيقٍ جداً، يا تُرى المال الذي بين أيدي الناس هل هو نِعمة ؟ من قال: نَعَم، فقد ضل سواء السبيل ؛ إنه ابتلاء، الزوجة التي تروق لك هل هي نعمة ؟ إنها ابتلاء، القوة التي آتاك الله إيّاها هل هي نعمة ؟ إنما هي ابتلاء، فإذا أنفقت المال في طاعة الله، وتقرّبْتَ به إلى الله أصبح المال نعمةً، وإذا أخذت بيد الزوجة إلى الله ورسوله وعرّفتها بربها، وألزمتها طريق الاستقامة، أصبحت هذه الزوجة نعمةً، وتلك القوة التي أنعم الله بها عليك، إذا سخّرتها لإنصاف المظلومين ولخدمة الحق وأهله، هذه القوة نعمةٌ أنعمها الله عليك، يؤكِّدُ هذا المعنى قول سيدنا سليمان الذي وردَ قبل قليل، قال:

(هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي (40))

أساس الدنيا قائم على الابتلاء:

إذاً هو ابتلاء.

(أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (40))

فملخص الملخص أن الله سبحانه وتعالى:

(خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك: من الآية 2)

يعطيك المال لينظر ماذا تصنع به، يعطيك الصحة والقوة لينظر ماذا تصنع بها، يعطيك الشكل الجميل لينظر ماذا تصنع به، يعطيك ذُرّيَةً ذكوراً وإناثاً لينظرِ كيف تعمل، إذاً أنت في الدنيا في مكان ابتلاء، والدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، أريد من هذا التفسير لتلك الآية، أن أحدنا إذا أعطاه الله مالاً فلا ينبغي أن يفرح به بالقدر الذي يفرح به إذا أنفقه في طاعة الله، إذا آتاه الله علماً، إذا آتاه قوةً، إذا آتاه منصباً، إذا آتاه ذريةً، أهلاً وأولاداً، ليست العبرة أن تؤتى هذه النعمة، ولكن العبرة أن تسخرها في طاعة الله عزّ وجل، عندئذٍ يصبح هذا العطاء نعمة.

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16)كَلَّا)

(سورة الفجر)

(كلاّ) أداة ردع ونفي، ليس العطاء إكراماً، ولا المَنْعُ إهانةً، إنما العطاء ابتلاء، وإنما الحرمان دواء، إذاً هذا النبي الكريم يقول:

(فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40))

وهذه (من) للتبعيض، أيْ أنّ فضل الله عزّ وجل عظيم..

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

إذا أتاك صحةً فهذا من فضل الله، إذا أتاك علماً فهذا من فضل الله، إذا أتاك مالاً فهذا من فضل الله، لأن فضل الله عزّ وجل لا تحدُّه الحدود، ولا يحصى، كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

لم يقل: وإن تعدوا نِعَم الله، بل قال:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

من إسقاطات الآية في واقع الناس:

النعمة الواحدة لو أمضيت الحياة كلها في إحصاء فضائلها لما انتهيت، وإذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز، فإذا أردنا أن نستفيد من هذه الآية في حياتنا اليومية، فأيّ شيءٍ تنعم به فهو من فضل الله عزّ وجل، هذا العقل الذي أنعم الله به عليك، لولا هذا العقل لما كان للإنسان إلا ذلك المكان المعروف، وهو مشفى المجانين، أنعم الله عليك بنعمة العقل، نعمة الأهل، نعمة المأوى، نعمة الفِطْنَة، نعمة الفَهم، نعمة سلامة الحواس والأعضاء، هذه كلها نعم، لذلك الشكر من لوازم المؤمن، والمؤمن دائماً يتقلّبُ في نعم الله عزّ وجل، لكن الكافر يرى النعم ويستمتع بها، إلا أنه لا يرى المُنْعِم، وشتانَ بين من يرى النعم وبين من يرى المنعم، سيدنا سليمان قال في سياق هذه الآية:

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا (41))

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا

هذا العرش الذي جاء من اليمن إلى القدس في أقلّ من لمح البصر، ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن بعض الآثار، معبد أبي سنبل كما أذكر، حينما أنشئ السد العالي في أسوان، صار هذا المعبد وسط البحيرة التي كانت من نتيجة هذا السد، مئة دولةٍ بآليات ومستوى عال جداً من الخبرات، ومستوى

متقدم من العِلم تعاونوا حتى نقلوا هذا المعبد من مكان إلى آخر، وهذا العرش العظيم، ألم يقل الهدهد:

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

هذا العرش العظيم نُقِلَ من اليمن إلى بيت المقدس في أقل من لمح البصر، لذلك هذه المعجزات ومثيلاتها التي وردت في القرآن الكريم، هذه مستحيلةٌ عادةً، ولكنها ليست مستحيلةً عقلاً، لأن الله عزّ وجل إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، زُل فيزول، فمن عرف الله لا يستبعد أي شيءٍ جاء بالخبر الصادق، الذي عرف الله عزّ وجل، وعرف قدرته اللامحدودة يسهل عليه فهم المعجزات، أما الذي جهل الله عزّ وجل، وما عرفه، وتحكّمت به العادات ربما يحمله هذا الفهم الساذج القاصر على إنكار بعض المعجزات.

(قالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ

فكأن هذا النبي الكريم أراد أن يمتحن عقل هذه الملكة، لأن العقل قوام الدين، والعقل بشكلٍ أو بآخر أداة الإيمان بالله عزّ وجل، والإنسان شريفٌ بعقله، لأن الإنسان إذا افتخر بجسمه، بشكله، بحجمه، بوزنه، بإبصاره، بسمعه، بحركته، بعضلاته، بأعضائه، ما من حيوانٍ إلا ويفوق الإنسان في هذا المجال، لكن الإنسان شريفٌ لما خلق له، خلق لمعرفة الله عزّ وجل، وعقله هو الأداة التي وضعها الله عزّ وجل لمعرفة الله سبحانه، لذلك بعضهم يفسر قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

الله سبحانه وتعالى سمّى العقل في القرآن ميزاناً، وسمى الشرع في القرآن ميزاناً، وجعل الشرع ميزاناً على الميزان، أعطاك الله العقل ميزاناً تزين به الأمور، وأعطاك الشرع ميزاناً على الميزان، فمن هداه عقله إلى نتائج الشرع صَحّ تفكيره، ومن هداه عقله إلى نتائج تخالف الشرع ضَلّ عقله، والعقل يخطئ ويصيب، ولكن الشرع مصيبٌ دائماً، لأنه من عند الله عزّ وجل، فيبدو أن هذا النبي الكريم أراد أن يمتحن عقل هذه الملكة، لأن عقل الإنسان قوام دينه.

(قالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41))

امرأةٌ تزوجها النبي عليها الصلاة والسلام، وقد ورد هذا الخبر في السيرة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ ابْنَةَ الْجَوْنِ لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَنَا مِنْهَا قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا:

((لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

يبدو أن هذه المرأة ساذجة، ضعيفة التفكير، محدودة الأفق صدّقت ما قيل لها، فلما دخل عليها النبي عليه الصلاة والسلام قالت: **" أعُوذُ باللّهِ مِنْكَ "**، فقال عليه الصلاة والسلام لتوّه:

((لَقدْ عُذّتِ بعَظِيمٍ، الْحَقِي بأَهْلِكِ))

لأن هذه زوجته، وسوف تُبَلِّغُ عنه، وربما أخذ الناس عنها الشرع، وهي حينما قبلت أن تردد ما قيل لها إذاً هي في مستوى منخفض جداً من الإدراك السليم، لذلك فالنبي ما أرادها أن تكون له زوجة، وكذلك هذه الملكة، إن تنكير العرش يكشف لسيدنا سليمان ما إذا كانت مفكرةً أم لا..

(فَلَمّا جَاءَتْ (42))

موقف بلقيس عند رؤيتها لعرشها:

1 – فَلَمّا جَاءَتْ

أي وصلت إليه، وكانت في طريقها إليه، هذه الملكة عرفت أن هذا الكتاب الذي أُلْقِيَ إليها كتابٌ كريم لأنه من سليمان، ويبدو أن هذا النبي العظيم والملك العظيم كانت سمعته تطير في الآفاق، يبدو أنها عَظّمَت هذا الكتاب لأن شرف الكتاب من شرف المرسِل، شرف الرسالة من شرف المرسل، وقد ورد في نص الكتاب:

(إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30))

أيْ أنّ سليمان لا ينطق باسمه، بل ينطق بسم الله، الله خالق الكون، الرحمن في ذاته الرحيم في أفعاله.

(فَلَمّا جَاءَتْ (42))

عندئذٍ توجّهت إليه، انتقلت من اليمن إلى بيت المقدس..

(فَلَمّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ (42))

2 – قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ

نظرت إليه هو، وقد جرى عليه بعض التعديل طبعاً دون أن تعلم، كانت ذكية جداً، أجابت إجابةً لو أن هذا العرش عرشها لأصابت، ولو أن هذا العرش ليس بعرشها لأصابت، أجابت إجابة لا يستطيع السامِعُ أن يأخذها بإجابتها، قالت:

(قَالَتْ كَأَنّهُ هُوَ (42))

هذه " **كأن** " تفيد التشبيه، كأن هذا العرش الذي أمامي هو عرشي، فإذا كان عرشها فعلاً فقد أصابت، وإذا كان بفعل التنكير يعني أنه ليس عرشها فقد أصابت، ففي كلمة:

(كَأَنَّهُ هُوَ (42))

إجابةٌ ذكيةٌ جداً، والإنسان أحياناً ذكاؤه يبدو في إجاباته، هناك جوابٌ مُفْحِم، هناك جوابٌ مُسْكِت، هناك جوابٌ قاطع، هناك جوابٌ أريب، هناك جوابٌ لبيب، وهكذا.

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42))

معنى: وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

هذه الآية اختلف فيها المفسرون، بعضهم يقول: " **هذا قول الملكة بلقيس** "، أي أوتينا نحن العلم بأن هذا النبي نبي الله عزّ وجل، وما مجيئنا إليه إلا بدليل إسلامنا له، كلام الملكة بلقيس..

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا (42))

من قبل هذه الحادثة، من قبل أن ترى عرشها قد سبقها، هي أيقنت أنه نبيٌ عظيم، وأن الله سبحانه وتعالى سَخَّرَ له الجن والإنس والطير، وقد آتاه الله لُغَةَ الطير، أدركت كل هذا.

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42))

والشيء الذي يلفت النظر أن الدين عند الله الإسلام، وأن جميع الأنبياء الذين ورد ذِكْرُهُم في القرآن الكريم جميعهم مسلمين، وهذه بعض الآيات التي تؤكِّد ذلك:

(وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43))

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ

لم تكن كافرةً، بل كانت من قومٍ كافرين، فالإنسان أحياناً ينشأ في بيئةٍ كافرة، لذلك قد ينكر قلبه تصرُّفات قومه، ما هم عليه من عادات وتقاليد، هو يميل إلى أهل الإيمان، هذا الذي ينشأ في بيئةٍ كافرٍ، ويحّكم عقله في هذا الذي هو عليه، ويهتدي إلى الله عزّ وجل، كأن الله سبحانه وتعالى يَعِدُ بهدايته، لقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

(وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (43))

هي كانت تعبد الشمس من دون الله، هكذا نشأت في هذه البيئة، ومن شَبَّ على شيءٍ شاب عليه،

والإنسان أحياناً يقال: إنه ابن بيئته، هذا قولٌ صحيح أحياناً، وابن وراثته، وابن محيطه، وابن معطياته، ولكن الأصح من كل ذلك أنه ابن نفسه، فالإنسان في جزء من حياته فاعل وليس منفعلاً، فليس الإنسان ماءً إنْ وضعته في المنحدر سال، أو حجرا إذا ألقيته من عَلٍ هوى.

الإنسان قد يمشي في عكس الاتجاه الذي يظن أنه سيمشي به، الإنسان له اختيار، لذلك فبعض عظماء العالم نشئوا في بيئات ليست في المستوى المطلوب.

(وَصَدّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43))

معنى الصدّ:

معنى الصد أي أبعدها، أي صرفها، أي حجبها، الإنسان إذا تأمّلَ في العادات والتقاليد التي ورثها عن آبائه وأجداده يجب أن يقيسها بالشرع، فإذا وافقت الشرع كانت مقبولة، وإلا فعليه أن يَرْفُضَهَا، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أول امتحان هو امتحان العقل، أراد أن يمتحن عقلها فنكّرَ لها عرشها، الامتحان الثاني أراد أن يُحَجِّمَهَا، لأن المتكبر لا يهتدي، هذه قاعدة، من تضخّمَتْ ذاته ورأى نفسه فوق الناس فهذا هو الكبر وهو حجابٌ بينه وبين الهدى، أراد أن يحجمها بأسلوبٍ آخر، فقال الله عزّ وجل متابعاً هذه القصة:

(قِيلَ لَهَا (44))

لم يقل لها هو، يبدو أنها وصلت إلى بيت المقدس، واستقبلت رأت عرشها، وعرفت أنه هو، أجابت إجابةً ذكية، وكانت تنطوي على فكرٍ ثاقب، والآن إلى مرحلةٍ أخرى من مراحل التحجيم.

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصّرْحَ (44))

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجّة وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا

1 ـ ما هو الصرحُ ؟

الصرح يشبه الليوان، أو الإيوان، أي بناءٌ بلا سقف، له جدران، يبدو أن إحدى الجهات مكشوفة وبعض جهات السقف مكشوفة أيضاً، هذا هو الصرح..

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجّة (44))

مياهٌ متدفِّقة كانت تجري تحت البلاط الزجاجي لأرض هذا الصَرْح، البلور كان صافياً جداً إلى درجة أن الداخل لا يرى البلور بل يرى الماء.

(فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ (44))

2 ـ معنى: مُمَرَّدٌ:

هذا ليس ماءً، هذا صرحٌ ممردٌ ثقيلٌ من الزجاج.

(إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ (44))

معنى ممرد أي ثقيل..

(مِنْ قَوَارِيرَ (44))

3 ـ مِّن قَوَارِيرَ

أي من زجاج، عندئذٍ شعرت أن هذا النبي قد آتاه الله ملكاً لم يؤتِهِ أحداً من الملوك، من جهةٍ نبيٌّ عظيم وملكٌ عظيم، وفي مجال المساومات لم يقبل هديتها بل أراد أن يهديها إلى الإسلام..

(قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

ظلمت نفسها فيما مضى من عمرها، فأخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يظلم نفسه، ومتى يظلمها ؟ إذا تركها جاهلة، قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الفلاح، نبحث عن الفلاح، لن تكون فالحاً إلا إذا تطابقت مقاييس الفلاح عندك مع مقاييس الله في الفلاح، الإنسان أحياناً يظن أنه إذا اغتنى فقد أفلح، أو إذا قوي فقد أفلح، أو إذا انغمس في الشهوات فقد أفلح، ولكن الله عزّ وجل يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(15))

(سورة الأعلى)

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الفلاح هو أن تعرف الله عزّ وجل، والشقاء هو أن تجهل الله عزّ وجل، لذلك، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

((ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

لذلك هناك قريةٌ زارها رجل، فإذا على قبور أمواتها تواريخ مُضحكة، هذا الإنسان عاش خمس سنوات، وهذا سبع سنوات، وهذا عشر سنوات، وهذا خمسة عشر عاماً، ما هؤلاء ؟ ما قصتهم ؟ هذه القرية لا يُعَدُّ من عمر الإنسان إلا السنوات التي اهتدى بها إلى الله عزّ وجل، فهذه الفترة التي أمضاها الإنسان بالمعصية والجهل والبعد عن الله عزّ وجل أمواتٌ غير أحياء، وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل: من الآية 21)

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

الكافر ميّت.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

فحينما نظرت إلى ماضيها، وكيف كانت تعبد الشمس من دون الله ؟ وكيف كانت ضالة تائهة ؟ وكيف كانت في شقاءٍ ما بعده شقاء؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هذا قولها:

(إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي (44))

إنّ الإنسان قد ظلم نفسه قبل أن يستقيم، وقبل أن يعرف الله عزّ وجل، وقبل أن ينفق ماله في طاعة الله، وقبل أن يسارع لخدمة الخلق، لكن هذا الظلم يعرفه المؤمن في الدنيا ؛ والكافر يعرفه يوم القيامة، فالمشكلة أن الإنسان إذا عرف الحق وهو في الحياة فطريق الإصلاح مفتوح، أما إذا عرف الحقيقة بعد فوات الأوان فقد خسر الخسران المبين، لذلك قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27)يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا (29))

(سورة الفرقان)

الحديث القدسي المعروف:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

لذلك:

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 – لا يكون الإسلام والخضوع إلا لله:

لو أنها قالت: وأسلمت لسليمان، فقد أشركت..

(وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

الإسلام لله عزّ وجل، لله رب العالمين.

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

(وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ (44))

أي أن الذي يهديك إلى الله عزّ وجل يبين لك الحق، ويأخذ بيدك إلى الله عزّ وجل، وهذه كل مهمته، أما التوحيد لله عزّ وجل، الإخلاص لله عزّ وجل، الفناء في الله عزّ وجل، التوكّل على الله عزّ وجل، الاستسلام لله عزّ وجل.

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44))

2 – لا غالب ولا مغلوب في الإسلام:

شيءٌ آخر هو أنه في الإسلام لا غالب ولا مغلوب، فإذا اقتضى أن تعامل إنساناً بالقوة أو بالحيلة، وانتصرت عليه، أصبح أخاك في الإسلام، كلّكم يعلم أن سيدنا عُمَير بن وهب قد التقى بصفوان بن أمية في مكة، في أعقاب موقعة بدر، وبدر وما أدراكم ما بدر قُتِلَ فيها صناديد قريش، يقول عمير بن وهب: **" والله لولا ديون ركبتني، وأولادٌ صغار ليس لهم معيلٌ بعدي لذهبت وقتلت محمداً "**، هذا الكلام جرى بين عمير بن وهب وصفوان بين أمية وكانا مشركين، وهذا الكلام جرى في ظاهر مكة، ولم يعلم به إلا الله، فانتهزها صفوان مناسبةً ليشجّعَ عمير بن وهب على قتل سيدنا محمد، فقال له: **" أمّا عيالك فهم عيالي، وأما الديون التي ركبتك فهي علي بلغت ما بلغت، فامضِ لما أردت "**.

هذه القصة سأروي بعض فقراتها عليكم لأصل إلى أنه حينما يُسلم الإنسانُ فكل العداوات التي خلّفها في أيام الشرك تذوب كالملح، فحينما أحرجه صفوان وقال: **" أولادك هم أولادي، والديون التي ركبتك أنا أدفعها عنك بلغت ما بلغت "**، عندئذٍ توجّه عمير بن وهب واقتنى سيفاً مسموماً، وركب ناقته وتوجّهَ إلى المدينة المنورة، وصل إليها فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **" هذا عدو الله عمير بن وهبٍ جاء يريد شراً "**، أخذ سيفه، وربطه بحمالته وقاده صاغراً إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

دخلا على النبي، وقال عمر: **" يا رسول الله، هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، فدعني أضرب عنقه"**، لكن النبي عليه الصلاة والسلام نبي المرحمة، نبي الرحمة، نبي التسامح، نبي العَطْف، قال: **" يا عمر أطلقه "**، أي فك قيده، أطلقه عمر، قال: **" يا عمر ابتعد عنه "**، فابتعد عنه عمر، قال: **" يا عُمَير ادنُ مني "** فدنا منه، قال: **" يا عمير، سلِّم علينا "** فقال: **" عمت صباحاً يا محمد "**، قال: **" قل السلام عليكم "**، قال: **" لست بعيد عهدٍ بسلامنا "**، هذا سلامنا، فقال: **" يا عمير ما الذي جاء بك إلينا؟ "**، فقال: **"جئت أريد فكاك أخي من الأسر "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **" وهذا السيف الذي على عاتقك لماذا جئت به ؟ "** قال: **" قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتها يوم بدر ؟** قال: **" ألم تقل لصفوان بظاهر مكة لولا ديونٌ ركبتني ولولا صبية صغار لذهبت وقتلت محمداً، فقال لك صفوان: أما ديونك فهي علي، وأما أولادك فهم أولادي ؟ "**، عندئذٍ يروي كتاب السيرة أن عميراً وقف من شدة

الدهشة، لأن هذا الكلام الذي جرى بينه وبين صفوان لم يدر به إنسان إذاً هذا رسول الله حقاً، وقف وقال: **" أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله "**.

والقصة تَذْكُر أن صفوان وهو في مكة كلما التقى بأهل مكة يقول: **" انتظروا أخباراً سارة "**، وكأنه ينتظر أن يأتي خبر قتل سيدنا محمد، كان يخرج إلى ظاهر مكة ليتلقى ركبانها، ويسألهم: ماذا حصل ؟ مضى أسبوع وأسبوعان وهو يقول: **" انتظروا أخباراً سارة "**، ثم جاء الخبر بأن عمير بن وهب أسلم.

الذي أريد أن أقوله هنا: أن سيدنا عمر قال: **" والله دخل عمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخنزير أحبُّ إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي "**، هذه اللقطة، فمهما يكن عدوك عنيفاً لمجرد أن يسلم صار أخاً لك، هذه عظمة الإسلام، بلقيس جاءت سيدنا سليمان مذعنة، مستسلمة، خاضعة، لم يعاملها كمغلوبة، فحينما أسلمت انتهى كل شيء، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: من الآية 10)

المسلم أخ المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يحقره وهكذا.

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44))

من علامات معرفة الله عزوجل:

كأنها عَرَفَت الله عزّ وجل، المشكلة أن كل إنسان يدّعي أنه يعرف الله، فالدعوة عريضة. ولكن إذا أردنا أن نقف عند بعض الدلائل التي تؤكِّد معرفة الله عزّ وجل، هناك بعض الدلائل.

1 – الهيبةُ من الله:

منها كما قال بعضهم: **" علامة معرفة الله عزّ وجل الهيبةُ منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته"**، حالة الخشوع، فالمؤمن في قلبه خشية من الله كبيرة.

2 – السكونُ:

علامة أخرى **" المعرفة توجب السكون "**، والسكون يَعنى السكينة، إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من عباده، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة، الشعور بالغنى، الشعور بالسكينة، الشعور بالرضا، هذه من علامات معرفة الله عزّ وجل، كلٌ يدعي أنه يعرف الله، ولكن هل في قلبك تلك السكينة، السكينة الركون إلى الله عزّ وجل.

3 – أنسُ القلبِ بالله:

قال العلماء: **" من علامة معرفة الله أنس القلب بالله، ومن علامة أنْس القلب بالله أن تُحِسّ بالقرب منه "**، فالمؤمن من الله قريب، والقرآن الكريم يقول:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19))

(سورة العلق)

فالإحساس بالقرب من الله عزّ وجل هذا من علامة المعرفة بالله عزّ وجل.

الإمام الشبلي يقول: **" ليس لعارفٍ علاقة ـ أي أنّه وَحّدَ، توحيده جعله يضع كل علاقاته بالله عزّ وجل، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كُلّها.. فليس لعارفٍ علاقة، ولا لمحبٍ شكوى، ولا لعبدٍ دعوى، ولا لخائفٍ قرار، ولا لأحدٍ من الله فرار"**.

قال: **" من كان بالله أعرف كان له أخوف "**، فإذا كان هناك مؤشّر لمعرفة الله فإن هذا المؤشر تابع لمؤشرٍ آخر، لخوفك منه، كلما ازدادت معرفتك ازداد خوفك، وكلما قلّت معرفتك قلّ خوفك، فمن كان بالله أعرف كان له أخوف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية))

[ورد في الأثر]

4 ـ ضيق الدنيا وسَعتها على المؤمن منوطٌ بمعرفته بالله:

من علامات معرفة الله **" مَن عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها، ومن عرف الله عزّ وجل اتسع عليه كلُّ ضيق "** كيف نوفِّق أنه من عرف الله ضاقت الدنيا بسعتها عليه، وأن من عرف الله اتسع له كل ضيق ؟ أي أن هذا الذي يبحث عن الله عزّ وجل، هذا الذي يعرف الله عزّ وجل، هذا الذي أراد معرفة الله عزّ وجل، لو أطعمته أطيب الطعام، لو أسكنته في أوسع القصور، لو طُفْتَ به في شتَّى بقاع المعمورة، هو يهدف إلى غير ذلك، هذه الدنيا الواسعة المترامية الأطراف تضيق به، أما إذا جلس في ركنٍ ضيق ليطلب العلم، إن هذا الركن الضيّق يتسع له، فإذا كان المكان ضيقاً وحقق المؤمن به رغبته في معرفة الله عزّ وجل اتسع هذا المكان، وإذا اتسع المكان، وكان خواءً من معرفة الله عزّ وجل ضاق به المكان، فمن عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها، ومن عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق.

5 ـ صفاءُ العيش:

من عرف الله تعالى صفا له العيش، ليس معنى صفاء العيش أن يكون في بحبوحة، ولكن هذه النفس

وجدت بغيتها، وجدت ضالتها، ركنت لربها، قنعت به رباً، قنعت بعطائه، اطمأنت لوعده، خافت من وعيده، هذا أيضاً من علامات معرفة الله عزّ وجل، من عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، خوف المخلوقين مؤشرٌ على الجهل بالله، ذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله عزّ وجل.

6 ـ قرارُ العين:

قالوا: **" من عرف الله عزّ وجل قرّت عينه بالله، وقرّت عينه بالموت، وقرّت به كل عين "**، أي أنه وصل إلى هدفه الكبير، الدنيا أصبحت عنده لا قيمة لها، أصبحت خارج اهتمامه، إذا عرفت الله عزّ وجل قرت عينك به، فإذا ذكر الموت فأنت له مشوق، لأن هذا الموت سينقلك من دار الغرور إلى دار الحقائق، إلى دار الشهود، إلى دار التكريم، إلى دار التشريف، إلى سعادةٍ أبدية، من هنا قالوا: **"الموت تحفة المؤمن "** فمن عرف الله قرت به عينه، وقرت عينه بالموت، وقرت به كل عين، لأن الإنسان في شغف، وفي شوق، وفي عطش شديد لمعرفة الله، فإذا عرف الله عن طريق الإنسان ارتاحت نفسه له، ومن لم يعرف الله تَقَطّعَ قلبه على الدنيا حسرات، لذلك سيدنا الصديق من الأوصاف التي وصِفَ: بها ما نَدِمَ على شيءٍ فاته من الدنيا قط، من عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

وكلٌ ما سوى الله لغو.

لا تجتمع معرفةُ الله والرغبةُ في الدنيا:

الآن: **" من ادعى معرفة الله وهو راغبٌ في الدنيا كذّبت رغبته معرفته "**، قال: **" من عرف الله أحبه على قدر محبته به "**، إذاً حجم محبتك لله عزّ وجل بحجم معرفتك به، لذلك ازدد معرفة تزدد حباً، ازدد معرفةً تزدد خوفاً، ازدد معرفة تزدد زُهداً وهكذا، من عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه، ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه وأجله وعظمه على قدر معرفته به، لأن أصل الدين معرفة الله عزّ وجل.

في الدين أصول وفروع، أصل الدين أن تعرفه، وكيف تعرفه ؟ تعرفه من الكون، وتعرفه من الشرع، فإذا بذلت وقتاً ثميناً في معرفته من خلال الكون، وبذلت وقتاً ثميناً في معرفته من خلال الشرع، فقد وضعت يدك على جوهر الدين.

معرفةُ الله يلزم منها العلمُ بالله:

شيءٌ آخر، لا يوصف الإنسان بالمعرفة إلا إذا كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل إليه، وبآفات الطريق، وبقواطع الطريق، وله حالٌ مع الله تشهد له بالمعرفة، يجب أن تعرفه، إذا أردت أن تدعو إليه يجب أن تعرفه، ويجب أن تعرف الطريق إليه، ويجب أن تعرف آفات الطريق وقواطع الطريق، ويجب أن يكون لك حالٌ معه تشهد لك بالمعرفة، والعارف بالله من عرف الله في وحدانيّته، وعرفه في أسمائه، وعرفه في صفاته، وعرفه في أفعاله، ثم صَدّقَ ذلك سلوكه، أي أن العمل، والتعامل اليومي يجب أن يكونا مصداقاً لهذه المعرفة، ثم أخلص له إخلاصاً شديداً، والإخلاص من لوازم معرفة الله عزّ وجل، أخلص له في قصده وفي نيّاته كلها، ثم انسلخ من أخلاقك الرديئة وآفات هذه الأخلاق، فلا يتناسب هذا الدين مع مساوئ الأخلاق، **"إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه "**، ثم تطهر من أدرانه ومخالفته، ثم صبر على أحكامه في نعمه وبلائه، ثم دعا إليه على بصيرةٍ بدينه وآياته، ثم جاءت دعوته مُطَابِقَة لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

تعقيباتٌ على القصة:

التعقيب الأول: الأصل في القصة العبرة والمغزى:

تعقيبٌ سريع على هذه القصة، قلت مراتٍ عديدة في دروسٍ سابقة: إن القصة في القرآن الكريم ليست مقصودةً بذاتها، المقصود نحن، والمقصود أن نستنبط منها حقائق تُعيننا على الوصول إلى الله عزّ وجل، وقصة سيدنا سليمان تُنْبئنا أن الهدى يحتاج إلى إعمال فكر، وأن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يقول:

(أفلا تَعْقِلُونَ(44))

(سورة البقرة)

(أفلا تُبْصِرُونَ(72))

(سورة القصص)

(أفلا تَتَفَكّرُونَ(50))

(سورة الأنعام)

(قلِيلا مَا تَتَذَكّرُونَ(58))

(سورة غافر)

(إنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

التعقيب الثاني: طريق الإيمان يحتاج إلى تواضع:

النقطة الثانية: أن طريق الإيمان يحتاج إلى تواضع، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت إخوته وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

إذاً: تحتاج إلى صفة عقلية وصفة خلقية، الصفة العقلية الفكر اليَقِظ، هذا العقل أداة معرفة الله، جعله الله لك ميزاناً، فإذا أهملته دفعت الثمن باهظاً، وإذا أعملته عرّفَكَ بمعالم الطريق، ويأتي الشرع ليعطيك التفصيلات، إذاً ليس المقصود أن نقرأ القصة ؛ المقصود أن نعرف الحقائق التي انطوت عليها.

التعقيب الثالث: قدرة الله عزّ وجل لا يحدُّها شيء:

شيءٌ آخر، قدرة الله عزّ وجل لا يحدُّها شيء، إذا قال الله عزّ وجل:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1))

(سورة التغابن)

فنقل عرش من اليمن إلى بيت المقدس في أقل من لمح البصر، إذاً: قدرة الله لا تحدها حدود، والإيمان يحتاج إلى تواضع وإلى التزام، ويحتاج الإيمان أيضاً إلى فكرٍ يقظ لأنه أداة معرفة الله عزّ وجل.

التعقيب الرابع: قوام الدين والدنيا أربعة رجال:

أختم هذا الدرس بقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< قوام الدين والدنيا أربعة رجال ؛ عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضَيّعَ العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره >>.**

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 45 - 53
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة النمل، انتهينا في الدرس الماضي من قصّة سليمان مع الملكة بلقيس، واليوم ننتقل إلى قصّةٍ أخرى، وهي قصّة قوم ثمود مع نبيّهم وأخيهم سيدنا صالح، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

(سورة النمل)

قصةُ صالح مع قومه ثمود: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً

1 – الحكمةُ من إرسال الأنبياء:

إرسال الله الأنبياء إلى الأمم حق، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى لحرصه على هداية الخلق لابدّ من أن يرسل إليهم من يبيّن لهم، وإذا انقطعت رسالات الله عزّ وجل بعد سيدنا محمد صلى وسلّم فإن الله تعهّد لهذه الأمّة أن يبعث إليها من يجدِّد لها دينها، فهذا دور العلماء الذين ينطقون بالحق نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالإرسال مستمر.

وربنا سبحانه وتعالى له أساليبه في تبليغ الناس الحق، أحياناً يضيّق عليهم، وكلكم يرى أن الضيق الذي يقدِّره الله عزّ وجل لأمّةٍ ما إنما هو في سبيل إيقاظها، التقنين الذي يقدِّره الله لأمةٍ ما، إنما هو في سبيل تذكيرها، الإنسان حينما يقنِّن فإنه يقنِّن تقنين عجزٍ وتقنين ضعفٍ ؛ لكن الله سبحانه وتعالى حينما يقنِّن فإنه يقنِّن تقنين تأديبٍ وتذكير، فالمصائب تذكِّرّ، والضيق يُذكِّر، وأقوال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه تذّكر، وكتاب الله الذي بين أيدينا يذكِّر، وبعض الحوادث تذكِّر.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

***

يا أيها الإخوة الأكارم... لن تُترَكَ سُدى لأننا لم نخلق عبثاً، أنا أردت من كلمة:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

فأنت أيها العبد لن تُترَكَ سُدى، لن يدعك الله من معالجته، فإما أن تأتيه طائعاً، وإما أن تأتيه على أثر مشكلةٍ، أو تضييقٍ، أو مصيبةٍ، أو زجرٍ، أو ما إلى ذلك، فربنا سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم،

ولن يسعدوا إلا بمعرفته، والاستقامة على أمره، لذلك لابدّ من أن تأتيه طائعا، وإن لم تفعل فهو قادرٌ على أن يسوقك إليه سَوْقاً، فهذا كلام دقيق، أنت جئت إلى هذا المسجد، وسمعت هذا الدرس، أنت الآن أصبحت مسؤولاً عن كل شيءٍ سمعته، وهذا الذي لم يأتِ سيُسأل وسيُحَاسَب..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا بلا تذكير ؟ بلا شرع ؟ بلا منهج ؟ بلا كتاب ؟ بلا حساب ؟ بلا عقاب ؟..

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38))

(سورة القيامة)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4))

(سورة القيامة)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من آية " 27)

فمن كلمة:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

أيْ قوم ثمود..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من الآية 17)

لن يدع الله قوماً ولا أمّة، ولا فرداً ولا مخلوقاً من دون أن يَدُلّه عليه، وفي الدعاء الشريف: **دلّنا بكَ عليك ".**

2 – المؤمنُ داعية مبلِّغٌ:

إذاً: ماذا نستنبط من هذه القصّة ما دام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً ؟ فأنت أيها المؤمن هكذا تستمع إلى كتاب الله صباح مساء، تحضر خُطَبَ الجمعة، تحضر مجالس العلم، قد يأتي مَن يذكِّرك، قد يأتي من يُلفِتُ نظرك، قد يأتي من يحذّرك، قد يأتي من يبشّرك فيجب أن تستجيب، دقِّقوا في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

الله سبحانه وتعالى يدعوكَ كي تكون حَيّاً، قد تقول: مَن أنا، هل أنا ميت ؟ ربنا سبحانه وتعالى يصف الكفّار بأنّهم ميّتون، قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21))

(سورة النحل)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

ما هو النذير ؟

حينما يهتمُّ الإنسان بدنياه فقط، ويُعْرِضُ عن آخرته، ولا يفكِّر فيها فهو في حكم الميّت، إذاً: فالله سبحانه وتعالى حينما قال في كتابه الكريم:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية 37)

العلماء فسّروا النذير بأنه القرآن، وفسّروه بأنه النبي عليه الصلاة والسلام، وفسّروه بأنه سنُّ الأربعين، وفسّروه بأنه الشيب..

((عبدي شاب شعرك، وضعُفَ بصرك، وانحنى ظهرك، وضعفت قوّتك فاستحيي مني فأنا أستحيي منك))

وفسّر العلماء النذير بالمصائب، وفسّر العلماء النذير بموت الأقارب، فربنا سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليعرّفنا بذاته.

((اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحبّ إليكَ من كل شيء))

إذاً: لابدّ من معرفة الله عزّ وجل، وأصل الدين معرفة الله.

أتمنّى عليكم أن تقفوا معي على هذه الفكرة، قد يقول أحدكم: أنا طبيب، أنا مهندس، أنا تاجر، والعلم جميل لطيف لكن ليس هذا اختصاصي، من قال لك ذلك ؟ هذا العلم الديني يشبه التنفّس، وجودك متوقِفٌ عليه، سلامتك متوقِفةٌ عليه، سعادتك متوقِفةٌ عليه، كمال وجودك متوقِفٌ عليه، استمرار وجودك متوقِفٌ عليه، وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك متوقِفٌ على تطبيق منهج الله عزّ وجل، فطلب العلم الشرعي فرض عين، لابدّ من أن تعرف الله عزّ وجل وإلا فلابدّ من أن تقع في متاهاتٍ كبيرة.

أنت كَسيارة منطلقة بسرعة، وسرعتها تعني هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان، إنها تدفعك نحو إروائها، نحو الطعام والشراب، نحو تحقيق الملذّات، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان

كأنّها قوّةٌ محرّكة، هذه السيارة التي تنطلق بسرعةٍ فائقة، إنّ احتمال أن تتدهور من دون ضوءٍ كاشفٍ وهي تمشي في الليل، في ظلامٍ دامس، وفي طرقاتٍ ملتوية، احتمال تدهورها كم بالمئة ؟ الجواب مئة بالمائة، فأن تكون للسيّارة مصابيح كشّافة، هذه المصابيح ليست للزينة، ولا يمكن الاستغناء عنها، لا، إنها من ضروريات السيارة، وهذا العلم الذي تتعلّمه من ضروريات وجودك، من ضرورات سلامة وجودك، من ضرورات كمال وجودك، من ضرورات استمرار وجودك.

طرُقُ التذكيرِ متنوّعة:

إذاً: الله سبحانه وتعالى لن يدع الناس سُدَىً ؛ لا جماعاتٍ ولا أفراداً، لابدّ من أن يذكِّر، قد يذكِّرك بنصيحة، وقد يذكِّرُكَ بضيق، وقد يذكرك بمصيبة، وقد يذكرك بطريقةٍ أو بأخرى، أما الموفّق والسعيد فهو من يتذكّر بالطريقة السليمة، هذا الكتاب كتاب الله، ولقد يسّره الله..

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ)

(سورة القمر: من الآية 17)

فلابدّ من أن تتذكّر، وإلا كانت العاقبة وخيمة، قال له: **" عظني وأوجز "**، فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال: **" أريد أخفّ من ذلك "**، قال عليه الصلاة والسلام:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

[ورد في الأثر]

ولو ذهبت تتأمّل طريقة معاملة الله لعباده تجد أن الهدف الأكبر هو أن يعرفوه، وأن يستقيموا على أمره، وأن يتقرّبوا إليه، فإن فعلوا كان بها، وإلا كانت الإجراءات الأخرى، كانت الأساليب الأخرى، فلهذا يقول الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا (45))

لماذا أرسل الله عزّ وجل صالحاً إلى ثمود ؟ أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

لماذا أرسل الله عزّ وجل صالحاً إلى ثمود ؟ قال:

(أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

1 – أنت أيها الإنسانُ عبدٌ مملوك لله:

أنت عبدٌ لله، أنت لا تملك شيئاً، أنت مملوك ولست مالِكاً..

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ

(سورة البقرة: من الآية 26)

ما دمت مملوكاً فيجب أن تعرف الذي يملكك ماذا يريد ؟ إذا دخلت إلى دائرة، وقد عُيِّنْتَ فيها موظّفاً، أول سؤالٍ تسأله: المدير ماذا يحب ؟ ماذا يكره ؟ كيف أستميله ؟ كيف أسترضيه ؟ كيف أتفادى أن أُغْضِبَهُ ؟ هذا شيء مهم جداً، إذا كنت عبداً في قبضة الله عزّ وجل، ولا تملك من الأمر شيئاً، فينبغي أن تعلم ماذا يرضي الله عزّ وجل، لو كنت حرّاً تفعل ما تشاء، أما إذا كنت عبداً ما هكذا تصنع العبيد، سؤال دقيق: من أنت، هل أنت حُرٌ أو عبدٌ ؟ هل أنت مالكٌ أو مملوك ؟ هل أنت قادرٌ أو مقدورٌ عليك ؟ هذا ينبغي أن تعلمه علماً أكيداً، فلذلك:

(أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

2 – المنـهج الإلـهي يتوافق مع الفطرة وعقل الإنسان:

الله سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان، وجعل له منهجاً، هذا المنهج الإلهي يتوافق ويتطابق تطابقاً تامّاً مئة بالمئة مع العقل البشري، وما من توجيهٍ إلهي يقول العقل السليم له: لا، أبداً، وما من شيءٍ يأتي به القرآن إلا والعقل يوافقه أتمَّ موافقة، هذه ناحية، وهذا المنهج الإلهي أيضاً يتطابق مع الفطرة. قلت لكم مَرّةً كلمة قرأتها في صحيفة لا أحد ينتبه إليها، قد تبدو تافهة، ولكنّني استنبطت منها مغزىً عميقاً، سألوا امرأة تعمل في الفن، وهي في أوج نجاحها، في أوج تألُّقِهَا، سألوها: ما شعورك وأنتِ على خشبة المسرح ؟ قالت: **" شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور "**، هذه المرأة التي ذكرت قبل قبيل لا تعرف ما الإسلام، ولا تعرف ما القرآن، ولا تعرف العربيّة، عاشت في بيئةٍ ماديّة، لكنّ فطرتها سليمة، ويبدو أنها صادقة مع نفسها حتى قالت هذا الكلام، هذا هو الإسلام، حينما تخالف المرأة أمر ربّها تخرج عن فطرتها، فكأنّ الدين هو الفطرة، أنت لا ترتاح إذا خالفتَ الفطرة التي فطرك الله عليها.

فهؤلاء الذين ينكرون وجود الله عزّ وجل ماذا يفعلون ؟ يذهبون إلى المنجّمين أحياناً، لماذا ؟ لأنه شعر أن هناك قِوى خفيّة بيدها مصيره، يا ترى كيف يموت ؟ متى يموت ؟ هل يوفّق أم لا يوفّق ؟ هل يأتيه مرض في وقتٍ مبكّرٍ ؟ هل ينجو من هذا المرض ؟ تجد شخصاً كبيراً له شهادات عُليا، وله أفق واسع، وله مؤلّفات، ويحتل أعلى المناصب، يقف أمام بابَ منجّمٍ في بعض بلاد الغرب ليستطلع المستقبل، هو

يؤكِّد فطرته، فالإنسان لا يرتاح إلا إذا اطمأنّ إلى قوّةٍ غيبيّةٍ بيدها كل شيء، فالمسلم عرف أن هذه القوّة الغيبيّة هي الله عزّ وجل، أما غير المسلم يظنُّ أن المنجِّم يعرف، وأن فلاناً يعرف، وأن علانًا يعرف، وأن الكاهن يعرف، وأن الساحر يعرف.

فإذا أردت أن تسعد في الدنيا والآخرة فلابدّ من أن تتبع منهج الله عزّ وجل، هذا المنهج يتطابق أتمّ المطابقة مع العقل، لأن هذا كلامه، وهذا منهجه، والعقل الذي أودعه الله فيك من خلقه، والخالق واحد، منزّل هذا الكتاب هو ذاته خالق هذا العقل، إذاً: لا يمكن أن يقول الله لك شيئاً، ويقول العقل بخلافه، مستحيل، لا يمكن أن يقول الله شيئاً، وتقول الفطرة شيئاً خِلاف هذا القول.

في أي مجتمع، في أي زمن، في أي عصر، في أي مِصر، في أي ظروف، في أي بيئة، أيكون العدوان على زوجة صديقك عملاً مقبولاً ؟ لا، لأنّ الزنا محرّم، أيكون توليد المال من المال.. أي الربا.. شيئاً مقبولاً ؟ لا، هذا الذي يُنَمّي المال عن طريق المال من دون أن يقدِّم شيئاً للمجتمع، من دون أن يعمل، حينما ينمو المال لا عن طريق العمل ولكن عن طريق المال نفسه، هذا هو الربا بعينه، إذا ماذا يعمل الربا ؟ هذا يجعل هذه الكتلة النقديّة الكبيرة في أيدٍ قليلة، نهاية هذا الوضع أن أناساً قليلين يملكون كل شيء ويأكلون ما يشتهون، بينما وأناسٌ كثيرون جداً لا يملكون شيئاً، هذا الخلل في المجتمع سببه الربا، ما دام هناك طريق لكسب المال من دون جهد، من دون بذل عمل، إذاً: هناك مخالفة للشرع، فنظام الله عزّ وجل، لأنه من عند الخالق، من عند الصانع، من عند العليم الخبير، من عند الخلاّق العليم، من عند خالق السماوات والأرض، من عند خالق الإنسان، من عند الذي صوّر الإنسان، والذي خلق بُنْيَة الإنسان يعلم كل شيء، فقرّر أن الربا حرام، وأن الإنسان لابدّ من أن يعمل.

فأنت مثلاً: إذا كنت تملك آلة غالية الثمن جداً، ومعها تعليمات، أتذهب إلى جارك الذي يعمل في عملٍ يدوي، ولم يقرأ شيئاً، والجهاز معقّد جداً، وهو جهاز إلكتروني يحتاج إلى خبراء، إلى مهندسين، أصابه عطب، هل تذهب إلى هذا الإنسان الجاهل كي يعطيك التوجيهات لاستعماله، أم تذهب إلى صاحب المعمل، أو إلى مهندس الشركة، أو إلى كُتيّبه الدقيق ؟ هكذا أنت، فالإنسان خَلْقٌ معقّد جداً، فيه شهوات، فيه ميول، فيه نوازع، له فكر، وله نفس، وفيه جانب اجتماعي، وجانب نفسي، وجانب عقلاني، تواجهه ظروف صعبة، ويحيا ضمن بيئات معقّدة، فكيف ينجو ؟ كيف يسعد ؟ كيف يرقى؟ كيف يحقِّق أهدافه في الدنيا والآخرة ؟ لابدّ من تطبيق منهج الله عزّ وجل.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

لو لاحظت القرآن كلّه، وقصص الأنبياء كلِّها، والرسالات السماويّة كلها تدعو إلى شيءٍ واحد.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ (45))

مهمة المخلوق عبادة الخالق:

فهذا المخلوق معه منهج، هل طبّقت هذا المنهج ؟ في هذا المنهج عقيدة، يقول لك الله: مَن أنت ؟ أين كنت ؟ إلى أين المصير ؟ ماذا ينبغي أن تعمل ؟ افعل ولا تفعل، في هذا المنهج طرائق صحيحة لمعاملة الناس، هذه المعاملات، في هذا المنهج وسائل فعّالة للاتصال بالله عزّ وجل، فيه جانب منه عقائد، وفيه عبادات، كما أنّ فيه معاملات ؛ من في عمل أهم، ولا من عمل أعظم، ولا من عمل أخطر من أن تَعْكِفَ على هذا المنهج لتدرسه.

إذا حضرت مجلس علمٍ يُفَسّر فيه كلام الله أنت ماذا تفعل ؟ أنت مخلوق جاء الله بكَ إلى الدنيا كي تحقِق رسالة، وفي مجيئك للمسجد وسماعك تفسير كلام الله عزّ وجل هو مرحلة أولى في تطبيق هذه الرسالة، كيف تطبّق هذا المنهج وأنت لا تعرف صاحب المنهج ؟ كيف تطبّق هذا المنهج وأنت لا تدري ما المنهج ؟ المنهج كتاب الله.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ(45))

الناس قسمان: فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ

الناس رجلان، فلو قسّمت الناس مائة قسمٍ، هذه الأقسام المائة لا تزيد عن أنها في فئتين فقط، فئةٍ مؤمنةٍ وفئةٍ كافرة، الفئة المؤمنة تسير على منهج الله، يشعر المؤمن أنه عبدٌ لله، وأن الله على كل شيءٍ قدير، وأن هذا الكتاب كتابه، الكافر يكذِّب ويعرض وتُحرّكه شهواتُه، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

(سنن الترمذي عن ابن عمر)

وإذا رأيت ما يصيب الناس مَن هم أو حزنٍ، وما يصيبهم من قحطٍ، من انحباس الأمطار، هذا كلّه علاجٌ من الله عزّ وجل، وقد يُفَسّر هذا بكلمتين: هان الله عليهم فهانوا على الله، فكيف هان الله عليهم ؟ إنك ترى الناس لا يبالون أطاعوا ربّهم أم عصوه، يقول لك: لا تدقِق، أكان كسبهم حلالاً أمْ حراماً ؟ أكان هذا الاختلاط يرضي الله أمْ لا يرضي الله ؟ لا يفكِّر، يهمُّه تحقيق رغباته، ما دام الله قد هان عليه إذاً هو أيضاً هان على الله، فلابدّ من أن يُعَالَجْ..

(فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45))

وملّة الكفر واحدة، الكافر هو الكافر من عهد سيدنا آدم وإلى يوم القيامة ؛ أقواله، أفعاله، أفكاره، قِيَمُه، نزواته، طريقته في الحديث، طريقته في المُزاح، علاقته مع الناس مبنيّةٌ على المنفعة والمصلحة، والأثرة وحبِّ الذات، وإنكار القِيَم، ويريدها عوجاً، يبغونها عوجاً، والصدُّ عن سبيل الله، أبداً ملّة الكفر

واحدة، والمؤمنون منذ سيدنا آدم وحتّى قيام الساعة لهم طريقةٌ واحدة..

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادّون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم))

[ورد في الأثر]

المؤمن هو المؤمن والكافر هو الكافر، المؤمن في حركاته اليوميّة، في كسبه للمال، في إنفاقه للمال، في علاقاته الاجتماعيّة، في علاقاته بالله عزّ وجل، المؤمن هو المؤمن في كل زمانٍ ومكان، والكافر هو الكافر، أقوال أهل الكفر واحدة، أقوال أهل الإيمان واحدة، لذلك:

(فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45))

ينبغي أن توطِّن نفسك أن الذي لا يعرف الله لابدّ من أن يخاصمك، ولابدّ من أن يُسَفِّه أقوالك، ولابدّ من أن يبحث عن عيوبك، أما المؤمن فإذا عرف الله عزّ وجل اطمأنّت نفسه.

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ (46))

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

بعض الناس أحياناً إذا أردت أن تخوِّفه، إذا أردت أن تحذِّره، أن تَلْفِتُ نظره يقول لك: ائتني بعذاب الله، وأنا مستعد، هذا كلام الحمقى، كلام المغرورين، كلام التائهين، كلام الشاردين، كلام الجهلة، ائتني بعذاب الله، وهو واللهِ الذي لا إله إلا هو لا يحتمل ألَمَ الضرس، الذي يقول لك: ائتني بعذاب الله، ليفعل الله ما شاء معي، لا يحتمل آلام الأسنان فقط..

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46))

لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

رحمة الله، هذا التجلِّي الإلهي الذي يُصَبُّ على قلب الإنسان، هذه السعادة التي لا يعرفها إلا مَن ذاقها، هذا الشعور بالأمن الذي لا يُحِسُّ به إلا مَن دخل فيه..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

ما أمرَك الله بعبادته إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه بيده:

الإنسان إذا لم يعرف الله عزّ وجل تواجهه ملايين المُقلِقات، يا ترى هل يصاب بمرضٍ خبيث ؟ لا يَعرف، الأمراض بابٌ كبير من أبواب القلق، الأشخاص الآخرون الأقوياء أحد مصادر القلق عند أحدهم ؛ أهله وأولاده، عمله، كسب رزقه، فهناك مليون باب للقلق، إذا الواحد ما عرف الله عزّ وجل حياته مشحونة بالمُقلقات، بالمخاوف، بالأحزان، تجده دائماً متوتِّراً، يائساً، مقهوراً، يشعر بالضياع، أما إذا عرفت الله عزّ وجل تقول ببساطة: هذا الإله العظيم الذي أمرني أن أعبده لا يمكن أن يكون مصيري إلا بيده، لو كان مصيري بيدِ غيره كيف يأمرني أن أعبده ؟ فأنت لو أن مصيرك بيدِ إنسان.

لو أن إنساناً ما بإمكانه فعلاً أن ينفعك أو أن يؤذيك، لك على الله حجّة، تقول: يا رب، أنا سأعبده لأنجو من شرّه، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

هذا الذي أمرك أن تعبده لا يمكن إلا أن يكون الأمر كلّه بيده..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كيف تعبده، وأمْركَ بيد غيره ؟ لن تعبده، لن تستطيع أن تعبده، لذلك فإنّ كل إنسان يشرك بالله تجده يتصاغر لهذا الذي أشركه مع الله، ويتقصّى مرضاتهم، ويخاف من غضبهم لأنه يعتقد أن بيدهم نفعه وضرّه، وهذا هو الشرك..

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

آيات التوحيد في كتاب الله لا تعدُّ ولا تحصى، كثيرةٌ جداً، فإذا قرأت كتاب الله عزّ وجل:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

((اعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابن عباس]

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: من الآية 32)

إذا وحّدت فأنت تعبد الله ؛ أما إذا أشركت فأنت لا تعبد الله، تعبد هذا الذي أشركته مع الله، فالزوجة مثلاً: لو أنها اعتقدت أن زوجها إما أن يسعدها، وإما أن يشقيها، فأمرها بمعصية، فأطاعته فهي عندئذٍ مشركة، يجب أن تخرجي هكذا، يجب أن تستقبلي أصدقائي، فإذا رأت أن زوجها بيده أن يطلِّقها أو أن يبقيها، ونسيتْ ربّها، فأطاعته فهي مشركة، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، أما الزوجة المؤمنة فتقول له: لا أفعل هذا، فإذا بقلب زوجها يلين، فإذا بزوجها يهتدي على يديها، وهذا ممكن، والعكس صحيح أيضاً، وعلاقتك مع أخيك، مع أقربائك، مع جيرانك، مع من هو فوقك، مع من هو دونك، و هكذا..

(لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46))

العبرة بالقلب الطاهرة لا بالصورة:

أجل نستغفر الله، فهذه الرحمة بعينها، إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا طيباً، هذه الرحمة لا تتنزّل إلا على قلبٍ طاهر، لذلك قالوا: القلب بيت الرب..

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

[ورد في الأثر]

هذا القلب ينظر الله إليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

هل في هذا القلب غِش ؟ هل في هذا القلب حقد ؟ هل في هذا القلب حَسَد ؟ هل في هذا القلب ضغينة ؟ هل في هذا القلب عجب ؟ هل في هذا القلب إعراضٌ عن الله عزّ وجل ؟ إذا كان القلب سليماً نَعِمَت الحياة..

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ (47))

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ

1 – معنى: اطّيّرْنَا:

معنى اطّيّرْنَا، أي تشاءمنا.

2 – انتشارُ التطيُّر والتشاؤم في الناس:

الآن دخلنا في موضوع دقيق، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض أيّام الأسبوع، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض الأرقام، هناك أناسٌ يتشاءمون من بعض الأشخاص، يقول لك: قَدَمَهُ نَحْس، هناك أناسٌ يحبُّون أن يستطلعوا أقوال الكُهّان، أقوال بعض المنجّمين، هناك أشخاصٌ على أقلّ تقدير يقرؤون حظّك في هذا الأسبوع في بعض المجلات، هذا وُلِدَ في الشهر الفلاني، فهذا برجه برج العقرب، شروط برج العقرب، هذا كلُّه باطلٌ لا أساس له من الصحّة، هذا كلُّه هُراءٌ بهراء، هذا كله مخالفٌ للدين..

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

3 – التطيُّر رجمٌ بالغيب:

سؤال الكاهن كفرٌ بَواح، كفرت، إذا سألت كاهناً، مَن هو الكاهن ؟ هو مخلوق، هل يعلم الغيب ؟ ماذا قال الله لك ؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من الآية 188)

4 – إتيانُ السحرة والكهان من الكفر البواح:

إذاً: فالنبي عليه الصلاة والسلام على عُلوّ قدره وعظيم شأنه لا يعلم الغيب، فكيف تسأل كاهناً ؟ كيف تُصَدِّق منجّماً ؟ حتّى إنه من أتى ساحراً ولم يصدِّقه، فقط للتسلية، لم تُقبَل له صلاة أربعين صباحاً، ولا

دعاء أربعين ليلة، هذا من أتى ساحراً فلم يصدِّقه، أما إذا صدّقه فقد كفر، فقد وقع في الكفر البواح، وهذا هو الدجل، وهذا الخليط من الخُزعبلات والجهل، والخرافات على الناس، يقولون مثلاً: فُكّوا له السحر، صُبّوا له ماء مع ملح، وضَعوا له في طريقه ديكاً عندئذٍ ينتزع نهاره، هذا كلُّه كلام الجُهّال، وهذه أباطيل وضلالات..

(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ (47))

أي أصابنا شؤمٌ يا أخي، أنت مِن وقت ما جئت أصابنا البلاء، وقد كنّا قبل مجيئك مرتاحين، مستقرين، أمورنا جيدة، دخلنا وفير، علاقاتنا طيّبة مع بعضنا، متوحِّدين، فلمّا جئت أنت يا أيها الذي تدعي أنك نبي جاءتنا المصائب، والأحزان، والهموم، والتمزُّقات، إذاً: نحن تشاءمنا بك، فقال لهم:

(قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (47))

قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

أيْ أن الخير بيدِ الله والشر بيد الله، فإذا أصابكم شيءٌ فهذا بتقدير الله، وبعدله، وبحكمته، ليس هذا من عندي، الخير والشر بيد الله عزّ وجل، ومن أركان الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى، فإذا أصاب إنسانًا مرضٌ عُضال قالوا: لأنه تزوّج فلانة، لا، ليس لها علاقة، هذا شيءٌ لا علاقة له إطلاقاً، هذا كلامٌ فارغ، الخير بيد الله، والشر بيد الله، وأيُّ شيءٍ يصيبك إنما هو بتقدير الله عزّ وجل، لا تتهم أحداً، ولا تتطير من أحد، ولا تتشاءم بأحد، لا بيوم، ولا تاريخ، ولا رقم، ولا شخص، ولا بيت، ولا مكان، ولا زمان..

(قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (47))

أي أن الله سبحانه وتعالى بحكمته وعدله قدّر عليكم هذا الشر لحكمةٍ أرادها..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47))

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

1 – الأصل في الحياة الابتلاءُ والامتحانُ:

أنتم الآن في الامتحان، ربنا عزّ وجل يمتحن الإنسان، يمتحن هذا الإنسان بالرخاء، ويمتحنه بالشدّة، يمتحنه بالضيق، يمتحنه بالانفراج، فالإنسان معرّض للامتحانات..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

مستحيل إلا أن يكون هناك ابتلاء وفتنة، أنت هنا من أجل الابتلاء..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ(2))

(سورة الملك)

سرُّ وجودك على هذه الأرض أنك لابدّ من أن تُمْتَحَن..

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15))

(سورة الفجر)

لا هذا ليس بإكرام، ليس هذا إكراماً إنما هو ابتلاء..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16))

(سورة الفجر)

كلا، ليس هذا كلاماً صحيحاً، هذه المقولة ليست صحيحة، إن عطائي في الدنيا ليس إكراماً، إنما هو ابتلاء، وإن حرماني ليس إهانة إنما هو دواء..

(قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47))

2 – الأمر كلّه بيد الله فلا تتّهم أحدًا !!!

يجب أن يعلم الإنسان علم اليقين أن مصيره بيد الله، وأن الله مالك المُلك، أيْ أنّ أجهزته كلها تعمل بأمر الله عزّ وجل، فإذا تعطّل أحد الأجهزة هكذا شاء الله ولحكمةٍ أرادها، لا تتهم أحداً، إذا جاء الرزق وفيراً هذه حكمة الله، وإذا ضاق الرزق عليك فهذه حكمة الله، ليس لك علاقةٌ بأحد، أن تتهم الناس، أن تتشاءم منهم، أن تتطيَّر بهم، أن تعزو بعض الشرور إليهم، هذا كله كلام جهل.

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48))

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ

1 – معنى الرهط:

الرهط تعني العصابة، والعصابة ما دون العشرة.

2 – معنى العِصابة:

لكن لابدّ من بيان كلمة عصابة في اللغة: ففي وقتٍ سابقٍ لم يكن لهذه الكلمة من معنىً يؤذي، الكلمة كالكائن الحي، تولد وتنمو، وتتجه باتجاهاتٍ عديدة، فهذه حقيقة في اللغة، فمثلاً كلمة جرثوم كلمة شريفة جداً في أساس اللغة، وهي تعني أصل الشيء، فأحد الشعراء الكبار مدح المعتصم فقال:

خَليفةَ اللَهِ جازى اللَهُ سَعيَكَ عَن جُرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ

***

أيستطيع شاعرٌ الآن أن يمدح ملكاً فيقول له: أنت جرثومة الدين ؟ فكلمة جرثومة في أصل اللغة تعني أصل الشيء، لكن تطوّرت فأصبح لها معنىً آخر، إذْ سميّنا هذه الكائنات الدقيقة التي هي أصل الأمراض جراثيم، فإذا قلنا لإنسان الآن: أنت جرثومة هذا المجلس، فهذا سبابٌ.

إذاً: كلمة جرثومة تطوّرت، كذلك كلمة عصابة تطورت أيضاً، وهي تعني في الأصل مُطْلَقُ الجماعة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ))

[من صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب]

لكن حينما استعملت هذه الكلمة لأناسٍ خرجوا على القانون، فتقول: هؤلاء عصابة، صارت كلمة عصابة لها معنىً آخر. فلذلك:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) ﴾

يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ

1 – ما هو الإفساد ؟

الإفساد هو تفتيت المجتمع بالتفريق، بين أن يكون المجتمع متماسكاً متآخياً، محبّاً لبعضه، وبين أن يكون المجتمع متدابراً متحاسداً.

2 – النبيُّ بيّن عواملَ الفساد لاجتنابها:

لذلك النبي الكريم بيّن عوامل الفساد فقال عليه الصلاة والسلام أشياء كثيرة منها:

((لا تَحَسَّسُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ))

[من صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر]

((الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

إذا طبّقنا هذا يكون المجتمع متماسكاً، فإذا لم نطبّق تفتّت المجتمع.

هؤلاء الرهط كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون.

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ (49))

معنى: تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ

أقسموا بالله.

(لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49))

لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

1 – دأبُ الكافرين التآمرُ على الأنبياء:

إنهم تآمروا على قتل هذا النبي الكريم، معنى تقاسموا أي أقسم بعضهم على بعضٍ بالأيمان المُغَلّظة، أيمكنك أن تقسم بالله لكي تقوم بجريمة ؟ أيسمح لك الله بذلك ؟ أحياناً الناس يستخدمون هذا، يقسم بشرفه لأفعلنّ كذا سوءاً بفلان، يقسم بالله لأفعلنّ به كذا وكذا، وهذا العمل خلاف الشرع، كيف تشهد الله على معصية ؟ هؤلاء:

(تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ (49))

2 – لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ

لنبيّتنّه بمعنى أن نتآمر عليه في الليل، ننفّذ هذا العمل ونقتله مع أهله..

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ (49))

3 – لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

بالليل، فهم يحتالون على ولي هذا النبي الكريم..

(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49))

الآن:

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50))

وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

1 – ما هو المكر ؟

ما هو المكر ؟ المكر هو التدبير.

2 – من يمكر ؟

من يمكرُ في العادة ؟ الجانب الضعيف، لو أنه قوي لا يمكر.

3 – ما الشيء الذي يُبْطِلُ المكر ؟

ما الشيء الذي يُبْطِلُ المكر ؟ هو شيءٌ واحد أن يُكْشَف أمره، فإذا كان الإنسان ضعيفًا، وخطّط خطّة، فإذا كُشِفَتْ انتهى خطره، لكن الله سبحانه وتعالى مطلعٌ على كل شيء، وناظرٌ إلى كل شيء، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين، يعلم ما تُفَكِّر به، يعلم ما تطمحُ إليه، يعلم ما تتمنّاه، يعلم ما يخفى عنك، يعلم السرّ وأخفى، فإذا كانت جهة من الجهات مكرت، فهذا المكر عند الله مكشوف، إذاً: أيُّ مكرٍ على وجه الأرض مخفق، لأن الله سبحانه وتعالى يكشفه، ويعاقب الماكر بمكرٍ يقابله، فإذا قال الله عزّ وجل:

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا (50))

4 – معنى: مكر الله:

من معاني مكر الله عزّ وجل أن مكره عقابٌ للماكرين.

من معاني مكر الله عزّ وجل أن مكره دفاعٌ عن المؤمنين.

من معاني مكر الله عزّ وجل أنه لصالح الفريقين، مكر الله عقابٌ للماكرين، ومكر الله دفاعٌ عن المؤمنين، ومكر الله لصالح الفريقين، لأن الله سبحانه وتعالى له أسماؤه الحسنى وصفاته الفُضلى..

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 110)

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50))

بعضهم يقول: هذا من باب المشاكلة، الله عزّ وجل ليس ماكراً، ولا يمكر، لكن إذا رأى جهةً كافرةً تمكر بالمؤمنين ماذا يفعل الله عزّ وجل ؟ يردُّ على مكرهم هذا بتدبيرٍ حكيم أيْ يبطل مكرهم، هذا التدبير الحكيم الذي يُحقُّ الله فيه الحق سمّاه الله مكراً مشاكلة..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17))

(سورة الطارق)

فإذا مكر الله عزّ وجل فليعاقب الماكرين، وإذا مكر الله عزّ وجل فليدافع عن المؤمنين، وإذا مكر الله عزّ وجل فمكره خيرٌ للفريقين، أو نسمي تدبير الله الحكيم مكراً من باب المشاكلة، وإذا عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم..

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ)

(سورة البقرة: من الآية 194)

هل يسمّى إنزال العقاب بالمعتدي اعتداءً ؟ هذا من باب المشاكلة، هذا من باب البيان والبلاغة، إما أن تسمي تدبير الله الحكيم مكراً من باب المشاكلة، وإما أن يكون مكرُ الله إحباطاً لمكر الكافرين، وإنقاذاً للمؤمنين، أو نافعاً للطرفين..

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

معنى خير الماكرين أن مكره لا يفشل أبداً، وأن مكره هو الأظهر، وهو الأقوى، أنت وضعت خطّة وربنا وضع خطّة، طبعاً الله خالق كل شيء، كن فيكون، بيده كل شيء، فمكر الله عزّ وجل هو الأظهر، وهو الأقوى، وهو الذي سينتصر، ومكره دفاعٌ عن المؤمنين، وعقابٌ للماكرين، وخيرٌ للفريقين، أو من باب المشاكلة..

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51))

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

عاقبة مكرهم، أي نتيجة تدبيرهم أن الله دمرهم، لذلك بعض الأدعية تقول: **" اللهمّ اجعل تدميرَهم في تدبيرهم، اجعل الدائرة تدور عليهم.**

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51))

ألمْ يمكروا برسول الله حينما هاجر، وفي غار ثور، وفي الطريق إلى المدينة، ماذا كانت النتيجة ؟ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي دافع عنه.

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52))

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

البيوت فارغة، مات أصحابها، أصبحت تَصْفِرُ الرياح منها صَفِيراً وتنعق فيها الغربان..

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

إياكم أن تعتقدوا أن البلاء عام، والرحمة خاصّة، البلاء خاص، والرحمة خاصّة، فلا خطأ عند الله عزّ وجل، ولا شيء طائش، ولا شظيّة طائشة، ولا خطأ غير مقصود، هذا لا يمكن عند الله، يستحيل على الله عزّ وجل، و لأنه إلهٌ مطلق، وبيده كل شيء، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله عزّ وجل خيرٌ مطلق وحكمةٌ بالغة..

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

وموضوع التقوى بُحِثَ سابقاً، وسوف نقف عنده مرّةً أخرى إن شاء الله تعالى في مناسبةٍ قادمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (08-18): تفسير الأية 53

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-01-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النمل، كانت الآية وهي قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

(سورة النمل)

آخر آيةٍ في الدرس الماضي، أما قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

1 – وقفة متأنية عند قوله تعالى: يَتَّقُونَ

لا بدّ من وقفةٍ عند كلمة يتقون، الحقيقة أحياناً يمكن أن ندرس موضوعاً على مستوى القرآن الكريم كُلِّهِ، هذا النوع من التفسير سُمِّي التفسير الموضوعي، أي أن تأخذ التقوى في القرآن كله، وتستخرج الآيات التي تنوه بالتقوى وتصنفها تصنيفاتٍ دقيقة، وهذه التصنيفات ربما رأيت من خلالها موضوعاً متكاملاً دقيقاً جديداً كل الجدة، لم تكن لتقف عليه فيما لو قرأت آيات التقوى مع كل موضوع على شكلٍ حيادي، أو على شكلٍ متصل بهذا الموضوع.

2 – التقوى جماعُ كلّ خير:

الذي لا شك فيه أن كلمة التقوى وردت في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة موضع، والأحاديث الشهيرة والصحيحة تؤكد في مجملها أن التقوى هي جماع كل خير.

3 – ما هي التقوى ؟

فما هي التقوى ؟ الحقيقة أن التقوى مشتقة من فعلٍ ثلاثي، الفعل هو وَقى، والوقاية تكون من شيءٍ خطير، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

4 – العبادة هي سبيل التقوى:

معنى ذلك أن العبادة هي سبيل الوقاية، فأنت إذا دعوت إلى الله يجب أن تعتمد على حاجات الإنسان الفطرية، وما منا واحد إلا وهو في حاجةٍ ماسةٍ جداً إلى أن ينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ففي نفس كلٍّ منا ميلٌ جامح وحاجةٌ مُلِحّة إلى النجاة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

في اللغة العربية هناك قاعدة: أن الفعل إذا حُذِفَ المفعول به المتعلِّق به أطلق الفعل، تتقون ماذا ؟ تتقون كُلّ خطر، كل مكروه، كل منزلق، كل شقاء، كل عذاب، كل ضيق، كل قلق، كل مصيبة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

إذاً: لا سبيل إلى تحقيق النجاة، ولا سبيل إلى تحقيق السلامة، ولا سبيل إلى أن يبتعد الإنسان عن شقاء الدنيا وعذاب الآخرة إلا بطاعة الله عزّ وجل، فلذلك فَسَّرَ بعضهم التقوى بأنها اتقاء عذاب الله بطاعته، أي لا منجى منك إلا إليك، لا يستطيع الإنسان أن ينجو من التأديب الإلهي، ولا من المعالجة الإلهية، ولا من العقاب الإلهي، ولا من القضاء الذي يقضيه الله عزّ وجل للإنسان إلا بطاعة الله عزّ وجل، هذه النقطة الأولى، إذاً: طاعة الله عزّ وجل سبيلٌ إلى التقوى.

5 – الإنسان له بناءٌ مؤسّسٌ على تقوى الله:

نقطة ثانية، الإنسان أيها الإخوة له بناء، معنى البناء أنت لك منظومة قيم، في الموضوع الفلاني لك موقف، في علاقتك بالنساء لك موقف، في علاقتك بكسب المال لك موقف، في علاقتك بإنفاق المال لك موقف، في علاقتك بالجوار لك موقف، في علاقتك بالبيع والشراء لك موقف، في علاقتك بالشهوة التي أودعها الله فيك لك موقف، هذه المواقف تنبع من رؤية أو من قيَم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ)

(سورة التوبة: من الآية 109)

أنت لك بناء، الأسرة لبنة، العمل لبنة، علاقتك بذاتك لبنة، علاقتك بالخالق لبنة، علاقتك بأهلك ؛ بالوالد، بالوالدة، بالإخوة، بالأخوات، بالأصهار، كل موقف، وكل حركة، وكل سكنة تنبع من رؤية أو من قيمة، فالمؤمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، إذاً فالله سبحانه وتعالى لا بدّ من أن يحميه.

6 – غيرُ المؤمن بناءُه مؤسّسٌ على الشهوة والمصلحة:

غير المؤمن أسّس بنيانه على الشهوة، على المصلحة، على انتهاز الفُرَص، على القَنْص، على حب الذات، على الأنانية، هذا البناء المبني على غير تقوى الله عزّ وجل كأنه على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم، فكل إنسان له بناء، إما أن يبنى هذا البناء على تقوى من الله ورضوان، وإما أن يبنى هذا البناء على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم.

7 – في الكون إلهٌ واحد يستحقّ العبادة:

الشيء الثاني: أن الإنسان حينما يفكر، ففي هذا الكون العظيم حقيقةٌ كبرى، سنقول حقيقة وحيدة، حقيقة ليس بعدها حقيقة هي الله سبحانه وتعالى، فهل من جهة بالكون تستحق أن يخْشى عذابها، أو أن ترجو رحمتها غير الله ؟ فهل في الكون جهة تستحق أن يرجى ما عندها، وأن يخشى عقابها غير الله عزّ وجل ؟ ربنا عزّ وجل يسأل، فإذا كنت في ثُكنة عسكرية فرضاً، فهناك جنود، هناك عرفاء، هناك رقباء، هناك حُرّاس، وهناك قائد هذه الوحدة، في حسب الظاهر بيده كل شيء، أليس من العقل أن ترجو رضاه، وأن تخشى عقابه، هذا مثل للتقريب.

حينما يفكر الإنسان في هذا الكون يرى أن كل شيءٍ قائمٌ بالله عزّ وجل:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

أي قيام الشيء بالله، حياته بالله، كن فيكون زُل فيزول، إذاً: في الكون حقيقةٌ وحيدة ليس بعدها حقيقة، هي الله سبحانه وتعالى، أيعقل أن تخشى غير الله ؟ أيعقل أن ترجو غير الله ؟ أيعقل أن تطمع بعطاءٍ غير عطاء الله ؟ أيعقل أن تخاف من غير الله ؟ أيعقل أن تتقي عذاب غير الله ؟ أيعقل أن ترجو رحمة غير الله ؟ لذلك ربنا عزّ وجل في آية صغيرة قال:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35))

(سورة يونس)

كيف تفكرون ؟ كيف تتأملون ؟

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

8 – التوحيد مفتاح كلِّ شيءٍ:

مِن هنا كان المؤمن في رعاية الله، لأنه لا يخشى إلا الله، المؤمن وحّد جهته، المؤمن له وجهةٌ واحدة، ولو كانت على حساب كل العلاقات الأخرى، والعلائق عوائق، المؤمن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لوجهٍ واحد يَكْفِك الوجوهَ كلها))

[ورد في الأثر]

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

هذه كلمة وَحِّد، وحِّدِ الواحد، هذه كلمة بسيطة في ظاهرها، ولكنها عميقة جداً في مدلولها، أنا لا أبالغ إن قلت: إنّ أكبرَ بابٍ من أبواب العذاب النفسي هو الشرك، قال تعالى:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر أسباب العذاب في الدنيا ألا تكون موحِّداً، أن تدعو مع الله إلهاً آخر، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

ربنا عزّ وجل طمأنك فقال على لسان أحد رسله:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

قال لك:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

قال لك:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

قال لك:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

قال لك:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

قال لك:

(أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 185)

فإذا خشيت غير الله، أو رجوت غير الله فلست متقياً، أي: لم تتّق الله عزّ وجل:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

أنت في قبضته، ولماذا عليك أن تتقي الله ؟ لأن الله عليمٌ بك، وبكل ما يحيط بك..

(وَاتّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

إذا كان الإنسان مراقباً فإنه يخافُ هذا الذي يراقبه، فربنا عزّ وجل رقابته عليك مستمرة، فما دامت رقابةُ الله عليك مستمرة ألا ينبغي أن تتقي الله ؟

(وَاتّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231))

(سورة البقرة)

(وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4))

(سورة المائدة)

(وَاتّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(203))

(سورة البقرة)

عليمٌ بكل شيء، شديد العقاب، سريع الحساب، إليه تُحشر، ألا تكفي هذه الدوافع الكبيرة كي تتقي الله عزّ وجل ؟

شيء آخر هذه الدوافع، سريع الحساب..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

9 – اللهُ علّم عباده طريق التقوى:

النقطة الدقيقة أن الله عزّ وجل علّمك، علّمك من خلال هذا العقل الذي أودعه الله فيك، وعلّمك من خلال هذا الكون الذي نصب فيه الأدلة على عظمته، وعلمك من ملامح الفطرة التي فطرك عليها، وعلمك من خلال هذا الكتاب الكريم الذي أنزله على النبي العظيم، وعلمك من خلال السنة النبوية المطهّرة التي بينت هذا الكتاب، وعلمك من الحوادث اليومية، هذه الحوادث اليومية فيها تعليمٌ للإنسان، تشفّ هذه الحوادث عن قدرته، وعن حكمته، وعن عدالته، وعلّمك من خلال دعوة الدعاة وإلهام الملائكة، فأنت في حالة تعلم مستمر، والله سبحانه وتعالى يعلمك دائماً، إنْ في الكتاب، وإن في السُنّة، وإن في الكون، وإن في العقل، وإن في الفطرة، وإن في دعوة الدعاة، وإن في إلهام الملائكة، أنت في حالة تعليم مستمر، فلمَ لا تتقي الله عزّ وجل ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من الآية 282)

نحن نشعر أننا في قبضة الله عزّ وجل، كل أجهزتك، كل أحوالك، ورأسُ مالُك عقلك، نقطة دم صغيرة جداً إذا تجمّدَت في بعض شرايين المخ يفقد الإنسان عقله دفعةً واحدة، أو يفقد ذاكرته، أو يفقد سمعه أو بصره، أو يفقد حركته، إذاً: أنت في قبضة الله، بجسمك، وبروحك، وبنفسك، وببيتك، وبأهلك، وبأولادك، وبعملك، وبمن حولك، وبمن فوقك، وبمن تحتك، لذلك:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ(52))

(سورة النحل)

10 – اللهُ هو أهلُ التقوى:

لكن هناك معنى دقيق جداً، وهو أنّك يجب أن تتقي ربك، لا لأنك بقبضته فحسب ؛ بل لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة، أي أنه رحمنٌ رحيم، ذو الجلال والإكرام، ذو الطَوْل والإنعام، يعلم السر وأخفى، عفوٌ كريم، رحمنٌ رحيم، لطيفٌ رؤوف، فأنت من جهةٍ تتقي ربك لأنك في قبضته، ومن جهةٍ ثانية تتقي ربك لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة، سبحان الله. فالإنسان يتوق إلى أن يتقرّب من إنسان عظيم، ولكن ألا يتوق إلى أن يتقرب من خالق الأكوان ؟ خالق الأكوان وضع نظاماً للتعامل معه، قد يكون شخص عظيم مزاجي الطبع، وأنت لا تدري كيف تتقرب إليه، قد يصل إلى قلبه بعض الناس صُدفة أو بظروفٍ طارئة، لكن الله سبحانه وتعالى والخلق كلهم عباده، رسم لهم خطة علاقة منظمة تكون أساساً في تعامل العباد مع خالقهم سبحانه وتعالى، لا كما يتعامل الناس مع شخص ما له مزاجه وظروفه.

11 – اللهُ يحب المتّقين:

خلاصة هذه العلاقة أنّ ربنا عزّ وجل قال:

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

فالتقوى منهم والعون والحب منه.

القضية واضحة كالشمس، الله عزّ يحب المتقين، أفلا يحب الإنسان أن يكون محبوباً عند الله عزّ وجل؟ إذا أحبك إنسان، إذا أحبك زيدٌ أو عبيد فماذا ينفعك حبه ؟ أمّا لو أحبك سيد الخلق وإذا أحبك الحق، أما سبحانه إذا أحبك فسيّشد الخلق، فحبه من حب الله عزّ وجل، وحبه ينفعك، أما إذا أحبك إنسانٌ قوي فيما يبدو للناس، فهذا الإنسان لا ينفعك حبه، ولا يضرُّك بغضه، ولكن إذا أحبك الله عزّ وجل ألقى حبك في قلوب خلقه فكنت عند الله وخلقه محبوباً..

ينادى لـه في الكون أنا نحبه فيسمع من في الكون أمر مُحِبّنا

***

إذاً: إذا اتقيت الله سبحانه وتعالى أحبّك الله، وهل من مرتبةٍ في الكون أرقى من مرتبة القرب من الله، الدنيا كلها مراتب ؛ مراتب مالية، مراتب علمية، مراتب اجتماعية، ومراتب رياضية، يقول لك: معه وسام ذهبي، هناك معه ميدالية برونزية، مراتب نفيسة ومراتب جسمية، ومراتب دينية، ألا تعتقد معي أن أعظم مرتبةٍ ينالها إنسانٌ على وجه الأرض هي القرب من الله، وأن يحبه الله عزّ وجل ؟

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

هذا كلام بسيط، لكنه خطير، اتق الله أن تعصيه يحبك الله عزّ وجل، اتق أن تسخطه يحبك، اتق أن تخالف أمره، اتق عقابه بطاعته، اتق عذابه بالاستقامة على أمره، اتق ناره بالعمل لجنته، يحبك، لكن ألا تحب أن يكون الله معك ؟ الكلمة الشهيرة التي أقولها دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

" ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ".

12 – معيّةُ الله بالحفظ ملازمة للمتقين:

هل تدري أيها الأخ الكريم أن معيّة الله نوعان، معيةٌ عامة ومعيةٌ خاصة، الله مع كل مخلوق لقوله تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

ولكن المعية الخاصة معية الحفظ، معية الرعاية، معية النصر، معية التأييد، ألا تتمنى أيها الأخ الكريم أن يكون الله معك ؟

(أنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

ألا يتمنى الإنسان أن يكون خالق الأكوان مدافعاً عنه ؟ ألا تتمنى أن يكون وليك هو الله عزّ وجل، الولي يخرجك من الظلمات إلى النور، يجعل لك مقعد صدقٍ عنده، يدافع عنك، يكيد لك، ألا تتمنى ذلك؟

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتّقِينَ(19))

(سورة الجاثية)

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ(4))

(سورة التوبة)

(أنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

(وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُتّقِينَ(19))

(سورة الجاثية)

وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتّقِينَ كَالْفُجّارِ(28))

(سورة ص)

فمن السذاجة، ومن الغباء، ومن ضيق الأفق، ومن الجهل أن تتصور أن هذا الذي استقام على أمر الله، وتعرف إلى الله، وأمضى وقتاً في تعلّم العلم، وكان منضبطاً، ضبط حواسه الخمس، ضبط مشاعره، ضبط كسبه، ضبط إنفاقه، وكان محسناً أحسن إلى كل مخلوق، هذا المتقي الذي يتقي غضب الله، يتقي سخط الله، يتقي عذاب الله، أهذا المتقي أيعقل أن يعامل كالفاجر ؟ كالعاصي ؟ كالذي يفعل المعاصي على قارعة الطريق ؟ كالذي يتباهي بالمعصية ؟ شيء مستحيل، فلو أتيح لك أن تقرأ الآيات القرآنية التي تتحدث عن التقوى لوجدت أن في هذه الآيات معاني كبيرة جداً، وربنا عزّ وجل أمرنا أن نكون طموحين، يقول بعضهم: أنا أريد مكاناً وراء الباب في الجنة، هذا كلام غير صحيح، ربنا عزّ وجل

علمنا في القرآن الكريم أن ندعو الله عزّ وجل ونقول:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74))

(سورة الفرقان)

13 – التقوى درجات ومستويات:

لا ترضى إلا أن تكون إماماً، والتقوى درجات، التقوى مستويات كبيرة جداً، في أدنى مستوياتها أن تتقي عذاب الله بطاعته، هذا الذي يغض بصره عن محارم الله يتقي الله، هذا الذي يخاف أن يأكل مالاً حراماً يتقي الله، هذا الذي يخاف أن يكذب يتقي الله، هذا الذي يخاف أن تصدر منه مخالفةٌ يتقي الله، هذا مستوى، فهناك أمرٌ إلهي جاءك بالنقل الصحيح، فهذا الرجل المؤمن يحاول أن يطبّق أمر الله، هذا نوعٌ من التقوى.

ولكن هناك درجة عالية من التقوى أنك إذا اتقيت الله عزّ وجل قذف الله في قلبك النور، فهذا سيدنا يوسف، بربكم امرأةٌ حسناء ذات منصبٍ وجمال، امرأة العزيز، وغلّقت الأبواب، وهو غير متزوج، وليس في بلده، وعبدٌ لها، وليس ممن مصلحتها أن يفشو هذا الأمر، وقد أمرته بذلك، لماذا امتنع ؟ ماذا رأى حتى قال: معاذ الله ؟ رؤية قلبية، هذا هو النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، يرى به الخير خيراً والشر شراً، الحق حقاً، والباطل باطلاً، الصواب صواباً والخطأ خطأً، الصحيح صحيحاً والزيف زيفاً، هذا هو النور، لذلك فإنّ الدرجة الأولى أن تقرأ الأحكام، تقرأ الأوامر، تقرأ النواهي، تطبق، هذا مستوى من التقوى، أما المستوى الأعلى أن تجتهد في الطاعة، وأن تجتهد في الاستقامة، وأن تجتهد في البذل والتضحية حتى تنعقد الصِلةُ مع الله عزّ وجل، إذا انعقدت هذه الصلة، فمن خلال هذه الصلة، يتجلى الله على قلبك بنوره، عندئذٍ تصبح مستنير القلب..

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

عندئذٍ ترى في المعصية الوبال، والقطيعة، والدمار، والتأخُّر، والتدهور، والعقاب، وعندئذٍ تقبل على الطاعة وتبتعد عن المعصية، هذا هو النور، الذي قال الله عنه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 29)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

نور تمشي به في الناس، هذا الذي يأخذ ما ليس له أعمى، هذا الذي يُمَتِّعُ عينيه بما لا يحل له أعمى، هذا الذي يؤثر نفسه على إخوانه أعمى، هذا الذي يستضعف إنساناً ويظلمه، يقول لك: هذه مقطوعة ليس لها أحد أعمى، لو أن قلبه استنار بنور الله لرَأى أن الله ولي هذه المرأة، فإذا تجاوز حده معها نكّلَ الله به، هكذا، فالمستويات كثيرةٌ جداً.

تزكيةُ وتقييم الناس مِن شأن الله وحدَه:

شيء آخر، وهو موضوع التزكية، موضوع تقييم الذات هذا من شأن الله عزّ وجل، مؤمنون كثيرون يخوضون فيما لا حق لهم أن يخوضوا فيه، تقييم الإنسان من شأن الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام حينما عاتب أحد أصحابه بقتل إنسانٍ في المعركة قال: **" لا إله إلا الله "**، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا، فَقالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَقالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَتَلْتَهُ ؟!! قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ، قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقالَهَا أَمْ لَا فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ))

[متفق عليه]

لذلك الأدب أن تحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر..

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17))

(سورة الإسراء)

الأدب أن تمتنع عن إصدار الأحكام على الناس، تقول: هذا من شأن الله، وليس من شأن البشر، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى(32))

(سورة النجم)

14 – التقوى خيرُ زادٍ:

الإنسان يتزوج، الإنسان يُجَمِّع الأموال، يقول: هذه الأموال تنفعني في خريف العمر، الإنسان أحياناً يبني بناء شامخاً، يقول لك: أريد بيتاً فيه كل جيد وجديد، ينتقي أفضل الأثاث، ينتقي أفضل الكسوة، ينتقي أفضل الأجهزة، وقد يقتني أفضل سيارة، يقول لك: أريد شيئاً جيداً، كلُّه من نوع الزّاد، تزوّدتَ هذه المركبة، هذا البيت، هذا الأثاث، هذه الأجهزة الضخمة، تزودت بأموال تدخرها لوقت خريف

العمر، لكنّ ربنا عزّ وجل قال بكلمةٍ موجزة، قال:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

أي أن أعظم زادٍ تدخره أن تتقي الله، لا أن تعصي الله، من هنا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال:

<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>.

هذه قاعدة أيها الأخوة، الدين سليم ما لم تعص الله عزّ وجل، ما لم تقترب من حدوده، ما لم تعتدِ على حدوده، ما لم تخرق قواعد الاستقامة، ما لم تُسِئْ إلى إنسان، ما لم يكن في عنقك دينٌ لأحد، أو ظُلامةٌ لأحد، فقد سلم دينك ؟

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خـرابُ

***

15 – التقوى سبيلُ الأمن والعافية والرضا:

دائماً وازن..

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ))

هذا أمن الإيمان، أنت مطمئن لعدالة الله، أنت مطمئن إلى أن الأمور كلها بيد الله، وأن الله رحمنٌ رحيم، أنت مطمئن إلى أنه لا إله إلا الله، أنت مطمئن إلى أنه لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطيَ ولا مانع، ولا باسط ولا قابض إلا الله، أنت مطمئن إلى أن الله سبحانه وتعالى يدّخِرُ لك عنده عطاءً كبيراً..

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

(سورة الضحى)

إذا كنت كذلك فأنت في نعمةٍ لا تعدلها نعمة على وجه الأرض، نعمة أمن الإيمان، وإذا ادّعى أحد أن عنده أمناً بسبب الأموال الطائلة فهذا أمن مزيّف، لأن الله عزّ وجل قد يعاجل هذا الإنسان بمصيبةٍ لا قيمة للمال إطلاقاً في حلِها، وإذا كان عند الإنسان أمن بحسب صحته الطيبة، وتدريباته ونشاطه، ونظامٍ قاسٍ جداً يتبعه، هذا أمن مزيّف، الأمن الحقيقي أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، هذا أعلى درجة من درجات الأمن، لذلك:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي]

إذا كنت كذلك فقد ملكت الدنيا بكل حذافيرها، أمن الإيمان، وسلامة الأبدان، وشيءٌ تقتات به، وانتهى الأمر، لذلك فالمؤمن لو أصابته مصيبة، ما دام دينه سليماً، ما دامت صحته طيبة، ما دامت أفعاله كريمة، فلا شيء في الدنيا يضيره.

هناك كلمةٌ قرأتها عن سيدنا الصديق، قرأتها قبل ثلاثين عاماً، ولا تبرح ذهني إطلاقاً، **" ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط ".**

مثلاً: يقول بعض الناس نادباً حظه: لو أخذت هذا البيت، الآن ثمنه ثمانية ملايين، وقد عرضوه علي فيما سبق بمئتي ألف، طال عمره فندب حظه، لو تزوجت فلانة، تأخّرت في قرار الزواج منها فخطبت.

ثمة كلمة في قاموس المؤمن يجب ألا تكون موجودة، هذه الكلمة هي: (لو)، يجب أن تشطبها من قاموسك:

((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطَانِ))

[مسلم]

المؤمن لا يندم، ما دام سيدنا الصديق ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فربنا عزّ وجل يدعونا ويقول:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

بهذه الطريق تنافسوا، في طريق معرفة الله، في طريق طاعته، في طريق فعل الخيرات، في طريق البذل والتضحيات، في هذا الطريق تسابقوا، أما التسابق في جمع الدرهم والدينار فمعركة قذرةٌ خائبةٌ، وكما يقولون في بعض الطرَف: **" إن حماراً كان يقف في بعض الأمكنة، وكان الحرُّ شديداً، والوقت ظهيرة، جاء رجل، وجلس في ظل هذا الحمار، واستمتع بظلِّه الظليل، قام ليشرب، جاء رجل آخر، وجلس مكانه، فلمّا عاد قال له: هذا المكان مكاني، لا إنه مكاني، من كلمة إلى كلمة تشادا، وتلاسنا، ثم تضاربا، وتلاكما، ثمّ ذهب الحمار، وذهب معه ظله "**، هكذا الدنيا، يأتي الموت فينهي كل مشكلة، دعاوى كثيرة جداً في المحاكم تنتهي بموت أحد المتخاصمين، أعطاك عمره، انتهت الدعوى وشُطِبَت، أما المؤمن فلا يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، يسعى لمقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، يسعى لتقوى الله عزّ وجل، إذاً:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

16 ـ تقوى القلوب أفضلُ لباسِ المسلمِ:

انظر إلى هذه المعاني الدقيقة، أحياناً تجد إنساناً قد أكرمه الله عزّ وجل بقِوامٍ جميل، بشكلٍ وسيم، قد يكون ذا ذوقٍ رفيع في ارتداء الثياب، له أذواق رفيعة جداً، قد يكون له ذوقٌ عالٍ جداً في اقتناء الأثاث، قد يختار مركبةً جيدة، قد يعتني بها عنايةً بالغة، قد يُلبسُ أولاده أجمل الألبسة، قد يفرش بيته بأجمل الأثاث، ربنا عزّ وجل قال في كلمة:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: من الآية 26)

لباس التقوى ذلك خير، هذا الذي ينفعك بعد الموت، هذا الذي يستمرُ أثره إلى ما بعد الموت.

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

المظهر لا قيمة له..

((إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

القلب بيت الرب، ومنظر الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي، طهّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهّرت منظري ساعة ؟))

ألا تستحيي من الله أن يطّلع الله عليك فيرى في هذا القلب حِقْدَاً، أو حسداً، أو يرى فيه أنانيّة، أو حبّاً للذات ؟ ألا تستحيي من الله أن يطّلع الله على قلبك فيراه ممتلئاً بحبٍّ الدنيا ؟ ألا تستحيي من الله عزّ وجل أن يطّلع على قلبك وفيه نيّةٌ ماكرةٌ لبعض المؤمنين ؟ ألا تستحيي؟..

((طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة ؟))

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: من الآية 26)

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة: من الآية 197)

17 ـ التقوى طريقُ الجنة:

لكن عليك بتقوى الله دائماً، فكل شيء له ثمن كل شيء له ثمن، لو أن أحداً طلب مثلاً قطعة أثاث فاخرة جداً من مستوى رفيع جداً، فهذا الطلب العالي يقابله ثمن غالٍ دائماً، الشيء المتقن ثمنه غالٍ، والشيء غير المتقن ثمنه رخيص، ولكن هل في الحياة كلِها، هل في الحياة الدنيا والآخرة عطاءٌ يفوق عطاء الآخرة ؟ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الآخرة الأبديّة

السرمديّة، حياةٌ ما فيها نَغَص، ولا فيها قلق، ولا فيها حزن، ولا فيها منافسة، ولا فيها زوال، ولا فيها تَدَنّي، هذه الحياة فيها ؟ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

(فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرّةِ أَعْيُنٍ)

(سورة السجدة: من الآية 17)

هذه الآخرة أتظنُّ أن ثمنها بسيط ؟ ثمنها يسير ؟ ركعتان تصلِّيهما وانتهى الأمر، ليرة تلقيها في يدِ فقير وانتهى الأمر، هكذا ؟ لا والله، ألا إنّ سلعة الله غالية، الله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَعْلَمْ اللّهُ الّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

مستحيل أن تصل إلى الجنّة، وأنت تؤثر حظوظك النفسيّة، مستحيل أن يُسْمَح لك بدخول الجنّة، وفي حياتك شهوةٌ مقيمٌ عليها، ألا فلتعلم أن سلعة الله غالية، وطريق الجنّة ليست طريقاً محفوفة بالرياحين، إنها طريقٌ محفوفةٌ بالمكاره، هكذا قال عليه الصلاة والسلام..

((حُفّتِ الْجَنّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفّتِ النّارُ بِالشّهَوَاتِ))

(من صحيح مسلم عن أنس بن مالك)

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(من مسند أحمد عن ابن عبّاس)

يكفي أن تسترخي، يكفي أن تنساق مع هوى نفسك، يكفي أن تطلق بصرك، يكفي أن تطلق لسانك، يكفي أن تُصْغِي بسمعك إلى كلامٍ لا يُرضي الله عزّ وجل، يكفي أن تأخذ ما ليس لك، يكفي أن تغازل من تراها، يكفي أن تكون ذكياً وتستخدم هذا الذكاء في جمع المال، يكفي أن تكون لطيفاً وتستخدم هذا اللطف في إغواء الفتيات.

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

18 - تقوى نبيِّ اللهِ يوسفَ وإحسانُ الله إليه:

لذلك ماذا قال سيدنا يوسف ؟ وماذا فعل ؟ شابٌ كالمَلَك وضعه إخوته في الجُب، وما أدراكم ما الجُب، ولو رحمة الله عزّ وجل لهلك في الجُب، شَرَوْهُ بثمنٍ بخس، اشتراه عزيز مصر، وجعله خادماً في القصر لتلقي الأمر، ولتحمُّل الأعباء، فدعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، وهو في ريعان الشباب، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، رفض أن يحقِّق لذّته التي أودعها الله فيه، رفض أن يحقِّق الشهوة التي يموت الناس من أجلها اليوم، أودعوه في السجن بضع سنين، كل هذا لأنه يتّقي الله، لذلك قال:

(إِنّهُ مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(90))

(سورة يوسف)

19 ـ تقوى اللهِ وعلاقتها بالابتلاء:

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى سأله سائل: **" أندعو الله بالتمكين أم ندعوه بالابتلاء ؟ "** فتبسّم وقال: **" إنّك لن تمكّن قبل أن تُبْتَلى ".**

أقول لكم هذا الكلام: مستحيل لمؤمن يتعرّف إلى الله عزّ وجل ولا يبتليه الله، هذا أمر لا يكون، بل لابدّ من الابتلاء، هذه السيارة امتحنّاها في النزول، فإذا هي لها سرعةٌ فائقة، لابدّ من أن تُمْتَحَنَ في الصعود، تُمْتَحَن في الرخاء لابدّ من أن تُمْتَحَنْ في الشدّة، تُمتحن قبل الزواج مثلاً، وتمتحن بعد الزواج..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3))

(سورة العنكبوت)

لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11))

(سورة المائدة)

فإذا اتقيت الله عزّ وجل ربّما جاءتك المتاعب، ربّما وقف في وجهك المعترضون، الناس يرضون عن الفاسق دائماً، فإذا استقمت على أمر الله ترى أقرب الناس إليك يقف في وجهك، ويقال لك: لقد فرّقت الأسرة بهذا السلوك، لم نألف هذا السلوك، ما هكذا نشأنا، ما هذا الحجاب ؟ ما هذا التشدُّد ؟ ما هذا التزمُّت ؟ ربنا عزّ وجل يطمئنه فيقول:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11))

ربنا عزّ وجل قال وهو يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن توفِّيت زوجته التي عدّها علماء السيرة سندَه من الداخل، وبعد أن توفي عمُّه الذي عدّه علماء السيرة سنده من الخارج، من الداخل فَقَدَ السَنَد، ومن الخارج فَقَدَ السَنَد، سمّى علماء السيرة هذا العام عام الحزن، تتابعت المصائب، تتابعت المِحَن، ومع ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ما غيّر ولا بدّل، ذهب إلى الطائف مشياً على الأقدام، قطع ثمانين كيلو متراً هو وخادمه زيد بن حارثة، في الطائف ردّه أهلها شرّ رد، كذّبوا دعوته، سخروا منه، ردّوا دعوته، رجاهم رجاءً حاراً فقال:

((اكتموا عني هذا الأمر))

وصل إلى أبواب مكّة، فإذا أنباء تكذيبه قد سبقته إلى مكّة، وفي مكّة هُدِرَ دمه، وكان يقول في هذه المِحنة الشديدة:

((إنّ الله ناصر نبيّه))

لا يمكن أن يعطي الله عطاء بلا امتحان، لا نبي، ولا صديّق، ولا مؤمن، ولا تقي، هذا مستحيل، أنك ترجو أن تصل إلى مرتبة عالية، إلى سعادةٍ أبديّة، إلى سعادة الدارين، إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، أن تصل إلى مكانٍ عَلِيٍ عند الله عزّ وجل بلا ثمن ؟ بركعتين ؟ بليرتين وانتهى الأمر ؟ لا، هذا مستحيل، لذلك:

(إنّهُ مَنْ يَتّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

قد تأتي المتاعب من الداخل، قد تأتي المتاعب من الجسم، كبعض الأمراض، قد تأتي المتاعب من العمل، قد تأتي المتاعب من الزوجة، قد تأتي المتاعب من الأولاد، الله عزّ وجل يريد أن يراك ماذا تفعل عند الشدّة ؟ هل تصبر أم تتبرّم ؟ هل ترضى أم تسخط ؟ هل تصبر صبراً جميلاً أم تقول: ماذا فعلت لله عزّ وجل حتّى فعل بي كذا وكذا ؟ إنّ الصبر عند الصدمة الأولى.

قلت لكم سابقاً: إن الجاهل يقول بعد أيّامٍ من نزول المصيبة ما يقول المؤمن ساعة تلقِي النبأ، فهي قضية زمن، المؤمن يقول: الحمد لله رب العالمين، الأمر أمرُ الله، والذي وقع أراده الله، والذي أراده الله وقع، وإرادة الله عزّ وجل متعلّقةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته البالغة متعلّقةٌ بالخير المطلق، وما دام الشيء قد وقع فهو خير، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، إنّا لله و إنّا إليه راجعون، اللهمّ أجرني في مصيبتي، واخلفني خيراً منها، هكذا المؤمن، لذلك:

(وَلَنَبْلُوَنّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثّمَرَاتِ وَبَشّرْ الصّابِرِينَ(155)الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

الهدفُ من الآيات القرآنية والكونيةٌ هو تقوى الله:

الحقيقة أن ربنا عزّ وجل حينما بيّن هذه الآيات ؛ الآيات القرآنيّة، والآيات الكونيّة، الهدف الكبير منها أن تتقي الله عزّ وجل.يقول الله عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ(103))

(سورة آل عمران)

أما رأيت هذه الآيات الدقيقة ؟ فهذا الماء الذي يزداد حجمه إذا بلغت درجة حرارته (+ 4)، هذه القاعدة تشذُّ عن كل قواعد العناصر الكونيّة، هذا الشذوذ في القاعدة لولاه لما كانت حياةٌ على وجه الأرض، هذه ألا تفكِّر فيها ؟ هذا الطير الصغير في البيضة ينبت له في منقاره نتوءٌ حادٌ مدبّب من أجل أن يكسر البيضة، بعد أن يخرج منها يذوب هذا النتوء، هذه ألم نفكِّر فيها ؟ هذه العين جعل الله في مائها مادّةً تقاوم التجمُّد، ولو أنّ أحداً سكن في فنلندا، أو الإسكيمو، أو القطب الشمالي، والحرارة سبعون درجة دون الصفر، بإمكانه أن يضع قبّعة على رأسه، وثياب ثقيلة جداً على أطرافه كلِّها، لكن ليس بإمكانه أن يغطي عينيه حين يمشي، فلو مسّ الهواء الخارجي ذو الدرجة السبعين تحت الصفر ماء العين لتجمّد، لكن الله سبحانه وتعالى أودع في ماء العين مادّةً مضّادّةً للتجمُّد، فعل من ؟

هذا الدماغ فيه مركز يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، أنت تمشي في الطريق فزمّرت سيارة من خلفك، دخل الصوت من هذه الأذن، ومن هذه الأذن، لكن دخل لهذه الأذن قبل هذه الأذن بجزء من ألفٍ وستمئة جزءٍ من الثانية، هذا الجهاز يحسب من أيّ أذنٍ دخل الصوت أولاً ؟ من اليمنى إذاً: السيارةُ عن يمينك ومن خلفك، فيا أيها الإنسان ابتعد عنها نحو اليسار، وأنت لا تدري.

وهذا لسان المزمار يشبه شرطي السير الذي يعمل ليلاً ونهاراً، تحبُ أن تشرب، تحب أن تأكل، يُغْلِقَ هذا اللسان الرغام.. القصبة الهوائية.. تحبّ أن تتكلّم، يغلق هذا اللسان المريء، لكن وأنت نائم كلّما تجمّع اللعاب في الفم ذهب تنبيهٌ إلى الدماغ، الدماغ أعطى أمراً للسان المزمار، فيفتح قناة المريء، ويغلق قناة التنفّس، وأنت لا تدري، ففي الجسم أشياء لا تصدّق.

الآيات القرآنية المتحدِّثة عن التقوى:

الحقيقة هذه الآيات المتعلِّقة بالتقوى هي آياتٌ لم يمكِّني الوقت من شرحها في خطبة، ولكن والوقت محدود، لذلك حاولت في هذا الدرس شرح الآيات التي لم تُشْرَح في خطبة الجمعة.

من هذه الآيات ربنا عزّ وجل يقول:

الآية الأولى:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأتْقَى(17))

(سورة الليل)

الأتقى اسم تفضيل، فهناك في اللغة تقي وأتقى، وكذلك وأحسن، وكريم وأكرم، أما الأتقى ما صفاته الأساسيّة ؟ قال:

(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(18))

(سورة الليل)

المال: الله عزّ وجل أكرمنا به ليكون وسيلة للتقرُّب إليه، أحد الصحابة الكرام قال: **<< حبّذا المال أصون به عرضي، وأتقرّب به إلى ربي>>.**

كلماتٌ بليغات أصون به عرضي ؛ أولادك، أهلك، أمك، أبوك بحاجةٍ إليك، صنت بهذا المال عرضك، وتقرّبت به إلى ربّك، فربنا عزّ وجل يصف الأتقى لا يصف التقي، قال:

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(17)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(18))

(سورة الليل)

لا تنسَ قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103))

(سورة التوبة)

أحياناً يخالف الإنسان أمر الله عزّ وجل فيأتيه العقاب سريعاً، وقد يكون العقاب مؤلماً، وربنا عزّ وجل إذا عاقب يعرف كيف يعاقب، إنّ عذابه أليمٌ شديد، فهذا العذاب الإلهي عذاب ردع، والدليل قال تعالى:

الآية الثانية:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(179))

(سورة البقرة)

فقد تتعرف إلى مؤمن كبير جداً، أساس إيمانه عقاب ناله من الله، خالف الشرع، فجاءه عقابٌ إلهي، فالقِصاص أحد الطُرق المؤديّة إلى التقوى.

شيءٌ آخر، هذا الذي يتقي الله عزّ وجل أليست لهذه التقوى ثمرةٌ يانعة ؟ إن ثمرة التقوى اليانعة النجاة من عذاب الله..

الآية الثالثة:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

(سورة الزمر)

لم يقل الله عزّ وجل: لا يصيبهم السوء ؛ بل قال: لا يمسُّهم.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

الآية الرابعة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16))

(سورة الذاريات)

الآية الخامسة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ(54))

(سورة القمر)

الآية السادسة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ(17))

(سورة الطور)

الآية السابعة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ(41))

(سورة المرسلات)

الإنسان أمره عجيب، أحد الصحابة زوجته طلبت منه حاجة لعل فيها حُرمة، فقال: **<< اعلمي يا أمة الله أن في الجنّة من الحور العين ما لو أطلّتْ إحداهنّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهنّ من أجلكِ >>**، القضيّة تجاريّة، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، فلذلك:

الآية الثامنة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

(سورة الذاريات)

لأن ربنا عزّ وجل قال:

(إنّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

(سورة التغابن: من الآية 14)

هذه عداوة مآل، وليست عداوة الحال، أما لو أنّ إنساناً مشى في ركاب زوجته، وحملته على معصية الله وخسر الجنّة، لا يرى في الآخرة من هو أشدّ عداوةً منه لزوجته، ذلك، لأنها ساقتها في طريق

معصية الله، لذلك:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(15))

(سورة الذاريات)

الآية التاسعة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ(54))

(سورة القمر)

الآية العاشرة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَعِيمٍ(17))

(سورة الطور)

الآية الحادية عشرة:

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ(41))

(سورة المرسلات)

الشيء الأخير: الحياة دواليبها تدور، وعلى مسرح الحياة أناسٌ يصعدون، أناس يهبطون، أناس يربحون، أناس يخسرون، أناس يعيشون في بحبوحة، أناس يعيشون في ضيق، أناس يفقدون حرّيتهم، أناس يتربّعون على مركز القوّة، الدولاب يدور، ولكن هذا الدولاب يدور، ويدور، ثم يستقر على مبدأٍ ثابت..

الآية الثانية عشرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الآية الثالثة عشرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتّقْوَى(132))

(سورة طه)

وباللغة الدارجة.. التقوى أقوى.. أي أن في النهاية لا يسعد إلا المتقي، لا يفوز إلا المتقي، لا ينجو إلا

المتقي، لا يُفلح إلا المتقي، لا ينجح إلا المتقي، لا يسعد إلا المتقي..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132))

(سورة طه)

لكن من أجل أن تقطف ثمار التقوى يانعة ربنا عزّ وجل يقول:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

(سورة البقرة: من الآية 63)

بقوّة، هناك أخذ بلين ؛ ومسايرة، ومجاملة للآخرين، مواقفه دائماً ضبابيّة، دائماً متردِّد، دائماً مُرتاب، دائماً يُطيع الله ولكن على مضض، يخاف أن يعصيه، ولكن يرغب أن يعصيه، هذا الموقف المتردِّد الضبابي، موقف الأخذ والرد، موقف عدم الثقة، عدم اليقين، موقف المتخاذل، موقف متردّدِ، هذه المواقف ليست من صفات المؤمنين..

الآية الرابعة عشرة:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(63))

(سورة البقرة: من الآية 63)

فقد يستحيي أن يقول: أنا أريد أن أصلي، يقول: اسمح لي أن أذهب فعندي موعد، قل له وافتخر: أريد أن أصلي، فالإنسان يجب أن يفتخر بدينه، يجب أن يفتخر بإسلامه، طبعاً وفق الحكمة، لكن:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

آخر شيء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: من الآية 6)

فالإنسان كما هو مأمورٌ أن يقي نفسه النار مأمورٌ أن يقي أهله وأولاده النار ؛ من خلال التوجيه، من خلال المراقبة، من خلال الإكرام، من خلال العِقاب، يجب أن يكون المرء حكيماً، لكنَّه مسؤولٌ عن أولاده وزوجته مسؤوليّة لا حدود لها، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: من الآية 6)

عليكم بالقرآن قراءةً وحفظا وتعلّمًا وتعليما فإنه أصل التقوى:

فحبّذا الإنسان كلّما مرّت به آيةٌ في القرآن الكريم متعلِّقةٌ بالتقوى حبّذا لو سجّلها، وحبذا لو جمعها في كُتيّب مع مثيلاتها، وحبذا لو صنّفها، وحبذا لو استنبط منها موضوعات دقيقة جداً، لعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعنا بهذا القرآن، إنه منهجنا، إنه كتابنا، هذا كتاب العُمُر، هذا الكتاب المقرّر، القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه، ولا يوجد عمل في حياة الإنسان بلا استثناء أهم من تعلُّم كتاب الله.

فمن يقول: أنا على حسب فراغي أذهب إلى الدروس، هذا كلام فارغ، هذا الدرس يجب أن تأخذ وقته من زُبْدَةِ وقتك، لأنه لا عمل أشرف من تعلُّم كتاب الله، ألا يكفيكم قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ليس مني إلا عالمٌ أو متعلِّمٌ))

[ورد في الأثر]

إن لم تكن عالِماً، ون لم تكن متعلِّماً فلست من أمّة سيدنا محمّد، ألا يكفيك قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ))

من دون استثناء، من دون تحفُّظ..

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلّمَ الْقُرْآنَ وَعَلّمَهُ))

[البخاري عن عثمان]

والله الذي لا إله إلا هو لو تعلّمت آيةً واحدةً فعملت بها لسعدت بها أبد الآبدين، ألا يكفينا هذا الأعرابي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال: **" يا رسول الله عظني "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

فقال: **" قد كُفيت "**، القرآن ستمئة صفحة، اكتفى بآيةٍ واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

صار فقيها، والله الذي لا إله إلا هو ؛ آيةٌ واحدة لو طبّقناها لكفتنا، ألا يكفيكم قوله تعالى:

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

ألا تكفي هذه ؟ لو كنتَ تحت رقابة إنسان لكنت في انضباطٍ ما بعده انضباط، ألا يكفيك أن الله يراقبك؟ ألا يكفيك أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يحزن قارئ القرآن))

[الجامع الصغير عن أنس بلفظ: لا يخرف..."، وفي سنده مقال]

مستحيلٌ أن يحزن، لأن أمرك كلّه بيد الله، والله رحمن رحيم، كريم، غفور، رحيم، لطيف، قدير، غني، الأمر كلّه إليه.

أرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن نتابع قصة سيدنا لوط.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (09-18): تفسير الآيات 54 - 58

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى مطلع القصّة الأخيرة من قصص هذه السورة، حيث أنهينا الحديث في التعقيب على قوله تعالى:

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53))

(سورة النمل)

تتمّة لموضوع التقوى: الإيمان قبْل التقوى:

إذاً: كان الحديث في الدرس الماضي عن التقوى، ولكن لابدّ من تعقيبٍ آخر متمِّمٍ لهذا الدرس، التقوى كما قال الله عزّ وجل:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(57))

(سورة المائدة)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 96)

في آيتين اثنتين جاء الإيمان قبل التقوى، الإيمان تصديقٍ وإقبال، والكفر تكذيبٌ وإعراض.

1 – طريق الإيمان هو العلمُ:

ولكن هذا التصديق ما طريقه ؟ ما طريق التصديق ؟ لا شكّ أن طريق التصديق هو العلم، فالعلم هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله عزّ وجل، لقول الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

<< اغدُ عالماً، أو متعلِّماً، أو مستمعاً، أو محبّاً، ولا تكن الخامس فتهلك >>.

الخامس أن تبغض العلم وأهل العلم، **<< اغدُ عالماً، أو متعلِّماً، أو مستمعاً، أو محبّاً، ولا تكن الخامس فتهلك >>...** والخامس أي الحالة الخامسة، وهي أن تبغض العلم وأهل العلم.

2 – العلمُ كلمةُ ذاتُ مدلولٍ واسع:

الشيء الذي لابدّ من التعقيب عليه هو أن العلم كلمة ذات مدلول واسع جداً، فهذا الذي يدرس الطب يتعلّم، والذي يأخذ اختصاصاً في الهندسة يتعلّم، والذي يدرس أصول التجارة يتعلّم، وفروع الجامعة كما ترون أنواعٌ منوّعة، وكلّها تعطي العلم، فإذا مَرّت كلمة العلم في القرآن الكريم فهو معنى العلم الذي أمرنا الله به !! هذا العلم الذي يتعلّمه الطلاب في الجامعات أساسيٌ جداً لصلاح الحياة الدنيا.

كنت قد ذكرت في خطبةٍ قديمة: من أن علوم الكون، أو العلوم الحديثة، أو علوم الخَلْق، أو علوم الخليقة.. أسماءٌ متعدّدة.. وهي أصلٌ في صلاح الدنيا، وعلم الشريعة أصلٌ في عبادة الله عزّ وجل، وعلم الحقيقة أصلٌ في معرفة الله، يجب أن تعرف الله، ويجب أن تعرف أمره، ويجب أن تعرف خصائص الأشياء، فإذا عرفت الله عرفت نفسك، عرفت من أنت، عرفت أين كنت، عرفت أين المصير، عرفت ما يجوز، وما لا يجوز، معرفة الرب أصل الدين، وأصل الدين معرفة الله عزّ وجل، ومعرفة الشرع أصل العبادة، فإذا عرفته، ألا ينبغي أن تعبده ؟ كيف تعبده ؟ لابدّ من أن تعرف أحكامه، وإذا تعلّمت العلوم الماديّة، هذه العلوم أصلٌ في صلاح المجتمع على المستوى الجماعي، وطريقٌ لكسب الرزق على المستوى الفَرْدِيّ، فالعلوم التي نتعلّمها في الجامعات مع أنها ثمينةٌ جداً، ولها علاقةٌ وطيدةٌ بحياتنا، ولكنّها شيء، ومعرفة الله شيءٌ آخر.

لذلك بعض الأئمّة القُدامى يسمّون هذا العلم باسم العلم الأعلى: وهو أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف الهدف الذي من أجله خُلِقتْ، أن تعرف أين كنت، أن تعرف أين ستكون، أن تعرف سرّ الوجود، حقيقة الحياة، جوهر الأشياء، سرّ التصرُّف الإلهي، هذا كلّه ينطوي تحت باب العلم الأعلى، يسميه اليوم الفلاسفة علم ما وراء الطبيعة، ويسميه السلف الصالح العلم الأعلى، وهذا العلم أصلٌ في صحّة العقيدة.

فيجب أن تعرف هويتك، أنت إنسان إذاً أنت مكلّف، مكلّفٌ بنفسك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

مقوّماتُ التكليف:

1 – العقلُ:

حينما كلّفك الله عزّ وجل أعطاك مقوّمات التكليف، أعطاك عقلاً يتطابق تطابقاً تاماً مع الكون، وأساس الكون مبدأ السببية، مبدأ الغائيّة، مبدأ عدم التناقض، وأساس عقلك هكذا.

2 – الكون:

أعطاك كوناً سخّره لك تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم.

3 – الفطرة:

أعطاك الله فطرةً سليمة تحضُّك على فعل الخيرات وترك المنكرات، تؤلمك إذا انحرفت، وتريحك إذا اتبعت الطريق الصحيح، الفطرة عطاء إلهي، والكون عطاء إلهي، والعقل عطاء إلهي.

4 – المنهجُ والشرعُ:

أعطاك كتاباً أنزله على نبيّه الكريم، أعطاك سُنّةً تفهم بها هذا الكتاب، أعطاك دعاةً يشرحون لك الأمور، أعطاك دروساً من خلال الحوادث، أعطاك إلهاماتٍ من خلال إلهامات الملائكة، أعطاك الرؤية، وأعطاك أشياء كثيرة، لذلك هذا العلم الذي نتعلّمه هو أصلٌ في معرفة الله عزّ وجل.

النقطة الدقيقة: أن هذه العلوم العصريّة التي يتعلّمها الطلاب في الجامعات لم يكن الإسلام في لحظةٍ من اللحظات حَجَرَ عقبةٍ أمام هذه العلوم، إنها لصلاح الدنيا، وصلاح الدنيا مطلوبٌ في الدين، لأن الدين جاء ليحقِق المقاصد الخمسة الكبيرة ؛ حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العِرْض، فالإسلام ما وقف لحظةً في وجه تقدُّم هذه العلوم، بل كانت هذه العلوم موازية له، لأن هذه العلوم من نوعٍ والعلم الديني من نوعٍ آخر، لم تقف هذه العلوم موازية لهذا الدين، بل لم تنشأ تناقضاتٌ بينها وبين الدين إلا أن تكون هذه العلوم فرضيّاتٍ ونظريات، كأن تناقض نظرية داروين في مبدأ خلق الإنسان، أو أن تكون النصوص الدينية التي تُصادم هذه العلوم نصوصاً غير صحيحة، أما صريح المعقول فلا يمكن أن يناقض صحيح المنقول.

الفهمُ العلمي والعقلية العلمية:

لكن قبل أن نمضي في الحديث عن القصّة الأخيرة في هذه السورة لابدّ من وقفةٍ صغيرة، لأن العلم طريق الإيمان، والإيمان طريق التقوى، وكان الحديث في الدرس الماضي عن التقوى، لابدّ من وقفةٍ قصيرة حول هذا الذي يسمونه ـ العقليّة العلميّة ـ التي رَعَاها الإسلام ونمّاها القرآن، من خلال القرآن فقط، من خلال آيات الله عزّ وجل ربّى ربنا سبحانه وتعالى عباده على الفهم العلمي والعقليّة العلميّة، فمثلاً:

لا للعقلية الخرافية !!!

نحن عندنا عقليّةٌ تسمّى العقليّة العاميّة، أو العقليّة الخرافيّة، يمكن أن ترى إنساناً يتمتّع بهذه العقليّة، فما صفات هذه العقليّة العاميّة والعقليّة الخرافيّة ؟ إنها تقبل كل شيء، إنها تصدّق كل شيء، إنها تعتقد بكل شيءٍ ينتهي إليها، ومثل هذا الإنسان الذي عقليّته عقليّةٌ عاميّة خُرافيّة، كأن تستمع من زيدٍ أو من عبيد إلى كلامٍ تصدِّقه من دون تحقيق، من دون تمحيص، من دون سؤال، من دون طلب الدليل، من دون طلب الحُجّة، إذا كنت من هؤلاء فعقليّتك عاميّة، وعقليّتك خرافيّة، وهذه العقلية تتناقض مع صفات المؤمنين.

سأريكم بعد قليل كيف أن القرآن يربّي في الإنسان العقليّة العلميّة، أما أن تستمع وتصدِّق، أن يُلْقَى إليكَ كلامٌ فتقبله، أن تستمع إلى زيدٍ أو عبيد فتصدِّقه من دون سؤال، من دون جواب، لأن فلان قاله، هذه العقليّة الخرافيّة والعاميّة لا مكان لها بين المؤمنين، وهذا الذي يصدِّق كل شيء يكذِّب كل شيء، وهذا الذي يصدِّق كل شيء لأدنى ضغطٍ أو أدنى إغراءٍ يفقد كل شيء.

نحن نريد أن نبني شخصيّة المؤمن بناءً صحيحاً، لو أن هذا المؤمن ربّيناه على أن يقبل كل شيء، مثل هذا المؤمن ستنهار مقاومته أمام أصغر ضغطٍ، أو أمام أقلّ إغراءٍ، يقال: انتكس، لماذا انتكس ؟ لأن عقليّته في الأصل عقلية خرافيّة، وعقليته في الأصل عقلية عاميّة قبِلتْ كل شيء من دون دليل، لذلك يمكن أن ترفض كل شيء من دون دليل، تمثِّلُ هذه العقلية آية كريمة يقول الله عزّ وجل:

(حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

(سورة المائدة: من الآية 104)

إذاً: هو يقول: هكذا قال الناس، أنا مع الناس، أنا مع الخط العريض، أكُلُّ هؤلاء الناس في ضلالٍ مبين؟ أنا مع هؤلاء، هذا الانتماء العفوي غير المدروس لأفكار عامّة الناس، لقيمهم، لمعتقداتهم من دون تمحيص، من دون تأمُّل من دون دراسة، صاحب هذه العقلية اسمه في العلوم الإنسانيّة عقليّته عقليّةٌ عاميّةٌ خرافية ليست بشيءٍ إطلاقاً إذا ما وُزِنَت بالعقليّة العلميّة.

صفاتُ العقلية العلمية:

1 – الدليل والحجة في الأمور العلمية:

ما صفات العقليّة العلميّة ؟ إذا كنت مؤمناً يجب أن تتمتّع بالعقليّة العلميّة، إذا كنت مؤمناً، وسوف ترى بالدليل القرآني كيف أن المؤمنين الصادقين يتمتّعون بعقليّةٍ علميّة، العقلية العلمية من لوازمها ألا تقبل

شيئاً من دون دليلٍ قطعي، وألا ترفض شيئاً من دون دليلٍ قطعي، فإن كان الموضوع موضوعاً نظرياً يتعلّق بالأفكار لابدّ من البرهان النظري والحجّة المنطقيّة، والدليل قال تعالى:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

هذا الموضوع فكري، وهذا الموضوع أساس في بحث العقيدة، وكذلك هذا الموضوع يتعلّق بالعقليّات، إذاً: فلابدّ من الدليل العقلي والحُجّةِ القاطعة..

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(111))

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: من الآية 117)

هكذا صفات المؤمنين، لا يقبلوا إلا بالدليل العقلي والحجّة البالغة.

2 – الحواسّ الخمسُ هي الحَكَم في الماديات:

وإذا كان الموضوع متعلِّقاً بالمشاهدات الحِسيَّة والأمور الماديّة فلابدّ من أن تكون الحواسُ هي الحَكَمَ الأخير في هذا الموضوع، والدليل قول الله عزّ وجل:

(وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)

(سورة الزخرف: من الآية 19)

قالوا: العالَم بدأ كذا وكذا..

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

حينما يزعمون أو يتخرّصون من أن العالم بدأ بطريقةٍ كذا أو كذا، ربنا عزّ وجل يردُّ عليهم فيقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

فالموضوع إذا كان موضوعاً مُجَرّداً متعلّقاً بالعقائد لابدّ من البرهان العقلي والحُجّة الناصعة، وإذا كان الموضوع حسياً لابدّ له من الدليل الحسي كالمشاهدة، والسماع، واللمس، وما إلى ذلك، وإذا كان الموضوع نقليّاً إخبارياً لابدّ من صحّة الرواية، قال تعالى:

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(4))

(سورة الأحقاف)

في العقليّات لابدّ من البرهان، في الحسيات لابدّ من المشاهدة والتجربة، في الإخباريات لابدّ من صحّة الرواية، هكذا يربي ربنا سبحانه وتعالى المؤمنين على عقليّةٍ لا تقبل إلا الحق ولا ترفض إلا الباطل.

3 – اليقينُ لا الشكُّ:

شيءٌ آخر، في الإسلام أو كما نَطَقَ به القرآن ؛ الظن مرفوض، إذا كنت في أمور العقيدة لست متأكِّدًا، فإنك تقول: هكذا قال الناس ولعلّه كذلك، أرجو أن يكون كذلك..

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما لا تُبْعَثُ الأمـواتُ قلت إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

***

هذا التردُّد، عدم اليقين، الشك، عدم الجزم، عدم القطع، هذا الظن ليس من صفات أهل الإيمان، قال تعالى:

(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنّ وَإِنّ الظَّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا(28))

(سورة النجم)

إذاً: الظن والشك والوهم كله مرفوض في العقيدة..

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(157)بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ)

(سورة النساء)

4 – رفضُ الأهواء والنزوات:

شيء آخر، أيضاً من لوازم العقليّة العلميّة أن ترفض الأهواء والنزوات، يقول الله عزّ وجل:

(إِنْ يَتّبِعُونَ إِلا الظّنّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ)

(سورة النجم: من الآية 23)

قد يكون هواك في هذا الفعل، ولكن ليس من صفات المؤمن أن يتّبع الهوى، يجب أن تتبع العقل، آيةٌ أخرى:

(فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلا تَتّبِعْ الْهَوَى)

(سورة ص: من آية " 26 ")

آيةٌ ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

الهوى مرفوض، وكذلك النزوات الشخصيّة، والمِزاج الشخصي مرفوضٌ في الحق، والظن مرفوضٌ أيضاً، ولابدّ من دليلٍ قطعيّ عقليّ في العقليّات، وحسيّ في الحسّيات، وصحيحٍ في الإخباريّات، هكذا تبدو ملامح العقليّة العلميّة التي يجب أن يتمتّع بها المؤمن، وكل هذا من كتاب الله، لذلك إيّاكم أن

تتمتّعوا بعقليّةٍ خرافيّة، أو عقليّةٍ عاميّة تقبل كل شيء بلا دليل، أو ترفض بلا دليل، مثل هذه الأفكار التي تتأتّى إلى الإنسان من دون هذا التمحيص أغلب الظن أنه يفقدها أو يكذّبها أو ينكرها لأدنى ضغطٍ ولأدنى إغراء.

المؤمن كأنه قلعةٌ متينة، لكن لو لم يكن إيمانه مبنياً على هذه الأسس الصحيحة لأصبح إيمانه هَشّاً كبيت العنكبوت، سريعاً ما ينهار، البطولة لا أن تبدأ ؛ بل أن تثبت، كم من شابٍ انطلق إلى طاعة الله عزّ وجل، ولسببٍ تافه بعد أن عمل في وظيفة، بعد أن دخل الجامعة، بعد أن تزوّج انهار كل إيمانه، وعاد إلى سيرته الأولى، أين إيمانه ؟ لأنه لم يبْنِ إيمانه على تحقّق، لم يكن يتمتّع بالعقليّة العلميّة التي لا تقبل إلا بالدليل، ولا ترفض إلا بالدليل.

5 – رفضُ الجمودِ والتقليدِ:

الشيء الآخر، من لوازم العقليّة العلميّة التي وردت ملامحها في القرآن الكريم، أن المؤمن يرفض الجمود والتقليد والتبعيّة الفكرية للآخرين، والله سبحانه وتعالى وصف أهل الكفر بأنّهم كذلك، قال:

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

(سورة البقرة: من آية 170)

التبعيّة الفكريّة، التقليد الأعمى، الانتماء العفوي للكبراء، للعُظماء من أهل الدنيا من دون تبصُّر هذا من صفات أهل الكفر، ربنا عزّ وجل ردّ عليهم فقال:

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ(170))

(سورة البقرة)

كيف يتّبعون ما ألفوا عليه آباءَهم ؟..

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (170))

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً))

[الترمذي عن حذيفة]

هذه التبعيّة الفكريّة،

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً))

من هو الإمّعة ؟ هو الذي يقول: **" أنا مع الناس ؛ إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت "**، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي عن حذيفة]

أما هذا الذي مع الخط العريض، مع التيار العام، مع عامّة الناس، كيفما يرتدوا ثيابهم يرتدِ ثيابه، ولاسيما النساء، على حساب دينهم، وعلى حساب قيمهم الأخلاقيّة، وعلى حساب انتمائهم الروحي، فهذا إذاً من ذوي التبعيّة العفويّة الجاهلة، تبعية للكبراء وللعادات والتقاليد، وهذه ليست من صفات المؤمنين، الأهواء والنزوات والميول الشخصيّة لا يمكن أن تكون موجّهةً للإنسان في عالَم الإيمان، الظن والريب والشك والوهم ليس من صفات المؤمنين.

العقليّة العلميّة لا تقبل إلا الدليل والحجّة والبرهان والخبر الصادق، من أجل هذا إذا بنيت إيمانك وفق هذه الأسس كان هذا العلم طريقاً إلى الإيمان، وكان الإيمان طريقاً إلى التقوى.

هذا تعقيبٌ على الدرس الماضي الذي بيّنت فيه أن التقوى أساسها الإيمان، وأن الإيمان أساسه العلم، والآن لمتابعة القصّة الأخيرة من سورة النمل، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

قصة لوط: وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

1 – وَلُوطاً:

جاءت كلمة ولوطاً منصوبة، واذكر لوطاً، أو ولقد أرسلنا لوطاً، ما دام جاءت منصوبة لابدّ من فعلٍ مقدّرٍ قبلها، ولقد أرسلنا لوطاً، أو واذكر لوطاً..

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

2 – وَلُوطاً: إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ

ما هي الفاحشة ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة النحل: من الآية 90)

أي الفعل الشنيع الذي إذا فعله الإنسان فُضِحَ بين الناس، هذه فاحشة، وليس من فاحشةٍ أشدُّ من أن تخالف السنن الطبيعيّة في علاقتك بالآخرين، ففعل قوم لوط فاحشةٌ وأية فاحشة، لأنهم أولاً خالفوا

الفطرة، قال ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

3 – مخالفة الطريق السليم عدوانٌ:

من ابتغى هذه الشهوة خلاف الطريق التي رسمها الله عزّ وجل فهو من العادين، ما من طريقٍ لقضاء هذه الشهوة إلا طريق الزواج، ولا شيء غير الزواج، هذا هو الطريق المشروع، هذه هي القناة النظيفة، هذه هي سُنَّة الله في خلقه، هذه هي السُنَّة الشريفة، أما من ابتغى لقضاء هذه الشهوة طريقاً آخر غير الزواج، كالزنا فهو فاحشة.

إنّ عمَلَ قوم لوط أشدُّ أنواع الفواحش، بل هو إثمٌ مرّتين، أولاً: لأن العلاقة غير مشروعة، وثانياً: هي غير طبيعيّة، وبعيدة عن أن تكون مشروعةً، وعن أن تكون مألوفةً طبيعيّة، فلذلك سمي عمل قوم لوط فاحشة..

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

معاني: وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" إنهم لشدّة فجورهم، وشدّة استهتارهم واستهانتهم يأتون هذه الفاحشة على مرأى من بعضهم بعضاً "**، ومن يرتكب المعصية يسمّى عند الله عاصياً، وأما من يفعلها أمام الناس، أو من يفتخر بها فيقول: فعلت كذا وكذا، هذا يسمّى عند الله فاجراً، والفاجر أشدُّ من العاصي لأجل المقولة المعروفة: **" إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا"**، هذا الذي يفعل الفاحشة على مرأى من الناس، ومن علامات الساعة أن الزنا يكون على قارعة الطريق، والذين يذهبون إلى بلاد الغرب يعودون بهذا الانطباع، ففي المركبات العامّة، في أنحاء الطرق، في الحدائق، عشرات الألوف من الأجنّة يجدونها في زوايا الحدائق العامّة في بلاد الغرب، من علامات قيام الساعة أن يُرتَكَبَ الزنا على قارعة الطريق، وكلمة:

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

لها معنيان، المعنى الأول: ربّما قام هؤلاء بهذا الفعل الشنيع على مرأى من بعضهم بعضاً، أو ربّما تحدّثوا به، فالحديث عن الفعل الشنيع شناعةٌ وفجور..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

المعنى الثاني:

بعض العلماء قال: هناك معنىً آخر لهذه الآية، وهو المعنى الثاني: أنكم تعلمون أنها فاحشة، وتعلمون أنها عدوان، وتعلمون أنها مخالفةٌ لأمر الواحد الديّان، تعلمون أن هذا العمل قذر، وان هذا العمل يؤذي، وأن هذا العمل يضيّع المروءة في الفاعل والمفعول..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ))

[من صحيح البخاري عن النعمان بن بشير]

الانحرافُ يولِّد في النفس الكآبة والضيقَ والتأنيب:

فالإنسان له فطرة سليمة، أيّ إنسانٍ في أيّ مكان يتمتّع بفطرةٍ سليمة، فإذا فعل شيئاً خِلاف فطرته شعر بضيق، حتى إن علماء النفس وهم لا يعرفون عن الدين الإسلامي شيئاً، يذكرون أن من حالات الكآبة، المنحرفون إذا انحرفوا عن الطريق الصحيح فانحرافهم هذا يولِّد عندهم حالاتٍ من نوع الكآبة والضيق، كل عملٍ غير أخلاقي تعقبه حالةٌ من الضيق الشديد هي مخالفة الفطرة، بل إن بعض الأمراض النفسيّة لها اسمٌ على خِلاف ما يعرفه الناس جميعاً.. الهيستريا.. الهيستريا مرضٌ عضويٌ أساسه نفسي، أي شلل، فتصاب العضويّة بشللٍ لا لأسبابٍ ماديّة، فالشرايين، والأوردة، والأعصاب، والجهاز الحسي والحركي في أعلى درجة من الجاهزيّة، ومع ذلك يصاب الإنسان بشلل حينما يبلغ تأنيب ضميره له درجةً عالية، هذا المرض مصطلح على تسمية الهيستريا وهو شللٌ عضوي لأسبابٍ نفسيّة، لأسباب فطرية، فيكون الإحساس بالكآبة.

سألوا إنساناً: لماذا لا تخون زوجتك ؟ قال: **" لا أستطيع أن أواجه شعوري بالذنب "**، هذه فطرة، الله عزّ وجل فطر الإنسان فطرةً عالية، فَطَره على حبِّ الكمال، وأنْ تحبَّ الكمال شيء، وأن تكون كاملاً شيءٌ آخر، قد تحبُّ الكمال ولا تكون كاملاً، أما إذا كنت كاملاً فتلك هي الصبغة، وفرقٌ بين الفطرة والصبغة، الفطرة أن تحبّ الكمال، والصبغة أن تكون كاملاً، لذلك قال الله عزّ وجل:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من الآية 30)

وقال:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة: من الآية 138)

لذلك المعنى الثاني:

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

إنّ فطرتكم سليمة، إن فطرتكم تُنْبِئكم أن هذا العمل فاحشة، من دون أن تسألوا.. فأحياناً الهرّة تملك فطرةً سليمة، فالهرّة مثلاً إذا أطعمتها قطعة لحمٍ تأكلها أمامك، أما إذا اختلست هي قطعة اللحم تَفِرُّ بها بعيداً لتأكلها في زاويةٍ، إذاً: هي تشعر أنك إذا أعطيتها هذه القطعة فهي إذاً تفعل شيئاً مشروعاً، فإذا اختلستها تشعر أنها مذنبة.. إذاً: فالإنسان يتمتّع بهذه الفطرة..

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

المعنى الثالث:

إنّكم حينما تأتون هذه الفاحشة، وقد انتهى إلى علمكم أن أقواماً كثيرة فعلوا المعاصي فأهلكهم الله عزّ وجل، فلابدّ لكم من مواجهة المصير ذاته ؛ قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7)الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ(8)وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10))

(سورة الفجر)

وهذا على مستوى حياتنا اليومية، ألم ينتهِ إلى سمعك آلاف القصص من أن فلاناً أكل مالاً حراماً فأتلفه الله، وأن فلاناً تتبّع عورات المسلمين ففضحه الله في عُقر بيته، وأن فلاناً أوقع الأذى بالناس فدمّره الله عزّ وجل، وفلاناً غشّ المسلمين فدمّر الله ماله، وفلاناً تكلّم في أعراض المسلمين فتكلّم الناس في عِرضِه، وفلاناً زنا فزُنِي بأهله، هذه القصص الصارخة أليست في متناول يدك ؟

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54))

عواقبَ الذين يعصون الله عزّ وجل.

المعنى الأول: تفعلونها على مرأى من بعضكم بعضاً، أو تفعلونها وتفتخرون بها.

المعنى الثاني: إنكم تبصرون أنها فاحشة، تعلمون أنها فاحشة بحسب فطرتكم السليمة.

المعنى الثالث: رأيتم بأمّ أعينكم، وانتهى إلى سمعكم أن هؤلاء الذين فعلوا الفاحشة كيف انتهوا إلى

مصائب وبيلة.

يتابع الله عزّ وجل قصّة هذا النبي الكريم مع قومه فيقول:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

الجمعُ بين قوله: وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، وقوله: بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

ماذا تجهلون ؟ هنا السؤال دقيق جداً، كيف وأنتم تبصرون، هنا وأنتم تجهلون ؟ كيف أثبت الله لهم البصر، وكيف نعتهم الله بالجهل ؟ يمكن أن تكون عالِماً بجزئيّات وتفصيلات ولكن، لأنّك لم تعرف الله عزّ وجل، غاب عنك أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسب حساباً عسيراً، فلو أن الإنسان عرف الله عزّ وجل لما عصاه، يستحيل في حقّ إنسانٍ عاقل أن يعرف الله ثمّ يعصيه، لا يعصي الله إلا من جَهِلَ به، لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[ورد في الأثر]

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[من سنن الدارمي عن مسروق]

لمجرّد أن تعصي الله عزّ وجل فأنت لا تعرفه، لا تعرف أن هناك إلهاً عظيماً عنده عطاءٌ كبير إذا أطعته، وعنده عذابٌ أليم إذا عصيته، فهذا الذي يلبّي شهوته الطارئة هو لا يعرف الله عزّ وجل..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

معنى: بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

تجهلون ما أعدّ لكم من جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

تجهلون الثمن الباهظ الذي تدفعونه لهذه المعاصي، تجهلون الثمن العظيم، وهي الجنّة التي ضاعت عليكم بسبب هذه المعاصي، فالموضوع لا أن تعلم علماً جزئياً، بل لابدّ معرفة صحيحة بأدلّة، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا بأنهم لا يعلمون، وبعد هذه الآية مباشرةً قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من الآية 7)

لا يعلمون ويعلمون، كيف هذا ؟ ما عرفوا الله، وما عرفوا ما بعد هذه الدنيا، وما عرفوا ما ينتظرهم من عذاب، ولا من جنَّةٍ لو أنهم أطاعوا، ولكنَّهم عرفوا دقائق الأمور في الدنيا، عرفوا من أين تُؤكَل الكَتِف، عرفوا كيف ينتهزون المناسبات، وكيف يقتنصون الفُرَص، عرفوا كيف يستمتعون، عرفوا كيف يغرقون في ملذّاتهم، عرفوا كيف يجمعون المال، عرفوا كيف ينفقونه، تمتَّعوا بأذواقٍ عالية في طعامهم، وشرابهم، وملبسهم، ورحلاتهم، ونُزهاتهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وفي مظهرهم الخارجي، هذا كله عرفوه، ولكنَّهم ما عرفوا الله الذي إليه مصيرهم، وما عرفوا الله الذي عنده حسابهم، وما عرفوا الله الذي عنده مكرهم..

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا (56))

والله في نفسي أن أوضِّح لكم.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

إسقاط لمعنى الآية في واقع الناس:

مرّة ثانية، لو تصوّرنا أن مدينةً فيها نهرٌ ملوّث، وهذا النهر الملوّث يصيب سكّان هذه المدينة بأمراضٍ شتَّى، القائمون على هذه المدينة أرسلوا الأطبّاء إلى بلاد الغرب ليتعلّموا، ويتفقّهوا في هذه الأمراض التي أصابت أهل المدينة، وأنشؤوا المستشفيات، وجاءوا بالأجهزة الراقية للتحليل والتصوير الشعاعي، وما إلى ذلك، أتسمي هذا الطب، وهذا التحليل، وهذا التصوير، وهذه المستشفيات، وهذه الأدوية الدقيقة جداً هل تسميها جهلاً ؟ لا والله إنها علم، ولكن أيهما أفضل، أن ندع هذا النهر الملوّث يسمِّم هذه الأجسام، ويصيب هذه النفوس بالأمراض والأوبئة، ونأتي بالأطبّاء، والصيادلة، والأدوية، والأجهزة، وننشئ المستشفيات ؛ أم نغلق هذا النهر، أو نغطي هذا النهر، أو أن نمنع تلوُّث هذا النهر ؟ إنّ من العلم لجهلاً، طبعاً الأولى معالجة موضوع النهر فسد الذريعة.

نحن نسمح للشباب بكل عملٍ منكر، وبعد ذلك إذا انحرفوا يحتاجون إلى عمليّة جراحيّة، يجب أن نكافح المخدّرات، من أين جاءت المخدّرات في الأساس ؟ من ضعف الوازع الديني، تحتاج مكافحة المخدّرات إلى سنوات طويلة في المستشفيات، ويصاب المجتمع بالشلل، يجب أن نرعى أخلاق الشباب بادئ ذي بدء، يجب أن نحول بين المرض وبين أن يصل إلينا، رغم أنه لابدّ من تعلم الطب لمعالجة هذا المرض فيما إذا وقع والوصول إلى علمٍ من أعلى مستوى.

أنا أريد أن أقول: إن الإنسان أحياناً يتمتّع بذكاء، ولكنّه يشرب الخمر، يتمتّع بذكاء ولكنّه يكذب، يتمتّع بذكاء ولكنّه يظلم، يتمتّع بذكاء ولكنّه يأخذ ما ليس له، يتمتّع بذكاء ولكنّه يعتدي على الناس، قد يبني مجده على أنقاضهم، قد يبني غناه على فقرهم، هو ذكيٌّ فيما هو فيه، ولكن لو عرف أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسبه عن كل حركةٍ وسكنة، وعن كل نفس، وعن كل كلمة، وعن كل درهم من أين كسبه وكيف أنفقه؟ لغيّر كل حساباته، كيف يجتمع في إنسان العلم والجهل ؟ إنسان يحمل أعلى شهادة ويشرب الخمر، هو في اختصاصه متفوّق جداً ؛ ولكنّ في العلم الأعلى جاهلٌ فيه، في العلم الضيّق متفوّق، ولكن في العلم الشمولي جاهل، في اختصاصه متفوّق، في حرفته متفوّق، في ذكائه متفوّق، في مطالعته ممتاز ؛ ولكن لأنه ما عرف الله عزّ وجل، وغابت عنه الحقائق الكبرى دفع الثمن باهظاً، لذلك: لا ينفع ذا الجد منه الجد، الأمور ليست بالذكاء فقط ولكن بالتوفيق، الهدى شيء والثقافة شيءٌ آخر، إذاً:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55))

بيْنَ الأمّيّة والجهل:

الحقيقة أن الأميّة شيء والجهل شيء، الأميّة أن يكون وعاؤك فارغاً لا تعرف شيئاً، أنت أميّ، وأما الجهل فن يكون هذا الوعاء ممتلئاً بمعلومات غير صحيحة، مثلاً: مصباح في مقدّمة السيارة أو عند السائق، إذا تألّق فهذا التألّق يعني أن المحرّك ليس فيه زيت، وأن الأمر خطر، فينبغي أن يقف فوراً ليملأ الزيت، هذه معلومة صحيحة، إنسان آخر عندما يتألّق هذا المصباح فيقول: لماذا تألّق لا أعرف لماذا هو تألّق ؟ هذا الأميّ، إنسان ثالث يقول: هذا المصباح تألّق من أجل أن يسليني في الطريق، هذا هو الجهل، إذا فهمت الشيء فهماً مغلوطاً فهذا هو الجهل أما إذا فهمته فهماً صحيحاً فهذا هو العلم، أما إذا لم تفهمه فهذه هي الأميّة.

لذلك الجهل يعني أنه قد يكون الإنسان مثقّفاً وهو جاهل، أي أنه عرف دقائق مهنته، عرف دقائق حرفته، عرف كيف يكسب المال، عرف كيف ينجو من بين براثن الناس، عرف كيف يرفع من شأنه بين الناس، عرف كيف يأخذ ما ليس له، هذا كلّه يحتاج إلى ذكاء، ولكن لأنه ما عرف الله عزّ وجل، ما عرف أن هناك إلهاً يعرف كل شيء.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر: الآية 19)

لأنه ما عرف الله، وما استقام على أمره فلابدّ من أن يكون علمه جهلاً، وذكاؤه غباءً، ونجاحه فشلاً، وتفوُّقه تدنياً، وهكذا..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56))

مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

هذا ردُّ فعلهم النهائي، وفي هذا الموقف اضطراب وتناقص..

(أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56))

المعنى الأول لقوله: ِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

فالعلماء وقفوا من هذه الآية موقفين يوضحان اضطراب القوم وتناقضهم، بعضهم قال: إنهم قالوا هذا الكلام استهزاءً، أي فلان يحبُّ الطهارة فيسخرون منه.

المعنى الثاني:

أن المنحرف في أعماق نفسه يعرف أنه منحرف، وأنه بشكل أو بآخر يقدِّر الطاهر، المرأة البَغِيّ إذا رأت امرأةً شريفة عفيفة تتمنّى أن تكون مكانها، لا شك، لأن هذه المرأة البغي مفطورةٌ فطرةٌ سليمة، وهذه الفطرة تدعوها، أو تتوقُ إلى أن تكون مثل هذه الشريفة العفيفة، فإما أنهم قالوا هذا الكلام من باب الاستهزاء، وإما أنهم قالوا هذا الكلام من باب اليقين الداخلي، فربنا عزّ وجل وصف المشركين يوم القيامة..

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

(سورة الأنعام)

فقال الله عزّ وجل:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24))

(سورة الأنعام)

إذاً..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ(57))

عاقبة قوم لوط: فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ

أي أصابها غبار قومها لأنها أحبّت قومها وآثرتهم على الحق أصابها من غبارهم، فاستحقّت الهلاك معهم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من هوى الكفرة حُشِرَ معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

[ورد في الأثر]

إذا عرفت أن هناك من يفعلون الفواحش في الظاهر وفي الباطن ولكنَّهم يتمتَّعون بذكاء، وبأناقة، وبأبنية شاهقة، وبصناعة مُتقنة، وبحياة مرفّهة رغم أخطائهم وانحرافهم، وأنت تقدِّرهم فهذه مشكلة..

((من هوى الكفرة حُشِرَ معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58))

توضيح بعض المفارقات في هذه السورة:

الجمعُ بين إثبات البصر والوصف بالجهل:

من أجل توضيح بعض المفارقات في هذه السورة، كيف أن الله سبحانه وتعالى أثبت لهم البصر، وكيف وصفهم بالجهل، لابدّ من كلمةٍ قصيرة عن العلم.

1 – العلمُ ثلاثة أنواع:

العلم أنواعٌ ثلاثة: علم الحقيقة، وعلم الشريعة، وعلم الخليقة، أو علمٌ بالله، وعلمٌ بأمر الله، وعلمٌ بخلق الله.

العلم بخلق الله، أو علم الخليقة من أجل صلاح الدنيا فقط، فالإنسان يستطيع أن ينال أعلى الشهادات وهو بعيدٌ عن الله بعد الأرض عن السماوات، يستطيع أن يتعلّم كل شيء، وأن يكون من أهل النار، هذا العلم كالحرفة تماماً يعينك على أمر دينك، ربّما وسّع الأفق، ربّما أعطاك موضوعيّة، ربّما أعطاك إدراكاً سليماً ولكن لا يكفي، لابدّ من أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك الإمام أبو حامد الغزالي يقول: **" حيثما وردت كلمة العلم في القرآن الكريم فإنّما تعني العلم بالله ".**

2 – العصيان دليلُ الجهل:

قد يكون الإنسان مثقفاً، ويحمل أعلى الشهادات، ولا يكون عالماً بالله، والدليل: يكفي أن يعصيه، يكفي أن تعصي الله لتؤكِّد لكل الناس أنّك لا تعرف الله، لأنك لو عرفته ما عصيته، لو عرفت ما عنده من إكرام، وما عنده من عقاب ما عصيته، فالعلم بالله شرطٌ أساسي وهو أصل الدين، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله ما تفوّقوا، ولا وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا لأنهم جرّدوا أنفسهم لمعرفة الله، معرفة الله

تتمُ من خلال التفكّر في خلق السماوات والأرض، تتمّ من خلال التأمّل في أحكام الشريعة، إذا عرفت الله عندئذٍ تنشأ عندك حالةٌ ملحّةٌ كي تعبده، علم الشريعة أصلٌ في عبادة الله، تعرفه بالتفكّر من طريق الكون، وتعبده بتطبيق العلم علم الأمر والنهي، فإذا أردت أن تأخذ اختصاصاً من أجل أن تعيش حياةً راقيةً هذا بحثٌ آخر.

الشيء الأساسي أن تعرف الله عزّ وجل كما قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه:

<< أصل الدين معرفة الله>>.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (10-18): تفسير الآيتان 59 - 60

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-02-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النمل، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

(سورة النمل)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

1 – الحمدُ مأمورٌ به:

النبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ في نص هذه الآية أن يحمد الله عزّ وجل، على كل شيء، من هذه الأشياء أنه أهلك الأقوام الكافرة المنحرفة، وفيها نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، الإنسان في كل حركاته وسكناته، في كل نشاطاته مغمورٌ بنعمة الله عزّ وجل.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (59))

2 – افتتاحُ الخطب والدروس:

هؤلاء الذين اصطفاهم الله لنشر الحق ولإبلاغ الرسالات، وقد استنبط العلماء الأقدمون أن كل كلمةٍ، وكل خطبةٍ، وكل كتابٍ يجب أن يفتتح بحمد الله عزّ وجل والصلاة والسلام على صفوته من خلقه، لذلك دَرَجَ الخطباء، والكُتّابُ، والعلماء، والمحاضرون، وكل من تصدى للكلام، بأن يفتتح كلامه بحمد الله عزّ وجل والصلاة والسلام على أنبيائه وصفوته من خلقه.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (59))

3 – السلام اسمٌ من أسماء الله:

السلام اسمٌ من أسماء الله عزّ وجل، إذا اقتربت من الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وتوخّيْتَ رضاه، وجهدت في التقرُّب إليه فسلامٌ عليك، إن حياتك تغدو سلاماً، تغدو حياةً غنيةً بالعمل الصالح، غنيةً برحمة الله عزّ وجل، ثم إن الله عزّ وجل يُقَرِّعُ أسماع المشركين..

(آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ (59))

من المفارقات العجيبة: آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ

هذا الصنم الذي اتخذته من دون الله إلهاً، أيوازن مع الله عزّ وجل ؟ أنت تقع في حيرة إذا وازنت بين شيئين على درجاتٍ متقاربة، ولكن لا تقع في حيرة إذا عُرِضَ عليك شيءٌ تافهٌ جداً، وشيءٌ عظيمٌ جداً، فالله سبحانه وتعالى أصل كل النِعَم، أصل كل شيء، بيده كل شيء، بيده ملكوت كل شيء، إليه يرجع الأمر، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، هو الذات الكاملة، هو الرحمن الرحيم، هو الغني القدير، هو السميع البصير، خالق السماوات والأرض، لا حدود لعظمته، أيوازَنُ هذا الخالق العظيم مع قطعةٍ من حجرٍ نُحِتَت، أو مع شهوةٍ تأجّجت، أو مع عرضٍ من الدنيا قليل، أو مع إنسانٍ فقير لا يملك النفع لنفسه ولا الضُر ؟!

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

(أَنّى يُؤْفَكُونَ(75))

(سورة المائدة)

هكذا يقول الله عزّ وجل، لذلك:

(آللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ (59))

ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يؤكِّد في هذه الآية هذه المفارقة العجيبة، كيف أن هذا الإنسان ينصرف إلى مخلوقٍ مثله ؟ ينصرف إلى صنمٍ أصمٍ أبكم لا يتحرك، ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يُجيب، أو ينصرف إلى إنسانٍ ضعيف ضعفاً شديداً لا يملك شيئاً، ينصرف إليه بِكُلِّيَتِهِ، يعلِّق عليه الآمال، يتمنّى رضاه، يسعى للتقرب منه، من هنا يقول الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكَر سواي))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

من أجل أن يبين الله سبحانه وتعالى هذه المُفارقة الحادّة بين ما يدعونه من آلهةٍ من دون الله لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر، ولا ترفع ولا تخفض، وبين خالق السماوات والأرض، يقول الله عزّ وجل:

(أَمّنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

الله سبحانه وتعالى هو الخالق، هو الذي أوجد هذا الكون من عدم، كان الله ولم يكن معه شيء، هو خالق المكان، والزمان، والأكوان، خالق الليل والنهار، والشمس والقمر، خالق المجرات، والإنسان، وطبيعته، وفطرته، خالق طعام الإنسان وشرابه، خالق الأرض والجبال والسماوات.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

1 ـ الكون كلّه من خَلق الله:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني يعني الكون، أمَّنْ خلق هذا الكون، إذا كانت بعض المجرّات تبتعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، فما هذا الكون ؟ إذا كان أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ونحتاج كي نصل إليه إلى زمنٍ يقترب من خمسين مليون عام بالمركبة العادية، فما القول في هذه المجرات المترامية الأطراف البعيدة ؟

2 ـ لم يُخلَق الكون عبثًا:

هذا الكون كله مسخرٌ للإنسان، ماذا يريد الله منا إذاً ؟ سخر هذا الكون بلا سبب ؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من الآية 115)

هكذا.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

بلا حساب، بلا مسؤولية ؟

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ(17))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(38)مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة ص: من الآية 27)

الباطل الشيء الزائل، والعبث الشيء الذي لا هدف له، لم يخلق الله عزّ وجل السماوات والأرض عبثاً ولعباً، ولم يخلقها باطلاً، ولم يخلق الإنسان سدىً.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

3 ـ الكون مسحةٌ من ا لجمال الربّاني:

لمن هذا الكون العظيم ؟ الذي يلاحظه الإنسان أن كل شيءٍ في الكون في خدمة الإنسان، لو تصفّحت كتاباً في الأزهار لرأيت آلافاً مؤلفةً من أنواع الأزهار التي لا وظيفة لها إلا أن تُمْتِع عيني الإنسان، إذا تصفحت ما في الأرض من جمال تراه مسحة من جمال الله عزّ وجل، خلقه لتستمتع به، إذا درست نظام الزوجية، كيف خلق الله الإنسان، وخلق له من نفسه زوجةً يسكن إليها ؟ إذا تصفحت الصفات الأساسية للمرأة، الفيزيولوجية، النفسية، العقلية، الاجتماعية، لوجدتها متممة لصفات الرجل الفيزيولوجية، والنفسية، والعقلية، والاجتماعية، هذا التصميم الإلهي ما أبدعه.

نظام التوالد ما أبدعه ! كيف أن هذا الطفل الصغير أساسه حوينٌ منوي لقّح بويضةً، انقسمت البويضة إلى آلافٍ مؤلفة، وصلت إلى الرحم، تعلّقت بجداره، نَمَت، ما هي إلا تسعة أشهرٍ وعشر حتى يولد غلامٌ آيةٌ في الإبداع والإعجاز، له قلبٌ ورئتان، له عضلاتٌ وأعصاب، له معدةٌ وأمعاء، له دماغٌ ونخاعٌ شوكي، له أعضاء، له سمعٌ وبصر، له لسان وشفتان، يد مَن صنعته في بطن أمه ؟ الله سبحانه وتعالى.

هذا الفكر أيها الأخوة الذي أودعه الله فينا هو أعقد ما في الكون، وأثمن ما في الكون، فمن عطله، أو من استخدمه استخداماً لا يليق به، استخدم فكره للإيقاع بين الناس، أو للاحتيال عليهم، إنه بهذا يحتقر هذه الجوهرة الثمينة التي أودعها الله فينا.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (60))

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(35)أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الطور)

فإذا شَحَّتِ الأمطار ماذا بيدنا أن نفعل نحن جميعاً ؟ ليس بيدنا شيء، إلا أن يتفضل الله علينا بماء السماء، نحن عبادٌ ضعاف.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (60))

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء

نعمةُ الماءِ:

أريد أن ندقق في كلمة لكم، وأنزل لكم، هذا الماء الذي أنزله الله من السماء ليطهّرنا، للتنظيف، وليروينا للشرب، وليروي البهائم التي نعيش عليها، وليروي النبات الذي نقتات منه، كلمة لكم، أي هذا الماء المبارك الذي أنزله من السماء أنزله خصيصاً لكم، من أجلكم، من أجل حياتكم، من أجل أن تستقيم حياتُكم، من أجل أن تقوم حياتكم على الماء.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

أَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

1 ـ كيف لو لم يكن النبات ؟!!

تصوّرْ أن نظام النبات ليس موجوداً، كيف نعيش ؟ كيف نأكل ؟ لو أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض حينما خلقها كمّياتٍ كبيرة جداً من الطعام والشراب، وجاء جيلٌ فأكل هذا الطعام والشراب، ماذا يفعل الجيل اللاحق ؟ نظام البذور من أبدعه ؟ من صممه ؟ من خطط له ؟ هذه الثمرة في بطنها بذرة، وفي هذه البذرة كُلُّ صفات هذه الشجرة، شجرة تفاح، لها قوامٌ معين، ولها شكل معين، ولها أوراق معينة، ولها طبيعة معينة، تحتاج إلى مرتفعات، تحتاج إلى برد، تثمر فاكهةً ذات حجمٍ معين ولونٍ معين، وشكلٍ معين، ورائحةٍ معينة، وقوامٍ معين، ومواد تركيبية معينة، ومواد سكرية، كل هذه الصفات الفرعية كامنةٌ في هذه البذرة، وعلى هذا فَقِس ؛ بذرة التفاح، بذرة الأجاص، بذرة العنب، كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل جعل آلاف ملايين الصفات الثانوية كامنة في هذه البذرة.

2 ـ هكذا ينمو النبات:

من منا يصدق أن بعض البذور الغرام الواحد فيه أكثر من سبعين ألف بذرة ؟ البذرة فيها غلاف، وفيها مستودع للغذاء، وفيها رُشيم، الرشيم هو الجزء الحي من النبات، الرشيم نفسه فيه جذير، وسويق، وقمة نامية، فإذا جاءته الرطوبة نمت هذه القمة باتجاه الأعلى، ونما هذا الجذير باتجاه الأسفل، وعاش على هذا المخزون الغذائي، فإذا انتهى هذا المخزون الغذائي في البذرة صار بإمكان الجذير أن يأخذ مباشرةً

من التربة الماء والأملاح وما شاكل ذلك.

هذا النبات يقاوم البرد، لو أخذت هذه البذرة، وفتحتها أين تجد هذه المعلومة ؟ هذا النبات مديدُ الإثمار، يعطيك لستة أشهر، هذا النبات حبّته كبيرة، هذا النبات حبته صغيرة، هذا النبات حبّته قاسية، هذا النبات نسيجه كثيف، هذا النبات كروي الشكل، هذا التصميم المودع في البذرة من أودعه ؟ سؤال دقيق.. تستطيعون أن تفكروا في البذرة أياماً وشهوراً وسنوات ولا تنتهون، هذا النظام المعجز، ما من نباتٍ إلا وله بذور، وهذه البذور بعضها يعيش سنةً، أو سنتين، أو خمس سنوات، وبعضها يعيش أعواماً كثيرة بعض أنواع القمح استخرجت من الأهرامات وزُرِعَت فأنبتت، وقد مضى على تخزينها ستة آلاف عام.

الرشيم ؛ هو الكائن الحي، له محفظة غذاء، حبة الفاصولياء مثلاً ضعها في قطن مبلل وراقبها.. ينبت السويق، ينبت الجذير، بعد حين تمسك هذه الحبة فإذا هي فارغة، هذا المخزون الغذائي نما سويقاً، ونما جذيراً، هذا الجذر عبارة عن جذر وفروع صغيرة، وينتهي كل فرعٍ بكرةٍ صغيرةٍ اسمها القلنسوة، تشق طريقها في التراب، وقد تشق طريقها في الصخور، كيف يتم هذا ؟ لا أحد يدري، أفيها مادةٌ تذيب الصخر ؟ لا نعلم، وهذه القلنسوة تنتهي بأشعارٍ دقيقةٍ جداً، أشعار ماصة تمص الماء، تبحث عن الماء، فإذا زرعت النبات في الصحراء وكان الماء شحيحاً، غاص هذا الجذر إلى عمقٍ ثلاثةٍ وثلاثين متراً ونيفاً نحو الأسفل بحثاً عن الماء، والشجيرة صاحبة هذا الجذر لا يزيد ارتفاعها على متر، ما هذا ؟

الجذور لها أنواع منوّعة، هناك جذور ليفية، الأشجار التي نستخدمها للصناعة هذه لا بدّ من أن تقلع، إذاً جذورها ليفية، أما الأشجار المثمرة التي نستخدمها لغذائنا لها جذور من نوع آخر، بعض النباتات يزيد ارتفاعها على تسعين متراً، وفي جذعها أوعيةٌ تحمل دم النبات أو النسغ إلى الأعلى، وأوعيةٌ تأخذ هذا النسغ إلى الأسفل، هذا صنع مَن ؟ من صمم هذه الأوعية الدقيقة ؟

3 ـ حياة الشجرة بكل جزئياتها:

إنّ الأوعية الصاعدة تماماً كالأوردة والشرايين، وهي في داخل الشجرة، والأوعية الهابطة في لحائها، الأوعية الصاعدة لئلا تضيق فتحتها، زوّدها الله عزّ وجل بحلزونات مقوّية لها ليفية من أجل أن تبقى مفتوحة، والأوعية الهابطة زوّدها الله عزّ وجل بمصافٍ، هذا كله في حدود نصف ميليمتر، لو أخذت مقطعاً لشجرة لرأيت العجب العجاب، النسغ الصاعد، فكيف يصعد هذا النُسُغ ؟ الماء كيف يصعد نحو الأعلى ؟ على عكس مبدأ الجاذبية ؟ هذا صنع من ؟

الخاصة الشعرية، هذه كلمة، ولكن شجرة ارتفاعها تسعون مترا تمتص الماء من التربة، وهذا الماء

يصعد نحو الأعلى خلال أوعيةٍ محكمةٍ دقيقةٍ، مدعمةٍ بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها، صنع من ؟ صنع الله خالق الأكوان، هذا النسغ الصاعد يصعد، ويصعد حتى يصل إلى الأوراق، والأوراق كما قال عنها بعض العلماء، فيها معملٌ يأخذ بالألباب.

إن أعقد الصناعات التي صنعها الإنسان، إن أرقى المعامل التي صنعها الإنسان، تبدو أمام معمل الورقة شيئاً تافهاً جداً، نسقي التربة، فتنحل المعادن في التربة، فيأتي الجذر عن طريق القلنسوة، وعن طريق الأهداب الصغيرة تمتص هذا الماء مع المعادن، ولكن الشيء الذي لا يصدق أن الغشاء الرقيق الذي يحيط بالأهداب الشعرية المتفرعة عن هذه القلنسوة يقوم بعمليات لا يعقل أن تصدّق، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يفعل هذا.

هذا الغشاء يصطفي، هذه شجرة كرز، تحتاج إلى فسفور، إلى بوتاس، إلى معادن معيّنة، هذا الغشاء هو الذي يأخذ من التربة ما يحتاجه، من أجل أن تعطي هذه الثمرة طعم الكرز، هذه الثمرة تفاح، تأخذ كميات الحديد أكثر، هكذا قال بعض العلماء، وهذا الغشاء يتمتع بصفات مذهلة، هو الذي يصطفي، ولكن الله هو الذي يصطفي، فإذا كان عند الإنسان قائمة حاجات في بيته، أكثر من مائة حاجة، فوضع على الباب غشاء، أو ستاراً، هل هذا الستار بإمكانه أن يعرف ما أنت محتاجٌ إليه ؟ وبإمكانه أن يلتقط من الطريق ما أنت محتاجٌ إليه ؟ شيءٌ لا يصدق، فإذا تعمقت في فهم آلية الامتصاص يأخذك العجب العجاب، وتخر لله ساجداً.

جذير له فروع صغيرة، ينتهي بكرة هي القلنسوة، تنتهي بأشعار، لا ترى بالعين، هذه الأشعار لها غشاء، هذا الغشاء هو الذي يأخذ من التربة ما يعجبه وما هي بحاجةٍ إليه، هذه تفاح، وهذه أجاص، وهذا خوخ، وهذا جوز، وهذا توت، كل فاكهةٍ لها تركيبٌ خاص، لها طعمٌ خاص، لها لونٌ خاص، لها رائحةٌ خاصة، لها صبغياتٌ خاصة، لها مواد كيماوية خاصة، هذا الغشاء هو الذي يأخذ ؟!

4 ـ المعملُ الصامت:

لنَسِرْ مع هؤلاء إلى آخر الطريق، هذا الجذر يمتص الماء والمعادن من التربة، التي اختارها الغشاء على علمٍ لتلبّي حاجات النبات، يصعد هذا الماء من أطراف الجذور إلى أعلى قمة في الشجرة، إلى الأوراق، الورقة معمل يأتيها نسغٌ صاعد من الجذر، ماء ومعادن، تأخذ من الشمس طاقتها، وفي هذه الورقة مادة لا تزال تحيّر العلماء الكلورفيل، المادة الخضراء، تلتقط من الشمس بعض الطاقات، وتستعين بأملاح الحديد، وتصنع من هذا الماء، وفيه ثاني أكسيد الكربون الذي يدخل إلى الورقة من المسام، والحديد والأملاح، والكلوروفيل وسيط، تصنع النسغ النازل، فيصير هذا بطاطا، وهذا جزر،

وذاك تفاح، شيءٌ لا يصدق، معمل صامت، معمل يتجه نحو الشمس، يأخذ من الشمس الطاقة، ومن الهواء غاز الفحم، يتفاعل غاز الفحم مع الماء ومع المعادن، وينزل هذا النُسُغ محملاً بالسكر والنشاء، فإذا هو تفاحة أو أجاص، أو خوخ، أو توت، أو مشمش، أو سبانخ، شيء لا يصدق.

من الذي أعطى هذه الخضرة لونها، وشكلها وطعمها وقوامها وموادّها ؟ أإلهٌ مع الله.

يا أيها الأخوة الأكارم، ظاهرة النبات وحدها ظاهرةٌ كافية لمعرفة الله، بعض هذا البذور له أجنحة يطير عبر المحيطات من قارة إلى قارة، هذه الغابات العذراء التي خلقها الله عزّ وجل من زرعها ؟ لا أحد، لا أحد من بني البشر، ولكن بذور هذه الأشجار العملاقة مزودةٌ بأجنحة تحملها الرياح، وتأخذها من قارة إلى قارة، هذه المراعي من زرعها ؟ إن بعض الأعشاب الرعوية تزرع بطريقةٍ عجيبة، إن البذرة موجودةٌ في حلزونٍ، فإذا وقع هذا الحلزون على الأرض انغمس في التربة، فنزلت البذرة عبر هذا الحلزون إلى مسافةٍ تبعد بضع سنتيمترات عن سطع التربة، وبهذا تتم الزراعة ونحن لا ندري، النباتات العشبية والرعوية في المراعي، الغابات، هذه كلها تمت زراعتها بيد الواحد القهار ونحن لا ندري، أشياء كثيرة في النبات، لأن الله عزّ وجل يقول:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا (60))

5 - الله هو الذي أنبت كلّ شيءٍ:

أنبتنا، لمن عُزِيَ هذا الفعل ؟ إلى الله عزّ وجل، ماذا يفعل الإنسان ؟ يضع هذه البذرة تحت التربة ويسقيها وانتهي الأمر، هذا الرشيم من حَرّكَهُ ؟ من أودع فيه الحياة ؟ من جعل هذا الرشيم يتحرك نحو الأعلى نمواً ؟ من جعل خلاياه تنقسم وتزداد على حساب المستودع الغذائي، ومن أودع في هذا الرشيم كل صفات النبات، أإلهٌ مع الله ؟ لذلك ربنا سبحانه وتعالى عزا هذا الإنبات إلى ذاته، قال:

(فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

إذا عَطِش النبات، الشجرة تستهلك ماء الأوراق أولاً، الأوراق تذبُل، ذبول أوراق الشجرة لفت نظرٍ إلى صاحبها أن اسقني، أنا عطشى، فإذا لم يستجب لها تستهلك هذه الشجرة ماء الأغصان، فإذا لم يستجب لها صاحبها تستهلك ماء الفروع، فإذا لم يستجب لها صاحبها تستهلك ماء الجذع، وآخر ماءٍ تستهلكه ماء الجذر حفاظاً على الأمل الكبير، لو أن هذا الفلاح غاب عن هذه الشجرة شهراً بأكمله، وسقاها تنبت من جديد، لو أن الشجرة تستهلك ماء الجذر لماتت بعد يومين من عطشها، من صمم هذا التصميم ؟ الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض.

6 ـ النبات قوام غذائنا وحياتنا:

هذا النبات الذي خلقه الله لنا، منه نأكل الأقوات، القمح والشعير والذرة والعدس والحمص هذه المحاصيل، وفي الخضراوات كلكم يعرفها، وفي الأشجار المثمرة، إذاً: هي قوام غذائنا، وهو قوام غذاء الحيوان، إذاً نحن بحاجةٍ ماسةٍ إلى النبات، مباشرةً، أو عن طريق نمو الحيوان بأكلها، ثم نتغذّى نحن عليه، أليس في هذا تيسيراً لنا، وإكراماً لنا ؟ لو أنك زرعت هذا الحقل كله من أجل أن ينبت كلأً تأكل منه البهائم، وحصدته، وانتهى الأمر لشعرت بمشقة، لا تحصده فينبت مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة وسادسة في موسمٍ واحد، أليس هناك حكمةٌ بالغة ؟ أليست أفعال الله سبحانه وتعالى لها غاياتٌ كبيرة ؟

هناك نباتٌ يكسو أجسادنا، القطن، والكتان، هناك نباتٌ يغذينا، هناك نباتٌ نتفكَّهُ به الفواكه، هناك نباتٌ يحسِّن طعم الطعام التوابل.

7 ـ هل فكرتَ في الخشب ؟!

هناك نباتٌ نستخدمه لأثاثنا وهو الخشب، والخشب أنواع منوّعة، هل فكّرت في هذا الخشب ؟ هذا الخشب نوعه يقاوم الرياح والرطوبة والماء، يصنع للنوافذ، أي خشبٍ آخر لا يصلح، من صمم هذا الخشب ليقاوم الماء والبرد والحر ؟ كل النوافذ التي تصنع من الخشب من هذا النوع الخاص، هذا الخشب يستعمل للأثاث داخل البيوت، أعطاه الله قوةً وصلابة، وقسوةً ومتانة.

هذا النبات يستخدم مثلاً قواعد للمطارق، حدثني أخ خبير يعمل في النسيج، قال لي: معمل نسيج جاء بعشر آلات حديثة جداً، الخيط ينقطع، فجاءوا بخبير به فنزع القاعدة الإسمنتية، ووضع قاعدة من خشب التوت، خشب التوت أليافه مرنة ومتينة، فحينما يضرب المكوك بآخر الآلة لا ينقطع الخيط، من خلق هذا النوع من الخشب خصيصاً لامتصاص الصدمات، خشب التوت يوضع تحت السنديان، فهذه الطرقات القوية يمتصها ويبقى محافظاً على مرونته.

خشب للصدمات، خشب للأثاث، خشب للنوافذ، خشب له رائحة طيبة، خشب له منظر جميل جداً ألوانه فاتحة، خشب يستعمل للصناعات الخفيفة، طري، استعماله سهل، حدثني أحد الأخوة الأكارم أن هناك ما يزيد على مائة نوع من الأخشاب الصناعية، يقول لك: هذا حور، وهذا جوز، وهذا خشب زان، وهذا خشب سنديان، هل فكرنا في هذه النعم ؟

إذا أردت أن تتنظّف هناك ليفٍ من نبات، إذا أردت أن تنظف أسنانك هناك السواك، إذا أردت أن تخلل ما بين أسنانك هناك نبات الخُلّة، إذا أردت أواني تستعملها فهناك نبات يصلح لصنعها، إذا أردت سبحة

تسبح الله عزّ وجل فهناك نبات له حبات كحبات المسبحة تماماً، إذا أردت أن تقيم بينك وبين جارك حدوداً مانعةً تمنع دخول الأشخاص الغُرباء هناك نباتات حدودية، إذا أردت الدواء، هناك نباتات للدواء، إذا أردت الروائح الطيبة هناك نباتات للروائح الطيبة، إذا أردت الأصبغة هناك نباتات للأصبغة، هذا كله من النبات، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (60))

انظر إلى الورود هل في الأرض شيءٌ أجمل منها ؟ ألوانها المتناسبة، روائحها الشذيّة، طباعها الطيّبة، هذا الورد يعيش كذا شهر، هذا كذا سنة، له بطون، له فسائل، له أغراس، كلها متعة بينما القمح غذاءٌ رئيسيٌ لنا، وساقه غذاءٌ رئيسيٌ للحيوان.

(مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(33))

(سورة النازعات)

8 ـ وهل أتاك نبأ القمح:

هذه حكمة الله عزّ وجل، الشيء الذي يلفت النظر، لو أخذنا قطر ساق القمح إلى طول الساق خمسمائة ضعف، هل بإمكان الإنسان أن يبني بناءً ارتفاعه خمسمائة ضعفٍ عن قاعدته ؟ أعلى ناطحة سحاب في العالم، نسبة ارتفاعها إلى قاعدتها أحد عشر ضعفاً، أما خمسمائة ضعف فلا ؟

هل يمكن أن ننشئ بناء مربعاً ضلعه عشرة أمتار، وارتفاعه خمسة كيلو متر ؟ مستحيل، هكذا القمح، مساحة قطر الساق إلى طوله خمسمائة ضعف تقريباً، هذا خلق الله سبحانه وتعالى.

9 ـ ثم ماذا عن الفاكهة ؟!!

شيء آخر الفواكه تنضج وفق برنامج زمني دقيق جداً، الفاكهة الفلانية أول ما تثمر، بعدها فاكهة أخرى، وبعدها غيرها، خلال الصيف، هذا البستاني يتفرّغ كُلّياً لجني محصول واحد، انتهى، ثم يتحول لجني المحصول الثاني، لو أن هذه الثمار كلها نضجت في وقت واحد ما العمل ؟ شيءٌ صعبٌ جداً، الآن الفاكهة الواحدة تنضج تباعاً، تباعاً، تباعاً، فحقل البطيخ ينتج البطيخ خلال تسعين يوما، خلال ثلاثة أشهر كل يوم ينضج قسم من هذا الحقل، وكيف ينضج ؟ له علامة، إلى جانب ثمرة البطيخ تجد حلزوناً، إذا كان يابساً فالبطيخة ناضجة، إذا كان أخضر لم تنضج بعد، من صمم هذا التصميم، قال:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(16))

(سورة النحل)

علامات، لكل فاكهةٍ علامة نضج لها خاصةٌ بها، الفاكهة الواحدة أنواع متعددة، التفاح عشرات الأنواع، العنب ثلاثمائة نوع، القمح ثلاثة آلاف نوع تقريباً، كل قمح له شكل، وله قوام، وله قساوة، وله مكوّنات، وله طباع، وله طريقة في النمو، هذا من فضل الله عزّ وجل:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا (60))

انتبه أيها المخلوق الضعيف: مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا

أي أنتم يستحيل عليكم أن تنبتوا هذه الشجرة، يستحيل عليكم.

أيها الأخ الكريم، إذا جلست إلى المائدة، وأمسكت بالبرتقالة، وأكلتها، هل تذكر نعمة الله عليك ؟ من جعل لها هذه القشرة، وهذه المادة الكحولية المطهرة، وهذه الحزوز، وهذا الغشاء الرقيق، وهذه الحبّات الصغيرة الحبيبات الداخلية، الحبة فيها غشاء أيضاً، وكل حبة لها خيط موصولة إلى هذه البرتقالة، وهذا البرتقال للعصير، وهذا لونه أحمر، هذا سكري، هذا حامض، هذا أبو صرة، هذا رجعي، هذا باكوري، فكم نوع من البرتقال موجود ؟ كلها من طباع النباتات، وأنواع الليمون، أنواع الحمضيات الأخرى، هذه الأشجار، الشجرة وحدها أعظم آيات الله عزّ وجل.

ومِن الشجر ما توقدون منه النار:

أشجار غابات، للمنظر، أشجار عطرية، أشجار كالمظلات تزرع أمام البيوت، دائمة الخضرة، كشكل المظلة تماماً، أشجارٌ من أجل المطاط، ولا يزال المطاط الطبيعي أرقى أنواع المواد المرنة، أشجار للفلين، مواد عازلة، والأغرب من هذا أن هذا البترول الذي نستخدمه كل يوم وفي كل مناحي حياتنا إنما هو من النبات، إن هناك عصوراً مطيرةً جداً سببت في إنبات أشجارٍ عملاقة، هذه الأشجار العملاقة انطمرت تحت التربة فتكوّنت هذه الحقول البترولية، والدليل قول الله عزّ وجل:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

قال: من الشجر الأخضر، فهذا الذي يجري في الكلوروفيل في الورقة، صناعة من أعقد أنواع الصناعة، هذه الورقة تصنع مواد الجذر، ومواد الساق، ومواد الأغصان، ومواد الثمار، فكل هذه الشجرة في حقيقتها بسبب هذه الورقة الخضراء التي هي معملٌ لها.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

شيءٌ آخر متعلقٌ بالنبات.. الله سبحانه وتعالى قال:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

لا بدّ من التفكّر:

إذا جلست إلى الطعام، ونظرت إلى هذا الذي تأكله، يجب أن تفكر فيه، التفكر في هذا الطعام فريضةٌ إسلامية، بل إن التفكر من أرقى أنواع العبادات، لا تكن هكذا، النبي عليه الصلاة والسلام دخل مرةً بيت الخلاء، فلما خرج قال:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته))

[ابن السني عن ابن عمر بسند فيه ضعف]

الطعام، لم يأخذ السيروم.

((وأبقى في قوته وأذهب عني أذاه))

[ابن السني عن ابن عمر بسند فيه ضعف]

هناك لذة، وقوة، وأذى، الأذى أذهبه الله عنك، والقوة متعك الله بها، واللذة متعك الله بها.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25))

(سورة عبس)

فكلما تعرفت إلى هذا الخالق العظيم أحببته، وكلما أحببته أطعته، وإذا أطعته سعدت بقربه.

الآن نحن درسنا في التفكر، الشجرة حيثما نظرت، شجرة سرو دائمة الخضرة، هذا حور للأخشاب، هذا زان للأثاث، هذا خشب للنوافذ، هذه شجرة توت، لها طباع، تعطيك ثمارها على مدار الصيف، لأن التوت لا يُخَزّن، أما الذي يخزن فينضج في يومٍ واحد، لو كان هذا الذي يخزن ينضج كالتوت تباعاً القضية مستحيلة، كالقمح مثلاً، هل تمسك سنبلة سنبلة لتراها هل نضجت ؟ شيء مستحيل، المحاصيل في وقت واحد، الفواكه والثمار بالتدرج، تدخل إلى حقل الطماطم تجد بالمائة عشرة حمراء اللون والباقي أخضر، تقطف هذه الكمية، بعد أسبوع بالمائة عشرة، وهكذا خلال ستة أشهر، لو أن هذه الحبّات تنضج في يومٍ واحد، ماذا نفعل بها ؟

قال لي بعض الأخوة الأكارم، هناك نبات إذا أصابه البرد تتطامن أوراقه حتى تغلق على الزهرة حفاظاً عليها من الصقيع، من علم هذا النبات ؟ هناك نبات آخر يعيش على أكل الحيوانات، إذا مشى فوقه حيوان انكفأ عليه والتقمه، هناك نباتات عملاقة، فهذه أشجار الكافور ارتفاعها تسعون متراً، تسعون ضعفاً عن طول الإنسان، أشجار النخيل تعمِّر ستة آلاف عام، من عهد الفراعنة هناك نخيل عمرها ستة آلاف عام، أشجار الزيتون تعمر ألوف الأعوام، ألفي عام تقريباً، هناك أشجار زيتون من

عهد سيدنا عمر هنا في الشام، هناك أشجار عمرها قصير.

ادرس عمر النبات، حاجته للماء، هذا نبات بعلي، هذا نبات سقي، الزيتون يعطي الزيت، زيت من أرقى أنواع الدهون، هذا يعطي المشمش، هذا يعطي التفاح، فهذه النباتات مجالٌ واسعٌ للتفكر.

إن النبات لا يحب إلاّ الرفعة والعزة:

شيءٌ أخير في موضوع النبات، أنك إذا زرعت شجرةً على سفح جبلٍ مائل، إنها لا تنبت متعامدةً مع سطح الأرض المائلة، لا، إنها تنبت نحو السماء مستقيمةً، كيف تنبت النباتات بهذه الطريقة ؟ شيء لا يصدق، في بعض الأوعية داخل الشجرة حبيباتٌ صغيرة لا تستقر إلا إذا كانت الشجرة على وضعٍ صحيح، أرضٌ مائلة، زرعت فيها شجرة تنبت مستقيمة، لا تنبت مائلة، هذا له تفصيلات كبيرة جداً، كيف أن هذا النبات يتّجِهُ نحو الضوء ؟ لو جئت بأصيص فيه نبات وجعلته أفقياً، النبات يخرج نحو الأعلى، نحو الضوء، والجذر يتجه نحو باطن التربة، من علّمَهُ هذا ؟ الله سبحانه وتعالى، فهناك تجارب دقيقة جداً.

الشجر يسهم في نزول الأمطار:

شيء آخر، هذه الشجرة التي تزرعها هل تصدِّق أنها تعطي ما يزيد على أكبر صهريج ماء في الصيف الواحد، هذا الماء الذي تعطيه الشجرة يسهم في نزول الأمطار، ويسهم في ترطيب الجو، لو ذهبت إلى الغوطة الشرقية، واستعملت ميزان الرطوبة، لوجدت الرطوبة سبعين أو ثمانين بالمائة، في دمشق ثلاثين، الصحارى خمسة، إذاً: هذا الشجر يعطي الماء، يأخذ منك غاز الفحم ذلك الغاز السام، ويعطيك مكانه الأكسجين، لذلك النوم تحت الأشجار في النهار مُنَشِّط، هذه الأشجار تعطي الأكسجين دائماً، فهي تأخذ الذي لست بحاجةٍ إليه، ما هذا التوازن ؟ الإنسان يأخذ الأكسجين ويعطي غاز الفحم، تأتي الأشجار في النهار تأخذ غاز الفحم وتعطي الأكسجين ؟ تصميم من ؟ إبداع من ؟ صنع من؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء.

هي آياتٌ للمتفكِّرين:

فيا أيها الأخ الكريم... هذا الفكر الذي أودعه الله فيك لتفكر في آيات مذهلة لا تمر بها مروراً سريعاً دون تدبّر، وأنت معرض، وأنت غافل، دقق، إذا عرفت أن هناك يداً عظيمة، يداً حكيمة خلقت فأبدعت، وصوّرت فأحسنت، وأمدّت فأكرمت، وسيّرت فحققت، عندئذٍ تستقيم على أمر الله عزّ وجل..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 28)

فكر فيما تأكل، فليكن درسنا في هذا الأسبوع الشجرة، كلما وقعت عينك على شجرة، هذه لماذا خلقت ؟ من أجل خشبها، هذه من أجل أوراقها، هذه من أجل ثمارها، هذه من أجل ظِلِّها، هذه من أجل نتاجها الطبي، هذه من أجل فاكهتها، وهكذا، وانظر إلى طباع النبات، هذا يحتاج إلى ماء كثير، هذا يحتاج إلى حرارة، هذا إلى برودة، لكن القمح الذي يعد قوتاً أساسياً للإنسان ينبت في كل مكان، وفي كل جو، ينبت في الأغوار، وفي السهول، وفي سفوح الجبال، في المناطق المعتدلة والباردة والقطبية، لأنه غذاءٌ أساسي، أما الغذاء غير الأساسي فينبت في قارة معيّنة، الشاي في مكان، الحمضيات في مكان، وهكذا، فإذا فكرت في هذا الذي تأكله، أو هذا الذي تقع عينك عليه وصلت إلى الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[من سنن أبي داود عن قتادة]

هو خيرٌ ينفعنا ضوءه، ويرشدنا إلى ربنا سبحانه وتعالى:

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (11-18): تفسيرالأية 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-02-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النمل.

القرار لها معانٍ عِدّة من معانيها هناك معنىً مادي وهناك معنىً معنوي:

وقفنا في الدرس الماضي عند قوله تعالى:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

(سورة النمل)

الآية الثانية دقيقة جداً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

القرار لها معانٍ عِدّة، من معانيها أنّها مستقرّة بالمعنى المادي، ومن معانيها أيضاً أنها مكانٌ يستقرُ فيه الإنسان، هناك معنىً مادي ومعنىً معنوي، مكانٌ لاستقراره، مكانٌ لسُكْناه، وهذه الأرض في الأصل مستقرّة، فربنا سبحانه وتعالى يسألنا:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

كأنّ هذا الكون الذي سخّره الله لنا، سخّره تسخير تعريف، وكأن الإنسان مُطالَبٌ بل واجبٌ عليه أن يُعْمِلَ فكره في هذا الكون حتّى يتعرّف إلى الله عزّ وجل، لأن العلم أصل كل حركة، أيّةُ حركةٍ تنطلق إليها لا بدّ من أن يسبقها العِلم، حتى تحرُكك في طريق الإيمان يجب أن يسبقه العلم، فحينما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم هذه الآيات الدالّة على عظمته، إنما يذكرها كي يلفت النظر إليها، وكي نُعْمِلَ عقولنا وأفكارنا في التأمُّل فيها:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذا الإله العظيم خلق الأرض بطريقةٍ يرتاح الإنسان فيها:

هذه الأرض لو أنها ذات تضاريس حادّة، نتوءات، وربنا سبحانه وتعالى خلق في بعض المناطق من الأرض أماكن بركانيّة تستحيل الحياة عليها، تضاريس حادّة، صارخة، ناتئة، مُدَبَّبة، صُلْبَة، من جعلها مستوية ؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

جعلها مستوية ولم يجعلها مسنّنة، ولم يجعلها مدبّبة، ولم يجعلها حادّة، هذا الإله العظيم الذي خلقها بطريقةٍ يرتاح الإنسان فيها، ألا نشكره ؟ ألا نعرفه ؟ ألا نذكره ؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذا المعنى الأول، المعنى الآخر: من جعلها أفقيّة الشكل ولم يجعلها مائلة ؟ لو أن الأرض مائلة لانجرفت تربتها بالأمطار، لو أن الأرض مائلة لاستحالت زراعتها، جعلها مستوية وجعلها أفقيّة في وقتٍ واحد، وهذا من معاني:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها بين الصلابة والليونة ؟ لو أنها صخرٌ بازلتيٌّ قاسٍ كيف نزرعها ؟ كيف نستفيد منها ؟ كيف نحفر الآبار ؟ كيف نحفر الأساسات ؟ كيف نبني البيوت ؟ لم يجعلها صخريّة قاسية صُلبة صلدَةً، ولم يجعلها مائعة سَيّالة يغوص فيها كل شيء.

للأرض اثنتا عشرة دورة ومع ذلك هي مستقرّة وساكنة سكوناً مطلقاً:

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

لم يجعلها مسنّنة ولا حادّة التضاريس، ولم يجعلها مائلة بل جعلها أفقيّة، جعلها مستوية وجعلها أفقيّة، وفوق هذا وذاك جعلها بين الليونة والصلابة، وجعل فيها معايش ؛ يمكن أن تبني عليها الأبنية، يمكن أن تحفر الآبار، يمكن أن تأخذ التربة، يمكن أن تحرث التربة:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

الله سبحانه وتعالى ـ شيءٌ آخر ـ هذا السكون العجيب، الأرض تدور حول نفسها، سرعة دورانها حول نفسها في خطِ الاستواء ما يزيد عن مائتي كيلو في الساعة، لأن الأربعين ألف كيلو متر تُقسّم على أربع وعشرين ساعة فتقريباً الرقم كبير جداً، هذا الدوران حول نفسها، ودورانها حول الشمس في كل ثانية ثلاثون كيلو متراً، إذاً هي تدور حول ذاتها وتدور حول الشمس، ومحورها المائل يدور دورةً أيضاً، ومستوي دورانها يدور دورةً أيضاً، وميلان محورها تأرجح بين الدرجة الثالثة والثلاثين والسابعة والعشرين، المحور يتأرجح، والمحور يدور، ومستوي الدوران حول الشمس يدور، وحركتها مع القمر هناك حركة جَيْبِيّة، تدور حول نفسها وحول الشمس ولها اثنتا عشرة دورة، قد لا يصلح هذا المكان

لتفصيل هذه الدورات، لها اثنتا عشرة دورة غير دورتها حول نفسها وحول الشمس ومع ذلك هي مستقرّة، سكون مطلق.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

السكون والاستقرار نِعَمٌ يجب أن يعرفها الإنسان:

أيستطيع الإنسان أن يصنع مركبة متحركة من دون اهتزاز ؟ اركب الطائرة، مع أن الطائرة فيها أعلى ما عند الإنسان من خبرات، ومع ذلك لا بدّ من بعض الاهتزاز، اركب سيّارة لا بدّ من بعض الاهتزاز، اركب مركبة فضائيّة لا بدّ من بعض الاهتزاز، أما هذه الأرض لو أن اهتزازاً طفيفاً جداً حصل لتداعت الأبنية، أو تشقّقت الجدران، وكأن الله سبحانه وتعالى جعل الزلازل في بعض الأماكن ليلفِتَ النظر إلى أن نعمة السكون ونعمة الاستقرار هذه نعمةٌ يجب أن تعرفها أيُّها الإنسان، اضطرابٌ بسيط في قشرة الأرض يصبح عالي الأرض سافلها، تتداعى الأبنية، تنهار الجسور، وكل شيءٍ يقع، فلذلك عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها ساكنة مع أنها تمرُّ مرّ السحاب ؟

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

دورةٌ حول نفسها، دورةٌ حول الشمس، تأرجحٌ في محورها، دورةٌ لمحورها، دورةٌ لمستوي دورانها، هذا كلّه والأرض مستقرّة، هذا البناء أُنْشِئَ قبل أربعمائة عام وهو كما هو، لو أن هناك اهتزازاً لم تكن مستقرّة، من جعلها مستقرّة ؟

في دورانها حول الشمس تزداد سرعتها وتنقُص، تزداد حينما تصل إلى البُعد الأصغر بينها وبين الشمس لئلا تزيد جاذبيّة الشمس لها، تزيد من سرعتها حتّى ينشأ من هذه السرعة قوّةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، من جعل هذه السرعة تزيد ؟ من جعلها تنقص ؟ من جعلها تزيد تدريجياً بلطفٍ شديد ؟ من جعل هذه الأرض على مسارها الصحيح منذ آلاف آلافِ آلاف آلاف الأعوام ؟

من نعم الله تعالى علينا أنه جعل الأرض تلزم خطاً دقيقاً لا تحيد عنه:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

القطار أحياناً يخرج عن خطِ سيره، فيحتاج إلى رافعات كي تعيده إلى خطِ سيره إلى هذه القضبان الحديديّة، الأرض لم تخرج ولا مرّة عن مسارها حول الشمس، بل إنّنا جميعاً حينما نُمْسِكُ بالتقويم، نعلم أن الشمس تشرق في يوم الجمعة السادس عشر من شباط في الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة، هذه متى طُبِعَت ؟ طُبِعَت من أول العام، وهذه الأرقام معروفة قبل عشرات السنين وقبل مئات السنين، ما معنى ذلك ؟ أن حركة الأرض في دورتها حول نفسها وحول الشمس محسوبة بأجزاء الدقيقة، إذاً من جعل هذه الأرض تلزم خطّاً دقيقاً لا تحيد عنه ؟

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

من هي القوة الكبيرة التي تحافظ على سير الأرض على هذا المسار ؟

(أإِلَهٌ مَعَ اللّهِ (61))

أمن جعلها مستقرّة في هذا المسار، من جعلها مستوية أفقيّة تربتها زراعيّة ؟ من جعلها ساكنة ودليل سكونها الزلازل في بعض الأماكن، هذا البناء الذي كَلّفَ عشرات الملايين بل مئات الملايين يُهْدَم في ثوانٍ عدّة إذا اضطربت الأرض.

الجبال الرواسي من وظائفها الأساسيّة أنها تبقي الأرض في حالة سكونٍ أثناء حركتها:

يشتري بيتاً في الطابق العاشر وهو مطمئن، ولو أن هذه القشرة الأرضيّة اهتزّت لأصبح هذا البيت في باطن الأرض، حينما تسكن في بيت مرتفع نعمة الأمن هذه من أين أتت ؟ من أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض مستقرّة، لو لم تكن مستقرّة لا يمكن أن تبني بيتاً فوق بيت، وكيف جعلها مستقرّة ؟

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

وقال:

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

هذه الجبال الرواسي من وظائفها الأساسيّة أنها تبقي الأرض في حالة سكونٍ في أثناء حركتها، حركةٌ ساكنة هذا أرقى شيء، الإنسان لم يتوصّل بعد إلى تحريك شيء مع السكون التام، مع الحركة يوجد اهتزاز.

معنى الاستواء والأفقيّة والليونة والسكون هذا كلّه مأخوذٌ من الآية التالية:

معنى الاستواء، ومعنى الأفقيّة، ومعنى الليونة، ومعنى السكون هذا كلّه مأخوذٌ من قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شيءٌ آخر: هذه الحاجات نضعُها على الطاولة فتبقى في محلِها بفعل الجاذبية، لو أنّك ركبت مركبةً فضائيّة واجتزت المنطقة التي تنتهي فيها جاذبية الأرض، واقتربت من منطقةٍ تنعدم فيها الجاذبيّة، لعرفت هذه النعمة الكبيرة، رواد الفضاء حينما وصلوا إلى القمر الجاذبيّة هناك أقل بستة أمثال، فالرجل الذي وزنه على سطح الأرض ستون كيلو غراماً في القمر وزنه عشرة كيلو، فالحركة تبدو سهلة جداً، أي جهدٍ تبذله تقفز من على سطح القمر عشرات الأمتار، من جعل هذه الجاذبيّة بهذا الميزان الدقيق ؟ لو أننا على سطح كوكبٍ آخر يزيد حجمه عن حجم الأرض بمرّاتٍ عديدة، لكان وزن الإنسان يزيد عن آلاف الكيلو غرامات، شيءٌ لا يطاق أن يكون وزن الإنسان ألف كيلو غرام، ولا يطاق أيضاً أن يكون وزنه عشرة كيلو، ولكن حجم الأرض يقرّر نوع الجاذبيّة.

الأرض تجذب الأشياء نحو مركزها:

روّاد الفضاء وهم في مركبتهم، في منطقة انعدام الجاذبية حياتهم في المركبة لا تُطاق، إذا أمسك بالقلم طار منه القلم إلى سقف المركبة، الأشياء تتحرّك وحدها من دون سبب، ليس لها وزن، فحياة الإنسان بلا وزن لا تطاق لا تحتمل، تضع قطع الأثاث في هذه الغرفة وتأتي بعد ساعة تجد أنها صارت في مكانٍ آخر مبعثرة لأنه ليس لها وزن، نسمة ريح تنقلها من غرفةٍ إلى غرفة.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعل هذه الأشياء تستقرُ عليها ؟ من جعل هذه الحاجات تنجذب إليها ؟

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (61))

شيءٌ آخر: هذا البحر المسجور من ربطه في الأرض ؟ ألا تعرف أن الأرض كرة ؟ ألا تعرف أن البحر في جنوبها مُلتصقٌ بها ؟ من جذبه إليها ؟

شيءٌ آخر: هذا الهواء المُحيط بالأرض مرتبط بها، لو أن الهواء مستقلٌ عن الأرض، والأرض تدور بسرعة ألف وستمائة كيلو في الساعة والهواء ثابت، لنشأت أعاصير سرعتها ألف وستمائة كيلو في الساعة، البارحة كانت السرعة تسعين فحصلت أضرار شديدة، في أوروبا قبل أسابيع هَبّت عاصفة سرعتها مائة وثمانين كيلو متر، اقتلعت المزارع كلّها، اقتلعت الأبنية، فكيف إذا كانت الرياح تزيد عن ألفٍ وستمائة كيلو متر في الساعة ؟

إذاً هذا الهواء ربطه الله بالأرض، هذا الماء مرتبط بالأرض، هذه الجبال راسيات، هذه الحاجات ثابتة، أنت إذا ركبت مركبتك وانطلقت بها في طريق هابطة، تشعر أنها تنطلق وحدها من دون محرّك، أية قوّةٍ هذه ؟ إنّها قوة الجاذبيّة، الأرض تجذبها نحو مركزها:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

تنظيم الكون بقدرة الله عز وجل بطريقة التجاذب:

الله سبحانه وتعالى يقول كلمةً واحدة، ولكن ينطوي في هذه الكلمة معانٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شيءٌ آخر: جعل الله سبحانه وتعالى الكون منظماً بطريقة التجاذب، هذا شيءٌ دقيقٌ جداً، أضرب مثلاً: أنت أحياناً بإمكانك أن تضع قطعتين من الصُلبِ والحديد على الطاولة، وقد تأتي بكرة، يجب أن تضعها في مكانٍ دقيقٍ جداً حتّى تبقى مستقرّةً لا تنجذب إلى هذه الكتلة ولا تنجذب إلى هذه الكتلة، وأعتقد أن هذه الكرة لو انحرفت عشر الميليمتر إلى أحد الطرفين لانجذبت إلى إحدى الكتلتين، أما أن تبقى هذه الكرة مستقرّةً في هذا المكان هذا يعني أن هناك حسابات دقيقة جداً بمعشار الميليمتر حتّى بقيت، هذا إذا كانت هاتان الكتلتان بحجمٍ واحد فلا بدّ من حسابٍ دقيقٍ في المسافات، فإذا اختلفت أحجام هذه الكتل يجب أن تضع هذه الكرة لا بالوسط بل في مكانٍ يتناسب مع حجم كل كتلة، هذا يحتاج إلى حسابات دقيقة جداً من أجل أن تستقرّ هذه الكرة بين كتلتين مغناطيسيّتين متباعدتين مختلفتين في الحجم، فإذا كان هناك كتل عديدة ومختلفة في الحجم، هناك حسابات معقّدة جداً، فإذا كانت هذه الكتل في الفراغ، واحدة هنا وأخرى هناك وهي متفاوتة في الحجم، وعليك أن تضع هذه الكرة الواحدة في مكانٍ تستقرُ فيه، لا تنجذب لا إلى هذه ولا إلى تلك، فهذا شيء مستحيل.

انجذاب و جذب كل كتلةٍ في الكون بحسب كتلتها وبحسب المسافة:

أما الكون فهو أعقد من ذلك، كل كتلةٍ في الكون تجذب وتنجذب بحسب كتلتها وبحسب المسافة، وهذه الكتل متحرّكة والكون مستقر، الأرض مستقرّة، انجذابها إلى الشمس بمقدار، انجذاب القمر إليها بمقدار، انجذابها إلى أية كتلةٍ أخرى بمقدار:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعل هذه الأرض وهي في الفضاء وحولها نجوم، وحولها كواكب، وحولها مجرّات، مجرّات كبيرة وصغيرة، مسافات بعيدة وقريبة، كلها متحرّكة في مساراتٍ دقيقة لا تحيد عن مساراتها ولا قيد

أنملة ؟ من منكم يصدِّق أن أعظم ساعة في العالم، ساعة بيج بن، تُضْبَط على مرور نجم، هذه الساعة التي نضبط عليها ساعاتنا، نعرف أنها تقدّمت عُشر الثانية، لأن هناك نجماً إذا رُصِدَ لا يتأخّر في حركته ولا يتقدّم ولا واحد من ألف بالثانية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها مستقرّة هكذا ؟ مستقرّة في حركتها، مستقرّة في انجذابها، لو أنها اقتربت من الشمس لانجذبت إليها، تزداد سرعتها حتّى لا تنجذب إليها، هذه السرعة تزداد بشكلٍ تدريجي، من جعلها على مسارها ؟ من جعلها سابحة في الفضاء ؟ لولا حركات النجوم لأصبح الكون كلّه كتلةً واحدة، ينجذب بعضه إلى بعض ؛ الصُغرى نحو الكُبرى، خلال مدّةٍ وجيزة يصبح الكون كله كتلة واحدة.

ما الذي يجعل هذا الكون بهذه الكيانات المتفرّقة، هذه درب التبّانة مجرّتنا، وهذه أرض، وهذا قمر، وهذا المريخ، وهذا المُشتري، وهذا بلوتو، وهذه المرأة المسلسلة، وهذا برج العقرب، وهذا برج الجوزاء، متحرّك، من هذه الحركة تنشأ قوى نبذ، وقوى الجذب متكافئة مع قوى النبذ، إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

لا تنفي العمد، هناك عمد لا ترونها، قوى التجاذب.

الشمس بطاقتها ونورها وحرارتها داخلة في قوله تعالى أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا:

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

من جعلها مستقرّة هكذا ؟ هذه كلّها المعاني الماديّة، الأرض مستوية، والأرض أفقيّة، والأرض ذات تربة ليّنة، والأرض ساكنة، والأرض تبقى على مسارها من دون أن تنجذب، والأرض فيها جاذبيّة تشدُّ الأشياء إليه، هذه كلّها معاني ماديّة لكلمة (قرار):

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

لكن هناك معانٍ أخرى، الإنسان كيف يستقرُّ عليها ؟ لولا الشمس لما استقرّ الإنسان في الأرض، الشمس مصدر الطاقة، مصدر النور، مصدر الحرارة، مصدر التعقيم، لولا الشمس لما استقرّ الإنسان على الأرض، فهذه الشمس:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

لو أنها أقرب إلى الأرض لاحترق ما على الأرض، لو أنها أبعد لتجمد ما على الأرض، إذاً الشمس بطاقتها ونورها وحرارتها وتعقيمها بقدر، إذاً الشمس داخلةٌ في هذه الآية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

هذه الأرض وهذه الشمس، لو أن الأرض لا تدور حول نفسها، لكان أحد وجوه الأرض مقابلاً للشمس، والوجه الآخر مخالفاً لأشعّة الشمس، على وجهٍ ترتفع الحرارة إلى ثلاثمئة وخمسين درجة، الإنسان هل يستقرٌ في الأرض ؟ لا يستقر، وفي الوجه الآخر تهبط الحرارة إلى مئتين وخمسين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة، لو أن الأرض لا تدور، وإذا كانت هذه الأرض لا تدور ليس هناك ليل ولا نهار، ليس هناك زمن، ليس هناك أسبوع، ولا شهر، ولا سنة، ولا عام، لو أنها دارت هكذا على محورٍ موازٍ لمستوي دورانها حول الشمس كأنّها واقفة، إذا دارت هكذا الشمس تغطِّي نصف الكرة المقابل لها ونصف الكرة الآخر بعيدٌ عن الشمس، أيضاً الإنسان لا يستقرٌ على الأرض.

الأرض وحجمها والشمس والهواء والماء والنبات هذا كلّه نجده في الآية التالية:

الآن محور دوران الأرض عمودي مع مستوى دورانها حول الشمس، لا يوجد فصول، الأشعّة عموديّة هنا صيفٌ إلى الأبد، ومائلةٌ هنا شتاء إلى الأبد، كيف تنبت المزروعات ؟ كيف يتبدّل الطقس ؟ كيف يتقلّب الجو ؟ كيف تأتي الأمطار ؟ الأرض لو أنها واقفة لا تدور ليست قراراً، لو أنها تدور على محور عمودي مع مستوي دورانها ليست قراراً، لا بدّ من أن يكون دورانها بمحور يميل على مستوي دورانها، لذلك تأتي أشعّة الشمس هنا مائلة، فإذا اختلف الأمر انعكست الآية، جاءت الفصول فكان الصيف والشتاء، والخريف والربيع، والليل والنهار.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

شدة أشعة الشمس، القدر الدقيق لهذه الأشعّة، الله عزّ وجل غلّف الأرض بطبقة أوزون، الآن في هذه الأيّام الحديث عنها يكثُر، غاز الفحم الناتج عن احتراق الأكسجين في المركبات والمعامل يسهم في خلخلة هذه الطبقة من الأوزون لذلك جو الأرض اختلف، وهناك ارتفاع في درجات الحرارة بسبب خلخلة هذه الطبقة، هذه الطبقة من الأوزون سمكها لا يزيد عن ميليمترات تغلِّف الأرض كلها، هذه داخلة أيضاً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

المعاني التالية، الأرض وحجمها، والشمس، والهواء، والماء، والنبات، والكِساء، هذا كلّه يدخل أيضاً في قوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

تسخير الكون للإنسان لمعرفة الله عز وجل من خلاله:

مرّةً أخرى أيُّها الأخوة، الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

معظم العلماء أجمعوا على أن التفكر عبادة من أرقى العبادات، إنها أقرب عبادةٍ توصل إلى الله عزّ وجل، لذلك هذا الكون سخّره الله عزّ وجل لنعرفه من خلاله، فهذا الذي يُعْرِضُ عن التفكّر في خلق السماوات والأرض كأنّه يُعَطِّل الهدف الذي من أجله خلق الله الكون، والحد الأدنى إذا مرّت بكَ في القرآن الكريم آية تشير إلى عظيم قدرته أو دقّة صنعته يجب أن تقف عندها.

إذا قرأنا القرآن فلنقف عند هذه الآيات حتّى نعرف الله عزّ وجل:

درسنا اليوم كان كلمة قرار، هذه الأرض جعلها الله قراراً، هناك خمس معاني ماديّة لهذا القرار، وهناك معانٍ كثيرة جداً تدعو الإنسان إلى أن يستقرّ عليها، أن يعيش عليها، الحرارة، والبرودة، والماء، والهواء، والطعام، والشراب، وغير ذلك، فالإنسان إذا قرأ القرآن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

القضيّة قضية تَدَبُّر، وهذا القرآن بين أيدينا والله سبحانه وتعالى يسّره لنا، فإذا قرأنا القرآن فلنقف عند هذه الآيات حتّى نعرف الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(28))

(سورة فاطر)

أي أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (12-18): تفسير الآيتان 61 - 62
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-03-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة النمل.

هناك مجموعة آياتٍ تأتي تباعاً إنها من فعل الإله العظيم:

وصلنا قبل درسين إلى قوله تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

(سورة النمل)

كأن الله سبحانه وتعالى فيما سيأتي من آيات يبيّنُ أنه لا إله إلا الله، وأن مقام الألوهية يقتضي خلق السماوات والأرض وتسيير الكون، يقتضي إسالة الأنهار، وخلق الجبال، هناك مجموعة آياتٍ تأتي تباعاً إنها من فعل الإله العظيم، فهل يستطيع أحدٌ من دون الله أن يدّعي أنه خلق السماوات والأرض ؟ هل تستطيع جهةٌ ما أن تدّعي أن بإمكانها أن تنزل من السماء ماءاً ؟ هل في الكون جهةٌ تدّعي أنها تنبت النبات ؟ إنبات النبات آيةٌ عظيمة تدل على عظمة الله عزّ وجل، هل من جهةٍ تستطيع أن تجعل هذه الأرض قراراً ؟ كيف أنها بحجمٍ مناسب، وبسرعةٍ مناسبة، وذات تربة مناسبة، وذات استواء مناسب، وذات جاذبية مناسبة، وفيها من الماء والهواء والنبات، وفيها كل شيءٍ يدعو إلى استقرار الحياة فيها، هذا تم شرحه في درسٍ سابق.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

الحقيقة هناك نقطة دقيقة جداً، هو أن الذي لا يعرف الله تدعوه ليعرفه من خلال الكون، أما الذي يعرف الله عزّ وجل تدعوه ليأخذ ما أمر الله، وينتهي عما نهى عنه، فأنت تدعو غير المؤمن إلى الإيمان بالله، وتدعو المؤمن إلى أن يطبق أمر الله عزّ وجل، فلذلك لا يكون التلقّي من الله قبل أن تؤمن به، فمن أجل أن تبني إيمانك بناءاً متيناً أساسه الحقيقة الثابتة، والحقيقة كما تعلمون علاقةٌ ثابتة مقطوعٌ بصحّتها يؤكِّدها الواقع عليها دليل، يجب أن ننخل كل شيءٍ نتصوره ونبقي على هذه الحقائق الصرفة، لأن الحقيقة هي التي تنقذ الإنسان من شقاء الدنيا والآخرة.

من أراد معرفة عظمة الله عزّ وجل فحسبه هذا الكون:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

ظاهرة الماء، هذه ظاهرةٌ تُلفت النظر، فالآيات التي تدل على عظمة الله لا تعدُّ ولا تحصى، ولكن حسبنا تلك الآيات التي وردت في كتاب الله، الآية التي ذكرها الله عزّ وجل في كتابه تعني أن نفكر بها، ففي الدرس الماضي تحدثنا عن أن الأرض قرار، جعلها الله قراراً، القرار المادي، والقرار المعنوي، وفي هذا الدرس نتحدث عن ظاهرة الماء، هذا الماء الذي جعله الله قوام الحياة، الذي جعل منه كل شيءٍ حي، هل تأملت في خواصه، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، سيولته، تبخُّره، دخوله في أدق المسام، هذا الماء متى يَتجَمد، كيف يتجمد ؟ هذا الماء هل ينضغط ؟ لماذا لا ينضغط ؟ هذه الخصائص التي أودعها الله في الماء ألا ينبغي أن نفكر فيها كي نعرف عظمة الصانع ؟

أهل الدنيا مع الصنعة، ولكن أهل الإيمان مع الصانع، أهل الدنيا مع النعمة ولكن أهل الإيمان مع المُنعم، أهل الدنيا مع الخَلق، أما أهل الإيمان مع الخالق، أهل الدنيا مع النظام، أما أهل الإيمان مع المُنَظِّم، فمن هو المؤمن ؟ الكافر يرى ما يراه المؤمن، يتنعم بما يتنعم به المؤمن، يأكل، ويشرب، ويلهو، كل النعم التي خلقها الله عزّ وجل الكافر يستمتع بها، ويعرفها تماماً، يعرف أبعادها، ولكن المؤمن ينتقل منها إلى المُنعم، ينتقل من الخلق إلى الخالق، من النظام إلى المُنَظِّم، من الكون إلى المُكَوِّن، من النعمة إلى المُنعم، هذه النقلة هي جوهر الإيمان.

أما أي إنسان في أي مكانٍ وزمان، إنه يعرف الأرض، الأرض كرة تدور حول نفسها، تدور حول الشمس، يعرف الهواء، يعرف الماء، يعرف النبات، يعرف الطعام والشراب، يعرف الأزهار، كل هذه النعم التي خلقها الله عزّ وجل غير المؤمن يعرفها، ولكن المؤمن انتقل منها إلى صاحبها، انتقل منها إلى موجِدها، انتقل منها إلى من كان هو السبب في وجودها، التفصيلات أحياناً لها وظيفةٌ محدودة، فلا بدّ من العودة دائماً إلى الكُلِّيات، فما حجم التفكر في خلق السماوات والأرض، أنت يجب أن تعرف أن لك إلهاً عظيماً، الإيمان بالله شيءٌ تدعو إليه الفطرة، الفطرة تدعو إلى الإيمان بالله، والعقل يدعو إلى الإيمان بالله، فإذا أردت أن تعرف عظمة الله عزّ وجل فحسبك هذا الكون، وقد ورد: حسبكم الكون معجزة.

الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ حضنا على أن نعرفه من خلال الكون:

إذا أردت أن تعبد الله عزّ وجل دونك التشريع، لكن ليس معنى هذا أن التشريع فقط من أجل أن تطبقه، لو تأمّلت في التشريع الإلهي تعرف منه أيضاً عظمة الله عزّ وجل، في كل شيءٍ له آية، الكون آية، والتشريع آية، والحوادث آية، والفطرة آية، والعقل آية، إذاً حينما يسرد الله علينا بعض الآيات الكونية،

كأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفكر فيها، يريدنا أن نقف عندها، يريدنا أن نتبصرها، يريدنا أن نعرف حجمها الحقيقي، يريدنا أن نخرج منها إلى المُنعم، إلى من خلقها، إلى من أوجدها، إلى من أحكمها، إلى من جعلها بهذا الإعجاز.

حينما تقرأ في القرآن الكريم آياتٍ تشير إلى عظمة الكون، معنى ذلك أن هذه الآيات ينبغي أن تكون موضوعاً من موضوعات التأمُّل التي حضّنا الله عليه، الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ حضنا على أن نعرفه من خلال الكون.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6))

(سورة الطارق)

وقال:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25))

(سورة عبس)

التعامل بين الماء وبين الهواء آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته:

إذاً قبل درسين تحدثنا كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض قراراً، لم يجعلها مُسَنَّنَة جعلها مستوية، ولم يجعلها مائلة جعلها أفقية، ولم يجعل قوامها هُلاماً، ولا غازاً، ولا ماءاً، ولا صلباً، بل جعلها تربة بالإمكان أن نتعامل معها، جعل فيها جاذبية، الأشياء تنجذب إليها، جعل الأرض تسير على مسارٍ دقيق لا تحيدُ عنه، ربط بها الهواء الذي فوقها، والماء الذي فوقها، هذا من معاني:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (61))

كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة مُمْكِنَةً على سطحها، جعل فيها النبات، والحيوان، والفلذات، والمعادن، وكل شيءٍ تحتاجه جعله وأودعه في الأرض، الآن يضيف الله عزّ وجل على هذه الآية:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

بادئَ ذي بدء، هذه البحار التي خلقها الله عزّ وجل، خلقها بحجمٍ معيّن وبسطح معين، ويبدو أن هذا السطح هو السطح المناسب لعملية التبخّر وعملية هطول الأمطار، إذاً أن يكون البحر أربعة أخماس الكرة الأرضية، هذا قدرٌ معلومٌ من الله عزّ وجل، من صنع حكيمٍ عليم، وأن يجعل الماء يتبخّر بدرجاتٍ دنيا هذا أيضاً من آيات الله، فالشمس المُسَلّطة على مياه البحار تجعل بعضها يصبح بخاراً، وذلك

التعامل بين الماء وبين الهواء آيةٌ من آيات الله أيضاً، أن يحمل الهواء بخار الماء هذه آية، وأن يحمل الهواء بخار الماء بدرجاتٍ متفاوتة بحسب درجة حرارته هذه أيةٌ أيضاً، فإذا انخفضت هذه الدرجة تخلّى الهواء الذي يحمل بخار الماء عن بعض الماء، وهذا مبدأ المطر، هذه آيةٌ سادسة، وجود البحر، وجوده مالحاً آية، بهذا الحجم آية، بهذه المساحة آية، علاقة الحرارة بالماء والتبخُّر آية، علاقة التبخر بالهواء آية، أن يحمل الهواء بخار الماء آية، أن يتخلى عنه في بعض الدرجات آية، إذاً هل تستطيع جهةٌ في الكون أو جهةٌ في الأرض أن تدعي أن بإمكانها أن تنزل الماء من السماء ؟

لا يوجد في الكون جهةٌ يرجى خيرها ويتقى عذابها إلا الله عزّ وجل:

هذه أوروبا بعضها يعاني من العطش، هذه إفريقيا عانت من العطش ما عانت، ونحن لولا أن الله سبحانه وتعالى تداركنا بلطفه لكانت هذه السنة عجفاء، مياه الأنهار جفّت، وإذا جفت مياه الأنهار توقف النبات ومات الحيوان وتبعه الإنسان، الله سبحانه وتعالى يشعرنا من حين لآخر أن مصيرنا بيده، وأن حياتنا بيده، وأن الإنسان مهما علا في الأرض ومهما ادعى لنفسه العظمة هو عاجزٌ عن أن ينزل قطرة من الماء، فكلمة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (60))

وقال:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ(60))

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ تعبدون من ؟ أفغير الله تتقون ؟ هل في الكون جهةٌ تتقى غير الله ؟ هل في الكون جهةٌ يرجى خيرها ويتقى عذابها إلا الله عزّ وجل، هذا الذي يعبده الإنسان من دون الله سواء أعترف بهذا صراحةً أم لم يعترف، على كلٍ ما العبادة ؟ غاية الإخلاص، غاية الحب، غاية الطاعة، غاية الشوق، غاية المحبة، غاية الانصياع، غاية التأمُّل، هل من جهةٍ تستحق أن تعبدها إلا الله عزّ وجل ؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

الشيء الملفت للنظر أنه كلما ذكر الله الأنهار في القرآن ذكر معها الجبال:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

هذه أمطار السماء تنزل بشكلٍ لطيف، وكيف أن هذا الماء يذهب إلى باطن الأرض، وكيف أن هذا الماء يصبح أنهاراً، كلكم يعلم أن الأنهار لها ينابيع، أو وديان تجتمع فيها الماء، تنطلق غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً، هذه الأنهار بأحجامها، بأطوالها، بكثافتها ـ نهر الأمازون مثلاً ثلاثمائة ألف متر مكعب بالثانية ـ هذه الأنهار من أين جاءت؟ لها ينابيع، هي مياهٌ عذبة، من جعلها عذبةً ؟ الله سبحانه وتعالى، عن طريق هذه الدورة الرائعة، دورة التبخر، ثم السحاب، ثم المطر، ثم نزول المطر، ثم أن يودع هذا الماء في باطن الأرض، ثم أن ينبع على شكل أنهار، فإذا ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن آيةً من آيات الله الدالة على عظمته فمعنى ذلك أن هذا عنوان وعلى الإنسان المؤمن أن يتبع هذه الآية فيتأملها، لعل الله سبحانه وتعالى يهديه إلى أن يعرفه حق المعرفة.

شيءٌ آخر:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا (61))

الشيء الذي يلفت النظر أنه كلما ذكر الله الأنهار في القرآن ذكر معها الجبال، هذه الجبال التي جعلها الله للأرض أوتادَ، الأرض لها طبقات، طبقاتٌ عميقة، وطبقاتٌ سطحية، هذه الطبقات ليست متجانسة، الأرض تدور حول نفسها، لو أن هذه الأرض تدور والطبقات ليست متجانسة لاضطربت في دورانها، ائتِ ببيضةٍ وحاول أن تجعلها تدور من دون أن تسلقها، تضطرب، لأن موادها غير متجانسة، أما إذا سلقتها وأصبحت ذات قوام واحد تدور، إذاً هذه الطبقات التي جعلها الله في الأرض، الطبقة العُليا، والطبقة التي تحتها، والطبقة القارّية وما شاكل ذلك، هذه الطبقات ليست متجانسة، الله سبحانه وتعالى ذكر في بعض الآيات الأخرى أن الجبال جعلها أوتاداً، تربط الطبقات بعضها ببعض.

التلازم في ذكر الجبال والأنهار يعني أن الله تعالى جعل الجبال مستودعاتٍ للمياه:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

يبدو أن توزع الجبال في الأرض توزعاً محكماً يجعل دورانها مستقراً، فإذا كان هناك توزّع غير محكم الدوران يضطرب، فمن أجل أن تدور الأرض من دون اهتزاز من دون اضطراب جعل الله هذه

الجبال في هذه الأماكن المتباينة في الأرض، إذاً تارةً يشير الله عزّ وجل إلى أن هذه الجبال جعلها أوتاداً، لأن الجبل الذي ترونه بأعينكم ثلثه ظاهر وثلثاه تحت الأرض، كالسن تماماً، السن له قسم ظاهر وقسم تحت النيرة، فالجبل الذي يبدو لنا منه لا يزيد عن الثلث والباقي مغروسٌ تحت الأرض ليربط هذه الطبقات بعضها ببعض، والهدف الآخر أن الله سبحانه وتعالى:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 15 ")

من أجل هذا الدوران المستقر، شيءٌ رائع أن الأرض تدور ومع دورانها هي مستقرة، نعمة الاستقرار لا يعرفها إلا من أصاب بلاده زلزال، ماذا يفعل الزلزال ؟ في ثوانٍ يجعل عاليها سافلها، هذه الأبنية الشاهقة تصبح في الأرض، لأن هناك اضطراباً طرأ على القشرة الظاهرة، هذه الأرض أيضاً ما دامت مستقرة فهذه نعمة من نعم الله الكبرى.

شيءٌ آخر، بما أن الماء يسيل من أعلى إلى أدنى، فشاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل الجبال مستودعاتٍ للمياه، لذلك حيثما وردت كلمة الجبال ترد معها كلمة الأنهار، هذا التلازم في ذكر الجبال والأنهار في القرآن الكريم في الأعم الأغلب، هذا التلازم يعني أن الله سبحانه وتعالى جعل الجبال مستودعاتٍ للمياه، لذلك المياه تسيل من هذه الجبال وتتجه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لأن مستودعاتها عالية.

آية الماء وصفاته وخواصه ونزوله من السماء من آيات الله الدالة على عظمته:

شيء آخر هذه الجزر التي بثّها الله في البحار، كل جزيرةٍ لها عين ماء، ولها نبعٌ عذبٌ، هذا النبع العذب يعني أن هناك تمديداتٍ تحت سطح البحر متصلة إلى جبالٍ ساحلية، ليس هناك إلا هذا التفسير بحسب مبدأ الأواني المستطرقة، ما دامت جزيرة في البحر مستوية وفيها نبع ماء لا بدّ من مستودع في مكانٍ مرتفع، وكم من آلاف الكيلو مترات تسيل هذه المياه من الجبال إلى الجزر، والجُزُر مهما كثرت لا بدّ لكل جزيرةٍ من نبع ماءٍ في مستوى حجمها، هذا أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته، وقد نجد في رؤوس الجبال بعض الينابيع، وهذه الينابيع في رؤوس الجبال ليس لها إلا تفسيرٌ واحد، هو أن مستودعات هذه الينابيع في جبالٍ أخرى بعيدة.

إذاً آية الماء، ظاهرة الماء، صفات الماء، خواص الماء، نزول الماء من السماء، المالح أو العذب، هذه الدورة التي أشار الله إليها من آيات الله الدالة على عظمته.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا (61))

للأرض:

(رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

الله جعل حاجزاً بين مياه البحر والأنهار إما بسبب فرق الارتفاع أو بسبب الطبقات الكتيمة:

هذه الآية:

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

أولاً من نعم الله عزّ وجل أن سطح البحر هو في أخفض درجة في الأرض، لذلك جميع المُرتفعات تقاس بدءاً من سطح البحر، مياه البحر مالحة، كل الينابيع تأتي من الجبال من مستويات أعلى من سطح البحر، إذاً لم تختلط مياه البحر بمياه الأنهار والينابيع، لو أنها اختلطت لأصبحت مالحة تمجها النفس، هذه واحدة، لو صدف أن وجد نبع ماءٍ في منطقةٍ دون سطح البحر، الله سبحانه وتعالى جعل الطبقات الكتيمة تحول بين مياه البحر ومياه الأغوار أيضاً:

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

سمي البحر بحراً، وسمي النهر بحراً للتغليب.

(وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (61))

المعنى الأول: أن الله سبحانه وتعالى جعل حاجزاً بين مياه البحر وبين مياه الأنهار، إما أن هذا الحاجز بسبب فرق الارتفاع، أو أن هذا الحاجز بسبب الطبقات الكتيمة التي تمنع اختلاط المائَيْن، ولكن في موضوعٍ آخر الله سبحانه وتعالى في بعض آياتٍ أخرى يقول:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

حتى البحرين المالحين بينهما برزخ لا يبغيان، معنى لا يبغيان لا يطغى بحرٌ على بحر، أي أن مياه البحر الأحمر لا تطغى على مياه المحيط العربي، مياه المحيط الهندي لا تطغى على البحر الأحمر، البحر الأحمر لا يتصل بالبحر المتوسط، بين كل بحرين جعل الله حاجزاً.

البحرين المالحين بينهما برزخ لكن البحرين المالح والعذب بينهما برزخٌ وحجرٌ محجور:

قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

المفسرون حاروا من قديم الزمان بتفسير هذا البرزخ، أين هو هذا البرزخ ؟ لو وقفت بين البحر الأسود والبحر الأبيض، بين الأبيض والأحمر، بين الأحمر والمحيط الهندي لا تجد برزخاً، تجد مياه متصلة، لو أخذت عينة من مياه البحر الأحمر لوجدتها ذات قوامٍ وملوحةٍ وكثافةٍ ومكوّناتٍ خاصةٍ بها، لو أخذت عينة من المحيط الهندي لوجدت لهذه المياه كثافة ومقومات وملوحة تتناسب معه، وفي منطقة التماس يبقى المحيط الهندي محيطاً هندياً، والبحر الأحمر بحراً أحمر، هذا البرزخ رآه بعض روّاد الفضاء، بعض السفن الفضائية رأت خطاً بين البحرين، لذلك فسّره العلماء بأنه حاجز وهمي يمنع طغيان هذا الماء على هذا الماء، استقلالية كل ماء شيءٌ يلفت النظر، هذا الشيء كشفه العلم الحديث:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

بل إن بعض العلماء رأى أن هناك تيّارات، حينما تصل هذه التيارات وقد حمّلها بأشياء من أجل أن تتضح حركة التيارات، هذه التيارات إذا وصلت إلى حدود البحر الآخر عادت ورجعت، لذلك:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

شيءٌ آخر، هو أن البحرين المالحين بينهما برزخ، لكن البحرين المالح والعذب بينهما برزخٌ وبينهما حجرٌ محجور، البرزخ من شأنه أن يمنع طغيان مياه كل بحرٍ على الآخر، والحجر المحجور من شأنه أن يمنع انتقال الأسماك من المياه العذبة إلى المياه المالحة.

عدم اختلاط الأمواج مع بعضها سواءٌ أكانت مالحةً أم عذبة من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا(53))

(سورة الفرقان)

عدم اختلاط الأمواج بعضها ببعض سواءٌ أكانت مالحةً أم عذبة، وعدم طغيان بعضها على الآخر واحتفاظ كل ماءٍ بمكوناته، وملوحته، وكثافته، وما فيه من مواد هذا من آيات الله الدالة على عظمته، والعلم أمامه متسع كبير لكشف مزيدٍ من هذه الظواهر التي وردت في القرآن الكريم إذاً:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (61))

أتستطيع جهة ما أن تدّعي ذلك ؟ إذاً لا إله إلا الله:

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

كلمة لا يعلمون، الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات يقول:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من آية " 7 ")

الله سبحانه وتعالى أثبت لهم العلم، وفي الآية التي تليها مباشرةً قال:

(لا يَعْلَمُونَ(6)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم)

الله سبحانه وتعالى نفى عنهم العلم وأثبت لهم العلم، ليس في هذا تناقض.

ربنا سبحانه وتعالى ذكر العلم وعنى به أن يعرف الإنسان ربه:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(6)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

هناك علمٌ ينفعك في الدنيا، يمكن أن تدرس، أن تتعمق في موضوعٍ معيّن، وأن تبحث في هذا الموضوع بنيّة أن تتقنه كي ترتزق منه، هذا العلم حرفةٌ من الحرف، العلم الذي تقف في حدوده الضيقة من دون أن تنطلق منه إلى خالق الكون هذا علمٌ نافعٌ للدنيا، حرفةٌ من الحرف، فأية دراسة عالية المستوى هدفها الوحيد إتقان اختصاص معين من أجل الارتزاق هذا علم، وعلم ينفع المسلمين وينفع الناس، ولكن إذا بقيت في حدوده الضيقة ولم تخرج منه إلى خالق الكون هذا علمٌ لا يقدم لك نفعاً في الآخرة، كما هي الحال عند الذين جعلوا من العلوم كل شيء من دون أن ينتقلوا منها إلى خالق الكون، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

أن تعصي الله أنت لا تعرفه، قد تعرف كل شيء ولكن إذا لم تعرف الله عزّ وجل ولم تعرف لماذا كنت في هذه الدنيا لا تعرف شيئاً، هذه أمور دقيقة جداً، هذه العقيدة، يجب أن تعتقد عقيدةً صحيحة أساسها لماذا أنا في الدنيا ؟ لماذا خلقني الله عزّ وجل ؟ ما جدوى وجودي في الدنيا ؟ ما أفضل شيء أفعله في الدنيا ؟ إلى أين المصير ؟

ربنا سبحانه وتعالى ذكر العلم وعنى به أن يعرف الإنسان ربه.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

خَلَقَ الله الإنسان ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد في افتقاره:

انتقال إلى موضوع جديد يتعلّق بالنفس الإنسانية:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

هؤلاء الذين ركبوا في الطائرة وماجت بهم واضطربت، وتوقّعوا أن تسقط، على اختلاف مشاربهم، ونوازعهم، وعلى اختلاف معتقداتهم، ومبادئهم، وعلى اختلاف منابتهم، لا يلجؤون إلا إلى الله، لو أن هذا الإنسان أنكر وجود الله في الأرض وركب في البحر أو في الطائرة، وشعر أنها على وشك أن تسقط، أو أن هذه الباخرة على وشك أن تغرق، دعا الله مخلصاً، إذاً هل هناك جهةٌ أخرى غير الله عزّ وجل تدعوها عند الشدة، هذه فكرة أولى، الإنسان ضعيف، خَلَقَهُ الله ضعيفاً لمصلحته، لأنه لو كان قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد في افتقاره:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

أقرب شيء إليك هو الله عزّ وجل إن دعوته بلسانك سمعك وإن دعوته بقلبك سمعك:

ربنا سبحانه وتعالى فضلاً عن ذلك أعاننا على أنفسنا، الإنسان حينما يقع في مشكلة، حينما تَحُلُّ به مشكلة، كأن الله سبحانه وتعالى يدفعه إلى بابه، يقول: يا رب، بعد هذا الدعاء يكشِفَ عنه السوء، يشعر عندها أن الله عزّ وجل سمعه واستجاب له، وأن الله بيده كل شيء، فالله سبحانه وتعالى ليزيد معرفتك به قد يجعلك في وضع حرج، ويطلب منك أن تدعوه.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

لكن للدعاء شروط، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

المسلمون يدعون الله ليلاً ونهاراً، ومعظم شعائرهم فيها دعاء، ومع ذلك قد يدعون الله سبحانه وتعالى ولا يستجيب، أليس الدعاء صحيحاً ؟ هذا يجب أن يدفعنا إلى معرفة شروط الدعاء، الله عزّ وجل في كتابه الكريم قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أقرب شيء إليك هو الله عزّ وجل، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إن دعوته بلسانك سمعك، وإن دعوته بقلبك سمعك:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3))

(سورة مريم)

خواطرك معلومة عنده، سِرُّكَ مكشوفٌ لديه، نوازعك، صراعاتك، طموحاتك، إذا كنت ساكتاً وتحدِّث نفسك بحديثٍ طويل الله سبحانه وتعالى يعلمه.

شروط استجابة الدعاء:

إن الله عزّ وجل يعلم ما يخفى عنك، إذاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

قل: يا رب والله سبحانه وتعالى يقول: لبّيك يا عبدي، لكن لماذا لا يستجيب ؟ قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

إذا دعاني كما أريد أجبته كما يُريد، فما الشروط ؟ قال:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

كأن الله سبحانه وتعالى يقول: لا أستجيب لكم إلا إذا استجبتم لي، ولن تستجيبوا لي إلا إذا آمنتم بي، آمنوا بي، إذا آمنتم بي تستجيبون لأمري ونهيي، إذا استجبتم أستجيب لكم، فهذا الذي يريد أن يكون مستجاب الدعوة عليه أن يستجيب لله أولاً، هذا مستنبط من هذه الآية، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك:

موضوع الدعاء النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الدعاء مخ العبادة))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء، والدعاء سلاح المؤمن، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذاً الدعاء شيء خطير جداً، كأن الله سبحانه وتعالى يقول: كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، إذاً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، كن فيكون:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ.))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

هذا شيء مهم جداً أن تعرف شروط الدعاء.

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

هل أنت عند الأمر والنهي ؟ هي يراك حيث أمرك ؟ هل يفتقدك حيث نهاك ؟ إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك، هل أنت حريصٌ على تنفيذ أمره ؟ على أن تبتعد عما عنه نهى.

إذا عَظمت الله عزّ وجل تُعظِم أمره فإذا استجبت له استجاب لك وهذه أول قاعدة:

قال تعالى:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

لكنهم لن يستجيبوا لي إذا لم يعرفوني، قيمة الأمر من الآمر، لو جاءك أمر من عريفٍ، أو من صديق، أو من زميل، أو من إنسان في مستواك لا تبالي به، كلما ارتفعت مرتبة الآمر عظم عندك الأمر، لذلك ماذا قال سيدنا بلال ؟ قال: **" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت "**، قيمة الأمر تتبع

من عظمة الآمر، فالذي يعصي الله لا يعرف الله قولاً واحداً، هناك علمٌ بأمر الله، يمكن أن تعرف الله، ولكن قبل أن تعرف أمر الله يجب أن تعرف الآمر وهو الله عزّ وجل، وهذا ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام، حيث مكث مع أصحابه ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى معرفة الله، فلما عرفوا الله جاء أمر الله عندهم عظيماً، إذا عَظُمت الله عزّ وجل تعظِّم أمره، انظر إلى دقة الآية:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

أي آمن بعظمة الله، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، من أجل أن يكون لأمره عندك قيمة، لن تكون لهذه الأوامر عند الإنسان قيمة إلا إذا عرف الآمر، اعرف الآمر واعرف الأمر عندئذٍ تستجيب لهذا الآمر العظيم، إذا استجبت له استجاب لك، هذه أول قاعدة.

في الآية التالية ليس هناك وسيط بين العبد وبين ربه:

قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

هناك نقطة مهمة جداً الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

أو:

(يَسْأَلُونَكَ)

(سورة البقرة الآية: 219)

هذه الصياغة في كتاب الله وردت مَرّاتٍ عديدة تفوق عشر المرات:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة الآية: 222)

وقال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة الآية: 219)

وقال:

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو)

(سورة البقرة الآية: 219)

في كل الآيات التي وردت على هذا النمط " يسألونك " تأتي كلمة " قل " بين السؤال وبين الجواب، إلا في هذه الآية الوحيدة اليتيمة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

ليس هناك وسيط بين العبد وبين ربه، بمجرد أن تقول: يا رب، الله سبحانه وتعالى يقول لك: لبيك يا عبدي، يا رب قد تبت، يقول الله عزّ وجل: وأنا قد قبلت.

إياك أن تطمع أن يستجيب الله عزّ وجل لك إذا كنت معتدياً لأنه لا يحب المعتدين:

بعضهم ناجى ربه فقال: يا رب إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى هكذا:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44))

(سورة اطه)

يا رب إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى هكذا، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟ إذا كانت رحمتك بمن قال: ما أرى لكم من إلهٍ غيري، فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله، الإنسان إذا عاش حياته بعيداً عن معرفة الله، وعن الاتصال به، وعن التعامل معه وَفْقَ منهجه، فقد ضيَّع كل شيء، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ الآية الثانية:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ(205))

(سورة الأعراف)

إياك أن تطمع أن يستجيب لك الله عزّ وجل إذا كنت معتدياً، الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، ولأنه لا يحبهم لا يستجيب لهم، فحينما جاء قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً (205))

(سورة الأعراف)

ادعُه بهذا الشكل إنه لا يحب المعتدين.

الوقوف على باب الله من علامات العبوديّة فإما أن تقف طواعية وإما أن يدفعك إلى ذلك:

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

المضطر هو الذي وضعه الله عزّ وجل في وضع حَرِج، إن في ماله، أو في صحته، أو في أولاده، هذا الوضع الحرج من خلق الله عزّ وجل، دائماً وأبداً الشيء الذي وقع أراده الله، والشيء الذي أراده الله

عزّ وجل يتعلق تعلقاً حقيقياً بالحكمة، وحكمة الله عزّ وجل متعلقة بالخير المُطلق، أي شيءٍ وقع قل: الحمد لله، لأنه لو لم يقع لكان الله ملوماً لماذا لم يقع ؟ الله سبحانه وتعالى لا يقع شيءٌ في ملكه إلا بإذنه، وهو حكيمٌ، وعليمٌ، وسميعٌ، وبصيرٌ، وخبيرٌ، إذاً ربنا سبحانه وتعالى قد يضع الإنسان في مشكلة، في ضرورة، أمام قضية، قد يخاف منها، قد يخشى، قد يقلق، لماذا وضعه الله في هذه المشكلة ؟ كأن الله سبحانه وتعالى يدعوه إلى أن يقف على بابه، الوقوف على باب الله من علامات العبوديّة، إما أن تقف على بابه طواعيةً، وإما أن يدفعك إلى أن تقف على بابه، لذلك:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

المضطر إذا دعا الله عزّ وجل، الله سبحانه وتعالى يستجيب له، والقصص التي تتحدّث عن استجابة الله عزّ وجل لمن دعوه دعاء صادقاً لا تعد ولا تحصى، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان في طريق الهجرة، وتبعه سراقة، وأراد به شراً، قال:

((يا رب اكفنا سراقة كيف شئت وأنى شئت))

غاصت قدما فرسه في الرمل، ووقع من عليها مرات عدة.

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم   فالمخاوف كلُّهُنّ أمانُ

* * *

الله سبحانه وتعالى قد يمتحن المؤمن ولكن كل شيءٍ في النهاية لمصلحة المؤمن:

هناك شعور لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا الشعور أن المؤمن يشعر أن الله سبحانه وتعالى يحبُّه، فبعض علماء العقيدة نهوا عن أن تقول إذا سُئِلت: هل أنت مؤمن ؟ تقول: إن شاء الله.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: من آية " 15 ")

الإيمان على وجه الجزم، فالمؤمن يشعر أن الله يحبه، والإمام الشافعي ماذا استنبط من قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

الإمام الشافعي استنبط أن الله سبحانه وتعالى لا يعذِّب أحبابه، بمعنى أن المؤمن يسعدُ إذا شعر أنه على منهج الله، والله سبحانه وتعالى قد يمتحنه، لكن كل شيءٍ في النهاية لمصلحة المؤمن:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من آية " 51 ")

إذاً هذا الاضطرار الذي نوّه به الله سبحانه وتعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (62))

هذا تفسير لإجابة الدعوة.

المشرك يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله وهذا هو الفرق:

قال تعالى:

(وَيَكْشِفُ السُّوءَ (62))

إذاً قد يأتي السوء، من هنا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا ينفع حذرٌ من قدر.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

إذا كنت ذكياً، إذا أخذت لكل شيءٍ عُدَّتَهُ، إذا أردت أن تأخذ بكل الأسباب وأن تعتمد عليها، إذا جعلت الأسباب إلهاً وعبدتها من دون الله، إذا اتكأت عليها وظننت أنها تمنعك من دون الله فأنت في حالة شرك خفي، لذلك يؤتى الحذر من مأمنه، ولا ينفع ذا الجَد منه الجّد، كما قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الشريف:

((لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

لأن الحذر كأنك تعاند قدرة الله عزّ وجل، يأتيك من مأمنك، أي إنسانٍ أخذ بالأسباب واعتمد عليها فهو مشرك شرك خفي، أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله، هذا هو الخط الرفيع بين الإيمان والشرك، المشرك يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، أما المؤمن يأخذ بها ويعتمد على الله هذا هو الفرق، الذي يعتمد على الأسباب قد يؤتى من مأمنه، قد يؤتى من اختصاصه، قد يؤتى من الشيء الذي هو فيه خبير، هذا الطبيب مثلاً اختصاصي في هذا المرض، يأخذ كل الاحتياطات ومع ذلك قد يصاب بهذا المرض، لأنه وقع في شركٍ خفي.

((لا ينفع حذرٌ من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل فادعوا الله عباد الرحمن.))

[رواه الحاكم عن عائشة بلفظ لا يغني حذر من قدر]

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

هذه نقطة مهمة جداً، الإنسان في حالة الرخاء يتعلق بزيد أو عبيد، يضع ثقته في فلان أو في علان، تجده موزعاً، مشتتاً، لكن إذا وقعت به ملمة يشعر شعوراً أكيداً أن الله وحده يمكن أن ينقذه منها، لذلك

الأطباء أمام حالات من الشفاء العجيب، شفاء مرض عُضال بلا سبب مبرر، أحدث اسماً في الطب اسمه الشفاء الذاتي، يبدو أن هذا المريض دعا ربه من كل قلبه، والله عزّ وجل استجاب له.

الإنسان إذا عرف أنه خليفة من سبقه وسيأتي بعده من يخلفه عرف أن الدنيا زائلة:

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

تتوارثون ما في الأرض من نعم، ومن بيوت، ومن حدائق، ومن بساتين، ومن أعمال، الإنسان إذا عرف أنه خليفة من سبقه، وسيأتي بعده خليفة يخلفه، عرف أن الدنيا زائلة، وربنا عزّ وجل قال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

من قوله تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

ماذا يعني ؟ أن هذا الاختيار مؤقت:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

فكلمة خلفاء الأرض، أي أن هذا البيت سكنته بعد أناسٍ كثيرين، وسيأتي بعدك من يسكنه، هذا المحل الآن أنت فيه، ولكن هناك من يأتي بعدك ويأخذه، الحياة مؤقتة، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، إذا شعرت بأن الحياة مؤقتة انطلقت إلى الآخرة، أما إذا جعلت الدنيا هي كل شيء، جعلتها معقد الآمال ومحط الرحال، فقد فقدت كل شيء.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

هذه الآيات لها محور واحد هو أن تُوَحِّدَ الله عزّ وجل وكأن الدين كله توحيدٌ لله عزّ وجل:

هذه الآيات ؛ أول آية:

(آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59))

الآية الثانية:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

الآية الثالثة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

الآية الرابعة:

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

إذاً كأن هذه الآيات لها محور واحد، هو أن توحِّد الله عزّ وجل، وكأن الدين كله توحيدٌ لله عزّ وجل، توحيدٌ في ألوهيته، توحيدٌ في ربوبيته، توحيدٌ في تصرُّفاته، توحيدٌ في أسمائه وفي صفاته، هذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

الدعاء مخ العبادة:

لا إله إلا الله نهاية العلم، ختاماً لهذا الموضوع تعقيبٌ سريع على الآية الأخيرة:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (62))

أي أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

أحياناً هذه المشكلة التي جعلتك مضطراً أن تدعو الله عزّ وجل، ربما عمّقت معرفتك بالله، تدعوه، سمع دعاءك واستجاب لك، أورثك معرفة جديدة وحباً جديداً، فربما كانت بعض المشكلات من هذا القبيل، فالمؤمن يتلقّى ما يصيبه بصبرٍ جميل، ويدعو الله عزّ وجل، فإذا دعاه واستجاب له، تعمّقت معرفته بالله، وزادت محبته له، وكم من مؤمنٍ عرف الله على أثر مشكلة، كم من رجلٍ رفعه الله عزّ وجل مكاناً علياً على أثر مشكلة، كم من مؤمنٍ كان ذا انضباطٍ أشد على أثر مشكلة، لذلك الله سبحانه وتعالى يريدنا إذا ألمّت بنا مُلِمّة أن نلجأ إلى بابه، أن نقف على بابه، أن ندعوه تضرعاً، أن ندعوه رجاءاً، أن ندعوه خوفاً، فالدعاء مخ العبادة كما قال عليه الصلاة والسلام.

الدعاء اتصال حميم بين العبد و ربه فجوهر الدين الاتصال بالله:

في الحقيقة الدعاء مطلوبٌ لغيره تعبير دقيق، ما الشيء الذي طلب من أجله الدعاء ؟ الاتصال بالله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، فقد تأتي مشكلة تدعوك إلى أن تدعوه،

فإذا دعوته وذقت طعم القرب وحلاوة المناجاة نسيت المشكلة، فالمطلوب حصل، وهذه المشكلات دفعتك إلى باب الله، وهذا ما أراده الله من هذه الآية:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ (62))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (13-18): تفسيرالأية 63

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-03-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النمل.

ملخص عن حديث الدرس الماضي لبعض صفات الألوهية:

في الدرس السابق بَيّنَ الله سبحانه وتعالى بعضاً من صفات الألوهية، فخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق ذات البهجة، وجعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار من خلالها، وخلق الجبال رواسي وأوتاداً للأرض، وإجابة المُضطر إذا دعاه، وأن يكون الإنسان خليفة لمن قبله، وسلفاً لمن بعده، هذه كلها من لوازم الألوهية ولا تستطيع جهةٌ في الأرض أن تدعي ذلك، لذلك ربنا سبحانه وتعالى بعد كل صفةٍ من صفات الألوهية يقول:

(أإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

(سورة النمل)

وقال:

(أإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

وقال:

(أإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62))

من أسماء الله سبحانه وتعالى الهادي وقد بيّن العلماء بعض معاني هذا الاسم:

يقول الله سبحانه وتعالى متابعاً خصائص الألوهية:

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (63))

لذلك من أسماء الله سبحانه وتعالى الهادي، وقد بيّن بعض العلماء ماذا يعني هذا الاسم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(142))

(سورة البقرة)

إذاً الله سبحانه وتعالى هو الهادي، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن الإنسان يختار.

(يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(142))

(سورة البقرة)

معنى آخر الخالق وحده هو الذي يهدي.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78))

(سورة الشعراء)

معنى ثالث الإنسان الذي آمن بالله حق الإيمان يتولى الله سبحانه وتعالى إخراجه من الظلمات إلى النور، يتولى الأخذ بيده وإرشاده، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

(سورة الحج)

إذاً المؤمن بالذات مادام قد آمن بالله عزّ وجل حق الإيمان يهديه إلى صراطٍ مستقيم، وكيف لا، والمؤمن يقف في اليوم خمس مراتٍ ليردد في كل ركعةٍ من ركعاتها:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

كأن الله سبحانه وتعالى يجيبه حينما يتلو الآيات، فإذا أردت أن يحدِّثَكَ الله عزّ وجل، فاقرأ القرآن، وإذا أردت أن تُحَدِّثَهُ فادعوه، فالدعاء حديثٌ منك إليه، وتلاوة القرآن الكريم حديث الله إليك.

الدعاء كأنك تحدِّث الله وتلاوة القرآن الكريم كأنه يحدِّثك:

تقول أنت في الصلاة:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

تقرأ ما تيسر من القرآن، يجيبك الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة الإسراء: من آية " 53 ")

وقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

الدعاء كأنك تحدِّثه، وتلاوة القرآن الكريم كأنه يحدِّثك.

إذا آمنت بالله تولّى الله هدايتك ونقلك من الظلمات إلى النور:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنّ اللّهَ لَهَادِ الّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

(سورة الحج)

أي أنك إذا آمنت بالله تولّى الله هدايتك، تولى الله نقلك من الظلمات إلى النور:

(اللّهُ وَلِيّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

قد جاء في معنى الاسم العظيم اسم الهادي وهو من أسماء الله الحسنى، وأسماء الله سبحانه وتعالى كلُها حسنى:

(قُلْ ادْعُوا اللّهَ أَوْ ادْعُوا الرّحْمَانَ أَيّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء: من آية " 110 ")

المعنى الأول لكلمة الهادي أنه هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها:

قال بعض العلماء: هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها، الله عزّ وجل خلق وهدى.

(سَبّحْ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلَى(1)الّذِي خَلَقَ فَسَوّى(2)وَالّذِي قَدّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

وقال:

(قَالَ فَمَنْ رَبّكُمَا يَا مُوسَى(49)قَالَ رَبّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى(50))

(سورة طه)

من معاني الهادي أنه هدى جميع المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارّها، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان بل والنبات، النبات يبحث عن الضوء، إذا زرعت شجرةً في أرضٍ منخفضةٍ تزداد طولاً إلى أن تصل إلى الضوء، وإذا افتقد الجذر الرطوبة في التربة، يمتد في أعماق التربة إلى قرابة ثلاثين متراً يبحث عن الماء، وإذا امتنع المُزارع عن سقي الشجرة أعطته الإشارة، تستهلك الشجرة ماء أوراقها أولاً، ثم ماء أغصانها ثانياً، ثم ماء فروعها ثالثاً، ثم ماء جذعها رابعاً، وتحافظ على ماء الجذر، لأن الأمل كله في الجذر، إذاً النبات هداه إلى جلب مصالحه ودفع مضاره، الحيوان هداه إلى رزقه، هداه إلى مأواه، هداه إلى الدفاع عن نفسه، هداه إلى البحث عن حاجاته، ودفع مضاره، وكذلك الإنسان.

المعنى الثاني الهادي هو الذي يهدي إلى طريق الحق:

إذا قلت: يا هادي، الهادي هو الذي يهدي المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارها، هذا معنى. المعنى الثاني الهادي هو الذي يهدي إلى طريق الحق، في الأرض حقٌ واحد، الحق لا يتعدد، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 153 ")

ما أكثر أنواع الباطل، الباطل يتعدد أما الحق لا يتعدد، لذلك إما أن تكون على الحق ؛ وإما أن تكون على الباطل، وليس هناك موقفُ ثالث، فإذا فسّرنا اسم الهادي بأنه الذي يهدي إليه، وإلى طريقٍ مستقيم، وإلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة فهذا من أسماء الذّات، وإذا بينا أن الهادي نَصَبَ الدلائل الدالة على وجوده، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، إذا قلنا كذلك فالهادي من أسماء الأفعال، كل شيءٍ في الكون يدل عليه، خلق السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الأرض وما فيها، ما عليها، وما في باطنها، الهواء، الماء، الجبال، الحيوانات، النباتات، الإنسان، كل شيءٍ خلقه الله جملة وتفصيلاً يدل على الله سبحانه وتعالى فهو الهادي.

هدى المخلوقات إلى جلب مصالحها ودفع مضارها، وهدى الإنسان إلى طريق الحق، وجعل كل شيءٍ خلقه يدل عليه، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال عليه الصلاة والسلام:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالّذِي خَلَقَكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ ثُمّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا.))

[سنن أبي داود: عن " قتادة "]

الهادي يخلق الهداية في نفوس الناس فمن طلب الهداية خلقها الله في قلبه:

بعضهم يقول: إن الهادي يخلق الهداية في نفوس الناس، من طلب الهداية خلقها الله في قلبه:

(قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

اطلب الهداية والله سبحانه وتعالى يشرح صدرك لها، تسعد بها، تقنع بها، وبعضهم قال: الهادي هدى خواص عباده إلى ذاته، ومن خلال رؤية ذاته يرى هؤلاء مخلوقاته، وبعضهم قال: هدى عوام عباده إلى مخلوقاته، ومن خلال مخلوقاته يرون ذاته، فإما أن تهتدي من خلال الخلق إلى الحق، وإما أن تفهم الخلق في ضوء رؤيتك للحق.

على كلٍ اسم الهادي من أسماء الله الحسنى، يهديك إلى سواء السبيل، يهديك إلى ذاته، يهديك إلى أمره، يهديك إلى شرعه، يهديك إلى حاجاتك، يهديك إلى دفع مضارك، يخلق في نفسك الهدى.

قال بعض العلماء: فما حظ الإنسان من هذا الاسم ؟ نحن كعباد لله عزّ وجل ما نصيبنا من اسم الهادي؟

قال بعضهم: **" أن يشتغل العبد بهداية الخلق إلى الحق ".**

إذا كنت عبد الهادي يجب أن تشتغل في هداية الخلق إلى الحق، هذا أعظم عملٍ تقوم به، أن تعرّف الناس بخالقهم، أن تعرف الناس بربّهم، أن تعرف الناس بمن بيده ملكوت أمرهم، إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والبَحر(63))

الله عزّ وجل جعل لكل شيءٍ علامة، جميع أنواع الفواكه لها علامة نضج، إذاً من الذي خلق العلامات، كل الأمراض لها علامات، أعراض الأمراض من الهداية، كيف يهتدي الطبيب ؟ ترتفع الحرارة، يصفر اللون، يزيد خفقان القلب، يعرف أن هناك خللاً في هذا الجسم، فالذي هدى الطبيب إلى تشخيص المرض هو الله سبحانه تعالى لوجود هذه العلامات، والذي هدى المزارع إلى قطف الثمار في أوقاتها هو الله عزّ وجل لأنه جعل لكل ثمرةٍ علامة نضجٍ، والذي هدى النحل إلى الأزهار هو الله عزّ وجل، والذي هدى الطير في رحلته الطويلة التي تزيد عن سبعة عشر ألف كيلو متر هو الله عزّ وجل.

الله عزّ وجل خلق وهدى لو خلق ولم يهدِ لهلك الإنسان:

قد تجد طائراً يعشش في بيت من بيوت دمشق، وليكن في حي الصالحية مثلاً، يهاجر في الشتاء إلى جنوب إفريقيا، يعود منها إلى الشمال، لو أنه انحرف نصف درجة لجاء في مصر، لو انحرف نصف درجةٍ أخرى لجاء في ليبيا، لو انحرف درجتين إلى اليمين لجاء إلى العراق، من هداه إلى أن يتجه بزاويةٍ دقيقةٍ جداً حتى يصل إلى دمشق لا إلى بيروت، ولا إلى تدمر، إلى دمشق، وإلى حي الصالحية، وإلى الحارة الفلانية، وإلى البيت الفلاني، حتى يعود إلى عُشِّه الذي بناه قبل عام، من الذي يهدي ؟!!

سمك السلمون الذي يهاجر من ينابيع الأنهار في أمريكا، ويستقر في المحيط الأطلسي، ثم يعود إلى مسقط رأسه، هذا السمك يتجه غرباً، كيف يصل تماماً إلى مصب الأمازون، أو إلى مصب المسيسبي، أو إلى مصب هذا النهر بالذات، لو انحرف قليلاً لجاء في مصب نهرٍ آخر، ويظل يقاوم تيارات الماء والشلالات في الأنهار إلى أن يصل إلى مسقط رأسه وهناك يبيض ويموت، من هداه ؟!!

بعض أنواع الأفاعي في البحار تتجه من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال تحت الماء، أيستطيع إنسان تحت الماء أن يتجه شمالاً في نهر النيل، فينتقل منه إلى البحر المتوسط، فيتجه غرباً إلى أن يقطع البحر

كله من مضيق جبل طارق، ثم يتجه شمالاً محازياً إسبانيا، ثم يتجه شرقاً ليدخل بحر المانش، ثم يتجه شمالاً ليتجه إلى بحر الشمال، وبعدها يعود، من الذي هداه ؟ الله هو الهادي.

هدى الأطيار، وهدى الأسماك، وهدى الوحوش في البراري، وهدى الحيوانات الأليفة، وهدى الإنسان، هداه إلى حاجاته، كل شيءٍ اسمه كشفٌ علمي هو من هداية الله عزّ وجل، ما كان لعالمٍ مكتشف أن يكتشف لولا أن الله ألقى في قلبه هذه الفِكرة، اكتشاف الثروات، اكتشاف المعادن، اكتشاف خصائص المواد، كل شيءٍ يخترعه الإنسان أو يكتشفه صنّفه علماء النفس في حقل الحدس الإشراقي، شيءٌ لا ندري ما هو، فكرةٌ تلقى في قلب هذا العالم، ومضةٌ تبرق في ذهن هذا المكتشف، هو الله، الله هو الهادي، الله عزّ وجل خلق وهدى، لو خلق ولم يهدِ لهلك الإنسان.

الهداية لها معنى آخر فالله تعالى أودع في الإنسان قوة إدراكية ليدرك ما حوله:

يهدي الطبيب إلى الدواء المناسب، يهدي الطبيب إلى تشخيص المرض الصحيح، يهدي المريض إلى الطبيب، خلق الأمراض وجعل لها علامات، خلق الأدوية وجعل لها علامات، وهدى العالم المكتشف إلى خصائص الدواء، وإلى علاقته بهذا الداء، فلو أمضينا أوقاتاً طويلةً جداً في الحديث عن الاسم اسم الله عزّ وجل الهادي لما انتهينا، شيءٌ لا ينتهي عند حد.

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يشير إلى معنىً واحد من معاني اسم الهادي، وهو أنه يهدي المخلوقات إلى جلب منافعها ومصالحها ودفع مضارها.

الهداية لها معنى آخر، من أودع في الإنسان هذه القوة الإدراكية ؟ هذا الحجر موجود وله ذرات تدور حول بعض النويّات، ولكن الحجر لا يدرك، النبات لا يدرك، الحيوان يدرك مصالحه فقط، هو يعيش لهذا الهدف، وكل ما يعينه على بلوغ هذا الهدف يدركه، لكن الإنسان يدرك كل ما حوله، من أودع فيه هذه الحواس الخمس التي يتلقف بها المعلومات من المحيط ؟ من أودع فيه هذا الفكر الذي يحلل هذه الإحساسات ؟

الإنسان أحياناً يرى أفعى في بستان، إذا نظر إليها ينطبع شكلها على شبكيته وهذا هو الإحساس، ثم تنتقل هذه الصورة من الشبكية عبر العصب البصري إلى الدماغ، فعلى شبكية العين يتم الإحساس، وبالدماغ يتم الإدراك، والإدراك متعلقٌ بالمفاهيم، حينما كان طفلاً صغيراً درس في الصف الثاني عن الأفعى، ورأى صورتها في كتاب العلوم، ثم رآها في زجاجة مُحَنّطة، ثم رآها مرةً مع أبيه في بعض البساتين، هذه الصورة وهذا الشكل وهذا المنظر وهذه القصة التي سمعها عن أفعى لدغت طفلاً، يجتمع من خلال هذه المشاهدات والمسموعات مفهوم الأفعى حيوانٌ خطر وسام، لدغته قاتلة، فإذا انطبع شكل

الأفعى على شبكية العين هذا هو الإحساس، انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ، يتمُّ في الدماغ الإدراك في ضوء المفهومات التي حصّلها الإنسان من خلال علاقته بالمحيط، الدماغ يدرك أن هذه الأفعى خطرة، الدماغ يعطي أمراً إلى الغدة النخامية، وهي ملكة النظام الهرموني، الغدة النخامية تعطي أمراً هرمونياً، الدماغ ومن معه الأوامر عصبية من خلال موجات كهربائية، لكن الغدة النخامية هي ملكة ومن معها الأوامر هرمونية، فالغدة النخامية تعطي أمراً إلى الكظر، الكظر يعطي أربعة أوامر، يعطي أمراً إلى القلب ليزيد وجيبه، يزيد خفقانه من أجل أن يمر الدم سريعاً إلى العضلات، لأن العضلات بحاجةٍ إلى قوةٍ للتحرُك، والكظر يعطي أمراً آخر إلى كل الأوردة والشرايين، إلى كل الأوعية الدموية كي تُضَيّق لمعتها، لأن الإنسان وهو خائف ليس بحاجةٍ إلى شكلٍ وردي، بحاجةٍ إلى قوةٍ عضلية، فهذه غدة الكظر تعطي أمراً إلى كل الأوعية الدموية بتضييق لمعتها، فالخائف يصفر لونه، والخائف يزيد خفقان قلبه، ويصدر هرمون ثالث إلى الرئتين ليزداد وجيبها، حتى يتناسق ضربات القلب مع وجيب الرئتين، وأمرٌ رابع يتجه إلى الكبد لطرح كميةٍ إضافيةٍ من السكر، من هو الهادي ؟ الله سبحانه وتعالى.

الإنسان بالعقل والفكر يستدل على شيءٍ مُغَيّبٍ عنه بشيءٍ أمامه:

أنت لا تدري، أنت رأيت أفعى فولّيت هارباً، واصفر لونك، وخفق قلبك، وازداد وجيب رئتيك، ولو فحصنا الدم لكان فيه كمية سكر إضافية، ما دريت شيئاً، من الذي هدى ؟ من الذي هداك ؟ من الذي أودع فيك هذه القوة الإدراكية ؟ أدركت، انطبعت الصورة، حُلِّلَت في الدماغ، عرف الخطر، انتقل الأمر من الدماغ إلى الغدة النخامية، الغدة النخامية إلى من معها، من معها الكظر أعطت أوامر، الله هو الهادي، أنت لا تدري فهذه حادثة واحدة.

جهاز الهضم معقد جداً، جهاز الدوران معقد جداً، أي جهازٍ تتمتع به في غاية التعقيد، الله سبحانه وتعالى هو الهادي، إذاً من أودع في الإنسان تلك القوة الإدراكية ؟ الإنسان بالعقل يستدل، ماذا قال هذا الأعرابي ؟ قال: **" الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعر يدل على البعير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟! "**

الإنسان بهذا العقل أو بهذا الفكر الذي أودعه الله فيه يستدل على شيءٍ مُغَيَّبٍ عنه بشيءٍ أمامه.

لو تتبعتم كيفية أو طريقة اكتشاف الجريمة، لرأيتم العجب العجاب، كل شيءٍ له أثر، لا يمكن أن يترك المجرم الجريمة من دون أثر، ولو شعرة، ولو بصمة، ولو خيط، ولو بطاقة، ولو ورقة، ولو نقطة دم، هذه تقود المحققين إلى خيوط الجريمة، الله هو الهادي، بل إن جريمةً ارتكبت في بعض ولايات أمريكا كما قرأت من دون أن يدع المجرم لهذه الجريمة دليلاً إطلاقاً، القاضي فكّر في أن هذا الذي ارتكب هذه

الجريمة لا بدّ من أنه متخصصٌ في البحث عن المجرمين، إذاً قد يكون قاضياً، وكان عدم ترك الدليل دليلاً، إذاً الدليل هو الله عزّ وجل الذي خلقه، فالإنسان بالفكر يستدل وبالفكر يستقرئ.

هذا المعدن تمدد بالحرارة، من خلال تجارب عديدة يستنبط من أن المعادن تتمدد بالحرارة، هذا استقراء، عندنا استنتاج، ومحاكمة، وتذكّر، ومفاهيم، وعملية الرَبط، وعملية التعميم، هناك البناء، والتحليل، هذا كله من نشاطات العقل البشري، من أودع في الإنسان هذه القوة الإدراكية ؟ الله الهادي، هو الذي يهديك.

الإنسان مخلوق أول مكرم عند الله عزّ وجل:

من جعل هذه الحواس تلتقط هذه الصور ؟ العين تلتقط الصور وتخزنها في الذاكرة، هناك ذاكرة مرئيّات، والأذن تلتقط الأصوات وتخزنها في ذاكرة المسموعات، والأنف يلتقط الروائح ويخزنها في ذاكرة المشمومات، والجِلد يلتقط الأحاسيس ويخزنها في ذاكرة الإحساسات، هذه الذاكرة التي تَنْعُمُ بها فيها عددٌ لا يحصى ولا يعد من الصور، تقول هذا الإنسان رأيته قبل عشرين عاماً، انطبعت صورته في ذهنك، هذا الصيدلي تسأله عن الدواء، يقول لك: نعم عندي، إنها على الرف الثالث على اليمين، معنى ذلك أن هذا الصيدلي كل الأدوية في صيدليته منظمة في ذاكرته، وكل الباعة كذلك، من الذي يهدي ؟ الله سبحانه وتعالى يهدي.

إذاً من جعل هذه الطاقة التي تدرك هذه المحسوسات تستدل، وتحاكم، وتتذكر، وتفهم، وتربط، وتحلل، وتركّب، وتستنتج، وتستقرئ، وتستدل، الله سبحانه وتعالى، لذلك الإنسان مخلوق أول، مخلوق مكرم عند الله عزّ وجل.

الحقيقة موضوع الهدى موضوع دقيق جداً، آثرت أن يكون هذا الدرس متمحوراً حول الهدى، لأن هناك أفكاراً العوام يتداولونها، هذه الأفكار تعيق الإنسان عن أن يهتدي، يقول لك أحدهم: الله عزّ وجل هو الذي يهدي، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وكأنه لا علاقة له بالهدى، هذه فكرةٌ خطيرةٌ جداً، إذا نزعت عنك مسؤولية الهدى، وعزوت الهدى والضلال إلى الله عزّ وجل من دون فهمٍ صحيح، فهذا شيءٌ خطير، هذا يُقْعِدُكَ عن طلب الهدى.

الله عزّ وجل أنعم علينا بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الإرشاد:

بعض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، الله سبحانه وتعالى ماذا قال ؟ قال:

(إِنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

الهدى علينا، أي أن على الله أن يهدي، وهذه (على) تفيد الإلزام، أي أن الله عزّ وجل ألزم نفسه أن يهدي الخلق إليه، وإلى طريق الحق، وإلى طريق سعادتهم، لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، قال:

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78))

(سورة الشعراء)

لا يهدي إلا الخالق، المخلوق لا يهدي إلا إذا أناب إلى الله، الله عزّ وجل قال:

(وَاتّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ)

(سورة لقمان: من آية " 15 ")

والآية الكريمة المعروفة عندكم:

(وَمَا كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)

(سورة الأعراف: من آية " 43 ")

إذا كنت مهتدياً فهذه نعمةٌ كبرى أنعم الله بها عليك، الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

إما أن تكون مع هدى السماء أو أن لا تكون مهتدياً لأن الهدى من الله وحده:

شيءٌ آخر هو أن الهدى لا يسمّى هدى ولا يكون هدىً إلا إذا كان من الله:

(قُلْ إِنّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى)

(سورة البقرة: من آية " 120 ")

وقال:

(قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

آيتين:

(قُلْ إِنّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى)

(سورة البقرة: من آية " 120 ")

وقال:

(قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 73 ")

لا يوجد هدى آخر من عند غير الله، ليس هناك هدىً من الأرض، يجب أن يكون الهدى من السماء، فإما أن تكون مع هدى السماء أو أن لا تكون مهتدياً، الهدى من الله وحده.

كل إنسان مخير في هذه الحياة الدنيا:

شيءٌ آخر، الله عزّ وجل قال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

الإنسان إذا هداه الله عزّ وجل أو إذا اهتدى إلى الله يزيده الله هدىً، والإنسان مخير، الله عزّ وجل قال:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

وقال:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم: من آية " 76 ")

وطريق الهدى هو الجهاد، جهاد النفس والهوى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

الهدى متعلق بالإنسان ولو كان متعلقاً بمحبة النبي لهدى الناس جميعاً:

الهدى من دون جهد مستحيل، هدى وأنت في بيتك، العلم يؤتى ولا يأتي، لا بدّ من أن تتحرك كي تهتدي، لا بدّ من أن تبذل وقتاً تعرف فيه ربك، لا بدّ من أن تبذل جهداً ثميناً في معرفة الله:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

مثلاً شهادة عُليا لا يمكن أن تنالها إلا بجهدٍ كبير، وعرقٍ غزير، ووقتٍ طويل، الشيء الذي أحب أن أنّوه به هو أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا محمد:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

الهدى متعلق بالإنسان، لو أن الهدى متعلق بمحبة النبي لهدى الناس جميعاً:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

أي لن تستطيع أن تهدي من أراد غير الهدى، من أراد شهوته، من أراد ملذاته لن تستطيع أن تهديه:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

الله عز وجل لا يهدي القوم الظالمين ولا يهدي القوم الكافرين:

شيءٌ آخر، لست محاسباً على عدم هدايتهم:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 272 ")

يا ترى الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الآيات:

(يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة المدثر: من آية " 31 ")

من هؤلاء الذين يهديهم إليه، ومن هؤلاء الذين يضلُّهم ؟ في آياتٍ كثيرة بيَّن الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يهديهم، وهؤلاء الذين يضلُّهم، فمثلاً الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

لمجرد أن تقع في الظلم فإن الله لا يهديك، الظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة، الذي يقع في ظلم زوجته، أو ظلم شريكه، أو ظلم جيرانه، أو ظلم من دونه، هذا لن يهتدي إلى الله عزّ وجل، لأن عمله السيئ حجبه عن الله، والله سبحانه وتعالى طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، وفي آيةٍ ثانية:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

لا يهدي القوم الظالمين ولا يهدي القوم الكافرين، الكافر مُعْرِض، هذا الذي أعرض عن الله عزّ وجل التفت إلى الدنيا، إلى الملذات المحرمة، إلى الشهوات المنحطة، إلى مآربه الدنيئة، إلى نزواته الشريرة، هذا الذي يلتفت إلى الدنيا ويدير ظهره للدين هذا كافر، لن يهديه الله عزّ وجل.

كل إنسان له انحراف لن يهتدي إلى الله عزّ وجل لعدة أسباب:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

وقال:

(إنّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

كل إنسان له انحراف لن يهتدي إلى الله عزّ وجل، لأسباب أولاً: لأن هذا الانحراف حجابٌ بينه وبين الله، ثانياً بدل أن يعتقد الحقيقة الموضوعية يدافع عن نفسه وعن انحرافه، يستخدم فكره وعقله لا لمعرفة الله عزّ وجل بل للدفاع عما هو فيه من انحراف، يصبح منطقه تبريرياً، يصبح منطقه في خدمة شهواته، شهواته أولاً وعقله لتبرير شهواته ثانياً، هذا الإنسان لن يهديه الله عزّ وجل.

أية خيانةٍ على وجه الأرض لابدّ من أن تُكْشَفَ لأن الله تعالى لن يهدي صاحبها إليه:

قال تعالى:

(إنّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

وقال:

(إنّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5))

(سورة الصف)

وقال:

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

أية خيانةٍ على وجه الأرض لا بدّ من أن تُكْشَفَ لأن الله عزّ وجل لن يهدي صاحبها إليه..

(إنّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ(3))

(سورة الزمر)

الكاذب مع نفسه والمسرف لا يهديه الله عزّ وجل ولكنه يهدي من رجع وتاب إليه:

هذا الذي يدّعي أنه يحب الحقيقة ولا يبتغيها، يريدها تُكَأَةً لمآربه، ولا يريدها لذاتها، هذا كاذب مع نفسه، فالكاذب مع نفسه لا يهديه الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ(3))

(سورة الزمر)

وقال:

(إِنّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ(28))

(سورة غافر)

المسرف في الشهوات، المسرف في الظلم، المسرف في تجاوزه للحدود، المسرف في العدوان، هذا لن يهديه الله عزّ وجل، يهدي من ؟ الله سبحانه وتعالى يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(16))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(27))

(سورة الرعد)

من رجع إلى الله، من تاب إليه، من اصطلح معه يهديه إلى سواء السبيل.

الله عزّ وجل يلهم المؤمن دائماً طريق الخير والنجاة والفوز والرضوان:

قال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: من آية " 9 ")

المؤمن مسدد، المؤمن ملهم، الله عزّ وجل يلهمه دائماً طريق الخير، يلهمه النجاة، يلهمه الفوز والرضوان.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: من آية " 9 ")

ربنا عزّ وجل قال:

(وَاتّبِعُوهُ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ(158))

(سورة الأعراف)

أي أنك إذا اتبعت هذا النبي العظيم، إذا طبّقت سنته بجملتها وتفصيلاتها تهتدي إلى الله عزّ وجل:

(وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(158))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15))

(سورة النحل)

كل ما في الكون خُلِقَ ليهدي الإنسان والإنسان هو المخلوق الأول غافلٌ عن الله عزَ وجل:

الكون يهديك، وسنة النبي تهديك، والقرآن يهديك:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

القرآن يهديك، وسنة النبي تهديك، والكون يهديك.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

الحوادث تهديك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

الفطرة تهديك، والعقل يهديك، والكون يهديك، وكل شيءٍ يهديك فماذا تنتظر ؟ ألا يستحي الإنسان من هذه المخلوقات التي هي دونه بكثير والتي تسبّح بحمد الله دائماً:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

هذه الورقة تسبّح الله، هذا الغُصن، هذه الشجرة، هذه الزهرة، هذا المخلوق، هذا الحجر يسبح الله، والإنسان هو المخلوق الأول غافلٌ عن الله عزَ وجل، إذاً العقل يهديك، والفطرة تهديك، والكون يهديك، والقرآن يهديك، والنبي يهديك، والسنة تهديك، والحوادث تهديك، وإلهامات المَلَك تهديك، وقد يريك الله مناماً يهديك به، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الشيء الخطير أن يكون الإنسان ضالاً ويحسب أنه مهتدِ:

لكن الشيء الخطير أن يكون الإنسان ضالاً ويحسب أنه مهتدِ، هنا الخطورة، فالكفّار:

(وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(30))

(سورة الأعراف)

هذه مشكلة كبيرة جداً.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

هو ضالٌ مضل ويحسب أنه مهتدٍ، والشيء الدقيق أن المهتدين قِلّة، ربنا عزّ وجل قال:

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(26))

(سورة الحدي)

وقال:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

وقال:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا)

(سورة يونس: من آية " 36 ")

الله وحده هو الذي يعلم من هو المهتدي ومن هو الضال:

الأكثرية في ضلال فلذلك:

(فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(26))

(سورة الحديد)

والحقيقة الله وحده هو الذي يعلم من هو المهتدي من الضال ؟

(وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(6))

(سورة النساء)

وقال:

(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(79))

(سورة النساء)

الهدى القسري الذي لا يُبنى على اختيارٍ شخصي من الإنسان لا قيمة له:

على كلٍ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(13))

(سورة السجدة)

وهناك آياتٌ كثيرة تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

هذا الهدى القسري الذي لا يُبنى على اختيارٍ شخصي من الإنسان لا قيمة له إطلاقاً، لا عند الله، ولا عند الناس، ولا عند الذي تم الهدى له، فكلما مرت بكم مثل هذه الآيات يجب أن تفهموها فهماً دقيقاً، فالجامعة بإمكانها أن توزع أوراق الإجابة وقد كتبت عليها الإجابة الصحيحة، ويكلف الطلاب كتابة أسمائهم وأرقامهم ليس غير، ويعطى كل طالبٍ العلامة التامة، هذه طريقة من طرق النجاح العام، ولكن هذا النجاح لا قيمة له لا عند إدارة الجامعة، ولا عند الطلاب الناجحين بهذه الطريقة، ولا عند الناس.

سر رُقي الإنسان في الجنة أنه مخير:

كلما مرّ بكم آيةٌ بهذا المعنى:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

لماذا لم يشأ ؟ لأن الإنسان مخيّر، ولا قيمة للهدى إلا إذا جاء بطلبٍ منه، وبمحض اختيارٍ منه، أما إذا أجبر عليه لا قيمة له، فليس معنى هذه الآية أن الله عزّ وجل لا يحب الهدى للناس، لا، المعنى أن الله عزّ وجل كرّم هذا الإنسان أعظم تكريم، منحه حرية الاختيار، ولن يسعد في الجنة إلا إذا جاءه طائعاً، لا يكون العبد عبداً لله عزّ وجل إلا إذا أطاعه وبإمكانه أن يعصيه، لا يمكن لهذا العبد أن يرقى عند الله عزّ وجل إلا إذا أقبل عليه وبإمكانه أن يبتعد عنه، إذا لم تبتعد عن المعصية لا قيمة لهذا القرب وهذا الهدى، إذاً كل آيات القرآن التي تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد: من آية " 31 ")

أي يا عبادي أنتم مخيرون، لو أنني سأجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى، ولكنكم مخيرون، إذاً سر رُقي الإنسان في الجنة أنه مخير.

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

قيمة العمل تأتي من حرية الاختيار، المسؤولية تأتي من حرية الاختيار، الجنة قيمتها من حرية الاختيار، النار عذابها من حرية الاختيار، لو ألغينا حرية الاختيار لما كان هناك وعدٌ ولا وعيد، ولا ثوابٌ ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولكان إنزال الكتب عبثاً، وإرسال الرسل لعباً، ولكان الثواب وهماً، والعقاب ظلماً، وهكذا.

الإنسان مسيّر لما اختار وهو مسير لدفع ثمن اختياره:

إذاً آيات القرآن الكريم كثيرة تنطق بأن الإنسان مخير:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

الإنسان في دائرة مخيّر، وفي دائرة أوسع منها مسيّر، هو مسيّر لما اختار، والإنسان مسير لدفع ثمن اختياره، إذاً هذا الذي يقول: إلى أن يشاء الله، إلى أن يأذن الله، لا أصَلّي حتى يأذن الله، هكذا يريد سيدك، وهذا ترتيب سيدك، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً، وكلام العوام كلامٌ مرفوض، وآيات الهدى واضحة تماماً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 64 - 72

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-03-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع عشر من سورة النمل.

في بدْء الخلق تتمثّل أسماء الله الحسنى وفي إعادة الخلق يتمثّل اسم الحق:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أإله مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

(سورة النمل)

الله سبحانه وتعالى يطّرحُ أيضاً هذا السؤال على الناس، أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ الله سبحانه وتعالى بدأ الخلق وسوف يُعيد الخلق، في بدْء الخلق تتمثّل أسماؤه الحسنى، وفي إعادة الخلق يتمثّل اسم الحق، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أإله مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

الإيمان بالله عز وجل من لوازمه أن تؤمن باليوم الآخر، لأنّ الحياة فيها قويّ وضعيف، صحيح ومريض، فيها طويل العمر وقصيره، وفيها أنواع مُنَوّعة من الحظوظ، الله سبحانه وتعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توْزيع ابْتِلاء، فكلّ إنسانٍ حظّه من الدنيا مادَة امْتِحانه مع الله عز جل، قال تعالى:

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7))

(سورة هود)

الله تعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توْزيع ابْتِلاء لكنّها في اليوم الآخر تُوَزّع توزيع جزاء:

لكنّ اليوم الآخر من أجل أن تُوَزّع الحظوظ ثانيةً توزيع جزاء، قال تعالى:

(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (22))

(سورة الجاثية)

يوم الدِّين، ويوم الجزاء، ويوم الحِساب، ويوم الدّينونة، ويوم يقوم الناس لربّ العالمين.

في إعادة الخلق يأخذ كلّ إنسانٍ حقه، ويُعْطى كلّ ذي حقٍّ حقهُ، فالإنسان إن رأى الأمور على غير ما يرام في الدنيا فليصبر فنحن في دار ابتلاء، ونحن في دار عمل، ونحن في دار سِباق، ونحن في دار تكليف وامتِحان، أما اليوم الآخر فهو يوم الجزاء، ويوم العدل، ويوم القسط، ويوم الفصل، ويوم الدّينونة، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (64))

هذه السماء من الذي جعلها تُمطِر ؟ هل في الأرض كلّها جهةٌ تستطيعٌ أن تتّخِذ قراراً بإنزال المطر، مهما علتْ هذه الجِهة، ومهما سَيْطرَت، ومهما اتّسَعَ نفوذها، ومهما امْتَلَكَتْ من أسْلحةٍ، هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تمتَلِكَ إنزال المطر ؟!! لذلك في البلاد المطيرة التي تشْهد عمّا يزيد عن ألف ميلي متر في العام، في العام الماضي عانَتْ من قحْطٍ وعطشٍ شديد، الله سبحانه وتعالى هو الذي يسْمَحُ للسّماء أن تُمْطر، لو أنّ السماء أمْطرَت من الذي يجْعَلُ هذه البِذْرة تُنْبِتَ ؟ فهذه البِذْرة فيها رُشَيْم، وإذا كان قد بلغنا أنّ بعض أنواع البذور السّبْعين ألف بذرة منها يساوي غراماً واحداً ! وكلّ بذرة فيها غِشاء، وفيها محفظة غِذاء، ورشيم حيّ، هذا الرُشَيم مؤلّف من سُوَيْق، ومن جُذَيْر، من يجعل هذا الرُشَيم ينبت في الجوّ المناسب ؟ وفي الرطوبة والدِّفء والضّوء ؛ ثلاثة شروط، هو الله ! لذلك من يرزقكم من السماء والأرض ؟ لو أنّ السماء لا تُمْطِر والأرض لا تُنبت هل يبقى على وجه الأرض إنسان ؟

آية النبات وحدها آية كافِيَةٌ لِمَعرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(أإله مَعَ اللَّهِ (64))

هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تدّعي ذلك ؟ هل تستطيعُ جهة في الأرض أن تقول: أنا أُنْبتُ النّبات وأنزلُ المطر ؟ آية النبات وحدها آية كافِيَةٌ لِمَعرفة الله عز وجل، هذه الأشجار الآن أزْهَرَت وقد كانت أخْشاباً، من جعل هذه العُصارة تمشي فيها ؟ من جعَلَ هذا الماء الذي تمتصُّه من باطن التربة يصْعد إلى أعالي أغْصانها ؟ هل هناك مضَخّة ؟ ومن جعل هذه الأنابيب التي تصعدُ نحو الأعلى مُزَوّدة بأجهزة دقيقة جدّاً تُسمَى الخاصة الشّعريّة ؟ ومن جعل هذه الأنابيب الهابطة مُزوّدة بمَصافٍ ؟ هذه العُصارة الهابطة هي التي تصنع الفاكهة، فالمعمل هو الورق، والورقة تُصْنع فيها العُصارة الهابطة، وتهبطُ وتُصبحُ تُفّاحة أو كُمّثرى أو أنواعاً منوّعة من الفواكه، قال تعالى:

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ(4))

(سورة الرعد)

كلمة إنّ في الآية تعني التّوكيد:

الإنسان إذا لم يلتَفِت إلى هذه الآيات الصارخة، فإلى ماذا يلتفت ؟ قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (64))

ما قيمة المال لو لم يكن هناك الثّمرات ؟ مِن القِصص المألوفة أنّ إنساناً كان يقطعُ البوادي والقفار على راحلته، فضلّ الطريق، نفِدَ في هذه الرّحلة طعامه وشرابه، فلاحَ له عن بُعْدٍ شجرةً فأشْرقَ في نفسِهِ نور من الأمل، هرع نحْوها، فإذا إلى جانب الشّجرة بِرْكة ماءٍ، شربَ منها حتّى ارْتوى، ثمّ تولّى إلى الظلّ فإذا كيسٌ مملوء، فَسُرّ به سُروراً عظيماً وهو يحْسبُ أنّ فيه خبزاً، ولكن فتَحَ الكيس فما وجد به إلا لآلئ، فصاح قائلاً: وا أسفاه ! هذه لآلئ !! ماذا يفعلُ بها ؟ ما قيمة اللآلئ والجواهر والألماس والذّهَب إذا فقد الطعام والشراب، فالرزق في السماء والأرض، الأرض تُنبت والسماء تُمْطر، ولولا أنّ السماء تمطر والأرض تنبت لما كانت هناك حياة إذاً هذه العُمْلة ؛ النّقود هي أشياء رمْزِيَة، أما الأساس أنّ الله عز وجل هو الرَزاق ذو القوّة المتين، وكلمة إنّ في الآية تعني التّوكيد، تقول: إنّ العِلم نافعٌ، وتقول: العِلم نافعٌ، ماذا أضافَت إنّ على التّركيب ؟ التّوكيد، فالله تعالى قال:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(58))

(سورة الذاريات)

أكّدَ لك أنّه هو الرزاق بكلمة (إنّ)، وأكّدَ لك أنّه رزّاق بكلمة (هُوَ)، وأكّدَ لك أنّه هو الرزاق بصيغة الرّزاق، وهي صيغة مبالغة على وزن فعّال.

كلمة (على) هنا تُفيد الإلزام والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفْسهُ برزق المخلوقات:

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

مَن لاستغراق أفراد النّوْع، أيّةُ دابّة مهما ضؤُلتْ، وإنّ الله يرْزقُ النّملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظّلماء، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

أيّ دابّة على سبيل الاستقصاء، وعلى سبيل التّقَصّي إلا على الله رزقها، وكلمة (على) هنا تُفيد الإلزام، والله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفْسهُ برزق المخلوقات، لذلك قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (64))

يقول لك: الله هو المُسعِّر، فقبل سَنَتَيْن، الذين ضَمِنوا فاكهة المِشْمِش كما تُسمّى دفعوا ثمنها عشرة ليرات للكيلو، فإذا أسعارها خمس ليرات، جاءَتْ كمِّيات كبيرة جدّاً فانْخَفَضَتْ الأسعار، من جَعَلَ أسعار الحِمْضِيّات في هذه السّنة قليلة ؟ الله سبحانه وتعالى، يكثر المحصول فتنخفض الأسعار، لذلك إن قلتَ: إنّ الله هو المُسَعِّر فهذا كلامٌ صحيح لأنّ السِّعْر يتناسب مع الكميّة، أحياناً تأتي الكمِّيات خياليّة، كلّ سنة يظْهر لِعباده بعض آياته، في العام الماضي القطن كان بكَمِّياتٍ كبيرة فربّنا عز وجل هو الرّزّاق، يُضاعف الكمِّيات أضعافاً مُضاعفة فيهْبط السِعْر، لذلك هو المسعِّر، قال لي مرّةً أخٌ: إنّ الدُّراق دائماً غالٍ وقد بيع الكيلو منه بليرة في سوق الخضار هذه المرة، قال تعالى:

(إنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ(58))

(سورة الذاريات)

الله عز وجل إذا قنّنَ فتقنينُهُ تقنين تأديب وليس عنده تَقنين عَجْز:

الله عز وجل إذا قنَّنَ فتقنينُهُ تقنين تأديب، وإذا أعطى فهذا إكرام والله عز وجل ليس عنده تَقنين عَجْز، أما نحن بني البشر إذا قنّنا فعن عَجْز، قال تعالى:

(قُلْ إنّ رَبّي يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (36))

(سورة سبأ)

وفي آية ثانية:

(وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأرْضِ وَلَكِنْ يُنَزّلُ بِقدَرٍ مَا يَشَاءُ إنّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

(سورة الشورى)

فهناك حِكمة من التَّضييق، قال تعالى:

(وَألّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لأسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقَاً(16))

(سورة الجن)

قال تعالى:

(وَلَوْ أنّ أهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالأرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

(سورة الأعراف)

الرّزْق مُتَعَلِّق بالله تعالى فِعْلاً ومُتَعلِّق بالعبد اسْتِحقاقًا وحِكمة:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ(66))

(سورة المائدة)

الرّزْق مُتَعَلِّق بالعَبد، ومتعلِّق بالله تعالى فِعْلاً، ومُتَعلِّق بالعبد اسْتِحقاقاً وحِكمة، وفي الأثر:

((إنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغْنَيْتُهُ أفْسَدتُ عليه دينه ـ لِمُجَرّد أن يغتني يعْصي، فرحمةً به يبقى في ضيق ـ وإنّ من عِبادي من لا يصلْحه إلا الغِنى فإذا أفقرْتُهُ أفسدْتُ عليه دينه.))

[ورد في الأثر]

يُحِبّ العطاء لذلك الرّزق متعلِّق من حيث الفِعْل بالله عز وجل، ومن حيث الإنسان بالاسْتِحقاق أو الحِكمة، قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

قبل سنوات قليلة حصَلَتْ في إفريقيا مجاعَة، شحّتْ الأمطار، ويبسَ النبات، ومات الحيوان وأوْشَكَ الإنسان أن يموت فرحل، الله عز وجل بيَدِهِ المِفتاح، والرّزق بيَدِهِ إما أن يفتحَهُ أو يقننه، أحياناً ترى أنّ هذه البلاد تُعاني مِن شُحّ الأمطار، وبلاد أخرى تُعاني من كثرتها حتى أصبَحَت سُيولاً قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

(سورة الحجر)

الإنسان في قبْضة الله لن ينْجُوَ من قضائه إلا أن يكون كما يريد:

أحياناً يأتي الصّقيع فيُتْلِفُ كلّ المحصول، قبل أربعة أسابيع جاءَت موجة صقيع في المنطقة الوُسطى من القطر ؛ تسعة تحت الصِّفر، محاصيل كثيرة تلِفَتْ، جاء الصّقيع في وقتٍ غير مناسب وإنّ الله هو خالق كلّ شيءٍ، وأنت تحت ألطاف الله عز وجل، وأنت في قبْضة الله تعالى، يكون لك محصول يُقدَّر بالملايين، من خِلال مَوْجة صقيع نصف ساعة يصبحُ أسود اللّون، قال تعالى:

(فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(45))

(سورة الكهف)

الآية الكريمة:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(22)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(23))

(سورة القلم)

أنت وتِجارتك وزراعتك وصناعتك ومتْجرك وصحتك وصناعتك في قبْضة الله، لا يُنَجِّيك ممّا يريد إلا أن تكون كما يريد، إذا كنتَ له كما يريد كان لك كما تريد ! ابْن آدم كُنْ لي كما أريد أكن لك كما تريد، كُن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصْلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمْتَ لي فيما أريد كَفَيْتُكَ ما تريد وإن لم تُسلِم لي فيما أريد أتْعَبْتُكَ فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أُريد وهذه حقيقة أساسيّة في الدِّين، إذا وصلتَ إليها وصلْتَ إلى كلّ شيء، يعني أنت في قبْضة الله، لن تنْجُوَ من قضائه إلا أن تكون كما يريد، لذلك أرْجحكم عَقلاً أشدّكم لله حبّاً وطاعة، كلّما رجَحَ العقل ارْتَفَعَ مستوى الطاعة، وكلّما انْخفض مستوى الطاعة فهذا لِخَلَل في العقل، لأنّ المصير بيَدِهِ، مصيرك، وصحّتك، ورزقك، وأولادك، وأهلك، ومن حولك، ومن فوقك، ومن دونك، كلّهم بيَدِ اله عز وجل.

الله تعالى بيَدِهِ كلّ شيء وفي الكون حقيقة كبرى ولا حقيقة سواها وهي الله سبحانه:

سَمِعتُ قبل شهْرٍ أن عاصفة من الرّياح هبّتْ في بلدٍ أوروبي، سرعتها مائة وثمانون كيلو متراً بالساعة، سبعون مؤسّسةٍ زراعيّة فلّسَتْ، ضاعَتْ أصولها، وحتى البناء قُلِعَ من أساسه، وحتى النباتات، والمحصول، والبيوت كلّها أصبَحَ هباءً منثوراً، فالرّياحُ تُدَمِّر والسيول والأمراض ؛ إذْ هناك أمراض للنباتات وأوبئة، أحياناً ذُبابة تقضي على المحصول كلّه، وهناك أمراض تُصيبُ البشر، فَكُلّ الناس في قبضة الله عز وجل، هؤلاء في الغرب الذين حكّموا عقْلهم في كلّ شيء، واسْتَغْنوا عن الله عز وجل جاءَتهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم، فمرَض الإيدز ؛ هذا مرض وشبحٌ مخيف، أقلق الناس، وهزّهم من أعماقهم، فالله عز وجل بيَدِهِ كلّ شيء، وهذه حقيقة خطيرة، وفي الكون حقيقة كبرى، ولا حقيقة سواها وهي الله سبحانه وتعالى، فكلّ إنسانٍ يتجاهَلُ هذه الحقيقة، ويتجاهل أمرها ونَهْيَها، ويتجاهل ما عندها من عطاء وعذاب، إنسانٌ أحمق، فلو كنتَ بمَكان عملك، وشخصٌ أمرُهُ نافذ، وكلمته هي الأولى، بيَدِهِ كلّ التّفصيلات ؛ هل بإمكانك أن تتجاهل وُجودهُ أو سُلْطَتَهُ أو تأثيرهُ ؟ هذا فيما يتعلّق بعَملنا، فكيف فيما يتعلّق بعَلاقة الإنسان بالله عز وجل ؟ الله عز وجل يقول:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (64))

بدْءُ الخلق مَظْهرٌ لأسمائِهِ الحُسنى، وإعادة الخَلْق مَظْهرٌ لِعَدالته، أتمنّى عليكم أنْ تَفْهموا هذه الحقيقة ؛ الدّنيا دار ابتِلاء وليْسَتْ دار جزاء فَيُمكن أن تُبْتَلى بها ويكون لك عند الله تعالى مقامٌ كبير، وقد تُعْطى

الدّنيا لأهل الدنيا، وليس لهم عند الله مِن شأنٍ إطلاقاً، معظم الناس يظنُّون أنّ الدنيا مِقياس رضاء الله عز وجل، وأنّ الله أكرمني، وأعطاني، وأخذ بيدِي، إذا كنتَ مستقيماً على أمر الله فهذا كلّه عطاء صحيح، فإيّاك أن تفْهم أنّ الدنيا وحدها مؤشّر لرضاء الله عز وجل إطلاقاً، ولكنّك إذا استْخدمتَ الدنيا في مرضاة الله عز وجل تُصبحُ الدنيا مؤشّراً لمرضاة الله عز وجل.

الإكرام بعد الطاعة مباشرة والعقاب بعد المخالفة مباشرة يُلغي الاختيار ويحل محله الاضطرار:

قال تعالى:

(فَأَمّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَهَانَنِي(16)كَلا)

(سورة الفجر)

ليس هذا ولا ذاك، وهذا كلامكم، وهذه مَقولتكم، لذا قال تعالى:

(كَلاَّ)

نَفيٌ وردْع وزجر، فليس عطائي إكراماً ولا مَنْعي هواناً، إنّما عطائي ابْتِلاء، وحِرْماني دواء، أتُرَى أنّ هذا الطِّفل الذي يُحِبّه أبوه إذا التَهَبَتْ أمعاؤُهُ، ومنعهُ من الطّعام، أمَنْعُه ابنه من الطّعام يُعَدُّ إهانةً له ؟ لا والله:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

وفي رواية أخرى:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[أخرجه البيهقي عن حذيفة بسند فيه ضعف]

فأنت إذاً في دار امْتِحان، وقد تكون مستقيماً على أمر الله، وقد تأتي الأمور على غير ما تريد، لِيَنظر الله كيف تفْعَل ؟

والنُّقطة الثانيَة: لو أنّ الله تعالى أَطعْتَهُ في شيء فجاء الإكرام مباشرةً خالفْتَهُ في شيءٍ فجاء العقاب مباشرةً، التغى الاختيار وحلّ محلّه الاضطرار، ما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ إذا رأى الكافر أنّ هذه المعصِيَة تُسَبّب له مشكلة كبيرة، تركها وهو كافر، عندئذٍ يُلْغي الاختيار، والله عز وجل مِن سنّتِهِ في خلْقِهِ يمكن أن يَعْصيهِ الإنسان ويبقى صحيح الجِسم، قويّ البُنْيَة، غَنِيّاً، وفي عمله متفوّقاً، إلى أمدٍ ثمّ يأتي الحِساب، ويمكن أن تُطيعَهُ وأن تبقى في وَضْعٍ مُحْرِج، لِيَمْتَحِنَ حبّك له، أتُحِبُّه من أجل ما عنده أم من أجل ذاته ؟ والحديث القدسي:

((منْ أحبّنا أحببْناه، ومن طلبَ مِنّا أعْطيناه، ومن اكتفى بِنَا عمّا لنا كنّا له وما لنا.))

[حديث قدسي]

الله سبحانه وتعالى يريد أن تستقيم على أمره حُبّاً به لا حُبّاً بما عنده ولذلك يمْتَحِنُكَ:

يا ترى أنت تستقيم على أمر الله طمَعاً في رِزْقٍ وفير ؟ هذه اسْتِقامةٌ مَشوبة، وتستقيم على طاعة الله طمعاً في رِفْعة مكانتك عند الناس ؟ هذه اسْتِقامة مَشوبة، الله سبحانه وتعالى يريد أن تستقيم على أمره حُبّاً به، لا حُبّاً بما عنده، ولذلك يمْتَحِنُكَ، وتستقيم على أمره والدنيا مُدْبِرَةٌ عنك، ويأتي إنسانٌ آخر يعْصيهِ والدُّنيا مُقْبلة عليه، تقول: والله هذا شيءٌ غريب ! هذا يعصي الله ليل نهار ويزداد قوّةً وغِنىً، وهذا الطائع هكذا حاله ؟!! هناك حِكمة بالغة، لو أنّ الله سبحانه وتعالى أعقبَ الطاعة بِثَوابها، وأعْقبَ المعْصيَة بِعِقابها لالْتغى الاختيار، وصار هناك اضْطرار، ولانْتَفَتْ قيمة الأعمال، لا يمكن أن تُسمّى طاعتك طاعة إلا إذا أطَعْتَهُ لِوَجهه الكريم، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً(9))

(سورة الإنسان)

قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64))

في الآية التالية صِياغة قصْر وحصر فالغيب لا يعلمه إلا الله:

الآية التي بعدها قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

إذا قلنا الله يعْلَمُ الغيب فهذه العِبارة لا تعني أنّ أحداً آخر لا يعلم الغيب، فالله يعلمُ الغيب، وقد يعلمُ الغيب غيره، لو أنّ الله عز وجل قال: للإنسان ما سعى، وقد يكون له ما لم يسْعى، أما لمّا قال:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

فهذا فيه قصْر وحصر، وفيه قَيْد، وربّنا عز وجل لو قال: الله يعلمُ الغيب، هذا لا ينفي أنّ جِهةً أخرى تعلمُ ذلك، ولكنّ الله عز وجل يقول:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

هذه صِياغة قصْر، إذاً الله وحدهُ يعلمُ الغيب.

النبي مع رفعة شأنِهِ ومع أنه سيد الخلق وحبيب الحق إلا أنه لا يعلم الغيب:

الآن إذا اعْتَقَدْت أنّ جهةً في الأرض تعلمُ ما سيَكون ـ قال بعض العلماء ـ يُخْشى أن يكون هذا الاعتقادُ كُفْراً، فالغَيب لا يعلمُهُ إلا الله، والنبي عليه الصلاة والسلام مع رفْعة شأنِهِ، ومع أنّه سيّد الأنبياء والمرسلين وسيّد الخلق وحبيب الحقّ، ومع ذلك لا يعلم الغيب، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188))

(سورة الأعراف)

الإمام مالك فيما ترْوي الكُتب والسِّيَر رأى في المنام ملكَ الموت، فقال: **يا ملكَ الموت كم بقيَ لي من عمري ؟** فأشار له بأصابعه ـ يعني خمسة ـ فاسْتَيْقظ الإمام مالك وهو يظنّ أنّهُ بقيَ له خمسُ سِنين وقال: **لمَ لا تعني هذه الإشارة خمسة أشْهر، أو خمسة أسابيع، لمَ لا تعني خمسة أيام، أو خمسة ساعات أو أقلّها،** فهب الإمام مالك صاحب دار الهجرة إلى الإمام ابن سيرين وكان وحيد عصْرِهِ في تفسير الأحلام، فقال له: **يا إمام رأيْتُ ملكَ الموت وسألْتُهُ كم بقيَ لي، فأشار لي خمسة ؟ فماذا تعني هذه الإشارة ؟** فقال له هذا الإمام: **يقول لك ملكُ الموت: إنّ هذا السؤال من بين خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله !** فملَكُ الموت لا يعْلمُ متى قبْض الأرواح، فهو يُؤْمَر أمراً فوْرِيّاً.

المَقصود في الآية غيب المستقبل أي ما سيكون بعد هذه الساعة وهذا لا أحدَ يعلمُهُ إلا الله:

قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الغيب غَيب الماضي، وغَيب المستقبل، وغَيب الحاضِر، فغَيْبُ الحاضر مثلاً ما يجري الآن في حلب، نحن هنا لا نعلمُ ما يجري، أما أهل حلب فيعلمون ما يجري، ولو اتّصلنا هاتفيّاً عرفنا ما يجري، لذلك الجنّ أحياناً تسْتخدِمُ غَيب الحاضِر لإيهام الناس أنّهم يعلمون الغيب، ولكنّ المَقصود في الآية غيب المستقبل، أي ما سيكون بعد هذه الساعة، هذا لا أحدَ يعلمُهُ، تجدُ مدينة عامرة، وفجأةً يأتي زلزال يدمرها، فهناك زلزال وقع في قرية من قرى إيطاليا، وهذا الزلزال قبل خمسين عاماً أثناء التّنقيب وجدوا آثار مدينة مَغْمورة برَماد بُركاني، حينما نقّبوا عن الآثار وحقَنُوا هذه الآثار بالجبصين السائل رأوْا مدينة تقريباً بعد الظّهر، وهي في أوْج نشاطها انفجرَ بركان في شمالها، وخرجَت منه حمم ورماد بركاني غطّاها على ارتفاع خمسة أمتار، الناس في بيوتهم كانوا يتناولون طعام الغذاء حتى أنّهم وجدوا نوع الطّعام، والأمّهات تحنو على أطفالها، ووجدوا بعض الأغنياء ينْدفِعون إلى جمْع الذّهب والفضّة

لِيَهربوا بها ! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، الزّلزال قد يأتي فجأةً تُصبح الأمور بوَضْع آخر وقد يأتي موتٌ زؤام ومُعجّل، والإنسان قد يموت بحَادِث، وقد يموتُ بِسَكتَة دِماغِيَّة.

المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمدُ على الله والكافر يأخذ بالأسباب ويعتمدُ عليها:

طبيبٌ سَمعتُ عنه كان يُثبتُ للناس أنَ الركْض هو خَيرُ رياضة، وأنّ من يركض لا يصيبُه أيّ مرض، ماتَ وهو يركض ! طبيبٌ شهيرٌ جدّاً في مِصر، وهو أوّل طبيب في القلب ماتَ بِسَكتة قلْبِيَّة !! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، وأيّةُ جِهة أخرى لا تعلمُ الغيب، فلذلك الإنسان حينما يعْتَمِدُ على الأسباب يكون قد أشْرك، ولكنَ المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمدُ على الله، والكافر يأخذ بالأسباب ويعتمدُ عليها، فهذا الصاروخ الذي سمَوهُ المُتَحَدّي بعد سبعين ثانِيَةٍ أصبْحَ كتلةً من اللّهَب !! من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، لذا الحظوظ التي تكتب وترسم في المجلاّت برج كذا وبرج كذا هذه كلّها كلامٌ باطل، ومن فعلَ هذا فقد كفر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد.))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة.))

[مسلم عن صفية]

لذا انْتبِهوا، والله عز وجل قال:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الله وحده العالم للغيب، لذلك قال أحدهم: بيني وبين الملك يومٌ واحد فما مضى انْقطَعَ خيْرُهُ وشرُّه، وما سيكون بِعِلم الله، هذا اليوم الذي أعيشهُ هو الذي بيني وبينه ! فكُلّ إنسانٍ يُجْزِئُهُ لُقَيْماتُ خبزٍ وفِراشٌ ينام عليه، حديث:

((من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

من عدّ غداً من أجلهِ فقد أساء صُحبة الموت:

ثمّ يقول تعالى:

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

هذا اللِّقاء الذي مع الله عز وجل ماذا أعْدَدْتَ له ؟ تجد الإنسان يُخَطِّط لِعشرين سنة قادمة، قال لي أحدهم: أخاف أن أُركِّب تدفئة مركزية، وأجعل الأنابيب تحت البلاط، وبعد مدة اضطر فأكسر البلاط، وبقيَ سنة في حَيْرة، وبعدها استَقرّ الأمر أن يركِّبَه داخلياً، قال لي: بعد عشرين سنة إذا صار هناك عِطل سأُقيم تركيباً ظاهراً ما الذي يُدْريك أنّك تعيش عشرين سنة أخرى ؟ والله الذي لا إله إلا هو التَقَيْتُ مع شخْصٍ خطّطَ لي لِعَشرة سنواتٍ قادمة، قال لي: سأتقاعَد أنا إن شاء الله، وأريد أن أعمِلَ إعارة للجزائر، وسأزور أوروبا كلّ صَيْفِيّة ؛ فرنسا وإنجلترا، وأرى المعالم والآثار والمتنزّهات، وبعد أن تنتهي الإعارة أفْتحُ محلاً تِجارياً أضعُ فيه هدايا، وأرتاح، وهذا الكلام قاله لي الساعة العاشرة صباحاً، كنت في مركز المدينة وأنا في طريقي إلى البيت رأيْتُ نَعْوَتَهُ على الجدران **!!** والله في اليوم نفسِهِ **!!!** لا تقل: بعد سنة وبعد كذا **!** لذا من عدّ غداً من أجلهِ فقد أساء صُحبة الموت لذلك:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

أحدهم عنده دَين عند صاحب له، فالمدين عمرهُ خمسةٌ وثمانون والدائن عمرهُ اثنان وثلاثون سنة، تمازحا فقال الدائن للمدين: اِدْفَع لنا الدّين قبل أن تموت، فَماتَ قبل ذاك الشيخ بِسَكتة قلبيّة، من يعلمُ الغيب ؟ الله سبحانه وتعالى، هناك إنسان قال عنه الأطِبّاء أنه انتهى، وكُتِبَت النَّعْوَة، واشترى النِّساء اللِّباس المناسب للعزاء، وانتهى كلّ شيء ثمّ أكْرمَ الله هذا الإنسان الميؤوس منه بالحياة، الذي كتَبَ النَّعْوَة تحت أطباق الثرّى، والذي كُتِبَتْ نَعْوتُهُ حيّ يُرْزَق، دائماً إذا قال الإنسان: إن شاء الله فقد تأدّب مع الله، هذه ليْسَت كلمة والأجانب يسْخرون من المسلمين لاستخدام كلمة إن شاء الله، فهم إذا قالوا إن شاء الله دلّ هذا على عدم فِعلهم للشيء، فإذا قال لك إن شاء الله سآتي يعني لن يأتي، وإن شاء الله سأدفع يعني لن يدْفع، أما إن شاء الله تعالى التي يقولها المؤمن له عزيمة تقْهر الجبال أن يفْعل هذا الشيء إلا أن يُحاط به، فهو يقول إن شاء الله تأدُّباً مع الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65))

الموت حقّ والتَفَكُّر به ليس تشاؤماً ولا يقدِّم ولا يؤخِّر لكنّ التّفكّر بالموت تهيئة له:

الإنسان يسأل سؤالاً محرجاً: أنا أموت في هذا البيت أم في بيتٍ آخر ؟ أموت بين أهلي ؟ أم في الطريق ؟ أو أنا مُسافر ؟ أين أموت ؟ قال تعالى:

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

(سورة لقمان)

العِبرة أن تستَعِدّ للموت، هذا الأعرابي الذي قال للنبي عليه الصلاة والسلام أُريد أن تُعلِّمني من غرائب العِلم، فقال: **وماذا صنعْتَ في أصل العِلم** ؟ قال: وما أصل العِلم ؟ قال: **هل عرفْت الربّ** ؟ قال: إن شاء

الله، قال: **فماذا صنَعْتَ في حقِّهِ ؟** هذا هو السؤال ؛ إذا كنتَ تعرف الله فماذا صَنَعْتَ من أجلهِ ؟ وماذا أعْطَيْت ومنعْت من أجله ؟ ومن وصلْت ؟ ومن قطَعْت ؟ ومن وددت ؟ ومن عادَيْتَ ؟ وما الموقف الذي وقفْتهُ من أجل الله ؟ وما الذي تركْتهُ لله ؟ قال له: **هل عرفْت الموت ؟** قال: نعم، قال: **فماذا أعْدَدْت له ؟** فقط هذا السؤال! الموت حقّ، والتَفَكّر بالموت ليس تشاؤماً ولا يقدّم ولا يؤخّر، لك عند الله أجل لا يزيد ولا ينقص، لكنّ التَّفكّر بالموت تهيئة له، واسْتِعداد له، وتأتي الدنيا وهي راغمة، ولقد أوحى ربّك إلى الدنيا أنّه من استخدمك فاسْتَخدميه، ومن خدَمَني فاخْدُميه، تفرّغْ لِعبادتي أملأْ صدرك غِنىً، وخلقْتُ لك السماوات والأرض ولم أعْيَ بِخَلْقِهِنّ، أفَيُعْيِيني رغيفٌ أسوقُهُ لك كلّ حين.

((وعِزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلِطَنّ عليك الدنيا تركضُ ركْض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

من حاسب نفسهُ في الدنيا حِساباً عسيراً كان حسابهُ يوم القيامة يسيراً والعكس صحيح:

قال تعالى:

(بَلِ ادّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ (66))

أيْ تتابعَ علمهم، بعضهم قال: هناك آخرة، وبعضهم قال: ليس هناك آخرة، وقد اختلفوا في هذا الموضوع، قال تعالى:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66))

الطالب لا يكون الأوّل في القطر إلا بِحَالة واحدة ؛ إذا كان الامتِحان ماثِلاً في ذهنه دائماً، أراد أن يذهب إلى نزهة فتذكّر الامتحان، فقال: لا، هذا الوقت ثمين جدّاً، وأراد أن ينامَ باكراً فتذكّر الامتحان، إذا تذكّر الإنسان الموت، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أكثروا ذكر هادم اللذات))

[رواه الديلمي عن أنس]

مفرق الأحباب، مشتت الجماعات.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

قال تعالى:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66))

تجد غير المؤمن ساحة نفسه كلّها دنيا، فهي أكبر همِّه ومَبْلَغَ عِلمه، ولا يعرف إلا الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، أما المؤمن دائماً يُفَكِّر كيف يُجيب الله عن هذا السؤال ؟ لِمَ فَعَلْتَ كذا ؟ أجِب الله عز وجل، ودائماً في تصوّر الحِساب مع الله عز وجل، لذلك من حاسب نفسهُ في الدنيا حِساباً عسيراً، كان حسابهُ يوم القيامة يسيراً، ومن كان حِسابهُ لِنَفْسِهِ يسيراً كان حِسابهُ يوم القيامة عسيراً.

الكُفْر باليوم الآخر هو كفْر بالله فإذا كفرْتَ بالدار الآخرة فكأنّكَ كَفَرْت بعَدالة الله تعالى

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(68))

الكُفْر باليوم الآخر هو كفْر بالله أيضاً، إذا كفرْتَ بالدار الآخرة فكأنّكَ كَفَرْت بعَدالة الله عز وجل، غنيّ ويموت وهو غنيّ، وفقير يموت وهو فقير، ضعيفٌ ضعيف، وقويّ قويّ، ومظلوم وظالم، إذا كفرْت بالدار الآخرة فهذا نَوْعٌ من الكفر بالله عز وجل، فهؤلاء الذين يقولون:

(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68))

هذه دَعْوى الكفار، وأنّ الحياة هي كلّ شيء، والموت نهاية كلّ شيء، لذلك يصحّ للإنسان أن يفعل ما يشاء حسب هذه العقيدة، وقد قال شاعر جاهليّ طرفة:

فإن كنتَ لا تستطيعُ دَفْعَ مَنِيّتي فدَعْني أبادِرْها بما ملكَتْ يدي

***

أيْ دعْني أعبّ منها ما أشاء، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

هذا دليل آخر، ونحن عندنا دليل كوني، ودليل قرآني، ودليل يومي وهو دليل الأحداث.

الفاء في هذه الآية تُفيد الترتيب على التعقيب أيْ قد يأتي العِقاب بعد الانحراف:

قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

هؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله، وهؤلاء الذين أجْرموا، وهؤلاء الذين ظلموا، انْظُر إلى نهايتهم، فانظروا، والفاء في هذه الآية تُفيد الترتيب على التعقيب، أيْ قد يأتي العِقاب بعد الانحراف، وفي آية أخرى قد يأتي العِقاب بعد أمَدٍ طويل، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

وقال:

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ (70))

وقال أيضاً:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(30))

(سورة الأنفال)

الله عز وجل مُطّلِع والمَكْر سِلاحُ الضّعيف، حينما ينْكشفُ هذا المَكْر يفْقِدُ قيمته، فالله عز وجل يطّلِعُ على مَكْر الأعداء دائماً.

الله عز وجل مُطّلع على كل إنسان:

قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

لو خطّطَ الإنسان لِعَمل سيئ، والذي بيَدِه الأمر أخذ صورة عن تخطيطه، فهو يظنّ أنّ هناك مَنْجاة، فالإنسان حينما يمْكر يجب أن يعلمَ أنّ الله تعالى مُطّلِعٌ عليه، لذلك أن ترى أنّ الله رقيب عليك، وأن تعلم أنّ الله يعلم ؛ هذا سرّ الاستقامة، والإنسان إذا شعَرَ أنّه مُراقب تجده يلتزمُ الصحيح، ويأخذ احْتِياطه، ويضبط كلامه وحركاته وسكناته، إذا الإنسان راقبَ إنساناً ينضَبط، فكيف إذا راقبك الواحد الدّيان ؟ قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(1))

(سورة النساء)

وقال أيضاً:

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ (70))

يقولون هذا اسْتِهزاءً، لمّا يأتي البلاء والعِياذ بالله، تجد كما قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

اعْرف الله في الرّخاء يعْرِفْك في الشِّدّة:

سمعتُ أنّ امرأة في حادث زلزال تضعضع البناء الذي تسكن فيه، فمن خوفها حملتْ حِذاءها بدل ابنها!! هذا في الدنيا فكيف يوم الحشر ؟ فإذا عرف الإنسان الله تعالى في الرّخاء ؛ صحّتهُ طيّبة، ومالهُ وفير، مكانتهُ الاجتماعيّة مرْموقة، في هذا الوضع الجيّد عرف الله عز وجل، فإذا جاءَت الشّدة فالله سبحانه وتعالى يعرفهُ، اعْرِفهُ في الرّخاء يعْرِفك في الشِّدّة، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِين(88))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين(47))

(سورة الروم)

وقال أيضاً:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِين(87))

(سورة الأنبياء)

على كل إنسان أن يشكر الله عز وجل على نعمه الكثيرة:

قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ (72))

أيْ جاء تِباعاً:

(بَعْضُ الّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

لمّا يرى الإنسان نِعَم الله عز وجل، كَنِعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونِعْمة الهدى، ونعمة السّمع والبصر، ونعمة العقل والقوّة، ونعمة الزوجة والأولاد، ونعمة الصِّحة عليه أن يشكر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

أرجو الله عز وجل أن يجْعلنا من القلّة الشاكرة، لا من الكثرة الكافرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (15-18): تفسير الآيات 73 - 75

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس عشر من سورة النمل.

الكون كلّهُ مُسخّر للإنسان:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

(سورة النمل)

هذه الآية تُذكِّرنا بآية أخرى، وهي قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

كلمة إنْ شكرتم وآمنتم تُثير التّساؤل ؛ لماذا إن شكَرْتم وآمنتم من كلّ صِفات المؤمنين ؟ لماذا يتوقّف العذاب إن شكرتم وآمنتم ؟ الجواب ؛ لأنّ هذا الكون كلّه ؛ وكلمة كلّه أحْدَث رقم أنّ هناك مليون ملْيون مجرّة بِكُلّ مجرّة تقريباً مليون ملْيون نَجم، أبْعد رقم وصلنا له ستّة عشر ألف مليون سنة ضَوئيّة، المجموعة الشّمسيّة كلّها نقطة في درْب التّبانة والأرض نقطة إلى جانب الشمس، وبعض النُّجوم يتّسع للأرض والشّمس مع المسافة بينهما أقول لكم: الكون كلّهُ مُسخّر لهذا الإنسان لماذا ؟ هذا السؤال الدقيق في قوله تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

ألا توجد هناك مَسْؤوليّة ؟ ألا يوجد هناك حِساب ؟ ألا توجد هناك تَبِعة أو عِقاب؟ ألا يوجد دَفْع ثمنٍ ؟ هكذا تفعل ما تشاء، وتأكل ما تشاء، وتكسب من مال الناس ما تشاء، وتنفق ما تشاء، وتنظر إلى من تشاء، وتسْتمتِع بِمَن تشاء.

هذا الكون العظيم سخّرهُ الله تعالى للإنسان تسخير تعريفٍ بِذاته وتسْخير تكريم:

هكذا قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

الكون كلّه مسخّر لهذا الإنسان وسيحاسب، أضرب مثلاً: جامعة فيها أبْنِيَة ومنشآت ومُدَرَجَات ومخابر وحدائق ودورٌ للسّكَن وأساتذة، يعني جامعة كلفتها ألوف الملايين وفيها طلاّب يتقاضَون رواتب، والسّكَن مجاني، والطعام جيّد، والمحاضرات، ووسائل الإيضاح، والأجهزة، والمخابر، كلّ هذا من دون امْتِحان ؟! يكفي أن يأتي الطالب إلى هذه الجامعة، ويأخذ درجة عليا من دون امتحان !!

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

هذا الكون العظيم المُسخّر لهذا الإنسان سخّرهُ الله له تَسْخيرين ؛ تسخير تعريفٍ بذاته، وتسْخير تكريم، ماذا ينبغي أن يكون ردّ الفِعل ؟ إذا أكرمك أحدهم ودعاك لإفطار في رمضان، أقلّ كلمة تقول له: شُكراً ! فإذا الإنسان تلقّى معروفاً من إنسان كان هذا هو الصّنيع، فكيف بِمَن منَحَكَ الوُجود ؟ أحياناً أرى كتاباً مطبوعاً بالثّلاثينات أو العِشرينات يخطر ببَالي خاطر، أنَه حينما ألّفَهُ المؤلف، وصفّ حروفه الطابع، وحينما طُبِعَ، ماذا كنت أنا ؟ لم أكن شيئاً إطلاقاً.

موضوع الشُكر موضوع أساسي في حياة الإنسان:

قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

نحن جميعاً، في سنة ألف وتسعمئة لم يكن مِنّا أحد، لم يكن لنا وُجود إطلاقاً، فهذا الإله العظيم الذي منَحَكَ نِعمة الوُجود، لم تكن شيئاً مذكوراً، وأوْجَدَكَ بأحْسن قِوام، قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

ثمانمئة ألف لون أخضر مدرّجة في عَينِكَ البشريّة، والعين تُفرّق بين درجتين، والله تعالى جعَلَ لك سمعاً، وجعل لك ذاكرة صَوْتِيّة، وجعَلَ لك بصراً تدرك الألوان وتُدرك الحجوم ؛ طول وعرض وارتفاع، الشيء بحَجمه الحقيقي، فالتّحميض فوْري ! قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

منَحَكَ نِعمة الوجود، ونعمة الإمداد، فالرّئتان تحتاجان إلى الهواء وهو متوازن، ومنَحَك الماء والطعام والشراب والمأوى، أكرمك بالأم والأب، فوُجودك سببه والداك ! فهذا العطف الشديد الذي جَعَلَهُ الله في قلْبَيْهما، فلذلك موضوع الشُكر موضوع أساسي في حياة الإنسان، من هو الكافر ؟ هو الذي ردّ على هذه النِّعم بالجُحود، وردّ عليها بالمَعْصِيَة.

الإنسان أمام مُهمّتين مهمّة المعرفة و مهمة الشكر:

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

بالدّرجة الأولى أنت أمام مُهمّتين، مهمّة أن تعْرف، ومهمة أن تشكر فإذا صحا الإنسان يوم القيامة، والناس نِيام إذا ماتوا انْتَبَهُوا، حينما تنقطعُ شهوات الدنيا التي تخدّر الإنسان وما أكثر هذه الشهوات ؛ اليوم عنده سهرة، وغداً اجْتِماع، واليوم أُمْسِيَة لطيفة، وحفلة تعارف، ورحلة ووليمة، فهذه الشّهوات مُخدِّرات، أما حينما يدخل الإنسان في قبره تصْحو نفسُه، فإذا عايَنَ الفضل الإلهي ورأى جحوده وكفرانه، ورأى معاصيه، ورأى أنّه آذى عباد الله، عندئذٍ يصيبه من الألم ما لا يعلمُه إلا الله، فالإنسان عليه أن يعرف قبل فوات الأوان، قلتُ مرّة كلمة في محاضرة: طوبى لِمَن عرف الله قبل فوات الأوان، أما عند الموت ففِرْعون قد عرف الله قال تعالى: آمنتُ بالذي آمنتْ به بنو إسرائيل، وأيّ كافر، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

القضية سهلة، ما تعرفهُ عند الموت لا بدّ من أن تعرفهُ، ولكنّ البُطولة أن تعرف هذا الآن وأنت مُعافى وصحيح، وأنت تأمل الغنى وتخْشى الفقْر، مسْتمتعٌ بقُوتك وسمعك وبصرك وبِشَبابك، هذا هو وقت المعرفة.

الإنسان له فِطرة عالِيَة فإذا كشَفَ بعد فوات الأوان أنّهُ جحود وكفور يتألّم ألماً شديداً:

أحياناً الإنسان بعد الخمسين والسّبعين يصبحُ مُحِبّاً للجوامع والمساجد، البطولة أن تحبها وأنت صحيح شحيح، وأنت معافى، وأنت غنيّ، ومتفرّغ، وشاب، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام: ريح الجنّة في الشباب... وإنّ الله لَيُضاهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة]

ثمّ هناك نقطة أخرى، وهي أنّ الإنسان لمّا يتعرّف إلى الله في سِنّ متأخِّرة تكون حياته ترتَّبَت على ترتيب غير طاعة الله تعالى، يُعاني مشكلاتٍ مع زوجته، وأولاده، وحرفتِهِ، وعملِهِ، أما إذا عرف الله عز وجل في وقت مبكِّر، سيكون زواجهُ إسلامياً وعملهُ صحيحاً، وعلاقاته كلّها صحيحة، فلذلك الذي يقوله الله عز وجل:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس)

منَحَكَ نِعمة الإيجاد، ومنَحَك نعمة الإمداد، ومنحَكَ نِعمة الإرشاد، فالكون يُعَرّفك به، وكذا العقل والفِطرة، والأنبياء يُعَرّفونك، والكتب تُعَرّفك، والدعاة يُعرّفونك، والحوادث تُعرّفُك، والإلهامات تعرّفك والرّئة تُعَرّفُك، أنت مُحاصَر أيْنما ذهَبْت لله آية تدلّ على أنّهُ واحِدُ، فإذا عرفت أنّ الله هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الكون يجب أن تتعامل معه تعامل الطاعة والعبادة فهذا الفضْل، والحقيقة أن الإنسان له فِطرة عالِيَة، إذا كشَفَ بعد فوات الأوان أنّهُ جحود وكفور، وردّ على إحسان الله بالإساءة لِعِباده وأنّهُ ردّ على هذا الكون العظيم بإنكار آياته، وأنَهُ ردّ على إمداد الله وفضله الجزيل بالإساءة إلى خلقه، إذا كشَفَ لؤْمَهُ وجحودهُ وكفرانه، يتألّم ألماً شديداً.

على الإنسان أن لا يعيش لحظته فقط بل يجب أن يعيش للمستقبل:

وردَ في بعض الأحاديث:

((إنّ العار ليلْزَمُ المرءَ يوم القيامة حتى يقول يا ربّ لإرْسالكَ بي إلى النار أيسرُ عليّ مِمّا ألقى، وإنّه ليَعْلَمُ ما فيها مِن شِدّة العذاب))

[صحيح عن جابر بن عبد الله]

هي ساعة صَعبة جدّاً، والإنسان عليه أن لا يعيش لحظته فقط، فالذي يعيش لحظتهُ إنسان غبيّ، يجب أن تعيش للمستقبل، ماذا ينتظرني ؟ مهما عشتَ، فالأنبياء ماتوا، والملوك ماتوا، والأطِبّاء ماتوا، والعظماء ماتوا، والأغنياء ماتوا، ماذا ينتظرني ؟ هل تنتظرون إلا غِنًى مُطْغِياً ؛ هذا الغِنى من دون عِلم وبالٌ على الإنسان.

((وعِزّتي وجلالي إن لمْ ترضَ بما قسَمْتُهُ لك فلأُسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالكَ منها إلا ما قسمْتُهُ لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً.))

[ورد في الأثر]

الغِنى المطغي مُخيف، مالٌ وفير، والعلم غير موجود، شَهَواتٌ يقظة، وفِتَن يقظة، ومال تفعلُ به ما تشاء، فهذا الغني مُطْغٍ، فإذا الإنسان وُفِّق بعَملهِ التِّجاري، وما حصّل علماً دينياً يطْغى ! لذا العِلم

حارس، قال له: يا بنيّ، العِلمٌ يحرسُك، وأنت تحرس المال، فبالعِلم تَجْلب المال، وبالجهل تُبدِّدُهُ، وبالجهل تأكل الحرام، فتُبدِّده، وبالجهل تعتدي على أعراض الآخرين فَيُعْتَدَى على عِرْضك وتنشأ مشكلة كبيرة، ويمكن أن يكون هناك طلاق أو مشكلة كبيرة سببها الجهل، فأحياناً يقول لك أحدهم: ضاق نفسي ! وما أستطيع حضور مجلس العلم ! القضيّة ليس قبول الدرس أو عدم قبوله، وإنَما القضيّة مصيريّة في حياة الإنسان، فأنت إما أن تكون عالماً، وإذا علمْتَ تنجو من عذاب الدنيا والآخرة، وإما غير عالم فلا بدّ من أن تغلط، إذا لم تكن يدك على المِقْود، وأُذنك غير مُفتَّحَة، فلا بدّ من حادث !!!

أنت إنسانٌ متحرّك، ولسْتَ إنساناً ساكناً، ما الذي يُحَرِّكك ؟ الشّهوات، إذا كنت جَوعان فلا بدّ أن تأكل، ومن أجل أن تأكل تحتاج إلى مال وهناك جوع من نوْع ثانٍ للمرأة، فإمّا أن يكون الزّواج طريقاً مَشْروعاً، وإما أن يكون الزّنى، ولا حلّ ثالث، إما الكسب الشريف وإما كسب منحرف، تجد سرقات، ومن هو السارق ؟ الذي يريد المال، ومن هو الزاني ؟ إنسانٌ يلبّي رغبة نفْسهِ من طريقٍ غير مَشْروع، فبالعِلْم تُلَبّى هذه الحاجات من طريق مشروع، وبالجهل تُلَبّى من طريق غير مشروع، وبالطريق المشروع هناك نماء، وأمْنٌ، وصيانة، ورقيّ، وبالطريق غير المشروع هناك فضائح، وتدمير، وهلاك، وعقاب، حينما تعرفُ أنّ هذا الإله العظيم سخَرَ لك هذا الكون، معنى ذلك أنّ هناك مهمّة كبيرةً مَنُوطةٌ بك، ومعرفة هذه المهمّة قبل طعامك وشرابك وقبل حاجاتك الأساسيّة، ويجب أن تعرف لماذا أنت هنا ؟

فضل الله على الإنسان يتجلى في كل عضو من أعضائه:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس)

فضْل الوجود وفضل الربوبيّة والألوهية، خلقَكَ في أحسن تقويم، وأجهزة تامّة، وعقل، وإدراك، وتصور، ومحاكمة، وذاكرة، وإحساس، وأعصاب حِسّ، وأعصاب حركة، ومنعكس شرطي، وجهاز دوران، وجهاز هضْم، وجهاز فرز فضلات، وجهاز تعرّق، وعضلات مُخطّطة، وعضلات ملْساء، عضلات من نوعٍ ثالث، فالقلب وحدهُ نوع من العضلات، طبيبُ قلبٍ من ألْمَع أطِبّاء القلب قال لي كلمة من يومين: والله علماء الأرض، لو اسْتمرّوا في البحث عن عجائب القلب إلى يوم القيامة لا ينتهون، فقد دُعينا إلى مؤتمر أربعة آلاف وخمسمئة محاضرة، هذه المحاضرات كلّها فيما هو جديد في أمراض القلب، دسّاماته اخْتِصاص، وعضلته اخْتِصاص، وترويتُه اخْتِصاص، وكهرباؤه اخْتِصاص، أعطاك الله قلباً يعمل ليل نهار من دون كلل ولا ملل ولا مراجعة، ومن دون استراحة، منذ أن تدبّ الحياة في هذا الجنين وحتى يحين الحين، ويضخ لك ثمانية أمتار مكعَبة من الدَم في اليوم !! ويضخّ بالحياة ما يملأ

أكبر ناطحة سحاب في العالم ! والشريان التاجي له دسّام يُغلق بإحكام ويفتح بطلاقة، وأنت لا تدري، وجعل الشرايين كلّها كالقلوب، يقول لك شريان مرن، لمّا تأتي ضغطة قلب يتجاوَب معها ولمّا يتجاوب يرجع الضّغط بمُرونته ويمشى الدّم، ويصير كلّ شريان قلباً آخر، وأنت لا تدري ! في جسمك مئة وخمسون كيلو متر من الأوعيّة الدّموية والأوردة والشرايين والشّعريات وأنت لا تدري، وبِكُلّ ميلي متر مكعّب خمس ملايين كريّة حمراء، اثنان ونصف مليون كريّة تموت في كلّ ثانية، واثنان ونصف مليون كريّة تولد في كلّ ثانيَة وأنت لا تدري، وعندك جهاز المناعة الذي هو شُغل العالم الشاغل، عندك كريّات بيضاء لها مراكز وقواعد عَسْكريّة، يدخل جرثوم ؛ هناك نوع من الكريات يفْحص الجرثوم وما نوعه ؟ وهذا مستطلِع ويأتي بالمعلومات وهناك نوع ثانٍ يُصنّع المصل في العقد اللّمْفاويَة، وهناك نوعٌ ثالث يُحارب، الكريات الحمراء قسم استِطلاع، وقسم تصنيع، وقسم حرب ومرض الإيْدز ما هو ؟ تعطّل هذا الجِهاز، وهناك صفائح دَمَويّة للتّرميم.

أتَحْسـبُ أنّكَ جُرْمٌ صغير وفيك انْطوَى العالم الأكبر

***

خلق الله للإنسان ليس عبثاً:

هناك ثلاثمئة ألف شعرة بالرّأس، وهناك مليون شعرة بالجسم كله ! لكلّ شَعرة وريد، وشريان، وغُدّة صبغِيّة، وغدّة دَهْنِيّة، وعضلة، وعصب، أحياناً تقول: وقف شعر بدني ! من الذي وقَفَهُ لك ؟ هناك عضلات، عضلة، وعصب، ووريد، وشريان، وغدَة دهنيّة، وغدّة صبغيّة، ومليون شعرة موجودة في جسمك، وأنت لا تدري، فأنْ يعيش الإنسان على هامش الحياة ؛ أكلنا، وشربْنا، وسَهرنا، وقعدنا، ولعبنا النرد، وشاهدنا الفيلم الفلاني، وأكلنا مالاً حراماً، وحصلنا أموالاً بأسلوب ذكي !! ما هذه الحياة ؟ حياة فوضى، لذلك قال الله عز وجل:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

وقال أيضاً:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس)

أنا أقول لكم: والله إذا كشَفَ الإنسان فضل الله عليه ولؤمهُ يتمنّى لو تُسوّى به الأرض، ويتمنّى لو يُسْحق، أهذا هو موقف الإنسان ؟ هذا الذي يؤذي الناس، والله تعالى أنعمَ عليه بالسّمع، والبصر، والعقل، والعضلات، هذا يجب أن ينْسحِقَ سحقاً حينما يعرف الحقيقة، فالناس نِيام إذا ماتوا انتبهوا، والبطل من يُعِدّ لهذه اللّحظة التي تُراجعُ فيها الحِسابات.

الله تعالى له فضْل على الناس وفضلهُ عليهم بأنّهُ منَحَهم فرْصةً للتّوبة وفرصة للتّفكُّر:

العلماء قالوا: من معاني هذه الآية أيضاً أنْ يمْهلَ الإنسان، ويعطيهِ فرْصة، تجد إنساناً كافراً ومؤْذياً، ويتحدَى الإله أحياناً، ومع ذلك يأكل ويشرب، وتجد قلبهُ ينبض، وكذا حركاته وعضلاته، الله عز وجل له فَضْل على الناس، وفضلهُ على الناس بأنّهُ منَحَهم فرْصة ؛ فرصة للتّوبة، وفرصة للتّفكّر، والله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

ما هو الشُكر ؟ الشُكر في أدقّ التعريفات أنّك إن عرفت أنّ هذه النِّعمة من الله فهذا أحد أنواع الشُكر، كأن تجد نفسكَ في صِحّة، هذه الصِّحَة ليس صدفة ؛ السكر مضبوط وكذا البول والكولسترول، تحلِل تجد كلّ شيء طبيعيّاً، أما إن ارتفع الكولسترول كان هذا مشكلة، وكذا السكر، فأنت إن عرفْتَ أنّ هذه النِّعمة من الله عز وجل، فهذا أحد أنواع الشُكر، ولو أنّك دخلْتَ بيْتَكَ، وقد مكّنَكَ الله من شراء هذا البيت، فقد يكون البيت أجرةً، يحوي زوجتك وأولادك إذا عرفْت أنَ هذه النِّعَم من الله فهذا أحد أنواع الشُكر، لِمُجرّد أن تعرف أنّ هذه النِعمة من الله فهذا لوْنٌ من ألوان الشُكر، فالواحد لا يغفل عن هذا ! إذا أكلتَ أكلةً طيّبة وقلت: الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فقد شكرت، إذْ هناك من يأكل بالسيروم وكلّ ليلة بعَشرة آلاف ! وهناك من هو مَقطوع عن الطعام ولا يُسْمَحُ له إلا بأكل أطعمة قليلة كالخضر، هذه نِعمة، كذلك إذا كانت لك زوْجة صحيحة، فهذه نعمة من الله، وعندك أولاد بصحّة طيّبة، إذا دخلْت إلى البيت، وقلت الحمد لله على هذه النِّعمة، الله تعالى قال:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنّكُمْ)

(سورة إبراهيم)

إن وجدَكَ شكوراً يزيدُك من فضْله، وقال تعالى:

(لَا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

يجب أن تؤمن وأن تشكر وأوّل درجة بالشكر أنْ تعرفَ أنّ هذه النِّعمة من الله:

إذا كنت في بَحْبوحة، ونِعْمة، وراحَة بال، وسلامة نفْس، وبوفاق زوجي، وعلاقة طيّبة مع الأولاد، وكلّهم أبرار، فهذا من نِعَم الله الكبرى، وهذه يجب أن تشْكرها، وأن تكون ملء سَمْعِكَ وبصرك لأنّ الله تعالى قال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

لن تشكر إلا إذا آمنْتَ، يجب أن تؤمن وأن تشكر، فأوَل درجة يكفي أن تعْزو هذه النِّعمة إلى الله تعالى، هذه ليست بذكائك، ماذا قال قارون ؟ قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(78))

(سورة القصص)

تجد أحدهم يقول: لو لم أكن على درجة لما أخذت هذا البيت، لو لم أدرس لما صرتُ بهذه المرتبة الاجتماعيّة ! وهذا عرقٌ بذلْتُهُ في عمري !! كلّ هذا الكلام شِرْك، وكلّه كلام جَهل، الله عز وجل منَحَكَ نِعمة الصِّحة، وأعطاك عَقلاً ترْتَزقُ منه، لو كان هناك خلل، لكان في مشفى الأمراض العقلية ؟! ومن الذي يُدخلهُ ؟ أولاده أو زوجته !! هو الذي عمّرَ البيت، وهو الذي ربَّهُ، هذا إذا صار هناك خلل بالعقل، والدعاء الشريف: ومتِّعْنا اللهمّ بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا، وعقولنا ما أحْيَيْتنا واجْعلهُ الوارث مِنّا، لكنّ الله تعالى كريم، إذا أطاعه الإنسان في الصِّغر حفظه في الشيخوخة.

الدّرجة الثانية أن تذكر الله وأن تحمده والحمْد شُعور داخلي بالامْتِنان من الله عز وجل:

قال له: يا بنيّ، حَفِظناها في الصِّغَر فحَفِظها الله لنا في الكِبَر، ومن تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بعَقله حتى يموت، والمؤمن ما أحلاه ! كلّما كبرَ بالسِّن كلّما ازْداد تألُّقاً، وضياءً، من تعلّم القرآن متَّعَهُ الله بِعَقله حتى يموت، لا يخرج من بؤرة الاهتمام للهامش، وإنَما يبقى في الاهتمام، هناك من يتقدّم به السنّ، يَمَلّ منه أهله فيَهْربون منه ويضعوه في غرفة ثانيَة ! وهناك من وُجوده مصدر سعادة الناس، فهذا الذي حفظ نفسه لمّا كان شابّاً ما زنى، وما شرب الخمر، وما أكل المال الحرام، وغضّ بصرهُ عن النّساء، وحرَّر دخله، ولزم المساجد، وحضر مجالس العلم، وصلى، وصام، وزكّى، وذكر الله عز وجل، وخدم الناس، ودعا إلى الله، وأمر بالمعروف، هذا الجُهد الذي في الشباب هو في الشَيْخوخة وقار وعَقل،

ومكانة اجْتِماعية، وشُعور بالسّعادة، فأحدنا الطرق كلّها مفتوحة أمامه، ولا أحد أفضل من غيره، وفضل الله واسع ويسعُنا جميعاً، ويسعُ الأرض كلها، ويسعُ كلّ إنسان على وجه الأرض.

الدرجة الثانية أن تشعر هذا الشُعور بالامتِنان، فأوّل درجة أن تعرف أنّ هذه النِّعمة من الله، والثانية أن تشعر، وأن تُخاطب الله، يا ربّ لك الحمد والشكر على ما أنعمْتَ وفضّلْت، دائماً المؤمن يلْهَج بالشُكر حتى في المصيبة، وإذا أحبّ الله عبدهُ ابتلاه، فإن صبَرَ اجتباه، وإن شكر اقْتناه، ثلاثة أطفال يمشون بالطريق، أحدهم سبّ الدِّين أو كلّهم سبّوا الدِّين، فلو رآهم شخصٌ يعرف أباهم لضربهم حبّاً لهم، فالله تعالى يؤدِّب الإنسان محض محبّة، ومحض اهْتِمام، ومعناه أنه مطموع بالإنسان، وفيه خير، إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبَرَ اجتباه، وإن شكر اقتناه، فالحالة الثانيَة هي حالة الحمْد، والحمْد شُعور داخلي بالامْتِنان من الله عز وجل:

هم الأحبة إن جـاروا وإن عدلـوا   فليس لي عنـهم معْدلُ وإن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبّهـم كبدي   باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

علامة الإيمان أن تحب الله لا في الرخاء فقط بل في الشدّة أيضاً:

علامة الإيمان أن تحب الله لا في الرخاء بل في الشدّة، أحدهم كان يطوف على الكعبة وهو يقول: هل أنت راضٍ عني يا رب ؟ فكان يطوف وراءه الإمام الشافعي فقال له: يا هذا، وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟! فقال: من أنت يرحمك الله ؟ كيف أرضى عنه وأنا أتمنَى رضاه ؟ فقال: يا هذا، إذا كان سُرورك بالنِّعمة كَسُرورك بالنِّقمة فقد رضيت عن الله، فإيمانك ليس على الرخاء، والصحّة الطيّبة، والدّخْل الكبير، وكلّ الأمور بخير، بالمصيبة الإيمان، يا ربّ لك الحمد، حديث:

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم في مسنده عن صهيب]

المؤمن أمره عجيب ودائماً يتلقى الأمور من الله عز وجل على رضى، لذلك قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

الدرجة الثالثة أن تعمل وأن تكون في خدمة عباد الله:

أوّل درجة من الشكر أن تعرف أنّ هذه النِعمة من الله، والدرجة الثانيَة ذِكّر، قال: يا ربّ كيف أشكرك؟ قال: يا موسى إنّك إن ذكّرتني شكّرتني، وإذا ما نسيتني كَفَرْتني، يتّبع عبد الله ويترك الله ؛ وهذا هو الشّرك، أما المؤمن لا ينسى الله.

أما الدرجة الثالثة فهي عمل، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

نسأل الله أن يجعلنا من الأقليّة المؤمنة لا من الأكثريّة الكافرة، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

على وضعك الحالي والدّخل القليل، هذا هو الفضل، والله تعالى يكشف الغِطاء، فوالله الذي لا إله إلا هو حينما يُكّشف الغِطاء، ويُظهر الله لك ما ساقهُ لك في الدنيا من متاعب، وضيق ماديّ، ومرض مخيف، وزوجة مُتْعِبة، وأولاد متعِبين، وجار سوء، وضياع أحياناً وخوف، وقلق، وحزن، خلل أصاب الجسم، لمّا يبيّن الله لك لماذا ساق لك هذه المتاعب ويريك في الآخرة لماذا ساقها لك يجب أن تذوب أنت المؤمن أو أيّ إنسان أن يذوب مِثل الشَمعة محبّة لله عز وجل، أما سيّدنا عليّ فقد قال: والله لو كُشِف الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً، لأنّه قبل كَشْف الغِطاء موقِن برحمة الله وحِكمته وعدالته وعَطْفِهِ ورأفتِهِ.

الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله:

لمّا تقرأ قوله تعالى:

(إِنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنّهُ أَوّابٌ (43))

(سورة ص)

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا قضى شيئاً قال:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا علم، هذا الطعام أذاقك الله لذّته وما أكلته عن طريق السيروم ! والتُفاحة عضضْتها وتلذذت بنُكهتها، أذاقك لذّتها، وأبقى فيك قوّتها، وأذهب عنك أذاه، فلا عمليّة جراحيّة، ولا حصر بول بالمثانة، الطُرق كلّها سالكة، هكذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته قال: الحمد لله الذي آواني وكم ممّن لا مأوى له، اِذْهب إلى شرق آسيا، أجيال من الابن إلى الجد ينامون

على الطّرقات، أما أنت فتسْكُن في البيت، ومعك مِفتاح بيت، وهناك حمّام ومطبخ، فالدِّرجة الثانية أن تذكر نِعَمَهُ.

والدرجة الثالثة أن تكون في خِدمة عِباده، الأغنياء أوْصِيائي، والفقراء عِيالي، كلّنا عباد لله عز وجل، يجب أن تسرّ أخاك وأن لا تُخيفهُ، لا تقْبلْ عملاً فيه تَخويفٌ للناس، المرعّبون في النار، ولا تُحمِّر وَجهَ إنسان وتُخْجِلُهُ وتحاصره وتُضايقه، الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله، ولا تبْتزّ ماله، ولا تعطيه بضاعة مَغْشوشة وتأخذ مبلغاً غالياً، ثمّ يقول لك: هذه شطارة !! أهكذا المؤمن ؟ تبيعُه شيئاً مغشوشاً، فإذا الواحد ارْتقى إلى مستوى ثالث أصبحَ في خِدمة الخَلق، والخلق كلّهم عِيال الله، ولا يستطيعُ أن يؤذي إنساناً، ولا يغشّ ولا يؤذي، وهناك غشّ بالوزن وغشّ بالنَّوع، وغشّ بالتاريخ، ينتهي المفعول ! فأوّل درجة بالشكر أنْ تعرفَ أنّ هذه النِّعمة من الله، وليْسَتْ من ذكائك، ولا من جهدك والدّرجة الثانية أن تذكر، والدرجة الثالثة أن تعمل، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

هنيئاً لِمَن بلغَ الدرجة الثالثة، وشَعَر أنَّهُ خادمٌ للخلق أحياناً، فالخلق كلهم الله يحبهم، تعطي ابنَ صديقك سكّرة فيقول لك أبوهُ شكراً، أنت ما أعطيْتها الأب، فلِمَ قال: شكراً ؟ لأنّه يعتبر هذا له، وكذا الحال إذا خَدَمْتَ عبداً من عِباده فهي لله عز وجل.

الإيمان نصفان بالسّراء شكر وبالضّراء صَبر وهذه مرتبة عالِيَة بالإيمان:

قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245))

(سورة البقرة)

حديث:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا هو الشكر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

اِعمل جاهداً أن تكون شاكراً، والإيمان نصفان ؛ نصف صبر، ونصف شكرٌ، بالسّراء شكر، وبالضّراء صَبر، وهذه مرتبة عالِيَة بالإيمان، أنت بلغْت مرتبةً بحيث ترى أنّ الله بيَدِهِ كلّ شيء، وأنّه لا يقعُ شيءٌ إلا بأمْر الله، والله اختار هذا الشيء الصّعب فما عليّ إلا الصّبر، وإن أعطاني فعليّ الشكر، فأنت بين الشُكر وبين الصبر، وهذا الإيمان، فالواحد إذا أدَى صوم رمضان، ففي هذا الشّهر تقريباً كلّ الناس صائمون، ولكن فرْق بين الصِيام الكامل، الذي فيه الاستقامة التامّة، وغضّ بصر تامّ، وعدم سماع المُلْهيات، وصدق لسان، وتقصّى لكلّ أوامر الله عز وجل، وصلاة بإتقان والتراويح عشرون ركعة، لماذا تُصلّي ثماني ركعات فقط ؟ عمر رضي الله عنه صلّى بأصحاب النبي عشرين ركعة ! فهذه سنّة لا بدّ أن تُطبّق:

((عَلَيْكُمْ بِسُنّتِي وَسُنّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيّين الرّاشِدِينَ))

[الترمذي وأبو داود عن العرباض بن سارية]

على المؤمن أن يكون له عمل يبتغي به وجْه الله عز وجل:

أحياناً يقضي الإنسان خمس ساعات بكلام لا معنى لهِ، ومن أجل الصلاة يقول لك: ثماني ركعات ! وأعلى درجات الثّواب أن تسْتمع إلى كتاب الله في صلاة وأنت واقف، وأنت في مسجد، هذه هي التراويح، وإذا أُتيح لك أن تسمع القرآن كلّه في التراويح فهذا هو قيام الليل، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73))

أوّل درجة بالشكر المعرفة، والثانية الذِكر، والثالثة العمل، وإنّك إن ذكرتني شكَرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

ماذا قدَمت أنت ؟ قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآَخَرُونَ)

(سورة التوبة)

سَلْ نفْسكَ هذا السؤال: ما العمل الذي أعْدَدْتَه كي ألقى الله به ؟ ماذا فعلتَ من أجل الله ؟ وماذا أعْطيت؟ وماذا منَعْت ؟ وأيّ وقْتٍ بذَلْتَهُ في سبيل الله ؟ وأيّ جهْدٍ بذلْتَهُ في سبيل الله ؟ وأيّ خِبرةٍ قدّمتها في سبيل

الله ؟ أيّ عِلمٍ علّمْتَهُ في سبيل الله ؟ هل أمرْت بالمعروف ونهَيْت عن المنكر ؟ هل راعَيت الأيتام والأرامل ؟ هل كنت أباً مِثاليّاً ؟ وزوْجاً مِثاليّاً ؟ ماذا فعلت كي تلقى الله بهذا العمل ؟ يمكن أن تأكل وتشْرب، تأكل كما يأكل العامّة من دون أجر ! وهذا بحكم العادة، ولكنّ الأصل أن يكون لك عمل تبتغي به وجْه الله عز وجل.

كلما رجحَ عقلُكَ قلّ كلامك:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

(سورة النمل)

هناك شعور ورغبة في أن يمْدَحَك الناس وهذا معروف، وأحياناً يعمل الواحد عملاً صالحاً، ويكون إخلاصه ضعيفاً لله عز وجل، فهو إن دعا إلى وليمة ألحّ ؛ هل أعجبكم الطّعام ؟ من أجل أن يثنوا على هذه المبالغ الكبيرة المدفوعة في هذا الطعام، أما إذا كان الإطعام لله عز وجل فالأمر قد اخْتلفَ، قال تعالى:

(إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

كلما رجحَ عقلُكَ قلّ كلامك، والله تعالى اطّلعَ على قلبك، وعرفَ إخلاصَكَ، وعرفَ محبَّتَكَ، فالإنسان عند الله تعالى مَكْشوف ويستطيع بذكائه أن يتكلّم كلاماً مقبولاً، يقول لصديقات زوجته: تعالين واجلسن هنا فهو أكثر دفئاً، هن محرمات عليك وأنت لا تخشَ عليهن البرد، بل هناك محاولة منك للتعرف عليهن، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الإنسان له أن يقول ما يشاء ولكنّ الله يكشِف حقيقته:

لماذا زرْتَ فلاناً ؟ لأنّك تعلم أنّ عنده اختلاط، قد تعجب بزَوْجته، فالله يعلم بالضّبط ما هي رغبتك ؟ فالإنسان له أن يقول ما يشاء، ولكنّ الله يكشِف حقيقته، وهذه الآية تقسمُ الظّهر، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

هذا عامل أتيت به وتقول له: أريد مشاركتك، فهل صحيح أنك تريد مشاركته أم عملية ترغيب ليعمل عندك فترة ثم تطرده؟

أن تتلاعَبَ مع الموظف وتقول له الشغل موجود، حتى يتفانى في الخدمة ثمّ تضيّق عليه وتطردهُ، هذا يكشفه الله من أوّل الوقت، والشيء الذي لا يعلمهُ أحد يعلمُه الله، ويعلم أدقّ ما فيك، ويعلمُ ما يخفى عليك أيضاً، فالإنسان إذا تزوّجَ، وإذا شارك، يشتغل مع شريكه ويتعلّم منه ثمّ يقول له: انتهى ما بيننا !! ويصبح المحلّ كلّه باسمه، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

في علاقته مع النّساء، وبعَلاقته التِّجاريّة، وبحَركاته، وسكّناته، أحياناً يستطيع أن يظهر الإنسان بمَظهر أخلاقي وراقٍ أما الحقيقة فالله يعرفها، ولا تستطيع أن تخدع الله.

(إِنّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء]

أيّ شيءٍ غاب عنك الله سبحانه وتعالى يعلمه و هو مسجل في كتاب مبين:

قال تعالى:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

إنّ " **للتوكيد، وكذا " اللام "** هي للتوكيد، فالطبيب قد يقول للمريض: تعال بعد شهر، فهل المريض يحتاج للمجيء أم فقط من أجل الدراهم ؟! وكذا المحامي والمدرّس، فهذه المِهَن منْ تَدريسٍ ومحاماة وطب وهندسة، تقول للتاجر: اختر لي أحسن بضاعة، فإذا به ينتقي لك أبْشع لون، أهكذا الدِّين والأمانة، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

أيّ شيءٍ غاب عنك، حادثة وموقف، فالله سبحانه وتعالى يعلمها وفي كتاب مبين.

كلّ إنسان يستطيع أن يخْدم أخاه من خلال عمله وحِرفتِه:

آياتنا اليوم ثلاث، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

إذا الإنسان بدأ بطريق الشكر، وكلّ نِعمة يتمتّع بها يجب أن يعرفها أنها من الله عز وجل، ثمّ عليه بِشُكر الله تعالى عليها، ثم عليه أن يردّ عليها بخِدمة الخلق، وكلّ إنسان يستطيع أن يخدم إخوانه من خلال عمله، وكان السلف الصالح يفتحُ المحل التِجاري ويقول: نَوَيْتُ خِدمة المسلمين، إذا بِعْتَ الناس بسِعر معتدل، وكنت لطيفاً معهم، وما أرْهقتهم فهذه خِدمة، لذا كلّ إنسان يستطيع أن يخْدم أخاه من خلال عمله وحِرفتِه ؛ كَطبيب ومحامي ومهندس ومدرّس وموظّف وتاجر:

((التّاجِرُ الأمينُ الصّدُوقُ: مع النّبيّينَ والصِدّيقين والشُهداء))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

هناك تجار كبار إذا رأوا تاجراً شابّاً اشْترى صفْقة أخافوه حتى يبيعها دون ربح، وإذا باعوا لم يُطّروا، يقول لك: هذه أحْسن شيء بالعالم وهي سيّئة !! وإذا كان لهم لم يُعَسّروا، وإذا كان عليهم لم يمْطِلوا، فلا إمطال ولا تعسير، ولا ذمّ ولا مدح، ولا كذب ولا إخلاف وعد، وهم قليل، والآية الأخيرة:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 74 - 79
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-04-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النمل.

عِلّة تسخير السماوات والأرض من أجل أن تعلم أنّ الله يعلم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(75))

(سورة النمل)

الآيتان الثانية والثالثة مررْنا بهما سريعاً، ونقف عندها قليلاً قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الإنسان حينما يشعر أنّ الله يعلم ينضبط، بل إنّك إذا علمْت أنّ الله يعلم تستقيم على أمر الله، المشكلة هي هذا العلم ؛ قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا(12))

(سورة الطلاق)

لو أردْت أن تفهَمَ الآية فهماً دقيقاً لغوياً، لوجَدْت أنّ هذه اللام هي لام التّعليل، وأنّ عِلّة تسخير السماوات والأرض من أجل أن تعلم أنّ الله يعلم.

هذه الآية هي قانون الاسْتِقامة:

قال تعالى:

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(12))

(سورة الطلاق)

هذه الآية دقيقة جدّاً، وكأنّها قانون الاستقامة، وأنت لن تستقيم إلا إذا شَعَرْت أن معك من يراقبك، لو أنّ وزيراً نظّمَ تنظيماً أو أصْدر قانوناً أو قراراً المواطن متى ينفّذ هذا القانون تنفيذاً حرفيّاً ؟ هناك حالتان ؛ ولا بدّ من شرطين إذا توافرا نفّذ هذا الأمر، الشّرْط الأوّل: أنّ هذا الوزير الذي أصْدر هذا الأمر يطولهُ عِلْمهُ، فقانون السّيْر مثلا يمكن أن تكون الساعة الثالثة ليلاً، ولا يوجد شرطي، فهذا الذي أصْدرَ قانون

السّيْر لن يطولكَ علمهُ الآن، ولك أن تخالف، أما إذا كان بهذا المكان آلة تصوير تصوّر وتسجّل ليلاً نهاراً، فلن تخالف، أما إن لم يطولك فإنّك ستُخالف، فلاحِظ أنت أنّ أكثر الناس إذا شعَرَ بهذا المكان لا يوجد موظف، ولا تموين، ولا شرطي، حينها يُخالف، ومتى ينقّذ ؟ مادام هناك مندوب لهذا الوزير، أو مندوب لهذا الذي أصْدر هذا القانون، مادام له عَين، قد تكون عيناً بشَرِيّة، وقد تكون عَيْناً آليّة، ولكن هناك حالة ثانية: لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيْقَنتَ أنّ هذا الذي يطولك علمهُ تَطولكَ قُدْرتُهُ أيضاً، يَعْلمُ وبإمكانه أن يوقِعَ بك أذًى كبيراً، مِن أرْوَع الآيات هذه الآية، هي قانون الاسْتِقامة، أنت لن تستقيم إلا بِشَرطَين ؛ يجب أن توقِنَ أنّ الذي أمرَكَ بالاستقامة عِلْمهُ يَطولك، وأنّ قدرتهُ تطولك، فلو طالكَ عِلْمُه، ولم تَطُلْك قدْرتُهُ، مثلاً شرطيّ سيْر، والمُخالف رتبة عالِيَة جداً في الشرطة، فلا يتأتّى للشرطي أن يكتب المخالفة، أو أنّه لو كتَبَ لا تنفّذ، إذاً إذا شعَرَ هذا السائق أنّ قُدرة هذا الشرطي لا تطولهُ هنا يُخالف.

معرفة الآمر والأمر شيئان متلازمان:

الله تعالى ماذا قال ؟ قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا (12))

(سورة الطلاق)

لِتَعلموا شيْئَين ؛ أنّ الله على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بِكُلّ شيءٍ عِلماً، عِلْمُهُ يَطولنا، وقدرتُهُ تَطولنا، وأنا متأكِّد أنّ إنساناً عاقلاً فيه ذرّة عَقل لو قال: كلّ مخالفة لله سأدْفَعُ ثمنها باهظاً لأنّ الله يعلم وهو قدير، يعلمُ مخالفتي وقدير على معاقبتي، فلا بدّ من أن يستقيم على أمر الله، فلكل سيّئة عقاب، ولكلّ حسنةٍ ثواب، والنبي عليه الصلاة والسلام لمّا دخل على بعض أصحابه وكان مريضاً، فقال: يا رسول الله، اُدْعُ الله أن يرْحمني، فقال الله عز وجل:

((وعزتي وجلالي ـ كما ورد في الأثر القدسي ـ لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

يا أيّها الأخوة الإنسان بدافع الحِرْص على سلامته، ولا أحد إلا ويحْرِصُ على وُجوده، وعلى سلامة وُجوده، وعلى كمال وُجوده، وعلى اسْتِمرار وجوده، عليه بالاستقامة، وإذا اسْتَقَمْتَ على أمر الله فلِمَصْلَحتك، ماذا تحتاج الاستقامة ؟ تحتاج معرفة الأمر والنّهي، إذاً تعلّم الفقه واجب على كلّ مسلم، أن تعرف في هذا الموضوع ماذا يريد الله عز وجل ؟ أيَجُوز أن أفعَلَ هذا ؟ هل هذا الشيء مُباحٌ أو واجب

أو فرض أو مكروه أو محرَم ؟ إذاً كيف تستقيم على أمر الله وأنت لا تعرف أمر الله، إذاً معرفة أمر الله لا يعْلو عليه شيء، إذا عرفْت الله لا بدّ من أن تعرف أمره.

أما إذا عرفت أمره قبل أن تعرفهُ تحتال على هذا الأمر، تحتال في دَفْع الزكاة، وتحتال في النَّظر للنِّساء، فإذا عرفت الأمر قبل الآمر، وإذا عرفت الآمر قبل أن تعرف الأمر كيف تُطيعُه ؟ إذاً معرفة الآمر والأمر شيئان متلازمان، وبعض العلماء اصطلحوا على تسْمِيَة معرفة الآمر معرفة علم الحقيقة، ومعرفة الأمر علم الشّريعة، ولا بدّ من معرفة علم الحقيقة وعلم الشريعة.

حَجْمُ خَشْيَتِكَ من الله بحَجم عِلْمِكَ وكلّما ازْدَدْتَ عِلماً ازْدَدْتَ خشيَةً:

إذا تعلّمنا شيئاً وأهْمَلنا الطّرف الثاني وقعنا في خلل، إذا عرفْت الله من خلال الكون ولم تعرف أمرهُ كيف تستقيم على أمره ؟ وإذا عرفْتَ أمره، ولم تعرفه تحتال على أمره، والنبي عليه الصلاة والسلام عرّف أصحابه بذات الله في ثلاث عشرة سنة في مكّة، ثمّ جاء التّشريع، ونحن مُلْزمون بمَعرفة الله، ومعرفة أمره، ويجب أن تُعمِّق عِلمَكَ على خطّيْن في آن واحد، إذا تفكَرْت في خلق السماوات والأرض كلّ يوم ؛ هذا التّفكّر يزيدك معرفةً بالله، ويزيدك معرفة بعَظَمِتِه، وبأسمائه الحسنى، وبقُدرته، وكلّما كان حجم معرفتك بالله أكبر كان حجم خَشْيَتِكَ أكبر، والدليل قوله تعالى:

(إنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(28))

(سورة فاطر)

َحَجْمُ خَشْيَتِكَ بِحَجم عِلْمِكَ، وكلّما ازْدَدْتَ عِلماً ازْدَدْتَ خشيَةً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله.))

[ورد في الأثر]

اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ حُبّاً، اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ قُرْباً، اِزْدَدْ علماً تَزْدَدْ ورعاً، فالعِلم هو الأساس، وحركة دون عِلم هي حركة عَشْوائِيَة، وحركة غير مُجدِيَة، فالعِلم هو مركز الثّقل لذلك جعَلهُ الله قيمةً وحيدةً مُرَجِّحة بين خلقِهِ، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إنّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(9))

(سورة الزمر)

قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(12))

(سورة الطلاق)

عليم وقدير، وهذا هو قانون الاستقامة، إذا خالفتَ أمر الله، أقول لكم وأنا متأكِّد مِن كلامي: لا بدّ من أنّ هناك خللاً في عِلمك بالله، ولا بدّ من أن يكون هناك خللاً في عِلمك بِعِلْمِهِ وقُدرتِهِ معاً، أو خللاً في علمه أو قدرته، إذا قال لك أحدهم: لا تدَقِق، فهذه عقيدة زائغة، وإذا قال: الله غفور رحيم، اختلت الاستقامة، يأكل المال الحرام بِحُجَة له أولاد ومضْطرّ، والناس كلّهم هكذا، ولا بدّ أن يغش، والناس يستأهلون الغشّ ! هكذا يقول هو، فأيُّ خلل في استقامتك أساس خلل في عقيدتك، لو صحَتْ عقيدتك لصحّت اسْتِقامتك.

كلّما تحقّقت بعِلم الله بنَواياك انْضبَطتْ أمورك واستْقامَت سريرتُكَ وعلانيّتُك:

يا أيّها الأخوة الأكارم أنت تطلب من الله الكرامة، وهو يطلب منك الاستقامة لأنّ الاستقامة عَين الكرامة، لما يكون الإنسان مستقيماً على أمر فهو في ظلّ الله عز وجل، وفي حِفظه ورعايَتِهِ، فإذا شدّ عن الاستقامة، كأنّه خرج من ظلّ الله وصار معرّضاً لحجارة وأمطار وبرد وحر ومضايَقات، لذلك قال تعالى:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

الله يعلمُ كلّ شيء، فإذا بالَغْتَ في معرفة أنَ الله يعلم، فقد نَجَوْت بنَفْسِك، وقبل أن تقول كلمةً يعلم نواياك منها، وقبل أن تدعو إلى الله فالله يعلم النوايا، وقبل أن تأمر بالمعروف أو تنْهَ عن المنكر فالله يعلم النوايا، قبل أن تدعو أحداً إلى بيتِك أو تزوره يعلمُ النوايا، وقبل أن تعطي أو تمْنع يعلم النوايا، فكلّما تحقّقت بعِلم الله بنَواياك انْضبَطَتْ أُمورك واسْتقامَت سريرتُكَ وعلانيّتُك.

الحركة الإيمانية أو نُسمِّيها النمو الإيماني، هناك نموّ اقتِصادي، هذه السنة مئة، السنة التي بعدها مئة وثلاثون، ثمّ مئتان، يقول لك هناك نموّ بالأرباح والدّخل، فنحن نحرصُ على نموّ دَخلنا وأرباحِنا، ألا ينبغي أن نحرصَ على نموّ إيماننا ؟ ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام جدِّدوا إيمانكم ؟ ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام المغبون من تساوى يوماه ؟ ضربتُ مثلا من مدة، رصيف متحرّك وأنت على الرصيف، فإذا نزلْت من على هذا الرصيف ووقفْت في مكانك فأنت واقف أم مقصّر، بالقياس إلى هذا المتحرّك ؟ فإذا كان مجموعة مؤمنين إلى الله طريقهم، وأنت وقفتَ فما ازْداد علمك، ولا عملكَ، ولا ورعَكَ، ولا شوقكَ، ولا اسْتِقامَتَك فأنت في تقصير، وهذا معنى الحديث من لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

تكلّم أو اسْكُت فالله تعالى يعلم سرك وعلانيتك:

قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

تكلّم أو اسْكُت فهو يعلم الحالين، إذا كانت علانِيَتَكَ مُطابقة لِسَرِيرتِكَ فهو يعلم، وإن جاءَتْ علانيتَكَ مخالفة فهو يعلم، إن كانت السريرة أطْهر من العلانيَة يعلم، وإن كانت العلانية أطْهر من السريرة يعلم، قال تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74))

حال المراقبة شعور لا يعلمه إلا من مارسهُ، قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

وقال تعالى:

(وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ رَقِيباً(52))

(سورة الأحزاب)

أيّ شيءٍ غابَ عن عِلمك هو في علم الله وفي كتاب مُسجّل:

قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

إنسانٌ خطّط، له مدير بالمدرسة أراد أن يشكوه للتَّضْييق عليه، ورتَّبَ له ترتيبات كي يُزيحَهُ من منصبِه، وكتب ورقة وقال: أريد أن أبعث تقريراً للمفتش، التّقرير صور، وعند المدير نسْخة منه فالمدير يعلم ما في التقرير وكذا الحال عند الله ! فالله عز وجل يعلم، يمكرون ومكرهم يعلمه الله، وله نسخة منه، فالله يعلمُ مَكْر الماكرين، ويعلم تَدبير المدَبِّرين، ويعلمُ خداع المخادعين، وتَدْجيل المُدَجِّلين، وكذب الكاذبين، ويعلم صِدْق الصادقين، وإخلاص المخلصين، فكلّما بالغْت في الحركة يجب أن ينْمُوَ إيمانك في خطّين في خطّ معرفة الله، وفي خطّ معرفة أمره، معرفة الله كأسمائه الحسنى ؛ علمه وقدرته وسمعه وبصرهُ وغير ذلك، ومعرفة أمره الحلال والحرام في كلّ شيءٍ تقريباً، فإذا نَمَتْ معرفتك بالله

تعالى، ونمت معرفتك بأمر الله وعرفت أنّ الله يعلم وقدير، تجد أنّك تستقيم على أمره بشَكل طبيعي ودون جهد، ودون مُصارعة، دون مُشادَة مع نفسك، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

أيّ شيءٍ غابَ عن عِلمك هو في علم الله، وفي كتاب مُسجّل والمُسجّل بِحَسب تفكير البشر أشدّ ثباتاً وأشدُّ قوّةً كله مسجل.

هناك فرق بين الرادع والوازع فالوازع داخلي لكن الرادع خارجي:

الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء، الله تعالى قال:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181))

(سورة آل عمران)

الإنسان إذا تكلّمَ كلاماً فيه تَجاوُز لِعُبوديّته، وتجاوز في الأدب مع الله عز وجل، وتجاوز لِقَوانين الله، فهذه الكلمة سوفَ تُكتب، وسوف يدْفعُ ثمنها باهظاً، لذلك عليه الصلاة والسلام قال:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

وقال:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75))

حكى لي شخص أنّه تحرك حركة خالف فيها النِّظام ببَلَدٍ أجنبي، اسْتَدعوه وعرضوا عليهِ شريطاً بصُورة ملوّنة على شاشة كبيرة، كلّه مُسجّل، لون سيارته ورقمها، والحقيقة أنّ انْضِباط العالم الغربي، انْضِباط خارجي لا ذاتي، فوسائل الضّبط راقِيَة جدّاً، وهذا ما سَنُسمّيه رادِع، وفي الإيمان وازع، وشتّان بين الرادع والوازع، فالوازع داخلي، والرادع خارجي شَخصٌ حدّثني أنّ بعض المسابح ذات المِياه المعْدَنِيّة، هناك مادّة كيماويّة تتفاعَل مع البول وتطلع مادَة بنفسجيّة اللّون لِمَن فعَلَ هذه الفعلة ! وهناك رجل معه جهاز ضَوئي كشّاف يُسلّط عليه، هذا هو الرادِع، أما المؤمن فلا يفعل هذا إلا بدافِعِ خوفه من الله عز وجل، شتّان بين النِّظام الرّدعي والنِّظام الدّفعي الداخلي.

لا تستقيم حياتنا إلا بالخوف من الله عز وجل:

الله ماذا قال ؟ قال تعالى:

(إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45))

(سورة العنكبوت)

تنهى الإنسان نهْياً ذاتيّاً، أما لمَا قُطِعَت الكهرباء في نيويورْك ارْتُكِبَت مئتا ألف سرقة، الصالة مراقبة تلفزْيونيّاً، أيْ الواحد إذا استقام لا فضل له، وأغلب محلاّت البيع فيها مع التَسعيرة مادَة دُفع ثمن البضاعة تُلغى، أما إن لم يُدْفع يخرج صوت من باب المخرج ! أي هذا سارق لا بدّ أن ينضبط، فهل هو هذا الذي أراده الله عز وجل ؟ هذا الضبط الخارجي لا قيمة له إطلاقاً، فلو تعطّل هذا الضّبط لِسَبب أو لآخر تجد انْحِطاط ما بعدهُ انْحِطاط، أما الدّين فيُنَمّي الإحساس الأخلاقي، والوازِع الداخلي، وينمِي الانضِباط الذاتي، وتجد الإنسان يخاف من الله، قال له: بعني هذه الشاة وخُذْ ثمنَها ؟ فقال له: هي ليْست لي ! والقصّة معروفة، ثم قال له: ولكن أين الله ؟! هذا الإيمان كلّه ؛ أن تقول: إنّي أخاف الله ربّ العالمين، هناك كثير من المِهَن صاحب المهنة ثقة، فإذا لم يَخَفْ من ربّه يُؤذي إيذاءً كبيراً جدّاً، فلا تستقيم حياتنا إلا بالخوف من الله عز وجل، والحديث القدسي: يا موسى خَفْني، ويا موسى خف ثلاثاً ؛ خفني، وخِفْ نفْسَك، وخَف من لا يخافني ! هذه المعاني التي توضّح معنى قوله تعالى:

(وَإِنّ رَبّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنّ رَبّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(75))

الله عز وجل وضّحَ في القرآن الكريم كلّ الموضوعات الخِلافيّة في الكتب السابقة:

يقول تعالى:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

بنو إسرائيل اختلفوا في شأن المسيح عليه السلام، وفي شأن طبيعته أهُوَ من بني البشر ؟ أم هو إله ؟ واختلفوا أيضاً في الروح القدس، واختلفوا في السيّد المسيح أهُوَ ابن الله عز وجل أم نبي كريم ؟ واختلفوا في طريقة موتِهِ ؛ أصَلَبُوهُ أم شُبِه لهم، اختلفوا في قصص كثيرة عن الأنبياء وجاء القرآن مُهَيْمِناً قال تعالى:

(وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ(148))

(سورة المائدة)

مُهَيْمِناً على كلّ الكتب السابقة بِمَعنى أنّ الله عز وجل وضّحَ في القرآن الكريم كلّ الموضوعات الخِلافيّة في الكتب السابقة، قال تعالى:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(30))

(سورة مريم)

وقال تعالى:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ (171))

(سورة النساء)

في كلّ موضوع خِلافي جاءت الآية حَسْماً وفَيْصَلاً للموضوع:

إذاً كما قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

قال تعالى:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً(157))

(سورة النساء)

في كلّ موضوع خِلافي جاءت الآية حَسْماً وفَيْصَلاً للموضوع، بنو إسرائيل تقوّلوا على أنبيائهم تقوُّلاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، سيّدنا إبراهيم أبو الأنبياء هذا النبي العظيم قال: عرضَ زوجته على ملكِ مِصْر على أنّها أخته ! أيَفْعلُ هذا نبيّ ؟ هكذا قال بنو إسرائيل على سيّدنا إبراهيم، وبنو إسرائيل قالوا عن سيّدنا لوط أنّه شرب الخمر وزنى بابْنَتَيْه أهذا كلام ؟!! قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

الأنبياء نخْبة مُصْطَفَون أخيار، وعِبادٌ مُكْرَمون، ولا يسْبِقونه بالأمر وهم بأمرِهِ يعملون، وبنو إسرائيل قالوا عن سيدنا داود أنّه رأى امرأةً رائعة الجمال، فسأل عن زوْجها فإذا هو أحدُ جنودِهِ، فأرْسَلَهُ إلى معركةٍ وقال: قدِّموهُ لعلّهُ يقتل، وعندهُ تِسْعٌ وتسْعون امرأة، هذا نبيّ أم زير نساء ؟!!

القرآن الكريم هدى يُبيّن لك طريق سعادتك في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

سيّدنا لوط قالوا زنى بابْنَتَيْه، وإبراهيم كذب، وعرَض زوجته على ملِك مصر على أنّها أخته، وسيّدنا داود أحبّ هذه المرأة، وسيّدنا سليمان قطَعَ رؤوس الخيول وقوائِمَها لأنّها ألْهَتْهُ عن الصلاة !! ما ذنبها؟! لذا هناك بنْد اسْمُهُ الإسرائيليات في كتب التفسير ما أنزل الله بها من سلطان، تقولات على الأنبياء، والتي لا ترضي الله عز وجل، وتتناقض مع عِصمَتِهم، فالأنبياء معصومون، وإن لم يكونوا معصومين، فمن المعْصوم ؟ إذا كان هذا النبي المرْسَل الذي يوحَى إليه غير معصوم أيَكون أحدُ الناس معصوماً ؟ وكيف يأمر الله سبحانه وتعالى باتِّباع أنبيائه وهم غير معصومين، فكأنَ الله يأمرنا بالمعصيَة، إذاً هذه القصص كلّها باطلة، ولا أصْل لها، والقرآن الكريم وضّحَها تماماً فقال تعالى:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76))

ثمّ يقول تعالى:

(وَإِنّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

حقيقة الهدى من أجل التوضيح ؛ لو أنّكَ سلّطتَ مِصْباحاً كاشفاً على طريق وعِرَة لعرفْتَ الحفرة من الأكمة، والحيوان المؤذي وغير المؤذي، ومن الحيوان النافع، فالضّوء كشّاف، فالقرآن الكريم هدى يُبيّن لك طريق سعادتك في الدنيا والآخرة، وفي الزّواج افْعَل ولا تفْعَل، وفي البيع والشِّراء، وفي كلّ حركة من حركاتك، وفي كلّ نشاط من نشاطاتك، هناك توجيهات إلهيّة من الهع عز وجل في كتابه الكريم أخبرنا عن حقائق ووجّهَ توجيهات، فإذا علمت الحقائق، واتبعت التّوجيهات فكأنّك على نور، وربّنا عز وجل في بعض آيات كتاب الله سمّاهُ نوراً مُبيناً.

أمرك أن تصلّي وأن تستقيم فلما استَقَمْتَ واتَّقَيْتَ شَعَرتَ بالسعادة الحاصلة من اتِّصالك بالله:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً(174))

(سورة النساء)

هو كلام الله عز وجل، أما رحمة فلها معنى آخر، أنت إذا اتبعت هدى الله في شأن الزّواج، هناك تعليمات، أوّل بنْد وعاشِروهنّ بالمعروف ؛ كأن تكون رحيماً وحليماً، حلمك ورحمتك وكرمك ومكانتك العلِيّة في البيت، هذا يجعل الزّوجة تحترمك وتُوَقِّرك وتتفانى في خِدمتك، فينشأ ما يُسمّى السعادة

الزّوْجيّة، هذه السّعادة رحمة من الله عز وجل تنْعم بها أنت، حينما اهْتَدَيْتَ بِهُدى الله سَعِدْتَ بهذه الرحمة، فأيّ توجيهٍ إلهي، كأن يقول لك فلان: في البضاعة الفلانية تربح كثيراً، وينصحك أن تشتري منها، فأنت تشتري وتبيع وتربح، هذا المال تنعّمْتَ فيه، واشْتريْت بيتاً واسعاً، أطْعمْتَ أهلك طعاماً جيداً، وارْتَدَيْت كساءً جيّداً، فهذه النِعَم التي أنت تسْتمتعُ بها بفضل هذا الموجّه، فالقرآن الكريم هُدًى ورحمة إذا أعطاك التّوجيهات ونفّذْتها تحسّ أنّ الله عز وجل أكْرمَكَ بهذا الزّواج، وأنت في التِّجارة اسْتَقَمْت على أمر الناس، وما كذبت عليهم، وما ماطلتهم، وما عسّرْت عليهم، وما أثْنَيْت على بضاعتك، وهي ليْسَت كذلك، وما ذممتَ بضاعة الآخرين، وطبَقْتَ السنّة في البيع والشّراء دون كذب أو احْتِيال أو تدليس، فالناس يثقون بك، ويُقْبِلون عليك، زبائنك كثيرون أحبُّوك وآثروك على أيّ بائع آخر، وربحت منهم ربْحاً جيّداً، فهذه رحمة تنعم بها بعد أن طبّقْت هُداه طبعاً هذا في الزواج، وفي التِّجارة، وفي علاقتك بالله عز وجل، أمرك أن تصلِّي وأمركَ أن تستقيم، فلما اسْتَقمْت واتَّقَيْت شَعَرْت بهذه السعادة الحاصلة من اتِّصالك بالله عز وجل.

الحياة الدنيا مليئة بالاتِّجاهات وكلّ يدّعِي أنّه على حقّ:

قال تعالى:

(وَإِنّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

أيُّ توْجيهٍ تُنَفِذُهُ يعْقِبُه رحمة، تغضّ بصرك عن محارم الله هذا توجيه واضح، وإذا طبّقْت الأمر بحزم يجب أن تشعر أنّ الله سيُكافِئك، تتمتّع بسَعادة زوْجيّة يفتقر لها أناسٌ كثيرون، لأنّه حينما يعْصي الزّوج أو الزّوجة يتولّى الشيطان التفريق بينهما، فإذا غضَضْت بصرك عن محارم الله يتولّى الرحمن التوفيق بينكما، وتجد مودّة بالغة، وعلى هذا فقِسْ مع شريكك، إذا كنتَ مستقيماً على أمر الله يحبّك شريكك، وإذا كانت هناك أشياء من وراء ظهره ينْفُرُ منك وتصبح هناك مشاحنات وتنفكّ الشراكة بعدها، قال تعالى:

(وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرينَ(46))

(سورة الأنفال)

آية دقيقة جداً ؛ قال تعالى:

(وَإِنّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77))

تهتدي بِهَدْي القرآن، ويرحمك الله إذا طبَقْت هذا الهدي، قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

الحياة الدنيا مليئة بالاتِّجاهات، وكلٌّ يدّعِي أنّه على حقّ، وما من فئة، وما من مجموعة، وما من طائفةٍ، وما من مذهبٍ إلا وهو على حقّ والناس على باطل:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

(سورة الروم)

كلّ إنسان يظن نفسهُ مِحْوَرَ العالم وأنّه الوحيد، فهذه المشاحنات والخِلافات، والأخذ والعطاء، والاتّهامات السّريعة، وكلّ إنسان يتّهم الآخرين لأتْفَه الأسباب، وتنشأ عداوات لا مُبرّرَ لها، ويعْتدّ بنَفْسِه، ويحتقر الآخرين، ويُعظِّم قدراته إلى أقصى درجة، إذا كان بالعلم فهو العالم والناس كلّهم جهلة، وإذا كان بالاختراع فهو المخترع، وإذا كان بالتِجارة فهو التاجر، وإذا كان بالصِّناعة هو الصانع، دائماً يحتقر الآخرين، فهذه الخلافات والصِّراعات والمشكلات سَيَضَعُ الله لها حدّاً يوم القيامة.

على الإنسان أن يعتدل ولا يتطرف بأحكامه:

قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

أحياناً يتكلّم المحامي محاضرة بليغة وعظيمة، عريضة مع الأدلّة، والاستنباطات، والتبريرات، والتخفيفات، فإذا توقف يتكلّم المحامي الآخر، والقاضي عنده بصيرة، وعنده أدلّة، يُنْهي هذا النِزاع بأن يقول: حَكَمْنا على فلان بالسِّجْن، وهو المذْنب، وينتهي الأمر، قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

قد تكون هذه الفئة الضالة، وهذه المحقة، قد يكون العكس، فأهل التّصوف هم الدِّين وحده، وأهل العقيدة هم الدِّين وحده، وأهل الفقه هم الدِين وحده، فهذه مبالغة، ولكنّ الدّين فيه جانب عقائدي، وجانب عبادي، وجانب معاملات، وجانب خلقي، فالدِّين كلّ هذه الأشياء، ولا ينصر هذا الدِّين إلا مَنْ أحاطهُ مِن كلّ جوانبه، فإذا كنتَ من علماء الأصول ليس إلا أنت، وإذا كنت من علماء الشريعة ليس إلا أنت ! لا كلّ هؤلاء يُشَكِّلون محطّات في الطريق إلى الله عز وجل، وكلّ هؤلاء يشكِّلون أجزاء في الدين يكمل بعضهم بعضاً، إذاً كما قال تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78))

الإنسان لمّا يتطرّف بأحكامه لا بدّ له من أن يتراجع في يوم ما، فما عليك إلا أن تكون معْتدلاً.

الله عز وجل لا يقبل للإنسان أن يتوكّل عليه وهو على باطل:

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (79))

هذا التَوكّل شيءٌ عظيم، والتَّوَكّل ليس كلمة تقال، أن تقول: توكّلت على الله، هذه قد يقولها أيّ إنسان، هذا كأن تقول: ألف مليون ! هذه كلمة، وهذه يقولها أفْقر واحد، فبَيْن أن تلفظها وبين أن تملكها فرْقٌ كبير، وبين أن تقول: توكّلتُ على الله وقلبك مع زيْد وعُبَيد على مالك وصحّتك ومكانتك، وعلى ابن عمّك وابن خالتك، أيُّ توكّلٍ هذا ؟ هذا كلّه شِرْكٌ ! الله عز وجل ليس عند القول، ولكن عند الشّعور وعند الحقيقة، ولن تتوكّل عليه إلا إذا عرفْتهُ، فأنت لن تُكَلِّفَ إنساناً عملاً خطيراً إلا إذا كان في مستوى هذا العمل، لن تكلف إنساناً يشتري لك ذهَباً، وأنت تعرف وجود ذهب مزيّف، وأسعار باهظة، وبائعي أسعار غير معقولة، وهناك احتيال، لن تُكلّف من هو ضعيف الخِبْرة في هذا الموضوع، لن تعتمد إلا على الخبير والقويّ ولن تعتمد إلا على العالم والقدير، فالتَّوكّل يحتاج إلى معرفة ثابتة اِعْرف الله ثمّ تَوَكّل عليه، هذا إذا علِمْت أنّ بيَدِهِ كلّ شيء ؛ عليم خبير قدير حكيم محبّ رؤوف رحيم، كيف أنّ الطفل الصغير وهو في حِجْر أمّه مرتاح لا مشكلة عنده، لا يخشى عَدُوّاً، ولا يخشَى مرضاً، ولا يخشى جوعاً، هذا الاستِسلام هو حال المؤمن، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، حديث ـ ناصيتي بيدك ـ هذا هو التَّوَكّل، ولم لا، قال تعالى:

(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

الله عز وجل لا يقبل للإنسان أن يتوكّل عليه وهو على باطل، قال تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

كأنّه يقول لنا إن اعْتَدَيْتُم أنتم فأنا لا أستجيب لكم لأنّي لا أحبكم، أنا لا أستجيب إلا للمُنصفين، وللمقسِطين، وأنا لا أستجيب إلا للمحسنين، والطائعين، والطاهرين، والمستقيمين، فإذا كنت من المعتدين فلا أستجيب لكم، لأنّي لا أُحبّكم، إنّ الله لا يحبّ الكافرين، ولا يحبّ الفاسقين، ولا يحبّ الظالمين.

المؤمن يستمدّ قوّته من حُسْن ظنّه بالله عز وجل:

قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

إذا كنت على الحق المبين توكّل على الله عز وجل، فلذلك المؤمن يسْتمدّ قوّته من حُسْن ظنِّه بالله عز وجل، ويعلمُ عِلمَ اليقين أنَ الله معه وأنّ الله لن يتخلّى عنه، ولن يتركهُ، وأنّ الله برَحمته وحِكمته يحفظ عبده المؤمن، وإنَ الله يحبّ المتوكِّلين، هناك أشخاص إذا طمأنهُ شخص يطمئنّ ويرتاح أما إذا كانت هناك آية تطمْئِن يبقى قلقاً، وهذه مشكلة وهي ضعف في الإيمان خطير، ألا يكفيك تطمين الواحد الدَيان حتى يطمئنك إنسان ؟! قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل)

ألا يكفيك قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

الله برَحمته وحِكمته يحفظ عبده المؤمن لأن الله يحبّ المتوكِّلين:

ألا يكفيك قوله تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا(48))

(سورة الطور)

وقوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

وقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ(38))

(سورة الحج)

هذه الآيات:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدّاً(96))

(سورة مريم)

ألا يكفيك تطمين الواحد الدَيان حتى يطمئنك إنسان ؟! قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 80 - 86

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النمل.

الله تعالى شبّهَ الكفار بالأنعام وبالكلب وكأنهم خشب مسندة:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

(سورة النمل)

شيءٌ دقيق جداً، وهو أنّ الإنسان قد يكون حيّاً وميتاً في وقت واحد جسمه حيّ، وقلبه ينبض، ودمهُ يَجري، رئتاه تَخْفقان، وعضلاته تتحرّك، وأعصابه صالحة لِنَقل الإحساس والحركة، ولكنّ قلبه النفسيّ ميّتٌ، لا يعي على خير، وربّنا عز وجل في هذا الموضوع ضربَ أمثلة كثيرة، فقد شبّهَ الكفار بالأنعام، قال تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

شبّهَ الذين حملوا التوراة أيْ تلقّوْها مِن سيّدنا موسى، ولم يفقهوها، ولم يعرفوا أبعادها، ولم يُطَبِّقوها بالحُمُر، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5))

(سورة الجمعة)

شبّهَ الكفار كأنّهم خُشبٌ مسنّدة، وشبّههُم بالكلب، قال تعالى:

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(176))

(سورة الأعراف)

العناية بالجسد لا تنفعُ صاحِبَها شيئاً ولكنّ البُطولة أن تعتني بالنّفس:

الإنسان ولو كان يتمتّع بصِحّة طيّبة، وبِجسم قويّ، العِبرة بِقَلب النفس، لأنّه كما قال تعالى:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

ما الذي يعمله الناس الآن ؟ عِنايَةٌ فائقة بالجَسَد ؛ يخافُ على عَيْنَيْه، وعلى قلبه، ودائماً يُخَطِّط قلبهُ، وفُحوصات دَوْريّة، وتحليلات مِخْبريّة لأنّه يحرصُ على صحَته، وقلّما نجد إنساناً يحرص على صِحّة نفسِهِ ! وصِحّة النّفس هي المُعوّلُ عليها، لأنّ هذا الجسَد حينما ينتهي الأجل مصيرهُ إلى التراب:

إنّ الطبيب لـه عِلْمٌ يُـدِلّ بـه   إن كـان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انْقضَتْ أيّام رحلتـه   حار الطبيب وخانَتْهُ العقـاقيـر

***

مهما بالغْت في العناية به فلا بدّ من ساعةٍ ينتهي فيها العُمُر، وينتقل فيها الإنسان إلى دار الحق، ولكنّ البُطولة أن تعتني بهذه النَفس، والدليل قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

الكفار يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، يعرف من أن تؤكلُ الكتف، وكيف تقتنص الفرَص ؟ وكيف يكون الرّبح ؟ عنده حواسّ ثابتة جدّاً، في البيع والشّراء، وفي المكاسب والمغانم، وفي المغانم، فهذه الخِبرات في الدنيا لا تنفعُ صاحِبَها شيئاً.

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ومن آثر آخرته على دنياه ربحَهُما معاً:

قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

في الآية إشارة دقيقة وهي أنّهم حتى في الحياة الدنيا لا يعلمونها على حقيقتها، بل يعلمون فقط ظاهرها! والحقيقة أنَ المؤمن يسْعَدُ في حياته الدنيا سعادةً لا يعرفها أهل الدنيا، لأنّ اسْتِقامتهُ على أمر الله تعالى تجعلهُ يسْتحقّ حياةً هادئةً، وحياةً مطمئنّةً، وحياةً متوازنةً، ولأنّ توكّلهُ على الله تعالى يجعلُهُ في طمأنينة، واعْتِقادهُ أنّ الأمر كلّه بيَدِ الله تعالى يجعلهُ في راحةٍ قلبيّة ولأنّ اعتقادهُ أنّ الله تعالى حكيم، وأنّ أفعاله كلّها في حقه خير، هذا يجعلهُ ينفي من قلبه الغلّ والحسد، فالمؤمن إذا صحّت عقيدتهُ، واسْتقام على أمر ربّه، وصحّ عملهُ ؛ حياته فيها ميزات لا يعرفها أهل الدنيا، فلذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحَهُما معاً، والقضيّة خطيرة جدّاً، فأحياناً الإنسان لا يربح، وأحياناً يُحقق ربْحاً كبيراً جدّاً، وبرأس مالٍ قليل، أحياناً أرباحٌ طائلة بجُهودٍ صغيرة، أحياناً لا يربح، وأحياناً يدْفعُ خسارةً كبيرةً جدّاً، الإنسان إذا ضل طريق الحقّ يخْسرُ نفسهُ، ونفْسُه أثْمَنُ ما يمْلِكُ،

فالجود بها أعلى أنواع الجود، والضنّ بها أعلى أنواع البُخل، وخسارتها أعلى أنواع الخسارة، فربّنا عز وجل أشار في هذه الآية إلى أنّ هذا الكافر ميّت ! قال لي بعضهم: عدَ حياته قبل أن عرف الله عز وجل فقبل معرفة الله ؛ أمواتٌ غير أحياء ! كُتلة شهوات متحرّكة، إنسان هدفُهُ ذاته، يُؤْثِرُ حظّهُ على كلّ شيء، يُضَحّي بكلّ شيءٍ من أجل لا شيءٍ.

أعلى درجة في المؤمن خوفه من الله تعالى:

أحدُ السُياح جال في قريةٍ فإذا مقبرتها عليها شواهد كلّها مكتوب عليها أعمار الموتى بأرقامٍ قليلة، خمس سنوات، سبع سنوات، عشرون سنة، فسأل ما القِصّة ؟ فقالوا: نحن في هذه القرية لا نعدّ عمر الإنسان إلا بعد أن يؤْمن ! وبعد أن يعرف الله، وقبل هذا أموات غير أحياء!!

ليس مَن ماتَ فاسْتراحَ بمَيّتٍ   إنّما الـميّت مـيّـت الأحياء

***

أحياناً لا يجد الإنسان نبْضاً في قلبه ! يا ترى هل هناك حياة ؟! يضَعُ مرآةً على أنف هذا المريض، فإذا كان هناك تنفّس ضعيف جدّاً، لا بدّ من أن يرتسِمَ على المرآة بعض بخار الماء، ويفتحون العَين ويوجّهون إليها ضوءاً شديداً، فإذا كانت هناك بقية حياة تضيقُ قُزَحِيّة العين، لا نبْض، ولا تنفّس، ولا ردود فِعل منْعَكِسَة إذن هو ميت، فأحياناً تلتقي بإنسان ميّت ؛ هو خبير بأمور الدنيا، ولكن أمور الآخرة، وأمور الدِّين، وأمور ما بعد الموت، وأمور هذا الخالق العظيم، والإيمان، والطاعة لا يعرفُ عنها شيئاً ولا يريد أن يعرفَ، ويقول: هذا الموضوع لا يعنيني !! أموات غير أحياء، وأحياناً تجد إنساناً بالسِّتّينات والسّبعينات بالمقهى يلعب النَّرْد حتى ساعةٍ متأخِّرة من الليل، ولا يُصَلِّي، ماذا أبقى لآخرته ؟ وكيف سيَلْقى ربّهُ ؟ أموات غير أحياء !

هذا الذي يرتكبُ المعاصي جِهاراً ولا يُبالي، ويأكل مالاً حراماً، ويأكل شيئاً ليس له، ويحتجّ دونك القضاء، فهذا من الأموات غير الأحياء، والمؤمن ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ لو دَخَلَ عليه دِرهم حرام لما نام الليل ! يخاف الله عز وجل، وأعلى درجة بالمؤمن خوفه من الله تعالى، عندهُ حساسيّة بالغة، فأحياناً يكون للإنسان عصَب قد ضُغِطَ في بعض الفقرات، فيأتي الطبيب إلى مكان خاصّ في الرّكبة يضْربها بمِطْرقة خاصّة، فإذا الرّجل تحرّكت، فمعنى ذلك أنّ العصب جيّد، فإذا كان ردّ الفِعل ضعيفاً فهذا دليل الْتِهاب العصب، فعدم ردّ الفِعل دليل موت العصب فأحياناً يستمع الإنسان للقرآن، يضيقُ به ذرْعاً، ويحبّ أن يسمعَ الغناء، أموات غير أحياء، وأحياناً يضيقُ بسَماع الخطبة أو الدّرس الديني ويقف

على قدَمَيْه ساعات طويلة في حديث فارغ، وفي كلامٍ لا طعْم له أما أن يسْتمِعَ إلى درسٍ ديني، فهذا لا يحْتملُهُ !!

شيءٌ خطير أن يكون الإنسان ميّت ونعوذ بالله من موت القلب:

إذاً أموات غير أحياء، ويقرأ القرآن فلا يقْشعرّ بدنُه، الله عز وجل وصَفَ المؤمنين فقال:

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23))

(سورة الزمر)

يقرأ القرآن فلا يضطرب قلبه، ولا تنهمرُ عَيناه بالدُّموع، قلبهُ قاسٍ يُصلِّي وخواطرُهُ في تِجارته، وفي بيْتِهِ، وفي محلّه، وفي مشكلاته وحِساباته، حتى أنّ أحدهم قال لي: حينما أجد خللاً في الصُّندوق لا أكْتشفُ الخطأ إلا في الصلاة !! أهذه صلاة ؟! فهذا شيءٌ خطير أن يكون الإنسان ميّت، قد يكون في أبْهى زينة، وقد يكون وسيم القامة، جميل الشّكل، أنيق الملبس، أذواقهُ رفيعةٌ في بيتهِ، ومع ذلك ميّتُ القلب، ونعوذ بالله من موت القلب، حديث:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أخاف من هذه الكلمة ؛ أموات غير أحياء، أن يموت قلب الإنسان:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي عن أبي الجعد الضمري]

كان على قلبه الران، نكتت نكتة سوداء في قلبه.

أحوال أهل الدنيا شعور بالملل والضيق والقهر:

أن يدَعَ الإنسان مجالس العلم ما الذي يحصل ؟ ينْغمِسُ في الدنيا، في مشكلاتها، وهمومها، وأحزانها، ويشعر بالقهر والضِّيق، ويشعر بالملل، ويشعر بعَدم الانشِراح، وهذه أحوال أهل الدنيا ؛ ضيق في ضيقٍ، أما النبي عليه الصلاة والسلام ماذا يقول:

((لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم.))

[مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة]

الإنسان إذا حضَرَ مجلس العلم يشْعر بالراحة وبالانْشراح، ومن علامات المؤمن الصادق كما قال عليه الصلاة والسلام:

((خيار أمّتي الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله))

[الطبراني عن عبادة بن الصامت]

أحياناً تلتقي بأخيك المؤمن فتقول ارْتاحَ قلبي **!** كنتُ في ضيقٍ شديد فلمّا الْتَقَيْتُهُ ارْتاحَ قلبي هذه علامة الإيمان، حدّثني أخ دخَلَ على صديق له فإذا هو يبكي بكاء شديداً فقال له: **مالَكَ يا فلان ؟** فقال: والله بقيتُ أُعاني من ضيق القلب يومين، فلمّا دخلْتَ عليّ ورأيْتُكَ زال عني هذا الضيق، فلهذا أبكي **!!** أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قال له:**يا رسول الله، إنّي كلّما رأيْتك اطْمأنّ قلبي، وارْتاحَت نفسي،** دخلَ عليه فرآهُ يبكي، فقال له: **مالكَ يا ثوبان تبكي ؟** فقال:**أنا معك في الدنيا ولكن أيْن أنا في الآخرة ؟!! أخشى أن لا ألتقي بك،** فنزل من أجله قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَالرّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشّهَدَاءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً(69))

(سورة النساء)

الكافر كالأموات تُحدِّثه عن آيات الله الباهرة فلا يتأثّر:

الإنسان إذا تركَ مجالس العلم فإنّ بطاريّته تفرغ من الكهرباء، فإذا شحَنها في كلّ أسبوع مرة أو أكثر من مرّة، وجد نفسه ممتلئة بالكهرباء وهكذا، فهذه مجالس الإيمان، وهذه مجالس يرضى عنها الله تعالى، والمؤمن في المسجد كالسّمكة في الماء ؛ مرتاح، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، ولا يستحقّ كلمة عصفور، لأنَه أقلّ من هذا لذلك قال تعالى:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (80))

الكافر ميت، قال تعالى:

(وَلَا تُسْمِعُ الصّمّ الدّعَاءَ (80))

تُحدِّثه عن آيات الله الباهرة فلا يتأثّر، وتحدّثه عن أحداثٍ وقعَتْ يتّضِحُ من خِلالها عظمة الله عز وجل فلا يتأثّر، أموات غير أحياء، قال تعالى:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصّمّ الدّعَاءَ (80))

لكنّ هناك أخٌ حدَثني حديثاً ـ وهو الآن مسافر غائب، ردّهُ الله بالسّلامة ـ كان يستمِعُ إلى هذه الآية من قارئ، وعندهُ معلومات خاصّة من أنّ الذي لا يستمع وهو الأصمّ يؤْتيه الله قدْرةً فائقة جدّاً على فهْم الكلام، فهو يفْهمُ الكلام من حركة الشّفاه، وهذا أكّدهُ لي أُناسٌ، فقال لي: وأنا أسْتمعُ لهذه الآية:

(إِنّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصّمّ الدّعَاءَ (80))

نشأ في نفسي اعْتِراض، وهو أنّ الأصمّ يفهم ! فلمَا تلا القارئ قوله تعالى:

(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

قال لي: والله الذي لا إله إلا هو كِدْتُ أُصْعق، لأنّ هاتين الكلمتين من إعجاز القرآن، لأنّ الأصمّ بما أوتِيَ من قُدراتٍ فائقة يفهم الكلام من حركة الشِفاه، فإذا ولى هو مُدْبراً أيَفْهمُ شيئاً ؟ لأنّ الأصمّ قد يفهم بعض المعاني من حركات الشِّفاه، أما إذا أدبر فماذا بقي ؟

من نوّر الله قلبهُ وفتح بصيرتهُ يرى الحق حقّاً فيتّبعَه ويرى الباطل باطلاً فيجْتنبه:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (81))

الذي فقدَ بصرَهُ يُعطينا فِكرةً واضحة عن عمى القلب، فالأعمى لا يرى ما في الطريق من حُفَر، ومن منزلقاتٍ، ويستطيعُ طفلٌ صغير أن يُضلِله، فلو أنّ شخصاً كفيف البصر، قال له طفلٌ: يا عمّاه هناك حفرة، لَوَقفَ وبحث عن الحفرة بعصاه، لكن هناك إنسانٌ قلبه أعمى لذلك تأخذهُ بعض النّظَريات، وتُذْهبُه بعض النّظريات، ساعة يؤمن وساعة لا يؤمن، أما الذي نوّر الله قلبهُ وفتحَ بصيرتهُ، رأى الحق حقّاً فاتّبَعَه، ورأى الباطل باطلاً فاجْتَنَبَه، والله لو كُشف الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً، قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80))

الحق له طريقان طريق السمع وطريق الرؤية:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (81))

معناها الكافر أصمّ أعمى ميّت، فالحق له طريقان ؛ طريق السمع، وطريق الرؤية، فإما أن تنظر في خلق السماوات والأرض، وإما أن تنظر في بعض الحوادث فتَستنبط منها بعض الحقائق، وإما أن تجلس في مجلس علمٍ فتستَمِعَ إلى الحق، منْفذُ القلب السّمعُ والبصر، وكلاهما مغْلقٌ، إذا ماتَ القلب، يؤكِّدُ هذا قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(6)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(7))

(سورة البقرة)

ما ذنبهم إذا ختَمَ الله على قلوبهم ؟ قال: لا، هذا خَتْمٌ حُكمي، والغَشاوةُ هي حبّ الدنيا، فهو الذي سدّ سمعهم وبصرهم، فإذا سُدَّ السمع والبصر فالقلب خُتِمَ عليه من باب أولى، فإذا كان هناك مدْخل للبناء الخارجي وأظهرت لنا هذا الباب، فالأبواب الداخليّة حكماً مُغلقة، ولا قيمة لها، فما دام الباب الخارجي قد أُرتج فالأبواب الداخليّة مغلقة حكماً، فحينما يقول الله عز وجل:

(خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(7))

(سورة البقرة)

هذا خَتم حكمي، جهاز تلقِي الحق الجاهز وهو السّمع، فتلقي الجاهز السمع، والتأمّل والتفكّر هو العين، فالخَتم على قلبهم بسبب إغلاق سمعهم وأبصارهم وحبّ الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم:

((حب الدنيا رأس كلّ خطيئة.))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني عن أنس بن مالك]

المؤمن بالآيات هو المُؤهَل أن يفْهم ما جاء في كتاب الله:

قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

المؤمن بالآيات هو المُؤهَل أن يفْهم ما جاء في كتاب الله، والمؤمن لا يمرّ على آيات الكون مرّاً سريعاً، والمؤمن إذا شرب كأس ماء يقف عنده طويلاً، كيف تحوّل هذا الماء المالح الأجاج إلى عذب فرات ؟ لتر الماء في بعض البلاد النَفطيّة تُكلف تحليتُهُ أكثر من خمسة أو ستة ريالات ! من جعَلَ هذا الماء في الأمطار والينابيع والأنهار ؟ الله سبحانه وتعالى، كأس الماء له معنى، إن جاءهُ مولود فهذا له معنى كبير، يعلمُ أنَّهُ حُوَين منوي، تلقّحَت بُوَيْضَة، فإذا طِفلٌ كامل من جمجمة ودماغ وأعصاب، والأعصاب والخلايا الاستناديّة في الدِّماغ والنخاع الشوكي والعظام والعضلات المخطّطة والمَلساء، الرّغامى والمري والبلعوم، واللِّسان والأسنان والفم والأنف، العينان والأذنان، والمعدة والأمعاء والبنكرياس والكبد والصفراء والكليتان والكظر، معمل قائمٌ بذاته:

أتَحْسَبُ أنّك جُرْمٌ صغير وفيك انْطوى العالم الأكبر

***

من يؤمن بآياتنا هو الذي يستمع إلى الحق وهو المؤهّل أن يعقل وأن يسمع وأن يرى:

المؤمن لا يمرّ هكذا ! هذا الطِفل يجعلهُ يسجد لله عز وجل، إذا أكل بيضة يقف عندها طويلاً، إذا شرب كأس حليب وعلم أنَ هذا الحليب يحتاج إلى أربع مئة لتر دم من أجل تصنيعه، وأنَ هذه البقرة معملٌ

قائمُ بذاته، بل إنّ أعظم المعامل تعقيداً تبْدو أمام البقرة تافهة، تأكل وتحرث لك الأرض وتصنعُ لك الحليب، وقد ذلّلها الله عز وجل، فالبقرة آية، والدجاجة آية، والخروف آية، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(72))

(سورة يس)

لو أنّ الله ركّب فيها أخلاق الضّبع، كيف تأكل الغنم ؟ وكيف تستفيد من لحمها ؟ لو أنّ الغنم ركِّبتْ فيه أخلاق الكلاب، هل بإمكانك أن تجمعَ مئة كلبٍ وتجعلها تسير معك ؟ كلّ واحدٍ في طرفٍ بِحَسب مهمّته، فهذا الذي يؤمن بآياتنا هو الذي يستمع إلى الحق وهو المؤهّل أن يفهم وأن يعقل وأن يسمع وأن يرى قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

هذه كلمة دقيقة جدّاً ؛ ما هو القول ؟ إذا وقع القول عليهم، ربّنا عز وجل قال:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

الله عز وجل له قرار قطعي، وهؤلاء لن يؤمنوا، أنت إذا كنتَ في الجامعة، أو بمَدرسةٍ أو معهدٍ والطالب لم يتقدّم إلى أيّ امْتِحان والنتائج لم تصْدُر بعدُ، هل بإمكانك أن تحكمَ عليه بالرُّسوب مئة بالمئة ؟ نعم، لأنّ نِظام الامتِحان هكذا ينصّ، لا ينجحُ الطالب إلا إذا قدَم الامتحان، ونال الدّرجات الكافيَة لنَجاحِهِ، فإذا نالَ الدرجات التي هي أقلّ من النجاح لا ينْجح فكيف إذا تغيَّبَ عن الامتِحان كلّه ؟ إذاً هناك قوانين، وفي ضوء القوانين بإمكان الإنسان أن يُصْدِر حكماً قاطعاً، فكيف الله ربّ العالمين ؟

الله تعالى له قوانين والآيات التالية تُظهر بعض هذه القوانين:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

الإنسان أحياناً يضلّ ضلالاً بعيداً إلى درجة أنّه لا أملَ في رَجعته، والخطير في حَياته أن يوغِل، ويبتعِدُ عن الحقّ بُعْداً كبيراً، أما المؤمن:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي عن أنس]

إذا كان الحِجاب بينك وبين الله رقيقاً فهذا الحِجاب سهلٌ أن تُزيلهُ، أما إذا بالغْت في المعاصي، وابْتَعَدْتَ عن الدِّين، وأنْكَرْت العقيدة، وأنْكرتَ الأوامر فهنا تكون قد بلغت من البُعْد ما لا يُرْجى لك عَوْدةٌ، فربّنا عز وجل قال:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

الله له قوانين، من هذه القوانين في القرآن قوله تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

هذا قانون وقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(6))

(سورة غافر)

هذا قانون ثانٍ، وقال تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ(205))

(سورة الأعراف)

أيْ لا يستجيب لهم، لأنّه لا يُحِبّهم وهذا قانون رابع، فإذا قرأتم القرآن وأردْتم أن تستشِفّوا منه بعض القوانين فإن هذه القوانين مهمّة جدّاً.

الله تعالى يتعامل مع عباده وفق القانون التالي: منكم الصدق ومني العدل:

قال تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

هذا قانون، فيا عبادي تعاملي معكم وفق القانون التالي: منكم الصِّدْق، ومنّي العَدل، ففي ضَوء بعض القوانين الإلهيّة هؤلاء لا يُرْجى منهم شِفاء ولا أمل، أوْضَح مثلٍ هذا الطالب الذي تخلّف عن الامتِحان كله ولمّا تصْدر بعد النتائج، فهل في ضوء النِّظام الداخلي للجامعة ونظام امْتِحاناته أن تحكّم عليه حكماً قطْعياً أنّه راسب ؟ نعم نحكم عليه حكماً قطعياً أنه راسب، هؤلاء الناس إذا تعلّقوا بالدنيا، وانْغَمَسُوا فيها، وأداروا ظهرهم للدِّين، بل كذّبوا بِوُجود الإله، وكذّبوا بكل ما تمت إليه بصِلَة، هؤلاء ضَلّوا ضلالاً بعيداً، ففي بعض البلاد كدَولة الحِجاز اللّوحات على عرض الطريق تماماً، فاللّوحات على عرض الطريق وعالية جدّاً وفسْفوريّة، فأنت من مكانٍ بعيد إذا كنتَ تقود المركبة في الليل ؛ مِن هنا مكّة، ومن هنا الطائف، فمَعَ هذه اللّوحة الواضحة جداً، والكبيرة جدّاً، والصارخة جدّاً، والمضيئة جدّاً، واتَّجَهْتَ إلى الطائف بدَل مكّة، هَدَفُكَ مكّة فاتَّجَهْت إلى الطائف، نقول: هذا ضلال مبين ! لأنّ لوحة كبيرةً جدّاً على عرض الطريق عرضها خمسة أمتار طولها ثلاثون متر، وخطّ كبير وفسفوري، ثمّ تذهب إلى الطائف بدَل مكّة فهذا ضلال مبين، فأحياناً الإنسان يكون اتِّجاهه حمص، وهناك طريق

يميني دَخَل به خطأً، حتى وصل إلى تدمر، فهذا ضلّ ضلالاً بعيداً، لكن هناك من يرجع بعد أمتار، وبعد واحد كيلو متر، أو مئة كيلو متر.

الذي ضلّ ضلالاً بعيداً ولعنه الله هذا أغلب الظنّ أنّه وقعَ القول عليه بعدم جَدْوى هِدايتِه:

قال تعالى:

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23) ﴾

(سورة محمد)

الذي ضلّ ضلالاً بعيداً، ولعنه الله عز وجل، هذا أغلب الظنّ أنّه وقعَ القول عليه، أيْ صدَرَ عليه أمر بعدم جَدْوى هِدايتِه، ضلّ ضلالاً بعيداً، وأوْغَلَ في الضلال، وأوْغَلَ في غَصْب أموال الناس بالباطل، وأوْغَلَ في انتِهاك الأعراض، وأوْغَلَ في إيذاء الناس، أوْغَلَ في تَكذيب الدِّين، وأوْغَلَ في إنكار الوُجود هذا ضلّ ضلالاً بعيداً، يبْدو أنّ الله سبحانه وتعالى جمع في آخر الزمان هؤلاء الذين ضلّوا ضلالاً بعيداً، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82) ﴾

أيْ طُبِّقت عليهم السُّنَن الإلهيّة، فلو أنّ إنساناً ارْتَكَبَ جريمة قتْل وحوكِمَ مُحاكمة عادلة، وارْتَفَعَت القضيّة من محكمة الجِنايات إلى محكمة النَقض، ومحكمة النَّقض صدّقت هذا الحكم، ورئيس الجمهوريّة صدّق هذا الأمر، وسيقَ إلى الزّنزانة لِينتظر حكم الإعدام، والجريمة خطِرة، فهل بإمكانك أن تحكم عليه قطْعاً بالموت ؟ نعم، فهذه الآية لها حالات صعبة جدّاً، فالإنسان وهو الذي أتمنَاه على الله عز وجل أن لا يوصِلَ نفسهُ إلى طريقٍ مسدود، وأن لا يوصل نفسهُ إلى ضلال بعيد وعليه أن يتصل بأهل الحق، مجالس العلم تفعل في الإنسان فِعْل الصّحْوَة دائماً، كلّما بدأ ينحرف يأتي هذا المجلس فيَصْحو من غفلته، نفسهُ سوّلَت له أن يأكل مالاً حراماً، ولو تابعَها لانتهى، حضر إلى مجلس العلم، ذكر المتكلّم عواقب المال الحرام فخاف وتركه، لذلك هذه المجالس ضمانات لتَصحيح المسار الدائم، فإذا الإنسان صحح مسار مركبته تجده في بحبوحة وسلامة، أما إذا انْحرف انْحِرافاً بسيطاً واسْتمرّ هذا الانحراف، قد ينتهي به انْحِرافه إلى القاع، من هنا النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرَارِ))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

أوْضَح مثل أن تكون على طريقٍ مستقيم تماماً، وعلى يمينك انْحِدارٌ خطير، وتقود مركبتك، لو انحرف المِقْود سنتمتر واحد، وثبّت يديك على هذا الانحراف، وأصْرَرْت عليه، فلا بدّ من أن تسقط هذه المركبة

في الوادي، أما تسْمية الصغيرة صغيرة لأنّه يسْهُل تعديلها، أما الكبيرة فهي انْحِراف بِنِسبة تِسعين درجة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا صَغِيرَةَ مَعَ الإصْرَار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

فما دام هناك إصرار تَغدو كبيرة.

من علامات قيام الساعة خروج دابة من الأرض:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

هذه من علامات قيام الساعة، دابة من الأرض، أحاديث كثيرة جداً أكثرها ضعيف، وبعضها غير صحيح، والأحاديث الصحيحة المتعلّقة بدابّة الأرض ليس فيها تفصيلات، ولكن حينما تظهر نعرفها، قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (82))

بعضهم قال: هذه السيارة التي تعلّق الناس بها إلى درجة أنّهم هاموا بها، وقد تُكلِّمهم ! إما بمِذْياعها أو مُسجلتها أو ببَعض أجهزتها، حينما قطَعَ الناس آمالهم من الآخرة وجعلوها في الدنيا فقط أصْبحت هذه مَحْبوبة وهذا رأيٌ من الآراء، ولكنّ الصحيح هو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر التّفصيلات المتعلِّقة بهذه الدابّة، إنّها من علامات قيام الساعة، وحينما تظهر نعرفها، هذا إن ظهرت ونحن أحياء، ولكن الدليل أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يقتنعون وضَعوا الدّين وراء ظهورهم، وعَدُّوهُ خرافة وأفْيون الشّعوب، وعَدُّوه شيئاً غَيْبِيّاً لا يعني شيئاً، والمتديِّن إنسان ضعيف، وأُفقهُ محدود، وآمنوا بالمادّة، بالدِرهم والدّينار، كم تملك ؟ قيمتك بقيمة رصيدك وقيمتك من متاعك ؛ ما نوع بيتك ؟ وما مساحته ؟ وفي أيّ حيّ موجود ؟ ما نوع مركبتك ؟ ما دخْلك في الشهر ؟ سيّدنا عليّ يقول: **" يأتي على الناس زمان قيمة الرجل متاعه."** أي يستمدّ قيمته من نوع ثيابه، وربطة عنقه، من نوع حِذائه، لا من علمه، ولا من أخلاقه، قيمته من بيته، من سيارته، وتِجارته، ورصيده، كلّ هذا من مظاهر الجاهلية الثانية.

الدِّين هو دين الخالق ودستور قطعي الدلالة وهو منهَج متكامِل من تعليمات الصانع:

الله عز وجل قال:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى(33))

(سورة الأحزاب)

حينما قال أولى يعني أنّ هناك ثانية، فأين الثانية ؟ قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

والله أيها الأخوة الأكارم يعْتصِرُ قلبي ألماً حينما أرى إنساناً يُكذّب بالدّين ولم يسْمَح لِنَفسِه أن يقرأ عن الدّين شيئاً، قبل أن يطّلِع عليه، هل تقبل إذا أتَتْكَ رسالة دون أن تفتحها، ودون معرفة المرسِل، ودون النَظر إلى توقيعه، ولم تقرأ ما فيها ثمَ تكذّبها ؟! هل هذا موقف علمي ؟ فقبل أن تكذّب ادرس، واطّلِع، واقرأ، واستَمِع، ثمّ خُذْ موقفاً أما أن يأخذ الإنسان موقفاً من الدين مُعادياً قبل أن يعرف ما الدّين ؟ الدِّين هو دين الخالق، ودستور قطعي الثُّبوت، وقطعي الدلالة، والدِّين منهَج متكامِل، والدّين هو تعليمات الصانع، فقبل أن ترفض الدّين اطّلِع على الدِّين، وهذا هو الموقف الشريف والعلمي، قبل أن تكون لك اعْتراضات وملاحظات وتحفّظات جمِّد كلّ ذلك، واثكب على فهم الدِّين، اِفْهم كتاب الله عز وجل والسنّة النبويّة، تعرّف إلى العقيدة الصحيحة وادْرس سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وسيرة أصحابه، ولا تحكم على الدّين إلا بعد أن تطّلِعَ عليه.

أعظم وأشرف وأخطر عمل في الدنيا أن تعرف الله عز وجل:

الآية الكريمة:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

هل في الدنيا عمل أعظم وأشرف وأخطر من أن تعرف الله عز وجل ؟ ومن أن تعرفَ المهمة التي من أجلها جئت إلى الدنيا ؟ هذا عمل عظيم سبحان الله ! الذي يقول لي: لستُ فارغاً فلأيّ شيءٍ أنت فارغ؟! من أجل أعمال تافهة، ومن أجل دريْهمات تكسبها تُضيّعُ آخرتك ودُنياك، فكلمة لستُ فارغاً هذه الكلمة تدعو إلى الضّحِك، مثلاً طالب له امتحانات تخرّج، وإذا تخرج ربّما سيكون طبيباً، وربما سيكون له شأن، ودخل كبير، وسيشْتري بيتاً ومركبةً ثمّ نقول له: لِمَ لا تدرس ؟ فيقول: لسْتُ فارغاً لهذا !! فلأيّ شيءٍ أنت فارغ ؟! طبيب جاء من بلدٍ أجنبي، وفتَحَ عِيادة، ووضَعَ وقت العيادة من الخامسة إلى الثامنة، وجاءه مريضٌ الساعة السادسة، ثمّ يقول الطبيب: نعم ماذا تريد ؟ أنا لسْتُ فارغاً ! لماذا أنت هنا ؟ من أجل أن تعالج الناس، وتأخذ من أموالهم شيئاً، فهذا الذي يقول لك: أنا لسْتُ فارغاً بمَعرفة الله كهذا الطالب الذي يقول: أنا لسْت فارغاً للدِّراسة ! وهذا الطبيب المكلّف بمُعالجة الناس، والذي يقول: لا وقت لِمُعالجة المرضى ! هذا خِلاف المنطق، لذلك قال تعالى:

(أَكَذَّبْتُمْ بِآَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

السُكوت قد يكون معبّراً:

قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

السُكوت قد يكون معبّراً، أحياناً مع ابنك، فقد يتلبّس بذنب، وهناك أدلّة قاطعة، وأنت نبَهْتهُ أن لا يقعَ فيه، مَنْ فعَلَ هذا ؟ هذا السُكوت هو سُكوت الاعتراف بالذّنب، وسُكوت الإحْباط، يقولون: أُسْقِط في يدِهِ لذلك قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

ماذا يتكلّم ؟ الحجّة عليها وقد ضيّعَ الآخرة كلها، والدنيا مضَتْ وكأنّها ساعة، وانظر دِقة القرآن، قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81))

من آياتنا.

في الكون آيات كثيرة توصلنا إلى معرفة الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً (86))

ألم يرَوا ؟ هذه هي الآيات، وهذا هو طريق معرفة الله عز وجل، أليس الليل والنهار تحت سَمع الإنسان وبصرهِ كلّ يوم ؟ كلّ يوم مغرب، وعشاء، وصبح، وعصر، هل فكَرْت بالشّمس والقمر والنّجوم ؟ وبالليل والنهار ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

على كلٍّ ضاق الوقت، ولنا عودة في الدرس القادم إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنّ النّاسَ كَانُوا بِآَيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النمل 027 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 82 - 93

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الثامن عشر من سورة النمل.

العاقل يتلافى أن تنطبق عليه إحدى العقوبات لأن العقاب أليم والمصير محتوم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

(سورة النمل)

في الآية الكريمة كما يقول بعضهم مركزُ ثِقل، هذا المركز هو أن يقع القولُ عليهم، أي أن ربنا سبحانه وتعالى له سنن وله قواعد وله ثوابت وله قوانين، أحياناً تنطبق هذه السُّنة على زيد أو على عمرو أو على هذه الأمة أو على هذه الفئة أو على هذه القبيلة أو على هذه القرية أو على هذه المدينة، عندئذ يستحقُّون العذاب، فالإنسان المفكِّر العاقل لا يصل مع الله إلى درجةٍ أن يقع القولُ عليه أو أن تُطبَّق عليه بعض المواد، بعض السنن وبعض القواعد، والإنسان في حياته الدنيا يجتهد أن لا تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، دائماً العاقل يتلافى أن تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، لأن العقاب أليم، والعذاب أليم، والمصير محتوم، فالذي أتمنى أن أنقله إليكم قولُه تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

قال تعالى:

(أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

أي ذكّرناهم وذكّرناهم وبيّنا لهم ووضّحنا لهم وفصّلنا وأرسلنا الآيات وأرسلنا المصائبَ وأرسلنا التّذكير، أناسٌ دعوهم وأناسٌ ذكّروهم.

الله عز وجل لا يأخذ الإنسان إلا باستحقاق:

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

المواطن الذكي يجهد في تجارته وبيعه وشرائه وفي حرفته وفي نشاطه ونزُهاته أن لا تنطبق عليه إحدى قوانين العقوبات السارية، فالقضية كبيرةٌ جدّاً في تعامل الإنسان مع الإنسان، يتحاشى أن تنطبق عليه إحدى هذه المواد، ستّ عشرة سنة و ثماني عشرة سنة، عشرون، فكيف مع خالق السماوات و الأرض ؟ كيف مع الله الذي لا إله إلا هو، الذي بيده كل شيء، إليه يرجع الأمرُ كلّه، بيده ملكوت كل شيء، قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي أن الله عز وجل لا يأخذ الإنسان إلا باستحقاق، ليهلك من هلك عن بينة و يحيا من حيي عن بينة.

الحياة والإكرام بأسباب، و الهلاك بأسباب، لذلك النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان يدعو الله فيقول:

((مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضّأْ فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ ثُمّ لِيُصَلّ رَكْعَتَيْنِ ثُمّ لِيُثْنِ عَلَى اللَّهِ وَلْيُصَلّ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ لِيَقُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلّ بِرّ وَالسّلامَةَ مِنْ كُلّ إِثْمٍ لا تَدَعْ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمّاً إِلا فَرّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ))

[رواه الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبي]

ماذا قال عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه ؟

عَنْ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:

((سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ قَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قُلْتُ هُوَ ذَاكَ قَالَ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[رواه مسلم عَنْ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ]

الجنة ليست مكاناً بل هي مقامٌ و لو أنها مكانٌ لدخلها كلُّ إنسان ولو كان مسيئاً:

كنتُ أضرب هذا المثل، الملِكُ بإمكانه أن يسكن ابنه في أجمل قصر، وأن يعطيَه أجمل سيارة وأفخم طائرة وأغلى يختٍ، فهل بإمكان الملِك أن يجعل ابنه أستاذاً في الجامعة ؟ تقول له: لا، هذه عليك لا عليه، ادرُس ونَلْ هذه الشهادة وأنا أفعل ذلك بعدها، يعني هناك شيء لا يتم إلا بجهد الإنسان، والجنة ليست مكاناً بل هي مقامٌ، و لو أنها مكانٌ لدخلها كلُّ إنسان، ولو كان مسيئاً، ولو أن النعيم في الجنة نعيمٌ ماديٌّ بحتٌ ؛ طعام و شراب ليس غير، لدخلها كلُّ إنسان، و لكن الجنة مقام، بإمكانك أن تدخل إلى

الجامعة، إذا كانت لا تقرأ ولا تكتب ؟ الباب مفتوح، و الممرّاتُ سالكة، وقاعة المحاضرات مفتوحة لأولي العلم، هذا المقعد صف رابع رياضيات، صف رابع حقوق، صف رابع آداب أو ماجستير أو دكتوراه، هذا المقعد الواحد لا يجلس عليه إلا من درس سنوات طويلة جدّاً حتى استحقّ أن يجلس في هذا المكان، حتى يفهم هذا المدرّس وحتى يتفاهم معه وحتى يستفيد من علمه، فقاعة المحاضرات مثلاً ليست مكاناً ولكنها مقامٌ لمن نال الثانوية، والصفُّ الأول والصف الثاني والرابع، والآن إذا جلس في هذا المكان وجاء الأستاذ وملأ السّبورةَ سيناً وعيناً وجيماً يستمتع ويستغرق، أما إذا أتيتَ بإنسان لا يقرأ و لا يكتب ووضعته في أول صف لا يستفيد شيئاً، فهذا المقعد في هذه القاعة ؛ قاعة المحاضرات مكانٌ أم مقامٌ ؟ مقام والجنة مقامٌ، ولو كانت مكاناً لدخلها كلُّ الناس، فلذلك النبيُّ الكريم قال لأصحابه: عَنْ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:

((سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ قَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قُلْتُ هُوَ ذَاكَ قَالَ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[رواه مسلم عَنْ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ]

العاقل لا يُوصِل نفسَه مع الله إلى طريق مسدود:

هناك جزء لا يستطيع أحد أن يفعله عن أحد هو أن تتعرّف إلى الله عز وجل، هو أن تصلّي، هو أن تصوم، لذلك بعضُ العوام يقول: سقوط الصلاةَ، من جاء بهذا، إذاً كل إنسان يهمل الصلاة عند موته تُدفَع عنه صدقةٌ بسقوط الصلاة وسقوط الصيام وسقوط الحجّ وانتهى الأمرُ، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

هذه الآية اعتمد عليها الإمام الشافعي، وجعلها أصلاً أنه لا أحد يفعل عن أحد شيئاً، فلذلك قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي دائماً العاقل لا يُوصِل نفسَه مع الله إلى طريق مسدود، لا يوصل نفسه مع الله إلى أن تنطبق عليه إحدى السنن.

الإنسانُ في حياته الدنيا أحياناً يقع في مخالفة ينص عليها القانون، فيستنجد بأقرب الناس له، و يكون له مكانة كبرى يقول: لا، هذه لا أستطيعها كُتِب الضبطُ و المادة صريحةٌ والقانون ثابتٌ ولا مجال إطلاقاً، فأقربُ الناس له يتخلّى عنه، القضية صريحة، أنت ارتكبتَ المخالفة تنطبق عليك هذه المادة، والمادة

صريحة والضبطُ واضح، ويصعب سحب الضبطِ، هذا في تعاملك مع بني البشر، فكيف مع الله عز وجل.

على الإنسان أن يدرس القواعد القطعية الثابتة في تعامل الله مع عباده:

الذي أتمنّاه عليكم أن الإنسانَ يجب أن يدرس هذا القرآن، ويجب أن يدرس السنن الإلهية، القواعد القطعية الثابتة في تعامل الله مع عباده، وليجْهد أن لا يصل مع الله إلى أن تنطبق عليه إحدى هذه المواد، وهذا المثل أضربه كثيراً، إنسانٌ قتل وأُحيل إلى قاضي التحقيق، الجريمة ثابتة، وأُحيل لمحكمة الجنايات فحكمت عليه المحكمةُ بالقتل، بالإعدام، القرار رفِع إلى محكمة النقض، ومحكمة النقض درست القرار ووجدتْ أن الأدلة صحيحة والحكم صحيح فصدّقته ورئيس الجمهورية صدّق وعُين موعدٌ لتنفيذ حكم الإعدام، فهذا الذي أوصل نفسَه إلى أن تنطبق عليه إحدى مواد قانون العقوبات، قبل تنفيذ الحكم، إن شاء أن يضحك وإن شاء أن يبكي، وأن يدعو وأن لا يدعو، وأن يترجّى وأن لا يترجّى، الكلُّ سواء، فلا بدّ من تنفيذ هذا الحكم، أي أنه أوصل نفسه إلى طريق مسدود، وربُنا عزّ وجل يقول:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

أي قولي الثابت، وسُنّتي الثابتة، والقاعدة المطلقة انطبقت عليهم، قال تعالى:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ(36))

(سورة هود)

انتهى، وقال تعالى:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(16))

(سورة الإسراء)

آخرُ الآية التالية ينعطف على أوّلها فيفسِّرها:

قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ (82))

ما هو القول ؟ آخرُ الآية ينعطف على أوّلها فيفسّرها، قال تعالى:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

متى وقع القولُ عليهم ؟ حينما لم يؤمنوا بآياتنا، وحينما لم يوقنوا بآياتنا، وحينما استقرُّوا على أن لا يؤمنوا، والإنسانُ أحياناً قد لا يؤمن، لكن في نيته أن يؤمن، قد لا يؤمن وهو متحفِظٌ، وقد لا يؤمن وهو في تردُّد، لكن أحياناً يأخذ قراراً.

أجمع المفسرون أن المقصود بكلمة (آياتنا) ليست آيات القرآن الكريم:

قال لي شخصٌ: ذهبتُ إلى البادية لأشتري بضاعة، صوف ؛ و كنتُ جاهلاً حتى بقواعد الدين، فتلاعبْتُ بالميزان ـ هكذا قال لي ـ هذا الأعرابي شعر أن هناك فارقٌ كبير بين الوزن الذي ذكرت له، وبين حقيقة هذه الكمّية، فنبّهني وحذّرني، وبعد أن غادرتُ المكانَ نشأ صراعٌ في نفسي، لماذا فعلت هذا؟ أأعود وأوضّح له حقيقة الأمر وأطلب منه السماح، أم أمضي في سبيلي، ماذا أفعل ؟ بقيتُ في صراع دقيق وعميق من مكان بيع هذه البضاعة إلى قرية قُرب دوما، في هذا المكان قلتُ لا بأس، وما أن قلتُ هذه الكلمة، حتى وجدت نفسي في الطريق وسط بركةٍ من الدِماء، وقع حادثٌ والبضاعة تلاشت وتبعثرتْ ووقعت جريحاً.

أنا أدركتُ من هذه القصة أن الإنسان مادام في أخذ وردٍ وما دام متحوّزاً وما دام في تردُّدٍ فإن الله عز وجل يعطيه مُهلةً، أما إذا أخذ قراراً، أما إذا استقرّ على شيء لا يرضي الله عز وجل، أما إذا ركب رأسَه، أما إذا قال: وماذا سيكون ؟ ليكُن ما يكون، فهذا وقع القول عليه وانتهى، قال تعالى:

(أَنّ النّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

أيّةُ آيةٍ هذه ؟ أجمع المفسرون أنها ليست آيات القرآن الكريم، مطلق الآيات، الشمسُ آية، والقمر آية، وابنُك آية، والزوجة آيةٌ، كأسُ الماء آية، وكأس الحليب آية، والبيضة آية، وقطعة اللحم آية، والأزهار آية، والأشجار آية، والثمار آية، كلُّ شيء حولك آية، ينطق بكلمة التوحيد، فلذلك لمّا يتجاهل الإنسان هذه الآيات و يعمى عنها أو لا يعبأ بها أو يسخر منها، و يستقر على هذه الحال و يقول: فليكُن ما يكون أنا أعرف هذه الدنيا، و ما سوى الدنيا خيالٌ في خيالٍ، هؤلاء الماديّون هكذا أفكارُهم، يقولون: عِشْ لحظتك، عِش في اللحظة التي أنت فيها، اِكسب المالَ دون أن تدقِق، حرام حلال، والكلمة الشائعة كلمةُ إبليس حلالٌ على الشّاطر، هذه كلمةُ إبليس، حلالٌ إذا كان الشيءُ حلالاً فقط، فلذلك الإنسانُ تكلِمه هذه الدابّةُ أخرجناها لهم من الأرض.

هناك آيات خارقة للعادات وآيات من ضمن قوانين الكون:

قال تعالى:

(أَنّ النّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

لماذا خلق اللهُ هذا الكون بهذه العظمة وبهذا الإعجاز ؟ و لماذا سخّره لنا ؟ أتحبّ أن تعرف كيف خُلِقت؟ أنظرْ إلى خلق ابنك، أتحب أن تعرف كيف يبدأ اللهُ الخلقَ ؟ انظُر إلى دورة النبات، بذرة، و أحياناً الغرام الواحد فيه أربعمئة بذرة، البذرة فيها رُشيم، و الرُشيم لو كبّرناه، نجد فيه سُوَيقاً وجُذَيراً،

وفيه معلومات تقريباً بآلاف الملايين، هذا النبات عملاق، وهذا النباتُ مقزّم، وهذا النباتُ باكوري، وهذا النبات يتأثّر بالرطوبة والحرارة والبرودة، النباتُ كائنٌ حيٌّ له طبعٌ معيَّن، فكلُّ هذه المعلومات مودعةٌ في هذا البذرة، أتحبُّ أن ترى كيف يبدأ اللهُ الخلقَ ؟ انظرْ إلى دورة النبات، بذرةٌ ينمو فيها هذا الرُشيم ويأخذ غذاءه من هذه المحفظة إلى أن يملك جُذيْراً صغيراً مع أشعار ماصّة إلى أن يستطيع أن يأخذ حاجته من التربة، عندئذ يستغني عن هذه المحفظة وتكون قد انتهت أساساً، ينمو ويتبع الضوءَ والحرارة، ثم يُورِق، ثم يُزهِر، ثم يثمِر، ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح، هذه دورة النبات، كلُّ شيء حولك آية، هذا الإنسان الجاهل الذي يمرُّ بهذه الآيات دون أن يعقلها ودون أن يقف عندها، إنسانٌ ضيّع عمرَه سُدًى.

إذاً قوله تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآَيَاتِنَا (82))

عندنا آيات خارقة للعادات وهناك آيات من ضمن قوانين الكون، فنزول المطر آية، لكنّ الأمطار ليست خرقاً للعادات، وهبوب الرياح آية، والبحرُ آية، الجبالُ آية، والينابيعُ آية، والأنهار آية، والماءُ العذبُ الفراتٌ آية، والملح الأجاج آية، هذه آياتٌ وفق مقتضى القوانين والسُنن، أمّا خروج الناقة من الجبل، هذه آية أيضاً.

الآية التالية أساسها خرقٌ للعادات:

قال تعالى:

(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آَيَةً(73))

(سورة الأعراف)

لكن هذه الآية أساسها خرقٌ للعادات، وأن يصبح البحرُ طريقاً يبَساً هذه آية، ولكن أساسُها خرقٌ للعادات، أن يكون السيّدُ المسيحُ من دون أبٍ آيةً، ولكن أساسها أنّها خرقٌ للعادات، فهناك الآيات التي هي وِفقَ العادات وآيات تُعدُّ خرقاً للعادات، إذا كذّب الإنسانُ بالآيات المألوفة وربّما كان الكونُ بحالته الراهنة، بحالته التي هي فوق السنن أبلغُ في الموعظة والاستنباط ممّا لو كان في حالة أخرى، لذلك ورد في الأثر:

((حسبكم الكون معجزة))

هذه الآياتُ الصارخة الدالة على عظمة الله إذا لم يعبأ بها الناس وما فكّروا فيها وتجاهلوها وعدُّوها شيئاً من عاداتهم، يأتي الليلُ، ويأتي النهارُ، وتشرق الشمسُ، وتغيب الشمس، يأتي الصّيفُ ويأتي الربيع والخريف والشّتاءُ، تظهر هذه النباتات في الربيع، والأشجار المثمرة تعطي هذه الثمار اليانعة، نشتريها

ونأكلها، شيءٌ طبيعيٌّ مألوف ونشرب هذا الماء العذبَ كأنه شيءٌ مألوفٌ جدّاً، هذا الماء كان ملحا أجاجاً فكيف أصبح عذباً فراتاً ؟

هذا الذي يشرب الماء ويأكل ويتنزّه ويستمتع بالطبيعة ويقول: اليوم ليلة قمر و هذه أيام زهر، الاستمتاع بالطبيعة من دون التأمُّل بالذي أوجدها وبالذي أبدعها بالذي خلقها و بالذي كوّنها، بهذا الإله العظيم، هذا هو الجهلُ بعينه، فإذا بلغ الإنسان هذا المستوى إن هم كالأنعام، وربُّنا عز وجل قال:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

وصف لمن تستهلكه الحياة وهو كالآلة ثم يأتي الموت عليه فيخسر كل شيء:

قال تعالى:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ)

(سورة الجمعة)

وقال تعالى:

(كَأَنّهُمْ خُشُبٌ مُسَنّدَةٌ)

(سورة المنافقين)

وقال تعالى:

(كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

الله عز وجل يقول:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك، فلأسلِطَنّ عليك الدنيا تركضُ ركْضَ الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذْموماً.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50))

(سورة المدثر)

الحياةُ استهلكته، وهو قطعةٌ في آلة يعمل بلا هدف ليلاً ونهاراً، ويجمع الأموالَ فإذا جاء الموتُ خسر كلَّ شيء في ثانية واحدة.

الحديث الذي تحدِّثهم إياه الدابة أن الناسَ انغمسوا إلى قمّة رأسهم بالشهوات:

إذاً إذا كفر الناسُ ولم يوقنوا بآيات اللهِ الدالّة على عظمته عندئذٍ لا بدّ لهم من آيات تُعدُّ خرقاً لقوانين الكون، قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا (82))

بآياتنا الطبيعية لا يوقنون.

أمّا حديث الدابة فليس في كتاب الله ما يعطي تفصيلات لهذه الآية، هذه الآيةُ عدّها العلماءُ من أشراط الساعة، وهناك أحاديث كثيرةٌ فيها تفصيلات لهذه الدابة ولكنّها أحاديث ضعيفة، لذلك معظم المفسِّرين ترفّعوا عن أن يوردوا هذه الأحاديث الضعيفة المتعلّقة بهذه الدابّة، وعلى كلٍّ هذه الدابة حينما تظهر ـ إذا كتب اللهُ لنا عمُراً ـ نرى ما هي الدابة، وإلا فعلمُها عند ربي. قال تعالى:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

الدابة من الأرض، ومن للتبعيض، أي أن مكوّناتِها من الأرض، وهذه الدابة تكلِّمهم وتحدِّثهم، قال تعالى:

(أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82))

أي الحديث الذي تحدِّثهم هذه الدابة أن الناسَ انغمسوا إلى قمّة رأسهم بالشهوات، وفي الحديث:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[رواه الترمذي عَنْ أبي هريرة]

ذكر من السنة الشريفة لبعض علامات قيام الساعة:

إذاً هناك أزمانٌ صعبة، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغيّرَ، قال عليه الصلاة و السلام:

((كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

كيف بكم إذا ضُيّعت الأمانةُ ؟ إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة، أحاديث الساعة كثيرة، قال عليه الصلاة و السلام:

((يوم يكون المطرُ قيظاً والولدُ غيظاً ويفيض اللِئامُ فيضاً ويغيض الكرامُ غيضاً فانتظر الساعة.))

[رواه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة]

قالَ:

((أَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ))

[رواه مسلم]

من علامات قيام الساعة أن يكثر الشجرُ، ويقلّ الثمرُ، ويعُقُّ الرجلُ أباه، ويبرُّ صديقه، تجدُه مع أصدقائه في منتهى اللُّطف، ومع والديه في منتهى العنف والقسوة، هذه من علامات الساعة، فلذلك حينما ينغمس الناسُ في شهواتهم ولا يرون إلا الشهوات ويسعوْن لها سعياً حثيثاً، وحينما تشغل هذه الشّهوات كلّ ساحة نفوسهم، وحينما تصبح قيمة الإنسان ما عنده من مالٍ، كما قال سيّدُنا عليٌّ: " يأتي على الناس زمانٌ قيمةُ المرء متاعُه "، يستمدُّ شخصيتَه من بيته وأثاث بيته ومن ثيابه ومن مركبته فقط، قيمته الاجتماعية فيما يملك، لا فيما يعمل من الصالحات، لا فيما يعلم، فيما يملك، هذه كلُّها من علامات الساعة، فإذا بلغوا هذا المستوى انجرفوا نحو المادة، والمادةُ أعمتْ أبصارَهم، استحوذت على قلوبهم و ما رأوا غيرَ المادة، وفعلوا كلّ شيء من أجل شهواتهم، وداسوا بأقدامهم على قِيَمهم، و باعوا دينَهم بعرضٍ من الدنيا قليل، وباعوا القيم التي جاء بها الإسلام بأبخس الأثمان، فعندئذٍ وقع القولُ عليهم، وعندئذ:

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ (82))

فطرتُك السليمة تقتضي أن تؤمن فإن لم تؤمن فأنت قد خالفتَ الفطرة وتكلّفتَ ما لا تطيق:

قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً (83))

الفوجُ الجماعةُ، قال تعالى:

(مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

أي هناك حاجزٌ يُوقفون ويُسألون لماذا كذّبتم ؟ لذلك اللهُ عزّ وجل يقول في حقّ هؤلاء حينما يخاطبون ربَّهم:

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

(سورة الأنعام)

يقول اللهُ عز وجل:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24))

(سورة الأنعام)

فطرتُك السليمة تقتضي أن تؤمن، فإذا لم تؤمن فأنت قد خالفتَ الفطرةَ، أنتَ تكلّفتَ ما لا تطيق.

وقوف العتاة والمضللين يوم القيامة ليُسألوا هل فهمتم فحوى كتاب الله تعالى:

قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

يبدو أن هؤلاء المكذّبين، هؤلاء العُتاة، هؤلاء المُضلِّلين، هؤلاء الذين أرادوا أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم، هؤلاء الذين تزعّموا حملةً ضدّ الدين، هؤلاء قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83))

يُوقفون ليُسألوا قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

لا أدري كيف أمثِّل هذه المثل، أيُعقل أن يأتيَك كتابٌ أو أن تأتيك رسالةٌ مختومة قبل أن تفتحها وقبل أن تقرأها وقبل أن تعرف من المرسِل وقبل أن تعرف فحوى هذه الرسالة وهي مُغلقة ومختومة، لا تعرف لا فحواها ولا مرسِلها، تقول: هذه كذبٌ، هذا الموقف هل هو منطقي، أيفعله عاقلٌ على وجه الأرض ؟ هذا الكتابُ القرآن الكريم، خطاب الله لهذا الإنسان، قبل أن تقرأه وقبل أن تفهمه وقبل أن تعقلَه وقبل أن تسأل عنه أهلَ الذِّكر، وقبل أن تفهم تأويلَه، وقبل أن ترى مراد الله منه، وقبل أن تقف عند أحكامه، وعند وعده وعند وعيده، وعند بشائره وعند إنذاراته، وعند آياته وعند أخباره، وعند جنّته و عند ناره، قبل أن تقرأ كلّ شيء تقول: هذا أساطير الأولين، هذه مغيّباتٌ، هذا ما وراء الطبيعة، أريد الواقع وأريد الشيءَ الملموس، أريد أن أحيا بكلّ جوارحي وبكلّ حاجاتي وبكلّ شهواتي، هذا كلام الناس، هذه مغيّباتٌ، دعْك منها.

الشيءُ الذي لا يُحتمَل أن يكذِّب الإنسانُ ويستخِفّ ويسخر وهو لا يعلم:

الشيء الذي أتألّم منه أنّ كثيراً من الناس قبل أن يستوعبوا الدِّين، وقبل أن يفهموا هذا الكلامَ العظيم، وقبل أن يقفوا عند سُنة سيد المرسلين، يكذِّبون بهذا الدين، أو يتعلّقون بالخلافيات، يعني أشياء صغيرةٌ جدّاً لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وليست عقباتٍ في طريق الإيمان يتعلّقون بها، وينفخون فيها، ويكبّرونها،

ويختصمون، ويتحزّبون، ويتناقشون، ويتصارعون، ويتّهم بعضُهم بعضاً بالكفر، من أجل قشور في الأشياء الفرعية جدّاً، قبل أن تدخل في هذه الخلافيات، و في هذه الجزئيات، وفي هذه الفرعيات اِفهمْ لُبّ الدين، و اعكف على هذا القرآن، وتعلّمْ آياته، وافهمْ مرادَ الله منه، وتعلّم سنة النبيّ، وادرُس العقيدةَ الصحيحة، هذا العملُ مقدّمٌ على البحث في الخلافيات، وكثيراً ما ترى مسلماً ما قولك بهذا الموضوع ؟ أنت لم ترَ من الإسلام شيئاً يستحقُّ المناقشة إلا هذا الموضوع، هل درستَ صلب الدين ؟ وجوهر الدين؟ وهل درستَ هذا الكتاب الكريم ؟ ما توافر عليه، هذا هو الشيءُ الذي لا يُحتمَل، أن يكذِّب الإنسانُ أو أن يستخِفّ أو أن يسخر وهو لا يعلم، تماماً كما لو جاءك خطابٌ مُغلَقٌ قبل أن تفتحه، وقبل أن تقرأ مَنْ المرسِل، و قبل أن ترى التوقيع، و قبل أن ترى فحوى الرسالة، تقول: هذا كلام فارغ، هذا الذي لا يقرأ القرآن و لا يفهمه ويترفّع عنه ويقول: هذا كلام الأوّلين لا يصلُح لهذا الزمان، نحن في زمن العلم وزمن التّقدُّم والحضارة، زمن الكمبيوتر، زمن التصنيع والآلة، هذا كلام للصحراء، هكذا يقول بعضُ المسلمين المتفرنِجين المستغربين طبعاً، هؤلاء يوم القيامة يُقال لهم:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

لماذا كذّبتم ؟ أدرستم وتحققتم وتأمّلتم ودقّقتم وبحثتم ورأيتم الأدلة.

على الإنسان أن يسألْ نفسَه: أنا ماذا أعمل في الدنيا ؟ وماذا قدّمتُ لله عز وجل ؟

قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

ما العمل الذي كان عندكم مُفضّلاً على هذا العمل ؟ إذا أرسلنا طالباً للدراسة إلى دولة أجنبية، ووعدناه بمنصب رفيع جدّاً وبدخلٍ خياليّ، فلما سألناه ماذا كنتَ تعمل ؟ قال لك: أنا لستُ متفرّغاً للدراسة، إذاً أنت فارغٌ لماذا ؟ ما هو العمل الذي فضّلتَه على الدراسة وأنت مبعوثٌ للدراسة، قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

كلمةٌ دقيقة جدّاً، قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

اسألْ نفسَك هذا السؤالَ، أنا ماذا أعمل في الدنيا ؟ قد تعمل عملاً لا طائل منه، ولا فائدةَ منه، أنا في الدنيا ماذا أعمل ؟ ماذا قدّمتُ لله عز وجل ؟ وهو يقول لك: لقد رزقتُك أولاداً وعلّمتك صنعةً ورُزقت منها رزقاً وفيراً، ماذا فعلتَ ؟ هذه الليالي في الشتاء في ماذا أمضيتها ؟ في لعبة النرد، في متابعة المسلسلات، ماذا فعلتَ في هذه السهرات الطويلة ؟ ماذا فعلتَ في هذه الأيام الطويلة ؟ ماذا فعلتَ في

الصيف ؟ ماذا فعلتَ في الشتاء ؟ وماذا فعلت في الربيع ؟ وماذا فعلت في الخريف ؟ ماذا فعلت بزوجتك ؟ لماذا لم توَجِهها إلى الله عز وجل ؟ ولِمَ تركتَها وشأنَها هكذا تفعل ما تشاء وتفتن الناسَ في الطريق ؟ وابنتُك لماذا لم تمنعها من هذا العمل ؟ أتحبُّ أن تقف الابنةُ يوم القيامة وتقول: يا رب لا أدخل النارَ حتى يدخل أبي قبلي.

الدينُ فيه حقائق خطيرة جداً لأن مصير الإنسان في الدين:

قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

ماذا تفعل، تعلّمتَ الطبَّ، لماذا تعلّمت الطبَّ ؟ خدمتَ المسلمين ونصحتهم ؟ تعلّمت المحاماة ؟ أدافعت عن المظلوم فيهم ؟ كنت موظفاً هل خدمتَ الناسَ ؟ و كنت بائعاً أنصحتهم في بضاعتك ؟ و كنت عالماً أبذلتَ علمك أم كتمتَه ؟ ماذا فعلتَ ؟ هذا سؤالٌ دقيق، ماذا فعلتَ في حقّ الله عز وجل ؟ مَا أعطيت لله وما منعتَ لله ؟ هذا أخطرُ سؤالٍ، قال يا رسول الله علِّمني من غرائب العلم ؛ بعض اللَّفتات الحلوة، قضية طُرَف، لأن من الناس من يريد درساً ممتِعاً، فيه طُرَفٌ، والدين ليس طُرفاً، الدين حقائق تُبكِي، قال تعالى:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(59)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61)فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62))

(سورة النجم)

الدينُ فيه حقائق خطيرة جدّاً، مصيرك في الدين، فلذلك هذا الأعرابي قال: يا رسول الله علِّمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة و السلام ـ و قد عرف أنه إنسان تافهٌ ـ قال: **فماذا صنعتَ في أصل العلم؟** قال: وما أصل العلم ؟ قال: **هل عرفت الربّ**، أعرفتَ الآمرَ ؟ أعرفت الخالقَ ؟ أعرفت الموجِدَ ؟ أعرفت المسيِّرَ ؟ أعرفت المكوّن ؟ أعرفت المنظِّم ؟ أعرفت هذا الربَّ الرحيم ؟ أعرفت حكمتَه ؟ أعرفت علمه وقدرته ؟ أعرفت عدالته ؟ قال: **فماذا صنعت في أصل العلم** ؟ قال: وما أصل العلم ؟ قال: **هل عرفت الربّ** قال: ما شاء الله، قال: **فماذا صنعت في حقّه ؟ ماذا فعلت ؟**

لا بدّ من عمل عظيم يعِدُّه الإنسان لساعة لقاء ربه:

قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

واللهِ هذه الآية تكفينا، ماذا كنت تعمل في الدنيا ؟ أنشأتَ بيتاً فخماً وزيّنته بأحدث زينة، هذه مهمّتُك ؟ تاجرتَ تجارة رابحةً وحصّلت منها الملايين، هكذا، أنا بعثتك إلى الدنيا لهذا الهدف فقط ؟ أن تجمع المالَ ؟ أن تعيش فقيراً لتموت غنيّاً ؟ قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84))

قال: **هل عرفت الموت** ؟ قال: ما شاء الله، قال: **وماذا أعددتَ له** ؟ سؤالان ؛ إذا قلتَ لي عرفتُ اللهَ، أقول لك ماذا صنعت في حقِه ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا بذلت من أجله ؟ ماذا أعطيت وماذا منعتَ ؟ من صادقت ومن عاديت ؟ من وصلت ومن قطعتَ ؟ في أيّ مكان حضرت ؟ هل حضرت مجالس العلم ؟ هل تعلّمت كتاب الله ؟ هل كنت وقّافاً عند حدود الله ؟ وإذا قلت لي عرفت الموت، أقول لك: ما أعددت للموت ؟ لا بدّ من عمل عظيم تعِدُّه لهذه الساعة، يا ربي لقد فعلتُ كذا وكذا من أجلك، لذلك قال تعالى:

(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

تنظر إلى الله عز وجل، وجوه متألِّقة، وقال تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(40)تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(41)أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(42))

(سورة عبس)

حكم اللهِ قطعيّ لا يقبل المراجعة ولا الاستئناف ولا النقض:

وقع القول عليهم بما ظلموا، واستحقوا العقابَ، وصدر حكمٌ قطعي، وحكمُ الله عز وجل لا يقبل المراجعة ولا الاستئنافَ ولا النقض، هناك آيةٌ تؤكِّد ذلك، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

أما قاضي الاستئناف يحكم، ويقول: باسم الشعب السوري قررنا ما يلي، ويأتي مَن حُكِمِ عليه هذا الحكم ويرفع استدعاءً لمحكمة النقض ويُنقض هذا الحكمُ، لكن قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(41))

(سورة الرعد)

حكم اللهِ قطعيّ، قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

أحيانا سكوت المتَّهم أبلغ من كلامه، يسكت، قال تعالى:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85))

الآن جاء السببُ، لماذا كنتم عن آياتي غافلين ؟

من آيات الله عز وجل أنه جعل النهار معاشاً والليل سكناً:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا اللّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِراً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

هذا الليل، قال تعالى:

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللّيْلَ سَكَناً (96))

(سورة الأنعام)

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا النّهَارَ مَعَاشاً(11))

(سورة النبأ)

النهار معاش والليل سكنٌ، آية الليل والنهار، مَن جعل هذه الأرض تدور حول نفسها ؟ ومن خلق الشمسَ ؟ ولو أُلقِيت الأرضُ في الشمس لتبخّرتْ في ثانية واحدة، في جوف الشمس حرارةٌ تزيد عن عشرين مليون درجة، وفي سطحها ستة آلاف درجة، وطول ألسنة اللّهب بليون كيلو متر، وعمر هذه الشمس منذ خمسة آلاف مليون عام، ويُحتمَل أن تستمرّ في هذا الوهْج والحرارة إلى خمسين مليون سنة قادمة لا تخبو وهذا الوقود لا ينفد، وهذه الطاقة لا تنتهي، فمَن يُمدُّها باستمرار ؟ شمس وأرض تدور حول نفسها ليلاً ونهاراً، ولو دارا بشكل مغاير لدورانهما الحالي لما كانت هناك حياة ولبقي الليلُ دائماً والنهار دائماً، بالنهار ثلاثمئة وخمسون درجة، وفي الليل مئتان وخمسون تحت الصفر، فلا حياة، ولو أنها هكذا تدور بمحور عمودي مع مستوى الدوران، لما وجدت الفصولُ الأربعة، ولا النباتات، فمن جعل هذا المحورَ مائلاً ؟ فصار ثمّة أشعة عمودية هنا، ومائلة هنا، صيف هنا، وهنا شتاء، وانعكستْ الآية هنا شتاء وهنا صيف، من جعل هذه الفصول تتبدّل ؟ هذه آية الله عز وجل.

من يطمئن في الدنيا اطمئناناً ساذجاً أبلهَا لا بدّ من أن يفزع يوم القيامة:

قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا اللّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِراً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

الليل سكنٌ، والأعصابُ ترتاح، من نظّم آلية النوم أساساً ؟ تجد سيارةً قيمتها ثلاثة ملايين، أربعة ملايين محطمة، نام سائقها، و النومُ سلطان، تتباعد الخلايا العصبية، فالسيّالة تنقطع نام، فإذا نام هل يقود السيارةَ ؟ يُذهِب السيارة ويذهِب نفسَه معها، مَن جعل هذا النومَ ترتاح أعصابُك به ؟ أدخُلْ إلى

غابة في الليل ترتعد فرائصك خوفاً، في النهار شيءٌ مُؤنِسٌ، والنهار مؤنِس، والليل مُخيف فيه ظلام وفيه مجهول، وراء كل أكمة تخاف، في النهار ترتاح، والنبيُّ الكريم يقول:

((سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهارُ ؟))

[شرح الجامع الصغير]

في الليل خائف، والطريق موحش، الشمس أشرقت، دخل الأنسُ إلى قلبك، هذه الآية من آيات الله عز وجل، قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(86))

هذه آيات دالّة على عظمة الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللّهُ (87))

لا بدّ من أن تفزع، إما أن تفزع في الدنيا فربُّنا يوم القيامة يستثنيك من الفزع الأكبر، وإما أن تطمئن في الدنيا ولا بدّ من أن يفزع هذا الذي اطمأنّ في الدنيا اطمئناناً ساذجاً، أي اطمئناناً أبلهاً، الذي يطمئن في الدنيا اطمئناناً ساذجاً أبلهَاً لا بدّ من أن يفزع يوم القيامة، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللّهُ (87))

يوم القيامة نفختان في الصور نفخة تصعق ونفخة تحيي:

هناك نفختان ؛ نفخة تصعق النفوس، ونفخة تحيي الموتى، يوم القيامة نفختان في الصور ؛ نفخة تصعق، ونفخة تحيي، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللّهُ (87))

هؤلاء الذين حُكِم عليهم بالإعدام عندما يُوضع مفتاحُ الباب في القفل عندهم ليُقدّم لهم الطعامُ ينخلع قلبُهم، يظنون أنهم قد جاءوا ليعدموهم، تجد أعصابهم منهارةً، هذا حالُ أهل النار، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللّهُ (87))

هؤلاء الذين عرفوه في الرخاء، عرفوه وهم شبابٌ، عرفوه وهم في حالة من اليسر، عرفوه في أوْج قوّتهم، عرفوه في الدنيا، خافوا منه والناس نيام، أطاعوه والناس في المعصية، صلوْا في الليل والناس مع من يحبُّون، ألم تقل رابعةُ مرّةً: " يا رب قد أغلقت الملوك أبوابها وآوى كلُّ أليف إلى أليفه ولم يبق إلا بابك "، الناسُ ينامون ويسمرون ويتحدّثون ويأكلون ويشربون ويتنزّهون، والمؤمن قلقٌ يخشى أن لا يكون اللهّ عنه راضياً، لا يطمئنُ المؤمن إلا برضاء الله عز وجل، هذا القلق المقدّس المستمرُ، هذا الذي يسمح لك يوم الفزع الأكبر أن تكون مطمئناً، لذلك

((وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة.))

[ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابُه يوم القيامة يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابه في الآخرة عسيراً ؛ كلمة لا تأبه، ولا تدقِق ؛ هذه كلمة المنافقين، وكلمة الكُسالى، وكلمة السُذج الأغبياء.

أدلة من القرآن الكريم على أن الجنة محضُ فضلٍ والنارُ محضُ عدلٍ:

قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

وقال أيضاً:

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً(124))

(سورة النساء)

وقال:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

عدل، الجنة محضُ فضلٍ والنارُ محضُ عدلٍ.

الإنسان في الدنيا قد يقوى بجماعته وبمن يلوذ بهم ولكن يوم القيامة يأتي ربّه فرداً:

قال تعالى:

(وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87))

أي أذلاء، والإنسان في الدنيا قد يقوى بجماعته وبترتيبه وبعشيرته وبأصدقائه وبمن يلوذ بهم، ولكن يوم القيامة يأتي الإنسانُ ربّه فرداً.

الآن في القرآن الكريم هناك أشياء رائعة جدّاً، لو إنسانٌ يعاصر النبيّ عليه الصلاة والسلام وسمع أن الجبال تمرُّ مرّ السحاب، كيف يصدِّق ذلك ؟ الجبل راسخٌ في مكانه، مع أن الجبل يتحرّك، والآن شيء بديهي جدّاً، الأرض تدور حول نفسها بسرعة تزيد عن ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، والطائرات السياحية للسفر سرعتها ألف في الساعة، ساعتان من دمشق إلى جدة، لا بدّ لها من أربعة أيام بالسيارة، وأشهر طويلة على الأقدام، فهذه الطائرة تقطع تقريباً تسعمئة كيلو متر في الساعة، الأرض تدور حول نفسها بسرعة تزيد عن ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، ومعها الجبال، أما دورتها حول الشمس فثلاثون كيلو متر في الثانية، منذ وصلنا وحتى الآن مضى خمسون دقيقة، خمسون ضرب ستين ؛ ستة في خمسة ثلاثون، ثلاثة آلاف ثانية في ثلاثة آلاف ثانية، وفي كل ثانية ثلاثون كيلو متر، ثلاثة آلاف وثلاثة آلاف، ثلاثة آلاف في ثلاثين رقم كبير، الأرض قطعت هذه المسافة منذ أن قلتُ بسم الله الرحمن الرحيم إلى الآن، أبداً، شيء بديهي جدّاً، لا داعي للمناقشة، الأرضُ تقطع في الفضاء الخارجي في دورتها حول الشمس في كل ثانية ثلاثون كيلومتر، في خمسين دقيقة الرقم كبيرٌ جدّاً، لذلك اللهُ عز وجل قال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88))

جبل قاسيون واقف، لا، وهي تمرُّ مرّ السحاب، قال: مر السحاب هذا تشبيه، وجهُ الشبه في انعدام الصوت، محرك صغير لضخّ المياه يعكِّر على المتنزّه نزهتَه، طائرة صغيرةٌ تملأ الفضاءَ ضجيجاً صخباً، وسكانُ المناطق التي هي قُربَ المطارات يُصابون بصممٍ جزئي من أصوات الطائرات، مرور السحاب وهو يحمل سبعة آلاف طن، دون صوت، يمر بسرعة، حوالي مئة في الساعة، مئة كيلو في الساعة، من هذه السرعة يعرفون مجيء المنخفض، والآن فوق قبرص وفي اتِّجاه الشرق الأوسط، وهكذا.

إذا قرأت هذه الآية ولم تكن مطّلعاً على حقيقة الأرض قد تظنُّ أنها من آيات يوم القيامة:

إذاً اللهُ عز وجل يقول:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

هذه الآياتُ لو فكروا فيها لما وقع القول عليهم، وإذا لم يقع القول عليهم ما أخرج اللهُ لهم دابة من الأرض تكلمهم، و لمّا يتعامى الإنسان عن هذه الآيات عندئذٍ الله عز وجل يضطرُّه إلى عذاب أليم، لكن لو أن هذه الآية قرأها الإنسانُ وكان بعيداً عن ذهنه أن الأرضَ كرَةً وأنها سابحةٌ في الفضاء، وأنها تدور، فجاءت هذه الآية في سياق آيات الآخرة، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

وترى ـ وقتها ـ الجبال، أي إذا أردت أن تقرأ هذه الآية ولم تكن مطّلعاً على حقيقة الأرض وعلى كُرويتها وعلى دورتها حول نفسها ولا حول الشمس قد تظنُّ أن هذه الآية من آيات يوم القيامة، قال تعالى:

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5))

(سورة التكوير)

إذا اطّلعتَ على حقائق الكون وعلى كرَوية الأرض وعلى حركة الأرض وعلى دورتها حول نفسها ترى أن الآية منفصلةٌ عن السياق العام.

من لطف الله أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس والسحاب فوقها ولا يوجد صوت:

قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

أي أن حركة الأرض بلا صوت شيءٌ رائعٌ جدّاً، وصوت الطائرة والقطارُ والباخرة لا يُحتمَل، والسيارة أحياناً، تسافر إلى بلد قريب تشعر بضجيج، وبعد انتهاء السفر بساعتين أو ثلاثة أنت متضايق من دويّ المحرّك طوال الطريق، فربُّنا لطيف عزّ وجل، الأرضُ تدور حول نفسها وتدور حول الشمس ولها حجمٌ كبير جدّاً، والسحاب فوقها ولا يوجد صوتٌ، فيه لُطفٌ شديد، قال تعالى:

(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

الخبير غيرُ العليم، أي يرى ماذا تفعل، ويعلم ماذا تنوي، والغايات الحقيقية والخلفيات، والأهداف البعيدة، والمرامي، والصراعات، والطُموحات كلُّها يعرفها، قال تعالى:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89))

أي كما قال تعالى:

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

في الحديث القدسي عَنْ أبي ذَرٍّ عَنْ النَّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرّمْتُ الظّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

العمل الصالح محفوظ عند الله تعالى ولو كان ذرّةً:

قال تعالى:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ (89))

أي حرامٌ أن تطيعه وأن تفعل الصالحات وأن يضيّع عليك عملك الصالح، والعمل الصالح محفوظ ولو كان ذرّةً، قال تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

مع أنه يوم القيامة يأتيك خيرٌ منها، قال تعالى:

(وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ (89))

أحياناً يكون عملُك كلّه نظاميّاً، تأتي قوّةٌ من أجل ضبط المخالفات، وأصحاب المحلات ترتعد فرائصهم خوفاً، وأنت مطمئنٌّ، وأمورٌك كلُّها منتظمة، فالإنسانُ لما يطمئنُ وسط الخوف الشديد هذا فوزٌ عظيم.

اللهُ سبحانه وتعالى زاد مكة المكرمة تشريفاً وتعظيماً حينما نسبها إلى ذاته:

قال تعالى:

(وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ (89))

قال تعالى:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ (90))

أي يُلقَوْن في النار على وجوههم، قال تعالى:

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90))

هذه أعمالُكم اِدفعوا ثمنَها، وهذه أعمالكم تلقَّوْا حسابها، وكلُّ شيء له ثمنٌ قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ (91))

طبعاً هي مكة، واللهُ سبحانه وتعالى زاد هذه البلدة مكة المكرمة تشريفاً وتعظيماً حينما نسبها إلى ذاته، قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا (91))

بلدٌ آمنٌ وبلد حرام.

الإنسان في كل مكان في العالم يحاسب على فعله أما في الحرم المكِّي فيُحاسَب على إرادته:

قال تعالى:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

لذلك الحرم المكّي يتميّز عن بقية البلدان في العالم أن الإنسان إذا أراد فيه سوءاً يُحاسَب على إرادته لا على فعله، في كل مكان في العالم يحاسب على فعله، أما في الحرم المكِّي، قال تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(25))

(سورة الحج)

من يرد فقط، قال تعالى:

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(25))

(سورة الحج)

اللهُ عز وجل جعل هذه البلدةَ محرّمة، قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا (91))

لكنْ لئلاّ تظنّ أنه ربُّ هذه البلدة فقط، وما سواها ليس له، قال:

(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ (91))

له هذه البلدة، وله بلدتُك التي أنت فيها، وأينما ذهبت كلُّ البلاد له، والإنسانُ قد يتوهّم أنه ربُّ هذه البلدة فقط، لا قال تعالى:

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ (91))

وكلُّ مكان في الأرض له.

العبادة يجب أن تكون مع غاية الخضوع و الشوق و الإخلاص:

قال تعالى:

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91))

المستسلمون لأمر الله عز وجل هم الخاضعون له، لذلك العبادة مع غاية الخضوع ومع غاية الشوق ومع غاية الإخلاص، قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ (92))

أفرده اللهُ بأمرٍ خاصّ عناية به قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ (92))

لكنْ هنا في السياق، أن أتلو القرآن على الناس، والدليل قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى (92))

بتلاوتك، وهناك فرق بين أن تتلوَه لنفسك وبين أن تتلوَه على الناس، هنا الآية أن تتلوَه على الناس، القرينة قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى (92))

بهذه التلاوة، قال تعالى:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92))

النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يُحاسَب عن الذين كفروا إنما هو منذرٌ ومبلِّغٌ:

النبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يُحاسَب عن الذين كفروا، إنما هو منذرٌ، إنما هو مبلِّغٌ قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (272))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ(92))

تنتهي مهمّتي حينما أنذركم، قال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ(23)فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(24)إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

على الإنسان أن يحمد الله عز وجل على كل شيء وعلى خلقه و إمداده و هدايته:

قال تعالى:

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93))

الحمد لله على خلقه، وعلى إمداده، وعلى هدايته، وعلى كلّ هذه الآيات، وكلّ هذه السنن، قال تعالى:

(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا (93))

أي إما أن تعلم في الوقت المناسب أو لا بدّ من أن تعلم بعد فوات الأوان، قال تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93))

أعمالنا كلُّها في صحيفة عند الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة القصص، وقبل المُضيّ في شرح آيات هذه السورة لابدّ من أن يُلقى ضوءٌ على مغزاها العام، وعلى أغراضها الكبيرة، بل على محورها إن صحّ التعبير، ففي السُبْحَة خيطٌ لا يُرى، ولكنه يجمع كل حبّاتها، هذا الخيط الذي يُرى أثُره ولا تُرى عينه إنه محور السورة.

مع سورة القصص:

1 – سورة القصص مكية: التوحيد والاستضعاف:

هذه السورة مكّية، نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام وهو في مكة مع أصحابه، وكانوا مستضعفين، كانوا معذّبين، كانوا مكذّبين، وكفّار قريش هم في أقوى مكان، وفي أعتى نفسيّة، نزلت هذه السورة على قلب النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرّمة لتكون تسلية وتخفيفاً لِما يعاني أولئك الأصحاب الخُلّص، الذين دفعوا في سبيل إيمانهم بالله عزّ وجل كلّ غالٍ ورخيص، ونفسٍ ونفيس.

2 – قصة موسى مع فرعون وقارون: حقائق وعبر:

شيءٌ آخر، في هذه السورة قصةُ سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع قارون، ففرعون يمثِل قوة السلطان، وقارون يمثّل قوة المال، وتبيّن هذه السورة أن في الكون قوةً واحدة، ألا وهي قوة الله عزّ وجل، وفي الكون حقيقةٌ واحدة، ألا وهي الحقيقة الإيمانية الكبرى، وفي الكون قيمةٌ واحدة، ألا وهي قيمة الخلق، وكيف أن هذه القِيَم التي جاء بها القرآن، وهذه الحقيقة الكبرى تتصارع مع القوى العاتية، وكيف أن ملخّص هذه السورة توجزه العبارة التالية: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ أيْ أنّ الله عزّ وجل مثّل في هذه السورة أقوى قوةٍ يمكن أن توجد على وجه الأرض، مع أضعف قوةٍ يمكن أن توجد على وجه الأرض، طفلٌ صغيرٍ رضيع، وملكٌ طاغيةٌ كبير، وكيف أن هذا الطفل الصغير الذي كان من المفروض أن يُذْبَح دخل إلى قصر فرعون، وتربّى في حجره، وحينما

كبر جاءته الرسالة، ودعاه إلى الإيمان، فلما استكبر وعلا في الأرض مشى موسى ببني إسرائيل إلى البحر، وكيف أصبح البحر طريقاً يبساً، وكيف خرج سيدنا موسى وتبعه فرعون، فأغرق الله فرعون.

3 – أهمية معالجة الموضوعات بالطريق القصصي:

فهناك حقائق كثيرةٌ جداً في هذه السورة، وربنا سبحانه وتعالى أحياناً يعالج الموضوع لا عن طريق الأفكار المجرّدة، بل عن طريق القصص، ولَعَمْري إن معالجة الموضوع من خلال القصة هي معالجة مثاليّة، إذْ أن الإنسان أحياناً قد يرى ذاته في قصةٍ ما، قد يرى الأحداث التي يقرؤها في القصة تحلُّ له بعض الإشكال، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: من الآية 111)

إذاً: مغزى هذه السورة تعكسه القصتان الأساسيتان اللتان في السورة، قصة سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع قارون، فرعون يُمَثِّل قوة السلطان، وقارون يمثل قوة المال، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هو القوة الكبرى التي لا قوة معها في الكون، فإذا كنت مع الله عزّ وجل نَم مطمئناً، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أضعف الناس فتوكّل على غير الله، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

4 – حقائق التوحيد مهمة جدا:

ويا أيها الإخوة الأكارم، حقائق التوحيد خطيرةٌ جداً، لأنه ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، ولأن نهاية نهاية نِهاية العلم هو: أن تقول، وأن تعلم أنه لا إله إلا الله، إذا عرفت أنه لا إله إلا الله إذاً فلا تخش أحداً سوى الله، ولا ترجُ أحداً سوى الله، ولا تعص هذا الخالق العظيم من أجل إنسان حقير صغير ضعيف فانٍ، لو أردت أن تعزو أكثر المعاصي، بل كل المعاصي لرأيت الشرك وراء كل هذه المعاصي، لو أيقنت أنّه لا إله إلا الله لاستقمتَ على أمره قطعاً.

5 – سورة القصص نزلت تسلية للنبي عليه الصلاةوالسلام:

إذاً: هذه القصة أنزلها الله على نبيّه عليه الصلاة والسلام في وقتٍ عصيب، في وقتٍ حرج، في وقتٍ كان فيه المسلمون مستضعفين مضطهدين، يُنَكّل بهم، يعذبون، فجاءت هذه القصة تسلية لهم، تقوية لعزيمتهم، بشارةً لهم بأن العاقبة للمتقين، والذي حصل أن العاقبة كانت للمتقين حقاً وصدقاً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء: من الآية 87)

وقال سبحانه:

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

كتب الله..

6 – سببُ تسميتها سورة القصص:

أمّا اسم هذه السورة فـ **" سورة القصص "**، من قوله تعالى لما وصل سيدنا موسى إلى بيت سيدنا شُعَيب، وقصّ عليه القصص:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمّا جَاءَهُ وَقَصّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

7 – أثر البيئة في المسلم:

استنبط بعض العلماء أن الإنسان إذا انتقل من ديار الكفر إلى ديار الإيمان فقد نجا، واستنبط بعض العلماء أن البيئة لها أثرٌ كبيرٌ جداً في إيمانك، فإذا كنت مع أهل الكفر والفساد والضلال فإنّهم لا شك سيصرفونك عما أنت فيه من إيمان، وإذا انتقلت إلى أهل الإيمان فإنك تسعد برفقتهم، فلذلك لما انتقل سيدنا موسى من بلاد مِصر إلى بلاد مَدْيَنَ حيث النبي الكريم سيدنا شعيب جاءت البُشرى:

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

وقد ورد في بعض الأحاديث أنه:

((من أقام مع المشركين فقد بَرِئت منه الذمّة))

[الطبراني عن جرير]

والإنسان في نفسه أشياء تُشْبه البارود يسهُل تفجيرها، فقد أودع الله فيه الغرائز، كما أودع الله فيه الشهوات، فإن لم يكن على إيمانٍ عميقٍ، قوي، يُحَصّن هذه الشهوات التي أودعها الله فيه فإن تفجيرها سهلٌ يسير، وإذا لم يكتمل إيمانُ الإنسان، وذهب إلى بلاد الكفر فاحتمال أنْ يقع في الفواحش، والتُرّهات، والأباطيل، والبعد عن الحقيقة الكبرى احتمال كبير جداً..

((من أقام مع المشركين فقد بَرِئت منه الذمّة))

فأنت ـ أيها المسلم ـ مفروض عليك أن تهاجر من بلد يُعصى الله فيه إلى بلدٍ يذكَرُ فيه اسمه، أما الهجرة المعاكسة فأن تنتقل من بلدٍ كريمٍ طيّب تقام في شعائر الدين على نحوٍ أو آخر إلى بلدٍ فاسقٍ فاجرٍ بعيدٍ عن الله عزّ وجل، فهذه مغامرةٌ ومقامرة.

إذاً: كلمة القصص:

(فَلَمّا جَاءَهُ وَقَصّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هذه بعض الملاحظات التي تُقال عادةً بين يدي السورة.

مقدمة تاريخية لسورة القصص:

ولكن إذا انتقلنا إلى تفصيلاتها فهناك مقدمة تاريخية لابدّ منها:

كلكم يعلم أن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما كان أميناً على أموال مِصر، وحينما ارتفع إلى أعلى وظيفة في مصر، وحينما جاء أبوه وإخوته إلى قصره، وأقاموا فيه، بعدها توالد بنو إسرائيل وازدادوا، حتى إنهم بلغوا مِئات الألوف، هكذا يروي التاريخ، طبعاً اطمأنوا، وتمكّنوا في الأرض، ولكن يبدو أنهم انحرفوا عن دينهم فيما بعد، دين أبيهم سيدنا إبراهيم، لما انحرفوا استحقوا المعالجة، فجاء فرعون، وكانت معالجتهم على يديه، لأن القاعدة: **" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، العرب في إسبانية فتحوا هذه البلاد، وكان الله معهم، فتحوا هذه البلاد، وأقاموا فيها شعائر الدين، فلما مالوا إلى اللهوِ، والموسيقى، والغِناء، وانغمسوا في الموبقات، والخمور، والجواري، والملاهي، تخلّى الله عنهم، فقوّى أعداءهم، ونَكّلوا بهم كلّ تنكيل، هذا قانون عام..، **" إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني "**، هذا يطبّق على الجماعات وعلى الأفراد، وفي هذه السورة توضيحٌ بالغٌ لهذا القانون..

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم)

(سورة القصص)

أقوال العلماء في الحروف المقطّعة: طسم

القول الأول:

هذه الحروف التي تُبْدأ بها بعض السور لها تفسيراتٌ كثيرة، من هذه التفسيرات، وهذا التفسير لا يُكَلِّفُ شيئاً: **" الله أعلم بمراده ".**

هذا أول معانيها.

القول الثاني:

ومن تفسيرات هذه الحروف أيضاً: أن هذا القرآن صيغ من مثل هذه الحروف، لكنّ الإعجاز في صياغته، وهذه الحروف بين أيديكم، فإن كان بالإمكان أن تأتوا بسورةٍ من هذا القرآن، أو عشر سورٍ مثله فافعلوا، الحروف بين أيديكم، إذاً هذا من إعجاز القرآن الكريم.

القول الثالث:

أنها أوائلُ أسماء الله تعالى.

القول الرابع:

أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام.

وعلى كلٍ فالقرآن حمّال أوجُه، والقرآن كما يقول بعضهم: ليس ملك أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2))

(سورة القصص)

من صفات القرآن:

1 ـ القرآن واضح مبين:

أيْ أنّ من شأن الكتاب أن يكون مبيناً واضحاً، لأنه كتاب الله عزّ وجل، ولأنه موجهٌ إلى كلّ الخلق، فلذلك ربُنا سبحانه وتعالى جعله مبيناً.

2 ـ القرآن متوافق مع الفطرة والعقل:

وفي بعض الأحاديث أن الدين متوافق مع الفطرة، فالإنسان يعرف أحكام الدين بشكلٍ فطري، لأنّ أصحاب النبي عليهم رضوان الله وصفهم الله عزّ وجل فقال:

(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

(سورة الرعد: الآية 36)

هذا الذي أنزل إليهم يتوافق مع فطرتهم لذلك هم يفرحون:

((الحَلَالُ بَيّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيّنٌ))

[الترمذي وابن ماجه وأبو داود عن النعمان بن بشير]

((الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطّلِعَ عَلَيْهِ النّاسُ، وَالبرُّ مَا اطْمَأَنّ إِلَيْهِ القلب))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

إذاً: الكتاب مبين، لأنه متوافقٌ مع الفطرة، والكتاب مبين، لأنه متوافقٌ مع العقل، والكتاب مبين، لأنه كلام رب العالمين.

(تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(3))

(سورة القصص)

قصة موسى في سورة القصص:

1 ـ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى:

كلمة:

(مِنْ)

للتبعيض، فالله عزّ وجل لم يذكر كل التفصيلات، وهذا توجيهٌ لنا، فإذا أردتَ أن تقصّ علينا قصةً فاذكر مِن أحداث هذه القصة، ومن مواقف أبطالها، ومن الحوار الذي جرى بينهم ما له علاقةٌ بنا، وما له مغزى كبير، أمّا أن تأتي بكل التفصيلات التي لا طائل منها، وبخاصة التفصيلات التافهة، فليس هذا من شأن العُقلاء، فلذلك:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ)

(سورة القصص: من الآية 3)

2 – العبرة من القصة الدلالات والعبر لا الأشخاص والأحداث:

أي أن كل شيءٍ ذكره الله عزّ وجل في هذه القصة له دلالة، وليس المعنيّ هذه الحوادث، ولا تلك المواقف، ولا هذا الحوار، المَعْنِي أن تخترق هذه المواقف إلى المغزى، إلى المدلول، الذي أراده الله عزّ وجل.

هذه قصةٌ وقعت منذ آلاف السنين، وكلُّ أبطالها تحت أطباق الثرى، وقد مضى عليهم آلاف السنين، المغزى: نحن المعنيُّون، لأن الله عزّ وجل شاء أن يجعلها من القرآن الكريم، أي جعلها تُتْلى إلى آخر الدوران، إذاً: هناك مغزى، فكل من تلا هذه السورة يأخذ منها العبر والدلائل، إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى)

(سورة القصص: من الآية 3)

(مِنْ)

للتبعيض، إذا أردت أن تتلو علينا قصةً فاختر من حوادثها، من مواقف أبطالها، من حوار أبطالها، من مظاهر البيئة فيها ما له مغزى وله علاقةٌ بحياتنا.

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة القصص)

3 – المؤمن يُخاطب بالفروع، وغير المؤمن يخاطب بالأصول:

المؤمن يُخاطَب بالفروع، ولكنّ غير المؤمن يُخاطَب بالأصول، لا تحاول أن تثبت الملائكة لإنسانٍ لم يؤمن بالله بعد، أو الجن، أو البرزخ، هذا طريق مسدود، لا يخاطَب الكافر إلا بأصول الدين، بينما المؤمن يُخاطَب بفروعه، يخاطَب بتاريخه، بتاريخ الأرض، بالتفصيلات.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)

(سورة البقرة: من الآية 183)

الزكاة والصيام كُلِفَ بها المؤمنون لإيمانهم بالله عزّ وجل أولاً، ولإيمانهم بأن هذا الكلام كلامه، ولإيمانهم بحكمته، إذْ هم ينصاعون إلى تنفيذ أمره. إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ)

(سورة القصص: من الآية 3)

4 – القصة القرآنية حقّ محضٌ:

هذه (الباء) باء الملابسة، أي هذه التلاوة، وهذه القصة بالحق، أي إنها قصة وقعت فعلاً، لا صغيرة فيها إلا وقد وقعت، وهذه الرواية تطابق الواقع مطابقة تامّة من دون زيادة ولا نقصان، هذا معنى بالحق..

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

إذاً: المقصود من هذه القصة مغزاها، لذلك قالوا: من قرأ قصة ولم يفهم مغزاها فكأنه ما قرأها، أو أنه لم يقرأ قصة، القصة لها مغزى، فحيثما قرأت قصة يجب أن تبحث عن مغزاها.

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

5 – القصة القرآنية يستفيد منها المؤمنون:

فهي إذاً تفيد المؤمنين، وكأنّ الله سبحانه وتعالى نزّه قصته هذه عن أن تكون لمجرّد الإمتاع، قد تقرأ أدباً ممتعاً ليس بنافع، قد تقرأ قصة تُمتع، ولا تنفع، وقد تقرأ مقالة تنفع، ولا تمتع، لكن القصة التي في القرآن تنفع، وتمتع معاً، والمقصود أيها المؤمن أن تستنبط منها ما تشاء من الاستنباطات، إذاً:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قبل تحريك الحوادث، وقبل تحريك الشخصيّات، وقبل تطوير الحوادث، كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع لنا ـ كما يقال ـ فَرشاً تاريخياً، معالم البيئة، هذه القصة أين وقعت ؟ وقعت في مصر، ما الذي كان في مصر؟

ماذا فعل فرعون بمصر وأهلها ؟

قال تعالى:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: من الآية 4)

1 – إنّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرْض

أي ارتفع، استعلى على خَلق الله، بالَغَ في تمكين نفسه منهم، احتقر الذين معه:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْض)

(سورة القصص: من الآية 4)

2 – وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا

وكيف علا ؟

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعا)

(سورة القصص: من الآية 4)

أي استخدمهم فئاتٍ فئَاتٍ لأغراضه الشخصية، أو أنه فرّقهُم كي يسود عليهم، ومعنى جعل أهلها شيعاً أي فِرقاً.

ومعنى الشيعة: بعض أفراد، كلٌ منهم يُشَايع البعض الآخر، نقول: شَيّعت جنازته، أي سِرْتُ في جنازته، فالشِيَع الفِرَق:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة الروم)

كل مجموعةٍ تتعاون، تتكاتف، يُشايع بعضُها بعضاً على حقٍ أو على باطل، إذاً المشايعة على باطل هي العصبية العمياء، فلذلك:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْض)

أي استكبر، استكبر عن أن يعبد الله، استكبر عن أن يعترف بوجوده، واستكبر عن أن يكون في مستوى هؤلاء الذين يحكْمونهم، أي بنى مجده على أنقاضهم، بنى عزّه على ذُلِّهم، بنى غناه على فقرهم، هذا معنى علا في الأرض، بنى أمنه على خوفهم، بنى حياته على موتهم:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْض)

وكيف علا ؟

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

فِرقاً، قسّمَهم إلى فئات، وإلى شِيَع، وإلى فِرَقٍ منوّعة، وإلى مجموعات، وأنشأ بينهم العداوة والبغضاء، وأرّث بينهم الخلافات.

(فرِّقْ تَسُدْ) مبدأ فرعونيٌّ قديمٌ:

شيءٌ آخر، حينما جعلهم فرقاً، جعلهم فرقاً في خدمته، هذه الفرقة من أجل هذه القضية، وهذه المجموعة من أجل هذا الموضوع، وهذه الفئة من أجل كذا.

النقطة الدقيقة أن بني إسرائيل الذين هم على دين إبراهيم كانوا مخالفين مخالفة كبرى لدين فرعون الذي قال:

(فقَالَ أنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فهؤلاء بنو إسرائيل، وإن كانوا قد تركوا دينهم، لكن أصل دينهم عندهم معروف، إيمانهم بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وإيمانهم بما جاء به سيدنا موسى، لكنهم قصّروا في تطبيق أمر ربهم، فسلط الله عليهم فرعون الذي لا يعرف الله عزّ وجل إطلاقاً، إذاً:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 4)

3 ـ يسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ

هذه الطائفة هي بنو إسرائيل:

(يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة القصص)

4 ـ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ

يروي التاريخ أن أحد الكَهَنَة قال له: رأيتُ في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكك، فبادر فرعون إلى قتل أبناء بني إسرائيل كلِهم، والإنسان أحياناً بجهله بالله يظن أنه يستطيع أن يفعل لنفسه ما يشاء، وأن يفعل بعدوه ما يشاء، هذا من ضيق أُفُقِه، فقال: القضية بسيطة، ما دام هناك طفلٌ من بني إسرائيل سيقضى على ملكي فأنا سأذبّحُهم جميعاً، لكن هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاهُ في قصره، وهو لا يدري.

(يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ)

5 – وَيَسْتَحْي نِسَاءَهُمْ

حتى إن القابلات كُنّ يطُفنَ على الحوامل من بني إسرائيل، ويسجّلن عندهن حالات الحمل، فإذا وضعت هذه المرأة ذكراً أُخِذَ ابنها، وذبح، أيْ أنّه لم تستطع واحدة من نساء بني إسرائيل أن تنجو بابنها من الذبح.

(يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية)

البنت يَدَعُها حيّة، لقطع نسلهم وتقليل عددهم.

الفساد صفة دامغة لفرعون:

(إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

هذا وصف ربِّ العالمين لفرعون. هذا الطرف الأول:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

ما الحكمة مِن تمكين فرعون من بني إسرائيل ؟

ما الحكمة من ذلك ؟ لماذا مكّن الله هذا الفرعون من بني إسرائيل ؟ لماذا مكّنه في الأرض ؟ لماذا جعله عالياً في الأرض ؟ لماذا سمح له أن يذبّح أبناءهم ؟ لأنهم قصّروا عن ربهم، وخرجوا مع دين أبيهم إبراهيم، وتهاونوا في تطبيق شريعة ربّهم، فاستحقوا المعالجة، لكن هذه المعالجة هدفها إصلاح هؤلاء الضِعَاف.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

1 – المنُّ على المستضعفين في الأرض منّا مطلقا:

الله عزّ وجل قال في آيةٍ واضحةٍ جداً:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 5)

نَمُنّ عليهم أيْ أن نعطيهم عطاءً، منه تمكينهم في الأرض أبدياً، عطاءً جزيلاً، لذلك لعلكم قرأتم قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

نعم، هو سبحانه يعلم، ونحن لا نعلم، الله سبحانه وتعالى كما يقول دائماً:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية 19)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: آية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

آيات التوحيد تَبُثُّ الأمن والطُمأنينة في نفس الإنسان، لذلك فهذا الذي فعله فرعون سُمِحَ له أن يفعله، لهدفٍ نبيل، وهو:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

والإنسان على المستوى الفردي إذا ألمّت به مشكلة، وأصابته مصيبة، وضيّق الله عليه، أو لاح له شبحُ مصيبة، فلا يخف ولا يحزن، ولا يفرق، ولا تضعف معنويّاته، لأنه:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

هذه الآية يجب أن تكون ماثلة أمام كل إنسان ابتلاه الله بسوء:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

نمنُّ عليهم بالإيمان، نمنّ عليهم بمعرفة الله، نمنّ عليهم بطاعتهم لله، نمنّ عليهم بالعمل للآخرة، نمنّ عليهم بدفعهم إلى طريق الجنّة، نمنّ عليهم أخيراً فنجعل لهم السيادة في الأرض.

لعلّ في المعاملة القاسية خيرًا:

فعندما يتلقى الإنسان معاملة موجعة، معاملة قاسية، فلعل فيها الخير.

مثلاً: لو فرضنا أن طفلاً صغيراً شَبَّ على كُرْهِ الدراسة، وكان أبوه له بالمرصاد، وقسا عليه حتى صار في مستقبل حياته شخصية ذات شأن في المجتمع، وإذا هو في بيته الفخم، وهو في مكانته العليّة، وهو في نظافته الخُلُقِيّة، وهو في سمعته العطرة عند الناس، يقول: رحمة الله على والدي، لولا قسوته علي حينما كنت صغيراً لما كنت في هذه الحال.

حينما كان يضربه أبوه كان يتألّم منه، ولكن بعد مضي السنين رأى أن هذا الضرب هو عين الرحمة، هو عين الحب، هو عين الحكمة، هو عين العطف، هو عين الحنان، هكذا يجب أن نَفْهَم المصائب، أنها محضُ عطفٍ، محض لطفٍ، محض حكمةٍ، محض عدلٍ، الآية دقيقة جداً:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

هذا الإنسان تائه، هو تائه، شارد، غافل، غائص في الدنيا إلى قمة رأسه، همُّه الدرهم والدينار، همه الشهوة، همه الزينة، همه البُهْرُجُ، همه مُتَع الحياة، نسي ربه، نسي آخرته، تأتيه مشكلة، وكأنّ الله يقول له: أصْحُ يا عبدي، استيقظ.

إلى متى أنت في اللذات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

ألم يأن لك أن تخشع لذكري ؟

فهذه المصائب رُسُل، ومُذَكِّرات، كأنّ الله سبحانه وتعالى يدفعك إلى بابه، انظر:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

قد يقتل: يا رب لماذا مَكَّنْتَه ؟ لماذا سلّطته ؟ لماذا أعطيتَه هذه القوة ؟ لماذا سمحتَ له يا رب ؟ فيأتي الجواب:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

هناك حكمةٌ بالغة يا عبدي، فوراء هذا التعذيب عطفٌ كبير، ووراء هذه المصيبة رحمةٌ بالغة، ووراء هذا التضييق حكمةٌ بالغة، ووراء هذا التنْكيل حرصٌ شديدٌ على مستقبلك، فو الله الذي لا إله إلا هو، اسمحوا لي أنْ أقول لكل منكم: ما مِن مصيبة تأتيك ؛ من فقر، من خوف، من قلق، من مرض، من مشكلة، من ضيق، من حزن، لو أن الله سبحانه وتعالى كشف لك عن كل شيء ساقه لك في الدنيا، واللهِ الذي لا إله إلا هو ينبغي أن تذوب كالشمعة حباً لله، تذوب كالشمعة تماماً، لذلك: لو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع،

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: من الآية 216)

فالطبيب أحياناً يحمي مريضه من أطيب الطعام، قد يكون مريضه غنياً، وحاله ميسور، يقول له: هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، فهل هذا حقدٌ من الطبيب ؟ لا والله، هل هو تضييقٌ على المريض ؟ لا والله، هل هو منعٌ له من هذا ؟ لا والله، هذا علمٌ ورحمة:

((إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَمَاهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ سَقِيمَهَ المَاءَ))

[الجامع الصغير عن قتادة بن النعمان]

((إِنّ اللهَ لَيَحْمِي صَفِيّهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الرّاعِي الشّفِيقُ غَنَمَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ))

[الجامع الصغير عن حذيفة بسند فيه ضعف]

إنها رحمة ما بعدها رحمة، هذا كلُّه من قوله تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

2 – تصييرٌ المستضعفين أئمةً:

وهنا نقطة دقيقة جداً، لم يقُل الله عزّ وجل: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم ملوكاً، بل ونجعلهم أئمةً يَأتَمُّ الناسُ بهم، وربما كانت مرتبة الإمام أعلى من مرتبة الملك، لأن الملك تنتهي مهمّته في الدنيا، لو أنه حكم بالعدل، لو أنه فعل كلّ شيء، لكن الذي يأتمّ به فأعمالُهُ تستمر إلى أبد الآبدين، وما أراد الله من هذا التضييق أن يجعلهم ملوكاً مكان فرعون، لا:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

3 – توريثهم ملكَ فرعونَ:

دنيا وآخرة، يرثون مُلك فرعون، ويكونون أئمة لأقوامهم، لذلك أذكِّرَكُم بقول سيدنا سعد من أجل أن تعرفوا قيمة هذا الكلام يقول: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس.. من هذه الثلاثة: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عَلِمْتُ أنه حقٌ من الله تعالى>>.**

قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا عَلِيُّ، لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

هناك شركات ميزانيتها كميزانيات عشر دول، لو أن هذه الشركة لك وحدك، فما قولك ؟ أضخم شركات العالم تبيع إنتاجها في كلِّ بقاع الأرض، ولها ميزانياتٌ تفوق أرقاماً فلكية، وهي لك.

((يَا عَلِيُّ، لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

لك كل المحلات التجارية في العالم، في كل العواصم، في كل الشوارع، الطابق الأرضي، والقبو، والعلوي، كلها لك، كل شركات الطيران في العالم لك، كلُّ معامل السيارات لك، كل معامل النفط لك..

((يَا عَلِيُّ، لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ))

((خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند ضعيف]

فالتجارة الحقيقية، والربح الكبير: أن تكون سبباً في هداية إنسان، إنسان شارد، ضائع، ضال، شقي، تعيس، مُتَمَزِّق، تأتي إليه لتعرفه بربه، تحمله على طاعته، تدفعه للعمل الصالح، هذا هو العمل الطيب، لذلك:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

بالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين:

لكن لكي تكون إماماً فلابدَّ من أمرٍ ؛ قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

فهل أنت صابر ؟ فهناك امتحان صعب، سُئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: **" يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟** فتبسم، وقال: **" لن تُمكّن قبل أن تُبْتلى "**، أي لن تنال رتبة الإمامة، ولن تكون داعية إلى الله حقيقة من دون دفع ثمن باهظ جداً ؟!! فهذه الدكتوراه مثلاً، حتى يقال له: دكتور، تفضل دكتور، فقد (ذاب بذر مخه) ثماني سنوات، ودراسات، وترجمات، وأطروحات، ومناقشات، وأعد

الفصل كله، أعده كله، أحياناً الأستاذ المشرف يستخدم طالبه لأعمال خاصة، كتبييض أشياء، لأنّ مصير الطالب رهن موافقته، فحتى يقال لفلان: دكتور، يكون قد بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فأنت تريد جنة عرضها السماوات والأرض هكذا بركعتين صليتهما ؟! بليرتين لفقير؟! هذه هي العقبة، وانتهى الأمر ؟! شيء مضحك ! لأن طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: الآية 24)

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: الآية 124)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: الآية 39)

هذه من صفات الدعاة:

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

آيات كثيرة تُبَيّن الثمن الباهظ الذي ينبغي أن تدفعه كي تكون إماماً.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 6)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: الآية 55)

4 – تمكينُ الصالحين في الأرض:

أي: يا عبادي، لكم عليّ أن أستخلفكم في الأرض، أن أجعلكم خلفاء، وتكون كلمتكم هي العُليا، أنتم مهيمنون، مسيطرون، لكم يا عبادي أن أجعلكم خلفاء في الأرض، لكم عليّ أن أُمَكِّن لكم دينكم، تمارسون شعائره وأنتم مطمئنون، لا تخشون لومة لائم، لكم عليّ أن أُبدِّل خوفكم وقلقكم أمنا، ولي عليكم شيءٌ واحد، أن تعبدوني فقط.. لذلك:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

لله عليك أن تعبده، عليك أن تعبده حقاً وصدقاً فقط، ودع ما سوى ذلك له ؛ فإنه سيرفعُك يقرّبُك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(الشرح سورة)

أيْ أنّ الاكتئاب لا يُحتمل، الاكتئاب والضيق، والخوف والقلق، والسوداوية والشعور بالتمزّق:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

والله هذا شيء جميل:

(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)

هناك أحياناً همومٌ تسحق، يقول لك: أنا مسحوق، والله أحسُّ أن عليّ هموماً كالجبال، كأنّ جبلاً جاثمٌ على صدري:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3))

انسحقت فيه، وطأطات ظهرك وعنقك من ثقله..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

صار لك شأن، ولك مكانة، والناس يحبُّونك:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الثمن باهظ:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6))

الثمن:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)

فانصب في طاعته، في تطبيق شرعه، في العمل بأحكامه:

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

أي أطعني مخلصاً، هذه كلها تحقق معنى:

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

أي أطعني مخلصاً، وهذا هو الثمن:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا)

(سورة القصص: الآية 5 - 6)

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ

1 – الظالمُ والمعين للظالم في حكم ومصيرٍ واحدٍ:

من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً على جبينه: آيسٌ من رحمة الله، من أعان ظالماً سلّطه الله عليه.

فالله ذكر فرعون، وهامان، ولكن ما شأن هامان ؟ لأنه أعان فرعون، وما شأن الجنود ؟ لأنهم أعانوا فرعون:

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

2 – الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه:

لذلك قيل: **" الظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه "**، ينتقم به ليصلح المؤمن المُقَصِّر، ثم يُقَوّي هذا المؤمن المُقَصِّر حتى يصلح هذا الإنسان الكافر الذي لا يعرف ربه.

ملخّص هذه الآيات: إذا عصاني من يعرفُني سلّطتُ عليه من لا يعرفني.

2 – في سقوط الأندلس عبرة للمُعتبِر:

واقرؤوا التاريخ ؛ حينما التفت المسلمون في إسبانية وفي الأندلس إلى الغناء، وإلى الموشّحات، وإلى الطرب، وشربوا الخمور، واستمتعوا بالجواري والغِلمان، وطفح أدبُهم بالسقوط والخلاعة والانحراف، جاء الإسبان، وتمكّنوا منهم، وقتّلوهُم، وشرّدوهم، فقالت أمٌّ آخر ملك له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مُضاعَاً لم   تحـافظ عليه مثل الرجـال

****

وإذا عاد المسلمون إلى دينهم كانت لهم الغلبة، فهذا سيدنا صلاح الدين الأيوبي، وكُلّكم يعلم قصّته، وقف في وجه أوروبا بأكملها، أيْ أنّه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

هذا فَرشٌ تاريخي، تقديمٌ بيئي للقصة، القصة لم تبدأ بعد، أيْ أنّ هذه القصة التي سوف يتلوها علينا ربُّنا سبحانه وتعالى من نبأِ موسى وفرعون وقعت في مِصر، وفي عهد فِرعون، وكان الوضع كما

يلي:

فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعا، وفعل كذا وكذا، والغاية النبيلة:

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

بدايات قصة موسى:

1 ـ وحيُ الله لأم موسى بإرضاع ابنها:

أوّل خيطٍ من خيوط القصّة:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: الآية 7)

هذا الوحيُ وحي إلهام ؛ فالله عزّ وجل أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذا وحي رسالة، وأوحى إلى أم موسى وحي إلهام، وأوحى إلى النحل ؛ هذا وحيُ غريزة، هناك وحي غريزة، ووحي إلهام، ووحي إرسال.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(سورة القصص: الآية 7)

2 ـ إنه لأمرٌ عجيب: فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

1 – معية الله الخاصة:

واللهِ هذا كلامٌ لا يكاد يصدّق، بل هو كلام عجيب !!! إلا أن يكون القائل هو الله سبحانه..

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: الآية 7)

ترضعه، هو في حجرها، على صدرها، في عطفها وحنانها.

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

لأنني معه..

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

فأين هو موجود ؟ الشعور أن الله معك شعور لا يقدر بثمن، طبعاً الله مع كل إنسان، هذه معيةٌ عامةٌ لا ميزة فيها للإنسان، وهو معكم أينما كنتم، لكنْ لمّا يقول اللهُ تعالى:

(اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

(وَاللّهُ مَعَ الصّابرين)

(سورة البقرة)

هذه معيةٌ خاصة، معية الحفظ، معية التوفيق، معية العطف، والرعاية، والنصر والتأييد، فالبطل هو الذي يجتهد ليستحقّ أن يكون الله معه، العوام يقولون: خاطرك، له معك، الله معك، هذه العبادة، كلمة: (الله معك) ليس قليلة، اجتهد كي تستحق أن يكون الله معك، فإذا كان معك فلا تخشَ بأساً، موسى طفلٌ صغير لازال في المهد.

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

إذا خفت، أيْ إذا ساورك خوف وقلق عليه فألقيه في اليم.

من لطائف الآية: أمران ونهيان وبشارتان:

في الآيةِ أمران:

الأمر الأول: أرْضِعِيهِ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

أول أمر: فإذا خفتِ عليه فألقيه، فهو محفوظ في كنفنا، هنا نحن أمام نقطةٍ دقيقة جداً، هي: لو أنها أبقته في حجرها لحفظه الله عزّ وجل، ولكن يبدو أنها خافت، فهي ليست نبية ولا مرسلة، خافت فطمأنها الله سبحانه:

الأمر الثاني: فَأَلْقِيهِ

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

النهي الأول والثاني: لاَ تَخَافِي ولا تَحْزَنِي

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

(سورة القصص: الآية 7)

العلماء فرّقوا بين الخوف والحزن، الخوف توقّع خطرٍ، أما الحزن ؛ تحقّق الخطر، خطر وقع، وانتهى، فألمّ بصاحبه حزن، لكنْ خطرا قد يقع، ففي النفس خوف..

البشارة الأولى والثانية: رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

(وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هذه الآية تتضمّن ستة أشياء ؛ فيها أمران، ونهيان، وبشارتان:

(أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

فقصة سيدنا يوسف نقلة مفاجأةٍ، ما مغزاها ؟ إخوة يوسف أقوياء أشداء، ائتمروا على قتله، وعلى وضعه في الجُب، ما الذي حصل في النهاية ؟ أن جعله الله عزيز مصر، ودخلوا إليه صاغرين، وقالوا:

(أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

قال:

(قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف: من الآية 90)

أين مغزى القصة ؟ الجواب:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

لذلك في الأثر:

((أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

ماذا أراد كفار قريش ؟ أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم.، أخرجوه، قاتلوه، حاربوه، فلما شاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم. قتلى في بئرٍ في بدر قال:

((يا عُتبة بن ربيعة يا أمية بن خلف، يا شيبة بن ربيعة، خاطبهم بأسمائهم واحداً تلو الآخر، لقد كذّبتموني وصدقني الناس، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدّقني الناس، وكفرتم بي وآمن بي الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، فقالوا: أتخاطب قوماً جيفوا ؟ قال: ما أنتم بأسمع لي منهم))

[النسائي عن ابن عمر]

هم يسمعونني، فإذا كنت بطلاً فكن مع القوي، والله هو القوي، الله أبدي سرمدي قوي.

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

أيُ شيء كان باطلاً سواءٌ أكان فكرة، أو شخصاً، أو إنساناً فمآله:

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

إذاً:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنّا رَادّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

فقالوا:

موسى الذي رباه جبريل كافرٌ ومـوسى الذي رباه فرعون مُرْسَلُ

****

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ، هذا موسى السامري، رباه الوحيّ فكان كافراً، وموسى الذي رباه فرعون مُرْسَلُ.

(قالَ أَلَمْ نُرَبّكَ فِينَا وَلِيداً)

(سورة الشعراء: آية 18)

فرعون رباه فكان مرسلاً، والبيئة لها أثر، ولكنّه محدود، فإنسان نشأ في قصر فرعون صار مرسلاً، وإنسان ربّاه الوحي فأصبح كافراً، فالإنسان له اختيار، اختياره هو الحاسم، لذلك:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: من الآية 272)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)

(سورة القصص: آية " 8 ")

العناية الإلهية بموسى عليه السلام:

1 ـ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ:

دائماً الله عزّ وجل يرخي الحبل، افعل ما تشاء، إلى أن يتوهّم العبد أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، ثم يشد الحبل فجأةً، هذا هو الابتلاء، هذا هو الامتحان بعينه.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

(سورة القصص: من الآية 8)

لام العاقبة والمآل:

فمستحيل أن يلتقط إنسانٌ طفلاً، ويربيه عنده ليكون في النهاية عدواً له وحزناً، لذلك علماء النحو حاروا في هذه اللام، هي لام التعليل، أنا أدرس لأنجح، النجاح واضح في ذهني، أما فرعون فالتقطه ليكون له عدواً وحزناً، مستحيل، لذلك أعرب النجاة هذه اللام وحدها لام المآل، فهو التقطه، وكانت النتيجة وآلَ المآل إلى أنّ هذا الطفل أصبح عدواً لهم وحزناً.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)

2 - لا تَقْتُلُوهُ:

فالله عزّ وجل بيده كل شيء، ألقى حبه في قلب امرأة فرعون،

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)

[سورة القصص: الآية 9]

ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ؟

((اللَّهُمّ يَا مُثَبّتَ الْقُلُوبِ ثَبّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طاعَتِكَ))

[ابن ماجه عن النواس بن سمعان الكلابي]

أنت الآن مع الناس، الله أحياناً يلقي في قلب إنسان محبتك، فييسر لك أمرك، يلقي في قلب إنسان بُغضك، فيُعَسِّر لك أمرك، يلقي في قلب إنسان أن يعينك فيعينك، يلقي في قلب إنسان أن يزعجك فيزعجك، كلُّ البشر عِصيٌّ بيدي الله عزّ وجل، أدوات، علاقتك مع الله عزّ وجل.

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

إنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

الذي عند إحساس نامٍ يدرك فيما بعد إذا كان مصيباً أو مخلصاً، لما يقول لك ربنا عزّ وجل خالق الكون، الحق، الصادق، الخبير، العليم، الحكيم، معنى ذلك أنك مخطئ، قولاً واحداً، فالإنسان أيضاً يجتهد ألا يكون مخطئاً في نظر القرآن الكريم، قد يكون عمله في منتهى الذكاء عند الناس، (والله هنيئاً لك)، فمجتمع الكفر والنفاق أحياناً يثني على عمل، والعمل مخالف للشرع مخالفة تامة، فيقال: يا أخي

فلان شاطر، فلان فهيم، فلان دبّرها له، المغزى أن يكون العمل وفق القرآن الكريم، فبحسب الظاهر، وبمنتهى الذكاء، خطط فرعون وهامان ومَكّنا نفسيهما في الأرض، لكن الله قال:

(إنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

كان خاطئاً، والعاقبة ليست لهم، فأنت دائماً اجتهد أن تكون وفق مقياس القرآن الكريم، أي أن تنطبق عليك وعلى تصرفاتك آية كريمة.

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة التوبة: آية 9)

شيء جميل، إذا آمنت وعملت الصالحات انطبقت الآية عليّ، وصرتُ في دائرة معونة الله ورعايته.

(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة التوبة: آية 9)

(إنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة البقرة)

فاجهد ألا تكون في ميزان نصوص القرآن خاطئاً.

(إنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9))

(سورة القصص)

كثيرا ما تسمع ما يدعو به بعض الخطباء من على المنابر على اليهود وعلى أعداد المسلمين: اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، يدبرون، ومن جرّاء هذا التدبير اجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفرعون وملؤه لا يشعرون أن هذا الطفل الصغير الذي أُلقِيَت محبته في قلب امرأة فرعون، والتي منعت فرعون من أن يقتله.

(عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً)

(سورة القصص: آية 9)

لم يشعروا أنّ هذا الطفل الصغير سوف يقضي على ملك فرعون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (02-18): تفسير الآيات 8 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(القصص)

القصة للاستنباط والعبر:

قلت لكم في الدرس الماضي: إن القصة إذا وردت في القرآن الكريم فالمقصود منها المغزى أو الاستنباط، وكل قصةٍ في القرآن الكريم فيها من الحقائق والاستنباطات والمغازي ما تُضيء لنا طريق حياتنا نحن، لو لم تكن هذه القصة تضيء لنا الطريق طريق الله عزّ وجل لما كان لها من معنى أن تَرد في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة، وقد انقضت، ومات كل أبطالها، على كلٍ نعود إلى متابعة القصة مع محاولةٍ متواضعة لاستنباط بعض الحقائق.

من العناية الربانية بموسى عليه السلام:

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(القصص)

يُستنبط أن فرعون هذا المعنيّ بهذه القصة لم يكن له ولدٌ، وذلك من قوله تعالى:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

1 – لم يكن لفرعون ولد:

ولكن فرعون أعطى أمراً مشدداً بقتل كل أطفال بني إسرائيل الذكور، فكيف نَجَا هذا الغلام مِن القتل ؟ ما الذي حصل ؟

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ)

2 – إلقاء محبة موسى في قلب مَن رآه:

أيْ أنّ الله عزّ وجل ألقى محبته في قلب امرأةِ فرعون، أحياناً ربنا سبحانه وتعالى يردُّ على تدبيرٍ عظيم بتصرفٍ صغير، ما الذي نجىّ النبي عليه الصلاة والسلام من القتل في غار حِراء ؟ عنكبوت، هذا من آيات الله الدالّة على عظمته، لو أن جيشاً كبيراً مدججاً بالسلاح والعتاد هاجم جهة ما، وردّت هذه الجهةُ عليه بجيشٍ آخر، ودارت معركةٌ طاحنةٌ، ومات فيها آلاف القتلى، وأُصيب آلاف الجرْحى، وأسفرت هذه المعركة عن انتصار الجيش المُدافع، فإن هذا نصر، ولكن الله أحياناً يرسل رياحاً عاتية تقلب القدور الله وتقتلع الخِيام الله وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَدّ اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً)

(سورة الأحزاب)

أيْ أن من دلائل عظمة الله عزّ وجل أنه يرد على التدبير العظيم والكيد الكبير بشيءٍ لا يُرى بالعين، أيْ أن هذا الطفل الذي سيقضي على مُلك فرعون ما سلاحه الشديد؟ سلاحه عاطفي، ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى محبته في قلب امرأة فرعون، ماذا يُستنبط ؟ يستنبط أنك في تعامُلك مع أي إنسان إما أن يلقي الله محبتك في قلبه، فإذا هو في خدمتك، وإما أن يلقي الله في قلبه بغضك، فإذا هو عدو شرس، ويؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ اللّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

(سنن الترمذي عن أنس)

فأنت في تعاملك مع الناس ؛ إذا أراد الله أن يُكرمك، وأن يرحمك ألقى حبّك في قلب الآخرين، ألقى حبك في قلب شخصٍ لا تعرفه، تلتقي به لأول مرة، فإذا هو يتمنّى أن يقدّم لك كل شيء، وإذا أراد الله أن يؤدِّب إنساناً ألقى بغضه في قلب مَن حوله، فإذا هم يضيّقون عليه، إذاً: القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، تدبيرٌ عظيم، فرعون جهّز جيشاً من القابلات كي تتبع كل قابلةٍ المرأة التي ستلدُ غلاماً ذكراً، ويجب أن تخبر عنه مسبقاً، وأن تتابع تطورات الحمل إلى أن يوضع، فتأخذه القابلة، فيُلقى، أو يذبح، أو يقتل بشكلٍ أو بآخر، هذا الإجراء العظيم، وهذا التدبير الكائد، كلُّ هذا أخفق مقابل ميل قلب امرأة فرعون إلى هذا الطفل الجديد، كل كيد قريش باء بالفشل حينما جاءت حمامةٌ على باب غار ثور، حينما نسج العنكبوت بعض الخيوط، أي أنّ جيشاً عظيماً، ومطاردةً هائلة، وتدبيراً كائداً أُلغي بعنكبوت نسجت بيتها على فوهة غار ثور، وانتهى الأمر، ماذا يعني هذا ؟ يعني أن الله عزّ وجل حينما يريد أن ينصرك على خصمك، حينما يريد أن يكرمك بشيءٍ لا يُرى بالعين يلقي حبك في قلب الناس، وذلك معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه)

3 – الجمالُ الخُلُقي لموسى:

أيْ إذا ألقى الله محبتك في قلوب الخلق أصبح الخلق كلُّهم في خدمتك وفي طاعتك، أحياناً الزوج المؤمن، الصادق، المنيب، المخلص، الذي يقفُ عند حدود الله، يُلقي هيبته في قلب زوجته، وأحياناً حينما يعصي، حينما ينحرف، ويتجاوز حدود الله عزّ وجل تُنْزَع هذه الهيبة من قلب زوجته، فإذا هي تخاصِمه، فإذا هي تُنَاجزه، وإذا هي ترد عليه بكلمات أقسى، فأين الهيبة ؟ ضاعت الهيبة، إذاً قلب الزوجة بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجل يقلبه كيف يشاء، قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: **" إنني أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "**، وهذا الأمر صحيح، لأن قلب الزوجة بيدِ الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل يقول:

(فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

(سورة الأنبياء: الآية 90)

أحياناً قلب الشريك في التجارة أو غيرها ينفتح لك مادمت معه صادقاً، مخلصاً، وقافاً عند كتاب الله، فيلقي محبتك في قلب شريكك، فتأخذ المودة والمحبة طريقها إلى قلب الشريكين، فإذا هما متماسكان، متعاونان، فهذه لقطة، ولك أن تقيس عليها آلاف الحالات..

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ)

أيْ أنّ الله عزّ وجل كسا هذا الصبي الصغير من الجمال، والجلال، والبهاء، والبريق ما جعل قلب امرأة فرعون يذوب حباً لهذا الغلام، إذاً كل تدبير فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل لئلا يقضوا على ملكه تلاشى، هذا الذي سيقضي على ملكه اقتحم عليه قصره، ودخل إلى عُقْر داره، وهو بين الأحضان يدلل، ويكرّم، ويُعتنى به، لذلك قال الله تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

عندما تكون مستقيما تصيبك العناية الإلهية:

البطولة أن تكون على المنهج، لأنك إن لم تكن على المنهج الصحيح فإنّ أقرب الناس إليك يقضي عليك، أقرب الناس إليك يتنكّر لك، لأن كل من حولك بيدِ الله عزّ وجل، فلذلك الإنسان العاقل لا ينجيه من الله إلا أن يكون مع الله، لا ينجيه من الله إلا أن يكون وقّافاً عند أمر الله، أما ذكاؤه، حيلته، خبرته، قوته، جَمعه، هذا كله لا قيمة له عند الله عزّ وجل، لأنه يؤتى الحذِرُ من مأمنه، وعلى نفسها جَنَتْ

براقش، وإذا أراد الله إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبّه، فأنا أريد من هذه اللقطة، أو من هذه الآية الصغيرة أن تعرفوا أن قلوب الخلق كلها بيدِ الله عزّ وجل، فإذا أراد الله أن يُكرمك ألقى حبك في قلوبهم، وإذا أراد أن يؤدِّبك ألقى البغض والشك في قلوبهم، فإذا هم يتنكّرون لك، والقصص التي تسمعونها من أقربائكم وأصدقائكم كثيرة.

هناك مشكلة، أحدهم قال له الموظف: أنت امش، ولم يدقق، بينما دقق مع غيره، فلماذا دقق مع فلان، وخلق له مشكلة، وتساهل مع فلان ؟ لو سألت هذا الموظف يقول لك: والله لا أدري، هكذا ألهمني الله، أي أنك دائماً في علاقاتك مع الآخرين يلهم الله عزّ وجل من حولك بإكرامك أو بتأديبك، فالبطولة أن تكون معه، البطولة أن تكون وقافاً عند أمره، البطولة أن تكون معتمداً عليه، البطولة أن تتّكِلَ عليه، البطولة ألا تشرك به شيئاً.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

و لُذ بحمانا واحتم بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

إنّ هذا الطفل الذي التقطوه، والذي ربُّوه، وأكرموه سيُنهي ملكهم، وهم لا يشعرون، لذلك الدُعاء الذي يدعو به بعض خطباء المساجد على الأعداء: **" اللهم اجعل تدميرَهم في تدبيرهم "**، ليس هذا ببعيد، أيْ أنّ الكافر أحيانا يدبّر فيكون تدميره في هذا التدبير، لأن الله عزّ وجل مع المؤمنين دائماً.

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ)

من النكت والطائف القرآنية:

1 – امرأة فرعون:

لكنّ امرأة فرعون من النسوة اللاتي كَمُلن، بنص حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى]

هؤلاء النسوة اللاتي كملن، لذلك ماذا قالت امرأة فرعون ؟

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم)

معنى قوله: وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا

استنبط بعض العلماء أن على المرأة المؤمنة أن تصبر على زوجها المقصّر، أو على زوجها العاصي، أو على زوجها المنحرف، أي أن هذه المرأة التي تقول: أنا لا أريده، ضقت ذرعاً به، هذه لم تقتدِ بآسية امرأة فرعون:

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

(سورة القصص: آية " 10)

المعنى الأول:

فسر العلماء هذه الآية تفسيراتٍ عدة: أحياناً يكون قلبُ الإنسان ممتلئاً بهمومٍ كثيرة جداً، أحياناً يكون مهتماً لابنه ولزوجته المريضة، ولشريكه المسافر، وللبضاعة التي لم تُبَع معه، عنده مجموعه هموم، أحياناً تأتي مشكلة خطيرة جداً تتبدّد معها كل هذه الهموم، يصبح القلب فارغاً إلا من هذا الموضوع، نعم هذا يحدث، أيْ أنّ الإنسان في الأحوال العادية له هموم كثيرة، أحياناً من جهة صحته يساوره شيء من القلق، من جهة أولاده يلازمه خوفٌ من عدم النجاح، من جهة زوجته يوجد شعور بعدم الرضى، من جهة عمله يقول لك: الأسواق فيها كساد، من جهة أقربائه هناك خصومة، فإذا أراد أن ينام تتبدّد هذه الهموم همّا هَمّا، من جهة كذا، ومن جهة كذا، لكن لا سمح الله ولا قدّر ؛ لو أصابه مرضٌ عُضال وجاء التحليل بأن هناك مرضاً عُضالاً خطيراً فإنّ همّ الزوجة، وهمّ الولد، وهمّ الشريك تتلاشى، ويصبح فؤاد هذا الإنسان فارغاً إلا من هذا الهم، نعوذ بالله من هذا الهم، العوام يتوسلون إلى الله عزّ وجل أن يجيرهم من ساعة الغفلة، وبعضهم يقول: هي ساعة الغفلة عن الله عزّ وجل، الغافل يقتحم الأخطار، الغافل يقع في المعاصي، الغافل يقع في الشِرك، الغافل يقع في الكفر، فيأتي التأديب فجأةً من دون إنذار،

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

يتراءى من قول ربنا عزّ وجل لأم موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(القصص: آية 7)

من القتل..

(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

لا تخافي، ولا تحزني، إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى أمّ موسى ألا تخاف ولا تحزن، إذاً فلا مانع من أن يصبح قلبها فارغاً من الخوف والحزن، هذا هو المعنى الآخر، لكن لقد أصبح قلبها فارغاً من الهم ومن الحزن..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)

(القصص: من الآية 10)

المعنى الثالث:

أنها حينما ألقت به في اليَمّ جاءتها الهواجس، وجاءتها الأحزان، وجاءتها الهموم، فخافت أن يغرق، وخافت أن يُقتل، وخافت، وخافت، ففرغ قلبها من العقل، فلا عقل، ولا ذرة عقل، أي أصبح فارغاً، أي أصبح قلبها فارغاً من الأمن، فارغاً من تطمين الله لها، جاءتها الهواجس، جاءتها الهموم والمخاوف والأحزان، هذا هو المعنى الثالث..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّمُوسَى فَارِغاً)

يقولون: ما من شيءٍ في الأرض أقدس من قلبُ الأم، وقد قلت لكم سابقًا: إن قلب الأم طَبْع، بينما محبة الابن لأمه تكليف، أي أن المحبة والبر والإكرام تكليف، والنبي الكريم صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نهى عن أن يُفَرّقُ بين الشاة وبين ابنتها، ما قولكم ؟ هذا على مستوى الحيوانات، لا يجوز أن يُفرق بين الأم وبين وليدها، فما قولك إذا كان هذا على مستوى الإنسان ؟ إذا كان الذي يفرّق بين الشاة وبين وليدها قد وقع في معصيةٍ صريحةٍ بنص حديث رسول الله صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فكيف بالذي يفرق بين الأم وابنها ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ فَرّقَ فليس منا))

[الجامع الصغير عن معقل بن يسار بسند ضعيف]

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ فَرّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا وَبَيْنَ الْأَخِ وَبَيْنَ أَخِيهِ))

[ابن ماجه]

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[سنن الترمذي]

هذا الذي يفرّق بين الأحبة ليس من أمة النبي عليه الصلاة والسلام..

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

كيف تُدفع الشهوة ؟

إن الشهوات لو رمزنا لها بوزن خمسة كيلو في ميزان، ولو رمزنا إلى قوة الإيمان بوزن عشرة غرامات، فإيمانٌ مقداره عشرة غرامات لا يقف في وجه الشهوات، إذا سمع الإنسان خطبة، أو قرأ كتابًا، أو سمع محاضرة في الدين أعجبته، فهذه عشرة غرامات مثلاً، الشهوات خمسة كيلو، فإلى أن تُصْبح كفة الإيمان في مستوى وزن الشهوات، وإلى أن يتحرك الميزان فستكون أنت في صراع، أنت في مرتبة مدافعة التدني، ولكن إذا قوي الإيمان، وأصبح وزنه مئة كيلو، والشهوات خمسة كيلو، عندئذٍ لا تستطيع الشهوة أن يكون لها إلى قلبك سبيلٌ، هذا نوع.

النبي عليه الصلاة والسلام وُصِف بأنه على خُلقٍ عظيم، لكنّ أخلاق المؤمنين بين أخذٍ ورد، بين شدٍ وإرخاء، في صراع، أي أن أحداً إذا تكلم معك كلمةً قاسية تقول: أأردّ عليه ؟ لا، لن أردّ عليه، السكوت أفضل، أنت في حالة صراع، لكن النبي عليه الصلاة والسلام بلغ مرتبة في قوة الإيمان، وفي سموّ الخلق أنه أصبح متمكناً من أخلاقه..

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

معنى: إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ

المعنى الأول:

ففؤاد أم موسى أصبح فارغاً، ما معنى أنه فارغ ؟

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

قال بعض المفسرين: **" عندما ألقته في اليَمّ كادت تصيح: وا ابناه، وا ابناه، ماذا فعلت بنفسي ؟ ".**

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)

أي كادت تصيح.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" حينما رُدّ إليها ابنها، ووضعته على ثديها، وأرضعته كادت تقول: هذا ابني من شدة الفرح ".**

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: **" حينما سمعت من الناس أنّ في قصر فرعون غلاماً عزيزاً على فرعون اسمه موسى بن فرعون كادت تقول لهم: لا، هذا ابني ".**

وحينما قال الله تعالى:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(القصص)

كادت أن تقول للناس: إن ابني سوف يرجعُ إليّ، وفي كل هذه الحالات لو تكلّمت لانتهت، ولكن الله سبحانه وتعالى سلّم، قال عزوجل:

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا)

(القصص)

لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا

أي ثبتناها بالصبر، ثبّتناها بالإيمان، ثبتناها بالعصمة، ألهمناها الصبر، لذلك:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة النحل: الآية 127)

سيدنا عمر كان يقول حينما تصيبه المصيبة: **<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلْهِمْتُ الصبر عليها >>.**

أيْ أن الإنسان إذا أصابته مصيبة، وصبر فليشكر الله عزّ وجل على أن الله سبحانه مكّنه من الصبر، وأعانه على الصبر، لقول الله عزّ وجل:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)

(سورة النحل)

إذاً..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(القصص)

لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

بوعدنا.

إن درجة الإيمان تحدد درجة التصديق، والإيمان في بعض تعاريفه تصديقٌ وإقبال، والكفرُ تكذيبٌ وإعراض..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من المؤمنين، أيْ من المصدقين بوعد الله ووعيده، والحقيقة أن بعضهم يقول لك أحياناً: فلان مؤمن، ثم تجده يفعل بعض المعاصي، وهو يقرأ كل يوم أن هذه المعاصي سوف يعاقبُ الله عليها، إذاً هو كأنه ليس مصدقاً، وهذا ينقلنا إلى موضوع دقيق:

التكذيب اللفظي والتكذيب العملي:

هناك تكذيبٌ لفظيٌ، وهناك تكذيبٌ عملي، والتكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب اللفظي، أي أن الطبيب إذا وصف لك دواء، وأنت شكرته بلسانٍ ذَرِب، وقولٍ بليغ، ولم تشترِ الدواء، فإن عدم شرائك الدواء دليل أنّك لم تصدّق هذا الطبيب، فحينما لا يطبّق الإنسانُ القول فهذا أحد أنواع التكذيب، وهو لا يدري، وما من واحدٍ في العالم الإسلامي بإمكانه أن يصرّح بأنه غير مؤمنٍ بالآخرة، هذا الطرح ليس وارداً، ولكن هذا الذي لا يعمل للآخرة هو أحد أنواع المكذبين بها قطعاً، هذا الذي يعمل للدنيا فقط، هذا الذي تربّعتْ الدنيا على عرش قلبه، هذا الذي كانت الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه، هذا الذي زهد بالآخرة لو قال: أنا مؤمن بالآخرة فهو في الحقيقة مكذب، لأن عمله يكذب دعواه، إذاً..

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فأنت حينما ترى إنساناً يأكل الربا ماذا تعتقد ؟ لاشك أنك ترى أنه عاصٍ، وقد يقول قائلٌ من ضِعاف المؤمنين: هنيئاً له، مالُه وفير، هذا هو التكذيب، إنّك تكذِّب القرآن، وأنت لا يدري، يقول ربنا عزّ وجل:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

فهل أنت مصدق أن الله عزّ وجل لابدّ من أن يمحق ماله ؟ يقول لك: والله يا أخي حالته المادية جيدة، معَ أن دخله حرام، فالبطولة أن تكون من المؤمنين المصِّدقين بوعد الله ووعيده، وأنت هل تشعر أن كلّ

إنسان انحرف لابدّ له من عقابٍ في الدنيا أو في الآخرة ؟ هذا اليقين هو الذي يُلْجِمَك عن معاصي الله عزّ وجل..

مبدأ الأخذِ بالأسباب كما جاء في قصة القصص: وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)

(القصص: من الآية 11)

أي تتبعي أمره، يبدو أنها حينما ألقته في اليَم، وشاطئ النيل بعضه خارج حديقة قصر فرعون، وبعضه داخل حديقة قصر فرعون، فلما ألقت أم موسى طفلها في التابوت ألقته في اليم قالت لأخته: تتبعي هذا التابوت، تتبعي مسيره، هذه بعض التأويلات، فتتبعت مسيره حتى وصل، أو ساقه الله عزّ وجل إلى مكانٍ فيه شجرةٌ قريبةٌ من اليم، فهذا التابوت وقف عندها، وكان هذا على مرأى مِن امرأةِ فرعون.

هناك تفسيرٌ آخر: طبعاً أخذ فرعون الغُلام، وطلبت امرأته منه ألا يُقتل، وأحبّته حباً شديداً، وقالت له:

(قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً)

(القصص: من الآية 9)

طفلٌ رضيعٌ جائع صار يبكي، جاءوا له بمرضعٍ فلم يرضع، ثم بمرضعٍ ثانيةٍ، وثالثةٍ، ورابعة فلم يرضع، لذلك أمر جنودَه أن يبحثوا له عن مرضعٍ في المدينة، فأخته تتبعت الأخبار، وهذا تفسير آخر..

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)

(القصص: الآية 11)

تتبعي أخباره..

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

الذكاء في تتبع الأثر: المراقبة عن بُعْدٍ:

رأتهم في حالة ارتباك يبحثون له عن مرضع، وهم لا يشعرون.

الآن تدبير آخر من تدابير الله عزّ وجل..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(القصص: الآية 12)

وَحَرّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ

التحريم الكوني: المنع:

العلماء قالوا: **" هذا تحريم منع لا تحريم شرع ".**

هذا الطفل الصغير بحاجة ماسة إلى حليب، ومع ذلك كلّما التقم ثدي امرأة مرضعٍ عافه وأبى أن يشرب منه، وبقي يبكي.

إذاً: كل شيء بيد الله عزّ وجل، الطفل بيدِ الله، وحركة الماء بيدِ الله، وقلب امرأة فرعون بيدِ الله، وفرعون بيدِ الله، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أول شيء: قلب امرأة فرعون، بل أول شيء: أن الله عزّ وجل ألقى على هذا الغلام مسحة جمال، ومسحة جلال، ومسحة بهاء، أحياناً تدخل إلى صف فيه خمسون طالباً، طالب واحد يَلفِت النظر، وأنت لا تعرف ما السر، هذا الطفل جذبك إليه، الله عزّ وجل له أسرار، أحياناً يضع سره في بعض خلقه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديثه:

((ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تنهال إليه بالمودة والرحمة))

[ورد في الأثر]

أيْ يجعل سراً، أحياناً تقول كلاماً يقوله كلُ الناس، ويكون لكلامك أنت تأثير عجيب، ما سر هذا التأثير في هذا الطفل ؟ الله يعلم ذلك، لكن يمكن أن نستنبط أن الإخلاص والتطبيق يسهمان في قوة التأثير، على كلٍ..

(وَحَرّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

(القصص: الآية 12)

هذا التحريم تحريم منع لا تحريم شرع.

والشيء الآخر:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى

(القصص: الآية 7)

هذا وحي إلهام لا وحي رسالة، وهناك وهي ثالث: وحي غريزة..

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النّحْلِ

(سورة النحل: الآية 68)

فالكلمات في القرآن تأخذ معاني عدة..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)

(القصص: الآية 12)

أي من قبل أن تأتي أمّه، فقالت أخته للجنود القلقين، الباحثين عن مرضع لهذا الغلام بأمر فرعون:

(فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ)

(القصص: الآية 12)

أمارات رجوع موسى إلى أمه:

قالوا مَن ؟ قالت: أمي..

(وَهُمْ لَهُ َاصِحُونَ)

عندما قالت: وهم له ناصحون شكّوا في أمرها، كيف عرفتِ أنهم له ناصحون ؟ قالت: أيْ هم للملِك ناصحون، وليس للغلام، هي ارتبكت من شدة لهفتها أن يعود أخوها إلى أمه فقالت:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

من شدة ولهها ورغبتها في أن يعود هذا الطفل الصغير إلى أمه تكلّمت كلمات زائدة فشكّوا في أمرها، قالوا: ومن أدراكِ أنهم له ناصحون ؟ قالت: أردت أنهم أهل بيتٍ ناصحون للملك في أمر هذا الغلام الذي يَحْرِص على إرضاعه، عندئذٍ تمّ هذا الأمر على هذه الطريقة..

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ)

(القصص: الآية 13)

رجوع موسى إلى أمه:

جيء بأم موسى إلى قصر فرعون، وعلى مرأى من فرعون كما تروي الكتب أُعطي هذا الطفل ثدي أُمّ موسى فالتقمه بشغف، فشكّ فرعون في الأمر فقال: لماذا قَبِل ثديك، ولم يقبل أي ثدي آخر ؟ قالت: إنني طيبة الريح، طيّبة اللبن، وما من غلامٍ رضع مني إلا التقم ثديي، وهي أيضاً كانت ذكيةً، فعلى الإنسان أن يكون على شيء من الذكاء، ولولا فِطْنتها هذه لقتلها..

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)

(القصص: الآية 13)

كَيْ تَقَرّ عَيْنُهَا

1 – الذكاء مطلوب في المسلم:

فيما مضى تحدثنا عن أن سيدنا رسول الله أرسل حذيفة بن اليمان في معركة الخندق، وهي المعركة الحاسمة التي ربما انتهى الإسلام فيها، أقول: ربما، حسب تصوّر أصحاب رسول الله لشدة العدد والعُدد التي توفرت للمشركين، وما شاكل ذلك، فالنبي عليه الصلاة والسلام نَدَبَ سيدنا حذيفة ليستطلع في معسكر المشركين ماذا يحدث ؟ ماذا يخططون ؟ المهمة قاسية جداً ؛ أن يتسلل جندي إلى معسكر الشرك، هو مقتول لا محالة، فأبو سفيان شعر بحاسةٍ سادسة أن في القومِ أناساً غُرَبَاء فقال: **" لا آمنُ عليكم من عيون لمحمد فليتفقد كلّ منكم جليسه وصاحبه "**، انتهى سيدنا حذيفة، لولا أنه كان ذكياً جداً، فمباشرةً أمسك بيدِ من بجانبِه وقال له: من أنت ؟ وما اسمك ؟ فقال: **" أنا فلان، واسمي فلان ".**

2 – ذكاءُ أمِّ موسى:

هذا موقف ذكي، فإذا وقف الإنسان مواقف تدلُّ على فطنته، فإن هذا من توفيق الله له، فيبدو أنهم شعروا أن أم موسى من لهفتها، ومن حبها للطفل أنها أمه، فقالت: لا، لست أمه، لكنيّ طيبة الرائحة، طيبة اللبن، وكل طفلٍ التقم ثديي قبله..

وعدُ الله ووعيده نافذان ومُحقّقان مهما كانت الظروف:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

إن زوال الكون أهون عند الله عزّ وجل مِن ألا يتحقق وعده، لأن وعده حق.

أمثلةٌ من وعدِ الله ووعيده التي لابد أن تتحقق:

المثال الأول:

عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فهذا وعد إلهي مطبّق في أي مكانٍ، في أي زمانٍ، في أي ظرفٍ، مهما تكن الظروف صعبة، وَعَدَك الله أيها الشاب المؤمن بحياةٍ طيبة، في بلد صعب، في بلد سهل، في رخاء، في سنوات الجدب، في سنوات الخصب، وعدك الله بحياةٍ طيبة، هذا وعدٌ إلهي.

المثال الثاني:

وعيد آخر:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

لا يمكن، ومهما كنت مرموقاً، مهما كنت، مهما كنت غنياً، مهما كنتَ قوياً، مهما كنت ذكياً، مهما كنت ذا عصبةٍ كبيرة، إذا أعرضت عن ذكر الله فلابدّ من المعيشة الضَنْك، بل إن بعض المفسرين قالوا: " **فما بال الأغنياء والملوك معيشتهم الضنك ضيقُ القلب، في قلوبهم من الضيق ما لو وزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم** ".

المثال الثالث:

وعدٌ آخر:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

المثال الرابع:

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

المثال الخامس:

هذا وعد آخر..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ)

(سورة الأعراف)

وعود الله كثيرة، وله وعدٌ وله وعيد..

المثال السادس:

وفي الآية التالية وعيد، قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: الآية 276)

هذا وعيد فيه قاصمة للظهر، المحق والإتلاف.

أما قوله تعالى:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة البقرة)

فهذا وعد..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

في سورة يوسف قال ربنا عزّ وجل:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أمرُ الله هو النافذ، **" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتُك ما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".**

إن الله عزّ وجل إذا أراد شيئاً وقع، وأيُّ شيءٍ وقع أراده الله، فإذا كنت بطلاً فكن مع مشيئة الله، لأنها هي النافذة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إذا لم يشأ الله أمراً تعطّل لأتفه سبب، وإذا شاء الله أمراً قام على أضعف سبب، والله سبحانه وتعالى يخلق من الضعف قوةً، ومن الضيق فرجاً، ومن المرض صحة.

وبعدُ، فهذه قصة سيدنا موسى وقد وردت في القرآن الكريم برقمٍ كبير، وردت ثلاثاً وعشرين مرة، لكن لو قرأتها قراءةً سطحية تظن أنها متكررة، أما إذا دققت فيها تجد أن كل مرةٍ وردت فيها هذه القصة أطلّت عليك من زاوية دقيقة.

قفزةٌ زمنية في قصة موسى: وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى

تطالعنا الآن في القصة فجوة، بعد أن رُدّ هذا الطفل إلى أمه التي أرضعته انتقلنا فجأةً إلى سن الرشد، طيلة ثماني عشرة سنة أو تزيد لا ندري عنه شيئاً، يا ترى كم سنة بقي في قصر فرعون ؟ لا ندري، هل بقي في قصر فرعون كل هذه السنوات ؟ هناك إشاراتٌ دقيقةٌ وخفية تؤكد أنه لم يبقَ في قصره، بل خرج من قصره، لعل أمه أخبرته ماذا يفعل فرعون ببني إسرائيل، لعل أمه أخبرته من هو، لعله رأى بعينه ما يفعله فرعون في بني إسرائيل من ظلمٍ، ومن تقتيل أولاد، على كلٍ المعلومات انقطعت، إلى أن قال الله عزّ وجل:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى)

(القصص: آية 14)

معاني: أَشُدّهُ:

المعنى الأول:

العلماء قالوا: **" بلغ أشده أي اكتملت قِواه الجسمية أي في السنة الثامنة عشره، واستوى أي اكتملت قِواه العقلية".**

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: **" في سنّ الثلاثين ".**

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: **" في سن الثانية عشرة ".**

المعنى الرابع:

على كلٍ ربنا عزّ وجل يؤكد أنه بلغ أشده واستوى، بلغ أشده في قوته البدنية، وبلغ أشده في قوته العقلية..

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

يسأل الإنسان نفسه: ما نصيبي من هذا العطاء ؟ إذا كان نصيبه من المال وفيرًا فإن هذا نصيب قارون، وإذا كان نصيبه من القوة وفيرًا فإن هذا نصيب فرعون، أما نصيبه إذا كان من العلم والحكمة فقد ضحكت له الأقدار..

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

معنى الحكم:

الحقيقة الحكم بعضهم يقول: **" إنه حينما تعلم حقيقة، وتضعها موضع التنفيذ فأنت حكيم ".**

لا يسمّى الحكيم حكيماً ذلك الذي تعلم الأشياء النظرية فقط، لا يسمى الحكيمُ حكيماً إلا إذا طبق الذي عرفه، لذلك: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

من صفات الأنبياء: العلم:

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه.. وإن الله عالمٌ يحب كل عالم، فكن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك، واعلمْ أن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

لكن أروع ما في هذه الآية هذا التعقيب الذي يبثّ الأمل في قلب كل مؤمن..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

تذييل الآية ببشارة عظيمة: وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين

إن عطاء ربنا عزّ وجل ليس عطاءً اعتباطياً مزاجياً، بل هو عطاءٌ منضبط، عطاء وفق أسس ثابتة، أي أنه لو لم يكن محسناً لما آتيناه حكماً وعلماً، كان محسناً فاستحق العلم والحكمة، ماذا قال الإمام الشافعي ؟ قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نــــورٌ ونـور الله لا يهدى لعـاص

***

بعضهم قال: **" لا تعصه في النهار يوقظك في الليل ".**

إذاً:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

يقول ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية 269)

فضل العالم على العابد:

فإذا عبدَ إنسانٌ اللهَ من غير معرفة قد ينجو، ولكن لا يؤتى خيراً كثيراً، وأنت إذا عرفت الحكمة، ودعوت إلى الله وفق الحكمة فلا يستجيب الناس لك إذا قلت لهم: افعلوا كذا وكذا، أما إذا آتاك الله علماً وحكمة، وبيّنت للناس أوامر الله عزّ وجل والحكمة منها، ونواهيه والحكمة منها، وبيّنت لهم طريق الحق، والوسائل المعينة على هذا الطريق، إذا آتاك الله علماً وحكمة، وهديت الناس، عندئذٍ يأتيك الخيرُ الكثير..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة)

قد تكون عابداً، فخيرك محدود، نعم خيرك محصور محدود، لا تستطيع إلا أن تنفع نفسك كعابد، أما كعالم فلك أن تنفع الناس جميعاً، ولك أن تُحْيي الناس جميعاً..

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنّمَا أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً)

(سورة المائدة: الآية 32)

ثمة فرقٌ كبير بين أن تكون عابداً وأن تكون عالماً:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[الترمذي]

فالطُّموح يجب أن يكون للحكمة، ربنا عزّ وجل يقول:

(خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة: الآية 63)

من حكمة.

فإذا أردت أن تعلِّم الناس، فإذا بيّنت لهم مثلاً أن إطلاق البصر للحرام سوف يكلِّف صاحبه ثمناً باهظاً، فليكن بيانك بمثلٍ من واقع الناس وبحكمة.

هذا ما يفعله الجهل والطيش:

وإليكم هذه الواقعة، فأنا أعرف صديقاً لي، وله جار يسكن في بعض أحياء دمشق، وكان لهذا الجار أولادٌ شباب وشابّات، وقد زوّج بعض بناته الشابات، له هواية لا ينفّكُ عنها طوال سنين، أن يتجوّل في بعض شوارع المدينة المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات في أيام الصيف، لا يفعل شيئاً إلا أنه ينظر، مهما كان البردُ شديداً، أو الحر شديداً فهذا الطريق يمشي فيه ذهاباً وإياباً كل يوم، ولا يفعل شيئاً، نصحه أصدقاؤه فلم يستجب، إلى أن أُصيب بمرضٍ اسمه ارتخاء الجفون، وهو لم يمت بعد، ولا يستطيع الآن أن يرى إنساناً إلا إذا أمسك جفنيه بيديه، ورفعهما، فكثيراً ما يكون الجزاء من جنس العمل، قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى: من الآية 40)

فإذا أقنعت الإنسان أن إطلاق البصر يسبب شقاء زوجياً، وأحياناً يسبب انزلاقاً نحو الزنا، لأن الزنا مبدؤه من النظر، وإذا أقنعته أن من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، إذا أقنعت الناس بالدخل الحلال، وبيّنت أن الدخل الحرام لابدّ من أن يدمّر، من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله، إذا بيّنت لهم الحكمة استجابوا لك، إذاً:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية 269)

إذاً فأنت بين المنزلتين: إما أن تكون عابداً، وإما أن تكون عالماً، وشتّان بين الوظيفتين، العابد خيرُه لنفسه، العابد يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، ويعمل بمقتضى أوامر اللهُ عزّ وجل، ولكنه لا يستطيع أن يُقنع أحداً بأحقية الإسلام، هذا خيره محدود، وأما العالم فعلمه يحقق الخير الكثير له وللناس..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

إذاً:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

هذه ليست له وحده، يا عبادي، كلّكم عندي سواسية..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الحكم والعلم جزاء للإحسان:

هذا الحكم، وهذا العلم كانا جزاء إحسانه، وأيٌّ واحدٌ منكم إذا أحسن فسوف أُعطيه الحكم والعلمَ، وهذه قاعدة ربانيّة، ويوضّح هذا عندما دخل سيدنا يونس في بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمان وفي كل مكان، هذه التعقيبات تقلب القِصص إلى قوانين، التعقيبات تقلب القصة التي وقعت، وانتهت إلى قانون مستمر، ما أروع هذه التعقيبات..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

أثر الإخلاص في إتيان العلم والحكمة:

ورد في بعض الأقوال: **" أنه من أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجراها الله على لسانه "**، أي أن الإنسان إذا أخلص لله، وإذا أطاعه طاعة تامة، فهو يحتار، وهو يعجب من نفسه كيف أصبح طليق اللسان، يشعر وهو يتكلّم كأن سيلاً من المعلومات قد تدفّقت عليه، لا يدري ماذا يختار منها، وأحياناً الإنسان العاصي الغارق في شهواته لا يستطيع أن يتكلّم كلمة، فمن أخلص لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجراها الله على لسانه، بعضهم يظن هذا حديثاً صحيحاً، وهو حديث مشكوك في أمره، أي أنه ضعيف، فأنا أشرت إلى أنه قول من الأقوال..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

حذفُ معمول الإحسان يدل على إطلاق الإحسان:

الإحسان مطلق، وأنا أُؤَكِّدُ لكم أن كلّ إنسان بفطرته يعرف ما هو الإحسان، كل واحد يعرف من دون تعليم، لك أن تُحْسِن، ولك أن تسيء، لك أن تسخر، إذا سخرت من إنسان وأنت أقوى منه حَجّمْته، وشعر بالخزي، وشعر بالألم، ولك أن تثني عليه، لك أن تفضح، ولك أن تستر، لك أن تَمُنّ بعطائك، ولك أن تسكت، لك أن تستعلي، ولك أن تتواضع، لك أن توفِّق، ولك أن تفرّق، لك أن تغتاب، فالغيبة تتوافق مع شهوة النفس، ولك أن تسكت، فأوصيك أن تفعل المحامد، وأن تحسن النية والعمل..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الإحسان إلى الحيوان:

النبي الكريم رأى رجلاً يذبح شاةً على مرأى من أختها، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال:

((أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلا حجبتها عن أختها))

[ورد في الأثر]

إذاً حتى عند ذبح الشاة فهناك إحسان.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ))

وكيف يكون الذبح حسناً ؟ قال:

((وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

إذاً تعذيب الحيوان إساءة، أحياناً يدوس الإنسان نباتاً يسبح الله عزّ وجل، زهرة صغيرة يدوسها، لماذا فعلت هكذا ؟ أنت لست محسناً، أحياناً يُطعم حيواناً جائعاً، وهذا الحيوان قد يكون غير نافع، قد يكون أحياناً كلباً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[متفق عليه]

كلمة (إحسان) هذه كلمة شاملة. هناك آية تقول:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

إنّ اللهَ مَع المُحسنينَ

فهو مع المحسنين دائماً، الله يتولى الصالحين، يوجد إحسان في القول، وإحسان بالعمل، وإحسان بالسكوت، وإحسان مع الجار، مع الأخ، مع القريب، مع الصاحب، مع الابن، مع الزوجة، مع العدو، مع الحيوان، مع النبات..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

لا يجتمع في القلب إيمان وإساءة:

أيها الإخوة الأكارم... المؤمن محسن، لا يجتمع الإيمان مع الإساءة، فإنسان مؤذٍ والناس يخشون أذاه، فهذا مستحيل أن يكون مؤمناً، المؤمن مصدر أمن، مصدر سلام، مصدر إحسان، مصدر رخاء للناس، كتلة خير، خير متنقِل، الكافر يحب الأذى، والناس رجلان: بَرٌ تقيٌ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌ هينٌ على الله عزّ وجل، فلا يوجد حل ثانٍ، إما أن تكون محسناً، وإما أن تكون مسيئاً في عملك، في بيتك، في كل حركاتك وسكناتك.

فصلٌ جديد من قصة موسى:

1 ـ دخول موسى المدينة في وقت القيلولة:

الآن نحن على عتبة مرحلةٍ جديدةٍ من القصة:

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

(القصص: الآية 15)

المدينة هي العاصمة، وفي بعض الكتب أنها مدينة عين شمس الآن، وهي في مصر، واسمها عين شمس، وكانت هي العاصمة على عهد فرعون..

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

أي في وقت القيلولة، في وقت النوم..

2 ـ موسى وحادثة الرجلين المقتتلين:

(فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ)

إسرائيلي..

(وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)

من أتباع فرعون..

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ)

3 ـ تدخُّل موسى لفضّ النزاع:

معنى وكزه أي: ضربه بجمع يده..

(فوَكَزَهُ مُوسَى فقضَى عَلَيْهِ)

4 ـ وفاة الرجل الفرعوني بوكزة موسى:

فوقع ميتاً، أعوذ بالله ! لم يُرِدْ موسى أن يقتله، إن الله تعالى لم يقل: فقتله، لا، لو قال: فقتله، أيْ أنه أراد قتله.

(فوَكَزَهُ مُوسَى فقضَى عَلَيْهِ)

بل قال:

(فقضَى عَلَيْهِ)

(فوَكَزَهُ مُوسَى فقضَى عَلَيْهِ قالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشّيْطَانِ إنّهُ عَدُوٌ مُضِلٌ مُبينٌ)

وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتابع هذه القصّة بَدْءاً من قوله تعالى:

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غفْلَةٍ مِنْ أهْلِهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 14 - 28

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-05-25

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالآيات السابقة:

1 – نقلة زمنية في قصة موسى:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة القصص، وقد انتهينا في الدرس الماضي من الحلقة الأولى من حلقات هذه القصة، والآيات التي بعدها تنتقل فجأةً، وتخطو خطوةً واسعة فتغفل العمر الذي نشأ فيه سيدنا موسى.

2 – رجوع موسى إلى أمه:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

كان موسى رضيعاً.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)

(القصص: من الآية 14)

3 – بلوغ موسى الأشدّ وإتيانه حكما وعلما:

أشده من حيث البُنية الجسمية، والاستواء من حيث النضج العقليّ، وقال المفسرون: **" هو سن الثلاثين"**، وقال بعضهم: **"سن الأربعين ".**

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(القصص)

4 – خروج موسى من القصر:

إذاً: كان في نشأته محسناً، هكذا وصفه الله عزّ وجل، يا تُرى هل بقي عند فرعون ؟ هل استطاع هذا النبي العظيم أن يحتمل ما في قصر فرعون من ادعاءٍ بالكفر والألوهيّة والظلم ؟

هناك استنباطاتٌ دقيقة تشير إلى أن سيدنا موسى لم يحتمل أن يبقى في قصر فرعون، بل خرج من قصره، وفي الآيات التالية إشاراتٌ دقيقةٌ إلى أنه خرج من قصر فرعون.

على كلٍ، نحن الآن في القصّة أمام فجوة، وهذه الفجوة يسميها كُتّاب القصة: **" الفجوة الفنية "**، لأن الأحداث في القصة لا تُذكر إلا إذا كانت في خدمة مغزى القصة، فإذا كانت الأحداث عبئاً على القصة من حيث البلاغة، ومن حيث عمل الفن القصصي فلابدّ أن تُغْفَل، لذلك ربنا سبحانه وتعالى بعد أن ردّه إلى أمه قال:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى)

وحينما بلغ أشدّه واستوى..

(آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

5 – قانون عام: وَكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

وهذا التعليق ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ قلَب القصة إلى قانون، بل قلبها إلى سنةٍ من سنن الله الثابتة، فالمحسن له عند الله مكافأةٌ عظيمة، من هذه المكافأة أن يعلِّمه العلم، ويؤتيه الحُكم.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ)

(القصص)

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا

1 – دخول موسى المدينة على حين غفلة من أهلها:

لم يقل اللهُ عزّ وجل: ودخل المدينة في غفلةٍ من أهلها، المقصود أن يدخلها على حين غفلةٍ من أهلها، لأنه يبدو أنه خرج من قصر فرعون، لأنه لم يحتمل ما يجري في هذا القصر، يبدو أنه خاطَبَهُ، وناقشه، يبدو أنه أُبعد، إذاً لم يستطع أن يدخل المدينة.

2 – ما هي المدينة المقصودة في الآية ؟

المدينة هي العاصمة، قالوا: مصر، وقالوا: عين شمس، أي عاصمة فرعون، لم يستطع أن يدخل المدينة إلا على حين غفلةٍ من أهلها، في وقت القيلولة، والناس كلهم نيام، أو أكثرهم نيام.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ)

3 – سكان مصر من بني إسرائيل كانوا من سلالة يوسف:

قلت لكم في درسٍ سابق: إن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما استقدم أهله من الشام، من فلسطين، وأقام في مصر، فبنو إسرائيل توالدوا في مصر، وبلغوا أعداداً كبيرة، إلا أنَّهُم كانوا جميعاً يدينون بدين أبيهم إبراهيم، بينما فرعون كان يدّعي الألوهية، وأتباعه معه يقبلون ذلك، إذاً هناك تناقضٌ بين بني إسرائيل في عقيدتهم الربّانية، وبين فرعون وقومه في عقيدتهم الوثنية، هذا التناقض جعلهم مستضعفين في الأرض.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)

حادثة قتل موسى للرجل الفرعوني انتصارا للإسرائيلي: دروس وعبر:

من شيعته أي: أنه إسرائيلي، ومن عدوه أي: أنه قبْطي، وقد قال بعض المفسرين: **" إنه يعمل في قصر فرعون "**، بل إنهّ طبّاخ فرعون، وبعضهم قال: **" نجارٌ في قصر فرعون أو خباز "**.

(هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

1 – موقف الإنسان من الظالم والمظلوم:

فإذا وجد الإنسان ظالماً ومظلوماً فله موقفان: الموقف الأسهل أن يبتعد عنهما، ويقول: لا شأن لي بذلك، والموقف الأصعب والأقرب إلى الحق أن تكون مع المظلوم ضدّ الظالم، إذاً: هذه بطولة من هذا النبي الكريم، بإمكانه أن يبتعد، بإمكانه ألا يستجيب، بإمكانه أن يقول: ما شأني بهما ؟ ولكنّهُ أراد أن يحقّ الحق، وأراد أن يعين المظلوم، وأراد أن يأخذ على يدي الظالم، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ـ تعجّب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ـ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ مظلوماً أمر واضح ـ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

[صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِي الله عَنْه]

2 – طباع الأنبياء لا تخرج عن طباع البشر، لكن في الحق فقط:

فسيدنا موسى أمام رجلين، واحدٍ من شيعته يبدو أنه مستضعف، وقيل: إن هذا القِبْطيّ يريد أن يكلفه عملاً شاقاً بلا مقابل.

(فاسْتَغَاثَهُ الّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الّذِي مِنْ عَدُوّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى)

سيدنا موسى له طبعه، كان حادّ الطبع،

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)

(الأعراف: من الآية 150)

وهذا في سورة أُخرى، كان حاد الطبع، كان شديد الغضب للحق، طبعاً المؤمن إذا غضبَ غضِبَ للحق، والنبي عليه الصلاة والسلام لا تغضبه الدنيا، إلا أنه كان يغضب لله عزّ وجل، والمؤمن لا يغضب لأجل الدنيا، ولكن إذا رأى أن حرمات الله قد انتهكَت فإنه يغضب، وهذا الغضب المقدس، والذي لا يغضب لله ليس مؤمناً، بل إنّ من كمال الإيمان أن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تُعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله.

(فاسْتَغَاثَهُ الّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الّذِي مِنْ عَدُوّهِ)

3 – من مظاهر تخلُّف المسلمين نكوصهم عن نصرة المظلوم:

إن من مظاهر تخلُّف المسلمين نكوصهم عن نصرة المظلوم، فلو فرضنا أنه كان في مركبة عامة إنسان معتدٍ، وإنسان معتدًى عليه، لا أحد يتكلم، ولا أحد ينبس ببنت شفة، ولو أن الناس نصروا الحق لرضي الله عنهم، وبعض الناس يقول: ما لي ولهذا الأمر ؟ من ترك الفُرَجْ نال الفَرَج، هكذا يقولون، لكن سيدنا موسى وقف الموقف المشرف.

(فاسْتَغَاثَهُ الّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الّذِي مِنْ عَدُوّهِ)

لكن الإنسان ليس مكلفاً أن يلقي بيديه إلى التَهْلُكة، أما إذا كان بإمكانه أن ينصر الحق فليفعل، فإن الله سبحانه وتعالى يحبه، بل إن:

((عَدْلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستين عاماً))

(الترغيب والترهيب عن أبي هريرة بسند ضعيف)

4 – الأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ذلك هو الحد الأدنى، فأحياناً يجري حادث، حادث سير مثلاً، يُدعى أُناسٌ للشهادة بما رأوا فيرفضون، مع العلم أن الإنسان الذي ينسحب من المجتمع لا يقدِّم شيئاً، بلى إنه يضنُّ بالشهادة، يضن أن يشهد بما رأى، فإذا شهد بما رأى أحقّ حقاً، وأبطل باطلاً، قد لا يفعل، وهذا الإنسان الذي لا يفعل شيئاً لا يقدِّم خدمة، لا يُدْلي برأيٍ، لا يشهد بما رأى، فهذا إنسان انسحب من المجتمع، والأفضل أن تخالط الناس، وأن تصبر على أذاهم، وهذا أفضل ألف مرة من ألا تخالطهم، وألا تصبر على أذاهم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تُصِب أهله فأنت أهله))

(الجامع الصغير بسند ضعيف)

لا يُزَهِّدنَّك في فعل المعروف ألاّ يقدِّر الناس هذا المعروف، سيدنا عمر رضي الله عنه حينما سأل عن معركة القادسية قال رسولٌ جاء منها قال: **" يا أمير المؤمنين، مات خلقٌ كثير، فقال: من هم ؟ اذكرْ لي أسماءهم، قال: إنّك لا تعرفهم، فبكى عمر بكاءً شديداً، وقال: وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ ".**

ومن أنا ؟؟

((اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تُصِب أهله فأنت أهله))

سيدنا موسى وقف الموقف الصعب، وقف الموقف الذي له ثمن، وقد يكون الثمنُ باهظاً، وقد يكون الثمن أنه خرج من المدينة خائفاً، وهذا الذي حصل، وقد كان الثمن أنه قد أُهدِر دمه.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

5 – قوة موسى الجسمية:

سيدنا موسى لم يُرد قتله، لكنه كان قوي البنية، آتاه الله بُنية قوية، وآتاه نفساً حادةً، كان يغضب لله، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(صحيح مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ)

والقوي.. لم يقل الغني، فالغنى قوّة، والقوة العضلية قوة، والعلم قوة، والشهادة العُليا قوة، والمركز الحساس قوة:

((الْمُؤْمِنُ الْقوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

فكلما ازدادت قوّتك اتسعت رقعة عملك الصالح.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى)

فَوَكَزَهُ مُوسَى

1 – معنى الوكز:

معنى وكزه أي: ضربه بمجمع يده على صدره.. وشاءت القدرة الإلهية أن تكون هذه الضربة هي القاضية، لم يقل: فقتله، لأنه ما أراد قتله، لكن فقضى عليه، أي: وقع ميّتاً، قال تعالى:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

2 – قتلُ الخطأ:

هذا اسمه القتل الخطأ، لأنه ليس هناك نيةٌ في القتل إطلاقاً، أراد أن يبعده عنه، أراد أن يدفعه عنه، فكانت هذه الضربة قاضية.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

هَذَا مِن عمل الشّيْطان

1 ـ معنى: هَذَا مِن عمل الشّيْطان:

فالأكمل والأرجح أن نفسّر هذه الآية بأن هذا الذي اعتدى، ولقي من هذا النبي الكريم هذه الضربة، هذا من عمل الشيطان، أي: أنه سار مع الشيطان، فخاصم هذا المستضعف، فاستحقّ هذا الجزاء، هذه الآية تُقاس عليها مشاهد كثيرة، إذا رأيت إنساناً قد أُعدم شنقاً لجريمةٍ ارتكبها، أو لسرقةٍ سطا فيها، فانتهت به هذه السرقة إلى القتل فأُعدم، فإن هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي أسْرَف في شهواته، فأصيب

بالمرض العضال فقل: هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي سرق فقُطعت يده هذا من عمل الشيطان، وهذا الذي شَرِبَ الخمرة، فضاع صوابه فقتل أحبَّ الناس إليه، هذا من عمل الشيطان.

2 ـ كل مشكلة ومصيبةٍ بسبب معصية الله تعالى:

ما من مشكلةٍ أو مأساةٍ أو مصيبةٍ تقع في الأرض إلا بسبب معصيةٍ لله عزّ وجل، وما من معصية لله عزّ وجل إلا بسبب جهلٍ، وسببٍ آخر هو وسوسة شيطانٍ، فسيدنا موسى قال: هذا من عمل الشيطان، وكل واحد منا إن رأى إنساناً يدفع الثمن باهظاً لخطيئته، لجريمته، لانحرافه، لمعصيته، لاختلاس أموال الناس بالباطل فلك أن تقول قياساً على قول هذا النبي الكريم:

(هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

الله عزّ وجل قبل أن يأتي بآدم عليه السلام إلى الأرض لقّن ذرّيته من بعده درساً لا ينسى.

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61))

أنت إما أن تكون عبداً لله، وإما أن يكون الإنسان عبداً للشيطان، إن لم تكن عبداً لله فلابدّ من أن تكون عبداً لجهةٍ أخرى، وليست العبودية إلا لله، وما سوى الله فهو الشرك.

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ)

إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

1 ـ الجهل من أعدى أعداء الإنسان:

لكن لا تنسوا أيها الإخوة أن الجهل أعدى أعداء الإنسان، بل إن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع عدوٌّه أن يفعله به، **"إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ".**

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ)

(سورة البقرة: آية "268)

2 – الشيطان عدو الإنسان:

الشيطان يقول على الله ما لا تعلمون، يوسوس، الشيطان يقول حينما يقع الإنسان، ويدفع الثمن باهظاً: إني أخاف الله رب العالمين.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي)

(سورة القصص: آية: " 16)

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

أي أوقعتها في مشكلة، أوقعتها في تهمة القتل، أوقعتها في الملاحقة:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

الله سبحانه وتعالى ربّ النيات، فهو يعلمها، ولا تخفى عليه مع أنها نيات.

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم أن هذا النبي ما أقْدَمَ على وَكَزِ هذا القبطي إلا انتصاراً للحق، وإلا دفعاً للباطل، وإلا نصرةً لهذا المظلوم، يعلمُ النيّة، وإن كان عمله قد انتهى بقتل هذا القبطي، ثم قال:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)

(القصص)

عدم إعانة الظالم: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

1 – معنى: ظهيرًا:

معنى ظهيراً: أي: معيناً، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة المائدة)

2 – تحريمُ إعانة الظالم:

إذا قدمت قلماً لإنسانٍ ظالم ليوقِع به فقد شاركته في الإثم، إذا هززت برأسك، وقلت له: نعم افعل، يستحق ذلك فقد شاركته في الإثم.

((من أعان ليدحضَ بباطله حقًا فقد برئت منه ذمة الله و ذمّة رسولِه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند حسن]

((من أعان ظالماً سلّطه الله عليه))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود بسند موضوع]

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من الآية 2)

أي: أنك إذا قدمت بيتاً ليُفعل فيه الفاحشة تحت غطاء أجرة فهذه معاونة، إذا قدمت بناءً ليكون مكاناً لمعصية فهذا تعاون على الإثم والعدوان، لا تُعِنْ أحداً على معصية الله، لا بلسانك، ولا بيدك، ولا بمالك.

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)

(القصص)

هذا هو المؤمن، هذا حال المؤمن.

3 – الخوف شيءٌ مِن جبلّة الإنسان:

لكن حينما وقع هذا القبطي ميتاً إثر وكزةٍ من سيدنا موسى أصبح في المدينة خائفاً، هنا في هذا الآية إشارة إلى أن الخوف شيءٌ من جِبلّة الإنسان، ولا علاقة له بالإيمان، وموسى عليه الصلاة والسلام نبيٌّ عظيم من أُولي العزم، ومع ذلك خرج خائفاً، الخوف يخلقه الله عزّ وجل، والأمن يخلقه الله عزّ وجل، لكن في الأصل في بعض الآيات ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

4 – قد يخاف المؤمن:

الأصل أن المؤمن يُنْعِمُ الله عليه بنعمة الأمن، ولكن هذا لا يعني أن المؤمن لا يخاف، قد يخاف، لأن الله عزّ وجل يريد أن يمتحنه.

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

الأصل أن المؤمن لا يخاف إلا من الله عزّ وجل، الأصل كذلك أن المؤمن لأنه لا يقع في الظلم فلا يخاف، ولكن هذا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى لن يبتليه بشيءٍ من الخوف، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنَبْلُوَنّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثّمَرَاتِ وَبَشّرِ الصّابِرِين)

(سورة البقرة)

فالخوف أحياناً علاج للنفس، والخوف أحياناً يلجئُ الإنسان إلى طاعة الله، الخوف قد يلجئُ إلى باب الله عزّ وجل، إلى مزيدٍ من طاعته، على كلٍ، لا يُعَدُّ الخوف نقصاً في إيمان الإنسان، لأن هذا النبي الكريم من أولي العزم.

الآن ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقّبُ)

(القصص)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقّبُ

الخوف بين العقاب والتربية:

لكن هذا الخوف أراده الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، أي: أن هناك خوف تَرْقية، كما أن هناك خوف عقابٍ، قال ربنا عزّ وجل:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران: آية 151)

فالرعب أحياناً عقاب، وأما الخوف إذا أصاب الصالحين، وأصاب المؤمنين، وأصاب الأنبياء المرسلين فهو خوف ترقية، إما أن يكون عقاباً، وإما أن يكون ترقية، على كلٍ..

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

من طبيعته الخوف أن يدفع المؤمن إلى باب الله عزّ وجل.

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقّبُ)

يترقب أن يُلقى القبض عليه، يترقب أن يُفضَح أمره، يترقب أن تكشف،هذه المشكلة التي حصلت.

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)

مفاجأة من غير ميعاد: فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

هو نفسه هذا الإسرائيلي.

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)

سيدنا موسى استنبط أن هذا الرجل البارحة اعتدى عليه القبطي فنصره، واليوم يعتدي عليه قبطيٌ آخر، لعلّه قد انحرف عن الطريق الصحيح حتى استحقّ أن يُسَلِّطَ الله عليه هذا وذاك:

(قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

فما كان جوابُ موسى إلاّ أنْ قالَ له: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ

قلنا: مرة واحدة، وهذه مرة ثانية !! لأن الظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

فعندما يقع تسليطٌ مستمرٌ يكون كما قيل: **إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني "**، هناك تسليط، أمّا المؤمنون..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة: آية 5)

أي: يا رب، نسألك ألا نقع في ذنب نستحق معه أن يُفْتَنَ بنا الذين كفروا، فيظلموننا، أي: أن سيدنا موسى استنبط من العدوان المستمر أن هذا الذي من شيعته غويٌّ مبين.. قال له موسى:

(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

فقال هذا القبطي:

(يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ)

من استنباطات الآية:

1 – انكشافُ أمر موسى في قتله القبطي:

صاح بأعلى صوته، كيف عرف هذا القبطي أن موسى قد قتل قتيلاً البارحة ؟ قال بعض المفسرين: " **إن هذا الذي من شيعة سيدنا موسى حينما استنصر سيدنا موسى فقتل هذا القبطي، فامتلأ قلبه فرحاً، وربما أشاع ذلك بين إخوةٍ له، بين أقارب له، هذا الخبر سرى، فلما رأى القبطي سيدنا موسى مقبلاً عليه تذكّر ما قد روي البارحة فقال:**

(قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ َفساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلّا أَنْ تَكُونَ جَبّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

2 – موسى عليه السلام معروف بالصلاح:

كذلك هناك استنباط آخر، هو أن سيدنا موسى هذا النبي العظيم قد عُرف بالصلاح، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ َأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية 1)

أي: أصلح بيننا، لماذا تريد أن تقتلني ؟ وكلمة

(جَبّاراً فِي الأَرْضِ)

لا تعني أنه جبّار، سيدنا موسى أراد أن ينتصر للحق، ولكن هذا القبطي خاف القتل والموت، فوصَمَ هذا النبي العظيم بأنه جبّار، وهذا ليس صحيحاً، على كلٍ امتنع سيدنا موسى عن قتل القبطي، وسار في حال سبيله كما يقولون، وشاع الخير بعد أن قال القبطي بأعلى صوته:

(قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلّا أَنْ تَكُونَ جَبّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)

كان الخبر يُتناقل همساً، فإذا به صار خبراً عياناً، وصار حديثاً يُروى في أطراف المدينة، إذاً لابدّ من أن يلقى القبض على سيدنا موسى ليحاسَب.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)

(القصص: آية 20)

بداية قصة فرار موسى من مصرَ:

نصيحةُ رجل لموسى بالخروج من مصر:

هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، وقيل: إنه ابن عم فرعون، ويبدو أنه يعرف هذا النبي العظيم، ولم يكن بعدُ قد أُرسل.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ)

أي: أن هناك تبييتٌ لقتلك.

(فَاخْرُجْ إِنّي لَكَ مِنَ النّاصِحِينَ)

أي: أصبح سيدنا موسى مهدورَ الدم، وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حينما عاد من الطائف هُدِرَ دمه، فأرسل سيدنا زيداً إلى فلان وفلان وفُلان في مكة ليدخل في حمايتهم، فرفضوا جميعاً إلا واحداً، لم يرض أحدٌ غيره، وهو المُطْعِمُ بن عديّ قبل أن يدخل النبي في حمايته، والنبي كان وفياً له أشدّ الوفاء، وقد بقي مشركاً، حينما استعرض أسرى بدرٍ قال:

((لَوْ كَانَ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمّ كَلّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النّتْنَى لأَطْلَقْتُهُمْ لَهُ))

(أبو داود عن جبير بن مطعم)

إكراماً له. سيدنا موسى الآن مهدور دمه.

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقّبُ قَالَ رَبّ نَجّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

أي: يبدو أنه قد عاين من ظلمهم الشيء الكثير.

توجُّهُ موسى إلى مدين:

الآن:

(وَلَمّا تَوَجّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ)

(القصص: آية 22)

1 ـ من مصر إلى مدين عبر الصحاري والوديان:

تصوروا الآن مدين في شمال الجزيرة العربية، وسيدنا موسى الآن في مصر على ضفاف النيل، وسوف يمشي على قدميه، وقد سألت أحد أصدقائي الجُغْرافيين فقال: المسافة تزيد على ألفين وخمسمئة كيلو متر، من نهر النيل إلى خليج السويس، لا يستطيع أن يمشي في عمق الصحراء، لأن الصحراء

مهلكة، فلابدّ من أن يمشي مُساحلاً، لابدّ من أن يسير على طرف خليج السويس، وأن يصعد على طرف خليج العقبة ليصل إلى شمال الجزيرة العربية، حيث لا سلطان لفرعون على هذه البلاد، إذاً أمامه مهمة صعبة، يمشي في الليالي، وفي الصحارى لا طعام ولا شراب..

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: آية 216)

2 ـ اللهُ خيرٌ حافظًا:

أي: أن أحدنا إذا لاقى في حياته صعوبة، لاقى مشقة، لاقى عَنَتاً، لاقى بعداً عن أهله، وسفراً صعباً، وعانى من دخلٍ قليل، ومرضٍ وبيل، هذا شاءه الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة، إذا كنت مستقيماً على أمر الله فلا تخشَ أحداً، لأنّ الله معك، ولابدّ من أن تنكشفَ لك في المستقبل القريب الحكمة البالغة من ذلك.

(وَلَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)

(القصص: آية 23)

وصولُ موسى إلى مدين:

وصل إلى مديَن، وصل منهك القِوى، جائعاً، عارياً، مُتْعباً، مُجْهداً، خائفاً، قلقاً، في أعلى درجات التعب.

(وَلَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُونَ)

(القصص: آية 23)

1 – ورودُه ماء مدينَ:

يبدو أن هناك بئراً، والناس يسقون أغنامهم من هذه البئر، والبئر تُؤنَّث وتُذكَّر..

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)

(القصص)

2 – امرأتان تذودان:

امرأتان واقفتان بعيداً عن هؤلاء الرجال الرعاة، تذودان أغنامهما عن أن تختلط بأغنام الرعاة.

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)

3 – المروءة والعفة: مَا خَطْبُكُمَا ؟

سيدنا موسى في أعلى درجات المروءة، في أعلى درجات الشهامة، في أعلى درجات حبِّ الخير، وهو في هذه الحالة من التعب والقلق، والخوف والجوع والعطش كَبُرَ عليه أن تقف امرأتان تذودان أغنامهما، تنتظران أن يرحل القومُ لتسقيا أغنامهما:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(القصص)

وليس في اللغة كلِها كلمةٌ أشد اختصاراً، وأعظم أدباً، و أشد إيجازاً للقيل والقال من هذه الكلمة:

(مَا خَطْبُكُمَ)

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(القصص)

4 – أقوال العلماء في البنتين:

العلماء ليسوا على يقينٍ من أن هاتين البنتين ابنتا سيدنا شُعَيْب، بعضهم قال: **" هو قريبٌ لسيدنا شعيب"**، وبعضهم قال: **" هو سيدنا شعيب "**، لأنه إذا كان نبياً، وله أصحابه أيعقل أن يَدَع ابنتيه ترعيان الغنم ؟ هذا استنباط، ليس في القرآن ما يُؤَكِّدُ أن هاتين البنتين ابنتا سيدنا شعيب، وإن كان بعض العلماء يقول: إنهما ابنتا سيدنا شعيب، على كلٍ:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(القصص)

من أحكام النساء:

يستنبط من هذا:

أن المرأة لا يصحُ أن تُخَالط الرجال، ولا أن تزاحمهم، بل عليها أن تقف بعيداً عنهم.

وعليها أيضاً ألا تخرج من بيتها لقضاء حوائج المنزل، إذا كان أبوها أو أخوها، أو زوجها رجلاً قوياً قادراً على كفايتها، أما إذا كان مريضاً فلها العُذر.

(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

فهنا تعليل..

(لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

نحن لا نُزاحم الرجال أولاً، وثانياً: ما كنا لنخرج إلى هذا المكان لو أن أبانا شابٌ قوي، ولكنّ أبانا شيخٌ كبير، هذه هي العلة، فلو أنّ امرأة مات زوجها، وأولادها صغار، واضطرت إلى أن تخرج من بيتها لشراء حوائجها فمعها العذر الكافي، ولكنّ امرأةً لها زوجٌ في البيت، وتخرج هي لتشتري اللحم والفاكهة والحاجات، وزوجها أو أخوها أو ابنها في البيت، فهذا ليس من أخلاق المسلمين.

(فَسَقَى لَهُمَا)

(القصص: آية 24)

رحمةُ موسى بالبنتين:

قال بعض المفسرين: **"إنه كان قويّ البُنية، شديد الهيبة، حينما أقبل على الرعاة فسحوا له المجال، وسقى لهاتين البنتين غنمهما ".**

(ثُمّ تَوَلّى إِلَى الظِّلّ)

ليستريح، ومعنى تولّى إلى الظل، كان الوقت حاراً، وكان الوقت ظُهراً.

(فَقَالَ رَبِّ إِنّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(القصص)

العبدُ فقير، والله هو الغني:

أيها الأخ الكريم، خُلِقْتَ أنت في الدنيا للعمل الصالح، فالغنى هو غنى العمل الصالح، والفقر هو فقر العمل الصالح، والفقير الحقيقي من ليس له عملٌ صالح يلقى الله به، والغني الحقيقي من كان له عملٌ صالحٌ يُبَيّضُ وجهه يوم القيامة، هذا هو الغِنى، وذاك هو الفقر، وسيدنا علي يقول: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

فسيدنا موسى فقير، لكن لماذا ؟ لمثل هذه الأعمال، والمؤمن الصادق إذا مضى عليه يومٌ من دون عملٌ صالح، من دون أمرٍ بالمعروف، من دون نهيٍ عن مُنكر، من دون إصلاح ذات البين، من دون أن يشفع في نزاع، من دون أن يوفِّق بين أمٍ وابنها، بين أخ وأخيه، من دون أن يعين مظلوماً، من دون أن يعين فقيراً، من دون أن يطعم جائعاً، من دون أن يكسوَ عارياً، إذا مضى عليه يومٌ من دون عملٌ صالح يعدُّه خسارةً في حياته.

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمّ تَوَلّى إِلَى الظِّلّ فَقَالَ رَبِّ إِنّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

ويأتي الفرَج من حيث لا يُشعَرُ به:

اهتمام البنتين بموسى عليه السلام لقوته وأمانته:

هاتان البنتان رأتا في سيدنا موسى قوةً وأمانة، القوة واضحة، فعندما توجّه أمام الرُعيان فسحوا له المجال، رأوه رجلاً شديداً قوياً، طويل القامة، عريضَ المِنْكبين، وتبدو أنه اكتملت عنده جميع صفات الرجولة والمروءة، والبنت عندها حاسة سادسة بالغة الحساسية في معرفة ما إذا كانت نظرات هذا الإنسان خبيثة أم بريئة، إن غضه لبصره وعفّته الكاملة رفعته في أعينهما إلى مرتبة الأمانة، لذلك:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(القصص: آية 25)

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشي عَلَى استحيَاء:

1 – المرة كلها في حيائها:

ما الذي يلْفِتُ نظر الرجل في المرأة ؟ حياؤها، ومن علامات قيام الساعة أن الحياء يُرفع من وجوه النساء، امرأةٌ وقحة تحدُّ النظر إلى الرجال، تمزح معهم.

2 – ويلٌ للديوث من النار:

وتُرفع النخوة من رؤوس الرجال، زوجته على الشرفة بلباسٍ متبذِل، وهو لا يتكلّم كلمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدا: الدّيّوث، و الرّجُلَة من النساء، ومدمن الخمر، قالوا: يا رسول الله، أما مدمن الخمر فقد عرفناه، فما الدّيّوث ؟ قال: الذي لا يبالي من دخل على أهله، قلنا: فما الرّجُلَة من النساء ؟ قال: التي تشبه بالرجال))

(رواه الطبراني)

هذا هو الديُوث.

3 – من علامات الساعة رفع النخوة من رؤوس الرجال:

من علامات قيام الساعة أن تُرفع النخوة من رؤوس الرجال، فتجده يمشي مع زوجته متباهياً بها، أي أنها جميلة وقد أحسن انتقاءها، انظروا إلى انتقائي، يتمنّى أن تكون معه في أبهى زينة، يتمنى تجلس مع أصدقائه، يتمنى أن يكون اختلاط، هذا في بنص قول النبي ديوث، ولا يروح رائحة الجنة.

إذاً من علامات قيام الساعة، أن ترفع النخوة من رؤوس الرجال، وأن يذهب الحياء من وجوه النساء، نساءٌ وقحات، وأن تذهب الرحمة من قلوب الأمراء، لا رحمة في قلب الأمير، ولا نخوة في رأس الرجل، ولا حياء في وجه المرأة، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

4 – لعن الله المتشبهات بالرجال:

أجمل ما في المرأة حياؤها، وحينما تفقد حياءها تفقد أنوثتها، وتصبح مسترجلة، فعَن ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قِيلَ لِعَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا إِنَّ امْرَأَةً تَلْبَسُ النَّعْلَ فَقَالَتْ:

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ))

[سنن أبي داود]

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

لعنها، بل لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء.

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

علامة عفة المرأة حياؤها، ما الذي أعجبها فيه ؟ قوّته وأمانته، وعفته.

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

أعظِمْ بهذا الخطاب وأكرمْ: إِنَّ أَبِي يَدعُوك لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا

اسمعوا أيها الإخوة كيف تخاطب المرأة الرجل، في أبلغ قول، بكلام لا زيادة فيه، لا يحتمل جواباً:

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ)

إن أبي يدعوك على طعام الغداء مثلاً، يقول لها: ولماذا الدعوة ؟ تقول له: من أجل كذا وكذا، صار هناك حديث، وأصبح هناك سؤال وجواب، وأخذ وردّ، لا، هذا درس لكل المؤمنات، إذا دخلت امرأةٌ مؤمنة لتشتري حاجة يجب أن تقول القول الفصل من دون زيادة، ومن دون نقصان.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

(سورة الأحزاب: آية 23)

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(القصص: الآية25)

لا حاجة بعد لجواب أبداً، انتهى الأمر، كلامٌ لا جواب له، لا زيادة، ولا تكسّر، ولا استعطاف، ولا لين في الكلام، لا يحقُّ لامرأةٍ أن تكون في كلامها ليّنة إلا مع محارمها، لأن لينَ كلام المرأة يدعو إلى الشكِّ في أخلاقها، تخاطب بائعاً فتقول له: نحن جيرانك ؟ نحن كذا وكذا، هذا هو الفِسْقُ بعينه، إذا اضطرت المرأة أن تُخاطب أجنبياً فيجب أن تخاطبه بأوجزِ كلامٍ، وبأدقّ عبارة، بكلامٍ لا يُشَمُّ منه رائحة إطلاقاً:

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

سيدنا موسى يحتاج إلى أمن، لأنه خائف، والدليل:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

الانتقال من الخوف إلى الأمن:

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أي: أن هذه البلاد لا يطولُها حكْمُ فرعون..

بعضهم ـ سامحهم الله ـ يقولون: إن موسى قتل قتيلاً، لو أنه قتل قتيلاً بالمفهوم المَدَنِيّ، وفرعون يلاحق قاتل القتيل أيُعَدُّ ظالماً ؟ لا، ولكن هناك ظلمٌ شديد.

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

طبعاً هاتان الفتاتان رأتا في سيدنا موسى رجلاً شهماً، قوياً، أميناً، تمنّتا لو أن أباهما استأجره ليكون راعي غنمٍ عندهم.

من تمام العناية الإلهية: يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

(قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ)

(القصص: آية 26)

والله هذا مناسب جداً، لأنا نحن ضعاف، فقد سقى الغنم، وأهاب الناس، وكان عفيفاً، وكان، وكان، وقد يُفهم أن عفّته وأمانته وقعتا في نفس إحداهما موقعاً حسناً.

(قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

من صفات الحاكم والوالي: القوة والأمانة:

مِن استنباطات سيدنا عمر بن الخطاب:

وقد قلت لكم في درسٍ سابق: **" إن سيدنا عمر استنبط من هذه الآية حكماً، فحينما عيّن أحد الولاة قال له: " اذهب إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سَنَتِك، وأنك تصير إلى أربع خلال: فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعْفك، وسلّمَتْك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوّتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجُرْمَين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً قوياً ـ استنباطاً من هذه الآية ـ زدناك في عملك ".**

فكل أخ إذا كان عنده موظّف، إذا كان عنده مَن يعينه في أعماله، وكان قوياً أميناً فهو أثمن من الذهب، أغلى من كل شيء أن يكون معك إنسانٌ قويٌّ أمين، القوة ترمُزُ إلى الكفاءة، والأمانة للإخلاص، ذو كفاءةٍ عالية، وإخلاصٍ شديد، قويٌّ في اختصاصه، أمينٌ في أخلاقه.

(قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

زواج موسى بإحدى البنتين مقابل العمل: استنباطات وعبر:

الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة جعل المرأة ذات حياءٍ شديد، لعلّها تمنّت أن يكون زوجاً لها، ولكن لم تقل: يا أبت زوجني إياه، المرأة أساس بنيتها النفسية الحياء، فعبّرت عن رغبتها بشكلٍ لطيفٍ جداً، ويبدو أن أباها سيدنا شعيب على أرجح الروايات عرفَ ما أرادت، فكان جوابه:

(قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيّ هَاتَيْنِ)

(القصص: آية 27)

1 – جواز عرضِ الرجل ابنتَه للزواج:

وهناك استنباطٌ دقيق، في عصور التأخُّرِ والتخلُّف يرى الناس أنه من العارِ أن يعرضَ الإنسان ابنته على شابٍ توسّم فيه خيراً، لكن هذا شيءٌ طبيعيٌ جداً، فأحياناً ينشأ زواجٌ ميمون، مباركٌ، ويسعَدُ فيه الزوجان لكلمةٍ قالها أحد أولياء الأمور، لذلك من مشى بتزويج رجلٍ بامرأةٍ كان له بكل كلمةٍ قالها، وبكل خُطوةٍ خطاها عبادةُ سنةٍ قام ليلها وصام نهارها:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

وقوله تعالى:

(إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

2– جواز النظر إلى المخطوبة:

لك أن تنظر إلى المخطوبة، من حَقّ الخاطب، انظرْ إليها لماذا ؟ من أجل أن يؤدَمَ بينكما، هل نظرت إليها ؟ من حق الخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، والأب الذي يرفضُ ذلك أبٌ جاهل، الشرعُ أجدَرُ أن يُتَبع، إذا خطب أحدٌ فتاةً له أن ينظر إليها، ولكن لا ينبغي أن ينظر إليها قبل كلّ شيء، هناك عقبات، فإذا تفاهم الطرفان على كل شيء فعندئذٍ ينظر إليها، أما لمجرد أن يخطبها يطلب أن ينظر إليها، ولا زالت هناك عقبات غير متفق عليها، فإذا اتفق الطرفان على كل شيء من حقّ الخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، أن يرى وجهها وكفّيْها، هكذا الشرع، وهناك حالات نادرة، فإذا كانت رؤية المخطوبة تسبب إحراجاً لها أو إزعاجاً لها، أو رآها خطابٌ كثيرون فلم يقبلوا بها، فحرصاً على سلامة قلبها وصدق شعورها هناك حديث آخر:

((إذا أراد أحدكم الزواج فليولج بصره))

(ورد في الأثر)

أيْ: فلينظر إليها بإذن أهلها، ومن دون أن تدري إذا كان النظر يؤدّي إلى حساسية، على كلٍ فإن نظر الخاطب للمخطوبة من الشرع.

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى)

هذا الإيجاب..

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)

أن تعمل عندي راعياً للغنم ثماني سنوات.

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)

3– وجوب المهر مهما كان نوعه:

هذا إحسان، فالعدل ثمانٍ، والإحسان عشْرٌ، وهذا هو المهر، وأيّ عقد زواجٍ من دون مهرٍ فهو فاسد، يُصَحّحُ بمهر المثل، وهذا هو الإيجاب.

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيّ هَاتَيْنِ)

هذا الإيجاب، أما المهر:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقّ عَلَيْكَ)

4– الأصلُ في التزويج التيسيرُ على الخاطب:

إشارةٌ لطيفة جداً لأولياء الأمور، لا تُكَلِّف خاطب ابنتك ما لا يُطيق، لا تعْنَد، لا تهتم بالمظاهر، لا تهتم بأقوال الناس، ولا سيما في هذا الوقت، فقد سمعت عن أهل بلدةٍ اجتمعوا جميعاً، واتفقوا على أن كل خاطبٍ يخطب فتاةً لا يُطالب إلا بشيئين يسيرين زهيدي القيمة، وإلا إذا كان ثمن الذهب عقبةً كؤودًا، ولابدّ من أن تقدّم كذا وكذا وكذا، ويكون البيت له هذه الصفات، كذا غرفة، والأثاث كذا صفاته، هذه الآن كلها عقباتٌ تعجيزية، لذلك عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ، قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

(الترمذي)

فيحلُّ السفاح محلّ النكاح، وكلّما ضاقت سبل الزواج اتسعت سُبُل الزنا، لابدّ من أن يكون لهذا الموضوع حل، والحل بيد أولياء الأمور، يجب أن تقبلَ بغرفةٍ واحدة، إذا كان الشاب مؤمناً صادقاً يجب أن تُعِينَه، وأن يكون قول سيدنا شعيب نبراساً لك:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّالِحِينَ)

5 – تواضعْ مهما كنت صالحًا:

شيء آخر في الآية، كأن يقول لك: أنا.. ألا تعرفني ؟ لا، لم أعرفك، هناك شخص مُعْتَد بنفسه، هذا نبيٌ كريم في أرجح الروايات قال:

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّالِحِينَ)

أنا **" إن شاء الله "** أسرُك، جملة **" إن شاء الله "**، فيها أدب جميل، فيها تواضع لله عزّ وجل، ليس فيها اعتداد بالنفس، وليس فيها كبر.

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

هذا القبول، الآن في عقود القِران يطلب كاتب العقد من أب الفتاة أن يجلس، ويُمسك بيدِ خاطب ابنته، ويقول: قل له: زوجتك ابنتي كذا وكذا بحكم الولاية عليها، والوكالة عنها، إلى آخره، وبعدها يقول له: قبلت، فالزواج إيجاب وقبول ومهر، وشاهدا عدل:

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)

(القصص: آية 28)

من لطائف الآية:

1 – دعوا الأمور للرجال والمظاهر للنساء:

وفي هذه الآية إشارة لطيفة جداً، أي: دع الأمر بين الرجال، فإذا وصل إلى النساء فالأمر صعب جداً، النساء إذا أردنّ الحديث في مثل هذه الموضوعات يطالبنّ بما لا يحتمله الزوج، إذا أردت أن يكون زواج ابنك ناجحاً، أو زواج ابنتك ناجحاً فاجعل الأمر بينك وبين الرجال، ودع للنساء المظاهر.

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ)

2 – إثباتُ الخيار:

أنا بالخيار..

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

3 – أركان النكاح:

النبي عليه الصلاة والسلام بإدراكه العميق، بفهمه الدقيق، استنبط من هذه الآية أركانَ عقد النكاح إيجابٌ وقبولٌ، ومهرٌ وشاهدا عدلٍ.

قد يسأل سائل: هذا المهر صار منفعةً بيدِ الوالد، أي: أن سيدنا موسى رعى غنماً لسيدنا شُعَيب ثماني سنوات، وقد جاءت الروايات أنه رعاها عشر سنوات، على الأجل الأقصى، على كلٍ هذا المال صار ملك الأب، أو منفعة بيدِ الأب، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلا قَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَالا وَوَلَدًا، وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي، فَقَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ))

(سنن بن ماجة)

بقي علينا في الحلقة الثالثة من هذه القصة القرآنية التي فيها الموعظة، وفيها كل ما يُستنبط من أحكام الزواج على قصرها وعلى إيجازها، بقي علينا أن هذا النبي الكريم ما سافر بأهله إلا بعد أن أدّى ما عليه من مهر، لذلك الآن المحاكم الشرعية لا تُجيزُ للزوج أن يسافر بزوجته إلا إذا دفع المهر.

(فَلَمّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً)

(القصص: آية 29)

طبعاً هذه المرحلة الثالثة، ونَدَعها إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 29 - 40
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-06-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة القصص، وقد صلنا في قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في الدروس السابقة إلى قوله تعالى:

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

(سورة القصص)

مقدمة تذكيرية:

قصة سيدنا موسى وردت في القرآن الكريم مراتٍ عديدة، وفي كل مرةٍ لها عرضٌ خاص، ولها زوايا خاصة، فالحلقةُ الأخيرة من قصة سيدنا موسى في هذه السورة بعد أن قضى موسى الأجل، والأجل هو مدة المهر الذي اشترطه عليه سيدنا شُعَيب، على أن يرعى غنمه ثماني سنوات أو عشر سنوات، وأغلب المفسرين على أن سيدنا موسى قد قضى الأجل الأتَمّ والأكمل، أي بقي في رعْي غنم سيدنا شعيب عشرَ سنوات بالتمام والكمال.

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ)

(القصص: آية " 29 ")

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ

1 – مِن قوامة الرجل السفرُ بأهله:

مِن حقّ الرجل، وله القِوامَةُ أن يسافر بأهله، يقول الله سبحانه وتعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(النساء: آية 34)

التفضيل من جهتين ؛ من أن الرجل له القيادة بحكم بُعْد نظره في الشؤون العامة، وفي شؤون خارج البيت، وله حقّ القوامة بسبب إنفاق ماله.

2 – معنى: أهلِه:

فسار سيدنا موسى بأهله، وكلمة:

(بِأَهْلِهِ)

تعني أنهم جمعٌ، أي زوجته وأولاده، ويبدو أنه في الطريق أصابه بردٌ شديد، وفوق ذلك أنه ضلّ الطريق.

3 – معنى: آنَسَ:

و:

(آنَسَ)

بمعنى شاهد، رأى ما يؤنسه، ويُطمئِن نفسه.

(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً)

(القصص: آية 29)

4 – وصوله إلى جبل الطور:

الطور جبل في سيناء، جبل الطور،

(مِنْ جَانِبِ)

يعني أنه كان يسير بمحاذاته.

(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً)

أو هكذا بدا له..

(قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا)

5 – موعدٌ مع المناجاة:

وهذه حكمة الله عزّ وجل، أنه سيذهب إلى المناجاة، لعلّ أهله في المناجاة يكونون عبئاً عليه، فلذلك ألهمه الله عزّ وجل أن يبقيهم في مكانٍ من الطريق ليأخذ جذوةً من نارٍ، أو يأتي بخبرٍ عن الطريق، فضل الطريق، وأصابه بردٌ شديد.

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

6 – حرص رب البيت على سلامة أهله من كل أذى:

(بِخَبَرٍ)

عن الطريق.

(تَصْطَلُونَ)

أي تَسْتَدْفِئون بها، أيْ أنّ حِرص رب الأسرة على أسرته، وعطفَه عليهم، وعنايته بهم، وحرصه على سلامتهم هذه من صفات الأبوة، والأنبياء كانوا قدوة لنا حتى في أسرهم، وقدوة لنا في معاملتهم لزوجاتهم، وفي معاملتهم لأولادهم.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(القصص: آية 30)

المناجاة:

حصلت المناجاة، والله سبحانه وتعالى يقول في سورةٍ أخرى:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

(الشورى: آية 51)

سيدنا موسى كَلِيمُ الله، كلّمه الله عزّ وجل من وراء حجاب، والحجاب هو الشجرة.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ)

(القصص: آية 30)

1 – الشاطئ:

الشاطئ الطرف، شاطئ البحر طرفه، وشاطئ الوادي طرفه.

(نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

2 – البقعة المباركة:

البقعة مباركةٌ، لأن فيها حصلت المناجاة، والبركة الخير الكثير، فإذا كنت في بيتك مُصلّياً صائماً قائماً مطيعاً لربّك فهذا البيت مبارك، وإذا سخّرت هذه المركبة لخدمة الخلق، ولخدمة الناس فهذه المركبة مباركة، وإذا أقمت في مكانٍ جميل، وتحدّثت فيه عن الله عزّ وجل فهذا المكان مبارك، وإذا استخدمت قلماً في كتابة العلم الشريف فهذا القلم مبارك، فأيُّ شيءٍ يكون موطن الخير، أو موضع الخير، زمان الخير، مكان الخير، بيئة الخير، ظروفَ الخير، فهو الشيء المبارك.

(فَلَمّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

3 – لمثل هذا أمِرنا أن نصلي في المساجد:

والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نُصَلِّي في المسجد، وأمرنا أن نصلي في بيوتنا، فلك أن تصلي الفرض في المسجد، ولك أن تصلي بعض النوافل في البيت، لئلا يكون البيت قبراً، بل ليكون البيت مباركاً، البيت الذي يُقْرأ فيه القرآن بيتٌ مبارك، البيت الذي يُدعى فيه إلى الله بيتٌ مبارك، البيت الذي تقام فيه أوامر الله بيتٌ مبارك، المحل التجاري الذي تبيع فيه وَفْقَ العدل والاستقامة محلٌ مبارك، المكان الذي تدعو فيه إلى الله مكانٌ مبارك، الشيء الذي تستخدمه في سبيل الله شيءٌ مبارك، أي أنه كان سبباً لهذا الخير الكثير.

(فَلَمّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)

فالله سبحانه وتعالى يتجلّى على بعض مخلوقاته بشيءٍ من الجمال، فإذا بهذا الجمال يسبي العقول، فكيف إذا حصل هذا الاتصال بينك وبين مصدر الجمال ؟ كيف إذا كان الله هو المتكلِم ؟ لذلك يوم القيامة ينظر أهل الجنة إلى وجه ربهم فيغيبون خمسين ألف عامٍ من نشوة النظرة، وأكبر عقابٍ يُعَاقبه الكافرون يوم القيامة أنهم عن ربهم محجوبون.

(كَلّا إِنّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(المطففين)

وأعظم مقامٍ في الجنة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبّهَا نَاظِرَةٌ)

(القيامة)

4 – ليست الدنيا أكلا وشربا ومتاعا فقط:

قد يتوهم الإنسان أن الجنة طعامٌ وشراب، هي طعامٌ وشراب، وأنهارٌ من لبن ومن عسل، وفيها حورٌ عين، وولدان مخلّدون، هذا كلّه صحيح، ولكن يجب أن تعلم علم اليقين أن الجنة في حقيقتها تسمو على ذلك ؛ فيها رضوانٌ من الله عزّ وجل، فيها إقبال الله على قلب الإنسان.

5 – جنةُ الدنيا قبل جنة الآخرة:

إن العمل الذي فيه شرك لا يقبله الله عزّ وجل، والقلب المُشْتَرك لا يقبل عليه، العمل الذي في إشراك لا يقبلهُ الله عزّ وجل، والقلب الذي فيه غير الله عزّ وجل لا يُقبل عليه، فالجنةُ فضلاً على أن فيها من الثمرات والفواكه ما تشتهي الأنفس وتَلَذُّ الأعين، وفيها من الحور العين، وفيها ولدان مخلدون، وفي الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على وجه الأرض لغلب ضوء وجهها ضوء الشمس والقمر، كلُّ هذا صحيح، وأصحُ منه أن في الجنة أيضاً رضوانٌ من الله عزّ وجل.

قد تدخل بيتاً فتجد في البيت كل شيءٍ مريحًا، ولكن أين صاحب البيت ؟ أين الترحيب ؟ أين الاستقبال؟ أين المؤانسة ؟ أين الشعور بأنّك أثيرٌ، وعزيز على صاحب هذا البيت ؟ إن كلّ مظاهر الضيافة، وكلّ الراحة، وكلّ الطعام الطيّب، وكلّ الإكرام ليس بشيءٍ أمام ترحيب صاحب البيت، وإكرامه وتقريبه، وأن يَخُصّك بشيءٍ من الودّ، فلذلك العقاب الأليم يوم القيامة هو الحجاب عن الله عزّ وجل.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(المطففين)

والعطاء العظيم أن تكون في رضوان الله، ورضوانٌ من الله أكبر، هكذا جاء في القرآن الكريم، ورضوانٌ من الله أكبر من كل هذه النِعَم التي أعدّها الله، وذكرها في القرآن الكريم.

فهذا النبي العظيم سيدنا موسى، وهو من أولي العزم، وهو كليم الله، وما استحق أن يكلِمه الله عزّ وجل إلا لشدة حبه لله، وشدة تعلُّقه بما عند الله عزّ وجل، ولصبره وتحمله كل المشاق في سبيل الله.

إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الطائف لاقى من التكذيب، ولاقى من الإيذاء ما لا يستطيع بشرٌ على الإطلاق أن يتحمّله إلا أن يكون نبياً، ومع ذلك ماذا قال ؟ قال:

((ربِ إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العُتْبَى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا حب، هل بعد هذا الحب من حب ؟ هل بعد خوف الجفوة من الحبيب من خوف ؟

مِن تفاصيل المناجاة:

إنّ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من أولي العزم، واستحقّ أن يكلمه الله عزّ وجل، فهو كليم الله طبعاً، وفي أماكن أخرى قال تعالى على سبيل المؤانسة:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

وفي أماكن أخرى من كتاب الله قال تعالى مفسحاً المجال لسيدنا موسى أن يناجيه:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه)

حينما سأله الله عزّ وجل، واللهُ يعلم كل شيء، فكيف يسأله ؟ قال موسى مجيبًا:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

يبدو أنه ذاب في هذه المناجاة من شدة الحب والوَجْد، فتابع الكلام، واستخدم أسلوب الإطناب:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

حينما قال:

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه)

ثم استحيا أن يكون قد أطال، فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

فإذا أراد الله عزّ وجل متابعة المناجاة يسأله: وما هذه المآرب يا موسى ؟ لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُعْلِمَهُ أن هذه التي بيدك ما هي ؟ فقال:

(هِيَ عَصَايَ)

لأنها بعد قليلٍ سوف تكون حية تسعى، لتكون الآية واضحة عند سيدنا موسى.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(القصص)

هذا قول العاشقين:

فليتك تحلو و الحياة مـريرةٌ و ليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ و بـيني وبين العالمين خرابٌ

***

فلو شاهدت عيناك من حُسننا الذي رأوه لما ولّيت عنا لغيرنا
و لو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعتَ عنك ثياب العجب و جئتنا
ولـو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نـسمتْ من قربنا لك نسمة لمُتّ غريباً واشتياقاً لــقربنا

***

ما هي العبرة من قصة موسى عليه السلام ؟!

1 ـ لابد لكل مؤمن من مناجاة لله عزوجل:

فهذه القصة لماذا أوردها الله عزّ وجل ؟ لماذا جعلها قرآناً يُتْلى إلى يوم القيامة ؟ من أجل أن يكون لنا نصيبٌ من هذه القصة، هل لك مع الله مناجاة ؟ هذا العبد المؤمن الذي سمع في دروس العلم أن كلّ معصيةٍ تسبب حجاباً، وكلّ معصيةٍ تسبب عقاباً، زلّت قدمه، ووقع في مخالفةٍ، وقع في جفوةٍ مع الله عزّ وجل، هو ينتظر العقاب، ينتظر التأديب، ينتظر وينتظر، مرّ يومٌ ويومان، وأسبوعٌ وأسبوعان، وليس هناك عقابٌ ولا تأديب، فناجى ربه، وقال: يا ربِّ، لقد عصيتك ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أنْ يا عبدي، قد عاقبْتُك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟.

أيْ: ألك مع الله مناجاة ؟ إذا وقفت في الصلاة أتشعر أنك واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل؟

((لَوْ يَعْلَمُ المُصَلِّي مَنْ يُنَاجِي مَا انْفَتَلَ))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسَلاً]

2 ـ الصلاة مناجاة:

الصلاة قربٌ، الصلاةُ ذكرٌ، الصلاة وعيٌ، الصلاة مناجاةٌ، الصلاة دعاءٌ، الصلاة اتصالٌ، الصلاة نورٌ، الصلاة حبورٌ، لا خير في دينٍ لا صلاة فيه، الصلاة عمادُ الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

إذاً هذه المناجاة ألك منها نصيب ؟ ألك مع الله ساعة تناجيه ؟ ألك مع الله ساعة تدعوه ؟ ألك مع الله ساعة تقرأ كتابه فَيَقْشَعِرُ جلدك ؟ ألك مع الله ساعة تناجيه فتبكي ؟ أهطلتْ من عينك دمعة من خشية الله؟ أتحب الله عزّ وجل حباً صادقاً صحيحاً ؟ ما ذَكَرَ الله لنا هذه المناجاة وهذا اللقاء إلا ليكون لنا منه نصيبٌ، ولو كان يسيراً على قدْر إيماننا، على قدر استقامتنا، على قدر ورعنا، على قدر إخلاصنا، على

قدر معرفتنا، على قدر عملنا الصالح، لا بدّ من اتصالٍ بالله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى جعل الاتصال به منظماً.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(يونس)

3 – المعصية حجاب من المناجاة فاحذروها:

ما دُمْتَ متلبِّساً بمعصيةٍ فبينك وبين الله حجاب، وسُمْك هذا الحجاب بقدر المعصية، كلما ازدادت واقتربت من الكبيرة كان الحجاب ثخيناً، وكلما كانت صغيرة كان الحجاب رقيقاً.

من نتائج الحجاب: قد يَنْسى المرء بعض العلم بالمعصية، إذا غضضت البصر تماماً، وحرَرّت الدخل تماماً، وضبطت سمعك وبصرك، ولسانك، ويدك، ورجلك، والتزمت أوامر الشرع تماماً، ووقفت عند حدود الله تماماً فلا بدّ من أن تشعر أنك من الله قريب، لا بدّ من أنْ تشعر أنّ الطريق إلى الله سالك، لا بدّ من أن تشعر أن الصلة بالله شيءٌ محبّب، إنّ أسعد لحظات المؤمن يوم يقف بين يدي الله ليصلي، هذه المناجاة، أنت إذا وقفت مُصلياً فإنك تناجي الله عزّ وجل، والأنبياء في مناجاتهم حالاتهم حالاتٌ متفوقة جداً.

عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

جوهر الدين هذا الاتصال بالله عزّ وجل، هذا الاتصال يحتاج إلى انضباط، يحتاج إلى أن تضع شهواتك كلها تحت قدمك، يحتاج إلى أن تؤثر الله في كل شيء، يحتاج أن تكون وَقّافاً عند حدود الله، كي تذوق طعم المناجاة التي ذاقها بشكلٍ فائقٍ جداً.

فأحياناً تشعر أن الله عزّ وجل يحبك، تشعر أن الله راضٍ عنك، تشعر أنك غالٍ عند الله عزّ وجل، تشعر أنك بأعين الله عزّ وجل.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(الطور: آية 48)

قد تناجي ربّك فتقول: يا ربّ، هذا حالي لا يخفى عليك، يا رب، هذا جهدٌ مِن مُقِلٍّ.

لا بدّ من مناجاةٍ مع الله عزّ وجل، إذا كنت محباً لله، إذا كنت مستقيماً على أمره.

وقفة مع قصة موسى:

أقف الآن عند هذه الآية كي نستفيد منها:

ما شأننا في قصةٍ وقعت قبل آلاف السنين ؟ فالله سبحانه وتعالى ما أراد من هذه القصة أن نأخذ عِلماً أن الله قد ناجى سيدنا موسى، طبعاً ناجاه سواء أعرفت أم لم تعرف، صدّقت أم لم تصدِّق، أأقررت أم لم تقرّ، ولكنّ الله عزّ وجل أراد من هذه القصة أن يكون لك نصيبٌ من هذه المناجاة، الله عزّ وجل هكذا يقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(الكهف: آية 110)

هذه وصفة، اعمل عملاً صالحاً خالصاً لله عزّ وجل، وإذا شككت أن نفسك تأمُرك، وتوسوس لك أنك غير مخلص فاكتم هذا العمل عن الناس، أنفقْ من مالك، أعِنْ أخاك المؤمن، قدّم شيئاً ثميناً تملكه في سبيل الله، ابذل من وقتك الثمين، ومن خبرتك، من مالك، من علمك، من جاهك، اعبُدِ الله عبادةً متقنةً، ثم انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلى عليك، ثم ذُق طعم القرب.

سألوا امرأةً كانت متهتِّكَة، فلما عرفتْ ربها، والتزمت أوامر الله عزّ وجل، وتحجبّت، سألها قريبٌ لها: كيف ضحّيتِ بحريتك وانطلاقاتك بهذا العمل ؟ فقالت: لو ذُقتَ من القرب من الله عزّ وجل الذي ذقتُ أنا لضحّيتَ بحياتك من أجله:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعـانيها

إذاً:

(فَلَمّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنّي أَنَا اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ)

(القصص)

فأصحاب النبي عليهم رضوان الله ما الذي جعلهم لا ينامون الليل شوقاً إلى الله ؟ ما رأوا من عظمته، ما رأوا من كماله، ما رأوا من بديع خلقه، أقبلوا عليه، استقاموا على أمره، ووالوْا رسوله.

ثوبان، هذا المولى لرسول الله عليه رضوان الله رآه النبيُّ مُصْفَرّ اللون قال: ما بالك يا ثوبان قد تغير لونك ؟ قال: والله مالي وجعٌ، ولكنني كلما رأيتُك ارتاحت نفسي، فإذا غبت عني اشتقت إليك، ثم ذكرت الآخرة فعلمت أنك مع النبيين والصديقين، وقد لا أكون معك، سكت النبي عليه الصلاة والسلام، فنزل قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

(النساء)

ذلك الفضل من الله، أين الشوق ؟ هؤلاء الأصحاب كان الواحد منهم كألف، عشرة آلاف صحابي فتحوا أطراف الدنيا، والآن ألف مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، لأن الحب والإيمان متلازمان، وهذا ما ينقص مسلمي زماننا، لأن أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

معجزة عصا موسى:

1 – وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ:

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)

(القصص: آية 31)

2 – انقلابُ العصا ثعبانًا يسعى:

ألقى عصاه..

(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً)

3 – خوف موسى من هذا الوضع المفاجئ:

خاف، وهذه بشرية سيدنا موسى..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(المعارج)

(وَلَمْ يُعَقِّبْ)

لم يلتفت..

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)

(القصص)

4 – اطمئنان موسى بكلام الله تعالى له: إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ

أنت رسول، وأنا معك فلا تخف.

من صور اطمئنان قلب النبي عليه الصلاة والسلام: حادثة غار ثور:

هذا الكلام ينقُلنا إلى موقف النبي عليه صلاة الله وسلامه في غار ثور، فقد وضع عليه الصلاة والسلام خطةً محكمةً للهجرة، سار مُساحِلاً، وبحث عن خبيرٍ للطريق، واختار ناقةً جيدة، واختار رفيقاً، وعَيَّن شخصاً يمحو الآثار، وشخصاً آخر يَتَّبع الأخبار، وشخصاً ثالثاً يأتي بالزاد، رسم خطةً دقيقةً جداً، غَطَّى كل شيءٍ، أعطى لكل شيءٍ تقديره، ومع ذلك وصل كفار قريش إلى غار ثور، سيدنا الصديق أصابه خوفٌ شديد، قال: يا رسول الله،

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ـ فماذا قال عليه الصلاة والسلام ـ قَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

بعد قليل قال الصحابي الجليل سيدنا الصديق: لقد رأونا يا رسول الله قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(الأعراف)

هنا السؤال: لماذا كان النبي عليه صلوات الله مطمئناً مع أن الخطة كلها انكشفت ؟ ما دام كفار قريش وصناديدُهم قد وصلوا إليه، وأصبحوا على مشارف الغار، فخطته لم تنجح، لو أن اعتماده على الخطّة لأصابه الهلع، ولكنّ اعتمادَه على الله، وأخذه بالأسباب، وتوكّله على رب الأرباب حال بينه وبينهم، وكل واحدٍ منا إذا واجه مشكلةً فأخذ لها الأسباب، واعتمد على الأسباب، ثم جاء الخطر فإن قلبه يكاد ينخلِع خوفاً، أما إذا أخذ بالأسباب، واعتمد على الله عزّ وجل فإنه يطمئن لوعد الله عزّ وجل ويسلّم، فسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب وتوكلّ، والله سبحانه وتعالى طمأنه بأنه آمن، والآية الكريمة التي تُؤَكِّدُ أنه معصومٌ من أن يُقتَل، ورغم ذلك أخذ بالأسباب كاملة.

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(المائدة: آية 67)

هذه الآية تؤكد عصمته مِن أن يُقتَل، كذلك سيدنا موسى رسولٌ من أولي العزم، فحياته مصونة، قال تعالى:

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)

ولعَمري إذا كان الله سبحانه وتعالى قد طمأنك فأيُّ شيءٍ آخر يدخل إلى قلبك ؟ لن يدخل شيء، وستكون آمناً.

(إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)

لمَن يكون الأمن والأمان ؟!

الآن أنتقل من هذه لآية إلى آيات كثيرة في القرآن الكريم، لقد قال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(النحل: الآية 97)

الآن نقول للشاب المتشائم السوداوي المِزاج اليائس، ضعيفُ الإيمان بكلام الله: خَالق الكون يعدك بحياةٍ طيبة ثمنها أن تؤمن بالله وتعمل صالحاً، ولن تخاف بعد ذلك !!.

(وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)

إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

(الحج: الآية 38)

وأنت مؤمنٌ ورَبِّ الكعبة، أتخاف بعد ذلك ؟! إذا طمأنتك آيات الكتاب، تخاف بعدها ؟! لذلك إذا قرأت هذا القرآن، وعرفت أنه كلام خالق الكون فلا يدخل إلى قلبك الخوف، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن))

في قلب المؤمن من الطُمأنينة ومن الأمن ما لو وزّع على أهل بلدٍ لكفاهم، من طمأنه ؟ الله سبحانه وتعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

إن الله يعطي الصحة والذكاء والجمال والمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

لا تخَف إلا من ذنبك:

فهذا كلامُ خالق الكون، يجب أن تصدِّقهُ، يجب أن يكون عندك له مصداقية، فإذا طمأنك الله في آيات القرآن فيجب أن تطمئن، وإذا خوّفك في بعض الآيات فيجب أن تخاف، علامة إيمانك أنك تطمئنُ إذا طمأنك الله عزّ وجل، وتخاف إذا خوّفك الله عزّ وجل، فخَفْ مِن ذنبك.

في الأثر:

((يا موسى خف ثلاثاً: خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني))

خف نفسك أن تعصيني، فإن عصيتني تستحِق التأديب، هذا الذي لا يخافني خف منه، لأنه ليس منضبطا.

((خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني))

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يخافنّ العبدُ إلا ذنبه ولا يرجونّ إلا ربه))

[علل ابن أبي حاتم]

القلق والخوف مرض نفسي مدمِّر، المؤمنون بحول الله معافون منه، آية أردِّدها دوماً على مسامعكم آلافَ آلاف المرات، لا أشعر أني شبعت منها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(الجاثية: من الآية 21)

أيُعقل أن يعاملك الله عزّ وجل وقد آمنت بالله، وعملت الصالحات كما يعامل الذين اجترحوا السيئات ؟ أنت منضبط، تحضر مجالس العلم، تصلي، تغضُّ بصرك، تنفق من مالك، ترجو الله، تخاف منه، تتقرب إليه، تعمل الصالحات، أتتوقع أن يعاملك الله عزّ وجل كما يعامل أهل الدنيا الضائعين، الشاردين، التائهين، العُصاة، الفُسّاق، الفُجّار ؟

نعمة الأمن:

إنك مستثنى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(الأنبياء)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(الروم)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

نعمة الأمن لا يعرفها إلا من فقدها.

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(قريش)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي، ابن ماجه]

نعمة الأمن خاصة بالمؤمنين، أما أهل الدنيا فقد يأخذون كل شيء، ولكن نعمة الأمن لا يعرفونها، لأنهم أشركوا ألقى الله، ففي قلوبهم الخوف والفزع والقلق.

الآية الثانية:

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

(القصص: من الآية 32)

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

أي ضع يدك في جيبك، جيب الثوب فتحته العُلوية، وهو غير الجيب الذي نعرفه نحن، الجيب فتحة الثوب من جهة العُنق، اسلكْ أي ضع..

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ)

أي متألقةً منيرة، كأنها مصباح، كأنها كوكبٌ دري.

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

والله سبحانه وتعالى أشار بهذه الآية إلى ما قاله اليهود في تلمودهم، وكيف حرّفوا التوراة، وقالوا: إن موسى عليه الصلاة والسلام حينما وضع يده في جيبه خرجت بَرْصاء..

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

معنى: وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ من الرَّهْبِ

الرَّهَب هو الخوف، لهذه الآية تفسيران:

التفسير الأول:

أنه لما رأى الأفعى خاف، فمدّ يديه ليدفع عنه خطرها، قال تعالى:

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ)

أي لن تؤذيك هذه الأفعى، فأنت من المؤمنين، إذاً هذا هو المعنى الأول.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

التفسير الثاني:

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ)

أي أن المؤمن إذا أراد أن يصلي يتطامَن، أي يَضمّ عَضُديه ويديه إلى صدره تأدُّباً مع الله عزّ وجل، أما التمطي، وتحريك الأطراف هكذا أو هكذا فلا يتناسب مع الخشوع، أما أن يضم الإنسان عَضدَيه ويديه إلى صدره، ويقف متطامناً فهذا نوعٌ من الخشوع، إذاً: هذا تعليمٌ من الله عزّ وجل لنا أن الإنسان إذا صلّى فعليه أن يقف في خشوع، لا أن يَتَمَطّى، ولا أن يباعد بين أطرافه، ولا أن يتطاول، هذا لا يتناسب مع الخشوع، وقد علّم اللهُ سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم، وعلمنا من خلال هذه الآية.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

من الخشية..

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

علة المعجزتين: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

هاتان آيتان من آيات الله لسيدنا موسى.

وأما الذي كَرّمَ الله به نبينا عليه الصلاة والسلام فهو أن معجزته ليست حِسّية، إن معجزته باقيةٌ إلى يوم القيامة، إنها كتاب الله عزّ وجلّ، إن كتاب الله بين أيدينا، من أراد أن يُحَدّث ربه فليصلّ، ومن أراد أن يُحَدِّثَه ربه فليقرأ القرآن، إنه كتابٌ بين أيدينا، لكن معجزة النبي موسى عليه الصلاة والسلام الأفعى واليدَ البيضاء انتهت، وأصبحت خبراً.

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

إِنَّهُم كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

والفاسق هو الذي خرج عن أمر الله، هو الذي خرج عن إنسانيّته، هو الذي جهل مهمته فتبع شهوته، جهل نفسه كما جهل نفسه فتبع شهوته.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)

لذلك حينما دَمَّرهم الله عزّ وجل ما بكت عليهم السماوات والأرض.

موسى عليه السلام يتذكّر قتلَه القبطي، وخوفه من انتقام فرعون منه:

سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً)

(القصص: 33)

تذكر أنه قتل قبطياً.

(فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

تعليقات لطيفة على خوف موسى عليه السلام:

التعليق الأول:

هنا تعليق لطيف جداً: وهو أنه حينما ألقى السحرة عصيّهم وحبالهم، وخُيّل إليه من سحرهم أنها تسعى أوجس في نفسه خيفة موسى:

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

خاف سيدنا موسى، لماذا خاف ؟ رغم أن الله طمأنه وقال له:

(إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

لكن هذا الخوف الثاني خوفٌ من نوع آخر، الخوف الأول بشري، لأنه بشر، أما الخوف الثاني فخوف الرسول من أن تُكَذّبَ دعوته، خاف على الدعوة، ولم يخف على شخصه، قال عزوجل:

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

(سورة طه)

أيْ أنّ هذا الذي فعله السحرة لا شيء أمام الآية التي معك، لذلك عصا موسى حينما ألقاها أكلت كلّ حبالهم وعصيهم، فإذا هي تلقف ما يأفكون، إذاً:

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

(سورة طه: آية 69)

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

إذاً: هذا الخوف كان على الدعوة لا على شخصه.

التعليق الثاني:

وثمة تعليقٌ آخر:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

هذا خوفٌ على الدعوة، لأنه إن قتلوه ضاعت الدعوة.

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً)

(القصص: آية " 34)

معنى: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا

فبعض المفسرين يقولون: إن سيدنا موسى معه حبسة، الحبسة أي حالة غير سوية في النطق.

إنّ الإنسان أحياناً يضّطرب نطقه، التأتأة، والفأفأة اسمها في علّم النفس الحبسة، الحبسة تزداد عليها الاضطراب النفسي، فسيدنا موسى خاف أن يكذّبه فرعون فيضطرب فينعقد لسانه، وفي إشارة أخرى إلى أن الفصاحة فصاحة القلب، ولو أنّ الفصاحة باللسان لكان المُرْسَل إلى فرعون هارون، لأنه كان فصيح القلب، فإذا كنت تعرف الله عزّ وجل، ولك اتصالٌ به فأنت الفصيح، ولو لم تكن في مستوى فصاحة الآخرين، قال سبحانه:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34))

(سورة القصص)

فَأَرسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي

1 – حرصُ موسى عليه السلام على الدعوة:

فمن حرصه على الدعوة مرةً ثالثة خاف إذا ذهب وحده إلى فرعون أن ينعقد لسانه، أو أن يقتله فرعون بهذا القبطي الذي قتله سابقاً، فتنطفئ الدعوة، عندئذٍ قال تعالى:

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي)

2 – معنى ردءا:

أيْ معيناً، فإذا انعقد لساني يتكلّم عني، إذا قتلني فرعون ينوب مكاني.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً)

(القصص)

لا بد للدعوة من الحجة والسلطان:

السلطان هنا إما القوة القاهرة، وإما الحجة الباهرة، أيْ يا رب، كن في عوني، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

(سورة القصص)

العاقبة للحق المبين ن فعليكم بالصبر واليقين:

حينما سار سيدنا موسى بقومه، وتبعهم فرعون، فرعون بكل قوته، وكل جيشه، وكل جبروته، وكل قسوته وراءهم، والبحر من أمامهم، وقال أصحاب موسى:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

كما قال رجل منافق في معركة الخندق حينما رأى اليهود قد نقضوا عهدهم، والأحزاب جاءتهم من كل حدبٍ وصوب، ولم يبق للإسلام إلا ساعات، وينتهي الإسلام عن آخره، انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى أنقذ الدعوة الإسلامية كلّها بالعنكبوت على غار ثور، هذا من عظمة الله عزّ وجل، وأنه يدفع

الخطر الكبير بالسبب الحقير، يدفع الخطر الكبير بشيءٍ صغير، هذا منتهى عظمة الله عزّ وجل، وكذلك في الخندق جاءت الأحزاب من كل حدبٍ وصوب، وقد رمت العربُ كلها النبيَّ عن قوسٍ واحدة، كلها جاءت لتستأصل المسلمين، واتفقوا جميعاً، وجاءوا بخيلهم ورَجِلهم، وأسلحتهم، وطوّقوا المدينة، والصحابة الكرام حفروا الخندق، وظهرهم محميٌّ لمعاهدةٍ بين النبي وبين اليهود، فإذا باليهود ينقضون العهد كعادتهم، فانكشف ظهر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يبق للإسلام بحسب ما يبدو للعين إلا ساعات، وينتهي الإسلام مِن على الأرض، فما كان من أحد المنافقين إلا أن قال: أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدُنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟!! أين كسرى وقيصر ؟ لا يأمن أحدنا أن يقضي حاجته من شدة الخوف، ومع ذلك أرسل الله رياحاً عاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، و أطفأت نارهم، ووقعوا في حيص بيص، وتبلبلوا، وذهبوا من حيث جاءوا.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: آية 25)

فربنا أحياناً يؤخِّر النصر ليسمع ما تقول ؟ أحياناً ربنا عزّ وجل يرسل شبح مصيبةٍ، فالمؤمن القوي عندئذٍ يصبر، قال ربنا عزوجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

لكن هناك أشخاص ضعاف الإيمان إذا لاح شبح المصيبة يتزلزل إيمانهم، قال ربنا عزّ وجل:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

أحياناً بعض الناس يقوم بتحليلٍ في المخبر، فتكون النتيجة إيذاناً بمرضٍ خطير، ماذا يقول في نفسه ؟ ويكون التحليل خطأ، فالله امتحنه بأن لاح له شبح مصيبة، ماذا يقول في نفسه ؟ أيُنْكِرَ وجود الله عزّ وجل ؟ أيُنْكِرَ رحمته ؟ أيُنْكِرَ عدالته ؟ أينكر حكمته ؟ الله عزّ وجل يمتحنك، أنت في امتحان دائم، إذا كنت بطلاً، وجاءت الأمور على غير ما تشتهي فقل: الحمد لله على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا جاءت الأمور وَفْقَ ما تريد فقل: الحمد لله بنعمته تتمُّ الصالحات، هذا شأن المؤمن، والمؤمن مُبتلى، سُئل الإمام الشافعي " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لم تُمَكَّن قبل أن تُبْتَلى "، لأنه لا بدّ من أن تبتلى ليمتحن الله إيمانك، ليمتحن الله صدقك، ليمتحن الله ثقتك به، ليمتحن الله اعتمادك عليه، ليمتحن الله علمك، ليمتحن الله معرفَتَك، ليمتحن الله صبرك، ليمتحن الله حسن ظنّك به، هناك ابتلاء، هناك امتحان، فقال أصحاب موسى:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

لأن فرعون وراءنا، والبحر أمامنا، ماذا قال سيدنا موسى ؟ قال:

(كَلاَّ)

على أي شيءٍ اعتمد؟ ليس هناك أسباب مادية إطلاقاً، فرعون بقوته وجيشه وقسوته وراءه، والبحر أمامه،

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

أحياناً يتصور الإنسان أنَّه على أرض، وهو على شاطئ بحر، قد تخرج موجةٌ فتأخذه إلى البحر، هذه المصيبة، كلما كان في أعماق الإيمان أصبح في مَنجاةٍ عن أن يتزلزل، أما إذا كان على حرف فسريعاً ما ينهار.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

(سورة الحج: آية 11)

لا تكن ممن يسيرون على الحرف، كن بالأعماق، والحياة تحتاج إلى بطولة، تحتاج إلى صبر، إلى جَلَد، والابتلاء لا بدّ منه.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)

(سورة القصص: آية " 36)

يوم الفصل بين موسى وفرعون:

هذه الآية الصارخة، عَصَا تُصْبحُ أفعى، يدٌ تتألق كأنها كوكبٌ دُريّ، فماذا قال أهل الكفر ؟ والكفرُ فيه مكابرة، فيه جحود، فيه شهوة طاغية، هذه الشهوة الطاغية تحمل على التكذيب.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)

1 – الحُجّةُ بالحُجّة:

هذا سحر، وهذا افتراء، وهذا اختلاق ليس له أساس من الصحة.

(وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

(سورة القصص)

(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ)

(سورة القصص: آية 37)

2 – إنّه لا يُفلح الظّالمون

هو الذي يعلم، وعلمُه تَمَثّل بهاتين الآيتين:

(وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدّارِ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ)

(سورة القصص: آية 37)

3 – العاقبةُ للمتقين:

العاقبة لمن ؟ للمؤمن، الأيام تدور، وتدور، وتستقر في صالح المؤمن، كن مع الله ولا تُبَالِ، كن مع الحق، ولا تكن مع الباطل، لأن الباطل زهوق، فلا تكن في خندقٍ ضد أهل الحق.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ)

(سورة القصص)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة: آية 21)

(وَإِنّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية 55)

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

أي كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، ولابدّ أن تكون العاقبة لك.

أهل الدنيا لما رأوا قارون قالوا:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

(وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة القصص: آية 80)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198))

(سورة آل عمران)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة القصص)

هذا الذي ظلم نفسه، وظلم غيره لا يفلح.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ)

(سورة القصص: آية 38)

ذكاءُ الأغبياء:

فرعون ذكي، ولكنه ذكاء غبي، الآن أراد حينما رأى هاتين الآيتين الصارختين، وشعر أن أتباعه وقعوا في ريب، وفي شك، وفي حيرة وقف موقفاً معتدلاً في الظاهر.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية 38)

كلام فيه تحفُّظ، فيه اعتدال، أي بحسب معلوماتي، وبحسب علمي المتواضع.

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

هذا الذي جاء به موسى غير صحيح، وهذا الذي يدعيه أنه رب العالمين غير صحيح، ليس هناك إله غيره، لكن ليس لديه إصرار، قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

بتحفظ، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

العلماء قالوا: لِمَ بدأ ربنا عزّ وجل بالآخرة، كان الأوْلى أن يقول:

نكال الأولى والآخرة. قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

لأنّه في الأولى ماذا قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

وماذا قال في الآخرة ؟

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

أيُّهما أشد كفراً ؟ المقولة الثانية، فبدأ الله بها.

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ)

فرعون يتحدى الذات الإلهية:

أيْ ابْن لي برجاً من الآجر، من الطين المُحَمَّى، أي اجعل هذا الطين مستوياً، وأوقد عليه ناراً، واصنع منه لبناتٍ، ثم اصنع منه برجاً..

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص)

كأن الله عزّ وجل في نظر فرعون شخص، أوقد لي على الطين، اجعل لي صرحاً لأصعد عليه، فأطلع إلى إله موسى.

بعضهم قال: ابن لي مرصداً أرصد به الكواكب، أخذاً من قوله تعالى:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً)

(سورة غافر)

لعلي أرى النجوم فتنبئني إن كان هناك إلهٌ كما يدّعي موسى، أم هو من الكاذبين، إنه تفكيرٌ سخيف، هزيل جداً، وتفكير غبي.

(فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ)

(سورة القصص)

هؤلاء لا يقبلون الحق أبداً:

1 – المستكبر لا يقبل الحقّ أبداً:

العلّة هي الاستكبار، المستكبرون هم الكفّار، استكبر عن أن يؤمن، أما النجاشي فلم يستكبر، النجاشي آمن، والله سبحانه وتعالى زاده عزاً ورفعةً، والنبي عليه الصلاة والسلام خدم وفد النجاشي بنفسه إكراماً له، والنجاشي ملِك، ومع ذلك خضع للحق، قال: " إن هذا الذي جئت به، والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاةٍ واحدة "، هذه كلمة النجاشي، أما فرعون فاستكبر، والاستكبار دائماً بغير الحق،

الاستكبار باطل، ولا استكبار عند أهل الحق.

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ)

(سورة القصص: آية 39)

2 – الكافر باليوم الآخر لا يقبل الحق:

لهم معه مصالح، وله منافعهم الدنيوية معه، وكلها بغير الحق.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

ظنوا أنهم مُخَلّدون في الدنيا، ظنوا أن هذه الدنيا باقيةٌ لهم، ظنوا أن الموت هو نهاية الحياة، فإذا هو بداية حياةٍ أُخرى، ظنوا أن الحياة طويلة.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

مِن سنن الله مع الظالمين: الاستدراج ثم القصمُ:

من سنن الله عزّ وجل أنْ يستدرج الكافر، اتبع فرعون سيدنا موسى، فلما صار الطريق في البحر يبساً تبعه، فلما خرج موسى وإخوانه من البحر أعاد الله الطريق اليابس بحراً.

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية 90)

فربنا عزّ وجل قال له:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

فكل واحدٍ من بني البشر سوف يؤمن عند الموت، ولكن بعد فوات الأوان، البطولة أن تؤمن في الوقت المناسب، لذلك ربنا عزّ وجل نجاه ببدنه لأنه لشدة استكباره لا يصدِّق أحدٌ أنه غرق.

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً)

(سورة يونس: آية 92)

وأغلب الظن أن المومياء التي في مصر هي فرعون موسى، هذه إلى الآن موجودة، وقد أُخِذت إلى فرنسا لبعض الترميمات، أكرر وأقول: أغلب الظن أن هذه المومياء هي فرعون موسى، لقوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40))

(سورة القصص)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 40 - 42

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-06-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40))

(القصص)

نقف وقفة متأنِّيَة عند قوله تعالى:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

مصادر المعرفة ثلاثة: الكون ـ أفعالُ الله ـ كلامُ الله:

أيها الإخوة الأكارم، مصادر المعرفة ثلاثة: يمكن أن تتعرّف إلى الله عزّ وجل من خلال الكون، فالكون مظهرٌ لأسمائه الحسنى، ويمكن أن تتعرف إليه من أفعاله، لقوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

إذاً خلقه يُنْبئُ عنه، وأفعاله تُنْبئ عنه، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أفعاله.

المصدر الثالث هو كلامه، البيان الإلهي.

1 – الكون:

إذاً: يمكن أن تعرفه أولاً من خلال خلقه، والكون يُنبئك أكثر ما يُنبئك عن أسمائه الحسنى، ويمكن أن تتعرّف إليه ثانياً من خلال أفعاله، وأفعاله تنبئك أكثر ما تنبئك عن معاملته لعباده، من يحب ؟ من لا يحب ؟ من يوَفِّق ؟ من لا يوفِّق ؟ من ينصر ؟ من لا ينصر ؟ أما بيانه الكريم أو هذا القرآن الكريم، وهذا ثالثاً ففيه توضيحٌ لكل شيء.

إذاً: يمكن أن تعرفه من خلال خلقه.

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية 101)

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32))

(سورة عبس)

هذا مصدرٌ كبير من مصادر معرفة الله عزّ وجل.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

2 – أفعالُ الله:

هذا مصدر آخر، وهذه أفعاله، الكون خلقه، وهذه أفعاله..

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(سورة العنكبوت: آية 40)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

كيف يشهد الله تعالى للرسول بصدق القرآن ؟

هذه كلُّها قوانين مستنبطة من كتاب الله، ويؤكِّدُها الواقع، فكيف يشهد ربنا سبحانه وتعالى لهذا النبي العظيم أن هذا القرآن كلامه ؟ الإنسان يشهد لك بلسانه، يقول لك: أشهد أن هذا الشيء وقع أمامي، ولكنّ الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة ذكر أنه يشهد لعباده أن هذا القرآن كلامه أنزله بعلمه، ربنا عزّ وجل؟ يشهد بأفعاله.

ربنا عزّ وجل إلى أوعد المُرابي بالحرب من الله ورسوله، فإن هذا وعيد في كتاب الله، والحياة اليومية، الأفعال الإلهية تؤكِّد معنى هذه الآية، فإذا استقمت على أمر الله، وعشت حياةً طيبة فالحياةُ الطيّبة شهادة الله لك بأن الكلام الذي أُنزل على النبي حق وصدق، ومنه قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: آية 97)

إذاً: الحياة الطيّبة هي شهادة الله لك أيها المؤمن على أن كلام الله حق، والمعيشة الضَنْك شهادة الله للإنسان على أن القرآن كلام الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

وهذه شهادة والواقع اليومي يصدق ذلك، ولكن إذا اهتديت بالتي هي أقوم، بهدي هذا القرآن، فالتي هي أقوم شهادة الله عزّ وجل لك بأن هذا القرآن حق، إذاً أنت أمام مصدر كوني، الكون مصدرٌ لمعرفة الله، وأنت أمام مصدر عملي، وهو معاملة الله لعباده، للمؤمنين، للكافرين، للمستقيمين، للمنحرفين، للكاذبين، للصادقين، للأوفياء، للخائنين، للناصحين، لمن يَغُشّون، معاملة الله لعباده شهادةٌ منه لعباده.

مِن أفعال الله: فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظّالِمِينَ

لذلك فالآية الكريمة التالية:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظّالِمِينَ)

هي شهادة، أيْ أنّ هذا الذي ظلم نفسه أزهقها وأوجعها، وأشدُّ أنواع الظلم أن تظلم نفسك، وظلمُ النفس حينما تُبْقيها جاهلة، حينما لا تُعَرّفها بمكانتها عند الله عزّ وجل، حينما لا تعرّفها بمهمتها في الدنيا، حينما تطلق لها العنان، تطلقها لشهواتها فأنت بهذا تظلمها، أشدُّ أنواع الظلم أن تظلم نفسك، ومن ظلم النفس أن تبقيها جاهلة لذلك: **" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ".**

1 – عليكم بالعلم:

العلم بابٌ إلى الله عزّ وجل، لقوله تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية 9)

إذاً:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

2 – لا ينفع الغنى:

هذا الذي غاص في الدنيا إلى قمّة رأسه، وجمع من أموالها ما لا سبيل إلى حصره، وحينما جاءه ملك الموت شعر أنه مُقْدِمٌ على حياةٍ لا يملك فيها نقيرًا، هذه الحياة الأبدية التي قال الله عنها في محكم تنزيله:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

رجل من الأغنياء المترفين ترك مالاً كثيراً جداً يزيد على ثمانمئة مليون، حينما حضرته الوفاة لقيه رجل من أهل العلم فقال له: ماذا أفعل ؟ قال: والله لو أنفقت مالك هذا كلّه الذي جمعته من حرام فلن يقبل منك هذا المال.

وهذه كلمة حق، فهذا الإنسان ظلم نفسه، لأنه متى عرف الحقيقة ؟ بعد فوات الأوان حينما صار على وشك الموت، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

(سورة الحاقة)

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)

3 – انظرْ أين تمضي أوقاتك:

إذاً: إذا أمضيت الوقت، واستهلكته استهلاكاً رخيصاً، إذا استهلكت الوقت في طلب اللذائذ، إذا استهلكت الوقت في جمع الأموال، إذا استهلكت الوقت في التَمَتُّع في الدنيا، ولم تدر لماذا أنت في الدنيا، لم تدر

أين كنت، ولا إلى أين المصير ؟ لم تتعرف إلى الله عزّ وجل، ولا إلى منهجه فقد ظلمت نفسك ظلماً لا حدود له، لذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

عبرٌ لمَن يعتبر:

1 ـ فرعون:

هذا ظلم، وفرعون نفسه لأنّه ظلم نفسه فاستكبرتْ عن أن تعرف الله عزّ وجل، أو عن أن تخضع للحق، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ؛ بنى مجده على أنقاضهم، بنى غناه على فقرهم، بنى أمنه على قلقهم، بنى حياته على موتهم، حينما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس: آية 90)

فربنا سبحانه وتعالى أجابه فقال:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية 91)

لا ينفع هذا الإيمان في هذه اللحظة، إذاً ظلم نفسه، وعاقبته الخُسْران المبين، وكلُّ شيءٍ جَمَّعَهُ في حياته خسره في ثانيةٍ واحدة، والنارُ كما قال الله عزّ وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

2 ـ أبو جهلٍ وأبو لهبٍ:

أبو جهل أين هو الآن ؟ أبو لهب أين هو الآن ؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3))

(سورة المسد)

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ لم ينتصروا، بل خُذلوا، ولحقتْهم لعنة في الدنيا والآخرة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

عبرٌ لمَن يعتبر:

1 – مصيرُ آكلِ أموال الناس بالباطل:

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، ظلموها بعدم تعريفها بالله عزّ وجل، وعدم تعريفها بمنهجه، والذين ظلموا الناس فأكلوا أموالهم ظلماً فمآلهم إلى حساب عسير.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدّى اللّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللّهُ))

[البخاري]

تتبّع الذي يأكل أموال الناس بالباطل، تتبّع الذي يأخذ أموال الناس ليتلفها لا ليؤدِيها لهم، كيف أن الله عزّ وجل يُتْلِفَه ؟ إذاً يمكن أن تستنبط دروساً بليغة ومواعظ كبرى من تتبع حوادث الناس، هذا الذي ظلم نفسه فأبقاها جاهلة ما عرّفها بربها، وما عرّفها بمنهجها، جعلها تتيه في ظلمات الحياة، حينما حضرته الوفاة كاد أن يذوبُ ندماً على ما مضى، ولكن لاتَ ساعة مندم، هذا الذي أكل أموال الناس بالباطل انظر كيف دمّره الله عزّ وجل، كيف سحقه، كيف حاربه، كيف أتلفه ؟

2 – جزاء المعتدي على أعراض الناس:

وهذا الذي اعتدى على أعراض الناس، انظر إلى مصيره، انظر إلى قذارته، انظر إلى حياته الداخلية كيف أنّها جحيمٌ لا يُطاق، ربنا عزّ وجل جعل لكل حسنةٍ ثواباً، وجعل لكل سيئةٍ عقاباً، **" بشّر الزاني بالفقر ولو بعد حين "**، **" من يزن يُزن به ولو بجداره "**، إن كنت يا هذا لبيباً فافهم.

تتبع من أكل أموال الناس بالباطل، تتبع من اعتدى على أعراض الناس، هذا قانونٌ دقيقٌ دقيق يسري على الناس جميعاً، ولكن الناس في غفلةٍ عن هذا.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

3 – جزاء مَن ربّى أولادَه على تحصيل الدنيا ونسي دينَه:

هؤلاء الذين ظلموا أولادهم، اهْتَمّ من أمر أولاده وحياتهم أن يكونوا شخصياتٍ مرموقةً في المجتمع على حساب دينهم، ما كان يبالي بدين أبنائِهِ، اهْتَمّ فقط أن يكون ابنه ذا مركزٍ كبير، ومالٍ وفير ليعتَزّ به، وليقوى جانبه بمعونة ابنه له، تتبّعْ قصّة هذا الإنسان ترَ أن هذا الابن صار عدواً له، فربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام)

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظّالِمِينَ)

(سورة يونس)

هنا:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظّالِمِينَ)

(سورة القصص)

هذا الابن يوم القيامة يقول: **" يا ربِّ لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ".**

4 – جزاءُ إهمال الزوجة:

هذا الذي لم يأخذ بيدِ زوجته إلى الله عزّ وجل، فهي قد أعانته على أمر دنياه، ولم يُعنها على أمر آخرتها، رضي منها المعصية، قَبِلَ أن تخرج كما تشاء، قَبِلَ أن تفعل ما تشاء مادامت مصالِحُهُ موفّرةً لديها، انظرْ إلى حياته الدنيا وإلى عاقبته، هذا ظلم امرأته ظُلْماً من نوعٍ آخر، ظلمها إذْ لم يُعَرّفها بربّها.

5 – جزاء الظالم:

شيءٌ آخر، هذا الذي يظلم مَن هم فوقه بعدم تقديم النصيحة لهم، والذي يظلم من دونه بعدم رحمته لهم، انظر كيف كانت عاقبته، فهذه الآية دقيقة جداً، لأن الإنسان حينما يتعلّم شيئاً نظرياً، فهذا الشيء النظري ليس مُتأكِّداً من صحّته، أما إذا استنبط حقيقةً من موقفٍ عملي فهذه حقيقة مع البرهان عليها، لذلك كانت القصّةُ ذات أثرٍ بليغ في السامع، لأن القصّة حقيقة، ولكن مع البرهان عليها، فربنا سبحانه وتعالى قد يذكر في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكِّدُ أنه لا إله إلا الله، ولكن يسوق لك قصّةً طويلة مغزاها:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

العبرة مِنَ القصة بالحقائق العملية لا بالحقائق النظرية:

قصّةُ سيدنا يوسف بأكملها مغزاها أنه لا إله إلا الله، وكذلك قصة سيدنا موسى مع فِرعَون:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(القصص)

طفل صغير أُلقي في اليَم، التقطه آل فرعون، ألقى الله حبه في قلب امرأة فرعون:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً)

(القصص: آية 9)

كيف أن الأمور جرت إلى أن كَبِرَ سيدنا موسى، وتورّط مع قبطي.

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

(القصص: آية 15)

جاءه من ينصحه.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

كيف خرج منها خائفاً يترَقَّب، فتوجه إلى مدين، وبقي مع سيدنا شُعيب عشر سنوات، وكيف عاد إلى مصر ؟ وكيف وهو في طريق العودة ضَلّ الطريق، واشتدّ البرد، ولمح عن بعدٍ ناراً، وكيف ذهب ليأخذ قبساً من هذه النار، أو ليأخذ خبراً عن الطريق ؟ وكيف ناجّاه الله عزّ وجل ؟ وكيف كلّفه أن يعود إلى فرعون، وأن يجابهه ؟ كلُ هذه القصّة تؤكّدُ أنه لا إله إلا الله.

فلذلك ؛ الحقيقة التي تستنبطها من قصّةٍ، أو من حدثٍ أبلَغُ من الحقيقة النظرية، لأن الحقيقة النظرية تحتاج أنت إلى برهان عليها، أما هذه القصة فمعها برهانُها، فلذلك قيل: السعيدُ من اتعظ بغيره، والشقيُّ لا يتّعِظُ إلا بنفسه، فلذلك انظر إلى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فلم يُعَرّفوها بربّها، لم يعرّفوها بمنهجه، كيف أنهم في آخر العُمر ذابت نفوسهم ألماً وحسرةً على ما فرّطوا:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل تتبع قصصهم، هؤلاء الذين اعتدوا على أعراض الناس، هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس، هؤلاء الذين بنوا غِناهم على فقر الناس، هؤلاء الذين بنوا أمنهم

على خوف الناس، هؤلاء الذين بنوا حياتهم على موت الناس، كل هؤلاء كلهم تتبع أخبارهم تجد أن عاقبتهم وخيمة جداً.

لا تظلمنّ أبدا فتصاب بما لا تحمدُه:

يا أيها الإخوة الأكارم، حتى لو ظلم الإنسان حيواناً، مرّ بنا في دروس سابقة أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن التمثيل بالبهائم، ونهى عن أن تتخذ البهيمة غرضاً في الرمي، ونهى عن أن يذبح الإنسان الشاة أمام أختها، وأمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أنْ نُحِدّ السكين، وأن نُرح ذبيحتنا، إذاً الإنسان أيضاً محاسبٌ إذا ظلم الحيوان.

وقد أخبر عن امرأةٍ دخلت النار في هرةٍ حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض.

وكيف أن الله سبحانه وتعالى غفر لامرأةٍ رأت كلباً يأكل الثرى من العطش، كيف أنها سقته فغفر الله لها، إذاً ظُلْمُ الحيوان له عاقبةٌ وخيمة، هذا الذي أمسك بهرةٍ، وصار يضربها على الجدران حتى ماتت، فوراً اختل توازنه، وصار معه مرضٍ عضال، وهذا الذي أراد أن يدوس كلباً بعجلات سيّارته كيف أنه بعد أسبوع فقد يديه الاثنتين، الله عزّ وجل يقول:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

هذا الذي دخل إلى معمله، له معملٌ ضخمٌ للحلويات يرسل منه كل يوم طائرتين إلى بعض الدول الأخرى، دخل إلى معمله فلم يعجبه عَرْكُ العجين، فألقى هذا العجين على الأرض، وعركها بقدميه وحذائه، وقال للعامل: هكذا افعل، فَفَقَد رجليه، وهو الآن مُقيم بمدينة في أوربة، عنده أكبر معمل للحلويات خارج القطر:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

تتبع هؤلاء العصاة المذنبين، المتجبّرين، العُتاة، المعتدين تجد أن الله عزّ وجل بالمرصاد، لذلك فالإنسان العاقل هو الذي يخاف الله عزّ وجل، عقلك يقودك إلى أن تخاف الله، وعقلك يقودك إلى أن تُحِبّ الله، والأثر القدسي الذي تعرفونه جميعاً قال:

((يا رب، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أُحِبّه بحبك ؟ قال: يا داود، أحبُّ العباد إلي تقي القلب، نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خَلْقي، قال: يا ربِ، إنك تعلم

أني أُحِبُّك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ (هنا الشاهد) قال: ذَكِّرْهُم بآلائي، وذكرهم بنَعْمَائي، وذكرهم ببلائي))

الآيات الكونية من أجل أن تُعَظِّمَهُ، والنِعَم من أجل أن تحبه، والنِقَم من أجل أن تخافه، إذاً لابدّ من أن يشتمل قلبك على مشاعر ثلاثة، هي مشاعر التعظيم:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام: آية 91)

هان الله عليهم فهانوا على الله، لابدّ من أن تُعَظِّم الله عزّ وجل:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لم يرَهُ عظيماً، ماذا قال إبليس ؟

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

آمن بالله خالقاً إبليس وآمن بالله رباً إبليس ولكن ما رآه عظيماً، إذاً يجب أن تشعر بعظمة الله عزّ وجل.. ذكرهم بآلائي، ويجب أن تشعر بمحبته.. وذكرهم بنعمائي، ويجب أن تشعر بالخوف منه.. وذكرهم ببلائي.

الحقيقة أنّ التوازن ضروري جداً، أحياناً يطغى عند الإنسان جانبٌ على جانب، يطغى جانب الطمَع بالله عزّ وجل، أو جانب الحب، لكن من دون تقديم الثمن، من دون تقديم الموجبات:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة: آية 18)

ادّعاء..

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية 18)

إذاً: لابدّ من أن تحبه حباً صحيحاً، وعلامة المحب الطاعة، الحب شيء داخلي في النفس، ومظهره الخارجي هو الطاعة.

تعصي الإله وأنت تظهر حبهُ هذا لعمري في المقالِ بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتهُ إن المُحِبّ لمن يحب يطيعُ

***

إذاً: لابدّ من الحب، ولابدّ من الخوف، ولابدّ من التعظيم.

الفائدة مِنَ النظر في عاقبة الظالمين:

الحقيقة أنك إذا نظرت إلى عاقبة الظالمين تشعر عندها بالخوف حقاً، والخوف من الله حالة صحية، وضرورية، فكلما رأيت إنساناً انحرف عن طريق الحق، ثم دفع الثمن باهظاً فاستنبط أن هذا هو الثمن الباهظ الذي دفعه، واستنبط من انحرافه الذي ارتكبه حقيقة، وهي أن الله عزّ وجل لا يحبك أن تفعل هذا، هذا هو العاقل، العاقل من اتعظ بغيره، وربنا عزّ وجل يقول:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

انظرْ.

لا يُعقل أن يكون الحيوان أذكى من الإنسان !!!

ثمة شيء قد يبدو من الضروري أن أقوله لكم: بعض الحيوانات الذكِيّة إذا رأت بعض أفرادها أكل طعاماً فمات لا يمكن أن تأكل هذا الطعام، إذا رأى أحد أفراده أكل طعاماً فيه سُم، ومات لتوّه فكل هؤلاء لا يمكن أن يقتربوا من هذا الطعام، أيكون الحيوان أذكى من الإنسان ؟

انظر أيها الأخُ الكريم، أنت أمام معارف غنية جداً، الله عزّ وجل علّمك كل شيء، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

لماذا أمرنا أن نتقيه ؟ لأنه يعلِّمنا دائماً:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

هذه الواو حالية، والجملة حالية، لأن الله يعلمكم دائماً، فلِمَ لا تتقوه ؟ علمكم بالكون، وعلمكم بالعقل، وعلمكم بالفطرة، وعلمكم بالأنبياء والرُسُل، وعلمكم بالكتب السماوية، وعلمكم بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وعلّمكم من خلال الحوادث، وعلمكم من خلال الإلهام، وعلمكم من خلال الرؤية، الحوادث موجودة، والرؤية موجودة، والقرآن موجود، والسنة موجودة، والإلهام موجود، والأنبياء والرسل والكون والعقل كل هذا يعلمكم:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

المصائب بسبب الذنوب والمعاصي:

أردتُ من هذه الآية أن نأخذ منها حقيقة أساسية، هي أن الحوادث التي تجري تُعطينا معلومات دقيقة جداً عن طريقة معاملة الله لعباده.

إنّ مدينة من أفسق مُدن شمال إفريقية فيها نوادٍ للعُراة، وكل شيءٍ حرّمه الله مباحٌ في هذه المدينة، أصابها زلزال، فدُمّرت في ثوانٍ ثلاث، وقلعةٌ من قلاع الفساد، فندقٌ كبير عدد طوابقه ثلاثون طابقاً، خُسِفتْ به الأرض فانهار، وابتلعته الأرض، ولم يبق منه إلا طابقه الأخير، وعليه اسمه الشهير.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه هي الأحداث، قد تقول: الزلزال لها أسباب أليمة، انزلاق في التربة، التواء في الطبقة التحتية للأرض، هذا التفسير العلمي صحيح، ولا يتناقض مع التفسير الديني، لأن الله عزّ وجل كل شيءٍ يكون قد وقع بأمره، هذا سبب، ولهذا السبب مسبِّب، وهو الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل إذا أراد بقومٍ سوءاً جعل لهذا الدمار أسباباً مادية أيضاً، فلا ينبغي للإنسان أن يمر هكذا دون أن يجني عبرة وعظة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

رجل في دكانه، واثنان آخران تشاجرا أمامه، وأحدهم معه مسدس فأطلق على خصمه رصاصة، فأخطأت خَصْمَه، وأصابت صاحب هذا الدكان، أصابته في عموده الفقري، فأصبح مشلولاً لتوّه، قيل: ما ذنب هذا الإنسان ؟ جاء ليفتح محله التجاري، وليكسب قوت يومه، والحقيقة ليس هناك من جواب " لله في خلقه شؤون "، ولكن بعد حين تبيّن أن هذا الرجل آكلٌ لأموال اليتامى ظُلْماً، وأن هؤلاء اليتامى بذلوا محاولاتٍ مضنيةٍ في سبيل إرجاع حقهم فلم تفلح، إلى أن التقوا بعالمٍ جليل توفاه الله ـ رحمه الله ـ ليكون حكماً بينه وبينهم، أيضاً هذا المُحَكَّم العالم لم ينجح في تحقيق مطلب اليتامى، فكانت كلمتُه الأخيرة: اشكُوه إلى الله، هذا الكلام تمّ في الساعة الثامنة مساءً، وفي الساعة التاسعة صباحاً جاءته هذه الرصاصة الطائشة، هل هي طائشة ؟ لا والله، بل مصيبة وهادفة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(سورة يونس)

دع القرآن جانباً، وهو كلام الله، ولكن أنت أمام حوادث، حوادث يومية، هناك قانون دقيق تتبعه، ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر.

ولكن الموقف الكامل منك ـ أيها الإنسان ـ أنه إذا أصابتك مصيبة فاتهم نفسك دائماً، هل هناك تقصير ؟ هل هناك انحراف ؟ هل هناك مخالفة ؟ هل هناك معصية ؟ هل هناك شرك خفي ؟ هل هناك إعجاب ؟

هل هناك اتكال على الذات ؟ هل هناك تعظيم لغير الله عزّ وجل ؟ هذا مع نفسك، أما مع الناس فأحسِن الظن بهم. عَنْ سَعْدٍ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

إذا أصابتك المصيبة فاتهم نفسك، وإذا أصابت أخاك فاحسن به الظن، وإنّ حسن الظن بأخيك المؤمن من علامة إيمانك.

من علامة إيمانك أن تحسن الظن به، ولكن يجب أن توقن أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن الشيء إذا أراده الله وقع، وإذا وقع أراده الله، وأن الذي وقع فيه حكمة بالغة، وإن حكمة الله عزّ وجل متعلقةٌ بالخير المطلق، هذه الحقيقة تكون للإنسان برداً وسلاماً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمانُ بالقدَرِ يُذهِبُ الهمّ والحزنَ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه مقال]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

أيها الإخوة الأكارم، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

(القصص: آية 40)

أدنى مؤمنٍ أذكى من فرعون:

إذاً: وفق هذه الحقيقة فإن أقلّ مؤمنٍ على وجه الأرض أذكى من فرعون، ما دام هذا المؤمن قد عرف أن له رباً عظيماً، وأن له شرعاً حكيماً، فالتزم أوامر الشرع، وانتهى عما نهى الله عنه، وسار في طريقٍ سالكة إلى الجنة، إذاً هذا التفكير البسيط الحقيقي الواضح يجعلك أذكى من أكبر الطُغاة، ماذا فعل فرعون ؟ عاش حياةً محدودة، لِيَعِشْ مئة عام إن استطاع، ولكن جاءه الموت فخسر كل، يقول شيء وربنا عزّ وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

وبحساب بسيط: مضى على موته أو غرقه سبعة آلاف عام، اضرب سبعة آلاف عام بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً، ضرب اثنين، أي ضرب يوم وليلة:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

(سورة غافر)

والمزيد إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر: آية 46)

أين الذكاء ؟ إذاً هو غبي جداً، من هو الذكي ؟ الذي عرف الله عزّ وجل، وأرْجحُكم عقلاً أشَدُّكم لله حباً، ورأس الحكمة مخافة الله.

أنت في أعلى درجات الذكاء، أعلى درجات الفلاح، أعلى درجات الفوز، أعلى درجات التوْفيق، حينما تكون متمثلاً أمر الله عزّ وجل.

سُئِل الإمام الجنيد: **" مَنْ وليُّ الله ؟ قيل له: أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال لهم: لا، قيل له: أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال لهم: لا، ثم قال: الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، المُطبِّق لأمر الله عزّ وجل "**، أي أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، إذاً أنت من أولياء الله، أقلُّ مؤمنٍ على وجه الأرض أذكى من فرعون، أقلّ مؤمن لو أن حياته بسيطة، لو أن بيته متواضع، لو أن طعامه خشن، لو أن ثيابه متواضعة جداً، مادام قد عرف أن له رباً عظيماً، وأن لهذا الربِّ العظيم شرعاً حكيماً، فالتزم أوامر الشرع، وانتهى عما نهى الله عنه، فإنه عندئذٍ يشعر بطمأنينةٍ وسعادة، ويصير طريقه إلى الجنة سالكاً:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة القصص)

معنى: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ

أئمة يدعون إلى النار، أي يدعون إلى أعمالٍ تستوجبُ النار.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً)

لها معنيان:

المعنى الأول: السابق إلى المعصية يقتدي الناسُ به مِن بعده:

السابق إلى المعصية يَقْتَدي به الناس من بعده، فالسَبَّاق إلى المعصية بشكلٍ أو بآخر داعٍ لها.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

[مسلم وأحمد، واللفظ له عن جرير]

هذا الحديث واضح، وهو صحيح، لكن في حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

[مسلم عن جرير]

التوفيق بين الحديثين السابقين:

الحقيقة أن التوفيق بين الحديثين قضية سهلة، البدعة بمعناها اللغوي كلُّ شيءٍ جديد، والبدعة بمصطلحها الديني أن تُحْدِث في الدين ما ليس منه، إذا أحدثت في الدين، في عقائده، أو في عباداته شيئاً جديداً ليس من الدين فهذا بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وانتهى الأمر.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة: آية 3)

بعد أن أكمل الله هذا الدين وأتمّه، أتمه عدداً، وأكمله نوعاً، أي أن عدد القضايا التي عالجها الدين تامّة، تُغَطِّي كل حاجات الإنسان، ونوعيّة المعالجة كاملة، معالجةٌ واسعة، كافية، وافية، وفضلاً عن هذا وذاك فالله سبحانه وتعالى رضي لنا هذا الدين، أيستطيع إنسان كائناً من كان أن يضيف عليه شيئاً ؟ مستحيل، إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

ولاسيما في العبادات والعقائد، أما في المعاملات فإن ربنا عزّ وجل سمح لنا أن نجتهد، لذلك أنزل بعض آياته بشكلٍ مجمل، وسَمَحَ للعلماء أن يستنبطوا منها أحكاماً تفصيلية، ولكن الحديث النبوي الثاني الذي يقول:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ))

مثلاً: إنسان في الحر الشديد جاء بجديد في المساجد، هيّأ لها جهاز تكييف مثلاً، أو في البرد الشديد هيّأ جهاز تدفئة، أو وَفّر في المساجد ما فيه راحةٌ للمصلين، شيءٌ لم يكن على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ ماء ساخن، ماء بارد للشرب مثلاً، أو تبريد، وتدفئة، هذه أشياء جديدة لم تكن على عهد النبي

عليه الصلاة والسلام، ولكنها سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لكن موطن الشاهد في الآية:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه محلُّها الفقرة الثانية من حديث رسول الله:

((وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

هذا الذي يبتدع شيئاً مخالفاً للسنة، مخالفاً للشرع، فيه اختلاط، فيه كشف عورات، فيه إيقاظ فتن، فيه تحريك شهوات، هذا الذي يفعل ذلك إذا سبق إليه فكأنّه داعيةٌ له، لذلك قالوا: أشد أنواع الذنوب هي التي تبقى بعد موت الإنسان.

مَن أسس ملهى ثم مات، وهذا الملهى بقي يعمل مئات السنين بعده، أسس دار قِمَار، أسس نادياً ليلياً، مثلاً، هذا الذنب يموت صاحبه، ويبقى الذنب، إذاً كل مَن اقترف هذا الذنب في هذا المكان فعليه وزره، ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، هذه هي الطامة الكبرى حقيقةً، فالإنسان قبل أن يفعل شيئاً فيه مخالفةٌ للشرع، فيه خروج عن أوامر الدين، فيه إضلال للناس، فيه إفساد لعقائدهم، فيه إفساد لعلاقاتهم، فيه إفساد لزواجهم وأسرهم، هذا شيءٌ خطير، إنسان جلب إلى بيته بعض الأجهزة المُلهية، فإذا هو أمام مشكلات بين أولاده ليس لها حل، فالذي اخترع هذا الجهاز، والذي صنع هذا الجهاز، والذي اقتنى هذا الجهاز، والذي استخدم هذا الجهاز إلى يوم القيامة يتحملون الأوزار جميعاً، لذلك:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً)

المعنى الثاني: تحمُّلُ نتائج المعصية يوم القيامة:

المعنى الواسع لـ:

(أَئِمَّةً)

أن كل من فعل شيئاً فيه إثمٌ، أو فيه مفسدةٌ، أو فيه إضلالٌ، فسوف يتحمّل كل النتائج إلى يوم القيامة، من هنا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)

(سورة يس: آية 12)

فهذه المرأة الزانية إذا ربت ابنتها على الزنا، وجاء من هذه المرأة جيلٌ من الزانيات، قد يَعُدُّ الملايين إلى يوم القيامة، فكل هذا الجيل في صحيفة هذه المرأة التي ربّت ابنتها على الزنا، ولذلك فقبل أن تفعل

شيئاً، قبل أن تتخذ حرفةً، قبل أن تنشئَ مشروعاً، قبل أن تجري عادةً لم تكن من قبل، ادْرُسها، عُدّ للمليون، فإذا كان هذه اللقاء على معصية، أو كان هذا المشروع على ضلال، أو كانت هذه التجارة مُحَرّمة، أو كان جلب هذه البضاعة يؤذي الناس، قبل أن تفعل مثل هذا فكِّر مَلِيّاً:

((مَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الْإِسْلَامِ سُنّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

حينما اتفق الناس، أو حينما ابتدعوا مثلاً أن يجلس العريسُ على منصةٍ مع عروسه أمام المدعوات، فهذه سنة سيئة مخالفة للشرع، لأن الرجل يرى المدعوّات كاسيات عاريات، كلُّ مَن فعل هذا من بعده عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، فالكلمة، والبيت، والتجارة، والبيع، والشراء، والاجتماع، والمشروع، قبل أن تفعل شيئاً من هذا كله يجب أن تقيس هذا الشيء على الشرع، وتعرضه عليه، لأنّك إذا فعلت شيئاً فيه إضلال، أو فيه إفساد، أو فيه فتنة، أوفيه تحريكُ شهوة، فأنت ممن تنطبق عليهم هذه الآية، قال ربنا عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

أيْ يدعون إلى عملٍ يستوجِبُ النار، فيجب أن يبقى هذا في ذهنك.

ليس معنى أن تكون داعية إلى النار أن تلقي خطباً في الدعوة إلى النار، لا، هذا معنى ضيق جداً، هناك أُناسٌ يدعون إلى النار بخطبهم، وألسنتهم، ومؤلّفَاتِهم، وكتبهم، ونظريّاتهم، لكنهم إذا قيسوا بالمعنى الواسع لهذه الآية فهُم قلة، هذا الذي يُسَخِّر فكره، وذكاءه، وعلمه من أجل دعوة الناس إلى الكفر، وإلى البعد عن الله هؤلاء قِلّة، ولكن الآية تعني أن كل من يَسُنُّ سنةً سيّئة بشكلٍ أو بآخر، من حيث يريد أو لا يريد، يشعر أو لا يشعر فقد دعا إلى النار، وصار إماماً إلى النار.

المؤمن داعية إلى الجنة قولاً وعملاً:

إذا كنت بطلاً فكن داعيةً إلى الجنة، كن داعياً إلى الله عزّ وجل، الحياة تمضي، والذين دعوا إلى الله ماتوا، والذين دعوا إلى النار ماتوا، ولكن يوم القيامة هؤلاء في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وأولئك في عذابٍ مقيم إلى أبدِ الآبدين، فإذا أردت أن تدعوَ، إذا أردت أن تكون إماماً، إذا أردت أن تكون شخصية قيادية، إذا أردت أن تؤَثِّر في الآخرين فتعرّف إلى الله عزّ وجل، ودُلّ الناس إلى الله عزّ وجل، وهذه صنعة الأنبياء، وما من صنعةٍ أشرفُ من أن تكون سبباً في هداية الخلق:

((لأنْ يهديَ اللهُ بك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند ضعيف]

((فوَ اللّهِ لَأنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النّعَمِ))

[متفق عليه عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

((خيرٌ لك مِن الدنيا وما فيها))

[ورد في الأثر]

إذا أردت أن تؤثِّر في الآخرين، إذا أردت أن تكون إنساناً متميِّزاً، إذا أردت أن تكون إنساناً إماماً، متفوّقاً، وهذا شيء جميل، ومطلب مشروع، لأن الإنسان عنده حب البقاء، لذلك يتزوّج، الطعام والشراب يوفِّر بقاء الفرد، والزواج يوفِّر بقاء النوع، والأعمال البطولية توفِّر بقاء الذكر، فإذا أردت أن يبقى ذكرك دائماً متفوّقاً قيادياً فلا مانع، فتعرّف إلى الله عزّ وجل، وتعرّف إلى منهجه، وادْعُ إليه، وإلى منهجه، أما أن يكون الإنسان داعية إلى النار فأعوذ بالله من ذلك، لذلك تجد بين الناس ضالاً ومضلاً، كما أنّ عندنا مهتدياً وهادياً، ضالاً مُضِلاً، وفاسداً مُفسِداً، وبعض الناس وظيفته الإفساد، فهو فاسد مفسد، ضال مضل:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمّةً يَدْعُونَ إلَى النّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

لا نصرة ولا نسب ولا خلة يوم القيامة: وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ

إذا وقع للإنسان في الدنيا مشكلة فهناك من ينصره ولو على باطل، فلا أحد يقع إلا وله أصحاب، أصدقاء، أقران، زملاء، أقرباء، ابن، أخ، يدفعون إذا وقع أو، يوسطون، أو يوكِّلون، تجد أن الأمور قد انفرجت، هذا في الدنيا، ولكن يوم القيامة:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

لا أحد معك:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوّلَ مَرّةٍ)

(سورة الأنعام: آية 94)

إنَّك في الدنيا تجد لك أنصاراً وأتباعاً ومحبين، هذا كله في الدنيا، ولكنك تأتي يوم القيامة فرداً لا أحد معك إلا عمَلُك، لذلك: **" يا قيس، إن لك قريناً يُدفَن معك وأنت ميّت، وتدفن معه وهو حي، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك ".**

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إلّا مَنْ أتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

دعك من حُبِّ الناس، إذا أحببت نفسك فقط، إذا بالغتَ في حبِّ ذاتك يجب أن تُعدّ لهذه اللحظة عدتها.

إن إخوانًا كثيرين في هذا المسجد رحلوا قبلنا، وهؤلاء بالعشرات ـ والله ـ وأنا هنا بفضل الله عزّ وجل منذ ثمانية عشرَ عاماً خطابة وتدريسًا، أذكر أن الإخوة الذين رحلوا عنا بالعشرات، ما مِن شهر أو

شهرين إلا وتجد أن أخاً رحل، فنقرأ له الفاتحة، وندعو له، ونحن على هذا الطريق سائرون، لأنك بضعةٌ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا.

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت

****

الليل مـهما طـال فلابدّ من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر

****

فيا أيها الإنسان سواءٌ في تربية بناته، في تربية أولاده، في علاقته بزوجته، في مهنته، في ببيعه، في شرائه، إيّاك أن تفعل شيئاً مخالفاً للسنة، فإذا كنت ذا شأن، وقلّدك الآخرون، دعوت وأنت لا تشعر إلى النار، فالمعلم له شأن عند طلابه، فإذا فعل شيئاً مخالفاً للسنة كأنه دعا إلى النار، والأب له شأن عند أولاده، إذا فعل أمامهم معصية وهم على صغر سنهم، ورأوا أن أباهم قد فعل هذا، وهو كامل في نظرهم، وفعلوا كما فعل فكأنّه دعاهم إلى النار، دعاهم إلى ما يستوجبُ النار، طبعاً هذا المعنى موسع جداً:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

هذا هو السقوط المخيف فانتبه أن يصيبَك:

1 – اللعن في الدنيا:

لذلك الصعود مُسْعِد، لكن السقوط صعب، المؤمن حياته في صعود مستمر، لأن ربنا عزّ وجل يحوطه بالعناية والرعاية، إنه صعود بطيء لكنه مستمر، أمّا الكافر فقد يصعد في الدنيا صعوداً حاداً، ويسقط سقوطاً مُريعاً:

(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

إنّ من أصعب الأشياء أن يَلْعَنَ الناس شخصاً في صُبْحِهم ومسائهم، في لهوهم جدِّهم، في حياته وبعد مماته، ذلك أن سمعة الإنسان متعلقة بعمله، فإذا كان العمل صالحاً أثنى الناس عليه، وقد قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق.

إن علامة المؤمن الصادق أن الناس يحبونه جميعاً، لأنه محسن، والذي يكذب على الناس، ويحتال عليهم، ويأكل أموالهم بالباطل، أو يخدعهم، ويَغُشُّهم، ويظلمهم، هذا يسقط شأنه عندهم، لذلك يلعنونه، ربنا عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

(سورة الذاريات)

أي يا محمد، لست ملوماً عندي، ولست ملوماً عند نفسك، ولست ملوماً عند الناس، هذه نهاية العَظَمَة، نهاية الكمال، هناك إنسان عند الله ملوم، ذكي جداً، بذكائه يسترضي الناس جميعاً، لكنه مرتكبٌ معاصيَ كثيرة، فهو عند الله ملوم، وعند الناس محمود، مثلاً، وهناك إنسانٌ يحمده الناس، ولكنه ينوي لهم نيات خبيثة، فهو أمام نفسه ساقط، وعند نفسه مذموم، ولكنّ البطولة أن تكون محموداً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك.

إن الإنسان بذكائه أحياناً يستطيع أن يسترضي الناس، ولكن حينما لا يكون في المستوى اللائق أمام نفسه فإنه يسقط من عين نفسه، والإنسان إذا احتقر نفسه عاش حياةً شقية، إذْ إن العمل الطيّب المستقيم، والصدق والإخلاص تورث في النفس احتراما للذات كما يقولون، واحترام الذات شيءٌ مسعِد، كن دائماً واضحاً في علاقتك، في مبدئك، في أقوالك، في أفعالك، لأن الوضوح يورث احترام الذّات، إذاً:

(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

2 – الاحتقار والذل يوم القيامة:

واللهِ هذه هي المصيبة، أن يأتي الإنسان يوم القيامة وهو مقبوح، وهو محتَقَر، قال ربنا عزّ وجل:

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: آية 124)

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

قد ترفَعُ أُناساً، وقد تخفض أناساً، ماذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه ؟ قال: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله "**، فلذلك هؤلاء:

(يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42))

ربنا عزّ وجل قال:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

بين الجنةِ والنار:

الجنة فيها أشياء لطيفة كثيرة، فيها من الطعام والشراب ما لذّ وطاب، فيها فواكه، وَهُمْ مُكرمون، فيها ما تشتهي الأنفس، فيها أنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل مُصَفّى، فيها أنهار من ماءٍ عذبٍ فُرات، فيها أشجار، فيها حور عين، لكن أعظم ثمنٍ من كلّ ذلك:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

قلت هذا في درسٍ سابق: أحياناً تدخل إلى بيت، فيقدّم لك من الطعام ألذّهُ، ومن الشراب أطيبه، ولكنّ صاحب البيت غائب، تشعر بوحشة، أما إذا جاء صاحب البيت، ورحّب بك، وآنسك، وقرّبك، فهذا الترحيب، وهذا الإيناس، وهذا التقريب أثمن عند أُولي العقل من كل هذا الإكرام المادي، لذلك الجنة فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها أهمّ من ذلك، وهو رضوان الله عزّ وجل.

أمّا جهنم ففيها عذابٌ لا يحتمل:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105))

(سورة المؤمنون)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)

(سورة النساء)

وفيها أشد من عذاب النار:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

عذاب الحجاب، وعذاب النار، عذابان معاً، فهذا العذاب:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

تأمّل صور المجرمين في الصحف، صور السارقين، عصابات السرقة والقتل، إذا صوّرهم المصوّر فإنك ترى وجوهاً كالحة مسوَدّة.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42))

(سورة عبس)

في هذا اليوم أعني يوم القيامة، إما أن يكون لك وجه باسم مشرق، وإما وجه عابس كالح، فلتكن من ذوي الوجوه الناضرة، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39))

(سورة عبس)

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9))

(سورة الغاشية)

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

أما أصحاب الوجوه الكالحة فقد قال تعالى:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

(سورة القصص)

حينما يصل الإنسان إلى هذا المستوى فالألم الذي ينتابُهُ من دناءته وقذارته، وانحطاط عمله، ولؤمه وكفره، وجحوده وإنكاره للجميل، وإيذائه للخلق، واستعلائه عليهم، وإيقاع الضُرّ بهم، هذا ألمٌ لا يحتمله الإنسان حينما يستيقظ على الحقيقة المرّة، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46))

(سورة القصص)

خاتمة:

هذه الآيات فيها معانٍ دقيقة جداً، وإن كان هذا لا يبدو في ظاهرها، هذه الآيات تُؤَكِّد أن القرآن من عند الله عزّ وجل، وهذه الآيات دلائل إعجاز القرآن، والإعجاز أنواع ؛ إعجازٌ في النظم، إعجازٌ في الشكل، وإعجازٌ في المضمون، وإعجاز المضمون أنواع، أحد بنود إعجاز المضمون ؛ غيب الماضي، وغيبُ الحاضر، وغيب المستقبل، وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم سنوَسّع الحديث عن إعجاز القرآن وَفق تلك الآيات الكريمة التي تأتي عَقِبَ هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 43 - 45

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-06-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45))

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

من خصائص هذه الآيات: ابتداءها بقوله: وَمَا كُنْتَ...

هذه الآيات أيُّها الإخوة، تبدأ في معظمها بقوله تعالى:

(وَمَا كُنتَ)

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ)

(سورة القصص: آية 44)

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)

(سورة القصص: آية 45)

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ)

(سورة القصص: آية 46)

القرآن كلام الله:

1 – إثبات الغيب المستقبلي في القرآن:

الحقيقة أن هذه الآيات تُثبِتُ أن هذا الكتاب كلام الله، لأن هذا اسمه عند علماء القرآن غيب الماضي، الغيب أنواعٌ ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، فالأشياء التي مضت، والتي لا

يمكن أن يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان في مدين، وما كان في هذه القرون السابقة، ومع هؤلاء الأقوام، ومع هؤلاء الأنبياء، ما كان معهم، من أنبأه بخبرهم ؟ من أعطاه ما وقع بالتمام والكمال؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فقد ورد في القرآن الكريم قصة سيدنا موسى مع فرعون، وقصة سيدنا موسى مع سيدنا شعيب، وقصة سيدنا يوسف، وقصة سيدنا يحيى، وقصة السيدة مريم، هذه القِصَص، قصص الأنبياء التي وقعت من قبل ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام بحكم أنه عاش في صحراء، بحكم أنه كان أمّياً، ما كان له أن يعلم هذه الحقائق، ولا أن يعلم هذه الأخبار، فإذا جاء بها صحيحة كاملة بوقائع دقيقة، فهذا دليلٌ على أن هذا الكلام كلام الله.

2 – لا يمكن أن يترك اللهُ العبادَ بغير منهج:

ننتقل من هذه الفكرة إلى فكرةٍ أعَمّ وأشمل، الإنسان بادئ ذي بدء عليه أن يؤمن بالله خالق الكون، وهذا الكون بين يديه، إن هذا الكون بما فيه من آياتٍ دالةٍ على وجوده، وعلى عظمته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفُضْلى، إن هذا الكون هو الدليل الأكبر على وجود الله، وعلى صفاته، وأسمائه، وعظمته، هذا الإله العظيم أيُعْقل أن يَدَع عباده من دون تشريع، من دون توجيه، من دون تعريف، من دون، أمر، من دون نهي، من دون لفت نظر، من دون بيان ؟ هذا الكون يَدُلُّ على أن الله سبحانه وتعالى كاملٌ في أسمائه، كاملٌ في صفاته، فمن لوازم كمال الله عزّ وجل ألاّ يدع عباده هملاً مُعَطّلين عن الأمر والنهي، أتجد أباً يرى ابنه منحرفاً، ويبقى ساكتاً ؟ أتجد أباً لا يُعَرِّف ابنه بالطريق الصحيح، بالهدف النبيل ؟ إذاً ربنا سبحانه وتعالى من كماله لا بدَّ من أن يُرسل إلى هذا الإنسان خطاباً في كل عصر، إن هذا الخطاب هو كلام الله عزّ وجل.

حقائق مهمة:

1 – مَن لم يطبق كلام الله لم يفلح أبدا:

الآن عندنا قضية دقيقة سأوضحها لكم من خلال هذا المثل:

لو أن رجلاً موسراً من علية القوم، له أعمال واسعة، عَيَّن وكيلاً لأعماله، وأغدق على هذا الوكيل الشيء الكثير، هذا الوكيل إذا جاءه من سيّده خطاب يأمُرُهُ أن يدفع لفلان مبلغاً كبيراً، فهذا الوكيل إذا دفع هذا المبلغ، ولم يكن هذا الخطاب من عند سيده فقد خسر خسارةً كبرى، وإذا كان هذا الكتاب من عند سيّده، ولم يدفع صرفه من العمل، إذاً فالإنسان أمام وضعين ؛ إذا كان هذا الكلام كلام الله، ولم

يُطبّق الإنسان أمره ونهيه أهلك نفسه في الدنيا والآخرة، وإذا كان هذا الكلام كما يَظُنُّ بعض الناس وبعض الملحدين أنّه ليس كلام الله، بل هو كلامٌ من صنع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ونَقّدَهُ بحذافيره، ولم يكن كذلك، فقد ضَيّع حياته الدنيا، إذاً هذا الوكيل إذا جاءه خطابٌ من سيده، ما هو أخطر شيءٍ عليه أن يفعله ؟ أن يتأكّدَ من صحّةِ نسبة هذا الخطاب إلى سيده، هذا شيءٌ مفروغٌ منه، قبل كل شيء، قبل أن تفعل شيئاً أنت عبدٌ لله، ولك إلهٌ عظيم يدُلُّ عليه هذا الكون، فالكون فيه آياتٌ لا تعدُّ ولا تُحْصى، هذا الإله العظيم، والخالق الحكيم، والمربي الرحيم ما نسيك من فضله، ولا من توجيهاته، ولا من بياناته، ولا من تحذيره، ولا من تبشيره، أرسل هذا الخطاب، يجب أن تؤمن إيماناً قَطْعِيّا، والإيمان أنواع: إيمان ظني، وإيمان تَبَرُّك، وإيمان تقليدي، يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً بأن هذا الكلام كلام الله، لماذا ؟ لأن فيه أمراً وفيه نهياً، معظم الناس لا يقفون موقفاً واضحاً من كتاب الله، فيه آيات تأْمُر وآيات تنهى، وهو لا ينتهي ولا يأتمر، وإذا قرأ القرآن قال: صدق الله العظيم، وقبّله من جوانبه الستة، ووضعه في مكانٍ من بيته مرموق، وهو لا يُطبّقُه، فإذا جاء ملك الموت، ورأى أنه انحرف انحرافاً خطيراً عن ربه، ولم يطبّق ما به، وقبل أن يأتي ملك الموت، كان يدفع ثمناً باهظاً لمخالفة هذا الكلام، فحينما يأكل مالاً حراماً، حينما يعتدي، حينما يحيد، حينما ينحرف، يدفع الثمن باهظاً، وحينما يأتي ملك الموت، يجد نفسه أنه خسر خسارةً كليةً وأبدية، فلذلك الإنسان عليه أن يقف موقفاً واضحاً من كلام الله عزّ وجل، هل هذا كلام الله ؟ ما الدليل ؟.

ما قولك أيها الأخ الكريم إذا كنت في مجلسٍ، وأردت أن تحدِّث الناس عن آيات الله، فقال لك أحدهم: ما الذي يؤكّدِ لك أن هذا الكلام كلام الله ؟ بماذا تجيبه ؟ إذا سكت أُسقِطَ في يدك، إذا لم تجد جواباً شافياً مقنعاً لهذا الإنسان تزلزلت، وهذا الذي يبني إيمانه على سماع أقوال الآخرين من دون بحثٍ، من دون تَحَقُّقٍ، من دون تمحيصٍ، هذا الإيمان لا يصمُدُ أمام الشهوات.

2 – لا بد من العلم:

قلت لكم سابقاً: تصوروا ميزاناً في كِفّتِهِ الأولى وزن خمسة كيلوات، ولنرمز إلى هذا الوزن بالشهوات؛ التي هي حب المال، حب اللذائذ، حب العلو في الأرض، فكل واحد فيه ينطوي على شهوات لا يعلمها إلا الله، بعضها مشروع، وبعضها غير مشروع، بعضها مباح، وبعضها فيه انحراف، وفي الكِفّة الثانية العلم، إن لم يكن في الكفة الثانية علمٌ يقينيٌ قطعيٌ، مبنيٌ عن بحثٍ ودرسٍ، وتَحَقُّقٍ وبرهانٍ وحجةٍ فإن كفّة الشهوات تبدو راجحة، هذا العلم القليل، هذا التقليد اليسير، هذا السماع لبعض دروس العلم، هذا السماع لبعض الخطب لا يستطيع أن يقف في وجه هذا الوزن الكبير، قد يبحث الإنسان،

ويبحث، ويدقق، ويفكِّر، ويتأمّل، ويُطالع، ويقرأ، ويلتقي، ويسأل، ويجتمع، إلى أن تتكون عنده قناعاتٌ قطعيةٌ صحيحةٌ يقينيةٌ في الكفة الثانية، حتى يبدأ الميزان بالتحرُّك، حتى تقف، لأن العلم قيدٌ، ولابدَّ من العلم اليقيني..، قال سيدنا علي: **" يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يَحْرُسُكَ، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق ".**

إن قضية التَعلُّم قضية مصيرية، فقد يظن الإنسان أحياناً أنّه إذا كان لديه وقت فراغ حضر مجلس علم، وجاء ليستفيد، لكنّ ساحة نفسه مُمْتَلئة بأشياء متعلقة بالدنيا، فإذا زاد عنده وقتٌ حضر مجلس علم، وإلا أعرض، هذا هو الغلط بعينه، لأن ما من شيءٍ أخطر في حياتك من أن تعرف الحقيقة، لا حباً بأحد، يجب أن تحب ذاتك قبل كلّ شيء، وكلكم يعلم أن الإنسان مفطورٌ على حب ذاته، على حب وجوده، على حب استمرار وجوده، على حب سلامة وجوده، على حب كمال وجوده، من أجل وجودك في الدنيا، من أجل سلامة وجودك في الدنيا، من أجل كمال وجودك في الدنيا، من أجل استمرار وجودك بعد الموت في جنةٍ عرضها السماوات والأرض لا بدّ من معرفة هذا الكتاب، أهو كلام الله حقاً ؟ إذا كان هذا الكلام كلام الله حقاً فما الدليل ؟ كلُّ شيءٍ من دون دليلٍ قطعيٍ لا يصمُد أمام الفتن، لا يصمد أمام الشهوات.

3 – كثرة الضغوط على الإنسان:

إنّ الإنسان في الحياة الدنيا مُعَرّض إلى قوةٍ ضاغطة، وإلى قوةٍ جاذبة، الجذب إغراء، والضغط إكراه، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل ؛ أن يكون الإنسان في حياته الدنيا مُعَرّضاً لقوةٍ ضاغطة، يأتيه ضغطٌ من أهله، من زوجته، من أولاده، ممن فوقه، في العمل، يأتيه الضغط ليفعل معصيةً، لينحرف عن منهج الله، ليأكل مالاً حراماً، ليعتدي على الناس، ليُطْلِق بصره في الحرام، ليأخذ ما ليس له، هذا ضغط، وقد يأتيه إغراءٌ يدفعه إلى منكر، إلى معصية، إلى ندوة، إلى نُزْهَة، إلى لقاء لا يرضي الله عزّ وجل، فأنت أيها الأخ الكريم بين ضغطٍ وجذبٍ، بين قوى اجتماعيةٍ ونفسيةٍ ضاغطة، وقوةٍ أخرى جاذبة، ماذا تفعل ؟ لا بدّ لك من منهج.

دقق لو أنك اقتنيت آلةً غالية الثمن، إذا كانت هذه الآلة غالية الثمن خطيرة الوظيفة فإنك تحرص عليها حرصاً بالغاً، لاحظ نفسك فقبل كلّ شيء تبحث عن تعليمات الصانع، عن تعليمات الشركة الصانعة، بدافعٍ من حرصك على سلامة هذه الآلة، وعلى حُسْن سير عمل هذه الآلة، وعلى كفاءة هذه الآلة، وعلى مردود هذه الآلة، تبحث عن تعليمات الصانع، فهلاّ بحثت يا أخي عن تعليمات الخالق، عن منهج الخالق ؟ أيُعْقَل أن يكون الله عزّ وجل قد أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وتركك هملاً بلا أمر، ولا نهي، ولا

تعريف، ولا بيان، ولا توجيه، ولا شيءٍ من هذا القبيل !؟ أيُعْقَل أن الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ولم يبَيّن لك من أنت، وما دورك في الحياة، وما مهمّتك، وما هويتك ؟ ما معنى أنّك إنسان ؟ ولماذا حملت الأمانة ؟ ما معنى الأمانة ؟ ما هي مقومّات التكليف ؟ ما هي الحرية التي تتمتع بها ؟ ولماذا هذه الشهوة التي أودعها فيك ؟ سؤال خطير، لماذا أودع الله فينا هذه الشهوات ؟

4 – دافع تحقيق الشهوة عند الإنسان:

إنّ الإنسان أي إنسان، في أي مكانٍ وزمان يجد نفسه مندفعاً إلى تحقيق شهواته، يندفع إلى الطعام، وإلى الجنس الآخر، وإلى كسب المال، وإلى أن يكون ذا شأنٍ في الحياة، هذه الشهوات لماذا أودعها فيك ربُّ الأرض والسماوات ؟ هل من أجل أن يفتنك ؟ مستحيل، من أجل أن يوقعك في شباك الشهوة ؟ من أجل أن يدفعك إلى المعصية، إنه خالقٌ عظيم، وهذا الكون يؤكِّد عظمته لا يفعل هذا ؟ إذاً لا بدّ من أن الله سبحانه وتعالى حينما أودع فيك هذه الشهوات إنما أودعها لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ما أودعها فيك إلا لتكون هذه الشهوة دافعاً لك إليه، مُحَرّكاً إلى التقرب منه، كيف تتقرّب من الله عزّ وجل إذا لم تكن تحبُّ المال ؟ لأنك تحب المال، وإذا أنفقت المال في سبيله تشعر بالقرب، تشعر بالمؤاثرة، تشعر بأنك فعلت شيئاً عظيماً، لو أن هذا المال لا يساوي عندك إلا التراب فما قيمة إنفاقه ؟ كيف ترقى بغض البصر إن لم يحبّب إليك الله النساء ؟ ما قيمة غضّ البصر ؟ تغضُّ البصر فترقى إلى الله عزّ وجل، يتزوج الإنسان فيرقى، يرقى بالزواج شكراً، ويرقى بغض البصر صابراً، تكسب المال الحلال فترقى، ترقى شاكراً، وتترَفّع عن المال الحرام فترقى صبراً، تكظم غيظك فترقى صابراً، لولا أنك تغضب، فما قيمة كظم الغيظ ؟ لولا أنّك تستغفر فما قيمة الحلم ؟ لولا أنك تخاف فما قيمة التوَكّل ؟ إذاً الله سبحانه وتعالى حينما أودع فيك هذه الشهوات إنما أودعها فيك لترقى إلى رب الأرض والسماوات.

5 – حرية الاختيار:

وحينما منحك حرية الاختيار:

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(سورة الكهف: آية " 29)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾

(سورة الإنسان)

لولا هذه الحرية التي مَتَّعَكَ الله بها لما استطعت أن تُثمّن أعمالك، وما قيمة الأعمال إذا كنت مُكْرَهاً عليها ؟ فمهما كان العمل عظيماً، ومهما كان جليلاً، ومهما كان خطيراً، إذا كنت مكرهاً عليه فلا قيمة له، إنه عملٌ ساقط لا قيمة له إطلاقاً، إذاً: ألا ينبغي أن تقرأ كتاباً لتعرف من أنت ؟ لماذا أنت في الدنيا؟ لماذا أنعم الله عليك بنعمة الإيجاد ؟ من أجل أن يرحمك:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية 119)

لماذا أنعم الله عليك بهذه الشهوات ؟ من أجل أن ترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، لماذا أنعم الله عليك بحرية الاختيار ؟ من أجل أن تُثمِّن عملك، ما قيمة العمل من دون حرية ؟ لماذا فطرك فطرةً عالية ؟ أيُّ إنسان في أي مكانٍ وزمان نفسه تحب الفضيلة، تحب الخير، تحب الإنصاف، تحب العدل، تحب الرحمة، تحب العفاف، تحب النزاهة، تحب اللُّطف، هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لماذا ؟ من أجل أن تكون فطرتك عوناً لك على طاعة ربك، فإذا انحرفت عن منهج الله عزّ وجل عَذّبَك ضميرك، كما يقولون، أو عذّبتك فطرتك، أو ضاقت نفسك، فإذا أقبلت على الله، وطبّقت أمره ارتاحت نفسك، هذا هو السر.

6 – المنهج الإلهي:

فيا أخي الكريم، لا بدّ من منهجٍ إلهي، لا بدّ من بيان إلهي، لا بدّ من كتابٍ كريم فيه تفصيل كلٌ شيء، فيه بيان كل شيء، إنه هذا الكتاب، المشكلة يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً، إيماناً يقينياً، إيماناً لا ريب فيه، لا شك فيه، لا تردد فيه، لا حرج فيه، لا ضبابية فيه، يجب أن تؤمن هذا الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله، لأنك إذا آمنت بأن هذا الكلام كلام الله فهذا الإيمان يحملك على طاعة الله، بادئ ذي بدء حباً بذاتك، حباً بوجودك، وسلامة وجودك، واستمرار وجودك، وكمال وجودك، هذه هي الفطرة، أنت كعبدٍ جاءك هذا الخطاب، فإن كان من عند الله، وخالفت أمره أهلكت نفسك في الدنيا والآخرة، وإن كان فرضاً كما يَدّعي المدعون من عند غير الله، ونفّذْت ما فيه فقد حرمت نفسك ملذات الدنيا ومباهجها على حد قول الملحدين.

إذاً: القضية الكبرى في حياتك أن تعرف أن هذا الكلام كلام الله بالدليل، لذلك لا يقبل أهل السنة والجماعة الإيمان إذا كان تقليداً، لماذا ؟ يمكن أن تقلد مؤمناً في بعض تصرفاته، هذا مقبول منك، من قلّد عالماً لقي الله غانماً، أما أن تقلِّد الآخرين في العقيدة فهذا شيء غير مقبول، لماذا ؟ لو جاء إنسان مضل، وله مظهر صالح فقلدته في عقيدته الفاسدة فقد أهلكت نفسك، فلا بدّ من أن تتأكّد من صحة عقيدتك، لأن أهم موضوعٍ بعد إيمانك بوجود الله، وبأسمائه الحسنى أن تؤمن بأن هذا الكلام كلامه.

ما هو الدليل على أن القرآن كلام الله تعالى ؟

ما هو الدليل الأكبر على أن هذا الكلام كلام الله ؟ أكبر دليل أنّ الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات الكريمة يقول:

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة الطور)

الدليل هو أن هذا القرآن مُعْجِز، معنى معجز أن البشر يعجزون أن يأتوا بمثله، وما دام معجزاً إذاً فهو معجزةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يُرْسل رسولاً أو نبياً.

كيف يشهد للناس أن هذا الإنسان هو رسوله ؟

الأنبياء السابقون: مثلاً حينما أرسل الله سيدنا موسى إلى فرعون، فقد زوّده الله بدليلٍ يؤكِّد صدق نبوته ورسالته، الله سبحانه وتعالى جعل العصا تنقلب ثعباناً بين يديه، هل بإمكان كلّ بني البشر مجتمعين أو منفردين في أيّ عصرٍ أن يصنعوا من العصا ثعباناً ؟ لا، أما سحرة فرعون فإن حبالهم وعصيهم كانت وهماً وخيالاً في نظر موسى عليه السلام، قال تعالى:

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

(سورة طه: آية 66)

ولكن سحرة فرعون حينما رأوا العصا تنقلب ثعباناً مبيناً كبّروا إيماناً، وقالوا:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48))

(سورة الشعراء)

معجزات الأنبياء:

هم جاءوا بأنابيب، ووضعوا فيها الزئبق، وضعوها على أرض مُحَمَّاة، فتمدّدَ الزئبق، وتحرك، فحرّك هذه الأنابيب، وكأنها أفاعٍ، أما حينما رأوا العصا تنقلب إلى ثعبانٍ حقيقي عرفوا أن هذا ليس بسحر، بل هذا نبيٌ من عند الله حقاً، لأن هذا الفعل لا يستطيعه إنسانٌ كائناً من كان، إذاً بشكل مُبَسَّط حينما يرسل الله إنساناً نبياً رسولاً إلى قومٍ فإنه يزَوِّده بالدليل، الدليل على أنه نبي، وعلى أنه رسول المعجزات، فالمعجزات أمرٌ يجريه الله على يدي نبيٍ يفوق طاقات البشر، ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المواد، ويتحدّى به النبي قومه، فلا يقدر أحدٌ على معارضته، هذا تعريف المعجزة، ولا يقدر أحدٌ على معارضته، و سُمِّيَت المعجزات أيضاً دلائل النبوة، أعلام النبوة، علامات النبوّة، وسمّاها القرآن البّينة،

وسماها القرآن البرهان، وسماها القرآن الآية، إنها آيةٌ بينةٌ، برهانٌ، دلائل النبوة، أعلام النبوة، علامات النبوة، معجزات، أي شيءٌ خارقٌ لقوانين الطبيعة، فيه تجاوز لخواص المواد، لا يستطيعه الإنسان كائناً من كان، يتحدّى به النبي قومه سُمِّيَت ويدعوهم إلى الإيمان بالله عزّ وجل فهو.

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى حينما أرسل الأنبياء والمرسلين زوّدهم بمعجزات حسّية، هذه المعجزات تتناسب مع طبيعة العصر الذي هم فيه، مع الشيء المتألِّق في هذا العصر، في عهد فرعون كان السحر قد بلغ شأواً رفيعاً، فجاء سيدنا موسى بمعجزةٍ تبطل سحرهم، في عصر سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام جاء سيدنا عيسى بإحياء الموتى، وهذا شيءٌ يفوق كل طاقات الطبيب، كان الطبُّ متفوقاً، ولكن في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان قوم النبي عليه الصلاة والسلام قوم فصاحةٍ وبلاغة، قوم بيان، كانوا شعراء، كان عندهم أسواق للأدب، كانوا فُصَحَاء، كانت الفصاحة تجري على ألسنتهم كالماء العذب السلسبيل، لذلك جاءت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام قُرْآناً يُتْلى إلى يوم القيامة، والفرق كبير بين معجزة النبي عليه الصلاة والسلام التي هي القرآن والمعجزات الحسية التي جاء بها الأنبياء من قبله، تلك المعجزات وقعت، وانتهت، وأصبحت خبراً يصدِّقه المصدِّقون، أو يكذِّبه المكذبون، ولكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام هي قرآنٌ يتلى إلى يوم القيامة، بعد مئة عامٍ، بعد مئتي عام، بعد خمسمئة عام، بعد ألف عام، بعد ألفي عام، إلى يوم القيامة، هذه معجزةٌ قائمةٌ بذاتها بينة واضحة لكل ذي بصر.

الكرامة:

شيءٌ آخر أيها الإخوة، هذا ينقلنا إلى موضوع الكرامة ؛ هل هناك كرامة ؟ المعجزة فهمناها، هي خرقٌ لنواميس الكون، تجاوزٌ لخواص المواد، يتحدى بها النبي قومه، يؤكِّد بها نبوّته، يدعوهم إلى الله بها، ولكن الولي أله كرامة ؟ نعم، إن الكرامة ثابتةٌ بنَصّ كتاب الله عزّ وجل، ولكنّ الولي لا يتحدى بكرامته الناس، ولا يدعي بها النبوة، إنما هي في حقيقتها كرامةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تسمّى الكرامة كرامةً إلا إذا كان هذا الذي أجراها الله على يديه متابعاً للنبي عليه الصلاة والسلام، فهذه الكرامة في حقيقتها تأكيدٌ لمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام، فمثلاً إذا قال عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى التداوي عن طريق الطبيب:

((دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة بسند حسن]

فإذا وقع إنسان في مرض عضال، وقرأ حديث النبي عليه الصلاة والسلام وطبقه، ودفع جزءاً من ماله الثمين ابتغاء وجه الله عزّ وجل، لعلّ الله عزّ وجل يشفيه، أو يشفي ابنه، وتَمّ الشفاء بعد أن قال الأطباء:

إن هذا المرض لا شفاء له، ما اسمُ هذا الشفاء ؟ اسمه كرامة، ماذا يؤَكِّدُ ؟ يؤكد نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

فإذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الأمانة غنىً))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

فإذا كنت أميناً تغتني الغنى المادي، لأنك إذا كنت أميناً وثِق الناس فيك، وإذا وثِق الناس فيك فهذا أكبر رأس مالٍ تملكه، إنه ثقة الناس فيك، فإذا كنت أميناً وثق الناس فيك، إذا كنت أميناً، وأكرمك الله بالكفاية، ورزق الحلال الوفير فهذه كرامة، هذه كرامةٌ تؤكِّد نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا قال النبي عليه والسلام:

((بَشّر الزاني بالفقر ولو بعد حين))

[ورد في الأثر]

إن أيّ إنسان في أعلى درجات الغِنى اتّبعَ الزنا فافتقر، هذا الفقر يؤكد نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

فإذا تركت شيئاً لله، والأمر يبدو لك صعباً، والطُرُقْ كلُّها مسدودة، سَدّ الله عليك كل أبواب الحلال، فُتِحَ لك باب كسبٍ حرام، وأنت في أشد الحاجة لهذا المال، أنت على أحَرّ من الجمر لدرهمٍ واحد، جاءك مالٌ وفير من طريقٍ مشبوه، وطرق الحلال كلُّها مُغَلّقة، كُلّما فتحتَ باباً أغلق، كلما مشيت في طريقٍ سُدّ هذا الطريق، وقرأت هذا الحديث الشريف:

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

فإذا صدّقت كلام النبي، وأنت إذا صدقت كلام النبي صدقت نبوّته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

إذا صدقت كلام النبي عليه الصلاة والسلام، وتركت هذا الشيء لله، ولم تعبأ بضيقك المادِّي، فإذا بك فجأةً بعد حينٍ من الزمن قد فتح الله لك باباً لم يكن في الحسبان، هذه كرامة، كرامةٌ لمن ؟ كرامةٌ لك، لأنك تابعت النبي عليه الصلاة والسلام، وهي تأكيدٌ لنبوة النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك سيدنا سعد رضي الله عنه قال: **<< ثلاثةٌ أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس، من هذه الأشياء الثلاثة: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنّه حقٌ من الله تعالى >>.**

الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى عَلَمٌ من أعلام المسلمين، الفقيه الأول، العلماء جميعاً عالةٌ على هذا الفقيه الكبير، حديثٌ شريفٌ واحد أجرى في حياته انعطافاً تاريخياً، هذا الحديث النبوي الشريف:

((من طلب العلم تَكَفّل الله له برزقه))

[الجامع الصغير عن زياد بن الحارث الصدائي بسند فيه مقال]

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يُيَسِّر له أعماله، يرزقه رزقاً حلالاً طيباً بجهدٍ معقول، بجهدٍ قليل، بجهدٍ يتيح له أن يطلب العلم، أن يتعلّم العلم، لذلك حديثٌ شريف، يترك في نفس المؤمن أثراً طيباً، إذاً لابدّ من طلب العلم، لكن من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

فلو أنّ إنساناً حان وقت درس العلم، حان وقت مجلس العلم، فإذا شيءٌ يلوح له فيه كسب للمال، لو أنه فرضاً ترك مجلس العلم، ولحق هذا الكسب من المال، ما قولك في أن هذا الكسب يضيع منه، ويضيع منه مجلس العلم في وقتٍ واحد، فإذا آثرت دنياك على آخرتك خسرت الدنيا والآخرة، وإذا آثرت آخرتك على دنياك ربحتهما معاً، هكذا النبي قال

((ما ترَك عبدٌ أمرًا لله إلا عوّضه اللهُ خيراً منه في دينه ودنياه))

ومن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

هذا رجل أكل المال الحرام ليعيش في بحبوحة، إنه رجل أنشأ عملاً فيه معصية لله عزّ وجل، أنشأ داراً يعصى فيها الله عزّ وجل، أنشأها، وربح منها أموالاً لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، وكان يخطط أنه إذا كبرت به السن وجد هذا المال الوفير ليقضي به حياته بشكلٍ رغيد، فإذا بمرضٍ خبيث يداهمه في وقتٍ مبكرٍ جداً، قال لي أحد تلامذتي، وهو قريبٌ له، وكان خاله: دخلت عليه فإذا هو يبكي، قلت: يا خالي ما يبكيك ؟ قال: يا بُني، جمعت هذا المال من أجل أن أستمتع به في خريف عمري، لكن هذا المرض عاجلني..، فمن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

طبِّقوا هذا الحديث، لا يمكن أن تبحث عن شيءٍ عن طريق معصيةٍ إلا فقدت هذا الشيء، وسقطت من عين الله عزّ وجل، وإذا بحثت عن شيءٍ يُرضي الله عزّ وجل رضي الله عنك، وأرضى عنك الناس، هكذا الحديث: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي]

فلا نبتعد كثيراً، لو أن إنساناً أرضى زوجته، وأسخط ربّه، لابدّ من أن يسخط عليه ربُه، ولا بدّ من أن تسخط عليه زوجته، لأنه أرضاها بسخط الله، إذا أرضى شريكه على حساب دينه، سيسخط الله عليه، وسيسخط عليه شريكه، فلذلك هذه الكرامة شيء رائع جداً، الكرامة أنّك إذا طَبّقت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تقطف ثمارها يانعةً، وقطف ثمارها كرامةٌ لك، وكرامةٌ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتأكيدٌ لنبوّته، وتأكيدٌ لمعجزته.

إذاً: الكرامة ليس فيها تَحَدٍّ، وليس فيها إثبات نبوة، والولي الذي يجري الله على يده هذه الكرامة ليس بالضرورة أن يكون معصوماً، أما النبي حينما يجري الله على يديه معجزةً فلِيتحدّى بها قومه، وليثبت بها نبوته، فهو بكل تأكيد معصومٌ من قِبَل الله عزّ وجل.

السِّحر:

وهناك شيءٌ ثالث يقودنا إليه الموضوع نفسه ؛ إنّه السحر، الساحر يركب متن الفسوق والعصيان، الساحر فاجر، الساحر عاصٍ، والذي يأتي به لا علاقة له إطلاقاً لا بالكرامة، ولا بالمعجزة، إن الذي يأتي به من ضمن طاقة البشر، ولكنه بشر له مهاراتٌ خاصة، مهارات عالية جداً، من ضمن طاقة البشر، وطاقة الجن، وطاقة الحيوان، شيءٌ بإمكان المخلوق أن يفعله، إنسياً كان أو جنياً أو حيواناً، لكنّ المعجزة شيءٌ يفوق طاقة البشر، أمرٌ فيه خرقٌ لقوانين الكون، يجريه الله على يدي النبي الكريم ليثبت بهذا الشيء نبوته للناس.

إنّ الذي ساقنا إلى هذا الموضوع هو أن هذا الكلام كلام الله، قد نقرأه، وقد نستفيد منه، وقد نتبارك به، وقد نعجب بآياته، ولكن هل أنت مستعدٌ لهذا السؤال ؟

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ

ما الدليل على أن هذا الكلام كلام الله ؟ هل عندك دليل ؟ الحقيقة أن الآيات قد وردت في هذا الدرس:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

(سورة القصص)

من جاءك بهذه الأخبار ؟ من تلا عليك هذه القصة ؟ من عرّفك بما حدث مِن آلاف السنين ؟ جاءت وقائع هذه القصص مطابقةً للواقع، لو أن هذه القصص من صُنْع النبي عليه الصلاة والسلام أو من تأليفه، وعند أهل الكتاب الكتب والقصص وما شاكل ذلك لكذّبوه فوراً:

(كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45))

(سورة القصص)

مراحل تحدي الله للناس بالإتيان بمثل القرآن:

شيء آخر أيها الإخوة الأكارم، كما قلت قبل قليل: ربنا عزّ وجل جعل هذا القرآن مُعْجِزاً، كما لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يجعل من العصا ثعباناً، أو أن يجعل البحر طريقاً يَبَساً، أو أن يجعل هذه النار المحرقة منطفئة، أو برداً وسلاماً على إبراهيم، كما أنه لا يستطيع أي إنسان على وجه الأرض أن يصنع تلك المعجزات الحسية، كذلك لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يأتي بمثل هذا الكتاب، والدليل أن الله سبحانه وتعالى تحدّى الناس جميعاً:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

الآية الأولى:

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة الطور)

الآية الثانية ربنا عزّ وجل خَفّف عنهم فقال:

(فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة هود)

الآية الثالثة خفف أيضاً فقال سبحانه:

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة يونس)

الآية الرابعة أخطر، قال عزوجل:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)

(سورة البقرة)

هذه**(لن)**لتأبيد النفي، لا يستطيع أن يقولها إلا خالق الكون، الإنسان يقول لك: أنا أغنى الناس الآن، أما أن يقول إنسان: أنا أغنى الناس إلى الأبد، فهذا مستحيل، هذا ليس في طاقة البشر، الإنسان يقول: أنا أقوى الناس اليوم، أما أن ينفي أن يكون أحدٌ مثل قوته في المستقبل فهذا فوق طاقة البشر،

لكن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)

(سورة البقرة: آية 24)

بهذا الكلام تحدّى الله سبحانه وتعالى العرب، وكانوا أعداء، ألِدّاء، خصوماً، معاندين، وفعلوا كل شيء ليطفئوا رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فلو كان بمقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بِعَشْرِ سورٍ من مثله، أو بسورةٍ واحدة لفعلوا.

وإليك أقصر سورة في القرآن:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3))

(سورة الكوثر)

هذه أقصر سورةٍ في القرآن الكريم، ربنا سبحانه وتعالى تحدّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدة، ومع ذلك ما استطاعوا، إذاً أكبر دليلٍ على أن هذا الكلام كلام الله هو إعجازه، إعجازه بحثٌ طويل، وأتمنى على كلٍ منكم أن يفكِّر في هذا الموضوع، لأنه حينما يُفَكِّر في هذا الموضوع، ويمتلك الدليل القطعي على أن هذا الكلام كلام الله عندئذٍ يجد نفسه يطبّق أمره، وينتهي عما عنه نهى، تماماً كما لو وضع في كفة خمسة كيلو، والكفة الثانية فيها خمسة غرامات من معلومات وقناعات لديك، هي غير متحرّكة، عندك شيء من القناعات الخفيفة، عندك معلومات بسيطة تلقيتّها من المُعَلِّمين في المرحلة الابتدائية، سمعت بعض الخُطَب، سمعت بعض الدروس، هذه كلها غرامات لا تستطيع أن تقف في وجه هذه الشهوات التي رمزنا إليها بقوة خمسة كيلوات، فكلما تأمّلت، كلما تعمّقت، كلما درست، كلما بحثت، كلما ناقشت، كلما بحثت عن الدليل نَمَتْ معلوماتك، ونما إيمانك، وازداد هذا الوزن، فإذا كنتَ في بعض اللّحظات تقف في طريق الشهوات ترتدع، وتستعمل المكابح، لأن هذا طريق الهلاك، فكلما نَمَتْ قناعات الإنسان انعكس هذا على سلوكه، كلما عرف الله أكثر أطاعه أكثر، لأن أرْجحَكم عقلاً أشدُّكم لله حبًّا.

الواقع شاهد على صدق القرآن:

بعض الأدلة على أن هذا الكلام كلام الله، الأدلة كثيرة جداً، فهذا الموضوع يحتاج إلى سنوات، عندنا إعجاز في مضمونه، هناك إعجاز تشريعي، كحكم قطع يدِ السارق، قبل أن نناقش الأمر مناقشة نظرية، في بعض البلاد المتقدمة بمقياس العصر في كل ثلاثين ثانية، وهذا رقم قرأته قبل عشر سنوات تقريباً، وهو إحصاء قديم، في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتلٍ أو سرقةٍ أو اغتصاب، هذا إحصاء في عام واحد في بعض هذه البلاد المتقدمة بمقياس العصر، لا أقول: متقدمة إطلاقاً، قد تكون متأخرة جداً، لكن أقول: متقدمة بمقياس العصر، في بعض هذه البلاد جرى إحصاءٌ لعامٍ واحد فقط، تمّ إحصاء ستة عشر

مليون سرقة وقعت في عام واحد، وفي بلاد أخرى تطبّق قانون قطع اليد، ترى العجب العجاب، ترى شيئاً لا يصدّق، ترى الأموال الطائلة توضع في أكياس على الشاحنات، وتنقّل من محافظة إلى محافظة.

فكما سُئل الإمام الشافعي:

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وُدِيَتْ ما   بالها قطعت في ربع دينارٍ ؟

***

ديتها عشر مئات من الدنانير الذهبية، إذا قُطعت خطأً في حادث، فأجاب الإمام الشافعي فقال:

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصها   ذُلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

هذا إعجاز تشريعي، العالم بأنظمته الوَضْعِيّة، بمشرّعيه، بحقوقييه، بأذكيائه، بقادته ما اهتدوا إلى أن قطع يد السارق ينشر الأمن في البلاد، لأن قطع يد السارق بمنزلة التطعيم، إذا رأى طفلٌ صغير يداً مقطوعةً معلّقة، وسأل أباه: ما هذا يا أبتِ ؟ وقال له أبوه: يا بني، هذا إنسان سرق فقطعت يده، فإن كراهية السرقة تسري في دم هذا الصغير، ويصبح المجتمع آمنًا.

أخطر شيء في المجتمع العدوان على المال وعلى العرض، لذلك أكثر الجرائم سببها عدوان على الأعراض، أو عدوان على الأموال، هذا الكلام كلام الله عزّ وجل، مِن عند حكيمٍ عليم، فصّلَ تفصيلات دقيقة في كسب المال، حرّم الربا، وأباح البيع، حرّم الغش، وحرم التدليس، وحرم الغرر، وحرم الغَبن، وربنا عزّ وجل في آيات كثيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة وضّح كلّ شيء في موضوع كسب المال، وأمر بغضّ البصر، وأمر بالزواج، ونهى عن السفاح، وأمر بالاستئذان، ومنع الخلوة، من أجل صون العرض، فلذلك في القرآن إعجاز تشريعي.

إنّ ما يعانيه الغرب الآن من هذا المرض العضال، مرض الإيدز معلومٌ لدى الجميع، بينما في المجتمعات المسلمة النظيفة العفيفة ـ والحمد لله ـ الناس في خير، وفي طُمأنينة، وفي دَعَة، هذا المرض الخطير، هذا الشبح الخطير بعيدٌ جداً عن بلادنا ـ والحمد لله رب العالمين ـ بفضل هذه النظافة الأخلاقية، بفضل هذا النظام، هذا المنهج، هذا الزواج الشرعي، وهذا البُعد عن كل انحرافٍ خطير.

تشريعات المعاملات في القرآن حكمة بالغة:

إذاً: في هذا الكتاب إعجاز تشريعي، علماء القانون في العالم، المُشَرّعون في العالم حديثاً وقديماً، القانون الروماني، قانون حَمورابي، قانون بلاد الفراعنة، ما اهتدوا إلى هذا التشريع، تشريع الزواج،

تشريع الطلاق، تشريع تعَدُد الزوجات، في مثل أيام الحروب وأيام الكوارث، تشريع المواريث، هل يعقل أن تضغط هذه القوانين المتناهية في التشعيب بآيات عدة في القرآن الكريم ؟ إذاً يمكن أن نقول: في القرآن إعجاز تشريعي، في ما جاء به من نظام، وغضّ البصر.

قرأت كتاباً ألّفه رجل من بلاد الغرب اسمه ألكسي كاريل، عنوانه: (الإنسان ذلك المجهول).. قرأت في هذا الكتاب جملة أدهشتني، هذا الكاتب بتأمُلاته، وتصوراته، وبحثه عن الحقيقة اهتدى إلى أن خير نظام للحياة الاجتماعية أن يقصر الرجل طرفه على زوجةٍ واحدة، أن يقصر طرفه، ولم يقل: أن يبقى على زوجة واحدة، أي أن يغض بصره، ولم يقل: الله عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية 30)

هذه مدرسة، كيف أن الله سبحانه وتعالى ضماناً للسعادة الزوجية، وضماناً لهذا الإلف بين الزوجين، وضماناً لسلامة هذا العش الزوجي، أمر بغض البصر، وكل من يغضُ بصره يعرف الثمرة، أولاً: يشعر أنه مع الله دائماً، لأن من غضّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، فإذا كنت في الصلاة فأنت تصلِي في اليوم خمس مرات، بينما أنت في موضوع غض البصر تتصل بالله في كل يوم آلاف المرات، كلّما مرّت أمامك امرأةٌ سافرةٌ متهتكةٌ، بدافعٍ مما أودعه الله فيك من شهوات يجب أن تنظر إليها، فإذا خِفْتَ مقام ربك، ونهيت النفس عن الهوى تشعر بهذا القرب من الله عزّ وجل، والمكافأة في البيت حينما يوقِر الله لك مع أهلك سعادةً، حينما يبثّ في روع أهلك محبتك، وحينما يبث في رُوعك محبتهم، بفضل غض البصر، ففي القرآن إعجاز تشريعي، وتكفينا هذه الآية:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية 9)

هذا كلام مطلق، والمطلق على إطلاقه.

(يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

أقوم في حياتك الزوجية، وأقوم في حياتك الاجتماعية، وأقوم في حياتك التجارية، وفي حياتك الوظيفية، وفي حياتك الجسدية، وكلّما طبّقت آيات القرآن قطفت ثماره فوراً، هذا إعجاز تشريعي.

والله الذي لا إله إلا إن موضوع الإعجاز التشريعي يمكن أن يُمضي فيه الإنسان سنوات، فإذا وازن بين هذا التشريع العظيم والتشريعات الوضعية، فالمال كلّه لأكبر الأولاد عند بعض التشريعات الوضعية، ونصف المال للزوجة حين الطلاق، شيءٌ مخيف، لذلك يهجرها، ولا يطلِّقها، إنسان كد وعمل حتى جَمّع أموالاً طائلة، والمال شقيق الروح كما يقولون، لذلك إذا أراد أن يطلِّق امرأته تأخذ نصف ماله، فالأفضل عنده أن يهجرها، ويبقيها معلّقة بلا تطليق.

إذاً: في القرآن إعجاز تشريعي، أنا لا أستقصي الآن، هذا الدرس لا يحتمل استقصاء، أضرب بعض الأمثلة، في القرآن إعجاز علمي.

صورٌ من إعجاز القرآن العلمي:

1 – الحوين المنوي:

الآن قد كشفوا أن الذي يحدد نوع الجنين هو الحوين المنوي، وليس البويضة، فهناك مورّثات ثلاثة وعشرين زوجاً، آخر زوج إما على شكل " **X** " أو " **y** " في الحوين المنوي، قال ربنا عزّ وجل:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

من نطفة لا من بويضة.

2 – وكل في فلك يسبحون:

وأشار القرآن إلى أن كل شيء يتحرّك، لذلك بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

3 – دوران الأرض:

أشار إلى دورة الأرض حول نفسها فقال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

(سورة النمل: آية 88)

4 – ارتفاع الضغط بالارتفاع إلى السماء:

من صعد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلى السماء وشعر بقلة الضغط، وشعر بأن دمه يكاد أن ينفجر **!؟** هذا شيء ما عرفه الإنسان إلا بعد أن ركب الطائرة:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: آية 125)

5 – الحاجز بين البحرين:

ففي كتاب الله إشارات علمية كثيرة جداً كُشِفَت وعُرِفتْ الآن:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

علماء البحار الآن اكشفوا أن بين كل بحرين برزخًا، حاجزًا وهميًا، يمنع اختلاط البحرين، لكلِّ بحرٍ ملوحته، وكثافته، وحرارته ومكوّناته، ولا يختلط هذا بهذا، وكذلك لكل بحر لونه، إذا ركبنا الفضاء، أو ركبنا المركبات الفضائية أو الطائرات رأينا بين البحر الأحمر والخليج، والبحر العربي خَطًا، وبين البحر الأسود والأبيض كذلك ترى خطأ، وبين الأطلسي والمتوسط تجد خطاً أيضاً.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

البرزخ، والذرة، والحوين، والشمس.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس: آية 38)

إذ ا كان هذا هو القرآن فلماذا أنتم عنه معرضون ؟!

من رأى هذه الحقيقة ؟ لم تُرَ إلا في العصور المتأخِّرة، هذا إعجاز علمي، والحديث عن إعجاز القرآن العلمي حديثٌ طويلٌ جداً لا يكفيه أشهرٌ، وإن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع بعض هذه الألوان من إعجاز كلام الله عزّ وجل، حتى نتثبت، ونعلم أن هذا الكلام كلام الله، فإذا جاءك خاطب لابنتك وكان دِينُه رقيقًا، وجاءك خاطب آخر، وهو مؤمن، فإذا كنت مؤمناً بهذا الكلام أنه من عند خالق الكون فلابدّ أن تأتمر بأمر الله عزّ وجل وبنصيحته.

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية 221)

أما إذا كنت لا تعلم أن هذا الكلام كلام الله فإنك عندئذٍ تبحث عن الغنى، وعن الشكل، وعن المال، وما شاكل ذلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 43 - 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-07-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قول تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

1 – وقفة مع: بَصَائِرَ وهُدًى رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

لابدّ من وقفةٍ عند كلمة:

(بَصَائِرَ)

وعند كلمة:

(هُدًى)

وعند كلمة:

(رَحْمَةً)

وعند كلمة:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

إن الله سبحانه وتعالى يصف الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى، بل إن هذا الوصف ينطبق على كل كتابٍ سماوي، خالق الكون خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلقه ليُسعده في حياةٍ أبدية، جاء به إلى الدنيا كي يستعدّ لهذه الحياة الأبدية، لابدّ من بيانٍ إلهي، لابدّ من خطابٍ إلهي، لابدّ من تنويرٍ إلهي.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور)

لابدّ من توجيهٍ إلهي، لابدّ من دستورٍ إلهي، لابدّ من قانونٍ إلهي، الدستور والقانون والتوجيه، والبيان والإرشاد والخطاب، إنّه جوهر كتاب الله عزّ وجل، جوهره، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)

(سورة القصص: آية 43)

2 – ما معنى: القرون الأولى ؟

القرون الأولى: قوم نوحٍ وعادٍ وثمود.

3 – معنى: بصائر:

بصائر جمع مفردها بصيرة، مدائن مدينة، وبصيرة على وزن فَعِيلة، وفعيل صيغة من صِيَغ مبالغة اسم الفاعل، يعني الشيء الذي يبصر، الشيء الذي يجعلك تبصر.

4 – من مقتضيات (بصائر):

فكأنّ الله سبحانه وتعالى أنزل على رسله الكتاب كي نبصر الحقيقة، مع أن الله سبحانه وتعالى زَوّدنا بعقلٍ متطابقٍ تطابقاً تاماً مع الكون، وخلق الكون وفق سنن، لكل شيءٍ سبب، ولكل شيءٍ غاية، ولا يتناقض الشيئان، هذه سنةٌ ثابتةٌ من سنن الكون، وأودع فينا العقل كذلك، هذا العقل البشري جهاز إدراك، فهو قوةٌ مدركة، فلا تفهم الأشياء من حولها إلا بأسبابها، ولا تفهم الأشياء من حولها إلا بغاياتها، ولا تقبل التناقض، إضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون تجسيداً لأسمائه الحسنى، خلق في الكون آياتٍ لا تعدُ ولا تحصى تدل عليه، وأودع فيك العقل، وزوّدك بفطرةٍ سليمة، ترتاح إذا عرفتَ الله، وسرت على منهجه، وفوق كل ذلك أنزل على رسله الكُتُب من أجل أن ترى، إن لم تر بعقلك، إن لم تر بفطرتك، إن لم تر بالحوادث رأيت بالكتاب، كأن الله سبحانه وتعالى نوّع مصادر الهدى ؛ يمكن أن تصل إلى الله بعقلك، ويمكن أن تصل إليه بفطرتك، ويمكن أن تصل إليه من خلال استقراء الحوادث، ويمكن أن تصل إليه من خلال الكُتُب التي نزّلها على رُسُله، فلذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)

(سورة القصص: آية 43)

5 – الكتاب بصائر وتبصرة:

إنّ الكتاب يُعينك على أن تبصر، يدعوك إلى أن تبصر، يجعلك تُبصر، بصائر جمع بصيرة، وبصيرة على وزن فعيلة، مؤنّث بصير، وفعيل بمعنى فاعل، صيغة مبالغة اسم الفاعل، فإذا عرفت الله عزّ وجل

من خلال هذا الكتاب، وعرفت لماذا أنت في الدنيا، أين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وما مهمّتك في الدنيا ؟ وما طبيعة الحياة الدنيا ؟ ما جوهرها ؟ ولماذا خلقت ؟ إذا عرفت ذلك كله كان هذا الكتاب هدىً لك في الوسائل، الكتاب بَصّرَك بالغايات، والكتاب هداك إلى الوسائل، بيّن لك الكتاب كيف تُعامل الآخرين ؟ كيف تأخذ ما لك ؟ وتعطي ما عليك، كيف تتزوّج، كيف تُزَوّج ؟ كيف تبيع ؟ كيف تشتري ؟ كيف تعامل الناس ؟ كيف تتصل بربك، بعد أن كان الكتاب بصائر لك في تعريفك بوجود الله، وأسمائه الحسنى، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، ولمحة عن الماضي، ولمحة عن المستقبل.

الآن يعود الكتاب هادياً لك في المنهج التفصيلي، لذلك:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: آية 9)

لذلك:

(فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

هذا كلام رب العالمين، كلام الذي خلق الإنسان..

(فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ)

فلا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يمكن أن ترى حادثة، أو حالة، أو شخصاً اتبع هدى الله عزّ وجل وشقيت نفسه أو ضل عقله، هذا كلام الخالق، مصداقيّته مئة في المئة.

يا أيها الإخوة الأكارم.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنّاسِ وَهُدًى)

(سورة القصص)

6 – الرحمة من نتائج كون الكتاب بصائر:

إذا عرفت الله عزّ وجل، واهتديت إلى ما يرضيه جاءتك الرحمة، لأن الرحمة مشروطة بتطبيقه، فالكتاب بَصّرَكَ بالحقيقة الكبرى في الكون ؟ بَصّرَك بحقيقتك ؟ بَصّرَك بمهمتك ؟ والكتاب هداك إلى الوسائل، إلى كل منهج تفصيليّ يحقق لك الغايات، فإذا عرفت الله عزّ وجل، وسرت على منهجه التفصيليّ كان الكتاب رحمة لك.

وكلمة:

(رَحْمَةً)

من أوسع الكلمات، يرتاح جسمك، وترتاح نفسك، ويطمئِنُ قلبك، وتسعد نفسك، ويستقرُ فكرك، وتسكن أعضاؤك، وتستقرُ في بيتك، إنها رحمة، وكلمة:

(رَحْمَةَ)

تعني الشيء الذي ترتاح له، الشيء الذي يريحك.

7 – الرحمة مطلب كل البشر:

والإنسان لا يرتاح، ولا يطمئن، ولا تسكن نفسه إلا إذا كان مستنداً إلى قويّ، إلا إذا طمأنه القوي على مستقبله، والناس الآن يبحثون عن الطمأنينة، يبحثون عنها في بعض الخُرافات أحياناً، هذا الذي يأتي المُنَجِّم أو المُنَجِّمة يبحث عن ماذا ؟ إنه يبحث عن الطمأنينة، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال مالٍ يُجَمِّعُهُ، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال علاقاتٍ متينةٍ مع شخصيّاتٍ مهمةٍ يُقِيُمها، وقد يبحث عن الطمأنينة من خلال عنايةٍ فائقةٍ بجسده، إنه في النهاية يبحث عن الطمأنينة، ولكن الطمأنينة الحقيقية لا يملكها إلا الله عزّ وجل، فإذا كنت معه منحك إياها:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنعام)

مَن هم ؟ مَن هو الفريق الذي يستحقُ الأمن ؟ الأمن كلمة دقيقة جداً، الأمن شيء، والسلامة شيء، السلامة عدم حدوث الخطر، ولكن الأمن عدم توقُّع الخطر، وأنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوَقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما من نعمةٍ على وجه الأرض تفوق نعمة الأمن، ولا أمن إلا بالقرب من الله عزّ وجل، قد تطمئن بالمال فتأتي مصيبة لا يُجْدي فيها المال، أو مرضٌ عضال، ماذا يفعل هذا المال ؟ أنت مطمئنٌ بالقوة، فتأتي مصيبة لا تنفعها القوة، أنت مطمئنٌ بالصحة، أنت مطمئنٌ بالأولاد، فأيٌّ مصدرٍ إذا اعتمدتَه ليكون مصدر أمنك غير الله عزّ وجل يجعله الله تأديباً لك، ومصدر قلقٍ لك، والجهة التي اعتمدتها جهةً لأمنك تغدو بالشرك بالله جهة قلقك:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

ألم يذكر الله عزّ وجل أن من نعمته على قريش أنه هو:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

إذا فقدت نعمة الأمن لا ينفع المال، ولا تنفع القوة، ولا تنفع العشيرة، ولا ينفع شيءٌ من هذا القبيل، لذلك حينما يفقد الإنسان رحمة الله عزّ وجل يبحث عن الطمأنينة في مظانٍ ليست صحيحة، يبحث عنها عند الأقوياء، يبحث عنها عند الأغنياء، يبحث عنها في المُتَع الرخيصة، يبحث عنها في مباهج الدنيا، ولكنّ هذه المصادر كلها مصادر مزيفة، والمؤمن وحده هو الذي ينعم بالأمن، وإنّ الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يُعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

إذاً: من خصائص الكتاب أنْ يُبَصِّرك بالهدف الكبير، وبالحقيقة الكبيرة، وبحقيقتك وحقيقةِ الدنيا، وهذا الكتاب يهديك إلى المنهج التفصيلي في كل شؤون حياتك، مضافاً إليه السنة النبوية، لقول الله عزّ وجل:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية 7)

وإذا آمنت بمضمون الكتاب، واتبعت منهجه يصبح رحمةً على قلبك، والرحمة في الدنيا غايةُ كلّ حيّ، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: آية 30)

(وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

كلما جاءت في القرآن الكريم كلمة لعلّهم يتذكرون:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

هذه إشارةٌ دقيقة إلى الفطرة، فأنت بالفطرة مؤمنٌ بالله عزّ وجل، فإن لم تؤمن تضايقت نفسك، وشعرت بالقلق، وشعرت بالضياع، وشعرت بالتمزُّق، وشعرت بتفاهة الحياة، ولا ترتاح النفس إلا إذا عرفت ربها، هكذا فُطِرَت، هكذا جُبلت، هكذا صُممّت، هكذا خُلقت، لذلك فالإسلام دين الفطرة، والدين الذي يتطابق مع طبيعة الإنسان تطابقاً كُلّياً هو الإسلام، فإذا بحثت عن الإسلام بحثت عن فطرتك، وإذا بحثت عن الإيمان بحثت عن طبيعتك، إذا طبّقت مبادئ الدين قطفت الثمار اليانعة، لذلك:

(وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

8 – لعلهم يتذكرون

أنت لا تقول لإنسان: تذكر هذه الحادثة، إن لم تقع الحادثة، تذكر هذا المنظر، إن لم ير هذا المنظر، قد تُطلع الإنسان على منظر فتقول: انظر إلى هذا المنظر، هذا مقبول، أما أن تقول له: تذكّر هذا المنظر، معنى تذكّر هذا المنظر أيْ قد رأيته من قبل، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

كان الله تعالى يقول: أنا حينما خلقتكُم، وحينما فطرتُكُم، فطرتكم على معرفتي، وجعلت فطرتكم لا ترتاح إلا بمعرفتي، فإذا عرفتموني فقد سعدت نفوسكم، من هنا قال الله عزّ وجل في الأثر القدسي:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

إذاً: هذه معنى:

(بَصَائِرَ)

ومعنى:

(هُدًى)

ومعنى:

(رَحْمَةً)

ومعنى:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة القصص)

ذكرتها لك فاملأ نفسك وقلبك وعقلك منها.

في القرآن الكريم إعجاز في المضمون وفي الشكل:

كما قلت في الدرس الماضي: في القرآن الكريم إعجاز، الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه، وأرسل رسله، ولابدّ من أن يعطيهم دليلاً على أنهم أنبياؤه، لابدّ من أن يعطيهم دليلاً على أنهم رُسُلُه، ما الدليل ؟ الدليل هو المعجزات، لا يستطيع مخلوقٌ على وجه الأرض كائناً من كان أن يجعل العصا ثعباناً مبيناً، فإذا جاء إنسان، وألقى العصا التي بيده فإذا هي ثعبان مبين، إذاً هذا مؤَيّدٌ من خالق الكون، فالمعجزة في أصلها دليلٌ قطعيٌ على نبوّة النبي ورسالة الرسول، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو

معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، إنه يدُلُّ على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، لكنّ هذا الكتاب معجزةٌ باقية، بينما معجزات الأنبياء السابقين حادثة وقعت، وانتهت، وأصبحت خبراً، أكرر: هذا الكتاب معجزةٌ باقية، وقد تحدثت في الدرس الماضي، عن أن إعجاز القرآن موضوعٌ كبيرٌ جداً لا تكفيه دروس ولا حلقات، ولكن بشكل مختصر هناك إعجازٌ في المضمون، وهناك إعجازٌ في الشكل.

1 – الإعجاز في المضمون:

في المضمون: التشريع الذي في القرآن شيءٌ معجز، البشرية مع تطورها، ومع تداخل التأثيرات فيها، مع انتقالها من طورٍ إلى طور، يبقى تشريع القرآن الكريم تشريعاً صالحاً لكلّ زمانٍ ومكان، وقد ضربت على هذا بعض الأمثلة، كيف أن القرآن الكريم أمر بقطع يدِ السارق، والمجتمعات الحديثة التي تدّعي أنها مجتمعاتٌ متألِّقة في كل ثلاثين ثانية ترتكب فيها جريمة اغتصاب، أو قتلٍ، أو سرقة، هذا في مجتمعات الغرب، وفي مجتمعات الشرق اهتدوا بعد فوات الأوان، وبعد أن دفعوا الثمن باهظاً إلى أنه لابدّ من تحريم الخمر، المجتمعات الآن في شرقها وغربها تقترب من الإسلام، لا حباً بالإسلام، ولا إيماناً به، ولكنها مُضْطَرّة، لأن الحل الإسلامي هو الحلُّ الأمثل.

إذاً هذا الكتاب الكريم مُعْجِز في تشريعه، مُعْجِزٌ في قضاياه العلمية.

ليس في القرآن آية مناقضة للحقائق العلمية المقطوع بها:

أولاً: ما في القرآن الكريم آيةٌ واحدةٌ جاءت حقيقةٌ علمية وناقضتها، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجد الإنسان فيه نقصاً وخللاً.

مثلاً: من يخطر في باله في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن هناك وسائل للنقل حديثة سوف تكون، كانت الحياة يومئذ تقوم على الناقة، وعلى الحصان، وعلى الدوابِّ، يقول ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: آية " 8)

صورٌ من إعجاز القرآن من حيث المضمون:

1 – وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

لو أن الآية انتهت عند هذا الحد، وجاء الإنسان المعاصر، وركب الطائرة، وركب السيارة، وركب

الباخرة، وركب هذه الوسائل السريعة، وقرأ الآية، والنبي عليه الصلاة والسلام مهما كان عبقرياً، مهما كان ذكياً، مهما كان متفوقاً فلا يستطيع أن يَخْرِقَ المجهول، لكن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

قوله:

(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

غَطّت كل الوسائل، إنه كتاب خالق الكون.

2 – أنثى العنكبوت هي التي تبني البيت:

في عهد النبي ما كان للعلم أن يعرف أن العنكبوت زوجان: ذكرٌ وأنثى، وأن الأنثى هي التي تبني البيت، لكن ربنا سبحانه وتعالى قال:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)

(سورة العنكبوت: آية 41)

بتاء التأنيث الساكنة، ولم يكن هذا معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

3 – قلة الضغط الجوي بالصعود إلى السماء:

لم يكن معروفاً على عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الإنسان إذا صعد في الطبقات العليا من الجو قلّ الضغطُ، وشعر بالضيق الشديد:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: آية 125)

هذا من إعجاز القرآن العلمي.

4 – نوع الجنين يحدده الحُوين المنوي:

ما كان أحدٌ يعرف أن نوع الجنين يحدده الحُوين المنوي:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

5 – كل شيء يدور حول نواةٍ:

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن كُلّ شيءٍ يدور حول نواة، قال تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة الأنبياء: آية 33)

6 – جريان الشمس:

ما كان أحدٌ يعرف في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الشمس تجري:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

طبعاً المجال لا يتسع لاستقصاء الآيات، لكن أضربُ بعض الأمثلة، لأن القرآن طافحٌ بآياتٍ لا حصر لها تُبَيّن أن هذه الآيات لا يمكن إلا أن تكون من عند خالق الكون، لذلك قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه:

<< في القرآن آياتٌ لَمّا تُفسّر بعد>>.

إذاً في المضمون فيه إعجازٌ علمي، وفيه إعجاز تشريعي، وفيه إعجاز إخباري، القرآن فيه حديثٌ عن غيب الماضي، وآيات غيب الماضي، ليست أخباراً عن الماضي فحسب، بل إشارة إلى هذا العقل البشري، أنْ أيها الإنسان فكِّر، هذا النبي الأمِّي الذي ما قرأ، وما كتب، وما حَصّل من ثقافة عصره شيئاً، ولا اتصل، بل عاش في صحراء، عاش في البادية، من أين له هذه الأخبار الدقيقة ؟ من أين له أن يأتي بأخبار سيدنا موسى مع شعيب ؟ وسيدنا موسى مع فرعون ؟ مِن أين له أن يأتي بقصّة مريم الصديقة ؟

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ)

(سورة القصص: آية 44)

الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم:

أي حينما حَمّلناه التوراة التي فيها الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وما كنت أنت يا محمد معه، فمِن أين جئت بهذه الأخبار ؟ ألستَ نبي الله ؟

(وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

ما حضرتَ معه المناجاة:

(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

(القصص: آية 45)

أيْ أنه جاء من بعد سيدنا موسى أقوامٌ وأقوامٌ وأقوام تطاول عليهم العُمُر، وأنهم نسوا حظاً مما ذُكِّروا به، وأنهم نسوا كتاب الله، نسوا التوراة التي أُنزلت على نبيّهم، إذاً يقتضي الأمر أن يبعث الله عزّ وجل في كل حِقْبةٍ رسولاً، حينما تضيع معالم الحقيقة، حينما يفرّغ الدين من مضمونه، حينما يغدو الدين طقوساً لا معنى لها، حينما تصبح الديانة شيئاً لا مغزى له يأتي نبيٌّ جديد ليجدد لأمتي دينها:

(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً)

معنى:

(ثاوياً)

أي مقيماً.

(فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

كلمة:

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

أي أن إرسال الله الأنبياء والرسل سنةٌ ثابتةٌ من سننه تعالى. وهناك آيات أُخرى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

(سورة القصص)

أي تقتضي رحمة الله عزّ وجل، وتقتضي عدالته، وتقتضي حكمته، ويقتضي علمه أن يُرسلَ للناس في كل حينٍ رسولاً يرشدهم إلى ربّهم:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)

(القصص: آية "46)

إنها آياتٌ بعضها يأخذ برقاب بعض، بعضها يؤكِّد بعضها الآخر.

إخبار القرآن عن غيب الماضي والحاضر والمستقبل:

إن ما في هذا القرآن من أخبار، ما فيه من قِصَص، ما فيه من حوادث وقعت في الماضي السحيق، في الماضي البعيد، ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يَعْرِفها، فطبيعته، وصحراؤه التي عاش فيها، وبيئته التي نشأ فيها، وانقطاعه عن العالم الخارجي، وأُمِّيَّتَه، وطبيعة المكان الذي نشأ فيه ما كانت تسمح له أن يطّلع على هذه الأخبار، هذا غيب الماضي.

وأما غيب الحاضر فكل مؤامرات اليهود التي حاكوها أنبأه الله بها في حياته، وقد تآمر أعداء النبي عليه الصلاة والسلام تآمروا على أن يباغتوه، وهو يصلِّي مع أصحابه، فجاءت آيات الصلاة في أثناء الحرب تكشف نواياهم الخبيثة.

عُمَيرُ بن وهب قصته معروفة، فقد تآمر مع صفوان بن أميّة على أن يقتل النبي عليه الصلاة والسلام، فعندما قَدِمَ المدينة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا عمير ألم تقل لصفوان كذا وكذا ؟))

فاعترف بما كان بينه وبين صفوان، وأسلم من فوره.

ففي السيرة المطهّرة، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تشيرُ إلى غيب الحاضر، وآياتٌ كثيرةٌ كثيرة تشيرُ إلى غيب المستقبل.

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(سورة الروم)

إنّ فتحَ مكة من غيب المستقبل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ)

(سورة البقرة: آية 142)

هذه من غيب المستقبل، وفعلاً فقد قال السفهاء، ولو أن هؤلاء السفهاء سكتوا لنقضوا القرآن الكريم، قال عنهم: إنهم سفهاء، وقد قالوا ما قال الله عنهم، لو أنهم فكّروا وسكتوا لأصبح كلام الله باطلاً:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: آية 142)

هذه الآية من إعجاز القرآن في الإخبار بالمستقبل، وثمة آياتٌ كثيرة تتحدّث عن المستقبل، والحديث عن علامات الساعة:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

(سورة الإسراء: آية " 104)

تتحدث عن اليهود، وما سَيَطالهم في المستقبل.

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)

هذا من غيب المستقبل:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة: آية " 33)

الآن الدين الإسلامي في بعض البلاد الغربية إما أنه الدين الثاني أو الثالث، وفي فرنسا عشرة ملايين مسلم، فإقبال الناس على الدين الإسلامي في شتَّى أنحاء العالم إقبالٌ منقطع النظير

لأن الإسلام يمثِّل الوسط، والكمال في الوسط، وكل المبادئ المتطرّفة تميل عن الوسط:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

(سورة التوبة: آية 33)

هذه الآية من غيب المستقبل، إذاً في القرآن آياتٌ فيها غيب الماضي، وآياتٌ فيها غيب الحاضر، وآياتٌ فيها غيب المستقبل، وهذه كلها من إعجاز القرآن الإخباري، هناك إعجازٌ علمي، وهناك إعجازٌ تشريعي، وهناك إعجازٌ إخباري.

من الإعجاز العلمي في القرآن: الإحكام الحسابي:

وهناك إحكامٌ حسابي، من يصدِّق أن كلمة (يوم) وردت في القرآن ثلاثمئة وخمساً وستين مرة، أي بعدد أيام السنة، وأن كلمة (شهر) وردت في القرآن اثنتي عشرة مرة، وأن كلمات (الجنة) تكافئُ كلمات (النار)، وأن كلمات (الدنيا) تكافئ كلمات (الآخرة)، وأن كلمات (الشياطين) تكافئ كلمات (الملائكة)، وأن كلمة (البَر) وردت في القرآن مع كلمة (البَحْر) بنسبة البرّ إلى البحر تماماً حتى في الأعشار، كلمة (البَرْ) وردت ثلاث عشرة مرة، وكلمة (البحر) وردت ثلاثاً وثلاثين مرة، ونسبة تسعة وعشرين في المئة تقريباً إلى واحد وسبعين هي نسبة البر إلى البحر، هذا إحكام عددي، وفيه أيضاً إعجاز رياضي، وإعجاز بلاغي.

لا يتسع المجال لا في درس ولا درسين، ولا في عام بأكمله للوقوف عند نقاط الإعجاز في القرآن الكريم، لكن كل نقطة من نقاط إعجازه تثبت للمؤمن أن هذا الكلام كلام الله، وأنك إذا أيقنت أن هذا الكلام كلام الله فيجب أن تأخذ به على أنه كلام الله، والله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وإليه المصير، فأنت أحياناً إذا ثبت لديك أن هذا الكلام كلام زيد من الناس، وتعرف مَن زيد، وما عند زيد من عطاء، وما عنده من عقاب، وإذا ثبت أن هذا الكلام كلامه، وأنّه يأمُرك بكذا، وينهاك عن كذا، فلماذا تنضبط ؟ ولماذا تفعل ما أمر، وتنتهي عما عنه نهى ؟ ليقينك بشيئين، بمن هو زيد، وأنّ هذا الكلام كلام زيد، هذا أنت تفعله وأنت لا تدري في تعامُلك اليومي، إذا لا تنسوا هذه الآية:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق: آية 12)

اختار الله عزّ وجل من بين أسمائه كلها القدرة والعلم، أيْ أنّك إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته كذلك تطولك ؛ قال سبحانه:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

هذا هو الله فاستقيموا:

فما من شيءٍ إلا وهو مُطّلِعٌ عليه، نياتك، أعماق نفسك، ما الذي تظن أنه لا يعلمه أحد ؟ خفايا مشاعرك، طموحاتك، أهدافك البعيدة جداً يعلمها، علمه يطولك، وقدرته تطولك، أنت كلّك بيده، بدءاً من خلاياك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، إلى مشاعرك، إلى قلبك، إلى عقلك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى عملك، إلى من هم دونك، إلى من هم فوقك، كلهم بيده، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك فلابدّ من أن تستقيم على أمره، ألا تستحيي أن تستقيم على أمر زيدٍ أو عبيد إذا أيقنت أن علمه يطولك وقدرته تطولك ؟!!

بربّك إذا كنت تقود مركبةً، والإشارة حمراء، وإلى جانب الإشارة ضابطٌ كبير في الشُرطة، وحوله الجنود مع درّاجاتهم النارية أتخترق هذه الإشارة الحمراء ؟ ضابط كبير في شرطة السير، وحوله الجنود، وهو يقف على هذه الإشارة بعيونٍ فاحصة، وأنت على الإشارة، أتخترق هذه الإشارة ؟ أتتخطاها مخالفاً ؟ لماذا لم تفعل ؟ وما من إنسانٍ على وجه الأرض فيه ذرة تفكير يَتَخَطّى الإشارة في هذا الظرف، أما بعد الساعة الثانية ليلاً فليس هناك شرطي، فَعِلْمُ واضع النظام في تلك الساعة لا يطولك، فأنت إذاً تتخطى، وقد تكون أحياناً أهم من هذا الذي يخالفك فتتخطى الإشارة، أما إذا أيقنت أن علمه يطولك، وقدرته تطولك فلن تخالف الأمر، ألا يستحيي المرء من الله عزّ وجل أن ينضبط مع إنسان، وأن يطبّق أمر زيد أو عبيد بدقة، بينما هو يعصي خالق الأكوان، حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد ؟ على صحته ؟ حينما يعصي الإنسان ربه على ماذا يعتمد ؟ على ماله ؟ على زوجته ؟ على أولاده ؟ على مكانته، على وظيفته، على قدرته ؟ كلّها أمور جوفاء هزيلة، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟

لذلك أيها الإخوة الأكارم، هذا القرآن من عند الله، إذا أيقنت أنه من عند الله فلابدّ من أن تأخذ مضمونه على محمل الجَدّ، يقولون: إن الكاتب العظيم هو الذي يؤلِّف كتاباً تقرؤه فتبدأ متاعبك، لماذا تقرؤه فتبدأ متاعبك ؟ لأن هذا الكتاب يضعك عند مسؤولياتك، ويبيّن لك الأخطار، لو أن إنساناً يشعر ببعض الضعف في صحّته، فالتقى طبيباً بارعاً، وقال له: هذه الأعراض بداياتٌ لمرضٍ خطير، فإنه لا ينام الليل، يفكِّر في العلاج، يفكِّر في الدواء، يفكِّر في الاحتياط، فكيف إذا كان الله عزّ وجل يقول لك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

أمر إلهي..

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

أنت لست مأموراً أن تتقي النار وحدك، بل عليك أن تتقي النار مع أهلك، مع زوجتك، مع أولادك، مع بناتك.

فيا أيها الإخوة المؤمنون، كلما عرفتَ الله عزّ وجل معرفةً أعظم عرفت خطر كلامه، قد يأتيك أمر معيّن، والتوقيع من فلان، وهو برتبة عَريف، هذا الأمر لك منه موقف، فإذا كان الضابط الملازم فلان، فلك موقف آخر، فإذا كان ضابطاً ركناً، فلك موقف ثالث، وإذا كان له رتبة عالية جداً، وأنت جندي عنده فلك موقف رابع، أما إذا كان يحمل أعلى رتبة في الجيش، وبإمكانه أن يفعل بك ما يفعل، وأن يعطيك ما يعطيك، فكلّما علت الرتبة في التوقيع كان لك موقف آخر، فإذا كان الأمر من خالق الكون، مِن الذي إليه المصير:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

ربنا عزّ وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)

(سورة المدثر)

هذا الإنسان يا محمّد إن لم يستجب لك فدعه لي، أنا أعرف كيف أُداويه، أنا أعرف كيف أجعله يندفِعُ إلى بابي عقب مصيبةٍ مُرّة.

فيا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو ما منا واحدٌ إلا وهو غالٍ على الله، ما منا واحدٌ إلا وهو مطلوب من الله عزّ وجل غالٍ فإما أن تأتيه مسرعاً بمحض اختيارك، وإما أن يسوقك الله إليه مسرعاً، لكن البطولة أن تأتيه وحدك مسرعاً، وأنت قويٌ، وأنت صحيحٌ، وأنت غنيٌ، وأنت معافى، من دون مصيبة، من دون مرض، من دون مشكلة.

هذا كله في إعجاز القرآن من حيث المضمون.

2 ـ إعجاز القرآن من حيث الشكل وصُوره:

أما إذا انتقلنا إلى إعجازه من حيث النظم والشكل، فحدِّث ولا حرج، هذا موضوع يحتاج إلى اختصاص، يحتاج إلى درس خاص، نظم القرآن الكريم، طريقته في تبليغ الأمر، طريقته في النهي، طريقته في العرض، نظمه للكلام، التقديم، التأخير، كيف يعدِل ربنا عزّ وجل عن الخبر للإنشاء ؟ وعن الأمر للوصف، وكيف ينتقل من المخاطب إلى الغائب ؟ وكيف في الآية الواحدة يخاطب العقل والقلب

معاً ؟ بنود إعجاز نظم القرآن بنودٌ طويلةٌ جداً، وعليها شواهد دقيقة، وتحتاج إلى اختصاص في اللغة، وأكتفي بشاهد واحد يوضح لكم بعض ما في كتاب الله من إعجاز، قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: آية 6)

1 – تنكير الشمول: مِن دابّةٍ:

هذا قرآن، لماذا جاءت كلمة

(دَابَّةٍ)

نكرة، ولم تأتِ معرفة ؟ لأن الله لو قال: الدوابُّ على الله رزقها، معنى ذلك أن الدواب التي تعرفونها، فـ (أل) التعريف، أو أنها (أل) العهد، أي الدواب الأليفة، أي الأنعام على الله رزقها، لكن الله عزّ وجل لما جاء بكلمة دابة جاء بها نكرة، فهذه إشارة إلى أن هذا التنكير تنكير شمول، تقول: طالبٌ، هذه الكلمة تنطبق على كل طالب في العالم، أما إذا قلت: الطلاب سوف نعطيهم الجوائز، تقصد أنت الطلاب المتفوقين، أو طلاّب هذه المدرسة، أو طلاّب هذا المسجد، إذا عَرّفت الكلمة خَصصّتها، فإذا نَكّرتها عممتها، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

هذا التنكير تنكير شمول، لكن إذا دخل معلم على طُلاّبه، وقال: سأعطيكم جوائز، هذا الكلام يشمل الحاضرين، ولا يشمل الغائبين، ثم تأتي كلمة (من).

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

فهذه:

(مِنْ)

تفيد استغراق أفراد النوع فَرداً فرداً، فإذا قال المعلم: ما مِن طالبٍ إلا وله جائزة، هذا الكلام شمل الغائبين، ومنهم اثنان غائبان يغطيهم، أما إذا قال: طلاّب هذا الصف لهم عندي جائزة، فالمقصود الحاضرين، إذاً لمّا نَكّر ربنا عزّ وجل كلمة:

(دَابَّةٍ)

تنكير شمول أضاف لها:

(مِنْ)

لاستغراق أفراد النوع، ثمّ نفى واستثنى، لو قال: الدواب على الله رزقها، أي على الله نَكّر وعلى غير الله، ويقول لما ربنا:

(إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

2 – تقديم ما حقه التأخير: إيّاك نعبد:

هنا في الجملة قصْر، فلو قال: نعبد إياك، لصار المعنى: نعبدك، ونعبد غيرك، أما:

(إيّاكَ نَعْبُدُ)

فتعني: لا نعبد إلا أنت، من تقديم المفعول به على الفعل، فصار في الجملة قصر، بأسلوب النفي والاستثناء:

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلاّ)

إذاً الرزق مقصورٌ على الله عزّ وجل.

الآن لو قال الله عزّ وجل: ما من دابةٍ إلا الله يرزقها، فلا يعني على وجه الإلزام، فقد يرزقها، أو لا يرزقها، ولكن عندما قال:

(إلاّ عَلَى)

فإن (على) تفيد الإلزام، فكلمة (مِن) أعطت معنى، وكلمة (دابةٍ) أعطت معنى، وكلمة (من) حصرت في معنى محدد، ومثلها كلمة (ما) لها معنى، وكذلك كلمة (إلا) أفادت معنى.

ذات مرةٍ حاولت في هذه الآية أن أصيغها صياغة أخرى ؛ في اثنتي عشرة صياغة، فأشعر أن المستوى هبط فجأةً، فمِن حَذْفِ (من) هبط المستوى، ومن إلغاء القصر هبط المستوى، لذلك هناك إعجاز في نظم القرآن الكريم، والشواهد والدلالات على هذا البند كثيرة جداً، لكنها تحتاج إلى اختصاص، اختصاص في البلاغة، اختصاص في اللغة، في النحو، في الصرف، في بنية الكلمة، في أوزان الأفعال:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية 286)

3 – كسبت واكتسبت:

لماذا قال الله هذا ؟ لمَ لم يقل: لها ما كسبت، وعليها ما كسبت ؟ أو لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت ؟ هذا موضوعٌ دقيقٌ جداً، الفرق بين كَسَبَ وبين اكتسب كالفرق بين فَعَلَ وافتعل، الفرق دقيق جداً، وهذه كذلك لها بحث، ليس هنا مجال للحديث عن إعجاز القرآن اللغوي، لكن أهل الاختصاص والخبرة يدركون ذلك كما فعل السحرة ؛ سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت ثعباناً فقالوا:

(قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

واللهِ الذي لا إله إلا هو ؛ أهل اللغة إذا دققوا في نظم القرآن لا يملكون إلا أن يسجدوا لله عزّ وجل لشعورهم أن هذا الكلام كلام إله، وليس كلام بشر، بل إنه فوق طاقة البشر، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية 42)

الحديث عن إعجاز القرآن حديث طويل، لكنّي أعطيكم مقتطفات، ونماذج على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر والقصر:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ)

(سورة القصص)

أيْ أنّ هذا القرآن رحمةٌ من الله عزّ وجل من ربّك لقومك يا محمد عليه الصلاة والسلام.

(لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هذه هي الفطرة.

وقفة مع الفطرة:

أيها الأخُ الكريم، مع وقفة قصيرة، لو لم تكن فطرة الإنسان كما هي عليه، لو لم تكن فطرته عالية لفَعَلَ السوء، ولارتكب المعاصي، واعتدى، وأكل مالاً حراماً، واعتدى على أعراض الناس، لو لم تكن فطرته عالية لما شعر بوخز الضمير، ولا بالانقباض، ولا بالضيق، ولا بالشقاء، بل بقي مقيماً على معاصيه حتى الموت، ولكن رحمة الله عزّ وجل تتمثل بهذه الفطرة التي فطره عليها، فطرةٌ عالية، هذه الفطرة كلما حاد عنها ضاقت نفسه.

الهستريا والشعور بالقلق:

مثلا: انتقلْ إلى بلاد الغرب حيث لا دين ولا خلق، ولا شيء من هذا القبيل، فإنك ترى عجباً، وقد قرأنا في علم النفس أن الشاب إذا فعل شيئاً منكراً شعر بحالةٍ اسمها الكآبة، الشعور بالكآبة، ما هي الكآبة ؟ هي مرض نفسي خطير، الإحساس بالكآبة هو تأنيب الضمير، يوجد مرض اسمه (الهستيريا)، والناس يستخدمون كلمة (هستيريا) بمعنى الجنون، ولكنه مصطلح في علم النفس دقيق، مرض (الهستيريا) هو شلل عضوي لسبب نفسي.

يُذكَر في كتاب علم النفس شاهدٌ عليها، أن طبيباً شاباً كان في زيارة مريض متقدّمٍ في السن له ابنةٌ شابة، وقد وضع يده على جسمها، وهذه خيانة في مهنة الطب، أصيبت يده بالشلل لشعوره بالذنب، رغم أنه طبيب، وهذا يعالج المرضى نفسياً، أصابه شلل عضوي كامل مَرَدُّه شعورٌ بالذنب، هذه هي الفطرة.

شاهد آخر: جنديّ في المعركة كان بإمكانه أن ينقذ رفيقه من الموت فلم يفعل، فأصيب بالشلل، هذا المرض اسمه (هستيريا)، وهو مرضٌ أساسه الشلل العضوي لأسبابٍ نفسية، لو فحصت الأجهزة العصبية تجدها سليمة، العضلات سليمة، مراكز التَنَبُّه سليمة، كل شيء في الإنسان سليم، لكنّ نفسه المذنبة ليست سليمة، وهي السبب.

موضوع الفطرة موضوع دقيق جداً، وأنت لا ترتاح إلا إذا استقمت على أمر الله، مادام هناك خلل، ومادام هناك كذب، ومع الكذب يتولّد انقباضٌ، ومادام عنده نفاق فهناك انقباض، ومادام لديه تقصير في العبادات فهناك انقباض، لو أن الإنسان استيقظ بعد طلوع الشمس وفاتته بصلاة، ولم يعلم أحد به، ولكنه يشعر بانقباض، وكأنه فَعَلَ ذنباً كبيراً، لكن إذا صلّى الفجر بشكل أو بآخر في وقت الفجر، وعاد إلى النوم، ويستيقظ بعد أن صلى الفجر في وقته براحة، هذه فطرة.

إن قالت لك أمك: أنا متألِمة يا بني، هل عندك دواء ؟ إذا قلت لها: الآن الحصول على الدواء صعب، فالساعة الثانية ليلاً، فقالت لك: لا عليك، وسكتتْ، هل ترتاح إذا نمت في فراشك ؟ وأنت تعلم أن هناك صيدليات مناوبة، فلو ذهبت إلى إحدى الصيدليات المناوبة، ولم تجد الدواء، وذهبت إلى الثانية، والثالثة، والرابعة، وعدت إلى البيت، في الحالتين أمك لم تأخذ الدواء، لكنك تنام مرتاحاً، لماذا ؟ لأنك فعلت الذي عليك، فقد ارتاحت نفسك، رغم أنّ الدواء لم يُحضَر، لكن في المرة الأولى شعرت بالضيق.

إن قالت لك زوجتك: ابنك حرارته مرتفعة، فأهملت أخذه للطبيب، فإنك تشعر بالضيق، فإذا ذهبت إلى الطبيب، وقال لك: يجب أن يبقى هكذا حتى الصباح، حتى أعرف بالضبط ما هو الموضوع، فإنك ترتاح، إذاً راقب نفسك تجد أنك لا ترتاح نفسك إلا إذا تصرّفت وفق الشرع فيما أمرك ونهاك، وأي مخالفةٍ للشرع تعود عليك بانقباضٍ وألمٍ نفسيٍ لا يوصف، هذه هي الفطرة، وأكبر معين لنا على طاعة الله هو الفطرة، إذا حِدْتَ عنها شعرت بالقلق.

لذلك عيادات الأمراض النفسية في بلاد الكفر تفوق عيادات أمراض الجسد، بل إن النسبة التي قرأت عنها هي مئة وخمسة وخمسون في المئة، أي أن كل إنسان يُعالِج مرة ونصفًا عند طبيب نفسي، بينما أصحاب الأمراض الجسمية مرة واحدة بسبب الشعور بالانحراف.

قد ينجو الإنسان أحياناً من القانون، لكن هل ينجو من نفسه ؟ لا، إنه لا ينجو، إنسان دهس طفلاً في الساعة الثانية ليلاً، لا يوجد شرطة، ولا أحد يتعقبه، أول ليلة لم ينم، ولا الثانية، ثم مضى عليه عشرون يوماً لم يذق طعم النوم، ذهب إلى طبيب نفسي فقال له: ما القصة ؟ فقال له: هكذا جرى بعد الحادثة لم

أستطع النوم، فأخبره الطبيب أنه لا يمكن أن تنام إلا إذا دفعت دية هذا الغلام، فدفع ديته لأهله من وراء حجاب حتى استطاع أن ينام، إذاً: هذه هي الفطرة، فكلما جاء في القرآن:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة الدخان)

ما فطركم الله عليه، وما أمركم، وما نهاكم عنه.

إنّ بنيتك مبنيّة وفق الإيمان، إذا خالفتَها تشعر بألم، فمثلاً بالنسبة لبيتك ؛ لو أنك تناولت طعاماً نفيساً وحدك في السوق، وأهلك وأولادك يأكلون طعاماً خشناً، هل ترتاح ؟ لا، بل إنك تتضايق، مع أن الطعام لذيذ، وهذا ضيق الفطرة لهذه الخيانة، من لهم غيرك ؟ ائتِ به إلى البيت، هذه هي الفطرة، هل تبتغي الراحة النفسية ؟ تصرّف وفق الشرع تماماً، كن عند الأمر والنهي، ولو في النظرة الخائنة، فلو أن الإنسان نظر إلى امرأة لا تحلُّ له نظرةً عابرة، وجاء ليصلي، فإنه يشعر أن بينه وبين الله حجابًا، لماذا نظرت يا عبدي ؟ لماذا نظرت إلى امرأةٍ لا تحلُّ لك ؟ فإذا كنتم تبتغون راحة نفوسكم فإن راحتها في طاعة الله عزّ وجل، إذا أحببتم نفوسكم، إذا كنتم مفرطين في الأنانية فأطيعوا الله عزّ وجل، تَقَصُّوا أمره في كل ما أمر عندئذٍ لتسعدوا.

في البيع، لو أنك كذبت على المشتري، وقلت له: إن هذا القماش جيد، وهو ليس كذلك، وحان وقت صلاة الظهر، فإنك لا تقدر أن تصلي الظهر، تدخل إلى الجامع فتتوضأ، وتصلي، لكنك لم تتصل بالله عزّ وجل، بينك وبين الله حجاب، لأنك غششت مسلماً، أو غششت غير مسلم.

لو أنك قصّرت في إطعام هِرّة، لو أنك ضربت حيواناً أليفاً فتألم، تشعر أنّ بينك وبين الله حجاباً، هذه هي الفطرة.

أنا أُلِحُّ على الفطرة، لأن الإسلام هو دين الفطرة، في معاملتك لزوجتك، لوالدتك، لأولادك، لأقاربك، لجيرانك، لزبائنك، لموظّفيك، للمراجعين، أمامك مُراجِع، ومعاملته تحتاج إلى توقيع، وعندك صديق، والحديث لطيف، والقهوة ساخنة، فتقول له: تعال غداً، فهل يمكنك أن تصلي الظهر ؟ ما ذنبه هو، قد أتى من مكان بعيد، وبإمكانك أن تقطع الحديث الممتع مع صديقك، وأن تحُل له أمر هذه المعاملة، لذلك هؤلاء الذين يضعون العراقيل أمام الناس فإنهم يدفعون الثمن باهظاً، من أين يدفعونه ؟ من سعادتهم، دائماً عندهم ضيق، كل إنسان مخالف لقوانين الفطرة تجد عنده عصبية وضيقًا، وانفجارًا سريعًا، فوراً ينفجر، هذا كله ضيق داخلي، حينما يبني مجده على أنقاض الناس، حينما يبني سعادته على شقائهم، حينما يبني ثروته على فقرهم، حينما يعيش على حسابهم، حينما يعذّبهم، حينما يخيفهم، فهذا صار أشقاهم، اختل توازنه الداخلي، تجده سريع الغضب، ينفجر بسرعة، ولأتفه سبب، إذا رأيتم أحداً انفجر لسبب تافه، فاعرفوا أنه مريضٌ نفسياً، وهذا خالف قوانين فطرته، ينفجر لأتفه الأسباب، يضرب ضرباً

مُبَرّحاً بلا سبب، قد يضرب ابنه لسبب تافه، أنا أعرف إنساناً يضرب طفله الصغير الرضيع إذا بكى، هذا عنده اختلال داخلي، وهذا الاختلال من مخالفة قوانين الفطرة.

السعادة كل السعادة في طاعة الله:

فيا أيها الإخوة الأكارم، السعادة كل السعادة تكمن في طاعة الله عزّ وجل، تقطف ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، فالله تعالى يقول:

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدّينِ (15))

(سورة الانفطار)

أما النعيم مطلق.

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

من غير تحديد، في الدنيا للأبرار نعيم، بالإضافة إلى نعيم الآخرة.

(وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدّينِ (15))

(سورة الانفطار)

في القرآن إشارات كثيرة إلى أن النعيم مستمر، إذا كنت مع قوانين الفطرة، إذا كنت مع أمر الله فأنت في نعيم داخلي، لذلك في قلب المؤمن سعادةٌ لا يعرفها إلا من ذاقها، لو قُسّمت على أهل بلدٍ لكفتهم، ما هي السعادة ؟ أنه يتصرّف وفق أمر الله ونهيه، وهو مُنْسَجمٌ مع كتاب الله عزّ وجل، لا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا نظرة، ولا يأكل قرشًا من مال حرام، ولا استعلاء ولا كبر، ولا نفاق أبداً، بل هو منضبط في سمعه وبصره ولسانه، وكسب المال وإنفاقه، وفي بيته، ومع أهله وأولاده، كلما كنت أكثر انضباطاً كنت أكثر سعادةً، كل هذا الشرح جاء على كلمة:

(لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ)

(سورة الدخان)

وبعد، فما أكثر آيات القرآن الكريم التي تردفها (لعل) التي تفيد الرجاء، وما أكثر آياته التي تأتي فيها كلمة يتذكرون:

(كَلّا إِنّهَا تَذْكِرَةٌ)

(سورة عبس)

(لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ)

(سورة الدخان)

بقيت الآية التالية الدقيقة، ونرجئ شرحها للدرس القادم إن شاء الله:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (08-18): تفسير الآيات 47 - 54

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-07-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(47)فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ(48))

(سورة القصص)

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

1 – إعراب لولا:

أيها الإخوة، كلمة (وَلَوْلاَ) يعربها علماء اللغة حرف امتناع لوجود، (ولو) حرف امتناع لامتناع، تقول: لولا المطر لهلك الزرع، أي امتنع هلاك الزرع لوجود المطر، فهذ لولا:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة القصص: آية 47)

2 – المصيبة لها أسباب من عمل الإنسان:

إذاً: المصائب في نص هذه الآية، وفي صريح هذه الآية، وفي الدلالة القطعية لهذه الآية لها أسبابٌ مِن عمل الإنسان.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

3 – الفائدة مِن تنكير كلمة (مصيبة):

كلمة مصيبة هنا جاءت نكرة، أيْ أيّةٌ مصيبة، وهذا تنكير شمول، مصيبة في المال، مصيبة في النفس، مصيبة في الهمّ والحزن، فقدُ بعض الأولاد مصيبة، أن يكون مُهاناً مصيبة، أن يكون خائفاً مصيبة، أن

يكون مريضاً مصيبة.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ)

في الدنيا وفي الآخرة، فإن الموت مصيبة إذا أفضى إلى عذاب جهنّم، بل إنه مصيبة المصائب: **" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكلٌ نعيمٍ دون الجنة محقور، وكلٌ بلاءٍ دون النار عافية ".**

4 – مصائب الدنيا أهون من مصائب الآخرة:

مصائب الدنيا أهون بكثير من مصائب الآخرة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

هناك عذابٌ أدنى، وهناك عذابٌ أكبر، كل أنواع العذاب في الدنيا تنتهي بالموت، والموت نهاية كل حي، لكن عذاب جهنم أبدي سرمدي، فالمصيبة مهما كانت كبيرةً يُنهيها الموت، لكن مصائب الدار الآخرة مصائب أبدية، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

هذا شيءٌ لا يحتمل:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(سورة الزخرف)

فإذا جَمّد الإنسانُ عقله، وعَطّله، وعاش لحظته كما يعيش عامّة الناس فهو إنسان فَقَدَ عقله، إنسانٌ مغبون، ربنا سبحانه وتعالى سمّى يوم القيامة يوم التغابُن، الإنسان يظن نفسه في الدنيا أنه قد تفوق، وقد حَصّل، وقد جمع، وقد استعلى، وقد أخذ، فإذا به يوم القيامة بالنظر لمقياس الله عزّ وجل ولمقاييس الدار الآخرة مغبون، ضَيّع كل شيء، ولم يأخذ شيئاً، لذلك البطولة أن تأتي مقاييسُك في الدنيا وَفق مقاييس القرآن.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

إن موضوع المصائب موضوعٌ طويل، على كلٍ، في هذه الآية تقريرٌ من قِبل الله عزّ وجل، وتوضيحٌ إلى أن كلّ مصيبةٍ مهما دقت، ومهما كَبُرَت، نفسية كانت أم مادية، في الجسم أم في المال، في الروح أم في النفس، في الدنيا أم في الآخرة، في الأهل أم في الولد فهي مصيبة موجعة.

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

5 – القصاص من مقتضيات العقل السليم:

استنبط علماء التوحيد من هذه الآية أن العقل وحده يوجب القصاص، لأن الإنسان فُطِرَ فطرةً يعرف بها دائماً ما إذا كان على حقٍ أو على باطل، والإنسان لو لم يأته من يبلغّه، لو لم يأته من يعظه، ولو لم يأته من يبيّن له فإنه يعرف بفطرته أنه على حق أو على باطل.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

إن الله سبحانه وتعالى يحاسبك على ما فطرك عليه، فإذا أخذت شيئاً ليس لك ألا تعرف ذلك ؟ إذا اعتديت على إنسانٍ ما ألا تعرف ذلك ؟ إذاً قال علماء التوحيد: إن العقل وحده يوجب القصاص، أوَصَلَتك حقيقةٌ أم لم تصلك، لأنك مكلّف، أنت مكلف، معنى أنك مكلف أنك إنسان مخلوق متمَيّز، والكون كلّه مخلوقات.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

6 – الإنسان كائنٌ مخلوقٌ متميّز بالتكليف:

الجبال مخلوقات، وهي نفوس، والسماوات نفوس، والأرض نفوس كذلك، والملائكة نفوس، والحيوانات نفوس، ولكن الإنسان كائنٌ مخلوقٌ متميّز بالتكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

الإنسان حمل الأمانة، ما الأمانة ؟ نفسه التي بين جنبيه، الدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

الله سبحانه وتعالى جاء بك إلى الدنيا، وجعل نفسك التي بين جنبيك، والتي هي أثمن شيء، والتي لا تفنى، بل هي خالدة إلى ما شاء الله، هذه النفس إما أن تسعد بها إلى الأبد، وإما أن تشقى بها إلى الأبد، أوكلها إليك، جعلها بين يديك، جعل أمر سموّها أو انحطاطها بيدك، والدليل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية 148)

والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

إذاً أنت إنسان متميّز، مخلوق متميز، بل إنّك المخلوق المُكَرّم، الذي حملت الأمانة، وقبلت التكليف.

7 – بماذا كُلِّفتَ أيها الإنسان في الدنيا ؟

والتكليف أن تزكِّي نفسك في الدنيا حتى تكون هذه النفس مؤهلةً للسعادة الأبدية، أنت كُلّفت أن تعبد الله، وعبادة الله عزّ وجل تعني غاية الخضوع لله، وغاية الانصياع له، وغاية الحبِّ له، وغاية الطواعية له، وغاية الشوق إليه، ولن تحبه، ولن تطيعه، ولن تشتاق إليه، ولن تؤْثِرَهُ على ما سواه، إلا إذا عرفته، إذاً العبادة طاعة، غاية الطاعة، غاية الخضوع مع غاية الحب، أما طاعةٌ بلا حب فهذا كلام فارغ، وحبٌ بلا طاعة كلامٌ فارغ.

8 – ما هي العبادة ؟

ففي أدقّ التعبيرات: العبودية غاية الطاعة مع غاية الحب، ولن تكون هذه الطاعة، ولن يكون هذا الحب إلا إذا عرفت الله عزّ وجل، فإذا عرفت الله عزّ وجل أحببته غاية الحب، وأطعته غاية الطاعة، إذاً: ستسعد بقربه إلى الأبد، هذا ملخص الملخص، وهذا هو التكليف:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية 72)

العبادة طاعةٌ طوعية، ممزوجة بمحبةٍ قلبية، أو غاية الطاعة مع غاية الحب، أساسها معرفةٌ يقينية، تفضي إلى سعادةٍ أبدية، فأن تعرف الله عزّ وجل هذا أخطر عملٍ تفعله في الدنيا، قبل الطعام والشراب، قبل اختيار المهنة، قبل الزواج، قبل أي شيء، لأنك إذا شَكّلت حياتك بعد معرفة الله، شكلتها وفق المنهج الصحيح، شكلت عملك، زواجك، علاقاتك ؛ أما إذا شكلت حياتك قبل معرفة الله عزّ وجل، شكلتها على نمطٍ مغلوط، عندئذٍ تدفع الثمن باهظاً بعد معرفة الله عزّ وجل.

فإذا أردتُم تلخيص الدين كلِّه بكلمات فهي: حبٌ في القلب، وخدمة للخلق، يؤكِّد خدمة الخلق، يؤكد حبّ الله في قلبك، خدمتك للخلق، وتعبّر خدمتك للخلق عن حبّك للرب، فهي حبٌ في الداخل، وعملٌ في الخارج، يقول الله سبحنه وتعالى:

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

من الداخل إخلاص، أي حب، ومن الخارج طاعة لله عزّ وجل.

مقوّمات التكليف:

إذاً: أنت مكلّف، وحينما كلفك الله عزّ وجل أعطاك مقوّمات التكليف.

1 – العقل:

وفي الأثر:

((وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك ـ أيُّها العقل ـ بك أعطي وبك آخذ))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة بسند فيه ضعف]

بك أعطي الإنسان كل شيء، وبك آخذ منه كل شيء، أيْ بعقله.

و:

((إنما الدين هو العقل ومن لا عقل له لا دين له))

[الجامع الصغير عن جابر بسند فيه مقال]

و:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

إن الآيات التي تبيّن قيمة العقل في القرآن تزيد على ألف آية، والقرآن فيه ستة آلاف آية تقريباً، سُدُسُ القرآن يتحدّث عن العقل، فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، وإن الرجلين ليستوي عملهما وبرُّهما وصومهما وصلاتهما، ويختلفان في العقل، كالذرة جنب أُحُد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

أنت المخلوق المكرّم، المخلوق الذي قبل حمل الأمانة، المخلوق المكلّف، كلِفت أن تسمو بنفسك في الدنيا حتى تسعد بها إلى أبد الآبدين، هذا التكليف له مقومات أحدها: العقل.

2 – الكـون:

الكون سخّره الله لك تسخير تعريفٍ وتكريم، تعرف هذا بعقلك، عقلك والكون يتكاملان، وبنية العقل مطابقةٌ تماماً لقوانين الكون، فبعقلك تعرف الله من خلال الكون، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، العقل مُقوّم، والكون مقوّم.

3 – الفطرة:

إن الله فطرك فطرةً عالية، فإذا خرجت عنها قيد أَنْمُلة عرفت ذلك بالضيق، والانقباض، وتعذيب الضمير ووخزه، واختلال التوازن، والشعور بالقلق، والتبرُّم، والضجر، هذه كلُّها عقابٌ نفسيٌّ عاجل، هذه الفطرة في خدمتك من أجل أن تبقى على الطريق، فمقومات التكليف: العقل والكون والفطرة.

4 – الاختيار:

أعطاك حرية الاختيار، لك أن تفعل هذا أو ذاك، ولك ألا تفعل:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية 148)

5 – الشهوة:

أودع فيك الشهوات لترقى بها صابراً أو شاكراً إلى رَبِّ الأرض والسماوات، العقل والكون والفطرة وحرية الاختيار والكسب والشهوة، هذه كلها من مقوّمات التكليف، وهذا حقك.

6 – الشرعُ الإلهي:

مثلاً كلّفْنا إنساناً بعمل، وقال: إنه يحتاج إلى مركبة، فنقول له: خذ هذه المركبة، يحتاج معها إلى الدليل، فأعطيناه الدليل، يحتاج إلى خارطة، زودناه بخارطة، يحتاج إلى مبلغ من المال للإنفاق، فمولناه بالمبلغ، كلّفناه، وأعطيناه كل ما يحتاج، لابدّ من أن نحاسبه على تقصيره، فإذا راقبناه، ورأيناه قد انحرف، وذكّرْناه بالخطة المتفق عليها، إن هذا التذكير فضلٌ من المكلِّف، وليس حقاً للمكلّف:

(لَقَدْ مَنّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً)

(سورة آل عمران: آية 164)

ثم يأتي الرُسل والأنبياء، والدعاة والكتب، وهذا من باب التذكير، إنك بالفطرة تعرف الحق من الباطل، وهذا الكلام كله استنباطٌ من قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(القصص: آية 47)

أي أن الإنسان حينما يفعل شيئاً مخالفاً لفطرته فلابدّ من أن يُعاقب على ذلك، لما يتمتع به من العقل، لأن الله عزّ وجل أودع في الإنسان عقلاً يوجب التكليف، ويوجب الطاعة لله عزّ وجل.

نعيد عليكم سريعاً مقومات التكليف: العقل، والكون، والفطرة، والاختيار، والشهوة، والشرع، هذه مقومات التكليف.

أما إرسال الأنبياء النبي تلوَ النبي، والرسول تلوَ الرسول، فهذا من باب التذكير:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ)

(سورة المدثر)

إنه تذكيرٌ لهذا المكلف ببنود الاتفاق، فحيثما وردت في القرآن الكريم كلمة تذكرة فإنما تعني أن هذا القرآن جاء ليذكِّر الإنسان بما عاهد عليه الله سبحانه وتعالى:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55))

(سورة المدثر)

الآية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(القصص: آية 47)

الحكمة مِن تخصيص الأيدي في قوله: بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

لماذا قال الله سبحانه وتعالى:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

الإنسان له أرجل أيضاً، وله لسان، لأن أكثر الأعمال يقوم بها الإنسان بيديه، هذا في البلاغة اسمه ذكر الجزء وقصد الكل، أي كل أعماله، فأعمال اللسان هي كلامه، وهو محاسب عليها، أفكاره السيّئة، حركاته بأرجله، لكن الله سبحانه وتعالى ذكر:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

وقصد كل أعمال الإنسان الكسبية الاختيارية، الإنسان على ماذا يحاسب ؟ الفعل فعل الله عزّ وجل، يحاسب على انبعاثه إلى هذا العمل، أضرب لكم مثلاً لطيفاً:

الفعل هو فعل الله عزّ وجل، أي أنه لا يقع شيء في الكون إلا بفعل الله عزّ وجل، ولكن الإنسان على ماذا يحاسب ؟ حينما ينبعث ليطيع أو ليعصي فإنّ هذا الانبعاث للطاعة أو للمعصية هو الكسب الذي عَبَّر عنه القرآن بقوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: آية 286)

أي أن هذا الضوء مفتاحه عندي، وله مفتاح خُلّبي لا يعني شيئاً، ولا يتصل به، موضوع على الجدار، فإذا أمرتُ ابني أن يطفئ هذا الضوء فذهب ليطفئه، فلما وضع يده عليه أطفأته أنا، ماذا عرفت من هذا التصرُّف ؟ أن هذا الابن أراد أن يُطيعني، فإذا أبى عرفت ذلك، الفعل هو فعل الله عزّ وجل، والإنسان يحاسب على انبعاثه، وعلى كسبه للعمل، وليس غير:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا)

لا حجة للإنسان بعد البيان الإلهي الشافي:

هنا العلماء قالوا: **" لو أن الله عزّ وجل أصاب الإنسان بما يستحق في الدنيا، أو في الآخرة، لو أنه عصاه في الدنيا، ومات على معصيته، وعلى كفره، واستحق جهنم،** يقول له الله عزّ وجل في جهنم: لقد أعطيتك كل المقومات، أعطيتك العقل فلم تعمل له، خلقت لك الكون فلم تفكِّر فيه، جعلت لك فطرةً فلم تصغ إليها، منحتك حرية الاختيار فلم تستخدم هذا الاختيار فيما يُرضيني، أعطيتك شهوةً لترقى بها إليّ فهويت بها إلى جهنم، فماذا تريد مني ؟ يقول هذا العبد: يا رب، هذا كلام صحيح، لولا أرسلت إليّ رسولاً، وأنا في الدنيا لكي يذكرني.

حتى هذا الطلب لئلا يطلبه الإنسان في الآخرة، لئلا يقول الإنسان الذي أعطي كل مقوّمات التكليف، لئلا يقول يوم القيامة وهو في جهنم:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(القصص: آية 47)

لذلك أرسل الله للبشر رُسُلاً:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

(سورة النساء: آية 165)

فإن التركيب صار:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ)

في الدنيا أو في الآخرة، وأغلب الظن المعنى هنا في الآخرة، لولا أنه إذا دخل جهنم جزاء عمله السيئ، وقال وهو في جهنم:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(القصص: آية 47)

جواب لولا محذوف:

الجواب محذوف، وتقديره: لما أرسلناك يا محمد:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أين جواب الشرط ؟ جواب الشرط محذوف تقديره: لما أرسلناك، لولا أن الإنسان إذا عصى ربَّه في الدنيا، وعطّل عقله، وطمس فطرته، ولم يفكِّر في الكون، واختار الشر على الخير، وفعل كل المعاصي، ومات على كفره، وعلى معصيته فاستحقّ النار، وفي النار عاتب الله عزّ وجل، وقال له: يا رب، أنا أخذت حقِي كاملاً، ولكن لو ذكّرتني في الدنيا، لو أرسلت إليّ رسولاً فيذكرني، لولا أن الإنسان الذي سوف يحاسَب على عمله جزاءً وفاقاً بالعدل التّام، يقول هذا الكلام لما أرسلناك يا محمد، إذاً إرسال الرسل منّة وفضلٌ من الله عزّ وجل.

فأحياناً الإنسان يُعطي ابنه الذي يدرس كل ما يحتاج، والمنهج الدراسي ممتاز، وهو أحسن مدرسة، وله أحسن أساتذة، وأحسن برنامج، وله غرفة خاصة، وهو معفوّ من الأعمال ليتفرغ للدراسة، فالتكليف انتهى، وكذلك حرص الأبِ الشديد موجود، فهو يراقبه في أداء مهمّته، فيذكِّره بالامتحان، ويذكره بالعهد، ويذكره بالتكليف.

إن الآية إذاً دقيقة جداً، ومن أدق الآيات، أي لولا أن الإنسان على الرغم من أنّه أخذ من الله كل ما يستحق، وخالف ما عاهد الله عليه لما استحق دخول النار، ثم يقول وهو في النار:

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

لمَا أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء، أرسلناك لئلا يقولوا وهم في النار:

(فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

أعتقد أن تفسيرها واضح.

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)

(القصص: آية 48)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا

هذا هو حال العرب قبل الإسلام:

جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء بالقرآن الكريم، الكتاب المُعْجز على فترةٍ من الرسل، والعرب

في جزيرتهم، في جاهليةٍ جَهْلاء، في فوضى، يعبدون الأصنام، يئدون بناتهم، يسيئون الجوار، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، يكذبون، لأنها جاهلية، حسبك قول الله عزّ وجل: جاهلية، ماذا قال الشهيد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ قال للنجاشي:

((كُنّا قوْماً أهْلَ جَاهِلِيّةٍ ؛ نَعْبُدُ الأصْنَامَ، وَنَأكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأتِي الفوَاحِشَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَنَقْطعُ الرّحِمَ))

[أحمد عن أم سلمة]

قالُوا لَوْلَا أوتِيَ مِثْلَ مَا أوتِيَ مُوسَى

هذه هي الجاهلية، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعرفون نسبه وأمانته، وصدقه وعفافه، فدعاهم إلى الله عزّ وجل، وجاءهم بهذا الكتاب، فذهبوا إلى اليهود وقالوا: يَزْعُم محمدٌ أنه نبي، فهل عندكم في كتبكم أنه سيبعث نبيٌّ في هذه الجزيرة ؟ ماذا قال أهل الكتاب ؟ قالوا: نعم، في كتابنا ما يؤكِّد بعثته، وما يؤكِّد أوصافه، وقد آن أوان ظهوره، وحين سمع العرب من اليهود أو من أهل الكتاب هذا التأييد وهذا التصديق برسالة النبي:

(فلَمّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالُوا لَوْلَا أوتِيَ مِثْلَ مَا أوتِيَ مُوسَى أوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أوتِيَ مُوسَى)

قالوا: لو أنه نبيٌّ حقاً لجعل العصا ثعباناً مبيناً، لو أنه نبيٌّ حقاً لأصبحت يده بيضاء للناظرين، لو أنه نبيٌّ حقاً لأُنزل عليه القرآن جملةً واحدة كما أنزلت التوراة:

(فلَمّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالُوا لَوْلَا أوتِيَ مِثْلَ مَا أوتِيَ مُوسَى أوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أوتِيَ مُوسَى)

لولا أوتي محمد عليه الصلاة والسلام بمثل ما أوتي موسى، إن أمرهم عجيب، بماذا جاء موسى ؟ جاء بالتوراة، ماذا في التوراة وفي الإنجيل كذلك ؟

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف: آية 6)

في الإنجيل والتوراة.

إذاً:

(أوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أوتِيَ مُوسَى مِنْ قبْلُ)

(القصص)

الجواب الإلهي: أوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أوتِيَ مُوسَى مِن قبْلُ

لماذا عندما قال لهم أهل الكتاب: عندنا في التوراة ما يؤكِّد دعوة النبي عليه الصلاة والسلام كفروا بهذا

الكلام ؟

(قالُوا سِحْرَانِ تَظاهَرَا)

(سورة القصص)

قالُوا سِحْرَان تَظاهَرَا

أي أنه لمّا جاءت الأخبار على ما يُخَالف هواهم رفضوها، فإذا جاءتهم على ما يوافق هواهم قبلوها، جاءتهم الأخبار بأن موسى عليه السلام جعل العصا ثعباناً مبيناً، وصارت يده بيضاء للناظرين، قبلوها، وطالبوا بها النبي عليه الصلاة والسلام، فلما قال لهم أهل الكتاب: إن في كُتبنا ما يؤكد بعثة النبي رفضوا هذا القول، إنها مناقشة منطقية جداً:

(فَلَمّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)

إذا كنتم أيُّها العرب، أيها المشركون الذين عاصرتم النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كنتم مؤمنين إيماناً حقيقياً قطعياً بما أوتي موسى من قبل، وما عند هذا النبي الكريم من بشارةٍ بظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام، إذاً يجب أن تؤمنوا به أيضاً:

(أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرَانِ تَظاهَرَا وَقالُوا إِنّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

وَقالُوا إِنّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ

أي أنهم يكفرون بأصل الرسالة السماوية، لن نؤمن لا بموسى ولا بمحمد:

(إِنّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)

الله سبحانه وتعالى يقول: إذا كان القرآن والتوراة سِحرين، وإذا كان الله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يرسل لخلقه رسولاً وكتاباً:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(القصص: آية 49)

1 ـ المنطق الإسلام في المناقشة والمحاورة:

الحقيقة أن لدى الإنسان فكراً وعقلاً، والعقل سلطان، حينما يستجيب للحق يستجيب لفطرته، ويستجيب لعقله، فإذا أراد أن يَتَّبع الهوى بدا على عقله الخلل، وبدا على فطرته الانحراف.

فمثلاً: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ ـ أصحاب النبي غضبوا غضباً شديداً، وقاموا إليه، أمّا النبي عليه الصلاة والسلام فناقشه بهدوءٍ كبير نِقاشاً منطقياً، فقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))

[أحمد]

انظر فالعقل سلطان.

2 – من بنود المناقشة: أين البديل ؟

الآن لدينا مناقشة منطقية، إذا كان لله كتابٌ في أرضه، وأنتم تدّعون أن القرآن والتوراة سحران تظاهرا، أو تعاونا، وأنتم بكلٍ كافرون، فأتونا أنتم بكتاب من عند الله هو أهدى منهما نتبعه، دائماً أنت حينما تناقش إنساناً رفض شيئاً فقل له: فما هو البديل ؟ إذا كنت لا ترى في هذا الدين النظام الأمثل، فأيّ نظامٍ أمثل يحلُّ محلّه ؟ ما هو البديل ؟ إذا رفضت هذا فماذا عندك ؟ الرفض شيء سلبي، أما البطولة فأن تأتي بالإيجابيات، إذا كنت ترى أن قطع يد السارق عمل ليس مدنياً، ليس عملاً حضارياً، فكم سرقة في الغرب حدثت في عام واحد ؟ ستة عشر مليون سرقة، وفي كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتلٍ، أو سرقةٍ، أو اغتصاب، هذا هو البديل ؟ إذا رأيت في قطع اليدِ عملاً غير حضاري فهل ترى أن يموت آلاف الأشخاص كل عام بجرائم سرقة وقتل واغتصاب ؟ ما هو البديل ؟

يدٌ بعشر مئين عسجدٍ وُدِيَتْ   ما بالها قطعت في ربع دينارِ

***

فأجاب الإمام الشافعي:

عِزُ الأمانة أغلاها وأرخصها   ذُل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

فربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وهذا نقاش قرآني، فإذا رفضت هذا فما البديل ؟ ما الحل عندك إذاً ؟ إذا رفضت أمر الله عزّ وجل، إذا رأيت في شرع الله شيئاً قديماً لا يصلُح لهذا الزمان، ما الذي يصلح لهذا الزمان ؟ ائت بكتابٍ آخر، بمنهجٍ آخر، بدستورٍ آخر، بنظامٍ آخر، بتشريعٍ آخر متماسك لا يُعَدّل ولا يُبَدّل.

الآية دقيقة جداً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)

(القصص: آية 50)

اتباع الهوى سبب عدم الاستجابة للشرع:

قلتم: التوراة سحر، سَايرناكم فرَضًا، وقلتم: القرآن سحر، سايرناكم، تظاهرا، سايرناكم، ولكن ما البديل ؟ ائتنا أيها المنتقد بكتابٍ أهدى منهما نتبعه، إذا لم يأتِ بالكتابِ الذي هو البديل فربنا سبحانه وتعالى وَصَمَهُ بأنه من أهل الأهواء، يتبع الهوى، والإنسان إما أن يتَّبع العقل، وإما أن يتبع الهوى، يعني أن يتبع شهواته، فالزاني لماذا يزني ؟ لأنه يتبع الهوى، لو أنه سار على منهج الله لتزوّج، والذي يكسب مالاً حراماً يتبع الهوى، والذي يعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم يتبع الهوى، والذي يغتصب ما ليس له، يتبع الهوى، إذا كنت صادقاً فيما تقول فما البديل ؟ وما النظام ؟ وما المنهج ؟ وما القانون ؟ وما الدستور ؟ وما الخطاب الذي نتبعه ؟

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

ربنا عزّ وجل يقول في بعض الآيات القرآنية قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

إذا دعاك إنسانٌ لترك الصلاة، ودعاك إلى أن تعيش كما تحب، دعاك إلى أن تتبع الهوى، دعاك إلى الشهوة، دعاك إلى الدنيا، دعاك إلى الانحراف، قبْلَ أن تستمع إلى كلامه، قبل أن تدقق في كلامه، قبل أن تقف عند كلامه، راقب أعماله، وانظر إلى دناءته، انظر إلى حقارته، انظر إلى شهوانيته، انظر إلى أنانيته، انظر إلى كسبه للمال، انظر إلى إنفاقه للمال، انظر إلى ذمته، انظر إلى لسانه:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أي أرأيت إلى أعماله المنحطة ؟ أرأيت إلى نفسه الخسيسة ؟ أرأيت إلى دناءته ؟ أرأيت إلى أنانيته ؟ أرأيت إلى حبّه لذاته ؟ أرأيت إلى أنه إنسان هبط إلى مستوى الحيوان ؟

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11))

انظر إلى أمانته، إلى عفّته، إلى استقامته، إلى نظافته، إلى صدقه، إلى لطفه، إلى رحمته، يكفينا من المؤمن قبل أن يقنعنا استقامتُه التي هو عليها، ويكفينا من الكافر قبل أن يقنعنا انحرافُه الذي يشينه. جرت مناقشة بين عالمين، قال أحدُهُما: **" إن الإنجيل طهّر روحي "**.. وبعد فترة ضبط متلبساً بجريمة زنا قذرة، فأي روحٍ طهَّرها ؟ العمل دائماً هو الأبلغ، الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، والشيء الذي يؤكِّد أن المؤمن على حق استقامتُه وخوفُه من الله عزّ وجل، إنّك ترتاح للمؤمن، وتطمئن له، لا تخاف أن يأكل ما ليس له:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

لذلك اتباع الهوى مشكلة كبيرة جداً، ومن الصعوبة بمكان أن تناقش إنساناً يتبع الهوى، لذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: **" ما ناقشني عالمٌ إلا غلبته، ولا ناقشني جاهلٌ إلا غلبني ".**

المتبع للهوى لا يرضى بالحق، إذا كان الإنسان مُصِرًّا على أكل الربا فمهما جئته بالأدلة والبراهين والآيات والأحاديث والآثار والقصص يَقُلْ لك: لا، هو لا يقتنع، لأنه لا يريد أن يَقْتَنع..

مصطلحان دقيقان: الفهمُ والتفهُّمُ:

هناك مصطلحان دقيقان:

أولهما: فهمٌ.

وثانيهما: تَفَهُّم.

إن الإنسان قد لا يفهم لماذا ؟ لأنه يريد ألا يفهم، لأنه إذا فهم يُحْرَج، أما المُتَفَهّم فهو الذي عنده قابلية الفهم، فأحياناً تناقش إنساناً فتجده يردّ عليك رداً مزعجاً، رداً سخيفاً، يرد رداً غير معقول، فهذا يدافع عن شهوته، وعن هواه الذي يتبعه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ)

من علامات المؤمن:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الإنسان بين شهوات الطبع وأوامر التكليف:

قلت لكم سابقاً: أنت مكلَّف، ومعنى لأنك مكلف أي أنت مكلف بأعمال ذات كلفة، وتحتاج إلى جهد، فطبْعك يدعوك إلى النوم، والله كلّفك بالصلاة فجراً، طبعك يدعوك إلى قبض المال من أية جهةٍ كانت، بأية طريقة، والله عزّ وجل كلّفك أن تنفقه، وألا تأخذه إلا من حلال.

أحياناً يأتيك عرضٌ مغرٍ فيه شُبُهَة، الله عزّ وجل كلفك ألا تأخذه إلا من حلال، وألا تنفقه إلا في حلال، فإن هذا تكليف، وطبعك يدعوك أن تنظر إلى النساء، لكن الله كلفك أن تغض البصر، وطبْعك يأمرك أن تنفجر على الناس لكي تشفي غليلك، والله أمرك أن تكظم غيظك، هذا تكليف، وطبْعك أمرك أن تتندر بقصص الناس في مجالسك، وهذا شيء ممتع، فضيحة في بيت، خلاف زوجي، خيانة زوجية، قضية مثيرة، تتحَدّث عنها والناس تشرَئِبُّ لك بأعناقها، هذا هو الطبع، بينما التكليف أن تَكْتُمَ هذا السر، ألاّ تغتاب أحداً في مجلسك، هكذا هو التكليف:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

قد تهوى المال غير المشروع، واللهُ قد نهى النفس عن الهوى، قد تهوى التمَتُّعَ بشيءٍ لا يحل لك، واللهُ قد نهى النفس عن الهوى، قد تهوى النوم، والله أمرك بالصلاة فجراً، قد تهوى أن تُظْهر ما عندك من حقد، والله أمرك أن تكظم غيظك، إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

الإنسان بين الاستجابة لله والاستجابة للهوى:

هذه الآية فيها معنى دقيق جداً، معناها أن الإنسان إما أن يستجيب لهوى نفسه، وإما أن يستجيب لأمر ربه، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية 24)

أنت أحد رجلين ؛ إما أن تستجيب لهوى نفسك فتَهلك وتُهْلِك، وإما أن تستجيب لنداء ربّك، فإذا استجبت لله عزّ وجل دعاك لما يُحيْيك نجوت، واعلمْ أن اتباع الهوى هوان، ومن هوى فقد هوى، أي من اتبع الهوى فقد هوى، أي سقط.

((ألاَ يَا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألاَ يا رُبَّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألاَ يا رُبّ مكرم لنفسه، وهو لها مُهين، ألا يا رُبّ مهين لنفسه، وهو لها مكرم، ألا يا رب متخوّض و متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق، ألاَ وإن عمل الجنة حزن بربوة، ألاَ وإن عمل النار سهل بشهوة، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند فيه مقال]

المؤمن يسير على منهج سليم:

المؤمن عنده منهج وكتاب، الحلال حلال، والحرام حرام، يجوز، ولا يجوز، مسموح، وغير مسموح، حلال وحرام، جائز وغير جائز، في كل موضوع ماذا قال الله عزّ وجل ؟ ما حكم الشرع فيه ؟ حلال، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، محرّم، فرض، مندوب، مستحسن، سنة، واجب، المؤمن الصادق في أية حركةٍ من حركاته، في أية سكنةٍ من سكناته، في بيته، في عمله، في الطريق، في نزهته، كل موقف له حكم شرعي، لذلك لو سألنا معظم الناس: أتحبون الله ؟ يقولون: نعم نحب الله، وهذا شيء جميل، فما علامة هذا الحب ؟

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران: آية 31)

اتبعوني، فلا تكون محباً لله عزّ وجل إلا إذا كنت متبعاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم ولسنته، هذا المقياس الواحد، قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: **" عين طاعة النبي صلى الله عليه وسلم عين طاعة الله عزّ وجل، وحب النبي حب الله عزّ وجل "**، لماذا ؟ لأنه ليس للنبي عليه الصلاة والسلام أغراضٌ خاصة، ولا مطلبٌ خاص، ولا رغبةٌ خاصّة، ولا حظوظٌ خاصة، مطلبه، وهمُّه، وهدفه أن يعرّف الناس بالله عزّ وجل، لذلك: حبُّ النبي هو حبٌّ لله عزّ وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

وجوبُ موافقة الهوى للشرع فقط:

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[ذكره النووي في الأربعين]

يجب أن تهوى القرآن، أن تهوى الإنفاق، أن تهوى العفّة، أن تهوى الورع، أن تهوى كلمة الحق، أن تكره الباطل، أن تكره المُزاح الرخيص، أن تكره الغيبة، إن لم يكن هواك تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فهذه علامة خطيرة لأنه:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

انظر ماذا تهوى ؟ أتهوى أهل الحق أم أهل الباطل ؟ من تحب ؟ هل تحبُّ أهل الدنيا الأثرياء الأغنياء؟ تحب أن تكون معهم ؟ أن تكون في معيّتهم، أم تحب أن تكون مع أهل الحق ؟ أتحب الأسواق أم المساجد ؟ أتحب أن تعطي أم تأخذ ؟ من أجل أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يرضيك ؛ أن تعطي أم أن تأخذ ؟ المؤمن يحب أن يُعْطي، وهذه كلها علامات دقيقة جداً، إذاً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ

(أضَلّ) اسم تفضيل، الله عزّ وجل يُعَبِّر عن ضلال هذا الذي اتبع هواه بعبارةٍ فيها تعجب..

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى)

هناك تحفظ لطيف جداً، لقد أودع الله في قلب الإنسان حبّ المال، فإذا كسب المال، وفرح بكسب المال، من طريقٍ حلالٍ مشروع فإن هذا اتبع الهوى، ولكن بهدى من الله عزّ وجل، تاقت نفسه إلى النساء فتزوّج، هذا اتبع الهوى، ولكن بهدىً من الله عزّ وجل، فالشهوات التي أودعها الله في الإنسان لها قنواتٌ نظيفة مسموحٌ بها، هذه القنوات النظيفة هي اتباع الهوى بالهدى، أما إذا اتبع الهوى من دون هدى من الله عزّ وجل فهو إذاً يزني، يُطْلِقُ بصره في الحرام، يأكل مالاً حراماً، وكلام الناس: " حلال على الشاطر "، بالحق، بالباطل، باحتيال، بألاعيب كلام شيطاني، لذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللّهِ)

(سورة القصص)

فإذا بقي الإنسان في المنهج الإلهي، وتاقت نفسه إلى شيء ولم يفعله إلا وفق المنهج الإلهي فهذا لا غُبار عليه، النبي عليه الصلاة والسلام بلغه أن بعض أصحابه أراد أن يصوم الدهر، وآخر أراد أن يمتنع عن النساء، وآخر أن يترك الطعام والشراب، فقام فيهم خطيباً وقال:

((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا ؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[سنن النسائي عن أنس]

إذاً: كل ما أودعه الله في الإنسان من الشيء إذا كُبتَ كانت له مضاعفات خطيرة:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

بدعة..

(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)

(سورة الحديد: آية 27)

هم حينما ابتدعوها توهموا أنهم بهذا يرضون الله عزّ وجل، قال تعالى:

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

أي أنهم أخلّوا بهذه البدعة، إذاً الأفضل أن تتبع السنة، النبي عليه الصلاة والسلام تزوج، فتزوّج أنت، له عمل، اشتغل راعي غنم، فاشتغل تاجراً، ليكن لك عملٌ ترتزق منه، هكذا السنة، فلا تَحِد عن السنة:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

المتّبع للهوى ظالمٌ لنفسه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

أي أن هذا الذي يتبع الهوى يظلم نفسه، وظلم النفس هو أشدُّ أنواع الظلم، ظلم النفس أن تحرمها السعادة الأبدية، هل هناك ظلمٌ أشد من هذا الظلم ؟ ظلم النفس أن تحرم نفسك تلك السعادة الأبدية التي أعدّها الله لك، هذا أشدُّ أنواع الظلم، لذلك طلب العلم فريضة، ومعرفة أركان العلم فريضة، ومعرفة أركان الإسلام فريضة، ومعرفة حقيقة الدين فريضة، وطاعة الله فريضة، وفعلُ المعروف فريضة، هذا كلُّه من أجل تحقيق الهدف الذي خلقت من أجله:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

الذي يتبع الهوى يظلم نفسه، عندئذٍ ينحاز إلى هواه، فيرفض الحق، ودائماً الذي يُعاند هو الذي يتبع الهوى، جرّب في أي مناقشة الذي لا يقبل شرع الله عزّ وجل تجده متبعًا للهوى، هذه قاعدة إلهية في القرآن:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

لذلك:

(اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(القصص: آية 51)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

1 – معنى: وَصّلْنَا

(وصّلنا):

هكذا وردت في الآية الكريمة، وصّلَ على وزن فعّل، تقول: قطّعَ وقطّع، كَسَرَ وكسّر، وزن فعّل فيه مبالغة، أي قد توصل له رسالة فأوصلتها له، أما وصّلتها له، أي هي رسالة وتأكيد، وتأكدت بالهاتف أنها وصلت، وبذلت المستحيل كي تصل هذه الرسالة، أول نسخة، وثاني نسخة، وبعثتها مع إنسان مخلص وأمين، واطمأننت بالهاتف، فوصل لها معنى، ووصّل لها معنى، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

2 – معنى: وَصّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ

أيْ آيّةً تلوَ آية، وسورةً تلوَ سورة، وكتابًا تلوَ كتاب، وقصة تلوً قصة، وحكمًا تلوَ حكمٍ، ووعدًا، ووعيدًا، وبشارة، وإنذارًا، وحكمًا، وآية كونية، وقصة قرآنية، ومثلاً قرآنيًا، ومشهدًا من يوم القيامة، وذكرًا للتاريخ، وأخبارًا من مضى، فالقرآن منوّع، فيه قوانين، وحِكم، وقواعد، وآيات كونية، وإشارات وسنن، هكذا توصيل القول:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

العهد، حمل الأمانة، التكليف، المقومات، كما قلت في مطلع الدرس:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هذا القرآن توصيلٌ للقول، السنة توضيحٌ لهذا القول، العلماء عَبْرَ الحِقبِ والقرون الذين سخّرَهم الله عزّ وجل لبيان ما في هذا الكتاب الكريم وما في السنة المطهرة من باب توصيل القول..

أحياناً إنسان ينصحك، أحياناً واقعة تقع أمامك، كلمة تقال أمامك، هذا كلّه بتقدير عزيزٍ حكيم، وتوصيل لك:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54))

(سورة القصص)

سببُ نزول الآيات:

هذه الآيات نزلت في طائفةٍ من أهل الكتاب وفدوا على النبي عليه الصلاة والسلام، وأغلب الروايات تقول: إنهم وفدوا من عند النجاشي، وقد بعثهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، التقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ عليهم سورة يس، فبكوا، وأبكوا، وأسلموا، هؤلاء من أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى وصفهم بهذه الآيات:

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ)

(القصص: آية 52)

أي من قبل القرآن..

(هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(53))

موطن استعمال كلمة (المسلمين) في القرآن:

1 – الموطن الأول:

إن كلمة(مسلمين) في القرآن تستعمل لكلِّ من آمن بالله عزّ وجل، وأسلم نفسه له، فسيدنا عيسى وردت آية أنه من المسلمين، سيدنا موسى من المسلمين، وفرعون حينما أدركه الغرق قال: وأنا من المسلمين، أي أن الإنسان حينما يعرف الحقيقة، ويستسلم لها فهو مسلم، وهذا المعنى الواسع للإسلام.

2 – الموطن الثاني:

وله معنى آخر: الدين الذي جاء به النبي محمد عليه الصلاة والسلام هو الإسلام، أما كلمة الإسلام فلها في القرآن معنى واسع جداً، أيّ إنسان عرف الله عزّ وجل، واستسلم له فهو مسلم، لذلك تقول الآية:

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(53))

أي أنهم حينما كانوا أهل كتاب، وكانوا أيضاً مسلمين:

(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (09-18): تفسير الآيات 51 - 57
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-07-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

1 – معنى: وَصَّلْنَا:

(وصّلنا) فعلٌ مُضعَّف، والتضعيف يفيد المبالغة، أيْ أنّ القرآن وصل سورةً بعد سورة، وآيةً بعد آية، ومثلاً بعد خَبَر، ووعداً بعد وعيد، وبشارةً بعد إنذار، ومشهداً بعد مشهد:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)

2 – معنى: وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ:

أي أن الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده وحرصاً عليهم أبلغهم الحقيقة بطريقةٍ أو بأخرى، بشكلٍ مستمر، وفي كل عصرٍ ومصر:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

2 – معنى: التذكُّر:

والتذكّر هنا يعني أن الإنسان له فطرةٌ تتناسب تماماً مع الإيمان بالله عزّ وجل، وما عليه إذا طمست فطرته إلا أن يتذكّر.

إنّ الإنسان مكلّف بحمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

ومقوّماتها: الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، والاختيار، والشرع، والحرية، هذه مقوماتها، وفضلاً عن مقوماتها فالله سبحانه وتعالى ذكّر عباده في كل حين ليذكِّرَهُم بهذه المهمة التي جاءوا إلى الدنيا من أجلها:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ(52))

(سور القصص)

معنى: الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ

1 – هناك من أهل الكتاب مَن آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام:

دائماً هناك حجةٌ قائمةٌ على العباد، فأهل الكتاب مثلاً حينما رَدُّوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وحينما كفروا به فإن هناك فئة منهم آمنت، وأسلمت، وحسُن إسلامها، وكانوا من كبار أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، معنى ذلك أن الإنسان مخَيّر، هؤلاء فكّروا، وعقلوا، واستسلموا، وآمنوا، وجاهدوا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام:

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ)

من قبلِ القرآن آتيناهم التوراة والإنجيل:

(هُمْ بِهِ)

أيْ بالقرآن..

(يُؤْمِنُونَ)

لأنه من عند الله عزّ وجل:

(آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة: آية 285)

مادامت المشكاةُ واحدة فالدعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

الله واحد، ورسالاته ذات مضمونٍ واحد، ولكنّها تختلف اختلافا في التفصيلات بحسب تطوّر المجتمعات، ولكن:

(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة: آية 285)

هؤلاء أهل الكتاب حينما أخبرهم ربُّهم في كتبهم أنه سيأتي من بعدِ سيدنا عيسى رسولٌ اسمه أحمد، وجاءت بعض صفاته، وانطبقت هذه الصفات على النبي عليه الصلاة والسلام آمنوا به، وإلا فإذا تمَسّك الإنسان بالقديم، وقد جاء الجديد، فهذا التمسُّك يدلُّ على ضيق أُفقه، وتعصبه الأعمى، أنت مع الحق لا مع زيدٍ أو عبيد:

موقف أهل الكتاب المؤمنين من القرآن:

(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

القرآن..

(قَالُوا آَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

أي إذا كان الإنسان مستسلماً إلى الواحد الدّيّان فإنه يؤمن بالحق من أي مصدر، ومع أي إنسان، أما إذا اتخذ الحقّ الذي كان عليه إطاراً، وهو كما هو على شهواته عندئذٍ يأتي التعصُّب والانحياز، و إذا كان الإنسان مؤمناً حقيقةً فإن هذا الإيمان يدعوه إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام، أما إذا اتخذ دينه لكسب الدنيا، أو اتخذه ليعلوَ بين الناس، عندئذٍ لا يفرّط بهذه المرتبة التي بلغها حفاظاً على مصالحه، إذاً اختلف الأمر:

(أولَئِكَ)

مِن خصائص مَن أسلم من أهل الكتاب: يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ

هؤلاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام..

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ)

مرةً لأنهم آمنوا بسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ومرةً لأنهم آمنوا بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام:

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)

أي أن الإنسان حينما يدع دينه لدينٍ جاءه من بعد دينه من عند الله عزّ وجل فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد، وإلى تَحَمُّل، فلذلك هؤلاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام:

(يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)

يؤتون أجْرهم مرتين لإيمانهم بنبيّهم سيدنا عيسى، ولإيمانهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم:

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)

مِن صفات مَن أسلم من أهل الكتاب:

1 – يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

من صفاتهم أنهم يدرؤون، ومعنى يدرؤون أي يدفعون، يدفعون الذنب بالتوبة، يدفعون الطمع بالقناعة، يدفعون المعصية بالطاعة، يدفعون السيّئة بالحسنة:

2 – الإعراضُ عن اللغو:

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ)

(القصص: آية 55)

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

اللغو هو الكلام الفارغ، الكلام العابث، الكلام غير المُجدي، الكلام عن الدنيا، الكلام عن سفاسف الأمور..

إيّاكم واللغو:

عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إِنّ اللّهَ يُحِبّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا))

[الجامع الصغير بسند صحيح]

هذا الكلام الهراء من شأن المؤمن أنْ يعرض عنه والآية واضحة:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

وبعضهم قال: اللغو ما سوى الله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ))

[متفق عليه]

كل شيء ما خلا الله باطل، أي أن كل شيءٍ ما خلا الله ينتهي عند الموت، تحدّثْ عن الأموال ما شئت، هذا الحديث جدواه ما دُمْت حياً، فإذا جاء ملك الموت انتهى الموضوع، تحدث عن الأبنية وعن البيوت الفخمة، تحدث عن التُحَف، تحدث عن الرحلات، تحدث عن أي موضوع، ولكن هذه الموضوعات محدودة، وتنتهي بالموت، لكنك إذا تحدثت عن الله عزّ وجل، وزدتَ به معرفةً وله طاعةً، وانصعت لأوامره، وانتهيت عما عنه نهى، فهذا الشيء يبقى أثره بعد الموت، عندنا قاعدة: اجعل الموت حداً فاصلاً، فأيّ نشاطٍ، أي حديثٍ، أي جهدٍ تبذله، أي موضوع تعالجه، أي قضيةٍ تهتم لها، أية مشكلةٍ تبحث فيها، إذا كان هذا الموضوع، أو تلك المشكلة، أو هذا الأمر، أو هذا الاهتمام يتّصل بما بعد الموت فهذا عملٌ مجدٍ، أما إذا كان ينتهي بالموت فهذا جهدٌ ضائع، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

(سورة الكهف: آية 46)

حينما وُصِف الشيء الآخر بأنه باقٍ وُصِفَ الأوّل بأنه فانٍ، هذا اسمه في علم الأصول المعنى المخالف:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ)

هذه الواو حرف عطف، والعطف يقتضي المغايرة، هذا شيءٌ آخر، هذا باقٍ إذاً هذا فانٍ:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

أن تسبح الله، وأن توحِّده، وأن تحمده، وأن تطيعه، وأن تعرفه، وأن تسعى إليه، هذا شيءٌ باقٍ، أما المال والبنون فهو زينة الحياة الدنيا، وهي فانية، إذاً أنت معك الآن مقياس، الحركة، النشاط، الجهد، التفكير، الانشغال، الاهتمام في موضوعٍ دنيوي خسارة، وفي موضوعٍ أُخروي ربح.

مثلاً: أنت تعلم علم اليقين أن هذه المئة ليرة قد تنفقها إنفاقاً استهلاكياً، وقد تستثمرها، أو الألف، أو المئة ألف، المبلغ إذا خرج منك إما أن يخرج استهلاكاً، وإما أن يخرج استثماراً، فإذا دفعت مبلغاً إلى جهةٍ ناجحةٍ في عملها فلا تشعر أنك قد خسرته، لأنه سيعود عليك أرباحاً كثيرة، إذاً دائماً نشاطك، تفكيرك، ذكاؤك، معلوماتك، مطالعتك، لقاءاتك، نزهاتك، حركاتك، سكناتك اجعلها استثماراً، ولا تجعلها استهلاكاً، لأنّك في الحياة الدنيا في وقتٍ محدود، كلما انقضى منه بضعٌ انقضى بضعٌ منك، لأنك وقت، والإنسان عامة بضعة أيام، كلما انقضى منه يومٌ انقضى بضعٌ منه.

كلما دارت عقارب الساعة يُستهلك الإنسانُ، لأن له نهاية ثابتة، والأجل ثابت، إذاً الحركة نحو الأجل مستمرّة، ومضيٌ الوقت فيه استهلاكٌ لذاتك، فهذا الوقت إما أن تستثمره، وإما أن تستهلكه، اجلس مع صديقٍ، وتحدّث عن أي شيء من دون أن تذكر الله عزّ وجل، هذا استهلاك، وتضييعٌ للوقت، نعم إنه استهلاكٌ للوقت في عملٍ غير مُجدٍ، هذا من سفاسف الأمور، أما التعاون مع أخيك على البرّ والتقوى، على أن تزداد معرفةً بالله، على أن تعمل عملاً صالحاً يرضيه، على أن تتصل به، على أن تدعو إليه، على أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أن تفهم كلام الله، أن تفهم سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، أن تفهم أسرار الشريعة فهذا إنفاق للوقت في الخير، وكذا أيّ نشاطٍ له أثرٌ بعد الموت حاول أن تبقى فيه:

(أولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(القصص)

حركةُ الإنسان أساسُها فلسفة واعتقاد:

فالحقيقة أنك لا تجد إنساناً ليس له فلسفة في الحياة، حتى الجاهل حركته تنطلق من فلسفة، فالآن العامي يقول لك: **"عُب على قدر ما تقدر"**، فهذه فلسفة، فهو يرى أن الدنيا هي كل شيء، فعليك أن تستمتع بها إلى أقصى شيء، هذه فلسفة، لا تجد إنساناً إلا ويتحرّك من فلسفة، أو من تصور بشكل أدَقّ، أو من فكرة، فإذا جاء هذا التصور مخالفاً للواقع كانت الخسارة والضلال.

إنّ الإنسان المؤمن هو إنسان جاءه من الله خطاب، هذا الخطاب فيه كلُّ شيء، فبدل أن يتوهَّم، ويتصوّر تصوراتٍ خاطئة، بدل أن يعتقد اعتقاد غير صحيح، اعتقاداً زائغاً، فهو يتصور الحقيقة لأنه في حيّز الخطاب.

الإنسان يتحرّك الحركة اليومية أساسها الاعتقاد، أساسها التصوّر، أساسها الفلسفة، فالبطولة أن تجعل تصوراتك وأفكارك ومعتقداتك وفق ما جاءك من الله عزّ وجل، هذا هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه حقٌ صرف، فإذا جاءت تصوراتك وفق ما في هذا القرآن فأنت من السُعَداء، لأنك تنطلق من العلم، ما العلم ؟ هو علاقة ثابتة بين شيئين مقطوعٌ بصحتها، يؤَكِّدُها الواقع، وعليها دليل، فينبغي قبل أن تتحرك، قبل أن تقف مواقف معينة، أن تعطي قبل أن تأخذ، قبل أن تلتقي مع زيد أو عبيد، قبل أن تذهب مع هؤلاء في نزهتهم، قبل أن تضرب، قبل أن تطلِّق، قبل أن توافق، قبل أن ترفض، قبل أن تتحرك، هل تتحرك وفق الصواب ووفق تصور صحيح ؟ فهنا المشكلة، لذلك أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، لأن الجهل سينتج عنه تحَرُّك مغلوط، وإذا اعتقد الإنسان أن الحياة محدودة،

وعليه أن يستمتع بها إلى أقصى درجة، فهذا كلام غير صحيح، هذه الحياة الدنيا زائلة، وبعدها حياة أبدية، فما موقف هذا الإنسان الجاهل حينما يأتيه ملك الموت ؟ إنه يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

(سورة المؤمنون: آية 100)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

(سورة المؤمنون)

فالبطولة كل البطولة أن تعمل عملاً لا تندم عليه، والعبرة من يضحك آخر الأمر، هناك من يضحك أول الأمر ثمّ يبكي.

((ألاَ يَا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألاَ يا رُبَّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة...))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند فيه مقال]

فنحن نريد المرحلة الأخيرة، نريد الحياة الأبدية ؛ إنّ الحياة الأبدية هي التي يعوّل عليها، لذلك: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ)

(سورة القصص: آية " 55 ")

هناك لقاءات فارغة، جلسة مضمونها سخيف، غيبة ونميمة، وفيها مخالفات، وفيها معاصٍ، هذه السهرة فيها غيبةٌ ونميمة، فيها حديث عن الدنيا، هذا لغو، أعرض عن اللغو، أعرض عنه حديثاً، أعرض عنه لقاءً، أعرض عنه نزهةً، أعرض عنه اجتماعاً، أعرض عن كل شيءٍ لا قيمة له.

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)

(سورة القصص: آية 55)

3 – لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ

فالمؤمن له ترتيب خاص، والمؤمن الصادق الصافي المُخْلص لو جلس مع أهل الدنيا يشعر بالبَوْن الشاسع بينه وبينهم، لا كبراً، ولكن شعوراً بالغُربة، هو له مستوى آخر، هو في واد، والناس في وادٍ آخر، هو يسعى لمعرفة الله ولمرضاته وللتقرُّب إليه، ويسعى في تهذيب نفسه وتزكيتها، والعمل على سموّها، والناس يسعون إلى شهواتهم وملذّاتهم من أي طريق، بحقٍ أو بباطل، لذلك من الصعب بمكان أن ينسجم مؤمنٌ مع غير مؤمن، فإذا حصل انسجام فالإيمان مشكوك فيه، مستحيل لمؤمن صادق صافٍ

أن يقيم علاقة حميمة مع إنسان كافر، البون شاسع في القيم والمثُل والمعتقدات والتصوّرات، وطريقة الحديث، وطريقة التعامل، والانغماس في الملذات:

4 – سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

(سورة القصص)

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)

(سورة القصص: آية 55)

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6))

(سورة الكافرون)

لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة)

إذا فعلت هذا فأنت منهم:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: آية 51)

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران: آية 28)

يعني أنه لم يأخذ شيئاً.

من واقع حياتنا مثلاً: إنسان مثقّف ثقافة عالية جداً، أي أنه غارق في العلم، وفي مطالعة الكتب، وفي البحث العلمي، وفي التأليف، فهل من الممكن أن يقيم خمسة أيام مع إنسان لا همّ له إلا بطنه، وإلا الحديث على الناس، والغيبة، والنميمة، والمزاح الرخيص، فهل من الممكن أن ينسجم هذان وأمثالهما، وأن يجتمعوا، أو يلتقوا، أو يتفاهموا، ويتعاطفوا ؟ هذا مستحيل، لذلك من صفات المؤمن أنه يشعر ببعدٍ شديدٍ عن الأشخاص التافهين، وبهوةٍ سخيفة فاصلة بينهم.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

(سورة القصص)

معنى السلام الوارد في هذه الآية:

قال العلماء: ليس هذا سلام بمعناه المعروف، هذا اسمه في القرآن سلامُ تركٍ، أي سلامٌ عليكم دعونا وشأننا، لكم دينكم ولنا ديننا، لكم مذهبكم ولنا مذهبنا، لكم اهتماماتكم، ولنا اهتماماتنا.

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

لا نبتغي أن نكون معهم، ولا أن نجلس معهم، ولا أن نلتقي معهم، ليس من أخلاقنا هذا، وتأتي تسلية الله عزّ وجل لهذا النبي العظيم:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(سورة القصص: آية 56)

مبدأ الاختيار كما جاء في القرآن:

1 – الإنسان مخيّرٌ:

إن الإنسان مخيّر، وهذا الاختيار صريح في قوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(سورة القصص)

أي أن الله عزّ وجل يهدي من يشاء، بمعنى أن الإنسان إذا سار في الطريق التي رسمها الله عزّ وجل فعندئذٍ يهديه الله سبحانه وتعالى، والله عزّ وجل لا يهدي القوم الفاسقين، ولا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الكافرين، ولا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب، ولا يهدي كيد الخائنين، فربنا عزّ وجل له ترتيب، يهدي الصادقين، يهدي المنيبين، يهدي التائبين، يهدي المتطهّرين، يهدي المحبّين، ولا يهدي إلا من سلك الطريق التي رسمها الله عزّ وجل للهدى، أما أن يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام إحداث الهُدى في نفس الإنسان هذا ليس من شأن البشر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يبيّن الطريق، وتبيان الطريق شيء، وإحداث الهدى شيءٌ آخر.

فأنت كأبٍ بكل وسائل إقناعك، بكل منطقك السليم، بكل قوة شخصيتك، بكلّ ما عندك من مغريات، بكل ما عندك من عقوبات، توَظِّفها جميعاً لإقناع ابنك أن يدرس، أما أن تعطيه كأس ماءٍ يُصبح بعدها عالماً بالفيزياء فهذا مستحيل، لأن عبء الدراسة على الابن، فيجب أن يجلس مع الكتاب، وأن يدرس،

وأن يفهم، وأن يحلل، وأن يناقش، وأن يبوّب، هذا العبء على الابن، أما الأب فعليه أن يُقنعه بأن يدرس، فتارةً يُغْريه، وتارة يحذره، وتارة يقنعه، ويحبب له الدراسة، فالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وكلٌ من جاء بعده من الدعاة لا يستطيع أن يحدث الهدى في نفس الإنسان، ولكنه يستطيع أن يبيّن، وأن يحمل هذا الإنسان على أن يسلك طريق الهدى فقط، لأن مهمته أن يُقنع الناس بأن يسلكوا طريق الهُدى، إذاً: الداعي إلى الله عزّ وجل تنتهي مهمّته عند هذا، عند الإقناع، أما الحركة فهي من قِبَل الإنسان بالذات، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

2 – معنى المشيئة في هذه الآية:

من شاء الهداية، وسلك طريقها، واتبع ما أمر الله به عندئذٍ يتولى الله هدايته، إذاً من شأن الله عزّ وجل إحداث الهدى في قلب الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى لا يُحدث الهدى في قلب الإنسان إلا إذا طلب الإنسان الهدى، ودفع ثمنه، وكلُ مسلمٍ على وجه الأرض يقول: اللهم اهدنا فيمن هديت، الدعاء سهل، لكن لا يدفع الثمن، ولسانه يدعو الله عزّ وجل بالهدى، ولكنّ فعله لا يؤكِّد مقولة لسانه.

إذا دخل واحد منا إلى محل سجاد، واختار سجادة ثمنها مئتا ألف، لو انتقاها، وقال: هذه أحبّها، خير إن شاء الله، فأين الثمن ؟ هل يكفي أن تشير إلى هذه القطعة كي يُعطيك إيّاها صاحب المحل ؟ هل يكفي أن تختارها بذوقك الرفيع ؟ لا.. أين الثمن ؟

((ألا إن سلعة الله غالية))

هنا المشكلة، أكثر المسلمين يتمنون الهدى، يا رب اهدنا، خير إن شاء الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ:

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

وَقَالَ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟))

(مسلم)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: آية 72)

إذا وقفتَ موقفاً عملياً فأمرك كلامٌ في كلام، يقول لك: يا أخي، أنا آمنت بالله، فماذا فعلت ؟ ماذا أضفت؟ الله عزّ وجل موجود، آمنت به أم لم تؤمن، اعترفت به أم لم تعترف، ومن أنت ؟ الإيمان مرحلة لا بدّ منها، لكن لا تكفي إذا وقفنا عندها، في كتاب الله عزّ وجل أكثر من مئتي آية تقول:

(الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة البروج: آية 11)

إنها تربط الإيمان بالعمل الصالح.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية 110)

(الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: آية 30)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمّنْ دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة فصلت: آية 33)

لابد من الإيمان والعمل الصالح:

ليس في القرآن كُلِّه إشارةٌ إلى إيمانٍ بلا عمل، ما قيمة هذا الإيمان ؟ يقول لك: أنا أعتقد أن هذه المروحة تدور، خير إن شاء الله، وإذا اعتقدت فماذا أضفت ؟ فهي تدور، اعتقدتَ أم لم تعتقد، وماذا أضفت إذا اعتقدتّ أنها هي تدور، وهي فعلاً تدور ؟ إذا آمنت بالله عزّ وجل، ولم تفعل شيئاً، فلا أنت ما أطعته، ولا بذلت من أجله، ولا تقرّبت إليه، ولا غَضَضتّ بصرك عن محارم الله، ولا تحرّيت الحلال في كسب المال، ولا تحرّيته في إنفاقه، ولا أمرتَ بالمعروف، ولا نهيتَ عن المنكر، ولا تعلّمتَ العلم، ولا خدمتَ الناس، فماذا جرى ؟ وماذا حدث ؟ أؤكّد لك أن إبليس قال مثل مقالتك، فماذا قال ؟ في كتاب الله عزّ وجل قوله:

(قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

فإبليس اعترف بوجود الله عزّ وجل، واعترف بأنه عزيز، ومع ذلك فإن إبليس كان رأس الكفر والضلال، إذاً:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

لا يستطيع النبي، ولا أيُّ إنسانٍ أن يحدث في نفس الإنسان الهُدى، ولكن يستطيع أن يدلّه عليه، أن يقنعه بالسير فيه، أن يبيّن، أن يوضّح، أن يفَصِّل، أن يُغْري، أن يوازن، أن يقارن، هذا كلّه من مهمّات

الداعية.

أحياناً تجد شطحات، منها كما يُروى أن أحد العارفين بالله نظر في إنسان فتاب إلى الله، هذه ليست للنبي، لعلها كرامة أكرمه الله بها، وانتهت، وقد لا تُكرر أبداً، وهذا ليس دائماً في طاقة البشر، والدليل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

هو عمُّ النبي عليه الصلاة والسلام، وقد سمع دعوة النبي صلى الله عليه وسلّم، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام، ونظر إليه النبي عليه الصلاة والسلام، لكن:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

ومثله ابن سيدنا نوح، إذاً لا تستطيع أن تحدث الهدى، ولكن تستطيع أن تفصِّل، وتبيِّن، وتوضِّح، وتقرِّر، وتوازن، وتقارن، وتبيِّن الأسباب والنتائج والعواقب، وهذا كيف عامله الله عزّ وجل بعد أن استقام، وهذا كيف دمَّر الله ماله بعد أن أكل الحرام، هذا كلُّه توضِّحه للناس، عندئذٍ لعلهم يقنعون فيهتدون، الهُدى عمل لا يستطيع أحد أن يفعله لك إطلاقاً.

فالطالب أحياناً يقبلون منه أن يستلم كتابَ طالبٍ آخر، أو ما يشبه ذلك، أي ينوب عنه في أشياء جانبية، أما الامتحان فمن سيؤديه ؟ فهل من الممكن أن يقدِّم واحد طلباً للوزارة، وفيه أني مريض، وسيقوم أخي بأداء الامتحان بدلاً عني ؟ هذه مستحيلة، الامتحان لا يؤدِّيه إلا الشخص نفسه، بالكتب أو بالبطاقة معك توكيل فتستلمها، أما أن تؤدي امتحاناً مكانه فهذا مستحيل.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: آية 56)

الهداية الربانية هداية توفيق:

فإذا عاد هذا الفعل على الله عزّ وجل، الله عزّ وجل يشاء الهداية وفق نظام، أي أن هدايته ليست مِزاجية:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

(سورة الإنسان)

هذا واضح، أنتم مخَيَّرون أيها العباد، لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ)

فمشيئة العباد مشيئة اختيار، ومشيئة خالق الأكوان مشيئة فحصٍ واختبار.

نحن نقول: إن كل طالب يحمل شهادة ثانوية له أن يتقدَّم بطلب إلى الجامعة ليختار الفرع الذي يحبّه،

هناك طالب حصل على مجموع قدره مئة وخمس علامات، وتقدم إلى كلية الطب، الجامعة تدرس هذا الطلب، هو اختار الطب، ولكن ليس لديه علامات تخوّله دخول كلية الطب، مشيئة الجامعة إذاً مشيئة فحصٍ واختبار، إما أن ترفُضَ الطلب لعدم إمكان هذا الطالب متابعة هذا الفرع، وإما أن توافق إذا حصل على المجموع الكامل، فهناك مشيئتان: مشيئة اختيار، ومشيئة فحصٍ واختبار، فأنت اطلب ما شئت، يا ربِ، أدخلني الجنة، كأن تقول أمام بيت فخم: اجعلوا هذا البيت ملكي، فأين الثمن ؟ ادفع الرُزَم المكدّسة حتى تملكه، وتنقل ملكيه لك، إذاً:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(القصص)

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

أيْ لا تُزَكِّ نفسك.

1 – التقييم ليس من شأن البشر:

أنا أقول: إن كل إنسان له عند الله مكانة لا يرفعها مدح المادحين، ولا يخفضها ذمّ الذّامين، أنت معك في البيت كيلو من المعدن، بذكائك ومهارتك وقدرة إقناعك أقنعتَ الناس أنه ذَهَبٌ، والناس صدقوك أنه ذهب، بينما هي حديد، فمن الخاسر ؟ أنت ولو صدقوك، وإذا كنت تملك هذا الكيلو من الذهب الخالص، والنّاس يتهمونك أنك تملك الحديد، من الرابح ؟ أنت، لأنه في النهاية علاقتك مرهونة بنفسك، والعارفون بالله عزّ وجل هناك من يعظِّمهم إلى أعلى درجة، سلطان العارفين الشيخ مُحْي الدين رضي الله عنه وأرضاه، ويأتي أُناسٌ آخرون يسمونه الشيخ الأكْفَر، لا مدح المادحين يرفعه عند الله، ولا ذم الذامين يخفضه عند الله، بل مكانته يحددها عمله، وإخلاصه، وعلمه، وإقباله، وصفاؤه، ومحبته، لذلك فالقضية معلقة بك، هناك آية قرآنية تلغي كل المشكلات السابقة، قال تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

يعني أنه مضيعة وقت، أحدهم يقول: ابن خالتي أخذ الأولية، يرد عليه آخر: لا، لم يأخذ، لا، بل أخذ، وتضاربا، فاترك ابن خالتك، وانظر إلى نفسك، أنت ما معك من شهادة ؟ اترك ابن خالتك، واهتم بنفسك، من أنت ؟ ماذا يجديك أن تدافع عنه، أو ألا تدافع عنه ؟ هذا كلّه مستقى من قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(القصص)

لدينا آية ثانية، وهي قوله سبحانه:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

أي أنك بشر، ولست إلهاً، لا تقل: فلان في جهنم، من قال لك ذلك ؟ هل أنت متأكِّد ؟ أنت لك الظاهر، والله عزّ وجل يتولى السرائر، وتَقْييم الآخرين ليس من شأن البشر، بل هو من شأن خالق البشر، وقد يعصي الإنسانُ اللهَ، نعم هو يعصي الله، لعلّه يتوب، ولعله يختم له بالإيمان، ولعله يموت عاصياً، هذه المعصية معصية، أما أن تحكم على مستقبل الناس فإن هذا تجاوز لمقام العبودية، أنت لك حجم، قل: الله أعلم، هداه الله، إذا رأيت إنساناً متلبّساً بمعصية فأدعُ له بالهدى، ولا تقل: هذا إلى جهنم، من قال لك ذلك ؟ هناك أشخاص بلغوا أعلى المراتب، ولهم بدايات سيّئة جداً.

سيدنا خالد كم مرة حارب النبي اللهم صلِّ عليه ؟ وحينما أسلم خاض مئة معركة أو زُهاءها، وفي كل هذه المعارك حقق النصر، وفي سبع سنوات حقق من الإنجازات ما لا يحققه الآخرون في مئات السنين، القضية قضية.. **" اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير أيامنا يوم نلقاك، نلقاك وأنت راضٍ عنا"**.. وقالوا:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

الإنسان مخيّر، ويدفع الثمن، ويؤدي الطاعات، وله الجنة، أو اتبع الشهوات وله النار، ولكنني أُلِحُّ على فكرة قلتها كثيراً، يجب أن تطلب الهدى، وأن تدفع ثمن الهدى، إذا طلبته بلا ثمن فهذا ذنبٌ من الذنوب، لأن طلب الجنة من دون عملٍ ذنبٌ من الذنوب.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(القصص: آية 57)

شبهة الضعفاء ومرضى القلوب: وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

من إسقاطات الآية في واقع المسلمين:

هذه الآية دقيقة جداً، لأنها مستمرة المعنى والمدلول، يقول لك شخص: إذا استقمتُ كما تقول أخسر عملي، خالق السماوات والأرض إذا أطعته هل تخسر شيئاً ؟ هل يُعْقَل ألاّ يكون خالق السماوات والأرض ضامناً لك إذا آمنت به ؟ أترى هذا الإله العظيم يليق به إذا آمنت به، واستقمت على أمره أن يتخلّى عنك ؟ وأن يجعلك في الدرجة السُفْلى في المجتمع ؟ أيعقل أن تكون من نتائج الطاعة الخسران؟.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

هذا مستحيل في حق الله عزّ وجل، أيْ إذا كنت مؤمناً صادقاً هل تعامَل كما يعامَل الفاسق الفاجر؟.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هذه آية واسعة جداً، تارةً يقول لك إنسان: لو أنني حضرت هذه الدروس فأنا أخاف، الله عزّ وجل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض أليس في قدرته أن يحميك إذا أردت أن تتعرف إليه ؟ هل هناك إلهٌ آخر معه ؟

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: آية 51)

إذا قلت: أخاف، أو إذا قلت: إذا استقمت في البيع والشراء أفْلِس، فالناس كلهم يعملون بهذه الطريقة !!! معنى هذا أنه هناك إلهين، يوجد إله يحكم الأسواق، وإله يحكم الآخرة، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

وهذه آية أخرى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية 84)

هو نفسه الذي أنزل هذا القرآن، وحرّم عليك الربا، هو نفسه في الأرض إله، في البيع والشراء، والربح والخسارة، والمرض والصحة، يا أخي، إذا آمنا بمحمد نُتَخَطّف من أرضنا، ما هذا الكلام ؟ الله عزّ وجل قال:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية 10)

مَن هم ؟

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كيف ؟ هذا شيء خلاف المنطق، لأنه خالق الكون، فإذا آمن به إنسان، واستقام على أمره هل يفقد الحماية ؟ بالعكس، الحماية كلُّها تتوفر إذا آمنت به:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

صيغة:

(لَهُمُ الأمْنُ)

غير (الأمنُ لهمُ)، لأن الصيغة الثانية معناها: الأمن لهم ولغيرهم، أمَا:

(لَهُمُ الأمْنُ)

فالأمن خاصٌ بهم، ولا أحد يأمن مثلَ أمنِهم، ففي الجملة قصر، الأمن كله في معرفة الله، أي أن كل الأخطار، وكل المخاوف والمتاعب في قبضة الله عزّ وجل، فإذا اصطلحت معه، واستقمت على أمره أتخشى من شيء ؟ أين الله ؟ هو معك أينما كنت، كل شيءٍ بيده، ما قال لك: اعبدني يا عبدي إلا بعد أن طمْأنك، وقال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

لا تخافي عليه، لأننا معه، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ هذه الآية دقيقة جداً لأن أُنَاسًا كثيرين يقولها بصيَغٍ كثيرة، هذه الآية لها مليون صيغة، أنا أخاف أن أدفع زكاة مالي فيحسبونني صاحب دين، هذا أمر إلهي، أمر خالق الكون، أخاف ألا أصافحها فتحقد عليّ، وتوشي لرئيسي بما حدث، اضطررت أن أصافحها:

(وَقَالُوا إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لا نقدر، أخاف إن أغلقت المحل أن أخسر إذا حضرت إلى سماع الدرس، فتقول عندئذٍ: عندنا الآن موسم، هذه الآية يصوغها الناس بآلاف الصيَغ، إما أن يربط تجارته بترك مجالس العلم، أو يربط سعادته بترك الصلاة أحياناً، أو يربط نجاحه في عمله بإظهار أنه لا دين عنده مثلاً، هذه كلها شرك بالله عزّ وجل:

(وَقَالُوا إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الجواب الرباني:

الله عزّ وجل بماذا ردّ عليهم ؟ قال:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(القصص)

أي وأنتم في الشرك فقد حَباكم الله عزّ وجل حَرماً آمناً، والناس من حوله يُتخطّفون، بعد أن آمنتم بالنبي عليه الصلاة والسلام هل تتخطّفون ؟ مستحيل.

يقولون: إن سيدنا موسى دعا الله بالغيث، فقال له الله عزّ وجل: **يا موسى، إن فيكم عاصياً لا أستجيب لكم، فقال موسى عليه السلام: من كان عاصياً لله فليغادرنا، بعد حين هطلت الأمطار بغزارة، فقال: يا ربِ من هو هذا العاصي ؟ فقال: يا موسى عجبت لك ! أأستره عاصياً، وأفضحه تائباً ؟** فهل هذا معقول ؟ وأنتم بالشرك في أمن وسلام، وبعد أن آمنتم بالنبي عليه الصلاة والسلام تتخطّفون من أرضكم**!؟** وأنت مُقصِّر في عبادة الله هطلت مثلاً وقعت في خمسين مخالفة، والله سترك وحفظك، بعدما استقمت، واصطلحت تقول: أخي أخاف على مركزي، على وظيفتي، أخاف على دخلي وتجارتي، أخاف إذا وضعت لابنتي الحجاب ألا تتزوج، إذا أطعت الله عزّ وجل تصبح ابنتك بلا زواج **!؟** هذا منطق سخيف جداً، إذا استقام على أمر الله، وفعل الصالحات يخاف أن يضيّع الدنيا، هذا المنطق ردَّ الله عزّ وجل عليه فقال:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الواقع السيئ والمفهوم الخاطئة:

إذا لم تغشّ فلن تربح، هذا الكلام يشبه هذا الكلام تماماً، يا أخي ماذا نفعل ؟ الناس كلهم يغشون **!!!** أنا عندي أولاد، إذا لم أغش لا أربح، هكذا تقول ؟ الذي أمرك ألا تغش ألا يقدر أن يحميك من الخسارة ؟ الإله أمرك ألا تغش عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ:

((مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا))

(مسلم والترمذي واللفظ له)

إذا لم أغش لا أعيش، وإذا لم أكذب لا أعيش، عملي متوقف على الكذب، هذه الآية دقيقة جداً، يقول لك أحدهم: أنا لابد أكذب، وأقول له: هذه الدعوى رابحة، لكن هذه الدعوى حقيقة ليست رابحة، ماذا أفعل ؟ إنني مضطر أن أقول له: هي رابحة، وهذا دفع الحساب، أماطله ثماني سنوات، وأقول له بعد ذلك: لم أستطع شيئًا، وإذا لم أكذب لا أعيش، وإذا كان هذا الدواء لم نغير تاريخه لا يُباع معنا، أرميه

في سلة المهملات ؟! هذه القضية دائمة، أي إن لم يعص الله فلا يربح، أقول: إن هذه مفارقة عجيبة وعجيبة، لأنه من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

إنه من المستحيل أن تعصي الله وتربح، ومن المستحيل أن تعصيه وتسعد، ومن المستحيل أن تعصيه وتتفوق، ما عند الله لا يُنالُ بمعصية الله.

إن شاء الله هذه الآية تحتاج إلى وقفة مَلِيّة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

(القصص: آية 57)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5))

(سورة الفيل)

(يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (10-18): تفسير الآيات 57 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-07-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

مقدِّمــةٌ :

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية غنية جداً، كيف أن الله عزّ وجل، بل كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال مثلاً:

((لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ))

(ابن ماجه عن أبي بَكْرَةَ)

لماذا نهى النبي عليه الصلاة والسلام القاضي عن أن يقضي وهو غضبان، لأنه مُغَوّش، حكمه غير صحيح، رؤيته غير صافية، ذهنه غير صافٍ، لذلك جاء العلماء، وحملوا على هذا الحديث حالات كثيرة جداً، فالقاضي لا ينبغي أن يقضي وهو جوعان، ولا ينبغي أن يقضي وعنده قضية تشَوّشُ ذهنه، ابنه مريض، عنده مشكلة، غضبان، جائع، مريض، كل هذه الحالات مأخوذةٌ من علّة واحدة، كيف أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: الآية 23)

ما العلّة في ذلك ؟

العلّة ألاّ تؤذي أمك وأباك، إذاً أيّ شيءٍ آخر غير كلمة أف يؤذي أمك وأباك أمرٌ محرّم، يُحْمَل على هذا، القرآن إعجازه في إيجازه.

نعود إلى هذه الآية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: 57)

1 – مناسبة الآية وعلاقتها بواقع المسلمين:

لهذه الآية مناسبة، ولهذه الآية سبب نزول، ولكن هذه الآية تُحَمّلُ عليها حالاتٌ لا تعَدُّ ولا تحصى، فلمجرد أن تتوهّم أن طاعة الله عزّ وجل تَضُرُّك، وأن معصيته تنفعك، فيجب أن تحكم على نفسك حكماً قاطعاً أنك في جهالةٍ عمياء، بمجرد أن تتوهّم أن طاعة الله تضرك، وأن معصيته تنفعك في شَتَّى الميادين، في كل الاختصاصات، في كل الظروف الجليلة والحقيرة، فيما يتعلّق في رزقك، بعملك بمهنتك، بعلاقاتك الاجتماعية، حينما تعتقد أن الطاعة تضرك، وأن المعصية تنفعك، فاحكم على نفسك حكماً قاطعاً أنك في جهالةٍ جهلاء.

2 – الواقع يحكم على جهل الناس:

فمثلاً: لو أنك طبيبٌ، ورأيت شخصاً يدّعي أنه طبيب، ونصح مريضاً، قال له المريض: ضغطي مرتفع، قال له: هذا جيّد، كلما ارتفع الضغط فهو حالة طيبة جداً، ألا تحكم على هذا المُدّعي أنه جاهلٌ ؟ جهلاً قاطعاً، هذا الذي يدعي أنه طبيب، والذي يطمئن مريضه أنه كلما ارتفع الضغط كان إشارةً على صحة الجسم، تقول: هذا جاهل جهلا قاطعًا.

والقصة التي تعرفونها جميعاً ؛ أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان يُلْقي درساً في الفقه مع طلابه، ويبدو أن التكلف مرفوع بينه وبين طلابه، كان متألماً من رجله فمدّها مرةً، دخل شخصٌ طويل القامة، عريض المِنْكَبَين، ذو هيئة فخمةٍ، فأُخذ أبو حنيفة بهذا الشخص، فاستحيا أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه، ورفع رجله، هذا الرجل الوقور جلس في حلقته، وفي أثناء الدرس طرح سؤالاً، طبعاً الموضوع في صلاة الفجر، هناك فجرٌ كاذبٌ، وفجرٌ صادقٌ، وهناك طلوع الشمس، وصلاة الفرض بينهما، فقال له هذا الرجل المهيب: يا سيدي، كيف نُصَلِّي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر، فنظر إليه وقال: عندئذٍ يَمُدُّ أبو حنيفة رجله، مِن كلمة واحدة حكم عليه أنه جاهل.

لو أن مهندساً مثلاً قلتَ له: إن هناك شَقًّا في الدعامة الأساسية للبناء، وهذا الشق يتفاقم، قال لك: لا، هذا الشيء لا قيمة له إطلاقاً في البناء، ألا تحكم على هذا الشخص المهندس الذي يدّعي أنه مهندس أنه جاهل ؟ لو قلت له: إن الحديد سعره مرتفع جداً، ما قولك يا أستاذ لو نلغي الحديد من البناء ؟ قال لك: لا مانع، ووجود الحديد أساساً ثانوي في البناء، ألا تحكم على هذا الإنسان أنه جاهل جهلاً قاطعاً ؟ ألم

يعرف أن الإسمنت يتحمّل قِوى الضغط، لكِنّه لا يتحمل قِوى الشد، فعند الشد لابدّ من تسليح، فأيّ إنسان قد يتكلم كلمة واحدة فتحكم عليه حكماً قاطعاً أنه جاهل.

لو أن إنسانًا قال لك: أنا مُخْتَص في اللغة العربية، فقلت له: أعرب كلمة جاء المعلِمون، فقال المعلمون: فاعل منصوب، ما هذا المنصوب ؟ المعلمونَ، ألا تحكم على هذا الإنسان أنه جاهل ؟ دون مستوى الكفاءة، حتى دون مستوى الابتدائية.

فالأمثلة كثيرة جداً، الصيدلي لو أن دواءً فيه مرهم اليود، وقال لك: هذا للاستعمال الداخلي، فإن هذا الصيدلي مجرم، وجاهل، وقد يقضي على هذا المريض، ففي كل المهن والحرف ؛ طبيب، مهندس، مدرس، محامٍ، تاجر، محاسب، مثلاً قال لك: أخي الربح أساسه ثمن الشراء + ثمن المبيع = الربح، ما هذا الكلام ؟ معنى ذلك أنه جاهل جهلاً قاطعًا في أمور المحاسبة.

3 – توهم ضرر الطاعة جهلٌ كبير:

الآن: لِمُجَرّد أن تتوهّم أن طاعة الله تضرك، وأن معصيته تنفعك فهذا هو الجهل بعينه، مهما حَصّلت من علوم، ومهما ارتفع مستواك العلمي، مهما درست، مهما اطلعت، تجد شخصًا يقول: أنا دَيّن، والحمد لله، ويفتخر بأنه ديّن، ولكن يتوهّم أحياناً أنه إذا أطاع الله عزّ وجل في هذا الموضوع خَسِرَ، هذا هو الجهل بعينه.

فمثلاً: إنسان أراد أن يتزوج، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها أذله الله، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ ؛ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

(صحيح البخاري)

وهو يخطب عثر على امرأةٍ غنيةٍ، لكن دينها ضعيفٌ جداً، قال: أنا أَحُلُّ مشكلتي بغناها، ولم يعبأ بقول النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بقوله تعالى:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: آية 221)

هذا إذا توهّم أن هذه المرأة الغنية تُسْعِدُهُ بمالها، أو تسعده بجمالها، أو تسعده بوجاهتها وأسرتها ونسبها، على حساب رقّة دينها، هذا الإنسان في الدين جاهل، لأنه لم يعبأ بقول الله تعالى، ولم يعبأ بقول

النبي عليه الصلاة والسلام، بل توهّم أن طاعة الله باختيار الزوجة ذات الدين خسارة، وأن اختيار الزوجة الغنية والجميلة ربحٌ كبير، وهذا هو الجهل.

الآن: في معاملة الزوجة، تزوج امرأةً ما، في معاملتها لمجرد أن يعتقد أنه إذا قسا عليها قسوةً بالغة سعد بها، ولم يعبأ بقوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورةالنساء: آية 19)

فهذا إنسان جاهل، فيجب أن تنتبه في أي حركة من حركاتك، في أي سكنة من سكناتك، الزوجة لمجرّد أن تُؤْثِر خاطباً غنياً رقيقاً في دينه على خاطب فقيرٍ متينٍ في دينه، فهذه جاهلة، يقال لك: أخي، هي تصلي قيام الليل، وحافظة للقرآن، لمجَرّد أن تختار الغنى مع رقة الدين، وتدع صلابة الدين مع الكفاف فهي فتاةٌ جاهلة، لا تعرف أن هذا الزوج المؤمن يسعدها، والله عزّ وجل معه، وإن كان فقيراً فسيغنيه الله، وأن هذا الزوج رقيق الدين سيستهلكها، وسيستمتع بها، ثم يلقيها لأدنى سبب، وسيحملها على معصية الله، وسيكون طريقاً لها إلى النار، هذا في الزواج.

أما في تربية الأولاد: فمن أجل أن يكون ابنك في مركزٍ مرموق تُضَحّي بدينه، فأنت غير مُرَبٍّ، ولا تعرف من التربية الدينية شيئاً، آثرت دنياه على دينه، آثرت دنياه على آخرته.

مثلاً: أنت صاحب تجارة، وهذه البضاعة الآن رائجة جداً، وهي بضاعة محرمة، ماذا أفعل ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

هذا الذي يصنع قِطَعًا مثلاً، ويوجد قطعة فيها تحريم، مثل النرد، أو التمثال، وهذا التمثال عليه إشكال في الفقه، فإذا صنعت شيئاً رائجاً، ولم تعبأ بحرمة ذلك، ولم تعبأ بأنه محظور عليك أن تفعله فأنت لا تعرف شيئاً، هذا في مجال الصناعة.

الطبيب مثلاً: إذا اعتقد أنه إذا ألقى في رُوع المريض أن مرضه خطير، وأنه عليه أن يزوره كل أسبوع، إذا اعتقد هذا الطبيب أنه بهذه الطريقة يجلب له رزقاً كثيراً فهو جاهل، أما إذا اعتقد أن هذا الإنسان يجب أن يخدمه، وأن يُهَدِّئ من روعه، وأن يَبُثّ في نفسه الطمأنينة، وأن يعطيه العلاج المناسب في الوقت المناسب، فهذا طبيبٌ يعرف الله عزّ وجل، ويأتيه رزقٌ وفير من طريقٍ مشروع.

المحامي مثلاً: إذا اعتقد أنه لو تَكَلّم الحقيقة المرة للناس لمَا استلم دعوى واحدة، أما إذا أوهمهم، وإذا زيف الحقائق أمامهم فيربح ربحاً وفيراً، إذا اعتقد أن الكذب طريقٌ إلى سعادته، وإلى وفرة دخله، وإلى بحبوحته، وأن الصدق يصرف عنه رزقاً وفيراً، لمجرد أن تعتقد أن الطاعة تَضُرُّك، وأن المعصية تنفعك فأنت لا تعرف شيئاً، واحكُمْ على نفسك بالجهل المُطْبق.

الآية واسعة جداً:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

إنّ منطق التاجر مثلاً الذي يبيع بضاعة، فإذا أراد أن يفرّق بين الدَين والتقسيط، وأراد بهذا البيع أن يربح ربحاً وفيراً، بينما شعر أنه بهذه الطريقة ربما وقع في مخالفةٍ شرعية، لكنه يربح، فآثرها على الطريقة الشرعية المفضلة، إذاً: هذا التاجر لو صلى وصام فهو لا يعرف الله عزّ وجل، حينما يؤْثر معصية الله عزّ وجل على طاعته، حينما يؤثر أن يقترض بالربا، ويحُل مشكلته، ولا يعبأ بأمر الله عزّ وجل فهو لا يعرف الله عزّ وجل، فلاحِظْ أن هذه الآية تدور معك في كل أحوالك، في كل نشاطاتك، في كل شؤون حياتك، في كل مجالات الحياة، في قطاعات الحياة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

أين الله ؟ أيعقل أن تطيعه ويتخلّى عنك ؟ أيعقل أن تطيعه في كسب المال، وتكون فقيراً ؟ أيعقل أن تعصيه في كسب المال وتصبح غنياً ؟ أيجازي الله عباده الطائعين بالحرمان، ويكافئ عباده العاصين بالإحسان ؟ هل هذا شأن الله عزّ وجل ؟ هذا شأن الإله الذي تعبده ؟ الله سبحانه وتعالى يقول ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية 21)

هذا الإله العظيم الذي تعبده أيعقل أن يتخلى عن عباده المؤمنين ؟ أيعقل أن تكون معصيته طريقاً إلى السعادة، وأن تكون طاعته طريقاً إلى الهلاك ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هذا كلامٌ فارغ، الإله ضامن، الذي يأمرك بكذا وكذا هو خالق الأكوان، بيده كل الأمر:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية 123)

لا معنى أن تعبد الله عزّ وجل، ولن يحميك من خصومك، لا معنى أن تعبد الله عزّ وجل، وأن ترى في عبادته خسراناً مبيناً.

إذاً: هذه الآية الكريمة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لا تكليف سبيلُه معصية:

أي إنسان قال لك: ماذا أفعل ؟ هكذا السوق يحتاج، أو هكذا، ظروفنا صعبة، أو عندي أطفال كثيرون، أنا مضْطّر لكسب هذا المال بهذه الطريقة، إذا قال لك: أنا مضطر فأجبه إجابة حاسمة، قال الله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية 286)

الله لم يكلفك من أجل كسب الرزق أن تعصيه، لم يكلفك من أجل أن تطلب ما أنت بحاجةٍ إليه أن تقع في مخالفةٍ لأمره، ففي الزواج، في معاملة الزوج، في اختيار الزوج، في اختيار الزوجة، في معاملة الزوجة، في تربية الأولاد، في المِهَن، فمثلاً تقول: إن هذا الصانع إذا علّمته هذه الحرفة ربما نافسني، إذاً: يجب أن أبقيه جاهلاً، وقد جاء به أبوه إليك، وهو صديقك من أجل أن تعلِّمه هذه الحرفة، فإن تُطِع الله عزّ وجل وتكن معه مخلصاً، وتعلمه هذه الحرفة تقع في خسارة كبيرة، إذاً: لابدّ من أن تعصي الله، وتخون صديقك، وتَدَع هذا الطفل الذي أخرجه من المدرسة، ووضعه عندك جاهلاً في هذه الحرفة، تستغله في خدماتك الشخصية، لن تفلح أبداً إذا فعلت هذا، كل واحد بحسب حرفته، بحسب اختصاصه، بحسب مهنته، بحسب عمله، يعلم كيف تكون الطاعة لله عزّ وجل، وكيف تكون المعصية.

بين منطق حياة ومقاييس الشرع:

دائماً بمنطق الناس، بمنطق الحياة هناك مقاييس، وهناك منطق الإيمان، وهناك مقاييس أخرى، يُمكنك في منطق الحياة كلما خَفّضت أجر هؤلاء العمال ازداد ربحك، هذا كلام رياضي، كلما قلّت النفقات ازداد الربح، أما إذا أعطيتهم رواتب معقولة، ورفعت من مستواهم المعيشي بدافعٍ من إخلاصك لله عزّ وجل وحبّك لعباد الله، الله سبحانه وتعالى في منطق الإيمان يُجْري الأمور على نحوٍ خاص، حيث تزداد أرباحك عما هي عليه قبل أن ترفع رواتبهم، المشكلة أن صاحب المتجر، وصاحب المعمل، والموظّف، والطبيب والمحامي، والمهندس، والمدرس لا يتعاملون بهذا المنطق.

المدرّس إذا ألقى في رُوع الطلاب أنهم ضعفاء جداً، وأعطاهم علامات متدنية جداً لعلهم يأتونه ليأخذوا دروساً خاصة منه فيربح، هذا منطق الناس، أما إذا أنصف الطالب الذي بذل جهداً كبيراً، وله أبٌ ظالم، أعطاه علامته المستحقة، وهو لا يرجو إلا أن يرضي الله عزّ وجل، لعل الله عزّ وجل يجري الأمور على نحوٍ آخر فيأتيه دخلٌ مشروع من طريقةٍ مشروعة، دائماً حينما يزداد إيمانك تَصْلُح قراراتك، كلما ارتفع مستوى الإيمان أصبحتَ موَفّقاً في اتخاذ القرار، لأنك تتخذ القرار في ضوء قواعد الدين لا في ضوء قواعد الدنيا.

عند الله لا يُنال بالحرام:

أيها الإخوة الأكارم، آيةٌ يجب أن نطبقها في كل شؤون حياتنا، يجب أن تعتقد أن ما عند الله لا ينال

بمعصية الله، يجب أن تعتقد أنه **" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى ".**

تقول: إذا كذبتُ على هذا الإنسان أربحُ منه أرباحاً طائلة، فإذا صدقت، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ))

[سنن أبي داود عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدٍ الْحَضْرَمِيِّ]

هذه خيانة كبيرة جداً، وأنا أتمنى على كل أخ كريم في مهنته، وفي بيته، وفي كل علاقاته الاجتماعية، أن يضع هذه الآية نُصْبَ عينيه:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

لا مساومات في الدين:

أي إذا كنت أريد أن أجعل السهرة غير مختلطة أتكلّف أكثر، أما المختلطة ففيها ضيافة واحدة، أنت آثرت أن توفِّر شيئًا بالضيافة، آثرت ذلك على طاعة الله عزّ وجل، وإذا لم أجلس مع أخوات زوجتي فإنها تغضب، وإذا غضِبَتْ تعذبني، فسأرضيها، والزوجة إن لم تطع زوجها في معصية الله فإنه يطلقها، هذا هو الجهل بعينه..

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد]

افعل ما بدا لك، قالت أم سعد لابنها: **<< يا بني، إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت>>**، هذه أم سيدنا سعد، فقال لها: **<< يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ، فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كفرت بمحمد، فكُلي إن شئت أو لا تأكلي >>.**

إن المؤمن رجل مبدأ، عنده مسلّمات في حياته، مستعد أن يضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس من أجل مبدئه، ليس عنده مساومات، رجال المبادئ ليس عندهم مساومات، ليس تاجرًا حتى نقول له: خفِّض لنا في السعر، فإنه لا مراعاة في الدين، لأن هذا شرع الله عزّ وجل.

تصور لو أن مهندسا متفوّقا في عمله، جاءه شخص، وقال له: أريد أن أعمِّر بناء، قال له: يلزمك خمسة أطنان من الحديد، وهذه للأقطار ستة ميلي، أو ثمانية ميلي، قال له: أبنيه بلا حديد، أو أنقص طنا، هذا كلام فارغ هنا لا يوجد مساومة لأن هذه قواعد هندسية، هذا البناء لا يبقى متماسكاً إلا بهذه الأطنان من الحديد، وبهذه الأقطار، وبهذا التوزيع، هنا لا مجاملات.

البَطْن مفتوح، والطبيب يجري عملية دقيقة، وأنت ترجوه أن يغلق البطن، لا يستطيع حتى تنتهي العملية.

دائماً قواعد الدين قواعد قَطْعِيّة لا يوجد فيها مساومة، واحد يقول لك: هذا التيار الكهربائي فيه خطر الموت، ستة آلاف فولط، مرسوم عليه جمجمة وعظمتان، هذا ليس قيداً، إنهم يقيدون حريتنا، وتجد أحد الناس أحب أن يتسلّق العامود، وهو يقول: يقولون: ممنوع، هذا ليس تقييدا للحرية، بل ضمان لسلامتك، هذه قضايا قطعية، هذا شيء ثابت ليس فيه مساومات، إذا كان لا يرانا أحد هل نصعد ؟ التيار وحده يعاقبك حتى لو لم يَرَك أحد.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الطاعات سبب للسعادة والمعاصي سببٌ للشقاء:

الله عزّ وجل جعل الطاعات أسبابًا لسعادتك، وجعل المعاصي أسبابًا للشقاء، فكل طاعة فيها بذور نتائجها، أي توجد علاقة علمية بين الطاعة ونتائجها، وتوجد علاقة علمية بين المعصية ونتائجها،ادفع الثمن، ربنا عزّ وجل قال:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

وفي آية أخرى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: آية 229)

كل أوامر الشرع لمصلحة الإنسان:

ويجب أن تعلم أن كل شيءٍ أمرك الله به فهو لمصلحتك، فإذا أحببت نفسك، فإذا كنت مسرفاً في حب ذاتك، وإذا كنت كما فطرك الله عزّ وجل ؛ مفطوراً على حب وجودك وعلى سلامة وجودك وعلى كمال وجودك وعلى استمرار وجودك فعليك أن تطيع الله عزّ وجل، هذه الأشياء الفطرية لن تتوفر إلا في طاعة الله، والله عزّ وجل يحفظك من كل مكروه، ويطمئنك، ويكرمك، وتشعر أن الموت مرحلة إلى حياةٍ أبديةٍ أشدُّ سعادةً من هذه الحياة، هذا الحال وحده يكفي أن تَسْعَد، فلذلك يمتحن الإنسان نفسه، ولا يتوهم أنه مؤمن إيمانا كاملا، سيدنا عمر قال: **<< من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة>>.**

الدِّينُ هو الاستقامة:

يجب أن تكون تصَوُّراتك كلّها متوافقة مع مقاييس القرآن الكريم، لذلك ما الذي أهلك الناس ؟ أنهم جعلوا الدين صوماً وصلاةً وحجاً وزكاة فقط، وما سوى ذلك فهم واقعون في شرك، وفي توَهُّم، لكن الأمر الإلهي وهذا الشرع ماذا تفعل فيه ؟ فأيهما أهم غضب الله أم غضب أمك ؟ يشعر أنه إذا عصى الله عزّ وجل، وأطاع أمه يرتاح، يجب أن تقِيم موازنات، الله عزّ وجل قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء: آية: 23 ")

الله سبحانه وتعالى له الطاعة وله العبادة، أما الوالدان فلهما الإحسان، والطاعة والعبادة شيء، والإحسان شيءٌ آخر:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

معنى: نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

إن القرآن الكريم فيه إعجاز، فالتخطف من الأرض إذا اتبعناك، فإما أن ينصرف الناس عنا فنفتقر، وإما أن نحارب فنموت، والحقيقة الإنسان في الحياة حريص على شيئين، على وجوده وعلى رزقه، والإنسان أحرص شيءٍ يحرص عليه هو وجوده ورزقه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّبُ أجلاً))

[ورد في الأثر]

يجب أن تعتقد أن رزقك مضمون، وأن عمرك لا يزيد ولا ينقص، إذا اعتقدت هذا كانت لك مواقف جريئة، وكانت لك مواقف مشرّفة، أما الخوف الشديد من نُقْصَان الرزق، والخوف الشديد من انتهاء العمر قبْل أوانه فهو أحد أكبر أسباب المعاصي.

إنه بمنطق الناس، لو جاءك أمر ممن هو فوقك بأن تعصي الله، ومع الأمر تهديد، بمنطق الناس أنك إذا أطعت مَن هو فوقك سلمت ونجوت، وارتحت واسترحت، وأنك إذا عصيته سببت لنفسك كل المتاعب، هذا منطق الناس، لكن منطق القرآن:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: آية " 38 ")

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فإذا جئت إلى منطق القرآن، وقلت:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ))

عندئذٍ تجري الأمور على نحوٍ غريب، ماذا يُلقى في قلب هذا الإنسان الذي تحديتَه ؟ يشعر بقيمتك، يشعر بقوّتك، يشعر بسموّك، يصْغُر أمامك، يعتذر منك، أنت كنت متوقعاً غضبه، عنده حظوظ حمراء، لا مجال للرجاء وللمساومة والدلال، والطلب، ولا مجاملة في أمور الدين، ولا يوجد حل وسط، هذا أمر الله عزّ وجل، وكلّما عَظّمت أمر الله عزّ وجل أحبك الله.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

كلما عَظّمْتَ أمر الله عزّ وجل، إذا أردت أن تعرف مالك عند الله فانظر ما لله عندك، فشأن الناس اليوم هان الله عليهم فهانوا على الله، أي طاعته ومعصيته سيّان، كسب المال الحلال كالحرام، يقول لك: لا تدقق، ما دام الله قد هان عليهم إذاً هم هانوا على الله، أي يسوق الله إليهم من الشدائد ما لا يطيقون. النبي عليه الصلاة والسلام جاءه أعرابي قال له: " عظني ولا تطل قال:

((يا أعرابي قل: آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخَفّ من ذلك قال: إذاً فاستعد للبلاء))

[ورد في الأثر]

لابد من متابعة المقاييس الشرعية ومراعاتها:

فأنا أتمنى من كل أعماقي أن كل أخ حاضر معنا، بكل حركة من حركاته يلاحظ مقاييسه، أي إذا أطاع الله عزّ وجل يخسر ؟ يقول لك: هذا مطعم، مطعم درجة أولى، إذا لم نبع فيه الخمر لا نربح، ماذا نفعل، نحن مضطرون، إذا كنت كذلك فأنت جاهل، وإيمانك صفر، إذا كنت تعتقد أن الربح يأتي من معصية الله فأنت لا تعرف من الدين شيئاً، قيسوا أشياء كثيرة جداً.

أحياناً يغش الإنسان، الكيلو في بعض المواد الغذائية سعره مرتفع إذا غششتها، بعض الأشخاص قالوا لي: يضعون مع الطحينة مادة (إسبيداج)لتبيضّ، ويزداد سعرها ليرتين، فيا صاحب معمل طحينة أتبيع مادة تُخَرّش الأمعاء من أجل أن تربح ؟ وبعد ذلك يصلي في أول الصف، هذا جاهل عند الله عزّ وجل، هذا ليس ديّناً إطلاقاً، إذا كنتَ تعطي المسلمين مادة غذائية تؤذيهم من أجل أن يزداد ربحك، وتصلي فالدين في واد، والحياة في واد آخر، الدين هو الحياة، الدين هو معملك، الدين في بيتك، الدين في متجرك، الدين في وظيفتك، الدين في عيادتك، الدين في مكتبك للمحاماة، هنا الدين، ليس الدين في المسجد، المسجد هذه عبادة شعائرية، هذه من أجل تقويم العبادة التعاملية، المسجد، الصلاة، الصوم

الحج، هذه ثلاث ساعات امتحان.

لو فرضنا أن طالبًا جاء إلى هذه الساعات الثلاث، وقد ارتدى أجمل الثياب، شيء جميل، جاء بشطيرة لعلّه يجوع، وأربعة أقلام احتياطا، وحبوب من الأسبرين لعلّه يتألّم من رأسه، وماء بارد، ولكنّه لم يدرس إطلاقاً، ما نفعُ هذه الأقلام الأربعة، وهذه الحبات الأسبرين، وهذه الشطيرة، وهذه الثياب الجميلة؟ شيء مضحك، هذه الساعات الثلاث أساها الدراسة، أساسها عام دراسي بأكمله، فكلما كان هناك جهدٌ كبير في أثناء العام الدراسي، كانت هذه الساعات الثلاث مجدية ونافعة، هذه هي المشكلة، حينما فهم المسلمون أن الدين أن تصلي، وأن الدين تصوم مع الناس، هذا رمضان، وأن الدين أن تحُج البيت، وانتهى الأمر، هذا هو الدين، ثم لا تدقق، يفعل ما يشاء، يكذب كما يريد، يأكل مال كما يشتهي، ينفق كما يريد، علاقاته الاجتماعية كلها غير صحيحة، يعطي نفسه ما تشتهي، هذا الفهم للدين فهم سقيم، هذا الفهم للدين جعلنا في مؤخّرة الأمم، هذا الفهم للدين جعل للكافرين علينا سبيلاً، أما حينما يستقيم الإنسان استقامة تامة في عمله، وفي علاقاته، وفي كسب ماله، عندئذٍ يعرف ماذا يعني الدين، الدين أخطر شيءٍ في حياة الإنسان.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص آية 57)

قول آخر:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام آية 148)

احذر هذا النوع من الشرك:

لابد أن ينتبه كل إنسان إلى كلامه، فلمجرّد أن تقول: الله لا يريد أن يهديني، لم يشأ الله بعد، الله ما ألهمني أن أصلي، لمجرد أن تعتقد هذا فأنت مشرك.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

ماذا قال المشركون ؟ قالوا: إن الإيمان بيد الله إلى أن يشاء الله نؤمن، ولو لم يشاء لم نؤمن، نحن ليس لنا علاقة، هذه عقيدةٌ شائعة بين المؤمنين، إلى أن الله يأذن، إلى أن سيدك يأذن، إذا قلت له: ألا تصلي ؟ ألا تغض بصرك ؟ هذا العمل حرام ؟يقول: ليس بيدي، الله لم يأذن لي الآن، هذا كلام الشرك، هذا عين الشرك، انتبه إلى كلامك:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

بيده الأمر، الآن:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

هذا كلام مشركي مكة، إذا قلت قولاً يشبه هذا القول فأنت مثلهم تماماً، أخي إذا أطيع الله عزّ وجل سأخسر مركزي. فما هذا الكلام أنتظر، أو يقول: الله عزّ وجل ليس في الأرض، ولكنه في السماء فقط، ماذا قال الله ؟:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: الآية 51)

يقول لك: أنا مضطر، هكذا يجب أن أعمل لكي أحافظ على مركزي.

لا تنسَ قول هذا التابعي الجليل لأحد ولاة يزيد، جاءه توجيه خلاف الحق، فسأل التابعي: ماذا أفعل ؟ قال: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله "**، وأنت قس على هذا القول كل شيء.

الردُّ الإلهيُّ: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَّهُمْ حَرَماً آمِناً

ماذا ردّ الله عليهم:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

(سورة القصص: الآية 57)

أي وأنتم في الكفر والشرك لكم حرمٌ آمن، فإن آمنتم بي تُتَخطّفوا من أرضكم ؟! هكذا يفعل الله عزّ وجل ؟ قبل المعصية كنت في بحبوحة، الآن بعد التوبة تفتقر ؟ حينما كنت على معصية الله يوفقك الله ويغفر لك، ويحلم عليك، فلما عرفته، واستقمت على أمره إذا فعلت هذا الأمر تخسر دخلك ؟! ما هذا المنطق ؟!! وأنت مقيم في المعصية لك دخل، فإذا أطعت الله عزّ وجل تفتقر ؟ لا..

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ)

(سورة العنكبوت: الآية 67)

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص: الآية 57)

لا يعلمون، فأنت متى تعلم ؟ تعلم إذا جاءت تصوُّراتك وفق ما في القرآن، متى تكون مهتدياً ؟ إذا كان هواك قد وافق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((طوبى لمن وسعته السُّنَّة، ولم تستْهوه البدعة))

[ورد في الأثر]

أي أن الشيء الذي أمر به النبي تحبه أنت مؤمن، أما تحبُّ البدَع، تحب الصرعات الجديدة، تحب المُلْهيات، تحب الأماكن غير النظيفة، تحب العلاقات غير الشريفة، تحب ما يغشاه الناس، تُحبُّ ما هو فحشاء، قل لي ما تحب أقل لك من أنت، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو بسند ضعيف]

لا بد من الأخذ بالمقاييس الشرعية:

القضية دقيقة جداً، في مقاييسك، وازنْ بين مقاييسك ومقاييس القرآن، فهل تعظم أهل المال فقط ؟ وتهمل المؤمن الذي حالته المادية وسط، هذه مشكلة، هذا مقياس دنيوي، أما أن تقيس الأمور بمقاييس الشرع والقرآن، يجب أن تحترم هذا المؤمن كائناً من كان، بأي مرتبة اجتماعية، بأي مستوى اقتصادي، بأي درجة علمية، ما دام مؤمناً فهذا جدير أن تحترمه، فبتقييم الناس لاحظ مقاييسك قرآنية أم شيطانية، بطرق كسب المال أتتحرى الحلال ؟ فهل تفرح بكسب كبير حرام ؟ وتعدّ نفسك ذكيًا، شاطرًا، دَبَّرت نفسك، ركزت وضعك، أمّنت مستقبلك على معصية الله عزّ وجل، أتفرح بدخل حرام حل لك كل مشاكلك ؟.

فطبيبٌ مثلاً، طبيب ناشئ ليس عنده شيء في الحياة، عُيِّن طبيبًا شرعيًا، وكُلِّف بفحص جثة، إذا قال: الموت طبيعي، أعطوه خمسة ملايين، وإذا قال: الموت مشبوه بحادث قتل، لا يأخذ شيئًا، فهذا الطبيب حسب إيمانه، إذا كان مؤمنًا بالله عزّ وجل، إذا أطاع الله عزّ وجل الله سيكرمه، أما إذا قال:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص آية " 57 ")

أي نصبح بلا شيء، في كل شيء، فالآية دقيقة جداً تدور مع كل الناس، مع كل المهن، مع كل الحِرَف، مع كل الطبقات، مع كل الوظائف، مع كل العصور، والأمصار والبلدان، والأمكنة والأزمنة.

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص)

العلاقة بين الآيتين:

هل هناك علاقة بين هاتين الآيتين ؟ لو فرضنا أن الإنسان لم يعبأ بشرع الله، ولا بأمر الله، ولا بالهدى، واتبع مصلحته، واتبع ما يكسبه مالاً وفيراً، وعاش خمس سنوات أو عشر سنوات إلى أن يأتيه

الأجل، أليس هناك موت بعد هذا الغنى ؟ أنت حَصّلت الغنى من معصية الله، وعشت حياةً مرَفّهةً في بحبوحةٍ كبيرة، أليس هناك موت؟ هذا الموت ألا ينهي هذه الحياة القائمة على معصية الله عزّ وجل، ماذا قال عليه الصلاة والسلام، والله حديث يقصم الظهر:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

ثم ماذا ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا

إن اتبعوا الهدى مع النبي يُتخطّفوا من أرضهم، إذاً أنكروا الرسالة وكفروا بالنبي، حفاظاً على مكتسباتهم ومكانتهم وزعامتهم ودخلهم، وشهواتهم... إلخ، ثم ماذا ؟ هنا سؤال، فكِّر.

قلت لإنسان: الجماد شيء له طول وعرض وارتفاع، له حيّز، صخرة لها وزن، ولها أبعاد، طول عرض ارتفاع، والنبات شيءٌ يشغل حيزاً وينمو، الحيوان شيءٌ يشغل حيزً وينمو ويتحرّك، الإنسان شيءٌ يشغل حيزاً، طول وعرض وارتفاع، وينمو، ويتحرّك ويفكر.

فلو أن إنسانًا غارقًا في المعاصي، هناك سؤال يوقفه عن حده، ثم ماذا بعد هذا ؟ إذا جاء ملك الموت، فعلت، ما فعلت، أكلت، ما أكلت، شربت، ما شربت، سكنت، ما سكنت، ترَفّهت، ذهبت، عُدت، سهرت، سَمُرت، استمتعت...إلخ، ثم ماذا ؟ **" سبحان من قهر عباده بالموت ".**

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طـال فلابدّ من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

***

أي أنتم يا أيها المشركون تعتقدون أنّكم إذا اهتديتم، أو اتبعتم الهدى مع النبي تُتَخطّفون من أرضكم، إذاً اكفروا، وبعد أن تكفروا، ثم ماذا ؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص: الآية 58)

لو أن الإنسان أقام على معصية الله، وحَصّل مالاً وفيراً، تمسّك بالكفر ليبقى في مركزه الكبير، تمسك بالمعصية ليصبح ذا شأنٍ كبير، وهذا الشأن الكبير إلى متى ؟ إلى ما لا نهاية ؟ وهذا الغنى إلى متى ؟ بل كله إلى نهاية، انظر إلى سوق من أسواق دمشق الرائجة، كل خمسين سنة تجر جُدُد، المحل سلّمه، أو أعطاه إلى ابنه، أو ابنه سلّمه، أو أعطاه إلى صهره، تجد تُجّار سوق الحميدية من خمسين سنة غير

الحاليين الآن، وبعد خمسين سنة قادمة، أو خمس وعشرون غير الحاليين، يختلفون، ثم ماذا ؟ ترك الدنيا، ثم ماذا ؟ القبر ؟ ثم ماذا ؟ الحساب، لو أنّكم آثرتم الدنيا، آثرتم المال وأبيتم الهُدى، قال الله:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص: الآية 58)

معنى: بَطِرَتْ:

أي فسدت أثرفت، استعلت.

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ)

(سورة القصص: الآية 58)

فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ

عندك آلاف الأمثلة، يمكن أن يكون الهلاك الجماعي، يمكن أن يكون الزلازل، والفيضانات، والبراكين، حالات معينة، لكن في بكل بلدة حالات فردية، تحت سمعك وبصرك، كرجل عَمَّر بناء، ولم يسكنه، وعندنا رجل آخر اشترى بيتًا فلم يعجبه، فكسر البلاط، وكسر السيراميك، وغَيّر التمديدات، وغيّر الأبواب، هذه الكسوة الكاملة خرّبها كلها، فتح الحيطان، أنشأ أقواسًا، صنع أبوابًا جرارة، وستائر متحركة على الكهرباء، وطاولات رخام، وتحته إضاءة، سنتين ونصفًا وهو يكسو هذه البلاطة حتى أصبحت مثاراً للعجب، شيء لا يصدّق، أقسم بالله جاره بعد أن انتهت بشهرين توفّاه الله عزّ وجل.

تسمع عن أشخاص قد يعود أحدهم إلى بلده ومعه شهادة عُليا فلا يمارسها، يتزوّج فلا يدخل، يعمر بيتا فلا يسكن، هذه حالات يومية:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

هذه هي نهاية الملكية: وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ

البيت في النهاية ليس لك، لاحِظْ في النعي: وسيشيَّع إلى مثواه الأخير، وبيت الدنيا مؤَقّت، وهذا الذي هلكنا أنفسنا من أجله، اعتن به ما شئت، إن كان كبيرا فهو مؤقت، أو كان صغيرا فهو موَقّت، أو مزَيّنا فهو مؤقت...

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

الإهلاك الإلهي جزائيٌّ موافقٌ لحجم الجريمة:

أما هذا الإهلاك ليس إهلاكاً عشوائياً، ولا مزاجياً، ولا خبطة عشواء كما يقول بعض الجهلة، قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

أنت تتألم أن قرية أصابها زلزال، قرية أصابها فيضان، بركان سار فقتل كل من في هذه البلدة، هذا هلاك، لكن هذا كلام الله، هذا كلام خالق الكون، هذا كلام الفعّال الوحيد في الكون، تقول لي: زلزال مثلاً، تقول إن الزلزال حركات باطنية غير مستقرة، صحيح، لكن هذا التفسير العلمي لا ينفي التفسير الديني، أن هذا فعل الله عزّ وجل، وأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

والآية المعروفة لديكم:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

هذا البراكين، هناك قرية في إيطاليا، الساعة الثانية بعد الظهر ثار بركانٌ اسمه (فيزوف fethof)، هذا البركان ثار، وصَبَّ على قريةٍ تقع في سفحه هذا السائلَ البركاني، فغمر القرية، وغطّاها بارتفاع ثمانية أمتار، بعد مئات السنين في أثناء التنقيب في هذه المنطقة وجدوا أحجارًا على شكل أشخاص، حقنوها بجبس سائل، ثم كَسّروا هذه المستحثات، فإذا هي بلدةٌ جاءها هذا البركان، وقد مات أهلها عن آخرهم، حتى ملامح الناس، حتى الأم مع طفلها، حتى من في البيوت الغنية يجمعون الحلِي:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

هذه الزلازل، أفسق مدينة في المغرب العربي (أغادير)، في خلال ثلاث ثوانٍ انتهت، يقولون: سبع درجات على سُلّم ريختر، أي زلزال مدمّر.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

هذا كلام خالق الكون، إن شاء الله في الدرس القادم نتابع هذه الآيات، الآية اليوم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

خلاصة الدرس:

هذه آية هذا الدرس، وهي الآية تقريباً الوحيدة، وهذه الآية واسعة جداً غنية جداً، طبعاً النص محدود، أما العلة واسعة، علّتها إذا توهّمت أن معصية الله تنفعك، وأن طاعته تَضرُّك فهذا منتهى الجهل، ومنتهى ضعف اليقين وضعف الإيمان، فإذا فهم الإنسان هكذا فعليه أن يجتهد اجتهادًا كبيرًا، وعليه أن يجدد إيمانه، وعليه أن يسعى لكي تكون مقاييسه موافقةً لمقاييس القرآن الكريم.

أسئلة في الموضوع

1 ـ السؤال الأول:

وردني سؤال ؟ هل نستطيع أن نحكم على كل من نرى عليه مصيبة أن هذا من ذنبٍ فعله ؟

2 – الجواب:

أنواع المصائب:

1 – مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ وكشفٌ:

هذا الحكم خاطئ، لأن المصائب أنواع منوّعة، هناك مصائب، القصم، وهناك مصائب الردع، وهناك مصائب الدفع، وهناك مصائب الرفع وهناك مصائب الكَشف، كل مؤمن له مصيبة خاصة به، قد يكون مؤمنًا مستقيمًا على أمر الله، لكن ربنا عزّ وجل يحبُ أن يحثّ الخُطى إلى الله، هذه دفع، قد يكون المؤمن لو جاءته مصيبة فصبر عليها يرتفع عند الله أكثر، هذه مصيبة رفع، وقد يكون الكمال منطوياً في نفس إنسان لا يظهر إلا بظرف صعب، هذه مصيبة كشف، هناك دفع، وهناك رفع، وهناك كشف، هذه مصائب المؤمنين.

1 – مصائب غير المؤمنين قصم وردعٌ:

أما مصائب غير المؤمنين، إما قصم وإما ردع.

ليس من الشرع الحكمُ على الناس:

فما كل إنسان شاهدتَ عليه مصيبة بإمكانك أن تحكم عليه، هذا من شأن الخالق، دائماً عوّد نفسك الأدب، لا تحكم على الأشخاص، هذا ليس من شأنك، هذا من شأن خالق الأشخاص، فإذا رأيت إنسانًا مصابًا تقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، من دون أن تُسمعه هذا الدعاء، ومن منتهى الفظاظة أن تُسمعه هذا الدعاء.

رأيت إنسانًا مبتلىً بعاهة، بمشكلة، بفقر، يجب أن ترحمه، يجب أن تعطف عليه، أن تساعده، هذا كلام العوام: (إن رأيت الأعمى طبُّه)، هذا كلام الجهلة، يجب أن تساعده إلى أقصى درجة، وأن تدعو هذا الدعاء، أما أن تحكم عليه فهذا منتهى الجهل.

موقف المؤمن إذا أصابته مصيبة:

لذلك المؤمن الكامل إذا ألمّت به مصيبة يتّهم نفسه، فإذا حلت بأخيه يحسن الظن به، هذه قاعدة، ومهما بالغت في اتهامك نفسك كان هذا أفضل، قل مع نفسك: **" ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر "**، ومهما أسرفت في اتهامك فهو أفضل، أما أخوك فإيّاك أن تفعل معه ذلك، أخوك لعل مصيبته رفعٌ له، لعلها دفع، لعلها كشف، لعلها رُقِيّ، لذلك ماذا قيل ؟ قال ابن عطاء الله السكندري: **" رُبّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً".**

والحديث المعروف والمشهور عندكم، أي إذا الإنسان أخوه وقع بذنب، قال النبي الكريم:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن عَيّره ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

موقف المؤمن إذا أصابت المصيبة أخاه المؤمنَ:

خذ موقفًا دقيقًا جداً، إذا وقع أخوك بذنب أو بمصيبة، الله عزّ وجل يحميني من أن أقع كما وقع، ادعُ لنفسك بالحفظ وله بالمغفرة، أما أن تشمت به فإنك تبتلى بهذا الذنب، أما أن تعَيّره فإنك ستبتلى به، وإنْ تذكره للناس اغتبته، وإن ترضه عنه شاركته في الإثم.

عندك آية:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 155 ")

هذه مصائب المؤمنين.

(بشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

فليس لك حق أن تتهم إنسان بمشكلة أنه مذنب، لا تعرف، والدليل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

أنت لست الخبير الله الخبير، أنت لست خبيرًا.

1 ـ السؤال الثاني:

ما المقصود بكلمة وردت في هذه الآية:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد: آية " 15 ")

2 ـ الجواب:

ليس لخمر الآخرة من خمر الدنيا إلا الاسم فقط، لا غولٌ فيها، خمر الجنة لا تغتال العقل، لكن هذا تقريب لأذهان الناس، ففي الجاهلية كانوا غارقين في شرب الخمر، وليس لخمر الآخرة من خمر الدنيا إلا الاسم فقط، وهو من نوع آخر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (11-18): تفسير الآيتان 60 - 61

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة القصص.

والترابط والتسلسل بين آيات القرآن الكريم:

حجّةُ المشركين لعدم الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الإخوة الأكارم، في القرآن الكريم ترابطٌ وتسلسل بين آياته، وقد لا يبدو هذا لأوّل وهلة، فمثلاً ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص)

هذه مقولة مشركي مكة.

الردُّ الإلـهي:

الردُّ الأول:

بماذا ردّ الله عليهم:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

هذا هو الرد الأول.

الردُّ الثاني:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

الردُّ الثالث:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

الردُّ الرابع:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

الردُّ الخامس:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

(سورة القصص)

لو قُرأت هذه الآيات قراءةً سريعة، ولم يتعمّق في فهمها لظنّ المؤمن أن هذه الآيات تعالج موضوعاتٍ متفاوتة لا رابط بينها، ولكن إن شاء الله تعالى في هذا الدرس، وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى سوف ترون كيف أن كل هذه الآيات تتمحور حول محورٍ واحد.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

وقد ردّ الله عليهم بموضوعاتٍ شتّى، وبأساليب شتّى، قبل كل شيء عودةٌ إلى الآية الأولى.

عودة على الآية: وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

1 – أوامر الدين ضمان للسلامة وليست تقييدا للحريات:

الإنسان أيها الإخوة إذا فَهِمَ أن أوامر الله عزّ وجل تقييدٌ لحريته، فهو جاهلٌ جهلاً مطبقاً، أما إذا رأى أوامر الله عزّ وجل ضمانًا لسلامته، فقد فقُهَ في دينه، أضرب على هذا أمثلة كثيرة كنت قد ضربتها سابقاً:

إذا رأينا عمودَ كهرباء عليه خط توتر عالٍ، وقد كتب في أسفل العمود: **" لا تقترب، خطر الموت "**، هل ترى أن هذا المنع تقييدٌ لحريّتك أم ضمانٌ لسلامتك ؟ لو أن إنساناً قال: لو أنني صعدت إلى أعلى

هذا العمود، وأمسكتُ بهذا التيار ذي التوتر العالي، يا ترى أكون مخالفًا ؟ أأسجَن ؟ أأدفع غرامة ؟ ما المحذور ؟ هل هناك من يراقبني ؟ هل هناك شرطيٌ أو موظف كهرباء ؟ ما أسخف هذا الإنسان، إن التيار ذا التوتر العالي وحده يعاقبك، ولن يعاقبك أحد، بمجرد أن يلمس الإنسان هذا التيار يصبح قطعةً من الفحم، القضية أعمق من ذلك، إن في هذا المنع نتائج مُقارفته، إذا فهمت أوامر الدين هذا الفهم الصحيح أصبحت فقيهاً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي الذي قال: عظني وأوجز فقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

فقال: قد كُفيت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

2 – فهمُ أوامر الدين تقييدا للحريات جهلٌ كبير:

فما دمت ترى الدين عبئًا عليك، وأن أوامره ثقيلة، وأنها تُقَيّدُك من حركتك الحرة، وأن الدَيّن إنسان متقوقع، وأنه حبيس هذه الأوامر والنواهي، وأن الحياة تحتاج إلى انطلاق، وإلى تحرر، وإلى حرية، وإلى أن يفعل الإنسان ما يشاء، إذا فهمت هذا الفهم فأنت لا تعرف من الدين شيئاً.

في الدرس الماضي قلت لكم: لو أنّ إنساناً يدعي أنه طبيب، وقال: كلما ارتفع ضغط الإنسان فهذا دليل صحّته الجيدة، تحكم على هذا المُدّعي أنه جاهل، لا على أنه طبيب، ولا معاون طبيب، ولا ممرض، ولا مثقف، لأن هذا شيء بديهي، إذا قال لك إنسان يدّعي أنه مهندس: أنا بإمكاني أن أُنشئ بناءً ارتفاعه مئة متر بلا حديد، تحكم عليه أنه جاهل، وعلى هذا فقس.

في مجال الدين لمجرّد أن ترى أن أوامر الله عزّ وجل عبءٌ عليك، وأنها ثقيلة، وأنها قيدٌ لحرّيتك، وأنها تحجزك عن مُتع الحياة، عن مباهج الحياة، وأن رجل الدين رجل مسكين محروم لم يذق مباهج الحياة، إذا فهمت الدين هكذا فاحكم على نفسك بالجهل، ولا أظن أن أحدًا من الإخوة الحاضرين هو كذلك، فاحكم على نفسك بالجهل المطبق، لذلك جاءت هذه الآية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

أي أنك لمجرد أن تتوهم أن أمر الله يضرُك، وأنّ معصيته تنفعك، إنْ في كسب المال، إنْ في إنفاق المال، إنْ في إطلاق البصر، أو في غض البصر، إنْ في ضبط النفس، إنْ في ضبط الحواس، إنْ في ضبط الحركة في الحياة، لمجرّد أن تتوهم، أو أن يأتي على خاطرك وهمٌ من أن طاعة الله تضرك

ومعصيته تنفعك، والكذب يُريحك، وينجّيك، ويسعدك، ويربحك، ويجلب لك المال الوفير، وأنّ الصدق يحرجك، ويتعبك، ويكثر أعداءك، إذا فهمت هكذا، فاحكم على نفسك بالجهل المطبق، لذلك النبي الكريم قال:

((من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب ممن اتقى))

[ورد في الأثر]

إذا توَسّلت إلى هدفٍ مشروع بوسيلةٍ غير مشروعة فهذا الهدف بعُدَ عنك، وإذا توسّلت إلى الهدف المشروع بوسيلةٍ مشروعة هذا الهدف اقترب منك، كلُّ هذه الدروس، وكل هذه الخطب، وكلُّ تفسير القرآن وتفسير السنة النبوية، من أجل أن توقن أن طاعة الله هي بابك الوحيد إلى سعادتك، وأن معصية الله عزّ وجل طريق كلّ شر وكل ضيق.

منطق الأحداث اليومية:

وقلت لكم في الدرس الماضي أيضاً: إن الله عزّ وجل جعل للأحداث اليومية منطقاً، وجعل للإيمان منطقاً آخر، فقد يبدو لك أنك إذا أنفقت زكاة مالك نقص مالك، إنّ هذا المبلغ خمسون ألفا الذي استحق عليك زكاةً لمالك هذا المبلغ إذا أنفقته حُرِمْتَ منه، هذا منطق الناس، هذا منطق الدنيا، هذا المنطق المادِّي، هذا المنطق الظاهر، ولكن الله عزّ وجل له سنن أخرى، إذا أنفقت هذا المال كزكاةٍ لمالك فهناك إجراءاتٌ يجريها الله عزّ وجل تضاعف من مالك، في كلّ شيء ؛ لو أنك غَضَضتَ البصر عن هذه المرأة الجميلة يبدو لك، وبمنطق الناس أنك محروم، ولكن الله عزّ وجل إذا رآك عند طاعته يورثك حلاوةً في قلبك لا تنساها إلى يوم تلقاه.

((من غضّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه))

[ورد في الأثر]

إذاً: هناك منطقان، هناك مقياسان، هناك طريقتان في مُناقشة الأمور، طريقة أهل الدنيا، طريقة الماديين، طريقة الذين هم في قطيعةٍ مع الله عزّ وجل، هؤلاء لهم منطقٌ خاص، ويجعل الله تدميرهم في تدبيرهم، وفقرهم في كنز مالهم وشقاءهم في متعهم.

منطق العابدين لله عزوجل:

أما أولئك الذين عبدوا الله عزّ وجل يخلق الله لهم من كل ضيقٍ فرجاً، ومن كلِّ همٍ مخرجاً، ومن كل عسرٍ يسرًا.

هذه الآية مركز الثقل:

فيا أيها الإخوة المؤمنون، أقف عند هذه الآية لأنني أشعر أنها مركز الثقل في هذه الصفحة، لأن الآيات كلها تردُ على قول هؤلاء:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

فقد يبدو لك أن هذا السلوك الإسلامي يُخَسِّرُك، وهذه المخالفة تربحك، قد يبدو لك أنك إذا أرضيت زيداً وعصيت الله يقوى مركزك، وما دريت أن هذا التصرُّف إسفينٌ في مركزك، قد يبدو لك أنك إذا طَبَّقت الشريعة الإسلامية، في إنفاق المال فإنك سوف تحرم من بعض مباهج الحياة، والعكس هو الصحيح، قد يبدو لك أنك إذا عزفت عن سماع الأغاني قد حرمت نفسك شيئاً ثميناً جداً في الحياة، وما تدري أنك إذا عزفت عن سماع الأغاني، واستمعت إلى كتاب الله تجلّى الله على قلبك بطريقةٍ لا يستطيع ذوّاقو الغناء في العالم أن يطربوا طربك، هنا المشكلة، فإما أن تكون عبداً، لله وإما أن تكون عبداً لشهوتك، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، إما أن تستوحي مبادئ العقل، وإما أن تستوحي دوافع الشهوة، إما أن تعمل للآخرة، وإما أن تعمل للدنيا، هؤلاء كفار مكة قالوا بمنطقهم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الإجابة المنطقية الواقعية لكلام كفار أهل مكة:

أول جواب عنهم: أنتم يا أهل مكة، حينما كنتم مشركين أنعمت عليكم ببلدٍ آمن، وفوق أنّه آمن تُجْبَى إليه ثمرات كل شيء، ربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

ربنا عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل 112)

ربنا ذكر الأمن والرزق، أحياناً الإنسان معه مالٌ وفير، ولكنه خائف، قد يكون مطمئناً، ولكنه فقير، إذا جمعت بين الأمن وبين الرزق فقد جمعت الدنيا من طرفيها.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الإجابة يا كُفّار مكة، يا مشركي مكة، يوم كنتم تعبدون الأصنام حباكم الله عزّ وجل بلدًا آمنًا فيها خيراتٌ وفيرة، فإذا آمنتم بالذي خلقكم، إذا آمنتم بالمنعم، إذا آمنتم بالإله الواحد، إذا آمنتم بربّكم، إذا أطعتموه تخافون ؟ أو تفتقرون ؟ أهذا هو المنطق ؟! أهذا هو المنطق السليم ؟ أي يوم كنت تائهاً شارداً الله عزّ وجل وفّرَ لك صحة طيبة، وأولاداً، وزوجة، ورزقك من رزقه الطيّب، فإذا عرفت الحق وأردت أن تطيعه، وأن تدَع هذه المعصية، وأن تقطع علاقتك بزيد وبعبيد، الآن تأتي المشكلات، بعد أن تبت إلى الله تأتي المشكلات ؟! أهكذا الله عزّ وجل ؟ أهكذا يعامل عباده المؤمنين ؟ يوم كنت شارداً كان يحفظُك، يوم كنت منحرفاً كان يرعاك، فإذا رجعت إليه، وتبت إليه، وأنبت إليه، واستقمت على أمره عندئذٍ تأتي المشكلات، ويأتي الفقر، ويتضعضع مركزك في المجتمع، وتخاف على سمعتك ؟ أهذا منطقٌ سليم ؟

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا)

(سورة القصص)

رِزْقاً مِن لّدُنّا

1 ـ الرزق كله مِن عند الله عزوجل:

يا الله.. هذا الذي يكسب المال يظنُّ أنه ذكي، وأنه تاجرٌ ماهر، أو صانعٌ مُتقِن، أو طبيبٌ ماهر، أو مهندسٌ بارع، أو محامٍ ضليع، وأنه لولا جدُّه واجتهاده لما كان هذا المال الوفير، هذا هو الشرك بعينه، ماذا قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

هذا هو الشرك، أنا، ونحن، ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَا خَيْرٌ)

[الأعراف: من الآية 12]

فأهلكه الله عزّ وجل. وقال قوم الملكة بلقيس:

(نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[النمل: من الآية 33]

فدمّرهم الله عزّ وجل.

وقال قارون:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

فخسف الله به الأرض.

وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف)

فإذا دخل الإنسان إلى بيته لا يتوَهَّم بأنه هو الذي اشتراه بكدِّه، وعرق جبينه، هو حَصّل شهادة عُليا، وله منصب مرموق، أو اشتغل بمحل تجاري منذ أمدٍ طويل، هو بذكاء بارع وجهد كبير جاءه هذا المال فاشترى هذا البيت، لا..

(رِزْقاً مِنْ لَدُنّا)

2 ـ كل شيء بإذن الله تعالى:

يجب أن ترى رزق الله عزّ وجل، أي امتحن نفسك بهذه المشكلة، قد تقرأ في الجريدة أن منخفضاً جوياً قادماً إلى الشرق الأوسط متمركزاً فوق قبرص، ماذا ترى ؟ هل ترى أنه منخفض جوي، أم ترى أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ؟ هل ترى يد الله فوق أيديهم ؟ فيما تستمع من أحداث، إذا استمعت إلى بعض الأخبار هل ترى أن يد الله فوق أيديهم ؟ أن إذا طغى الإنسان وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وغرق في النعيم، ونسي الجَبّار الأعلى، ونسي المبتدى والمنتهى، هناك هزاتٌ عنيفة، الله عزّ وجل من رحمته لا يدع الناس سدىً، قد يكون الرفاه والنعيم حجاباً بين العبد وربّه، فقد يزول هذا النعيم فجأةً، قد تنقلب الأمور، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من فجأة النقمة،

ما بَينَ غَمضَةِ عَينٍ وَاِنتِباهَتِها يَغيرُ اللَهُ مِنْ حالٍ إِلَى حالِ

***

في ثانية، ست ساعات، ساعة، انتهى كل شيء، إذا قرأت، أو سمعت، أو تداولت، فلا تنس أن الله هو كل شيء، وأن يد الله فوق كل شيء، لا ترى الأحداث منعزلة عن فعل الله عزّ وجل فتقع في متاهة كبيرة.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال)

أول جواب:

(أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً)

والقصة التي قلتها لكم في الدرس الماضي أن سيدنا موسى في المناجاة قال: **" يا رب ارزقنا، أمطرنا، أغثنا، فقال الله له: يا موسى، إن فيكم عاصياً، فالتفت إلى أصحابه، فقال: من كان عاصياً لله فليُغَادرنا، بعد قليل انهمرت الأمطار، فناجى سيدنا موسى رَبّه فقال: يا رب، من هو الذي يعصيك ؟ فقال: عجبت لك يا موسى، أأستره وهو عاصٍ، وأفضحه وهو تائب".**

عندما كنت في الجاهلية قبل أن تعرف الله، كنت في رعاية الله، وفي حفظه، والله ربَّاك، ونقلك من حال إلى حال، وهداك إليه، فإذا عرفت الله، واستقمت على أمره، وغَضَضت بصرك تخاف على سمعتك ؟ يقول لك: لا أستطيع أن لا أصافح، أحرج،، ويتهمونني أنني دّيّن، لماذا ؟ هل الدين تهمة ؟.

(أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة القصص)

هذا هو الرد الأول..

ثم ماذا بعد ذلك ؟!

الرد الثاني، إذا خفت على مركزك الاجتماعي وعصيت الله، أو خفت على ثروتك الطائلة من هذا المشروع، وتابعتها مع أن فيها معصية كبيرة، إذا خفت أن هذا المطعم الذي يبيع الخمر، إذا بعت حصتك منه بعد أن عرفت الله، إذا ظننت أنك إذا فعلت هذا تفتقر، إذاً تابعت العمل.

دائماً أيها الإخوة، راقبوا هذا السؤال: ثم ماذا ؟ عصينا الله، وتابعنا العمل في هذا المشروع الذي لا يرضي الله، ثم ماذا ؟ وحَصّلت منه أرباحاً طائلة، وحصلت منه رزقاً وفيراً ؟

هناك شخص له بعض المشاريع التي بُنِيَت على معصية الله، على فراش الموت ترك ثمانمائة مليون، فسأل أحد العلماء: ماذا أفعل كي يتوب الله عليّ ؟ فقال هذا العالم، وكان جريئًا، قال له: والله لو أنفقت هذه المبالغ كلها، ثمانمائة مليون، في سبيل الله لما قبلها الله منك، لأنها كلّها مال حرام.

فقط هذا السؤال: ثم ماذا ؟ عصينا الله، وقوي مركزنا، شيء جميل، عصينا الله، وازدادت ثروتنا، شيء جميل، عصينا الله، وسكنا في هذا البيت الفخم، شيء جميل، عصينا الله، وركبنا هذه السيارة، شيء جميل، عصينا الله، واشترينا هذه المزرعة، ثم ماذا ؟ لا يوجد إلا الموت بعد ذلك، والموت خسارة كل شيء في ثانيةٍ واحدة، فربنا عزّ وجل قال: أيها الكفار لو أنَّكم توهَّمتم أنكم إذا اتبعتم الهدى مع رسولي فسوف تتخطفون من أرضكم، إذاً يقول لكم منطقكم: ابقوا على كفركم، وعلى شرككم من أجل

أن تكونوا زعماء في الجزيرة، سادة هذه الجزيرة، من أجل تبقوا في مركزكم الكبير وفي دخلكم الوفير، شيء جميل، ثم ماذا ؟ قال:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)

(سورة القصص)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا

1 – معنى: بَطِرَتْ:

ما معنى بطرت ؟ معنى بطرت بالضبط طغت في معيشتها.

2 – مجالات البطر:

إنْ في كسب المال، أو في إنفاقه، إذا طغيتَ في كسب المال أخذت ما ليس لك، أو ضَيَّعت حقوق الناس، أو استغللت ضعفهم وفقرهم وحاجتهم، أعطيتهم دون ما يستحقون ونمت ثروتك، نما غناك على فقرهم، أو اغتصبت أموالهم، أو استخدمت قوّتك في كسب المال، أو استخدمت حيلك وذكاءك في كسب المال الحرام، أو غششت المسلمين في بضاعتهم، طغيت في كسب المال، ثم طغيت في إنفاقه، أترفت نفسك حيث إذا دخل عليك إنسان تضاءل أمامك، رأى نفسه صغيراً، ليس عنده شيء، عندك كل شيء، يقول لك: مساحة بيتي أربعمئة وثمانون متراً، يتكلمها ويقبض وجهه أيضاً، إذا طغيت في كسب المال فأكلته حراماً، ثم طغيت في إنفاقه فأحزنت كلّ من حولك، ثم ماذا ؟.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

3 – إنك لا تملك شيئاً:

هل تعلم من هو المالك الحقيقي ؟ هو الله عزّ وجل، والدليل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

عينك لا تملكها، أنت تستمتع بهذا البصر مادام الله قد سمح لك بذلك، فإذا شاءت مشيئته أن يفقد الإنسان بصره لسببٍ تافهٍ جداً ينتهي، أنت تستمتع بقوتك وحركتك مادام الله قد شاء لك ذلك، فهو المالك

لقوتك، حتى الحياة، حتى القوة، حتى السمع، حتى البصر، حتى العقل، قد يأخذ الإنسان أعلى شهادة علمية في العالم، ثم يختل عقله، فإذا هو في الطرقات يزعج الناس، ويخافه الناس، وإذا تمكّن أهله بوساطةٍ كبيرة أن يدخلوه مستشفى الأمراض العقلية يفعلون ذلك، فلا عقلك أنت مالكه، ولا سمعك، ولا بصرك، ولا صحتك، لا قوتك، ولا صمّام القلب، ولا الكبد، ولا عمل الكليتين، إلى الآن أمراض كثيرة جداً بلا سبب، فقر دم لا مُصنِّع، ما هذا ؟ فقر الدم اللامصنع، أي أن معامل كريات الدم في نقي العظام توقفت فجأةً عن التصميم من دون أن نعرف السبب، هذا يحتاج كل يومين لترين من الدم أو ثلاثة إلى أن يموت، فقر الدم اللامصنع، هبوطٌ مفاجئ في وظائف الكليتين، ما هو السبب ؟ لا نعرف، إذا وقفت الكلى يحتاج كل أسبوع مرتين إلى غسيل، أو يحتاج إلى إجراء عملية تكلف مليون ليرة، والنجاح بالمئة ثلاثون.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

مالِك القلب والشرايين، والدَسّامات، ومالِك العضلات والرئتين، أحياناً حبة تظهر فتحكها هكذا فتكبر، بعد شهرين كان تحت التراب، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[صحيح البخاري عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ]

أنا أريد أن أقول: لا تعتمد على شيء، اعتمد على فضل الله عزّ وجل، هذه الحركة بيد الله عزّ وجل، لك بصر حاد، التهاب بالعصب السمعي، لي قريب بأول حياته سمع تشويشا في أذنه ذهب إلى الطبيب، قال له: والله هذا مرض يأتي في مئة ألف حالةٍ حالةً واحدة، التهاب بالعصب السمعي ينتهي بالصمم، يا ترى أنا مالك لسمعك ؟ مالك لبصرك، مالك لعقلك، مالك لأعصابك، فقرة تنزلق نصف ميلي تسبب آلامًا لا تحتمل، يقول لك: معه مرض في الفقرات، شيء لا يحتمل، أو عرق النسا، إذا انسدت القناة الدمعية تصبح الحياة صعبة، تحتاج دائماً إلى محرمة لكي تمسح السيلان الدائم بالعين أو الأنف، لو أن المستقيم أصيب بالشلل، هل تحتمل الحياة، هذا معنى قوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أنت لا تملك شيئاً، لو أن ذكاءك كلّه موظف في كسب الرزق، لو أن هذا العقل سلبه الله عزّ وجل، أين بقي مكتبك التجاري، ومراسلتك، ومركزك القوي مع الشركات؟ كله صفر، لا يبقى لك مكان إلا بالعُصَير.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

(سورة آل عمران)

تِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً

يجب أن ترى يد الله عزّ وجل دائماً:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة القصص)

اذهب إلى تدمر وانظر، أكبر دولة في عصرها كانت، كان الطريق من دمشق إلى تدمر مظللاً بالأشجار كله، انظر إلى دولة الأنباط، بيوت، وحمامات، وأماكن للحفلات، كلها محفورة في الصخر، شيء لا يصدق، بيت محفور من الصخر له أربعة جدران، وجدارين للتهوية، وحمامات، وقصور ملكية، ومكاتب، وقاعات للمحاكمات، لو أن معي دليلا حتى أريك وظيفة كل مكان، الأهرامات، الهرم فيه نافذة مفتوحة بطريقة رائعة جداً، حيث لا تدخل الشمس منها إلى هذا الهرم إلا يوماً واحداً في العام، أنت كمهندس هل تستطيع أن تدرس حركة الشمس، وتضع نافذة ضيقة وعميقة، حيث تأتي أشعة الشمس على امتداد هذا الشق إلى داخل الهرم يومًا واحدًا فقط ؟ شيء لا يصدّق، ليس في مصر أحجار، من أين أتوا بهذه الأحجار ؟ فقال:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

إما أن ذلك بعد ما دمّرهم الله بقي كم بيت من دون دمار استعمل، أو معنى آخر على كلٍ:

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(قَلِيلاً): إما أنه استثناء في الزمن أو في المكان، وإما بعض المساكن سُكِنَت، أو سكنت فترة قليلة.

(وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ

ملكية الإنسان ملكية شكلية، لذلك سُئِل بدوي عن قطيع إبل يملكه، فقيل له: لمن هذا القطيع ؟ قال: **" لله في يدي "**، هذه اجعلها في بالك، لمن هذا البيت ؟ والله لله في يدي، الله سمح لي أن أسكنه، لمن هذه المركبة ؟ لله في يدي، لمن هذا المعمل ؟ لله في يدي، لمن هذه المزرعة ؟ لله في يدي، هكذا أجب، لمن هذه الدكان ؟ لله في يدي.

(وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

ربنا عزّ وجل رد رداً رابعاً، أول رد:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً)

الرد الثاني:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا)

الردُّ الثالث: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا

الرد الثالث:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

أي في المركز، في العاصمة..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

1 – علاقة هذه الآية بما قبلها:

ولكن ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

ما علاقتها ؟ العلاقة: أن يا كفار مكة هذا النبي قد جاءكم من عندي ليبلِّغكم، فإن كذبتموه استحققتم الهلاك والتدمير النهائيين، فآمنوا قبل أن تهلكوا:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً)

2 – هلاك الاستئصال وهلاك الضعف والهوان:

وها قد بعث في أمِّها رسولاً، وها قد أرسل النبي محمداً لأم القُرى ومن حولها، فالخيار أمامكم، إما أن تؤمنوا، وإما أن تستحقوا الهلاك، والهلاك هنا ليس هلاك ضعف، لأن من علامات قيام الساعة هلاك العرب، وهو هلاك ضعف، هلاك تشتت وتشرذُم وتبعثر، هناك هلاك الاستئصال، كما أهلك الله قوم نوحٍ، وقوم عادٍ، وثمود، وقوم فرعون، فإن هذا هلاك استئصال، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

انظر هذه:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ

تعبير فيه قصْر وحصر، أي قطعاً الهلاك أساسه الظّلم، فإذا سمعت عن نبأ هلاك أمة بزلزال، بفيضان، ببركان، بتسليط الناس بعضهم على بعض، فهكذا ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية "65")

البراكين، الحمم، أو الصواعق..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

هذا أيضاً نوع من الهلاك، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

الهلاك سببُه ظلمُ العباد:

فَسِّر الأحداث ما شئت، هذا التفسير الإلهي، يا أخي هنا منطقة براكين، شيء جميل، هنا حدثَ منخفض فتفاعل مع مرتفع جاء من أواسط آسيا، فنزلت أمطار غزيرة جداً، هناك أمطار موسمية جرّت سيولاً، جرفت المحاصيل، فهلكت القرى:

(إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هكذا الآية، فَسِّرها ما شئت، فَسِّر تفسير جغرافي، وجيولوجي:

(إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هذا هو التفسير الصحيح، هذا تفسير قرآني، عندما ربنا يريد أن يهلك القرى يجعل لها أسبابًا مادية، يجعل زلزالَ، بركانًا، فيضانًا، أمطارًا، رياحًا عاتية، يأتي إعصار على بعض المقاطعات في أمريكا يُدَمِّر كل شيء، لا يبقي ولا يذر، تفسر الإعصار بأنه حركة رياح استثنائية، وتفاوت في الحرارة، تفسر الإعصار خلخلة بالأوزون، فسر ما شئت، هذا هو التفسير الإلهي:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

هذا الرد الثالث.

الرد الرابع، لو أنكم آمنتم بالله وبرسوله، واتبعتم كتاب الله وسنة رسوله، ومن أجل هذا الإيمان خسرتم حياتكم ماذا يكون ؟ أنتم الرابحون.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

كما تدعون فرضاً، إذا آمنتم برسولي وبكتابي واتبعتم هذا الدين الحنيف، وكان من نتيجة ذلك أنكم خسرتم مركزكم، أو مالكم، أو شأنكم، أو أرضكم، أو حياتكم، أكنتم رابحين أم خاسرين ؟

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ

اسمع الجواب:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة القصص: من الآية 60)

شيء.. فأقل كلمةٍ في اللغة تعَبّر عن أدنى شيء هي كلمة شيء، النملة شيء، والقَشّة شيء، ونقطة الماء شيء، نقطة الماء ما قيمتها ؟ هل تروي إنسانًا ظمآنَ ؟ نقطة الماء شيء، الثانية، قل: ضاع مني ثانية، شيء:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

ليته قال: شيء، بل إنه قال:

(مِنْ شَيْءٍ)

و(مِن)للتبعيض، أيّ إنسان الله آتاه بيتًا، إنسان آتاه متجرًا، إنسان آتاه معملاً، هذا آتاه وظيفة، هذا آتاه ذكاءً، هذا قلمه سيّال، هذا طليق اللسان، هذا عنده قدرات فنية عالية، قدرات في التأليف:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

شكل، هيئة، طول، لون:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

عنده قدرة لغوية، عنده قدرة رياضية، وَرِث أموالاً طائلة، ملاك مثلاً... إلخ.

فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(القصص: من الآية 60)

متعة مؤَقّتة، متعة لا ثمرة لها:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

أنت تقول: صدق الله العظيم، فهل ترى أن متاع الدنيا كبير ؟ أو عظيم ؟ جليل ؟ خطير أم قليل ؟ الله يقول: قليل، هل أنت لك رؤية خاصة غير مقياس الله عزّ وجل ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

إما أن تستمتع به مباشرةً، وإما أن تفتخر به، الإنسان أحياناً يضع ثُرَيّا في بيته، إذا كنت تريد الإضاءة فضع بلورتين من مئتي شمعة، وهذا نفس الشيء، ثمنها ثلاثون ليرة، أو أربعون، لكن الثريا ثمنها ثلاثة عشر ألفا، ما الهدف ؟ الهدف هو الزينة، أحياناً الإنسان يعمل في بيته ورقًا، ويعمل أقواسًا، وهذه زينة، الهدف هو الزينة، يرتب نفسه، ويدهن ويعتني، الهدف هو الزينة، الحياة متعة أو زينة، إما متعة شيء ممتع، تأكل وتستمتع، تقبع في مكان بارد فتستمتع بهذه البرودة في الصيف، تقبع في مكان دافئ فتستمتع بهذا الدفء في الشتاء، تأكل الفاكهة الطيبة فتستمتع بها، تجلس في بيتك مشرقًا على مناظر جميلة فتستمتع بهذه الناظر، هذه هي المتعة، أو الزينة لا يوجد فيها متعة لكن فيها افتخار، فربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

لذلك النبي الكريم كلما رأى شيئاً أعجبه كان له هذا الدعاء:

((اللّهُمّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ))

(صحيح البخاري عن سَهْلٍ)

كذلك النبي الكريم يقول:

((إياك وفضول النظر، فإنه يبذر في النفس الهوى))

[ورد في الأثر]

قال لي أحدهم: رأيت سيارة، والله قالها ولا أدري أهو جاد أم غير جاد، قال لي: والله اشتهيت أن تدهسني من كثرة حبي لها،

((إياك وفضول النظر، فإنه يبذر في النفس الهوى))

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللّهُمّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ))

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

في اللغة العامية أحياناً يقول شخص لآخر: (خذها وانمحق)، خذها وخلصنا، يأخذها ـ ويفرح بها، لذلك:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فجأةً من كل شيء إلى لا شيء، الآية الكريمة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

أي لو آمنتم بمحمد، وخسرتم هذه الدنيا، خير إن شاء الله ؟ أنتم الرابحون، لو أنكم آمنتم بمحمد، وخُطِفْتُم من أرضكم، أو خسرتم مكانتكم، أو دخلكم، أو تجارتكم، أو محبّة الناس لكم، لو أن الدنيا كلها ذهبت من بين أيديكم لأنكم آمنتم فأنتم الرابحون، لأن هذا الذي أنتم تخافون عليه لا قيمة له عند الله عزّ وجل، بل إنه شيء تافه:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ)

تحرصون عليه، وتخافون عليه، وتعصون الله من أجله، وتكفرون بمحمد من أجل أن يبقى هذا الشيء بأيديكم:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أحياناً يكسب الإنسان رزقه، وأحياناً يكون رزقه مؤمَّنًا لمئة سنة قادمة، عنده أموال طائلة، هوايته ما أصبحت كسب الرزق، بل الجمع، يقول لك: أنا كوّنت هذه السنة عامودا، أو عامودين، أي مليونين، الهدف كان كسب الرزق، أصبح هناك هدف ثانٍ، وهو الجمع، هنا المشكلة:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

هناك شركة في أول العام، طبعاً بعد شهرين من الجرد، رقم الأرباح النهائي، وهذه قصة في أول السبعينيات ثمانية ملايين، وهذا رقم كبير في السبعينات، والآن قد يكون الرقم قليلا، أما في السبعينات فإنه كان رقما كبيرا جداً، تَلَقّى النبأ الساعة العاشرة صباحاً، والساعة الثالثة كان قد توفي..

وإذا أحد حصّل أموالاً طائلة، هذه الآية دقيقة كثير، وجميلة.

معنى الآية في السياق:

لكن الآية في السياق لها معنى آخر، أنتم إذا آمنتم تخسرون الدنيا، ولو فرضاً خسرتموها ماذا خسرتم ؟

خسرتم شيئًا تافهًا جداً، فالصحابة حينما قُتلوا في بدر وأحد هل خسروا ؟ سيدنا حمزة أين قتل ؟ قُتِل في أحد، وبُقِر بطنه، ولاكت هِنْدٌ كبده، هل خسر ؟ أين هو ؟ الدنيا شيء تافه ليس له قيمة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(القصص)

أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أين عقلك يا أخي ؟ وقد قلت مرة في خطبة: إن الجماد شيء يشغل حيزا، له وزن وطول، وعرض وارتفاع، وزن أي كثافة، هذا هو الجماد، صخرة أو إسمنت كثيف، يمكن أن تحمل في قارورة فيها سائل فيه ثلاثة سنتيمترات تقع من يدك، ويكون في القارورة زئبق له وزن، وكذلك الجماد يشغل حيّزًا**(طولا وعرضا وارتفاعا)**، أما النبات فيشغل حيزًا وينمو، والحيوان يشغل حيزا وينمو ويتحرك، والإنسان يشغل حيزًا وينمو ويتحرك ويفَكِّر:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة القصص)

المشكلة في نقطتين، خيرٌ نوعاً، وأبقى أمداً، العوام لهم رأي: **" ساقية جارية ولا نهر مقطوع "**، كيف إذا كان هناك نهر جارٍ وساقية مقطوعة ؟ بالعكس أتوازن ؟ أي أن حياة الدنيا حياةٌ قصيرةٌ مشحونةٌ بالهموم والآلام، ومن أجل صحن سلطة تشتغل نصف ساعة، هذه الطبخة، ويُؤكل في خمس دقائق، لكي تأكل يجب أن تشتغل، من أجل شراء هذا البيت تجمع ثمنه ثلاث عشرة سنة، وتحتاج لفرشه ثماني سنوات أخرى، هكذا طبيعة الحياة:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

هكذا سنة الله في الخلق، فهذه الحياة القصيرة كي يقف الإنسان على قدميه بالأربعين، أربعون سنة للإعداد، محل اشتغل فيه، أو أصبح موظفًا أو طبيبًا، سكن في بيت رتّبه ونظّمه، أمّن له سيارة صغيرة لكي يصل فيها إلى عمله، يصل عمره أربعين أو خمسة وأربعين، بالخمسين أصبح معه مرض أسيد أوريك، بالخمسة والخمسين انزلاق فقرات، بالستين نعيه على الطرقات، وانتهى كل شيء، كلها على اثني عشرة سنة، حتى ينظم وضعه بالأربعين، والمنايا بين الستين والسبعين، كلما يموت ميت أسأل: كم

عمره ؟ فأرى أن العمر يهبط معدّله، يقول لك: ثماني وأربعون، اثنان وخمسون، واحد وخمسون، ثماني وثلاثون بالجلطة، لأن هذه الحياة قصيرة:

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة القصص)

الجنة خير وأبقى:

أي أن حياة الجنة في نعيم كبير وأبقى أي إلى أبد الآبدين، الإنسان في الدنيا لو كانت أموره كما يريد لكن عنده قلق عميق وهو قلق الموت، كلما كبر سنه قرّب، قرب من النهاية، عنده قلق عميق وهو المغادرة، أما في الآخرة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ)

لو آمنتم بمحمد يا كفار مكة، وخسرتم دنياكم، خسرتم دخلكم، مالكم، شأنكم، غناكم، بلدكم، حياتكم، أنتم الرابحين لأن:

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ماذا رأى سحرة فرعون ؟ ومضى أمامهم الحق:

(قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

(سورة طه)

اسمعوا الجواب، سحرة فرعون جاءوا لتعزيز الباطل:

(أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42))

(سورة الشعراء)

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

كل ما تملك أن تنهي حياتنا..

(إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

الآية الكريمة:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(17))

(سورة الأعلى)

أي أجمل بكثير وأطول إلى الأبد، والدنيا ضيقة وقليلة وأقصر:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

أيتوازنون ؟ واحد موعود من الله عزّ وجل بوعدٍ حسن:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

1 – الوعدُ الحسنُ:

الحقيقة أنّ سبب سعادة المؤمن في الدنيا أنه موعودٌ من الله بوعدٍ حسن، هذا الوعد الحسن الذي وعده الله له يمْتَصُّ كل مشكلةٍ، كل ضيقٍ، كل فقرٍ، كل مرضٍ، كل خوفٍ، كل قلقٍ.

مثل بسيط أضربه دائماً: أن إنسانًا فقيرًا جداً ودخله ألف ليرة، عنده ثمانية أولاد، بيته بالأجرة، مريض، أي أن مصائب الدنيا كلها اصطلحت عليه، إذا كان له قريب شاب يملك مئتي مليون، عم وليس له أبناء، ومات بحادث، أليست كل هذه الثروة له ؟ إلى أن يقبضها لابدّ من مرور سنة، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً واحداً ؟ لكن كل هذه الثروة تحوّلت له، لكن هناك إجراءات، وحصر إرث، وضريبة تركات، ومشكلات، حتى يقبض أول مبلغ، ويبيع البيوت، لماذا هو في هذا العام لم يأكل طعاما غير طعامه السابق، ولم يرتدِ ثيابًا جديدة، لم يقدر أن يضيف إلى حياته شيء، لكنه دخل في وعدٍ محقق، هذه هي المشكلة.

2 – الوعدُ الحسنُ يمتصُ الهموم:

المؤمن قد يبتليه الله بالفقر أو بالمرض، أو بزوجة سيئة، أو بأولاد متعبين، يمكن أن يكون هذا ابتلاء، قد يكون الإنسان مغمورا بمرتبة عادية في المجتمع، قد يكون له مشكلة مع أهله، على كلٍ، هذا كله ابتلاء، لكن ما الذي يمتصُ كل هذه الهموم ؟ أن الله جلّ في علاه وعده وعداً حسناً.

إذا وعدتَ صانعا أن يكون شريكا، أصبح إنسانا آخر على الوعد، يسر، وترتفع معنوياته، لذلك المؤمن له معنويات عالية، لأن الله وعده وعدا حسنا، بيته صغير، كبير، مظلم، مشرق، عال، منخفض، أجرة، ملك، كله ذلك سواء، صحته، شكله، زوجته درجة أولى، ثانية، ثالثة، خامسة، هذه كلها فترة مؤقتة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ)

قطعاً إن وعد الله حق، معنى حق أي لابدّ من أن يتحقق:

(كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

خذها، خذ الدنيا كقارون:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: الآية 81)

إن شاء الله في الدرس القادم نتابع ردود الله عزّ وجل على قولهم:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

خاتمة:

إنه قول قالوه، لكنه قول خطير جداً ينبئ عن جهلهم، الرد الأول، الرد الثاني، الثالث، الرابع، وهناك ردود أخرى تأتي إن شاء الله في الدروس القادمة، هذه الردود تؤكّد أن هذه الآيات ليست مفككة، بل إنها مترابطة، وأن كلمة سورة تعني مجموعة ذات وحدة موضوعيّة، فالسورة شيء مترابط، لكن إذا قرأ إنسان القرآن قراءة عابرة يراها مفككة، وأن كل آية لها معنى، أما إذا رأيت القرآن الكريم كلام خالق الكون ففيه تسلسل وترابط.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (12-18): تفسير الآيات 60 - 67
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بحقائق مهمة:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة القصص، في الدرس الماضي كانت الآيات المتتالية رداً من الله تعالى على هؤلاء المشركين الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: آية " 57 ")

1 – توهُّمُ ضرر الطاعة جهلٌ مركّبٌ:

لقد ردّ عليهم الله عزّ وجل، هم توَهّموا أن الهُدى يؤذيهم، ويضرُّهم ويخرجهم من ديارهم، ويجعلهم يخسرون مكتسباتهم، وبكلمةٍ مختصرة: هم رأوا أن الطاعة لله عزّ وجل تضرهم، وأن المعصية تنفعهم، ومن توّهم هذا فهو خِلوٌ من الإيمان لا يفقه شيئاً.

وفي الدرس الماضي خشيت أن يُظَنّ أن اعتقادك أن الطاعة تضر، والمعصية تنفع، أي أن الطاعة مريحة، والمعصية متعبة، الحقيقة أن طاعة الله عزّ وجل مُكْلِفَة، ومعصيته تتمشى مع الشهوات، هذه حقيقة.

2 – الإنسان بين الطاعة التكليفية والطباع الشهوانية:

قلت لكم سابقاً: غضُ البصر فيه كلفة، إطلاق البصر طبعٌ، يتمشى مع حب الإنسان لشهواته، إنفاق المال كلفة، قبضه طبعٌ، حبس اللسان عن الغيبة كلفة، إطلاقه في الغيبة طبعٌ، فإذا اعتقدنا اعتقاداً جازماً أن الطاعة تنفعنا، وأن المعصية تضرنا، ليس معنى هذا أن الطاعة سهلة، والمعصية صعبة، لا، الطاعة مُكْلِفة، والمعصية تتمشى مع طبيعة النفس، ولن ترقى إلى الله عزّ وجل، ولن تستحق الجنة إلا إذا دفعت الثمن:

فأحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعاً

***

يقول أحد العارفين بالله:

فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى.. سهولته قلنا له قد جهلتنا

أي أنْ تحب الله عزّ وجل لا بدّ من أن تدفع ثمن الحب، أن ترجو الجنة لا بدّ من أن تدفع ثمنها.

الطاعة هي المربحة:

ملخّص الدرس الماضي: من توهم أن الطاعة تضره، والمعصية تنفعه فهو جاهلٌ جهلاً مطبقاً، وليس معنى هذا أن الطاعة سهلة والمعصية صعبة، المعصية تتوافق مع رغبات النفس الأرضية، مع شهوات الإنسان، والطاعة تحتاج إلى جهدٍ، وإلى كلفةٍ، لكنها تتوافق مع العقل، وفي المدى البعيد، المعصية للحْظَتك مريحة، أما لمستقبلك في الدنيا والآخرة فالطاعة هي المريحة، هذه هي الحقيقة، فربنا عزّ وجل ردّ على هؤلاء الذين قالوا:

شبهة جاهلية والردّ الإلهي عليها:

الشبهة الجاهلية:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الردّ الإلهي:

ردّ عليهم:

الردّ الأولُ:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً)

(سورة القصص: الآية 57)

حينما كنتم في المعصية كنتم في حرمٍ آمن، فإذا آمنتم، واهتديتم فهل يعقل أن تفقدوا أمْنَكُم ؟ وأن تفقدوا بلدكم وأرضكم ؟ هذا هو الرد الأول.

الردُ الثاني:

أنتم إذا آثرتم مكتسباتكم، ومكانتكم، وأموالكم، وأرضكم، وأوطانكم، وأعرضتم عن الله عزّ وجل، ثم ماذا ؟

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59))

(سورة القصص)

الردُ الثالث:

دققوا في هذه الآية:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

مِن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، أن ينغمس في الشهوات حتى قِمّة رأسه، ألا يبالي بالناس ولا بالفقراء، أن يهتم بذاته، بشهواته، برغباته، هذا ظلم، وإذا استخدم الإنسان نِعَم الله في معصيته، إذا استخدم نعم الله في الاستعلاء على خلق الله، إذا استخدم نعم الله في الضلال، هذا أشد أنواع الظلم:

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

(سورة القصص)

فلا ينبغي للإنسان أن يمر دائماً بالأحداث مرّاً سريعاً، ولا ينبغي أن يفهمها فهماً ساذجاً، ولا فهماً بسيطاً، يجب أن يفهمها فهماً عميقاً، يجب أن يضع الميزان الإلهي في تفسير هذه الأحداث.

الردُ الرابع:

شيءٌ آخر، وهو ردٌ رابعٌ، هو أن الإنسان إذا اهتدى إلى الله عزّ وجل، ولأنه اهتدى إلى الله فقد حياته، كما قال سحرة فرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

(سورة طه)

أي لو أنكم في سبيل هدايتكم وإيمانكم بالله عزّ وجل خسرتم شيئاً من أموالكم أو حياتكم، فأنتم الرابحون، لأن الدنيا عرضٌ حاضر، والآخرة وعدٌ صادق، لأن الدنيا قصيرةٌ منقطعة، والآخرة خيرٌ وأبقى..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص)

وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

الدنيا ساعة اجعلها طاعة.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هذان لا يستويان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنَاً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

فرقٌ كبير بين المؤمن والكافر، بين مَن وعده الله وعداً حسناً، وبين مَن أعطاه الدنيا، ثم هو يوم القيامة من المحضرين، إلى هنا وصلنا في الدرس الماضي، ردّ الله على هؤلاء رداً أوّلياً، وثانياً، وثالثاً، ورابعاً.

الردُّ الخامس:

إنكم أيها المشركون إذا امتنعتم عن الهدى، امتنعتم عن أن تؤمنوا بهذا النبي العظيم، إذا آثرتم الدنيا على الآخرة، إذا آثرتم زعماءكم، وكُبَراءكم، إذا آثرتم صناديد الكفر في مكة، أن ترضوهم، وأن تخضعوا لهم، وأن تكفروا مثلهم، إذا آثرتم كلّ ذلك فانظروا ما مصيركم يوم القيامة.

لو فرضنا أنّ إنسانًا خضع لإنسان وقع في مخالفة كبيرة للقوانين النافذة، ثم استحقّ العقاب الأليم، وأن يودع في السجن سنواتٍ طويلة، فلما قيل لهذا الذي أرغمه وأجبره: انظر ماذا فعل فلان ؟ قال: ما شأني وشأنه، فليذهبْ إلى الجحيم، لو أن هذا المنظر، أو هذا الموقف الصعب اللئيم الذي فيه تخلٍ، لو أن هذا التابع عرف ما تبع سَيّدَهُ، فربنا عزّ وجل يردُّ على هؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

يردُّ رداً خامساً: إنكم إذا آثرتم الضلال، وآثرتم أن تعبدوا الأصنام، وآثرتم الكفر والشرك، وآثرتم شهواتكم، وأبيتم الهدى اتباعاً لكبرائكم وزعمائكم وقادتكم المشركين في مكة، إنّكم إن فعلتم هذا فإليكم ما سوف تكون عليه حالكم وحالهم يوم القيامة، هذا الرد الخامس.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ)

(سورة القصص: من الآية 62)

من كلمة: **(يناديهم)** يُفهَم أنهم بعيدون، وأنهم محجوبون، وأنهم صاغرون.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ)

(سورة القصص: من الآية 62)

هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة أين هم ؟ هؤلاء الذين عَبَدتموهم مِن دوني أين هم ؟ هؤلاء الذين أطعتموهم ؟ هؤلاء الذين ابتغيتم رضاهم، هؤلاء الذين ظننتم أنهم يفعلون كل شيء، هؤلاء الذي ظننتم أن بيدهم كل شيء، هؤلاء الذين أسبغتم عليهم صفات الإله، الإله هو الفَعّال هو المعبود، ولا معبود سواه، بيده الخير، بيده الشر، بيده العطاء، بيده المنع، بيده الرفع، بيده الخفض، بيده القبض، بيده البسط، بيده العِزّ، بيده الذُل، هذا هو شأن الإله، أنتم خلعتم على أشخاصٍ مثلكم صفات الإله، أولاً اعتقدتم أنهم يفعلون ما يشاؤون، وأن نفعكم وضركم بيدهم، لذلك انطلاقاً من هذا الاعتقاد عبدتموهم من دون الله، خضعتم لهم، أرضيتموهم وأغضبتم ربكم، أطعتموهم وعصيتم ربكم، رأيتم أنهم يفعلون كلّ شيء، ربنا عزّ وجل يوم القيامة:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

(سورة القصص)

هذا زعمكم هذا، وهمكم، هذا ادّعاءكم، هذا ظنُّكم، هؤلاء ليسوا شركاء.

(فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

جواب الشركاء:

1 – البراءةُ من المتَّبِعين:

الجواب لهؤلاء الشركاء، هؤلاء الذين عبدوا من دون الله، هؤلاء الكبراء، هؤلاء الزعماء الذين خضع الناس لهم في الدنيا، وعصوا ربهم.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)

(سورة القصص: من الآية 63)

أيْ حقّ عليهم قولُ الله عزّ وجل، هؤلاء الذين ظهروا بحجمهم الحقيقي عبيدٌ لله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

(سورة القصص: من الآية 63)

هؤلاء أتباعُنا الذين أضللناهم بزعمهم.

(هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

(سورة القصص: من الآية 63)

2 – الإنسان مخيّرٌ:

نحن كنا ضالين فضلّوا معنا، نحن ما عرفنا الحق ولقّناهم شيئاً آخر، نحن كنا ضالين، ودعوناهم إلى الضلال فضلوا معنا، هم مخيّرون، وليسوا مجبرين، يا رب نحن ما فعلنا معهم شيئاً، وافقت رغباتهم رغباتنا، وافقت مصالحهم مصالحنا، ضلوا كما ضللنا، ضللنا كما ضلوا، توافق، لذلك يفهم من هذا الكلام أنه ليس إنسانٌ على وجه الأرض يستطيع أن يُضِلّ إنسانًا، لأن الإنسان مخير.

كنت أضرب هذا المثل المضحك دائماً: لو أن إنسانًا ذهب إلى قسم الشرطة، وكان يرتدي ثياباً بيضاء جميلة جداً، وقد وقع في حفرةٍ فيها ماءٌ آسن، ذهب إلى هذا المخفر، وادّعى أن فلانًا هو السبب، فجيء بفلان، قال له المحقق: هذا الذي تدعي عليه دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا والله، لم يدفعني، قال له: شَهَر عليك سلاحاً، وأجبرك أن تقع فيها ؟ قال له: لا والله، الرجل لم يفعل هذا، قال له: أمْسَكَ بكلتا يديه، ورماك فيها ؟ قال: لا والله، قال: لماذا تدّعي عليه ؟ قال: لأنه أمرني أن أنزل فنزلت بها، أين اختيارك ؟ أين إرادتك ؟ أين حريّتك ؟ أين عقلك ؟ أين فكرك ؟ أين محاكمتك ؟ فاعتقدوا اعتقاداً جازماً أنْ ليس إنسان لا يستطيع أن يضلّ إنسانًا، والدليل أن الشيطان يوم القيامة يقول:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)

(سورة إبراهيم: آية 22)

(مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

لا يمكن أن يجعل الله لأحدٍ على أحدٍ سلطانًا، حتى الشيطان:

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: الآية 22)

لذلك إذا توَهّمت أن فلانًا أضل فلانًا، هذا الذي أضلّه عنده رغبةٌ في الضلال، توافقت رغبة الضَالّ مع المُضِل، توافقت الرغبتان، لذلك هؤلاء الكبراء، هؤلاء عِلْية القوم، السادة، مَن بيدهم الحل والربط، هؤلاء إذا أمروا أتباعهم أن يعصوا ربهم، إذا عصى أتباعهم ربَّهم، وأطاعوا كبراءهم لا يستطيعون أن يعتذروا يوم القيامة، لأن الله عزّ وجل أعطى كل إنسانٍ حرية الإرادة، وأعطاه حرية الكسب، وأعطاه عقلاً، وأعطاه فطرةً.

مثلاً: لو أننا أعطيناك جهازًا إلكترونيًا، إذا وضعت فيه ورق النقد يكشف لك ما إذا كان مزوراً أو صحيحاً، هذا الجهاز صغير موضوع في جيبك، فإذا قبضت دراهم مزوّرة، وانطلَتْ عليك، ومعك الجهاز لفحصها، ولم تفحصها، ألست مسؤولاً ؟ أين هذا الجهاز ؟ لمَ لمْ تستعمله ؟ يكفي أن تضع هذه الورقة النقدية عليه حتى يظهرُ على الشاشة ما إذا كانت هذه العملة مزوّرة أو صحيحة، القضية سهلة جداً، والجهاز في جيبك، فهذا الذي يقول: أنا انطلى علي ذلك، هذا نقد مزور، ما كنت أعرف ذلك، نقول له: لا.. لا عذر لك، الجهاز معك، هذا مَثل، وكذلك العقل، الله عزّ وجل أعطاك مفتيًا صغيرًا، وهو قلبك.

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ، فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ: اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلَاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أحمد، الدارمي]

أعطاك عقلاً دقيقًا، معك ميزان عقلي، وميزان فطري، فإذا لم تستجب لهذا الميزان العقلي، ولا لهذا الميزان الفطري فأنت المسؤول، يقول أحدُهم: فلان أضلّني، لا.. وهذا الذي يقول: لعَن الله الشيطان، هو الذي أغواني، هذا كلام فارغ، كلام غير مقبول إطلاقاً، لذلك هؤلاء الذين حقّ عليهم القول:

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

(سورة القصص: الآية 63)

(هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

بزعمهم، هؤلاء الذين أضللنا بزعمهم.

(أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

نحن كنا ضالين، كنا غاوين فأضللناهم معنا، والدليل:

(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

هم عبدونا في الظاهر، ولكن رغبتهم وافقت دعوتنا.

(مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ

أي ما كانوا مجبَرين يا رب، ما كانوا مقهورين، هم ضلوا باختيارهم، وافقت شهواتهم دعوتنا، فضلوا على أيدينا، ولكنهم هم المسؤولون، لو فرضنا إنسانًا يرغب أن يسرق، وجاءه صديق له، وقال له: أتسرق معي ؟ قال له: نعم، فإذا وقعا في قبضة العدالة فلا حجة لأحدهما، هذا لماذا قبلت ؟ أنتَ مخيِّر، بملءِ اختيارك قبلت أن تسرقَ معه، هل يقول: أنا لا علاقة به، هو الذي أمرني ؟ أيُقبل هذا ؟ لا يقبل هذا، لا يقبل لإنسان وقع في مخالفةٍ للقانون أن يقول: فلان أمرني، نقول له: أين عقلك ؟ أين اختيارك ؟ أين مُفتيك الصغير ؟ أين الميزان الذي أعطاك الله إياه ؟

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9))

(سورة الرحمن)

عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك:

سوف أعطيك ميزانًا صغيرًا، حديثٌ صغير جداً قاله النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الحديث أنت لا تحتاج إلى شيءٍ كبير في تطبيقه، آخر قال عليه الصلاة والسلام:

((عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك))

[ورد في الأثر]

أنت بائع، يقول لك الله عزّ وجل: لِمَ غششت فلاناً ؟ فبماذا تجيب ؟ لو أن الله عزّ وجل قال لك: لو أنك أنت المشتري، وهو البائع، أترضى منه أن يغُشّك ؟ تقول له: لا والله لا أرضى، لِمَ قلت هذه الكلمة لفلانة في الطريق ؟ لو أنها أختك، وإنسان قال لها هذه الكلمة أترضى منه هذا ؟ تقول: لا والله لا أرضى، هذا مقياس دقيق جداً، لِمَ تعامل زوجة ابنك هذه المعاملة ؟ لو أن ابنتك في بيتٍ أترضى أن تعامل هذه المعاملة ؟ تقول له: لا والله، هذا مقياس.

((عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك))

إذاً:

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ)

مِن مسؤولية غواياتهم، أي نحن يا رب لسنا مسؤولين، لأنهم ما كانوا إيّانا يعبدون، هم أحرار في كسبهم، هم أحرار في اختيار سلوكهم، وعقيدتهم، ومواقفهم، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ)

(سورة القصص: الآية 64)

موقف عصيب بين الأتباع والمتبوعين: وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

الآن توجّه الله عزّ وجل إلى هؤلاء الأتباع الضالّين قال لهم: ادعوا شركاءكم ليُنقذوكم من النار، ادعوهم ليدافعوا عنكم، موقف عصيب بين الأتباع والمتبوعين، بين الكبراء والصغار، بين عَلِيّة القوم وبين الدهْماء، الإنسان يقول: الناس كلهم هكذا، هذا كلام باطل، ما أفعل ؟ **" ضع رأسك مع الرؤوس"!!!** هذا كلام الشيطان، كلام الجاهل، كلام الغبي، كلام التافه، كلام ضعيف الشَخْصِيَّة، أخي هكذا البيئة، هكذا التقاليد، هكذا العادات، أنا ابن بيئتي، ابن مجتمعي، ابن معطيات المجتمع، كله كلام مزخرف فارغ، الله عزّ وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من الآية 286)

انظر إلى هذا الموقف، أنتم يا أهل مكة إذا رفضتم أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، إرضاءً لكبرائكم، وزعمائكم، وقادة الشرك فيكم، إذا رفضتم الهدى إرضاء لهؤلاء الكُبَرَاء، فانظروا ماذا سيكون بينكم وبينهم الموقف يوم القيامة، سوف يتبرءون منكم، وسوف يكفرون باتِّباعكم لهم، وسوف لا يعتذرون عنكم.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63))

(سورة القصص)

الإنسان حرٌ في كسبه، وربنا عزّ وجل تَوَجّه ثانيةً إلى هؤلاء الأتباع..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

إنه مشهدٌ عظيمٌ: فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُون

تصوّر جماعة من اللصوص لهم كبير، وكان يدّعي ويَتَبَجّح بقوله: لا تخافوا، أنا أحميكم، أنا أمنعكم، أنا، أنا، فإذا وقعوا في قبضة العدالة، وصُوّروا أذِلاَّء حُقَرَاء، وجاء التحقيق الشديد، ماذا يقول هذا

اللص ؟ يقولون له: أين وعودك لنا ؟ أين حمايتك ؟ أين هذه الحركة، دعوها لي ؟ إنه موقف مُخْزٍ، فالإنسان ليس معذوراً يوم القيامة، أخي والله استحييت، ما هذا استحييت ؟ أتستحي من الناس، ولا تستحي من الله عزّ وجل، خجلت يا أخي، الناس كلهم هكذا، كل شيء تقوله بناءً على ضغط الناس، وعلى توجيههم، وعلى تقاليد بالية، وعادات مزيّفة، وعلى ضغط اجتماعي، هذا كله باطل يوم القيامة، لذلك اسعَ لرضاء الله عزّ وجل، ولا يهُمّك شيء:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب: الآية 37)

أنا أعتقد أن هناك آلاف المعاصي يفعلها الناس حفاظاً على سمعتهم في المجتمع، لكي لا يتكلم أحد عليهم، آلاف المعاصي تقترف حفاظاً على مكانتهم، هذا الذي يعصي الله، ويُرْضي إنساناً ليكن هذا موقفه يوم القيامة، ربنا عزّ وجل رحمةً بنا أعطانا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، قبل أن يحْصُل، هذا موقفكم من كبرائكم إذا اتبعتموهم وعصيتم ربّكم.

(وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

ولكن لا ينفع الندم عند ساعة الندم.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

احذروا هذا السؤال: مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ

فالإنسان جاءه من الله خطاب، جاءه قرآن، جاءته سنة، استمع إلى خطبة الجمعة، إلى توجيه الله عزّ وجل، وإلى توجيه النبي صلى الله عليه وسلم، ماذا كانت إجابتك ؟ ماذا كان موقفك ؟ ماذا كان رد فعلك؟ ماذا فعلت ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا منعت ؟ من وصلت ؟ من قطعت ؟ هل غضبت لله ؟ هل رضيت لله ؟ ما الموقف الذي وقفته في سبيل مبدئك ؟ ماذا أجبتم المرسلين ؟ الله عزّ وجل يقول في كتابه العزيز:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

هذا القرآن اعتقده قرآنا أو غير قرآن، إن كان قرآنا فماذا فعلت ؟ إذا كان غير قرآن فهل بحثت في هذا الكتاب، وتأكّدت أنه كلام الله ؟ هل معك حجةٌ قوية على أنه ليس كلام الله ؟ خُذْ موقفًا واضحًا، هذا الموقف المائع الضبابي الزئبقي، تبرُّك فارغ، تعصيه، وتتبَرّك به، تمسك المصحف تقبله من ستة وجوه، لأنه كتاب الله، وفي التعامل اليومي لا تأخذ بأحكامه، في التعامل المادِّي لا ترعى له حقاً، في

التعامل الأخلاقي لا تقيم له وزناً، في كسب المال لا تهْتَم بأوامره، في إنفاق المال لا تنضبط بنواهيه، في علاقتك بأهلك وأولادك تفعل الذي يحلو لك، ومع ذلك تتبَرّك به، هذا موقف مائع، موقف ضبابي، موقف غير واضح، فإما أن تؤمن به على أنه كلام الله بالحجة القاطعة والدليل القاطع، وعندئذٍ أنت أمام موقف حرج، إما أن تعصي الله عزّ وجل، وإما أن تطيعه، أما أن يكون إيمانك به إيماناً شكلياً، وأنت تخالف مضمونه فليس هذا من خلق المسلم:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

فلان دعاك إلى الله، قل له: إما أنك كاذب أو صادق، صادق افعل ما يقول لك، طالبه بالدليل، هذا الذي ينقل العلم ليس عنده شيء، **<< إنما أنا متّبع ولستُ بمبتدع >>**، هكذا قال سيدنا الصديق، **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

لا يستطيع العالِم أن يفعل شيئاً إلا أن ينقل لك كلام الله وسنة رسول الله، وتنتهي وظيفته، ليس عنده شيء، ماذا أجبته ؟ما الموقف الذي وقفته ؟ ما المعصية التي تركتها بناءً على توجيهه ؟

مرة ركبت مع أخ في سيارته، سألته عن هذه السيارة: متى اشتراها ؟ سؤال عابر، لكن الله ألهمني هذا السؤال، قال لي: أنا ليس عندي مركبة، وضاقت نفسي كثيراً، بيتي بعيد، وعملي بعيد وأولادي كُثُر، وليس عندي ذكور، وكنت لا أعرف أوامر الشرع اشتريت ورقة (يا نصيب) لعلّي أربح الجائزة الكبرى، أو أقلّ من الكبرى، فأقتني مركبة، بعد أن اشتراها بيومين دخل إلى مسجد ليصلي صلاة الجمعة، فإذا موضوع الخطبة عن اليانصيب، قال: والله حينما أيقنت أنها حرام سحبت الورقة من جيبي ومزّقتها، يقول هذا الأخ: أنه بعد أيام وأسابيع جاءته صفقة كبيرةٌ جداً ما كان يعهدُها من قبل، واستطاع أن يوفِر ثمن هذه المركبة التي يركبها الآن، فأنا تأثرت، ودمعت عيني، قلت: كأن الله عزّ وجل يقول له: أنت يا عبدي، مزّقت هذه الورقة خوفاً مني، وأنا أبقيك بلا مركبة ؟ أنت لماذا مزّقتها ؟ خوفاً مني، ذكرت هذه القصة، هو حينما قال الخطيب: هذا حرام سحب الورقة ومزّقها، هذا الجواب:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

مزّق الورقة، قيل لك: لا ينبغي أن تجلس مع نساء أجنبيّات، ماذا أجبت المرسلين بهذا الحكم ؟ يجب أن تمتنع عن كل سهرةٍ مختلطة، قيل لك: هذا الكسب فيه شبهة الربا، ماذا أجبت المرسلين ؟ الإجابة أن تمتنع عن هذه الصفقة، أو عن هذه الطريقة في التعامل، هذه الإجابة قيل لك: إن هذا العمل حرام، ماذا أجبت المرسلين ؟ قيل لك: يجب أن تؤدِّي زكاة مالك، ماذا أجبت المرسلين ؟ قيل لك: ينبغي أن تحرص على أن تكون زوجتك في مظهرٍ إسلامي، ماذا أجبت المرسلين ؟ الإجابة تعني رد فعلك، ما ردُّ فعلك ؟ ما موقفك ؟ ما العمل الذي فعلته تطبيقاً لهذا التوجيه الإلهي ؟ ما الشيء الذي تركته في سبيل الله ؟ ما

الذي فعلته ؟ ما الذي أنفقته، ما الذي منعته ؟ لماذا رضيت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا وصلت ؟ لماذا قطعت ؟ أي:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

أي ما المواقف التي وقفتموها بناءً على توجيه الله لكم ؟ ماذا وقفت ؟ كيف اخترت زوجتك بعد أن قال الله لك:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

هذا كلام الله عزّ وجل، وإذا بحثت عن امرأةٍ كي تكون لك زوجة كيف تختارها في ضوء هذه الآية ؟ يجب أن تختارها مؤمنة قبل كل شيء، لأنها أمُّ أولادك، ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من الآية 77)

أنت ماذا أجبت المرسلين بهذه الآية ؟ انهمكت إلى الدنيا ؟ غصت فيها ؟ أم بقيت فيها في حدود الشرع؟

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66))

(القصص)

هذا هو حالُهم: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُون

من التصوير البلاغي في القرآن: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء

هذه صورة من أروع الصور، العمى يجب أن يصيبهم هم، قال: لا.. الأنباء عَمِيَت عليهم، أي جاءتهم الأنباء، ولكنها لم تصل إليهم، كانوا في عُزْلةٍ شديدة، أي أن شقاءهم، وخجلهم، ودناءتهم، وصغارهم كأنّهم في معزلٍ عن الأخبار، لم تعمَ قلوبهم، بل عميت عنهم الأخبار.

إنّ الإنسان أحياناً يكون في هم كبير جداً، وأخبار مثيرة جداً لا يسمعها، لا يفهم منها شيئاً، ألم نقل لك: أن فلانًا توفي ؟ يقول لك: والله لم أنتبه، معنى ذلك أنه داخل في عزلة شديدة، داخل في همّ كبير، داخل في قضية أنسته كل شيء، هذه معنى قول الله عزّ وجل:

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ)

الإنسان أحياناً يأتيه خبر ينسيه كل خبر، تأتيه قضية تنسيه كل قضية، تأتيه مشكلة تنسيه كلّ مشكلة، حينما عرف أنّه في شقاءٍ أبدي، وأن هذه الجنة التي وعد الله بها المؤمنين خسرها خسارةً أبدية، وأن

كل خسارةٍ في الآخرة لا تعوّض، في الدنيا التاجر يفلِس، ومع ذلك بعد سنوات فإنه يعود كما كان، الطالب يرسب في صفه، ولكنه يعيد السنة فينجح، فكلما جاءت مشكلة في الدنيا فإن هناك تعويضا، وهناك تصحيحًا، أما يوم القيامة فإن هذه الخسارة خسارةٌ أبدية، فلما أيقن أنه خسر الآخرة، وخسر الجنة، وأنه في جهنم، وبئس المصير إلى أبد الآبدين، دخل في عزلةٍ شديدة، ودخل في ألمٍ شديد، لذلك إضافةً إلى العذاب المادِّي إلى عذاب النار الذي ألْمَحْ به القرآن:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: من الآية 56)

إضافةً إلى هذا العذاب المادي هناك عذابٌ نفسيٌ لا يحتمل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[الجامع الصغير عن جابر بسند فيه]

إذا فاتَ الإنسانَ شيء ثمين جداً في الدنيا خسر خسارة كبيرة جداً، ضيّع فرصة ثمينة جداً لا تعوّض، يقول لك: أحسست أن قلبي سيقف، شعرت بضيق لا يحتمل، ضاقت عليّ الأرض بما رحُبَت، هذا عذاب الدنيا فيكف بعذاب الآخرة ؟ فلذلك ربنا عزّ وجل سرّب لنا هذا السؤال، في الآخرة توجد أسئلة، يوجد امتحان صعب، لكن رحمة بنا فإن ربنا عزّ وجل هذه الأسئلة أسرّبها لنا في الدنيا من خلال هذه الآيات، السؤال الخطير هو:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

ماذا قدَمـتَ ؟

أي ماذا فعلت ؟ قال له: يا عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ يا ربِ تركت الدنيا زهداً بها وحباً بك، وفعلت كذا، فقال له: أما زهدك فقد تعجّلت فيه الراحة لقلبك، وأما كذا فلك، وكذا فلك، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ تقول: أنا أغض بصري، هذا شيء جميل، بارك الله بك، ولكن أرَحْتَ نفسك، ودخلت في الصفاء والروحانية، أو تقول: أنا دخلي حلال، بارك الله بك، فأنت ضمنت أن يكون مالك محفوظًا، أو تقول: أنا ليس عندي اختلاط، بارك الله بك، كذلك ضمنت حياة مستقرة ليس فيها فتن ومشكلات، ولكن ماذا قدّمت ؟ بماذا ضَحّيت ؟ ماذا فعلت من أجلي ؟ ما الشيء الثمين الذي قدّمته ؟ هذا هو السؤال: ماذا أفعل من أجلك ؟ يقول لك: هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت فيّ عدواً ؟ هل قدّمت خدمة لمسجد ؟

ساهمت ببناء مجتمع مسلم ؟ قدمت لبنة في بناء خيريّ ؟ علّمت الناس العلم ؟ عاونت على نشر الحق ؟ كنت دعمًا للحق ؟ وهّنت الباطل وقويت الحق ؟ نصرت المؤمنين ؟ عاونتهم وساهمت بفعل خير ؟ ماذا فعلت من أجلي ؟ السلبيات جيدة جداً، ولكنها غير كافية.

إذا كان الطالب في المدرسة طالبا ملائكيًا، لا يؤذي أحدًا، ولا يضرب زميله، نظيف، ساكت، هادئ، ولكنه لا يدرس، في آخر السنة السلوك جيد جداً، والنتيجة رسوب، في الرياضيات ضعيف، في الفيزياء ضعيف، في العربي ضعيف، السلوك جيد، والنتيجة رسوب، ولكن ماذا فعلت من أجلي، ماذا قدّمت ؟ السؤال دقيق، بماذا تلقى الله غداً ؟ قال له: **يا فلان لا صدقة، ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً** ؟ هذا السؤال أخطر سؤال بالنسبة لنا، بماذا تلقى الله يوم القيامة ؟ ما العمل الذي تقدمه لله عزّ وجل ؟ يا ربِ اشتريت بيتًا، آويت نفسك، ويا ربِ زينته، عملت هكذا، ورتبت أموري، نظّمت أموري، أنا أنيق بلباسي، مرتّب، عندي أذواق في الطعام والشراب، لي أذواق بالرحلات والسياحة، هذا الكلام لا يُحكى كله، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟

يقولون: إن أحد الصحابة جاء النبي عليه الصلاة والسلام ليجاهد معه، ولكن هذا الصحابي كان فقيراً لا يملك دابةً يركبها، فالنبي ردّه لأنه لا يوجد دواب، حينما ردّه انهمرت عيناه بالدموع، فربنا عزّ وجل إكراماً له ذكره في القرآن الكريم:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)

(سورة التوبة: آية " 92)

عاد إلى البيت، فناجى ربه وقال: يا ربِ، أنا لا أملك شيئاً، لكنني تصدّقت بعرضي على المؤمنين، فأي مؤمنٍ شتمني، أو نال مني أُشْهِدك أني سامحته، يقال: إن النبي قال في اليوم الثاني: **من تصدّق الليلة ؟** هذا شخص لم يدفع شيئًا، ليس معه شيء، لأنه فقير جداً، النبي أُخبر من قِبل الله عزّ وجل أن الله قَبل صدقته، الله عدّها صدقة، تصدّق بعرضه على المؤمنين، أي أن أي مؤمن شتمه أو نال منه قال: يا ربِ أنا أسامحه، وهذا الذي أملكه.

القصد من القصة أنه يجب أن تقدم شيئاً، دعوة، عملاً صالحًا، خدمة، صدقة، معونة، مساهمة في بناء مسجد، مساهمة في خدمة الناس، رعاية لأولادك، خدمة لإنسان لا تعرفه، لابدّ من أن تقدِّم شيئاً، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح يرفعه: **لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً؟.**

أحياناً أب مثالي ربىَ أولاده حتى كبروا، زوّجهم وأرشدهم، علّمهم، ربّاهم، حتى جعلهم عناصر طيبّة في المجتمع، ربىَ بنات على طاعة الله، على حفظ القرآن، على طاعة الزوج، حجّبهم، إلى أن زوّجهم، أي أن هذا حد أدنى، أولادك شهادتك، حد أدنى، بيت مسلم، بيت منضبط، اشتغل، عمل، قدّم للمسلمين

سلعة نظيفة، متقنة، سعرها معتدل، لم يكذب عليهم، ولا غشهم، ولا استعلى عليهم، ولا استغل حاجتهم لهذه السلعة، كان منصفًا، هذا عمل تَلقى الله به، إنسان له والدان أكرمهما، النبي الكريم يقول:

((رغم أنف عبد أدرك والديه فلم يدخلاه الجنة))

[مسلم عن أبي هريرة]

أي أنك إذا أكرمت والديك، وكنت باراً بهما فهذا العمل يكفي أن تلقى الله به.

عندك بر الوالدين، هداية الزوجة والأولاد، إتقان العمل في صنعتك ومهنتك، عدم غش المسلمين، قلنا لك سابقا: إن حرفة الإنسان ومهنته إذا كانت مشروعة في الأصل، ومارسها بطريقةٍ مشروعة، لم يكذب، لم يغش، لم يدلِس، وابتغى بها أن يكفي نفسه وأهله، وأن ينفق من المال الذي كسبه منها في طاعة الله، وابتغى منها نفع المسلمين، ولم تشغله هذه الحرفة عن طاعة الله ؛ لا عن صلاةٍ، ولا عن مجلس علمٍ، هذه الحرفة نفسها هي عبادة لله عزّ وجل، أي يجب أن تنقلب أعمالك من عادات إلى عبادات، قمنا الصبح وأكلنا، وذهبنا إلى الشغل، وفتحنا المحل، الظهر تغذينا ونمنا، وعشية عندنا سهرة، هذه عادات، يجب أن يكون الطريقُ واضحاً، إذا فتحت باب محلك التجاري لماذا أنا أعمل هذا العمل ؟ يجب أن أبتغي بهذا العمل وجه الله، يجب أن أخدم المسلمين، يجب أن أكسب مالاً أنفقه في طاعة الله، يجب أن أكفي أهلي وأولادي، يجب أن يكون عملك خالصاً لله، حتى مهنتك، حتى حرفتك، حتى تربية أولادك، حتى لو أخذت أهلك نزهة، إنك بهدف أن تُدخل على قلبهم السرور، من لهم غيرك؟ حتى إذا جلست مع أهلك مساءً هذه الجلسة من العبادة، حتى إذا اشتريت ثياباً لبستها إنَّك تمثل المسلمين، تمثِّل هذا الدين العظيم، لا ينبغي أن يكون في مظهرك نقدٌ، أو شيءٌ تنتقد فيه، لذلك المؤمن كل أعماله خالصة لوجه الله، حتى لو أخذت قسطاً من الراحة، النوم يُكتب لك عبادة، لأنك تنام لتقوى على طاعة الله عزّ وجل، إذا دخلت في هذه المعرفة انقلبت أعمالك كلُّها عبادة، إذاَ:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67))

(سورة القصص)

آهٍ لولا رحمة ربي: فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ

تاب وآمن وعمل صالحاً، تاب عن كل ذنبٍ سبق منه، وآمن بالله، ومن مقتضيات الإيمان بالله أن يكون عمله صالحاً فعسى إن كان مخلصاً..

فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ

(أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

وكلمة (عسى) جاءت تحفظاً من أجل الإخلاص، فعسى إن كان مخلصاً..

(أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

الردُّ السادس:

الرد السادس على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة القصص)

ربنا عزّ وجل يخلق ما يشاء، هو الخلاّق، هو الخالق لأفعال عباده، هؤلاء الذين خافوا أن يخطفوا إذا اهتدوا، من هو الفعال ؟ هو الله عزّ وجل، هل هناك فاعل إلا الله عزّ وجل ؟ هل يقع فيه ملكه شيءٌ ليس من إرادته ؟ أنتم إذا خِفْتُم من بني البشر فإن هذا الخوف فيه شرك، لمجرّد أن تخاف من إنسان، ولا تخاف من الواحد الديّان فهذا أحد أنواع الشرك، لأنك اعتقدت أن هذا الإنسان فيه قوة، بيده أن يفعل شيئاً، بيده أن ينفع، بيده أن يضُر، هذا الاعتقاد شرك، فإذا خفت أن تتخطف من أرضك، وأن تفقد حياتك على يدِ هؤلاء الذين تخاف منهم فهذا نوعٌ من أنواع الشرك:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

هو الخالق، هو خالقٌ لأفعال عباده، ماذا قال سيدنا هود ؟ قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

أي وحوش كاسرة كلها مربوطة بأزمّة محكمة بيدِ عليمٍ، حكيمٍ، قديرٍ، عادلٍ، منصفٍ، لطيفٍ، خبيرٍ، غنيٍ، قويٍ، فإذا خفت من هذه الوحوش، ولم تر تلك الأزمّة التي تربطها بهذه اليدِ العليمة الحكيمة فأنت

لا تعرف شيئاً، لمجرد أن تخاف من إنسان فهذا الخوف فيه معنىً من معاني الشرك، يجب أن تعتقد أن هذا الإنسان ليس بيده شيء، الأمر بيدِ الله عزّ وجل، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَاعْلَمْ أَنّ الْأُمّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفّتْ الصّحُفُ))

[الترمذي عن ابن عباس]

إذاً علاقتك مع الله عزّ وجل:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

لمجرّد أن تخاف من إنسان فهذا نوعٌ من الشرك، أما هذا الإنسان إذا سمح الله له أن يصل إليك يصل إليك، أنت تخاف من الله قال له:

((موسى خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني))

[ورد في الأثر]

لا خيار لأحدٍ أمام أمر الله: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

أن أسمح له أن يصل إليك طبعاً. ويختار من الشرع الحكيم، والتوجيه الصحيح، والأمر النافع، والنهي عن كل شيء ضار، يختار:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(القصص: آية " 68)

فأمام أمر الله ليس لك اختيار، لا تقل: أنا رأيي كذا، أنا أرى كذا، لا أعتقد أن هذا الشيء لهذا الزمان صالح، أن تُدْلي برأيٍ مع أمر الله عزّ وجل، ومع نهيه هذا بعيدٌ عن أن تؤمن بالله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية 36)

الله عزّ وجل أمرك بغضّ البصر، والله أنا رأيي أنه لا أغض بصري غضًّا كاملاً، أنا لا أنظر بشهوة، بل أنظر بلا شهوة، أنت عندك حل وسط، عندك رأي ثانٍ، فالآية لستَ مقتنعاً بها، فاتخذت حلاً آخر، هذا خلاف الإيمان كله:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية 36)

مع أمر الله ليس هناك اختيار، هو الخالق، هو الصانع، هو الخبير، هو العليم، أنت لا شيء هو العالم، هو العليم، هو الحكيم، إذاً:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

ويختار لهم من الشرائع:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة القصص)

إن شاء الله نعود لهذه الآية مرة ثانية في الدرس القادم لأهميتها الكبيرة ولما تنطوي عليه من معانٍ دقيقة، ونتابع ردود الله عزّ وجل على مقولة هؤلاء الكفّار:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (13-18): تفسير الآيات 64 - 72

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-08-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة القصص، لا زلنا في الآيات التي ردّ الله بها على قول كفّار مكة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ)

(سورة القصص: من الآية 64)

تذكير بما سبق:

لو أن الإنسان أحجم عن الهدى أو رفض الهدى، أو لم يعبأ به، اتباعاً لكبراء القوم، وانصياعاً لسادتهم، وإرضاءً لأسياده، فالله سبحانه وتعالى قصّ علينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، حيث يتخلى هؤلاء الكبراء عن أتباعهم..

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)

(سورة القصص)

أي يدّعون أننا أغويناهم..

(أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

فليسوا مقهورين، بل هم مخيّرون، وإنما وافقت شهواتهم دعوتنا فظلوا معنا، إذاً: يُستَنتج من هذه الآية أنه لا يستطيع أحد أن يُضِلّ أحداً، لسببٍ بسيط هو أنه لا سلطان لأحدٍ على أحد من حيث التفكير والسلوك، والدليل:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

(وَقِيلَ ادْعُوا)

هذا شُرِحَ في الدرس الماضي.

(مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(سورة القصص)

ولكن الوقفة التي ينبغي أن نقف عندها..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

(سورة القصص)

المفهوم الواسع للآية:

لَا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ:

أي إذا جاء العذاب، فهذا الذي أطعته، وعصيت الله عزّ وجل، هل يستطيع أن يصرف عنك العذاب ؟ وهذه الآية لو وَسّعنا مفهومها في حياتنا اليومية، أي لو أن إنساناً أطاع شخصاً، وعصى الله عزّ وجل، واقتضت هذه المعصية عقاباً من الله عزّ وجل، فهذا الذي أرضاه، وأطاعه هل يستطيع أن يمنع عنه هذا العذاب ؟ الجواب: لا يستطيع، لذلك:

((لَا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ))

[أحمد عن علي]

وقبل أن تطيع فلاناً، وتعصي الله فَكِّر ملِياً لو أن مرضاً خبيثاً عضالاً أصابك، هل بإمكان الذي أرْضَيته، وعصيت الله عزّ وجل أن يصرفه عنك ؟ ولو أن فقراً شديداً قدّره الله عليك فهذا الذي أطعته، وأرضيته، وعصيت الله فهل بإمكانه أن يصرفه عنك ؟ فأجمل تعليقٍ يقال في هذه الآية حينما قال أحد التابعين لوالٍ من ولاة يزيد، وقد جاءه توجيهٌ من يزيد بخلاف ما أمر الله عزّ وجل، فقال: ماذا أفعل ؟ فقال هذا التابعي الجليل: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

فقبل أن تعصي الله، وقبل أن ترضي الناس، وتُرضي شريكك، وزوجتك، ومَن هو فوقك، قبل أن ترضي مَن هو دونك، قبل أن ترضي جارك، ورفقاءك، أي حينما تُرضي أشخاصا، وتعصي خالق الكون، هؤلاء الأشخاص على كثرتهم وقوّتهم، واتصالهم الشديد، وحبهم لك فهل بإمكانهم أن يمنعوا عنك مصيبةً قدّرها الله عزّ وجل ؟ لا، بل يتعاطفون معك بكلماتٍ معسولة، إذ يقولون لك: والله نحن تألّمنا لهذا المصاب كان الله بعونك، وإذا كان الأجل أرسلوا إكليلاً من الورود وعليه عبارةٌ لطيفة، وانتهى الأمر، هذا كلُّ ما يفعله الناس إذا أرضيتهم، وعصيت الله عزّ وجل..

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)

(سورة القصص)

عدم استجابة الشركاء لمتّبعيهم:

هؤلاء الذين ادّعَيْتُم أنّهم آلهة، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام قالوا: اللات والعُزّى آلهة، وإذا كنتَ في عصرٍ آخر توَهّمت أن شخصاً ما بيده الخير والشر، فبيده أن ينفعك أو أن يضرك، وأنت لم تقل: إنه إله، ولكنك أعطيته صفات الإله، فإذا توَجّهت إليه بكليّتك، ورأيت أن غضبه خطير، وأن رضاه كبير، فإنّك جعلته إلهاً وأنت لا تدري، ليست العبرة أن تقول: هذا الإنسان إله، هذه لا يقولها أحد، وفي عصر النبي والعصر الجاهلي كانوا يقولون: إن ودّاً ويغوث ويعوق ونسرا آلهة، ولكن عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

إذا اتجهت نفسك إلى الأشخاص لترضيهم، وهم في نظرك كبار جداً بيدهم نفعك وَضَرّك فهذا الشيء، هو الذي يعيق الإنسان عن طاعة ربه، فلذلك..

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ

لو أنهم كانوا يهتدون إلى الله عزّ وجل لما عبدوهم، ولما أطاعوهم، ولا خضعوا لهم، واستسلموا لمشيئتهم، ولما رأوا حجمهم كبيرا، ولكن يرون الله أكبر، فهذه كلمة (الله أكبر)، والله لو أن الإنسان قالها ألف مرة، وأطاع مخلوقاً، وعصى ربه ما قالها ولا مرة، لأنك لو رأيته أكبر من هذا لما عصيته، دائماً لو أنه جاءك أمر من شخص مهم وشخص أقل أهمية، ترعى حق المهم، لمجرد أن تطيع الله عزّ وجل، وأن تعصي زيداً أو عبيداً، ولو لم تقل بلسانك: الله أكبر قلتها بنفسك، أما بمجرد أن تعصي الله عزّ وجل كي تطيع إنساناً فأنت في أعماقك، بل في شعورك، بل لسان حالك يقول: فلانٌ أكبر من الله، لأنك أطعته، وعصيت الله، إذاً:

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(65))

(سورة القصص)

وقفت في الدرس الماضي وقفة أخرى عند هذه الآية:

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ

ليست العبرة أن تجيب، فأنا أذكر طبيباً نصح مريضاً بترك التدخين، ونصحه في وجودي، وكنت معه، وبعد أشهرٍ عِدّة أصابه مرضٌ عضالٌ بسبب التدخين، فهذا المريض سكت لم يجب، الطبيب نصح، والمريض سكت، ما هي الإجابة ؟ لو أنه هزّ برأسه فليست هذه هي الإجابة، فما موقف هذا المريض من التدخين ؟ هل امتنع عنه ؟ إذاً: أجابه بالإيجاب، وهل تابع التدخين ؟ إذن أجابه بالسلب.

فما موقفك من هذه الدعوة ؟ وما موقفك من هذا الأمر الإلهي ؟ ما موقفك من هذا الحكم ؟ ومن هذا التوجيه ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

ما الموقف الذي وقفتموه ؟ هل ناصرتموهم ؟ وهل عاديتموهم ؟ أو صدّقتموهم ؟ أم كذّبتموهم ؟ واستجبتم لدعوتهم ؟ أم رفضتم هذه الدعوة ؟.

(مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66))

(سورة القصص)

لا مخرج إلا بالتوبة:

دائماً وأبداً الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة، فما من شيءٍ يبُثُّ الأمل في النفس أشدّ من أن الله سبحانه وتعالى جعل باب التوبة باب النجاة، فالتوبة صمّام أمان، فإذا زاد الضغط على الإنسان تأتي التوبة صمّام أمان، وإذا غرق الإنسان في ذنوبه تأتي التوبة حبل نجاة، وإذا أُحْكِمَت عليه السبل كانت التوبة باب الخلاص، فكلّما ضاقت بك الأمور، وسُدّت أمامك السبل فالله سبحانه وتعالى يفتح لك باب التوبة..

(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

(سورة القصص)

إن كلمة (عسى) تفيد الرجاء، وترجيح الرجاء، وهذا الذي يبقى، والذي يُخِلُّ بصِحّة التوبة وبصحة الإيمان هو عدم الإخلاص، فإذا كان مخلصاً:

(فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

الردّ القرآني السادس على قول المشركين:

والآن جاء الردُّ السادس على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

(سورة القصص: الآية 68)

مشيئة الله مطلقة صحيحة: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

مشيئة الله عزّ وجل مشيئةٌ صحيحة، لأن الإنسان أحياناً قد يختار شيئاً وهو مكرهٌ، ومضغوط عليه، وقد يختار شيئاً بدافع الرغبة والإغراء، فإذا كان الإنسان تحت تأثير الضغط أو الإغراء يختار شيئاً غير صحيح، وغير حكيم، وقد يكون جاهلاً، أو مُسَيَّراً، فمشيئة الإنسان ليست كمشيئة الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، وليس في الكون كلِّه جهةٌ تستطيع أن تمنع الله أن يفعل ما يشاء، ولا أن تدفعه إلى أن يفعل ما لم يشأ، والله حكيمٌ وعليمٌ وقديرٌ وغنيٌّ، إذاً: مشيئته هي المشيئة الصحيحة.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

يخلق ماذا ؟ عندنا خلق تكويني، أي لا يقع في الكون فعلٌ إلا بمشيئة الله، فهذه الفكرة استيعابها سهل، أما أن تعيش هذه الفكرة فقد طهرت نفسك من كل قلق، فإذا شعرت أن هذا الكون العظيم بمجَرّاته، وبسماواته وأرضه، وبالبشر جميعاً الأقوياء منهم والضعفاء، وبالذين يملكون أسلحةً فتّاكة، فإذا شعرت أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم، وهو العليم، وهو العادل، وهو القدير، وهو اللطيف، إذاً: هذا التشعُّب، وهذا التشرذم والضيق والشرك هو الذي يأكل القلوب.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

أساساً: من علامات قيام الساعة كما قال الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: الآية24)

أي شعر بعض البشر الأقوياء أنَّهم قادرون عليها، أن الأرض كلّها في قبضتهم، يرون ما يشاءون، ويفعلون ما يريدون، ولكن الله سبحانه وتعالى كذّبهم في آياتٍ كثيرة، فقال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: الآية 10)

قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: الآية 56)

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذن الله عزّ وجل:

الفكرة هنا أنه لا يقع شيءٌ في الكون، ولا يحدث حادث، ولا يتحرّك متحرّك، ولا ينطلق حجر، ولا يهبط بناء، ولا يتزلزل جبل، ولا ينفجر بركان، ولا يفيض نهر، ولا تشحُ الأمطار إلا بإذن الله عزّ وجل، هذا هو جوهر الإيمان، إذا شعرت أن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء.

أفعال العباد فيها للإنسان الكسب فقط، أو الانبعاث إلى العمل، فأنت تختار أن تذهب إلى المسجد، وعن هذا الاختيار الله سبحانه وتعالى يعطيك القوة كي تُحَقّقه، فمجيئك إلى المسجد هو باختيارك، ولكنه بفعل الله عزّ وجل، وإذا أراد إنسان أن يؤذي إنساناً، فالإنسان له المشيئة والاختيار، والكسب والانبعاث، ولكن القوة التي يؤذيه بها هي قوة الله عزّ وجل، وهذا هو التوحيد، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، أي أن الأشياء لا تفعل بذاتها، بل بمشيئة الله، عندها لا بها، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

الأفعال كلها من خلق الله، فهذا الذي يقول:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

كأنّه مُشْرِك، وكأنه يرى أن الله عزّ وجل لا دخل له بأفعال العباد، ماذا قال الله عزّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: الآية 51)

فحينما توَهَّم هؤلاء بقولهم:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الفعل بيد من ؟ فلو كان بيد جهة أخرى غير الله عزّ وجل، فالكلام مقبول وصحيح، ولكن الفعل كلّه بيد الله، فكيف يُعْقَل أن تهتدوا إلى الله وأن تأتي جهةٌ، وتوقع فيكم الأذى ؟.

مثلاً: لو أن مؤسسة، أو وزارةً، أو معملاً، أو منشأة لها مدير عام بيده كل شيء، ولا يمكن أن يحدث شيء في هذه المُنْشَأة إلا بعد موافقة المدير العام، فإذا كان هذا المدير العام قد أرسلك في مهمّة، تقول

له: أخشى أن أعاقب غداً بسبب الغياب عن الدوام ؟ يقول لك: من يعاقبك غيري ؟ أنا الذي أعاقب، وأنا أرسلتك بمهمة، أيعقل أن أعاقبك على أنّك نَفّذت هذه المهمة ؟ إذ لا ينفذ قرار عقابك إلا بتوقيعي، وإذا قال هذا الموظف لهذا المدير العام الذي بيده كلُ الأمور: أخشى أن أنفذ هذه المهمة فأعاقب غداً لتخلُّفي عن الدوام ؟ يقول لك: عجباً ! هل في هذه الدائرة إلا مديرٌ واحد ؟ وهل ينفذ كتاب عقابٍ إلا إذا وقّعته أنا ؟ أنا الذي أرسلتك.

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

الله عزّ وجل ردّ عليهم فقال:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية 68)

الله خالقُ أفعال العباد:

هو الخلاّق، وهو الذي يخلق أفعال العباد، والعباد لهم الاختيار فقط، أما الذي يخلق أفعالهم فهو الله عزّ وجل.

فحينما توهّم المعتزلة أن الإنسان خالق أفعاله، ضلّوا ضلالاً مبيناً، فالإنسان لا يخلق أفعاله، بل ينبعث إلى أفعاله، ويكسب أفعاله فقط، أما فعلُ الإنسان فهو فعل الله عزّ وجل، والإنسان له الثواب أو العقاب على انبعاثه لهذا العمل، وعلى كسبه له، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

فمعنى هذه الآية:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

مشيئته هي النافذة.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: الآية 65)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

(سورة الفتح: الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: الآية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 17)

هذه الآيات كلها تؤكِّد ذلك..

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

إن الإنسان أحياناً يبيع طائرة، ولكن أمر هذه الطائرة ليس للشركة الصانعة، ولمن يركبها، وقد تهوي، وقد تقصِف، فهذا الشيء لا ينطبق على خلق الله عزّ وجل، فكلُّ شيءٍ خلقه الله عزّ وجل..

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

أي أن أمر هذا المخلوق بيد الله عزّ وجل، الله خالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل.

لو أنكم تقرؤون كتاب الله عزّ وجل، وتبحثون عن آيات التوحيد، فآيات التوحيد تَبُثُّ في النفس الطمأنينة، والشعور بالأمن، فالأمر بيد الله عزّ وجل، كن مع الله ولا تبالِ.

كن مع الله تر الله معك واترك الكلّ وحاذر طمعك

***

أساساً: ما يجري من الناس من خوف، ومن قلق، ومن شعور بالقهر، فهذه كلُّها مشاعر الشرك، لأنك ظننت أن زيداً أو عبيداً بيده كلُّ شيء، وبيده أن ينفعك، أو أن يضرّك.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي]

هذا هو الاعتقاد الصحيح..

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الخلق التكويني، أي أنه خلق الشمس، وخلق القمر، والليل، والنهار، والأمطار، وشُحّ الأمطار، بيده الأمر، فقد خلق الغنى والفقر، والقوة والضعف، وهو الذي خلق هذا الزلزال، وأجرى هذا البركان، وفاضت الأنهار، أو شَحّت الينابيع، يخلق ما يشاء، هذا الخلق التكويني، وفلان تطاول على فلان، وفلان ذاق بأس فلان، والآية معروفة:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الخلق التكويني، خلق الكون، ومظاهره، وخلق الأفعال، فالأفعال كلها بيدِ الله، لذلك من أجمع عبارات التوحيد، أن كلّ شيءٍ وقع أراده الله، وأن الله إذا أراد شيئاً وقع، فلك أن تفهم هذه العبارة على شكلين، شاء الله أن يكون هذا الأمر فكان، وكان هذا الأمر، إذاً: شاءه الله، ومادام هذا الأمر قد كان، إذاً: شاءه الله، مادام الله قد شاء هذا الأمر فلابدّ من أن يكون، وهذا قول النبي الكريم:

((وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

[أبو داود]

ومشيئته متعلقةٌ بالحكمة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق، دائماً مشيئته حكيمة، وكل شيءٍ وقع لو لم يقع لكان نقصاً في الحكمة.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

معنى: وَيَخْتَارُ:

والآن.. ويختار، أي يختار ماذا ؟ ويختار ما يشاء، قال العلماء: يختار أي يختار لكم التشريع المناسب، وربنا عزّ وجل خلق الإنسان، وعلّمه القرآن، وخلق السماوات والأرض، وأنزل على عبده الكتاب، فهناك خَلق وتوجيه، التوجيه أمر تكليفي، أما الخَلق فأمر تكويني، والخلق كن فيكون، ولذلك يوجد فرق كبير بين الأمر التكويني والأمر التكليفي، فربنا عزّ وجل إذا قال لهذا الجبل: زُل يزول فوراً..

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

فوراً، هذا أمره التكويني، أما أمره التكليفي ؛ فقد أمرنا بغض البصر، وهناك آلاف الأشخاص يطلقون أبصارهم، إذا عُصِي أمر الله التكليفي فشيء طبيعي جداً، هو لم يأمر أمراً تكوينياً، بل أنه أمر تكليفي.. ونحن نضع إشارة منع المرور بلوحة صغيرة حمراء على عمود على يمين الطريق، فهل معنى ذلك أن هذه اللوحة تمنع المركبة من السير في هذا الطريق ؟ لا تمنعها، ولكن تُحَذِّر، فهذه اللوحة منع للمرور هذا أمر تكليفي، أما إذا وضع في عرض الطريق قطع إسمنتية كبيرة ومكعبات كبيرة جداً، فكل مكعب

خمسة أمتار مكعّبة مع إسمنت مسلح، نقول: هذا أمر تكويني، وهذه الحواجز تمنع مرور المركبات فهو منع تكويني، أما لوحة " ممنوع المرور " هذا أمر تكليفي، فيجب أن نفرّق دائماً بين الأمر التكويني، والأمر التكليفي، الأمر التكويني:

(كُنْ فَيَكُونُ)

زُلْ فيزول، فليس في الكون كله شيءٌ يستعصي على أمر الله، فإذا استعصى إنسان على أمر الله، لأن الأمر تكليفي لا تكويني، ولو أن ربنا عزّ وجل أراد لنا الهدى القسري لجعل تكاليفه أوامر تكوينية لا أوامر تكليفية.

إذاً يمكن أن أمنع المرور من الطريق لا بأمرٍ تكويني بل بوضع مكعّبات من إسمنت مسلّح كبيرة لا.. لا، أنا أمنع المرور بأمر تكليفي بلوحة صغيرة، والإنسان بإمكانه أن يخترق هذا الأمر، أن يعصيه، لأنه أمر تكليفي، أما الأمر التكويني فهو المنع، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

هذا الأمر التكويني، ويختار هذا الأمر التكليفي، ففي كل شيء الله خلقك، وأعطاك توجيهاً، فأنت مخير إما أن تستجيب أو لا تستجيب، فربنا عزّ وجل نصحك بأن تستجيب، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 24)

إذاً:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة القصص: الآية 68)

المعنى دقيق جداً، هذا المعنى الأول ينطبق على قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

المعنى الأول لقوله: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةَ

1 – وجوبُ الانقيادِ إلى حُكم الله ورسوله من غير تردد لا نقاش:

إنّ الإنسان إذا أمره الله بأمر فالعاقل ليس له مع أمر الله رأي إطلاقاً، لأن الله عزّ وجل اختار لنا هذا التشريع، فنحن ليس لنا خيار فيه، لأنه من عند حكيمٍ عليم، فأن تقول: أنا أفعل أو لا أفعل، أنت مخير، ولكن إذا اخترت ألاّ تفعل فهناك ثمن باهظ، وإذا كنت عاقلا تختار أن تفعل، في الأصل أنت مخير، لك

أن تفعل أو ألا تفعل، ولكن رأي العبد الحادث الضعيف لا شيء أمام هذا التشريع الحكيم، وأنت أيها الإنسان ليس لك اختيار إذا كنت عاقلاً.

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

إذا أعطى الله عزّ وجل في موضوع حكماً فالأمر لله عزّ وجل.

2 – مخالفة أحكام الله سببٌ في الهلاك:

مثلاً أعطى حكمه في الربا، وقال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: الآية 276)

هذا حُكم الله عزّ وجل، فتقول لي: رأي الشخصي، وقناعتي، وأنا قارئ مقالة، وفلان له رأي في الموضوع، فأقول: هذا كله كلام فارغ، رأي وقناعة ورؤية، وحقيقة، وقضية نسبية ظروف صعبة، فمعنى ذلك أنك تبدي مع الله رأياً، ومعنى ذلك أنك ترى أن حكم الله عزّ وجل فيه خلل، وأنت ترممّ هذا الحكم، لذلك الآية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

والشيء اللطيف أن سيدنا عمر كان وَقّافاً عند كتاب الله، هكذا يأمر الله عزّ وجل فسمعاً وطاعة يا رب، وهكذا يأمر النبي عليه الصلاة والسلام فسمعاً وطاعة يا رسول الله، وهكذا الإيمان بالله العظيم، آمنت به رباً عظيماً، وخالقاً حكيماً، ورؤوفاً رحيماً، وهذا أمره، فكلما وقع الإنسان في مشكلة فهناك جواب مُسكِت، أتحب الله عزّ وجل ؟ نعم، فأنت واثقٌ من حكمته ؟ وواثقٌ من عدالته ؟ ومن رحمته ؟ نعم، ولطفه ؟ فهذه مشيئته، إن لم ترضَ بها فأنت لا تعرفه، وأنت لست مؤمناً به، وهذا هو الإيمان، ولذلك فالنبي الكريم إذا جاءت الأمور كما يحب كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

[ابن ماجه عن عائشة]

وإذا جاءت على غير ما يحب يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

[ابن ماجه عن عائشة]

والحديث المعروف، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

خلقك، واختار لك هذا الشرع الحكيم..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة فاطر: الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: الآية 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: الآية 1)

خلق الكون، وأعطاك التوجيهات، مثل بسيط ومبسّط: شُقّ الطريق، ووضعت الشاخصات ؛ فهنا منزلق خطر، وهنا تقاطع خطر، وهنا طريقٌ ضيّقة، وطريقٌ صاعدة، ومنعطفٌ حاد، وهذه لوحات قبل مسافات، قبل ألف متر، قبل خمسمائة، شُقّ الطريق وضعت الشاخصات، خلق الكون أنزل الكتاب، خلق الله الكون ونَوّره بالقرآن:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: الآية 35)

عندك آلة ومعها تعليمات، وشيء مادي ومعه توجيهات، فأنت آلة، مخلوق من أعقد الآلات في الكون، ومعك كتاب تعليمات الصانع، وهو القرآن الكريم:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

(سورة القصص: الآية 68)

المعنى الثاني للآية: مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةَ

هناك معنى آخر دقيق، والمعنى الآخر أنه عندما يختار الإنسان شيئا فاختياره جزئي لا كُلي، ولماذا جزئي ؟ لأن الفعل ليس له، لو فرضنا إنسانا اختار أن يقتل إنساناً، وهو اختار فقط، أما المشيئة فتحتاج إلى اختيار، وإرادة وقدرة، فهو يملك الإرادة، لكنه لا يملك القدرة، إذاً: مشيئته ناقصة حتى يسمح الله، فهذه عقيدة مريحة جداً، فلو كان لك عدو مخيف فقوته بيدِ الله عزّ وجل، قد ينوي لك هذا العدو شراً كبيراً، لكن لا يستطيع أن يوقع من شرّه إلا بالقدر الذي يسمح الله له به.

إذاً: أما أنتم أيها البشر فما كان لكم الخيرة الصحيحة الكاملة، لأن قوتكم بيدِ الله عزّ وجل، فتختارون شيئاً فالله عزّ وجل إما أن ينفِذ أو لا ينَفِذ، فلو وُجد مخلوق مربوط بزمام متين، وأنت أرخيت الزمام فيتحرك، وهو يبدو لك أنه حر، ويتوهم أن حركته حرة، لكن في أية لحظة يُشَدُّ الزمام فإذا هو في

القبضة.

فإذاً المعنى الأول: أن الإنسان لعلمه الناقص، ولعبوديته لله عزّ وجل، ولأنه كائن حادث محدود، علمُه من علم الله، فما كان لهذا الإنسان أن يكون له اختيار مع اختيار الله عزّ وجل، وما كان له أن يبدي رأياً مع شرع الله عزّ وجل:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

لا في الخَلق، فخلق الله أكمل خلق، فأي تغييرٍ في خلق الله يدفع الإنسان الثمن باهظاً، والآن هناك، أمراض العصر كلها بسبب تغيير في خلق الله، فمثلاً: هذه الدجاجة يجب أن تنمو في أربعين يوماً، إذاً: يجب أن نعطيها الهرمونات التي تُسَرّع النمو، ولكن هذه الهرمونات إذا تراكمت في جسم الإنسان فقد تسبب السرطان، فالإنسان خُلِقَ، ولكنه غير كامل، وأي شيءٍ صممه الإنسان على المدى البعيد فله أخطار وبيلة، ويبدو لأول وهلة وفي المدى القريب أنه رائع، ومريح، وكامل، لكن كل شيء يغيّر الإنسان فيه خلق الله عزّ وجل فالثمن التلوث، والتلوّث الآن هو الطامة الكبرى في العالم، ما التلوث ؟ هو تغيير في تصميم الخلق، المركبة تسبب أمراضاً وبيلة جداً، أما الحصان فيقي من أمراض القلب، ومن أمراض الكبد، والكليتين.

خلاصةُ المعنيين في الآية:

المعنى الأول: أن ربنا عزّ وجل خَلَقَه الخَلقَ كاملاً، وربنا صمم طبيعة نظيفة، ونحن لوثناها بهذه الغازات والسموم، جعل طبقة أوزون تحمي الناس من أشعة الشمس القاتلة، خرقناها بالأقمار الصناعية إلى أن تخلخلت، وعندما تخلخلت ارتفعت نسبة سرطان الجلد إلى سبعين في المئة في أماكن التخلخل، وفي تلك البلاد، فالأوزون تخلخل، والحرارة ارتفعت، فأصبح في البلاد التي لم تألف المكيّفات أصبح المكيف ضرورة، بسبب أن الحرارة في الأرض ارتفعت درجة، كلمة درجة شيء مخيف جداً، ارتفعت درجة بسبب ازدياد غاز الفحم في الجو، وهذا من تغيير خلق الله عزّ وجل، والبحث يطول، فهذه المبيدات نستعملها بشكل كبير جداً، هذه قتلت كل الكائنات الطبيعية، وكان يوجد توازن بين الكائنات، هذه الحشرة تقضي على هذا المن فلمّا أبدنا الحشرات بالكيميائيات أصبح هناك خلل بالتوازن، أي أنه في الصناعة، والتجارة، والبيئة، والأجواء، حتى في مساكننا، الضجيج، والتلوث، وهذا كله خطأ أو تغيير لخلق الله، وربنا عزّ وجل قال ذلك قال:

(فَلَيُغَيِّرُنّ خَلْقَ اللّهِ)

(سورة النساء: الآية 119)

فالإنسان ما كان له أن يختار شيئاً أكمل من خَلق الله عزّ وجل، لله الكمال المطلق، وما كان له أن يختار شرعاً أكمل من شرع الله، فشرع الله هو الكامل، فأنت إنْ في الخلق، وإن في التشريع أمام كمال مطلق في الخلق، وكمال مطلق في التشريع، بل إن معظم الأمراض التي يعاني منها الناس اليوم إنما هي أمراض بسبب خلل في تطبيق منهج الله عزّ وجل، والدليل ربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80))

(سورة الشعراء)

ما قال: وإذا أمرضني فهو يشفين، بل قال: وإذا مرضت، المرض عُزِيَ إلى الإنسان لخلل في حياته.

إنّ رجلا كان في بلد غربي فالتقى مع شخص فقال له: أنا من بلد مسلم، وسمى له اسم البلد، فمن حديث إلى حديث قال له: الإسلام سببُ تخلُفِنا نحن، فهذا الشخص الأجنبي أخذه من يده إلى أضخم مستشفى في هذه البلدة في أوروبا، وقال له: اقرأ، كُتِبَ على هذه المستشفى بحرفٍ كبير: **" نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "**، وكُتب تحتها: **محمد بن عبد الله**، قال له: هذه الكلمات هي الطبُّ الوقائي كلُّه.

فأنت أولاً ليس لك الحق أن تصوّر خلقاً آخر غير خلق الله عزّ وجل، هو الخلق الكامل، وحتى في التشريع فإن تشريع الله هو الكامل.

فأول معنى:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

ما كان لهذا الإنسان أن يختار خلقاً آخر، أو أن يختار تشريعاً آخر فالخلق كامل.

والمعنى الآخر: أن الإنسان اختياره جزئي، فالعمل يحتاج إلى إرادة وإلى قدرة، والإنسان يملك الإرادة، أما القدرة فلا يملكها، لذلك يأتي اختياره ناقصا:

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69))

(سورة القصص)

يا ترى عندما قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ

أحياناً الإنسان يحتجّ، بأن يقول: أنا ليس عندي وقت لأن أحضر الدروس، فالله يعرف الحقيقة، أليس

عندك وقت أم أنت لا ترغب ؟ فالإنسان له أن يقول ما يختار، وله أن يدّعي ما يشاء، وأن يعلن ما يشاء، ولكن ما يكِنُّه صدره من الداخل يعلمه الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم السر الذي تكتمه عن الناس، ويعلم الشيء الذي يخفى عنك، هذا علم الله عزّ وجل، ثلاثة مستويات، يعلم علانيّتك، أي ما تقوله، ويعلم سرك، ويعلم ما يخفى عنك:

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

(القصص)

ولذلك إذا شعر الإنسان أن الله يراقبه يستقيم قلبه، فالغِل، والحسد، والضغينة، والتنافس، والغيرة أحياناً، هذه كلها مشاعر مرضية يعلمُها الله عزّ وجل، فالإنسان رأس ماله القلبُ السليمُ:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

هذا الذي لا ينطوي على حقدٍ، ولا على ضغينة، ولا على شعورٍ بالعلو، هذا القلب السليم رأس مال الإنسان يوم القيامة، لأن كل شيء يفنى، فكل متاعه، وكل دنياه تفنى، ويبقى القلب السليم:

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ)

(القصص: الآية 70)

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

الله مصدر النعم في الدنيا والآخرة:

في الدنيا وفي الآخرة هو مصدر كل النعم، له الحمد، لو قال الإنسان: الحمد له، تعني الحمد له ولغيره، أما له الحمد، فحينما قدمنا له على كلمة الحمد أصبح هنا معنى القصر، أي الحمد كلّه لله عزّ وجل، وأيُّ نعمةٍ جاءتك من إنسانٍ إنما هي من الله في حقيقتها، ولذلك إذا جاءت الإنسانَ نعمةٌ من إنسان فأول شيءٍ يشكرُ الله عزّ وجل، لأنه خلق هذه النعمة، ومكّن منها هذا الإنسان، وألهم هذا الإنسان أن يقدمها لك:

(لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ)

الحكم له، أي الرأي الأخير له، كل شيء متوقفٌ على حكم الله عزّ وجل، المرض يشفى أو لا يشفى، له الحكم، يوفّق هذا التاجر أو لا يوفّق له الحكم، ينجح هذا الزواج أو لا ينجح، له الحكم:

(وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ما دُمت راجعاً إليه وسوف يحاسبك لابدّ من أن تستقيم على أمره، أي لابد من أن تعبده، ولذلك قال بعض الفلاسفة: **"لا معنى للأخلاق من دون إيمانٍ بالله، وإيمانٍ بيوم الحساب، وحسابٍ في هذا اليوم"**

أي هناك إيمان بالله، واليوم الآخر، والحساب، فإذا اختل أحد هذه الثلاثة فإن الإنسان لا يستقيم على أمر الله، ولن يستقيم إلا إذا آمن بالله، وآمن باليوم الآخر، وآمن بالحساب الدقيق في هذا اليوم:

(لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

أما آخر آية في هذا الردّ على قول هؤلاء المشركين:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لماذا لا يطيع الإنسان الله عزّ وجل ؟ لأن معرفته بالله ضعيفة، أنت لا تطيع إنساناً إلا إذا عرفت قيمته، وإلا إذا عرفت ما عنده من خيرٍ وإذا أطعته، وما عنده من عقابٍ أليمٍ إذا عصيته، إذاً: معرفة الآمر يجب أن تكون قبل معرفة الأمر، فكيف تعرف الله عزّ وجل ؟ هذا الكون الذي أمامك ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72))

(سورة القصص)

الردُّ السابع على قول المشركين:

كلمة أخيرة: ربنا عزّ وجل انتقل فجأةً إلى آيةٍ كونية، الحديث عن قول الكفار:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

والله رد على هؤلاء أول رد، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، فجأةً:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ

بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

علاقة هذه الآيات بما قبْلها:

قد يسأل سائل ما علاقة هذا الموضوع بالموضوع المتسلسل ؟ الحقيقة توجد علاقة متينة جداً، فهؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

لم يروا عظمة الله عزّ وجل، ولا وحّدوه، كيف نعظمه، وكيف نوحده ؟ إذا فكرنا في مخلوقاته فربنا عزّ وجل رسم الطريق، أي أن هذا التوهُّم بأن الطاعة تضر والمعصية تنفع، وهذا الظن، وهذا الشرك، والخوف، والقلق، كلٌّ هذه الأمراض الناتجة عن الشرك، وكل هذه المعاصي أساسها ضعف الإيمان بالله، فالآن خذ لنفسك مقياساً، حينما تعصي الله فاعلم علم اليقين أن معرفتك بالله لازالت قاصرة، وهي في حجمٍ لا يكفي لطاعته، ومتى يكون حجم المعرفة كافياً ؟ إذا حَمَلَتْك المعرفة على طاعة الله عزّ وجل، فإذ وُجدت المعاصي فمعناه أن حجمَ المعرفة قليل، إذ لم تعرف الخالق العظيم، ولا المسيّر الحكيم، ولم توحِّد خالقك، ولم توحِّد الألوهية، ولم توحِّد الربوبية، ولا رأيت رباً واحداً، ولا إلهاً واحداً، ولا خالقاً واحداً، ولكن رأيت زيداً وعبيداً، إذاً: هناك شرك، فإذا كان للطاعة والمعصية عداد أو مؤشّر فتأكّد أن هذا المؤشر يتزامن ويتوافق مع مؤشِّر الإيمان، فكلما ازداد إيمانك ازدادت طاعتك، وازداد ورعك، وازداد خوفك، وازدادت خشيتك، وكلما ضعف الإيمان ضعفت الطاعة، والورع، والخشية، والشوق وما إلى ذلك، فربنا عزّ وجل دلّنا على الطريق فقال: إنكم لن تستطيعوا أن تطيعوني إلا إذا عرفتموني، ولن تستقيموا على أمري إلا إذا خفتم مني، ولن تعملوا الأعمال الصالحة إلا رجوتم جنّتي، فإذا لم تعرفوا قدر الله عزّ وجل، وما عنده من نعيمٍ مقيم ومن عذابٍ أليم، فقد تضعف الطاعة، فربنا عزّ وجل رسم الطريق طريق النجاة، أي فكروا في الليل والنهار.

وإن شاء الله في الدرس القادم نفصّل في هذه الآية.

مرة ثانية، إذا فكّر الإنسان فيها فيما بينه وبين نفسه فشيء رائع جداً بعد صلاة الصبح:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ)

سِرُّ الليل والنـهار:

ما سِرُّ الليل والنهار ؟ أي متى يصبح النهار سرمداً، والأرض تدور فتتوقف عن الدوران، أو الشمس

انطفأت، أو دارت دورةً مع دورتها حول الشمس كالقمر، فيصبح الليل سرمداً والنهار سرمداً، أو دارت على محور أفقي، نهار وليل، موضوع دقيق جداً أي متى يكون الليل سرمداً والنهار سرمداً ؟ في أي الأحوال ؟ الأرض كرة لها محور مائل تدور حول نفسها، دورة حول الشمس، فهذه الموضوعات موضوعات علمية، فربنا عزّ وجل يُلْفِت النظر لهذا الموضوع:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً)

من قدرةِ وحِكمة الله في الخلْق:

النهار سرمد، أي الحرارة ثلاثمائة وخمسون درجة، فوق الصفر، والليل سرمد أي الحرارة مئتان وخمسون تحت الصفر، فالحياة مستحيلة، فلو جعل الله الليل سرمداً أو النهار سرمداً لكانت الحياة مستحيلة، يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ)

فهل هناك جهة قوية في العالم تجتمع، وتتخذ قراراً، وتصنع الليل، لا يوجد عندكم ليل ؟ هذا ليل، فأية فئة، وأية دولة قوية، وأية مجموعة، وأية منظّمة، تجتمع، وتقرر إحداث الليل، أو إحداث النهار:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ)

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

إذاً: هذه الآية الكونية من هنا الطريق إلى الله عزّ وجل، فكِّر في خلق الله عزّ وجل حتى تعرفه، وتعرف عظمته، وربوبيّته، وألوهِيّته، ووحدانيته، وتستقيم على أمره، إذاً: هذه الآية فيها مفتاح الخلاص، لئلا يقول الإنسان:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

تأتي هذه الآية لتبيّن للإنسان الطريق إلى معرفة الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 71 - 75
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-08-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة القصص، وآية اليوم:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73))

(سورة القصص)

ردٌّ أخير وبيانٌ لطريق الله تعالى:

الحقيقة أن هذه الآيات ردٌ أخير، وبيانٌ خطير للطريق إلى الله عزّ وجل، فهؤلاء الذين قالوا:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

ردّ الله عليهم ردوداً كثيرة، ولكن كيف السبيل ؟ لئلا تقول:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

معرفةُ الله سبيلٌ من سُبل الاتباع:

قد يقول قائل: أنا إن استقمت على أمر الله تتوقف تجارتي، فما السبيل الذي إذا اتبعته ؟ ألا تقول هذا الكلام ؟ إذا عرفت الله عزّ وجل فلا تقول هذا الكلام، فإذا لم تعرفه تقول: إذا آمنت، إذا استقمت، إذا تركت هذه الطريقة في التعامل، ولم أفعل هذه المعصية أموت من الجوع، فهذا لسان حال معظم الناس الجهلة، فما السبيل إلى أن تؤمن بالله الإيمان الكافي حتى لا تقول هذا الكلام ؟

قلت لكم قبل أسابيع عدة: لمجرّد أن تتوهّم أن المعصية تنفعك والطاعة تضرك، فإسلامك، وإيمانك، وصلاتك، وصومك، وحجُّك، وزكاتك لا قيمة لها عند الله إطلاقاً، لأنك ما عرفت الله أبداً، فخالق الكون إذا أمرك بأمر ثم تعتقد أنك إن أطعته تخسر، وإن عصيته تربح ! أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فلذلك ربنا عزّ وجل رسم الطريق الذي إذا اتبعته عرفت عظمة الخالق، فإذا عرفت عظمة الخالق رأيت أن الخير كل الخير في طاعته، وأن الشرّ كله في معصيته، إذاً فالقضية قضية رؤية، فإذا كنت ترى أن

طاعته مَغرم، وأن معصيته مغنم فالطريق طويل أمامك، وأنت تحتاج إلى عملٍ كبير، وإلى جهدٍ جهيد، أما إذا وصلت إلى أن الخير كلّه في طاعته، وأن الشر كله في معصية الله فقد وصلت إلى أول الطريق، فمن أجل أن تصل إلى أول الطريق، وأن تضع يدك على جوهر الدين، وقدمك في الطريق الصحيح، أسْلك هذا السبيل..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ

أنتم لماذا تستخفّون بأمر الله ؟ لأنكم لا تعرفون الله، هذا الخطاب موجه لأهل الدنيا، هؤلاء الذين قالوا:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ)

لماذا استخفّوا بالهدى ؟ ورأوا أن الهدى مغرم، وأن الضلال مغنم؟ ورأوا في طاعة الله خسارة ؟ وفي معصيته ربحٌ كثير، هذه حال معظم الناس، إن لم يبع بهذه الطريقة يخسر، وإن لم يفعل بهذا المطعم ما هو شائعٌ يخسر، وإن لم يبع هذه الألبسة يخسر، وإن لم يجامل، ويدار، ويداهن يخسر، فحياته كلُّها مصالح، وأهداف خسيسة، أما المؤمن فحياته كلها مبادئ، وقِيَم نابعة من هذا الكتاب، فلذلك كأن الله سبحانه وتعالى قال: يا عبادي، لئلا تقولوا هذا الكلام..

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

ولئلا تتوهموا أن المعصية مغنمٌ، وأن الطاعة مغرمٌ، وأن أمر الله لا قيمة له، ولئلا تكونوا كهؤلاء فاسلكوا هذا السبيل، ما هو السبيل ؟ يجب أن تعرف الآمر قبل الأمر، إنها كلمة موجزة، ولكنها بليغة، إذا عرفت الأمر قبل الآمر فقد تستخفُّ به، ولا تأخذ به، وتحتال عليه، وهنا تظهر الحِيَلُ الشرعية، كل الحيل الشرعية أساسها أن هذا الإنسان ما عرف الله، وضع زكاة ماله في رغيف خبز، وقدّمها للفقير، ثم قال له: هَبْني هذا الرغيف، وخذ مئة ليرة، أعطاه الصغير هذا الرغيف، وفيه خمسة آلاف ليرة، فهذه حيلةٌ شرعية تعني أنّك لا تعرف الله عزّ وجل.

1 ـ أصلُ الدين معرفةُ الله:

فيا أيها الإخوة الأكارم، أصل الدين معرفة الله، فإن عرفت الله عرفت عظمته، وأنّه الخالق، وأنه لا عبادة إلا للخالق..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: الآية 21)

عرفت أنه المُرَبّي، لأنه رب العالمين، والمُسَيّر، وعرفت أسماءه الحُسْنى وصفاته الفُضْلى، وعرفته المعرفة التي تدفعك إلى طاعته.

2 ـ المعصيةُ دليلٌ على جهل العاصي بربّه:

يا أيها الإخوة الأكارم، حقيقة خطيرة، إذا كنت مقيماً على معصية الله فأنت لا تعرف الله، وهذه حقيقةٌ مُرّة يجب أن تتقبّلها، لأن الحقيقة المرة خيرٌ من الوهم المُريح، فقد تتوهم أنك مؤمن، ولكنك لمجرد أن تعصي الله وأن تُرضي زيداً أو عبيداً، فأنت لا ترضي الله عزّ وجل، أو معرفتك بالله بحجمٍ لا يحملك على طاعته، معرفة ساذجة، أو معرفة غير مبنية عن بحث ودرس، معرفة تلقيتها ممن علمك فيما مضى من دون أن تتحقق، ومن دون أن تتبنى هذه المعرفة، فلذلك وألا ترى في معصية الله مغنماً، وألا تجد في طاعته مَغْرَماً، من أجل ألا تقول كما قال هؤلاء:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

3 – من منـهج التفكّر: التفكّرُ في الشيء، وفي خلاف ما هو عليه:

لِتَضَعَ يدك على جوهر الدين، وأن تكون من الفائزين يجب أن تسْلُك هذا الطريق في معرفة الله، هذا الطريق أساسه التفكّر في الشيء، وبخلاف ما هو عليه، هذا منهج التفكر.

التفكر في العين:

يمكن أن تُفَكِّر في أن هاتين العينين لو أنهما عينٌ واحدة فما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أنك لا ترى إلا بُعدين، طولاً وعرضاً، أما البعد الثالث فلا تُمَيِّزه، أنت بعينٍ واحدة لا تستطيع أن تضع الخيط في ثقب الإبرة، بعين واحدة تظن أنه دخل، وبين الخيط وثقب الإبرة عشرة سنتمترات، ولكن بالعينين يتضح البعد الثالث.

إذاً: لو فكّرت في العين، لو أن العينين عين واحدة، ولو أن هذه العين ليس فيها إلا عُصَيّات، وليس فيها مخاريط، لرأيت الأشياء بلونين أبيض وأسود فقط، لو أن هذه العُصيات أو المخاريط ليست مئة وثلاثين مليوناً، بل عشرة ملايين، لرأيت الصورة ضبابية، ولو أن هذا العصب البصري لم يكن على ما هو عليه، لو لم يكن في الدماغ مركزٌ للإبصار، لو لم يكن في الأذن مركزٌ للسمع وقنواتٌ دائرية للتوازن، أي أنك كلما رأيت شيئاً من خلق الله، لو فكرت أن هذا الشيء بخلاف ما هو عليه لعرفت قيمة هذا الشيء، فربنا عزّ وجل لفت نظرنا إلى آية واحدة قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص: الآية 71)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

الليل سرمد، أي أن الأرض لو أنها واقفة لا تدور، وهذه هي الشمس، نصف الكرة نهارٌ إلى الأبد، ونصفها الآخر المقابل لكرة الشمس ليلٌ إلى الأبد.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً)

(سورة القصص: الآية 72)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

إذا كان الليل سرمداً فمعنى ذلك أن الحرارة مئتان وخمسون تحت الصفر، الحياة منعدمة في الوجه المُضيء، لأن الحرارة ثلاثمئة وخمسون فوق الصفر، فنحن في الدرجة الخمسين لا نتحمّل، يقال لك: شيء لا يُطاق، الأرض تدور، لو أنها توقفت عن الدوران لأصبح النهار سرمداً والليل سرمداً، ومَن الذي أمَرها أن تدور ؟ الله سبحانه وتعالى، من الذي أعطاها هذه السرعة المناسبة ؟ لو أنها دارت كل ساعةٍ دورة فنصف ساعة ليل، ونصف ساعة نهار، فلا النهار صار معاشاً، ولا الليل صار لباساً، ولو كانت الدورة كل السنة مرة، ستة أشهرٍ بأكملها ليل، ننام ونقوم، ننام ونقوم، والليل مخيمٌ علينا، وستة أشهرٍ نهار.

إذاً: المشكلة أن هذا الفكر إذا انطلق من جموده، وتأمّل في خَلق الله عزّ وجل لخرّ ساجداً لله.

أولاً: الأرض تدور، مَن جعلها تدور ؟ الله سبحانه وتعالى، من دورتها حول نفسها جعل الليل والنهار، ولو توقفت عن الدوران لأصبح النهار سرمداً، والليل سرمداً إلى يوم القيامة، ولأصبحت الأرض في ليلها السَرْمَدِي قبراً جليدياً، ولأصبحت الأرض في نهارها السرمدي جحيماً أبدياً، وانتهى الأمر، من جعل هذه الأرض تدور، دورتها بسرعة نصف كيلو متر في الثانية بالضبط، فالنقطة على خط الاستواء، تدور أربعين ألف كيلو متر في أربع وعشرين ساعة، قسّم أربعين ألف كيلو متر على أربع وعشرين ساعة، يطلع ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، طبعاً الطائرات التجارية سرعتها تسعمئة كيلو متر، والحديثة تسعمئة إلى ألف، الأرض تدور بسرعة ألف وستمئة كيلو متر بالساعة، قسّم على الدقيقة والثانية، تدور نصف كيلو متر في الثانية، فهي تدور، ومَن أعطاها هذه السرعة ؟ وهذا من عظمة الله عزّ وجل.

إنّ الإنسان يعمل ثماني ساعات، ويأتي إلى البيت يأكل ويجلس مع أهله ساعتين أو ثلاثاً، فتغيب الشمس، فيصبح مرتاحاً، ولكن تصوّر النهار ستة أشهر، أو النهار سنة والليل سنة، أو تصور أن النهار

ساعة والليل ساعة، فهذه أول حقيقة.

فربنا عزّ وجل أمرنا أن نُفَكِّر في بهذه الأرض من صممها بهذا الحجم ؟ أنت وزنك على الأرض ستون كيلوًا، ولو انطلقت إلى القمر لكان وزنك عشرة كيلو بالضبط، والحركة صعبة جداً على القمر، ولو أنك على كوكبٍ حجمه كبير لكان وزنك ثمانية أطنان، وحركتك كتحريك صخرة، إذاً: ربنا عزّ وجل جعل حجم الأرض مناسباً، وجعلها تدور من أجل أن يكون الليل والنهار، وجعلها تدور بهذه السرعة المناسبة، هذه أول دورة.

دوَرات الأرض:

وكل الناس يعتقدون أن للأرض دروتين فقط، دورةٌ حول نفسها ودورةٌ حول الشمس، مع أن للأرض حتى الآن اثنتي عشرةً دورة، اخترت لكم من هذه الدورات ست دورات، لأن الست الأخَر لا يمكن أن تشرح هنا إلا على سبورة، وعلى وسائل إيضاح.

الدورة الأولى:

فالدورة الأولى حول نفسها.

الدورة الثانية:

والدورة الثانية حول الشمس، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متراً في الثانية، فإذا كان الدرس ساعة، فثلاثون كيلو متراً ضرب ستين ضرب ستين، فنقطع في درسٍ كهذا الدرس مئات الألوف من الكيلو مترات.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(سورة النمل)

الأرض والجاذبية:

هذه حول الشمس، ولكن حول الشمس عندنا مشكلة ؛ أن مسار الأرض حول الشمس ليس مساراً دائرياً، بل هو مسار إهليلجي على شكل بيضوي، وفي الشكل البيضوي قطر أصغر وقطر أكبر، والمعلوم عندكم ففي الجاذبية أن الأرض إذا اقتربت من الشمس جذبتها الشمس، فلو أن الأرض سارت

بسرعةٍ ثابتة حول الشمس، وجاء المكان الذي يضيق فيه المِحور، وتقلّ مسافته لا بدّ من أن الشمس تجذبها، لأن قانون الجاذبية أساسه الكتلة مع المسافة، جداء الكتلة مع مربع المسافة، إذاً: يجب أن تزيد الأرض من سرعتها في النقطة الحرجة، وقد تنشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تُكافئ القوة الجاذبة، ويجب أن تزيد هذه السرعة بشكلٍ تدريجي، لأنها لو زادتها بشكلٍ مفاجئ لانهدم كل شيءٍ على الأرض، ولو أن السرعة زادت فجأةً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وكل ما على الأرض يصبح قاعاً صفصفاً، فالله حكيم، رفع السرعة لئلا تنجذب الأرض إلى الشمس، ولكن هذه السرعة التي ارتفعت تدريجياً وهذا ما يُسَمّى بالتسارع وبالتباطؤ، فأن تزداد السرعة شيئاً فشيئاً بنظامٍ دقيق، وأنت على هذه الأرض فكِّر في الذي صممها، بحجمها، وبشكلها، وبحركتها وحول نفسها، وبحركتها حول الشمس، وبازدياد سرعتها، وبأن تكون هذه الزيادة بلطفٍ شديد، وسرعة الأرض حول الشمس ثلاثون كيلو متراً في الثانية، تدور الأرض دورةً حول الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، ومئتين وستة وخمسين جزءا من ألف، لذلك فسنة كبيسة، كل أربع سنوات، وشباط تسعة وعشرون يوماً، لأن الأرض تدور حول الشمس بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً وربعاً، أربعة أرباع تساوي يوماً بكامله، أما الأرض وهي بحجمٍ كبيرٍ فتدور حول نفسها بثلاث وعشرين ساعة وستة وخمسين دقيقة وأربع ثوان وخمسة وتسعين جزءًا من ألف من الثانية، وهذا الرقم دقيق جداً لا يزيد ولا يقلّ، هذه يد الله عزّ وجل..

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر: الآية 67)

هذه هي الحركة الثانية، حركتها حول الشمس.

والآن ربنا عزّ وجل قال: الأرض تدور حول نفسها حركة، وحول الشمس حركة.

الدورة الثالثة:

والشمس تجري لمستقر لها:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس: الآية 38)

إذاً: الأرض حول نفسها، وحول الشمس، والشمس ماشية إذاً لها حركة ثالثة، وحركة الشمس مئتان وأربعون كيلو مترا في الثانية، نصف كيلو في الثانية حول نفسها، وثلاثون كيلومترا في الثانية حول الشمس، مئتان وأربعون كيلومترا في الثانية حركتها مع الشمس في درب التَبَّانة، وهذه الحركة الثالثة.

الدورة الرابعة:

هذه الأرض تدور حول محورٍ وهمي، وهذا المحور إما أن يكون قائماً على مستوى الدوران، وإما أن يكون مائلاً، وإما أن يكون موازياً لمستوى الدوران، الأرض تدور هكذا حول الشمس، فهذه الأرض إما أن محورها عموديٌ على مستوى الدوران زاوية قائمة، وإما أن محورها موازٍ لمستوى الدوران، وإما أنّ محورها مائل، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون محور الأرض مائلاً، تصوّر محوراً هكذا، عمودياً على مستوى الدوران والشمس من هنا، هنا صيفٌ سرمدي، وهنا ربيعٌ سرمدي، وهنا شتاءٌ سرمدي، والآية أوسع من ذلك.

قل أرأيتم إن كان الصيف سرمداً إلى يوم القيامة ؟

قل أرأيتم إن كان الشتاء سرمداً إلى يوم القيامة ؟

قل أرأيتم إن كان الخريف سرمداً إلى يوم القيامة ؟

إذا طال الشتاء على الإنسان تضجر نفسه، ويشتاق للصيف، ويطول الصيف عليه فتشتاق نفسه إلى الشتاء، هذا التبدُّل من صيفٍ إلى خريفٍ إلى شتاءٍ إلى ربيع، هذا شيء مُسعد منعش، فلو أن المحور عمودي على مستوى الدوران والشمس من هنا، فأشعة الشمس عمودية في هذا المكان، أي في خط الاستواء، إذاً: صيفٌ سرمدي، وإذا كانت مائلة في هذا المكان فربيعٌ سرمدي، أو كانت أشدّ ميلاً في هذا المكان فشتاءٌ سرمدي، لأن محور الدوران هكذا، ولو كانت الأرض تدور هكذا، والشمس من هنا فلا يوجد ليل ونهار، بل نهار سرمدي وليل سرمدي، والأرض تدور، وإذا توقفت عن الدوران صار ليل سرمدي، ونهار سرمدي، ولو دارت ومحورها أفقي لصار النهار سرمدياً والليل سرمدياً.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذه الحركة، وهذا المحور المائل من ميزته أنه مادام مائلاً، فإن أشعة الشمس تأتي إلى هنا إلى أسفل الكرة الأرضية عمودية، وهنا يكون صيف، وتأتي إلى شمالها، أي أعلاها مائلة إذاً: هنا شتاء، وحينما تصبح الأرض هكذا بعدما تمشي نصف دورة تأتي الشمس عمودية على القسم الشمالي فيصير الصيف، ومائلة على القسم الجنوبي فيصير الشتاء، إذاً: لأن المحور مائل فصار صيف، وشتاء، وربيع، وخريف، وصار نبات، والنبات يحتاج إلى برودة، وإلى طور بارد، وطور معتدل، وحار حتى تنضج الفواكه، فأساس النبات تَبَدُّل درجات الحرارة، فهي دورة نباتية، إذاً لو اعتقدت أن هذا المحور عمودي لا يوجد فصول، وأفقي يصبح الليل سرمدياً والنهار سرمدياً، ولا يوجد فصول، الله جعله مائلا، لكن هذا الميل، هذا المحور المائل يدور حول نفسه دورة كل خمسة وعشرين ألف سنة مرة، ولذلك في كتب الإغريق نجم الشمال ليس نجم القطب، بل النسر الواقع، والآن أنه نجم القطب، ولكن بعد كذا ألف سنة

يعود النسر الواقع نجم الشمال لا نجم القطب، لأن محور الأرض المائل يدور حول نفسه بشكل مخروط، كل خمسة وعشرين ألف سنة دورة، وهذه الدورة الرابعة، فمرةً يكون نجم القطب نجم الشمال كما هي الحال الآن، وبعد آلاف السنين، وقبل آلاف السنين كان النَسر الواقع هو نجم الشمال، إذاً: عندنا حركة رابعة للأرض، دورة المحور حول نفسه كل خمسة وعشرين ألف وثمانمائة سنة دورة، ونحن لا ندري.

الدورة الخامسة:

وهذا المحور يميل عن العمود المتعامد مع مستوي الدوران يميل اثنتين وعشرين درجة، ويزداد هذا الميل إلى ثلاثٍ وثلاثين درجة، ويعود إلى اثنتين وعشرين درجة، والميل من ثلاث وثلاثين إلى اثنتين وعشرين درجة، هذه حركة خامسة، وهذه الحركة كل أربعين ألف سنة مرة، الحركة الرابعة كل خمسة وعشرين ألف وثمانمائة سنة مرة، فدورة المحور حول نفسه شَكّل مخروطاً، أما الحركة الخامسة فالمحور نفسه انحرافه يزداد ثلاثاً وثلاثين درجة، ويقلّ اثنتين وعشرين درجة، من ثلاث وثلاثين إلى اثنتين وعشرين ألف سنة، وأنتم لا تدرون.

لكن بعض علماء الجُغْرافيا فسّروا انتقال خطوط المطر، وتغير حالة الجو، مثلاً: من دمشق إلى بغداد كان الطريق كلّه أشجارا والآن صحراء، ماذا قال النبي الكريم ؟ هناك عالِم بريطاني أسلم لأنه اطّلع على حديثٍ لرسول الله، هذا الحديث لا يمكن أن يكون من عنده إلا من خالق البشر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

[مسلم]

وكان هناك عصور مطيرة، عصور خصب، إنها عصور الألف ميليمتر في العام، وكان الربع الخالي كله أشجاراً، وغابات وأنهاراً وبحيرات، ويؤَكِّد هذا أن مدناً بأكملها مطمورةً تحت الرمال في الربع الخالي في الجزيرة العربية، إذاً كانت أراضي غَنَّاء كلها بساتين، وأنهار، وينابيع، وأشجار، ومدن، وقرى، وبادية الشام كانت كلُها أشجاراً، وتدمر كانت في قلب الغابات، والآن صحراء، إذاً: هذه الحركات أربعون ألف سنة حركة محور، خمسة وعشرون ألف سنة حركة، فهذه تفسِّر انتقال خطوط المطر وتبدُّل حالة الجو في العالم، وتغير الخصب، والنماء، والتصحر، وما إلى ذلك، فالنبي ماذا قال ؟ قال:

((لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

أي كانت، والمستحثات في الجزيرة العربية تؤكد ذلك، هذا العالِم البريطاني أسلم لأنه اطلع على هذا الحديث الشريف:

((لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...))

عندنا شيء آخر: الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي، وكل مسار إهليلجي له مركزان، الدائرة لها مركز واحد، أما الإهليلجي فله مركزان، فلو أتيت بمسمارين، وثبّتهما على سطح، وأحضرت خيطاً عقدته فأصبح دائرة، وجئت بقلم رصاص فشددت الخيط، وأدَرْتَه فيظهر معك شكل بيضوي، والسبب لأن هناك مركزين للدائرة، مركزا قريبا ومركزا بعيدا، فمركز دورة الأرض حول الشمس ينتقل من مركز أعظمي إلى مركز أصغري بمدة قدرها تسعون ألف سنة، فأصبح عندنا خمسة وعشرون ألف سنة دورة، وأربعون ألفاً دورة، وتسعون ألف سنة تَبَدُّل مركز فلك الأرض.

الدورة السادسة:

وهناك دورة سادسة، فالأرض تدور حول الشمس في مستوى، السطح الذي يمر منه خط دورانها اسمه مستوي الدوران، الأرض تدور حول الشمس هكذا، والأرض هنا والشمس هنا، وهذا المستوي يدور حول نفسه هكذا، في مدةٍ قدرها مئة وعشرة آلاف سنة، دورة الأرض حول نفسها، فدورة الأرض حول الشمس، ودورتها مع الشمس مئتان وأربعون كيلو مترا في الثانية، ودورة محور الأرض خمسة وعشرون وثمانمئة ألف سنة الدورة الواحدة، وتبدُّل محور الأرض من زاويةٍ دنيا اثنتان وعشرون إلى ثلاث وثلاثين كل أربعين ألف سنة مرة، وتبدُّل مركز الأرض كل تسعين ألف سنة مرة، ومستوى الدوران كل مئة وعشرة آلاف سنة مرة، وهناك ست دورات أُخرى يصعب شرحها في هذا المكان، يلزمها سبورة وأفلام، ومجَسّمات، فللأرض اثنتا عشرة دورة:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

هل هذا الإله العظيم يُعصَى ؟!

أهذا الإله العظيم يُعْصى ؟ ماذا قال سيدنا بلال ؟ قال: **<< لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت>>.**

أهذا الإله العظيم يُعصى أمره ؟ ولا تُرْجَى جَنّته ؟ ولا تُخشى ناره ؟ أهذا الإله العظيم الذي خَلق هذا الكون كُلّه من أجلك لن يسألك عن شيء؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: الآية 115)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

يا أخي الكريم، اعرف الله أولاً، وطبّق أمره ثانياً، أما إذا عرفت الأمر قبل أن تعرف الآمر فإنك ستستخف بالأمر، وستحتال عليه، ولا تأخذ به، وهكذا.

انظر إلى:

1 – اليد:

إذاً: هذا منهج في التفكير، لو أن الإنسان بلا هذا المفصل فكيف يأكل ؟ كالهرة تماماً ؛ صحن على الأرض، وينبطح، ويلحس بلسانه، إذا لم يكن له مفصل، فإذا أكل الإنسان رأى الحركة مناسبة، وقد وصلت اليد إلى الفم، وفيها أصابع، وكل إصبع فيها ثلاث سلاميات، وإبهام، ألْغِ الإبهام وانظر، أفبإمكانك أن تعمل عملاً واحداً بلا إبهام ؟ أن تكتب رسالة ؟ أن تخيط ثوباً ؟ أن تغلق سيارة ؟ أن تفتح باباً ؟ أن ترتدي الثياب بلا إبهام فقط، فكر هكذا، الرسغ.. مفصل دائري، وهذا المفصل الدائري معقد جداً، مفصل أنْسي، ومفصل وَحْشي.

2 – العنق:

العنق دائرة شبه كاملة تقريباً:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

ولو كان عنق الإنسان ثابتاً مع جذعه، وناداه أحد الناس يجب أن يدور بأكمله مئة وثمانين درجة، فطلبه شخص آخر: فدار دورة ثانية، بينما جعله الله لطيفاً، ينظر هكذا، ويدير وجهه هكذا، والحركة سهلة، وهذا هو منهج للتفكير:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً)

3 – المفاصل:

ولو ألغى لك مفصل الرقبة، والفكين، أو الأسنان، أو اللسان، أو الشم، ولو كان الأنف في مكان آخر، أو باتجاه فتحتين نحو الأعلى مثلاً، والطعام نحو الأسفل، هكذا التفكير، هذا خلق الله:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8))

(سورة الانفطار)

4 – قنوات التوازن في الأذن:

ولو لم يكن قنوات توازن ففي الأذن الوسطى ثلاث قنوات فيهما سائل، وبجدار القنوات أشعار حسّاسة كثيراً، فلو مال الإنسان قليلاً فإن السائل يحافظ على أفقية سطحه، فيلامس الأشعار التي على اليمين، فيتنبه الإنسان، فلو مال يصحح وضْعَه على الفور، ولو لم توجد الأشعار الحساسة، فيجب أن يكون له قاعدة استناد بعرض سبعين سنتيمترا حتى يظل واقفاً، والدليل: أن الميت لا يقف، ومن يستطيع أن يوقف ميتاً ؟ مستحيل، لأن جهاز التوازن تعطل، فيقع على الفور، والله جعل للإنسان قدمين لطيفين، فلو لم يوجد جهاز توازن فتكون قدمه بعرض سبعين سنتيمترا ؟ وإذا سار الإنسان على طين، وحمل حذاءه، وبه كيلوين من الطين يرى أن المشي أشغال شاقة، فكيف لو كانت قدمه خمسة وعشرين كيلوا، ومتخذّة شكلاً هرمياً، كيف له يقف ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ)

ولو ألغى ربنا عزّ وجل جهاز التوازن فهنا تصبح الحياة جحيماً، وكذلك المفاصل..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

5 – العين والأذن:

ولو جعلها عيناً واحدة ترى بُعدين فقط، ولا يوجد بعد ثالث. وأذناً واحدة، فتطلق السيارة بوقها فتندفع إليها، أما من خلال وجود أذنين فإن الصوت يدخل إلى الأذنين، والسيارة على اليمين، فيصل الصوت من الأذن اليمنى إلى مركز الإحساس في الأذن قبل الأذن اليسرى بواحد على ألف وستمئة وخمسة

وعشرين جزءًا من الثانية، فعرف الإنسان أن السيارة عن يمينه، فانطلق نحو اليسار، وهذا شيء بسيط جداً، إنه جهاز بالغ التعقيد في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، والتفاضل هو واحد من ألف وستمئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية، وبهذا التفاضل يعرف الإنسان جهة الصوت، ولو كان له أذن واحدة لسمع الأصوات بلا جهات، ولذلك قد يندفع إلى مكان الخطر:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

قس عليها، ألم نجعل له أذنين ؟ لكن جعل لك لساناً واحداً لأن اثنين صعب، وأنف واحد، أما عينان وأذنان، وهذا منهج التفكير، الشيء وخلاف ما هو عليه:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

معنى سرمداً أي دائماً..

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ)

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّه

أي هل هناك جهة في الأرض تعقد اجتماعاً على مستوى رفيع، وتتخذ قراراً بإحداث الليل ؟ فمهما ارتفع مستوى أقوى دولة في العالم، ونخبة القادة في العالم لو اجتمعوا، وقرروا أن يصنعوا ليلاً، فأي ليل هذا ؟

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ)

لو أن الإنسانية مجتمعة فإنها لا تستطيع:

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

ولو جعل لكم الليل والنهار معاً، هذا أسلوب في البلاغة اسمه اللّف والنشر، كيف اللّف والنشر ؟ أن تأتي بشيئين أو أكثر، وتعيد على كلٍ منهما بالترتيب، فربنا عزّ وجل قال:

وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

الليل..

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

1 – الليل سَكَنٌ وراحة:

النهار.. النهار معاش للسعي، والليل للسكن، لكن الحضارة الحديثة جعلت الآية معكوسة، فأصبح ليل الناس نهاراً ونهارهم ليلاً، وهذا يُسيء إلى صحتهم، لأن ساعة نومٍ في أوّل الليل لا تعدلها ثلاث ساعات في آخر الليل، فهذه الكهرباء، وهذه أجهزة اللهو التي فيها ما لا يُرْضي الله عزّ وجل يمضي الناس وقتهم الطويل وراءها إلى ساعةٍ متأخرة من الليل، أما ساعات الرحمة، وساعات التجَلِّي، والصلاة، والذكر، وتلاوة القرآن، والأنوار، والدعاء، والتَهَجُّد فالناس فيها نيام.

كنت البارحة في مسجد في صلاة الفجر، فرأيت سبعة يصلون فقط، والمسجد في حي مكْتَظ، فقلت: سبحان الله ! كل هذه الأبنية، وكل بناء بخمسة أو ستة طوابق، وكل طابق فيه شقتان أو ثلاث، سبعة أشخاص أو ثمانية، والآن اعمل جولة في مساجد دمشق صباحاً تر قليلاً جداً، صفاً ونصفاً أكثر شيء، ورَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

ولكن أصبح ليلُ الناس نهارا، ونهارهم ليلا، وتصميم ربنا غير هذا، التصميم:

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)

في الليل سكن، وراحة..

لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

معنى ابتغاء فضل الله في النهار:

الابتغاء من فضل الله إما بالعمل بكسب الرزق، وإما بكسب العمل الصالح، وأنت في النهار تدعو إلى

الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتتصدّق، وترعى اليتيم، وترعى الأرملة، وتُعِين أخاك، أو أن تكتسب مالاً تكفي نفسك وأهلك وأولادك، وتنفق منه في طاعة الله، إذاً: ربنا عزّ وجل صمم الليل للسكن والراحة والنوم، وصمم النهار للعمل الصالح:

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

في هذه الآية إشارة إلى الأمر التكويني، وإشارة إلى الأمر التكليفي، فالله كَوّن الأرض ليلاً ونهاراً، الليل للسكن، والنهار للعمل، ولكنّه أمرك أن تشكره لهذه الآيات الدّالة على عظمته..

فيا أيها الإخوة الأكارم، على الإنسان أن يفكر في هذه الآيات التي لا تعدُ ولا تحصى، والتي أحاطنا الله بها، لقوله تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

(سورة القصص)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

هؤلاء الذين زعمتم أنّهم آلهة، أو أعطيتموهم صفات الآلهة، في الماضي قالوا: هذا ودٌ إلهٌ، ثم إله الشمس، وإلهُ القمر، وإله المطر، وإله الخير، وإله الشر، هكذا كان الإغريق، وهذه الشعوب التي هي في آسيا وإفريقيا الوثنية تَدّعي أن هذا الشيء إله، وفي بلاد المسلمين أحياناً الإنسان يدّعي أن زيداً إله، لا يقول: هو إله، بل يقول: يؤذيني، وينفعني، ويرفعني، ويخفضني، ويعطيني، ويحرمني، فمعنى هذا أنك عملته إله، فإما أن تدّعي أن هذا الشيء إله، وإما أن تُسْبِغَ على إنسانٍ ما صفات الإله ؛ بالعطاء، والمنع، والضُرّ، والنفع، وما إلى ذلك، فربنا عزّ وجل يوم القيامة يقول:

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً

(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً)

فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

هذا شهيد الأعمال، اقرأ كتابك، فهو شهيد على أعمالنا:

(فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

(سورة القصص)

لماذا فعلتم كذا وكذا ؟

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ)

عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ

لا لهذه الجهة، ولا لتلك الجهة، وربنا عزّ وجل قال:

(زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

(سورة النور: من الآية 35)

ولكنها عُلوية، والحق عُلوي، فلا يوجد حق شرقي، وحق غربي، بل الحق عُلوي:

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة القصص)

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ

كلُّ هذه النظريات، وهذه الدعاوى، وهذه الأضاليل، وهذه الأوهام، وهذه التحَزُّبات، وهذه الانقسامات، وهذه كلها ما أرادها الله، وما أنزل بها من سلطانٍ، لأن الحق واحد لله، الحق له فقط، والآن شاهد عملي، كل الآيات مترابطة:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: من الآية 57)

وهؤلاء آثروا دنياهم على هُداهم.

مثلٌ بشري في القرآن على الطغيان: قارون:

الآن هذا مَثلٌ عملي: قارون آثر دنياه على الهُدى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص: الآية 76)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (15-18): تفسير الآيتان 76 - 77

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-08-31

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا لم يفرَز القرآن على حسب الموضوعات ؟

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي في سورة القصص إلى قصة قارون، والحقيقة أن بين آيات القرآن الكريم اتصالاً، وارتباطاً، وتسلسلاً، وقد يسأل سائل: لمَ لا تكون آيات الإخباريات في فصل، والكونيات في فصل، والقصص في فصل، وما شاكل ذلك ؟ لِمَ لا يُفْرَزُ القرآن فرزاً موضوعياً إن صَحَّ التعبير ؟

الحقيقة هذا القرآن كتاب هدايةٍ وإرشاد، وربنا سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير، يأتيك بآيةٍ كونية تنبهر لها، ويأتيك بخبرٍ من التاريخ فتتَّعِظُ به، ويأتيك بقصةٍ فتتأثر بها، فمن خبرٍ إلى قصةٍ إلى آيةٍ إلى مشهدٍ إلى إنذارٍ إلى بشارةٍ، فتنوُّع الموضوعات يسير مع النفس البشرية، ولذلك فتنظيم آيات القرآن تنظيمٌ نفسي، لأنه في الأصل كتاب هدايةٍ وإرشاد، فلذلك جاءت قصة قارون.

علاقة قصة قارون بسورة الأحزاب:

ولكن ما علاقتها بالسورة ؟ لها ارتباطان بالسورة.

الارتباط الأول هو أن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة حدَّثنا عن فرعون، وفرعون يُمَثِّل القوة الآمرة الناهية، إذا طغت وبغت فمصيرها هو الهلاك، والقوة الثانية التي تأخذ بالأبصار هي قوة المال يمَثِّلها قارون، فقوة الملك والسلطان يمثلها فرعون، وقوة المال والعلم يمثلها قارون، قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

إذاً: قد يُعْطي الله الملك لمن لا يحبه، وقد يعطيه لمن يحبه، فسيدنا سليمان آتاه الله الملك، وقد يُعطي المال لمن لا يحبه.. مثل قارون، وقد يعطي المال لمن يحبه.. سيدنا ابن عوف، وسيدنا عثمان، صحابةٌ كرام أجلاء أعطاهم الله المال، فإذا كان المال يُعطى لمن يحب ولمن لا يحب، والقوة تعطى لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً لا علاقة لها بالحب والبُغْض، مادامت القوة تعطى لمن يحب الله عزّ وجل ولمن لا يحب، أعطاها لسليمان، وهو يحبه نبيٌّ كريم، وأعطاها لفرعون وهو لا يحبه، والمال أعطاه لقارون وهو لا يحبه، وأعطاه لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يحبه، فإذا كان الشيء يُعْطى أولا

يعطى، إذاً لا علاقة له بالحب والبغض، ولذلك: إذا كان أحد الناس قد آتاه الله المال فلا يذهَبَنّ به الظن إلى أن هذا المال الذي آتاه الله عزّ وجل دليل حب الله له، لا.. فهذا استنباط غلط، استنباط غير صحيح والأدلة قطعية، وإذا جعل الله الإنسان قوياً لا يذهَبَنّ به الظن إلى أن الله يحبه، قد يحبه وقد لا يحبه، يحب الله عبده إذا عبده، ويبغضه إذا عصاه، هذا هو المقياس، فحب الله وبغضه هو في الطاعة والمعصية، لذلك:

سُئِلَ الإمام الجنيد: **" من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، قالوا: أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا.. الولي كل الولي الذي تجده عند الأمر والنهي "**، أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك.

هذه أول علاقة، وقد انتهت قصة فرعون بالغرق، وانتهت قصة قارون بالخَسْفِ، فإذا كان الله عزّ وجل يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ويعطي القوة لمن يحب ولمن لا يحب، فما الشيء الذي لا يعطيه إلا لمن يحب ؟

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

(سورة القصص: الآية 14)

إذا عرفت الله عزّ وجل، وعرفت منهجه، والطريق الصحيح، ولماذا أنت في الدنيا، وسرّ وجودك، ومهمّتك في الدنيا، وسِرْتَ في الطريق الصحيح، وجاءت حركتك اليومية مطابقة لهدفك في الحياة فأنت ممن يحبهم الله عزّ وجل، لأن نعمة الإيمان لا تعدِلُها نعمة:

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

قصة قارون:

القصة:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

(سورة القصص: الآية 76)

1 – مَن هو قارون ؟

هو من قوم موسى، وموسى نبيٌّ كريم، نبيٌّ من أولي العزم، وقيل: إنه ابن عمه، وقيل: إنه على صلةٍ معه شديدة:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى)

إذاً: هناك استنباطٌ دقيق هو: أن الإنسان لو عاش مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم يَسِرْ على منهجه فهذا لا ينفعه شيئاً:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

(سورة المسد)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا إِلَّا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أبو داود]

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ:

((لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ يَبْلُغُهُ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ))

[ابن ماجه]

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى)

كان منهم:

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

1 – معنى: فَبَغَى عَلَيْهِمْ

معنى بغى عليهم أي خرج عن منهجهم، وطريقتهم، وجادّة الصواب، وبغى بمعنى طغى، وأخذ ما ليس له، واعتدى، وتجاوز، وانحرف..

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

2 – لماذا بَغى عَلَيْهِمْ ؟

وقد يسأل سائل: لماذا بغى عليهم ؟ هنا المشكلة، المشكلة هي الغنى، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من الغنى المُطْغي.

هناك شيء خطير جداً وهو الغنى المُطْغِي، فما الغنى المُطْغِي ؟ إذا نما مالُك بأسرع مما ينمو إيمانك يَخْتَلُّ التوازن، المال كثير، والمغريات كثيرة، فأين أسهر هذا اليوم ؟ معي مالٌ وفير، وهذا المال إذا نما ولم يُنْمِ معه الإيمان بالسرعة نفسها فإن الخطر هو اختلال التوازن، والطغيان، والفسق، والغرور، والانحراف جاثم، والخطر قائم، فربنا سبحانه وتعالى كأنَّه في هذه القصة أشار إلى الغنى المُطْغِي، أي من دون علمٍ بالله عزّ وجل يحمل الغنى صاحبه على الفجور، والفسق، والعدوان، وأن يفعل كل شيء:

(إنّ قارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ

ليس عنده كنزٌ واحد، بل كنوز، والكنز يُعَبَّر به عن المال الوفير، وكلكم يعلم أن كل مالٍ مهما كَبُر إذا دفعت زكاته فليس بكنز، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، وأن كل مالٍ مهما قلّ إذا لم تُدفع زكاته فهو كنز، والكنز كما تعلمون:

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

(سورة التوبة)

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

كلمة:

(وَآتَيْنَاهُ)

أي أن هذا الكنز لم يُحَصّله بذكائه، ولا بعلمه، ولا بخبرته، ولا بإمكاناته كما يزعمون، الإنسان إذا قال: أنا هذا حَصّلته بخبرتي، أو بعلمي، أو بتدبيري، أو بقوّتي، أو بجاهي، أو بسُلطاني، أو بسهري الليل الطويل، أو بكدي وتعبي، أو بعرق جبيني، فهذه كلُها كلمات الشرك، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَآتَيْنَاهُ)

إذاً زعمه باطل:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

الله عزّ وجل يعطي ويمنع، يرفع ويخفِض، يبْسِط ويقبض، ويُعِز ويُذِل:

مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ

(إنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ)

معنى ناء بالحمل، أي حمله بتعبٍ شديد، أي حملَهُ وقد انحنى ظهره، وكاد لا يستطيع، فناء بالحمل أي ثَقُلَ عليه الحمل.

مفاتيح كنوزه، أي مفاتيح خزائنه، وصناديقه التي يودع فيها المال.

لو أن عصبة، والعصبة كما تعلمون من ثلاثة إلى عشرة، وقيل: من عشرة إلى عشرين، وقيل: أربعون، على كلٍ أصَحُ الأقوال أن القرآن الكريم وصف إخوة يوسف بأنهم عصبة، والعصبة عشرة أو تسعة، وما شاكل ذلك، إذاً: عشرة رجالٍ أشِدّاء، أقوياء، مَفْتولو العضلات، لو أرادوا أن يحملوا مفاتيح كنوزه لكان هذا الحِمْلُ عليهم ثقيلاً، فكم هي كنوزه ؟

يروى أن بعض أغنياء اليهود واسمه روتشيلد كان يضع سبائك الذهب في غرفةٍ كبيرة، وكثيراً ما اقترضت منه الحكومة، دخل مرةً إلى غرفة سبائكه الذهبية فأُغْلِقُ عليه الباب خطأً، والباب لا يفتح إلا من الخارج، فبقي أياماً، وكان لكثرة أسفاره وتَنَقّلاته اعتاد أهله أنه يغيب فجأةً، وينتقل من بلد إلى بلد، فظنوه مسافراً، إلى أن ألوى به الجوع، فجرح أصبعه، وكتب على جدار هذه الغرفة: **" أغنى رجل في العالم يموت جوعاً ".**

ولذلك الذي يظُنُّ أن المال هو كل شيء هو في ضلالٍ كبير، تمُرُّ الأيام والسنون فإذا بريق المال يضعف، ويكتشف الرجل حقيقة، ولكن بعد فوات الأوان ؛ أن المال ليس كل شيء، ولكنه شيء، فإذا جاء ملَك الموت يكتشف الرجل أن المال ليس بشيء إطلاقاً، إذاً:

(وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إنّ مَفَاتِحَهُ)

مفاتحه جمع مَفْتَح، والمفتح هو المفتاح، مفتاح، مفاتيح، مَفْتَح، مَفاتِح:

(مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ)

رجال أشداء، أقوياء..

(إذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ)

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ

1 ـ بماذا يكون فرحُ المؤمن ؟

هنا موطن الشاهد، يا أخي الكريم... ما الذي يُفْرِحُك ؟ وما الذي يملأ قلبك سروراً وغبطة ؟ ويجعلك تطيرُ فرحاً ؟ ويجعلك في انبساط ؟ أهو المال ؟ فإذاً أنت من أهل الدنيا، أم هي معرفة الله عزّ وجل ؟ إذاً أنت من أهل الآخرة، قال بعض العلماء: **" انظر ما الذي يفرحك ؛ أن تأخذ أم أن تعطي ؟ إذا كان الذي يفرحك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان فرحك بأن تعطي فأنت من أهل الآخرة "**، هذا مقياس دقيق جداً:

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ)

لا تفرح بهذا المال، لأن هذه الدنيا كما قال النبي الكريم:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

الرخاء مؤَقّت، والشقاء مؤَقّت، وقد جعلها الله دار بلوى، وليست دار استقرار، ولا دار مقام، ولا مَحَطّ الرحال، ولا نهاية الآمال، إنها ممر وليست مقراً..

((قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقْبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

إذاً لا تفرح ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: الآية 58)

2 ـ الغنى ليس معيار زائدا على الإيمان:

المؤمن يفرح برضوان الله، أي إذا شعرت أن الله يحِبُّك، وأن الله راضٍ عنك حُقّ لك أن تفرح، وكذلك إذا اصطلحت مع الله، وإذا أزلت هذه المعصية، وإذا قدر الله على يديك عملاً صالحاً، وإذا هديت إنساناً إلى طاعة الله، فهذا هو الفرح الحقيقي، إذا فهمت آية من كتاب الله حُقَ لك أن تفرح، إذا فهمت سنة النبي، وإذا وقفت على دقائق سيرة النبي، أما إذا كان فرحك بالمال، فهذا الذي يفرح بالمال.. طبعاً المعدوم إذا جاءه المال ليمسك رمقه فهذا فرح طبيعي، أما بعد أن يقضي الإنسان كل حاجاته، فإذا كان

همه الأول أن يُكَدِّس الأموال، وأن يجمعها فهو من زمرة قارون، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنّه يُحْشَر مع قارون، فهذه القصة قصة أصحاب الأموال ممن هم بعيدون عن الله عزّ وجل.

لا تقل لي: هذا الرجل غني إذا كان مؤمناً، فهذا مؤمن فقط، لا يضاف على الإيمان كلمة واحدة، لأنّك إذا رأيت غنياً مؤمناً فإنك تشتهي الغنى منه من تواضعه، وسخائه، وحُبِّه للناس، ورأفته بهم، إنفاقه من ماله عليهم، لا تقل لي: غني مؤمن، قل لي: مؤمن فقط، كلمة مؤمن غني لا معنى لها، مؤمن أي متواضع، يعرف الله عزّ وجل، فإذا تحدثنا عن الغنى فالغنى مرافق للبعد عن الله عزّ وجل، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[سنن الترمذي]

الغني غير المؤمن يُشعِرُكَ بالحرمان، وأنه لا قيمة لك، فقيمتك عنده بقدر ما تملك من مال، ولهذا قال سيدنا عمر: **<<من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط، ومن جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، وشرف المؤمن قيامُه بالليل، وعِزّه استغناؤه عن الناس، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، وابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير >>.**

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

لَا تَفْرَحْ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ

وطبعاً هذا الفرح المُقيد بالمال، فالله عزّ وجل لا يحبك أن تفرح بالدنيا لأنها زائلة، وخلقك للآخرة، ولعطاءٍ كبير، فإذا فرحت بهذا النزرِ اليسير فأنت لا تعلم شيئاً، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: الآية 77)

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

ولذلك: قل لي ماذا يُفْرِحك أقل لك من أنت. راقب نفسك تماماً، ما الذي يملأ قلبك فرحاً ؟ أن يكون الله راضياً عنك أم أن يكون جيبك ملآن ؟ وما الذي يفرحك ؟ أهذه الأوراق المُكَدّسة في خزانتك، أم هذه الأعمال الصالحة المُسَجّلة في صحيفتك ؟ أيفرحك أن تكون سبباً في هداية مخلوق، أو أن تكون سبباً في حرمان أُناسٍ كثيرين ؟ خلصتهم الصفقة، فما الذي يفرحك ؟

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

لماذا يعطي الله المال للإنسان ؟ وَابْـتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

ولكن الآن جاء الشيء الخطير جداً، لماذا يعطي الله المال للإنسان ؟ ولماذا يعطيه الصحة ؟ والعلم ؟ والخبرة ؟ وقوة الإقناع ؟ والجاه ؟ والقوة والسلطان ؟ فإذا آتى الله الإنسان شيئاً فلماذا يؤتيه إيّاه ؟ وهنا جاء الجواب:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

كلّ شيءٍ آتاك الله إياه إنما آتاك إيّاه لهدفٍ واحد هو: أن تستثمره، لا أن تستهلكه، وهذا درسنا كله، إن آتاك الله مالاً فعليك أن تستثمره في العمل الصالح، ومعونة الضعفاء، وإطعام الجياع، وإيواء المُشَرّدين، وتزويج الشباب، وتأمين حاجات الضعاف والمساكين، وهكذا، وسيدنا أبو ذر الغفاري قال: **<< حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرّب به إلى ربي>>.**

المال قوة كبيرة جداً، أن تكون ذا مالٍ وفير، وبإمكانك أن تدخل إلى قلوب الآلاف من الناس، هذا بإقراضه، وهذا بالإحسان إليه، وهذا بمعونته، وهذا يأتي معك إلى المسجد، وهذا يتوب على يديك، وهذا يُقْبِلُ معك على الله عزّ وجل، وهذا تأخذ بيده، عن طريق المال:

" يا داود، ذَكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبِلَتْ على حُبِّ من أحسن إليها، وبُغْضِ من أساء إليها ".

وقد تُلَبّي حاجة إنسانٍ فتفيده بهذه الحاجة أضعاف ما تفيده بمحاضراتك الفَصيحة والبليغة، والإنسان عبد الإحسان، وأصحاب الأموال والله الذي لا إله إلا هو أمامهم أبوابٌ للعمل الصالح لا يعلمها إلا الله، إنها أبوابٌ مفتحة على مصاريعِها..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

عمومُ قولِه: آتَاكَ اللَّهُ

الآية عامة، مطلقة، آتاك الله علماً فابتغ به الدار الآخرة، وآتاك الله شأناً فانصر به الضعفاء، واطلب به الدار الآخرة، وآتاك الله قوة إقناع، ولساناً طليقاً فانصر به المظلومين، وابتغ به الدار الآخرة، وآتاك الله قوةً فابتغ بها الدار الآخرة، آتاك الله خبرةً فارجُ بها الدار الآخرة، وآتاك الله علماً فاطلب به الدار الآخرة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

فأنت الذي معك إما أن تستثمره، وهذا هو العقل، وإما أن تستهلكه.

مثلاً: لو معك عشر ليرات، كل ليرة يمكن أن تجلب لك مليوناً بطريقة معينة، فذهبت، واشتريت بهذه الليرات طعاماً وأكلته، هذه خسارة كبيرة جداً، فهذه الورقات العشر يمكن أن تجلب لك عشرة ملايين بطريقةٍ أو بأُخرى، أنت استهلكتها ولم تستثمرها، فالمال ينبغي أن تستثمره في إنفاقه في سبيل الله، أما إذا أنفقته على التَرَفِ، والسَرَفِ، والرفاهية، والانغماس في الملَذّات فقد استهلكته، هذا إذا كان مباحاً، أي إذا لم يوجد معاصٍ، إذا أنفته في المباحات فقد استهلكته، أما إذا أنفقته في الأعمال الصالحة فقد استثمرته:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

1 – مفهومٌ شائع غير صحيح:

إن معظم الناس يفهمون هذه الآية على غير ما أراد الله، إذا دَخَلْتَ إلى بيتٍ، ورأيت صاحبه قد عُنِيَ به عناية، قال لك: أخي، الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وإذا انغمس الإنسان في الطعام والشراب وبعض المَلَذّات يقول لك: الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

2 – المعنى الصحيح للآية:

مع أن هذه الآية من أدَقّ الآيات، أي يا أيها الإنسان، أنت لماذا جئت إلى الدنيا ؟ من أجل العمل الصالح، نصيبك من الدنيا هو العمل الصالح، وكل شيءٍ آخر لا قيمة له، لأنه زائل، فإذا أرسلنا طالباً إلى دولة أجنبية له مهمةٌ واحدة، وهي أن يدرس، فلو أنه أمضى هذا الوقت في المتنزّهات، والأماكن اللطيفة، واللقاءات، والسهرات، والندوات، وبعض الملاهي، والحفلات، والحدائق، وفي النوم، والراحة، والاستجمام، والسباحة، والرياضة، فماذا يفعل ؟ يعمل شيئاً خلاف مُهمّته، وخلاف نصيبه من هذا البلد، نصيبه من هذه البلدة أن يأتي بشهادةٍ عُليا، وأن يحمل دكتوراه، فأية حركةٍ، وأي نشاطٍ، وأي تصرفٍ، وأي سلوكٍ لا يتصل بمهمته فهو مضيعةٌ وخسارةٌ وحمق:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

أيها الإنسان، كما قال الله عزّ وجل:

((عبدي، خلقتُ لك السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحَقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي، إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرّية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد فإذا سَلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تُريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر القدسي]

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

هذا الذي قُلْتُه خطبة: " يا بِشر، لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً " ؟

3 – سؤال خطير: بماذا تلقى الله عزوجل ؟

والله الذي لا إله إلا هو ما من سؤالٍ أَخْطَرُ من هذا السؤال، بمَ ألقى الله عزّ وجل ؟ فما العمل الذي هَيَّأته للقبر لساعة الفِراق ؟:

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38))

(سورة القيامة)

فالذين يدرسون، ويتعبون، ثم يحصلون على الشهادات هؤلاء المساكين يأخذون هذه الشهادات ليفتخروا بها، أو ليكسبوا بها المال فقط، لا.. وأنت تَعَلّمت علماً ينبغي أن توَظِّف هذا العلم للدعوة إلى الله عزّ وجل، أنت أصبحت طبيباً، فيجب أن تستغل طِبّك في هداية الخلق والإحسان إليهم، وأصبحت تاجراً، فيجب أن تبذل هذا المال في تقوية معنويّات المؤمنين، وإشعارهم أنَّهم في رعاية الأغنياء وحفظهم، لا، هم منبوذون، بل هناك من يرعاهم.

يا أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية تكفي، والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله غيرها لكفت.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: الآية 77)

شهاداتك، زواجك، ابتغ به الدار الآخرة، وهذه الزوجة اطلب بزواجها الدار الآخرة، وبيتك اجعله بيت ذكرٍ وقرآنٍ، ودعوة إلى الله عزّ وجل، وهذه غرفة الضيوف يجب أن تشهد لك يوم القيامة كم من سهرةٍ

فيها ذُكِرَ الله، أم كم من سهرةٍ لُعِبَ فيها الشطرنج، أم بالنرد، أم بالحفلات، أم بالمزاح، أم بالغيبة، غرفة الضيوف ابتغِ فيها الدار الآخرة، وكذلك غرفة الجلوس، وغرفة الطعام الفقراء والمساكين على أطيب الطعام، شَرُّ الطعام طعام الولائم، لأن الأغنياء يُدْعَون إلى هذا الطعام والفقراء محرمون منه، فاسعدْ بهذه الغرفة غرفة الطعام، وكذلك بهذه المركبة، انتقل بها إلى المسجد، واجعلها في خدمة أهل الحق، يركب معك المؤمنون أصحاب البيوت البعيدة، فوَظِّف هذه المركبة في خدمة أهل الإيمان، ابتغ بها الدار الآخرة، هذا الثوب الجديد الذي اشتريته اطلب به الدار الآخرة، وانو به أن تكون ذا مظهرٍ حسن مقبول عند الناس، أنت مؤمن تُمَثِّل هذا الدين العظيم، كُنْ بهيئةٍ حسنة، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

فابتغ بهذا البيت الدار الآخرة، وإذا اشتريت كتباً فاطلب بها الدار الآخرة اقرأها، وافهمها، وادع إلى الله بها، وهذه آيتنا اليوم، هذه آية هذا الدرس..

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

شعار المؤمن: إلهي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، وذلك إذا تَزَوَّج المؤمن، وإذا سافر، وإذا جلس مع أهله وأولاده، وإذا لبس الجديد، وأكل الثريد، كله أعمال صالحة، لأنه لا يبتغي بهذا إلا الله والدار الآخرة، لا يبتغي بها الدنيا.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: الآية: 77)

4 – يا لها مِن حسرة إذا جئتَ إلى الدنيا ثم غادرتَها ولم تعرف لماذا عشتَ ؟

آه، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تغادرها، ولا تعلم لماذا أنت في الدنيا ؟ إذا نظرت إلى ميتٍ في نَعْشِهِ، وقد وضع النعش على القبر، ورُفِعَ الغطاء، وحُمِلَ هذا الميت في كفنه، وأدخل في القبر، فالسؤال خطير: هذا المَيّت هل جاء إلى الدنيا وغادرها، وقد عَرَفَ لماذا هو في الدنيا ؟ وهو في زحمة كسب المال جاءته أزمةٌ فأودت به، وهو في زحمة رحلاته الممتعة جاءه مرضٌ عضال فأنهى حياته، وهو في زحمة خصوماته مع الناس، دعاوى في قصر العدل لها ثماني سنوات، جاء ملك الموت فأنهى الدعوى، وشطبت، وتوفى المُدّعي، وهكذا أنت أيها المؤمن يجب أن تأتي إلى الدنيا، وأن تغادرها، وقد عرفت مهمتك.

5 – ماذا تركتَ وراءك في الدنيا من الأعمال الصالحة ؟

والنبي الكريم مثل أعلى، جاء للدنيا وغادرها، ماذا ترك ؟ ترك الهدى، والفضيلة، والسعادة، والأنوار التي أشرقت حتى الصين، قد تذهب إلى أقصى البلاد، إلى أقصى آسيا مثلاً فترى مئذنة يُذْكَر الله فيها، وترى مسجداً، وترى مؤمناً في أذربيجان، وفي أقصى الشمال، وأقصى الجنوب، وأقصى الشرق، وأقصى الغرب، هذا ما فعله النبي، فماذا فعلت أنت ؟

وبشكل آخر، ماذا تركت في الدنيا من أعمالٍ صالحة ؟ هل كنت أباً مثالياً ؟ أيَّتُها المؤمنة هل أنتِ أمٌ مِثاليّة ؟ وهل أنتِ أمٌ صالحة ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((أيّما امرأةٍ قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[ورد في الأثر]

قعدتِ على بيت أولادك، اعتنيت بهم، أطعمتهم، نَظّفتهم، وهكذا.

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ

ما هو نصيبك من الدنيا ؟ قال:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

الله عزّ وجل أحسن إلينا بنعمة الإيجاد، فكل واحد منا سنة 1900، لم يكن أحد منا موجودا، ولم يكن له اسم بالسجلات، من أنت ؟ فلان الفلاني، ألف وتسعمئة ؟.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد ؛ جعلك من أبوين يعطفان عليك، يقدّمان لك كل شيء، ربياك حتى كَبُرْت، نعمة الإمداد، الهواء، والماء، والطعام، والشراب، والفواكه، والمأوى، والفِراش الوثير، والماء الوفير، وما شاكل ذلك، ثم أنعم الله عليك بنعمة الإرشاد، إذاً: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 77)

أنواع الفساد: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

النوع الأول:

هنا آيةٌ دقيقةٌ جداً، هذا الغني، إذا أراد أن يَغْرَقَ في الترف، أي إذا أراد أن يجعل من بيته قبلَة الأنظار، أن يجعل من أنماط حياته الراقية مساراً للإعجاب، فماذا يفعل ؟ يُفْسِد وهو لا يدري، لماذا ؟ لأنه يخلق شعور الحرمان عند الناس، ويخلق فيهم الحسد، والبغضاء، والحرمان، ولذلك فالفقراء إذا رأوا الغني قد ألَمّت به المُلِمّات لماذا يفرحون ؟ لما عندهم من حسد وبغض، أما إذا كان هذا الغني متواضعاً، وكان معتدلاً في طعامه وشرابه وبيته، من دون إسرافٍ ولا مخيلةٍ، لا يشعِر الناسَ بالحرمان، ولذلك المبالغة في الترف، والزينة تخلق في قلوب الناس الحسد والضغينة والإحساس بالحرمان، هذا أول أنواع الفساد، لم يفعل شيئاً، لطيف المعشر، رقيق الحاشية، متواضع، لكنه أغرق نفسه في نعيمٍ لا نهاية له، فكلّما رأى فقيرٌ هذا البذخ، وهذا الترف، والإنفاق وفي الطعام، وما شاكل ذلك شعر بالحرمان، والصغار، وبالانكماش، وإذا كان غير مؤمنٍ شعر بالحقد، والحسد، والضغينة، هذا هو أول أنواع الفساد، حينما يبالغ الغني في زينته، وعرض ما عنده، حينما يغْرَق في النعيم والترف، والملذّات، طعامه وشرابه، ورحلاته، ونزهاته، وثيابه، ويعرضها على الناس، ويذكر لهم مصدرها هذه أجنبية، وسعرها، وأنواعها، وكثرة الثياب بالخزانة، فإذا فعل الغني هذا أفسد وهو لا يشعر، وهذا أول أنواع الفساد.

النوع الثاني:

أن يحرم أصحاب الحقوق حقوقهم، وهذا فساد آخر.

النوع الثالث:

أن يأخذ ما ليس له، وهذا أصعب، فإيقاع الإحساس بالحرمان فساد، ومنع الحقوق فساد، وغَصْبِ الأموال فساد.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

في الأثر:

((أن الأغنياء يحشرون أربع فرقٍ يوم القيامة، فريقٍ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وهي قضية سهلة جداً، يحاسب بلمح البصر، وفريقٍ جمع المال من حلال، تجارة مشروعة، وأنفقه في حرام، على ملذّاته ولياليه الحمراء وموائده الخضراء، وسهراته المخملية كما يقولون، فيقال: خذوه إلى النار، فحسابه كذلك سريع، وفريقٍ جمع المال من حرام، عنده ملهى أو مقْمَرة، وأنفقه في حلال، تزوج، واشترى بيتاً، وأكل وشرب، فيقال: خذوه إلى النار، أيضاً حسابه سريع، وفريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، فهذا الذي يحاسب، ويقال: قفوه فاسألوه، وهل تاهَ بماله على عباد الله، هل قصّر في حق جيرانه، هل قال من حوله: يا رب قد أغنيته بين أظهرنا فقصّر في حقنا))

هكذا يروي النبي عليه الصلاة والسلام، أنه وقف ينتظر حسابه رآه طويلاً جداً، سؤال وراء سؤال، قائمة أسئلة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فما زال يُسأل ويسأل))

فهذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

فأنا أريد أن أقول لكم: ليس الغني الشاكر بأقلّ أجراً من الفقير الصابر، ولكن الغنى مسؤولية، يحتاج إلى إيمان لكي يكون متواضعا، لأن الحديث القدسي:

((أحب الطائعين، وحبّي للشاب الطائع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاثٍ أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبّرين، وبغضي للفقير المتكبّر أشد، أبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

إذاً:

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

مهمتك معرفة الله، ومعرفة أمره، استقامتك على أمره، والأعمال الصالحة التي تقرّب إليه، أن تكون مع أهل الحق،

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

الإحسان مبتَغى كل مؤمن، والإساءة هدفُ كل كافرٍ:

بل إن نصيبك من الدنيا يُلَخّص بهذه الآية.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

جوهر عملك الإحسان.. فالأنبياء العظام جاءوا إلى الدنيا فأعطوا ولم يأخذوا، والأشرار أخذوا ولم يعطوا، فأنت ماذا أعطيت ؟ وماذا قدّمت للمسلمين ؟ ولأمتك، ولأبناء بلدك، وماذا فعلت ؟.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: الآية 77)

فباللغة الحديثة استراتيجية المؤمن الإحسان، واستراتيجية الكافر الإساءة والأخذ، والمؤمن العطاء والإحسان.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص: الآية 77)

كم معنى ؟ ثلاثة: أول معنى: إذا بالغت في إظهار ما عندك للناس، وافتخرت به، وجمعت الناس، وأطلعتهم على ما عندك، وأثمان ما عندك، وكيف أمضيت العطلة، وأين سافرت ؟ وماذا أنفقت ؟ وفي أي فندق نزلت؟...إلخ، فهذا ماذا يفعل في نفوس المؤمنين ؟ يفعل الإحساس بالحرمان، والضيق، وفي نفوس غير المؤمنين، الضغينة والحسد والبغضاء والحقد، أول نوع من الفساد.

ومن الفساد أن تمنع حقوق الآخرين.

فهو يرضى بهذا المعاش القليل، وأنت في بحبوحة كبيرة، يرضى، لكن هذا المبلغ لا يكفيه، فأعطه ما يكفيه، ولك عند الله الأجر والثواب، إذاً: حرمان الآخرين من الحقوق هذا فساد.

وأن تأخذ ما ليس لك أيضاً فساد، ففي إلقاء بذور الحسد والحقد إفساد، وفي حرمان أصحاب الحقوق إفساد، وفي العدوان على أصحاب الحقوق إفساد.

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

فيجب أن تسعى أن يحبك الله عزّ وجل، فهو يحب المحسنين، ويحب الصادقين، والتوّابين، والمؤمنين، ولا يحب المفسدين، والفاسقين، والكافرين، والظالمين، فالآية دقيقة.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

ماذا قال قارون ؟ هذا ما يكون في الدرس القادم، أجابهم فقال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

بذكائي وخبراتي، وسهري الطويل، وسَعْيي وإمكاناتي، لا، هذا من جهدي، وأنا حرٌ بمالي، هذا الموضوع إن شاء الله نبحثه في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 77 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-07

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخّصُ الدرس الماضي:

1 – قوة السلطة وقوة المال:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة القصص، وقد بدأنا في الدرس الماضي قصة قارون، وبيّنتُ لكم أن هذا الإنسان يُمَثِّل قوة المال، فإذا كان فرعون يمثل قوة السلطان فإن قارون يمثلُ قوة المال.

2 – ليس المال والسلطة معيارا لمحبة الله لعبدِه:

وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى يُعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، وكذلك يعطي القوة لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً المال والقوة لا علاقة لهما برضوان الله عزّ وجل، رضوان الله عزّ وجل أساسه طاعته، فإذا كنت على منهج الله عزّ وجل ومطبقاً لأمره فأنت في رضوانه، وإذا كنت مخالفاً لأمره، أو في معصيته فأنت في سَخَطِه، أما أن تكون غنياً أو فقيراً فهذا لا يُقَدِّم ولا يؤَخِّر، لأن الله سبحانه وتعالى أعطى المال لمن يحب، أعطاه لسيدنا ابن عوف، ولمن لا يحب مثل قارون، وأعطى القوة لمن يحب، مثل سيدنا سليمان، ولمن لا يحب مثل فرعون، فمادام الشيء يعطى لمن يحب ولمن لا يحب فهو إذاً ليس مؤشراً صحيحاً على حبِّ الله عزّ وجل، أما ما يدّعيه بعض الأغنياء من أن الله يحبهم، والدليل أنه أعطاهم المال، هذا كلامٌ لا يقوم على أساس.

3 – فبغى عليهم بماله:

إذاً بينت لكم في الدرس الماضي أن هذا الإنسان قارون كان من قوم موسى

(فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

والبغي هو الخروج عن المنهج، والخروج عن الصراط المستقيم.

(وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص: الآية 76)

وإن كانت هذه الواو عاطفة إلا أن بعض العلماء يقول: إن سبب بغيه وانحرافه وطغيانه هو هذا المال الذي جعله الله بين يديه، إذاً: إذا نما المال بأسرع مما ينمو الإيمان فهناك خطرٌ كبير، وهو أن يختلّ التوازن، ويصبح هذا المال سبباً ليحمل صاحبه على المعصية، هذا سمّاه النبي عليه الصلاة والسلام الغِنى المُطْغِي، الغنى المُطْغِي أن يَدْفَعُكَ المال إلى معصية الله..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص: الآية 76)

أيضاً المال إذا دُفِعَتْ زكاته فليس بكنز، أما إذا لم تدفع زكاته فهو كنزٌ، وأصحاب الكنوز لهم حسابٌ خاص عند الله عزّ وجل.

(وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص)

4 – لاَ تَفْرَحْ إِنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ

هذا مقياس دقيق، قال له قومه العلماء العقلاء:

(لاَ تَفْرَحْ إِنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ)

أي بالدنيا.

المؤمن يفرح بطاعة الله:

لذلك قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، المؤمن يفرح بطاعته لله، يفرح بفهمه لكتاب الله، يفرح بفهمه لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، يفرح إذا أمر بالمعروف إذا نهى عن المنكر، إذا وفّق بين اثنين، إذا كان شفيعاً في نِكاح، إذا دعا إلى الله، يفرح إذا قدّر الله على يديه عملاً يُسْعِده في الآخرة، هنا يفرح فرحاً عظيماً، لذلك إذا فرحت بالدنيا فهذه علامة، وإذا فرحت بالعمل الصالح فهذه علامة، لذلك قال بعض العلماء: **" إذا فرحت بالعطاء فأنت من أهل الآخرة، أما إذا فرحت بالأخذ فأنت من أهل الدنيا "**، هذه قاعدة..

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

هناك آيات أخرى يصف الله سبحانه وتعالى فيها أهل الجنة، ويصف أحوال المتّقين ويقول:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

فكلمة هنيئاً، تهانينا، مُبارَك، هذه الكلمات نقولها اليوم لمن يحوز بيتاً أو مركبةً، أو متجراً، أو بستاناً، أو حديقةً، أو منصباً رفيعاً، ولكنّك إذا أردت أن تكون صادقاً مع أخيك، كلمة هنيئاً ومباركاً، وأرجو لك التوفيق، هذه الكلمات يجب أن تقال لمن اصطلح مع الله عزّ وجل، ولمن قدّر الله على يديه الأعمال الصالحة، لمن سمح الله له أن يعرفه، لمن سخره الله في خدمة العباد، لمن اصطنعه الله لنفسه، لمن جعله الله داعيةً للحق، إذا كنت في عملٍ طيّب تسعد به في الآخرة حقاً فهنيئاً لك ومبارك، أما البيت الفخم فلا بدّ من أن تتركه، والزوجة الجيدة لا بدّ من أن تتركها، أو من أن تتركك، والمال الوفير لا بدّ من أن تتركه، إذاً: هذا الكلام لا معنى له.

5 – وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ

وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

أي أن الله عزّ وجل آتاك هذا المال، وكلمة مال في الفقه لا تعني المال فقط، تعني كل شيء، البيت مال، مال غير منقول، هكذا يعبّرون في بعض البلاغات، أموالهم المنقولة وغير المنقولة، أمواله غير المنقولة ؛ البستان، البيت، المنقولة ؛ هذا النقد الذي بين أيدي الناس، إذاً: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به فهو مال، المركبة مال، البيت مال، الثياب مال، فربنا عزّ وجل قال:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

ماذا فعلتَ فيما آتاك الله ؟

والله هذه الآية يجب أن تكون شعار كلّ مسلم، آتاك الله بيتاً هذا البيت كيف تستخدمه ؟ في سهراتٍ حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل ؟ في القيل والقال ؟ في الغيبة والنميمة ؟ في لعب النرد ؟ في سهرةٍ مختلطة لا ترضي الله عزّ وجل ؟ أم أن هذا البيت الذي اشتريته تستخدمه في تعريف الناس بالله عزّ وجل.

هذه الغرفة كم شهدت من لقاءاتٍ أثمرت توبةً نصوحاً، غرفة الجلوس جلست فيها أنت وأهلك وأولادك كيف كان الحديث ؟ هل ابتغيت بها وجه الله ؟ غرفة الطعام كما قُلت، هذه المركبة، هذه الشهادة العالية التي نِلتها استخدمتها في العلو، أم في إقناع الناس بالحق ؟ إذا عرف الناس أنك تحمل شهادة عُليا، يظنون بك أنّك عالم، فإذا وظّفت هذه الشهادة في تعريف الناس بالله فقد ابتغيت بها الدار الآخرة.

أنجبت أولاداً لماذا أنجبتهم ؟ هل ليكونوا أولاداً صالحين يعبدون الله من بعدك ؟ أم كي تعتز بهم ؟ فلان طبيب، فلان يحمل شهادة كذا، بعثته إلى لندن ليتعلم لغة إنكليزية ليكون له لغة جيدة، ولم تنتبه ماذا فعل في هذه البلدة، وقع في الزنا، أو وقع في الحرام، المهم أن يعود من هذه البلاد الكافرة يحمل شهادة عُليا كي تزهو به أمام الناس هكذا ؟ أأنجبت هذا الولد كي تفتخر به أم من أجل أن يكون ولداً صالحاً يعبد الله من بعدك ؟..

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

حتى صِحّتُكَ، فهذه الصحة إذا نعمت بها بماذا تستخدمها في الاسترخاء وفي الاستمتاع ؟ أم تستخدم هذه الصحة في طاعة الله، وفي خدمة الخلق ؟

هذا الذكاء الذي أعطاك الله إياه أتستخدمه في جمع المال أم في التفكّر في الواحد الديّان ؟ كيف تهدي الناس ؟ كيف تُعين الناس ؟ كيف توفِّق بين الناس ؟ هذا الذكاء.

هذه العضلات، هذه العين ترى بها مباهج الدنيا أم ترى بها آيات الله عزّ وجل ؟

هذه الأذن تستمع بها إلى الغناء أو إلى الكلام الساقط، أم تستمع بها إلى الحق وإلى القرآن الكريم ؟

هذا اللسان تستخدمه في الإيقاع بين الناس أم في الفُحش والبذاءة، أم تستخدمه في نقل الحق للناس، في الأمر بالمعروف ؟

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ)

آتَاكَ اللهُ فكراً، آتاك الله عينين، أذنين، لساناً، يدين، رجلين، صحة، فراغاً، أمناً.

الأمن من نعم الله عزّ وجل، أنت مطمئِنٌ هادئ البال، هذا الأمن استخدمته في النزهات، أم في عبادة الله عزّ وجل ؟ هذه آية سبحان الله ! تَسَعُ الناس جميعاً، كنت أقول هذه العبارة دائماً: لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفتنا:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

أنت نجّار أعطاك الله عزّ وجل هذه الصنعة أتستخدمها في تقديم صنعةٍ متقنةٍ فيها نصيحةٌ، وفيها اعتدال في السعر لمسلمٍ حتى يدعو لك طوال حياته ؟ جزى الله عني فلانا صنع لي هذه الغرفة، والله جيدة ممتازة سعرها معتدل، أنت حدّاد، أنت بائع، هل أطعمت الناس طعاماً صيحاً طيباً نظيفاً بسعرٍ معتدل أم غششتهم ؟ أنت بائع أقمشة أي شيءٍ آتاك الله عزّ وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

أن تبتغي بما آتاك الله الدار الآخرة، هذا هو نصيبك من الدنيا، أي جئت إلى الدنيا، وخرجت منها من أجل أن يكون لك عملٌ صالحٌ تسعد به إلى الأبد، نصيبك من الدنيا العمل الصالح فأن تبتغي..

(فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

هو نصيبك من الدنيا، وقد ضربت لكم مثلاً في الدرس الماضي: أن إنسانا أرسلته حكومته إلى بلد أجنبي كي يحصِّل شهادة عُليا، مرة إمبراطور اليابان أرسل سبعة طلاب يابانيين في مطلع عصر النهضة ليتعلموا العلوم العصرية في فرنسا، هؤلاء الطلاب اليابانيون يبدو أن بريق الحضارة، ومباهج الحياة في فرنسا سَلَبَ لُبّهُم، فسقطوا وأمضوا أوقاتهم فيما لا علاقة له بالدراسة، وبعد سنواتٍ أربع عادوا مخفقين فأعدمهم الإمبراطور، وأرسل سبعة آخرين، السبعة الآخرين كُلّما حَدّثتهم نفوسهم أن ينزلقوا، أو أن يستمتعوا تذكّروا هؤلاء الذين دفعوا الثمن باهظاً، فمن أجل ماذا أنّك جئت إلى الدنيا؟ النبي عليه الصلاة والسلام حينما دُعِيَ إلى اللهو قال كلمة لا تُنسى، تكتب بماء الذهب قال:

((أنا لم أخلق لهذا))

[ورد في الأثر]

خُلِقَ النبي عليه الصلاة والسلام، وخلقت أُمّتُه وجميع الناس لهدفٍ نبيل، هذا هو النصيب من الدنيا:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

6 – وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

مدرّس، طبيب، مهندس، بائع، صانع، نجّار، من أصحاب المهن الرفيعة أو غير الرفيعة، ماذا فعلت كي تلقى الله عزّ وجل ؟ ما الشيء الذي قدّمته ؟ ما الشيء الذي أعددته لساعة اللقاء مع الله عزّ وجل ؟ هذا:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وكيف أن معظم الناس يفهمون هذه الآية على نحوٍ آخر، أي إذا ذهب إلى نزهةٍ، وأكل، وشرب، واستمتع، وكذا يقول لك: الله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَ)

وإذا جلس مع أهله، وأمضى سهرةً في كلام فارغ يقول لك: **" ساعة لك وساعة لربك ".**

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

لا.. هذه الآية ما أراد الله بها إلا المعنى الذي يفرضه السياق، سياق الآيات:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

أن تبتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة هو نصيبك من الدنيا، إذاً: إذا أرسلنا طالباً إلى بلدٍ أجنبي ليُحَصّل شهادةً رفيعة عاليةً قد يبعث له أبوه كل شهرٍ برسالة يقول له: لا تنس الدراسة يا بني، لا تنس أن ينتهي هذا العام، وقد نجحت بتفوّق، لا تنس أنك لم تذهب إلى هذه البلدة إلا كي تدرس، إيّاك أن تحيد يميناً أو

شمالاً، وأنت جئت إلى الدنيا من أجل أن تعرف الله، وأن تستقيم على أمره، وأن تعمل الصّالحات تقرُّباً إليه كي تسعد في الدنيا والآخرة:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص: من الآية 77)

منحك الله نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أنت حسنة من صنع الله عزّ وجل، وجودك حسنة، إمدادك حسنة، هدايتك حسنة، بماذا تقابل هذا العطاء ؟

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

7 – وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

فُسِّرت في الدرس الماضي أن الفساد، إذا بالغت في طعامك وشرابك وزينتك، والناس من حولك في حرمان، أوقعت فيهم مشاعر عدة، عند المؤمنين يشعرون بالحرمان، وعند غير المؤمنين يشعرون بالحِقد والبغض والكراهية، فإذا قصّرت في حَقّهم فقد أفسدتهم، فإذا اغتصبت أموالهم فقد أفسدتهم، إظهار الزينة يضاف إليها التقصير في أداء الحقوق، يضاف إليها العدوان على حقوق الآخرين، هذا كله مما تعنيه كلمة:

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

8 – وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

وكم أتمنى عليكم أن تقرؤوا كتاب الله عزّ وجل، وتبحثوا ماذا يحبُّ الله عزّ وجل، وماذا لا يحب ؟ وهذه واحدة منهم:

(لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

(سورة الحج)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77))

(سورة القصص)

لا يحب الكاذبين، لا يحب الظالمين، لا يحب الفاسقين، بل يحب المؤمنين، يحب الصادقين، يحب التائبين، يحب التوابين، يحب الصابرين، هكذا..

إلى هنا وصلنا في الدرس الماضي، أردت أن ألخِّص ما قيل في الدرس الماضي حتى تأتي القصة منسجمة. يبدو أن من حول قارون قالوا له هذا الكلام: يا قارون:

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي

أنفق هذا المال في طاعة الله، ابحث عن الحقيقة، هكذا.. فكان جوابه:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

دققوا في الصياغة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ)

(سورة القصص: من الآية 77)

هذا المال الوفير، هذه الكنوز التي ينوء بحمل مفاتيحها أولو العصبة من أقوياء الرجال، هذا المال آتاك الله إيّاه، هو من فضل الله، هو محض فضلٍ، ماذا قال قارون ؟ قال:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ)

أغفل الله عزّ وجل، لم يقل: إنما آتانيه الله، بل قال:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ)

فعل أوتي مبني للمجهول، أي أغفل الفاعل، ما أراد أن يعترف أن الله أعطاه هذا المال:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

أنا عليم بطرق كسب المال، بأسرار التجارة، بأصول الصناعة، بفنّ التسويق، بفن البيع، بالأساليب الذكية في تحصيل المال وفي استثماره، فهؤلاء الذين يستثمرون أموالهم في بلاد أجنبية وبنسب عالية جداً، وينقلون هذا المال من عملةٍ إلى عملةٍ على حسب الأسعار، هم في أعلى درجة من الذكاء، ويوزّعون أموالهم مع شركات متعددة ومع دول متعددة، فهؤلاء كما يدّعي قارون:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أي أنا متمَرّس، أعرف كيف أكسب المال، وكيف أستثمره، وكيف أُنَمّيه بوتيرة عالية، وكيف أوزّعه في مشاريع متعددة، وفي بلاد متعددة ضماناً للأخطار، وكيف أجمع الفائدة المركبة، وكيف أُحَصّل هذا المال، هذا علم:

(قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أربع كلمات محظورة على المؤمن: أنا، ونحن، ولي، وعندي:

حينما تقول: عندي، فأنت كقارون، حينما تقول: لي فأنت كفرعون، حينما تقول: أنا، فأنت كإبليس، حينما تقول: نحن، فأنت كجماعة بلقيس، أربع كلمات محظورٌ على المؤمن أن يذكرها هي: أنا، ونحن،

ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: من الآية 12)

فأهلكه الله.

وقال أصحاب بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

(سورة النمل)

وقالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

(سورة الزخرف: من الآية 51)

فأغرقه الله.

وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

القضية أعمق من كلمات تقولها، القضية مشاعر، أي إذا شعرت أن هذا البيت من تَعبك وعرق جبينك، أنت عصاميّ، صاحب إرادة حديدية، تملك وسائل ناجحة في كسب المال حتّى حصّلت هذا البيت، هذه مشاعر قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

انظرْ وتأمّل أين أنت مما تقول:

ليست القضية قضية أدب مع الله فحسب، قضية الحقيقة، إنسان بأوج نشاطه التجاري، لو أن نقطة دمٍ لا يزيد حجمها على حجم رأس دَبّوس تجمدت في بعض شرايين الدماغ لاختل عقل الإنسان، ولساقه أهله المحبّون إلى مستشفى الأمراض العقلية، فأين:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أحيناً وهو يسير على يمين الطريق تأتي سيارة طائشة تصطدم به، ينقطع عموده الفقري، أين:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

مالك قوّتك، وعضلاتك، وعظامك، وشرايينك، وأوردتك، وأعصابك، وقلبك، ورئتاك، والكبد، والمعدة، والأمعاء، والدماغ، والجمجمة، والكليتان، والكَظَر، والدرقية، والنُخامية، والطحال،

والبنكرياس، إذا تعطل أصبح معه مرض السكر، وإذا الطحال تعطّل أصبح معه فقر دم، إذا تعطلت الكليتان يجب غسيلهما أسبوعياً، أين أنت:

(عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أيُّ علمٍ عندي ؟

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: من الآية 26)

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

لستَ حرّاً في إنفاقك للمال ولو كان ملكًا لك:

الحقيقة كلامه أعمق من ذلك، أراد قارون أن يقول: أنا هذا المال حصّلته بجهدي وبعلمٍ أمتلكه، إذاً: أنا حرٌ في إنفاق المال، والمؤمنون كانوا يدعونه إلى أن ينفق من ماله في الخير، قال: لا هذا المال حصّلته بجهدي، وبتعبي، وبعرق جبيني، وأنا أملك خبرات، ومعلومات، وعلوم شتَّى في كسب المال وتثميره وجمعه، إلخ.. إذاً: هو ملكي، وأنا حرٌ في إنفاقه، ودعوتكم للإحسان مرفوضة، هذا كلام قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

الحقيقة الكلام يسوقنا إلى موقف الإسلام من هذه الموضوعات، الإسلام يُقِرُ التَمَلّك لأن حب التملك شيء فطري بالإنسان، ويبدو أن هذا التملك له وظائف مهمة جداً، وحينما تلغى الملكية ربما هناك مضاعفات خطيرة جداً، لذلك الذين نادوا بإلغائها عادوا إليها الآن، إذاً: الإسلام يُقِرُ التملك، ولكن الإسلام يضع حدوداً صارمة لكسب المال، الإسلام يُحَرّم أن يلد المالُ المالَ، عن طريق الربا يلد المالُ المال، الإسلام يضبط كسب المال، ويضبط إنفاق المال، ولا يَحْرِم المسلم من ثمرة جهوده، لكنّه يحول بينه وبين أن يسرف حتى يصبح مفسداً، ويحول بينه وبين أن يقبض حتى يصبح مُقتِّراً، لا يسمح الإسلام لأتباعه أن يكونوا مسرفين، ولا أن يكونوا مقترين، ولا أن يكسبوا المال كيفما يشاءون، ولا أن ينفقونه كيفما يشاءون، الإسلام وسطي، والحقُ وسطٌ بين طرفين، والفضيلة مَكْرُمَةٌ بين رذيلتين، والتطرف فيه خطأ كبير، لذلك العالَم يشهد الآن أن المتطرفين يتجهون إلى الوسط، أي إلى الإسلام، لا عن قناعةٍ بالإسلام، ولكنهم مُرْغَمون من أجل أن يعيشوا، من أجل أن يستمروا، إذاً:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

(سورة البقرة: من الآية 143)

فأن تلغي حق الإنسان في التمَلّك مشكلة، وأن تطلق يده مشكلة، لابدّ من قواعد لابد من حدود، الإسلام أقرّ شيئاً ومنع شيئاً، أقرّ شيئاً وقنن شيئاً، لذلك حينما قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

يقصد من هذا الكلام أن هذا المال بما أنني كسبته بعلمي وبجهدي، وبتعبي وعرق جبيني، أنا حرٌ في إنفاقه، الجواب: لا إن هذا المال من اسمه: ما.. لك.. أي ليس لك، ماله، أي ليس له:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

كيف ردّ الله عليه ؟ هو أوتي هذا المال، وأغْفَلَ الله الواحد الديّان لم يقل: إن الله قد آتاني إياه، بل قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً

كيف ردّ الله عليه ؟ هذا الذي كسب المال بقوته وعلمه وذكائه، وعنده خبراتٌ كبيرةٌ في الحفاظ عليه، وفي تنميته واستثماره، كيف يفقد مالَه كُلَّه، إذاً: هو مُدَّعٍ، وليس صادقاً:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

(سورة القصص: من الآية 78)

إذا كان هذا المال قد جاء بقوّتِك فحافظ عليه، أليس هناك أمثلة كثيرة جداً قديماً وحديثاً عن إنسان يملك ثروات طائلة فقدها في ساعاتٍ ثلاث ؟

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

أحياناً يقول أحدنا: فلان معه كذا مليون، رقم كبير، يوجد أغنياء في العالم معهم كذا ألف مليون بالعملات الصعبة، ومع ذلك فإن الله عزّ وجل قادر أن يمحق هذا المال، لأن إيتاء المال بأمره، ومحقه بأمره:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ)

لو أن هؤلاء أصحاب الأموال صادقون فيما يقولون، واقعيّون لمنعوا مالهم أن يُهْلَكَ، ولمنعوا أن يُدَمَّر، لامتنعوا من فقد مالهم، قال:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ)

لا من مستواه..

(مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)

قوة المال، وقوة السلطان:

(مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة القصص)

معنى: وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

هذه الآية دقيقة جداً ولها معاني كثيرة.

المعنى الأول:

أنه عندما يرتكب الإنسان خطأً، أو ذنباً، أو جريمة، الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه إلا بالتحقيق، لعلّه مظلوم، لعله لم يفعل هذا هو، ولكن فعله غيره، لعله ما أراد هذا، جُرْم غير مقصود، لا يوجد تصميم، لا يوجد كذا، فكل إنسان يرتكب ذنباً في عالمنا لابدّ من قاضي تحقيق يسأله، ويستجوبه، ويأخذ إقراره، ويعرض عليه، ويُحْرِجُه أحياناً، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يظهر الحق، وأن يأتي الحكم عادلاً وصحيحاً.

فالله سبحانه وتعالى إذا ارتكب العبد ذنباً أو جريمةً هل الله بحاجةٍ أن يسأله ؟ هو العليم، عليم بمكنونات نفسه، بما تنطوي عليه نفسه، بنواياه الحقيقية، بحجم عمله، بحجم مخالفته، فربنا عزّ وجل ليس كمثله شيء، الإنسان يَسْأَل ليعلم لأنه لا يعلم، يُحَقِق، يحب أن يتأكّد، يحب أن يكون معه الدليل على جُرْمِيَّة هذا المجرم، يحب الاعتراف.

أما إذا وقع الإنسان في معصيةٍ، هذه المعصية بنواياها، بمطامحها، بحجمها الحقيقي، بآثارها كله في علم الله عزّ وجل، فلذلك ليس من شأن الله عزّ وجل إذا أراد إيقاع العقاب بعبدٍ مجرمٍ أن يسأله، لماذا السؤال ؟ فالسؤال ليس له معنى، أما حينما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

قالوا: هذا سؤال التقريع والتوبيخ لا سؤال العلم، سؤال التقريع والتوبيخ، أما سؤال العلمِ فالله عزّ وجل مُنَزَّهٌ عنه، لذلك هؤلاء المجرمون يوم القيامة يُقْذفون إلى النار مباشرةً من دون سؤال، لأن الله يعلم أعمالهم، نواياهم، خبث نفوسهم، دناءتهم، حجم أعمالهم، حجم معاصيهم، فليس هناك حاجة أن يُسألوا، هذا المعنى الأول:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

لأن هذه الذنوب في علم الله عزّ وجل، والله عزّ وجل ليس بحاجةٍ أن يَسْأل.

المعنى الثاني:

قد يبدو هذا المعنى أيضاً من خلال هذه الآية، فإذا ارتكب الإنسان جريمة، وحُكِمَ عليه بالإعدام، وهو في طريقه إلى المشنقة تَذَكَّر القُضاة أن عليه مخالفة سير، فهل يحاسَبُ عليها ؟ لا.. لا يحاسبونه، لأنه فقد حياته كلها، أي أن الجريمة أن تكفُر بالله عزّ وجل، فليس بعد الكفر ذنب، الجريمة الكبرى أن تكفر بالله، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تذهب منها وأنت في غفلةٍ عن الله عزّ وجل، لذلك هذه الذنوب التي تقترفُها هي تحصيل حاصل، هي نتائج طبيعية، أعراض طبيعية لانحراف الإنسان:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

أن ربنا عزّ وجل إذا أخَذَ

(أخَذَ أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ)

أي حينما يقع الذنب يأتي العقاب، لأن الإنسان إذا سُئِل: لماذا فعلت كذا ؟ يحتال، ويفكر بالدفاع عن نفسه دفاعاً غير صحيح، هذا ما يقع عند الناس، الإنسان يرتكب ذنباً كبيراً جداً، فإذا استدعي للتحقيق يقول: أنا ما قصدت هذا، قطعاً يبادر الكذب والاحتيال، والمراوغة، يعاقب فوراً، أما حينما يُسأل سوف يزوّر الحقائق، سوف يَدّعي، سوف يتَنَصّل، سوف يكذب:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة حديث يحتاج إلى تأويل، وهو عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[صحيح مسلم]

هذا الحديث لا يمكن أن نأخُذَهُ على ظاهره، هذا الحديث يحتاج إلى تأويل، أي أن الإنسان علامة حياته أنَّه يحسُّ بذنبه، وعلامة موته أنه لا يحسُّ بذنبه، فمثلاً إنسان في سهرة، والسهرة فيها غيبة، واحد اغتاب كثيراً، وذهب فصلى العشاء ونام، هذا ميت القلب، هذا ما حسّ بذنبه، لا يوجد عنده نبض إطلاقاً، ملكاته كلّها معطلة، لكن المؤمن الصادق إذا نطق لسانه بكلمة غيبة واحدة يَخْتَلُّ توازنه، ولا

ينام الليل ويدفع الصدقة مباشرةً، علامة صحة إيمانك إحساسك بذنبك، وكلما ارتقى الإيمان ازدادت حساسية المؤمن بذنبه، هناك ذنوب خواطر أحياناً، هناك كلمة، هناك حركة حاجب، هناك ابتسامة في غير موضعها، هناك نظرةٌ قاسية، هناك دفعٌ للباب بقوة، هذا ذنب كبير في حضرة الأم أو الأب، كلما ارتقى مستوى الإنسان امتلك شعوراً حسّاساً بالذنب في إدراك ذنبه، وكلّما هبط مستواه تَبَلّد حسّه، وصار يقول: ماذا أفعل أنا، أنا جيد، إذاً كلما ارتقيت في سُلّم الإيمان ارتقى معك شعورك بالذنب، لو لم تذنبوا أي لو لم تشعروا بذنوبكم لذهب الله بكم، أنتم موتى، هكذا يقصد الحديث، وأتى بقومٍ يذنبون يعني إذا أذنبوا شعروا بذنوبهم فاستغفروا، فيستغفرون فيغفر الله لهم:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

الملاحظ أن إخواننا الكرام الذين لهم صلة بالله عزّ وجل، وقناعات صحيحة، وإدراك لأوامر الله عزّ وجل، لو أن شخصاً أخطأ أو اغتاب، أو نظر نظرة في غير موضعها، أو أشار بشيء فيه مخالفة، أو كان سبباً في أذى، يأتي، ويسأل في لهفة كبيرة، ما هذه اللهفة ؟ هي لهفة إحساسه بذنبه، وهناك من يفعل الموبقات كلها، ويرتكب كل الحماقات، ويخرج عن الشرع كله ومع ذلك يقول لك: أنا جيد، أنا ممتاز، هكذا يقولون، إذاً اعرف أنه كلما ارتقيت عند الله عزّ وجل ازدادت مشاعرك المُرْهَفة في إحساسك بالذنب، وكلّما هبط المستوى تلبّد الحس.

هذا سيدنا عمر، ومع ذلك...

سيدنا عمر قال: **<< ليت أم عمر لم تلد عمر >>.**

عمر عملاق الإسلام الذي قال عنه النبي الكريم:

((لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

((فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ))

[صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ))

[البخاري عن سعد بن أبي وقاص]

هذا عمر ماذا يقول ؟ يقول: **<< ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيمة >>.**

عمر عملاق الإسلام يقول: **<< لو أن بغلة في العراق تَعَثّرت في الطريق لحاسبني الله عنها، لِمَ لمْ تُصْلِح لها الطريق يا عمر ؟ >>.**

انتبهوا إلى هذه الفكرة المهمة جداً، كلما ارتقى مستواك في إيمانك ارتقى إحساسك بالذنب..

سيدنا عمر كان مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في إحدى الليالي، فرأوا قافلةً قد استراحت في مكانٍ ما من طرق المدينة، فقال له: تعال نحرس هذه القافلة لوجه الله، وهما في حراسة هذه القافلة بكى طفلٌ صغير، فتوجّه عمر إليه، وقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى، فقال: أرضعيه، ثم بكى، فغضب، وكان عصبي المزاج رضي الله عنه، فذهب إلى أمه وقال: **يا أمَة السوء أرضعيه،** فقالت: أيها الرجل، ما شأنك بنا، إنني أفْطِمه ؟ قال: **ولمَ تفطمينه ؟** قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي لا يصرف إلا بعد الفطام.. تَروي كتب السيرة أنّه صُعِقْ، وقال مخاطباً نفسه: **ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين ؟** هكذا تروي السيرة، وذهب إلى المسجد، وصلّى بأصحابه صلاة الفجر، ويقول أصحابه: إنهم ما سمعوا صوت قراءته من شدة بكائه، وأصدر للتَوِّ قراراً بمنح التعويض العائلي للأطفال من ساعة ولادتهم، إنه إحساس بالذنب.

قال لأحد ولاته: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً ؛ فإن جاءني من رعيتك من هو سارق لأنه عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنَسُدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِّر لهم حرفتهم، فإذا وفَّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.** عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود]

قد يكون عند الشخص حيوان أحيانا، أو عنده إنسان تحت ولايته، فهل يا ترى أكل، ما أكل، كيف وضعه ؟ كلما ارتقى مستواك يرتقي إحساسك بالذنب، لذلك: **" رأس الحكمة مخافة الله "،** وكلّما هبط المستوى تلبد الإحساس بالذنب، يقول لك: ماذا فعلنا ؟ وقد خرب الدنيا، ويقول لك: لم أفعل شيئًا، هذه علامة تلبُّد الحِس:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص: من الآية 79)

من مقاييسُ أهل الدنيا:

1 ـ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ

كل عصر له زينة، أي في كل عصر ووسائل للظهور أمام الناس في الاحتفالات، يقول لك: عقد القِران تم في الفندق الفلاني، وكلّف ثمانمائة ألف ليرة، قدّموا مع كل كتاب، أو مع كل شيء من الحلوى قطعة بكذا وكذا، فهناك أوصاف لعقود القران لا تصدّق، هذه الزينة، في البيوت أحياناً، أي تزيين البيت إلى درجة متناهية، في الثياب وأنواعها، فيفتخر بنوع ثيابه، ومكان شرائها، وسَنَة صنعها، هذا كله كما قال سيدنا علي قال: **<< يأتي على الناس زمان قيمة المرءُ متاعه>>**، أي قيمة الإنسان فقط تستمَدُّ من متاعه، من مساحة بيته، من موقع بيته، من ثمن بيته، من مركبته، من ثيابه، يا ترى أجنبي أم وطني ؟ تستمد من نوع ثيابه، وهكذا..

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

هذا مقياس.

2 ـ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

الحقيقة أن هذه القصة فيها مقاييس كثيرة، هذا مقياس آخر، أي إذا رأيت شيئاً من متاع الدنيا ؛ قصراً منيفاً، سيارةً فارهةً، بستاناً جميلاً، مزرعةً أنيقةً، إذا رأيت شيئاً فخماً من متاع الدنيا، وذابت نفسك حباً له، وتمنيتَ أن تكون مكان صاحبه، فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

أحياناً تسمع من الناس أن فلاناً مبسوط، يكون له خمسين معصية، وهو تارك صلاة، وشارب خمر، ولكن معه أموال طائلة، ويتمتع فيها كما يشاء، فيأتي إنسان ضعيف الإيمان يقول: مبسوط، لا ينقصه شيء، حظه طيب، دَبَّر نفسه، ركّز وضعه، هذا هو كلام الشرك بعينه، هكذا قال:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

3 ـ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

أي حينما تُثني على أهل الدنيا، وتمدحهم، وتشرئبُّ عنقك تعظيماً لهم، ويسيل لعابك تمنياً أن تكون

مثلهم فهذه علامة أنّك من أهل الدنيا، هكذا:

(قالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

فضلُ العلم: وَقالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

علامة المؤمن أنه لا يتمنّى إلا رضوان الله عزّ وجل، لا يتمنّى إلا أن يحبه الله، يرضى عنه:

(وَقالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(سورة القصص: من الآية 80)

أوتوا العلم، فإذا أحب الله عبداً آتاه العلم:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

(سورة القصص: من الآية 14)

انظر إلى نفسك ؟ ماذا نلت من الله ؟ نِلتَ كما نال قارون ؟ أو كما نال فرعون ؟ أو كما نال بعض الأنبياء ؟ حظك من الله مالٌ، أو قوةٌ، أو علمٌ ؟ إذا كان حظك من الله العلم فأنت من المحبوبين:

(وَقالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ)

(سورة القصص)

سعةُ أفق العلماء: وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ

الكافر أُفُقُهُ ضَيّق، نظرته قاصرة، يعيش لحظته، هذا شيء موقّت سيمضي، هناك حياةٌ أبدية، البطولة هناك.. **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

في القبر إن كان لك أعمال صالحة في الدنيا فأنت الغني، وإن لم تكن لك أعمال صالحة فأنت أفقر الفقراء، ولو كنت في الدنيا أغنى الأغنياء.

لماذا نطلب العلم ؟ كي تصحّ رؤيتنا، كي نرى الحق حقاً والباطل باطلاً، كي لا نؤْخَذ بالمظاهر الفارغة والقشور، كي نعرف حقائق الأشياء، هذه الدنيا جوهرها أربعة أشياء: أن تعرف الله، وأن تطيعه، وأن تدعو إليه، وأن تصبر.

(وَالْعَصْرِ (1) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3))

(سورة العصر)

أربعة أشياء هي لبُّ الدنيا، فهؤلاء الأولون:

(قالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارُونُ)

(سورة القصص: من الآية 79)

أيْ هنيئاً لك على هذا البيت، على هذا المتجر، على هذا الدخل الكبير، على هذا البستان، الله يزيدك من فضله، هو ذابت نفسه معه، أما المؤمن:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

(سورة القصص)

الصابر ما استجاب إلى نزواته الطارئة، استجاب إلى عقله الراجح.

قد كنت قديماً أضرب لطلابي مثلاً: رجل ركب دَرَّاجة، وهو يسير على طريق مستوٍ، وصل إلى طريقين، طريقٍ نازلة محفوفة بالرياحين والبساتين والأزهار، وتنتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسة، وطريقٍ صاعدة مملوءةٍ بالغبار والأكدار والصخور، لكنها تنتهي بقصرٍ منيف، هو مُلكٌ لمن يصل إليه، وضِعَ قبل هذا المفرق إن صح التعبير لوحة تفصيلية تشير إلى أن هذا الطريق ينتهي بحفرة، وهذا الطريق ينتهي بقصر، قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلا إِنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلاثًا، أَلا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، وَالسّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلّهِ إِلا مَلأَ اللّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[مسند أحمد عَنِ ابْنِ عَبّاس]

((أَلا إِنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلاثًا، أَلا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

طريق النار سهل، مع الشهوات، مع الانحراف الأخلاقي، مع إطلاق البصر، مع كسب المال الحرام، مع إنفاقه، مع السياحات المختلطة، مع الرفاه، مع الطعام والشراب، مع الاستمتاع بالنساء الأجنبيات، هكذا هذا طريق جهنم، سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، لا يحتاج إلى جهد، لا يحتاج إلى مجاهدة فالقضية سهلة، لكن طريق الجنة يحتاج إلى كُلفَة، إلى تفكُّر، إلى استقامة، إلى صلاة في أوقاتها، إلى بذل المال..

((أَلا إِنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلاثًا، أَلا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

عاقبةُ قارون: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

أربع كلمات، خسفنا به، كلمتان، وبداره الأرض، كلمتان، فانتهى قارون، أربع كلمات، كما ينتهي غيره في ساعات:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

(سورة القصص)

فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ

لم يكن مستقيماً على أمر الله عزّ وجل كي يحميه ربنا عزّ وجل وينقذه، لم تكن له جماعة نصحوه حتى يمنعوه، على كلٍ لقي نتيجة عمله، لذلك المشكلة أن الإنسان يجمع الدنيا ليرة فوق ليرة، وحجراً فوق حجر، والله سبحانه وتعالى يأخذها منه في ثانية واحدة، فالبطولة كما قال النبي الكريم:

((إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدَبّر عاقبته))

هذا الطريق ما نهايته ؟ طريق جمع المال ما نهايته ؟ كقارون، طريق القوة والظلم ما نهايته ؟ كفرعون، طريق معرفة الله وطاعته وخدمة العباد نهايته سعادة في الدنيا والآخرة:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: من الآية 30)

(وَأَصْبَحَ الّذِينَ تَمَنّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنّ)

(سورة القصص: من الآية 82)

موقف الذين تمنوا مكان فرعون:

هذه من ألفاظ التعجُّب..

(وَيْكَأَنّ اللّهَ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)

إذاً: لم يصح قوله:

(إِنّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

الجواب: أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، الرزق رزق الله عزّ وجل، يبسط ويقدر، يُعْطي ويمنع، يرفع ويخفض، يعزُّ ويذل، هكذا الله عزّ وجل:

(وَيْكَأَنّ اللّهَ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة القصص)

هناك آية قرآنية أشعر معها بمشاعر خاصة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الأمور تدور، وتدور، وتستقر على فلاح المؤمن، وعلى نجاحه، وعلى سعادته، قد يعيش المؤمن في ضيق، وقد يكون مستضعفاً، وقد يكون مريضاً، ولكن العاقبة له، وقد يَقْوى الكافر، ويجولُ ويصول،

ولابدّ من أن يُهْلكه الله عزّ وجل:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

آخر آية:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

تلك الدار الآخرة هذه آية أيضاً من الآيات المحكمة، تلك، هذا الشيء العظيم الممتد إلى الأبد، هذه الدار الآخرة..

(نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

بعيد عن الكبر، والاستكبار، والغطرسة، والعنجهية، والاستعلاء، والفخر، يعيش في وادٍ آخر، عاش في وادي طاعة الله، في وادي العبودية لله عزّ وجل، يعرف حجمه الحقيقي، يعرف مهمته بالحياة، يعرف لماذا خلق ؟ يعرف الوسيلة الفعالة لسعادته، غائب عن الناس في معرفة الله، في خدمة الناس، غائب عن مظاهر الدنيا، عن زخرفها، عن بهرجها، عن مباهجها:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

أحياناً ترى طالباً مُهْتَماً بدراسته اهتماماً بالغاً، وطالباً يُمْضي وقته في الطرقات، هذا في وادٍ وهذا في وادٍ، هذا في مستوى وهذا في مستوى، هذا في عالم، وهذا في عالم، المؤمن في عالم آخر، في عالم الرُقِيّ، عالم السمو النفسي، عالم المعرفة، عالم التطبيق، عالم العبودية، عالم العطاء، عالم فعل الخير، عالم فهم الكتاب، فكما قال ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم العطائية: **" لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول ".**

إذا أنت كنت في مكان جميل جداً، ودعوت إنساناً لهذا المكان، وذهب، وعاد، وقال: والله معك حق، والله صدقت، شيء جميل، فإذا دعوت الناس إلى الله، والناس ذاقوا طعم القرب، طعم النظافة الروحية، طعم الطُهْر، طعم اللقاء مع الله عزّ وجل، طعم العمل الصالح، طعم خدمة الخلق، طعم فهم كتاب الله، فأنت في وادٍ آخر، في عالم آخر، لك اهتمامات نبيلة جداً ؛ أما الإنسان الغارق في شهواته في وحول المال، في كَسْبه للمال، في جمعه للمال، في صراعاته مع الناس، في خصوماته، في أحقاده، في متاهاته، هذا مسكين وهالك، أمواتٌ غير أحياء، هكذا قال الله عنهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من الآية 21)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

فلذلك:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

تلك، هذه الدار العظيمة، الأبدية، السرمدية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[صحيح البخاري]

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

إن المؤمن إذا توفاه الله عزّ وجل يرى مقامه في الجنة فيقول: لم أر شراً قط، في كل حياته، ينسى كل متاعب الدنيا، والكافر يرى مكانه في النار فيقول: لم أر خيراً قط، فكل الولائم، وكل السهرات الرائعة، وكل النُزَهات الجميلة، وكل المباهج التي عاشها، وعاش ثمانين سنة، لا يفوّت سفر، ولا سياحة، ولا سهرات، كلُّها يقول: لم أر خيراً قط، إذا نظر إلى مكانه في النار:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 79 - 83
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة القصص، وصلنا في الدرس الماضي إلى أواخر قصّة قارون، وكيف أن الذين يُريدون الحياة الدنيا حينما نظروا إليه وهْوَ في زينته، قال بعض العلماء: **" كان في أبهى زينة، وفي أكمل زينة، وكان قصده أن يعلوَ في الأرض على بقية خلق الله عزّ وجل ".**

(قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: من الآية 79)

موازين النظر عند أهلِ الدنيا:

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى حينما يَقُصُّ علينا بعض القصص، من خلال القصة يضع الله سبحانه وتعالى الموازين، ومن خلال القصة يُقرّر بعض القواعد، فهذا ميزانٌ لكل إنسان، أي إذا نظر الإنسان إلى أهل الدنيا، إلى قصورهم، إلى بيوتهم، إلى طعامهم، إلى شرابهم، إلى مَرْكَبَاتِهِم، إلى لباسهم، إلى زينتهم، إلى نُزُهاتهم، إلى رحلاتهم، إلى أعراسهم، إلى أفراحهم، إلى أتراحهم، إذا نظر الإنسان إلى أهل الدنيا، وذابت نفسه شوقاً ليكون مثلهم فهذه علامة خطيرة إنّه من أهل الدنيا.

قال لي بعضهم، وقد قفل من الحج، قال لي كلمةً منذ خمس سنوات تقريباً، ولا أنسى هذه الكلمة قال: **" ليس في الناس من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ".**

أي أن من علامة المؤمن الصادق أنه يقول لك بكل حرفٍ من حروف هذه الكلمة: ليس في الأرض من هو أسعد مني، وقد يكون ذا دخلٍ متوسط، أو أقلّ مما يحتاج:

(قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

موازين النظر عند أهلِ العلم:

هناك رؤية أخرى، الرؤية اختلفت:

(وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ)

(سورة القصص)

قبل أن أنتقل إلى هذه الآية الثانية، هناك معنى في الآية الأولى لم أذكره في الدرس الماضي:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

كيف جمعتم المال، وكيف استمتعتم به ؟!

هؤلاء الذين قالوا هذا القول هل سألوا أنفسهم كيف جُمِعَ هذا المال ؟ وكيف استطاع صاحبه أن يستمتع به ؟

يبدو أن الإنسان لو عُرِضَ عليه طريقة جمع المال، وكيف أنه جُمِعَ على حساب الآخرين، اقْتُطِعَ من لقمة عيشهم، أُخذ من تعبهم وعرقهم، فإنّ صاحب الضمير الحر لا يقبل أن يكون ذا مالٍ وفير إذا جمع هذا المال بطريقةٍ غير مشروعة، والإنسان لا يرضى أن يعيش على أنقاض الناس، ولا أن يغنى على فقرهم، ولا أن يعيش على موتهم، ولا أن يبني مجده على أنقاضهم.

إنّ الإنسان إذا رأى غنياً يَرْفُلُ في أثواب الغنى، ورأى بحبوحته وإنفاقه للمال العجيب فيجب أن يسأل سؤالاً آخر: كيف جُمِع هذا المال ؟ قد يجمع بالغصب والاحتيال والقهر، قد يجمع بطريقةٍ لا ترضي الشرع، ولا ترضي الضمير الحر.

هذا ما ينجرُّ عن كسب المال الحرام:

1 – المتشبّع بالمال الحرام مآله الشحُّ والبخلُ:

الشيء الآخر، أن كل من يجمع المال بطريقةٍ غير مشروعة يكسب بعده الشُحُّ، وهناك علاقةٌ وطيدةٌ بين الإثراء وبين الشح، قد يبدو لك هذا غريباً، كلما رفع الإنسان مستوى إنفاقه كلما أصبح شحيحاً، لأنه في سبيل الحفاظ على هذا المستوى المرتفع لابدّ من أن يمنع الحقوق، لابدّ من أن يَغْصِبَ الأموال، لابدّ من أن يحتال، لابد من أن يُنافق، إذاً الإنفاق الكبير له مضاعفاتٌ كبيرة، أولى هذه المضاعفات: أنه يُكسِبُ صاحبه الشُح.

2 – المتشبّع بالمال الحرام كثير المعاصي:

شيءٌ آخر، الإنفاق الكبير يحتاج إلى مالٍ وفير، وهذا المال الوفير في سبيل الحفاظ على مستواه ربما حَمَلَ الإنسان نفسه على معصية الله عزّ وجل، إذاً:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

رؤيةُ المؤمن لكاسب المال الحرام:

أنت أيها الأخُ الكريم، ألك رؤيةٌ تخالف بها رؤية عامّة الناس ؟ قد يرى الإنسان هذا العمل صواباً، وهذا الكسب ذكياً، وهذا الإنفاق رفعةً، وهذا الحِرْصَ ذكاءً، هل لك رؤيةٌ أخرى تخالف بها رؤية عامة الناس ؟ وفي الحديث عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ:

((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد]

ينبغي أن تكون للمؤمن رؤيةٌ خاصة به نابعةٌ من كتاب الله، نابعةٌ من سنة رسول الله، يجب أن تكون له رؤية وله قِيَم، من رؤيته الخاصة، ومن قيمه الإيمانية يأخذ مواقف أخرى، غير المواقف التي يألفها الناس جميعاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(سورة القصص: من الآية 80)

وقفات تأملية مع قوله: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

1 – العلم قوةٌ:

أوتوا العلم.. وهذا أكبر عطاء، في أول السورة مرّ بكم كيف أن رمز القوة، وهو فرعون دَمَّرَهُ الله عزّ وجل، وهذا الثاني قارون هو رمز المال أيضاً دَمَّرَهُ الله عزّ وجل، بقي العلم، الذي يبقى هو العلم، لأن العلم كما قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: << العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة >>.

2 – فكِّرْ قبل أن تقول: يا ليتني مثل فلان !!!:

إذاً: قبل أن تقول: يا ليت لي مثل فُلان، يا ليت لي مثل عِلاّن، يا ليتني أملك هذا الرقم، يا ليت لي هذا الرَصيد، يا ليتني أملك هذا البيت الفخم، وهذه الحديقة الغَنّاء، وتلك المزرعة الرائعة، وهذه المركبة الفاخرة، قبل أن تقول هذا الكلام أيرضيك أن تكسب المال مثلما يكسب هؤلاء ؟ أيرضيك أن تُحاسب على كل درهمٍ كسبته يوم القيامة ؟ أم تحب أن تكون ناجياً يوم القيامة ؟ لذلك القضية أخطر من أن يتمنى الإنسان أن يكون ذا مالٍ عريض:

(وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ)

3 – السعادة بالفوز يوم القيامة:

أقول لكم مرةً ثانية، والمعنى ذكرته كثيراً هو: أنك إذا قرأت كتاب الله عزّ وجل، وتلوت قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

إذا شعرت أن زيداً أو عبيداً، وقد آتاه الله المال الوفير، إذا شعرت أن هذا الإنسان قد أعطاه الله، وحرمك فأنت لم تقرأ قوله تعالى، أنت لست في مستوى الآية، طفلٌ صغير يقرؤها، البطولة أن تكون في مستواها، أي إذا قال الله عزّ وجل يصف المؤمنين:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

يجب أن يكون هذا شُعُورُك، هذا إحساسك، هذا ارتباطك:

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

يجب أن تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني.. لأن المال عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه مَلِكٌ عادل.

(وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

4 – رؤية العالِم رؤيةٌ خاصة:

أي إذا كنت من طلبة العلم، إذا آتاك الله العلم يجب أن تملك رؤية تختلف عن رؤيةِ الآخرين، كيف ؟ أحياناً يكسب الإنسان مالاً حرام فيُثْنِي عليه كل هؤلاء الضّالون، المُكَذِّبون، الشاردون، التائهون، يرونه ذكياً بهذا القِسم، يرونه حكيماً، يرونه بالعبارة الدارجة: (شاطراً، فهي شطارة)، ولكن أهل

الإيمان يَرَوْنَهُ غبياً، يرونه أحمق، يرونه بعيداً، يرونه مطروداً، يرونه ملعوناً، فالبطولة لا أن يكون المال بين يديك، البطولة أن تكون في رضوان الله عزّ وجل، وهؤلاء الذين كان المال بين أيديهم بالألوف المُؤلّفة فقدوه في ساعات، والله سبحانه وتعالى إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتّش..

كما يقولون، كما أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يعطيك المال الوفير بجهدٍ يسير قادرٌ أيضاً على أن يَسْلُبَكَ هذا المال كله في ثوانٍ معدودات:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

فهذا الذي استوقفني هذه المرة أن الذين أوتوا العلم لهم رؤية خاصة، لهم قيمٌ خاصة، لهم أحكامٌ خاصة، لهم تقييمٌ خاص، لهم وصفٌ خاص، إن لم تكن صارخاً في إيمانك فلست بمؤمنٍ، كلمة صارخ، الألوان لها موجات، أشد موجات الألوان طولاً اللّون الأصفر، لذلك في المطارات يَصْبغون كلّ المركبات بهذا اللون لتكون هذه المركبة ذات لونٍ صارخ كي تتقيها الطائرة في أثناء الهبوط والإقلاع.

5 – المؤمن متميّز في كل جوانب الحياة:

أضرب على ذلك مثلاً: المؤمن يجب أن يكون صارخاً في أخلاقه، في رؤيته، في عِفّتِهِ عن المحارم، في عفته عن المَطامِع، في زهده، في قناعته، في رضاه بأمر الله ونهيه، في رِضَاهُ بقضائه وقدره، في أخلاقه، في أمانته، في استقامته، في وفائه، في تواضعه، في عِزّته، لعلك تعرف المؤمن من أنه يُصلِّي ويصوم.. " من شاء صام ومن شاء صلى "

يجب أن تعرفه في التعامل معه، يجب أن تعرفه من خلال صنعته، من خلال مِهْنَته، من خلال طِبِّه، من خلال عطائه، من خلال أخذه، المؤمن صارخ، لذلك يقولون: " ألسنه الخلق أقلام الحق ".

أي يجب أن يُثْني الناس جميعاً على هذا المؤمن، لأن أخلاقه ظاهرة، عندما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن النبي الكريم اللهم صل عليه قال له:

((كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار... حتى بعث الله فينا رجلاً ـ دققوا ـ نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه))

[أحمد عن أم سلمة]

وأنت أيها الأخ الكريم، إذا أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل يجب أن يرى الناس أمانتك رأي العين، ويجب أن يرى الناس صدقك وعِفّتك، هذه أشياء لابدّ منها.

إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

ما علاقة الصابرين بسياق الآية ؟

ما علاقة الصابرين بسياق الآية ؟ أي لا تستطيع أن تملك هذه الرؤية، أن ترى رؤية خلاف رؤية عامّة الناس، أن ترى الشيء الثمين عند الناس قبيحاً، وأن ترى القبيح جميلاً، أن تُؤْثِر الفقر على كسب المال الحرام، هذا الشيء يحتاج إلى رؤية صحيحة وإلى صبر، أي إذا فكّرت في الكون، وعرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره صابراً، صبرت عن الشهوات، وصبرت على الطاعات، وصبرت على المصائب، إلى أن نَمَت هذه المعرفة في نفسك عندئذٍ تملك هذه الرؤية الصادقة، فأن تمتلك رؤية خاصة، تمتلك رؤية صحيحة نابعة من كتاب الله، أن تمتلك منظومة قيم تُقيّم بها الأشياء، أن يكون لك موقف مغاير لِعَامّةِ الناس، ودهمائهم وسوقتهم، هذا يحتاج إلى جهدٍ كبير، وإلى صبرٍ طويل، يجب أن تكون صابراً:

(وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

هؤلاء هم الصابرون:

الذين صبروا عن الشهوات، والذين صبروا عن المُغْريات، والذين صبروا للضغوط، قد يأتيك ضغطٌ شديد وأنت في فاقةٍ شديدة، ويأتيك مالٌ وفير بطريقةٍ غير مشروعة، الصابر يصبر على دخله المحدود ولا يرضى هذا المبلغ الذي فيه شُبُهَة، عندئذٍ يُقْبِل على الله عزّ وجل، ويتَجَلّى الله على قلبه، ويملك الرؤية الصحيحة، والنظر الثاقب، والقيمة الصحيحة، عندئذٍ تنطبق عليه هذه الآية، أي أن تملك رؤيةً صحيحة تُقَيّم بها الأشياء على خلاف عامة الناس ودَهْمَائهم وسوقتِهم، أن تتميز عن الناس برؤية توافق رؤية القرآن الكريم، هذا يحتاج إلى صبر، يحتاج إلى جهد، لذلك:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من الآية 69)

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

على من تعود الهاء في (به)؟ على القرآن الكريم، أي احضر مجالس العلم، افهم كلام الله عزّ وجل، هذا نور الله عزّ وجل، هذه مائدة الله عزّ وجل، هذا الكلام نورٌ من الله سمّاه الله نوراً، وسمّاه ذكراً، وسمّاه قرآناً، وسمّاه كتاباً، وسمّاه فُرْقاناً، وهناك أسماء كثيرة للقرآن الكريم، فُرْقان تُفَرّق به بين الحق والباطل، نور يهديك سواء السبيل، إذاً لابدّ من أن تصبر على فهم كتاب الله، لابدّ من أن تصبر على مدارسته، لابدّ من تأتي إلى الجامعة، جامعة المُسلمين هو المسجد، ليس في التاريخ العلمي أن طالباً نال

الشهادات العُلا وهو في بيته، لابدّ من أن يطرُق أبواب الجامعة، وإذا أردت أن تعرف كلام الله، أن تعرف أمره ونهيه، أن تعرف الحلال والحرام، أن تعرف سرّ وجودك، غاية خلقك، وجهة سيرك، إذا أردت أن تعرف مهمتك في الحياة لابدّ من أن تحضر مجالس العلم كي تفهم كلام الله، كي تسعى إلى تطبيقه، إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

العلم يؤتى ولا يأتي..

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة القصص: من الآية 80)

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

أي إذا آمنت بالله، وعملت صالحاً، الدين كلمتان: آمن وعمل صالحاً.

الجانب الاعتقادي والسلوكي في الدين:

هناك جانب اعتقادي، وجانب سلوكي، الاعتقادي هو الإيمان بالله، وما يتبعه من إيمان باليوم الآخر، والملائكة، والأنبياء، والكُتُب، والقضاء والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، هذا الجانب الاعتقادي، الجانب السلوكي أن تستثمر هذا الإيمان في طاعة الله عزّ وجل، أي أنت بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، إذاً أنت أمام اعتقادٍ وسلوك، اتصالٍ بالخالق وإحسانٍ إلى المخلوق:

(وَيْلَكُمْ)

ويحكم.. يا طول هلاككم، ويلكم لا تستعجلوا، لا تقعوا في خطأٍ كبير، لا تَتِيهوا عن جادّة الصواب:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل أن الإنسان خُلِق عجولا:

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

يُحِبُّ المكسب السريع، يحب المتعة القريبة، يحب المال الذي يأخذه بطريقةٍ سهلة، يحب أن يأكل ويشرب، يحب أن يعلوَ في الأرض، هذه العَجَلة في الإنسان سبب رُقِيّه، لأن الإيمان والرقي أن تؤثر الآخرة على العاجلة، والهدف البعيد على الهدف القريب، والمكسب المُتَأَخِّر الحلال عن المكسب المُسْتَعجل الحرام، هنا البطولة لا أن تكون كالناس، عامة الناس يستهويهم المكسب السريع، المكاسب الآنية، يعيش الإنسان التائه لوقته للحظته:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

طبعاً هناك مجالات للاستمتاع في الحياة كثيرة، ولكن أن تتعرف إلى الله عزّ وجل يحتاج هذا إلى صبر، أن تفكِّر في الكون، أن تتلوَ كلام الله عزّ وجل، أن تفهم أبعاده، أن تفهم السُنة، أن تكون مطبقاً لها هذا يحتاج إلى جهدٍ كبير.

هذا ما حدث لقارون في آخر المطاف، ويحدث لأشباه قارون:

ما الذي حصل ؟ الله عزّ وجل قال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ)

(سورة القصص: من الآية 81)

أي أن الأرض ابتلعته، توجد قرية في المغرب اسمها أغادير، هذه من أجمل الأماكن السياحية على شاطئ الأطلسي، وفيها من الفسق والفجور ما لا يحصيه إنسان، أُصيبت بزلزال، فيها فندق من أشهر الفنادق في العالم، هناك أسماء لامعة للفنادق في العالم، وهذا الفندق يَعُدُّ من الطوابق ثلاثين طابقا، وكيف أن الأرض انشقّت وابتلعته، ولكن ليكون هذا الحدث عبرةً للناس لم يبق منه على سطح الأرض إلا الطابق الأخير، رقم الثلاثين، وعليه اللوحة الكبيرة التي تُعْلن عن اسمه، وكأن هذه اللوحة شاهدةٌ لهذا القبر الكبير، إذاً: أن تبتلع الأرض شيئاً شيء فهذا مألوف، فربنا عزّ وجل قال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

ممتلكاته، هذه الكنوز التي لا يقوى على حملها أولو القوة، هذه الكنوز، وما فيها، وما حولها أصبحت تحت الأرض.

هؤلاء أشباه قارون:

والآن باخرةٌ من أشهر بواخر العالم حينما صُنِعَت في بريطانية على ما أذكر طُبِعَت نشرةٌ لها، في هذه النشرة كُتِب: "هذه الباخرة لا يستطيع القدر أن يُغْرِقها " اسمها التيتانيك أقلعت في عام ألفٍ وتسعمئة واثني عشر من لندن، أو من ميناء بريطاني إلى بوسطن، لشدّة إتقانها صنعت من جدارين، حيث لو أن جداراً تَخَرّب فالثاني يمنع وصول الماء، لذلك لم تصنع لهذه الباخرة قوارب نجاة، وقد ركب هذه الباخرة أثرياء أوروبا، قدّر بعض المختصّين أن الحِلي التي تزينت بها النساء بمئات الملايين بل بألوف

الملايين، وفي أول رحلةٍ لها وفي عرض البحر ارتطمت بجبلٍ ثلجي شطرها شطرين، وما أغاثها أحد لظنه أن هذه الباخرة لن تغرق، ومات جميع ركابها، وقبل سنوات فيما أذكر عثروا على حطامها في قاع المحيط، وهناك من يقدّر الثروات الموجودة في قِيعان المحيطات بألوف ألوف الملايين، باخرة مَحَمّلة بالذهب غرقت:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

هذا شيء مألوف جداً، ربنا عزّ وجل إذا أعطى أدهش، وإذا سلب الإنسان ماله فهذا شيءٌ لا يحتمل. فهذا قارون، أحياناً المال يُسْلَب من دون خسف، بل بطريقة أخرى، بطريقة جديدة، ربنا يتحفنا باستمرار بطرائق جديدة لسلب المال:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة القصص)

اعملْ عملاً لا تندم عليه !!!

يا أيها الإخوة الأكارم... أنا أقول: البطولة، وهذه الكلمة أستعملها كثيراً، البطولة أن تعمل عملاً لا تندم عليه، هذه هي البطولة، البطولة أن تضحك أخيراً، لا أن تضحك أولاً، هناك إنسان يأتيه المال كثيراً، فيضحك ويرقص ويمشي فوق الأرض، ولكن يجب أن نرى مصير هذا المال، ومصير صاحبه، فهذه الحقيقة دعها في ذهنك، البطولة أن تضحك أخيراً، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

هناك آية أخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

البطولة أن تضحك في الأخير:

ما هي البطولة ؟ أن تكون آخر الضاحكين، لا أوّلهم: " ألا يا رُبّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة ".

البطولة أن تضحك أخيراً، والبطولة أن تعمل عملاً لا تَنْدَم عليه، والبطولة أن تكون في خريف العمر مؤمناً تَتَمَتَّع بصحّتك، وبعقلك: " من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت ".

أعود وأقول مرات كثيرة وأعني ما أقول: من نشأ على طاعة الله عزّ وجل، هذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله هذا له مستقبل باهر، له شيخوخة من أعظم الشيخوخات، فإذا عرف الإنسانُ الله في شبابه يزداد وقاراً، و حلماً، وعلماً، ومكانةً، واستمتاعاً بكلّ حواسّه في شيخوخته، البطولة أن تفكِّر لهذا الأمد البعيد، البطولة إذا أردت إنفاذ أمرٍ تَدَبَّر عواقبه.

فهذا قارون بتقييم الأذكياء كان أحمق، لماذا ؟ لأنه بدأ حياته مستمتعاً وانتهى مدَمَّراً، وكل إنسان لا يفكر في خالق الكون، ولا في أمره، ولا في نهيه، ولا يحَدِّث نفسه بطاعة الله عزّ وجل، ولا يفكر في نهايته ومصيره والدار الآخرة هو كقارون، يعيش لحظته، يعيش وقته، المال بين يديه لابدّ من أن يستمتع به، إذاً:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

مَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ

الإنسان في الدنيا أحياناً له أعوان، له أنصار، له أقرباء، له أهل حي، له أحفاد، له زُمَلاء، أحيناً يكون له علاقة مع جماعة مؤمنة، مع جماعة غير مؤمنة، أي له انتماءاته هؤلاء يناصرونه على الحق أو على الباطل بشكل أو بآخر، ولكن إذا أراد الله بإنسانٍ شيئاً أبعد الناس كلّهم عنه، أبعدهم عنه جميعاً، حتى إن أقرب الناس إليه يتخلّى عنه:

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج: من الآية 18)

أعرف إنساناً كسب المال حراماً، وكان كسبه لهذا المال على حساب صحّة الآخرين، وعلى حساب لقمة عيشهم، وأشاد بناءً فخماً جداً في أحد أحياء دمشق يُعَدُّ البناء الأول، في سنٍ ليست متقدمة مرض مرضاً عضالاً، فكانوا يأتون له بالطعام، وكلما سأل عن زوجته، لم تستجب له زوجته، من حين لآخر كل عشرة أيام تأتيه زوجته لتلقي على مسامعه أقسى العبارات، ثم ضاقوا به ذرعاً فنقلوه إلى حي آخر في قبوٍ من أقبية الأبنية، وبقي على هذا ثماني سنوات.

قبل أن تكسب المال بطريقةٍ مشروعة أو غير مشروعة، قبل أن يكون مالُك على حساب فقر الآخرين فكِّر في قارون..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة القصص: من آية 81)

أي إذا أراد الله عزّ وجل بقومٍ سوءً فلا مردّ له..

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أراد ربنا عزّ وجل سلبَ إنسانٍ شيئاً فلن يستطيع أحد في الأرض كلها أن يحول بين الله وبين هذا الأمر أو هذا القدر..

(فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

(سورة القصص)

حينما كان في قوّته وفي أوجه، وفي بحبوحته ما استقام على أمر الله حتى يكون في منجاةٍ من عذاب الله، ما فكر في الله عزّ وجل، لذلك الحديث الشريف:

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ...))

[أحمد عن ابن عباس]

وأنت في بحبوحة، وأنت معافى في جسمك، وأنت في صحتك التامّة، وأنت في أوج حياتك عندك زوجة وأولاد، وأنت في أمن ودعة واستقرار، في هذا الوضع اعرف الله عزّ وجل، حتى تستحق أن ينجيَك الله عزّ وجل إذا جاءتك الشدة، وأن تنطبق عليك الآية الكريمة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء: من الآية 88)

(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

لم يستطع أن يمنع عن نفسه هذا العقاب، والذين كانوا معه تَخَلّوا عنه في لمح البصر، وهكذا.

عقابُ ظالمٍ واحدٍ ردعٌ لغيره:

هناك من يسأل: أن هذا الإنسان الظالم الغني الذي حصل ماله بطريق غير مشروع، وربنا عزّ وجل بطش به، أليس هناك آخرون مثله ؟ فلماذا لم يبطش بهم الله سبحانه وتعالى ؟

الجواب: أن الله سبحانه وتعالى إذا عاقب الظالم في الدنيا لا يعاقب جميع الظالمين، بل عقاب الله لهذا الظالم عقابٌ يُسَمّى رَدْعِيّ ليردع به بقيّة الظالمين في كسب المال، وإذا كافأ المحسن مكافأةٌ تشجيعية، الجزاء تشجيعي، والعقاب رَدْعي، ولكن الحساب الدقيق يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية 185)

لأن الله عزّ وجل من حكمته وسنته..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

أبواب، وليس باباً واحداً ؛ باب الأموال، وباب المُتَع، والشهوات، والبيوت، والمزارع، أبواب كل شيء:

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورةالانعام)

هذه سُنَّة الله مع عباده، فإذا ربنا عزّ وجل عاقب أناساً دون آخرين، ما الإجابة ؟ عاقب هؤلاء ليردع هؤلاء، فإذا تاب هؤلاء نجوا، وإلا سيأتيهم الدور..

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ)

وهذا الشيء بين أيديكم وتحت سمعكم وبصركم:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

(سورة الإسراء)

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة القصص: آية 82)

وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

(وَيْ) من ألفاظ التَعَجُّب، إذاً هذا البطش الذي كان بقارون هذه آثاره الطيّبة، آثاره الطيبة أنه رَدَعَ هؤلاء الذين تمنوا مكانه بالأمس، فلذلك: العاقل من اتعظ بغيره، والشقي لا يتعظُ إلا بنفسه، من علامات الشقاء الإنسان لا يتعظ إلا بنفسه:

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ)

(سورة القصص: من الآية 82)

يُعْطي ويمنع، هو المعطي وهو المانع، وهو القابض وهو الباسط، وهو الرافع وهو الخافض، وهو المُعِزُّ وهو المذل، وهو النافع وهو الضار، لا إله إلا هو، الأمر كله بيده، له الخلق والأمر، إليه يرجع الأمر كله، هذا هو التوحيد، كلما ازداد توحيدك ازدادت استقامتك، وازدادت راحتك، وازدادت مكانتك.

: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

الآن التعقيب الرائع تلك هذه الـ (تِ) اسم إشارة، واللام للبعد والكاف للخطاب، تلك، قال علماء التفسير: الله عزّ وجل أشار إليها عن بعد تعظيماً لها، أي أن هذه الدار الآخرة العظيمة التي خُلقتم من أجلها أنتم أيها البشر، هذه الدار الأبدية السَرْمَدِيّة، لا قلق، ولا مرض، ولا خوف، ولا حزن، ولا فقر، ولا مُشاحنة، ولا كبر..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

(سورة القصص: من الآية 83)

نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

لمن ؟

(نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ)

قال بعض العلماء: فرعون يُمَثِّل العلوّ في الأرض وقارون يُمَثِّل الفساد..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

إذاً: هذا بعض التفاسير، أما ما هو العلو ؟ الآن العلو هو أن الإنسان إذا أراد عن طريق طعامه وشرابه وثيابه وبيته ومركبته أن يظهر أمام الناس بشكلٍ يستعلي عليهم، أي إذا استخدمت أي شيء لوظيفته فأنت لا تبغي علواً في الأرض، أما إذا استخدمته كي تستعلي به على الناس.

نكتة لطيفة من الآية:

والآية دقيقة جداً، أن الله سبحانه وتعالى يتوَعّد لا على العلو في الأرض، ولكن على ماذا ؟ على إرادته..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ)

لا يستعلون في الأرض ؟ لا.. لا..

(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

شيء خطير جداً، الوعيد ليس على الاستعلاء في الأرض ولا على الفساد، بل على إرادة العلوّ والفساد، في الآية مشابهة في سورة النور يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة النور: من الآية 19)

أي أنك لو سمعت قصة عن مؤمن قد تكون غير صحيحة، ولكنك ارتحت إليها، لم تقل شيئاً، لم تنقلها، لكنك ارتحت لأنه وقع في هذه المشكلة، الوعيد لا على أن تشيع الفاحشة بين الناس، أن تشيع فيهم هذا الخبر ؟ لا.. الوعيد على أنك أردت أن تشيع هذه الفاحشة، على رغبتك..

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

(سورة النور: من الآية 19)

هناك آية ثانية:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود: من الآية 113)

ليس النهي أن تكون مع الظالمين ؟ لا.. ولكن أن تركن إليهم، أن ترتاح إليهم، أن تنسجم معهم، أن تستأنس بوجودهم غير أن تعينهم..

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)

(سورة هود: من الآية 113)

ثلاث آيات دقيقات جداً، أنت منهيٌ عن أن تَرْكَنَ إليهم، فكيف بأن تُعِينهم ؟ فكيف بأن تساعدهم ؟ لذلك: من أعان ظالماً سلّطه الله عليه، عقاباً له، ومن أعان ظالماً ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ على جبينه: آيسٌ من رحمة الله.

أنت منهيٌ لا على أن تعين الظالم، منهيٌ على ألا تركن إليه، لا تركن إليه، لأنه ظالم، ومنهيٌ عن أن تحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يكفي أن تُحب، أن ترتاح نفسك، لأن هذا المؤمن وقع في مشكلة يقول: الحمد لله، ولو قلتها في نفسك، وهذه علامة النفاق:

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ)

(سورة التوبة: الآية 50)

هذه علامة النفاق، لمُجَرّد أن تفرح بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فقد وضعت نفسك في خندق المنافقين، ولمجرد أن تركن للذين ظلموا، لم تتكلم كلمة، ولم تعنهم، ولكنك ترتاح لهم، تأنس بوجودهم، تحبهم، لك معهم علاقاتٌ حَميمة فقد وقعت في مخالفة الآية.

والآن:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا)

لو أن الله عزّ وجل قال: للذين لا يستعلون ولا يفسدون، ليست هكذا الآية:

(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

أي يجب ألا تريد، لو أن إنساناً أراد، ولم يتمكن وقع في المعصية، لو أراد، قال الإمام علي كرم الله وجهه قال: << لو أردت أن يكون لك شراك نعلٍ تباهي به أخاك فأنت ممن تعنيهم هذه الآية >>.

يا ليت، لو كان عندي بيت، يأتي إلى عندي أصدقائي لأريهم أربعمئة متر، وليس عندك إلا مئة متر، أنت لم تفعل شيئاً إطلاقاً، لكن تَمَنّيت أن تستعلي على الناس، على التمني:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

مِن صورِ العلوّ في الأرض:

العلو: ممكن أن تطعم الناس، أما لو أردت بهذا الإطعام أن تستعلي عليهم، دخلت في الآية، يمكن أن تسكن بيتاً، أما إذا أردت من هذا البيت أن تستعلي به على الناس فقد دخلت في هذه الآية.

يمكن أن تكون تاجراً، أما إذا جلست في مجلس تتحدّث عن حجم تجارتك، وعن نجاحاتك، وعن من أجل أن تستعلي عليهم فقد دخلت في الآية.

يمكن أن ترتدي ثياباً نظيفة أنيقة جميلة، أما أن تريد بها أن تزهو على الناس فقد دخلت في الآية، شيء خطير جداً.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

لمُجَرّد أن تستخدم الشيء لا لوظيفته، ولكن لتستعلي به على الناس دخلت في الآية، هذا في الطعام والشراب، واللباس، والزينة، والمركبة، والمصنع، والمعمل، والتجارة، والسياحة.

يمكن أن تأخذ أهلك إلى مكانٍ ما، تروّح عن أنفسهم، أما أن تعود في المجالس لتقول كيف استمتعت في المكان الفلاني، وكم أنفقت، وكم فعلت، دخلت الآية..

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

العلو أن تكون أعلى من الناس، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، كانوا في سفر، وأرادوا أن يأكلوا فقال أحدهم: علي ذبح الشاة، وقال الثاني: عليّ سلخها وقال الثالث: علي طبخها، قال النبي الكريم:

((عليّ جمع الحطب))

قالوا: نكفيك ذلك، قال:

((لا .. أعرف ذلك لكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

العلو ردٌّ للحق واحتقارٌ للناس:

النبي عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن الكبر.. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ؟! قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ))

(صحيح مسلم)

بالتعريف الدقيق:

((بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس))

معنى بطر الحق، أي رد الحق، أن ترى نفسك فوق هذا الشرع، أنت لست مقتنعاً بهذا الحكم الشرعي، لست مقتنعاً بهذه الآية، إذا رأيت نفسك لا تنصاع لأمر الله عزّ وجل، ولا لحكْمِهِ فأنت متكبر. لمجرد أن ترى نفسك فوق السنة، النبي عليه الصلاة والسلام من سُنَّته أن تَلْعَق الإناء، أنت تركت طعام بالإناء من أجل أن تزهو أمام الناس.

لمجرد أن ترد السنة، أو القرآن، أو الشرع، أو الحق فأنت متكبِّر، بل كافر، فالكبر بطر الحق، وغمط الناس، غمط الناس أن تحتقرهم، أن تزدريهم، أن لا ترى إلا نفسك، أن تهمل من حولك، لكن التواضع قبول الحق، وإنصاف الناس، فالعلو في الأرض من معانيه الكبر، والكبر بطر الحق وغمط الناس، ولا فساداً، كما شرحنا قبل درسين، لمجرد أن تشعر الآخرين أنهم محرومون وأنت الذي تملك كل شيء، قال:

((إني أعلم ذلك، ولكني أكره أن أتميَّز عليكم، لأن الله يحب من عبده أن يراه متميزاً على أقرانه))

هذا الفساد، العلو أن تُشْعِرَه بالحرمان، أن تغتصب ماله فساد، أن تحمله على المُنْكَرات فساد، أن تُزَيِّن له الدنيا فساد.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

وهذه الآية الأخيرة تُزَيِّن القصّة كلها، كأنها تاجٌ لها:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الأمور تجري، والحياة تتحرك، وأشخاص يصعدون، وأشخاص يهبطون، وهذا يغتني، وهذا يفتقر، وهذا يمرض، وهذا يَصِحّ وفي النهاية:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي أن المُتَّقي هو الفائز، المتقي هو الناجي، المتقي هو السعيد، المتقي هو الفالح، المتقي هو الذَكِيّ، المتقي هو الذي يسير في طريقٍ سالكة، فإذا مشى إنسان في طريق غير سالكة، ثمّ فوجئ فهذا هو شأن الكافر، يسير في طريق عريضة جداً، ولكنها غير نافذة، أما المؤمن فلو أن الطريق الذي يسير فيه ضيقةٌ، لكنها سالكة إلى الجنة، لذلك أقل مؤمن على وجه الأرض أذكى من أكبر كافر، لأن الطريق سالكة إلى الجنة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

هاتان الكلمتان في هذه الآية تكفي كل مؤمن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي أن الباطل مهما جال وصال فالعاقبة للمتقين، هذا الكافر مهما ارتفع فالعاقبة للمتقين، هذا المؤمن مهما ضعف فالعاقبة للمتقين، هذا المستقيم مهما افتقر العاقبة له، هذا العاصي مهما اغتنى فالويل له، إذاً:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

فهذه السورة، أو هذه القصة تَصْلُح لكل إنسان، عندما ربنا عزّ وجل حدّثنا عن فرعون وحدثنا عن قارون فقال:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ)

كفرعون..

(وَلَا فَسَاداً)

كقارون..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أي للمؤمنين الذين أوتوا العلم، وصبروا على طلب العلم، وحضروا مجالس العلم، وأرادوا أن يعرفوا سرّ وجودهم، وحكمة حركتهم، ووجهتهم حتى يفلحوا ويسعدوا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القصص 028 - الدرس (18-18): تفسير الآيات 84 - 88
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-09-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر والأخير من سورة القصص، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى التعقيب الكريم الذي جاء بعد قِصّة قارون، وهو قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(سورة القصص)

فاعلُ الخير سعيد بعمله:

قالوا: فاعل الخير خيرٌ من الخير، أي مهما كان عمل الخير عظيماً فلا بدّ من أن تطويه الأيام، ولا بدّ من أن ينتهي بعد نهاية العالم، ولكن فاعل الخير سيسعد به إلى الأبد، لذلك فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر، مهما كان هذا العمل خطيراً ؛ الذي ألقى قنبلة على مدينة في اليابان فأبادت ثلاثمائة ألف رجل في ثانيةٍ واحدة، هذا العمل بعد مضي مئة عام نسيه الناس، ولكن الذي فعله شرٌ هو شر من الشر، وسيشقى به إلى أبد الآبدين.

الشيء الخطير أنّك أخطر ما في الكون، مهما كان عملك طيباً فأنت أطيب منه، مهما كان عملك خيراً فأنت خيرٌ منه، ومهما يكن العمل سيّئاً فالذي فعله أسوأ من الشر، فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر.

يقول الله سبحانه وتعالى:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(سورة القصص: من الآية 84)

من المعاني المستنبطة من قوله: مَن جَاءِ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا

أي أنه مهما كانت هذه الحسنة عظيمة، مهما كان حجم هذا العمل كبيراً، فله عند الله عزّ وجل من السعادة الأبدية، ومن التقلّب في جنّات النعيم ما هو خيرٌ من هذا الخير، حتى إن بعضهم يقول: **" من أطعم لقمة ابتغاء وجه الله عزّ وجل جاء يوم القيامة يراها كجبل أحد ".**

((يا عليُّ، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

[الجامع الصغير عن أبي رافع بسند فيه ضعف]

((فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[مسند أحمد عن سهل بن سعد]

خيرٌ لك من الدنيا وما فيها لأن الله شكور.

إذاً:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أي فعلت صالحاً، بذلت من وقتك الثمين، بذلت من خبرتك الغالية، بذلت جاهك من أجل ضعيف، بذلت مالك الذي حَصَّلته بعرق جبينك من أجل إطعام بطنٍ جائع:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

فَوّتّ على نفسك دُنيا عريضة، خشية الله عزّ وجل، جاءك عرضٌ مُغْرٍ، لكنك أردت مرضاة الله عزّ وجل، ففاتك ربحٌ كبير:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

من أتعب نفسه في سبيل أهله، وأولاده، ومن حوله:

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: من الآية 245)

إذا فعلت الصّالحات فكأنك أقرضت الله عزّ وجل، إذا فرّجت عن مكروب، إذا واسيت محزوناً، إذا أعنت فقيراً، إذا طمأنت خائفاً، إذا بذلت معروفاً، إذا أدّيت نصيحةً، إذا أمرت بمعروفٍ، إذا نهيت عن منكرٍ، إذا أدخلت الفرح على قلوب الصغار، إذا جَبَرْتَ خاطر زوجتك.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

يقول هذا الكلام خالق الكون، يقول هذا الكلام ربُّ العالمين، إذا قال لك إنسان: أنا أعطيك مبلغاً كبيراً، وحجمه كله مئة ليرة، وكل ما يملك مئة ليرة، فكلمة كبير مما يملك مئة ليرة لها معنى، إذا قال لك إنسان، وهو يملك مئة ألف: لك عندي مبلغٌ كبير، كلمة كبير من الإنسان الثاني لها معنى آخر، إذا قال لك غنيٌ كبير: لك عندي مبلغٌ كبير، لها معنى ثالث، فإذا قال لك ملك الملوك: لك عندي خيرٌ كثير، فالملك ماذا يعطي ؟ يعطي قلم رصاص ؟ إذا أراد أن يقدِّم الملك هدية فماذا يقدم ؟ ممحاة صغيرة ؟ قلم رصاص ؟ مئة ليرة ؟ كتاباً صغيراً ؟ أم يقدِّم لك بيتاً مثلاً، أو مركبة فارهةً، أو منصباً رفيعاً ؟ فالعطاء يتناسب مع المعطي، فعندما ربنا عزّ وجل يقول لك:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أنت كمؤمن هذا كلام الله عزّ وجل، ماذا تفهم من كلمة:

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

دللت إنساناً على الله عزّ وجل، أتعبت نفسك من أجله، بذلت وقتك الثمين، كم سهرت من ليالٍ من أجله؟ كم بذلت من مالٍ تأليفاً لقلبه ؟ إلى أن عرف الله، واستقام على أمره:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

أنت تعامل خالق الكون، ولا تعامل إنساناً عادياً، شحيحاً، حريصاً، لئيماً، بخيلاً، ينسى المعروف، يجحد، إنك تعامل خالق الكون..

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)

(سورة المدثر)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

هذا الصحابي الذي عَيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام القائد الثالث في معركة مؤتة، والذي مات أخوان له فيها، سيدنا زيد، وسيدنا جعفر، فلما جاء دوره في رفع الراية، ورأى نفسه على وشك الموت المحقق، يبدو أنه تردد فقال:

يا نفس إلا تـقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شـقـيت

****

قِسْتُ زمن هذين البيتين، فإذا هما ثلاثون ثانية، أي أنه تردد ثلاثين ثانية، أَحْجَمَ ثلاثين ثانية. النبي عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة المنورة مع أصحابه قال:

((أخذ الراية أخوكم زيد، فقاتل بها حتى قُتِل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة))

ثم سكت، فلما سكت خاف أصحاب النبي على صاحبهم عبد الله بن رواحة فقالوا: **يا رسول الله، ما فعل عبد الله "** ؟ قال:

((ثم أخذها عبد الله، وقاتل بها حتى قُتِل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

هبط درجة.

لو أن إنساناً أعطاك محلاً، وكنت صانعاً، فأصبحت تاجراً، زوجك ابنته، أعطاك بيتاً كبيراً، أعطاك مركبةً، خلال أعوام قليلة صرت إنساناً شهيراً غنياً وجيهاً، رأيته في الطريق يمشي وأنت معك سيّارة،

قال لك: يا فلان أوصلني إلى البيت، أنت ماذا فعلت ؟ سكت ثلاثين ثانية، ثم قلت له: تفضّل، هذا السكوت في حقك جريمة مع هذا الإنسان، فربنا عزّ وجل إذا دعاك لفعل الخيرات تتردد ؟! هل يوجد تردد هنا ؟ من علامة المؤمن أنه إذا دُعي إلى الخير ألقى بنفسه عليه، طُرِقَ بابك، هذا السائل ساقه الله إليك لينظر ماذا تفعل ؟.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم]

الحديث معروف عندكم، فأنا أرى أن المؤمن الصادق أكبر همِّه في الحياة الدنيا أن يعمل عملاً صالحاً يُرضي الله عزّ وجل، يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ هل خدمت عبادك كما تريد ؟ هل أنا في موضع رضاك يا رب ؟

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

له خيرٌ منها في الدنيا.

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

إذا أنفقت، عبدي أنفق أُنفق عليك، إذا أعنت فستجد من يُعينك، إذا نصرت فهناك من يَنْصُرك، إذا واسيت فهناك من يواسيك، إذا ذكرت الله عزّ وجل في ملأٍ من الناس ذكرك الله في ملأٍ خيرٌ منهم، يأتي اسمك عطراً جداً في ملأٍ خيرٍ من هؤلاء، أنت تحدّثت أمام شخصين أو ثلاثة عن الله عزّ وجل، وأثنيت عليه، وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته الفُضْلى، فجاء اسمك في مجمعٍ كبير، وجاء من يذكرك بخير.

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

أنت تعامل خالق الكون، تعامل أكرم الأكرمين، تعامل من بيده ملكوت السماوات والأرض، إنّه من يقول للشيء: كن فيكون، الأمراض كلها بيده، الجراثيم كلها بيده، عضلة القلب، وصمام القلب، والشريان التاجي، والضغط العام، وعمل الكُليتين، وعمل الكبد، وعمل الرئتين، والأعصاب، كلها بيده، وأهلك بيده، وأولادك بيده، خصومك بيده، وأعداؤك بيده، والعالم كله بيده، يقول لك:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: من الآية 245)

فأنت الآن إذا رأيت بيتاً، وأنت ساكن في بيت، تقول: أنا أشتريه، وأبيعه فأربح مئة ألف، هذا أرخص من سعره بمئة ألف، فكيف إذا قيل لك، ادفع ليرةً، وخذ مليوناً، ومعك هذه الليرة وتبخل فيها ؟! هذا رقم قليل، نسبة قليلة، ادفع صدقة، وخذ جنة عرضها السماوات إلى الأبد، أتبخل ؟ قال تعالى:

(مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ)

(سورة محمد: من الآية 38)

لذلك:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ)

هذا كرم الله عزّ وجل وهذه عدالته..

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة القصص)

هنا سؤال:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ)

مُفْرَد..

(فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

عشرة أمثال، عشرون مثلاً، سبعون مثلاً، سبعمئة.

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لكن:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

جاءت السيّئات جمع وهنا مفرد، فلمَ لم يقل الله عزّ وجل: من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بها..

مثلاً:

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

ربنا عَدَلَ عن الضمير إلى الاسم الظاهر، تأكيداً على أن هذا الذي يعمل السيّئات عَمِلَها عن قصدٍ وتصميم وبنيّة الاستمرار، عملها قاصداً مريداً، ونوى الاستمرار عليها:

(فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ)

جاءت متكررة، عملها مرةً بعد مرة، أكّد عليها، أرادها، صمم عليها، لم يَتُبِ منها، أعادها.

(إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة القصص)

الآن انتهت قصة قارون مع التعقيبين الذين جعلاها قواعد ثابتة لكل من يقرأ القرآن.

في نهاية السورة ملخّصاتٌ هامة:

معنى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ

الآن جاءت نهاية السورة، ويجب أن تعلموا أيها الإخوة، أن السورة الكريمة تأتي في نهايتها مُلَخَّصاتٌ مكثفةٌ جداً، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

أي يا محمّد..

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

(القصص: من الآية 85)

المعنى الأول:

إن الذي فرض عليك هذا القرآن أن تقرأه، وهذا القرآن أن تتدبره، وهذا القرآن أن تتلوه، وهذا القرآن أن تُبَلّغه، لرادُّك إلى مقامٍ عظيم لا يعلمه إلا الله..

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَسِيلَةُ ؟ قَالَ: أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا

رَجُلٌ وَاحِدٌ، أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

[الترمذي]

إذا دعوت إلى الله، أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر، دَلَلت الناس إلى الله عزّ وجل، حببتهم إلى الله، بيّنت لهم، فصّلت لهم، أقنعتهم، ضربت لهم الأمثال، أخذت بيدهم، تَحَمّلت أسئلتهم، تحمّلت أحياناً تجاوزهم، إلى أن وَصَلْتَهم بربهم فاستقاموا على أمره، وسعدوا بقربه، إن الذي فرض عليك القرآن أمرك أن تدعو إلى الله، أن تتلو عليهم القرآن، أن تبينه لهم لرَادُّك إلى معاد.

أحياناً نرسل إنساناً إلى مهمة صعبة، لكن حينما يعود يكون له استقبالٌ عظيم، وجائزةٌ عظيمة، ومرتبةٌ عظيمة، ومقامٌ كريم، واحتفالٌ كبير، وأوسمةٌ، وما إلى ذلك، الإنسان أحياناً يرسل إنساناً إلى مهمة صعبة خطرة، فإذا عاد من مهمته ناجحاً كان له التكريم الذي لا حدود له.

المعنى الأول لهذه الآية: إن الذي فرض عليك القرآن أمرك أن تتلوه، أمرك أن تُبَلِّغه، أمرك أن تُبَيّنه، أمرك أن تدعو إلى خالق الكون:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

إلى معادٍ كريم، إلى مقامٍ كريم، إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا هو المعنى الأول.

إذاً: نحن كمؤمنين قياساً على هذا المعنى، إذا دعوت إلى الله هل تعرف مكانك عند الله عزّ وجل ؟ هل تعلم ماذا ينتظرك من خيرٍ عظيم ؟ ماذا يعد الله لك من مقامٍ كريم، ماذا يُخَبّأ لك من سعادةٍ أبدية، أنت مؤمن جاء في آخر الزمان، في الثمانينات، في السبعينات، أردت بإخلاصٍ شديد أن تهدي الناس إلى الله، أن تُرْشِدَهم إلى ربّهم، أن تقرّبهم من خالقهم، أن تَصِلَهُم بمن خلقهم، هل تعلم ماذا أُخْفِيَ لك ؟ ماذا خُبِّئَ لك ؟ ماذا ينتظرك من إكرامٍ وسعادةٍ ؟ لأن القرآن الكريم إذا خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام، فالمؤمنون مخاطبون بالآيات نفسها على قدر إيمانهم، فإذا قال الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

معنى ذلك أن كل مؤمنٍ له من هذه الآية نصيبٌ على قدر إيمانه، إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

يا محمّد..

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي وأنت أيها الأخ الكريم، أيها المؤمن، إذا حضرت مجلس علم، واستوعبت الآيات، وتأثّرت بها، فأردت أن تنقلها إلى لآخرين ؛ إلى جيرانك، إلى إخوانك، إلى أصدقائك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى

زملائك، إلى من تُحِبُّه، بينت لهم بجهدٍ جهيد، وفصّلت لهم، ودعوتهم إلى هذا المجلس، ودعوتهم إلى معرفة الله:

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

لك عند الله عودةٌ مشرفة، هناك عودة مُبَجّلة، عودة موقّرة، عودة مُسْعدة، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي سيسألك عن أمانة التبليغ، هل بَلّغت ؟ إنك إذا ذهبت إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام تقول: يا رسول الله، يا نبي الله، يا حبيب الله أشهد أنّك أدّيت الرسالة، وبلّغت الأمانة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، ومحوت الظُلمة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد. أنك إذا دعوت إلى الله فقد صرت مسؤولاً، كلما فعلت شيئاً: يا عبدي، هكذا تقول للناس ؟ هل أنت في مستوى كلامك ؟ دعوتهم إلى الصدق، هل أنت صادق ؟ دعوتهم إلى غضّ البصر، هل أنت غاضٌ لبصرك ؟ دعوتهم إلى الأمانة، هل أنت أمين ؟ دعوتهم إلى النُصْح، هل تنصح زبائنك ؟ ألا تستحي مني أن تدعو الناس إلى شيء وتخالفهم أنت ؟! فهذه مبدأ المسؤولية.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

سيحاسبك، سيرى ماذا فعلت ؟ هل كان سلوكك بمستوى دعوتك ؟ هل انفصلت دعوتك عن سلوكك ؟ هل كانت دعوتك في وادٍ وأنت في وادٍ ؟ هل طَبّقت في بيتك ما أمرت به إخوانك ؟ هل كنت قدوةً صالحةً لهم ؟ هل سبقتهم إلى طريق الخَيْرات أم قصّرت عنهم ؟ أم جعلت الدعوة مهنةً وحرفةً تسترزق منها ؟:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

سيحاسبك، سيكشف عملك، فإذا قال الإنسان للناس: قال الله تعالى، فالقضية سهلة، لا تحتاج إلى قراءة وكتابة، لكن هناك المسؤولية، هل أنت في مستوى هذه الدعوة ؟ هل فعلت شيئاً خلاف ما تقول ؟ هل في شخصيّتك ازدواج ؟ هل لك مظهر ومخبأ ؟ هل لك ظاهر وباطن ؟ هل لك جلوةٌ وخلوة ؟ هل أنت في مستوى ما تقول ؟:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

انتبه قبل أن تقول، قبل أن تقول لابنك: يا بني كن صادقاً، فهل أنت صادقاً مع الناس ؟ تقول: والله اشتريتها بأغلى مما أبيعك إيّاها، هل أنت في هذا الكلام صادق ؟ حينما تنصح ابنك أن يكون صادقاً،

هل أنت صادقٌ مع الناس ؟ القضية خطيرة جداً، لذلك ألفٌ كأُف، وواحدٌ كألف، لماذا صنع الأنبياء المعجزات ؟ لأنه ليس عندهم ازدواجية، فعلوا ما قالوا، الله عزّ وجل لم يقل: لقد كان لكم في رسول الله عالمٌ شهير، ولا خطيبٌ بارع، قال:

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من الآية 21)

ربنا اختار الأسوة الحسنة، لم يقل: مؤلِف، بَحّاثة، علاّمة، خطيب، لا، بل قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

ما أمر الناس بشيء إلا كان سبّاقاً له، وأنت إذا أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل لا تفكر أن الناس أغبياء، الناس أذكى مما تظن، هم يراقبونَك، يضعونك تحت المِجْهَر، يُسَلِّطون عليك أشدّ الأضواء، فإذا أردت أن تقول كلمةً فكن في مستواها، وإلا فالله عزّ وجل سيحاسبك..

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

هذا هو المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

تَروي كتب التفسير أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، الله عزّ وجل جعل في فطرة الإنسان أن يحب بلده، ووطنه:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(سورة النساء: من الآية 66)

المعنى الثالث، أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما غادر مكة مهاجراً، ووصل الجحفة، تروي بعض كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في هذا الموضع، أي يا محمد، لا تحزن، سوف تعود فاتحاً لمكة، أُخرجت منها في سبيل الله، وسوف تعود فاتحاً لها.

وأنتم أيها الإخوة الأكارم يقابل هذه الآية قول النبي الكريم..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عَوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

إيّاك أن تظن أنك إذا تركت شيئاً لله ضاع عليك، لا والله لا بدّ من أن يؤتيك الله خيراً منه في الدنيا والآخرة.

إن الذي فرض عليك القرآن، دعوت يا محمد إلى الله، فعاداك الناس، وتآمروا على إخراجك،

وأخرجوك، لا بدّ من أن تعود إليهم فاتحاً وظافراً، لا بدّ من أن يُعِزّك الله عزّ وجل، لا بدّ من أن يرفع قدرك، لا بدّ من أن يذل أعدائك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

أحياناً يكون الشاب ناشئًا في تدين، فيعاديه إخوته، وأهله، وأبوه، والجيران، وبيت عمّته، وبيت خالته، يقولون: انجذب، وتَمَشْيَخ، وصار عقله صغيرًا، وهم عندهم اختلاط، وسهرات، وحفلات، وانطلاقات، وهو جالس في غرفته وحيداً، خائف من أن يعصي الله، وصار منكمشًا على نفسه، لا بدّ من أن يرفعه الله فوقهم، لكن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الحبل الآن مرخى، لا بدّ من أن يرفعه الله فوقهم، لا بدّ من أن يعزّه، لا بدّ من أن يُغْنِيه، لأنه آثر مرضاة الله عزّ وجل، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، طبعاً لأنك تخشى الله عزّ وجل رفضت هذه النزهة المختلطة مع أهلك، ذهبوا إلى المكان الفلاني، وتناولوا أطيب الطعام، وشربوا أطيب الشراب، وضحكوا، ولعبوا، وتراشقوا بالثلج، وأنت جالس بالبيت تخشى أن تكون معهم، لا بدّ من أن يرفعك الله عزّ وجل، دُعيت إلى حفلةٍ إلى سهرةٍ، إلى دعوةٍ فيها ما لا يرضي الله فقلت: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، بدوت وكأنك جاهل، خائف، هم منطلقون، لا يهابون شيئاً.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[ورد في الأثر]

الله عزّ وجل يحب المؤمن الواثق:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

لا تكن ضعيف النفس، أنت وليُّ الله عزّ وجل:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة يونس)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

يحبك الله عزّ وجل أن تَعْتَزّ به، وأن تَثِقَ بنصره، وأن تثق بتوفيقه، وأن تثق بدفاعه عنك.

(إنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من الآية 38)

لذلك:

(إنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)

دعوت إلى القرآن، إلى رب القرآن، إلى ربِّ السماوات، والأرض، دعوت إليه فتآمر عليك قومك فأخرجوك، لا بدّ من أن تعود إلى مكة، وهم مُطَأْطِئو الرؤوس.

لما استعرض أبو سفيان جيش رسول الله قال: يا ابن أخي، ما أعقلك ! وما أحكمك ! وما أرحمك ! وما أوصلك ! قال:

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟))

والله الذي لا إله إلا هو أرواحهم جميعاً مُعَلّقَة بين شفتيه، عشرة آلاف سيفٍ متوهج في ضوء الشمس، تنتظر هذه السيوف كلمة من رسول الله.

((ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟))

هؤلاء الذين عذّبوه، هؤلاء الذي عذّبوا أصحابه، هؤلاء الذي أخرجوه، ائتمروا على قتله، قاطعوه، حاربوه، فعلوا به كل ما فعلوا..

(إنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَى مَعَادٍ)

إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضعُ به آخرين، اقرأهُ، أتْقِن تجويده، احْفظه، تَفَهّم تفسيره، اعْمل به، هذه المعاني كلُها مستفاده من قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقّ تِلَاوَتِهِ)

كتاب الله كتابك المُقرر، اجعله كتاب الحياة، اجعله كتاب العُمر، احرص على فهم آياته آيةً آية:

(إنّ الّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَى مَعَادٍ)

المعنى الرابع:

جاء به ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: حينما قال الله:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنّهُ كَانَ تَوّاباً(3))

(سورة النصر)

فهذا الصحابي الجليل فهم من هذه السورة نعي النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا ؟ لأن الأنبياء أهدافهم الكبيرة تجعلهم إذا حققوا أهدافهم فلا شأن لهم بالحياة بعدها، أما عامّة الناس، يعيش أحدُهم ليأكل، أو يأكل ليعيش، ما دام الأكل موجوداً، والبيت موجوداً، وزوجة موجودة، فهذا هو المطلوبُ عنده، أما العظماء فأهدافهم كبيرةٌ جداً، فإذا حققوها فلا معنى لحياتهم بعدها، لذلك:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2))

انتهت حياتك يا محَمّد..

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

هكذا فهم الصحابي الجليل ابن عبّاس هذه السورة، وفَهِمَ هذه الآية أيضاً:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

فإذا رَدّك إلى مكّة، فتحت مكّة، ودانت لك الجزيرة، انتهت مُهِمّتُك، وهذا الذي حصل، بعد الفتح بزمنٍ يسير جاءت وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

وبعضُهم قال:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي إلى الموت، أو إلى الحشر، أو إلى القيامة، أو إلى الجنة، وبعضُهم يَفْهم هذه الآية فهماً عملياً، أي إذا أراد أن يسافر، وتمنى على الله أن يرجع، لا أن يرجع في نعش، بل يرجع على قدميه يتلو هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

الإنسان يسافر فيرجع، أو لا يرجع..

على كلِ المعاني كلها:

المعنى الأول:

إذا دعوت إلى الله عن طريق هذا القرآن كما قال الله عزّ وجل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

إذا جاهدت الناس في تعليم القرآن فإن الله عزّ وجل رادُّك إلى معاد لك مقامٌ كبير.

المعنى الثاني:

لك حسابٌ عسير، سيسألك هل كنت في مستوى هذا القرآن ؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان قُرآناً يمشي، السيدة عائشة سُئِلت عن خلقه فقالت:

((كان خلقه القرآن))

[مسلم]

فهل أنت في مستوى القرآن ؟ أنت مُطَبِّقٌ للقرآن ؟ وهذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث:

إذا تركت شيئاً لله عوّضك الله خيراً منه في دينك ودنياك.

المعنى الرابع:

أن الإنسان إذا حقق أهدافه الكبرى انتهت مهمته في الحياة، أي أنت لك مهمة في الحياة، قبل أيام خطر في بالي مثل:

الجامعات المتقدِّمة جداً التي فيها أموال طائلة تُبْذَل من أجلها إمكانيات هائلة، فيها حدائق غَنَّاء، فيها ملاعب، فيها مسابح، فيها مطاعم من الدرجة الأولى الخدمة فيها ذاتية، وفيها أماكن للنوم راقية جداً، طبعاً وفيها قاعات تدريس، وفيها مكتبات، ومخابر، إذا انتسب طالب لهذه الجامعة أعجبه مسبحها، وأعجبه ملعبها، وأعجبته حديقتها، وأعجبه الطعام فيها، وأعجبته غرفته، فصار يمضي وقته بين النوم في غرفته، وبين اللعب في الملعب، والسباحة في المسبح، والتنَزُّه في الحديقة، وهكذا، من ملعبها، إلى مسبحها، إلى حديقتها، إلى الطعام، إلى النوم، يومٌ إثْرَ يوم، وأسبوع إثر أسبوع، وشهر إثر شهر، ثم ماذا ؟ نسي أخطر ما في الجامعة، نسي الدراسة، نسي قاعات التدريس، نسي المُطالعة، نسي التهيئة للامتحان، نسي نيل الشهادة، والله الذي لا إله إلا هو مع أن هذا مثلٌ غريب لكنه أيضاً غير بعيد عن الحقيقة.

أي أن هذا الذي يلهو في الدنيا ؛ يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ويحَصِّل الأموال، ويسافر، ويعود، وينسى لماذا هو في الدنيا ؟ لماذا خلقه الله عزّ وجل ؟ إنه في خسارةٍ كبيرة، إذاً: أنت لك مهمة هل عرفتها ؟

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة القصص)

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

أجمل دعاء سمعته مرة من رجل قال لي: الحمد لله على وجود الله، الله يعرف المهتدي من الضال، والمُحِق من المُبطل، والصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، الله يعرف، أي إذا توهَّم الناس أنك غير صادق، وأنت عند الله صادق فلا تثريب عليك، إذا اتهمك الناس بأنك غير عالم، وأنت عند الله عالم فلا تثريب عليك، إذا اتهمك الناس بأنك غيرُ مخلص، وأنت مخلص فلا يهمُّك الأمر، لأن علاقتك مع الله عزّ وجل.

لكن لو كان معك كيلو معدن، وقد استطعت بذكاءٍ كبير أن توهم الناس بأنه ذهب فصدّقوك، فأنت الخاسر، هذا الذي معك حديد، وإذا كان معك كيلو ذهب، وظنّوا أنه حديد أو معدن رخيص فأنت الرابح، علاقتك مع الله فقط..

ـ من عرف نفسه ما ضَرّتْهُ مقالة الناس به.

ـ كُن مع الله ولا تُبالِ.

ـ كن مع الله ترَ الله معك.

قال سيدنا عمر لرسول قائد الجيش الذي جاء يبشّره بالنصر: **" من الذين قتلوا في القادسية يا فلان ؟** قال: مات خلقٌ كثير، قال له: من هم ؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى سيدنا عمر، وقال: **<< وما ضَرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم>>.**

من أنا ؟ فإذا عرف الله انتهى الأمر، إذا عرف نيتك وإخلاصك، وصدقك واستقامتك، وتَحَرّيك للحق، لِيَقُل الناس عنك ما شاؤوا، وكلامهم لا وزن، له لا قيمة له، كما قال النبي الكريم:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف]

العبرة أن تكون في رضوان الله، أن تكون صادقاً مع الله، أن تكون مُخْلِصاً مع الله، أن تكون عند الأمر والنهي، أن تكون في طاعة الله..

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتـقي الله البـطل

***

قال أحد العلماء الكبار في العصور السابقة، ويبدو أنه لسببٍ من غيرةٍ، أو عداوةٍ، أو حسدٍ، رَوّج عنه بعض خصومه ما رَوّجوا، فقال له واحد ذات مرة: والله يا سيدي، إني أُشْفِقُ عليك مما يُقال عنك، فقال: هل قلتُ أنا عنهم شيئاً ؟ قال: لا والله، قال: إذاً عليهم فأشفق.

عليهم وليس عليّ، أنا لم أخالف أمر الله إطلاقاً، هل قلت عنهم شيئاً ؟ قال: لا، قال: إذاً عليهم فأشفق، فإذا كنت مع الله فلا تُبالِ، إن الله لا يتخلّى عنك، ولا يُسْلِمُك لأحد، ولا يفضحك، لأنه هو الولي الحميد:

(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أحياناً يكون الضال طليق اللسان، قوي الحجة، عنده قوة تأثير، وهيمنة على الناس، والمُحِق أحياناً يكون قاصراً، فيتوهّم الناس أن الحق مع فلان، النبي قال هذا، قال:

((لعل أحدكم ألْحَنُ بحُجّتِهِ من الآخر))

[البخاري]

جاء خصمان إلى النبي، واحد طليق اللسان قوي الحجة، حلف، وجاء بأدلة أن الحق معه، قال:

((فإذا قضيت له بشيء، فإنما أقضي له بقطعةٍ من نار))

انظر إلى هذا الحديث، أي إذا نجوت من النبي فإنك لا تنجوَ من الله عزّ وجل.

مثلاً: يقول لك: أنا تزوجت زواجاً شرعياً، بإيجاب، وقبول، وشاهدي عدل، ومهر، ولا يوجد أي مخالفة شرعية، ولكن في نيّتي أن أطلقها بعد أن أنتهي من الدراسة في هذا البلد، قد تنجوَ من القضاء الإسلامي، لأن العقد شرعي فعلاً، الزواج شرعي، إيجاب، قبول، هناك ولي، شاهدا عدل، مهر، لا توجد أي مشكلة، لكن لست على التأبيد، في نيّتك أن تطلقها، هل تنجوَ من الله عزّ وجل ؟ لا تنجو، الله عزّ وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكويني.

مثلاً: أمرنا بقطع يدِ السارق، هذا أمر تكليفي، وربنا أحياناً يقطع يدَ السارق بأمر تكويني، أي بحادث، فإذا لم تقطع اليد بأمرٍ تكليفي، فإذا عُطِّل هذا الأمر أو لم يُطبق، قد تُقْطَع هذه اليد بأمرٍ تكويني، إذا نجوت من تدمير المال، أو من إتلاف المال بأمرٍ تكليفي، فإنك لا تنجو من أمرٍ تكويني.

إذا امتنعت عن دفع الزكاة قد يأتي أمرٌ تكويني فيأكل الأخضر واليابس، ودليل إخلاص النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

(سورة القصص: من الآية 86)

مَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّك

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلم أنه سيكون نبياً، دليل إخلاصه أنه لم يكن يعلم، لو أنه يعلم لكان مُفْتَرياً، لم يطلبها، ولا فكر بها، ولا خطرت في باله:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

لو أن هذه الدعوة النبوية ليست من عند الله عزّ وجل لعرف النبي ما يفعل، لكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم إطلاقاً أنه نبي، وأنه رسول، وأن كتاباً سَيَتَنَزّلَ عليه، هذا يؤكِّد إخلاصه لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ)

حتى إن قوله تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (7))

(سورة الضحى)

ما هو الضلال في حَقّ النبي ؟ النبي رأى قومه منحرفين، ضائعين، شاردين، تائهين، جاهلين، وليس عنده الوسيلة كي يهديهم، كان في حيرةٍ شديدة من أمره، ماذا يفعل؟ فلما جاءه الوحي:

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)

(سورة الحجر: من الآية 94)

هذا هو معنى الضلال، أي أنه لم يكن يعرف ما الطريق إلا هدايتهم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ)

فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ

الآن ما معنى إلا رحمة من ربك ؟ أي حينما ألقي إليك هذا الكتاب كان إلقاؤه برحمةٍ من ربك، أراد أن يرحمك ويرحم أمتك:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

(سورة القصص)

المعنى الأول:

أي لا تكونن معيناً لهم، أي أنّك لا تفعل هذا، وهذا نهيٌّ المقصود منه أُمّته بالتبعية، لذلك، **من أعان ظالماً سلّطه الله عليه**، ومن أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، فإذا كان لك صديقٌ موظف، وسوف يوقِع عقوبة بحق موظف صغير، وأنت شعرت أن هذا الموظف مظلوم، قال لك: ما هو قولك ؟ لم تقل له شيئاً، ولكن هززت له برأسك، فأنت قد أعنته على هذا الظلم، **من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ على جبينه آيسٌ من رحمة الله**، إذاً:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

المعنى الثاني:

لا تكونن ظهيراً لهم، أي لا تكونن بين ظَهْرَانِيهم، **من أقام في بلد المشركين فقد برئت منه ذمة الله.**

أنت ساكن في بلدك الإسلامي، توجد مجالس علم، وتوجد مساجد، لك أهل، لك دخل مقبول ويكفيك، ولكن أنت طموح، فذهبت إلى بلدٍ ترتكب فيه فاحشة الزنا على قارعة الطريق، أينما تحوّلت فالمعاصي من كل جانب، من أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله، وأغلب الظن أن هذا الذي يعتَدّ بنفسه، ويقيم في بلد الكفر أغلب الظن أنه بعد مدةٍ ليست بالقليلة يصبح منهم، يقول لك: يا أخي، والله انجرفت والتيار قوي، أربعون محطة تعمل أربعا وعشرين ساعة باستمرار، شيء مغرٍ، طبعاً من أقام مع المشركين برئت منه ذمّة الله، قال العلماء:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)

بمعنى لا تُقِمْ معهم.

المعنى الثالث:

قال بعضهم: هذه أمرٌ بالهجرة، لماذا هاجر النبي ؟ من هذه الآية:

(فَلَا تَكُونَنّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُنّكَ عَنْ آيَاتِ اللّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبّكَ)

(سورة القصص: من الآية 87)

وَلَا يَصُدُنّكَ عَنْ آيَاتِ اللّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبّكَ لَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أُدعُ إلى معرفة ربك، وادعُ إلى طاعة ربك، وادعُ إلى عبادة ربك:

(وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة القصص)

كن خالصَ الطاعة، وخالص الوجهة، وخالص النية.

أحياناً الإنسان يكون مطيعاً لله، لكن الوجهة لغير الله عزّ وجل، كأن يلهو بعمله، وبشغله، أحياناً يكون مطيعاً لله، وله وجهة إلى الله، مطيع وله وجهة، وخالص النية:

(وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ)

(سورة القصص: من الآية 88)

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ، أيُّ جهةٍ تدعوها مع الله فهي باطلة:

(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ)

(سورة القصص: آية " 88 ")

لماذا لا تدعُ مع الله إلهاً آخر ؟ لأنه لا إله إلا هو، هذه دعوة باطلة، هذا تزييف للحقيقة، هذا وهم، هذا جهل، هذا تصوُّر كاذب:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ)

لأنّه:

(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص)

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

المعنى الأول:

من معاني هذه الآية: أي أن أي عمل في الدنيا مهما بدا عظيماً، أخي هذه البناية فيها مئة واثنا عشر طابقًا، بُنِيت من الحديد الصرف، فيها ثلاثون مصعداً، هذا المعمل يغطي العالم بإنتاجه، أُقيم نفقٌ تحت البحر بين فرنسا وإنكلترا، شيء جميل، بني أطول جسرٍ في العالم، هذه أجمل، وصلنا إلى القمر، قال: كل شيء هالك إلا ما ابتغي به وجه الله، هذا معنى من معان هذه الآية:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

تأتي يوم القيامة:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2))

(سورة التكوير)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(4))

(سورة الانفطار)

مهما كان العمل عظيماً، والبناء شامخا، والجسر طويلا، والتقنيات عظيمة، وإنجازات، اكتشفنا الفيروس الفلاني، عملنا كذا، وصلنا إلى أعماق البحار، وصلنا إلى الفضاء، أرسلنا مركبة إلى المشتري، بقيت ست سنوات تسير بسرعة ثلاثين ألف كيلو في الساعة، قال:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

أي ما ابتُغي به وجه الله، الأنبياء أعمالهم خالدة، وغيرهم أعمالهم بائدة، خالدة وبائدة، هذا المعنى الأول:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

المعنى الثاني:

كل شيءٌ هالكٌ مستقبلاً:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس: من الآية 24)

في كل منظر للمدن الغربية ؛ الحدائق، وناطحات السحاب، والشوارع، والنظافة، والترتيب، والجسور، والحدائق العامة، وحدائق الحيوان، والمتاحف، والأبنية، والأدراج المتحركة:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

ما هذه الخراب ؟ كان هنا مدينة اسمها باريس:

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

هذه قيام الساعة..

(كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من الآية 24)

إذاً:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

مستقبلاً.

المعنى الثالث:

الإنسان وجوده غير ذاتي، فهو في حكم الهالك، إذا كان عندك آلة متحرّكة كهرباؤها من عندك، أنت في أي لحظة تضغط على الزر فتوقفها، هل لها أن تفتخر بحركتها؟

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

هالك لأن وجوده غير ذاتي، لولا أن الله تجلّى عليه لما كان، كن فيكون، زُل فيزول، فإما أنه هالكٌ مستقبلاً، أو أنه الآن هالك.

الإنسان استيقظ الصبح، ولا علة فيه، الله شاء لك ذلك، إذا كانت زوجته نائمة بجواره، فجسّته فرأته شديد البرودة، فاستيقظت فرأته ميتاً، مَسّت يدها يده في أثناء الليل فشعرت ببرودة في يده، فاستيقظت فإذا هو ميت، فإذا استيقظ أحدنا صباحاً يرى، ويسمع، حركته صحيحة، أجهزته وأعضاؤه، معنى هذا أن الله سمح له أن يستيقظ، أنت في الأساس هالك، والنائم ميت:

(ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ)

(سورة الأنعام: من الآية 60)

إذاً:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ)

ما معنى شيء ؟ كل شيء أي كل موجود مهما بدا تافهاً، الشيء تعني الموجود:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

لم يقل: الحُكْمُ له، بل قال:

(لَهُ الْحُكْمُ)

لو قال: الحكم له، ولغيره، أما له فقصراً وحصراً، هو الحاكم، الأمر أمره، القرار قراره، الفعل فعله، التنفيذ تنفيذه:

(لَهُ الْحُكْمُ)

وأما أنتم فأنتم مُخَيَّرون:

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

وسوف يحاسبكم:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ)

وحده.

ما هو الشرك ؟ أن ترى الحكم بيدِ غير الله، أن ترى أن فلاناً ينفعك، بإمكانه أن ينفعك، بإمكانه أن يَضُرّك:

(لَهُ الْحُكْمُ)

حصراً، وقصراً:

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

لتحاسبوا عن أعمالكم صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (01-16): تفسير الآيات 1 - 3

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-09-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة العنكبوت:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة العنكبوت، وقد سميّت بهذا الاسم لورود آيةٍ في هذه السورة تتحدّث عن العنكبوت.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4))

أيها الإخوة الأكارم.

(الم)

القول في الحروف المقطعة:

إذا قُلت كما قال بعض المفسّرين: الله أعلم بمراده، فهذا حق، وإذا قلت: هي أوائل أسماء الله الحُسنى فقد قُلت حقاً، وإذا قلت: هي أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فقد قلت حقاً، فإذا قلت: إن القرآن الكريم المعجز من هذه الحروف كان إعجازه، وهذه الحروف متداولة بين أيديكم..

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(23))

(سورة البقرة)

فهو حق.

وقد مرّ بنا سابقاً في مرّاتٍ عديدة تفسير هذه الحروف التي افتُتِحَتْ بها بعض السور، أمّا قول الله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ)

أصل الاستفهام واستعمالاته اللغوية:

هذه الهمزة همزة استفهام، تقول: أفلانٌ حضر ؟ أأنت قلت لفلان كذا ؟ الاستفهام كما تعلمون طلب العلم مجهولة، ما اسْمُكَ ؟، كم الساعة ؟ ما المبلغ الذي تملك مثلاً ؟ هذا هو الاستفهام، ولكن الاستفهام يخرج عن غرضه الأساسي إلى أغراض كثيرة، من هذه الأغراض التقرير..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

معنى: أَحَسِبَ النَّاسُ

بمعنى حسِبَ الناسُ، هذا استفهام تقريري، وهناك استفهامٌ إنكاري، وهناك استفهامٌ توبيخي، وهناك استفهامٌ تَعَجُّبي، وأنواع الاستفهامات كثيرةٌ جداً، كلُّها خرجت عن مقصد الاستفهام الأول.

على كلٍ هذا الاستفهام في مطلع هذه الآية استفهامٌ تقريري، هذه:

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

تعني لقد حَسِبَ الناس، هذا هو المعنى، أما معنى حَسِبَ بمعنى ظنّ، وليس غريباً عنكم أن تعرفوا أن الوهم، والشك، والظن، وغلبة الظن، واليقين، والقطع، هذه مستويات قبول الحقيقة، قد تتوهّم، وقد تشك، وقد تظن، وقد يغلب على ظنِّك، وقد تتيقّن، وقد تَقْطَع، أعلى درجات اليقين هو القَطع، لذلك القرآن قطعيٌ الثبوت، قطعي الدلالة وظنيٌ الدلالة..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

هذه بمعنى أظنّ الناس، حَسِبَ بمعنى ظنّ، عندنا فعل حَسِبَ، وعندنا فعل حَسُبَ، أي افتخر بحسبه، وعندنا كذلك فعل حَسَبَ، أي عَدّ، وعندنا أيضاً اسم فعل (حَسْبُكَ)، وهذه الكلمة اسم فعل أمر، بمعنى يكفي، اللغة العربيّة دقّتها تأتي من أن السين إذا حركتها فلكل حركة معنى، حَسَبَ، وحَسُبَ، وحَسِبَ، وحَسْبُ، حَسُبَ أي افتخر بحسبه ونسبه، وحَسِبَ بمعنى ظنّ، وحَسَبَ بمعنى عدّ، وحَسْبُكَ هذا، أي يكفيك هذا..

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

أي أيظنُّ الناس ؟

(أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

قل ما شئت، قل: أنا مؤمن، فهل تُترَك بلا امتحان ؟ قل: أنا أحمل شهادة دكتوراه، هكذا ؟ أفتدع الدولة إنساناً يضع على غرفة بيته لقب دكتور من دون أن تُحاسبه، من دون أن تطالبه بالشهادة، وبالترخيص، هكذا ؟ إنسانٌ مثلك فرضاً لا يقبل منك أن تدّعي شيئاً لست في مستواه..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا)

لا بد للمؤمن من امتحان وفتنة:

أن تقول أنا مؤمن، ثم تأتي ظروف ضاغطة، وظروف مُغرية، فماذا تفعل ؟ لو أن الأمر بسيط يكفي أن تقول: أنا مؤمن والحمد لله، وأن تصلي هذه الصلوات الخَمْس، وأن تصوم رمضان، وأن تحجَّ البيت، وأن تؤدي زكاة مالك، وانتهى الأمر، لكانت القضية سهلة جداً، ولكن إذا قلت: أنا مؤمن، فهناك امتحاناتٌ لا نهاية لها، لابدّ من أن تكشف من أنت.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

ليس الإيماء بالادّعاء:

تقول: أنا أحبُّ الخير، لكنَّك قاعدٌ في البيت، يأتي من يطرق بابك، ويقول لك: هل لك في خيرٍ ساقه الله إليك ؟ تعتذر، إذاً هذه دعوى، هذا الكلام كذب، تقول: أنا أحبُّ الخير، أنا أحب التضحية، أنا أحب الفداء، أنا أحب الصدقات، أنا أحب مجالس العلم، فيأتيك زائرٌ قليل الشأن من غير موعدٍ تُضَحِّي بمجلس العلم من أجله، أين حبّك لمجالس العلم ؟ قل له: اذهب معي يا رجل، جئتني على غير موعد، وأنا عندي موعد، أيُّ شيءٍ تدّعيه، أي شيءٍ تقوله لابدّ من أن تُكْشَفَ حقيقتك فيه، أنا أُحبُّكِ يا أمي حباً جماً، والله إن تزوّجت لأفعلنّ كذا وكذا، ولأفعلنّ كذا وكذا، هذا كلام، فإذا تزوّج قلب لأمِّهِ ظهر المِجَن، وكره بقاءها، واستثقل حياتها، وتمنّى أن تموت، إذاً هذه دعوى وكلامٌ باطل، أنا أحب الله، ولن أعصيه أبداً، يأتيك إغراءٌ شديد تنهار قِواك، تنهار مقاوماتك فتعصي الله عزّ وجل.

إذاً: لو أن القضيّة بالادعاء لكانت القضيّة سهلة جداً، لو أن الإنسان إذا قال: أنا مؤمن أفيعدّ مؤمناً ؟ وإذا قال: أنا محسن، أفيعدّ محسناً ؟ وإذا قال: **" أنا تقي، أفيعدّ تقياً ؟ وإذا قال: أنا طائع أفيعدّ طائعاً، القضيّة إذاً سهلة جداً، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:**

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا)

أن تقول: أنا مؤمن، وتُتْرَكْ بلا امتحان، بلا ابتلاء، بلا ظروف كاشفة، بلا ظروف تُلقي ضوءاً على حقيقتك، على نياتك إذاً لابدّ من امتحان ليرى صدقك، يقول الإنسان لزوجته: والله لن أتخلّى عنكِ ما حييت، فإذا أصابها مرضٌ عُضال استثقل حياتها، وتمنّى لو يطلقها، ويرتاح منها، إذاً هو كاذب بهذا الكلام، فلك أن تقول ما تشاء، قل ما شئت، وعلى الله أن يكشفك على حقيقتك، ادّعِ الورع، فهناك

ظروفٌ تكشف ما إذا كنت ورعاً أو غير ورع، ادّعِ الطاعة، فهناك ظروفٌ تكشف حقيقتك، ادّعِ برّك لوالديك، فهناك ظروفٌ تكشف حقيقتك.

ذات مرّة سُئل الإمام الشافعي: يا إمام، **" أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ فتبسّم، وقال: لن تُمَكَّنَ قبل أن تُبْتَلَى ".**

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

من أنواع الفتن والبلاء:

1 – الزوجة:

الزواج ابتلاء، الله عزّ وجل يريد أن يرى طاعتك بعد الزواج هل تستمر ؟ التزامك في المسجد هل يَضْعُف ؟ اندفاعك للعمل الصالح هل يخبو بعد الزواج ؟ إذاً الزوجة كانت لك فتنة، امتُحِنْتَ بها فرسبت، أم أن الزواج لم يُغَيِّر في التزامك نحو المسجد، ولا في أعمالك الصالحة، ولا في اندفاعك للخير، ولا في طاعتك لله عزّ وجل، ولا شيء غير طاعة الله تحرص عليها الحرص كلّه، والزوجة إن رضيتْ، أو لم ترض سيّان، مادام الله راضياً، الزواج فتنة.

2 – المال:

أما بالنسبة للمال فقد يقول أحد الناس: والله لو آتاني الله مالاً لأفعلنّ كذا وكذا، ولأنفقنّ منه على كل محتاج ومسكين، ولأبنينّ المساجد والمستوصفات، ولأنفقنه على الأقارب والأيتام، آه، لو أن معي مالاً كثيراً لفعلت وفعلت، فربنا عزّ وجل يؤتيه مالاً، فإذا هو يبخل، ويضنُّ به، إذاً رسب في الامتحان.

كلكم يعلم أمر ثعلبة، قال: **" يا رسول الله أدعو الله أن يغنيني "، قال: يا ثعلبة، قليلٌ تشكره خيرٌ من كثيرٌ تكفره ".**

النبي عليه الصلاة والسلام كأنه رأى أن هذا الإنسان إذا وُضِعَ على مِحَكِّ الامتحان فلن ينجح، أصرّ ثعلبة إصراراً شديداً فدعا النبي له بالغنى، فتوالدت أغنامه حتّى ملأت شِعابَ مكّة، واغتنى غنىً واسعاً، ولقد كان ثعلبة حمامة المسجد قبل غناه، هكذا سمّاه الصحابة، لأنه ما فاتته تكبيرةُ الإحرام خلف سيّد الأنام في كل صلاة.

فلمّا اغتنى، وملأتْ غنمه شِعاب مكّة غاب عن مسجد رسول الله تغيّر، ثم أبتْ نفسه أن يقعد على أرض المسجد، بعد عامٍ بعث إليه النبي عليه الصلاة والسلام من يأخذ زكاة ماله، فقال ثعلبة لرسول رسول الله: **" قل لصاحبك لا زكاة في الإسلام"**، فقال هذا الرسول: **" أو ما تراه صاحباً لك ؟!.. صاحبي لي.. أجمعت مع منع الزكاة كفرك بمحمّد ؟ ".**

وربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ)

(سورة التوبة)

فالمال امتحان، والزواج امتحان، تسمع درساً في المسجد عن الصبر، فتقول: يا أخي، الصبر صفة المؤمنين ؟ والله لئن ابتلاني الله بمرض لأصبرَن، ولأمرّغنّ وجهي في أعتاب الله عزّ وجل، ولأسألنّه أن أكون كذا وكذا، فيأتيه المرض، فيكفر، ويتبرّم، ويقول: يا رب، ماذا فعلت أنا حتى أبتلى ؟ فالمشكلة أنك تستطيع أن تقول ما تشاء، أو قل ما تشاء، ولكن الله عليه أن يكشفك على حقيقتك، كيف أنت في الفقر ؟ وكيف أنت في الغنى ؟ هل أنت في الفقر صابر ؟ وهل أنت في الغنى شاكر ؟

3 – المرض:

كيف أنت في الصحّة ؟ هل هذه القوّة توظّفها في طاعة الله، أم في نيل شهواتك ؟

وكيف أنت في المرض ؟ هل ترى أن هذا المرض علاجٌ إلهيٌ رحيم، وأن الله بيده كل شيء ؟

4 – السفر:

يمتحنك في الإقامة وفي السفر، إذا سافرت خارج بلدك، هل تضعُف استقامتك وتقول: لا أحد يعرفني هنا ؟ فإذا كانت استقامتك في بلدك بسبب خوفك على مكانتك الاجتماعيّة والدينيّة، يبتليك الله بالسفر، بالسفر ماذا تعمل ؟ تنظر إلى النساء الكاسيات العاريات، تقف مَلِيّاً أمام الحانات، تقرأ ما لا يُسمح لك أن تقرأه، وأنت في السفر، السفر ابتلاء، امتحنك الله عزّ وجل، إذاً استقامتك في بلدك ليست حباً بالله عزّ وجل بل حفاظاً على مكانتك، فالله عزّ وجل يتولّى أن يكشف كل إنسانٍ على حقيقته بشكلٍ دقيق، ربنا عزّ وجل يقول::

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

لابدّ من أن يُبْتَلى الإنسان، قد يكون في وضع ليس مُضطراً أن يدخل عليه مالٌ حرام، له دخلٌ مشروعٌ ويكفيه، قد تضيق الأمور ويقلُّ دخله، أو تقلُّ قوّته الشرائيّة، عنده أولادٌ كُثُر، عنده عيال، الراتب لا يكفي، السلع غالية، قبل سنوات كان يقول: والله لو قطّعوا يدي إرْبَاً إرباً فلن آكل درهماً حراماً، كلام طيّب، ولكن حينما ضاقت به سُبُلَ المعيشة مدّ يده إلى الحرام، إذاً هو ما كان صادقاً بهذا الكلام بل كان كاذباً.

هل تدَع وزارة الصحّة إنساناً يكتب على بيته: الدكتور فلان، يحمل شهادة بورد الأمريكيّة، ويكون كاذباً بهذا الكلام ؟ أين الشهادة ؟ أين التصديق ؟ أين الترخيص ؟ في أي جامعة درست ؟ ما الثبوتيّات ؟ ما الدلائل ؟ وزارة الصحّة لا تسمح لإنسان أن يتلاعب، قد يدّعي إنسان ما الإيمان، وهو ينطوي على ضعفٍ في الإيمان، فيُوْضَع من قبل الله عزّ وجل في ظروفٍ صعبة، هذه الظروف الصعبة لابدّ من أن يوضع فيها كي يُكْشَفَ على حقيقته.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

قد يقول: أنا تقي، أنا لا أتأثّر بالنساء الأجنبيّات إطلاقاً، هذا مجرد كلام، يضعه الله في ظرفٍ عصيب فإذا قدَمَهُ تزل، لماذا ؟ لأنه كان كاذباً في دعواه، فالإنسان كلّما كَبُرَ عقله كلّه ضبط لسانَهُ، لم يتكلّم كلماتٍ ليس في مستواها..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

ما هي الفتنة ؟

ما هي الفتنة ؟ بعض العوام يفهمون الفتنة بمعنىً محدود، الفتنة لا تعني الشر، الفتنة تعني أن تُكْشَفَ حقيقتك، فلان مثلاً معه مبلغٌ يسير، وجاءه صديقٌ حميم، وطلب منه هذا المبلغ، فقدمه له، نقول: هذا الإنسان فُتِنَ فنجح في هذا الافتتان، أي أنه دُعِيَ إلى عملٍ صالح، إذا كان معه مبلغٌ يسير فاستجاب سريعاً لرد لهفة صديقه، ودفع هذا المبلغ، الله عزّ وجل فتنه، أي أظهر كماله، أظهر حبّه للخير، أظهر حُبّه للإحسان، أظهر مؤاثرته لأخيه، أظهر اندفاعه للعمل الصالح، ليس معنى الفتنة أن تَسْقُط، الفتنة تعني أن تنجح، أو أن تسقط.

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه: من آية " 40 ")

أيْ أظهرْنا ما في نفسك، لذلك الإنسان له مظهر وله مَخْبَر، له كلمات يَدّعيها، وله حقيقة ينطوي عليها، له علاقات خارجيّة منضبطة وله علاقات خاصّة غير منضبطة، والله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يكشف هذا الإنسان.

حدّثني أخ تاجر عنده موظّف، قال لي: أغدقت عليه مبلغاً، أي راتباً جيّداً يكفيه وأسرته، وكان صاحب المتجر يشعر أن هناك نقصاً في المواد التي في الدكان، أو نقصاً في المبالغ، قال لي: ذات يومٍ أرسلت له شخصاً من قِبَلي بعد الساعة الثامنة ليشتري حاجات، وأنا جئت إلى مكتبي في الساعة الحادية عشرَة، وسألته: هل جاء أحد ؟ قال له: لا، هل اشترى أحد ؟ قال له: لا، وأمرت هذا الإنسان أن يأتيني بعد الظهر ليرُدّ البضاعة أمامي، جاء بعد الظهر فلمّا دخل إلى المحل، ومعه البضاعة ليردها: اصطبغ وجه الموظف باللون الغامق، وشعر بخيانته، فهذا إنسانٌ امتحن إنساناً، ورسب، أعطاه معاشاً معقولاً يكفيه ؛ لكنّ هذا الموظّف في هذا المحل التجاري حدّثته نفسه أن يأخذ ما ليس له، أن يأخذ من غَلّة الصندوق، وأن يأخذ من بعض البضاعة، فلمّا شكّ صاحب هذا المحل لجأ إلى هذا الموقف الذكي، وأرسل من يشتري بضاعة قبل أن يأتي هو، وسأله وأكّد عليه: هل جاء أحد ؟ هل اشترى أحد ؟ قال له: لا، أمر الشاري ثانية أن يعود بعد الظُهر ليردّ البضاعة، فكُشِفَ هذا الموظّف، إذا: الإنسان قادر على أن يكشف حقيقة إنسان مثله، فكيف خالق الأكوان ؟

قل ما شئت، أسبغ على نفسك ما شئت من الصفات، والله عزّ وجل متكفِّلٌ أن يكشف كل إنسانٍ على حقيقته..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

يقول لك أحدهم: أنا لا أتأثّر بالنظر إلى النساء، هذا كلام كاذب، التقوى أقوى، الشرع أقوى وأحوط، هذه الدعوى تعقبها زَلّةُ قدمٍ كبيرة، إذاً كان كاذباً في هذا الإدعاء، فلك أن تدّعي مع الله الصلة، و لك أن تدّعي مع الناس الإحسان، و لك أن تدعي مع نفسك الورع، و لك أن تدعي ما شئت، والله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يكشف حقيقة الإنسان في هذه الدنيا قبل أن يموت، هذه آيةٌ خطيرةٌ جداً. فالعباد مكشوفون أمام الله عزّ وجل، نفسك صفحةٌ بيضاء، الدخائل، الصراعات، المشاعر، الخواطر، الطموحات، النيات العميقة، النيات البعيدة، قد تعقد شراكةً، وتقسم لشريكك أن هذه الشراكة أبديّة، وأن الموت وحده يفرّق بيننا، وأنت في أعماق نفسك تخطِّط لهذه الشركة أن تستولي عليها بعد أمدٍ طويل، بعد أن تكتشف سرّ هذه المصلحة من شريكك، الله عزّ وجل..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

فلذلك ليحرص الإنسان حرصاً بليغاً على ألا يتكلّم بما ليس فيه، والمؤمن لا يكذب، وهو صادق، ويتكلّم الحقيقة، فإذا أنِسَ الله منك صدقاً، واستقامة كان الامتحان يسيراً، الامتحان عملية كشف هذا المعدن الطيّب، لذلك المؤمن لا تزيده الأيّام إلا رفعةً، لأن حقيقته عالية جداً، فما على الامتحان إلا أن

يكشف جوهره الثمين، أما غير المؤمن فحقيقته متدنيّة، مظهره مقبول، له مظهر طيّب، له مظهر صالح، أما حقيقته غير طيّبة، لذلك الأيّام تفضحُهُ وتكشفه على حقيقته.

نسأل الله عزّ وجل أن يثبّت أقدامنا، وأن يسترنا بستره الجميل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أي أيها العباد، لا تحسبوا أنني غافلٌ عنكم، أيها العباد، لا تحسبوا أنكم بدعواكم تكذبون على الناس، وتفعلون ما تريدون، إنني كفيلٌ أن أكشفكم على حقيقتكم..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا)

تقول: أنا كذا، ومتروك بلا امتحان ؟ فلو أن طالباً قال: أنا أقوى الطُلاب في الرياضيات، فالأب قد يصدِّق ؟ يقول له من خلال سؤال بسيط: أين مذاكراتك ؟ أين علامات الامتحان، ائتني بها ؟ أين جلاؤك ؟ طالب هل بإمكانه من أن يدّعي أنه أقوى الطلاب في الرياضيات بلا دليل، بلا امتحان، بلا أوراق مذاكرات، بلا أوراق امتحان ؟ وقد يقول آخر: أنا أقوى الطلاب في اللغة العربيّة، أنا الأولي في المدرسة، كلامٌ لابدّ من أن يُكْشَف مضمونه.

قد يذهب طلابٌ إلى بلاد الغرب ليتلقّوا العلوم، يكذبون على أوليائهم: لقد نجحنا إلى الصف الثاني، ولقد... وبعد أربع سنوات تأتي وثيقتهم بالطرد من الجامعة، إذاً مع إنسان مثلك لا تستطيع أن تكذب، مع إنسان عادي لابدّ من أن يكشف الكذب آجلاً أو عاجلاً، فهل مع خالق الأكوان تنطلي عليه هذه الدعوى ؟

إنه حديث يصم ظهر المدّعين:

ورد في الحديث:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنّةِ))

لم يقل: إنه من أهل الجنّة، بل يعمل بعمل أهل الجنّة، أي أنه يتمسّح بالمؤمنين، يقلِّدهم لينتزع إعجاب الناس، كي تروج تجارته، كي تزداد مبيعاته، كي يثق الناس به، كي يعطونه الأموال الضخمة، إذاً:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنّةِ حَتّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ـ وهو كشف حقيقته ـ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النّار فَيَدْخُلُ النّارَ))

(صحيح البخاري: عن " عبدالله ")

هذا معنى الحديث، إنه منافقٌ كبير، إنه يعمل صالحاً فيما يبد للناس لينتزع إعجابهم، ليحقِّق مصالحه، ليروّج بضاعته، ليرفع مستوى مبيعاته، هكذا.

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

اقرؤوا التاريخ: وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

اقرأ التاريخ، اقرأ تاريخ الأنبياء والمرسلين، اقرأ تاريخ الذين عاصروا الأنبياء، اقرأ تاريخ الأمم والشعوب، ماذا ترى ؟ ترى أن الله سبحانه وتعالى كشف كل إنسان، الخائن كشف خيانته، والصادق كشف صدقه، والمستقيم كشف استقامته، والدَجّال كشف دَجَلَهُ، وأحياناً يقع حدث في العالَم فيكشف أوراق الجميع، حدث واحد، هذا الإنسان كان يدّعي كذا فانكشف على حقيقته، وهذا الإنسان، وهذا الإنسان، وهذه الجهة، وهذه الجهة، أحياناً تقع الأحداث لتكشف الأوراق، وهذا من فتنة الله عزّ وجل للناس..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فهذا الذي ينفق أموالاً طائلةً على ملذّاته، والأمور مغطّاة، ولا أحد يعرف عنه شيئاً، وفجأةً ينكشف أمره، وتفضح دخائله..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أحياناً بعض الناس يتخذ من المظاهر الدينيّة ستراً له، فجأةً يُكْشَفُ أمره، يُضْبَط بعمل شائن، بعمل قذر، بعمل منحرف.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فكلّما ازدادت معرفتك بالله عزّ وجل ازداد خوفك منه، وازداد قلقك، لأن الله عزّ وجل لابدّ من أن يكشف الإنسان..

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

لابدّ من كشف الأوراق، لابدّ من كشف الدخائل، والله يسترك مرّةً ومرّةً و مرّةً، ثمّ يفضحك لتبدو على حقيقتك، لئلا يُغَشّ الناس ويخدعون، لئلا تُغَشّ أنت بنفسك، هذه من سنة الله في خلقه، فالإنسان أحياناً تكون له علاقات شائنة، وتكون له أعمال خَفِيّة..

(مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ(63))

(سورة المؤمنون)

وأحياناً يكون للإنسان مخالفات في بيته بعد أن يُغَلِّق الأبواب، لكنّه يبدو أمام الناس بمظهرٍ تقيٍّ ورع، ثم تشاء الأقدار وبطرائق عجيبة أن يُكشف في عُقْر بيته، يكشفه أهله في عقر بيته، أصدقاؤه، فلذلك هذه

الآية خطيرة، وهذه الآية عامّة، لم يقل الله: أحسب المؤمنون، ماذا قال ؟ لقد قال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ)

وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم:

وكلمة الناس شائعة، عامّة، أيْ أنّ أيّ إنسانٍ لابدّ من أن يُكشف على حقيقته، قل ما شئت، ادّعِ ما شئت، اظهر أمام الناس بأعلى الصفات، بأكرم حال، بأتقى مظهر، إذا كان لك أعمال أنت من دون هذه الأعمال لها عامل فهذه تُكْشَف لا محالة، ولكن الله ستّير يسترك المرّة تلو المرّة، فإذا علمَ أنك مقيمٌ على هذه المعصية فلابدّ من أن يفضحك كي تتوب منها، وكي تظهر حقيقتك، ولئلا تَغُشّ الناس، حتى إن بعضهم يقولون: الأجانب لهم مثل، قالوا: **" تستطيع أن تخدع الناس جميعاً لبعض الوقت، وتستطيع أن تخدع إنساناً لطول الوقت، أما أن تخدع جميع الناس لطول الوقت فهذا مستحيل "**، لذلك أحياناً حدث واحد يكشف أوراق الجميع، يفضح الجميع.

ذات مرّة تواجدت أسرة، وأسرة، وأسرة في حفل في فندق، وتكلّم إنسان من الأغنياء في ساعة غيبوبة، وقال: فلانة وفلانة وفلانة عشيقات له، ففضح كل زوجات هؤلاء على رؤوس الأشهاد، وهذه العلاقات الراقية فيما يبدو كلُّها كُشِفَت خباياها وظهرت، علاقات خيانة زوجية في ساعة غيبوبة عن الوعي، وافتضح حال أولئك جميعاً على مرأى ومسمع مشهودين.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

الادعاءات والخفايا تُفْضَح، وتُكْشَف، والله عزّ وجل قال:

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

أي خائن، إذا خنت صاحب هذا المتجر، إذا خنت زوجتك، إذا خانتك زوجتك، إذا خُنت شريكك، إذا خانك شريكك، إذا خنت جارك، إذا خانك جارك، أية خيانةٍ على الإطلاق فإنّ الله لابدّ من أن يكشفها..

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

والقصص التي تقرؤونها، وتسمعون عنها لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فهذه آية كما يقول بعض العلماء: تقصم الظهور، أنت علاقتك مع الخالق، فلا مزح مع الخالق، ولا تغطية، ولا تعمية، ولا ذكاء، لا مع الله خداع، ولا مخادعة.

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة)

مع الله ليس هناك ماكر، ولا دَجّال، الله يكشف الناس جميعاً، فلذلك إذا كانت علاقة الإنسان مع الله

وحده فعليه أن يبني هذه العلاقة على الصِدق، وعلى الوضوح، وعلى الصفاء، وعلى الطهر، وعلى الاستقامة، وعلى الخضوع لله عزّ وجل ؛ وإلا فأية علاقةٍ أخرى تبنى على غير هذه العلاقة لابدّ من أن تُفضَح.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

فهذه الآية كلها بدأت شرحها بمثل: إنسان اشترى عيادة، ووضع لافتة بأحلى مظهر، كتب عليها: الدكتور فلان الفلاني، اختصاصي في أمراض القلب، يحمل شهادة بورد من جامعة كذا، هكذا الأمور بلا محاسبة ؟ بلا كشف أوراق، بلا سؤال، بلا ترخيص، بلا إبراز شهادة ؟ مستحيل، أنت مع إنسان يكشفك، فكيف مع خالق الأكوان ؟

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

لابدّ من أن تُفتَن، أحد الحُجّاج يطوف بالبيت ويقول: **" يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ "**، كان وراءه الإمام الشافعي، فقال له: **" يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتّى يرضى عنك ؟ "** فقال: **" يرحمك الله من أنت ؟"**، قال: **" أنا محمدٌ بن إدريس الشافعي "**، قال: **" كيف أرضى عنه، وأنا أتمنّى رضاه، ما هذا الكلام ؟ "**، قال: **" يا هذا، إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله "**.

الإيمان الحقيقي يظهر في الشدائد:

تلاحظ أكثر الناس في الرخاء يقول لك: الحمد لله، يا رب، لك الحمد، الله متفضِّل، فهل هذا هو الإيمان؟ لا والله، الإيمان أن تأتي الشدائد وأن تقول معها: يا ربي لك الحمد، هذا فعلك، وهذه يدك الكريمة، وهذا قدرك، وهذا قضاؤك، وهذه حكمتك، وهذه رحمتك وأنا راضٍ بها، البطولة في الضرّاء لا في السرّاء، معظم الناس إذا جاءهم الإكرام الإلهي يحمدون الله عزّ وجل.

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(11))

(سورة الحج)

لذلك أنا دائماً أقول للإخوان الأكارم: البطولة أن يبدو حمدك وشكرك، وأن تبدو معرفتك بالله عزّ وجل في الشدائد، فليس من المعقول لإنسان أن يمتحن سيارة بالطريق الهابطة، مستحيل، أية سيارة مهما كانت رديئة الصناعة، مهما كانت قديمة، مهما كانت ضعيفة، مهما كان فيها خلل إنها في الطريق الهابطة تهوي سريعاً، لكن المركبة لا تُمْتَحَن إلا في الصعود، وأنت أيها المؤمن لا تُمْتَحن إلا في الشدائد، لذلك قال أحدهم للنبي عليه الصلاة والسلام:

((إني أحبُك يا رسول الله، قال: انظر ما تقول، قال: والله إني أحبُك، قال: انظر ما تقول، قال: والله إني أحبُك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أسرع إليكَ من شراك نعليك))

[ورد في الأثر]

ليس معنى هذا الفقر المادي، لكنّ هناك شدائد، تدّعي حبّاً لله عزّ وجل، تدعي طاعةً له، تدعي شوقاً إليه، تدّعي فناءً في ذاته، تدّعي هياماً به، فقد تفْتن هذا المدّعي فتاةٌ، قد تفتن هذا المدّعي دُرَيْهماتٌ، قد يفتن هذا المدعي الأصدقاء، فالإنسان العاقل لا يدعي، لأنه يعامل خالق الأكوان الذي يعلم ما تخفي الصدور.

إذاً هذه الآية كما أقول لكم، وأنا والله صادقٌ في هذا الكلام: تقصم الظهر.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

لا بد لكل جامعة من امتحان فتنبه لامتحان الله:

بلا امتحان، فمثلاً جامعة ؛ قاعات التدريس، المدرّجات، الملاعب، المكتبات، المَطعم، المقاصف، الحدائق، قد كلِفت ألوف الملايين، والمخابر ؛ لكل طالب مجهر، وكل طالب له مخبر كيميائي صغير، ولكل أربعة طلاب أستاذ مشرف، ولكل عشرين طالبا أستاذ مدرّس، وأستاذ مصحّح، وأستاذ باحث، وقد كلّفت هذه الجامعة الدولة ألوف الملايين، وقد قُبِلَ الطلاب فيها، فتصورّ فلا يجري امتحان ؟ هكذا تأتي وتحضر، وتسمع المحاضرات، وتفتخر أمام المجتمع أنك طالب جامعي، وتحمل قميصاً أبيض، وتمشي فيه بالطريق، وبعد ذلك تُعْطَى شهادة بلا امتحان ؟ أفتفعل هذا جهة أرضيّة ؟ هذه الجامعة الضخمة لها امتحانٌ قاسٍ، لها امتحانٌ صعب، أحسب الطلاب أن ينالوا الشهادات العُليا بلا امتحان وبلا سؤال ؟! فهناك امتحان شفهي، وامتحان عملي، وامتحان تحريري، وامتحان لياقة، وامتحان مقابلة، والمواد كثيرة، مواد للفصل الأول، وأخرى للفصل الثاني، ونجاح ورسوب وإكمال، هكذا جامعة صغيرة لا ترضى أن تمنحك شهادة بلا امتحان، وخالق الأكوان تريده أن تدخلك الجنّة إلى الأبد، هكذا بركعتين تصليها، وليرتين تتصدق بهما، وانتهى الأمر، ركعتين قمت بهما، وليرتين ألقيت بهما إلى فقير، وانتهى الأمر ؟ تستنفذ العمر مع شهواتك على هواك، واختلاط، وذهاب وإياب، هكذا ؟ هذه سذاجة، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية..

((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ))

(سنن الترمذي عن أبي هُرَيْرَةَ)

تخطب ودّ الله عزّ وجل، وتطلب جنّة عرضها السماوات والأرض، وتريد أن تكون من النُخْبَة، من صفوة الناس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بلا عمل، بلا جهد، بلا مؤاثرة، بلا صبر، بلا تحمّل للمشاق ؟!

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَعْلَمْ اللّهُ الّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

هكذا ببساطة وبسذاجة ؟ واللهِ إنّ إنساناً ذا ذكاء متوسِّط لن تستطيع أن تحتال عليه، يقول لك: أين التوقيع ؟ أين شهادة المنشأ ؟ أين تصديق السفارة على صحّة هذا البيان ؟ تفضل قدِّم الثبوتيات، مع إنسان لا تستطيع أن تتلاعب ؛ أتتلاعب مَعَ خالق الأكوان ؟ لقد خاب ظنُّك.

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا)

أخي أنا مؤمن، وأحسن منك إيماناً، خير إن شاء الله إنها دعوى لسان.

(وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنّا الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

سنة الامتحان بين الرسوب والنجاح:

هذه سنّتنا في العباد، هكذا نفعل مع كل إنسان، ظروف يخلقها الله عزّ وجل، الشريف الذي يدّعي الشرف ينجح أو يرسُب، والعفيف ينجح أو يرسب، والقوي ينجح أو يرسب، والغني ينجح أو يرسب، والمتزوج ينجح أو يرسب، والأعزب ينجح أو يرسب، والمريض ينجح أو يرسب، المرض امتحان، والصحّة امتحان، والغنى امتحان، والفقر امتحان، والقوة امتحان، والضعف امتحان، والذكاء امتحان، والغباء امتحان، والوسامة امتحان، والدمامة امتحان، والزوجة امتحان، والولد امتحان، والبيت امتحان، كله امتحان.

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنّا الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنّ اللّهُ الّذِينَ صَدَقُوا)

فَلَيَعْلَمَنّ اللهُ الّذِين صَدَقُوا

الله يريد الصادق، القضية إذاً بالصدق، الصدق نوعان، إما أن يأتي الخبر مطابقاً للحدث، وهذا صدق الأقوال، هذا معروف عن فلان، فهو صادق غير كاذب، أما الصدق الذي يقوله عن الله عزّ وجل فنوعٌ آخر، وهو مطابقة الحدث للقول، تقول: أنا أحب الله، هذا قول، هل أفعالك مطابقةٌ لهذا الادّعاء ؟ تقول أنا أطيع الله عزّ وجل، هل أفعالك مطابقةٌ لهذا الادعاء ؟ تقول أنا أكره الدنيا وأحب الآخرة، هل عملك

يؤكِّد هذا الادعاء ؟ ولنضرب مثلاً: إذا مشى إنسان في الطريق بلا ثياب، فهل هناك موقف أشد حرجاً على إنسان معروف له قيمته يمشي في الطريق بلا ثياب ؟ شيء لا يحتمل أساساً، والله الذي لا إله إلا هو؛ هذا الذي يدّعي ما ليس عنده، ويتبجّح، ويفعل أفعالاً ذات وقع مُزْعِج كما لو سار عارياً..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أنت متى آمنت ؟ تقول: أنا آمنت، ولكن متى آمنت ؟ أنا لا أحمل أي شهادة عُليا، فهل أستطيع أن أقول: أنا معي دكتوراه، هكذا ببساطة، هذه الشهادة كلمة تقولها ؟ أم أنها سبع سنوات بعد الليسانس تدرسها، وتؤلِّف أطروحة، وهناك من يقرأ هذه الأطروحة ويراجعها، ويأمرك أن تعيد كتابة فصولها مرّاتٍ عديدة، ويحاسبك على كل كلمةٍ، وعلى كل مرجع، وتؤلّف لجنة كبيرة من أستاذ مشرف، ومن ثلاثة دكاترة لمناقشة هذه الأطروحة، وقد تنجح أو لا تنجح، أن تقول: أنا أحمل دكتوراه هل العمليّة سهلة ؟ أهذه الدكتوراه كلمة أم جهود جبّارة ؟ هذه الشهادة للدنيا، فهل يكفي على صعيد الإيمان أن تقول: أنا مؤمن ؟ متى آمنت ؟ على يد من آمنت ؟ ما المجالس التي حضرتها ؟ ما الكتب التي قرأتها ؟ من علّمك القرآن ؟ على يد من قرأته ؟ على يد من تعلّمت تفسيره ؟ هكذا مؤمن بلا مقدِّمات، بلا أسباب، بلا دراسات، بلا جهود، بلا إنفاق ؟ مستحيل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

أيها الإخوة... لو أننا أمضينا هذا الدرس كلّه في آيةٍ أو آيتين فلا حرج، إذ العبرة من كتاب الله أن نكون في مستواه، أن نطبّقه، فالقضية قضيّة مصيريّة، وقضيّة خطيرة، القضيّة ليست أن تقرأ سوراً طويلة، وأن تقرأ آياتٍ كثيرة، القضيّة أن تكون في مستوى كل آية، يجب أن توقن أنك إذا فعلت شيئاً لا يرضاه الله عزّ وجل لابدّ من أن يكشفك للناس، لابدّ من أن تُفضح، فأية دعوى لابدّ من أن تُكْشَف، أي ادعاءٍ لابدّ من أن يُكْشَف، إذاً الآية الكريمة ينبغي أن نحياها كل هذا الأسبوع، وأن نشعر أين نحن منها، لأن الصحابة الكرام كانوا يقرؤون عشر آيات ولا يقرؤون غيرها حتّى يتمّوا تطبيقها، هكذا كان الصحابة. فهذا كتاب العُمر، وهذا كتابٌ مقرّر، وهذا منهج كل مسلم، إذاً الله عزّ وجل يقول: أنا لن أتركك تدّعي كما تشاء، لابدّ من أن أمتحنك، فالامتحان لا أقول: صعب، ولكن لابدّ منه، إذاً يجب أن نُهَيّئ أنفسنا، وأن نجعل باطننا موافقاً لظاهرنا، وسرائرنا موافقة لعلانيّتنا، وأن نجعل ما نقول كما نفعل، وما نفعل كما نقول، حتّى ننجو من امتحان الله الصعب، ومن الفتنة التي لابدّ منها لكل إنسان.

كلمة أحسب الناس، لم يقل: أحسبَ المؤمنون..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

ويجب أن تعلم أيها الأخ أن هذه سُنّة الله في خَلْقِهِ، والدليل:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

غزوة الخندق بين التمحيص وكشف الحقائق:

مثلاً: أصحاب رسول الله.. كمثل أخير يؤكِّد هذه الآية.. أصحاب رسول الله كلهم يعرفون أنه رسول، وكلهم يُحِبُّه، الكلام واحد، الانتماء واحد، الالتصاق واحد، المعاونة واحدة، كلُّهم مع النبي، جاءت معركة الخندق، جاء عشرة آلاف مقاتل ليستأصلوا المسلمين، ليبيدوهم عن آخرهم، واليهود نقضوا العهد، كُشِفَ ظهر المسلمين، وأصبح الإسلامُ فيما يبدو للناس قضية ساعاتٍ معدودات، فهؤلاء المؤمنون أهُمْ في درجة واحدة ؟ لا، بعضهم قال، وهم المنافقون: " لقد وعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمنُ أن يقضي حاجته "، لم يقل لقد وعدنا رسول الله، أما أصحاب النبي الصادقون فقال الله عنهم:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

الله ماذا قال ؟ قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا(11))

(سورة الأحزاب)

هناك زلزال يكشف المؤمن، والمنافق، والكافر، والفاسق، والفاجر، وكثير الإيمان وضعيف الإيمان، والمحب والمبغض.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ)

حدث واحد يقع في بلد يكشف حقيقة الناس كلِّهم، هذا يخاف، هذا لا يخاف، هذا يترك الطاعة، هذا لا يتركها، هذا يتمسّك بها أكثر، هذا يتبرأ منها، حدث واحد يكشف الناس.

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى

لذلك ذات مرّة في بعض الجامعات الإسلاميّة دُعِيَ كبار المفكِّرين، والعلماء، والكتّاب إلى مناظرة في مساواة المرأة بالرجل، وكل هذه المحاضرات مُفادها أن المرأة مساوية للرجل تماماً، ورأي الإسلام أن المرأة مساوية للرجل من حيث التكليف والتشريف، مكلّفة كالرجل بالإسلام والإيمان وطاعة الله عزّ وجل، ومشرّفة كالرجل بالضبط، والدليل:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

(سورة الأحزاب: من آية " 35 ")

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 195 ")

آيات كثيرة جداً، فالمرأة مساوية للرجل من حيث التكليف، ومساوية له من حيث التشريف، لكن المرأة ليست كالرجل، لقول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 36 ")

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3))

(سورة الليل)

كيف أن الليل ليل والنهار نهار، وأن بينهما بَوْنًا شاسعًا، كذلك المرأة امرأةٌ ببنيتها، وطبعها، وأنوثتها، ونفسيّتها، وعقليّتها، وعلاقاتها الاجتماعيّة، وكذلك الرجل، له بنيّةٌ مختلفة، كل بنية تشابه وظيفتها التي خُلِقَت من أجلها، ففي هذه الندوة التي أُقيمت في الجامعة، وحضرها كبار المفكِّرين، والباحثين، والعلماء، والأساتذة، وتُلْقى فيها المحاضرات عن أن المرأة مساوية للرجل تماماً، جاء إنسان ببضعة فئران، وألقاها في القاعدة في أثناء هذه المحاضرة، فإذا بالنساء يَصْرَخْنَ، ويخرجن من القاعة مذعورات، فالبنية مختلفة، هذه الواقعة أبلغ من كل هذه المحاضرات، أجلْ البنية مختلفة، فالله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3))

على هامش هذه المحاضرة إليك قصّة هذه المرأة التي شَكَت إلى النبي قالت: " يا رسول الله إن فلاناً ـ أي زوجها ـ تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومالٍ وجمال ؛ فلمّا ذهب جمالي، ونثرت بطني، وكبرت سني، وتفرّق أهلي، قال: أنتِ عليّ كظهرِ أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا ـ فأنا المربية ـ وإن ضممتهم إليّ جاعوا ـ فهو الذي يكسب الرزق ـ.

المرأة امرأةٌ والرجل رجلٌ، له وظيفةٌ خطيرةٌ ولها وظيفةٌ أخطر، له كرامته ولها كرامتها، له مهمّته ولها مهمتها، مكلّفٌ ومكلّفة، مشرّفٌ ومشرّفة، ولكن المرأة بطبيعتها وبنيتها وعقليّتها ونفسيتها، وما حباها الله من رقّة عاطفةٍ ومن سرعة استجابةٍ، ومن حدسٍ سريع تناسب وظيفتها الخطيرة في تربية الأولاد، فإذا تداخلت الأوراق ضاع المجتمع.

إذاً هذه الآية التي تلوناها على مسامعكم، واستمعتم إلى تفسيرها، أرجو الله عزّ وجل أن ينفعنا بها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (02-16): تفسير الآيات 4 - 6

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي بحسب توفيق الله عزّ وجل كان شرح الآية الكريمة:

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3))

هذه الآية أصلٌ في التكليف:

هذه الآية تُعَدُّ أيضاً من الآيات الدالة على التكليف، تكليف الإنسان، المخلوق الأول، المخلوق المُكَرّم، والمخلوق المُكَلّف، هو المخلوق الأول لأن كل السماوات والأرض سُخِّرَتْ من أجله..

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

والمخلوق المُكَرّم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الإسراء: من آية " 70 ")

أنت مخلوقٌ أول، ومخلوقٌ مكرم، ومخلوقٌ مُكَلّف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

أنت مكلفٌ بهذه النفس البشرية أن تُنْقِذَهَا، وأن تعرفها بالله عزّ وجل وأن ترقيها، وأن تسعدها في معرفة الله عزّ وجل وطاعته في الدنيا، والقرب، منه والسعادة في الآخرة، والدليل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

إذا جاء في القرآن الكريم كلمة:

(قَدْ أَفْلَحَ)

فهذا كلام خالق الكون، خالق الكون يقول لك:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

لأنك إذا زَكَّيْتَها، وعرّفتها بالله عزَ وجل فقد حققت أمانة التكليف، وقد حققت المهمة التي من أجلها خلقت، يفهم من هذه الآية أيضاً:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أنك مُكَلّف، مكلفٌ بهذه النفس كي تُعَرِّفَهَا بالله عزّ وجل.

دعوة القرآن إلى التأمل في الكون وفي النفس:

لكن الله عزّ وجل أعطاك مكوّنات التكليف، ومقوماته، سخّر لك الكون، وجعله دالاً على أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، ففي الكون يمكن أن ترى أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من خلال تأمُلك في خلق السماوات والأرض.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

إذاً هناك دعوة..

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2))

(سورة الشمس)

مقومات التكليف:

آياتٌ كثيرة جداً بَثّها الله في الكون، وأشار إليها في القرآن، وجعل هذه الآيات دليلاً على عظمة الله عزّ وجل، فإذا فكر الإنسان في الكون توصّل من جولته التأمُلِيّة إلى معرفة الله عزّ وجل:

1 – الكون:

أعطاك الكون.

2 – العقل:

أعطاك العقل، العقل كما يقرر العلماء هو ميزةٌ كبيرةٌ جداً منحها الله للإنسان، فبالعقل تتعرف إلى الله عزّ وجل، ولكن العقل ميزان، والفطرة ميزان، وجعل الله الشرع ميزاناً على الميزان، فما دام العقل يعمل وفق أوامر الله ونواهيه، وكذلك إذا توصّل العقل إلى النتائج التي قررتها الشريعة، فهذا التفكير صحيحٌ ومنطقي، أما إذا جَنَحَ العقل، وابتعد عن الذي جاء به القرآن الكريم، فهذا عقلٌ ضالٌ وعقلٌ مغرور..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

إذاً من مقوّمات التكليف الكون، من مقوّمات التكليف العقل.

3 – الفطرة:

من مقوّمات التكليف الفطرة، منحك الله فطرةً عالية، ترتاح إذا فعلت الخير، وتشقى إذا فعلت الشر، ترتاح إذا آمنت بالله، وتشقى إذا كفرت به، ترتاح إذا سرت على منهج الله وتشقى إذا حدت عنه، أول مقوم الكون، والعقل، والفطرة.

4 – الاختيار:

وأعطاك حرية الكسب.

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

انبعاثك إلى العمل هذا باختيارك، أما الفعل فهو فعلُ الله عزّ وجل، والعلماء يقولون: إن الأشياء لم يودِع الله فيها قوةً ذاتية، ولكن الله عزّ وجل جعل فعله عندها لا بها، أي عند مشيئته، لا بقوةٍ مودَعَةٍ في الأشياء.

إذاً: أعطاك الله حُرّيَة الكسب، وأودع الله فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، الكون، والعقل، والفطرة، وحرية الكسب.

5 – الشهوة:

والشهوة إذا فعلت شيئاً، الشهوة هدفها تثمين العمل، إذا تركت شيئاً لله فهذا الشيء الذي تركته له قيمة عندك، ولكنك آثرت رضاء الله على شهوة النفس، لذلك:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

هذه مقومات التكليف، فإذا استخدم الإنسان هذه المقومات، وتعرف إلى الله عزّ وجل معنى ذلك أنه لا بدّ من ابتلاء، لا بدّ من حساب، لا بدّ من سؤال.

قلت لكم في الدرس الماضي: إن جامعة عظيمة تُنشأ بقاعاتها، بمدرجاتها، بمكتبتها، بحدائقها، بملاعبها، بمطاعمها، بمساكن الطلاب فيها، بمختبراتها، أيعقل أن يترك الطلاب بلا امتحان ؟!

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هكذا، بلا سؤال، فآيات كثيرة..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

لذلك هذه الآية تشير إشارةً دقيقة إلى أن الإنسان مكلّف، والدليل أنه مبتلى، والدليل أنه يمتحن..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أي أن هذا الطالب في الجامعة أيكتفي منه أن يقول: درست هذه المادة، وأتقنتها، وينجح ؟ جامعة كلفت مُنْشِئِيها ألوف الملايين، وقبلنا فيها الطلاب، أيعقل أن يقبل من الطالب في الجامعة أن يقول: أنا درست هذه المادة، وتمكّنت منها، فيعطى الشهادة ؟ أيقال له: أنت نجحت لأنك قلت: إنك درست هذه المادة، شيء مضحك، أتفعلها جامعة ؟ أن يقول الطالب بلسانه: لقد درست هذه المادة جيداً، إذاً تعال، وخذ مئة على مئة، وانتهى الأمر، لا، بل لابدّ من امتحان، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

من دون أن يمتحنوا، من دون أن يُبْتَلوا، من دون أن يتحقق من إيمانهم، من دون أن يتحقق من صدقهم في إيمانهم، من دون أن يتحقق من صبرهم، من معرفتهم، كل ضعفٍ في الإيمان يظهر في امتحانٍ معين، فمن ادعى حب الله عزّ وجل.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في المقال بديع

لو كـان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب يطيع

***

كل دعوى لها ما ينقضها:

فدعوى حُبِّ الله عزّ وجل تنقضها المعصية، دعوى الشوق إلى لقاء الله عزّ وجل ينقضها كراهية الموت، دعوى أن هذا الإنسان لا تأخذه في الله لومة لائم ينقضها أن ينهار أمام ضغطٍ خفيف، دعوى أن يصبر الإنسان على أمر الله ينقضه أن ينهار أمام إغراءٍ طفيف، فالذي ينهار أمام إغراء، أو أمام ضغط، أو تستحوذ عليه شهوته، أو ينطلق إلى غاياته الدنيوية ضارباً عرض الطريق بأوامر الله عزّ وجل، هذا امتحن ورسب، إذاً نحن في امتحان، ما دام القلب ينبض فأنت في امتحان، وكما قلت في الدرس الماضي: لك أن تقول ما شئت، ولكن الله عزّ وجل سوف يضعك في ظروفٍ دقيقةٍ بالغة التعقيد، هذا الذي تدّعيه لا بدّ من أن يكشف على حقيقته، إن خيراً فخير وإن شراً فشر..

وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُ لهم بذاكا

***

عدي بن حاتم في ضيافة النبي عليه الصلاة والسلام: دروس وعبر:

شيء ثانٍ، ذات مرةٍ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام جاءه أحد ملوك الجزيرة، اسمه عدي بن حاتم، دخل عليه فقال عليه الصلاة والسلام: " من الرجل ؟ " قال: " عدي بن حاتم "، قال: " فرحّبَ بي، وأخذني معه إلى البيت "، وهذا من التكريم، في الطريق استوقفته امرأةٌ ضعيفةٌ مسنة تكلِمه في حاجتها فوقف معها طويلاً، فقال عدي بن حاتم: " والله ما هذا بملك "، فلما دخل البيت، قال: قذف إلي بوسادةٍ من أدمٍ محشوةً ليفاً، وقال: " اجلس عليها "، قلت: " بل أنت "، قال: " بل أنت "، قال: " فجلست عليها، وجلس هو على الأرض "..

هذه قصة تعرفونها.. قال: " إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً ؟ "، قال: " بلى "، قال: " أو لم تَسِرْ في قومك بالمرباع ؟ "، قال: " بلى "، قال: " فإن هذا لا يحل لك في دينك "، قال: " فعلمت أنه نبيٌ مرسل يعلم ما نجهل "، قال: "إيه يا عدي بن حاتم، لعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى ما ترى من حاجتهم.. " أي من فقر أصحابه، إذاً الفقر ابتلاء، أحياناً يكون المرء فقيراً ومستقيماً، ويرى إنساناً غنياً، منحرفاً يزداد انحرافاً، ويزداد غنىً، أما الفقير المستقيم فهو يزداد تواضعاً لله عزّ وجل، ويزداد استقامة على أمره، ويزداد فقراً، هذه فتنة.

لا بد من الامتحان، وبعد الصبر الفرج:

لا تنسوا أن أصحاب رسول الله عليهم رضوان الله في معركة الخندق، ربنا عزّ وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(12))

(سورة الأحزاب)

المنافقون بعض مَنْ عاصر النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول أحد الأشخاص: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجاته !! إذاً:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُون)

لكن..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

إذاً: أن تكون في ضائقةٍ من العيش، وأنت مستقيمٌ على أمر الله، وأن ترى إنساناً في بحبوحة، وهو يصول ويجول، ويطغى، ويبغي، فهذا امتحان، هل أنت واثقٌ من عقيدتك ؟ هل أنت واثقٌ من أن الرزق بيد الله عزّ وجل، هل أنت واثقٌ من أن الأمر بيد الله ؟ هل أنت واثقٌ من أن الدنيا لا قيمة لها ؟ لا تعدل عند الله جناح بعوضة ؟ أم ماذا ؟ ادّع ما شئت فهذا امتحان، أن تكون أنت في ضائقة على استقامتك، والآخرون في بحبوحة على انحرافهم، هذا أحد أنواع الامتحان.

أحياناً يسأل المدرس طالباً سؤالاً، يأتي الطالب بالجواب صحيحاً، فيقول له المدرس: غلط، ليمتحن مدى ثقته بنفسه، فالطالب الضعيف يقول: غلط، يقف، ويتخلى عن صوابه مباشرةً، أما الطالب المتمكن فيقول: لا، هذا هو الصواب، فأحياناً تمتحن فيما إذا كنت مؤمناً أو غير مؤمن، وأحياناً تمتحن فيما إذا كنت واثقاً من عقيدتك، ما الذي ينجيك يوم القيامة ؟ أن تكون على أمر الله عزّ وجل، ما أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان في الأرض ؟ أن يكون في رضوان الله،

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

إذا شعرت أن الله راضٍ عنك، وأن الدنيا قد تفلّتت من يديك فهذه السعادة، سيدنا الصديق يوصف بأنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فإذا أطاع الإنسان الله ورسوله يجب أن يشعر بالفوز الكبير.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

قد تقرأ الآية، وقد تفهمها، ولكن لست في مستواها، إن شعرت بالحرمان، وأنت مطيعٌ لله ورسوله فأنت

لست في مستوى الآية، وإنْ لم تكن واثقاً من أن طاعة الله هي كل شيء، لست واثقاً من أن الإيمان بالله هو كل شيء، فهذه فتنة.

عودة إلى عدي بن حاتم:

قال له: " لعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك في دخولٍ من هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ ترى أصحابي فقراء، ضعفاء ـ وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم "، هذا امتحان آخر، أنك إذا عرفت الله عزّ وجل، وسرت على أمره فالجميع يعادونك، إذا كان الإنسان منحرفاً فلا يرضيه أن يستقيم قريبه، يتمنى عليه أن يعود كما كان، أن يكون على شاكلته، فحينما يتجه الشاب إلى الله عزّ وجل بالتوبة النصوح يرى معارضة ممن حوله، من أقرب الناس إليه، حتى ممن في البيت، هذا امتحان، فحينما تأتيك المضايقة لأنك عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وتثبتّ، فهذا ابتلاءٌ آخر.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إنسان يؤمن بالله عزّ وجل، ويستقيم على أمره، يلقى معارضة شديدة ممن حوله، فيتخلى عن اتجاهِهِ، يقول لك: راحة الحياة من دون دين، هذا امتُحِن فرسب، إذاً إيمانه ضعيف، وإنسان آخر يتجه إلى الله ورسوله، ويستقيم على أمره، ولا تزيده المعارضة إلا تَمَسُّكاً بالله وبرسوله، امتُحِن فنجح. من السهل جداً أن تقول: أنا مسلم، أنا مؤمن، أنا لن أعصي الله عزّ وجل، ثم لضغطٍ خفيف تتخلّى عن طاعته، ولإغراءٌ طفيف تتخلى عن طاعته، إذاً أنت راسب..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام: إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم "، فأنت يجب عليك أن تكون مع الحق لا مع الأكثرية..

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا)

(سورة يونس: من آية " 36 ")

سيدنا علي يقول: " نحن نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال "، الأصل هو الحق، فلو أن أناساً كثيرين كانوا على غير الحق فكثرتهم لا تأبه لها أنت، وإذا كانت القِلّةُ على الحق فأنت مع الحق.

الشعور بالغربة امتحان فتنبّه يا عبد الله:

وهناك امتحان آخر، هو أن تشعر بالغربة في مجتمعك، إذا عرفت الله عزّ وجل، إذا استقمت على أمره

هذا الطريق في البيع والشراء حرام، ولكنه شائعٌ بين التُجّار تصبح كأنك غريب، إذا أردت أن تغض بصرك عن محارم الله تشعر بالغُربة، الكل ينظر، وينظر بنَهَم، وأنت تستحي أن تنظر إلى امرأةٍ أجنبيةٍ عنك، تحس بالغربة، إذا تحرّجت عن أخذ مبلغ من طريق مشبوه فاتهمت بالغباء، وأحسست بالغربة، هذا امتحان أيضاً.

أحياناً الامتحان لمعرفة مقدار المعلومات، وأحياناً الامتحان لمعرفة ثقتك بهذه المعلومات، تأتي بعض المضايقات، قال له: لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ترى ما من كثرة عدوهم، وايم الله ليوشك أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم.. قد يكون الصحابة مستضعفين ضعافاً لا شأن لهم، هناك قوى كبيرة جداً تعاديهم في مكة، وفي أطراف الجزيرة، هم ضعاف هاجروا، وتركوا بلدهم إلى الحبشة وإلى المدينة، أنت تحب القوة، إذاً أنت لست مع الحق مع القوة، إذاً انحزت إلى القوي المُبطل، وتركت المُحِقّ الضعيف، فأنت لست مع الحق أنت، بل مع القوة، هذا امتحان، فأن تقول كلمةً، وتعدّ هذه الكلمة صحيحة بلا امتحان، هذا مستحيل.

أعيد إلى أذهانكم هذا المثال، جامعة ضخمة جداً، قال أحد الطلاب: إني درست هذه المادة دراسة جيدة، فمستحيل أن يقبل هذا الكلام، وأن توضع لك علامة مئة بالمئة ؛ إلا أن تقدِّم امتحاناً، هذا الامتحان يثبت صواب كلامك أو خطأك، قال له: "وايم الله ليوشكن أن تسمع بالحصون البابلية مفتحة بالعرب "، أن تسمع بهذه الحصون، وقد فتحها العرب.

كن مع الحق دائما وفي كل شيء:

لقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى كل ذلك، كأن النبي عليه الصلاة والسلام عرّفنا من هذه القصة، وذاك التوجيه أن هناك امتحاناتٍ، فإذا أردت أن تكون مع الحق قد يكون الحق ضعيفاً، قد يكون أصحاب الحق فقراء ضعفاء، قد يكون هناك عِدَاءٌ كبير لأهل الحق، أنت مع من ؟ أنت مع الحق.

والشيء بالشيء يذكر، يروى أن أبا جعفر المنصور كان خليفةً عباسياً، وكان عنده الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وعنده قاضٍ من ألدِّ أعداء أبي حنيفة، فقال هذا القاضي لأبي حنيفة في حضرة المنصور: " يا أبا حنيفة، إذا أمرني الخليفة بقتل امرئٍ أأقتله أم أتَرَيَّث، فلعله مظلوم ؟ سؤال مُحْرِج، قال أبو حنيفة رضي الله عنه: " الخليفة على الحق أم على الباطل ؟ رد له الكرة، قال: " هو على الحق "، قال: " كُن مع الحق "، فلما خَرَجَ قال: " أراد أن يُقَيِّدَنِي فربطته ".

أردت من هذه القصة كُن مع الحق، يا ترى أنت مع الحق أم مع القوي ؟ مع الحق أم مع الشهوة، أحياناً تُملي عليك شهوتك أن تدافع عن فكرة الاختلاط مثلاً، فأنت لست مع الحق، أنت مع الشهوة، قد تُملي عليك مصلحتك المادية أن تدافع عن طريقةٍ في التعامل في البيع والشراء فيها شبهة الربا، أنت مع مصلحتك لا مع الحق، فكلما ادّعيْتَ أنك مع الحق يأتيك ظرفٌ مُعَقّد، فإذا بك تكشف على حقيقتك، فلذلك ليتعامل الإنسان مع الله عزّ وجل بصدقٍ وإخلاص.

احذروا هذا الصنف: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ

أحياناً ترى بلداً أجنبياً في غاية الرفاه، في غاية الطمأنينة، في غاية الأمن والوداعة، كل شيءٍ فيه على ما يرام، وهذا البلد يُشاقق الله ورسوله، أي أن الدين قد أُلْغِي من حياتهم كُلِّياً، الشهوات مستعرة، الفتن يقظة، هذا امتحان، ضعاف الإيمان يزلزلون، وتجدهم يقولون: انظر تجد الإنسان محترماً عندهم، حاجات مؤمَنة، كل شيء ميسور، وهم يعصون الله كل يوم، في طُرُقاتهم، وفي أنديتهم، وفي مسابحهم، فالمعاصي على قدمٍ وساق، ومع ذلك هذا البلد قوي جداً، وفي رفاه، هذا امتحان، هذا الامتحان معناه أنك لم تقرأ قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

ليس بابا، بل أبواب، ليس شيئاً واحداً، كل شيء..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

هذا كذلك امتحان، فيجب أن تعتقد أن حياتك منذ سِنّ التكليف وحتى نهاية الحياة سلسلةٌ متصلة من الامتحانات.

الامتحان يشمل جميع النواحي الحياة:

كما قلت في الدرس الماضي: زواجك امتحان، وعملك امتحان، والمرض امتحان، والصحة امتحان، والفراغ امتحان، والشُغل امتحان، هناك شغل ينسيك طاعة الله عزّ وجل، امتحنت فرسبت، وهناك فراغ يُنسيك الله عزّ وجل امتحنت فرسبت، والزوجة امتحان قد تطغى من أجلها، وقد ترضيها بمعصية الله عزّ وجل، قبل الزواج ممتاز، بعد الزواج صار لديه ضعف، قبل التجارة ممتاز، لما كان لك دخل محدود كنت ورعاً جداً، بعد مزاولة التجارة صرت تقول: لا نقدر عندنا أولاد هكذا السوق كله، ماذا

نفعل ؟ زلت قدمه، التجارة امتحان، الوظيفة امتحان، والامتحان مستمر، وحياتنا سلسلةٌ متصلة من الامتحانات.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

كلامك ادّعاءٌ سهل، والوقائع تمتحنه، وأنت مكلف، وما دمت مكلفاً فلابد من امتحان، أنت طالب في مدرسة لابدّ من الامتحان، والدليل الامتحان سُنَّة، الابتلاء سنة، الفتنة سنة، من سنن الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا)

فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

أي ليتحقق علمه، الله عزّ وجل يَعْلم، ولكن حينما تفعل يتحقق علمه ويؤاخذك على عملك لا على علمه فيك، وهذه من رحمة الله بنا، أنه يؤاخذنا على أفعالنا. لا على علم الله بنا، هو يعلم ؛ ولكن حينما تفعل يتحقق علمه..

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

أنواع الصدق:

قلت لكم في الدرس الماضي: إن الصدق نوعان، مطابقة الأقوال للأفعال، أو مطابقة الأفعال للأقوال:

1 – مطابقة الأقوال للأفعال:

الأول معروف، فلان صادق فلان كذاب.

2 – مطابقة الأفعال للأقوال:

الثاني مهم جداً في الطريق إلى الله عزّ وجل، فقد تأتي الدعوى كبيرة جداً، والعمل قليل، نقول: فلان صِدْقُهُ قليل، يدعي أنه محبٌ لله كلام كبير، فإذا وضعته على المِحَك جاء حبه قليلاً ضعيفاً، يدعي أنه ورع فإذا تحاكك بالدرهم والدينار بدا ورعه ضعيفاً قليلاً، فهذا الصدق صدق الأفعال، أن تأتي الأفعال مطابقة للأقوال..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

أيْ هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه كما قال اله عزّ وجل.

الآية الثالثة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

ربنا عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا:

معنى حِسِبَ:

معنى حسب أي ظَنّ، الذين يعملون السيئات، يعني أشمل كلمةٌ تشير إلى من يعصي الله عزّ وجل هم الذين يعملون السيئات ؛ سواء أكانوا مشركين، غير مشركين، موَحِّدين، الذين يعملون السيئات..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ)

معاني: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا:

المعنى الأول:

ما معنى ذلك ؟ فإذا نسبت الفعل للإنسان، تظن أن هذا الذي يفعل كذا وكذا هو يفعل هذا باختياره، ويفعله بقوّته، خالق أفعاله، وكأنه سَبَقَ الله عزّ وجل، وكأن الله لا علاقة له بهذا الفِعل، هذا أحد أنواع الإشراك، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بقُدرة الله، وبعلم الله، فإذا نسبت الفعل إلى الإنسان، إذا عَزَوْتَ الفعل إلى الإنسان تتوهم أن هذا الذي يفعل كذا وكذا و كذا، هذا الإنسان خالق فعله، كأنه سبق الله عزّ وجل، وكأن الله لا علاقة له به، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: من آية " 17 ")

أكثر من أربعين أو خمسين آية تؤكِّد أن الله عزّ وجل بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

لذلك كلمة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

أي أن هؤلاء الذين يعملون السيئات لا يعملونها إلا بقدرة الله عزّ وجل وعِلمه، وضمن خِطّةِ الله عزّ وجل، هم لم يسبقوا، فعلوها بإذن الله وبحكمةٍ بالغة، والظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه..

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا شعرت أن الفعل بيد الله ترتاح نفسك، ويطمئن قلبك، ويدخل على قلبك الأمن والدَعَة، أما إذا اعتقدت أن الإنسان خالق فعله، فهذا الإنسان قد يفعل شيئاً ما أراده الله، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله عزّ وجل، لماذا أراده ؟ لأنه وقع، لأنه لو لم يرده الله عزّ وجل ما وقع، وكل شيءٍ أراده الله وقع، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلِقّة بالحكمة، وأن حكمته متعلقة بالخير المطلق، هذا هو التوحيد.

إن الإنسان ينبعث إلى أن يفعل كذا، ينبَعِث، يمده الله بالقوة، القوة فعلُ الله عزّ وجل، وانبعاثه إلى هذا الشيء هو كسبه، هذا ما هو عليه أهل السُنَّة والجماعة..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

هذا المعنى الأول، أي أنّه ما من إنسان مهما كَبُر، ما من قوةٍ مهما عظمت، إلا وهي في قبضة الله عزّ وجل، فإذا تحرّكت فبعلمه، وإذا تحرّكت فبقدرته، بقدرته وبعلمه، إذاً هذه الجهة حينما فعلت، أو تركت، أو اقتحمت، أو اجتاحت، أو أعطت، أو منعت، أو وصلت، أو قطعت، هذه الجهة تفعل هذا بعلم الله ولم تفعله بمبادرةٍ منها، أي أنها ما سبقت بهذا أمر الله عزّ وجل، هذا المعنى الأول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

المعنى الثاني:

هؤلاء الذين يعملون السيئات يتوهّمون أحياناً أنهم فعلوا السيئات، ونجوا من عقاب الله عزّ وجل، سبقوا الله عزّ وجل، يقول لك: ليس عندي أي خللٍ، بينما ماله حرام، مطعمه حرام، ومشربه حرام، والله سبحانه وتعالى يُرخي له الحبل، إلى أن يتوهّم أن الله غافلٌ عنه، أو أن الله لن يحاسبه، أو أنه نجا من عقاب الله، فيتوهم خاطئاً أنه سبق الله عزّ وجل وأفلت من عقابه.

المعنى الثاني: أنه فعل المعاصي، واغتصب أموال الناس، وظلمهم، وهو في أشد حالات القوة، يقول لك: أين الله عزّ وجل ؟ فأنا فعلت ما شئت، ولم يحدث لي شيء !! الله عزّ وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

وقال ربنا عزّ وجل:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

هذه الفاء في الآية السابقة على الترتيب والتعقيب، وقال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

مرة بالفاء ومرة بثم، بالفاء إذا جاء العِقاب تالياً للذنب، فهذا ممكن، حلف يميناً غموساً في المحكمة، وبعد ربع ساعة دُهِس، ممكن، وأحياناً يفعل السيئات، ويمضي عليه الأسبوع تلو الأسبوع، والعام تلو العام، وهو في أتم الصحة والقوة، وهو يقول: لم يحدث لي شيء، إنك في قبضة الله عزّ وجل، الحبل مُرخى، وهذا استدارج من الله عزّ وجل، أنت ما سبقت الله عزّ وجل، في لحظةٍ واحدة يَشُدُّ الحبل، فإذا أنت في العقاب والعذاب الأليم.

إذا شاهد الإنسان جهة أو مخلوقاً يفعل كل ما يشتهي من المعاصي، وهو يزداد صحة وقوةً وغنىً ووجاهة، فهذا كله فتنة له..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

معنى: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكمٌ سيئ، هذا حُكْمٌ خاطئ، هذا حكمٌ غير صحيح، أن تتوهم أنك إذا فعلت السيئات سبقت الله عزّ وجل، وأفلت من عقابه، إما أنك نجوت من عقابه، أو فعلت شيئاً بقوتك الذاتية كما تتوهم، مع أن القوة بيد لله عزّ وجل.

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

المعنى الثاني: حكمٌ سيّئ يعود على صاحبه بالوبال والبوار:

أي أن هذا الحكم سوف يسوئه، بمعنى أنه إذا توهَّم الإنسان أنه يفعل ما يشتهي، ولا يعاقب فإنه يزداد طغياناً، أما الإنسان الذي يتيقن أنه إذا فعل الشر فسوف يحاسب، هذه حالة طيبة، العمل سيّئ الآن، ولكن هناك رجوع إلى الله، وندم، وتوبة، واستغفار، وإقلاع عن الذنب، ما دُمت تعتقد أنك إذا فعلت

الذنب لابدّ من أن تعاقب فهذه الحالة جيدة، معنى ذلك أن هذا الحال، وهذا الشعور، أو هذا اليقين، أو هذا التصوُّر، أو تلك العقيدة، لا بدّ من أن تحملك على التوبة، أما إذا توهَّمت أنك تفعل السيئات، وتنجو من عقاب الله عزّ جل، قال:

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

فهذا حكمٌ سيئٌ جداً سوف يعود عليهم بالهلاك والبوار.

ألم أقل لكم مرة: إن رجلاً سمع من شيخه أن لكل سيئةٍ عِقاباً، ففعل شيئاً مخالفاً للشريعة، فتصور أن الله عزّ وجل سوف يعاقبه، هو ينتظر ؛ ينتظر مرضاً، ينتظر حادثاً، ينتظر مشكلة في البيت، ينتظر مشكلة في عمله، بقي ينتظر أسبوعين أو ثلاثة إلى أن ناجى ربه فقال: يا رب، لقد عصيتك فلم تعاقبني؟ قال: **" فوقع في قلبه أنْ يا عبدي، قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ ".**

افهموا على الله أفعالَه:

الإنسان أحياناً إذا كان تعامله مع الله صحيحاً، يقول لك: أنا فهمت على ربي، أكرمه ففهم سر الإكرام، ضَيَّقَ عليه، ففهم سر التضييق، ألم يقل الإمام الشعراني: **" أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي ".**

أحياناً الإنسان يضجر من زوجته، أحياناً تكون هذه الزوجة مسخَّرة من قِبل الله عزّ وجل لتذكير الزوج، فإذا بلغ الإنسان مرتبة بدأ يفهم على الله، يشعر أن هذا الشيء ساقه الله له لحكمةٍ، وهذا الشيء ضيَّق الله به عليه لحكمةٍ، إذا بدأ يشعر أن أفعال الله كلها غايةٌ في الحكمة والرحمة، والعدالة واللطف، عندئذٍ يرتاح لقضاء الله وقدره، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه مقال]

((مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

(سنن أبي داود عن عَبْدَ الْحَمِيدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ عن أمّه)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند أحمد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ)

وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

أرقى عقيدة تُريحك في الحياة الدنيا وفي الآخرة أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا مُعطي إلا الله، لا مانع، لا رازق، لا باسط، لا قابض، لا مذل، لا معز إلا

الله، ومَن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، واعمل لوجهٍ واحد يكفك الوجوه كلها، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

إذاً:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

لهذه الآية معنيان:

المعنى الأول:

يظنون أنهم خالقوا أفعالهم ؟ يظنون أنهم مستقلون بأفعالهم عن الله عزّ وجل ؟ وكأنهم سبقوا الله عزّ وجل أي ليسوا في قبضته، هذا هو شرك بالله، من يعتقد هذا فإنه مشرك، الإنسان لا يملك إلا الكسب..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

الكسب أن ينبعث إلى الشيء فقط، أما القُدرة التي تحقق هذا الشيء هي قدرة الله عزّ وجل، والأمر كله بيد الله، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أي أنهم فعلوا السيئات، ونجوا من عقاب رب الأرض والسماوات، وكأنهم سبقوا الله أو تحدوا الله عزّ وجل، قال: لا، قد أُعَجّل لكم العقاب وقد أؤخر، لهذا قال الله عزّ وجل:

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ)

فَإِنّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ

بعض العلماء فسروا لقاء الله بالجنة، من كان يرجو الجنة فإن الجنة آتيةٌ لا ريب، وسوف تلوح للإنسان بعد الموت..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

أي سميعٌ لدعائكم عليمٌ بنياتكم .

مِن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم:

الله عزّ وجل يعبّر عن المستقبل بالفعل الماضي، علماء اللغة يقولون: من باب تحقق الوقوع، أي أن وعد الله حق، فإذا وعد الله المؤمن بالجنة فالجنة حق، حتى إن بعضهم حينما قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

ينشأ هنا غموض إذ يقول أحدهم: أنا والله لم أر، فالمسألة دقيقة جداً، قال العلماء: إن الخبر إذا ورد في القرآن فكأنه شيءٌ مشاهدٌ لصدقه، ما دام الخبر جاء في القرآن فكأنك تشاهده، ما دام الوعد في القرآن فكأنه وقع.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

لذلك:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

الإنسان وقتٌ:

الحقيقة الزمن يمر سِرَاعاً، والإنسان كما تعرفون زمن، الإنسان وقت، الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضْعٌ منه، والذي مضى من حياته أربعون عاماً، يسأل نفسه هذا السؤال: كيف مضت هذه الأعوام الأربعون ؟ كلمح البصر، وهكذا تمضي الحياة، وكل شيء مضى وسوف تحاسب عليه.

الحقيقة أن الإنسان لابدّ من أن يعرف الحقيقة، ولكن الكثيرين يعرفونها عند الموت، أما البطل فهو الذي يعرفها قبل فوات الأوان، ألم يقل فرعون:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

وقال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

الحقيقة لا بدّ من أن تُعرف، ولكن يعرفها بعضهم عند الموت، أما المؤمن فيعرفها قبل الموت كي يستثمرها، ويستفيد منها.

إذاً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

لكن ربنا عزّ وجل له حكمة، له حكمة يفتح عليك أو لا يفتح، يتجلّى على قلبك أو لا يتجلّى، يُلهمك هذا الطريق أو ذاك الطريق، ما دمت قد سلّمت أمرك لله عزّ وجل فالله ربك، يتولى نقلك من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، من منزلة إلى منزلة، من مستوى إلى مستوى، من عمل إلى عمل، البطولة أن تكون ذا نيات طيّبة، وعلى الله الباقي..

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

التكاليف متناقضة مع الطباع:

الحقيقة ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل التكاليف متناقضة مع الطِباع، هذا هو الجهاد، التكليف يتناقض مع الطّبع، طبعك يدعوك إلى النوم، وأنت مُكَلّفٌ بصلاة الفجر، طبعك يدعوك إلى أن تنظر إلى المرأة، والتكليف يأمرك أن تغض بصرك عنها، طبعك يأمرك أن تقبض المال، والتكليف أن تنفقه، طبعك يدعوك أن تتحدث عن الناس كي تروي غليلك، والتكليف يأمرك ألا تغتاب أحداً، فالتكليف يأتي دائماً مناقضاً للطبع كي نرقى إلى الله عزّ وجل، لو جاء التكليف موافقاً للطبع فلا يوجد رقي إلى الله.. لو أن إنساناً الآن ذهب لينام، وكان متعباً، ونام فماذا يشعر أنه فعل ؟ إذا جاء التكليف موافقاً للطبع فلن ترقى إلى الله عزّ وجل، ولو أن الله عزّ وجل ما أودع فيك الشهوات لا ترقى إلى الله، ماذا فعلت إذا غضضت بصرك عن امرأةٍ، وأنت لا تحب أن ترى امرأةً ؟ لكن لأن الله أودع في قلبك حب النساء، وحب المال، وحب العلو في الأرض، وبعدها غضضت، وأنفقت، وتواضعت فأنت ترقى إلى الله، لولا الشهوات لم تَرْقَ، إذاً التكاليف جاءت كي ترقى إلى الله، اسمه تكليف لأنه شيء مُكَلِف، الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وغض البصر، وذكر الله عزّ وجل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإنفاق المال، هذه كلها تكاليف.

أن تحب الأمُّ ابنها هذا طبع، لذلك لم تؤمر بذلك، أما أن يبَرّ الابن أمه، هذا تكليف، لذلك أمر به:

(وَوَصّيْنَا الإِنْسَانَ بوَالِدَيْهِ)

الشيء الذي هو طبع لا حاجة معه لأمر ولا نهي، وهو شيء طبيعي جداً، فالإنسان يفعله بلا شعور أنه أطاع الله عزّ وجل، أنت جائع فأكلت، ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً، هكذا دعتك فطرتك، دعتك جِبِلّتُك، دعتك بُنيتك، أما إذا فعلت شيئاً خلاف ما أنت عليه من طبع، عندها ترقى إلى الله عزّ وجل، لا نرقى إلى الله إلا بمخالفة الطبع، والدليل:

(وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

مِن أنواع الجهاد: فهمُ القرآن وتعلُّمه وتعليمه:

عندنا آية قرآنية يقول الله عزّ وجل فيها:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

(سورة الفرقان: من آية " 52)

على من تعود الهاء ؟ على القرآن..

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

إذاً فَهم القرآن، وتعليم القرآن، وتطبيق القرآن نوعٌ من الجهاد..

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

بتلاوته، وفهمه، وتعليمه وتطبيقه، الجهاد أنواع، هناك جهاد النفس والهوى، وجهاد الكفّار، وجهاد التعليم والتَعَلّم..

(وَمَنْ جَاهَدَ)

الجهاد في هذه الآية مطلَق: وَمَن جَاهَدَ

الله أطلقها، وفي القاعدة الأصولية المطلق على إطلاقه..

(وَمَنْ جَاهَدَ)

إما بماله، أو بوقته، أو بعقله، أو بعضلاته..

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

فإذا تجشّم الإنسان فرضاً المشاق، وركب السيارات، وأودع بالمصرف مبلغاً، ليس لنا علاقة، أهذا حلال أم حرام ؟ ولكنّا نضرب مثلاً، فماذا فعل ؟ أودع في هذه الجهة مبلغاً للاستثمار، ثم تجده يقول: أنا دفعت، فهذه لك آخذ بها إيصالا، والربح في آخر العام بالمئة ثلاثون، أتمنن علينا بعد هذا ؟ ركبت سيارات، ووصلت عنده بعد ساعة، وانتظرت، ودفعت المبلغ، وقبضت إيصال، ماذا فعلت ؟ هذه المشقة تجشّمتها أنت لمصلحتك، عادت عليك بالنهاية.

ربنا يطمئننا إذا فكرت، وآمنت، واستقمت، وغضضت بصرك، وحضرت مجلس علم، وتعلمت وعلّمت، وخدمت، وبذلت، وأنفقت، أنت لم تفعل شيئاً لغير ذاتك، لأنه تواب، ذلك عائد عليك.

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

الله غنيّ عن العالمين:

هو غني لكنه حميد، غنيٌّ عنك، لكنه يُعاملك معاملة تحمده عليها.

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (03-16): تفسير الآيتان 5 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ)

معنى لقاء الله:

المعنى الأول:

الحقيقة أن لقاء الله من معانيه أن يقف العبد بين يدي ربّه ليس بينه وبين الله حِجاب، هذا اللقاء قال بعض عنه المفسِّرين: إنه يوم القيامة.

المعنى الثاني:

وقال بعض المفسِّرين في لقاء الله عزّ وجل: هو أن يلقى وعده ووعيده، وثوابَهُ وعقابه.

المعنى الثالث:

وقال بعض المفسِّرين في لقاء الله عزّ وجل: هو أن تَلَقّى حكم الله في كل شيء،

(وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِبَ لِحُكْمِهِ)

أيها الإخوة الأكارم...

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ)

أي أن تقف بين يدي الله عزّ وجل ليس بينك وبينه حجاب، تُعْرَضُ عليه أعمالك، وعليك أن تدافع عن نفسك، وعليك أن تدلي بحجّتك عن كل عمل، أو أن يأتي ذلك اليوم الذي تلقى فيه جزاء عملك ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر، أو ذلك اليوم الذي تنال فيه الثواب أو العقاب، أو ذلك اليوم الذي يحكمُ الله فيه بين عباده..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ)

هذا هو لقاء الله، لقاء الله أن تقف بين يديه ليس بينك وبينه حجاب، لقاء الله أن يقع وعده ووعيده، لقاء الله أن تلقى ثوابه وعقابه، لقاء الله أن ترى حُكْمَهُ في كل شيء..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ)

كلُّ آتٍ قريبٌ:

أضرب لكم بعض الأمثلة: إذا جاء رمضان، في أول يوم من أيام الصيام تقول: ما أبعد العيد، وما هي إلا أيامٌ وليالٍ معدودة حتّى يأتي العيد، إذا دخلت في العام الدراسي تقول: ما أبعد الامتحان، ما هي إلا أسابيع وأشهر حتّى يفاجئك الامتحان، إذا دخلت في مشروع مُدّة العقد فيه خمس سنوات، ما هي إلا أيام وليالي وأسابيع وأشهر وسنين قليلة حتّى يحلّ الموعد المَطلوب، كيف يمضي الصيف ويأتي الشتاء، ويمضي الشتاء ويأتي الصيف ؟ كيف وصلت إلى سن الأربعين والخمسين ؟ كيف مضت هذه السنون ؟ هكذا..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ)

ما دام أجل الله الذي وَقّتَهُ وعَيّنَهُ ليلقى كل إنسانٍ جزاءه آتياً، فإنه إذاً قريب..

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ)

(سورة يونس: من آية " 4 ")

فهذا اليوم الذي سمّاه الله يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم الدينونة، هذا اليوم سيأتي، وما دام سيأتي والوعد من قِبَلِ الله عزّ وجل إذاً في حكم أنه قد أتى.

مِن إعجاز القرآن: الإخبار عن المستقبل بصيغة الماضي:

من إعجاز القرآن قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

أنا متى أستعجل الأمر ؟ إذا لم يأتِ بعد، الله عزّ وجل قال:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

تستعجلوه، وهو لم يأتِ، وقد عبّر الله عنه بالفعل الماضي لقد أتى، إذاً وعد الله ووعيده في حكم الواقع، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((كأني أرى أهل الجنّة في الجنّة يتنعّمون، وأهل النار في النار يتصايحون))

[ورد في الأثر]

هكذا الإنسان إذا أيقن أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل.

بعضهم يفسّر:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

قد تسأل أنت: والله أنا لم أرَ هذا الشيء، هذا خبر، كان يتوقّع أن يقال: ألم تسمع بخبر أصحاب الفيل ؟ لمَ ربنا عزّ وجل عَدَلَ عن قوله ألم تسمع بألم ترَ ؟ قال العلماء: لأن إخبار الله عزّ وجل في حكم الشيء المُشَاهد..

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

إخبار الله عزّ وجل في حكم المشاهدة، لذلك قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

على المؤمن أن يرجو لقاء الله وأن يستعدّ له:

على ذكر كلمة يرجو ربنا سبحانه وتعالى قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب)

الحقيقة أنّ الإنسان يسأل نفسه هذا السؤال: ماذا يرجو ؟ هناك من يرجو مالاً، هناك من يرجو جاهاً، هناك من يرجو بيتاً، هناك من يرجو مركبةً، هناك من يرجو مكانةً، لكن المؤمن يرجو لقاء الله، يرجو الله واليوم الآخر، يرجو ما عند الله من ثواب، يرجو ما عنده من تَكْرِمَة، يرجو مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، هذا الذي يرجوه المؤمن، لذلك الكلمة الشهيرة عند من أخلص قلبه لله عزّ وجل، **" إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ".**

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ)

أن تقف بين يديه ليس بينك وبينه حجاب، أن تتصل به، أن ترى الحقيقة، أن يُكْشَفَ الغِطاء..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

أن يقوم الناس لربِّ العالمين، أن يُحَجَّمَ الإنسان.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ)

لا محالة آتٍ، لذلك قيل: " كل متوقع آت وكل آتٍ قريب "، ما دمت في طريقك إلى هذا الشيء فكأنك وصلت إليه، وما دام هذا الشيء في طريقه إليك فكأنما وصل إليك، فالآية دقيقة جداً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ)

إذاً ماذا علينا أن نفعل ؟ أن نُطَهِّر قلوبنا وأن نضبط ألسنتنا..

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

الله سميع للأقوال عليم بكل شيء:

سميعٌ لدعائكم، عليمٌ بأحوالكم، أي أنك إذا تكلّمت فهو سميع، وإذا صمت فهو عليم، وعلمه علم كشفٍ وإحاطة، إذا تكلّمت فهو سميع، وإذا صمت فهو عليم، إذاً ما دام هناك لقاءٌ مع الله فستُسأل.

هيّئ جوابا لسؤال الله لك:

مرّة استنصحني إنسان يعمل في وظيفة تبدو للناس مزعجة، وبإمكانه أن يضبط هذا بمخالفةٍ، والمخالفة جزاؤها السجن، فاستنصحني، فقلت له: افعل ما تشاء، اكتب كما تشاء، ضع الناس في المكان الفلاني ما تشاء، ولكن إذا كنت بطلاً حقيقةً فهيّئ لله جواباً يوم القيامة عن كل عَمَلٍ تعمله.

هذا الكلام الصحيح، أنت مدرّس، أنت طبيب والمريض بين يديك مستسلم واثق، قل له: تعالَ كل يوم، وادفع مئة ليرة يومياً يصَدِّق ويأتيك كل يوم، وأنت محامٍ، أنت مهندس، أو أنت مدرّس، قل ما تشاء ولكن هيّئ لملك الملوك يوم القيامة جواباً، هيّئ للواحد الديّان جواباً، ماذا تقول يوم القيامة لربّك ؟

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز ما من آيةٍ يُكْثِرُ تلاوتها كهذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الكلام لنا جميعاً، كل منا له عمل، بإمكانه أن يصدق وأن يكذب، بإمكانه أن ينصح وأن يَغُش، بإمكانه أن يتساهل وأن يتعاسر، بإمكانه أن يُعطي أو ألا يعطي، بإمكانه أن يرحم أو أن يقسو، بإمكانه أن ينصف أو أن يظلم، الله عزّ وجل جعلك في دار ابتلاء، جعلك في دار امتحان لينظر كيف تعملون ؟ كيف تفعلون ؟ ما الموقف الذي سوف تقفه ؟ ماذا تفعل، أتعطي أم لا تعطي ؟ أترحم أم لا ترحم ؟ " **إذا**

أردتم رحمتي فارحموا خلقي "، أتنصف أم لا تنصف ؟ أتقسو أم لا تقسو ؟ فالبطولة أن تهيّئ جواباً لمن يطّلع عليك في سرّك ونجواك، هذه البطولة..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ)

ترجو الجنّة ؟ إنها آتيةٌ، ترجو ثواب الله ؟ إنّك في الطريق إليه، ترجو ما عند الله من مكانةٍ، وما عند الله من سعادةٍ ؟ إنك في الطريق إليها..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

هذا يوم الدين، يوم الواقعة..

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

(سورة الحاقة)

في هذه السورة..

(فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29))

إلى آخر الآيات.

إذاً:

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)

إذا كنتَ على يقين بسمع الله وبصره فراقب أقوالك وأعمالك:

إذاً فاجتهد، فاجتهد في دعائك، واجتهد في تطهير قلبك، وتطهير نفسك، لأنه سميعٌ عليم، يسمع دعاءك، وعليمٌ بحالك، أنت متكلِّم وهو سميع، أنت ساكت وهو عليم، فأنت محاصر..

(إِنّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

الآن ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

تمهيد بين يدي الآية:

الحقيقة، أنني أتمنّى أن أُمهّدَ لهذه الآية تمهيداً ما..

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

إذا صحّت عقيدة الإنسان، أو عرف سرّ وجوده، عرف لماذا هو في الدنيا، عرف طرفاً عن جلال الله وعظمته، عرف لماذا كانت الحياة، لماذا كان الكون، وكيف أن هذا الكون سُخِّرَ له، إذا عرف حقيقة الكون، والحياة، وحقيقة وجوده، فإنه ينطلق انطلاقاً صحيحاً، إذاً: أن تعرف سرّ وجودك، وأن تعرف فلسفة الحياة، وكنْهَ الكون، هذا شيءٌ مقدّمٌ على كل شيء، ليس هناك من مهمةٍ أعظم ولا أخطر في حياتك من أن تتعرّف إلى الله، وإلى حقيقة الدُنيا، وإلى سرّ وجودك، إذا عرفت هذا تفهم أن الدنيا دار ابتلاء.

مثلاً: المدرسة هل يُعْتَنى بأثاثها لدرجة أن الإنسان إذا جلس على هذا الكرسي ينام ؟ لا، فالكرسي فيها عادي، لأن الهدف الأساسي من وجود الطالب في هذه المدرسة التَعَلّم، إذاً المقعد طبيعي عادي، المرافق عاديّة، لكن هناك أماكن أخرى كالمتنزّهات أماكن جميلة جداً، فيها أسباب الراحة والرفاه.

الطبيب مثلاً: إذا كان في غرفة العمليّات له ثياب قد تكون ليست لائقة ولا أنيقة، لأن هنا أهمّ ما في الأمر أن تكون هذه الثياب مُعَقّمة، أهم ما في الأمر أن تكون الآلات معقّمة أيضاً، لكن في بيته يرتدي ثياباً أخرى، فيجب أن تعرف هذه الدنيا، وما سرُّ وجودك فيها ؟ إنما هو الابتلاء، يقول لذلك ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

معنى الجهاد في الآية:

ما معنى جاهَدَ ؟ جاهد بمعنى بذل الجهد، وتحمّل المشقّة، فيها شيء إيجابي، وشيء سلبي، تحمُّل المشقّة والمتاعب والصعاب، هو جهاد، وبذل المال والنفس جهاد، في الجهاد بذلٌ، وفي الجهاد صبرٌ، إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)

الدنيا مُرَكّبةٌ على بذل الجهد:

كأن الله عزّ وجل جعل الحياة الدنيا مُرَكّبة على بذل الجهد، والحق أن الحياة الدنيا مُرَكّبةٌ على بذل الجهد..

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

الكدح بذل أقصى الجهد..

(إِلَى رَبِّكَ)

يوجد كدح إلى غير الله..

(إِنَّكَ كَادِحٌ)

من أجل المال، من أجل المكانة، من أجل المُتعة..

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ)

يجب أن ينتهي هذا الكَدْحُ إلى الله عزّ وجل، أن يكون الله هو المقصود من هذا الكدح..

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

هذا الكدح لابدّ من أن تلاقيه، إذاً طبيعة الحياة الدنيا طبيعةُ بذلٍ وجهدٍ وصبر، بذل الجهد، وتحمُّل المشاق، هذه طبيعة الحياة الدنيا، لذلك قالوا: الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، الآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، يجب أن تعرف فلسفة الدنيا، أنت هنا في بذل جهدٍ، إنّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تصفو لإنسان، لا تصفو لإنسان كائناً من كان، لا راحة لمؤمنٍ إلا بلقاء وجه ربّه، إنّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ؛ فيها أمراض، وهموم، وأحزان، ومتاعب، وفقر، وضيق، وشدّة، وحزن، ومصيبة، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، لأن الرخاء مؤَقّت، والشقاء مؤقّت، كله ماضٍ، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

شيءٌ آخر، ربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية الأولى التي ذكرتها قبل قليل:

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

الآية الثانية:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

أي أن طبيعة حياته، طبيعة الحياة الدنيا تقتضي أن يَتَكَبَّدَ الإنسان المشاق، فلمّا يفهم الإنسان فلسفة الحياة الدنيا على أنها بذلٌ للجهد، وتحمُّلٌ للمشقّة يتقبّل فيها كل شيء، أما إذا فهم أنّ الحياة الدنيا راحة واستمتاع، ورفاه وإنفاق للمال، وتناول ما لذّ وطاب من المأكولات، والاستمتاع بالمباهج حلالاً أو حراماً، فهذا شأن أهل الدنيا، هذا شأن البعيدين عن الله عزّ وجل، هذا شأن الجُهّال، يفهمون الدنيا على أنها مكانٌ للراحة، للاستجمام، للسرور، للنزهات، للولائم، للسياحة، للتمتُّع بمباهج الدنيا، هذا الفهم فهم

خطير، فأنت في دار عمل، أنت في دار ابتلاء، أنت في دار كَدْحٍ، أنت في دار تَكَبُّدٍ، أنت في دار جهادٍ.
فهو في لآخرة إما في سرور، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

الجزاء في الآخرة، التشريف في الآخرة، الاسترخاء في الآخرة، السرور في الآخرة، في جنّةٍ لا نصب فيها، ولا حزن، ولا شقاء، ولا قلق، ولا مرض، ولا فاقة، ولا أي شيء من مثل هذا.
أردت من هذا التمهيد أن الإنسان إذا عرف أن سرّ الحياة أساسه بذل الجهد يقبل بالتكليف، لذلك ما هو التكليف ؟ التكليف شيءٌ فيه كُلْفَة، الله عزّ وجل خلق الإنسان على طبع، وجعل التكليف مُناقضاً له، فهذا الجسم يميل إلى الراحة، وأنت مُكَلّفٌ أن تصلي، هذا الجسم يميل إلى أن يستمتع، وأنت مكلّفٌ أن تغضّ بصرك عن محارم الله، هذا الجسم يميل إلى اللذّة، وقد تؤمر أن تدع أيّة لذّةٍ لا ترضي الله عزّ وجل، فأي شيءٍ كلّفك الله به مبنيٌّ على بذل الجهد، مبنيٌّ على الكُلْفَةِ، ولا ترقى إلى الله عزّ وجل إلا إذا كان هذا الأمر فيه كلفةٌ عليك، لذلك أُمرت بغضّ البصر، أُمرت بأداء الصلوات، أُمرت بالصيام، أُمرت بالحَج، أُمرت بكف اللسان عن الغيبة والنميمة، أوامر كثيرة مأمورٌ بها تتناقض مع طَبْعِكَ.
هذا هو الجهاد بذل الجهد في طاعة الله عزّ وجل، وتحمُّل الشدائد والمشاق، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعرفه.

من معاني الجهاد:

والحقيقة أن الجهاد ل معانٍ كثيرة:
مثلاً: قال ربنا عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

ما معنى:

(جَاهَدُوا فِينَا)

يعني بذلوا جهداً كبيراً كي يعرفونا، بذلوا جهداً كبيراً كي يستقيموا على أمرنا، بذلوا جهداً كبيراً كي ينفقوا من أموالهم في سبيل الله، ففي الحياة جهد، هذا الجهد إذا كان في سبيل الله عزّ وجل فالله سبحانه قال:

(لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

معنى ذلك أن السبيل إلى الله بذل الجهد، المجاهدة..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الحقيقة المجاهدة أنواع:

1 – جهاد العدو:

من المجاهدة أن تجاهد العدو، يقول لك: الجهاد.

2 – جهاد النفس والهوى:

ومن المجاهدة أن تجاهد النفس والهوى:

((رَجَعْنا مِن الجهادِ الأصغر إلى الجهادِ الأكبر، مُجهادة العبد هواه النفس والهوى))

3 – جهاد الشيطان والمغريات:

ومن المجاهدة أن تجاهد الشيطان والمُغْريَات، عندك مصدر إغراء: الشيطان والشهوات، ونفسك مصدر قَلِق مُقْلِق، والعدو كذلك، فإذا قلنا: الجهاد ؛ نعني به جهاد العدو، ونعني به جهاد النفس والهوى، ونعني به جهاد النفس ضدّ الشيطان والشهوات.

والجهاد يكون بالبذل ويكون بالصبر، بذل المال جهاد، بذل الوقت جهاد.

4 – جهاد طلب العلم:

الإنسان إذا أتى إلى مسجدٍ ليتلقّى درس علمٍ، ليتعرّف إلى كتاب الله، إلى حديث رسول الله، إلى موضوعاتٍ في الفقه، إلى سُنّة رسول الله، هذا جهاد لأنه بذل وقته، بذل وقته رخيصاً في سبيل معرفة الله عزّ وجل.

إذاً:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الجهاد أحياناً يكون ببذل المال، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وفي آياتٍ كثيرة بدأ الله فيها بالمال، وثنّى بالنفس، بدأ بالمال لأن بذل المال أهون على صاحبه من بذل النفس..

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

صار معنى الجهاد فيه بذل وفيه تَحَمُّل، البذل إيجابي والتحمُّل سلبي، إذاً: معنى الجهاد الدقيق: **" أن تبذل ما في وسعك وأن تتحمّل المشاق قدر وسعك "**، بذلٌ وتحمُّل، إذا فهمنا الحياة الدنيا هكذا لا يعنينا الرفاه، والتَرَف، والسرف، و تهيئة الأمور حتى تغدو مريحة إلى درجةٍ ننسى فيها مهمّتنا في الدنيا، نأكل ونشرب، ونسكن، ونتزوّج، ونعمل، ولكن لهدفٍ كبير دون أن تكون الدنيا هي محطٌ رحالنا، ومنتهى آمالنا.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

(سورة التوبة)

من علامات المنافق كره بذل الجهل وتحمل المشقة:

المنافق يكره بذل الجهد، يعطي نفسه ما تشتهي، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ))

ربطها، ملكها، سيطر عليها، حملها على الطاعة، دفعها إلى مرضاة الله عزّ وجل..

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ)

إذاً من علامات المنافقين أنهم يكرهون بذل الجهد، ويكرهون تحمُّل المشقّة، فهو يريد الدين ثقافة فقط، معلوماتٍ، قصصاً، ومن دون انضباط، من دون غض بصر، من دون تحرير الدخل من الحرام، من دون حمل النفس على طاعة الله عزّ وجل، يأخذ بكل الرُخَص، والفقهاء قالوا: **من تصيّد الرخص في المذاهب كلها فقد وقع في التلفيق "**، والتلفيق هو رقّة في الدين.

(فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

تعلُّمُ القرآن وتعليمُه من الجهاد:

كلمة (به) تعود على القرآن الكريم، أي فهم كتاب الله، حسن تلاوته، أن تتلوه حقّ تلاوته، أن تفقه معانيه، أن تتدبَّر آياته، أن تعمل به هذا جهاد، معك كتاب مقرّر ؛ فيه آيات، فيه قصص، فيه وعد وفيه وعيد، فيه أخبار الأمم السالفة، فيه بشارات، فيه تحذيرات، أن تقف على معاني هذا الكتاب، أن تفهمها، أن تعمل بها، أن تعيشها، أن تدعو إليها، أن تُلَقِنَها للناس، أن تعلِّمها لغيرك، هذا جهاد، قال تعالى:

(فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بالقرآن

(جِهَادًا كَبِيرًا(52))

إذاً إنفاق المال من الجهاد، تَحَمُّلِ المشقة من الجهاد، فهم كتاب الله وتعليمه للناس والعمل به من الجهاد..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35 ")

ما الوسيلة ؟..

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

أحياناً يأتي ما بعد الواو تفسيراً لما قبلها، ما الوسيلة ؟ أن تجاهد في سبيل الله نفسك وهواك، إذاً: اللغة المُستعملة حديثاً ليست عربيّة.. استراتيجية المؤمن في الحياة، مركز الثقل في الحياة عنده بذل الجهد، بينما أهل الدنيا أساس حياتهم التلقي، والراحة، والانغماس في الملذّات، والاسترخاء، والاستمتاع بكل مباهج الدنيا، لذلك فالمؤمن حياته مجموعةٌ من المتاعب، المتاعب المقدّسة في سبيل معرفة الله، في سبيل التعريف به، في سبيل التَقَرُّب إليه، في سبيل اخذ نفسه بالعزائم، وحياة أهل الدنيا أساسها ؛ الراحة، والرفاهيّة، والسرف، والترف، والانغماس في الملذّات، لماذا كان العلم ضرورياً ؟ من أجل أن تعرف سرّ وجودك، فالمؤمن يعرف أن الله عزّ وجل خلقه في الدنيا كي يعرفه..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

فائدة: أواخر سور القرآن تلخيص للسورة:

أواخر السور ؛ كما عوّدنا ربنا سبحانه وتعالى فيها تلخيصٌ للسورة كلها، فسورة البقرة تنتهي بقوله تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

أقول: مِن، من تفسيرات هذه الآية لأن القرآن الكريم حمّال أوجه، ولا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يقول: هذه الآية هذا تفسيرها، هذا كلام الله، وكلام الله لانهائي..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

فحينما تفسّر، أو حينما تُدْلِي برأي في آيةٍ أو حديثٍ الأوْلى أن تقول: من لأن من للتبعيض، من تفسيرات هذه الآية أن الله عزّ وجل يقول:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

كلمة السماوات والأرض تعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، كان الله ولم يكن معه شيء، الكون من خلق الله، فالكون ما سوى الله، لله هذه اللام لام الملكيّة، ولكن إذا ملك الإنسان قد يملك ولا يحكم، وقد يحكم ولا يملك، قد يملك ولا ينتفع، هو مالكٌ بيتاً، ولكنّه مؤجّر منذ ثلاثين سنة، وقد ينتفع ولا يملك، وقد يملك وينتفع، والمصير ليس له، عملت المحافظة تنظيم فهدم البيت، قد يملك ولا يحكم، قد يملك، ولا ينتفع، وقد ينتفع ولا يملك، وقد ينتفع ويملك، وليس له المصير، لكن إذا قال الله عزّ وجل: لِلّهِ، أي أن هذا الكون مِلْكُهُ مُلْكَاً وتصرُفاً ومصيراً، والملكيّة تامّة والتصرُف تام والمصير لله عزّ وجل، ماذا يعني هذا الكلام ؟ يعني كما قال العلماء:

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ)

نحن في الدنيا إذا شعر الإنسان بآلامٍ في أمعائه، فإذا سكت فالطبيب لا يعلم، أما إذا أبدى هذه الآلام للطبيب فالطبيب قد يعالجها، وقد لا يعالجها، قد يستطيع وقد لا يستطيع، وقد يبدي وقد لا يُبدي، لكن أحياناً بالعناية المشدّدة يكون القلب موصولا بجهاز التخطيط الإلكتروني، وتجد أن التخطيط مستمر، والنبض مستمر، والضغط مستمر، فالمريض إن تكلّم أو لم يتكلّم فالطبيب يعرف مستوى تخطيطه ونبضه وضغطه، فسواءٌ كلام المريض أو سكوته هو بالعناية المشدّدة، أما بالعناية غير المشدّدة فإذا تكلم نعالجه، وقد نستطيع، وربما لا نستطيع، وإذا سكت فلا أحد يعرف ما به، فربنا عزّ وجل يقول:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

أي أن السماوات والأرض ومن فيها، وما فيها، ومن عليها، ومن تحتها، ومن وسطها، ومن فوقها..

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ)

إذا وُجِد خلل، أو مرض، أو انحراف، أو شهوة، أو إصرار، أو كِبر، أو شِرك، أو استعلاء، إذا كان هناك خلل، وإذا كان هناك ضَغَن، ودَرَن، و قصور، إن أعلنت أو سكت، إن أبديت أو أخفيت، إن أسررت أو أعلنت، إن تكلّمت أو سكت..

(يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ)

تشبيه بسيط جداً، كهذا المريض في العناية المشدّدة، الطبيب عينه على التخطيط، وعينه على الضغط وعلى النبض، فالمريض لم يعد لكلامه قيمة إطلاقاً، إن قال: أنا مرتاح والنبض مئة وثمانون، فكيف أنت مرتاح ؟ إذا قال: أنا ضغطي نازل، وضغطه ثلاثة وعشرون، فكلامه لم يعد له معنى.

العلاج الإلهي:

فأنت كمؤمن أنت في العناية المشدّدة، إن أردت تتكلّم أو تظل ساكتاً، تبدي أو تخفي، تعلن أو تكتم كله سواء..

(يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّه)

فالبطولة هناك طريقان للشفاء، كيف أن في الطب أيضاً طريقين: طريق المعالجة السريريّة، وطريق العمل الجراحي، إذا انتبه أحد لنفسه في الوقت المناسب، وكان عنده رغبة صادقة في الشفاء قد يعالج علاجاً لطيفاً من دون إزعاج، من دون فتح بطن، من دون تخدير عام، من دون أن يسيل الدم، من دون أن يشعر بآلام، فإذا أصرّ على خطئه، أصرّ على ضلاله، على انحرافه، يأتي العلاج الجراحي، فإذا خالف الإنسان، وعصى، وقصّر، أو فعل شيئاً لا يرضي الله عزّ وجل، إما أن يستغفر، ويتوب، ويصلح، ويقبل حتى يَطْهُر، وإما أن ينتظر العلاج الإلهي، وربنا عزّ وجل علاجه دقيق، وعلاجه صعب أحياناً، ومصيبته مصيبة، إذا أصاب الله الإنسان بشيء، فالله سمّاها مصيبة، لأنها تصيب الهدف تماماً.

فهذه الآية سبحان الله تلخيص لسورة البقرة:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

إذا ندم الإنسان، وتاب توبة نصوحا، وتراجع، وأصلح، وأقبل، وأقلع وعزم..

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)

صار العلاج سريريًا، حبتان يأخذهما المريض، حمية بسيطة، وانتهى الأمر ؛ أما إذا أصرّ الإنسان على خطئه صار العمل الجراحي ضرورياً، ساعتها الله عزّ وجل يُضَيِّق عليه، يتوب عليه ليتوب، معنى يتوب عليه ليتوب أي يحمله على التوبة، يعني يسوق له من الشدائد ما يحمله بهذه الشدائد على التوبة، فإذا تابَ تاب عليه، توبة الله قبل توبة العبد لها معنى، وبعد توبة العبد لها معنى، قبل توبة العبد أن يحمله الله على التوبة، وبعد توبة العبد يكون قبول التوبة، هذه الآية كلّما قرأناها نتذكّر المعنى..

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

ما في السماوات والأرض مُلْكٌ لله، مُلْكاً تاماً وتصرُّفاً ومصيراً..

(وَإِنْ تُبْدُوا)

أيها البشر..

(مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ)

أنت في العناية المشدّدة نفسك مكشوفة عند الله، أحوالك، أقوالك، مشاعرك، صراعاتك، طموحاتك، تمنيّاتك، نواياك كلّه مكشوف، أنت مكشوف عند الله عزّ وجل..

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

لأنك في العناية المشدّدة..

(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أنت مخيّر بأن تحب العلاج الأسهل، العلاج السريري، تناول الحبوب، تناول الأدوية، حِمْيَة بسيطة، كله ممكن، أما إن كنت لا تريد فأمامك عمل جراحي، وفيه مهانة وذل، الله عزّ وجل عنده عذاب مهين، وعنده عذاب عظيم، وعنده عذاب أليم، وأحياناً يجمع عذابين بآنٍ واحد، عنده قلق، الإنسان أحياناً يقلق، يخوّفه، فتجد قلبه فارغاً، أحيانا يَلُفّ في قلبه الانقباض، تجد أنه متضايق ؛ يشعر بانقباض، وخوف، وقلق، وحزن، واختلال توازن، و شعور بالفقر دائماً وبالحرمان، وآلام بالجسد، وفي أمراض وبيلة، وفي مضايقات خارجيّة، وفي مواقف مهينة، فإذا لم يقبل الإنسان بالإقلاع، والندم، والإقبال، والاستغفار، والاتصال بالله، فهناك علاجات لكنّها مُرّة، فالبطل الذي يأتي طوعاً في الوقت المناسب.

وهناك آية ثانية:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

فربنا عزّ وجل جعل من لوازم أهل العلم أنهم يشهدون للخلق أن الله قائمٌ بالقسط أي عادل، فأية قصّةٍ، أو أي تفسيرٍ، أو أي توجيهٍ، أو أي حديثٍ، أو أية دعوةٍ، أو أية نظريّةٍ، أو أية فكرةٍ، أو أية مبدأٍ يوحي بأن الله ليس بعادل فهذا باطلٌ في باطل، وهذا المتكلِم جاهل بشهادة ربنا عزّ وجل..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

(سورة النساء)

الفتيل: خيط في نواة التمر..

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

(سورة النساء)

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة غافر)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة العنكبوت)

كلّها آيات قطعيّة الدلالة، فلذلك أية قصّة تسمعها خلاف هذه الآيات ارفضها، وإن لم ترفضها قل كما أقول لك، قل: هذه القصّة أسمعتني منها فصلاً، وهذا الفصل لا يكفي كي نحكم على أصحابها، إن لم نسمع فصولها كلّها لسنا مُؤَهّلين أن نحكم على أصحابها، وهذا رد لطيف، أما توجد قصص مفادها، وظاهرها أن الله ظالم، مفادها في الظاهر أن الله عزّ وجل يعذب المستقيم ؛ بينما المنحرف قوي، وفي نعمة، هكذا، هذا كلام مؤدّاه أنه لا توجد حكمة إلهيّة، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

والذي ورد في الأثر أنه: **" من أحيا ليلتي العيد أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب ".**

فمن إحياء ليلة القدر صلاة التَهَجُّد، وقد صليناها بحمد الله عزّ وجل، ومن إحياء ليلة العيد صلاة التسابيح.

شرح كيفية صلاة التسابيح:

صلاة التسابيح عبارة عن ثلاثمائة تسبيحة يجب أن نقولها في أربع ركعات، التسبيحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وهذه الجمل الأربع تعد مرة أو تسبيحة واحدة، نبدأ بعد تكبيرة الإحرام بدعاء الاستفتاح، سبحانك اللهمّ وبحمدك، ونعد خمس عشرة مرّة سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ويمكن للشخص بأصابعه أن يعد خمس عشرة مرّة، وبعدها يقرأ الإمام الفاتحة، وما تيسّر من القرآن، ونرجع نعد كذلك عشراً، بالركوع عشراً فصار العدد خمساً وثلاثين، وعند كل حركة عشر، أي في كل ركعة خمس وسبعون مرّة.

الله عزّ وجل قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

(سورة الكهف: من آية " 46 ")

تفسير الباقيات الصالحات:

في بعض التفاسير الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أما المال فقد يكون معك ألف مليون، ولكن (سبحان الله) أفضل من هذا المال كله، لأنها صالح يبقى. في تفسير الآية إذا قلت: سبحان الله، أي سبّحت الله، أي نزّهته، ومجّدته، هذه سبحان الله، والحمد لله

حمدته، ولا إله إلا الله وحدّته، والله أكبر كبّرته، إذا سبّحته وحَمِدّته ووحدته، وكبرته فقد عرفته، وإذا عرفته هذه المعرفة أفادتك إلى أبد الآبدين، أما المال والبنون فتنتهي بموت الإنسان.

الآية جميلة المعنى جداً.

(المَالُ وَالبَنُونَ)

لكن موضوع القراءة الشكليّة الجافة الجوفاء ليس لها معنى، الإسلام لم يكن هكذا، فإذا قلت: سبحان الله يجب أن تسبّح نفسك بعظمة الله عزّ وجل، لا إله إلا الله ألا ترى مع الله إلهاً آخر، الله أكبر مهما عرفت عن عظمته فهو أكبر، فإذا عاين الإنسان، وحاول، وتأمّل في معاني هذه التسبيحات، والتهليلات، والتكبيرات فعليه أن يعانيها، ويعيش معانيها ومدلولها لكي تحقق التسابيح معناها، والهدف الذي نرجوه من ورائها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (04-16): تفسير الآيتان 8 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-10-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إظهار الروابط بين الآيات الكريمة:

من باب إظهار الروابط بين الآيات الكريمة، لأن كلام الله عزّ وجل كلامٌ مترابط، قال تعالى:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود: من آية " 1 ")

من معاني أُحكمت أنها ترابطت، فحينما قال الله عزّ وجل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

وجه العلاقة بين الآية الأولى والآية الثامنة:

إذاً هناك فِتَن ؛ فتنٌ كبيرة، وفتنٌ صغيرة، فتنٌ خطيرة، وفتنٌ حقيرة، ربنا عزّ وجل يُبَيِّن أن هناك فتنة خلاصتها: إنسانٌ نشأ بين أبوين، عطفا عليه، حدبا عليه، أكرماه، كانا سبب وجوده، ربياه تربيةً بشكلٍ أو بآخر، فلما كبر هذا الغلام وأصبح يافعاً، هناك احتمالٌ أن يأتيه أمرٌ من والديه خلافاً لما جاء به القرآن الكريم، أو خلافاً لما أمر به الله عزّ وجل، ما موقف الابن من هذه المشكلة ؟ هذه فتنة، فبما أن الأب هو سبب وجود الإنسان، وبتربيته في الظاهر سبب بقائه، وسبب وجوده من حيث الصورة، أما الحقيقة هو الله عزّ وجل، وسبب بقائه من حيث الصورة.

أما الحقيقة فوجوده وبقاؤه بفضل الله عزّ وجل، ولكن ما من علاقةٍ في الحياة الدنيا أمتن من علاقة الأب بابنه والأم بولدها، فلو أن هذا الأب المُربي والأم المربية كانا على غير الحق، وأمرا هذا الابن بما لا يرضي الله عزّ وجل، بشيءٍ خلاف المنهج الإلهي، هذه فتنة، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

وَوَصَيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا

1 – معنى وَصّينا:

وصينا بمعنى عَهِدْنَا، ووصينا هنا بمعنى أمرنا.

2 – لماذا أمر الله الإنسان أن يحسن لوالديه ؟

ولماذا أمر الله الإنسان أن يحسن لوالديه ؟ لأن حُبَّ الأب لابنه، وحب الأم لابنها طبعٌ، لذلك لا تجد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن يُؤمر الإنسان أن يحب ابنه، أو أن تحب الأم ابنها، لأن هذا طبع، تحصيل حاصل، ولكن الذي أمر الله به الإحسان إلى الوالدين لأنه تكليفٌ، الإنسان قد يبني بيته، قد يعيش مع أهله، مع زوجته، وقد يرى في الإحسان إلى والديه عبئاً، ومشقةً، وكلفةً، لذلك ربنا سبحانه وتعالى أمر الإنسان بالإحسان إلى والديه، هذا تكليف.

ومعنى تكليف أيْ أنّ فيه كلفة، ومعنى أن فيه كلفة، أي أن فيه رقيّاً إلى الله عزّ وجل، كل شيء فيه كلفة فيه رُقيّ، كل شيء متوافق مع الطبع لا ترقى به، فإذا تناولت الطعام وأنت جائع، تناولك الطعام لا ترقى به إلى الله عزّ وجل، لأنه توافق مع طبعك، أما الشيء الذي ترقى به فهو الشيء الذي تُخالف فيه نفسك وهواك.

قد يرى الإنسان الشاب أن سعادته في زوجته، وفي أولاده، وقد يرى في حالاتٍ نادرة أن أباه وأمه، وقد تقدمت بهما السِّن عبءٌ عليه، لذلك جاءت توصية الله عزّ وجل للإنسان أن يرعى أمه وأباه، وأن يكون باراً بوالديه، قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا)

أي عهدنا، وفي السياق أمرنا، الإنسان أي إنسان..

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

بالأم والأب.

لذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ...))

[النسائي]

وفي حديثٍ آخر عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ))

[أحمد]

لأن الأب في الظاهر سبب وجودك، ورعايته لك حينما كنت صغيراً سبب استمرار وجودك، ربي اغفر لي ولوالدي ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً "، وجميع مبادئ العدل والإنسانية والرحمة تقتضي أن ترد هذا الجميل إلى أبويك.

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

سبب نزول الآيات:

روى الترمذي عند تفسير هذه الآية عَنْ سَعْدٍ قَالَ: **<< أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ، فَذَكَرَ قِصَّةً، وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبِرِّ ؟ وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ:**

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي)

الْآيَةَ >>.

[الترمذي]

هذه قصة وردت في أسباب نزول هذه الآية.. ثم أنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل، ولم تشرب، حتى قال ابنها سعد: يا أمي، لو أن لك مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمد، فكُلي إن شئتِ، أو لا تأكلي.

لكل إنسان حدود:

الآية دقيقة جداً، لكل إنسان حدود، لكل جهةٍ حقوق وواجبات، أما أن تختلط الأمور، الأب والأم يُحْسَنُ إليهما، ويرعى حقهما إلى ما لا نهاية، أما أن يحملاك على معصية الله، أما أن يحملاك على أن تكفر بالله فهذا شيءٌ مخالفٌ لأمر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

العبادة لله وحده..

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

العبادة لله عزّ وجل، والإحسان للوالدين، أما أن تختلِطَ الأمور فتصبح العبادة للوالدين، والإحسان لغير الوالدين فهذا شيءٌ ليس وارداً في أصل الدين، إذاً قال تعالى:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

كلكم يعلم أن هناك إسلام، أيْ أن تنصاع لأمر الله عزّ وجل انصياعاً تاماً، وأنّ هناك إيمان، والإيمان أن تُصَدِّق وأن تُقبل وأن تتجه، الإسلام طاعة، انصياع إلى كل أوامر الله وترك ما نهى الله عنه، هذه مرتبة الإسلام.

مرتبة الإحسان والإيمان والإسلام:

مرتبة الإيمان أعلى من ذلك، أن تقبل على الله عزّ وجل وأن تتجه إليه، لذلك:

(قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 14 ")

مِن هذه الآية اتضح أن مرتبة الإيمان فوق مرتبة الإسلام، ولكن فوق المرتبتين مرتبة الإحسان، والنبي عليه الصلاة والسلام قال عن الإحسان:

((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

(صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

أي أنك إذا كنت في حضورٍ مع الله، من لوازم هذا الحضور الإحسان بمُطلق معانيه، إلى الخلق، إلى نفسك، إلى من هو قريب، إلى من هو بعيد، فإذا أردت أن تضغط الدين كلّه كله في كلمة واحدة إنه الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، ولن تكون محسناً إلا إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل. الإنسان أحياناً يرغِّب في الجزئيات والتفصيلات، ولكنه أحياناً أخرى يرغب في الكلمات ذات المدلولات الكبيرة وذات الإيجاز القليل، فالإحسان إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل، من لوازم هذا الحضور، من علامات هذا الحضور أن تكون محسناً الإحسان:

((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

بيان علاقة هذه الآية بما قبلها: فتنة الإنسان بوالديه:

إذاً علاقة هذه الآية بالتي قبلها، أنّ أقرب الناس إلى الناس والداه، نشأ بين أحضانهما، نشأ في بَيْتِهما، نشأ في حبهما، نشأ في رعايتهما، إذاً هناك علاقات وشيجة جداً، متينة جداً، علاقات مُتَمَيِّزَة، علاقات من الدرجة الأولى، بحكم الفطرة، بما أن الإنسان فطر على حب أولاده، وعلى العطف عليهم، وبما أن هذا الطفل الصغير تلقى العطف والرحمة والحنان، والشفقة والعناية والرعاية من أمه وأبيه، إذاً كانت هناك علاقات متينة جداً، هذه العلاقات إنما صممها الله عزّ وجل كي يستطيع الأب أن يأخذ بيد ابنه إلى الله، هذا الحُب طريق الهدى، والحقيقة حينما تريد أن تهدي إنساناً لا تستطيع أن تصل إلى قلبه إلا

بالإحسان، لذلك فالإنسان الأول المؤهّل ليهدي الإنسان الآخر هو الأب بالنسبة إلى الابن، لأن الأب كله إحسان، الأب كُتلة من الإحسان والأم كذلك، إذاً هذا التصميم الأسَري الذي صممه الله عزّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية 21)

وهؤلاء الأولاد الذين هم ثمار هذه العلاقة، وثمار هذه المحبة، وثمار هذه المودّة، إذا نشأ الأولاد في حجر آبائهم وأمّهاتهم، هناك ميزة وهناك مشكلة، الميزة إذا كان هذا الأب مؤمناً فتِلك العلاقة المتينة جداً عاملٌ مساعدٌ على هِداية الابن، الذي له ابن، وبالغ في الإحسان إليه وإكرامه، والعطف عليه، ورعايته، وتوجيهه، هذا الأب يستطيع قبل أيّ إنسانٍ آخر أن يأخذ بيده إلى الله ورسوله ؛ لكن الأب الضال تنشأ من خلالِهِ مشكلة، إذا كان الأب مُنْحَرِفاً، أو الأب ضالاً أو بعيداً عن جوهر الدين، أو لم يفهم الدين فهماً عميقاً، هذه العلاقة المَتينة التي أرادها الله بين الأب وابنه، هذه تغدو عُنْصُراً سلبياً في الدعوة إلى الله عزّ وجل، إذاً أول أنواع الفتن في حياة الإنسان أن يُفْتَنُ بوالديه، ربنا عزّ وجل قال:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

أي أيها الإنسان أنت مكلفٌ أن تحسن إلى أمك وأبيك ليس غير، أما العبادة فلله عزّ وجل، وقد يفتن الإنسان إذا تلقّى أمراً من أمه وأبيه بغير ما يرضي الله عزّ وجل، هذه أول فتنة..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

من هذه الفِتَن أن يكون الإنسان ذا علاقةٍ متينةٍ مع والديه، وقد يأمراه بغير ما يأمر به الله عزّ وجل.

معنى الإحسان للوالدين:

الشيء الثاني:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

معنى (حسناً) هذه الكلمة مصدر حَسُنَ، يَحْسُنَ حُسْنَاً، المقصود: ووصينا الإنسان بوالديه توصيةً حَسَنَة، فأنت أيها الإنسان موصى من قبل الخالق بالإحسان لوالديك، وكلكم يعلم أن المحسن لوالديه له في الدنيا جزاءٌ، وفي الآخرة جزاء، له في الدنيا معاملةٌ طَيّبَةٌ من لله عزّ وجل، وتوفيقٌ في أعماله، وعوام الناس يعرفون هذه العلاقة، وله في الآخرة عند الله مقامٌ خاص لبره لوالديه، لِذا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُجَاهِدُ ؟ قَالَ: لَكَ أَبَوَانِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

[متفق عليه]

إذا بر الإنسان أمه وأباه هذا العمل ربما يكفي كي تلقى الله وهو عنك راضٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ

رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[النسائي، أحمد]

القول الشائع: **" الجنة تحت أقدام الأمهات "**.

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

الاستثناء من طاعة الوالدين:

هنا المُشكلة، ربنا عزّ وجل بدأ بالوصية الحسنة، ثم ذكر المشكلة التي قد تقع، قال سبحانه:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

ماذا تعني ما ليس لك به علم ؟

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ)

معنى: وَإِنْ جَاهَدَاكَ

أي وإن حملاك، وإن دفعاك، وإن أمراك

(أَنْ تُشْرِكَ بِي)

أن تعبد غيري، أن تذعن لغيري، أن تطيع غيري، أن تعصيني..

(فَلاَ تُطِعْهُمَا)

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

هذه الآية أصلٌ في أن التقليد مرفوضٌ في المعصية وفي الإيمان، فالإيمان لا يقبل تقليداً، لا يقبل إلا تحقيقاً.

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

لو سُمِحَ لإنسان أن يقلِد إنساناً لكان هذا التقليد عذراً للضال، تقول: يا رب، تابعت فلاناً فأضلني، لذلك لا يقبل الإيمان إلا تحقيقاً عند أهل السنة والجماعة، وهذه الآية تؤكِّد ذلك:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من آية " 19 ")

الآيات القرآنية التي تتحدّث عن العقل، وعن أن العقل دليلٌ إلى الله عزّ وجل، وعن أن الإنسان يجب أن يُعْمِلَ عقله في معرفة الله عزّ وجل تقترب من ألف آية، وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

فإذا كان الأب والأم على جانبٍ من الإيمان والتقوى والصلاح لا توجد مشكلة إطلاقاً، لأن أمر الأب والأم من أمر الله عزّ وجل، وطاعتهما عندئذٍ واجبة، ماذا قال سيدنا الصديق ؟ **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

ولكن المشكلة أن ينشأ الإنسان في وسط غير مؤمن، في بيئة غير مؤمنة، له أب غير مهتدٍ إلى الله عزَ وجل، الأب له أمر ونهي، هذه من الفتن الكبيرة التي قد يتعَرّض لها الإنسان حينما ينشأ في هذه الحياة الدنيا، يا أخي ؛ قال لي أبي ذلك، أبي رباني، هذا توجيةٌ من الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

(فَلَا تُطِعْهُمَا)

يا أمي لو أن لكِ مئة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كنت لأكفر بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي، أما سيدنا سعد فقد كان باراً بأمه، هنا البطولة، أن تكون باراً، وأن تكون محسناً، وأن تكون راعياً، وأن تكون كريماً، أما في أمور العقيدة أمور الدين، فهذه لله وحده.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ)

احذروا معصية الله، فإن الله يقول: إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ

هذه الكلمة دقيقة جداً، أنت الآن أيها الإنسان تعيش مع أمك وأبيك، تعيش إلى أمدٍ محدودٍ جداً، ربما بعد حين تستقل عنهما في بيت، أما إذا عصيتني وأطعت أمك وأباك، فالبقاء في النهاية معي.

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ)

العودة إلى الله عزّ وجل، لن يكون معك أحدٌ يُدافع عنك، أو يحمل عنك التَبعَة.

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ)

من معنى:

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ)

نستفيد أنّ الإنسان مهما طال عمره فـ:

(إنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

البطولة أن تنظر إلى هذا الرجوع إلى الله عزّ وجل، لهذا الحساب الدقيق، لهذه الأبدية في الجنة أو في النار، هنا البطولة، لا أن ترعى حياةً مؤقتة، لا أن ترعى حياةً فانية سريعة الزوال، وشيكة الانتقال:

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ)

معنى: فَأُنَبِّئُكُمْ

معنى فأنبئكم، أي أنا معكم كنت في الدنيا ؛ عليمٌ بحركاتكم وسكناتكم، عليمٌ بكل مقتضيات حياتكم، بكل أفعالكم، بكل نياتكم، إذاً ما دام الله عزّ وجل معنا فهو عليمٌ بأفعالنا، وما دامت الرجعة إليه..

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ)

فالأمر غداً جلياً واضحاً. إذاً عنده الحساب، فالبطولة أن تحسب حساباً لهذه الرجعة ولهذا العلم الإلهي الذي يعلم كل حركاتنا وسكناتنا.

(إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنّهُمْ فِي الصّالِحِينَ (9)´)

مَن هُم الصالحون ؟

من هم الصالحون ؟ قال العلماء: هم الهداة، لقول الله عزّ وجل:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ(101))

(سورة يوسف)

دعاء الأنبياء.

ودعاء نبي كريم:

(رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

(سورة الأنبياء)

أي الصالحون بعطائنا، الصالحون لإكرامنا، الصالحون لهذه الجنة الأبدية السرمدية، الصالحون لإكرامنا.

إذاً الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

بدأ بالتوصية بالحسنى، وثنّى بأنه من الفتن التي قد يتعرض إليها الإنسان أن يتلقّى أمراً ممن كان سبب

وجوده، وممن كان سبب استمراره في وجوده، برعايته، وتربيته، هذه العلاقة المُتميزة، إما أن تكون في عالم الإيمان عاملاً سلبياً أو عاملاً إيجابياً..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

هؤلاء الذين عرفوا الله عزّ وجل، واستقاموا على أمره هؤلاء دخلوا في الصالحين لعطائنا، دخلوا في زُمرة المهتدين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقفة موجزة عند مرتبة الإحسان:

وقفة قصيرة عند مرتبة الإحسان، ما دام الله عزّ وجل قال:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

الإحسان أيها الإخوة، كما قال بعض العلماء: لُبُّ الإيمان، الإيمان ؛ صلاة وصوم وحج وزكاة، وأمر ونهي، ومعاملات، وعبادات، وأخلاقيات، يمكن أن تلخّص الدين كله بالإحسان، إذاً هو لُبُّ الإيمان وروح الإيمان، وكمال الإيمان، مَن حسُنتْ عبادته، وساء عمله فقد ابتعد عن جوهر الدين، من صام وصلّى وزعم أنه مسلم، ولم يكن محسناً إلى أقرب الناس إليه، إلى والديه، إلى أهله، إلى أولاده، إلى جيرانه، إلى من معه، إلى من هم فوقه، إلى من هم دونه ليس مسلماً، إذاً هو لُبُّ الإيمان، ربنا عزّ وجل قال:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلا الْإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

إنها آيةٌ جامعةٌ مانعة، أي أنه سبق لك من الله إحسان، وجودك إحسان، أن يَمُدّكَ بما تحتاج هو إحسان، أن يرشدك إليه هو إحسان، نعمة الإيجاد إحسان، نعمة الإمداد إحسان، نعمة الإرشاد إحسان، إذاً أنت حَسَنة من الله عزّ وجل، أنت في مجملك إحسانٌ من الله:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلا الْإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

يجب أن ترُدّ الجميل، لذلك لما ربنا عزّ وجل قال:

(هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

وفي آية ثانية قال سبحانه:

(وَسَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الكون كله مسخرٌ لك أيها الإنسان، تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ الفعل الأول أن تعرفه، وردّ الفعل الثاني أن تشكره، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

هذا درس موجز، أساسيات الدين..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ)

وجودك إحسان، إمدادك إحسان، هدايتك إحسان، زوجتك إحسان من الله لك، أولادك، أجهزتك، أعضاؤك، ما حولك، الأرض بجبالها، بوديانها، بسهولها، بهذا الطعام الذي أعده الله لك، بهذه الأشياء التي حببها إليك، كُلُّكَ إحسان من الله عزّ وجل..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

كيف تكون محسناً ؟

((أن تعبد الله كأنك تراه))

إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل عندئذٍ تكون محسناً.

((فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

وهذه المرتبة، مرتبة الإحسان أعلى من مرتبة الإيمان، إسلامٌ فإيمانٌ فإحسان، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((هل جزاء من علم أنه لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمدٌ إلا الجنة ؟))

ما هو الإيمان ؟ أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، وأن تتابع النبي في سيرته وفي سُنّتِهِ، العملية إيمان وعمل، هذا هو الإحسان.

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ)

بأن تعرف الله، وبأن تنفذ أمره.

(إِلاّ الإِحْسَانُ)

وهو دخول الجنة، الإحسان الأول الإيمان والعمل الصالح، والإحسان الثاني هو الجنة، وأنت في الأصل أثرٌ من أثر إحسان الله للإنسان، وعليك أن تفعل شيئاً يقابل هذا الإحسان بالإحسان، ورد في بعض الأحاديث:

((هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة))

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

إذاً: يجب أن تسعى إلى أن تكون حاضراً مع الله عزّ وجل حتى تكون محسناً، حتى يكون إحسانك رداً لجميل الله فيك.

أنواع الإحسان

العُلماء بينوا أن الإحسان على أنواع أربعة:

النوع الأول: إحسان القصد:

أنت لك قصد من حضورك في هذا المسجد، إذا أردت الزواج لك قصد، إذا أدرت العمل لك قصد، أحياناً تغضب، ولك من غضبك قصد، أحياناً تحزن، أحياناً تعطي، تمنع، تأخذ، تصل، تقطع، ما من حركةٍ يتحرّكها إنسانٌ عاقل إلا وله قصدٌ منها، الإحسان في القصد أن تكون مقاصدك متوافقةً مع الشرع، هذا الإحسان.

نبدأ بالإحسان من مستوياته الأولى، حينما تفعل شيئاً، حينما تنبعث إلى فعلٍ شيءٍ، حينما تُقْدِمُ على عمل، حينما تقدم على تجارة، على وظيفة، على دراسة، حينما تقدم على زواج، حينما تقيم هذه الحفلة، حينما تذهب للتعزية، حينما تبتسم، حينما تعبس، حينما تضحك، حينما تغضب، حينما ترضى، لا بدّ من قصدٍ وراء هذه الأفعال إذا كنت عاقلاً، العاقل لا بدّ له من قصدٍ وراء كل أفعاله، الآن هنا السؤال بطرح نفسه: هل هذا القصد موافقٌ للشرع ؟

المحسن يحرص على أن يكون قصده في كل عملٍ موافقاً للشرع، حتى إذا اشتريت لأهلك طعاماً، ما قصدك ؟ قصدك أن تعتني بهم كي تأخذ بيدهم إلى الله ورسوله، إذا اشتريت لِباساً ما قصدك ؟ أن تمثِّل المؤمنين، يجب أن يكون مظهرك حسناً، اجعل قصدك التقرُّب إلى الله دائماً، هذا أحد أنواع الإحسان في القصد، يجب أن تهُذِّبَ القصد بالتَعَلُّم، كلما طلبت العلم جاءت مقاصدك موافقة لمقاصد الشريعة، أما إذا كان قصدك أن تظهر عند دعونهم لمنزلك ما عندك من تحف ومن أثاث، ومن أشياء تعجب الناس فهذا لا يتوافق مع مقاصد الشرع، وأحياناً تدعو إلى وليمة وقصدك ليس إرضاء الله عزّ وجل، إذاً من الإحسان أن تجعل قصدك مطابقاً لمقاصد الشريعة، هذا أحد أنواع الإحسان.

النوع الثاني: الإحسان في العزم:

الآن من الإحسان أن تجعل هذا القصد بعزيمةٍ صادقةٍ حقيقة، أحياناً الإنسان يسمع عن قيام الليل، يقول لك: إن شاء الله أريد أن أقوم الليل، لكنه لا يملك الإرادة الكافية لذلك، الإرادة ضعيفة، كل واحد من

المؤمنين له تمنيّات كبيرة جداً، يا ترى هل واقعة مطابقٌ لتمنياته ؟ الله أعلم، إذاً فضلاً عن ذلك يجب أن تمتلك عزيمةً تجعل هذا القصد الشريف واقعاً، ما قيمة هذه النوايا الطيبة إذا كان لك واقع بعيد عن الواقع الذي تطمح إليه ؟

إذاً أول شيء في الإحسان أن يكون قصدك مطابقاً للشريعة، وسبيله العلم، الشيء الثاني أن تربي نفسك تربية بحيث تمتلك ناصيتها، الصوم يربّي الإرادة، كل أمرٍ فيه معاكسةٍ لشهوات النفس، الأمر حقيقةً هو أمر، وفي حقيقته تربيةٌ لإرادة الإنسان حتى يستطيع أن ينتصر على ذاته.

النوع الثالث: إحسان الأحوال:

هناك شيء آخر إحسان الأحوال، يجب أن يكون لك حالٌ مع الله، يجب، أن يكون لك قصدٌ شريف، وعزيمةٌ صادقة وحالٌ مع الله، والحال مع الله لا يتأتّى إلا بطاعته، كلما أطعته كلما تجلّى عليك، كلما أطعته كلما شعرت بالطمأنينة، كلما شعرت بالاستقرار، كلما شعرت بالثقة، كلما شعرت بالغنى، حال الغنى، والزُهد، والشعور بالتوازن، والاستقرار، والطمأنينة، والأمن، هذه أحوال أهل القرب، تقترب من الله ثم تخاف ؟! تقترب من الله ثم تشعر بالفقر ؟ أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، إذاً عندنا بالإحسان درجة أخرى أن يكون لك حال مستعِدٌ مع الله، طاعتك لله عزّ وجل، وأعمالك الصالحة تشعرانك بالطُمأنينة، تشعرانك بالقرب، لذلك فالسبيل إلى أن تمتلك حالاً طَيّبَاً تسعد به أن تكون مُتَقَصّيَاً لطاعة الله عزّ وجل في كل شيء، وأن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، طاعته وخدمة عباده يجعلانك في حالٍ طيب تسعد به هذا من الإحسان.

فالإحسان الثالث إحسان الأحوال، يجب أن تكون أحوالك حسنة، فيها قُرْبٌ مع الله عزّ وجل، فيها تجلٍ من الله عزّ وجل، هذه الأحوال أسبابها طاعة الله عزّ وجل، والتقرب إليه بخدمة الخلق، وصحبة الصادقين، لقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

النوع الرابع: إحسان العمل:

بقي علينا إحسان ثالث إحسان العمل، إحسان العمل أن يكون موافقاً للشرع، ما من شيءٍ إلا وللشرع حكمٌ فيه، هذا أمر، وهذا نهي، وهناك واجب، مستحب، مباح، مكروه، كراهة تحريمية، كراهة تنزيهية، مُحَرّم، فإذا كانت أعمالك كلها مطابقةً للشرع جاء عملك حسناً، وإذا كنت فضلاً عن ذلك محسناًبالمعنى

الدقيق، أي لك عطاؤك، ولك خدمتك، هذا أيضا ينطوي تحت كلمة الإحسان في العمل.

النوع الخامس: الإحسان في الوقت:

وأما الإحسان في الوقت وهو من أخطر أنواع الإحسان، فأن تجعل وقتك كله في طاعة الله، ألا يكون عملك نَوْبِيّاً، أي ساعة لك وساعتان لربك، أو ساعة لك، وساعة لربك، هذا ما يقوله عامة الناس، الإحسان في الوقت أن تجعل وقتك كُلّهُ في طاعة، وفي عبادة، وفي خدمة، وفي تعلُّم، وفي تعليم، وفي الأمر بالمعروف، وفي النهي عن المنكر، لأن المؤمن لا يندم يوم القيامة إلا على ساعةٍ مَرّت لم يذكر الله فيها.

عندنا إحسان في القصد، وإحسان في العزم، وإحسان في الحال، وإحسان في العمل، وإحسان في الوقت، الإحسان في الوقت اجتهاد، في أن تجعل جُلّ أوقاتك في طاعة الله، في خدمة الخلق، في معرفة الحق، في التعليم، في التعلُّم، في الأمر، في النهي، في طلب مرضاة الله عزّ وجل.

كلمة:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)

ملخّص الموضوع:

فَرّعنا منها موضوع الإحسان الذي هو مرتبةٌ تفوق مرتبة الإيمان، ومُلَخَّص الموضوع، أنك إذا كنت في حالة حضورٍ مع الله عزّ وجل، فمن لوازم هذا الحضور أنك تكون محسناً إلى نفسك، وإلى أهلك، وإلى من حولك، وإلى كل مخلوق، وهذا الإحسان ما هو إلا رَدٌ لإحسان الله إليك، أحسن إليها إذ أوجدك، وأحسنَ إليك إذ أمَدّك، وأحسنَ إليك إذْ هداك..

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

إحسانك ردٌ لهذا الجميل، لبعض الجميل..

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلا الإِحْسَانُ)

(سورة الرحمن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (05-16): تفسير الآيات 10 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكيرية:

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة العنكبوت، تَذْكرون أن الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة قال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أن تكون في مدرسةٍ عالية فيها كل ما يحتاجه الطالب، وقد أُنْفِقَ على بنائها مئات الألوف، بل عدّة ملايين، وأن تُجَهَّزَ بالمختبرات، وقاعات التدريس، وقاعات المحاضرات، والحدائق، والمطاعم، وأن تدخل هذه المدرسة، وأن تكتفي منك إدارة هذه المدرسة أن تقول لها: إنني متفوّقٌ في هذه المادّة، فيقبل هذا الكلام وتنجح، هذا مستحيل..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

إذاً هناك فِتَن، والفتنة في أدق تعاريفها إظهار ما في النفس، فقد يُفْتَن الإنسان فينجح، وقد يُفْتن فيرسُب، قد يفتن فيأتي الواقع مؤكِّداً لقوله، وقد يُفتن فيأتي الواقع مكذِّباً لقوله، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يَقْبَلَ منك قولك: إنك مؤمن، بل لابدّ من أن يفتن الإنسان، أي لابدّ من أن يُمْتَحَن.

بعض موطن الفتنة:

الفتنة الأولى: فتنة الوالدين:

ربنا عزّ وجل في هذه السورة بيّن لنا بعض المواطن التي يُفْتَنْ فيها الإنسان، أول مَوْطِنٍ يُفْتَن من قِبَل أبويه، فكما أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه العاطفة الأصيلة بين الآباء والأبناء من أجل أن ينمو الأبناء، وأن ينشئوا في حجر آبائهم، هذه العلاقة الأبويّة قد توظّفُ في غير مصلحة الإيمان..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

هذه فتنة، والله سبحانه وتعالى يُعْبَد، والأبُ والأم يُحْسَنُ إليهما، وفرقٌ كبير بين العبادة وبين الإحسان، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

الفتنة الثانية: فتنة الوالدين: دعوى الإيمان بالله:

الفتنة الثانية، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

لو أن الله عزّ وجل قال: **" ومن الناس من يؤمن بالله "** اختلف المعنى اختلافاً كلياً، الله عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ)

ومعنى يقول أيْ يَدّعي، يدّعي أنه مؤمن، وأنا متأكِّد أنه ما من إنسانٍ في العالم الإسلامي يصلي الصلوات الخمس إلا ويدّعي أنه مؤمن، والقضيّة ليست بالدَعوى، لو أن القضيّة بالدعوى فالأمر سهلٌ جداً، فالله قال:

(وَمِنَ النَّاسِ)

هذه (مِن) تفيد التبعيض، أيْ أنّ بعض الناس يقول: أنا مؤمن، يقول: أنا مؤمن، تَبَجُّحاً، يقول: أنا مؤمن، تأكيداً لإيمانه، يقول: أنا مؤمن، افتخاراً، يقول: أنا مؤمن، هكذا ليتعالى على أقرانه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)

الله عزّ وجل لا يمكن أن ينخدع، ولا يمكن أن يَخْدَع.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: من آية " 142 ")

فهذا الذي ادّعى أنه مؤمن، وقال: إنه مؤمن، وأكّد أنه مؤمن ربنا عزّ وجل يمتحنه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)

معركة الحق والباطل قديمة وأبدية:

كلّكم يعلم أن هناك كفرا وإيمانا على مَرّ الزمان، وهناك معركةٌ قديمةٌ وأبديّةٌ بين الكفر والإيمان، أهل الحق مع الحق، وأهل الباطل مع الباطل، أهل الحق يعبدون الله عزّ وجل، وأهل الباطل يعبدون شهواتهم، ومنذ القديم يسعى أهل الحق لهداية أهل الباطل، ويسعى أهل الباطل لإغواء أهل الحق، هذه معركةٌ قديمةٌ قِدَمَ الإنسان، منذ أن كان الإنسان على وجه الأرض فهذه المعركة قائمة.

فإذا آمنت، أو ادّعيت الإيمان، أو ذهبت إلى المسجد، أو صليت الصلوات الخمس، أو غضضت بصرك عن محارم الله، أو ترفّعت عن أكل المال الحرام، أو فعلت شيئاً يثبت أنك مؤمن، أو أردت أن تنحاز إلى أهل الإيمان، أو أردت أن تكون مع المؤمنين في مشاعرهم، في طموحاتهم، في آلامهم، في

آمالهم، إذا أنس الناس منك أنك مع المؤمنين، وأنك في صفِّ أهل الإيمان، وأنك مع الحق هناك محاولاتٌ دائمة، وقديمة، ومستمرّةٌ، ومستقبليّةٌ، هناك محاولاتٌ لزحزحتك عن إيمانك، لذلك كما أن الطالب المُقصِّر يتمنّى أن يكون جميع الطلاب مقصّرين ليستأنس بهم، كما أن الطالب المُهمل لواجباته يتمنّى أن تتسع هذه الدائرة كي تصبح ظاهرة اجتماعيّة، كي تصبح قانوناً، فلذلك بعض الناس يُرغِمون المؤمنين على أن يعودوا إلى الكفر.

بالمناسبة، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّارِ))

[متفق عليه]

صورة لثبات الإيمان: سحرة فرعون:

لو أن الدنيا بأكملها، لو أن السماء أطبقت على الأرض، لو أن كل من على الأرض كفر، ولو أن كل من على الأرض هدّد المؤمن فإنه لا يتزحزح عن إيمانه، هذا هو الإيمان، والدليل:

حينما سخّر فرعون السّحَرَة ليكونوا دعماً له في علاقته، أو في خصومته مع سيدنا موسى، فقد جاءوا بحبال وفرّغوها، ووضعوا فيها الزئبق كما تروي بعض الكُتّاب، وضعوها على مكان ساخن، لعلّ الزئبق إذا تمدّد تحرّك، وحرّك معه الحبال، أما سيدنا موسى فحينما فقد ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، وهم سحرة عمالقة في السحر، فكانوا أولَ منْ عرفَ أن هذا ليس بسحر ؛ بل هذه معجزة، فقالوا:

(آمَنّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

(سورة طه)

ماذا قال فرعون ؟ فرعون يمثِّل القوّة، وكما قال في موضعٍ آخر:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من آية " 38 ")

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمْ الّذِي عَلّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنّكُمْ فِي جُذُوعِ النّخْلِ وَلَتَعْلَمُنّ أَيّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

(سورة طه)

ماذا قالوا ؟.

(قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

أيْ كل ما تملك أن تزهق أرواحنا، ونحن إذا أزهقت أرواحنا انقلبنا إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هنا موطن قوّة المؤمن، والله عزّ وجل وعده بحياةٍ طيّبة..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

مِن سنن الله الجارية:

1 – محاولات أهل الباطل إضلال المؤمنين:

شيءٌ طبيعي أنّك إذا آمنت، إذا صلّيت، إذا غضضت بصرك عن محارم الله، إذا تحرّيت الحلال في كسبك، إذا تحرّيت الحلال في إنفاقك، إذا أردت أن تكون مع المؤمنين شيءٌ طبيعيٌ جداً أن يأتي أهل الباطل ليُعيدوك إلى جادتهم، أن يأتي أهل الباطل ليقنعوك بباطلهم، هذه هي المعركة، بين أهل الشهوات وأهل القُرُبات، بين أهل العقل وأهل المصلحة، فإذا حاول أهل الباطل أن يقنعوا هذا الذي يقول: آمنت، بلسانه ولم يؤمن فعلاً، وضغطوا عليه بطريقةٍ أو بأخرى، سريعاً ما تنهار نفسه، وينضمُّ إلى الكفّار.

لدينا مثل يقرّب هذه الحقيقة: الإسمنت مادّة معروفة، إلا أنها لا تُعطي إنذاراً قبل أن تنهار، هذه مشكلتها، الإسمنت يتحمّل قِوى ضغط عالية جداً، لكنه لا يتحمّل قِوى شدّ إطلاقاً، لذلك يُسلّح، فلو فرضنا أن مهندساً أنشأ شُرْفَة، وهذه الشرفة بدا عليها بعض الخلل، ماذا نفعل ؟ قال المتخصصون: لابدّ من أن نحمِّلها بعض الأوزان، فإن سقطت كان هو المطلوب، وإن صمدت أكّدت أنها سليمة البناء.

2 – ابتلاء المؤمن بالظروف العصيبة:

إذا ادّعى الإنسان أنه مؤمن فربنا عزّ وجل يضعه في ظرفٍ عصيب، فإذا سقط في الامتحان فهذا تعريفٌ له وتعريفٌ للناس، وحفزٌ له على أن يجدِّد إيمانه، هذا امتحان مهم جداً، أنت لولا الامتحان تسترسل، تنشئ لك قصوراً من الخيال، لولا الامتحان لظننت أنك على شيء، وأنت لست على شيء، لولا هذا الامتحان لا تعرف حجم إيمانك، الإنسان قد يبالغ بحجم إيمانه، قد يظنُّ أنه مؤمنٌ كبير، وهو

في الحقيقة مؤمنٌ صغير، فمن نعمة الله علينا، من فضل الله علينا أنه يُحَجِّمنا دائماً، كلّما أشط بك الخيال، وظننت أنك مؤمنٌ كبير يأتي الامتحان الصعب، فإذا أنت مع شهوتك، فإذا أنت مع مصلحتك، فإذا أنت تخاف على مكتسباتك، فإذا أنت تستجيب لهذا الضغط أو لهذا الإغراء، فالمؤمن لا يستجيب لا لضغطٍ ضاغط ولا لإغراءٍ جاذب، لا تؤثِّر فيه السياط اللاذعة، ولا سبائك الذهب اللامعة، لا هذه ولا تلك، ولكنه مع الله عزّ وجل..

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72) َ)

(سورة طه)

هناك من يَدّعي الإيمان، وما أكثرهم، يأتي الامتحان ليفرز هؤلاء، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ َ)

(سورة آل عمران: من آية " 179 ")

مستحيل أن يدّعي كل إنسان أنه مؤمن، والأمر يبقى هكذا، لذلك:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ

أي فإذا أوذي من أجل إيمانه بالله، له مركز، هُدِّدَ في مركز الذي يشغله، إن بقيت تصلي فلن تبقى في هذا المكان، إذا فعلت كذا وكذا تُحْرَم من كذا وكذا، إن قلت كذا تدفعْ كذا، هناك من يقول له ذلك، وهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام مسخّرون من قِبَل الله عزّ وجل ليمتحن إيمانه، فقد يأتون بقطعة إسمنت.. شاهدتها بعيني.. يأتون بها إلى المَخبر، يمسكونها من أعلى، ويضعون في أسفلها أوزاناً متدرّجة في الصعود، على أي وزن انقطعت هذه قوّة تحمُّلها، عند ذلك الوزن الذي انقطعت معه، فيقولون: السنتيمتر المربّع يتحمّل مائتي كيلو من الضغط مثلاً، أما على الشد فيتحمّل أقلّ بكثير، فأنت مؤمن، ولك حجم، تأتي الضغوط أو الإغراءات على أي وزن تفلت ؟ على أي وزن تعصي ؟ على أي مستوى تهديد تترك دينك ؟ على أي مستوى إغراء تقول: أخي أنا مضطر، فماذا أفعل ؟ فلذلك هناك قِوى جذب، وهناك قِوى ضغط.

الإنسان مُعَرّض لضغوط ولإغراءات من قِبَلِ أهل الباطل، إذا فعلت كذا وكذا نجعلك في هذا المكان، نعطيك هذا المبلغ، نرفعُ من قدرك، وإن لم تفعل أمامك كذا وكذا، هذه معركةٌ قديمة ومستمرّة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معركة أهل الإيمان مع أهل الكفر والبهتان، فلذلك ربنا يحذِّرنا..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا)

دعوى الإيمان لا تنفع:

هو قال بلسانه، القضيّة سهلة، أخي أشهدُ أنه لا إله إلا الله، لو أنها تنتهي عند هذه الكلمات فالقضيّة سهلة جداً، ولكن هناك ضغوط، هناك مُغْرِيَات، قد ترى فتاةً جميلة فإذا أنت تنساق إلى الزواج منها على عِلاّتها، على تهتُّكها، على تبذُّلها، أين إيمانك ؟ انتهى الإيمان، لذلك أهل الدنيا ينهارون عند نقطتين ؛ عند المال والنساء، نقطتا ضعفٍ عند الإنسان الكافر المال والنساء، سريعاً ما ينهار الإنسان ؛ أما المؤمن عنده صمودٌ في هاتين النُقطتين، لذلك التعامل مع المؤمن صعب جداً، صعب لأنه إنسان ذو مبدأ لا يُغَيّر ولا يُبَدِّل، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام وهو نبيٌّ مُرْسَل يأتيه الوحي، وجاء بالمعجزات، ومع ذلك لما جاء الضغط شديداً على من كان معه.

أمثلة عن الامتحان في عهد الصحابة:

1 – امتحان غزوة الأحزاب:

ماذا قال أحدهم ؟ قال: **" أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَّحَ علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته "**، جاء الضغط الخفيف فقال: صاحبكم، ولم يقل رسول الله.

2 – امتحان ثعلبة:

وثعلبة الذي آتاه الله الأموال الطائلة فأرسل النبي الكريم له إنساناً ليأخذ زكاة ماله قال: " قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة "، الذي قال: أيعدنا صاحبكم، هذا جاءه ضغطٌ فانكشف إيمانه، والذي قال: **" قل لصاحبك: ليس في الإسلام زكاة "**، جاءه إغراءٌ فانتقض إيمانه، فالبطولة أن يموت الإنسان مؤمناً، والآية الكريمة:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

الإنسان أحياناً في بدايات حياته يدخل مُدخل صدق، ولكن وهو في درب الحياة يأتيه المال الوفير، والمال يُطْغِي، أو يأتيه الضغط الشديد وكاد الفقر أن يكون كفراً، فالضغط الشديد والإغراء الشديد هما امتحانٌ قاسٍ لأهل الإيمان، لذلك ماذا قال سيدنا علي ؟ قال:**<< عَلِمَ ما كان، وعلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعلِمِ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون>>.**

دعوى الإيمان تحتاج إلى بيّنة:

أنت مستقيمٌ مادمت على هذا الدخل، لو جاءك دخل يبلغ عشرة أضعافه فالله أعلم ونحن لا نعرف ما الذي يحصل، كل إنسان له نقطة ضعف ينفك فيها، فالإنسان إذا اهتم بإيمان حقيقي، بنى إيماناً صحيحاً، نعم إيمان، كلمة إيمان، ولا أبالغ كأن تقول: دكتوراه، هذه كلمة ؟ سنوات طويلة، ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، وليسانس، ودبلوم عام، ودبلوم خاص، وماجستير، ومواد، وأطروحة، ومناقشة، ثم مواد ومناقشة، حتّى ينال هذا الإنسان لقب دكتور، فإذا قال إنسان: أنا دكتور بلا دراسة فهذا مجنون، كلمة إيمان، متى آمنت ؟ متى جلست على ركبتيك حتّى آمنت ؟ متى فكّرت في خلق السماوات والأرض ؟ على يد من آمنت؟ أيّ المجالسِ حضرت ؟ أيّ كتابٍ قرأت ؟ كيف تعاملت مع الله ؟ هل طبّقت العبادات؟ هل قمت بالواجبات ؟ هل أطعت الله ورسوله ؟ هل ضبطت شهواتك ؟ كيف آمنت ؟ هكذا آمنت..

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللّهِ)

أخي أنا مؤمن والحمد لله، على ماذا ؟ أين عملك ؟ أين ورعك ؟ أين محبّتك ؟ أين مؤاثرتك ؟ أين إخلاصك ؟ أين بذلك؟ أين تضحيتك ؟ أين انضباطك؟ مؤمن..

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللّهِ فَإذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ)

معنى الإيذاء:

أي جاءته مشكلةٌ بسبب إيمانه، لأنه قال: أنا صائم فعل معه فلان كذا وكذا إيذاءً واستطالة.

(فَإذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ)

أول ضغط أو إكراه أو وعيد قال: لا، هذا شيء صعب لا يحتمل، أي أنه وازن وجعل هذا الضغط الإنساني العابر المؤقّت جعله كعذاب النار، وهذا مِن أخسر الخاسرين، ضغطٌ من بني البشر وضغطٌ عابر ومؤقّت وقد لا يتحقّق، الله يمتحنك به، يجب أن يكون شعارك دائماً كما قال سحرة فرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة طه)

طبعاً إنّ الله عزّ وجل لطيف يُحِبُّ أن تعرف نفسك، من أنت ؟ ما مستوى إيمانك ؟..

(فَإذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ)

جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ

فهذا الضغط، هذا الوعد، هذا الوعيد، هذا الإكراه جعله مساوياً لعذاب النار، وعذاب النار أبديّ، الله عزّ وجل قال:

(لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا(13))

(سورة الأعلى)

هذا عذاب النار، شيء لا يُحتمل، فلو وازنت بين عذاب الدنيا وبين عذاب النار، القضيّة بسيطة جداً فلا مجال للمقارنة بينهما..

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ)

دعوى الإيمان عند المكاسب والمصالح:

هذا الذي يدّعي الإيمان، هذا الذي ينتمي للإيمان انتماء شكلي، انتماء مصلحياً..

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

إنه يحبُ الإيمان بأن يكون فيه مكاسب، مغانم، توفيقات، عطاءات، دائماً يَتْبَعُ العطاء، إذا كان هناك شيء مريح، مثلاً كأن يكون احتفال، أو توزيع مكاسب، أو وليمة، أخي نحن منكم وفيكم يا أخي لمَ لمْ تدعونا ؟ إذا كان تكليف تراه يلحقه فلن، فقد اختفى، الإيمان عند مكاسب، فعند المكاسب هو مؤمن ؛ وعند المتاعب تجد كل واحد يأخذ موقفاً، لذلك:

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

فالله يكشف الإنسان كشفاً كاملاً..

(وَلَيَعْلَمَنّ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنّ الْمُنَافِقِينَ)

هؤلاء من المنافقين فاحذروا أن طريقهم:

ربنا عزّ وجل وصف هؤلاء الذين يقولون: آمنا بالله فإذا أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، وإذا جاء النصر، قالوا: إنا كنا معكم، هذه صفات المنافقين، أي إذا أراد الإنسان الإيمان كمكاسب ورفضه كمغارم، أراده مغانم ورفضه مغارم، أراده تشريفاً ورفضه تكليفاً، أراده قبضاً ورفضه دفعاً، أراده شُكراً ورفضه صبراً، قال العلماء: هذا في تقويم الله له منافق..

(وَلَيَعْلَمَنّ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنّ الْمُنَافِقِينَ)

ظاهره يتجلى بإيمان، وباطنه حجودٌ وكفران.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

ادِّعاء الكفار تحمُّل مسؤولية المعصية وتبعاتها:

بربّكم هذه الكلمة ألا يقولها معظم الناس ؟ أخي ضعها في رقبتي، مَن أنت ؟ من أنت حتّى تقول: أنا أتحمّل هذه المسؤوليّة ؟..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

يحملك على المَعصية، يحملك على كسب الحرام، يحملك على تنمية المال تنمية ربويّة، يحملك على إطلاق البصر، يحملك على حضور حفلات ماجنة، يحملك ويقول لك: ضعها في رقبتي، لم يعد هناك مكان في رقبتك لكثرة ما حملتها من أوزار..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)

هم كاذبون، كلامٌ لا يعني شيئاً، كلام سمّوْه خطابياً إنشائياً لا يعني شيئاً..

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ)

لا يحمل أحدٌ وزر أحدٍ: إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

كلمة:

(مِنْ شَيْءٍ)

الشيء هو أقل ما يمكن أن يوصف، كل شيء ممكن اسمه شيء، و(مِن) لبعض الشيء..

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

إنهم بهذا الكلام كاذبون، هذا كلامٌ فيه كذبٌ كبير، قد يقول لك أحدهم: أخي امش معي، إلى أين أمشي معك ؟ إلى هنا، إلى هذا المحل الفلاني، تقول: لا يجوز، فيقول: لا تدقِّق ضعها برقبتي، هذا كلام أهل الدنيا، كلام المنافقين، كلام البعيدين عن الله عزّ وجل، كل إنسان محاسب بعمله وبقوله.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

فالإنسان غير المؤمن من غبائه، ومن سوء طالعه، ومن ضيق أفقه أن يصدِّق من يقول له: افعل هذا، وضعه في رقبتي، قال تعالى:

(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

والأغرب من هذا:

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ)

مَن دلّ على معصية تحمّل وزرها:

تأكّد أنك إذا دللت إنساناً على معصية وفعلها فالوزر نفسه تتحمّله أنت من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

(سورة النساء: من آية " 85 ")

الكفيل حطّاط ويُعزّم، إذا دللت إنساناً على معصية، على كسب حرام، على إرواء شهوة بغير ما يرضي الله عزّ وجل، على إنفاق مال في طريق غير مشروع، على تنمية مال بطريق غير مشروع، إذا دللت إنساناً على معصية فأنت تتحمّل كامل الوزر من دون أن ينقُص من وزره شيء، هذه الحقيقة خطيرة، إذاً ما الذي سيحصل ؟ إنّ هذا الذي دلّه على معصية سيتحمّل إثم معصيته هو وإثم كل مَن دلّهم عليها..

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

أحياناً يفعل الإنسان شيئاً ثم يموت، وهذا الشيء قد يستمر، ولو أن الله عزّ وجل كشف له يوم القيامة أن مئة ألف فتاةٍ غَوَت بسبب هذا العمل الذي فعلته، ومن بعده تركت الدنيا، وكل هذه المعاصي في صحيفتك، واللهِ الذي لا إله إلا هو عندها يَعُد الإنسان إلى مائة مليون قبل أن يقول كلمةً فيها إشارةً إلى معصية أو دلالة على معصية..

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

المفتري مسؤولٌ عن افترائه:

أخي هكذا الدين، الدين يسر، هذا افتراء على الدين، إذا قال واحد لك: الحديد غالٍ لا تضع الحديد في البناء، أو ضع حديد بالمائة واحد، وأنت صدّقت، وحفرت الأساسات، دفعت ثمن الإسمنت، ثمن العمّال، وفي الطابق الثاني انهار البناء، لماذا صدّقته ؟ لِمَ لَمْ تسأل الخبراء ؟ فتسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

لماذا صدّقته ؟ فهذا افتراء، الإنسان عليه أن يتبع سبيل الله، أن يتبع سبيل من أناب إلى الله، أمّا أهل الدنيا إذا اتبعنا سبيلهم أوردونا موارد التهلُكة.

أنا ألاحظ أناساً كثيرين يستشيرون في زواج بناتهم أصدقائهم وهم ليسوا على علم، يأتيهم خاطب لا دين له، فيقول صديق السوء: ثم بعد ذلك يعطيه دعماً، يعطيه تشجيعاً، ثمّ تقع الطامّة الكبرى، يفعل في هذه الفتاة ما لا يفعله إنسان غريب عن الدين، لماذا استرشدت بهذا الإنسان ؟ الله عزّ وجل يقول في حديث قدسي:

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

استهدِ اللهَ عزّ وجل، اسأل إنساناً تثق في دينه، بعلمه، بفهمه لكلام الله، استنصحه..

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً)

قصة نوح مع قومه:

1 – إقامة نوح مع قومه ألف سنة إلا خمسين عاما في الدعوة:

سيدنا نوح بقي في قومه تسعمئة وخمسين عاماً..

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

2 – إهلاك الله الظالمين من قوم نوح بالطوفان:

هم ظالمون ؛ هذه حال، أيْ حال كونهم ظالمين أخذهم الطوفان..

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ(15))

3 – إنجاء الله نوحا ومن آمن به:

وهذا شيء مفرح، أن ينجي الله عزّ وجل المؤمن، ويهلك الكافر بالفيضانات، بالزلازل، بالبراكين، بالمشكلات العامة، بالأوبئة، بالاجتياحات، أما المؤمن الذي حَصَّل ماله حلالاً فله عند الله معاملة خاصّة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

والآية واضحة:

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ(15))

قصة وعبرة:

إليكم قصّةً كنت أرويها قديماً، وهي رمزيّة، ولكن لها معنىً عميق، خلاصتها: أن امرأةً جاءت سيدنا نوح وقالت له: يا نوح، إذا جاء الطوفان فأخبرني، قال لها: نعم، يبدو أنه جاء الطوفان، وركب نوحٌ عليه السلام في السفينة مع أصحابه، وفي زحمة الطوفان والأمواج كالجبال تَذَكّرَ هذه المرأة، وقد نسيها لأنه بشر، والنبي الكريم صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يقول:

((إِنّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَذْكُرُ كَمَا تَذْكُرُونَ، وَأَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ...))

[مسلم عن ابن مسعود]

فلمّا انتهى الطوفان، والطوفان كان عامّاً، جاءته هذه المرأة وقالت: يا نوح، متى الطوفان ؟ لأن الله عزّ وجل وعد المؤمن أن يُنجيه فالله عزّ وجل، نجّاها بقدرته من دون أنْ تركب السفينة بسبب إيمانها، إذاً:

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16))

يا أيها الناس اتقوا غضب الله وسخطه:

اتّقِ غضب الله، اتق بلاءه، اتق فتنته، اتق أن تُعَذّبَ لانجذابك من قِبَلِ إنسان، اتق أن تدفع ثمن المعاصي باهظة، واتقوه..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً، وفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه، إذا رأيت أن طاعة الله، وتقواه، وعبادته خير فأنت عالِم، وإن رأيت في الطاعة إحراجاً، وفي العبادة مَغْرَمَاً، وفي اتقاء الله خسارةً فأنت لا تعلم ولو نلت أعلى الشهادات، مقياس العلم أن ترى في طاعة الله وعبادته وتقواه كل الخير، وأن ترى في معصيته والانحراف عن منهجه كُلّ الشر، هذه القضيّة بل هذه المعادلة مقياس ثابت جداً..

(وَاتّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

الخير في تقوى الله:

فإنْ كنت تعلم فإنّك ترى أن طاعة الله هي الخير، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها فأحياناً يبدو لك الخير في معصيته، يبدو لك أن شراء هذا البيت لا يكون إلا باقتراض مالٍ بفائدة، وأن البيت مناسب جداً،

والبيت سعره مناسب جداً، والمبلغ ميسور من طريق مصرف مثلاً، والفائدة يسيرة، قد ترى كل الخير في هذا الطريق المشبوه، فإذا قلت: إني أخاف الله رب العالمين، عندئذٍ يُيَسّر الله لك هذا البيت نفسه من طريقٍ آخر، عملية امتحان أحياناً تُقدِمُ على معصية، ويتراءى لك أن الخير بهذه المعصية، فإذا غلّبت إيمانك وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، قد يأتي الخير من طريقٍ آخر، لذلك:

(وَمَنْ يَتّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

(إِنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

كل معبودٍ من دون الله كذب وإفك مفترى:

إنما أداة قصر، أي أن كل ما تعبده من دون الله هو وَثَن، والوثن لا ينفع ولا يضر..

(وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

أما التعليلات، والتفسيرات، والتمهيدات، والتحليلات هذه كذبٌ كلها، إفكٌ في إفك، الإفك هو الافتراء، وهو الكذب، إذاً هذا الذي تعبده صنماً لا ينفع ولا يضر، وهذا الكلام الذي تُرَمْزُ به له كلامٌ كاذب، والدليل أن هذه الأصنام..

(لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ)

لا رازق إلا الله: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرّزْقَ

وهذه القاعدة مهمّة جداً، أحياناً تتوهّم أو يتراءى لك أن رزقك بيد فلان، إذا صدّقت فهذه الآية تنطبق عليك، تتوهّم أنه إذا رضي عنك فلان كنت في الأوج، فإذا غضب عليك كنت في الحضيض، إذا رضي عليك زيد أعطاك مالاً وفيراً، فإذا غضب عليك حرمك من كل شيء، مع أن من أبسط قواعد الإيمان:

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفّتِ الصّحُفُ))

(من سنن الترمذي عن قيس بن الحجّاج)

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من آية " 2 ")

هذا الإيمان، أمّا كآيات أن تقرأها وتفهمها القضيّة سهلة، أما أن تكون في مستواها، وأن تعيشها، وأن تبني مواقفك في ضوء هذه الآيات فهذا المطلوب، المطلوب أن تكون صامداً، أن تؤمن أن الله عزّ وجل لا ينساك من رزقه، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّبَ أجلاً، وأن كلمة الباطل لا تزيد في الرزق..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى ".

إذا توهّمتَ أن المعصية تزيد في رزقك، وأن الطاعة تنقص في رزقك فهذا هو الجهل الكبير، لذلك:

(إِنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً)

هذا كلام الرَزّاق العظيم، كلام الله رب العالمين، كلام الخالق الذي بيده كل شيء..

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ)

" من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى ".

(وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

الله هو المستحق للعبادة وحده:

أطيعوه، واشكروا له أنْ خلقكم، أنعم عليكم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أعطاكم الأموال، والبنين، والزوجات، والأهل، والبيت، أعطاك هذه الصحّة، أعطاك هذه الحواس..

(وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

فإذا عبدت غيره، وابتغيت الرزق عند سواه سوف تُحاسب على هذا..

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرّسُولِ إِلّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

فإن فعلت خيراً فلنفسك، وإن أسأت فعليها، أيْ أنّ عملك لك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (06-16): تفسير الآيات 16 - 21

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17))

إبراهيم مع قومه:

قوله:

(وَإِبْرَاهِيمَ)

معطوفة على:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً)

ولقد أرسلنا نوحاً، ولقد أرسلنا إبراهيم..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

فحوى دعوة الأنبياء: أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

الأنبياء جميعاً من دون استثناء فحوى دعوتهم:

(أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

الدين كله أن تؤمن بوجود الله، وبتوحيده، وأن تعبده، جانب عقائدي، وجانب سلوكي، السلوك أن تعبده، والعقيدة أن توحِّدَهُ، أي أن تؤمن بوجوده وتوحده، لذلك الآية الكريمة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

أي أنك إذا قلت لي: هل بإمكانك أن تضغط الدين كله في كلمتين ؟ قلت: نعم، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، وأن تعبده، أمّا أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، فكل شيءٍ في الكون ينطق بهذه العقيدة.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

***

وأمّا أن تعبده فالعبادة غاية الخضوع لله عزّ وجل، مع غاية الحًب، خضوعٌ مع الحب، لو أنه خضوعٌ فقط لا يسمى عبادة، لو أنه حبٌ فقط لي تسمى عبادة، الخضوع والحب أساسه المعرفة.

العلم هو الطريق الوحيد إلى الله:

إذاً: العلم قبل كل شيء، إذاً الطريق الوحيدة التي لا ثاني لها إلى الله هي العلم، لذلك ربنا عزّ وجل لم يعترف بأية قيمةٍ تواضعنا عليها، الجمال، والذكاء، والقوة، والغنى، والمال فكل هذه لا قيمة لها، أما العلم وحده في القرآن فهو قيمة مُرَجِّحَة..

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية " 9 ")

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

حب الوجود وسلامته وكماله واستمراره مطالب كل إنسان:

إذاً: أيها الإخوة الأكارم... من أجل أن ننجو وأن نسعد، لأن الإنسان مفطورٌ على حب وجوده، وعلى سلامة وجوده، وعلى كمال وجوده، وعلى استمرار وجوده، من أجل أن نكون كما فطرنا لا بدّ من أن نعبد الله، ومن أجل أن نعبده لا بدّ من أن نعرفه، كيف نعرفه ؟ إنّ ذاته لا يمكن أن نراه ولكن نرى آثاره، نرى آياته، آياته الدالة على وجوده، آياته الدالة على وحدانيّته، آياته الدالة على أسمائه الحسنى، آياته الدالة على صفاته الفُضلى، آياته الدالة على أنبيائه، آياته في كتابه، فإذا أُطْلِقَت كلمة (الآية) فإنما تعني الدليل على وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، وعلى نبوة أنبيائه، وعلى رسالة رسله، وعلى قضائه وقدره، فالكون ينطق بوحدانيته، في خلقه، وأفعال الله عزّ وجل لو تتبعتها لوجدت فيها أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، وكلامه لو قرأته وتدبرته لوجدت فيه الحق الصرف، إذاً:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

اعرفوه، واعرفوا أمره، وطبقوا أمره، حتى تسعدوا في الدنيا وفي الآخرة، ولو سألت ستة آلاف مليون إنسان.. فأهل الأرض الآن بالرقم التقريبي يعدون ستة آلاف مليون.. لو سألت هؤلاء الناس جميعاً من

دون استثناء: ما هي المطالب الثابتة عندهم ؟ لأجابوا بلسانِ القال ولسان الحال: السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة لا تتحققان إلا بمعرفة الله وطاعته، لذلك منهج الله عزّ وجل:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

عدم عبادة الله شقاء الإنسان:

لكن أحياناً يأتيك أمر فإذا نفّذته فقد نفذته، وإن لم تنفذه لم يحدث شيء، لو قيل لك: تعالَ اذهب معنا إلى هذه النُزهة، فإن ذهبت كان بها ونعمت، وإن لم تذهب فلا يحدث شيء، أما عبادة الله عزّ وجل إن عبدته فقد عبدته حقاً، وإن لم تعبده شَقيت إلى الأبد، فالقضية دقيقة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

لأنكم إن لم تعبدوا الله فسوف تهلكونا، وسوف تُعَذّبون، وسوف تَشْقَوْن، وسوف يمضي الإنسان حياته الأبدية كلها في عذابٍ لا يحتمل.

إذاً: الموضوع ليس اختيارياً، بمعنى الله إما أن تعبده، وإما ألا تعبده، لا، إما أن تعبده فتنجو، وإن لم تعبده فتهلك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ)

مفهوم التقوى الشامل:

أي عبادته وتقواه، معنى التقوى أي اتق عذابه بطاعته، اتق سخطه برضوانه، اتق الكفر بالإيمان، اتق الشرك بالتوحيد، اتق إتلاف المال بحسن كسبه، اتق سَخَطَ الله عزّ وجل بحسن إنفاق المال، اتق العَطَبَ بهذه الحواس بأن تجعلها في طاعة الله عزّ وجل، العين التي تَغُضُّ عن محارم الله أغلب الظن أن الله يحفظها، والأذن التي لا تسمع بها إلا الحق، أغلب الظن أن الله يحفظها، واليد التي لا تحرّكها إلا في طاعة الله أغلب الظن أن الله يحفظها، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

أي اتقوا غضبه برضوانه، اتقوا عذابه بطاعته، اتقوا عذاب الآخرة بمعرفته.

(اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

طاعة الله وتقواه خير لكم:

هذا كلام الخبير، كلام الصانع، كلام الخالق..

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

فيا أخي الكريم، إذا توهَّمْتَ أن الخير في غير طاعة الله، وفي غير عبادته، فيجب أن تتهم نفسك بالضلال المبين، إذا توهمت الخير في معصيته، إذا توهمت الخير في المال فقط، إذا توهمته في الجاه فقط، إذا توهمته في اللذائذ فقط، إذا توهمته فيما سوى الله، فاحكم على نفسك بالضلال المبين، لأن الله عزّ وجل يقول:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ)

هذا كلام الخالق، هذا هو الخير يا عبادي، ما سوى ذلك ليس خيراً إنما هو شرٌ مبين:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

كل إنسان يعصي الله مدموغ بالجهل:

إذاً: كل إنسانٍ يعصي الله عزّ وجل يمكن أن تَدْمَغَهُ بالجهل، لو أنه يحمل أعلى شهادة، لأن الله عزّ وجل يقول، وهذا كلام خالق الكون:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

فإن رأيتم طاعة الله، وعبادته، وتقواه ليست خيراً فأنتم لا تعلمون، لذلك **" كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه**، المهم أن يكون مقياسك وفق هذه الآية، أن ترى الفلاح والنجاح، والفوز والتفوق، والسعادة، في طاعته ؛ وأن ترى الشقاء والحرمان، والخزي والعذاب والقهر والتفاهة في معصيته، قال ربنا عزّ وجل قال:

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف)

لا قيمة لهم عند الله، لا شأن لهم عند الله، لهم صغارٌ عند الله هؤلاء الذين يعصونه، لذلك: مَن أسعد الناس ؟ أسعد الناس، من كان في طاعة الله، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، هذا أكبر نصر على عدوك إذا كنت أنت في طاعته وهو في معصيته، لا تعاقب من عصى الله فيك بأشد من أن تطيع الله فيه هو عصى الله فيك، وأنت أطع ربك فيه..

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لا تكون عالماً إلا إذا عرفتَ الله، لا تكونُ عالماً إلا إذا عبدته، لا تكون ذا رؤيةٍ صحيحة إلا إذا سِرْتَ على منهجه، فإذا اقتنى إنسان آلة ثمينة جداً، قمة الذكاء تعني أن يتبع تعليمات الصانع لهذه الآلة، وإلا يتلفها، ويخسرها، أو يأتي مردودها ضعيفاً:

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً)

الشرك الجلي والشرك الخفي:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ، فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

هناك شركٌ جلي، وهناك شركٌ خفي، الشرك الجلي أن تقول: بُوذا إله مثلاً، وأن تعبده من دون الله، هذا شركٌ جلي، أما الشرك الخفي أن تتوهَّم أن مصالحك عند زيد، وأن عُبَيْداً بإمكانه أن يوقع فيك شراً، وأن فلاناً بإمكانه أن يعطيك، وأن عِلاّناً بإمكانه أن يمنعك، وأنه إذا رضي عنك فلان فأنت أسعد الناس، وإذا غضب عليك فلان فأنت أشقى الناس، هذا التصوُّر هو الشرك بعينه، لأنه يتنافي مع لا إله إلا الله، ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من آية " 19 ")

والعلم يحتاج إلى جُهد، أكثر الناس يتوهّمون أنهم بمجرد أن يقولوا: لا إله إلا الله، انتهى الأمر، وصار مسلماً.

مثلاً: لو أن إنساناً قال: مليون ليرة، مئة مليون ليرة، ألف مليون ليرة، هل ملكها ؟ فرقٌ كبير بين أن تقول: ألف مليون، وليس في جيبك ثمن رغيف خبز، وبين أن تقول: ألف مليون، وأنت تملك هذا المبلغ؛ فرق كبير جداً، فأن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله فالقضية سهلة، ينطق بها كل إنسان، أما أن يكون لهذه الكلمة عندك رصيد، هذا الرصيد هو الذي يحملك على طاعة الله، وعلى أن ترضى بقضائه، وعلى أن تحبه، وعلى أن تتبع سبيله، وعلى أن ترى يده هي اليد الكبرى في الكون.

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

إذا كان لك رصيدٌ من هذه الكلمة، رصيد كبير هذه تضفي عليك سعادةً وسكينةً، وأمناً وطمأنينةً، وتوازناً واعتدالاً، وثقةً وإقبالاً، وحكمةً وعزةً وكرامةً.

مِن ثمار لا إله إلا الله:

1 – العزّة:

من ثمار الإيمان بلا إله إلا الله العزة، لأنك تعلم علم اليقين أن أمرك كله بيد الله، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً، وأن هؤلاء الناس جميعاً لا يملكون لك شيئاً ولو اجتمعت كلمتهم..

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

إن خليفة عظيمًا كان يحج البيت، التقى بتابعي جليل يُكنى أبا حازم، قال له: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقى به خارج المسجد، قال: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما قال له: سلني حاجتك، قال: أنقذني من النار، قال: هذه ليست لي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة، فهناك غنى عند المؤمن.

قال أبو جعفر المنصور لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا.. تعال إلينا، تفضل عندنا وزرنا، نحن نحبك، نأنسُ بك، قال له: ولِمَ أتغشّاكم، وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه ؟ وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء ؟

قيل: **" احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغنِ عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره "**، من ثمار الإيمان بلا إله إلا الله العزة، فلا يوجد نفاق بعدها، لأن هناك رؤية، تدخل إلى دائرة مثلاً، لك معاملة سفر، يجب أن يوقعها المدير العام، فهل تتوسل للآذن ؟ تبذل ماء وجهك أمام الآذن ؟ أمام موظف الاستعلامات ؟ أمام ضارب الآلة الكاتبة ؟ أمام الحاجب ؟ أمام مدير المكتبة مثلاً ؟ أنا يهمني المدير العام، علاقتي كلها معه، هذه الدائرة ثلاثة طوابق فيها مئتا موظف، الذي يوقع الموافقة المدير العام، ما لي حاجة لأن أبذل ماء وجهي لغيره، هذه أشياء بسيطة جداً.

2 – راحة القلب وخلوه من الحقد:

لذلك إذا آمن بأنه لا إله إلا الله سعدت بالدنيا، وارتاح قلبك، ولن يكون في قلبك حقد أبداً، أنّى لك الحِقد؟ لأنه لا يقع شيءٌ بالكون إلا بعلم الله، وبأمره، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فإذ آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوت من الحقد.

3 – النجاة من الندم:

إذا آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوت من النَدَم، يقول لك: محروقٌ قلبي ضاع البيت من يدي، لا، فما كان لك ليس لغيرك، وما كان لغيرك ليس لك.

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(سنن الترمذي: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ)

هذا الإيمان، نجوت من الحقد، نجوت من النَدَم.

4 – النجاة من الحسد:

نجوت من الحَسَد، الله سبحانه وتعالى هو الحكيم..

قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب ؟

أسأت على اللـه في فعله إذ لـم ترض لـي مـا وهب

***

الحسود لا يرى حكمة الله عزّ وجل، لا يرى علم الله، لا يرى عدالته، فإذا آمنت بأنه لا إله إلا الله نجوتَ من الحسد، نجوت من الحِقد، نجوت من الندم.

5 – النجاة من التبعثر والشتات:

نجوت من التبَعْثر، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفِكَ الوجوه كلها، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

لك وجهة واحدة، مُجَمّع، العدسة ضعها في أشعة الشمس، وضع تحتها ورقةً في محرقها تحترق الورقة، لماذا ؟ لأن هذه الأشعة كلها مجمعةٌ في نقطة واحدة، تفعل شيئاً عظيماً، أما إذا كانت هذه الأشعة مبعثرةً فلا تحرق شيئاً، فالمؤمن مجتمعٌ، وليس متفرقاً.

((مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

(من سنن ابن ماجة عن عثمان بن عفان)

هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والموحد لا يرى مع الله أحداً، نفسه ملتفتة ضارعة إلى الله عزّ وجل:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الإيمان قول واعتقاد وسلوك:

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة))

ما أروع كلامه، قال:

((بحقها))

لأنه من يقول: لا إله الله بغير حقها ألوفٌ مؤلّفة، ألوف الملايين، ألف مليون مسلم الآن هل يقولونها بحقها ؟

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

دائماً الإنسان الموفق في حياته والنبيه لا يعيش في الأوهام، إيمانك له حجم، هذا الحجم قد يكون كافياً أو غير كافٍ، فإذا لم يحملك إيمانك على طاعة الله عزّ وجل بقي فكرة، معلومات، ثقافة، عواطف، وظلّ السلوك غير مستقيم، لديك انحرافات، ومخالفات، ومعاصٍ، إذا لم يحملك إيمانك على طاعة الله عزّ وجل فإيمانك يحتاج إلى تجديد، فيه خلل، فيه نقص، امتحنْ إيمانك، دقق في معاملاتك، في بيتك، في علاقاتك الاجتماعية، في بيعك في شرائك، في عطائك وفي منعك، في نُزهاتك، وسفرك، وحلك وترحالك، هل هناك مخالفات ؟ إذا كان هناك مخالفات فحجم إيمانك غير كافٍ، إلى أن يحملك على طاعة الله، هذا هو الحد الأدنى، هذا هو الحد الأدنى من الإيمان الذي يحملك على طاعة الله عزّ وجل.

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً)

الأوثان المادية والمعنوية:

1 – الأوثان المادية:

أي أصناما، إما أنها أصنام مادية كهبل واللات، ونسر، ويعوق والعُزّى.

2 – الأوثان المعنوية:

وإما أصنام معنوية.

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان: من آية " 43 ")

الهوى قد يكون إلها، قد تجد من يقول: أنا هوايتي كذا، هوايتك كذا فهي إله من دون الله، تُضَيِّعَ من أجلها الصلاة والعمل الصالح، فإما أن تتخذ نفسك هواك وإلهك، وإما أن تتخذ الآخرين آلهةً من دون أن تقول: أنتم آلهة، هذا الشرك الخفي، والشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على العدل.

لك صديق عنده خلل في سلوكه، عنده تقصير شديد، تحبه حُبّاً جماً، محبتك لهذا الصديق الذي ليس مستقيماً محبةٌ مشبوهة، فيها شرك خفي، وإذا قدمت لك نصيحة، وأخذتك العزة أن تقبلها، فهذا أيضاً شرك خفي، إذاً فالأوثان أنواع، أوثان من أحجار، وأوثان من لحم ودم، وأوثان من شهوات، هذا قول النبي الكريم:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ، فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد]

فالشهوات إذا سيّرتها في القنوات الشرعية النظيفة هذه ليست شركاً، الإنسان تزوج، هذه الشهوة سيرها أو صبّها في القناة الشرعية، كسب المال الحلال، أما الشهوة الخفية التي عناها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث فهي التي تحملك على معصية الله، أو تحجبك عن طاعته، أو تبعدك عنه، لذلك: لا حقيقة في الكون إلا الله، أي شيءٍ قرَّبَكَ إليه فهو عمل صالح، وأيّ شيءٍ أبعدك عنه فهو عمل سيّئ.

(إنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً)

مِن حجر، وهذه قبيلة (ود) صنعت إلهاً من تمر، فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودٌ ربَّها، قبيلةٌ أخرى نحتت إلهاً وعبدته من دون الله، فجاء إنسان ليقف أمامه خاشعاً فرأى عليه بللاً، فإذا هو بول، فقال:

أربٌ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه لقد ضل من بالت عليه الثعالب

***

(إنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا

تتحدثون عن هذه الأصنام حديثاً كأنه شيء له فعل وله عمل، ويمنح ويمنع، يعطي ويغضب ويرضى، اختلاق، افتراء، كلامٌ لا أصل له، كلامٌ فارغ ليس له أصل، أحياناً يتكلم الإنسان كلاماً ليس له معنى، وليس له أصل، لو قال لك واحد: أنا ذهبت مثلاً إلى أمريكا، وعُدت في ساعة، تقول له: أنت مجنون، هذا كلام ليس له أصل، هذا الكلام اختلاق، لأن الواقع لا يؤكِّده.

(إنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)

أيْ أنكم تحيطون هذه الأوثان بهالة من القُدْسِيّة، تفترون على الله الكذب، توهمون الناس أنها مقدسة، هكذا.

(إنّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

الرزق والتدبير بيد الله وحده:

إن أيّة جهةٍ في الأرض مهما قويَت فهي بيد الله وقبضته:

(حَتّى إِذَا أَخَذَتْ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

إذْ يتوهّم أحياناً بعضُ الكُبراء أن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً..

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

هل في الأرض كلها جهةٌ مهما قويت، مهما علا شأنها، مهما ادعت فهل تستطع أن تُصدر قراراً بإنزال المطر ؟ في إفريقيا، بعض الأماكن بإفريقيا حبست عنها أمطار السماء سبع سنوات، عندي

صور لهذه المناطق، الأبقار والأغنام مُلْقاة جلدا فوق عظم، واضطر أهلها أن يهاجروا من هذه البلاد، ماذا نفعل لو أن الله عزّ وجل حبس عنا الأمطار ؟

المستحق للعبادة هو الخالق الرازق المالك لكل شيء:

هذه الأنهار كلها جافة الآن، نرجو الله عزّ وجل أن يغيثنا بسقيا رحمة، فمن الذي يستحق العبادة ؟ الذي يملك أن ينزل الأمطار، والذي يملك أن ينبت النبات، نأكل طعاما وشراباً وخبزاً، ولحماً وحليباً وجبنا، وفواكه وخضراوات، هذه من يخلقها ؟ يجب أن تعبد الذي خلقك، والذي يرزقك، والذي إليه المصير.

الإمام الشافعي يرى عند قراءة الفاتحة أن تقرأ في الركعة الثانية مَلِكِ يوم، وفي الركعة الأولى مَالِك يوم الدين، فمَن هو المالك ؟ قالوا: المالك هو الذي يملك ولا يحكم، والمَلِك هو الذي يحكم ولا يملك، ولكن الله عزّ وجل مالكٌ ومَلِك، أيْ أنه يملك كل شيء، ما معنى أن الله يملك ؟ أي يملك ويتصرّف وإليه المصير، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، قد تسكن بيتاً ليس ملكاً لك، ولكنك منتفعٌ به، وقد تمتلك بيتاً، ولست منتفعاً به، وقد تمتلك بيتاً وتنتفع به، ولكن مصيره ليس لك.

يجب أن تعبد الذي خلقك، وأن تعبد الذي يملك لك الرزق، هذا الهواء الله عزّ وجل زود الغلاف الجوي بطبقة أوزون تمنع الأشعة القاتلة، في بعض الأماكن صارت خلخلة في هذه الطبقة، لأسباب كثيرة.

قرأت مقالة أن عدداً كبيراً جداً من الأشخاص أصيبوا بسرطان الجلد، لخلخلة هذه المادة، لو أن الله عزّ وجل بقدرته أزال هذه المادة، ماذا نفعل ؟ لو أنه حبس عنا الأمطار، ماذا نفعل ؟ لو أن نِسَبَ الهواء تغيّرت أصبح الهواء غير كافٍ، لحدث للإنسان ضيق نَفَس، لو أن هذا النبات لم ينبت ماذا نفعل ؟ نعبد من إذاً ؟ نعبد الذي خلقنا والذي أمدنا بالرزق، بالهواء، بالماء، بالخبز، بالطعام، بالشراب، إذاً:

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

الترغيب في سؤال الله والترهيب من سؤال الناس من غير ضرورة:

لذلك فالإنسان يطلب من الله رزقاً..

((من جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

[الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

((أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

(صحيح البخاري عن الزبير بن العوام)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَفْتَحُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ))

[أحمد]

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

((ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن بسر بسند ضعيف]

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ))

[الترمذي، أحمد]

((شرف المؤمن قيامُهُ بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

أحياناً يسدُّ ربنا عزّ وجل أمامك كل الأبواب من أجل أن تلجأ إليه، من أجل أن تخاطبه، أن تدعوه، من أجل أن يسمع صوتك.

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

كن عن همومك معرضاً وكِلِ الأمور إلى القضا

و ابشر بخيرٍ عاجـلٍ تنس بـه ما قد مضى

فلربّ أمرٍ مســخطٍ لك في عواقبه رضـا

و لربما ضاق المضيق ولربما اتسـع الفضا

الله يفعل ما يشــاء فـلا تكوننّ معترضا

اللـه عودك الجميل فقس على ما قد مضى

****

هذه الأبيات تعقيبٌ على كلمة:

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

صلّ قيام الليل، واسجد وقل: يا رب، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً بعزة النفس، فهو ربُّ الجميع..

ملك الملوك إذا وهيب لا تسـألنّ عن السببالله

يعطي من يشـاء فقف على حـد الأدب

***

اجعل لربك كل عزك يستقـر ويـثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنيّ آدم إن سألته قد يغضب

***

الله عزّ وجل يغضب إن تركت سؤاله.

((إن الله يحب المُلحين في الدعاء))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند موضوع]

((من لا يدعُني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف]

((إن الله يحب من عبده أن يسأله شِسْع نعله إذا انقطع))

[الترمذي عن أنس]

كن مع الله لحوحاً، اسأله، قف ببابه.

(مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ)

أطعْهُ فقد أنْعَمَ عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، وسخر لك ما في الكون جميعاً، منحك نعمة العقل، فطرك فطرةً عالية، أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، أعطاك حُرية الاختيار، ألا ينبغي أن تشكره ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

الرجوع إلى الله فتهيأ لذلك اليوم:

أين كنت في عام ألف وتسعمئة مثلاً، أين كنت ؟

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

فما دام الرجوع إلى الله عزّ وجل، قال العلماء: حينما يوضع الميت في القبر فلأول لحظةٍ يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

فإذا كنت بطلاً ؛ فهذا الذي سوف تكون معه إلى الأبد ولا أحد معك إلا هو، فيجب عليك أن تطيعه، يجب أن تُرضيه، يجب أن تحبّه، فإذا كان مثلاً موظفٌ في دائرة، وشعر أن المدير العام سينتقل تجده يسأل: من الذي سيأتي بعده ؟ يتقصى، يقول: قبل أن يداوم عندنا، نقدّم له هدية، نكرمه، الإنسان بمنطق الدنيا يخاف أن يأتي شخص لا يعرفه، قد تكون مشكلته معه صعبة، أما الله عزّ وجل فإنه يبذل عطاءه أمامك، هذا الكون تعرّف إليه من خلاله، وهذا الشرع طبّقْه، وهذه الأعمال الصالحة افعلها في سبيله..

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

أصلٌ مِن أصول النبوة: وَعَلَى الرّسُولِ إلاّ البلاَغُ المُبينُ

النبي عليه الصلاة والسلام يبيّن، وتنتهي مُهمّته عند حدود.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

إذاً:

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا)

حكمة اقتران الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر:

لماذا هؤلاء لا يعبدون الله عزّ وجل ؟ لماذا لا يتّقوه ؟ لماذا يعصونه ؟ لأنهم ما آمنوا بهذه الساعة ساعة اللقاء، ما آمنوا باليوم الآخر، فربنا عزّ وجل في أكثر آيات الإيمان يذكر الإيمان باليوم الآخر مُقْتَرِنَاً بالإيمان بالله، لأنك لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بوجود الله، وأيقنت بعلمه،و أيقنت باليوم الآخر، وأيقنت بالحساب، لو ألغينا اليوم الآخر فلا أحد يستقيم إلا إذا آمن باليوم الآخر، الله موجود، لكن لن يستقيم أحد، الله عزّ وجل أودع في هذه النفوس الشهوات، وأعطاها قوى في الظاهر، هذه القوى مع

هذه الشهوات تندفع نحو مصالحها، ما الذي يُلجمها ؟ الخوف من الله، خوف الحساب، سيدنا النبي اللهم صلِّ عليه أرسل خادماً في حاجة، تأخر كثيراً، كان بيده سواك، فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لولا خشية القِصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[ورد في الأثر]

ما الذي يلجم المؤمن ؟ الإيمان قيد الفتك، هذه المعرفة بالله عزّ وجل، اليقين بوقوفٍ بين يدي الله عزّ وجل، لو أن الناس خافوا من الله عزّ وجل انتهت كل مشاكلهم، هذا الذي يعتدي، هذا الذي يأخذ ما ليس له، لماذا ؟ لضعفٍ بإيمانه، لو أيقن يقيناً قطعياً أنه سيدفع الثمن باهظاً، وأنه لن يتفلّت من عقاب الله عزّ وجل لارتدع ولاستقام.

يروون أن أحداً كان يطوف حول الكعبة ويقول: **" رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل "**، وكان وراءه رجل، قال له: **"يا هذا، ما أشد يأسك من رحمة الله "**، قال له: **" ذنبي عظيم "**، قال له: **ما ذنبك ؟ فذكر له أنه دخل إلى بيت فرأى فيه رجلاً فقتله، وامرأةً فسألها أن تعطيه كل ما تملك، أعطته دنانير ذهبية، فقتل ولدها الأول، فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَةً، أعجبته، فالدرع من الذهب، فإذا عليها بيتان من الشعر، قرأهما فأُغمي عليه:**

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسـرف في القضاء

فويـلٌ ثم ويـلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض مـن قاضي السـماء

***

إذاً: الإنسان العاقل تجده يخاف من الله عزّ وجل، الله عنده أمراض وبيلة، وأمراض عُضالة، وعنده أمراض ماحقة، سبحان الله فذنوبٌ كثيرة يؤَخِّرها الله إلى الدار الآخرة إلا ذنب الكِبْر وذنب الظلم، هذان الذنبان من خلال تتبع الحوادث فالله سبحانه وتعالى يُعَجِّل عقابهما، فالإنسان كلما نما عقله نمت معرفته وازداد خوفه، الطبيب يحرص على تنظيف الفواكه والخضار حرصاً شديداً، لماذا ؟ نما علمه، مما يعاني كل يوم هؤلاء المرضى من: جراثيم، أوبئةٍ، حالات إسهال، كله من تلوث الخضار والفواكه، فكلما نما علمه ازداد حرصه، وإذا كان للطاعة مؤشر فهذا المؤشر يتوافق مع مؤشر المعرفة، كلما ازدادت معرفتك ازدادت طاعتك.

مرة دخلت بناء ضخما، فوجدت صاحب البناء في حالة همّ شديد، قلت: ما القصة ؟ قال: تعالَ انظر: بناء قائم، وانظر إلى هذا الشق في هذا الجسر، والله كان شقا واضحا، ولكن سمكه بقدر اثنين من المليمترات، وقال جاء دكتور مهندس قال له: البناء في خطر، لا بدّ من تدعيم الأساس، قلت: لو جاء بدهّان لقال له: يحتاج إلى معجون، فبين أن تملأ هذا الشق بالجبصين، وبين أن تدعم الأساس مسافة كبيرة جداً، بقدر ما بين العلم والجهل.

فكلما ارتقى علمك ازداد خوفك، والذي يقول لك: أنا لا أخاف من الله، قل له: نعم قولك حق، لأنك لا تدرك شيئاً، كلما ضعف العقل ضاق الأفق، وعمّ الجهل، ورافقه تفلّت.

أقسام البشر:

البشر نوعان ؛ موصولٌ منضبطٌ محسن، ومقطوع متفلت مسيء، ولا ثالث لهما، ما دمت عارفاً بالله عزّ وجل، عارفاً لعدالته، عارفاً لحكمته، عارفاً للقاء معه يوم القيامة فإنك تستقيم على أمره، وتخدم خلقه، وتحسن إليهم، فإذا كان هناك جهلٌ فالإنسان يتفلّت، إذاً كل هذه المعاصي، وهذا التفلت، وهذا الشرك، واتباع الشهوات سببها عدم اليقين بالدار الآخرة، لهذا يقول الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

أدلة اليوم الآخر: عقلي ونقلي:

فاليوم الآخر له دليلان، دليل عقلي ودليل نقلي:

1 – الدليل النقلي:

النقلي ما جاء به القرآن الكريم، هذا هو الدليل النقلي.

2 – الدليل العقلي:

لكنّ الدليل العقلي هو أنّ خالق الكون من خلال الكون تعلم أنه خالقٌ عظيم، أسماؤه حسنى، صفاته فضلى، لا يعقل أن يَدَعَ عباده هكذا من دون حسابٍ أو عقابٍ أو جزاء، لأن هذا يتنافى مع عدالته ومع كماله، فهناك غني، وفقير، وهناك قوي، وضعيف، وهناك حاكم ومحكوم، ومريض وصحيح، فلا بدّ من أن يقف الناس جميعاً لربِّ العالمين، ويعطى كل إنسانٍ ما يستحق.

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

فالله عزّ وجل قرّب هذا من أذهاننا، الشيء إذا صنعته أول مرة ففي ذلك جهد كبير، المرة الثانية أهون، والثالثة أهون، ولله المثل الأعلى، الله ليس كذلك، كن فيكون، علمه قديم، لكن نحن بني البشر إذا أردنا أن نعيد صناعة الشيء مراتٍ ومرات لا بدّ من أن نستسهله، فربنا عزّ وجل يدعونا إلى التفكّر في أصل الكون، أليس الله قد خلقه ؟ إذاً لا يصعب عليه أن يعيد بناءه مرةً ثانية..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21))

العذاب دائماً خلاف السرور والرحمة، ربنا عزّ وجل وصف الجنّة بأنها رحمة..

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة الإنسان)

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (07-16): تفسير الآيات 19 - 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-11-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

أَوَ لَمْ يَرَوْا

حيثما وردت كلمة:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا)

و: أَلَمْ تَرَوْا)

فهي تفيد أنّ الشيء الذي سيأتي بعدها آيةٌ ظاهرةٌ، بيّنةٌ، دالّةٌ على عظمة الله عزّ وجل..

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)

(سورة ق)

الآيات التي بثّها الله في الكون آياتٌ ظاهرةٌ، بيّنَةٌ، واضحةٌ، كلُّها دالّةٌ على عظمة الله عزّ وجل.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ يدلُّ على أنه واحدُ

***

أهداف بث الآيات في الكون:

ننتقل إلى معنى دقيق جداً، هو أن كل شيءٍ بثّه الله في الأرض من آيات له هدفان كبيران:

الهدف الأول:

أن تتعرّف إلى الله من خلاله، وهذا الهدف يتصل بالآخرة.

الهدف الأول:

أن تنتفع به في الدنيا وأن تشكر الله عليه.

موقف المؤمن من آيات الله:

إذاً: أنت دائماً مع خلق الله عزّ وجل، ويجب أن يكون لك موقفان.

الموقف الأول: موقف الإيمان:

الموقف الثاني: موقف الشكر:

موقف الشكر.الإيمان والشُكر.

خلق السموات والأرض له وظيفتان: تعريف وإكرام:

لأن كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل له وظيفتان، أداة للتعريف وأداة للإكرام، الله عزّ وجل عرّفك بذاته من خلال هذا الكون، وأكرمك بهذا الكون، فكأن الكون قد سُخِّر لك مَرّتين، سُخِّر لك تسخير تعريف، وسُخِّر لك تسخير تكريم، فأنت مطلوبٌ كي تؤمن به، وأنت مستهدفٌ كي تَشْكُرَهُ، مِن هنا قال الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سور النساء)

أيْ أنّكم إذا آمنتم وشكرتم حقّقتم الهدف الذي من أجله خُلِقْتم، يجب أن تؤمن ويجب أن تشكر، فلو أن إنساناً قدّم لك جهازَ هاتفٍ من مستوى رفيع جداً، وقال لك: هذا أنا صمّمته، وهو لك مني هديّة، فماذا يكون ردُّ فعلك ؟ إنّك تتأمّل هذا الجهاز، ترى دقّة هذا الجهاز، ترى خدمات هذا الجهاز، ترى شكل هذا الجهاز الأنيق، ترى جُزَيْئِيّاتِه الدقيقة، ترى عمله المنتَظَم، ترى حساسيّته البالغة، ترى بعض الأشياء الآليّة فيه، فأنت كلّما تأمّلت هذا الجهاز ازددت إكباراً، واحتراماً، وتبجيلاً لهذا الذي صنعه، وما دام قد قُدِمَ لك هديّة من قِبَلِه فينشأ معك شعور آخر، وهو شعور الشكر، فأنت ما دمت تعرف الله عزّ وجل وتشكره فأنت على الصراط الصحيح، أنت في الموقع الصحيح، أنت في الهدف الصحيح، فعندما سأل سيدنا موسى ربّه فقال:

" يا رب، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أحبّه بحبّك ؟ قال: يا موسى أحبُّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يأتي إلى أحدٍ بسوء، أحِبّني وأحِبّ من أحبّني وحبّبني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبُك وأحبُّ من يحبُك فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال: ذكِّرهم بآلائي ونَعمائي وبلائي ".

هذا الكلام يُستنبط منه أنه لابدّ من أن يكون في قلب المؤمن شعور المحبّة لله عزّ وجل، وشعور الخوف منه، وشعور التعظيم له، تعظيمٌ وخوفٌ ومحبّة، الآيات الكونيّة من أجل أن تُعَظِّمَهُ، والمصائب والبلايا من أجل أن تخافه، والنِعَمُ الكثيرة من أجل أن تحبّه، إذاً تعظيمٌ وحبٌ وخوف، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

كأن الله يدعوك إلى أن ترى، هل رأيت ؟ فالحياة تستهلك كل الناس، أنت مستهلك من قِبَلِ أهلك، وأولادك، وعملك، وتجارتك، وصناعتك، ووظيفتك، أم إنّك لك وقفات مع الله عزّ وجل ؟ ربنا قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ)

هل تأمّلت مرّةً ؟ هل فكّرت مرّةً ؟ هل دَقّقت ؟ إذا شربت كأس الماء ما ردُّ الفعل عندك ؟ البحر ملحٌ أُجاج من جعله عذباً فُراتاً ؟ إذا تناولت رغيف الخبز، هذا القمح مَن صمّمه لك ؟ إذا تناولت الحليب واللبن ومشتقّات الحليب..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

(سورة النحل: من آية " 5 ")

ردّ الفعل ؟ لابدّ مِن رَدّيْ فعل، الفعل هو خلق السماوات والأرض ولاً، وتسخير هذا الكون لك ثانياً، فردُّ الفعل العِرفان والشُكْرَان، الإيمان والشكر، لذلك لا تنجو من تأديب الله ولا من معالجته إلا إذا عرفته وشكرته..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سور النساء)

هذه الآية يُسْتَنْبَط منها أنك إذا كنت في ضيق، إذا كانت الأمور على غير ما تريد، إذا ظهرت عقباتٌ في حياتك، إذا كنت منقبض القلب، إذا كانت الأمور مُعَسَّرة فارجع إلى هذه الآية..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

معنى هذا أن هناك خللاً في الإيمان أو في الشكر، ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سور الأنعام)

لو أنّك آمنتَ وظلمتَ، لو أنك آمنت ولم تشكر، لو أنك شكرت ولم تؤمن، فمن أجل أن تنجو من تأديب الله، من عقوبة الله، من معالجة الله، من تربية الله، من أجل أن تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة يجب أن تؤمن وأن تشكر، يجب أن تعرف الله، وأن تعرف نِعَمَهُ، يجب أن تعرف المُنْعِمَ والنِعمة، هكذا.

وجوب النظر والتأمل والتفكر في الكون:

إذاً حيثما قال الله لك:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

يجب أن ترى، يجب أن تجلس كي تتأمّل، يجب أن تستمع، إما أن تأخذ العلم خالصاً، وهذا لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع، إما أن تطبخ هذا الطعام، وإما أن تأكله جاهزاً، إذا جئت إلى مجلس علم تناولت هذا الطعام الإلهي جاهزاً، أجل إنه الغذاء الإلهي، وإذا جلست كي تتأمّل ربّما هداك تأمُّلك إلى شيءٍ من هذه الحقائق.

إذاً إما أن تتلقّى، وإما أن تتأمّل، على كلٍ لابدّ من نشاطٍ تَعَرُّفيّ، ما دام الله عزّ وجل قد خلق فيك القوّة الإدراكيّة والتي ميّزك الله بها عن كل المخلوقات، إذاً: لابدّ من أن تبذل نشاطاً في معرفة الله عزّ وجل وفي شكره..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

دعوة إلهية إلى التفكر: أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُه

1 – التفكر في النفس المخلوقة:

قد يقول قائل: أنا ما شاهدت كيف خُلِقت ؟ لكن الله عزّ وجل جعل نظام البَشَر على أساس التوالد، فإذا كنت غائباً عن نشأتك هذه نشأة ابنك أمامك، تعلم علم اليقين أن هذا الابن الذي أمامك، الذي يلعب، الذي يضحك، الذي يتثاءب، الذي يتكلّم، الذي يبتسم، الذي يأكل، له فم، له لسان، له لسان مزمار، له مَريء، له معدة، له أمعاء، له كبد، له صفراء، له بنكرياس، أمعاء دقيقة، أمعاء غليظة، زُغابات ماصّة، أوردة، شرايين،قلب، رئتان، كبد، له كليتان، كظران، رُغامى، له قصبتان، قلب، دماغ، مخ، مخيخ، له بصلة سيسائيّة، نخاع شوكي، فقرات ظهريّة، له عظام بعضها ثابت وبعضها متحرّك، عضلات، شعر، أظافر، له قِوام، وله نَفْس.

هذا الذي أمامك يلعب في البيت ؛ كان كما تعلم حُويناً منويّاً لا يُرى بالعين، ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الواحد، تختار البويضة حويناً واحداً، إذاً إذا قلت: أنا لا أعرف كيف خُلِقت فهذا ابنك أمامك، ما أحد يعرف أكثر منك، أن هذا الابن الذي أمامك كان حويناً، وكان بُويضة، ولَقِحَت هذه البويضة،

وتكاثرت ونَمَتْ، والتصقت بجدار الرحم، وجاءها الغذاء إلى أن أصبحت كائناً كاملاً في تسعة أشهر، ثم خرجت إلى الدنيا، وبدأت تنمو، إذاً:

(أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

2 – التفكر في البذرة المخلوقة:

البذرة التي تزرعها لها غلاف، ولها مخزون من النشويات، ولها رشيم كائن حي، أخرجوا من الأهرام قمحاً زُرِعْ فنبت، معنى هذا أن الرُشيم بقي حيّاً ستّة آلاف عام، في حبة القمح رُشَيْم حي، إذا جاءته الرطوبة، وجاءه الغذاء، وجاءه الضوء ينمو سويقاً وجذيراً، هذا الرشيم يصبح شجرة، يصبح نبتة، يصبح شَجَراً له صفات لا يعلمها إلا الله..

(أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

دقق النظر في ظاهرة النبات هذه، فهي وحدها ظاهرةٌ كافيةٌ كي تسجد لله ؛ سجود الطائعين، سجود الخائفين، سجود الموقنين، فلك أن ترى عملية نمو النبات لنعلم كيف يُبدئ الله خلقه.

3 – التفكر في الحيوان المخلوق:

لك أن ترى الحيوان كيف يُبدئ الله خلقه، هذه البيضة التي أمامك تأكلها وتقول: أكلت اليوم بيضاً، هذه البيضة لو بقيت تحت أمِّها لأصبحت حيواناً كاملاً فيه عضلات، فيه رئتان، فيه قلب، فيه أوعية، فيه دم، فيه شرايين، فرخ (صوص)، حيوان كامل، إذاً مَن حوّل هذا السائل الأصفر والأبيض إلى كائن يتحرّك، ويزقزق، ويلوذ بأمِّه، ويكبر وينمو، تأكل منه لحماً، وتأكل منه طعاماً لذيذاً ؟

البيض أمامك، والحليب أمامك، وخلق الإنسان أمامك، الله عزّ وجل لم يبعدك عن وسائل الإيضاح، بل جعلها متوافرةً أمامك، بثّها في كل مكان، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(20))

(سور الذاريات)

آياتٌ كثيرةٌ دالّةٌ على عظمته.

إذاً:

(أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ)

الحكمة من استعمال فعل الرؤية لمن لم ير:

سألني سائل فقال: كيف يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سور الفيل)

قد يقول قائل: واللهِ أنا ما رأيت ماذا حصل، ما كنت وقتها، هذا خبر تاريخي، ويقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ)

الجواب: أن إخبار الله عزّ وجل من اليقين بحيث يُشابه الرؤية، أيْ إذا قال الله عزّ وجل في كتابه:

(أَلَمْ تَرَ)

يجب أن ترى، أن هذا الخبر الذي ذكره الله لنا في القرآن الكريم، لأن الله هو القائل، إذاً كأنه وقع على مرأى منك، كأنه وقع أمامك لشدّة الصدق، إذاً ما دام الله عزّ وجل يقول:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

إذاً يجب أن نرى، لهذا فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أُمِرْتُ أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[مشكاة المصابيح للتبريزي عن أبي هريرة]

أما قوله تعالى:

(كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ)

معنى: يُبْدِئُ

قال بعض علماء التفسير: **" إما من الإبداء أو من الابتداء "** وكلاهما صحيح، واللهُ عزّ وجل يُظهر لك قدرته وعظمته من معرفة خلقك، فأنت لا تعرف ماذا في أحشائك، فيها كبد، وصفراء، ومعدة، وأمعاء، وعضلات، وطبقة شحميّة، وقصبة هوائية، ومَريء له حلقات، وحنجرة، ولسان مزمار، ولسان، وغدد لُعاب، وعضلات وجه.

في الإنسان أشياء مُعَقّدة، والله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل من أنواع الغذاء اللحم، وجعل هذا الحيوان الذي ذلّله لنا نرى من خلال تشريحه الداخلي، أن أعضاءه مشابهة تماماً لأعضاء الإنسان، فإذا أردت أن تشتري اللحم ترى الكبد والكليتين، وترى القصبة والرئتين، ترى القلب، ترى العضلات، ترى العمود الفقري، ترى العظام، ترى المفاصل، هذا كلّه تراه عند بائعي اللحم، إذاً الله عزّ وجل أعطاك دروساً، فإذا كان الإنسان مكرّماً عند الله عزّ وجل بحيث لا يُفْتَح بطنه ليتعلّم به وهو حي، وهناك

مخلوق سخّرها الله لنا كي نأكلها، وجعل أعضاءها مشابهة تماماً لأعضاء الإنسان، فتعرف على جزيئات أجسامنا من خلالها.

من آيات الله في الإنسان: الكبد:

الكبد في بعض النظريات الحديثة له خمسة آلاف وظيفة، أيْ أن له دوراً خطيراً جداً، فإذا تَعَطّلَ كبد الإنسان لا يستطيع أن يعيش أكثر مِن ثلاث ساعات، مخبر مركزي، الكبد بإمكانه أن يحوّل المواد الشحميّة الدهنيّة إلى مواد سكريّة، وبإمكانه أن يحوّل المواد السكريّة إلى شحميّة.

ليس عندنا في الحياة مستودع فيه خشب وفيه حديد، فإذا لزمنا حديد أكثر من الخشب نحول الخشب إلى حديد، هذا فوق طاقة البشر، هذا ما يفعله الكبد.

الكبد يفرز هرمون التجلُّط، وهرمون التمييع، ومن إفراز هذين الهرمونين بشكلٍ دقيقٍ يكون الدم بهذا القِوام المناسب، قال العلماء: لو أفرز الكبد هرمون التجلُّط زيادة عن حدِّه الدقيق لأصبح الدم وَحَلاً في الأوعية، ولو أفرز الكبد هرمون التميُّع زيادة عن حدِّه لسال دم الإنسان كلِّه من رُعاف واحد، وانتهى الأمر.

أتحســب أنك جِرْمٌ صغير   وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

***

هذا معنى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ)

خلقُ الإنسان بين يديك، وخلقُ الحيوان بين يديك، وخلقُ النبات بين يديك، وإذا قرأت عن ظهور مجرّاتٍ جديدة، وعن اختفاء مجرّات، وعن اتساع بعض المجرّات، وعن انكماش بعض المجرّات، وعن الثقوب السوداء في الفضاء الخارجي، فإذا أردت أن تَطّلع تماماً هناك بدءٌ للخلق ثم إعادة في الفَلَك..

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

إثبات البعث: إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ

هذا هو الدليل النقلي والعقلي على الدار الآخرة، ما دام الله عزّ وجل قد خلقنا مِن لا شيء، مِن العَدَم فَلأنَ يعيد خَلَقنا من باب أوْلى، فلأن يعيد خلقنا شيءٌ عليه يسير، لكن كلمة..

(إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

هذا تقريبٌ لنا، كيف ؟ الإنسان بحسب حياته إذا كان الشيء موثّقًا باكتتابه فهو أقوى، يقول له: كتبتُ عَقْداً ؟ قد يكون هناك بيعٌ تمّ شفهياً، بعتُك واشتريتَ، أما إذا كان هناك عقد يشعر الإنسان أن العقد أمتن، وأقوى، وأثبت، فربنا عزّ وجل كي نفهم نحن رحمته قال:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام: من آية " 54 ")

ربنا عزّ وجل جاء بألفاظ الكتابة مع أن قوله كتابة، لكن تقريباً لأذهاننا قال:

(كَتَبَ)

كذلك هنا تقريباً لأذهاننا قال:

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

مع أن فعل الله عزّ وجل: كن فيكون، زُلْ فيزول، لكن تقريباً لأذهاننا، ونحن إذا صنعنا شيئاً، وأردنا أن نعيد صنعته نشعر باليسر في المرّة الثانية، كلّما تكرّر العمل شعرنا باليُسْر، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

منزلة الإيمان باليوم الآخر:

لذلك الإيمان باليوم الآخر شيءٌ دقيقٌ جداً وخطيرٌ جداً، ولو أن الإنسان آمن بالله فقط ولم يؤمن بالدار الآخرة فلن يستقيم على أمر الله، أحد أسباب الاستقامة التامّة على أمر الله أن تؤمن أن هناك حياةً أبديّةً وفيها حسابٌ دقيق، أن تؤمن أن الله عزّ وجل وزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزّعها ثانيةً في الآخرة توزيعَ جزاء، من هنا تنتقل اهتماماتُك، تنتقل طاقاتك، تنتقل أعمالك لتُرْضِيَ بها ربّك كي تسعد بقربه في الدار الآخرة..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ

كلمة في الأرض أيضاً فيها إشارةٌ دقيقة، يا ترى لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: قل سيروا على الأرض ؟ لِمَ قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

مع أن الإنسان يسير على الأرض ؟ قال: هذه إشارة إلى أن الغلاف الهوائي جزء من الأرض، ومربوطٌ بالأرض، والدليل لو أن الغلاف الهوائي لا علاقة له بالأرض لنشأت تيّارات من العواصف والأعاصير

سُرعتها تزيد على ألف وستمئة كيلو في الساعة، وكلكم يعلم أن الهواء إذا زادت سرعته عن مئة كيلو متر يصبحُ مُدَمِّراً، فأشدُّ أنواع الأعاصير عتواً التي تدمِّر كل شيء ولا تبقي شيئاً، في بعض البلاد تأتي الأعاصير فتنسف المدينة بأكملها، لا يبقى حجرٌ على حجر، ولا شجرٌ، ولا معملٌ، ولا نباتٌ ولا شيء، هذه الأعاصير العاتية سرعتها ثمانمئة كيلو متر، لو أن الهواء مُسْتَقِلٌ عن الأرض.. والأرض تدور والهواء ثابت لنشأت أعاصير سرعتها ألف وستمئة كيلو في الساعة فدَمَّرت كل شيء، لهذا يُعَدُّ الهواء متمِّماً للأرض، جزءً من الأرض، والهواء مرتبط بالأرض بفعل الجاذبيّة، إذاً:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللَّهُ يُنْشِئُ النّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

يا أيها الناس أدخِلوا اليومَ الآخرَ في حساباتكم:

استنباطاً من هاتين الآيتين كلّما تحرّك المؤمن حركةً يتصوّر أنه واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل في النشأةِ الآخرة، في إعادة الخلق، ويسأله الله عزّ وجل: لماذا فعلتَ كذا ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا منعت ؟ لماذا سَخِرْتَ ؟ لماذا اغتبت ؟ لماذا جَرّحت ؟ لماذا ظلمت ؟ لماذا أخذت ؟ لماذا اغتصبت ؟ إذا أدخلْتَ اليوم الآخر في حساباتك اليوميّة في كسب المال، في إنفاق المال، في صنعتك، في وظيفتك، في طِبِّك، في هندستك، في تدريسك، في علاقتك بأهلك، إذا أدخلت اليوم الآخر، وهذا الموقف العصيب الذي نقفه، ونحن بين يدي الله عزّ وجل، عندئذٍ تستقيم على أمر الله، لذلك بعض الناس أو معظم الناس يتحرّكون في دُنياهم، ولا يُدخِلون اليوم الآخر في حساباتهم، لا يُدخِلون مستقبلهم البعيد، يقول لك: أنا حينما أكبَر أحتاج إلى دخل كبير، أنا حينما أكبر أحتاج إلى عمل بعد الوظيفة، فدائماً تفكيره مُنْصَرِف إلى مستقبله في الدنيا، أما ما بعد الموت فهذا خارج الحساب، أما إذا آمنت بالله عزّ وجل، وآمنت باليوم الآخر تجعلُ الآخرة كل همِّك، ومنتهى علمك، ومحطّ آمالك..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)

إعمالُ الفكر عند كل حركة في الكون:

إذاً المؤمن الصادق كلّما تحرّك فهذا الفكر يعمل، يفكِّر، وإذا تأمّل خلق الله، إذا تأمّل ما حوله، مَن حوله، الظواهر الطبيعيّة، هطول الأمطار، هبوب الرياح، الرعد، البرق، قوس قُزح مثلاً، هذه الينابيع

التي تنبع، هذه البقرة التي سخّرها الله لنا وهي معمل صامت، هذه الأشجار: هذه لأخشابها، وهذه بظلِّها، وهذه بثمراتها، وهذه بأوراقها، وهذه بأزهارها، وهذا النبات حدودي، وهذا النبات دوائي، وهذا النبات جمالي، وهذا النبات غذائي، وهذا النبات للأثاث، فإذا نظر الإنسان وتأمّل، فالإنسان العاقل لا يمرُّ هكذا على الأشياء، إذا جلس ليأكل فهذه المائدة يفكّر فيما فيها مادّة مَادّة، صفيحة صفيحة، هذه مَن خلقها ؟ مَن صمّمها ؟ مَن جعلها بهذا الترتيب ؟

هذه:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنْشِئُ النّشْأَةَ الْآَخِرَةَ)

الشجر في الخريف تجد أن أوراقه اصفرّت، وأصبح خَشَباً، تظن أنه خشب يابس، يأتي الربيع فتزهر هذه الأشجار، ثمّ تورق، ثم إذا هي بهجة للناظرين، كل ذلك تم وجرى بفعل الله سبحانه وتعالى. فالحديث في هذه الآيات إذاً عن الدار الآخرة.

الآية الأولى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

والآية الثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنْشِئُ النّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

من لوازم اليوم الآخر: العذاب والرحمة:

أخطر ما في اليوم الآخر أنّه..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

" فو الذي نفس محمّدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار ".

إما في جنّةٍ يدوم نعيمُها ؛ أو في نارٍ لا ينفد عذابها، ليس هناك حالة ثالثة، الإنسان أحياناً في الدنيا يكون إما في سعادة، أو في شقاء، أو في حالة وسط بينهما، دخله قد يغطي حاجاته الأساسيّة، أما الثانويّة فلا يستطيع، فهذا في الدنيا في حالةٌ ليس فيها تألّق، وليس فيها هموم، أيْ حالة وسط، لكنّ الآخرة إما عذابٌ لا يحتمل، وإما نعيمٌ لا يوصف..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُ

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

لذلك يقولون: إنّ المؤمن إذا نظر إلى مقامه في الجنّة يقول: لم أرَ سوءاً قط، إنه ينسى كل متاعب الحياة الدنيا، كل الشدائد التي ساقها الله له، كل المتاعب، كل المصائب، كل المِحَن، كل البلايا ؛ وإذا نظر الكافر إلى مقامه في النار يقول: لم أرَ خيراً قط، من هنا قال سيدنا علي لابنه الحسن:

" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية"..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

الاختيار من موجبات الحساب والعذاب:

لماذا يُعَذِّب مَن يشاء ؟ لأنك إنسان، لأنك حملت الأمانة، لأنك قلت: أنا أهلٌ لها يا رب، الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّا عَرَضْنَا)

الله ما ألزمك بل عرض عليك عرض..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

حملها الإنسان، قال: أنا أهلٌ لها، أعطاك الله نفسك أمانة، لأنك رضيت أن تقبل هذه الأمانة، وأن تكون أميناً عليها، وأن تُزَكِّي نفسك، وأن تعرّفها بربّها، سخّر الله لك الكون إكراماً لك، أعطاك العقل، والعقل وحده هو الذي كرّمك به، قوّة إدراكيّة هائلة، أعطاك القوة فيما يبدو، القوة قوة الله عزّ وجل، أعطاك الكون، أعطاك العقل، أعطاك القوة، أعطاك الفِطرة، أعطاك حرية الاختيار، أعطاك الشهوات، أعطاك الشريعة وهي الميزان الدقيق، هذه كلُّها مقوّمات الأمانة، ولكنّك أعرضتَ ؛ فالكون ما فكّرت به، والعقل ما استخدمته، والقوة وظّفتها في الباطل، والاختيار ؛ فاخترت الشر واخترت الشهوة مثلاً، والفطرة طَمَسْتَها، والشريعة كذّبتها.

قالوا: الدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك، والمصيبة أن الدلائل التي جعلها الله عزّ وجل مذكِرةً لك فرّغوها من مضمونها، ربنا عزّ وجل قال:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

ما هو النذير ؟

1 – القرآن:

النذير هو القرآن.

2 – النبي:

والنذير النبي العَدنان.

3 – الشيب:

والنذير الشيب.

4 – سن الأربعين:

والنذير سِنُّ الأربعين .

5 – سن الستين:

والنذير سنُّ الستين .

6 – المصائب:

والنذير المصائب.

7 – موت الأقارب:

والنذير موت الأقارب.

حتَّى المصيبة التي يسوقها الله عزّ جل للإنسان كي يصحو، كي يعودَ إلى الله، كي ينتبه، كي ينعطف انعطافاً نحو الله عزّ وجل يُفَرّغها من مضمونها ويقول:

(وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاّ الدّهْرُ)

الدهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك، فالقدَر سَخِر منه، لذلك الكون ما فكّر فيه، والعقل استخدمه للإيقاع بين الناس، والفكرة طمسها، والقوة وظّفها في الشر، وحرية الاختيار جعلها لشهواته، والشهوة مارسها بدون هدى من الله عزّ وجل، مارسها بشكل عشوائي، والشريعة كَذّبها، والمصائب فرّغها من مضمونها، لذلك يأتي يوم القيامة ليدفع الثمن باهظاً..

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أما الذين كانوا:

(قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19))

(سور الذاريات)

هؤلاء:

(وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

فنحن في الآخرة بين أن نُعَذّب وبين أن نُرْحَم، الرحمة هي الجنّة.

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سور الإنسان)

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

قال بعضهم: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: وإليه ترجعون، بل قال:

(تُقْلَبُونَ)

تقلّب المقاييس يوم القيامة:

يبدو أن الإنسان عندما ينتقل للآخرة تتغيّر كل المقاييس بالنسبة له ؛ كل شيء حقّقه في الدنيا من مكاسب ينتهي، يُقَيّم بمقياس آخر، فأنت قد تكون في بلد وهذه العملة رائجة جداً، فإذا أردت أن تفتخر فتقول: عندي كذا مليون، أما لو نقلت هذا المال إلى بلد آخر، فهذا المال لا قيمة له هناك، بمقياس ذاك البلد هذه العملة غير مقبولة، مرفوضة، فالمشكلة أن الإنسان يصاب بصعق، أن كل شيء جَمَعَهُ في الدنيا، جمع الدنيا أو جُمِعَتْ له، ثم يدفنُ في القبر فيقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا، وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت))

أين مالك ؟ أين أعمالك الصالحة ؟ يا رب، أنشأت بناء، يا رب، فعلت كذا، أنشأت معملاً، حققت أكبر دخل، هذه للدنيا ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ لذلك قال سيدنا علي: **<< الغني والفقر بعد العرض على الله >>.**

إذاً:

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

إذاً: المعنى يقترب من قوله تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سور الواقعة)

مقاييس أُخرى، مقياس العمل الصالح، مقياس نفع الناس، مقياس الاستقامة على أمر الله، مقياس الشرع فقط، أما الآن فالناس لديهم مقاييس كثيرة يُقَاسون بها فيرتفعون، مقياس الجمال، مقياس الذكاء، مقياس المال، مقياس النَسَب، مقياس الوجاهة، مقياس القوّة، هذه كلها مقاييس يُقيِّم الناس بها، أما في الآخرة مقياسٌ واحد، ماذا فعلتَ مِن عملٍ خالصٍ لوجه الله؟

ففي هذا اليوم الذي ننقلب فيه إلى الله، ننقلب، كأنه يوجد انقلاب، كل شيء للدنيا يبقى في الدنيا، قد يكون أغنى الأغنياء وفي الآخرة من أفقر الفقراء، وقد يكون أسعد السعداء في الدنيا أشقى الأشقياء في الآخرة.

((ويا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند ضعيف]

وقد يكون أذكى الناس فيبدو في الآخرة من أغبى الناس، هكذا، موضوع المقاييس.

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

من معاني تقلبون إضافة إلى ترجعون أن المقاييس تختلف اختلافاً كبيراً.

الشيء الثاني:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السّماء

إنسان يستعصي ؟ يتمرّد في الدنيا ؟ ينجو من عذاب الله ؟! ينجو من حسابه، من تأديبه ؟ أين ؟ هناك قصّة أرويها دائماً، وهي رمزيّة، أن شخصاً كان عند سيدنا سليمان ورأى إنساناً عنده يحدِّق النظر إليه فقال: **"من هذا يا سليمان ؟ "** قال: **" هذا مَلَكُ الموت "**، فطار قلبه خوفاً، وقال: **" خذني إلى أطراف الدنيا "**، والرياح كانت مُسَخَّرة لسيدنا سليمان، فنقله إلى الهند، وبعد أيّام مات هناك، فالتقى

بملك الموت، وقال له: **" يا ملك الموت، لماذا فعلت هذا ؟ "**، قال: **واللهِ بينما أنا أنظر إليه، وأنا معي أمر بقبض روحه في الهند، فأقول: ما الذي جاء به إلى هنا ؟ "**، والأمر لديّ أن أقبض روحه في الهند، فكنت أنظر ليه متعجباً حائراً، قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

أحياناً يَتّجه الإنسان إلى حتفه، وهو لا يدري، يصر على أن يركب هذه الطائرة فتكون نهايته، يصر.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

قوله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

يا أيها الإنسان أنت في قبضة الله:

أي أنتم في قبضة الله، كيفما تحرّكت فأنتَ في قبضته، إنسان استيقظ صباحاً، الله عزّ وجل سمح لك أن تستيقظ، وأعطاك فرصة ليومٍ جديد، حركتك في هذا اليوم منحة من الله عزّ وجل، بأي لحظة، وربنا عزّ وجل نوّع في الموت، يجعل الموت بعد مرض عضال بعد اثنتي عشرة سنة، يقولون لك: اثنتي عشرة سنة طريح الفراش، يجعل الموت لسببٍ تافهٍ جداً من جرّاء عمليّة لوزات مات، سكتة قلبيّة فمات، سكتة دماغيّة فمات، فالموت يبدو لنا قريباً، ويبدو لبعضهم بعيداً، فمعنى ذلك أنك في قبضة الله، الذي ينهي الحياة، فإذا انتهى الأجل قبضت إليه، ولو كنت قوياً، لو كنت شديداً، لو كنت عتيداً، لو كنت صحيح الجسم..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

لا في الأرض ولا في السماء، إذا كنتم في السماء لستم بمعجزين، وإن كنتم في الأرض لستم بمعجزين، ألاَ إنّ مخلوقات الأرض لا تُعجزه في الأرض، ومخلوقات السماء لا تعجزه في السماء، كلاهما يؤيّد أن الله عزّ وجل بيده الخلق والأمر..

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

لا وليّ ولا ناصر إلا الله:

ليس من ولي يرعاكم، ويمدُّكم حتَّى تستغنوا عن رحمة الله، أو يَحْجُزُكُم عن الله، وليس من ولي يغيثكم فتستغنوا عن رحمة الله، ولا من نصير يمنعكم من عقاب الله، المعنى دقيق، الولي فيها معنى إيجابي،

ليس من جهة تمدُّكم بالخيرات حتّى تستغنوا عن فضل الله، ولا من نصير يحجزكم عن عذاب الله، لا ولي ولا نصير.

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

والحبل مُرخى، فإذا آن الأوان شدّه الله عزّ وجل، فإذا أنتم في قبضته، وقالوا: سبحان من قهر عباده بالموت..

الليل مهما طال فلا بـدّ مـن طلوع الفجر

والعمر مهما طـال فلابدّ من نزول القبر

***

والشيء الذي هنا يقال: كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، ما دام الموت نهاية كل إنسان، إذاً يجب أن تفكِّر في طاعة خالقك العظيم الذي إليه المصير..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سور الغاشية)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)

اليأس سببٌ للكفر بآيات الله واليوم الآخر:

هذا الكفر بآيات الله الكونيّة الدالّة على عظمته، الله عزّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

الآيات في جسمك، الآيات فيما حولك، الآيات فيمن حولك، الآيات في خلق السماوات والأرض، والآيات في القرآن، هذه مطلقة، آيات الله الدالّة على عظمته ؛ الآيات الكونيّة أو القرآنيّة..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

ما عَبئوا بها، ما وقفوا عندها، ما استفادوا منها، ما تأمّلوا فيها، مروا عليها مرور الكرام أي سريعاً..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ)

موضوع الآخرة خارج حساباتِهِ، يقول لك: نحن الآن نعيش في الدنيا، وهذه الدنيا هي الحياة الواقعيّة، هذا الواقع، يقول لك: أنا إنسان واقعي، للدنيا فقط، أما هذا اليوم الآخر الذي أخبرنا الله عزّ وجل عنه بأدلّةٍ عقليّةٍ ونقليّةٍ فهذا لم يعبأ به..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)

يريد الدنيا، وقد يئس من رحمة الله، من عطائه، والرحمة هنا الجنّة، لقوله تعالى:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)

فهذا النعيم المقيم، هذه الجنان التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه لم يعبأ بها، لم يهتمّ لها، لم يطلبها، لم يَرْجُهَا..

(يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فإما أن ترجو رحمة الله، وإما أن تيأس منها، والدعاء: نرجو رحمتك، ونخشى عذابك "، يجب أن ترجو الله والدار الآخرة، يجب أن تعمل للآخرة، أن تسعى للجنّة..

(وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ)

نحن في قصّة سيدنا إبراهيم، وفي سياق القصّة مرّ الحديث عن اليوم الآخر..

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

مع نبي الله إبراهيم وقد ألقي في النار:

أيْ كان من الممكن ألاّ يستطيعوا القبض عليه، عندئذٍ لا تظهر آيات الله عزّ وجل، كان من الممكن أن يقبضوا عليه، ثم يتفلّت من أيديهم، كان من الممكن أن يضرموا النار، أو أن يقتلوه قتلاً، قتلاً عادياً، كان من الممكن أن يضرموا النار فتأتي أمطار غزيرة فتغرق النار وتطفئها، ولكن شاءت حكمة الله أن يلقوا القبض عليه، وأن يجتمعوا، وأن يقرّروا أن يحرقوه في النار، وأن يأتوا بنارٍ عظيمة ويوقدوها، وأن يضعوه فيها وأن تغدو النار برداً وسلاماً على إبراهيم، لتظهر آيات الله عزّ وجل، لذلك قال أهل السُنّة والجماعة: **" عندها لا بها "**، أي أن النار لا تحرق بذاتها، والله عزّ وجل ما أودع في النار قوة الإحراق بشكلٍ ثابت، فلا تحرق إلا إذا أراد الله، إذاً كل شيء في قبضة ربنا عزّ وجل وبيده..

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سور الزمر)

كانت هذه القصّة بهذه الطريقة، إذْ أُلقِيَ القبض عليه، وساقوه وحاكموه، وأضرموا النار إلى أن أصبحت ناراً عظيمة، وألقوه فيها، فوجئوا بأن الله عزّ وجل جعل هذه النار برداً وسلاماً، لو لم يقل: سلاماً لَماتَ من البرد وهو في النار، بل كانت برداً وسلاماً.

إذاً فالله عزّ وجل خلق الكون وَفق أسباب، ولئلا تظن أن السبب هو الذي يخلق النتيجة، عطّل السبب، عطّله أو ألغاه، في النار عطّل السبب، وفي خلق آدم ألغاه، الإنسان يحتاج إلى لقاء الذكر بالأنثى كي يأتي المولود بطريق التلقيح، وبالنسبة لسيدنا آدم أو سيدنا عيسى ألغى السبب، وفي النار عطّل السبب،

إذاً:

الأشياء لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزّ وجل.

وهذه العقيدة مريحة للإنسان، كل شيء مخلوق بيد الله عزّ وجل، وما أودع الله في الأشياء قوّةً ثابتة فيها، بل إنّ هذه الأشياء لا تفعل فعلها إلا إذا شاء الله عزّ وجل، إذاً:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع شرح هذه القصّة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (08-16): تفسير الآيات 24 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-11-1990

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللّهُ مِنَ النّارِ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنّمَا اتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَوَدّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(25))

لا للمودة مع الضلال:

هذه الآية الخطيرة، أي إذا رأى هذا الإنسان أن حسن علاقته بالناس القائمة على الضلال أعظمَ عنده من حسن علاقته مع الله فهذا أمرٌ خطير، فكلمة " الله أكبر " تفيدنا في هذه الآية، أنك إذا رأيت أن علاقتك بالناس، وأن حسن علاقتك بالناس، وأن هذه المودة بينك وبين الناس، أن تعيش معهم في سلام، أن تنجو من ألسنتهم، من معارضتهم، من رفضهم، من تقريعهم، أن تحافظ على مودتك معهم ولو على حساب عقيدتك، ولو على حساب دينك، هذا النموذج البشري نموذج هالك، الذي يُؤْثر حُسْن علاقته بالناس على حسن علاقته بالله، الذي يُؤْثر الضلالة مع المودة، على الهدى مع الجفوة.

لو أنك اخترت منهج الحق، لو أنك آمنت بالله عزّ وجل ووقفت عند حدوده، لا شك أن هؤلاء الضالّين سوف يبتعدون عنك، يقطعون معك مودتهم، أنت ممن ؟ هل دنياك أغلى عليك من آخرتك ؟ أم آخرتك أغلى عليك من دنياك ؟ هل حسن علاقتك مع الناس هو كل شيء ؟

مثلاً على أضيق من ذلك: هناك من يرجو السلامة في بيته، له زوجةٌ تعيش وفق هواها، فلو أراد أن يقيدها أو أن يحملها على أمر الله عزّ وجل لتبرمت، ولخاصمت، ولابتعدت، ولنكّدت حياته، لذلك يُؤْثر رضاها على رضاء الله عزّ وجل، فهذه الآية أردت أن أعيد عليكم تفسيرها، مع أني مررت عليها مروراً سريعاً في الدرس الماضي، لشعوري أن هناك مرضاً اجتماعياً خطيراً، هو حينما يضعف إيمان الإنسان، وتقوى عنده علاقاته منع الناس، قد يساير الناس في ضلالهم، إما في اعتقادهم الضال، أو في سلوكهم المنحرف، كلام الناس مثلاً:

يا أخي هكذا المجتمع، نحن نعيش بين الناس، لو أننا جاهرنا بالحق، لو أننا وقفنا هذا الموقف، لو أننا ما صافحنا النساء، لو أننا وقفنا في البيع والشراء موقفاً شرعياً لأصبحنا أضحوكةً بين الناس، ولتحدّث

الناس عنا، لساروا بأخبارنا، هذا النموذج الذي يُؤْثر حسن علاقته بالناس على حسن علاقته بالله، الذي يؤثر سلامته على عقيدته، الذي يؤثر دنياه على آخرته، هذا النموذج عند الله مرفوض، بل إنه في صف المنافقين، بل إنه في صف الهالكين.

علاقة الآية بواقعنا:

طبعاً قد يقول أحدكم: ما علاقة هذه الآية بواقعنا ؟ هذا قرآن أيها الإخوة، ما ذكر الله هذه القصة في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة إلا لأنها تمثل نموذجاً متكرراً، إذا ذكر الله في كتابه العزيز قصة تُتلى إلى يوم القيامة إذاً هذه القصة ليس المعنيّ بها أنها وقعت وانتهت، بل إنها نموذج متكرر، إنها نموذج بشري، متكرر، إذاً نحن المعنيون.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

والآية الكريمة في سورة الزمر:

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)

(سور الزمر)

أي أيعقل أن نعبد غير الله ؟ لأن أمرنا كله بيد الله، هو خالقنا، هو مربّينا، هو مسيرنا، نحن له مِلكاً وتصرُّفاً ومصيراً، إليه المصير، إليه الرجوع، إذاً لا يعقل أن نعبد غير الله.

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

(سور الزمر)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سور الزمر)

لك مهمة واحدة أن تعبده وأن تشكره، إذاً هذا الذي يؤثر سلامة علاقته بالناس فشأنه مرفوض، وكذلك علاقته بآبائه وأجداده..

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(سور الزخرف)

سيدنا إبراهيم حينما قال:

(هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77))

(سور الشعراء)

أيْ أن آثار البيئة، آثار العلاقات الاجتماعية، آثار المُحيط، آثار القيَم السائدة، آثار العادات والتقاليد، آثار الإرث الذي ورثناه عن الآباء إذا كان على غير الحق، هذا كله يجب أن يُعَطّل..

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ)

عبادة الأوثان من غير غطاء شرعي وعقلي:

أيْ أنتم اتخذتم هذه الأوثان، ولا تملكون حُجَةً على عبادتها، من دون غطاء عقلي، من دون دليل قطعي، لكن مسايرةً مع الناس، أردتم السلامة، أردتم هذه المودة بينكم وبين أهلكم، أردتم هذه العلاقة الحسنة مع قومكم، فأيّ إنسان الآن بعد أن ظهر الحق، وأنزل الله هذا القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام، أيّ إنسان في عقيدته، أو في مواقفه، أو في حركاته، أو في نشاطه، يؤثر سلامته على حساب عقيدته، يؤثر الضلالة على الهدى، الضلال مع المودة على الهدى مع الجفوة، إذا أردت أن تتخذ من هؤلاء الناس آلهةً فهذا هو الشرك بعينه.

هذا شأن العامّة وحالهم، أما الخاصة فماذا قالوا ؟ المفكرون من عُبّاد الأوثان قالوا: إنه لا يمكن لبشرٍ أن يحيط بالله تعالى، ولا أن يقبل عليه، إذاً نتخذ هؤلاء الأوثان زلفى إلى الله، أي هم اخترعوا ديناً، هم اخترعوا هذه الفكرة، المُشكلة أنه يجب أن تعبد الله لا على رأيك، ولا وفق هواك، يجب أن تعبد الله كما يريد الله عزّ وجل، يجب أن تعبد الله وفق أمر الله عزّ وجل، فما كل إنسان أراد أن يعبد الله على هواه تُقبل هذه العبادة منه، ودائماً وأبداً أقول لكم كما قال أحد العلماء الأفاضل: إن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ؛ خالصاً ما ابتغي به وجه الله عزّ وجل، وصواباً ما وافق أمر الله عزّ وجل.

التقليد ليس حُجة فاعبد الله وفق ما أمر به:

لو انتقلنا من عامة الناس الذين يحافظون على علاقاتهم مع من حولهم، مع مجتمعهم، مع بيئتهم، مع أهليهم، مع تقاليدهم وعاداتهم، مع تراثهم إن صَحّ التعبير، مع اعتزازهم بآبائهم، اعتزازهم بطقوس آبائهم، فالإنسان أحياناً يولد من أب مشرك فرضاً، أو يعتقد بدين أرضي، كالدين البوذي مثلاً، هو يعتز بقومه وبأمته، وبهذه التقاليد التي ورثها عن آبائه وأجداده، ويرفض الحق، هذا النموذج غير مقبولٍ عند الله عزّ وجل، إذاً هؤلاء العامة.

أما الخاصة فأرادوا أن يعبدوا الله وفق هواهم، فنقول: هذا كلام مرفوض، يجب أن تعبد الله كما يريد اللهُ، يجب أن تعبد الله وفق شرع الله، يجب أن تعبد الله كما أمرك الله، إذاً أنت لا يغتفر لك سوء عملك

أن تقول: نيّتي طيبة، أنا أنوي نية طيبة أردت أن أعبد الله عن طريق هذا الوثن ليقربني إليه زلفى، لا، فالله عزّ وجل جعل شرعةً ومنهاجاً، المنهاج الطريق الموصل إلى هذا الشرع العظيم، إذاً يجب أن تتقصّى في أن تعبد الله كما يريد الله عزّ وجل.

أيضاً أقوال الخاصة: إننا نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى هذا كلامٌ أيضاً مرفوض.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

مودة الحياة الدنيا زائلة بزوال سببها:

لذلك قالوا: مودة الحياة الدنيا تزول بزوال الدنيا، أما المودة التي بينك وبين إخوتك المؤمنين هذه مودة الدار الآخرة، وشتانَ بين المودتين، مودة الدنيا تنتهي بزوال الدنيا، أساسها مصالح، أساسها أُنْسٌ شيطاني، قد يستأنس العاصي بالعصاة، وشارب الخمر بشاربي الخمر، والمرابي بالمرابين، مودة الدنيا أساسها الأنس الشيطاني، وتنتهي هذه المودة بانتهاء الدنيا.

معنى الآية: إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

ولكن أيها الإخوة... لندقق في هذه الآية.. حينما قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن: من آية " 14 ")

قد يقرأ الإنسان هذه الآية فيشعر بحرج، زوجتي التي عشت معها عمراً طويلاً، أقرب الناس إلي، ابني فلذة كبدي كيف يقرر القرآن الكريم أنه عدوٌ لي، العلماء قالوا: في الآية نقطتان:

المعنى الأول:

الأولى أن من للتبعيض، ليس كل الزوجات، وليس كل الأولاد عدوٌ للإنسان، لكن بعض الزوجات وبعض الأولاد.

المعنى الثاني:

أن تكون العداوة حقيقية، هذا أندر من النادر، ولكن العداوة التي أرادها الله في هذه الآية عداوة مآل. ما الفرق بين عداوة الحال وبين عداوة المآل ؟ عداوة المآل إن هذه الزوجة التي تحبها حباً جماً، والتي تحرص على إرضائها، وترغب في مودّتها، وتحرص على أن تكون مسرورة، ضاحكة، قد تكسِبُ مالاً

حراماً من أجلها، من أجل إرضائها، قد تحملك على ما لا تستطيع، قد تبحث عن مالٍ حرام كي ترضيها، كي ترضي غرورها، كي تتباهى أمام زميلاتها، أمام صديقاتها، أمام جيرانها، أمام أخواتها، أمام مَن هُم في سنها، حينما ينكشف الغطاء يوم القيامة ترى أن هذه المودّة التي أردتها مع زوجتك كانت طريقاً إلى النار، هذه المودة التي آثرت بها مودة الله عزّ وجل، آثرتها على مودة الله، كانت طريقاً إلى الهلاك، عندئذٍ تنشأ عداوةٌ ما بعدها عداوة، كيف يقول ابنٌ يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، كيف ؟

إذا أطلق الأب لابنه العنان، أعطاه المال الوفير يفعل به ما يشاء، وسافر هذا الابن، وفعل ما فعل، وارتكب الفواحش، وعاد مسروراً، وقد شعر أن أباه يُحِبّه حباً جماً، عاد عاصياً، عاد منحرفاً، عاد منغمساً في وحول الشهوات بمال أبيه، حينما يرى الابن أن أباه بدعمه وبماله وتوجيهه أوصله إلى النار، يقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، إذاً هذه العداوة التي ذكرها الله عزّ وجل في القرآن الكريم ليست عداوة حال في الأعم الأغلب، عداوات الأهل نادرة، سنة الله عزّ وجل أن يحب الأب ابنه، وأن يحب الابن أباه، وان يحب الزوج زوجته.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)

(سورة الروم: من آية " 22 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللّيْلُ وَالنّهَارُ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: من آية " 37 ")

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

إذاً هذه المودة التي جعلها الله بين الزوجين مودةٌ دائمة وثابتة في فطرة الإنسان، ولكن إذا استجبت لطلبات الزوجة، وكسبت المال الحرام، وحملتك طلباتها على أن تعصي الله عزّ وجل، عندما ينكشف الغطاء يوم القيامة تنكشف لك حقيقةٌ خطيرة، أن هذه الزوجة التي كانت أقرب الناس إليك، وهذا الابن الذي كان فلذة كبدك انقلب إلى عدو، لأنه كان السبب في هلاكك، إذاً هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن: من آية " 14 ")

عداوة المآل في الأعم الأغلب لا عداوة الحال، عداوة المآل أن يحملك حُبُّك لزوجتك على أن تعصي الله، أن يحملك حبك لابنك على أن تعصي الله، أن يحمل حب الابن أباه على أن يعصي الله، من أجل أن تبقى المودة مع الأب يسير الابن في طريق الضلال إرضاءً لأبيه، فإذا هذه المودة التي أرادها في الدنيا، وانتهت بانتهاء الدنيا، تصبح أساس العداوة يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الزخرف: من آية " 67 ")

هذه العلاقات الحميمة، هذه الصداقات المتينة، هذه العلائق الوشيجة بين الناس، يسهرون سهرةً إلى أنصاف الليل، إلى منتصف الليل، الضحك، والسرور، والحبور، والمُزاح، يقول لك: والله لا أشبع من صديقي.

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ)

(سورة الزخرف 67)

لذلك فالمؤمن يُبْدِلُهُ الله عزّ وجل علاقةً طيبةً دائمةً حتى الآخرة مع المؤمنين، والدليل ربنا سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بأنهم على سررٍ متقابلين، أما أهل الدنيا فتنقلب مودتهم عداوة شديدةً يوم القيامة، هذا الكلام كله مأخوذٌ من قوله تعالى:

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فطرة التدين عند الإنسان:

عندنا شيء آخر، أن الإنسان فطرته فطرة تَدَيُّن، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، كما أقول لكم دائماً: العبادة طاعة طوعية، لو أنها طاعةً قسرية ليست عبادة، طاعة طوعية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، بل إنها طاعة طوعية ممزوجة بمحبةٍ قلبية، والدليل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذه هي الفطرة، هذه جِبِلّتُكَ، هذه طبيعتك، هكذا فطرتَ، لذلك في النفس فراغٌ لا يملؤه إلا الإيمان، في النفس حاجةٌ لا يغطيها إلا معرفة الواحد الديّان، في النفس قلقٌ لا يسكّنه إلا طاعة الرحمن، في النفس آمالٌ لا تدرك إلا بمعرفة الله عزّ وجل، هذه الفطرة.

المعبود الحق له منهج حق:

لكن هؤلاء الذين يعبدون الشمس والقمر، ويعبدون البقر في بعض بلاد الدنيا، ويعبدون أصناماً وآلهةً من صنع أيديهم، هؤلاء لماذا يفعلون هذا ؟ قال بعض المحللين: هؤلاء حينما عبدوا الشمس أو القمر أو النجوم، أو عبدوا البقر أو ما سواها، حققوا، أو أشبعوا في نفوسهم فطرة التديُّن، ولكن الشمس والقمر

ليس لها منهج تسير عليه أيها الإنسان، فهو يسير مع شهواته، يحقق كل شهواته الأرضية، ويحقق ما فطر عليه من حب التديُّن، لذلك سهل جداً أن تعبد صنماً، الصنم ليس له أمر ونهي، ليس له منهج، أما الله فله منهج.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

الله عزّ وجل حرم الربا.

(وَأَحَلّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرّمَ الرّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 275 ")

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ)

(سورة الحجرات: من آية " 11 ")

الحقيقة أنه لا بد أن تعبد الله خالق الكون، هذا يلزمه اتباع المنهج، يلزمه افعل ولا تفعل، يلزمه الأمر والنهي، يلزمه منظومة قِيَم يجب أن تسير عليها.

إذاً: إذا اتجه الإنسان لعبادة صنمٍ أو حجرٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو نجومٍ أو حيوانٍ، إنما يفعل هذا ليتحرر من القيود، من أوامر الدين ونواهيه، أما إذا عبدت الله عزّ وجل خالق الكون، الله عزّ وجل أمره ونهيُّهُ يوصلانك إلى سعادةٍ أبدية، فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(وَقَالَ إِنّمَا اتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَوَدّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

إذاً أيها الأخ الكريم ابحث عن مودّات الدار الآخرة، كوّن لك صداقات مع المؤمنين، فهذه هي المودة التي تنعقد بينك وبينهم، هذه مودةٌ خالدة، مودةٌ تستمر بعد الموت، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

[الترغيب والترهيب عن أنس بسند فيه مقال]

إذاً: عليك أن تعرض عن مودة أهل الدنيا، فمودة الآخرة هي التي تبقى، أما مودة الدنيا فلا تبقى، وكلّكم يعلم أن الإنسان إذا شُيّعَ إلى قبره هناك من يتبعه إلى حافة القبر، هم أهله وأقرباؤه وأصدقاؤه، أما ماله غير المنقول فيبقى في مكانه ؛ بيته، مكتبه، مركبته، فالبطولة، أو المعول عليه ما يدخل معك في القبر، شيئان: مالُك يبقى في مكانه، وأهلُك يَصِلون معك إلى شفير القبر، أما المُعَوّلُ عليه فهو ما يدخل معك في القبر ألا وهو عملك.

(وَقَالَ إِنّمَا اتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَوَدّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الآن ربنا عزّ وجل أراد أن ينقلنا إلى الدار الآخرة ليرينا مصير هذه المودة، العلاقات الطيّبة، العلاقات الحميمة، من أجل أن تبقى مع قومك رفضت الهدى، من أجل ألاّ يقال عنك إنك خرجت عَمّا عليه أهلُك

وأقرباؤك رفضت الهدى، هذه العلاقات الطيبة انظر إلى مصيرها..

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

لا نسب يوم القيامة ولا خُلّة:

العوام يقولون أحياناً في إنسان: " لعن الله الساعة التي تعرفت فيها عليه "، من الممكن أنّ إنساناً ينشئ علاقة مع إنسان آخر، ويدلك على طريق فيه كسب مال سريع، لكن بطريق غير صحيح، ثم يلقى القبض على هذا الإنسان، ويودع في السجن، ففي أثناء الكسب والإنفاق والصرْف تنشأ علاقة حميمة مع هذا الإنسان، ولكن بعد أن يلقى في السجن يلعن الساعة التي تعرّف فيها عليه.

إذاً:

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

والحديث الشريف الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث سألت السيدة عائشة النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟! فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمّهُمْ ذَاكِ))

(صحيح البخاري)

معنى غرلاً أي بغير ختان.

وعَنْ عَائِشَةَ أَنّهَا ذَكَرَتِ النّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا يُبْكِيكِ ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَمّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا، عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ، حِينَ يُقَالُ:

(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

حَتّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنّمَ))

(من سنن أبي داود عن عائشة)

وفيما سوى هذه المواقف قد يعرف بعضنا بعضاً، فإذا وقعت عين الأم على ابنها تقول له:

((يا بني، جعلت لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وصدري سقاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرُها اليوم ؟.))

النبي عليه الصلاة والسلام بكى في هذا الموقف العصيب فقال:

((يقول هذا الابن لأمه: ليتني أفعل هذا يا أماه، ليتني أستطيع أن أفعل ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

فهذه العلاقات، علاقات الدنيا، علاقات القرابات، علاقات المودّات، الشركاء في الدنيا، الجيران، الأصحاب، الأخِلاّء، هذه العلاقات كلها تتلاشى، ويأتي الإنسانُ ربّه فرداً..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

معنى اللعن:

معنى يلعن، اللعن الإبعاد، فالإنسان أحياناً يرى شخصاً بوضع لا يُحتمل، ذا رائحة كريهة، ومنظر قبيح، وتطاول في الكلام، وبذاءة في اللسان، ثيابُهُ قذرة، تفوح منه رائحةٌ كريهة، فأنت تبتعد عنه ابتعاداً لا حدود له، فيوم القيامة أهل النار يَنْفُرُ بعضهم من بعض، يبتعد بعضهم عن بعض، يلعن بعضهم بعضاً، لأن الإنسان يلبس ثوب عمله، اللؤم، الدناءة، الخيانة، القذارة، الخيانة الزوجية، شُرب الخمر، الاستئثار، الأنانية، أن يعيش على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقر الآخرين، أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أن يبني أمنه على خوف الآخرين، أن يبني حياته على موت الآخرين، هذه المواقف اللئيمة، مواقف الخِسّة والدناءة والقذارة، هذه المواقف أثواب يرتديها الناس يوم القيامة، فكل واحد مشمئز منه، هو يدعو للقرف، وهو يُقَرّفُ أيضاً كما يقولون..

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

معنى الكفر في قوله: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ

معنى يكفر، أي أن هذا الكلام الذي كان يقوله في الدنيا أصبح يوم القيامة لا أساس له، كلام فارغ، كلام لا معنى له، كلام باطل، هذه معنى: يكفر بعضكم ببعض، فكل الدعاوى التي كانت تقال في الدنيا أصبحت الآن باطلة، لماذا ؟ لأنه كُشِفَ الغطاء، هذه الدعاوى تهاوت، هذه النظريات تداعت، هذه الأفكار تلاشت، هذه العقائد تهافتت، هذا الطرح إن صح التعبير تهاوى، هذه الفكرة وهذا التصور كله غلط، لا أساس له من الصحة، لا أصل له. إذاً:

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ)

الآن هذا الذي ادّعى دعوة باطلة، واعتقد اعتقادا باطلاً، واعتقد عقيدة زائغة، وتوهم أن الدنيا كل شيء، هذا الاعتقاد الباطل يصحبُه سلوك منحرف، سلوك باطل، السلوكِ أساس العدوان، والانحراف، والتجاوز، والخسة والدناءة، والقذارة واللؤم والخيانة.

إذاً:

(وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

إذاً كما قال الله عزّ وجل:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه 123)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، بالمقابل من اتبع سبيل الشيطان يضلُ عقله، وتشقى نفسه، فيكفر بمعتقداته، ويبتعد عن شخصه لقذارته..

(ثُمّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

سؤال وجواب:

الحقيقة أنّ لدينا سؤال دقيقاً: القصة عن سيدنا إبراهيم، وهم قد ألقوْا سيدنا إبراهيم في النار، وقال الله عزّ وجل في موضع آخر حكاية عنه:

(حَرّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ)

لكن الله كان معه، فخذلت آلهتهم، ونصره الله، وقال الله عزّ وجل:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(69 سورة الأنبياء)

إذاً أما أنتم أيها الكفار اليوم فإنكم في النار، وما لكم من ناصرين، لكن هذا الكلام قيل يوم القيامة.

السؤال:

ماذا قيل في الدنيا ؟

الجواب:

في الدنيا قيل:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ)

فما الفرق بين هذه الكلمة وهذه الكلمة ؟ كلاهما كلامٌ يقال، الأولى قيلت في الدنيا والثانية قيلت في النار، في الدنيا:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أي من غير الله.

(وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

معنى ذلك أن الله وليُّكم ونصيركم في الدنيا إن عدتم إليه، فالإنسان في الدنيا ما له من دون الله من ولي ولا نصير، معنى ذلك أن الله وليٌّ له، ونصيرٌ له إذا رجع إليه، وتاب إليه، والأمل مفتوح، أما بعد الموت فلا توبة، إذ لم يعد هناك حاجة لأنْ يقول الله لهم:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

في الدنيا كان لها معنى، في الدنيا أيها الإنسان إذا اعتززت بمخلوقٍ آخر ما لك من دون الله من ولي ولا نصير، الولي هو الذي يرعاك، والنصير هو الذي ينصرك عند الشدة، واللهُ عزّ وجل وليٌّ ونصير، في الدنيا لمن استقام على أمره ولمن تاب، أما في الآخرة:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

كيف ألقيتم إبراهيم في النار من أجل أن تنصروا آلهتكم ؟ لكن الله نصره، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ أما يوم القيامة فربنا عزّ وجل وعدهم النار:

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

لا يوجد جهة من الجهات تحول بينهم وبين النار، أو أن تدفع عنهم النار.

(وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ)

قصة وعبرة:

قبل أن ننتقل إلى الآية الثانية لا أنسى قصةً رويتُها لكم كثيراً، ولكن في التكرار فائدة:

أحد التابعين كان عند أحد ولاة يزيد بن عبد الملك، جاءَ هذا الولي توجيةٌ من " يزيد "، هذا التوجيه مخالفٌ لأمر الله عزّ وجل، وقع هذا الوالي في حرج، أينفذ أمر يزيد ويعصي الله، أم يعصي يزيد ويطيع الله ؟ كان عنده أحد كبار التابعين، سأله النصيحة، فقال له كلمة تكتب بماء الذهب: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

هذه المقولة أعِدْها على نفسك آلاف المرات، إذا كنتَ وقعت في موقفٍ حرج، إما أن ترضي زيداً، أو

أن ترضي ربك، قل: إن الله يمنعني من زيد، ولكن زيد لا يمنعني من الله، لو أن الله شاءت حكمته أن يبتليني بمرضٍ عُضال، زيد كل ما في وسعه أن يزورني في المستشفى، وأن يقدم لي باقة ورد فقط، أما أن يمنعني من الله، فلا، ولكن الله إذا كنت معه، مطبقاً لأمره، موالياً له يمنعني من كل الناس، والدليل قول الله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

إذاً: إن **" يزيد "** لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من **" يزيد "**، فإذا تعارض أمر البشر مع أمر خالق البشر، إذا تعارض أمر الحَق مع أمر الخَلق، كن مع الحق ولا تبال، لأن كلمة الحق لا تقرّب أجلا، ولا تقطع رزقاً..

(فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبّي إِنّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

بين إبراهيم ولوط عليهما السلام:

يبدو كما تروي كتب التاريخ أن لوطاً عليه السلام وهو ابن أخيه لسيدنا إبراهيم.

(فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ)

لم يؤمن من قومه إلا لوط مع تلك المُعجزة الباهرة، أن النار أصبحت برداً وسلاماً على إبراهيم..

(وَقَالَ إِنّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبّي)

معنى هجرة إبراهيم وهجرانه قومَه:

المعنى الأول:

المفسرون قالوا: لو أن سيدنا إبراهيم بقي مع قومه، ولم يؤمنوا به، فدعوتهُ لهم بعد أن رأوا المعجزة لا معنى لها، وسكوته إقرارٌ بعملهم، إذاً لا معنى أن يبقى معهم بعد أن ظهرت هذه المعجزة ؛ أنهم أوقدوا ناراً عظيمة وألقوه بها، ثم جعلها الله برداً وسلاماً عليه ومع ذلك لم يؤمنوا، إذاً الكلام معهم ليس له معنى، والسكوت منه إقرار، إذاً:

(إِنّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبّي)

انتقل من بلاد الرافدين كما يقال إلى وادي الأردن، هذا معنى.

المعنى الثاني:

الله عزّ وجل ليس له جهة تُهاجر إليه بها، ولكنك إذا كنت بأرضٍ فيها ضلال، وفيها معاصٍ، وقد أكرهت على المعصية، فيجب أن تهاجر إلى ربك إلى أرضٍ يُعْبَدُ الله فيها، إلى أرضٍ تستطيع أن تقيم شعائر الله فيها، إلى أرضٍ تُصَلِّي وأنت آمن، إلى أرضٍ تقيم الإسلام في بيتك وأنت آمن.

فما بال هؤلاء الناس الذين أنعم الله عليهم ببلدٍ آمن، هذه البلدة، والفضل لله عزّ وجل تقام فيها شعائر الدين، نصلي في المساجد، ونحضر دروس العلم، ونفعل في البيوت ما شئنا من تحجيب زوجاتنا، ومن إقامة الصلاة، أما إذا أردنا المال وحده، وذهبنا إلى بلاد الكفر حيث تجري الفاحشة على قارعة الطريق، وحيث لا يستطيع الأب المسلم أن يربي بناته على الإسلام إطلاقاً، لأن البيئة فاسدة، من أجل الدرهم والدينار ضيّع دينه وآخرته، فالإنسان مطالب أن يهاجر إلى بلدٍ يقيم فيها شعائر الله عزّ وجل ؛ يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويفعل في بيته كل أوامر الدين، هذا المطلوب.

إذاً المعنى الآخر للآية:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

أيْ أنا ذاهبٌ إلى أرضٍ أعبد الله فيها، هذه هي الهجرة، فمثلاً لو ضيقنا الأمثلة، في مساء الجمعة يوم عطلة، وهناك أماكن كثيرة تقضي فيها السهرات، أماكن كثيرة جداً، إذا كنت ميسور الحال فاليُسْرُ شيء مشجع، ولكنك آثرت بيت الله عزّ وجل على كل هذه الأماكن، هذه السهرة فيها معصية، وهذه فيها اختلاط، وهذه فيها فساد، وهذه فيها غيبة، وهذه فيها تَبَذُّل، وهذه فيها كلام لا يرضي الله، وهذا المكان موبوء، ثم تركت كل هذا، وهاجرت إلى الله، فأن تأتي بيت الله عزّ وجل، يمكن أن تنطبق هذه الآية على من يدع كل شيء ويأتي بيت الله عزّ وجل.

قد تسافر إلى بلد، وتلتقي بهذا البلد بالعلماء فقط، وهناك أماكن كثيرة جداً لا ترضي الله عزّ وجل، أنت هاجرت إلى الله، قد تسافر إلى البلاد المُقَدَّسة لتقوم بعمرة أو بحج في وقت الحج..

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

فإذا ذهبت إلى مكان، وأردت من هذا المكان مرضاة الله عزّ وجل فكأنك هاجرت إلى الله عزّ وجل.

المعنى الدقيق للهجرة:

ولكن المعنى الدقيق: أنك إذا كنت بأرضٍ تُكرَهُ فيها على معصية الله ولم تتركها إلى أرضٍ يُعبد الله فيها فأنت آثم، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

وقال بعضهم: إن التصوف كله في هذه الآية:

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

أيْ أنّ إنساناً أحب الله من كل قلبه فأراد أن يكون مع الله في كل أحواله:

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)

الابن الصالح هبة من الله:

كلمة:

(وَهَبْنَا لَهُ)

تعني أن الابن الصالح هِبَة من الله عزّ وجل، فمن كان له ولدٌ صالح فليسجد لله عزّ وجل ويضرع له: يا رب، لك الحمد على هذه النعمة، وما من نعمةٍ أعظم من أن يكون لك ولدٌ صالحٌ يعبد الله من بعدك، ويعلّم الناس من بعدك، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي]

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

أجر الدنيا والآخرة:

أي أن ربنا عزّ وجل بَدّلَ كل متاعبه خيرات، بدل كل حاجاته مسرّات، وهب له إسحاق ويعقوب، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وآتاه عِزّ الدنيا وعز الآخرة.

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(46 سورة الرحمن)

يُفْهَم من هذه الآية الكريمة أن المؤمن إذا آمن بالله حق الإيمان، واستقام على أمر ربه حق الاستقامة، وعمل الصالحات، لعل الله سبحانه وتعالى يكرمه في الدنيا والآخرة، أخذاً من هذه الآية:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

فحتى في الدنيا، فإنّ الله سبحانه وتعالى يرفع فيها المؤمن ويكرمه فيها.

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

معنى: لَمِنَ الصّالِحِينَ

أي الصالحين لعطائنا، فالبطولة أن تكون صالحاً لعطاء الله، ولن تكون صالحاً لعطاء الله إلا إذا قُمْتَ بعملٍ يصلح للعرض على الله، واعلم يقيناً أنك تحتاج إلى عملٍ يصلح للعرض على الله حتى تكون صالحاً لعطاء الله.

وفي درسٍ قادمٍ إلى شاء الله نتابع قصة سيدنا لوط في قوله تعالى:

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (09-16): تفسير الآيات 27 - 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصّة سيدنا لوطٍ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، ولكن نريد أن نقف وقفة يسيرة عند آخر آيةٍ في قصّة سيدنا إبراهيم، حينما قال الله عزّ وجل:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

يستفاد من قوله تعالى:

(وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا)

مكافأة الله للمؤمنين يوم القيامة: وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا

أن المؤمن إذا آمن بالله عزّ وجل، واستقام على أمره، وعمل صالحاً لابدّ من أن يكافئه في الدنيا أيضاً، أما أن يكون المؤمن في الدنيا كغير المؤمن، أن يُعَامل المؤمن كالكافر، المستقيم كالمنحرف، المحسن كالمسيء فهذا مستحيل، مستحيل أن تكون مؤمناً ويتخلّى الله عنك، مستحيل أن تكون حياتك، وعلاقاتك، ومهنتك، وزواجك، وبيتك، أن تكون كغيرك من الناس، لابدّ من أن تُبْتلى، ولكنه في نهاية المطاف لابدّ من أن تُكَرَم، لابدّ من أن تنال كرامة الله عزّ وجل إذا كنت وَفْقَ ما أراد، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

شيءٌ مستحيل.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة 18)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص 61)

لذلك:

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(139 سورة آل عمران)

كأن الله سبحانه وتعالى يحبُ من المؤمن أن ترتفع معنوياته، يحب من المؤمن أن يكون واثقاً بعطاء الله عزّ وجل، يحب من المؤمن أن يشعر أن له عند الله منزلة، أن له عند الله مكانة، أما هذا الذي يرى نفسه كغيره من غير المؤمنين، من العصاة، من الضائعين، من الشاردين، وأنه ينتظر بلاء الله عزّ وجل، لابدّ من أن تُمْتَحَن، لابدّ من أن تُبْتَلى، ولكن لابدّ من أن تستقر أحوالك على الإكرام الإلهي، لأن الله سبحانه وتعالى هذا وعدهُ، هكذا وَعَد الله المؤمنين، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

والذي يُثلِجَ الصدر كما يقولون أن المؤمنين ارتباطهم بدينهم أكبر بكثير من مستوى قناعتهم، لأنهم حينما آمنوا بالله، وحينما اصطلحوا مع الله، وحينما تابوا توبةً نصوحاً، وحينما عملوا الصالحات بدّل الله حياتهم، جعلها حياةً طيّبة كما وعدهم، جعل نفوسهم طيّبة، حياتهم طيّبة، جعل قلوبهم مطمئنّة، جعلهم يشعرون بأنهم عند الله من المقرّبين.

إذاً تعليقاً على قوله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ)

قياساً على تلك القصّة ؛ المؤمن إذا آمن بالله، واصطلح معه، واستقام على أمره لابدّ من أن ينتظر الخير..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا)

من خير.

(هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(51 سورة التوبة)

بين الأجر والأجرة والأجر والجزاء:

الآن ننتقل إلى قصّةٍ ثانية، وهي قصّة سيدنا لوطٍ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، لا تنسوا أن كلمة الأجر تختلف عن الأجرة، الأجرة في الدنيا، أما الأجر فيشمل الدنيا والآخرة، ولا تنسوا أن كلمة الأجر تفترق عن الجزاء، فالأجر للخير، والجزاء للخير والشر، الأجر شيء، والأجرة شيءٌ آخر، الأجرة في الدنيا، أما الأجر ففي الدنيا والآخرة، والأجر غالباً هو العطاء الإلهي الذي يكون تعويضاً

عن عبادة الإنسان لله عزّ وجل العبادة الحقيقيّة، وأما الجزاء فالجزاء يشمل العقاب والإكرام، أما الأجر فيختلف عن الجزاء في أنه للإكرام فقط.

قصة نبي الله لوطٍ عليه السلام:

(وَلُوطاً)

أي وأرسلنا لوطاً..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

ما هي الفاحشة ؟

ما الفاحشة ؟ الفاحشة العمل القبيح أو القول القبيح، أي عِظَمُ القبح في القول والعمل هذه فاحشة، والحياة الدنيا طافحة بالفواحش، الخيانة الزوجيّة فاحشة، الزنا فاحشة، تضييع العقل في شُرب الخمر فاحشة، فعِظَم القبح، القبح الشديد في الأقوال والأفعال تسمّى فواحش، سيدنا لوط قال لقومه:

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

قوم لوط أول من أتى هذه الفاحشة: مَا سَبَقَكُم بِهَا مِن أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ

ففي إشارة إلى أن هذه الفاحشة إنما فعلها قوم لوط أول الناس، لم يُسْبَقُ إليها، وبعض المفسّرين قال: إنها شاعت في قوم لوط شيوعاً لم يكن من قبل، إما أنها شاعت شيوعاً لم يكن من قبل، أو إنها كانت أول ما وقعت من قوم لوط..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)

الحسَن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع والعقل تبعٌ لذلك:

الفاحشة العمل القبيح، العمل القبيح الذي قبّحَهُ الشرع، وقبّحه العقل، و الشرع دائماً متوافقٌ مع العقل، العقل مقياسٌ أودعه الله فينا، والشرع ميزانٌ أنزله الله على أنبيائه، فالذي قبّحه الشرع يقبّحه العقل، والذي قبّحه العقل يقبّحه الشرع ؛ ولكن إذا قبّح الشرع شيئاً، والعقل لم يقبّحه فالعقل قد ضلَ، الأصل هو الشرع، إذا قبّح الشرع شيئاً فالعقل إذا قبّحه كان سليماً، وإذا لم يقبّحه كان مُنحرفاً، فالأصل هو الشرع، أي أن القبيح ما قبّحه الشرع، والحسن ما حسّنه الشرع، فربنا عزّ وجل مع أنه أعطانا ميزان العقل، إلا أن هذا الميزان ضُبِط على ميزان الشرع، وكل إنسان مؤمن عليه أن يضبط تصوّراته،

مفهوماته، موازينه، مقاييس الفوز عنده على ميزان الشرع، وإلا ما الضلال المبين ؟ أن يكون لك مقياس غير مقاس الشرع، أن يُحَسِّن عقلك شيئاً قبّحه الشرع، وأن يقبّح عقلك شيئاً حسّنه الشرع هذا هو الضلال، مِن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

خطورة إعمال العقل وترك النقل:

الدليل الآخر، أن هناك أشياء كثيرة لو عُرِضَت على العقل البشري قبل سنواتٍ عدّة لَكَذّبها، الآن العقل يصدِّقها، إذاً هو قاصر، ما كان يكذِّبه في الأمس يصدِّقه اليوم، إذاً هو مقياسٌ، ولكنّه يُستعمل في الحدود التي وضِعَ لها، وفي حدود المعطيات التي بين يديه، فلذلك الأصل هو الشرع.

كما نقول دائماً: الدين نقلٌ، والعقل لفهم النقل، وإذا تعارض النقل مع العقل، واستحال التأويل فالنقل هو الأصل، ولابدّ من أن يكتشف العقل بعد حين صواب النقل، لأن النقل عن الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى قرآنه وكلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا وجدت النقل، ولم تفهم حكمته فعليك أن تأخذ به بكلتا يديك، لأن العقل فيما بعد سيكتشف حكمته.

والبشرية الآن تعاني ما تعاني لأنها أخذت بعقلها فقط، من هم الغربيون ؟ أنَاسٌ حكّموا العقل في كل شيء، إلى أن فسدت حياتهم، حققوا إنجازاتٍ حضاريّة كما يقولون في الآلات، والأجهزة، وغزوا الفضاء ؛ ولكن في علاقاتهم الاجتماعيّة، وعلاقاتهم الأسرية لأنهم حكّموا العقل، وألقوا بالشرع في عرض الطريق وراء ظهورهم، فجاءت حياتهم جحيماً لا يطاق.

إنّ ربع مليون مصابون بمرض الإيدز، وقد ذكّرني أخٌ كريم أن هذا الرقم هو الذي أُبْلِغَ عنه فقط، أما الحالات التي لم يُبَلَّغ عنها فحالاتٌ كثيرةٌ جداً، وإنّ عشرة ملايين إنسان يحملون هذا المرض، وهذا مرض مخيف مدمِّر، مِن أين جاء هذا المرض ؟ من انحراف الإنسان عن منهج الله عزّ وجل، إذاً منهج الله هو الأصل، فإذا تعارض العقل مع النقل فالنقل هو الأصل، والعقل بعد حين يفهم حكمة النقل.

لذلك ينبغي للمؤمن أن يستسلم لله عزّ وجل إذا رأى الكون، وما فيه من آياتٍ باهرات، ورأى الشرع، وما فيه من إعجاز، ورأى القرآن وما فيه من إعجاز، ورأى أفعال النبي عليه الصلاة والسلام الدالّة على نبوّته يجب أن يستسلم، حينما تصل بعقلِك إلى الله عزّ وجل، وبعقلك إلى إعجاز هذا الكتاب، فإذا جاءك في هذا الكتاب شيءٌ، ولم تتَّضح لك حكمته يجب أن تستسلم له، لأنك بعد أن آمنت بالله بعقلك وبرسوله بعقلك وبكتابه بعقلك، لابدّ من أن تستسلم، وأن تنتظر أن الله عزّ وجل يكشف لك بعد حينٍ عن حكمة هذا الأمر.

دائماً يجب أن يتّضح لديكم أن حجم المؤمن، وأن عبوديّة المؤمن، وأن مستوى المؤمن ليس في البحث عن الحكمة، وتعليق تنفيذ الأمر على معرفة الحكمة، بل أن يُسَلِّم لما جاءه عن الله ورسوله.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

الأمر التشريعي والأمر التكويني:

ولا سيما أنه عندنا أمران: هناك أمر الله التشريعي، وأمر الله التكويني، فإذا قال الله لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية "30")

هذا أمر تشريعي، وأما أن تقول: هذا الشيء لا يُطبّق في هذا الزمان، وأنا طاهرٌ عفيف لا أتأثر بالنظر، فهذا كلامٌ فارغ، معنى ذلك أنك تأتي بحكمٍ آخر، وإذا قضى الله شيئاً ؛ كأن جعل هذا الإنسان عقيماً، أو جعل له ذريّةً من البنات فقط هذا أمرٌ تكويني، يجب أيضاً أن تستسلم..

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

الفطرة السلمية في حب نكاح المرأة:

هنا نواجه نقطة دقيقة جداً، أن ربنا عزّ وجل فطرنا فطرةً معيّنة، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران: من آية " 14 ")

فكل رجلٍ أَوْدَعَ الله فيه حبّ المرأة.. شيءٌ جميل.. لكن الله عزّ وجل جعل لهذه الشهوة قناةً نظيفةً طاهرً نقيّة، إنها قناة الزواج، ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها طريقاً نظيفاً للسير فيه.

لنأخذ على ذلك موضوع النساء: بعد أن أودع الله في الإنسان حبّ النساء سمح له بالزواج، فالزواج قناةٌ نظيفةٌ مشروعةٌ طاهرةٌ نقيّةٌ بنّاءَةٌ، وإذا زنا الإنسان خرج عن أمر الله عزّ وجل، خرج عن شرعه، خرج عن منهجه، خرج عن تعليمات الصانع، فيدفع الثمن باهظاً، ولكن فعْلَ قوم لوط شيءٌ آخر، فحتّى لو زنا الإنسان فهذا الزنا فاحشة، وله مضاعفات، فيه اختلاط أنساب، وخيانات، ومشكلات كثيرة جداً، لهذا حرّمه الله عزّ وجل، بل إن الله عزّ وجل أبلغ من أن يُحَرّمه فقال:

(وَلا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: من آية " 68 ")

نفى عن المؤمنين أنهم يزنون، والنفي أبلغ من النهي عند علماء الأصول..

(وَلَا يَزْنُونَ)

وهناك نهيٌ عن الزنا، وعن مقدّمات الزنا، وعن الاختلاط، وعن كل ما أدّى إلى الزنا، لقوله تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

(32 سورة الإسراء)

مراحل الإنسان في التعامل مع الغير: الإدراك والانفعال والسلوك:

وهذه نقطة مهمّة جداً أتمنّى عليكم أن تكون واضحة عندكم مفادها: أنّ الإنسان في تعامله مع من حوله، مع المحيط الذي يحيط به في ثلاث مراحل ؛ الإدراك، والانفعال، والسلوك.

مثلاً: لو أن إنساناً رأى في بستان حيّة، بحكم معلوماته ومفهوماته التي درسها في المدارس، أو ملاحظاته في بعض المتاحف الزراعيّة، أو قراءاته، أو تجاربه السابقة، أو القصص يدرك أن هذه أفعى، حصل إدراك، إذا كان الإدراك صحيحاً لابدّ من انفعال، ما الانفعال ؟ أن يضطرب، وإذا كان الانفعال صحيحاً لابدّ من سلوك، إما أن يهرب منها، وإما أن يقتُلها.

جئت بهذا المثل لأنه ما من علاقةٍ مع المحيط الخارجي إلا وينتظمها هذا القانون، إدراكٌ، فانفعالٌ، فسلوك، فيمكن أن ترى وردةً جميلة، تدرك أنها جميلة، وتنفعل بجمالها، وتقول: سبحان الله ! ما أجملها، إلى هنا لست مؤاخذاً على شيء، لو نظرت إلى وردة، إلى شجرة، إلى بيت، إلى حديقة، إلى بحر، إلى شيء جميل أودع الله فيه شيئاً من جماله، إنّك إن أدركت، وإن انفعلت فلا شيء عليك، إلا في موضوع المرأة، الوردة لو قطفتها تُحاسَب، لو أخذتها من غير حقٍ تُحاسب، لكن موضوع المرأة موضوعٌ آخر ؛ محرّمٌ أن تنظر، ومحرّمٌ أن تنفعل، ومحرّمٌ أن تخطو، لأن الله عزّ وجل هكذا أمرنا، فقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من آية "30")

الحكمة مِن تقديم غض البصر على حفظ الفرج:

ويبدو أن تقديم غضّ البصر على حفظ الفرج تقديمٌ دقيقٌ جداً، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع حفظ الفرج ما لم يغضّ البصر، فأن يأتي غضّ البصر قبل حفظ الفرج معنى ذلك أن غض البصر طريقٌ إلى حفظ الفرج، إنّك في الوردة إن نظرت إليها، وأدركت جمالَها، وانفعلت بهذا الجمال، ولم تقطفها ولم تعتدِ عليها لا يحدث شيءٌ إطلاقاً، ولست آثماً في شيء، إلا أنك في موضوع المرأة، النظر يؤدي إلى

الانفعال، والانفعال يؤدي إلى السلوك، هذه معصيةٌ فيها قوّة جذب، وكل معصيةٍ فيها قوة جذبٍ حُرّمَ عليك مُقَدِّماتها..

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا)

(32 سورة الإسراء)

يؤكِّد هذا قول الله عزّ وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

الزنا خروج عن منهج الله واللواط خروج عن الفطرة:

لابدّ من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المُحَرّمات المتعلِّقة بالنساء، ولكن هذا الإنسان الذي أودع الله فيه حبّ النساء، واقترف جريمة الزنا.. فالزنا جريمة.. ماذا فعل هذا الإنسان ؟ إنه خرج عن منهج الله، لكنّه لم يخرج عن فطرته، الفطرة أن الله أودع في الإنسان حبّ النساء، خرج عن منهج الله، خرج عن تنظيم الله عزّ وجل، عن أمره ونهيه، ولكنّه حينما اقترف هذه الجريمة لم يخرج عن فطرته، أما جريمة اللواط ففيها خروجٌ عن الفطرة الإنسانيّة التي فطر الله الناس عليها، لأسباب كثيرة..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

الله عزّ وجل قال:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 223 ")

معنى الحرث مكان الزراعة، إنك تزرع هذا الماء فينبت ذلك الغلام، الذي يسميه بعض الأدباء: ثمرة القلب..

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

إذاً العلاقة في موضع الحرث، ربنا عزّ وجل قال:

(فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

أنّى بمعنى كيف، بمعنى أين، بمعنى متى، علماء الأصول استفادوا من كلمة:

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

أنه يجب أن يكون هذا الإتيان في موضع الحرث لا في موضع آخر، إذاً كلمة أنّى بمعنى أين مرفوضة في هذه الآية لأدلّةٍ كثيرة، هؤلاء قوم لوط..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)

موضعٌ قذِر، وطريقٌ يؤدي إلى دمار النوع البشري، وتعطيلٌ للمرأة، ماذا قالت بنت الحارث لابنتها حينما زُفّت إلى زوجها ؟ قالت: **" يا بنيّتي، إنّ الوصيّة لو تُركَت لفضل أدبٍ تُركت لذلك منكِ، ولكنّها تذكرةٌ للغافل ومعونةٌ للعاقل، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، أو لشدّة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس عنه.. دقِقوا في قول هذه المرأة.. ولكن النساء للرجال خُلِقْن ولهُنّ خُلِقَ الرجال ".**

إنه تصميم إلهي، صانع صمّم هذا الكائن ليكون زوجة، أودع فيها رجاحة العاطفة، أودع فيها رقّة الإحساس، أودع فيها طبيعة الانقياد، أودع فيها صفاتٍ نفسيّةً كثيرة تؤهِّلها أن تكون زوجةً صالحة، وأودع في جسمها أجهزةً تؤهِّلها لأن تنجب الأولاد، ويبقى النسل مستمرّاً، وتحافظ البشريّة على نوعها، وأودع فيها أنماطاً سلوكيّة، وقدرات عقليّة، وخصائص نفسيّة تؤهِّلها لأن تكون في أداء مهمّتها، أو أن تؤدي مهمّتها على أكمل وجه، وصمّم الرجل ببناءٍ عقلي، وبناءٍ نفسي، وبناءٍ اجتماعي، وبناءٍ عَضَلِي مادي يؤهله ليحقِق مهمّته في الحياة على أكمل وجه.

هذه هي الفطرة، الزنا محرّم، ولكن الذي يستقل بالرجال من دون النساء انحرف لا عن مبادئ الشريعة؛ بل انحرف عن مبادئ الفطرة أيضاً، سلك سبيلاً شاذاً، وهذا المرض العضال الذي يهدِّد البشريّة من أقصاها إلى أقصاها، ما من ناقوس خطرٍ يُدقُّ الآن بأشدّ إيقاعاً على النفس من ناقوس خطر هذا المرض العضال الذي تعاني منه البلاد المُتَحَلِّلة، البلاد التي لا منهج لها، البلاد التي لا تؤمن بمنهج الله عزّ وجل.

إذاً:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

تفسيرات الآية:

لهذه الآية تفسيران:

التفسير الأول:

أن هؤلاء القوم الشاذين حينما يأتون الرجال يقطعون النسل، هذه المرأة التي كرّمها الله عزّ وجل، والتي صمّمها تصميماً تُكَمِّلُ به الرجل، ويؤلِف معها أسرةً طيّبة، تنجب الأولاد الأطهار، هذا التصميم الإلهي عُطِّل..

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

قطعتم سبيل الزواج، قطعتم سبيل الله عزّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

قُطِعَ هذا السبيل، قُطع النسل، قُطِعَت هذه العلاقة الطيّبة، ولا أكتمكم أن هناك حقائق اجتماعيّة في بلاد الغرب يندى لهنا الجبين، وقد لا تُصدّق لهولها، الآن تجري عقود زواج في الكنائس في بلاد أمريكا وأوروبا زواج بين الشبّان أنفسهم، فهناك انحرافاتٌ لا يتصوّرها العقل، انحرافٌ لا عن منهج الله فحسب ؛ بل انحرافٌ عن أصل الفطرة..

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)

التفسير الثاني:

هناك تفسير آخر لهذه الآية، وهو أن قوم لوط كان إذا مرّ بهم شبّانٌ أخذوهم عنوةً وفعلوا بهم الفاحشة، وعذّبوهم، هذا المعنى الآخر، وهو المعنى التاريخي.

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)

جرائم قوم لوط:

الجريمة الأولى: هذا الانحراف السلوكي، والجريمة الثانية أن تُرْغِمَ إنساناً على أن تفعل به الفاحشة، هذه جريمة ثانية، والجريمة الثالثة أنكم تأتون هذه الجريمة المنكرة في ناديكم أمام بعضكم بعضاً، جرائم متراكبة، جريمة الشذوذ الأخلاقي، وجريمة الإكراه عليه، وجريمة إتيانه أمام الملأ، إذاً هذا الذي يأتي هذه الجرائم الثلاث واقعٌ بشكلٍ مخيف وبواقع مدمّر.

قرأت البارحة أن مليون طفل في أمريكا يُعْتَدَى عليهم من قِبَل آبائهم، هناك دراسة علميّة، وتقارير أصوليّة من قِبَلِ آبائهم، إذاً هذه جريمة رابعة أو خامسة.

(وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ)

موقف نبي الله لوط من عَمَلَ قومه: التنبيه والتحذير:

يبدو أن سيدنا لوط عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نبّههم، وحذّرهم، و أوعدهم، وخوّفهم، وأنذرهم، يبدو أنه خوّفهم بعذاب الله.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

جواب قوم لوط لنبيهم: تحدّي عذاب الله:

وهذا شأن العصاة، كلّما حذّرته من عقاب الله، وكلّما حذّرته من عذاب الله، تقول له: يا أخي ربنا كبير، عنده أمراض مخيفة، عنده فقر شديد، عنده عذاب مهين، وعذاب أليم، وعذاب مديد، وعذابُهُ كبير، وعذابُهُ عظيم، أنت كُلُّكَ بيده، لو أن الكلية تعطلت، وتوقفت لأصبحت الحياة جحيماً، لو أن هذا الجهاز تعطّل لأصبح الموت قريباً، لو، ولو، كلّما ذكّرته بعذاب الله استهزأ وقال: ائتنا بعذاب الله.

سمعت مرّة أنّ إنساناً يعمل في حقل ألغام استهزأ بالله، وقال: إن كان موجوداً فليثبتْ وجوده، داس على لُغْمٍ من دون أن ينتبه، فانفجر في وجهه، وفقد بصره، قلت: سبحان الله ! فالله سبحانه وتعالى أعطاه فرصة ليتوب، فكلّما خوّفتَ هؤلاء، وأنذرتهم، وحَذّرتهم، وبيّنت لهم قالوا:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

لذلك يوم القيامة يقول ربنا عزّ وجل لهؤلاء الكفّار المنحرفين:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

ما هو النذير ؟

1 ـ القرآن:

يقول الإمام القرطبي في تفسيره: النذير هو القرآن، بيانٌ إلهي، تحذيرٌ ربّاني، تفصيل، مشاهد يوم القيامة..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29))

(سورة الحاقة)

فالقرآن نذير..

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا)

(27 سورة الفرقان)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

آياتٌ كثيرة في **" جزء عَمّ "** فيها إنذار وتحذير، فالقرآن نذير، والنبي عليه الصلاة والسلام نذير.

2 – سن الأربعين:

وسِنُّ الأربعين نذير..

(إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف: من آية " 15 ")

سنُّ النُّضْج، والتعقب..

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شرُّه فليتجهّز إلى النار))

[ورد في الأثر]

3 – سن الستين:

وسن الستين نذير.

4 – الشيب:

والشيب أيضاً، يقول الله عزّ وجل في بعض أحاديثه القدسيّة:

((عبدي، لقد شاب شعرك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، فاستحي مني، فأنا استحيي منك))

[ورد في الأثر]

5 – المصائب:

والمصائب نذير.

6 – موت الأقرباء:

وموت الأقرباء نذير، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

أما حينما يأتي العذاب ترى هؤلاء المتنطِعين، المتعجرفين، المتغطرسين، المتكبرين، المُكابرين تراهم لا يلوون على شيء، تراهم خانعين، عليهم ذلّةٌ وقتر من ضعفهم وخوفهم.

الحقائق تُكشف بعد الموت:

يا أيها الإخوة الأكارم... القضية قضية وقت، هذه الحقائق لابدّ من أن تُكشف عند الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(22 سورة ق)

فالقضيّة قضية وقت، والمهم أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، فإذا ما عرفها الإنسان الآن فلابدّ من أن يعرفها، ولكن بعد فوات الأوان.

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

الجهل بقدرة الله سبب استعجال العذاب:

انظر أيها الإنسان لو اختلّ شيء من جسمك ماذا كان سيحصل لك ؟!!

هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل نسي أن هذا القلب بيده ؟! ضربات القلب، انتظام ضربات القلب، تَضَيُّق الشرايين، عمل الرئتين، الكليتان، اتصال الأوامر من الدماغ إلى العضلات، لو تعطّل هذا الاتصال لأصابه شلل، هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل عرف نفسه ؟ لو عرف نفسه لعرف ربّه، لو عرفت أنك لا تستيقظ صباحاً إلا إذا كانت آلاف الأجهزة، والغدد، والأعضاء، والأنسجة تعمل بأدق انتظام، لو أن شيئاً واحداً اختل لأصبح عليلاً..

أعرف رجلاً أصابَهُ مرض اسمه " **فقر دم لا مُصنّع** "، أي أن معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام توقّفت عن صنع الكريات الحمراء، لماذا ؟ لا أحد يدري، لا زال هذا المرض مجهولاً..

إنسان آخر له صحّةٌ جيّدةٌ جداً ذوى كما يذوي العود، قالوا: لأن طحاله بدل أن يأخذ كرية الدم الميّتة ليحلِّلها إلى عناصرها، صار يأخذ الكريّة الحيّة والميّتة، فصار معه فقر دم، ومات بهذا المرض، واسم هذا المرض نشاطٌ زائدٌ في الطحال.

إنسان آخر مات من الرُّعاف، قلّت في دمه الصُفيحات الدمويّة، فيمكن أن ينزف دمه كلّه من الرُّعاف، ومات بهذا المرض.. فيا ترى هل يهتم الإنسان بالصُفيحات الدمويّة، أم بالأعصاب، أم بالبنكرياس، أم

بالغدد، أم بالطحال، أم بالكبد، أم بالنُخامية، أم بالدرقيّة، أم بالكظر، أم بالكليتين ؟ هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله. إنسان جاهل جهلاً مطبقاً، لا يعرف الله، ولا يعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف ربّه، لو عرف أن كل هذه الأجهزة تعمل بانتظام لشكر الله ساعاتها كلها.

إن الإنسان يقف على قدمين لطيفتين، لولا جهازٌ أودعه الله في الأذن الداخليّة وهو جهاز التوازن، إنه أنصاف أقواس، ثلاثةُ أقواس فيها سائل وفيها شعيرات، فإذا مال الإنسان يمنةً أو يسرةً تنبّهت هذه الشعيرات، فشعر باختلال توازنه، فعدّل توازنه، لو لا هذه القنوات قنوات التوازن للزمه أن يسير على عكّازين دائماً، أو أن تكون أقدامه باتساع خُفِّ الجمل كي يكون استناده مطمئناً أو مستقراً، هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله هل يعرف من هو ؟ لا تستيقظ صباحاً إلا وآلاف الأجهزة، والخلايا، والأنسجة، والغدد الصم وغير الصم تعمل بانتظام.

أعرف رجل ـ رحمه الله ـ خرج من معمله يبحث عن بيته فلم يجد بيته، بقي ساعة من حيٍ إلى حي، أصابه فقدُ ذاكرةٍ جُزْئِيّ، فما وصل إلى البيت إلا بعد أن ذهب إلى بيت ابنه وقاده ابنه إلى بيته، فمن أنت ؟

هناك فقدُ ذاكرة، كما أن هناك فرط تذكّر، دخل ابنٌ على أبيه، وكان مسافراً، ثم عاد فقال له: من أنت ؟ ما عرفه، فلذلك هذا الذي يقول: ائتنا بعذاب الله إنسان جاهل، لا يعرف نفسه، لو عرف نفسه لعرف ربّه.

إن مئة وأربعين مليار خليّة استنادية في الدماغ لم تُعْرَف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية سمراء قشريّة في الدماغ ؛ مركز المحاكمة، مركز التصوُر، مركز التذكّر، مركز السمع، مركز البصر. هذه العين، واللهِ الذي لا إله إلا هو العين وحدها آيةٌ دالّةٌ على عظمة الله، هذه الشبكية عشر طبقات، وفي هذه الطبقات العشر مئة وثلاثون مليون عُصيّة ومخروط، كلُها مرتبطة بأعصاب دقيقة جداً يجمعها العصب البصري الذي تعداده أربعمئة ألف عصب تُجمعُ بعصب واحد، هذه الشبكيّة بعُصياتها ومخاريطها تتأثّر بالضوء، وينشأ من تأثُرها بالضوء تيارٌ كهربائيٌ متفاوت الشدّة يُنْقَل إلى الدماغ فترى الصورة، لكن كيف ترى الصورة على حقيقتها ؟ والله لا ندري، بحجمها الكبير ؟ لا ندري، بألوانها الدقيقة ؟ لا ندري، وفي العين عملية مطابقة معقدّة جداً يعجز عن فهمها الأطبّاء، فهذا الذي يقول:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

هو جاهل، كتلة جهل متحرّكة، ما الشلل ؟ إنسان فجأة تجد أنه أصبح مشلولاً، شيء لا يحتمل، النقل تعطّل، شريانٌ صغيرٌ في المخ لو ضاق عن حجمه الحقيقي لنسي الإنسان كل معلوماته، يقول أحدهم: واللهِ أنا كنت طبيباً.. خير إن شاء الله.. قد ينسى الإنسان كل معلوماته، وكل خبراته، وكل تجاربه إذا تضيّق شريانٌ في الدماغ، إذاً دماغٌ، وسمعٌ، وبصرٌ، وذاكرةٌ، ومحاكمةٌ، وتصوُرٌ، وقلبٌ.

القلب له مركز كهربائي مستقل عن الجسم، وهناك مركزٌ ثانٍ احتياط، ومركز ثالث، ثلاث عُقَد كهربائيّة في القلب من أجل أن تضمن له ضرباته المنتظمة، هذا الذي يقول:

(ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

هذا موضوع الأعصاب ؛ الإنسان فيه شرايين يُقدَّر طولها بمئة وخمسين كيلو متر، وفي كل ميليمتر مكعَّب خمسة ملايين كريّة حمراء، وفي كل ثانية يموتُ اثنان ونصف مليون كريّة حمراء ويولد كذلك، فأنت هل ستهتم بنقي العظام، أم بالطحال، أم بماذا ؟ إذاً الإنسان كلّما زاد علمه زاد أدبه مع الله، كلّما زاد علمه زادت خشيته، كلّما زاد علمه زاد تواضعه، كلّما زاد علمه زاد خوفه، لذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".**

وعلامة العالِم التواضع، وعلامة الجهل التكبُّر، يقول الإمام الشافعي أيضاً: **" ما ناقشني عالِمٌ إلا غلبته، وما ناقشني جاهلٌ إلا غلبني "**، لأنه جاهل..

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

إنه فساد في كل شيء، لذلك: رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ

يبدو أن في هذا العمل فساداً كبيراً، إنه فساد في العلاقات الاجتماعيّة، فساد في الزواج، فهذا الطفل إذا فعلت به الفاحشة أصبح إنساناً آخر، أين عزّته ؟ أين كرامته ؟ أين شرفه ؟ أين طموحه ؟ أين مكانته ؟ أصبح شيئاً حقيراً قذراً دنيئاً، فهذا فساد كبير، فساد في الأطفال، فساد في الفاعلين، فساد في الزواج، فساد في كل علاقة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ.. وَقَوْلُهُ: الْحَالِقَةُ يَقُولُ: إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة ")

فساد علاقات اجتماعيّة، فساد علاقات أسريّة، فساد زواج، فساد اتصال..

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

مجيء الملائكة إلى قوم إبراهيم بالهلاك:

أيْ أن ملائكة الله عزّ وجل هم رسُلُهُ هنا في هذه الآية، جاءوا سيدنا إبراهيم ليبشروه بغلامٍ عليم، وبأن امرأته سوف تَلِد، في أثناء هذه البشارة..

(قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ)

يبدو أن هناك مسافةً قصيرةً بين قرية سيدنا إبراهيم وقرية سيدنا لوط، تَروي بعض الأخبار التاريخيّة أن قوم لوط كانوا على سواحل بحيرة لوط، وقد سُمِيِّت بحيرة لوط باسمه أو البحر الميّت..

(إِنّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

الظلم سبب الهلاك:

انظروا إلى التعليل، إهلاك القُرى له سببٌ وجيه فقرى لوط كانت ظالمة..

(قَالَ إِنّ فِيهَا لُوطاً)

لكن ! إنّ فِيهَا لُوطًا، فكيف يُهلكون ؟!!

قال بعض المفسّرين: إن إبراهيم عليه السلام لا يُعْقَل أن يصدِّق، أو أن يعتقد أن عذاب الله عزّ وجل سيصيب قوم لوط مع لوط، ولكن أراد هذا النبي الكريم أن يدعو الله عزّ وجل بأن يُمْهِلَهُم قليلاً لأن فيهم لوطاً، أو إكراماً للوط، إما أن يمهلهم، وإما إكراماً لهذا النبي الكريم يؤخّر عنهم العذاب، على كلٍ حينما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 33 ")

مِن ميزات هذه الأمة: وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

فهذه ميزةٌ لأمّة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ما دامت محبّة هذا النبي في قلوبنا، وما دامت سُنّته في سلوكنا، فكأن الله سبحانه وتعالى طمأننا أنه لن يعذّبنا، والمعنى الذي يَصِحُ مع وجوده صلّى الله عليه وسلّم فيما بين قومه، ما دام النبي بين ظهرانيهم، أو ما دامت سنته مطبّقةً في سلوكهم، أو محبّته قائمةً في قلوبهم فلن يُعَذّبوا..

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

إذاً:

(قَالَ إِنّ فِيهَا لُوطاً)

أي لعلّهم يهتدون، أو إكراماً له..

(قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا)

جواب الله: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها

الله عزّ وجل عَدْلُهُ مُطْلَق، حكمته مطلقة، خبرته قديمة، علمه قديم، فالإنسان كما نقول: لو أصدر مائة حكمٍ عادلٍ وحكماً ظالماً يسمّى عند الناس عادلاً، لكن حضرة الله عزّ وجل هو المُطْلَق، فأحكامه كلّها عادلة، تصرُّفاته كلها حكيمة.

كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل ما أراده الله وقع، إرادته متعلِّقةٌ بالحكمة المُطلقة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، قالوا:

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

وعْدُ الله بإنجاء لوط ومن آمن به وتعذيب من كفر:

أيْ أصابها غبار قومها، أحَبّت قومها وأقرّتهم على عملهم، لذلك من غاب عن معصيةٍ فرضي بها كان كمن شهدها، ومن شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها، إذا رأيت معصية لا تقبل بها، أنْكِرها بقلبك وإلا تشترك مع صاحبها في الإثم، يكفي أن تقول لإنسان كسب مالاً حراماً: دبَّرَ حالَه، قال له: ما شاء الله عليك، وعلى هذا الذكاء، إلى أين أنت ماشٍ ؟ أنت بهذا شاركته بالإثم، هذا الكسب الحرام إذا أثنيت على صاحبه، أو باركت له، أو أقررته على عمله فقد شاركته في الإثم..

(إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

إلاّ امرأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغابرين

أحبّت قومها، وأقرّتهم على معصيتهم، وخانت زوجها، لا خيانة فراش ولكن خيانة دعوة، لذلك قال الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

(10 سورة التحريم)

(وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ)

مجيء الملائكة إلى سيدنا لوط في أحسن صورة بَشَرٍ:

الله عزّ وجل جعل هؤلاء الملائكة حَسَنِي الوجوه، شباب في مقتبل عمرهم، هكذا جعلهم في هذه الصورة، وأسبغ عليهم جمالاً أخّاذاً، فلمّا جاءوا سيدنا لوط ضاق بهم، خاف عليهم أن يعتدي قومه عليهم..

(سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35))

السعيد من وُعِظ بغيره، والشقيّ مَن اتعظ بنفسه:

لذلك السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه، ربنا عزّ وجل جعل قوم لوط عبرةً للإنسانيّة من بعدهم إلى يوم القيامة، والحقيقة إما على مستوى جماعي، أوْ على مستوى فردي، فكل انحرافٍ فيه ضربة قاصمة..

(إِنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12))

(سورة البروج)

إن على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (10-16): تفسير الآيات 36 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآَخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37))

قصة شعيب مع قوم مَدين:

ربنا سبحانه وتعالى يُحَدِّثُنَا عن أقوامٍ كفروا بربهم فأذاقهم الله جزاء كفرهم وانحرافهم، من هؤلاء قوم مدين، قوم سيدنا شُعَيْب، فقال تعالى:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

1 – سرُّ وجودك عبادة الله:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُون)

(56 سورة الذاريات)

أي أن سر وجودك على الأرض، ومجيئك إلى الدنيا أن تعبد الله عزّ وجل، والعبادة طاعةٌ طوعية، أساسها معرفةٌ يقينية، تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

إن الإنسان يرقي إلى أعلى درجات خُلِقَ لها حينما يعبد الله عزّ وجل، لذلك ما من نبي ولا رسولٍ إلا دعا إلى عبادة الله عزّ جل، لأنك لا ترقى إلا إذا عبدته، والعبادة الخضوع الكامل، الانصياع الكامل، الحُب الكامل، الشوق الكامل إلى الله عزّ وجل، الإنسان حينما يغيب عن عبادة ربه غاب عن ذاته، غاب عن سر وجوده، غاب عن الهدف الذي خُلق له.. أنت إذا عبدته فأنت في ظل رحمته، وظل حفظه وتوفيقه، فإذا حِدْت عن أمره دفعت الثمن باهظاً..

(وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآَخِرَ)

2 – لا تستقيم عقيدة المرء في الدنيا إلا إذا آمن باليوم الآخر:

لا تستقيم عقيدة المرء في الدنيا إلا إذا آمن باليوم الآخر، لأن الله سبحانه وتعالى خَلَقَ السماوات والأرض تعبيراً عن أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، ولكن اليوم الآخر تجسيدٌ لاسم الحق، كل المظالم في الدنيا، كل الحظوظ، وزّعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، اليوم الآخر هو الأساس، فإذا أغفله الإنسان وقع في فراغٍ فكريٍ كبير، حياةٌ قصيرة مشحونةٌ بالمتاعب، ما سرُّها ؟ حياةٌ قد تنتهي في وقتٍ مبكر، قد لا يكون في الحياة فرصةٌ للاستفادة من الإعداد لها، سؤالٌ كبير:

يعد الإنسان نفسه ليحيا حياةٍ طيبة، قد لا يبقى في حياته الوقت الكافي ليستمتع بما أعد له، أما إذا آمنا باليوم الآخر تحل جميع المشكلات، وتسوى فيها جميع الحسابات، إنها الحياة السرمدية الأبدية ؛ لا نغص، ولا قلق، ولا خوف، ولا حزن لمن عرف ربه في الدنيا، واستقام على أمره.

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

النهي عن الإفساد في الأرض:

والإفساد ؛ إفساد العلاقات، إفساد علاقة النفس بربها، إفساد علاقة المرء بأهله، إفساد علاقة المُسلمين ببعضهم، إفساد علاقة الإنسان بالإنسان، فأية علاقةٍ بين العبد وربه هناك من يفسدها بإلقاء الشُبُهَات، هناك من يفسدها بالحمل على المعاصي والمُحَرّمات، العلاقة بين النفس وربها، بين الأخ وأخيه، بين الشريك وشريكه، بين الرجل وزوجته، هذه العلاقات أهل الباطل الكفار يَسْعَوْنَ في الأرض فساداً، يعثون في الأرض مفسدين..

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآَخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37))

انظروا كيف كان عاقبة المكذبين:

أهلكهم الله عزّ وجل، والحقيقة أن هذا الهلاك هلاك الدنيا إذا كان على أثر كفرٍ وانحراف تبعه هلاك إلى أبد الآبدين.

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

وَقَد تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِم

ربنا سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي لبعض الأقوام الظالمة شيئاً من آثار بلادهم، دليلاً على هلاكهم، وعلى أن أمر الله عزّ وجل هو الحق، وعلى أن العاقبة للمُتقين، فهلاك الأمم وبقاء آثارهم، نحن أحياناً نزور الآثار، والحقيقة أن المؤمن إذا زار الآثار فلهذه الزيارة عبرةٌ كبيرة..

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعَاً وَأَبْصَاراً وأفئدَةَ فما أغنى عَنْهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم مِنْ شَيء)

(سورة الأحقاف: من آية " 26")

أقوام أشد منا قوةً وأكثر جمعاً وأعظم حضارةً دَمَّرَهُمُ الله عزّ وجل ولقوا نتيجة أعمالهم.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ)

وهذه سنة الله جارية في الأقوام المكذّبين:

الأقوام التي كفرت وانحرفت أهلكها الله عزّ وجل، بعضها أهلك بريحٍ صَرْصَر، بعضها أُهْلِكَ بالصيحة، بعضها أهلك بحجارةٍ من السماء، بعضها أهلك غرقاً، والأحداث التي من حولنا أيضاً تؤكِّد هذه المعاني..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(112 سورة النحل)

إذاً كلما وقع زلزالٌ، أو هَلاكٌ، أو فيضانٌ، أو حروبٌ أهلية مدمرةٌ، هذه كلها من آيات الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى ما كان له أن يهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون.

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف59)

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ)

من آثارهم..

(وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

تزيين الشيطان الأعمال للإنسان:

الحقيقة الإنسان حينما ينتقل إلى عملٍ ما، ينطلق من تصور أن هذا العمل في مصلحته، وله منه مكسبٌ

كبير، إن كانت رؤيته غير صحيحة، إن كانت رؤيته ضبابية، إن كانت رؤيته ليست كما يريد الله عزّ وجل، هذا هو الضلال وقع في الانحراف ؛ أما إذا تمتع الإنسان برؤيةٍ صحيحة كان مهتدياً، ما هو الهدى ؟ أن ترى وفقَ ما أراد الله عزّ وجل.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

هذه مصيبةٌ كبيرة، أن تنظر إلى الشيء من زاويةٍ مَغْلوطة، أو أن تراه رؤيةً مغلوطة، أو أن تظنه خيراً وهو شر، أن تظنه حقاً وهو باطل، الضلال في حقيقته رؤيةٌ غير صحيحة، لذلك البطولة أن تُصَحِّحَ رؤيتك دائماً وفق ما أراد الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى أعطاك ميزان العقل، وأعطاك ميزان الفطرة، وأعطاك ميزان الشرع، فإذا وافق عقلك ميزان الشرع أنعم به من عقل، إذا وافقت فطرتك ميزان الشرع أنعمْ بها من فطرة، أما الميزان الذي لا يُخطئ، فهو الشرع الذي أنزله الله على نبيه.

إذاً: كلما استخدمت عقل الشرع، وأعملت عقلك، وكلما ركنت إلى فطرتك، وجاءت نتائج العقل والفطرة موافقة للشرع فأنت على حق، أما إذا هداك عقلك إلى خلاف الشرع هذا العقل قد ضَل، وقد انحرف، وقد طغى، وقد بغى، وهذه الفكرة قد انطمست.

فنحن نركن إلى الفطرة إذا كانت موافقةً للشرع، نركن إلى العقل إذا جاء موافقاً للشرع، أما إذا ابتدع الإنسان شيئاً مخالفاً للشرع فقد وقع في ضلالٍ مبين.

إذاً: الخطورة أن يزيّن الشيطان للإنسان عمله، فيرى عمله صائباً، يرى عمله صحيحاً، يرى عمله فيه فلاحٌ ونجاح، هنا الخطورة، لأنه ما من إنسانٍ يُقْدِمُ على شيءٍ إلا ويتوهَّمُ أنه صواب، ما من قاتلٍ يقدم على جريمته إلا ويظن أنه سيكسب بهذه الجريمة خيراً كثيراً، فإذا وقع في أيدي العدالة وسيق إلى دفع ثمن جريمته، عندئذٍ يندم ولات ساعة مندم.

البطولة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه:

البطولة أيها الإخوة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه، فكل من أسرع، وانطلق إلى عملٍ ليس متأكداً من مطابقته للشرع، كل حركاتك وسكناتك إن لم تكن وفق منهج الله عزّ وجل، كل حركاتك وسكناتك إن لم تكن وفق ما أَمَرَ الله، وما عنه نهى فهذه الحركات طائشة، وسوف يدفع الإنسان ثمنها باهظاً.

(وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)

لأن.

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

(27 سورة النساء)

أي أن الله عزّ وجل هو الخالق، هو العليم، هو الحكيم، يريد أن تكون في سعادة، يريد أن تسعد في الدنيا والآخرة، أعطاك المنهج الصحيح..

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

للأسف الشديد: فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

أي أنهم كانوا عقلاء، حدثني صديقٌ لي قال: كنت في بلادٍ في أقصى الشرق ؛ حضارة، والتقدم، والتقنية، والتكنولوجيا، شيء يفوق حد الخيال، وهم يعبدون بوذا، فقال مدير شركة أطلعه على منجزات شركته، شيءٌ لا يصدق، فلما أخذه إلى المعبد قال: يا سبحان الله ما أبعد البَوْنَ بين هذه الحضارة وهذا التصنيع، وهذه الدقة، والإتقان، والصناعة ؛ وبين هذه العبادة التي لا معنى لها، ولا تقف على قدميها، إذاً: هذا من أخطر أنواع الضلال، أن تكون في ناحيةٍ متفوقاً، لك تفوقٌ كبير في اختصاصك، أو في صناعتك، أو في زراعتك، أو تجارتك، فإذا انتقلنا إلى عقيدتك، وإلى طقوسك، وإلى دينك، وإلى ما تعتقده وجدنا بوناً شاسعاً بين هذا وتلك، فربنا سبحانه وتعالى أشار إلى هذا:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

فشعوبٌ بأكملها تعبد البقر، إذا مَرّت بقرةٌ في عرض الطريق انقطع السير، فإذا دخلت هذه البقرة إلى مكانٍ، لها أن تأكُلَ أي شيء ولو كان ثميناً، بل إنهم يعانون من أشد أنواع المجاعات وأعداد الأبقار يفوق حد الخيال، هذه عقيدةٌ زائغة، هذا هو الانحراف في الفكر، هذا هو الكفر بعينه، أن تعبد من دون الله مخلوقاً لا يملك لك نفعاً ولا ضراً، فلذلك لا يصح العمل إلا إذا صَحّت العقيدة، أية عقيدةٍ فاسدة يقابلها انحرافٍ في السلوك.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

أي كانوا عقلاء في أعمالهم، في دُنياهم، في تجارتهم، في مساكنهم، في علاقاتهم، الإنسان أحياناً يهبط، يتفوّق في الدنيا، فإذا سألته عن الآخرة، سألته عن دينه، عن عقيدته، هبط هبوطاً مخيفاً.

(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

لا يستطيع عبدٌ أن ينفلت من قبضة الله:

ما كانوا سابقين، أي أن الكافر لا يستطيع أن يتفلّت من قبضة الله عزّ وجل، مهما فكّر وخطط، وفعل، وَدَّبَر هو في قبضة الله، لذلك الإنسان لضعف إيمانه يتوهم أن هذه الجهة وضعت هذه الخطة وسوف تنفذ، أما المؤمن يرى أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، يرى أنه لا إله إلا الله، يرى أنه لا يقع شيءٌ في ملك الله إلا بأمر الله..

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتّى يُؤْمِنَ بِالْقدَرِ خَيْرِهِ وَشَرّهِ حَتّى يَعْلَمَ أنّ مَا أصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأنّ مَا أخْطَأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(من سنن الترمذي: عن " عبد الله ")

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

أي أن الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل لا يسبق مشيئة الله عزّ وجل، هو في قبضته..

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً)

قاعدة مطّردة في العذاب: فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ

قال: **" يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني !! قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر "**، فإذا توهّم الإنسان لحظةٍ واحدة أن هذه المعصية تنفعه، وأنها تكسبه مغنماً كبيراً، هذا هو الجهل بعينه، هذا هو الحمق بعينه.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

وفي الأثر:

((إن لكل سيئةٍ عقاباً))

أي انحرافٍ له ثمنٌ تدفعه في الدنيا والآخرة.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً)

أنواع العذاب:

1 – معنى: حاصبا

أي حجارةً من السماء كقوم لوط..

(وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصّيْحَةُ)

2 – الصيحة:

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(37 سورة العنكبوت)

(وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ)

3 – الخسف:

كما فعلنا بقارون..

(وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)

4 – الغرق:

كما فعلنا بقوم نوحٍ وقوم فرعون..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

استعرض معي الآيات:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(77 سورة النساء)

نواة التمرة فيها خيطٌ رفيعٌ جداً في الشِقّ الذي في النواة، هذا هو الفتيل، فإذا وضعت النواة على لسانك من أحد طَرَفَيْهَا شعرت بنتوءٍ مدبب هذا هو النقير، ولهذه النواة غشاءٌ رقيق هو القطمير، فربنا عزّ وجل من خلال بيئة العرب الصحراوية، ومن هذه الفاكهة التي تتواجد عندهم..

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

(124 سورة النساء)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(77 سورة النساء)

ولا قطميراً..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

إذاً:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(47 سورة الأنبياء)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أشد أنواع الظلم الجهل:

والحقيقة أن أشد أنواع الظلم أن تبقي نفسك جاهلة، أن لا تعرفها بمهمّتها، أن تبقيها جاهلة، أن لا تزكيها، أن تحببها بالدنيا، ولقد خلقت لغيرها، لا تنس قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعاه الصغار إلى اللعب وكان صغيراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لم أخلق لهذا))

إذاً خلق لماذا ؟

((خلقت لك السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك))

مثل بسيط أسوقه لكم: قديماً كانت مدارس داخلية، فمدرسة من أشهر المدارس لها قاعات للمطالعة، وفيها مهاجع، وفيها مطعم، فالطالب في هذه المدرسة الداخلية عليه أن يمضي الوقت الذي بعد الدراسة في المُطالعة، عليه أن يقرأ، عليه أن يكتب، عليه أن يتدرّب، أما المطبخ ففيه الموظفون، والطباخون والعمال بحيث يأتيه الطعام جاهزاً في الساعة السابعة مساءً، فهذا الطالب طعامه مضمونٌ له، وهو مكلفٌ للدراسة، ما قولكم بطالبٍ ترك قاعة المُطالعة وتوجّه إلى المطعم ليتفقد أحوال الطباخين والأطعمة، وما تم في صنع هذا الطعام، وهذا الطعام، ضمن له الطعام فانشغل به، وكُلِف بالدراسة فتشاغل عنها، هذا حال بعض الناس، ربنا عزّ وجل يقول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الزخرف: من آية " 32 ")

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23))

(سورة الذاريات)

الرزق يحتاج إلى سعي، والرزق مضمون، أما معرفتك بالله عزّ وجل، عملك الصالح، هذا مكلفٌ به، فما قولك بإنسان أعرض عن معرفة الله، وعن طاعته، وعن العمل للآخرة وانشغل بما ضُمِنَ له، وهذا منتهى الضلال، الذي ضمن لك تسعى له سعياً حسيساً، والذي كلفت به تهمله إهمالاً شنيعاً، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40))

(سورة النجم)

فليس لك إلا ما سعيت، فالذي ضمن لك يجب أن ترتاح من قِبَلِهِ، والذي كُلفت به يجب أن تسعى له.

الآن بعد أن عرض الله علينا هذه القصص، الأقوام السابقة كيف انحرفت في عقيدتها، وكيف انحرفت في سلوكها، وكيف ظلمت، وبغت، وطغت، وكيف أهلكهم الله عزّ وجل، يقول الله عزّ وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ

الإنسان كما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(28 سورة النساء)

هكذا خُلِقَ الإنسان..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج)

هو هلوع.

وفي آيةٍ ثانية:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء)

وفي آيةٍ ثالثة:

(وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولا)

(11 سورة الإسراء)

إذاً: هو ضعيف، وعجول، وهلوع، لنأخذ الآية الثانية:

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

ربنا عزّ وجل شاءت حكمته أن يكون الإنسان ضعيفاً، لو أن الله خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، وفي الأساس الإنسان ضعيف، ومعنى كونه ضعيفا أنه بحاجة إلى ركنٍ ركين، يحتاج إلى شيءٍ يَدْعَمَهُ، شيءٌ يركن إليه، يحتاج إلى من يُدافع عنه، يحتاج إلى من يأخذ بيده، هكذا طبيعة الإنسان.

حتى في الدنيا، الإنسان يسعد أشد السعادة إن كان له قريبٌ له مركزٌ قوي، تراه يفتخر به، كلما نابه أمرٌ يتصل به، يشعر بالطمأنينة أن هناك شخصاً قوياً يُحِبُّهُ، تسكن نفسه، هذه فطرة الإنسان، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه ضعيفاً، من لوازم ضعف الإنسان أنه يسعى إلى ركنٍ ركين، إلى جهةٍ قويةٍ يعتمِدُ عليها، إلى جهةٍ قويةٍ تدافع عنه، يسعى إلى جهةٍ قويةٍ يطمئن بقربها، يفتخر بقوتها، هكذا طبيعة الإنسان.

أحد أسباب سعادة المؤمن أنه يؤمن أن كل ما في الكون بيد الله عزّ وجل، حتى خصومه بيد الله، حتى الأشخاص الأقوياء الذين يظنهم الناس أقوياء هم في قبضة الله عزّ وجل، هذا الشعور، حتى الوحوش الضارية، حتى الجراثيم الفتّاكة، حتى أعراض الطبيعة، هذه كلها بيد الله، فأحد مصادر سعادة المؤمن شعوره بأن كل ما في الكون بيد خالقه، فإذا كانت علاقته بخالق علاقةً طيبة، علاقة حسنة، علاقة حُبٍ، علاقة طاعةٍ، علاقة انصياعٍ، علاقة توكلٍ، شعر بسعادةٍ لا يعرفها إلا من ذاقها، لهذا قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

مثلاً شابٌ دُعِيَ إلى الخدمة الإلزامية، في الجيش هناك آلاف الرُتَبَ الكبيرة، في الجيش عقوبات، وسجن، وأعمال شاقة، فما قولك إذا كان والد هذا الشاب قائداً للجيش، بماذا يشعر هذا الشاب إذا كان والده قائداً الجيش، القائد الأعلى للجيش ؟ يشعر بطمأنينة، ولا يخشى كل هذه الرُتَب، هذا مثل للتبسيط، المؤمن ربنا عزّ وجل قال:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الشعور بالأمن نعمة عظيمة:

فلو حللنا سر سعادة المؤمن في الدنيا يكون هذا الشعور، هو ضعيف الإنسان، والمؤمن إنسان ضعيف، لكن حينما استقام على أمر الله، ونفذ شرع الله، واعتمد على الله، وتوكل على الله، واستسلم لقضائه وقدره، شعر بالقرب منه، وشعر بهذا الشعور المُطَمْئِن، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(81 سورة الأنعام)

من هو الإنسان الحقيقي الذي يتمتع بالأمن ؟ الأمن مهمٌ جداً لأن السلام شيء، والأمن شيءٌ آخر، السلام أن لا تقع مصيبة، أما الأمن أن لا تتوقع مصيبة، وفرق كبير بين أن لا تقع المصيبة وبين أن لا تتوقع المصيبة، إن توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، إنك من خوف الفقر في فقر، إنك من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(81 سورة الأنعام)

من هو هذا الإنسان الذي عافاه الله من القلَق، من الخوف، من الشعور بالقهر، من توقُّع المرض ؟ من توقع الفقر ؟ من توقع المصيبة ؟ أي إنسانٍ هذا الإنسان الذي ملأ الله قلبه أمناً وطمأنينةً ورضى، وشعوراً بقربه من خالقه ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

أحد أسباب سعادة المؤمن في الدنيا شعوره أن الكون كُلّه بيد الله، وأن الأمر كله بيد الله، وأن يد الله فوق أيديهم، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأنه إليه يُرْجَعُ الأمر كله، هذا التوحيد يلقي في قلب المؤمن سعادةً ما بعدها سعادة، الأمر كله بيد الله وهو محبٌ لله، وهو على استقامةٍ تامةٍ على أمر الله، هذا الشعور.

هناك شعور آخر يسعد به المؤمن، أوضحه بمثل أضربه كثيراً لكم:

إنسان فقير جدا عنده أولادٌ كُثُر، بيته ضيق، دخله لا يكفي مصروفه، معذّب، محتاج إلى كل شيء، مهدد، له عمٌ ليس له أولاد يملك ثروةً طائلة تزيد على مئات الملايين، توفي عمه فجأةً بحادث، وهذه الملايين كلها آلت إليه، ولكن إلى أن تصل إلى يده لا بدّ من مضي عامٍ أو أكثر حتى تنتهي قضايا الإرث ما إلى ذلك، نحن نسأل: هذا العام الذي هو بين موت عمه وبين قبض ثروته ـ خلال عام ـ لماذا هذا الإنسان الفقير هو أسعد الناس، مع أنه لم يقبض درهماً من إرث عمه ؟ نقول دخل في الأمل، دخل في الوّعد، كما قال الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(61 سورة القصص)

إذاً حللنا تحليلاً علمياً سر سعادة المؤمن، أولاً: شعوره أن الله عزّ وجل يحبه، وأن الله بيده كل شيء حتى خصومه، حتى أعداؤه، حتى الجراثيم، الآن تعيش أوروبا خوفاً وهلعاً من أمراضٍ كثيرة، أما المؤمن فيعلم أن لكل شيءٍ حقيقة:

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(من سنن الترمذي: عن " عبد الله ")

إذاً: شعوره بأن الأمر بيد الله، وأنه يحب الله ورسوله، وأن الله لن يضيعه، لن يسلمه، لن يتركه، لن يضيّع عليه عمله، هذا شعورٌ لا يوصف.

انتقلنا إلى الآية الكريمة:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

مثل عظيم لمن يعتبر: عبادة الأوثان كبيت العنكبوت:

الإنسان دائماً يركن إلى قوةٌ تدعمه، إلى قوةٍ يطمئن لها، إلى قوةٍ تدافع عنه، إلى قوةٍ يحتمي بها، يلجأ إليها، قال هؤلاء الذين ما عرفوا الله عز وجل، ما قدّروه، ما اهتدوا إليه، يلجئون إلى قوى أرضية يعتمدون عليها، هذه القوة الأرضية لا تزيد على بيت العنكبوت، ما هذا البيت ؟ قال:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

ما اتخذ الله وليّه ؛ بل اتخذ زيداً وليّه، عُبيداً وليّه، فلانا وليّه، عِلاّنا وليّه، قال: فلان صديقي، وله منصب رفيع، فلان والدي، وله ثروةٌ طائلة، فلان مثقف ثقافة عالية يعرف الأمراض كلها، إذاً لا يصاب بمرض، أي أنه يعتمد على علمٍ، أو على قوةٍ، أو على مال يركن إليها، هذا ماذا فعل ؟ هذا اتخذ من دون الله أولياء، أي اطمأنت نفسه إلى قوى أرضية، إلى مخلوقاتٍ فانية..

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

إذاً: الله هو الولي، ربنا عزّ وجل قال:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ)

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ

فهذا البيت عبارة عن شبكة خيوط، بيت العنكبوت هل يدفع حراً ؟ أي هل له جدران وسقف ؟ هل يدفع قراً ـ أي برداً ـ ؟ هل يدفع عدواً ؟ هل له حراسة أو له سور خارجي ؟ لا يوجد، بيت العنكبوت لا يدفع حراً، والبعض يظن أن خيط العنكبوت غير متين، فهذا القول غير مقبول، إذا أمكننا أن نسحب الفولاذ بخيوطٍ دقيقةٍ جداً تشابه في قطرها خيط العنكبوت، لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ المساوي لقطره، هذه حقيقة جانبية.

من الإعجاز العلمي في الآية: أنثى العنكبوت تنسج البيت:

الشيء الآخر في الآية إعجازٌ علمي، الآن اكتشفنا أن أنثى العنكبوت هي النَسّاجة، هي التي تنسج خيوط بيت العنكبوت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ)

بتاء التأنيث الساكنة..

(بَيْتاً)

إذاً: أول فكرة أن خيط العنكبوت فيه إعجازٌ في الخلق، رفيعٌ جداً متينٌ جداً، حتى إنه أمتن من خيط الفولاذ، إذا كان بإمكان بني البشر أن يسحبوا خيط فولاذٍ بقطر خيط العنكبوت لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ، هذا شيء.

شيء آخر، أن التي تصنع البيت هي الأنثى، ولم تكن معطيات العلم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام كافيةً لمعرفة علامة الذكورة والأنوثة في العنكبوت النَسّاجة، ولكن العلم الآن اكتشف أن أنثى العنكبوت هي صانعة البيت، فجاء قوله تعالى:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)

ومع ذلك على مستوى البشر، بيت العنكبوت بيتٌ ضعيف، بإمكانك بخنصرك أن تزيله كله، خيوط رفيعة جداً، بيتاً لا يقي حراً، ولا يقي قراً، ولا يدفع عدواً، ليس له جدرانٍ وسقفٍ، فهذه العنكبوت إذا احتمت بهذا البيت، مثلها كمثل إنسانٍ بعيدٍ عن الله عزّ وجل احتمى بجهةٍ أرضية، ظن أنها تقيه، أنها تحميه، أنها تحفظه، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(123 سورة التوبة)

هذه معية خاصة، والمعية الخاصة أي معهم بالحفظ، والرعاية، والتوفيق، إذا كنت مع الله كان الله معك..

كن مع الله تر الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه   ثم من يعطي إذا ما منعك

***

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إذاً هؤلاء الأقوام ؛ الفراعنة، قوم هود، قوم عاد، قوم ثمود، قوم شعيب، قوم سيدنا موسى، هؤلاء الأقوام الذين ظلّموا، وبغوا، وطغوا، واستعلوا

كيف دمرهم الله عزّ وجل ؟ إنهم حينما احتموا بقوتهم، واحتموا بتدبيرهم، واعتدّوا بما يملكون، دَمَّرَهُم الله عزّ وجل، مثلهم كمثل هذه العنكبوت:

(اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

فإنسان مثلاً لا يعقل أن يتخذ قطعة قماشٍ تحميه من الرصاص في المعركة، يكون أحمق، فهذه القطعة لا تمنع الرصاص، لا بدّ من الفولاذ، لا بدّ من درعٍ، لا بدّ من حِصْنٍ، لا بدّ من ترسٍ يقيك هذا الرصاص، إذاً تأكّدت أن هذا الذي اتخذته ولياً لا يحميك فاتخاذه حُمْقٌ وغباء، اتخذ وليٌّ يحميك، الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا، ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إنّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِه مِن شَيْءٍ

فالإنسان فيما بينه وبين نفسه إذا كان اعتماده على زيدٍ أو عبيد، أو على ماله، أو على قوته، أو على ذكائه، أو على علمه، أو على عشيرته، أو على زوجته، يقول لك: لي زوجة شابة، مدبّرة، أحياناً أي جهةٍ تعتمد عليها اعتماداً فيه أحد أنواع الشِرْك، ربنا سبحانه وتعالى يَغَار، ومعنى يغار أنه يُخَيّبَ ظنك إذا اعتمدت عليه، اجعل همك أن تعتمد على الله عزّ وجل، لا تجعل ما دون الله عزّ وجل ولياً لك، ما دون الله عاملهم بالإحسان..

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُهُ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ))

[البخاري عن ابن عباس]

بمجرد أن تعتمد على غير الله عزّ وأن تركن إلى غيره، وأن تثق بغيره، وأن يَبُثّ غير الله في قلبك الطمأنينة، فقد وقعت في الشرك وأنت لا تدري، وتأديب الله عزّ وجل إذاً أن يُخَيّبَ ظنك في هذا الذي اعتمدت عليه.

الفرق بين التوحيد والشرك:

قال العلماء: الفرق بين الشرك والتوحيد، المؤمن الموحِّد يأخذ بالأسباب، والمشرك بالأسباب، والفرقُ بينهما أن المؤمن يأخذ بالأسباب، ويعتمد على رب الأرباب ؛ بينما المشرك يأخذ بالأسباب، ويعتمد عليها.

مثلاً: إنسان سافر بمركبته، إذا راجعتها قبل السفر مراجعة جيدة، وضبطت كل شي فيها، واعتمدت على هذه المراجعة، قد تفاجأ بأنها قد تقطعك في الطريق، كان اعتمادك على مراجعتك لهذه المركبة، أما إذا راجعت ما فيها من خلل واعتمدت على الله عزّ وجل، هذا هو الموقف السليم.

لذلك حتى في العمل تأخذ بالأسباب، وتعتمد على الله، في تجارتك، في صناعتك، في وظيفتك، في دراستك، في كل شؤون حياتك، في علاقاتك الداخلية والخارجية، تأخذ بالأسباب وتعتمد على الله، أما إذا أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها فقد أشركت، لهذا كلما أقدمت على عمل قل: **" اللهم إني تبرّأت إليك من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين ".**

هذا الشعور بالفقر شعور حقيقي، وشعور علمي واقعي، وليس شعوراً وهمياً، يجب أن تشعُر أنه ليس لك من الأمر شيء.

الإنسان أحياناً يتوجّهُ بالدعاء إلى الله عزّ وجل يقول: يا رب، توكلت عليك، ليس لي سواك، أحياناً يدعو بهذا الدعاء ونفسه معتمدة على زيد، في أعماقه أو في عقله الباطل شعور أن فلانا لن يتخلّى عنه، وفلان قوي، فليس المهم أن تقول بلسانك: توكلت عليك يا رب، المهم أعماق قلبك على من هي المعتمدة، على من هي مُتَّكِلة ؟ إلى من تلجأ في الشدة ؟ فربنا عزّ وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

معنى الآية:

أي أنك إذا دعوت غير الله في قلبك في أعماقك، الله يعلم هذا، فالبطولة لا أن يكون هذا اللسان كما يريد الله عزّ وجل، البطولة أن يكون قلبك كما يريد، أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو الولي ولا ولي سواه، هو القوي ولا قوي سواه، هو الرافع ولا رافع سواه، هو الخافض، هو المعز هو المذل، فهذه إن الله يعلم، فالإنسان قد يدعو بلسانه ربه وهو معتمدٌ على غير الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل لا يحاسبك على اللسان يحاسبك على ما استقر في الجَنَان، في القلب، الله يعلمه..

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)

كلمة من دونه، من دون الله هو واجد الوجود، الذات الكاملة، هو القوي، هو الغني، من دون غير قوي، غير غني من دونه، أي جهةٍ دون الله عزّ وجل لا تملك شيئاً لا نفعاً ولا ضُراً، ولا موتاً ولا حياةً، ولا رزقاً ولا نشوراً، فلذلك من الغباء ومن الجهل أن تتجه بكُلِّيَتِكَ إلى غير الله عزّ وجل، عبدٌ فقيرٌ مثلك، العوام يقولون مثل: (حيل المفلس عن المفلس ترى العجب).

لما يعتمد الإنسان على غير الله عزّ وجل كأنه يتجه مفلس إلى مفلس، يقول له: والله لا يوجد معي شيء، **"... ليتني يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين ".**

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس)

العبرة في الأمثال بالمغزى:

الحقيقة المثل أحياناً يُضْرَب، إنسان يستمع إليه، ولكن لا يعقل المَغزى، إنسان يستمع إليه، ولا يدرك أبعاد المثل، قال:

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

الأمثال يعقلها العالمون:

لذلك العالم، الإنسان إذا أعمل عقله في الكون، وحضر مجالس العلم، ونمت معرفته شيئاً فشيئاً، ما من مجلس علمٍ إلا ويرفعك عند الله درجة، وهذه الآيات إذا فهمتها (أصبحت رُكناً من أركان إيمانك)، كلما حضرت مجلس علم نما إيمانك، واستقرت هذه الحقيقة وتثبتت، إلى أن تشعر بعد حين أنك إنسان آخر لك رؤيةٌ صحيحة، هذا الشيء لا أفعله ولو قُطِعْتُ إرباً إرباً، هذا الشيء لا أقترفه، فما الذي منعك من فعل هذا الشيء مع أنك كنت تفعله من قبل ؟ معرفتك بالله عزّ وجل، فالعلم سلاح، أنت كلما ازددت علماً ازددت قوةً على الشيطان.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

كلما ازددت علماً ازددت تَمَنُّعَاً، ازددت تحصناً، قوةً على خصم، فلذلك: الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

(من سنن أبي داود: عن عبد الله بن داود)

فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً.

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

مَن هم العالِمون ؟

الآية الأخيرة، من هم العالمون ؟ عالمون بماذا ؟ عالمون بأن الله:

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بالحَقِّ

الآية دقيقة جداً، الله عزّ وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص: من آية " 27 ")

آية ثانية:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء16)

إذاً: الله عزّ وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لَعِبَاً، نفى الباطل ونفى اللعب.

ما هو الحق وما هو الباطل ؟

الباطل الشيء الزائل، واللاعب الشيء العابث، إذاً ما معنى بالحق ؟

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

من آيتين أُخْرَيَين يتضح معنى هذه الآية، الحق شيءٌ خلاف الباطل، الباطل زائل، الحق إذاً دائم، الحق شيءٌ خلاف اللعب، واللعب هو العبث ؛ أما الحق فهو الشيء الهادف، إذاً من معاني الحق أنه الشيء الهادف الدائم، الباقي، الثابت، إذاً حينما خلق الله السماوات والأرض خلقها لا يبقى إلا وجه الله والكل يزول، إذاً: الإنسان باقٍ إلى أبد الآبدين، يذوق الموت حينما ينفصل جسده عن نفسه، يذوقه ذوقاً ولا يموت..

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

(77 سورة الزخرف)

فأنت خُلِقتَ أيها الإنسان لتبقى إلى أبد الآبدين، إما في سعادةٍ أبديةٍ، وإما في شقاءٍ أبدي، إذاً إذا علمت أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وأنت مما في السماوات والأرض، خلق السماوات والأرض لهدفٍ كبير.

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية " 119 ")

خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، خلقنا لنسعد به في أبد الآبدين، إذاً خلق الله الكون ليسعده، وخلق الإنسان ليكون سيّد الكون، المخلوق الأول كلّفه بالأمانة..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(10 سورة الشمس)

إذاً العالمون بأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، فأكثر العوام يقولون لك: سبحان الله ! الله خلقنا للعذاب، كلام كله جهل، كله حُمْق، كله قصور في الإدراك، خالق هذا الكون ماذا يستفيد من تعذيبنا ؟

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ)

(سورة الزمر: من آية " 7 ")

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(من صحيح مسلم: عن " أبي ذر ")

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

معنى ذلك أنك خُلِقْتَ كي تعرفه، وكي تشكره وتقبل عليه، إذاً:

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

ما خلقها لعباً بلا طائل، ما خلقها عبثاً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

لا، ما خلقها باطلاً..

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(36 سورة القيامة)

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

الذين يعلمون، جاء بالتفسير..

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (11-16): تفسير الآيات 41 - 44

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

خلق الإنسان ضعيفًا لمصلحته

بينت لكم في الدرس الماضي بفضل الله عز وجل وتوفيقه أن الإنسان خلق ضعيفاً، هكذا أراد الله عز وجل أن يكون الإنسان وضعفه لمصلحته، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه إلى الله، فيسعد بافتقاره، ولو أنه خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، خلقه ضعيفاً، ومن شأن الضعيف أنه يحتاج إلى ركن ركين، يحتاج إلى قوة يلتجئ إليها، إلى قوة يحتمي بها، إلى قوة يستعيذ بها، إلى قوة تكون سنده وعونه في متاعب الحياة، ما الذي يحصل ؟ بدل أن يلتجئ الإنسان إلى خالق الكون، إلى المربي، إلى المسير، إلى الذي معك أينما كنت، إلى الذي يعلم سرك ونجواك، إلى الذي بيده كل شيء، قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

[سورة هود، من آية " 56 "]

مِن جهلِ الإنسان لجوءه إلى إنسان ضعيف مثلِه:

الإنسان في جهله وضلاله بدل أن يلتجئ إلى خالق الكون إلى مربيه، إلى مسيره، إلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض، إلى من بيده كل شيء إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، إلى من يسمع سره ونجواه، إلى الحكيم العليم، إلى الغني القدير، إلى صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، اتجه الإنسان إلى غير الله عز وجل، بحسب رؤيته غير الصحيحة رأى أن المال قوة فانكب على المال يسعى في جمعه وادخاره، وشعر أن المال قوة، وأنه يعصمه من كل البلايا والمحن، فالذي يركن إلى المال، ويعتمد عليه، ويلوذ به، ويراه حصناً له من كل مكروه إنسان جاهل، والعوام يقولون: الدراهم مراهم، وهذا النظر، وهذا الفكر فيه إشراك بالله عز وجل، قد

يكتشف الإنسان إن عاجلاً أو أجلاً أن المال ليس كل شيء، بل هو شيء، بل إن من مصائب الدنيا ما لا يستطيع المال أن يفعل بها شيئاً، لو أن هناك مرضاً عضالاً أصاب الإنسان ماذا يفعل المال ؟

المعنى الواسع لقوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ:

إذاً المعنى الواسع لقوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

[سورة العنكبوت]

المال لا يحلُّ جميع المشكلات:

بالمعنى الواسع: إذا ركنت إلى المال، واتخذته ولياً، وظننت أن المال يحل كل مشكلة، وأنه عز في الدنيا، وأنه يفعل المستحيل، وأنه يذلل العقبات فقد وقعت في فخ الشرك، وعلاج هذا الإنسان أن يأتيه شيء لا يستطيع المال أن يفعل شيئاً.

كنت عند طبيب، جاءته مكالمة هاتفية لذوي مريض، سمعت بأذني لشدة ارتفاع الصوت: أن يا طبيب، المبلغ الذي يحتاجه ندفعه في أي مكان في العالم، قال: لا والله، هذا الشيء ليس له حل، المرض مستفحل، وفي الدرجة الخامسة، ولو ذهبتم به إلى أي بلد في العالم فالنتيجة معروفة كما هي هنا.

أدركت أن المال في بعض الحالات لا يفعل شيئاً، فمن اعتمد على المال كمن اتخذ بيت العنكبوت بيتاً له، مع أن بيت العنكبوت كما قلنا في الدرس الماضي لا يقي حراً، ولا يقي قراً، ولا يدفع عدواً، هناك مجموعة خيوط ليس غير، إذاً لنعد المال القوة التي يراها معظم الناس قوةً قوية، فإذا رضي الله عنك، وحفظك من كل مكروه تسعد في الدنيا، ولا تسعد بكثرة مالك، لا يمنعك من الله إلا أن تكون في رضاه، فإن لم تكن في رضاه ومعك مالٌ كثير هناك مجموعة كبيرة جداً من المشكلات والأمراض لا يحلها المال، يحلها حفظ الله وتوفيقه، لذلك الذي يعتمد على ماله فقط، ويستغني عن الله كمن يتخذ بيت العنكبوت مأوىً له.

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

ربنا عز وجل تشاء حكمته أن يعالج هذا الذي اعتمد على المال بطريقة دقيقة، يرسل له مشكلة المال فلا يفعل فيها شيئا، هناك من يعتمد على قوة السلطان، يرى أن القوة التي بيدها مقاليد الأمور، هي كل شيء، فكل من يخاف سخطها يرضيها، يتقرب إليها إلى درجة أنه على حساب دينه، ثم يكتشف فجأةً أن

الأمر كله بيد الله، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه، وأن أي جهة من الجهات مهما علا شأنها، ومهما قويت لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أن يشاء الله، فنسي الأصل واتجه إلى الأداة، وهؤلاء الأقوياء أدوات بيد الله عز وجل، فإذا احتميت بهم ما منعوك من الله، لكنك إذا احتميت بالله عز وجل منعك من كل مخلوق.

إذاً من يعتمد على صديق أو قريب له مركز، له قوة، له ترتيب معين، يعتمد عليه، ويطمئن إلى دعمه له، ويجامله، ويعصي الله من أجله، ويتملق له، ويتقرب إليه اعتماداً على قوته وعلى كلمته النافذة فقد اتخذ بيت العنكبوت مأوىً له:

وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

إنسان يعتمد على صحته فيرى نفسه شديداً قوياً، متين البنية، دقيق الأجهزة، صحيح الجسم، يجري تحليلات كثيرة، فإذا المعايير كلها طبيعية، يعتمد على قوته، ويظن أن هذه القوة تبقى معه إلى أبد الآبدين، مع أن الله سبحانه وتعالى يجعل من بعد ضعف قوةً، ومن بعد قوة ضعفاً، فمن عرف الله في شبابه كان خريف عمره خريفاً مسعداً، ومن نسي الله في شبابه جاءه خريف العمر مشقياً، إذاً الذي يعتمد على شبابه كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، الذي يعتمد على ماله كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، الذي يعتمد على أقربائه من أولي الأمر والنهي كأنه اعتمد على بيت العنكبوت، والذي يعتقد أن العلم هو كل شيء يحصل أعلى الدرجات، كل قضية تحل بالعلم هذا أيضاً شرك، العلم شيء مهم جداً، ولكن أن تنسى الله من أجله، وأن تستغني عن الله به قد يكون العلم نفسه وبالاً على صاحبه.

مغزى الآية: الإبعاد عن كل أنواع الشرك:

الأخذ بالأسباب والاعتماد عليها من دون الله شركٌ:

إذاً: أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يبعدنا عن كل أنواع الشرك، وأن يبين لنا أن الذي يعتمد على غير الله عز وجل كمن التجأ إلى بيت العنكبوت، والقضية قضية نفسية، هناك من يأخذ بالأسباب، وهو مشرك، وهناك من يأخذ بالأسباب، وهو مؤمن، المؤمن مطالب بأن يأخذ بالأسباب، والمشرك يأخذ بالأسباب، الفرق دقيق جداً، المؤمن يأخذ بالأسباب، ويعتمد على الله، المشرك يأخذ بالأسباب، ويعتمد عليها، لأنه اعتمد على الأسباب استحق من الله أن يتخلى عنه، وأن يريه ما الأسباب، وما تفعل الأسباب وحدها، لذلك الحديث الشريف: عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ عِبَادَ اللَّهِ))

[من مسند الإمام أحمد]

مهما تكن ذكياً، مهما تكن دقيقاً، مهما تأخذ لكل شيء حساباً، مهما تعد لكل ثغرةٍ غطاءً، مهما فعلت من الأسباب المادية مما تقي نفسك القدر، ونسيت الله عز وجل، فإن الخطر يأتي من حيث لا تحتسب، وهذا سر من أسرار الله عز وجل، يؤتى الحذِر من مأمَنه.

إن طبيب القلب المتفوق البارع الذي يقيس ضغطه، ونبضات قلبه كل يوم، أو كل أسبوع، والذي يفعل كل ما من شأنه أن يبقى قلبه قوياً، ويعتمد على علمه فقط، وعلى تدريباته، قد يصاب بأزمة قلبية، ما تفسير هذا ؟

طبيب القلب يعمل ليلاً نهاراً في صيانة القلب وعلاجه، لأنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها فأوكله الله إليها.

وطبيب الجهاز الهضمي قد يصاب بقرحة في المعدة، حينما تعتمد على الأسباب، حينما تركن إليها، وتنسى الله عز وجل تؤتى منها، تؤتى من موقعك الحصين، تؤتى من هذا الموقع الذي تحصنت به، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء، وإرادته طليقة، وعلى الرغم من أن لهذا الكون قوانين، وسنناً، وقواعد، على الرغم من كل ذلك الله سبحانه وتعالى من قدرته أن يفاجئك بمشكلة أخذت أنت كل الاحتياطات لتلافيها، ومن قدرته أن يحميك من مشكلة، فنسيت أن تأخذ الاحتياطات لها، فالله خالق كل شيء، لا شيء قبله، ولا شيء بعده.

إذاً: نهاية العلم التوحيد، والتوحيد ليس كلمة تقولها، لو أنها كلمة تقولها القضية سهلة جداً، أحياناً إنسان يسأل طبيباً قال له: يا طبيب، علمني كيف أكتب الوصفة، ضحك الطبيب ملء فمه، قال: هذه الوصفة محصلة علم الطب كله، كل شيء درسته في كلية الطب، كل التدريبات، كل الملاحظات، كل التجارب، محصلتها كتابة هذه الوصفة.

لذلك علمك كله، وحضور مجالس العلم كله، وصلواتك كلها، وإقبالك كله، وأعمالك الصالحة، واستقامتك، محصلة هذا كله أن توحد الله عز وجل، أن لا ترى مع الله أحداً هذا المؤمن، أن لا ترى غير الله، هناك في الحياة قوى كثيرة جداً، قوى كثيرة ومخيفة، ومادمت ترى هذه القوى على أنها مستقلة عن إرادة الله عز وجل فهذا شرك خطير، وإذا رأيت إنساناً أو جهةً تملك قوةً، وبإمكانها أن تفعل كل شيء، وهي مستقلة فيما يبدو عن الله عز وجل في أفعالها فهذا هو الشرك، أما إذا رأيت هذه القوة بيد الله وحده، وأن هذه القوة لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل، لا يمكن أن تنفعك بشيء، ولا أن توقع فيك شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل فهذا هو التوحيد.

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً)

[سورة الأنعام، آية " 80 "]

إلا إذا سمح الله لهذه القوة أن تطولك، لذلك قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود]

إذاً: عدّد ما شئت: قوى المال، قوى السلطان، قوى العلم، الصحة، الذكاء، المركز المرموق، هذه القوى التي تراها قوى حقيقية، وبيدها مقادير بعض الأمور، ولها إرادة مستقلة عن الله عز وجل، إذا كنت كذلك فإن صلاتك، وصيامك، وحجك، وزكاتك، وعقيدتك لم تستفد منها إطلاقاً، إنها مفرغة من مضمونها، هذا الدين الذي تعتنقه، وترى معه أن زيداً أو عبيداً، أو فلان أو علان بيده الأمر، وبيده أن ينفعك، أو يضرك، إذاً أنت اعتنقت ديناً مفرغاً من مضمونه، اعتقادك شكلي، لا يقدم ولا يؤخر، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

العجيب أن آيات القرآن الكريم كلها تدور حول هذه النقطة، كأن التوحيد محور كتاب الله، وحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف، آية " 110 "]

لخص الله عز وجل بهذه الآية القرآن كله، هذا هو التوحيد، لذلك من الشرك تتأتى كل المشكلات، بل إن عذابات لا تعد ولا تحصى تتأتى من الشرك، والدليل قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

[سورة الشعراء]

الشرك عذاب نفسي:

تعذب نفسك، تشعر أن فلان بيده أمرك ولا يحبك، ويتمنى أن يحطمك، ولا حول لك ولا قوة، هنا المشكلة، أما إذا رأيت أن الأمر كله بيد الله، وأن الله يحب عباده جميعاً، بل:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات 13)

وأن المؤمن له حياة طيبة، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بأمر الله عز وجل، هذه العقيدة وحدها شفاء للنفوس، لذلك الأمراض النفسية قلما تقع عند المؤمن لأنه موحد، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها، المؤمن قضيته سهلة، المؤمن مجموع الشمل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[الترمذي]

حينما تطيع الله عز وجل، حينما تصطلح مع الله عز وجل حينما تستسلم لأمر الله عز وجل، حينما تنقاد لهذا المنهج الرفيع الرباني هل تعرف ما تفعل ؟ إنك تسعد نفسك إلى أبد الآبدين، لأن انتماء الإنسان إلى ربه، والتزامه بأمره شيء مسعد، مسعد لنفسه، وهناك آثار أخرى فهو موفق في عمله، سعيد في بيته، ناجح في عمله، واللهُ سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بحياة طيبة، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

الحياة الطيبة أكبر دليل على صدق هذا الكتاب، وعلى صدق هذا الدين، وعلى أن هذا الدين منهج الله عز وجل، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة العنكبوت]

الإعجاز العلمي في هذه الآية: بيت العنكبوت:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن في الآية إعجازاً علمياً، والدليل أن معطيات العلم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ما كانت لتسمح أن يعرف العلماء، أو الملاحظون، أو من يعملون مع الحيوانات أن هذه الحشرة، أو أن هذا المخلوق أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت، والدليل:

(اتَّخَذَتْ بَيْتًا)

هذا كلام خالق الكون، وخالق العنكبوت، والأنثى هي التي تنسج هذا البيت.

وفي الآية أيضاً ملاحظة أخرى، وهي أن خيوط العنكبوت على ضعفها لو أمكننا أن نسحب معدن الفولاذ خيوطاً بقطر خيط العنكبوت لكان خيط العنكبوت أمتن من خيط الفولاذ.

أخ كريم أطلعني على ملاحظة قرأها في كتاب أردت أن أنقلها إليكم، وهي أن من خصائص بيت العنكبوت أن الأنثى تأكل الذكر، وتقضي عليه، وأن أولاد العنكبوت يأكل بعضهم بعضا.

فمن أسباب ضعف هذا البيت هذا العدوان الداخلي على الأفراد بعضهم بعضا، إذاً هذا البيت ضعيف في بنيته، خيوط لا تقي حراً، ولا قراً، ولا عدواً، ضعيف في بنيته الاجتماعية.

وكما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **<< في القرآن آيات لما تفسر بعد >>.**

كلما تقدم العلم كشف شيئاً من إعجاز القرآن، لأنه كلام الواحد الديان، ولو تأملنا في الآيات أكثر لوجدنا فيها أشياء كثيرة، قال تعالى:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

[سورة الكهف]

ويجب أن تعلم أنه مهما أوتيت من علم أنك مشمول بقوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة العنكبوت]

وجهُ التمثيل ببيت العنكبوت:

الله سبحانه وتعالى حينما مثل لك الأولياء الذين تدعوهم من دونه ببيت العنكبوت، هذا مثل من قِبَل الخالق العظيم، فإذا اعتمدت على غير الله فكأنما تعتمد على بيت عنكبوت، ضعيف في بنيته، ضعيف في علاقاته الاجتماعية، والله سبحانه وتعالى يعلم ما إذا كنت موحداً أو مشركاً، يعلم ما إذا كنت معتمداً عليه أو على أحد خلقه، يعلم ما إذا كنت معتمداً على حفظه أم على مالك، يعلم ما إذا كنت معتمداً على جاهك أو على توفيقه، هذا كله مطلع عليه، بل إن محصلة إيمانك كلهِ أن توحده، وأن تعتمد عليه. آخر نقطة أقولها قبل أن أنتقل إلى آية ثانية: ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك إلى أن الأمر كله بيده، لو أن أمراً بيده، وأمراً بيد غيره أنت معذور أن تعبد غيره، ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود، آية " 123 "]

كله، كله إعرابها توكيد، يعني إليه يرجع الأمر أي الأمر كله، أما حينما قال الله عز وجل:

(إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ)

معنى ذلك أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، ولا قريبة ولا بعيدة في حياتك إلا بيد الله عز وجل، فمن الغباء والحمق أن تتجه إلى غيره، من ضعف الإيمان أن ترضي الناس بسخط الله، من ضعف الإيمان أن تحمدهم على ما أعطاك الله، من ضعف الإيمان أن تغضب منهم لشيء منعه عنك، لذلك يجب أن تعلم أن إنساناً إذا وصل إليك بالأذى فكأنه عصا بيد الله عز وجل، علاقتك مع الله، ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو عنه الله أكثر.

حينما تصل إلى مرتبة أن تحاسب نفسك، وأن تتأمل لماذا فعل الله بك هذا، إذا فهمت على الله أن هذه من أجل كذا، هذا الموقف الحرج الذي أصابك بسبب أنك أحرجت زيداً أو عبيداً، وهذا المال الذي تلف بين يديك بسبب أن في كسبه شبهة، وأن هذا الإنسان الذي تطاول عليك بسبب أنك تطاولت على زيد أو عبيد، إذا شعرت أن هناك حساباً دقيقاً، وإلهاً عادلاً تعلم عندئذٍ حلاوة الإيمان.

(إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة العنكبوت)

هو عزيز منيع الجانب، حكيم، يضع كل شيء في مكانه الصحيح، معنى الحكيم أي كل شيء وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، لذلك حينما يأتي الإنسانَ ملَكُ الموت يستعرض حياته كلها، فيرى كل ما ساقه الله إليه من صعوبات، من مشقات، من مضايقات، خلقه بهذا الشكل، بهذا الجسم، من هذه الأم، من هذا الأب، بهذا الحي بهذه المرتبة، من هذه الطبقة، يسر له سبيل العلم أو العمل أو التجارة أو الوظيفة، كان كذا وكذا، سافر، يكشف هذا الإنسان ساعة الموت، كما قال الله عز وجل:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق]

يكشف أن كل شيء ساقه الله إليه محض فضل وإحسان، لذلك يلخص الإنسان حياته كلها بكلمة واحدة، قال تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس]

هذا معنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع >>.**

الغنى الحقيقي:

هناك نقطة مهمة جداً، أن الحياة فيها غني، والغنى معروف، يأكل ما يشاء، ويرتدي أجمل الثياب، ويتنقل بين أجمل الأماكن، والناس يحبونه، ويبجلونه، ويعظمونه، وبإمكانه أن يذهب إلى حيث يريد، وأن يفعل ما يشاء بحسب الظاهر، وهناك إنسان فقير لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لو لم يكن هناك آخرة لم تستقم الحياة هكذا.

إنسان أعطي كل شيء في الحياة، وإنسان حرم من كل شيء، هذا قوي، وهذا ضعيف، هذا صحيح، وهذا مريض، هذا غني، وهذا فقير، لو لم يكن هناك دار آخرة تسوّى فيها الحسابات الحياة، وتعدل فيها الإمكانات، إذا أعطانا الله في الدنيا الحظوظ بتفاوت حينما وزعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء الحياة، فسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، فلذلك البطولة أن تكون في طاعة الله، أعطاك الله هذا أو

لم يعطك البطولة في الآخرة لهذا يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>.** الغنى الحقيقي، قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران]

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلّا الْعَالِمُونَ)

[سورة العنكبوت]

إن الله يضرب من الأمثال ما يشاء:

قال كفار قريش: إن رب محمدٍ يتحدث عن العنكبوت والذبابة، إنهم ما عقلوا عظمة المثل الذي ضربه الله عز وجل، لا يعقل هذه الأمثلة إلا العالمون، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا)

[سورة البقرة، آية "26"]

بعوضة، لهوان شأنها على الناس، إذا وقعت على يدك بعوضة تقتلها، ولا تشعر بشيء إطلاقاً، لو قتلت بعض الحيوانات لشعرت بحرج، لشعرت بضيق، لعلني أخطأت، تقول: لعل الله يحاسبني، أما إذا قتلت فهي هينة..

لها ثلاثة قلوب، وجناحا البعوضة يرفان في الثانية الواحدة أربعة آلاف رفة إلى مستوى الطنين، وفيها جهاز رادار تتجه في الظلام الدامس إلى جبين النائم لا إلى الوسادة، ولا إلى قطعة الأثاث، إلى جبين النائم فيها جهاز رادار، فيها جهاز تحليل دم، دم يعجبها، ودم لا يعجبها، لذلك أخوان ناما على فراش واحد، الأول يصاب بلدغ البعوض، والثاني لا يصاب، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير فإذا لدغت الإنسانَ لا يشعر إلا بعد أن تغادره، وجهاز تمييع للدم، رادار، تحليل، تخدير، تمييع، ثلاث قلوب، أربعة آلاف رفة في الثانية، لها أرجل فيها محاجم كي تقف على سطح أملس على ضغط الهواء، وبأرجلها مخالب تمكنها من أن تقف على سطح خشن.

(إِنّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: آية " 26 "]

(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ)

[43 سورة العنكبوت]

حينما قال الله عز وجل:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك]

بين البعوضة والحوت !!!

عظمة خلق البعوضة لا تقلّ عن عظمة خلق المجرة، ولا عن عظمة خلق الفيل، ولا عن عظمة خلق الحوت، الحوت يصل وزنه في بعض الحالات إلى مئة وستين طنا، أنثى الحوت إذا أرضعت ابنتها في كل رضعة ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات في اليوم طن من الحليب، إذا أراد الحوت أن يأكل وجبة سريعة كي يسد رمقه قليلاً كانت وجبته أربعة أطنان، يفتح فمه ويسير، فإذا تجمع في فمه أربعة أطنان من السمك يكتفي بها كوجبة سريعة تسد رمقه بعض الشيء.

والبعوضة على صغرها وجبته والحوت على كبره، دماغ الحوت له وزن، فيه خمسون طن من الشحم ـ دهن الحوت ـ الحوت المتوسط ينتج تسعين برميل زيت حوت، الحوت عظيم، والبعوضة عظيمة، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).

الحوت عندما يأكل سمك، السمك فيه حسك تفرز معدته مادةً تتواجد على رؤوس الحسك المؤنفة كي لا تؤذي جهازه الهضمي، هناك دقائق في الخلق لا يعلمها إلا الله، لذلك الكون أوسع باب لمعرفة الله وأوسع باب إذا تأملت في خلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة البقرة: آية " 164 "]

أنت محاط بآلاف الآيات، بملايين الآيات، الذي أتمناه على كل مؤمن إذا شربت الماء تتفكر من جعله عذباً فراتاً، وتتفكر لو كان ملحاً أجاجاً ؟ إذا تناولت رغيف الخبز هذا القمح من صممه موافقاً تماماً لحاجاتك ؟ تأمل في خلق الله إذا تناولت قطعة جبن، تأمل في هذا الحليب من صممه ؟ إذا تناولت قطعة لحم فهذه الأنعام مَن خلقها خصيصى لنا ؟ قال تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

(سورة النحل)

اعرف الله مِن خلال خَلقِه:

إذا أعْمل الإنسان فكره في خلق السماوات والأرض عرف الله عز وجل، وكلما ازداد علمك بالله عز وجل ازدادت خشيتك له، والدليل قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

[سورة فاطر]

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

إنسان يعيش خمساً وخمسين سنة، أربعاً وخمسين سنة، الحياة الدنيا ظنية لا يقين فيها، أما الآخرة فيقينية، إنسان يعيش ثلاثاً وثلاثين سنة، أو خمس عشرة، هناك حالات وفاة في الخمس سنوات حالات وفاة في العشرين سنة، في الثلاثين سنة، فلا سن ما فيه حالات وفاة، شاب ليلة عرسه يموت فجأة، إنسان عاد من بلاد الغرب يحمل دكتوراه مات بحادث قبل أن يستمتع بهذه الشهادة، فالحياة هذه ظنية، أي أن تبقى بها إلى سن الستين هذه قضية ظنية غير يقينية، أو إلى سن الخمسين ظنية، إنسان يهيئ نفسه أربعين سنة، ويأخذ أعلى الشهادات حتى يسكن في بيت متواضع، ويتزوج، بقي له عشر سنوات، الإنسان يشعر أن القضية لها سؤال كبير، أنه ألهذا خلقنا ؟ ألهذه الحياة القصيرة ؟ كل هذا الإعداد الطويل لحياة قصيرة مشحونة بالمتاعب والهموم والأحزان، العالم كله مآسٍ ساعة، لا فيها أمطار، وأحيانا لا مواد، وهذا عنده أولاد ذكور وليس عنده إناث، وهذا عنده إناث وليس عنده ذكور، هذا يشكو من علل خَلقية ومشكلات، إذا لم يكن هناك آخرة فالحياة تبدو غريبة، يصعب فهم الحياة بلا آخرة، ماذا يقول ربنا ؟

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة العنكبوت]

الحق والباطل:

المعنى الأول:

كلمة الحق نعرفها من آيتين أخريين، حينما قال الله عز وجل:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

[سورة ص]

بل خلقهما بالحق، الشيء الباطل هو الشيء الزائل، أما بالحق فهو الشيء الثابت والدائم، فيا أيها الإنسان خلقت لتبقى، خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين، وما هذه الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأخرى، والآن توضح الأمر، مادام إعداداً إذاً هي مدرسة، إذاً هي دار ابتلاء، وأروع كلمة قالها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي أن الخلق خلق السماوات والأرض شيء أبدي سرمدي، الموت حالات تحوّلٍ من حالة إلى حالة، ثوب تخلعه، ثوب الجسم تخلعه، ولك ثوب آخر في الآخرة إذاً قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران]

الموت أخطر حَدَثٍ في الحياة:

تذوق الموت ولا تموت، تخلع عنها هذا الجسد الذي حملها في الدنيا، إذاً أنت مخلوق لا لحياة قصيرة، لحياة أبدية إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفذ عذابها، فالقضية خطيرة، لذلك لما قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك]

هنا سؤال، لماذا قدم الموت على الحياة ؟ قال: لأنه تقديم أهمية، أنت حينما تولد أمامك خيارات كثيرة، مؤمن أو غير مؤمن، موحد غير موحد، محسن مسيء، أنت مخير، أما إذا جاءك الموت ختم عملك، وانقضى أجلك، وانقلبت إلى ربك، ما لك من خيار، وأصبحت في ممر إجباري.

" فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ".

الموت أخطر، الحياة فيها خيارات، أمامك تغير، تعود إلى الله تنيب إليه، تؤمن بعد الكفر، توحد بعد الشرك، تحسن بعد الإساءة، هناك خيارات، أما إذا جاء الموت، وختم العمل، وانقضى الأجل أصبحت في ممر إجباري، إما إلى الجنة وإما إلى النار، لهذا ربنا عز وجل يقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك]

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة العنكبوت]

خلقت لتبقى.

المعنى الثاني:

المعنى الثاني قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء]

إذاً الحق خلاف اللعب، والحق خلاف الفناء، باطلاً يعني زائلاً، ما خلقناهما باطلاً، بل خلقناهما للاستمرار، وما خلقناهما لاعبين، بل خلقناهما لهدف كبير، لذلك كلمة الحق تعني السمو في الهدف، والثبات في الوجود، الشيء الثابت الهادف، أنت مخلوق بالحق أي خلقت لتبقى، وخلقت للهدف عظيم. خلقت السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تتعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

من صفات الإنسان: الهلع والجزع:

إذاً حيثما وردت كلمة بالحق في القرآن الكريم، القرآن فسرها أعلى أنواع التفسير، قال تعالى:

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج]

ما معنى هلوعا ؟ الله فسرها قال:

(إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

[سورة المعارج]

(وَاعْبُدْ رَبّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر]

ما اليقين ؟ الله فسرها بآية ثانية:

(حَتّى أَتَانَا الْيَقِينُ)

[سورة المدثر]

الموت، إذاً أعلى أنواع التفسير ما فسره القرآن، في مكان الكلمة جاءت موجزة، وفي مكان آخر جاءت مفصلة، وهذه الكلمة بالحق بآيات أخرى نفى الله عز وجل أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، والشيء الباطل هو الشيء الزائل، إن الباطل كان زهوقا، الزاهق الزائل.

إذاً الحق عكس الباطل، الباطل شيء زائل، أحياناً ننشئ جناحاً في معرض، هذا الجناح يبنى من قماش ليلغى بعد أسبوعين، من مواد خفيفة جداً، أما إذا وجد بناء ضخم فهذا البناء يبنى ليبقى من قماش فالشيء الباطل الشيء الزائل من قماش والحق باقٍ، الله عز وجل هو الحق.

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ)

أي خلقها لتبقى، وأنت أيها الإنسان مخلوق لتبقى، والموت حالة خاصة، حالة خلع ثياب، وثياب أخرى ترتديها بعد الموت، أما قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبّكَ قَالَ إِنّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف]

الإنسان خلق من نور الله عز وجل، خلق ليبقى، الكون كله باقٍ طبعاً يختلف من شكل إلى شكل، من صورة إلى صورة، قال تعالى:

(إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب]

المعنى الثاني:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

[16 سورة الأنبياء]

معنى لاعبين أي عابثين فالحق عكس العبث، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)

[سورة القيامة]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون]

الحق يعني الشيء الهادف، الثابت الهادف، كلمة الحق تعني أنك ثابت وهادف، لك هدف كبير خلقت له، فإذا غاب عنك هذا الهدف الكبير كان الضلال المبين.

الإنسان سافر إلى باريس مثلاً، استيقظ، أخطر سؤال يطرحه على نفسه: لماذا أنا هنا ؟ إذا كنت تاجراً أين المؤسسات والمصانع ؟ إذا كنت سائحاً أين المتنزهات والمقاصف ؟ إذا كنت طالباً أين الجامعات والمعاهد ؟ إذا كنت في مهمة أين اللقاءات والمباحثات ؟ الحركة تتحدد إذا عرفت الهدف، إذا عرفت لماذا أنت في هذه المدينة تأتي حركتك صحيحة موفقة، فإذا كنت طالباً وانشغلت بالسياحة ضيعت السفر سدى، إذا كنت تاجراً، وانشغلت بلقاءات جانبية لا جدوى منها ضيعت التجارة، البطولة أن تعرف لماذا أنت في الدنيا من أجل أن يأتي عملك صحيحاً.

(خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقّ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة العنكبوت]

الدرس القادم إن شاء الله تعالى إن أحيانا لهذا الدرس، قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلَاةَ إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

تأملوا في هذا الأسبوع في معنى قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

فهمٌ مغلوطٌ:

أكبر من الصلاة، بعضهم فهم هذه الآية خطأً، أنا مادمت أذكر الله لا أصلي، لقوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

هناك معانٍ كثيرة جداً، ولعل الله ينفعنا بها جميعاً من قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (12-16): تفسير الآية 45

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

أهمية الصلاة في الإسلام:

هذه الآية ذات أهمية كبيرة جداً، لأن الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ولا خير في دين لا صلاة فيه، إنها عماد الدين، وعصام اليقين، وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات. الله سبحانه وتعالى يقول:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الإنسان مخلوق، وأسماء الله الحسنى تقتضي أن يرشده الله، أن يعرفه، أن يأمره، أن ينهاه، أن يبين له، أين كان، وما مهمته في الدنيا، وإلى أين المصير ؟ وما قيمة الدنيا، وما سر وجوده فيها ؟ وما أفضل شيء يفعله فيها ؟ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ونوره خلق الكون وأنزل هذا الكتاب.

الأمر الموجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثة أنواع:

إذاً: الله سبحانه وتعالى يأمر الناس من خلال أمره للنبي عليه الصلاة والسلام، والأمر الموجه إلى النبي على أنواع ثلاثة:

1 – الأمر الخاص بالنبي:

نوع موجه إلى النبي خاصة، وهذا ما اتفق عليه العلماء على أنه من خصوصيات النبي عليه الصلاة والسلام.

2 – الأمر الموجّه إلى المؤمنين من خلال النبي:

وأمر موجه إلى المؤمنين من خلال أمر النبي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب]

لا يوجد في الكون إنسان أشد تقوىً لله من النبي، إذاً: هذا الأمر موجه إلى المؤمنين من خلال أمر النبي.

3 – الأمر الموجّه إلى النبي والمؤمنين معًا:

وأمر موجه إلى المؤمنين والنبي معاً، فحينما يقول الله عز وجل يخاطب رسول الله عليه وسلم:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إذا كان هذا الأمر موجهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو موجه استناداً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِنّ اللّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ...))

[مسلم عن أبي هريرة]

الأمر بتلاوة القرآن:

هذا الأمر موجه إلينا، إذاً أنت مأمور أن تتلو هذا الكتاب، لأن فيه تعريفاً لحقائق الكون والحياة وحقيقة الإنسان، هذا الكتاب تعليمات الصانع، هذا الكتاب نشرة إيضاحية لسر وجودك في الدنيا.

إذاً: أيها المؤمن، عليك أن تتلو هذا القرآن، لأنه خطاب خالق الأكوان لهذا الإنسان، شيء عجيب جداً أن يعرض الإنسان عن تلاوة القرآن قبل أن يفهم مضمونه، هل تصدق أن إنساناً جاءته رسالة لم يفتحها، ولم يقرأها، بل نبذها، المنطق يقول: اقرأ ما في الرسالة، إن أعجبتك فخذ بها، وإن لم يكن كذلك فانبذها، أما أن تنبذها قبل أن تقرأها، قبل أن تقف على حقائقها، قبل أن تعرف مرسلها، قبل أن تعرف سرها، حكمتها، فهذا موقف فيه غباء شديد.

أنت إنسان خاطبك الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: آية " 21 "]

يا أيها الذين آمنوا، افعل لا تفعل، أعطاك أمرا، أعطاك نهياً، ووعد وأوعد، بيّن و فصّل، وذكّر

الماضي والحاضر والمستقبل، إذاً: نحن المؤمنين مأمورون أن نتلو هذا الكتاب من خلال أمر الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتلو ما أوحي إليه.

يجب أن نتلوه كي نعرف الله عز وجل، فإذا عرفناه فلابد من حركة، لابد من موقف، لابد من توجه، لابد من اتجاه إلى الله عز وجل.

أنت أولاً:تعرفه، وثانياً: تتصل به، أولاً: تعرفه، وثانياً: تطيعه، تعرفه، تتقرب إليه، تعرفه تسعد بقربه.

الآية منطقية:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

لو تذوقنا معنى

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

إذا قلت: سأقيم بناءً في هذا المكان، كلمة أقيم بناءً كلكم يعلم ماذا تعني هذه الكلمة ؟ إقامة البناء تحتاج إلى شراء أرض، تحتاج إلى رخصة، تحتاج إلى حفر أساسات، تحتاج إلى مواد أولية، تحتاج إلى منفذين، تحتاج إلى صنعة، تحتاج إلى وقت، تحتاج إلى نضج، تحتاج إلى عوامل معينة، كسوة خارجية وكسوة داخلية، فكلمة: أقم بناءً في هذا المكان تعني عملاً جاداً، عملاً كبيراً، عملاً هادفاً، عملاً ذا مراحل، الله عز وجل يقول:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ)

فلابد من أن تصلي، ولابد من أن تحدث مع الله صلة، ولابد من حسن علاقة مع الله عز وجل حتى تكون هذه الصلة.

منزلة الصلاة في الإسلام:

1 – في الصلاة معاني العبادات الأخرى:

يا أيها الإخوة الأكارم، الصلاة كلها سر الدين، الصلاة وحدها، لا تنسى أن في الصلاة معنى الحج، وفي الصلاة معنى الصيام، وفي الصلاة معنى الزكاة، وفي الصلاة معنى الاتصال بالله عز وجل، توجهك إلى بيت الله الحرام أخذت الصلاة من الحج، التوجه نحو الكعبة، وأخذت الصلاة من الصيام، وأنت في الصلاة ممتنع عن الطعام والشراب، وكل حركة خارجة عن حركات الصلاة، وأخذت من الزكاة أن الوقت هو أصل المال، فإذا أنفقت الوقت في سبيل الله صليت الظهر فرضاً وسنةً، فكأنما أنفقت مالك، لأن الوقت أصل المال، ولن تحصّل المال إلا بالوقت، وأخذت من الاتصال بالله جوهر هذه

الصلة، الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ولا خير في دين لا صلاة فيه.

2 ـ الصلاة هو الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحالٍ:

الشيء الثاني: هو أن الصلاة هي الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، لا في سفر ولا في حضر، ولا في صحة، ولا في مرض، ولا في قتال، ولا في خوف، ولا في شبع، ولا في جوع، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، إنها الصلاة، الصيام يسقط عند السفر، وعند المرض، والحج يسقط عند عدم الاستطاعة، والزكاة تسقط عند الفقر، ولكن الصلاة هي الفرض المتكرر، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

3 ـ الصلاة ذِكرٌ:

أقِمها من أجل الذكر، أقمها من أجل أن تذكرني، ذكر الله هو جوهر الصلاة، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق]

4 ـ الصلاة قُربٌ:

الصلاة إذاً حالة قرب من الله عز وجل، والصلاة حالة ذكر، والصلاة حالة قرب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء]

الصلاة حالة وعي، حالة قرب، وحالة ذكر، وحالة وعي.

5 ـ الصلاة حالة أخلاقية:

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

إذاً الصلاة حالة أخلاقية، مستحيل أن يجتمع في الإنسان منكر أو فحشاء وهو يصلي، مادمت متصلاً بالله فأنت طاهر، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

[سورة المؤمنون]

قال بعض العلماء: الخشوع ليس من فضائل الصلاة، بل من فرائضها، لعظم الصلاة في الإسلام الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه]

يعني من صلى في البيت فعليه أن يصلي مع أهله، إذا صلى مع أهله، وضمن صلاتهم فكأنما نفذ هذه الآية الكريمة.

والصلاة أيها الإخوة، لا تعني أن تصلي خمس مرات، وأن تشرد بين الصلوات كما يشرد البعير عن صاحبه، قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

(سورة البقرة)

وفي بعض تفسيرات هذه الآية بين الصلاتين لتكون ملتفتاً إلى الله عز وجل.

تاركُ الصلاة فيه ضعفٌ خُلقي: إنه الهَلَع والجزع والمنع:

يجب أن تعلم علم اليقين أن كل إنسان لا يصلي فيه ضعف خلقي، من هذا الضعف قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20))

[سورة المعارج]

ما أن يلمح شبح مشكلة، أو شبح مصيبة، أو يلمح نازلة، أو رزية، أو مرضاً حتى تنهار قواه، من هو الهلوع ؟ إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع، جزوع على وزن فعول، صيغة مبالغة، يعني كثير الجزع، وكثير الهلع، وكثير المنع، جزوع ومنوع، قال تعالى:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المعارج]

إلى آخر الآيات، هؤلاء مستثنون من هذا الضعف الخُلقي.

إن الإنسان خلق هلوعا، فلولا الصلاة لكان هلوعاً جزوعا منوعاً، أما المصلي فاستثناه الله من هذا الضعف الخلقي.

ضعف المسلمين وذلهم بسبب ترك الصلاة والتهاون فيها:

شيء آخر، هل تصدقون أن كل ما تعانيه الأمة الإسلامية من مصائب، ومن رزايا، ومن مشكلات، ومن ضعف، ومن تفكك، ومن و من، إلى ما لا نهاية بسبب تركهم الصلاة أو تهاونهم فيها، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

أضاعوا الصلاة، فاتبعوا الشهوات، أو اتبعوا الشهوات لأنهم أضاعوا الصلاة، بين إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات علاقة ترابطية أضاعوا الصلاة فاتبعوا الشهوات، اتبعوا الشهوات فأضاعوا الصلاة، فسوف يلقون غيا، ولقد لقي المسلمون ما لقوا بعد أن أضاعوا الصلاة، وليست إضاعة الصلاة تركها، يا ليت، ولكن إضاعة الصلاة ترك موجباتها.

مِن موجبات الصلاة:

ـ من موجبات الصلاة الاستقامة على أمر الله.

ـ من موجبات الصلاة تحرير الدخل.

ـ من موجبات الصلاة إنفاق المال في وجوهه.

ـ من موجبات الصلاة ضبط الجوارح، وغض البصر.

ـ من موجبات الصلاة الكف عن سماع ما لا يرضي الله عز وجل.

إذا ضبطت جوارحك كلها وحررت دخلك، ونفذت كل الأوامر التعاملية فيما بينك وبين نفسك، وفي ما بينك وبين الناس عندئذٍ تشعر بطعم الصلاة، وتذوق حلاوة الإيمان، وتشعر بطعم القرب، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

من خصائص الصلاة:

1 – الصلاة عقلٌ:

النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق هو حبيب رب العالمين، سيد ولد آدم، هو المبلغ عن الله عز وجل يقول:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

2 – الصلاة ميزان:

ليس لك من هذه الصلاة إلا ما عقلت منها، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة ميزان))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

ميزان لأعمالك إذا فعلت هذا العمل، إن كنت تستطيع أن تصلي بعده صلاةً صحيحة تقبل بها على الله عز وجل، فهذا دليل أن هذا العمل صحيح، أما إذا أوقعك هذا العمل في حالة خجل، وصار هذا العمل حجاباً بينك وبين الله عز وجل هذا دليل أن صلاتك، وأن هذا العمل لا يرضي الله عز وجل:

((الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمارها، الصلاة ميزان فمن وفى استوفى، وفِّها حقها تستوفِ ثمراتها، وفِّها حقها تستوفِ ما أعد الله للمصلين من نعيم مقيم.

3 – الصلاة موعدٌ مع الله:

شيء آخر، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا حضرته الصلاة فكأنه لا يعرفنا، ولا نعرفه لعظم هذا اللقاء أنت على موعد مع الله عز وجل، أنت على موعد مع خالق الكون وجعلت قرة عيني في الصلاة، إذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه إطلاقاً.

عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ، قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلالُ، أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أحمد]

ولسان حال بعض المصلين: أرحنا منها، صليت ؟ نعم، الحمد لله، ارتحنا أننا صلينا، يجب أن نرتاح في الصلاة، لا أن نرتاح منها.

4 – الصلاة مناجاة:

شيء آخر، لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل، راقب نفسك وأنت عند عظيم في مكتبه هل تعبث بسبحة ؟ هل تقرأ جريدة ؟ هل تقرأ مجلةً ؟ هل تنظر إلى السقف أو إلى قطع الأثاث، أو إلى بعض الأشياء ؟ هل تخرج دفتراً تتلهى به ؟ أما إذا كنت عند إنسان تظنه عظيماً كلك التفات إليه، كلك توجه نحوه، تجلس في غاية الأدب، في غاية الإصغاء، في غاية الاهتمام، إذا كنت مع من تظنه عظيماً هكذا، فكيف إذا كنت مع ملك الملوك، ومالك الملوك ؟ لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسلا بسند ضعيف]

لا يلتفت لشيء آخر لو يعلم من يناجي.

5 – الصلاة نورٌ:

و النبي عليه الصلاة و السلام يقول:

((الصّلَاةُ نُورٌ))

[الترمذي عن أبي مالك الأشعري]

إذا صليت صلاة كما أراد الله، إذا صليت الصلاة التي أمر بها رسول الله، إذا صليت الصلاة التي وصفت في القرآن الكريم ألقى الله في قلبك نوراً فرّقت به بين الحق و الباطل، رأيت الخير خيراً، والشر شراً، هل تصدقون أن كل المآسي التي يعانيها الإنسان هي بسبب خطأ في رؤيته، يرى أن كسب هذا المال مغنماً كبيراً يكسبه حراماً فيذيقه الله ألوان العقاب، ألوان العقاب سببها كسب هذا المال، و كسب هذا المال سببه خطأ في الرؤية.

إذاً أعمالك كلها أيها الأخ الكبير أساسها رؤية، إما أن تكون هذه الرؤيا صحيحة، وإما أن تكون غير صحيحة، إن كانت صحيحة وفقت وسعدت، وإن لم تكن صحيحة دفعت الثمن باهظاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلَاةُ نُورٌ))

نور يقذفه الله في قلبك، ولا يعرف هذه المعاني إلا من اتصل قلبه بالله عز وجل، إلا من شعر أن الله جل في علاه مع كل مؤمن وإذا تجلى على المؤمن أسعده سعادة لا توصف،

((الصّلاةُ نُورٌ))

وقال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

إنّ المصلي إذاً كان طاهراً من الحسد، طاهراً من الغش، طاهراً من الكبر طاهراً من البعد عن الله، طاهراً من الأثرة، طاهراً من الحقد، طاهراً من الضغينة، طاهراً من الكبر، أبداً الصلاة طهور، الصلاة نور والصلاة حضور، أرحنا بها يا بلال، ولو يعلم المصلي من يناجي ما التفت، أو ما انفتل كما ورد في الحديث.

6 – الصلاة معراج المؤمن:

والصلاة معراج المؤمن إلى رب السماوات، وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها، والصلاة ميزان فمن وفى استوفى، والصلاة قرب، قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق]

7 – الصلاة ذِكرٌ:

والصلاة ذكر، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

8 – الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء]

هذا الذي لا يعلم ما يقال حكمه حكم السكران، الذي يصلي، ولا يعلم ما قال في الصلاة، ولا يقف على مدلولات الآيات في الصلاة حكمه حكم السكران في الصلاة، وكل مصائب المسلمين منطوية في قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم]

نصيحة للآباء:

والآباء الذين يحرصون حرصاً لا حدود له على تقدم أبنائهم في الدراسة، وعلى مذاكراتهم، وعلى علاماتهم في المذاكرات، يعطونهم الجوائز إذا تفوقوا، ويعنفونهم إذا قصروا، ويهملون أمرهم بالصلاة فهم مخالفون بهذا الأمر قول الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه]

أين هم من كتابهم، من تطبيق دينهم ؟ وقوله تعالى:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

[سورة البقرة]

لابد من أن يكون لك صلة بين الصلاتين، وهذا مضمون قول الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

عموم معنى: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ

أيها الإخوة الأكارم... آية اليوم:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ)

[سورة العنكبوت]

غض البصر من إقامة الصلاة، ضبط اللسان من إقامة الصلاة تغتاب المسلمين وتزعم أنك مسلم ؟! ما قيمة هذه الصلاة ؟ قم وصلِّ إنك لم تصلِّ، من إقامة الصلاة ضبط اللسان، من إقامة الصلاة ضبط العين، من إقامة اللسان ضبط الأذن عن سماع ما لا يرضي الله عز وجل.

((من استمع إلى صوت قينة ـ أي مغنية ـ صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، قيل: وما الآنك ؟ قال: الرصاص المذاب))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

ضبط اللسان عن الغيبة والنميمة، والسخرية، والاحتقار، والبهتان، والإيقاع بين المسلمين، والتحريش بين المؤمنين، ضبط العين عن عورات المسلمين، ضبط الأذن عن استماع الغناء، ضبط الفكر عن خواطر لا ترضي الله عز وجل، ضبط اليد عن أن تبطش ضبط الرجل عن أن تسعى إلى ما لا يرضي الله عز وجل، هذا كله من إقامة الصلاة، تحرير الدخل من إقامة الصلاة، التواضع من إقامة الصلاة، الزهد من إقامة الصلاة، أقم الصلاة، يعني افعل أفعالاً كثيرةً جداً كلها حول محور واحد، وهو حسن العلاقة مع الله، حتى إذا وقفت لتصلي رأيت الطريق سالكاً إلى الله، هذه معنى:

(وَأَقِمْ الصّلَاة)

قد نفهم هذا الأمر فهماً ساذجاً جداً، أخي أقم الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، هذا من إقامة الصلاة، أما إقامة الصلاة التي أرادها الله عز وجل بضبط كل جوارحك، وضبط كل حركاتك وسكناتك، وعلاقاتك وفق منهج الله عز وجل، ما من شعور يشعره المصلي، وقد وقف بين يدي الله عز وجل من أنه على منهج ربه، مطيع لله عز وجل في كل شؤون حياته، هذا الشعور هو الذي يعينك على الصلاة، شعورك أنك على طاعة الله، وفق منهج الله، وفق أمر الله هذا الشعور الذي يعين على الصلاة.

أقِمِ الصلاة كما أرادها الله:

إذاً هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

هذه الألف واللام في الصلاة ماذا تعرب ؟ يعني إن الصلاة المعهودة، إن الصلاة التي أرادها الله عز وجل، إن الصلاة التي تنجو بها، إن الصلاة التي تجعلك على صلة مع الله حقيقية هذه الصلاة، لماذا قال الله عز وجل:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلّا أَنّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصّلَاةَ إِلّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة]

معنى هذا أن هناك صلاة ما أرادها الله، كذب وصلاة، غش وصلاة، احتيال وصلاة، ظلم وصلاة، كبر وصلاة، هذه الصلاة التي معها الكبر، والغش، والحسد، والضغينة، والحقد والاستعلاء، وكسب المال الحرام، هذه ليست صلاة.

هل عرفتَ أيها المصلّي بين يدي مَن تقف ؟!

ورد في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

هل عرفت من تصلي له ؟ هل عرفت من تقف بين يديه، هل عرفت من تقول بحقه: الله أكبر، سمع الله لمن حمده، هل عرفت من تقول له: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى.

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي ـ استقامة، تعظيم ـ ولم يصر على معصيتي...))

توبة تلو توبةٍ كلما وقعت في مخالفةٍ تبادر إلى التوبة،

((إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع ـ بذل ـ وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب...))

[ورد في الأثر]

كل ذلك لي إخلاصاً.

الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة:

دخلنا في موضوع جديد، كف الجوارح عن الشهوات المحرمة من إقامة الصلاة، والبذل والتضحية، وإنفاق المال، وتقديم الخدمات وتقديم الخبرات، ومعاونة المؤمنين، وغير المؤمنين ورعاية اليتامى والأرامل، وإنفاق المال هذا أيضاً من إقامة الصلاة، إقامة الصلاة بالكف عن المحارم، وبالبذل، كف وبذل الكف سلبي والبذل إيجابي، إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصّلاة)

أنت إذا أردت أن تلقى إنساناً تحرص على لقائه المثمر، قد تقدم له هدية، هديتك إلى الله عز وجل خدمة عباده، والدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أحَداً)

[سورة الكهف]

كيف تحتال كي تصل إلى قلب هذا الإنسان بهدية تزيل الضغن من قلبه ؟ كيف تحتال إلى كسب ود هذا الإنسان بتقديم خدمة لأحد أولاده ؟ كذلك إذا أردت أن تعقد مع الله صلة، إذا أردت أن تتصل به، أن تنعم بقربه، أن يتجلى الله عليك قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أحَدًا)

[سورة الكهف]

قضية مبذولة لكل الناس، كل إنسان إذا أراد أن يلقى الله عز وجل لقاءً في أثناء الصلاة فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحد. عمل صالح بنية عالية.

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي إخلاصاً ـ عظم الله وائتمر بأمره، وتاب من ذنبه، وبذل، وضحى مخلصاً ـ وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً...))

أخلاق الجاهلية التعسف الظلم، الكبر، الحقد، هذه أصبحت مكارم أخلاق، هذه أصبحت علامة المصلي، المصلي يجب أن تحبه لابد من أن تذوب به وجداً، لأنه كامل، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، إذا أحب الله عبداً في أثناء الصلاة منحه خلقاً حسناً.

((على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نورا يدعوني فألبيه...))

كان في عمى فأصبح على بصيرة، كان في جهالة فأصبح على علم.

((يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

(وَأَقِمْ الصّلاَةَ إِنّ الصّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت]

ما هي الفحشاء والمنكر ؟!

إن الصلاة التي أمر بها الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر، الفحشاء ما قبح فعله وقوله، تعريف الفحشاء في اللغة، الشيء الذي عظم قبحه فعلاً وقولاً، هناك قول فاحش، وهناك عمل فاحش، والمنكر كل شيء أنكرته العقول السليمة، المنكر ما أنكرته العقول، والفحشاء ما عظم قبحه كلاماً أو فعلاً، أول مكاسب الصلاة، أول ثمار الصلاة، أول نتائج الصلاة.

من مكتسبات الصلاة:

1 – أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر:

أول مكتسبات الصلاة أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، يصلي إذاً لسانه منضبط.

2 – الانضباط الداخلي:

هنا نقطة، ومعنى دقيق: أنت قد تنضبط خارجياً، مثلاً: لو أن إنساناً يحب الغناء، وسمع أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن سماع الغناء كف عن سماع الغناء، حينما يكف عن سماع الغناء انضبط خارجياً، لو أنه ركب مركبة، وأطلق فيها المذياع على أغنية كان يحبها، وتجاوبت نفسه مع هذه الأغنية ما الذي يقال في هذا المقام ؟ يقال: إنه انضبط خارجياً، لكن نفسه بقيت متعلقة بهذا الماضي الذي عاشه، ولكن المصلي إذا صلى صلاة صحيحة بعد حين، بعد وقت يطهر من الداخل، المؤمن في أول طريق الإيمان يشتهي المعاصي، ولا يفعلها، ولكن بعد مرحلة من الزمن يمقت المعاصي، ويكرهها صار هناك تطور هذه من آثار الصلاة، فإذا فكرت أن الله أمر بكذا، ونهى عن كذا قضية سهلة، إذاً لا تفعل هذا الأمر، يا ترى لا تفعله وأنت مشتاق إليه ؟ لا تفعله وأنت متمنٍّ أن تفعله، لا تفعله وأنت تغبط من يفعله، هذه مرتبة.

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الله عز وجل نهى عن الغيبة، نهى عن النميمة، نهى عن الربا، نهى عن أشياء كثيرة، لكنك إذا اتصلت بالله عز وجل.

هناك شيء آخر، ما هو الشيء الآخر ؟ أن النفس الإنسانية تنتهي من داخلها الآن، لا تحب الفحش، لا تحب هذه المعصية، قال عليه الصلاة و السلام:

((نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه))

[ورد في الأثر]

لو أتيح لك أن تفعل هذه المعصية، ولن تحاسب عليها لتفعلها، هذه من ثمرات الصلاة، نفسك تعاف الرذيلة، تعاف المعصية، تعاف المنكر، وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام هذه الحالة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))

[مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

من علامة صحة الإيمان أن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم عليك بنعمة الإيمان، وانتقلت من حال إلى حال لا شيء يزعجك، ويمقتك، ويحز في نفسك كأن تذكر حياة الجاهلية، كيف كنت متفلتاً ؟ كيف كنت غير منضبط لا في أقوالك، ولا في أفعالك، ولا في شهواتك، لذلك علامة المصلي أن نفسه تتهذب من

داخلها، لذلك كل حضارة الغرب قائمة على الردع الخارجي، وعظمة حضارة الدين أنها قائمة على الوازع الداخلي، وشتان بين إنسان يرتدع تحت سطوة السلاح.

مثل بسيط، في بعض مدن أمريكا انقطعت الكهرباء قبل عدة أعوام، في ليلة واحدة تمت مئتا ألف سرقة، ما دام هناك ضبط خارجي وكاميرات تلفزيونية، وحسابات دقيقة، وأجهزة إنذار مبكر، وطرق مراقبة كلها بالرادار، هناك انضباط، حضارة الغرب كلها قائمة على الردع الخارجي، وحضارة الدين قائمة على الوازع الداخلي.

قال ابن عمر لأحد الرعاة: **بعني هذه الشاة،** قال له: **ليست لي،** قال له: **قل لصاحبها أنها ماتت،** قال له: **ليست لي،** قال له: **قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب،** قال له: **ليست لي،** قال له: **خذ ثمنها،** قال: **والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، أنا في أشد الحاجة لثمنها: ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟**

هذا هو الدين، هذا هو الإسلام، والله الذي لا إله إلا هو من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، كل أعماله بلا جدوى، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط.

حضارة الغرب قائمة على الرادع الخارجي، الانضباط السلوكي هناك بسبب أجهزة بالغة الدقة، لو أن إنسانا تجاوز السرعة المقررة التقطت لسيارته صورة مع لوحته الخلفية، ودفع الثمن الباهظ جزاء هذه المخالفة، إذاً لا خير في حضارة قائمة على الردع الخارجي، ونِعْمَت الحضارة القائمة على الوازع الداخلي، كلما ارتقينا كلما انتهينا من داخلنا لا من خارجنا، من دون رقابة، المؤمن لا يستطيع أن يأكل قرشاً من حرام لو قطعته إرباً إربا، يقول لك: أين الله ؟ ليس في إمكانه أن يكذب إطلاقاً.

لذلك أيها الإخوة الأكارم... هذه الآية من الآيات الدقيقة جداً:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ)

[سورة العنكبوت]

الصلاة التي أرادها الله، الصلاة التي شرعت، التي صلاها النبي عليه الصلاة والسلام، التي صلاها أصحاب النبي، صلوها ففتحوا العالم، ملكوا ما بين الخافقين، رفرفت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها، رفع الله ذكرهم، مكنهم في الأرض، استخلفهم في الأرض، مكن لهم دينهم، أبدلهم من بعد خوفهم أمنا، هذه الصلاة التي شرعها الله عز وجل.

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت]

هذه آية إن شاء الله تعالى لنا عودة إليها في الدرس القادم، لأنها آية دقيقة جداً،

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من ماذا ؟ يا ترى ذكر الله لعبده أم ذكر العبد لربه ؟ يا ترى ذكر العبد لربه في الصلاة، أم خارج الصلاة، أكبر من ماذا ؟ حول هذه الآية بحث دقيق جداً.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني أن أشرحه لكم في الدرس القادم.

لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف:

هناك شيء، أخ كريم حدثني أن رجلاً ديناً في تركيا أمر تلميذاً له أن يقتل ابنه، خبر تناقلته الإذاعات قبل أيام، فقتله، ثم قال له: اصعد إلى الجبل تجده هناك، صعد إلى الجبل فلم يجده، فقدم شكوى، فأودع هذا الرجل السجن، هذا الخبر استوضحت، أو تبين لي أن هناك حكم شرعي دقيق جداً في هذا الموضوع.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[مسلم ـ النسائي ـ أبو داود ـ أحمد]

انقسم أصحابه فريقين، فريق همّ أن يقتحمها تنفيذاً لأمر هذا الأمير، لأن هذا الأمير أمره رسول الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة النساء]

وفريق قال: لا، إنما آمنا بالله ورسوله فراراً من النار، أفنلقي أنفسنا بها، واختصموا، وتوجهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، اسمعوا ما قال عليه الصلاة والسلام للذين أرادوا أن يقتحموا النار:

((... لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

أين عقلكم (إنما) أداة قصر، الطاعة بمعروف، إذا أمرك هذا الرجل أن تصلي بالمعروف، أن تغض بصرك، أن تؤدي زكاة مالك، أن تنزه دخلك عن الحرام، إذا أمرك فيما هو معروف.

وقال بعض العلماء: المعروف هو أمر الله، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، انظروا إلى الدين ما أوضحه، شيء رائع جداً أن يكون الإنسان على بصيرة، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف]

((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

حصراً.

سيدنا الصديق رضي الله عنه:

ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر.

لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجح.

ما ساء ني قط.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ فِي خِرْقَةٍ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

[البخاري]

ومع ذلك قال: **<< قد وليت عليكم، ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

رائع جداً أن يكون المتعلم واعياً. إذاً حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

قال العلماء: المعروف هو أمر الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً لا طاعة بخلاف الشرع، هذه القصة كانت سبب نزول قوله تعالى الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)

[سورة النساء]

لهذه الآية تفسير دقيق جداً إن شاء الله تعالى في الدرس القادم بعد صلاة العشاء، لأنها متممة لهذه القصة التي حصلت على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (13-16): تفسير الآيتان 45 - 46
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة العنكبوت، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت]

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

بقي من هذه الآية قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

معنى الذكر لغة واشتقاقه:

أيها الإخوة الأكارم، الذكر، والذكرى، والتذكر، من اشتقاق واحد، تذكّر الشيء أي أن تستعيده، أن تستحضره، والله سبحانه وتعالى يصف القرآن الكريم كله بأنه ذكرى، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[سورة عبس]

معنى ذلك أن الإنسان فُطر على أن يعرف الله، فطر على أن يستقيم على أمره، فطر على أن يسعى للتقرب منه، فطر على أنه لا يرتاح إلا بالإقبال عليه، هذه فطرة الله عز وجل، فالقرآن الكريم كله، ودعوة الأنبياء كلها هي إنما قائمة على تذكير الإنسان بفطرته، وحينما يهتدي الإنسان إلى فطرته يسعد في الدنيا والآخرة، لذلك يفيدنا في هذه الآية آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الروم]

الوجهة الخالصة والاستقامة التامة: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا:

أقم وجهك أي أن يقيم الإنسان وجهته الخالصة في استقامة تامة إلى الله، وأن يقومها كلما انحرفت عن طريق معرفة الله أولاً، وطاعته ثانياً، والتقرب إليه ثالثاً، إنه إن فعل هذا مائلاً إلى الله تاركاً كل ما سواه.

إن أقمت وجهتك الخالصة إلى الله، وقومتها كلما انحرفت في استقامة تامة إليه عن طريق معرفته أولاً، وطاعته ثانياً، والتقرب إليه ثالثاً، مائلاً إليه من كل قلبك، تاركاً كل ما سواه، إنك إن فعلت هذا لزمت فطرتك، انسجمت مع فطرتك، حققت فطرتك، حققت وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، هذا المخلوق لا يسعد إلا بالله، آية دقيقة جداً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ)

أحياناً يلقي الإنسان بصره إلى جهة ثابتة دليل الاهتمام البالغ، إذا كنت تعبأ بشيء، وتخاف أن ينفجر تبقى عينك على الساعة،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

أن تقيم وجهك لله في استقامة خالصة وتامة مائلاً إليه تاركاً كل ما سواه، إن فعلت هذا فقد حققت فطرتك، وحققت سر وجودك وحققت سلامة وجودك، وحققت كمال وجودك، وحققت استمرار وجودك، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

إن فعلت هذا فقد لزمت فطرة الله.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

كلمات قليلة أنقلها لكم من كلمات بعض العارفين بالله: **في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ".**

مهما بالغت في طمأنينة قلبك عن طريق وفرة المال، عن طريق مركزك القوي، عن طريق تأمين كل حاجاتك، ففي القلب شعث، تفرق، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، لو جلست مع أصدقائك، مع أقربائك، مع محبيك، لو جلست في مكان تحبه وفي زمان تحبه، لكن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الإنس بالله، وفي القلب حزن لا يذهبه إلى السرور بمعرفة الله، وفي القلب قلق لا يسكنه إلا الاجتماع على الله والفرار إليه، وفي القلب نيران حسرة لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه والصبر على كل ذلك، وفيه فاقة ـ يعني فقر ـ لا يسدها إلا محبته.

مهما حاولت، كلمة أعرفها في الوقت المناسب، إذا تقدم بك العمر، والإنسان وصل إلى خريف العمر، فإذا قال: والله لا شيء أجمل من معرفة الله، ولا شيء أسعد من قربه، ولا شيء أنفع من طاعته، هذا

الكلام إن عرفته في الوقت المناسب فأنت أسعد الناس، أما إذا عرفته بعد فوات الأوان فهذه مشكلة، البطولة أن تعرف الله في الوقت المناسب.

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

إنك إن ذكرت الله حققت فطرتك، إنك إن ذكرت الله اطمأننت إليه، إنك إن ذكرت الله سعدت بقربه، إنك إن ذكرت الله زال عنك الخوف، والقلق والحزن والضياع، والتشتت، والتبعثر، والضيق، والشعور بالوحشة، والشعور بالفقر، كل المشاعر المدمرة التي تحيل حياة الإنسان جحيماً إنها تذوب إذا عرفت الله عز وجل لذلك:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

تفصيلات: ذكر الله:

الآن ندخل في تفصيلات معنى ذكر الله أكبر:

معنى الذكر:

أن حالة تصيب النفس هذه الحالة تحفظ النفس كلما يلقى إليها من معرفة، فالإنسان إما أن يكون في حالة ذكر أو حالة نسيان.

الذكر يشبه الحفظ، لكن الحفظ حيازة، والذكر استحضار، والذكر نوعان، ذكر عن نسيان وذكر عن حضور، فلان يذكر إما أنه ذكر بعد أن نسي وإما أنه دائم الحضور.

أنواع الذكر: ذكر بالقلب وذكر باللسان:

يا أيها الإخوة الأكارم، والذكر نوعان أيضاً، ذكر لسان وذكر قلب، وربما كان ذكر القلب هو المعني، وهو المقصود، قال الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(43))

(سورة الأحزاب)

أيضاً هذه الآية تلقي ضوءاً كاشفاً على قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

فإن أرقى أنواع التفسير أن تفسر القرآن بالقرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

إن فعلتم ذلك.

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43))

أيها الإخوة الأكارم، اقتدوا بسيدنا سعد بن أبي وقاص الذي كان يقول: << ثلاثة أنا فيهن رجل، وكلمة رجل في القرآن لا تعني أنه ذكَرٌ، لا، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور]

تعني أبطالا، كلمة رجل، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

يقول سيدنا سعد: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفي ما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى >>.**

هذا الكلام كلام النبي حق من الله تعالى، لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ماذا يقول عليه الصلاة والسلام في شأن الذكر ؟

أحاديث في فضل الذكر:

الحديث الأول:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

[أحمد]

هذا المجلس إن شاء الله تعالى من حلق الذكر، نذكر فيه الله تعالى، حلق الذكر المكان الذي يذكر فيه الله خالصاً لوجهه، هذا الحديث الشريف رواه البيهقي.

الحديث الثاني:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَامَّةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ))

[الترمذي]

إذاً: أن تذكر الله عز وجل ذكراً خفياً عقب صلاة الفجر، وأن تصلي ركعتين الضحى، كانت لك هذه الصلاة، وهذا الذكر، وتلك صلاة الضحى كأجر حجة وعمرة، تامة، تامة، تامة، هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي.

الحديث الثالث:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

[ابن ماجة ـ أحمد ـ مالك]

أن تذكر الله عز وجل هذا الحديث أيضاً رواه الإمام أحمد في مسنده.

الحديث الرابع:

روى البخاري مسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

[مسلم]

قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

[سورة النحل]

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

****

<< يا كميل، مات خُزان المال، وهم أحياء ـ وهم في أوج حياتهم ـ والعلماء باقون ما بقي الدهر >>

إذاً: الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه كالحي والميت.

أصحاب النبي عليهم رضوان الله سألوا النبي عليه الصلاة السلام: أي جلساءنا خير ؟ نجلس مع من، نلتقي مع من، نخاطب من نصاحب من، نحب من ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((من ذكركم الله رؤيته، يعني إذا رأيتموه تذكرتم ربكم))

هناك إنسان إذا رأيته تذكرت الدنيا، إذا رأيته تذكرت الشهوات، إذا رأيته تذكرت الموبقات، وأما الذي يجب أن تجلسْ معه هو من ذكركم الله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، يعطيك حجة قوية، يحاصرك، فإذا كنت مضطرًا أن تسير في طريق الإيمان، وذكركم في الآخرة عمله، هناك من يدعو إلى الزهد، وليس زاهداً، هناك من ترى عمله مخالفاً لقوله، عمله في وادٍ، وقوله في واد، فهذا الذي ذكركم الله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله هذا اجلسوا إليه وصاحبوه.

فالمؤمن عليه أن يختار مؤمناً يصحبه، أن يختار أخاً في الله يتصل به يمحضه وده، يمحضه محبته، لا أن يوزع قلبه بين أناس غافلين، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

الإمام مسلم في صحيحه يروي **من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله في كل أحيانه في السراء وفي الضراء، في إقبال الدنيا، في إدبار الدنيا، في الشدائد، في الرخاء، في الصحة، في المرض، في الليل، في النهار في السفر، في الحضر، في الأزمات، في حالات الراحة النبي عليه الصلاة السلام كان يذكر الله في كل أحيانه، وإن الله أمر المؤمنين ما أمر به المرسلين.**

ويقول عليه الصلاة والسلام:

الحديث الخامس:

عَنْ سَعْدِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي))

[أحمد]

وهذا من تمام الأدب مع الله عز وجل، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن من الناس مفاتيح لذكر الله تعالى إذا رأوا ذُكر الله بهم))

الحديث السادس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[الترمذي ـ أحمد]

وفي رواية ثانية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي مَجْلِسٍ فَتَفَرَّقُوا، وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَزّ وَجَلّ، وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا كَانَ مَجْلِسُهُمْ تِرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي ـ أبو داود]

وفي رواية ثالثة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إِلا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد]

أن تجلس مجلساً لا تذكر الله فيه.

الآن نعود إلى قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أيها الإخوة الأكارم، آية دقيقة جداً هذه تمهيدات لهذه الآية، يقول الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

معنى: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

المعنى الأول:

يقول بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، لقوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

هدف الصلاة أن تذكر الله، فهل أن تذكره بلسانك أم بقلبك ؟ بلسانك وبقلبك، إن ذكرته بلسانك، ولم يكن الذكر في قلبك فهذا الذكر الظاهري لا يكفي، المعول عليه هو القلب، والقلب مفتاحه اللسان،

لذلك قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي(14))

[سورة طه]

المعنى الأول:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أي أكبر ما في الصلاة كلها.

المعنى الثاني:

الآن عندنا معنى آخر، يا ترى ذكر الله للعبد أم ذكر العبد لربه ؟ القرآن حمال أوجه.

المعنى الأول: ذكر الله لعبده، والدليل، قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة]

يـنادى لـه فـي الكـون أنّا نـحبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

****

المعنى الأول:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

لعباده إذا ذكروه أكبر، من ذكرهم له تَذَكُّره ويذكرك، إن ذكرك الله عز وجل ذكره أكبر من ذكرك له، إذا ذكرته فأنت مفتقر إليه، لكن إذا ذكرك أغناك، إذا ذكرك رحمك، إذا ذكرك أسعدك، إذا ذكرك حفظك، إذا ذكرك وفقك، إذا ذكرك يسر لك الأمر، إذا ذكرك قربك، فرق كبير جداً بين أن تذكره، وبين أن يذكرك، الله سبحانه وتعالى هكذا يقول:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

ما ذكرني عبدي في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خير منه، لذلك يقول العلماء: ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لربه، هذا المعنى، ذكر الله للعبد أكبر من صلاته كلها، هو قطع عمله، وتوجه إلى المسجد، وتوضأ، وصلى، إذا ذكرك الله ذكراً فهو خير من كل صلاتك، مهما قلت: أنا بذلت، وتوضأت، وصليت، وأغلقت محلي التجاري، إياك أن تمن على الله، لأن ذكر الله لك أكبر من كل صلاتك، بل إن ذكر الله لك أكبر من كل عملك، هكذا جاء في بعض التفاسير.

المعنى الأول: ولذكر الله ما في الصلاة.

المعنى الثاني:

ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لربه، ذكر الله للعبد أكبر من صلاته، ذكر الله للعبد أكبر من كل عمله، إذاً أنت لا بعملك، ولكن بفضل الله عز وجل.

المعنى الثالث:

هناك معنى كان يجب أن أقوله في أول المعاني، وهو أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَأَقِمْ الصّلاة إِنّ الصلاة تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فهذا شيء سلبي، هذا المصلي لا يفعل المنكر ولا الفحشاء، هل هذه هي كل الصلاة ؟ لا، ذكر الله أكبر من أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، إنها في حدودها الدنيا، إنها في بداياتها، إنها في حدها الأدنى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولكن في حدها الأعلى ولذكر الله أكبر، كأنك إذا انتهيت عن الفحشاء والمنكر فهي حالة التخلية، فإذا ذكرت الله عز وجل فهي حالة التحلية، فلا ينبغي أن تكون الصلاة فقط تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل هي أعظم من ذلك، النهي عن الفحشاء والمنكر شيء سلبي، هذا المصلي لا يكذب، لا يسرق، لا يزني، لا يقتل، لا يفحش في الكلام، ولكن هذه الصلاة يجب أن تسمو في الإنسان، ترقى به إلى الله عز وجل.

المعنى الأولي المأخوذ من قوله تعالى:

(إِنّ الصّلاة تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

المعنى الرابع:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

ذكر العبد لربه أكبر من كل ما في الصلاة، أكبر من أركان الصلاة، أكبر من كل طاعاته، لأن الأعمال الصالحة كلها من أجل أن تصلي، لأن العبادة كلها من أجل أن تصلي، لأن الحج من أجل أن تصلي، لأن الصوم من أجل أن تصلي، لأن الزكاة من أجل أن تصلي، ذكر العبد لربه أكبر من كل أركان الصلاة، من وقوف، وركوع، وسجود، وقراءةٍ، إلى آخره، ذكر العبد لربه أكبر من كل الصلاة، أكبر من كل طاعته، من كل أعماله لأنها الهدف، الهدف أن تسعد بالله عز وجل.

المعنى الخامس:

بعضهم قال:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

الصلاةُ ذكر، والحقيقة أن فيها أذكارا قولية، الله أكبر، سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

[سورة الفاتحة]

هذا ذكر لله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر]

الله أكبر، سبحان ربي العظيم، ففي الصلاة فيها أذكار قولية، ولكن هذه الأذكار القولية قصدُها وهدفها أن يصل هذا الذكر إلى القلب، اللسان يفنى، أما القلب فيبقى، يقول تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

فكلما انتقلت هذه الأذكار من اللسان إلى الجَنان فقد أفلحت ونجوت.

المعنى السادس:

شيء آخر، الصلاة ذكر بمعنى، أنك إذا صليت فأنت ذاكر لربك.

قد تجلس مع إنسان تراه نسي الصلاة، هو يصلي، لكن إذا وجد حديث مُمتع، أو كان في قضية، أو حل مشكلة، أو اجتماع ينسى الصلاة، لمجرد أن تنسى الصلاة فأنت ضعيف الاهتمام بربك، لكن الإنسان إذا بادر إلى الصلاة في وقتها، ولم تشغله أعماله عن صلاته، فمجرد أن تأتي الصلاة فأنت ذاكر لله عز وجل،

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

إذا أردت أن تفعل شيئاً، أن تنجز عملاً، أن تكتب رسالة، أن تعقد اجتماعاً، أن تجري محاسبةً، فلا تنسَ أن ذكر الله أكبر، فإذا شغلت بهذا العمل، وسهوت، وتفاعلت مع هذا العمل، ونسيت الصلاة، لم

يعد عندك ذكر الله أكبر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام فيما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

[البخاري]

من شدة تعظيمه للصلاة.

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

علاقة الآية: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ بختامها: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ

لكن لو تساءلتَ أيها الأخ الكريم: ما علاقة قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

ما من كلمة مناسبة لهذه الآية من قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

يعني يا عبدي، إنني أرى عملك، فإن كان عملك صالحاً أعانك على أن تذكرني، وإن ذكرتني ذكرتك، وإن كان عملك سيئاً حجبك عن أن تذكرني، وإن لم تذكرني لا أذكرك.

إذاً: أن يأتي الله عز وجل بقوله:

(يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

شيء مهم جداً، يعني أن عملك أيها العبد هو سبب صلاتك، وعملك سبب حجابك، إن كان عملك كريماً أكْرمَك، وإن كان لئيماً أسْلمك، فانظر إلى عملك.

كل إنسان بإمكانه أن يدخل إلى قاعة الامتحان، ويجلس على كرسي، وأن يمسك بقلم وأمامه ورقة، أما إذا لم يكن قد درس، فما قيمة هذا الجلوس ؟ وما قيمة هذه الأقلام ؟ وما قيمة هذه الأوراق والمسودات ؟ فالقضية قضية عمل، فمن كان عمله طيباً رأى أن الطريق إلى الله سالك، وأن إقباله على الله سهل، وأن اتصاله بالله محقق، وأنه يكتشف أن الصلاة أسعد ما في الحياة، ومن كان عمله سيئاً، من ظلم الناس، واعتدى عليهم، وأكل أموالهم، وغشهم، واحتال عليهم، واستعلى عليهم، وأهانهم، إن هذا الإنسان لا يستطيع أن يذكر الله عز وجل، فلذلك إذا أردت أن تقيم الصلاة فافحص عملك.

الإعداد لكل صلاة بالاستقامة الكاملة:

يجب أن تَعدّ للصلاة بعد أن تنتهي منها، تعد للصلاة القادمة، فمن صلاة الفجر وحتى صلاة الظهر

يجب أن تعد لصلاة الظهر، تعد بغض البصر، تُعد بالصدق، تعد باستقامة اللسان، تعد بضبط الجوارح، تعد بأن لا تقع في غيبة، ولا نميمة، ولا بهتان، ولا فحش، ولا كذب، ولا تدليس، ولا كبر، ولا استعلاء، ولا طغيان، ولا عدوان، ولا مجاوزة، ولا احتقار ولا سخرية، هكذا، مادام هناك ضبط للجوارح، واللسان، للقلب، إذا أذن الظهر فقد أقمت الصلاة، هذه الساعات الطويلة التي أمضيتها في طاعة الله وخدمة خلقه تعينك على أن تصلي.

أذن الظهر، وصليت الظهر، الآن تهيئ نفسك لصلاة العصر عن طريق الضبط والخدمة، والعمل الصالح، لذلك ما من كلمة أروع من أن تكون ذيلاً لهذه الآية من كلمة:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

الله عز وجل يرى، وإنك ـ أيها العبد ـ مكشوف أمامه، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة]

إنك مكشوف أمام نفسك، فكيف أمام الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما خفي عنك، يعلم السر، ويعلم ما يخفى عنك ؟

أيها الإخوة الأكارم، الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وكل ثمار الدين تجنونها في الصلاة.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ: مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلَالُ، أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود، أحمد]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ))

[النسائي]

في الصلاة اشتقاقُ مسحةٍ من الجمال الإلهي:

إنّ التفاحة مخلوقة، أعطاها الله شيئا من جماله، طعمها خاص، إذا تناولت ما لذ من الطعام والشراب فهذا اتصال، حينما تبلع هذه اللقمة ما الذي يحصل ؟ يدفع اللسان هذه اللقمة إلى سقف الحلق، هناك أعصاب الذوق والحس، تشعر بالطعم حينما تحاول أن تبتلع هذه اللقمة، هذا اتصال، إذا ألقيت نظرةً على مكان جميل تشعر براحة، إذا ألقيت نظرةً على جبل أخضر، أو على بحر أزرق، أو على طفل

وديع، أو على شيء نفيس، هناك تناسق بالألوان، تشعر بشيء من السرور والراحة، فما قولك إذا وقفت بين يدي الله عز وجل، إنك تتصل بمنبع الجمال، بأصل الجمال، كل ما في الكون من جمال هو مسحة من جمال الله عز وجل، فلذلك الصلاة هي القصد، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

حالة الاستغراق في الله، الاستغراق في محبته، في الإقبال عليه، وفي القرب منه، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

[سورة القمر]

لذلك قال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، أن تنتهي بها عن الفحشاء والمنكر شيء سلبي، آثار سلبية، أما آثارها الإيجابية فإذا ذكرت الله ذكرك الله عز وجل، وإذا ذكرك الله أنعم عليك، وأمدك بمدد منه، وحفظك، ووفقك، ورفع شأنك، وأسعدك، وقربك، وأكرمك.

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة]

وإذا ذكَرك الله عز وجل فذِكْره لك خير من كل عملك، من كل صلاتك، من كل طاعتك، أما أنت إذا ذكرته، ذكرك له في الصلاة خير من كل أركان الصلاة، ماذا يعني أن تقف، وأن تركع، وأن تسجد، وأنت غافل وساهٍ، فلذلك ذكر العبد لربه في الصلاة أهم ما في الصلاة، أكبر ما في الصلاة، أبرز ما في الصلاة، خير ما في الصلاة.

آية عظيمة في الذكر:

وآيات الذكر كثيرة جداً من أبرزها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(43))

الحكمة من إفراد النور وجمع الظلمات:

النور مفرد، أما الظلمات فجمع، لماذا ؟ الظلمات رمز الباطل والباطل متعدد والنور رمز الحق والحق

واحد لا يتعدد، لذلك الحق يجمع والباطل يفرق، الحق واحد، كل من سار في هذا الطريق التقى مع أخيه، أما الباطل فمتعدد، قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة الحشر]

فمن ثمار الصلاة أن الله سبحانه وتعالى قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

[سورة إبراهيم]

من أساليب الدعوة إلى الله: وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

حينما قال الله عز وجل: يا محمد اتلُ ما أوحي إليك من الكتاب، هذا الكتاب اتله على الناس، ولكن إياك أن تجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فالدعوة إلى الله ليس من أهدافها الخصومات والمشاحنات، وكسر الرأس، وإقامة الحجة، والتحطيم لا، كلما كنت أقرب إلى الله عز وجل سموت عن هذا المستوى، مع أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

معنى: أَحْسَنُ:

أحسن اسم تفضيل، فإذا كان هناك عشر عبارات حسنة فيجب أن تختار الأحسن، إذا كان هناك أساليب كثيرة كلها حسنة يجب أن تختار الأحسن.

(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة العنكبوت]

هدف الدعوة هداية الناس لا الاستعلاء عليهم:

ليس هدفك أن تقيم عليه الحجة، أن تحقره، أن تصغره أن تسحقه، أن تنتصر عليه، أن تستعلي عليه، لا ليس هذا من أهداف المؤمن، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أدبه الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ]

من يصدق هذا الكلام ؟ كلام الله، يا محمد، قل لهم:

(وَلاَ تُسْأَلُونَ)

تطيبباً لقلوبهم، إن ظننتم أن عملي في الدعوة إلى الله جريمة إنكم لن تُسألوا عن ذلك، وأنتم في معارضتكم، وفي إطفائكم للحق، الله عز وجل علم النبي أن يسميه عملاً، قال تعالى:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ]

الحق إما معنا أو معكم، ونحن إما على خطأ أو على صواب، هذه تسوية كاملة، وهذا من أدب المناقشة، لذلك الله عز وجل يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة النحل]

إن دعوت إلى الله، إن دعوت إخوانك، أصدقاءك، أصحابك، تلامذتك، هناك محبة، وثقة، ومودة، ورحمة، بالموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، أما إذا جادلت هذا الشخص الخصم، هذا الشخص المعارض، فهذا الشخص عنده حساسية بالغة، هذا الشخص ينبغي أن ترحمه، أن تتلطف معه، لا أن تستعلي عليه.

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

كأن الله سبحانه وتعالى يعلمنا طريق عرض الحق، لا تكن عنيفاً، الله سبحانه وتعالى يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران]

هذا في حقّ النبي فكيف بمَن هو دونه !!!

وأنت رسول، وأنت نبي، وأنت يوحى إليك، وأنت المعصوم، وأنت سيد ولد آدم، لو كنت فظاً غليظ

القلب لانفضوا من حولك، فكيف إذا لم تكن نبياً، ولا رسولاً، ولا يوحى إليك، ولا معصوماً، بل كنت إنسانا عاديا، إذا كان النبي على كماله، وعلى رفعة شأنه، وعلى عصمته، وعلى انفراده بالمقام العالي، وعلى أنه يوحى إليه مأمور أن يكون لطيفاً مع أصحابه،

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

فكيف إذا دعا إلى الله إنسان عادي فهذا يجب أن يضاعف من المودة والرحمة والتواضع كي يجذب قلوب الناس إليه.

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

[سورة العنكبوت]

إذاً: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

[ورد في الأثر]

قد قلت لكم في درس سابق: قال تعالى:

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلَى وَالِدَيّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

[سورة النمل]

يجب أن تعمل صالحاً لا وفق مزاجك، ولا وفق اجتهادك، ولكن وفق ما يريد الله سبحانه وتعالى.

إن شاء الله تعالى في درس قادم نصل إلى الآيات التالية، وهي قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

[سورة العنكبوت]

لماذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أمّياً ؟ وما الحكمة من ذلك ؟ وما كان يضره لو كان متعلماً يقرأ ويكتب ؟ وماذا كان ينتج عن ذلك، هذا موضوع دقيق جداً، أمّيّة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا إن شاء الله تعالى ندرسه في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (14-16): تفسير الآيات 47 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-01-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي بتوفيق الله إلى قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[سورة العنكبوت]

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى داود الزبور، كما هو شأن الله عز وجل في إرسال الرسل، وإنزال الكتب كذلك أنزلنا إليك الكتاب، أي هذا القرآن، وإذا سماه الله قرآناً فلأنه يُقرأ، وإذا سماه كتاباً فلأنه مكتوب.

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

هؤلاء أهل الكتاب لهم أنبياء، لهم كتب يعرفون بها ما الوحي، وما الكتاب، وما النبي، وما المعجزة، هذا شيء يعرفونه، وشيء يألفونه.

فَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

ومن هؤلاء العرب، ومن هؤلاء من يؤمن به، هؤلاء الذين ليسوا أهل كتاب، بل هم مشركو مكة، ومِن هؤلاء من يؤمن به.

إذاً: كذلك يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل،

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

أيْ هذه سنة الله في خَلقه أن لا يدع عباده بلا أمر، ولا نهي، ولا تعريف ولا توجيه، ولا إرشاد، ولا تبين، ولا إخبار، ولا إنذار، ولا إعذار، ولا وعد، ولا وعيد، هذا شأن الله، شأن رحمته، شأن حكمته، شأن حرصه على هداية الناس، شأن أنه خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسعدهم.

من لوازم رحمة الله عز وجل، من أسماء الله الحسنى أنه هو الهادي، وبشكل مبسط وتمثيل بسيط: إذا رأى الأب ابنه في طريق غلط فلا يمكن لأب أن يسكت، لابد من أن يوجه، لابد من أن يُحذّر، لابد من

أن يُعلّم، من أن يبين، فالمسؤولون يشقون طريقاً، وبعد شق الطريق يضعون اللافتات رحمة بمن يمر على الطريق، هنا منعطف خطر، وهنا منزلق خطر، وهنا طريق ضيقة، وهنا تقاطع خطر، وهنا قطار سيعبر الطريق، ما هذه اللافتات، ما هذه الشاخصات إلا رحمة بهؤلاء المارة، بأصحاب المركبات، لئلا يصابوا بالأذى والهلاك.

شأن الخالق العظيم أنه لا يَدَع خلقه معطّلِين عن الأمر والنهي، لا يدَع خلقه بلا توجيه، بلا تعريف، بلا تبيين، بلا أمر لصالحهم، بلا نهي عما يؤذيهم، بلا وَعد يبشرهم، بلا وعيد يخوفهم بلا بيان لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان بلا إشارة إلى الماضي السحيق، بلا تعريف بما ينتظر الإنسان في المستقبل البعيد، هذا كله من شأن الله عز وجل.

(وَكَذَلِكَ)

يعني كما أنزلنا على موسى التوراة، وعلى عيسى الإنجيل، وكذلك أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن، لأن هذا من شأن الله، هكذا تقتضي رحمة الله.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((.... يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد ـ الدارمي]

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

ينبغي أن يؤمنوا به، لأنهم أصحاب كتاب يعرفون ما النبي ؟ وما الوحي ؟ وما الكتاب ؟ وما الشرع ؟ ومن بعض هؤلاء العرب المشركين مِن أهل مكة مَن يؤمن به، مَن حَكّم عقله، وأدرك أن هذا النبي إنما هو نبي من عند الله، وأن هذا القرآن كلام الله، فيؤمن به.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ

هذا الذي يرفض الإيمان، هذا الذي يجحد آيات الله في الكون، وآيات الله في القرآن، إنما هو كافر بنعمة الله، ما عرفها، وما قدرها حق قدرها، الآية الأساسية في هذا الدرس قوله تعالى:

حكمةُ اللهِ في أمِّيَةِ النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

النبي عليه الصلاة والسلام أميٌّ، هكذا وصفه الله عز وجل، وقد لا يرتاح المسلم بسذاجة إلى أن النبي أميٌّ، إن عظمة النبي تكمن في أنه أمي، لماذا ؟

لو أن الله سبحانه وتعالى جدلاً أو فرضاً جعله يقرأ ويكتب، لو أن هذا النبي الكريم تعلّم القراءة والكتابة، وقرأ ثقافة عصره، واستوعب ما في هذا العصر من ثقافة، والثقافة تعني خبرات البشر المتراكمة، ثقافة أية أمة، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ، ويكتب، وقد استوعب ثقافة عصره كما هو الوصف لبعض العباقرة، أو لبعض المبدعين، أو لبعض الأدباء، أو لبعض العلماء، يقولون: إنّ فلاناً قد استوعب ثقافة عصره، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام استوعب ثقافة عصره، وكان يقرأ، ويكتب، ولو اطلع على ما في الكتب، وما في الحضارات، ثم جاءه الوحي، إن أيّ إنسان سيسأله كل يوم، وفي كل وقت، مع كل كلمة يتلوها على قومه، يا رسول الله، أهذه من عندك أم من الوحي ؟ يختلط الوحي بالثقافة، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرأ، ويكتب، وقد استوعب ثقافة العصر لجعل الناس الوحي دراسة، لجعل الناس الوحي ثقافة، لجعل الناس الوحي اطّلاعاً، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ، ويكتب لتوصلنا بهذا إلى إنكار نبوة النبي، وإلى إنكار الوحي، ولكن حكمة الله جل وعلا شاءت أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أمياً.

ولا يذهبن بكم الظن أن كلمة أمّي تعني أنه لا يعلم، لا، قد يأتينا طبيب من أرقى فروع الاختصاص، ولكنه يجهل لغتنا جهلاً مطبقاً، فهو في لغتنا أمّي، وهو يمثل أعلى درجات العلم، وكلمة أمي تعني أنه لا يقرأ لغة.

أنا أحياناً حينما أُمسك ورقة تخطيط قلب لا أفهم منها شيئاً، فأنا أمّي في هذا، أما إذا قرأها طبيب فيقول: القلب سليم، أو فيه اضطراب، أو فيه اضطراب في النظم، أو ما شاكل ذلك.

لذلك معنى أمي:

يا أيها الأمي حسـبك رتبـة   في العلم أن دانت لك العلماءُ

***

كلما ارتفعت قيمة المعلِم ارتفعن قيمة التلميذ:

الآن إنسان يحمل ليسانس أو ماجستير في الشريعة، يأخذ بعض الأحاديث الشريفة فيدرسها، ويحللها، ويدرس صيغها ومضامينها وأبعادها، يؤلف كتيباً صغيراً، يمنح على هذا الكُتَيب لقب دكتور، لأنه فهم بعض أحاديث النبي، فلذلك إذا قلنا: إن النبي أمي يجب أن نقول: ولكن يوحى إليه، من الذي يوحي إليه؟ إذا قلنا: إن فلاناً تلميذ فلان، كلما ارتفع المدرس ارتفع معه التلميذ، أنا أستاذي فلان، هؤلاء الأطباء قد يقولون: أنا فلان الفلاني البروفيسور الفلاني، الذي أجرى عشرة آلاف عملية قلب مفتوح هو أستاذي، كلما رفعتَ من قيمة الذي علّمك ترتفع معه، من الذي علم النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وكفى بنبينا شرفاً وفخراً أن الله أوحى إليه.

لذلك مرةً جرت مناقشة بين أناس لا يقدّرون أُمّية النبي وأناس يعرفونه قدره حق القدر، فقالوا: أنتم نبيكم أمي، فكان الجواب: ولكنه يوحى إليه، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يقطع على كل الناس، وعلى كل المشككين، وعلى كل الكافرين، وعلى كل الملحدين، أن يقطع عليهم طريق إنكار نبوة النبي، فجعله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لماذا ؟ ليكون الوحي ظاهرةً جلية.

ظاهرة الوحي:

أيها الإخوة الأكارم، موضوع أمّية النبي ينقلنا إلى ظاهرة الوحي، ظاهرة الوحي هي الأساس في الدين، كل هذا القرآن جاءنا عن طريق الوحي، هذا الكلام كلام الله، بما فيه من أوامر ونواهٍ وأخبار، وتحليل وتحريم، وما فيه من وعد ووعيد، ما فيه من توجيه، كل ما في هذا الكتاب جاءنا عن طريق الوحي، إذاً: موضوع الوحي موضوع خطير جداً في الإسلام، لأنه على فهمه الدقيق، وعلى اليقين به يترتب كل فهمك لكلام الله ولسنة نبيه.

أيها الإخوة الأكارم، في الوحي شيءٌ يجب أن يُعلم عِلماً يقينياً، هو أن ظاهرة الوحي تتمثل في شيء و، في حقيقةٍ خارجة عن إرادة النبي لا يملك جلبها ولا ردّها، لو أنه يملك جلبها لاختلط الشيء، لو أنه يملك ردها لاختلط الأمر، حقيقة الوحي أن الوحيَ مستقل تمام الاستقلال عن كيان النبي، لا يملك جلبها متى شاء، ولا ردها متى شاء، لذلك عَنْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ:

((كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلّمَ: مَا أنَا بِقارِئٍ، قالَ: فَأَخَذَنِي فغطَنِي حَتّى بَلَغَ مِنّي الْجُهْدَ، ثُمّ أرْسَلَنِي فقالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أنَا بِقارِئٍ فَأَخَذَنِي فغطَنِي الثَانِيَةَ حَتّى بَلَغَ مِنّي الْجُهْدَ، ثُمّ أرْسَلَنِي فقالَ: اقْرَأْ قُلْتُ مَا أنَا بِقارِئٍ...))

[متفق عليه]

ليكون هذا الوحي واضحاً وضوح الشمس أنه ليس حلماً، وليس رؤية نفسية، ولا خيالاً، ولا وهماً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَأَخَذَنِي فغطَنِي حَتّى بَلَغَ مِنّي الْجُهْدَ))

فهو ليس بنائم، وعاد إلى البيت وهو خائف وقال:

((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))

هذا الوحي ليس حالة نفسية، ليست شفافية نفسية، ليس رؤية نفسية يملك استحضارها متى شاء، وردها متى شاء، لا، الوحي شيء خارج تماماً عن إرادة النبي، لا يملك جلبها، ولا ردها.

هذا معنى دقيق جداً، لأن موضوع الوحي، وموضوع أمّية النبي موضوعان متكاملان، النبي عليه الصلاة والسلام لأنه أمي إذاً فهو مقطوع عن ثقافة عصره كلياً، فكل ما جاء به ما هو إلا وحي يوحى.

بعض الدلائل على ظاهرة الوحي:

عندنا بعض الدلائل التي تبرز ظاهرة الوحي، لا على أنها كما يدّعي بعض المستشرقين رؤية نفسية، ولا على أنها شفافية، ولا على أنها شيء أَلِفه النبي عليه الصلاة والسلام، أو أحد فروع عبقريته، لا، ظاهرة الوحي ظاهرة مستقلة استقلالاً تاماً وخارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام.

الدليل الأول:

أول دليل على ذلك: أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين أسلوب القرآن و أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف، أليس كذلك ؟ لمجرد أن تقرأ آية تقول: هذا قرآن، ولمجرد أن تقرأ حديثاً شريفاً تقول: هذا حديث، هناك بون شاسع، وفرق كبير، وتمايز واضح بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي عليه الصلاة والسلام هذا أولاً.

لو أن الوحي شيء من عند النبي كما يدعي الكفار، أو كما يدعي أعداء الإسلام، الوحي كان ينقطع، ويتألم النبي أشد الألم، وينتظر الوحي انتظاراً ممضاً، ولا يأتي الوحي، ماذا يعني ذلك ؟ لو أن الوحي شيء من عند النبي لجاء به كما شاء.

الدليل الثاني:

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

ماذا قال ؟ قال: ما أظن إلا أنك قد بنت منه ـ أي هذا طلاق لقد طلقكِ طلاقاً فيه بينونة كبرى ـ فجاء الوحي بحكم آخر.

كان عليه الصلاة والسلام يُسأل فلا يجيب، وينتظر الوحي، حينما اتُّهم المُرجفون في المدينة، اتهموا أمهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ما اتهموها به، والأمر معروف عندكم، أصاب النبي غم شديد، هذه الزوجة الطاهرة بنت أحب الناس إليه تُتّهم تتهم في عفتها، ماذا فعل النبي ؟ تأخر الوحي شهراً بأكمله، فالوحي حقيقة مستقلة عن مشيئة النبي لا يملك جلبها ولا دفعها، وحينما جاء جبريل النبي عليه الصلاة والسلام وارتعد منه خوفاً، وقال:

((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))

وحينما ضمه ضمة، وحينما انقطع الوحي فقال الله عز وجل:

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

[سورة الضحى]

هذا كله يؤكد أن الوحي شيء لا علاقة للنبي به، إنما هو خارجي عنه يأتيه بمشيئة الله وينقطع عنه بمشيئة الله.

الدليل الثالث:

شيء آخر، لو أن هذا الوحي من عند النبي لما ذكر النبي العتاب هناك عتاب في أماكن متعددة من كتاب الله، قال تعالى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(4))

[سورة عبس]

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

[سورة التوبة]

إذاً: جاء الوحي بتوجيه مخالف لاجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام، وفي هذا ما يؤكد على أن الوحي ظاهرة مستقلة عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الدليل الرابع:

كلكم يعلم أن السيدة امرأة عمران، هذه المرأة المؤمنة التي قال النبي نقلاً عما قالته:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة آل عمران]

والقصة معروفة، وكانت موضوع الخطبة اليوم، قال تعالى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

[سورة آل عمران]

هذه الحادثة ما تعرفها أنت، وأنت أميٌّ، وما أخبرك أحد بها، أما:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ)

لها تفسير رائع جداً:

النبي عليه الصلاة والسلام لا يقرأ، لا يقرأ كتاباً، ولم يكن معهم حينما وقعت لهم هذه الحادثة التي وقعت قبل مئات السنين، أليس هذا دليلاً على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لذلك هذه الآية التي قالها الله عز وجل:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

أنت لا تقرأ، ولا تكتب، ولكن قد يسأل سائل: كيف قال الله عز وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

[سورة العلق]

إشكالات مدفوعة، وأوهامٌ مرفوعة:

الإشكال الأول:

كيف يأمر أن يقرأ، وهو لا يقرأ ؟ الجواب سهل جداً:

القراءة أيها الإخوة إما من كتابٍ، وإما من محفوظٍ، النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يقرأ من كتاب،

أما قوله تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7))

[سورة الأعلى]

لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، أنت حينما تقف بين يدي الله عز وجل ألا تقرأ فاتحة الكتاب أمياً كنت أم متعلماً، فالقراءة من المحفوظ هذه القراءة لا علاقة لها بهذه الآية، ولكن المقصود في قراءة هذه الآية أن تقرأ من كتاب.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

الإشكال الثاني:

أمّا ورد في السنة المطهرة من أحاديث يُشم منها أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعرف القراءة والكتابة فأكثرها ضعيف بل موضوع، وإذا قيل: إن النبي كتب فهذا بمعنى أمر بالكتابة، ألا تقول مثلاً: إن فلان بنى هذا البناء، يعني أمر ببنائه، فلان رجل كبير ما عرف موقع البناء، إذا قلت: فلان أقام هذا البناء، أي سمح بإنشائه، أو أمر بإنشائه أو موّله، فإذا ورد في السنة الصحيحة أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب بمعنى أنه أمر بالكتابة، ألا نقول: الملك الفلاني كتب إلى الملك الفلاني، فهل هو كتب ؟ هو أعطى توجيهاً، وهناك من كتب له.

إذاً: أي حديث ورد في السنة يفهم منه أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ ويكتب فهذه الأحاديث أكثرها ضعيف، وبعضها موضوع، أما ما كان منها صحيحاً فهو بمعنى أنه أمر بالكتابة، وعلى كلٍ الذي لا يقرأ ولا يكتب لا يغيب عنه أن هذا كلام يكتب، وأن هذا حرف طويل، وأن هذا حرف مطموس، هذه الأشياء لا تنافي أمية النبي عليه الصلاة والسلام، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ ويكتب قال تعالى:

(إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

هؤلاء المشككون، هؤلاء المنكرون لنبوة النبي يتخذون من تعلمه القراءة والكتابة مطعناً في نبوته، أساساً ماذا يقول أعداء النبي وأعداء المسلمين ؟

إن الراهب بحيرا علمه كل شيء في هذه الزيارة العابرة، فكيف إذا كان يقرأ ويكتب ؟

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

هذه الآية دقيقة جداً أيها الإخوة، ومما يدل على أنك عالم، ومما يدل على أنك أوتيت العلم أن ترى أن هذا الكلام كلام الله، وما دور النبي عليه الصلاة والسلام إلا دور المبلغ الأمين، هذا كلام الله، بل أبلغ من ذلك كما قال سيدنا سعد: **<< إذا كنت ممن أوتيت العلم ترى أن حديث النبي عليه الصلاة والسلام حق من الله تعالى >>**، تنفيذاً أو فهماً دقيقاً، لقوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

[سورة النجم]

إذاً: كلما ارتقى مستوى علمك، كلما ارتقى مستوى إيمانك ترى إعجاز هذا القرآن، ترى أن هذا القرآن كلام الله عز وجل، قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ)

هذا القرآن ليس من عند النبي، ولا من عبقريته، هناك من يضفي على النبي صفات العبقرية والإبداع، هو كذلك، ولكن يتوصلون من ذلك إلى إنكار نبوته، يقولون: هو عبقري، مصلح كبير، عنده نفس شفافة، تراءى له ما يصلح أمته من بعده، هذا كلام فيه لغم، هذا كلام فيه مطبّ كبير، النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله جاءه الوحي من عند الله فنقله بأمانة بالغة كما جاءه.

قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

القرآن الكريم آياته واضحة بينة في صدور الذي أوتوا العلم، إذاً: من هو الذي يعلم ؟ في آية أخرى قال تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

كيف يُعْرَف الرجل أنه من أولي العلم ؟!

يا أيها الأخ الكريم، إذا رأيت يد الله هي المسيطرة، وهي الفعالة، ولا يد سواها، إذا رأيت أنه لا إله إلا الله، لا معبود بحق، لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطي ولا مانع، ولا رازق ولا باسط ولا خافض، إذا رأيت ذلك فأنت من أولي العلم، لقول الله عز وجل:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

ويجب أن ترى مع وحدانيته في التصرف يجب أن ترى عدالته حتى تكون من أولي العلم، إذا رأيت وحدانيته في ألوهيته، ورأيت وحدانيته في ربوبيته، ورأيت وحدانيته في الخلق، ورأيت وحدانيته في الأمر، ورأيت عدالته، ورأيت أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى فأنت من أولي العلم هذا شاهد. الشاهد الآخر، إذا رأيت هذا الكلام كلام الله، وأنه كلام معجز في نظمه، معجز في تشريعاته، في بلاغته، في أخباره، في وعده في وعيده، في حقائقه العلمية، في أساليبه التربوية، إذا رأيت هذه الرؤية فأنت أيضاً من أولي العلم، قال تعالى:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ)

هناك قوله تعالى:

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ)

الكافر هو الذي أعرض عن الله عز وجل، والكافر هو ظالم لنفسه حرمها كل خير، قال تعالى:

طلبُ الكفار من الرسول الآيات الحسية:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)

يبدو أن الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يطلبون منه المعجزات.

النبي صالح فتق الجبل فظهرت منه ناقة، هؤلاء الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام تساءلوا لِمَ لمْ يأتِ النبي بآية من هذه الآيات ؟

الحقيقة هذه آيات حسية، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بمعجزة عقلية، والآيات الحسية تتناسب مع طفولة البشرية، بينما الآيات العقلية تتناسب مع تطورها، ومع تقدمها، الآيات الحسية لا يراها إلا من عاصرها، وبعدئذٍ تصبح خبراً يُصدّق أو يُكذَب، أما الآيات العقلية فهي معجزة النبي الخالدة، وأنت بعد ألف عام وزيادة تقرأ الكتاب، فترى إعجازه، وإذا رأيت إعجازه آمنت برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)

لو أن النبي جاء بآية

جواب النبي لقومه: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

حسية ظاهرة كما جاء موسى وعيسى والنبيون من قبله فماذا أجابهم النبي بأمر الله ؟ قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)

الله هو الذي اختار هذه الآية، ولم يختر آية حسية، هو الحكيم، هو القدير، أنا لا شأن لي بذلك، أنا لا أملك جلباً ولا دفعاً، ولا نفعاً ولا ضراً، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ))

أنا في الحقيقة لا أزيد على أنني كُلفت من قِبل الله عز وجل أن أنذركم عذاب يوم عظيم، وأبيّن لكم موجبات هذا الإنذار، أنا أنذركم، وأبين لكم، هذا حجم النبي عليه الصلاة والسلام، ليس في إمكان النبي أن يأتي بآية، ليس بإمكان النبي أن يبدل آية مكان آية، ليس بإمكان النبي أن يقترح على الله شيئاً، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)

هو الذي يملكها، وهو الذي اختار لكم هذه الآية:

(وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

كفى بالقرآن آية ومعجزة:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

ألا يكفيهم هذا القرآن معجزة ؟ هذا القرآن في حلاله وحرامه، في أمره ونهيه، في وعده ووعيده، في أخباره وفي قصصه، في أمثاله وفي حِكمه، في ذكره عن الأقوام السابقة، في ذكر المغيبات عن الإنسان، هذا القرآن بهذه الصياغة وبهذا النظم وبهذا الإعجاز وبهذه الفصاحة وبهذه البلاغة.

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

القرآن رحمة وذكرى وشفاء:

هذا الكتاب رحمة كبيرة، ولذلك القرآن الكريم ذكر شفاءَين: العسل فيه شفاء للناس لأجسامهم، والقرآن

شفاء لما في الصدور، فذا أردت أن يشفى جسمك فتناول العسل، وإذا أردت أن تشفى نفسك فاقرأ القرآن، ولم يرد لفظ الشفاء في القرآن إلا في موضعين، في موضع شفاء الأجسام، وموضع شفاء النفوس، قال تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء]

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

المؤمن يكون القرآن له ذكرى، فإذا طبقه يكون له رحمة، أما الآية التالية فدقيقة جداً في فهمها، قال تعالى:

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

الله جل في علاه يشهد لي أن هذا الكلام كلامه، بربكم كيف يشهد الله بذلك ؟ الله في عُلاه يشهد لي، وتكفيني شهادته أن هذا الكلام كلامه، وليس من عندي.

محور الآيات اليوم كله إثبات أن هذا القرآن كلام الله، ليس من عند النبي، إن هو إلا وحي يوحى، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كيف ؟ بعض الأمثلة:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

كيف يشهد الله لنبيه أن القرآن كلام الله ؟

هذه آية وردت في القرآن، شيء جميل، إذا جاء مؤمن، وآمن بالله، واستقام على أمره، وعمل صالحاً لابد من أن يشعر أن شيئاً تغير في حياته، شعر بسعادة، شعر بطمأنينة، شعر بقربه من الله عز وجل، شعر أن معاملة الله له تغيرت، صار موفّقاً، صار مصيباً في كلامه، صار مُسدّداً في أفعاله، يشعر أن تطوراً جذرياً طرأ على حياته، يشعر أن انقلاباً كاملاً طرأ على حياته، كان في الجحيم فصار في النعيم، كان في التشتت فصار جمع الشمل، كان في التشتت فصار في الجمع، كان في البعد فصار في القرب، كان في الجفوة فصار في المودة، كان في التعسير فصار في التوفيق، هذه الحياة الطيبة وما فيها من توفيق، وتسديد، وحفظ، ورعاية، وإكرام وتجلٍّ وقرب، أليست شهادةً من الله عز وجل على أن

هذه الآية كلامه، كيف يشهد لك الله عز وجل ؟ كيف يشهد الله عز وجل للنبي أن هذا الذي جاء به ليس كلامه، بل هو كلام الله؟

الطريق الأولى: الحياة الطيبة:

أنك إذا طبقت وعده قطفت الثمار، وإذا تجاوزت حدوده دفعت الثمن.

الفكرة دقيقة جداً، مثلاً: الحياة الطيبة من طمأنينة القلب، إلى سلامة الجسم، إلى وفرة في الدخل، إلى شيء من الراحة النفسية، إلى شيء من توفيق الله عز وجل، هذا لا يفعله إلا الله، هذا قدَر الله عز وجل، فإذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، وشعرت بما وعدك الله إذاً فهذه الحياة الطيبة هي من قدر الله لك، قدرها لك تأكيداً لوعده في القرآن، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل]

وهكذا شهد الله للنبي أن هذا القرآن هو كلام الله، وشهد لك أن هذا القرآن كلامه.

الطريق الثانية: أفعال الله:

إذا قرأ إنسان قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة البقرة]

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة]

كان هذا شاهدا على أن هذا كلام الله، إنسان مرابٍ ذكي جداً، ويبدو أن المال بين يديه لا يعد ولا يحصى، وأنه يزداد توفيقاً، ومنعة، وغنىً، ثم بضربة قاصمة أصبح صفر اليدين، بين عشية أو ضحاها أصبح مشرداً، أين أمواله الطائلة ؟ أين ممتلكاته ؟ أين عوائد أمواله في البنوك ؟ محقه الله، أليس مَحْقُ هذا المرابي شهادة من الله لك أيها الإنسان أن هذه الآية كلامه ؟ هذه الشهادة.

مثل آخر: إنسان ما عبأ بهذا الدين قال: ما هذا الدين ؟ سلوك قديم لا يتناسب مع هذا العصر، هذا عصر العلم، هذا الدين أشياء غيبيات، وعاش كما يشتهي، ولم يستقم على أمر الله، أخذ المال مما أراد بحق أم بغير حق، وأطلق لشهواته العنان بحق أم بغير حق، فإذا حياته قطعة من الجحيم يقول لك: ليس في الأرض من هو أشقى مني، أليست هذه الحياة الشقية التعيسة التي فيها القهر، والخوف، والقلق،

والتشتت، والتبعثر، والتمزق، واليأس، أليست هذه الحياة الضنك شهادة الله له على أن قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

هذه شهادة، أنا أريد من هذه الأمثلة أن أصل إلى تفسير هذه الآية

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

أيها الكفار، كما يقول النبي لكفار مكة، يكفيني شهادةً أن الله يشهد لي بأنني رسوله، وأن هذا الكلام كلامه كيف ؟ ذلك حينما يتحقق وعده ووعيده.

فرضاً: طالب دخل إلى الصف فرأى على السبورة الكلمة التالية:

كل من لم يكتب الوظيفة غداً فسيفصل عن المدرسة أسبوعا.

يا ترى هذا الكلام كلام المدرس، أم كلام طالب خطه جيد ؟ أم مزحة كلام جاد، ما هذا الكلام ؟ هو حمله على أنه كلام أحد الطلاب، وفي اليوم التالي ما كتب الوظيفة، فلما علم المدرس أنه ما كتبها عد ساعة صدر قرار عن مدير الثانوية بفصله أسبوعاً، قرار الفصل ألا يشهد لهذا الطالب أن هذا الخط الذي على السبورة هو خط المدرس وكلامه ؟ والدليل قرار الفصل.

هذه الفكرة، والحياة الطيبة التي تحياها شهادة الله لك على أن هذه الآية كلامه، والحياة الضنك التي يعيشها المعرض شهادة الله لهذا المعرض على أن هذه الآية كلامه، ومحق أموال المرابي شهادة من عند الله على أن هذه الآية كلامه، وحينما تربو أموال الصدقات وتزيد، ويمحق الله الربا، ويربي الصدقات، إذا تصدقت بمالك.

لا يوجد أخ من الإخوة الحاضرين يدفع شيأ من ماله إلاّ ويقول: والله يا أخي الله عوضني أضعافا مضاعفة، هذا التعويض من قبل الله عز وجل على صدقتك أليس شهادة من الله عز وجل على أن هذا الكلام كلامه ؟

إذاً هذه الآية مهمة جداً:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

حينما تطبق أمر الله، وتقطف ثماره اليانعة، وأنت في الحياة، هذه الثمار اليانعة هي شهادة الله لك، وأن هذا القرآن كلامه، وحينما تحيد عن منهج الله، وتدفع الثمن باهظاً، هذا الثمن الباهظ شهادة الله للمنحرف أن هذا القرآن كلامه، لذلك اقرأ القرآن، فكلما رأيت أمراً أو نهياً فاحرص على تنفيذ الأمر، وترك النهي، وراقِب الذين أكلوا مالاً حراماً كيف أن الله سبحانه وتعالى يمحق مالهم، وأن الذين اختاروا الطريقة المشروعة في كسب المال كيف أن الله يزيد من أموالهم، راقب الآيات الكريمة ترَها مطبقة.

إنّ إنكار القرآن لا يُوقف تطبيقه، القرآن مطبّق، كما تقول: للسقوط قانون، إذا ألقيت حجراً من طائرةٍ

هذا الحجر خاضع لقوانين السقوط، إنك إن صدقت هذا القانون أو لم تصدقه فهو واقع، تصديقك لا يلغي تطبيقه، ولا علاقة له بتطبيقه، صدق أو لا تصدق، هو واقع، وأوامر الله، وعده واقع، ووعيده واقع، وهذه الحياة بين يديك، إنه بإمكانك أن تعرف الله من خلال الكون، عن طريق التفكر، قال تعالى:

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

[سورة آل عمران]

الطريق الثالثة: تدبر القرآن:

وبإمكانك أن تتعرف إلى الله عز وجل من خلال القرآن عن طريق التدبر، الأمر، النهي، والوعد، والوعيد، البشارة، الإنذار، حقيقة الحياة، حقيقة الإنسان، حقيقة ما بعد الموت، أين كنا قبل الموت ؟ ما التكليف ؟ ما الرسالة ؟ ما الأمانة ؟ كله تعرفه.

وبإمكانك أن تتعرف إلى الله من طريق ثالث، عن طريق النظر في الحوادث، الحوادث أفعاله، والكون خلقه، والقرآن كلامه وكل هذه الطرق سالكة إليه، يمكن أن تعرفه من خلال خلقه ومن خلال أمره ومن خلال أفعاله، فلذلك قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

يجب أن توقن أنه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، يجب أن توقن يقيناً يشبه يقينك بوجودك، يجب أن توقن يقيناً يشبه يقينك بأشعة الشمس، وهي في كبد السماء أن هذا القرآن كلامه، وأن أمره واقعٌ، وأن وعده واقعٌ، وأن وعيده واقعٌ، يكفي أن تطبق شيئاً وفق ما أمر القرآن، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء]

في زواجك، في تجارتك، في صناعتك، في بيعك، في شرائك في علاقاتك، في أفراحك، في كل مناسبة من حياتك، فيما بينك وبين الله، فيما بينك وبين أهلك، فيما بينك وبين أولادك، فيما بينك وبين الناس:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء]

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه]

قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

هو يشهد لي لأن الفعل مطابق لكلامه، أفعاله مطابقةٌ لكلامه، والآن عند الناس جميعاً بالفطرة حينما يصاب إنسان، حينما يتلف ماله كله يشعر الناس جميعاً لعل في هذا المال حرمة، لعله اغتصب من حرام، حينما يُقدم إنسان على إيقاع الأذى بالآخرين ينتظر الناس أن يوقع فيه الأذى، هناك إله عادل، هناك وعد ووعيد، هذه الآية مهمة جداً هي محور الدرس كله:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا)

الطريق الرابعة: التوفيق والتيسير والتعسير:

التوفيق، قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

[سورة الليل]

التيسير شهادة الله لك أنك أعطيت، وأحسنت، وصدقت فتيسر أمرك، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

[سورة الليل]

والتعسير شهادة الله عز وجل على أن هذه الآية كلامه، قال تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

إنها قضية وقتٍ فقط !!!

لا يوجد إنسان على وجه الأرض كائناً من كان إلا وهو يبتغي السلامة والسعادة، فإذا علمت أنك إذا حدت عن منهج الله دفعت الثمن باهظاً في حياتك الدنيا، وفي أخراك لا تفعل هذا.

الأزمة هي أزمة علم، والأصح من ذلك وقت، لأنه لو علم الكافر ما عند الله من ثواب لأطاعه، ولو علم الكافر ما عند الله من عقاب لانتهى عما عنه نهى، ما الفرق بين الكافر والمؤمن ؟ موضوع العلم، فرعون وهو يغرق قال تعالى عنه:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس]

إذاً: القضية قضية وقت أيضاً وليست قضية علم، لابد من أن تعلم ما جاء به الأنبياء من قبل ولكن عند الموت، لكن عند الموت لات حين مناص، لا ينفع الندم بعد فوات الأوان، إذاً الدرس كله ملخص

بكلمتين، المشكلة مشكلة علم أو جهل، الجاهل يفعل في نفسه ما لا يفعله عدوه به، لو أحضرنا أعدى أعداء الإنسان، وقلنا له: افتك بهذا الإنسان، هو بين يديك، لا يستطيع هذا العدو أن يفتك بهذا الإنسان كما يفتك هذا الإنسان بنفسه إذا كان جاهلاً.

الخروج عن منهج الله سبب مشكلات الأرض كلها:

والله الذي لا إله إلا هو ما من مشكلة في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، مشكلات الأسَر، مشكلات الزواج، مشكلات الطلاق، البيع الشراء، كسب المال، إنفاق المال، مشكلات الصحة أبداً، ما من مشكلة في الأرض إلا بسبب الخروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، فالمشكلة مشكلة جهل، لهذا قال الله عز وجل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر]

بعد مشكلة الجهل مشكلة وقت، فإما أن تعرف قبل فوات الأوان، وإما أن تعرف بعد فوات الأوان، بعد فوات الأوان لابد من أن تعرف، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق]

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر]

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً(28))

[سورة الفرقان]

إنها مشكلة وقت، إذاً: فما الإنسان ؟ بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بعض منه، مشكلتنا مشكلة علم أو جهل، ومشكلة علم بالوقت المناسب، وليست علمًا فقط، وأنت شاب صحيح، قوي، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم]

لا تحب أحداً، أحبب نفسك وحدها، إذا أحببت وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك فهذا منهجك.

هذه تعليمات الصانع، أنت آلة معقدة، إما أن تسحقها، وإما أن تعطبها وتعطلها، وإما أن تجعل مردودها ضعيفاً، وهذه التعليمات، لا تحب أحداً، أحب نفسك، إن أحببت نفسك فهذا منهج الله، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، والقبر صندوق العمل، والموت قريب.

نحن في هذا الجامع أنا والله أذكر أكثر من خمسين أخا توفوا ـ رحمهم الله ـ كل فترة يوجد أخ توفي، رحل عنا، أين هو ؟ دخلت إلى بيوت فخمة جداً، أين أصحابها، أين هم ؟ تحت أطباق الثرى رهن أعمالهم، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

[سورة المدثر]

خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (15-16): تفسير الآيات 52 - 59

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-01-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة العنكبوت، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من معاني شهادة الله بأحقية القرآن ورسالة النبي العدنان:

هذه الآية أيها الإخوة لها معانٍ كثيرة، في الدرس الماضي تحدثت عن بعض معانيها.

المعنى الأول:

المعنى الآخر: هو أنك إذا كنت على حق، يكفيك طمأنينة أن الله يعلم ذلك، يكفيك شعوراً بالأمن والراحة أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فإذا وحّد الإنسان استراح قلبه، وإذا أشرك أصابه عذاب شديد، لقول الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

إن أعلى أنواع العلم أن توحد الله عز وجل، نهاية العلم التوحيد، إن كذبوك، إن كنت على حق، وهناك من سَخِر منك، إذا كنت على حق، وهناك من استخف بآرائك، إذا كنت على حق، والله سبحانه وتعالى راض عنك، وهناك من يشكّك فيك، هذه آية دقيقة جداً.

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

لماذا ؟ لأن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، هو العليم، لهذا يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

<< من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به >>.

حينما لا تستطيع أن تقنع الآخرين بأنك على حق، أو حينما يتعنت الآخرون، حينما يجحد الآخرون، حينما ينكر عليك الآخرون، كفاك فخراً وطمأنينة وشعوراً بالإنصاف أن الله يعلم نياتك، ويعلم أنك على الحق.

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا معنى آخر من معاني قوله تعالى:

(قُلْ كَفَى باللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

المعنى الثاني:

هو أن النبي عليه الصلاة والسلام رسول الله، من الذي يشهد للنبي عليه الصلاة والسلام أنه رسول الله؟ الله سبحانه وتعالى، كيف شهد الله لسيدنا موسى أنه رسوله ؟ أعطاه معجزات، أمسك بالعصا فإذا هي ثعبان مبين، ونزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ضرب بعصاه البحر فإذا البحر طريق يبس، هذه المعجزات الحسية شهادة الله عز وجل لرسوله موسى عليه السلام أنه نبيه، وحينما أحيى سيدنا عيسى الميت، وحينما أبرأ الأكمه والأبرص، شهد الله عز وجل لسيدنا عيسى أنه رسوله، فكيف شهد الله عز وجل لنبينا عليه الصلاة والسلام أنه رسوله ؟ لا بد من أن يعطيه شيئاً لا يستطيعه البشر ! لا بد من أن يكون معه دليل من خالق البشر، إن معجزات الأنبياء السابقة كانت معجزات حسية، والمعجزات الحسية تنقضي بانقضائها وتصبح خبراً، فإما أن يُصدّق، وإما أن لا يصدق، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لكرامته على الله عز وجل، ولأنه سيد الأنبياء والمرسلين، ولأنه سيد ولد آدم، ولأنه سيد الخلق وحبيب الحق، أكرمه بمعجزة من نوع آخر ! أكرمه بمعجزة خالدة، بإمكان أي إنسان جاء بعد النبي أن يكتشف بالدليل القطعي أن سيدنا محمداً هو رسول الله من خلال هذه المعجزة التي بين أيدينا، معجزة النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن معجزة حسية وقعت، وانقضت، وأصبحت خبراً يصدق أو لا يصدق، إنها معجزة خالدة إلى يوم القيامة. الرسول الكريم قال:

((ألا ترضون أن يشهد الله لي بأني رسوله ؟!))

[ورد في الأثر]

كيف ؟ هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

(قُلْ كَفَى باللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

القضية متسلسلة ومنطقية، ما الذي يشهد لنا أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ إنه القرآن، وما الذي يؤكد لنا أن هذا الذي بين أيدينا كلام الله ؟ هو الإعجاز، إذاً بإمكانك عن طريق قراءة القرآن وتدبره، والتأمل فيه أن تكتشف إعجازه، فإذا اكتشفت إعجازه كان هذا القرآن دليلاً لك على أن سيدنا محمداً صلى الله

عليه وسلم هو رسوله، فإذا كان القرآن كلامه، والنبي رسوله، إذاً أنت ليس لك إلا أن تذعن لأمر الله عز وجل، لذلك كل ما جاء به القرآن، وكل ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو من عند الله، فإما أن تكون عبداً لله، وإما أن تأبق عن عبادته !

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

إن الطبيب مسموح له أن ينظر إلى أحد أعضاء المرأة لمعالجته، لو أن عين الطبيب نظرت إلى مكان آخر لا يبعد عن المكان الأول إلا بعشرين سنتيمترا، هل في الأرض كلها جهة تستطيع كشف خيانة هذه العين ؟ لا، لكن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

العين قد تخون، قد تنظر إلى ما ينبغي، قد تجعل بؤرة النظر إلى مكان آخر غير العضو الذي يعالجه الطبيب، إذاً الله سبحانه وتعالى وحده يعلم، يعلم كل شيء، يعلم خائنة الأعين، يعلم ما تخفي الصدور، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، هناك علانية تُعلنها، وهناك سر تخفيه، وهناك شيء يخفى عنك أنت ! إن الله يعلمه.

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)

المعنى الثالث:

الكتاب بإعجازه يشهد لنا أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسوله، والنبي عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن ربه يقول كذا، وكذا، وكذا ز

المعنى الرابع:

المعنى الذي طرحته في الأسبوع الماضي: إن هذا القرآن أيضاً إذا شئت أن يشهد الله لك أنت أيها المؤمن أنه كلامه فإليك التفصيل !

طبّق آية من آياته، نفّذ أمراً من أوامره، ثم انظر كيف أن الأحداث الخارجية، وكيف أن القضاء والقدر يتجه لتحقيق الوعد الذي وعدك الله إياه في القرآن ! وسقتُ على هذا آيتين في الأسبوع الماضي.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

الحياة الطيبة التي هي من قدر الله عز وجل إنما هي شهادة الله لك ـ أيها المؤمن ـ أن هذا القرآن كلامه، والمعيشة الضنك التي هي من قدر الله تعالى، هي شهادة الله لك ـ أيها المؤمن ـ أن القرآن حق.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

إذاً: هناك إعجاز في القرآن، وهناك تأويل القرآن، والتأويل هنا بمعنى خاص، وهو أن يقع الوعد والوعيد، وقوع الوعد والوعيد هو تأويل القرآن، إذا دُمّر مال المرابي فهو تأويل آية الربى، إذا نما مال المتصدق فهو تأويل آية الصدقة، إذا حفظ المال من التلف هو تأويل آية الزكاة، إذا نجح الإنسان في الحياة في شتى الميادين هو تأويل قوله تعالى:

(فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

طمأنينة المؤمن التي يتميز بها عن الآخرين هو تأويل الله لقوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت)

حينما يأتيك رزق من حيث لا تحتسب، وأنت قائم على أمر الله هو تأويل قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

خلاصة طرق معرفة أن القرآن والنبي العدنان من عند الله الرحمن:

لذلك الأحداث الخارجية تؤكد آيات القرآن الكريم، إذاً إما أن تنظر في آيات القرآن الكريم فترى فيه من الإعجاز اللغوي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز الإخباري، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الرياضي، والإعجاز الحسابي، وإما أن تتأمل الأحداث، فإذا هي تؤكد القرآن الكريم، الأحداث الخارجية كلها تؤكد آيات القرآن الكريم.
لذلك قيل: إنك إذا أردت أن تعرف الله عز وجل فتأمل في آيات الله الكونية، وتفكر فيها تتعرف إليه، وإن أردت أن تتعرف إلى الله تعالى تأمل في آياته القرآنية، وإن أردت أن تعرف الله تعالى انظر إلى الأحداث الخارجية، الأحداث الخارجية تؤكد لك أنه في السماء إله وفي الأرض إله، وآيات القرآن تؤكد أنه كلامه، والكون يجسّد أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى علمِ الله عزوجل: يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض

كلمة (يعلم) كما قلنا في درس سابق: إن الله سبحانه وتعالى منزه حتى عن صفات الكمال التي تخطر في بالنا، لأنه كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، أنت إذا رأيت هذا الكأس انتقل من هذا المكان إلى هذا المكان تقول: علمت بانتقاله، لكن إذا أنت نقلته فهذا علم آخر، علم الله من نوع آخر، لا كعلم الإنسان، فقد يراقب الإنسان شيئاً قد تحرك، يقول: أعلم أنه يتحرك، أعلمُ أنه انتقل، ولكن لا يقع شيء في الكون إلا بقدرة الله ومشيئته وبعلمه.

فإذا قلنا: إن الله يعلم فالعلم له معنى آخر غير المعنى الذي يتبادر إلى أذهان الناس حينما يقولون: نعلم أو لا نعلم.

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

ما هو الحق والباطل ؟

ما الباطل ؟ ما تعريف كلمة الباطل ؟ الشيء الزائل، والحق واحد، ما تعريف الحق ؟ في الأصل الحق هو غير الباطل، والحق هو غير اللعب، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة التغابن)

فخلق السماوات والأرض ثابت بالحق، الحق ملازم له، وحينما نفى الله عز وجل عن خلق السماوات والأرض أن يكون هذا الخلق باطلاً قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الدخان)

حينما نفى اللعب والبطلان عن خلق السماوات والأرض، وأثبت أن خلق السماوات والأرض كان بالحق، إذاً: ما الحق ؟ هو شيء مناقض للباطل، والباطل هو الشيء الزائل، فالحق إذاً: هو الشيء الثابت إلى الأبد، هذا هو الحق، اللعب هو العبث، عمل لا جدوى منه، أو لا هدف له، يقول ربنا عز وجل:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

فخلق السماوات والأرض ليس باطلاً، أو ليس مؤقتاً، لم يخلق الله السماوات والأرض للفناء، بل خلق الإنسان للبقاء، وخلق الكون تسخيراً من الله عز وجل لهذا الإنسان كي يعرف الله عز وجل.

إذاً: الوقفة عند كلمة الباطل، حينما تبني جداراً بلا قواعد، تبني جداراً بلا شاقول، حينما يبني إنسان جداراً بلا أصول، فإن هذا الجدار لا بد من أن يقع، جدار بالباطل، والباطل لا بد من أن يقع.

أحياناً ترى بأم عينك كيف أن الباطل لا يصمد أمام الحق، وكيف أن الباطل ينتهي، ويتداعى كبيت العنكبوت.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِل:

ما هو الإيمان بالباطل ؟

آمن بفكرة لم ترد في كتاب الله، آمن بحقيقة أو بنظرية مناقضة لكتاب الله عز وجل، سلك سلوكاً بعيداً عن منهج الله عز وجل، أحل شيئاً حرمه الله هو باطل، حرم شيئاً أحله الله هو باطل، سلك طريقاً بعيداً عن طريق الله عز وجل هو باطل، اعتقد شيئاً مخالفاً للعقيدة التي جاءت في كتاب الله هو باطل.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

آمنت بالباطل عقيدة، آمنت بالباطل سلوكاً، آمنت بالبطل هدفاً، آمنت بالباطل وسيلة، أي شيء خارج عن كتاب الله وعن سنة رسول الله، بل أيّ شيء خارج عن منهج الله هو باطل، والحقيقة الهندسية كما تعلمون أن بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، فإذا زاح الخط عن الاستقامة التي بين النقطتين فهو خط مائل، أو منحنٍ، أو منكسر، والباطل يتعدد، أما الحق فلا يتعدد، لهذا يقول الله عز وجل:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس)

هناك حق، وغير الحق ضلال قطعاً، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ)

اعتقد شيئاً مخالفاً لكتاب الله، سلك سلوكاً مخالفاً لسنة رسول الله، أَلِفَ شيئاً لا يرضي الله، ابتعَدَ عن شيء يحبه الله، إذا خرج عن منهج الله اعتقاداً أو سلوكاً فقد آمن بالباطل، فإذا آمن الإنسان أن هذا المال لا بد من أن يستثمر بفائدة ربوية، هكذا منطق الحياة، فقد آمن بالباطل، وإذا استثمره بفائدة ربوية فقد سلك سلوكاً باطلاً، فهذه الآية مطلقة، والمطلق على إطلاقه، وهذه الآية جامعة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

استنباطات من قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ

1 – خسارة أهل الباطل شاملة للدنيا والآخرة:

أحياناً حينما يستخدم الإنسان كلمة (خسر) أو (خسارة) فلا بد من أن يصفَها، خسر ماله، خسر جهده، خسر وقته، خسر شيئاً، خسر بيتاً، خسر زوجة، خسر صديقاً، لكن كلمة الخسارة في كتاب الله جاءت غير مقيدة، لهذا إن من أشد أنواع الخسارة أن تخسر الدار الآخرة.

إن من أشد أنواع الخسارة أن تخسر رضوان الله عز وجل، إن من أشد أنواع الخسارة ألا تعرف عن الله شيئاً، إن من أشد أنواع الخسارة أن تكون دنياك عريضة عامرة، وآخرتك خربة.

إن من أشد أنواع الخسارة أن تأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، وقد أكلت مال هذا، وشتمت هذا، وسفكت دم هذا، وعيّرت هذا، واستعليت على هذا، فيأخذ هذا من حسناتك، وهذا من حسناتك، فإذا انقضت حسنات هذا الإنسان، ولم تفِ بما عليه طرحت عليه سيئات الآخرين فيطرح في النار ! هذه خسارة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

2 – المؤمن لا يندم على شيء مِن الدنيا:

المؤمن لا يندم على شيء فاته من الدنيا إطلاقاً، لأن هدفه كبير، هدفه أن يكون في رضوان الله، لذلك تهون عليه الدنيا، والدنيا هينة على أهل الإيمان، عظيمة على أهل البطلان.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

3 – العاقل يراجع معتقداته:

لهذا مما يقتضيه العقل أن تراجع كل معتقداتك:

هل تعتقد شيئاً مخالفاً لما جاء في القرآن الكريم ؟ هل تعتقد أن أصل الإنسان قرد، مثلاً ؟ وهذا مخالف لما جاء في القرآن الكريم.

هل تعتقد أن تثمير المال بفائدة ربوية ضرورة ؟

هل تعتقد أن طبيعة العصر تقتضي الانطلاق ؟ والاختلاط والحيوية كما يدّعون ؟ هل تعتقد فكرة أو مذهباً أو نموذجاً أو سلوكاً مخالفاً لما جاء في القرآن الكريم ؟ هذا هو الإيمان بالباطل.

هل تعتقد أن المال هو كل شيء ؟ هذا هو الباطل.

هل تعتقد أن الذكاء هو كل شيء ؟ هذا باطل.

هل تعتمد على الأسباب هذا شرك ؟

إن القضية تحتاج إلى مراجعة تصورات الإنسان، ومعتقداته، وما يقتنع به وتصرفاته.

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

من صفات الأحمق والجاهل استعجالُ العذاب:

دائماً من صفات الأحمق أنه يتحدى، يستعجل، متى العذاب ؟ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ! هكذا يقول الكفار دائماً !

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

طبعاً عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، يقول لك: دع الله يأخذني، ويميتني، لا أريد هذه الحياة، ادخل الجنة، وأغلق الباب خلفك، هذا استعجال للعذاب.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

هناك آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

استعمال القرآن الماضي لشيء مستقبلي وأمثلة لك:

المثال الأول: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه

انظر لهذه البلاغة في الآية، أتى كيف يستعجلونه ؟ هذا من إعجاز القرآن أتى، لو أنك تنتظر صديقاً يقول لك: أبوك استعجله، اتصل به بالهاتف، قل له: تأخرت علينا، هل يعقل أن يقول لك ابنك: لقد جاء فلان يا أبت، تقول له: استعجله، واتصل به بالهاتف ؟ جاء، وانتهى الأمر، دخل البيت ! ما معنى هذه الآية ؟ كيف أتى أمر الله ؟ وكيف ينهانا الله على أن نستعجله ؟

في الآية إعجاز، أمر الله لا محالة واقع، القضية قضية زمن فقط، وعد الله لا محالة واقع، وعيد الله لا محالة واقع، وعد الله بنصر المؤمنين لا محالة واقع، وعيد الله بخذلان الكافرين لا محالة واقع، وعد الله بحياة طيبة للمؤمن لا محالة واقع.

إنّ أمر الله أيْ قضاؤه وقدره، وقضاء الله وقدره إما مكافأة للمؤمن، أو عقاب للمجرم.

إذاً:

(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه)

قضية وقت، مجيئه محقق، فالقرآن يستخدم الفعل الماضي مكان الفعل المستقبل تحقيقاً لوقوعه، كقوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة)

المثال الثاني: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ النّاس

هذا القول من الله تعالى لم يقع بعد، هذا القول يقوله هذا النبي الكريم يوم القيامة ! ولكن حينما قال الله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى)

عبر عن ذلك العلماء فقالوا: إن القرآن يستخدم الفعل الماضي مكان الفعل المضارع، أو الفعل الاستقبال تحقيقاً للوقوع.

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة العنكبوت)

القضية ليست على استعجال هؤلاء، لكل إنسان أجل، هذا الأجل فيه حكمة بالغة، هذا الأجل حكمته أن يأخذ الإنسان فيه أبعاده.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك)

الأبعاد الحقيقية للإنسان:

إنّ الإنسان أحياناً لا يأخذ أبعاده الحقيقية، ومطامِحه، وأهدافه، ورغباته، وطاعته لله، ومعصيته لله،

وورَعه، وتفلّته، وصبره، وضجره، وحلمه، وغضبه، وكرمه، وبخله لعشر سنوات، ولا يأخذ أبعاده إلا بفترة زمنية محدودة، لهذا يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

عشتم عمراً كافياً، أخذتم في هذا العمر أبعادكم، فالقضية ليست على قول زيد أو عُبيد.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ)

ربنا عز وجل جعل لكل إنسان أجلاً محدداً، مثلاً يقول الطالب لأستاذه: أسقِطني في صفي أستاذ، الآن أسقطني ! لا، ستسقط في الفحص، معك مدة حتى شهر حزيران، يقول الطالب: الآن أسقطني، وضع لي علامة الصفر ! لا، معك فترة ما، فأولاً: يعطى الطالب فرصة لعله يدرس، لعله يراجع نفسه، لعله يعود عن هذا الاستعجال، لعله يفكر، لعله يتراجع.

وثانياً: هناك نظام عام لا بد من أن يمضي عام دراسي، يأخذ فيه الطالب كل أبعاده.

إذاً:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

ربنا عز وجل قال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55))

(سورة الزمر)

احذروا المحطات السبع الحتمية:

اجتماعات، أو إلى سهرات، أو إلى زيارات، أو ما شاكل ذلك، نعود وننام، ونستيقظ، ونذهب، ونعمل، ونأكل، وننام، إلى متى هذا النمط الرتيب ؟ إلى ما لا نهاية ؟ كل يوم أفعل إلى ما شاء الله ؟ لا، هل الخط البياني صاعد دائماً ؟ لا،

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا))

فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ هناك مفاجآت في الدنيا، والمفاجآت لا بد منها،

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

فجأة جاءك المال الوفير، هذا المال جاء على غير علم، فاختل التوازن، رفضت حياة التقشف، ورفضت حياة الاستقامة، رفضت حياة طاعة الله عز وجل، مال وفير لا بد من أن تفعل كذا، وكذا،

وكذا، لا بد من أن تذهب إلى هذه الجهة، وأن تسافر، لا بد من أن تقتني هذا الجهاز، وهذا الجهاز، لا بد من أن تلتقي مع زيد أو عبيد، لا بد من أن تسكن غير هذا البيت،

((أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

أن يحملك المال على معصية الله، أن يدفعك المال إلى الدنيا، أن يدفعك المال إلى أن تعلو على خلق الله، أن يدفعك المال إلى المعاصي والآثام، أن يدفعك المال إلى الفجور.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي)

يستيقظ في صبيحة أحد الأيام فإذا ماله كله ذاهب، وليس ذلك على الله بعزيز،

((أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

يفسد حياة الإنسان.

((أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا))

يجعله في أرذل العمر.

((أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

لذلك قال:

(وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

العوام دائماً يستعيذون بالله من ساعة الغفلة، فقد يتوهم الإنسان أن الله راض عنه، وقد يكون الله غير راضٍ عنه، الحبل مرخى، يمرح، ويفرح، ويذهب، ويأتي، ويعود، ويتكلم، ويتبجح، ويتطاول، ويتعجرف، ويستعلي، ويتحدث عن نفسه، وعن ماله، وعن مغامراته، وعن رحلاته، وعن إقامته، وعن، وعن، وعن.. فجأة أصابه مرض عضال!

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً)

بين حياة المؤمن وحياة الكافر:

أما المؤمن فلا ينتظر إلا الخير من الله عز وجل.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة51)

ما كتب الله لنا من خير، فهناك فرق كبير بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، فحياة المؤمن فيها استبشار وأمل.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص 61)

حياة الكافر فيها مفاجآت ساحقة، فيها مفاجآت مدمرة، فيها مفاجآت متعبة.

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

أول استعجال لعذاب الدنيا.

يوم الحساب والعقاب:

وثاني استعجال لعذاب الآخرة.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

جهنم مهيأة، والقضية قضية وقت.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(55))

فالإنسان المؤمن وهو في الدنيا حركاته محسوبة عليه، سكناته محسوبة عليه، مواقفه محسوبة عليه، جوارحه محسوبة عليه، لماذا نظرت ؟ لماذا لم تنظر ؟ لماذا تكلمت هذه الكلمة ؟ لماذا سكت عن الحق ؟ لماذا استمعت لهذا الشيء ؟ لماذا عبست في وجه فلان ؟ لماذا هششت لفلان وهو على باطل ؟ لماذا أعطيت هذا ولم تعطِ ذاك؟ لماذا منعت هذا ؟ لماذا وصلت فلانا ؟ لماذا قطعت فلانا ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا لم تغضب ؟ كل هذا أنت محاسب عليه !

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(55))

نحن الآن في دار عمل، وغداً نقدم على دار جزاء وحساب.

تشريف الإنسان بالعبودية:

الآن اسمعوا أيها الإخوة:

(يَا عِبَادِيَ)

ألا تقشعر جلودكم لهذه الكلمة ؟ لقد أضيف العباد إلى الله عز وجل، إضافة تشريف، لكرامة العباد على الله، لأن الإنسان هو المخلوق الأول، لأنه هو المخلوق المكرم.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

تشريف المؤمنين بالإيمان:

الله عز وجل يخاطب المؤمنين، أما الكفار فما آمنوا به حتى يستمعوا إلى خطابه !

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

معنى الآية:

ما معنى هذا الكلام ؟ يا عبادي الذين آمنوا إياكم أن تعصوني، لا بد من أن تطيعوني، خلقتكم للعبادة، فإذا كنتم في مكان تفتدون فيه بدينكم فارحلوا عن هذا المكان إلى مكان آخر تطيعون الله فيه.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

لا تعبدوا غيري.

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

حينما يأتي المفعول به مقدماً فهو يفيد الحصر،، أي اعبدوا الله، ولا تعبدوا أحداً سواه، أطيعوا الله، ولا تطيعوا أحداً سواه.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

سبب نزول الآيات:

هذه الآيات كما يروي المفسرون: أنها نزلت في حض المؤمنين في مكة على الهجرة إلى المدينة.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

من لوازم الآية ومقتضياتها: الهجرة بمفهومها الواسع:

إذا آثرتم أن تبقوا في بلدكم، وتفتنون في دينكم، هذه الحياة لا تدوم لكم، لابد من الموت ! كل نفس ذائقة الموت، فإذا آثر الإنسان الدنيا، ثم ماذا بعد الدنيا ؟ أليس الموت؟ ماذا بعد الغنى إلا الموت، ماذا بعد الوجاهة العريضة إلا الموت، ماذا بعد النجاح الكبير في الحياة إلا الموت، ماذا بعد التفوق إلا الموت، ماذا بعد أن تملك الدنيا، وما فيها إلا الموت.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

إذا ضاق بك المقام هنا، اذهب إلى هناك، لذلك باب الهجرة قد انتهى من مكة إلى المدينة بعد الفتح.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا))

(صحيح البخاري)

لا هجرة بعد الفتح، الهجرة انتهت، لكن الهجرة مشروعة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة وقت الهجرة.

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

(صحيح مسلم)

الغريمان الأساسيان للإنسان: الفقر والموت:

الحقيقة أن الإنسان يخشى شيئين، أولهما: الموت، والثاني: الفقر، ولأن الأمر بيد الله وحده، لذلك قطع الله أمر الموت، وأمر الرزق عن العباد، بمعنى أن أحداً من بني البشر لا يستطيع أن يؤثر في أجلك، ولا في رزقك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً))

[ورد في الأثر]

مغزى الهجرة: فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

هنا في الآية عندما دعا ربنا عز وجل هؤلاء المؤمنين في مكة إلى الهجرة، ما الذي يخافون منه ؟ يخافون أن يموتوا في الطريق ! لأن قريشا كانت تترصد لهم، ويخافون أن يفتقروا، لأنهم إذا جاءوا إلى المدينة لا شيء عندهم، كما يقول بعضهم: اقتلعوا من جذورهم، تركوا أموالهم وبيوتهم وتجارتهم، وجاءوا إلى بلد لا يعرفون أحداً فيه، فربّنا عز وجل طمأن هؤلاء قال:

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

يجب أن يكون شغلك الشاغل عبادة الله، هدفك الأسمى أن تعبده، هدفك الأكبر أن تعبده، لا شيء يعلو على هذا الهدف، لا شيء يقلق إلا أن تعبده.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا)

إن كنتم حقاً مؤمنين، إن عرفتموني، وعرفتم حقيقة الحياة، وكيف أنها دار عمل، وعرفتم حقيقة الآخرة، وكيف أنها دار جزاء، وعرفتم أبدية الآخرة، وزوال الدنيا، وشدة انقضائها، إن عرفتم هذه الحقائق، وعرفتم ما عندي من إكرام كبير، وعرفتم ما بعد الموت للكفار من عذاب أليم.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

عليكم أن تعبدوني بأي ثمن ! ولو كان الثمن أن تخرجوا من أرضكم !

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

ولا تخافوا أن تكون الهجرة سبباً في موتكم، لأن كل نفس ذائقة الموت، الموت الذي تخافون منه، لا محالة آت في الوقت الذي هو مقرر، هذه الفكرة مريحة جداً، لي عند الله أجل لا يزيد ولا ينقص، لا يزيد ثانية، ولا ينقص ثانية، وهذا الأجل بتقدير الله عز وجل العليم الحكيم، لهذا عندما قال أحد الشعراء:

إن الطبيب له علم يُدل به إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

***

كلكم يعلم أن الإنسان يكتَب نعيه أحياناً، ويعيش ثلاثين عاماً بعد كتابة النعي ! وإنسان يرتجى طول عمره، فإذا هو في ثوان معدودة أصبح من أهل القبور ! هكذا الحياة، فقال:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

المصير المحتوم:

أنت مصيرك إلى الله عز وجل، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ ماذا هيأت له ؟ ماذا ادخرت له، ماذا تزودت له ؟ بمَ تلقى الله إذاً ؟ لا صدقة ولا جهاد، جهاد النفس والهوى، فبمَ تلقى الله إذاً ؟

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أدركنا حقيقة الموت، جاء في بعض الآثار: أنه ما من بيت إلا ومَلَكُ الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات ! فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه ألقى عليه غم الموت! فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: **فيمَ الجزع ؟ ومما الفزع ؟ ما أذهبتُ لواحد منكم رزقاً، ولا قرّبت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً !**

فو الذي نفس محمد بيده، لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم !

أي أنهم ينسون أن يغسلوا الميت ! فإذا شُيع هذا الميت رفرفت روحه فوق النعش، تقول: **يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي !**

فو الذي نفس محمد بيده لو ترون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوة - تذهب القابلية نهائياً - ولا شربتم شراباً، ولذهبتم إلى الصُعدات تضربون وجوهكم، وتزمون أنفسكم، هكذا ورد في بعض الآثار.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

هذا أخطر حدث في حياة الإنسان، أخطر من الحياة والولادة، لماذا ؟ الولادة فيها خيارات كثيرة أمامك، أما الموت فليس فيه خيار، فإذا سيق رجل للإعدام، إذا بكى هل يخلصونه مما هو فيه ؟ البكاء والتوسل هل ينجيانه من الإعدام ؟ لا، لو ضحك هل ينجو ؟ هذا ممر إجباري، ضحكه كبكائه، وصراخه كصمته، وتوسله ككبريائه، هذا الحكمُ لا بد من أن يقع، لذلك قال ربنا عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك)

خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ

بدأ بالموت، لأن حدث الموت أخطر في حياة الإنسان من حدث الحياة، كمثل أول العام الدراسي، فأوله سهل، الفرص كلها واسعة ومفتوحة، تدرس أو لا تدرس، تهدر بعض الوقت أو تستغله، تنتبه أو لا تنتبه، تتشاغل، تكتب، تؤدي الواجبات، تهملها... هناك خيارات واسعة جداً، ولكن دخولك على قاعة الامتحان يترتب عليه النجاح أو الرسوب، الإكرام أو الإهانة، هنا ضاقت الخيارات.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آَمَنُوا)

الوجه المشرق ليوم القيامة:

لكن أيها الإخوة الأكارم، استبشروا، هذا كتاب إرشاد، ربنا عز وجل يعطيك الصورة المخيفة، ومعها الصورة المشرقة، قال:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً)

لننزلنهّم في جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا فيها متاعب، ولا خوف، ولا فيها قلق، ولا فيها كبر، ولا فيها مرض، ولا خصوم،

ولأعداء، ولا فيها مؤامرات على إنسان، لا يوجد أي شيء أبداً، بل فيها نعيم مقيم ! لنبوئنهم أي لنُنْزلنّهم.

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ

سؤال: مَن هم العاملون ؟

من هم العاملون الذين صبروا ؟ التكاليف كلها مكلفة، أمرك بغَضّ البصر، أنت بغَضّ البصر تعاكس شهوتك، أمرك بضبط اللسان، ضبط اللسان فيه كلفة، هذه حرام، هذه غيبة، هذه نميمة، هذه بهتان، هذه سخرية، هذه كلمة فاحشة، أمرك بضبط الأذن، وبضبط اليد.

الجواب: هم الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون:

فيا أيها الإخوة الأكارم.

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

صبروا على طاعة الله، وصبروا عن الشهوات، صبروا على المصائب، صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عند المصيبة، صبرٌ تكليفي، وصبر تكويني، أمر ونهي، تكليف وقضاء وقدر، فالصبر عند المصيبة هو صبر على أمر تكويني، والصبر على الطاعة، أو عن المعصية هو صبر على أمر أو نهي تكليفي.

(الَّذِينَ صَبَرُوا)

والصبر هو الإيمان كله !

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ ؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، قُلْتُ: مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ: طِيبُ الْكَلامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، قُلْتُ: مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ: الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ...))

(مسند الإمام أحمد)

الصبر أنك إذا جاءك شيء خارجي تتلقاه بالرضى، والسماحة البذل، فأنت إما أن تأتيك الأشياء من خارجك تقبلها، وترضى بها، وإما أن تبذل.

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

لا بد من الحركة:

ويا أيها الإخوة المهاجرون، يخاطب الله المؤمنين في مكة أن هاجروا.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال)

بربكم إذا فكر أحدكم، وفكر، وفكر، وقال: هذا المصباح متألق، ماذا فعل ؟ وماذا قدم ؟ هو متألق، إذا قال: هو منطفئ، ولكنه في الحقيقة هو متألق، وإذا قال: متألق، فهو متألق، هل أضاف شيئاً ؟ أردت من هذا المثل أن أقول لكم: إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ أقول لك: لن تفعل شيئاً إلى أن تأخذ موقفاً، إلى أن تنتهي عما عنه نهى، إلى أن تأتمر بما به أمر، إلى أن تعطي، إلى أن تفكر، لأن الإيمان مع سكون هذا ليس له جدوى، لا طعم له، لا يقدم ولا يؤخر، أنا مؤمن أن الله موجود، إن آمنت أو لم تؤمن الله عز وجل موجود فالأمر سيّان ! أنا مؤمن بالجنة، وهي في الحقيقة موجودة فعلاً، المشكلة ماذا فعلت ؟ حتى إن بعض الناس يحب من العلم غرائبه، وعجائبه، والقصص المثيرة، هذه ليس لها قيمة، الطُرَف، القراءات، القصص الرائعة، اللقطات، الشذرات، كتاب رائع جداً، ممتع مسلٍّ، هذا ليس له قيمة ! نقول له: فماذا صنعت في أصل العلم ؟ وأصل العلم أن تعرف الله، وأن تعمل عملاً من أجله ! ما الشيء الذي بذلته من أجله ؟ ما الشهوة التي ضبطها من أجله ؟ ماذا فعلت؟

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

إذا ما أخذت موقفاً، تقول: أنا لدي عواطف إسلامية رائعة، والبيت متفلّت، وغير منضبط ! ما قيمة هذه العواطف ؟ أنا لدي ثقافة إسلامية جيدة، ما قيمة هذه الثقافة ؟ أين التزامك ؟ أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فلذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

لا تتشاغل بما ضمنه الله لك عما افترضه عليك:

وأنا أنصح نفسي وإياكم أن تجيبوا عن هذين السؤالين: هل تعرف الله ؟ قل لي: نعم، ماذا صنعت في حقه ؟ هل تعرف الموت ؟ تقول: نعم، ماذا أعددت له ؟ هذان السؤالان لا ينبغي أن يفارقا مخيلتك، يجب أن يكون هذان السؤالان شغلك الشاغل ! فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)

فلا تخش الرزق.

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

(سورة الذاريات)

قبل أربعين عاما تقريباً كان هناك ثانوية في دمشق شهيرة جداً، فيها قسم ليلي، الآن الثانوية ليس فيها قِسمٌ ليلي، أما أنا فأعرف أنه كان فيها مهاجع في الطابق الثاني، وكان فيها مطعم كبير جداً، وقاعات مطالعات، وقاعات تدريس، ويوجد مطبخ وطباخون، وموظفون، وموجهون، وقائمون للمكتبة، وموجّهون ليلاً ونهاراً، هذا الطالب الداخلي ما مهمته الأولى ؟ أن يدرس، لذلك بعد الدوام هناك قاعة مطالعة، مكتبة ضخمة جداً، والطاولات مريحة، والإضاءة جيدة، ومطبخ في الساعة السابعة تماماً يقرع الجرس، ويذهب الطلاب إلى المطعم ليأكلوا، دققوا ! لو أن هذا الطالب ترك قاعة المطالعة، وترك القراءة والدراسة، وذهب إلى المطبخ يتفقد أعمال الطباخين، ماذا صنعتم، هل قشرتم البصل ؟ هل فعلتم كذا ؟ هذا عمل تافه.

أردت من هذا المثل أن أقول لكم: لا تتشاغل بما ضمنه الله لك عما افترضه عليك،

((خلقت لك ما في السماوات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك، عما افترضته عليك))

فرضَ الله عليك أن تعرفه، وأن تذكره، وأن تستقيم على أمره، وأن تطيعه، وأن تعمل الصالحات تقرباً إليه، وأن تقرأ كتابه، وأن تحضر مجالس العلم، وأن تفهم أمره ونهيه، وضمن لك رزقاً، فإياك أن تنشغل بطلب الرزق عما افترضه الله عليك !

الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ يروى أن حديثاً شريفاً غيّر مجرى حياته ! قال:

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[ورد في الأثر]

بمعنى أنك إذا سعيت إلى طلب العلم فالله سبحانه وتعالى يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب، لا أقول لكم: لا تسعوا ! اسعوا في مناكبها، ولكن بجهد معقول يأتيك أجر يكفيك، لذلك:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

ربنا يخاطب أهل مكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا بعد، إن خفتم أن تموتوا فالموت مصير كل إنسان، كائناً من كان، وإن خفتم أن يذهب الرزق فرزق الله مضمون، وهذان الشيئان إذا أيقنت أن حياتك بيد الله وحده، وأن الرزق بيد الله، تنتهي كل المشكلات !

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة العنكبوت 029 - الدرس (16-16): تفسير الآيات 61 - 69
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-01-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر والأخير من سورة العنكبوت، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

التناقض الفكري عند الكفار:

هذا السؤال أيها الإخوة لو سألت أي إنسان: من الذي خلق الكون ؟ لأجابك إجابة عفوية: الله سبحانه وتعالى ! كأن الله عز وجل من خلال هذه الآية يبين التناقض الفكري الذي يقع فيه الكفار، هم من جهة يؤمنون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، ومعنى خَلَقَ السماوات والأرض أي أن الأحوال التي تكون عليها الأرض بيد الله.

إذاً: الأمطار بيد الله، إنبات النبات بيد الله، الينابيع بيد الله، تكثير الحيوانات الأهلية بيد الله، أي الرزق بيد الله، والإنسان في أكثر اهتماماته معني بوجوده ورزقه، فإذا كان وجودك بيد الله، ورزقك بيد الله، فإلى أين تذهب ؟ كيف تنصرف عن الله إلى ما سواه؟ هذا سؤال كبير جداً.

إذا كان هناك واحد من أهل الدنيا يقر أن هناك إلهاً غير الله، هنا نناقشه، أما إذا كان كل إنسان يجيب إجابة عفوية على الفطرة أن الله هو الخالق، وهو الرب وهو المسيّر، خلق الكون وخلق الأرض، ومن لوازم الخلق خلق الأمطار، وأنبت النبات، وجعل هذا الجو، خلق الهواء، وخلق الماء، كل هذا الذي نحن نستعين به، أو تقوم عليه حياتنا إنما هو بيد الله.

فإذا آمن الإنسان أن الله هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر، وأن الإنسان قائم في وجوده على فعل الله عز وجل، فإلى أين يذهب ؟ مَن يعبد ؟ إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم، أخلُق ويُعبَد غيري، وأرزق ويُشكَر سواي، وُجودك ورزقك بيد الله عز وجل، إلى أين تذهب ؟ إلى أين تنصرف ؟ أية جهة تعبد ؟ هل من جهة في الكون كله مؤهلة أن تعبدها إلا الله عز وجل ؟ ولئن سألتَ هؤلاء الكفار المعرضين المكذبين، هؤلاء الذين ردوا دعوتك هؤلاء الذين سخروا من هذه الدعوة:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

عظمةُ القدرةِ: وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقمَرَ

الشمس والقمر:

لو أن الشمس انطفأت فجأة لأصبحت الأرض قبراً جليدياً ! لأصبحت الحرارة على الأرض ثلاثمئة وخمسين درجة تحت الصفر ! انتهت الحياة.

إذاً: ربنا عز وجل جعل هذه الشمس ضياءً لنا، ودفئًا لنا، وجعلها تنظيماً لحياتنا، وجعلها تعقيماً لها، لها وظائف صحية معقِمة، وهي تضيء لنا، وتدفئنا، وتنظم حياتنا.

طبعاً عن طريق الشمس، ودورة الأرض حول الشمس يكون الليل والنهار، نعلم عندئذٍ عدد السنين والحساب.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

الشمس مسخرة، والقمر مسخر، والكون كله مسخر لهذا الإنسان ! من باب أولى أن المسخَّر له أكرم من المُسَخَّرْ، فأنت أيها الإنسان سُخِرت لك السماوات والأرض، فأنت موجود في الدنيا لمهمة خطيرة، أعَرفْت هذه المهمة ؟ إن لم تعرفها فالندامة عظيمة !

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

لا قيمة لإيمانٍ لا تؤكده أعمال صالحة:

إذا آمنت بالله فما قيمة هذا الإيمان إن لم تؤكده الأعمال ؟ ما قيمة هذا الإيمان إن لم تترك هذا الشيء امتثالاً لأمر الله ؟ وإن لم تفعل هذا الشيء تنفيذاً لأمر الله، وإن لم تصل هذا الإنسان رغبة بما عند الله، تصل وتقطع، وتغضب وترضى، وتعطي وتمنع، وتأتمر وتنتهي، هذه من لوازم الإيمان بالله عز وجل، فمن لم يكن له عمل يجسِّد إيمانه بالله عز وجل فما قيمة هذا الإيمان ؟ ماذا فعلت أنت ؟ إذا كانت الشمس ساطعة، وقلت: إنها ساطعة، ماذا أضفت ؟ لو أنك قلت: إنها ليست ساطعة، لكن هي ساطعة، وإذا قلت: هي ساطعة، فهي ساطعة، ماذا فعلت ؟ لم تفعل شيئاً إن لم تأخذ موقفاً، هكذا قال الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(72 سورة الأنفال)

موقفُ الإنسانِ تجسيدٌ لإيمانه:

الموقف الذي تأخذه يجسّد إيمانك، وإلا فالإيمان غير كافٍ، كل منا يظن أنه مؤمن، ولكن المقياس الدقيق هو أن الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فلا قيمة له ! الإيمان الذي لا يحملك على أن تأتمر بأمر الله، وأن تنتهي عما نهى عنه الله، الإيمان الذي لا يحملك على أن تعطي امتثالاً لأمر الله، وعلى أن تمنع خوفاً مما عند الله من عقاب، الإيمان الذي لا يحملك على أن تتقرب إلى الله ما قيمة هذا الإيمان؟ العمر ثمين جداً، نحن في وقت عمل، في دار الحياة الدنيا هي دار عمل وانقطاع، فهي دار عمل وسوف تنتهي، والآخرة دار جزاء وخلود.

إنّ كل ثانية من حياتنا غالية جداً، وحتى لا يقع الإنسان في أوهام يظن أنه مؤمن، وهو ليس كذلك، نقول له: راجع نفسك، راجع حساباتك، حاسب نفسك حساباً عسيراً، حتى يكون حسابك يوم القيامة يسيراً، راجع أيامك يَوماً يوماً، هذا اليوم ماذا فعلت ؟ ما الشيء الذي قربني إلى الله عز وجل ؟ هل تعلمت علماً زادني قرباً من الله ؟ هل عملت عملاً زادني قرباً منه ؟ لا يرقى الإنسان إلا بشيئين: بالعلم والعمل، هل تعلمت شيئاً من كتاب الله؟ هل تعلمت شيئاً من حديث رسول الله؟ هل عرفت بعض الأحكام الفقهية الضرورية في تعاملك مع الناس ؟ هذا هو العلم.

ماذا فعلت بهذا العلم ؟ هل علمت هذا العلم ؟ هل بينته للناس، هل رعيت أرملة، هل رعيت مسكيناً ؟ هل عطفت على يتيم ؟ هل بررت أمك وأباك ؟ هل أحسنت إلى جيرانك؟

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه ضعف]

وجوبُ محاسبة النفس:

هذا الذي يجيبك عفواً، الله الذي خلقنا، هو يسأل سؤالاً كبيراً: ماذا فعلت من أجله؟ ما الذي يجسد إيمانك به بوجوده، وربوبيته وألوهيته، وبأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى؟ ماذا فعلت؟

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

كلام طيب، كلام مقبول، ولكن العمل لا يؤكده، الشيء الذي أتمناه على كل أخ كريم أن يعلم أن الله عز وجل ينظر إلى عمله، وإلى قلبه، أما شكله فلا ينظر إليه.

((إن الله لا ينظر إلى صوركم، وإنما إلى قلوبكم، وأعمالكم))

[مسلم عن أبي هريرة]

فلذلك على الإنسان أن يبادر إلى طاعة الله عز وجل، وألا يرضى بإيمان لا يحمله على طاعة الله، بل يمتحن إيمانه، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قال: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال]

من علامة المؤمن أنه يقلق ! كما قال بعض التابعين: " التقيت بأربعين صحابياً صاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم واحد إلا ويظن أنه منافق " ! أي يحاسب نفسه حساباً عسيراً، كيف عبادتي؟ هل هي كما يرضي الله عز وجل ؟ كيف صلاتي ؟ كيف كسبي للمال ؟ سؤال دقيق، هذا الذي يقول لك: لا تدقق، هو جاهل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

هذا الحديث الذي أتلوه عليكم كثيراً:

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، فيقال: خذوه إلى النار، أما الذي جمع المال من حلال، وأنفقه في حلال، يقال: هذا قفوه فاسألوه))

[ورد في الأثر]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

فأن تقول: أنا مؤمن، هكذا على الفطرة، بشكل عفوي، وليس في عملك، وفي كسبك للمال، وإنفاقك للمال، ولا في تجارتك، ولا صناعتك، ولا وظيفتك، ولا مهنتك، ولا حرفتك، ولا تعاملك مع أهلك وأولادك، وجيرانك والمسلمين ما يؤكد هذا الإيمان، فهذا ليس بالإيمان !

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

(مسند الإمام أحمد)

المؤمن قلق، يراجع نفسه، له ساعة يخلو بها مع ربه، له جلسة، يحاسب نفسه، فيه مخالفات، و فيه معاصٍ، كلمة قلتها ليست مناسبة، مبلغ من المال فيه شبهة، حساب معلق مع زيد، وحق معلق مع عبيد، هل عليّ أشياء لم أقم بها وهي من الواجبات الدينية ؟ هذا الحساب الدقيق من علامة المؤمن أنه يحاسب نفسه حساباً دقيقاً ؟

لا لازدواجية المعايير:

ربنا عز وجل يظهر لنا التناقض.

الحقيقة أيها الإخوة الأكارم، لو أن الإنسان سار في الطريق عارياً كما خلقه الله، أليس في هذا العمل جنون واضح ؟ ألا يظهر الإنسان بأبشع صورة لا يتمناها ؟ لو أنه سار في الطريق عارياً، هل تصدقون أن في الحياة العقلية والفكرية ما هو أبشع من أن تسير عارياً ! إنه التناقض، إنه ازدواجية المقاييس، أنت حينما ترى ابنك في محلك التجاري يُزمع أن يحمل شيئاً، فتصيح به: لا تحمل هذا من أجل ظهرك، أخاف عليك، فإذا كان عندك عامل، وحمل فوق طاقته، تقول له: أنت شاب احمل ! هذا التناقض أبشع من أن تسير عارياً في الطريق، تناقض فكري، أن تقيس الناس بمقياس، وأن تقيس نفسك بمقياس، إذا أصابتك المصيبة تقول: هذه ترقية، فإذا أصابت غيرك مصيبة تقول: هذا عقاب، من أدراك أنه عقاب ؟ هذا تناقض.

أن تعامل ابنتك بطريقة لا تعامل بها زوجة ابنك في البيت، هنا العطف والتسامح، والتساهل والشفقة، وهناك الحساب الدقيق، تناقض هذا أبشع من أن تسير عارياً في الطريق!

لذلك التناقض الذي ظهر هنا:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

كلام طيب وجيّد، إذاً لِمَ لا تطيع الله عز وجل لِمَ لا تأتمر بأمره ؟ لِمَ تطلق لشهواتك العنان ؟ لِمَ تكسب المال من هنا أو من هنا بلا حساب دقيق ؟ لِمَ لا تقوم بالعبادات كما أراد الله عز وجل ؟ هذا التناقض.

لذلك أيها الإخوة، ليحرص كل منا على أن لا يتناقض مع ذاته، ليكن صادقاً مع نفسه، إذا كان صادقاً مع نفسه أحبه الله، لا تستخدم مقاييس متعددة، استخدم مقياساً واحداً، قس نفسك، وقس الناس بميزان واحد، والله الذي لا إله إلا هو إنّ ميزانًا واحد لو طبقه الناس لاختفت كل مشكلاتهم: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وانتهى الأمر.

إذا كنت وراء طاولة في دائرة حكومية هل ترضى إذا كنت تراجع في قضية موظفاً، هل ترضى أن يهمل طلبك ؟ هل ترضى أن يسوّف طلبك ؟ هل ترضى أن يعقّد عليك الأمر ؟ هل ترضى أن يبتز مالك ؟ إذا كان هذا يؤلمك لا تفعل هذا مع الناس، وإن كنت مريضاً هل ترضى من هذا الطبيب أن يكبر عليك الأمر ؟ أن يوهمك بخطورة مرضك ليبتز مالك ؟ إذا كنت طبيباً فلا تفعل هذا، هل ترضى إذا أتيت إلى محام أن يوهمك أن دعواك رابحة، وهي ليست كذلك ؟ ليأخذ جزءاً من مالك ! فإذا كنت محامياً فلا تفعل ذلك.

قضية التناقض كما لو أن الإنسان سار عارياً، كيف أنه محتقر، يقال له: مجنون، وكذلك الذي يقيس الناس بمقياس، ويقيس نفسه بمقياس، يقيس أولاد الناس بمقياس، ويقيس أولاده بمقياس، هنا يعطي وهنا يمنع، هنا يبالغ في الرفاه، وهنا يقتّن، لا تستخدم مقياسين اثنين حتى يحبك الله عز وجل، هؤلاء المتناقضون قال تعالى عنهم:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

أين أنتم ذاهبون ؟ إلى من تلتفتون ؟ إلى من ترجون ؟ من تخافون ؟ هذا الذي يخشى غير الله، يرجو غير، الله يعطي لغير الله، يمنع لغير الله، هذا متناقض مع نفسه.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

صورٌ مِن عظمة الله عزوجل:

1 – إنزال المطر من السماء:

حينما تنحبس السماء، ينحبس ماء السماء، هل في الأرض كلها جهة مهما علت بإمكانها أن تصدر قراراً بإنزال المطر ؟ ألا ترى أن الناس جميعاً مفتقرون إلى الله عز وجل ؟ ما أرى واحداً في الأرض في سنوات القحط والجفاف إلا ويقول: يا رب أغثنا، كبير وصغير، وعالم وجاهل، وقوي وضعيف، يا رب أغثنا، ربنا يعلمنا، والنبي عليه الصلاة والسلام يؤدبنا، من أدب النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقول:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

ينبغي إذا كنت صحيح البنية، موفور المال أن تسجد لله عز وجل شكراً، لأنك إن لم تعرف هذه النعمة بوفرتها، فلا بد من أن تعرفها بفقدها.

2 – إحياء الأرض بعد موتها:

من نزّل من السماء ماء فأحيا بها الأرض بعد موتها ؟ هذه الأرض الميتة القاحلة، هذه الأشجار اليابسة، هذه التلال الجرداء مفتقرة إلى ماء السماء، من نزّل من السماء ماءً فأحيا بها الأرض بعد موتها ؟ أرض ميتة.

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ)

(5 سورة الحج)

فنبت الكلأ.

مرة قال لي أحدهم: نزلت أمطار كنا في أشد الحاجة إليها، قال: والله هذه الأمطار قيمتها عشرات الملايين، بل قريبا من ألف مليون ! قيمة هذه المطار في الوقت المناسب، لذلك فإن الإنسان يرى نعمة الله دائماً، لا يرى منخفضاً جوياً متمركزاً فوق قبرص باتجاه الشرق الأوسط، سرعته مئتان كيلو متر بالساعة، يرى رحمة الله متجهة للشرق الأوسط، لا يرى أن المنخفض عارض طبيعي، يرى أن إنزال الأمطار بيد الله، وأن حبسها بيد الله، وأن الله إذا حبسها لا يعني ذلك نقصاً في القدرة ولا عجزاً، ولكن تأديباً وعلاجاً.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزّلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنّ اللّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ)

على ماذا ؟ الآية هكذا:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ)

الحَمْدُ للّهِ على كل شيء:

وقف جائز بعدها، قال بعض المفسرين: الحمد لله على أن الحق واضح كالشمس، إذا كنت أنت مع الله معك الحجة والبينة، وؤلاء المعرضون هؤلاء البعيدون هؤلاء المكذبون لا يستطيعون أن يكذبوا الحقائق الكبرى، إنهم يصدّقونها، ولا يستفيدون منها، الحمد لله الذي عرفت الله، وسرت على أمره، الذي عرفت الله، واهتديت بهداه، الحمد لله هكذا.

أنت مع الحق، أنت إذا فكرت في هذا الكون وتلوت هذا القرآن وفهمت هذا الكتاب المقدس، وعرفت أن ما جاء به النبي من عند الله، هل تعلم من أنت ؟ أنت مع الحق الذي لا يتكرر، ولا يتعدد، حق واحد أنت معه.

الناس رجلان: مؤمن وغير مؤمن، فإذا كنت مع المؤمنين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إذا كنت مع من عرفوا الحقيقة الأولى والأخيرة **فـ:**

(قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

ولو عقلوا لعرفوا، ولو عرفوا لحمدوا، وما الإنسان إلا عقل يدرك، وقلب يحب، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، سنسميه كسبا كبيرا، لا يعدله كسب في الدنيا، أن تعرف الله عز وجل، وأن تهتدي بهديه، وأن تسير في طريق الجنة، هذا هو الغنى، هذا هو الفوز والنجاح والفلاح، هذا هو الغنى كما قال سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، كسب كبير.

((ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

كل شيء في الدنيا ينتهي بالموت:

تقول لي: أنا فقير، دخلي محدود، بيتي صغير، أو بالأجرة، وظيفتي سيئة، في بيتي مشكلات، لو أن المشكلات كلها اجتمعت على إنسان، وعرف الله، واستقام على أمره فهو الرابح الأول، ماذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه ؟ قال: **<< يا بُني، ما خيرٌ بعدَه النار بخير، وما شرٌ بَعْدَه الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية >>.**

كل المشكلات تنتهي بالموت، وما بعد الموت سعادة أبدية، وكل ما في الدنيا من مباهج تنتهي بالموت، وما بعد الموت شقاء أبدي، لذلك كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وكفاك سعادة أنك في طاعته، وربنا عز وجل يقول:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

(سورة القصص)

أهذا يوازي هذا ؟

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

ما من شيء أعظم عند الله عز وجل، وما من نعمة وهبها الله لك أعظم من هذا العقل، به ترقى، وبه تشقى، به تكسب، وبه تخسر، فمن أعمل عقله في معرفة الله وطاعته سعد به، ومن استخدم عقله في جمع المال فقط، أو في الإيقاع بين الناس، أو في جمع الناس حوله لتأمين مصالحه من دون أن يتقي الله عز وجل فهو الخاسر الأكبر.

فلسفة الحياة وحقيقتها: لهو ولعبٌ:

يا أيها الإخوة الأكارم، اسمعوا من الله عز وجل إلى توضيح لحقيقة الدنيا: إذا قرأ الإنسان القرآن لماذا يسعد ؟

لأن في القرآن الكريم فلسفة الكون والحياة والإنسان، هذه الآية من فلسفة الحياة وحقيقتها، الله سبحانه وتعالى واهب الحياة، خالق الكون يقول لك:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

كلمة (هذه) اسم إشارة، ومن معانيها التحقير، وما هذه الدنيا بمالها ونسائها، ومراكزها ومتعها، وشهواتها ومباهجها، وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو.

ما هو اللهو ؟!

ما هو اللهو ؟ الشيء الذي يشغلك عن شيء خطير، الشيء الحقير الذي يشغلك عن شيء خطير، هذا هو اللهو.

إذا جلس طالبان يلعبان الورق ليلة الامتحان ماذا نسمي لعب الورق ؟ نسميه لهواً، لأنهما ألهيا بشيء حقير عن شيء خطير.

إذا دخل إنسان ليشتري منك بضاعة بمئة ألف، وأنت انشغلت عنه بقراءة قصة سخيفة، قلت: ليس لدي وقت، فهذا لهو، الشيء الحقير إذا شغلك عن شيء خطير فهو لهو، الدنيا كلها بما فيها من مال، ومن بيوت فخمة، من مزارع، من مركبات، من نساء، من أطعمة وأشربة، من حفلات، من نزهات، من رحلات، من سرور ظاهري، من لذائذ، من متع رخيصة، من ملهيات، من مسلسلات، الدنيا كلها وصفها الله عز وجل بكلمة واحدة قال:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)

ما هو اللهو ؟!

ما هو اللعب ؟ الشيء الذي لا جدوى منه، لو فرضنا فريقان لعبا كرة القدم، وانتصر هذا على ذاك، ماذا فعل الأول ؟ وماذا فعل الثاني ؟ في الحقيقة كلها أشياء معنوية، الشيء الذي لا طائل منه، الشيء الذي لا جدوى منه، الشيء الذي لا هدف له، الشيء الذي ينقضي بانقضائه، ويزول بزواله، هذا اللعب، ربنا سبحانه وتعالى وصف الحياة الدنيا بصفتين: إما أن تشغلك عن شيء خطير، إما أن يكون الشيء حقيراً، ويشغلك عن شيء طير، وإما أن تعمل عمل لا فائدة منه، حركة طائشة، حركة بلا هدف.

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

وإنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ

الحيوان مصدر الحياة، حياة لا موت بعدها، شباب لا هرم بعده، لذة لا شقاء بعدها، الحياة الخالصة من كل نغص، من كل شائبة، من كل شيء مقلق.

(وَإِنّ الدّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

في قوله تعالى:

(وَمَا هَذِهِ)

اسم الإشارة هذا يعني التحقير، وليس ضمير فصل:

(وَإِنّ الدّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

الحيوان مصدر مبالغة للحياة، حياة لا نغص فيها، حياة لا هم فيها، حياة لا حزن فيها، حياة لا قلق فيها، حياة لا انقطاع لها، حياة لا خروج منها، حياة لا مزعجاً فيها.

(لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

لو علموا ما عند الله من سعادة أبدية لأقبلوا عليها.

مع تناقض آخر من تناقضات أهل الدنيا: الإخلاص في الشدة والشرك عند الفرَج:

الآن مع تناقض آخر من تناقضات أهل الدنيا:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ)

الآية بين منطوقها ومفهومها:

طبعاً الآية لها منطوق ولها مفهوم، الإنسان في حالة السراء، في الضيق، في المرض، في الفقر، عدو خطير يهدده، هم كبير يقلقه، مصيبة كبيرة تنزل بساحته، مرض لا ينيمه الليل مثلاً.

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

إذا أزيح عنه هذا المرض، أو زال عنه هذا الخوف، أو زال عنه هذه المصيبة يعود إلى شِرْكه، وإلى كفره، وإلى عناده، وإلى معاصيه، وإلى شهواته، هذا موقف مخزٍ في الإنسان، أن يعرف الله في الشدة، وأن ينساه في الرخاء، أن يعرفه في إقبال الدنيا، وينساه في إدبار الدنيا، أن يعرفه في المرض، وينساه في الصحة، أن يعرفه في الخوف، وينساه في الأمن، أن يعرفه في الفقر، وينساه في الغنى، أن يعرفه أمام مصيبة تقع به، وينساه إذا زالت هذه المصيبة، هذه الآية لها منطوق ولها مفهوم، ليس شرطاً أن

تركب سفينة وأن يهتاج البحر بك، وأن تصبح هذه السفينة كريشةٍ في مهب الريح، وتقول عندها: يا رب ليس لنا إلا أنت، لا، يشبه ركوب السفينة مرض، يشبه ركوب السفينة عدو يهددك، يشبه ركوب السفينة شيء مقلق، شبح مصيبة.

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

فلذلك يجب على الإنسان أن يعرف الله في السراء والضراء، وفي الصحة والمرض والغنى والفقر، والقوة والضعف، وفي كل أحواله وأطواره يجب أن يعرف الله.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

لغة التهديد: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ

هذه اللام لام الأمر، فإذا أمرك الله بشيء يكرهه لك فإنما هو يهددك، هكذا قال المفسرون، فإذا أمرك الله بشيء يكرهه لك فإنما هو يهددك، فاكفر بالله، وسوف ترى، وتمتع، ماذا قال سيدنا إبراهيم ؟

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة)

إذا رأيت إنساناً غارقاً في المعاصي والشهوات، وهو في بحبوحة، وهو في قوة، ويملك زمام الأمور، ويقول: أنا وأنا، فهذا شيء ليس مفخرة له، قال تعالى:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

بعضهم يقول: يا أخي، أهل الغرب هؤلاء غارقون في المعاصي، غارقون في الرذيلة، غارقون في الزنى، وفي شرب الخمر، وهم أقوياء، هم يفعلون ما يشاءون، هكذا يظنون، فأجبهم بقوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

أي اكفروا، أمر تهديد، من هو الفائز ؟ من هو الرابح ؟ من هو السعيد ؟ من هو الناجي ؟ من هو المفلح ؟ من هو المتفوق ؟ فسوف يعلمون، افعلوا ما شئتم وسوف تعلمون من هو الذي سيلقى عقاباً، ومن هو الذي سيلقى جزاءً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

نعمة الأمن في الحرم:

هؤلاء كفار مكة، ينعمون في بلد آمن من حولهم الناس يُتَخَطّفون، يُغار عليهم، تسلب أموالهم يعتدى على نسائهم، وهم في مكة آمنون مطمئنون.

(الّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

الذي وفّر لهم هذا البلد الآمن، يكفرون به، ويؤمنون بأصنام من صنع أيديهم، نحتوها بأيديهم، وينسبون لها كل خير ؟

إسقاط على واقعنا:

نحن ما علاقتنا بهذه الآية ؟ الذي منحك هذه الصحة، الذي أعطاك هذه الزوجة، هؤلاء الأولاد، هذا البيت تسكنه هذه الحرفة تعمل بها، هذه القدرات تكسب بها رزقك، هذا الإله العظيم تكفر به، وتعرض عن أمره ونهيه، وتقبل على إنسان لا يملك لك من الله شيئاً ؟ لا ينفعك، ولا يضرك، القرآن له منطوق وله مفهوم، له معنى متعلق بسبب نزوله، وله معنى واسع جداً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا حَرَماً آَمِناً وَيُتَخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرُونَ)

إيّاكم وكفر النعمة !!!

مانح الحياة، ومانح الوجود، مانح الصحة، ومانح هذه الأجهزة، هذا السمع، هذا البصر، هذا الفكر، هذا اللسان، هذه الأطراف، هذه الأصابع، هذه الأوعية، والشرايين، و الأعصاب، و العضلات، و القدرات، هذه الإمكانات، هذا البيت، هذه الزوجة، هؤلاء الأولاد، هذا الذي منحك كل هذه النعم تكفر به ؟ ولا تعبأ بأمره ونهيه، وتدير ظهرك لكتابه، وتقبل على إنسان ضعيف مثلك، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا حَرَماً آَمِناً وَيُتَخَطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً)

أشدُّ الناس ظلما الذي يفتري على الله كذبا:

أشد الناس ظلماً لنفسه، أشد الناس خسارة، أشد الناس ندماً يوم القيامة، من افترى على الله كذباً، يقول لك: الله لن يحاسبنا، افترى على الله كذباً، أو قال لك: لا تعرف، لعلك تطيعه طوال حياتك فيضعك في

جهنم، أهكذا الله عز وجل ؟ لعلك تعصيه كل عمرك فيضعك في الجنة، يقول لك: ليس هناك قاعدة، وهذا الكتاب أليس قاعدة ؟ هذا افترى على الله كذباً، أو افعل ما بدا لك، يفهم الشفاعة التي هي ثابتة في الكتاب والسنّة، يفهمها فهماً ساذجاً، افعل ما شئت، والنبي يشفع لك، هذا افترى على الله كذباً، أو أن الخمر ليست محرمة، الله أمرنا أن نجتنبها فقط، ولم يحرمها، هذا الذي يفتري عقيدة زائفة، يفتري حكماً باطلاً، يفتري توجيهاً مغلوطاً، هذا الذي يفهم القرآن فهماً خاصاً به بلا أصول، بقراءة عصرية، هذا الذي يفهم كتاب الله عز وجل فهماً خاصاً به، من دون دليل، من دون أصول:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُ)

إما أن يخترع شيئاً باطلاً يغطي به شهواته، وإما أن يرد الحق لا يقبله.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

وعيدٌ للمفترين:

هذا الجواب، هذا الذي يفتري على الله كذباً، أو هذا الذي يرد الحق إذا جاءه، هذا مصيره في جهنم.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِالْحَقّ لَمّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)

أما الآية المطمِئَنة الأخيرة في هذه السورة:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

وَالّذِينَ جاهَدُوا فِينَا

طاقته، نشاطه، تفكيره، وقته، خبرته، علمه، عضلاته، كل شيء يملكه أنفقه في سبيل الله، بذل غاية الجهد، بذل كل ما يملك فينا في سبيلنا في سبيل معرفتنا في سبيل طاعتنا في سبيل التقرب إلينا في سبيل نيل رضائنا.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

وقته، إمكاناته، ماله، صحته، مكانته، وجاهته، ذكاءه، معلوماته، كل عضلاته، كل خبراته، علمه، وحرفته، كل شيء بذله رخيصاً في سبيل الله، في سبيل معرفتنا، في سبيل طاعتنا، في سبيل التقرب إلينا، في سبيل نيل رضائنا.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)

أنواع الجهاد: جهاد النفس والشيطان وأعداء الله:

قال بعض العلماء: هناك ثلاثة أنواع للجهاد: أن تجاهد النفس والهوى، وهذا أعظم أنواع الجهاد، وأن تجاهد الشيطان، وأن تجاهد أعداء الله عز وجل.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

جائزة المجاهد في سبيل الله:

هؤلاء الله عز وجل يطمئنهم، لا بد من أن تصلوا إلينا، لا بد من أن نعينكم على طاعتنا، لابد أن نعينكم على بلوغ رضائنا.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

ابشروا، سبلنا هي السبل الموصلة إلينا، سبيل الطاعة، سبيل الرضوان، سبيل الجنة، سبيل السعادة، سبيل السلم، أن تكون في سلام مع الله، ومع الناس، سبيل الحمد، هذه السبل كلها لله، والسبل إلى الله كثيرة، سبيل لطاعته، سبيل لتقواه، سبيل لمرضاته، سبيل للفوز بجنته، سبيل لمحبة أنبيائه ورسله، سبيل لأن تسعد بقربه.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

معية الله للمحسنين:

بين المعية الخاصة والمعية العامة:

وهذه كما قلت في الخطبة اليوم: هذه المعية الخاصة، وفرق بين المعية العامة والخاصة، الله مع كل مخلوق، هذه المعية العامة، وهو معكم أينما كنتم، ولكن له معية خاصة، هو مع الصابر، مع المتقي، مع المحسن، مع المؤمن، معه بالنصر والتأييد، والتوفيق والحفظ، هذه المعية الخاصة ثمنها أن تكون محسناً مع من ؟ مع كل الخلق، بقولك محسن، بعملك محسن، بحرفتك محسن، بوظيفتك محسن، بتجارتك محسن، بصناعتك محسن، بكل شيء تفعله، في بيتك محسن، مع جيرانك محسن، مع الخلق كلهم محسن معهم.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

ومن السذاجة والغباء، وضيق العقل والحمق أن تظن أن معية الله تنالها بلا ثمن أو بثمن بخس.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة)

هذه معية الله عز وجل، فالإنسان لا يطمع بمعية الله بلا ثمن أو بثمن بخس سخيف، ألا إن سلعة الله غالية، وطلب الجنة من دون عمل ذنب من الذنوب.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

هذه الآية بشارة لكل مؤمن:

والله الذي لا إله إلا هو، هذه الآية وحدها فيها بشارة كبيرة لكل مؤمن، أيها المؤمن: مادام همك أن تعرفنا، مادام همك أن تطيعنا، مادام همك أن تتقرب إلينا، مادام همك أن تبذل كل شيء من أجلنا، فأبشر، فإنك سوف تصل إلينا، وتهتدي إلى سعادتك وجنتك، ومعية الله عز وجل ثمنها أن تكون محسناً.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

يجب أن تكون محسناً، يجب أن يفتقدك الناس إذا غبت عنهم، إذا دخلت البيت يجب أن يكون عند أولادك عيد، لأنك محسن، فإذا كنت قاسياً عليهم، فإذا كنت بخيلاً يتوخى الأولاد أن لا تكون بينهم، فكنْ محسنا في عملك، في دائرتك، في متجرك، في مصنعك، في دكانك، في زراعتك، في أي شيء، محسن مع الوالدين، مع الزوجة، مع الأقارب، مع الجيران.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا)

بذلوا كل جهدهم، كل طاقتهم، كل علمهم، كل خبرتهم، كل عضلاتهم، كل وقتهم، كل شبابهم فينا، من أجل معرفتنا، وطاعتنا، والتقرب إلينا.

(فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

سبل السعادة والسلام، والأمن والراحة والرضوان، والفوز والنجاح والفلاح.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

هذه الآية تكفي كل مؤمن، ولتكن في قلبه دائماً، ولتكن في ذهنه دائماً، وهي ختام هذه السورة الكريمة التي هي سورة العنكبوت، والحمد لله أولاً وآخراً.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس